مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّانِي والسّتّون

سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّاني والسّتّون

سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 8-02-640-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 8-02-640-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بَعدَ وصفِ المظهر الخارجيِّ انتقل إلى بَيان العِناد والاستعلاء

لمّا تَقدَّم في النَّظمِ الجليل فضحُ المنافقين والتَّحذيرُ مِن الاغترار بِمَظهرهم الخارجيِّ، أتبعه هنا بصفاتٍ أخرى تزيدُ فضائحَهم[1]؛ فالآية امتدادٌ لِما قَبلَها، فَبَعد وصفِ المظهر الخارجيِّ للمنافقين انتقَل إلى وصف عنادهم وغِلظَتهم مع الدَّعوةِ إلى الحَقِّ.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَوَّوۡاْ﴾: (لوي) أصلٌ يَدُلُّ على إمالةٍ للشَّيء. يقال: لوى يده يلويها. ولوى برأسه: أماله[2]. واللَّيُّ: فَتلُ الحبل، يقال: لَوَيْتُهُ أَلْويهِ لَيًّا[3]. ولَوى الرَّجلُ رأسَه وألْوَى برأسه: أمال وأعرض[4]، ولوى الشّيء فالتوى. وبلغوا مُلتوى الوادي: مُنحناه. ولوى يده وإصبَعَه. وكلَّمتُه فَلَوَّى رأسَه، ومنه: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾، فالمراد به هنا: أمالوها وعطفوها تكبُّرًا عن الحقِّ[5].

2) ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾: (كبر) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[6]، والكِبْر: التَّعاظُمُ والاتِّصافُ بِالعَظَمَةِ، يُقال: كَبُرَ،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (لوى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (لوى).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لوي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).

يَكْبُرُ، كِبَرًا، أي: عَظُمَ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ[1]، والكِبْرُ: الحالة التي يتخصَّصُ بها الإنسان مِن إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسانُ نَفسَه أكبَرَ مِن غيره، وأعظمُ التَّكبُّر: التَّكبُّرُ على الله بالامتناع مِن قبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة. والـمُتَكَبِّرُ: الْمُتَعالي والْمُتَعاظِمُ، كَبُرَ وتَكَبَّرَ عنِ الشَّيْءِ: إذا تَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ عنه[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: التَّكبُّر والامتناع عَن الإيمان[3].

3) ﴿سَوَآءٌ﴾: (سوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَيْنِ، يقال هذا لا يُساوي كذا؛ أي: لا يُعادِلُه، وهُم على سَوِيَّةٍ مِن هذا الأمر، أي: سواء[4]، واسْتَوَى الشَّيئان: تَماثلا، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه، لاستِواءِ المسافةِ إليه مِن الأطرافِ، والتَّسويَةُ: ضِدُّ الـمُفاضَلَةِ، وتأتي بِمعنى العَدلِ والإنصافِ[5]، والمرادُ به في الآية الكريمة: معتدلٌ ومُستوٍ عندهم الاستغفارُ وتَرْكُه[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استكبارُ المنافقين عَن طلب المغفرة وعقابُ الله لهم على ذلك

يُخبِرُ يُخبِر النَّظمُ الجليلُ عَن بعض أمارات هؤلاء المنافقين بأنَّهم إذا قيل لَهُم هَلُمّوا إلى رسول الله ﷺ ليطلُبَ لكم مِن رَبِّكُم الغفرانَ لذنوبكم لوَّوا رُؤوسَهم استكبارًا وعنادًا وزهدًا في الاستغفار[7]. ولا يقفون عند ذلك، بل يصُدّون ويُعرِضون لانطماس بصيرَتهم؛ لذلك مستوٍ عندهم طلبُ المغفرة لهم مِن الله وعَدَمُ طلبِها لِكُفرِهم بالله، فكان عقابُهم أنَّ الله تعالى لن يَعفوَ عَنهم ما داموا على نِفاقهم

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كبر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كبر).
(3) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 443.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 85.
(7) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 331.

وإصرارهم على الفِسقِ ورسوخهم في الكفر؛ لِأنَّ سُنَّةَ اللّه جَرَت بأنَّه لا يوفِّق للإيمان القومَ الكافرين الخارجين عن طاعته[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾:

أفعالُ المنافقين نوعٌ آخر مِن أنواع صفاتهم الذَّميمة

دَلَّت الواوُ على عطف الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، وذلك للتَّدرُّج في فضح أحوال المنافقين، والتَّشنيع عليهم، حيث انتقل مِن توصيفِ مَظهَر وصورة المنافقين إلى عرض موقفٍ عمليٍّ يكشف حقيقتَهم[2] ومدى استكبارهم وإعراضِهم عن الحقِّ، رغم وضوح الدَّعوة ورحمة النَّبيِّ ﷺ بهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة:

تصويرُ استمرار المنافقين على نفاقهم وكُفرِهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ لبيان التَّلازم بين الشَّرط وجوابه، فكُلَّما تَكَرَّر القولُ لهم بالحضور إلى النَّبيِّ ﷺ ليستغفر لهم استكبروا وأعرضوا. وهذا يصوِّرُ الاستمرارَ والإصرارَ على نفاقهم وكُفرِهم.

نُكتةُ الاشتراط بـ(إذا) دون (إن):

إعراضُ المنافقين مُحَقَّقٌ مُكَرَّرٌ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداة الشَّرط (إذا) دون (إن) في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾؛لأنَّها تأتي في مقام التَّأكيد لِما يُقطَعُ بِوقوعه، ولمّا كان الأمرُ يَتعلَّق بموقف المنافقين مِن إعراضهم عن الذَّهاب إلى رسول اللّه لكي يستغفرَ لهم، وهذا المسلَكُ يتكرَّرُ منهم على الدَّوام، وليس أمرًا نادِرَ الوقوع، ناسبَ أن يُعَبِّر بـ(إذا) دون (إن).

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 555.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 243.

دلالةُ بِناء الفعل ﴿قِيلَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

دعوةُ المنافقين لِطَلَبِ الاستغفار صادِرَةٌ عَن عموم المؤمنين

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفِعل ﴿قِيلَ﴾ المَبنيِّ للمفعول في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للتَّنبيه على أنَّ دعوة المنافقين لطلب الاستغفار لم تصدُر عن شخصٍ مُعَيَّن، بل صَدَرت مِن جماعةٍ مُتفرِّقَةٍ مِن المؤمنين، أو حَتَّى مِن بَعض المنافقين الّذين هداهم اللّه(1). وفائدةُ هذا الإبهام بيان أنَّهم تلقَّوا تلك الدَّعوة بصورةٍ مُكَرَّرة مِن أشخاصٍ كثيرين، وهذا يبيِّنُ شِدَّة إصرارهم على الكفر والنِّفاق؛ كما يُبَيِّنُ حِرصَ المؤمنين على توبة هؤلاء المنافقين مِن مقولتهم.

دلالةُ اللّامِ في قوله ﴿لَهُمۡ﴾:

الدَّعوةُ لطلب الاستغفار خالصةٌ لأجلهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (اللّام) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لِبَيان أنَّ تلك المقولَةَ قيلت لأجْلِهم نصيحةً لهم ودعوةً(2). فاللّامُ تبَيِّنُ أنّ المقصود بالقول والنُّصحِ هم المنافقون، وأنّ إيصال الدَّعوة لهم لا لغيرهم، وللتَّمييز بين استغفاره ﷺ العامِّ للمؤمنين، وبين هذا الاستغفار للمنافقين.

نُكتةُ تقديم شِبه الجُملة ﴿لَهُمۡ﴾:

تخصيصُ هذه الدَّعوة بهؤلاء المنافقين

قَدَّمَ النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾ وذلك للدِّلالة على تخصيص هذه الدَّعوة إليهم، فَكَأنَّ الخِطابَ لم يوجَّه إلاَّ إليهم، لبيانِ الاهتمام بتوبتهم. وفيه توجيهٌ لَهم إلى الخضوع والقَبول وتَركِ الاستعلاء عَن الذَّهاب إلى رسول اللّه ﷺ لطلب المغفرة.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باسمِ الفِعل ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 243.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 331.

طلبُ العُلوِّ إلى مقام التَّوبة والاستغفار

﴿قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ دونَ التَّعبيرِ بـ(ائتوا)؛ لأنَّ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ اسمُ فِعلٍ أمر يدُلُّ على الطَّلب مِن المخاطب بالحضور، وأصلُه مِن العُلوِّ، أي: السُّموُّ والارتفاع، يقال: تعالى النَّهارُ أي: ارتفع، فَقَولُهم في الأمرِ (تعال) مِن العُلوِّ؛ كَأنَّه قال: اصعد إليَّ؛ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قاله الذي بالحضيض لِلَّذي في عُلوِّه؛ فَكَأنَّه دَعاه إلى ما فيه رفعةٌ[1]. ولَمّا كانت مادَّتُه تَدور حَول الرِّفعة، آثَرَ التَّعبيرَ به دون الإتيانِ الذي يحمل معنى المجيء فقط، وهو غيرُ مناسبٍ لسياق الآية لأنَّ المراد: (اذهبوا إلى رسول الله واطلبوا منه أن يَستغفرَ لكم)[2].

وجاء التَّعبيرُ بصيغة الأمر لنصح المنافقين وإرشادهم أن يرتقوا ويعلوا عَن ظُلُماتِ النِّفاق والخداع إلى نور النُّبوَّة وشَرَف طَلَب الاستغفار منه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَسۡتَغۡفِرۡ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

طَلَبُ سَترِ الذَّنب وتَجَدُّدِ الرَّحمة

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاستغفار في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ دون التَّعبير بالتَّوبة لأنَّ الاستغفار مُقدِّمةُ التَّوبة، ومعلومٌ أنَّ الاستغفار يكون بطلب الدُّعاء أو بالتَّوبة، ولأنَّ مادَّته اللُّغَويَّة تَدُلُّ على سَتر الذُّنوب ومَحوها، بخلاف التَّوبة فإنَّها تَدُلُّ على النَّدم على فِعل الذَّنب وعدم العودة إليه، وهذا غيرُ متحقِّقٍ في المنافقين؛ فما ندموا على ما فعلوا، بل استكبروا وأصرّوا على أفعالِهم.

وجاء التّعبيرُ بالمضارع على صيغة الاستفعال للدّلالة على طلب المغفرة وتجدُّدها[3]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أمر المغفرة ليس بيد رسول الله ﷺ، بل يطلبها مِن رَبِّه، وهذا يَدُلُّ على حرصِه ﷺ عليهم، ورحمتِه بهم مع ما فعلوا مِن أفعالٍ شنيعةٍ.

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (علو).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 243.

(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 416.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (اللّام) في قوله جَلَّ شَأْنُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهي هنا دالَّةٌ على التَّخصيص، أي إنّه ﷺ يطلُب الغفرانَ لأجلكم خاصَّةً(1). وهذا مِن الحَثِّ والتَّرغيبِ بالاستجابة. وفيه التَّمييزُ بين هذا الاستغفار المخصوص للمنافقين وبين استغفاره ﷺ لعموم المسلمين كما ورد في بعض آيات القرآن مثل قوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]

طلبُ المغفرة لأجل المنافقين خاصَّةً

نُكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على الفاعل، ولَم يقل: (يستغفر رسولُ الله لكم)؛ وذلك للاهتمام بالمخاطَبين، وتعجيلِ البشارة لهم، فالغرضُ بيان الاهتمام بهم، والتَّلطُّفُ بهم في الدَّعوة، وفيه تعليمٌ للدُّعاة بأن يتلطَّفوا بالمدعوّين عمومًا وبالمذنِبين خصوصًا، دون نَظَرٍ إلى جُرم معصيتهم اقتداءً به ﷺ.

التَّلطُّفُ بالمذنبين ترغيبًا لهم بالتّوبة

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿رَسُولُ﴾ مَع دلالة الإضافة:

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بِلَفظِ ﴿رَسُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ دون لفظ (نبي)؛ لأنَّ الرسول أخصُّ مِن النَّبيِّ، والمقام هنا في طلب الاستغفار من هذا الجُرم العظيم الَّذي ارتكبوه في حَقِّه ﷺ؛ فَناسَب التَّعبيرُ بمقام الرِّسالة. كما فيه رَدٌّ على كَذِب المنافقين الّذين قالوا عن غير اعتقاد: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ فكان التَّعبيرُ هنا بالرِّسالة لإفحامهم، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ بإثبات رسالته.

تحقُّقُ المغفرة بتعظيم المستغفِر

وأضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ (الرّسول) إلى اسم الجلالة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للدِّلالة على عظيمِ قَدرِه وعُلوِّ مكانته،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 83.

فهو أقربُ الخَلقِ إلى اللّه وأشرفُهم وساطةً في المغفرة[1]، كما أنَّ استغفارَه لهم كافٍ لأن يكون سببًا في العفو والرّحمة.

تحريكُ الرَّأس إعراضًا واستكبارًا

تحريكُ الرَّأس إعراضًا واستكبارًا

سِرُّ التَّعبير بـ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾:

آثر النَّظمُ الجليلُ التَّعبير بقوله: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ دون (ينغضون) مع اشتراكهما في المعنى العامِّ في هزِّ الرَّأس وتحريكها للفرق بينهما؛ فاللّوي أصلٌ يدُلُّ على إمالة الشّيء؛ يقال: لوى الرَّجلُ برأسه: أماله[2] وألْوَى برأسه: أمال وأعرض[3]. فاللّوي فيه إعراضٌ وتكبُّرٌ.

أمّا النَّغضُ فأصلُه يَدُلُّ على هَزٍّ وتحريكٍ. والإنغاض: تحريك الإنسان رأسه نحو صاحبه كالمتعجِّب منه[4]. وأخذ يُنْغِض رأسه كأنَّه يستفهم ما يُقال له[5]. فالنَّغضُ هو حركة الرّأس للجواب، قال اللّه سبحانه: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ [الإسراء: 51] أي (يحرِّكون رؤوسهم كما نفعل حين نردُّ على سؤالٍ ما بدون النُّطق نُحَرِّك الرَّأس مِن الأعلى إلى الأسفل، وتعني: نعم، أو من الأسفل إلى الأعلى، وتعني: كلّا، أو لا)[6]. فاللّوي حركة الرّأس للإعراض والاستكبار، والإنغاض حركة الرَّأس للجواب والاستفهام والتَّعجُّب. فعَبَّرَ في الآية باللّوي لأنّه أراد بيان استكبارهم وإعراضِهم عن الدَّعوة إلى طلب الاستغفار مِن النَّبيِّ ﷺ.

أثَرُ تَعَدُّدِ القراءات في قوله: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾:

تعدَّدَت القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ﴾؛ فقرأ جمهورُ القُرّاء بتشديد الواو، وقرأ نافعٌ وروحٌ عن يعقوب بتخفيف الواو الأولى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لوى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نغض).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نغض).
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 15/ 51.

﴿لَوَوۡاْ﴾[1]؛ فوجه قراءة الجمهور في ﴿لَوَّوۡاْ﴾ بتشديد الواو، أنَّها مضاعف (لوى) للدِّلالة على الكثرة، وهذا يقتضي كثرةَ اللَّيِّ منهم؛ أي (لوى جمعٌ كثيرٌ منهم رؤوسهم)، وفيه دلالةٌ على أنَّهم فعلوا ذلك اللَّيَّ في غاية الشِّدَّة والتَّكبُّر والإعراض، وفيه إظهارٌ لِشِدَّةِ البُغضِ والكراهية مِنهُم لرسول اللّه ﷺ، وأمّا قراءةُ نافع وروح، فهي بتخفيف الواو مِن باب الاكتفاء بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة.[2]

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾:

المتكبِّر يلوي رأسه ويعرض عن الحقّ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بِلَيِّ الرّؤوس في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ كنايةً عن الاستكبار عن الدَّعوة، والاستخفافِ بالاستغفار وطلبِ التَّوبة، وكُلُّها صفاتٌ تنسجم مع ما بعده مِن قوله: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾. فَهُم يميلون رؤوسهم على سبيل الاستهزاء والرَّفض[3]، وهذا التَّعبيرُ كنايةٌ عن حركةٍ ملحوظةٍ مِن المنافقين في تعاملهم مَعَ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهي تحمل الاستكبار والإعراض.

دلالةُ الجمعِ في قوله ﴿رُءُوسَهُمۡ﴾:

اتِّفاقُ طبيعة المنافقين على التَّكبُّر والإعراضِ عن الحَقِّ

دلَّ التَّعبيرُ بالجمع في قوله: ﴿رُءُوسَهُمۡ﴾ على أنَّ المنافقين جميعًا في حالةٍ واحدةٍ مِن الاستكبار والإعراض عن طلب الاستغفار؛ فلا يوجَدُ فرقٌ بينهم مع تعدُّدِهم إلّا أنَّ طبيعتهم مُتَّفقَةٌ في الإعراض عن قبول طلب الاستغفار.

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ﴾:

استكمال الصّورة البغيضة للمنافقين

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 244.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 182.

﴿رُءُوسَهُمۡ﴾ بالواو العاطفة[1]، وذلك لاستكمال رسم الصّورة البغيضة الّتي يُظهِرونَها حال دعوتهم للتّوبة وللقدوم إلى النّبيِّ ﷺ وطلب الاستغفار. فيُظهِرون العناد مع التّكبُّر والغرور، حَتَّى يراهم الرّائي بعينه وهم على تلك الصّورة المنكرة[2].

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ﴾:

أظهروا كِبرهم حتّى أبصره كلُّ ناظرٍ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالرُّؤية في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾ دون غيرها كالإبصار مثلاً، لعموم الرُّؤية، فهي إدراكٌ للمرئيِّ، وتكون بالبصر أو بالقلب أو بهما معًا؛ لذلك كان التَّعبير بها مناسبًا للسّياق؛ لأنَّها تحتمل الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة؛ فهي رؤية عين لمشهد لَيِّ الرؤوس، ورؤيةُ قلبٍ للصُّدود، ولا سيَّما أنه نابعٌ مِن حقدهم على رسول اللّه ﷺ، والمراد بالخطاب كلُّ من يتأتّى منه النَّظرُ والرُّؤية بالعين، أي (ورأيتَهم يا من تراهم وتشاهدهم حينئذٍ)[3].

دلالةُ التَّعبير بالصَّدِّ مادَّةً وصيغةً:

إعراض المنافقين عن الحقِّ راسخٌ ومتجدِّدٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالصَّدِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾ دون غيره كالإعراض والتّولّي؛ لدلالة الصَّدِّ على شِدَّةِ المنع، والصَّرف عن الأمر[4]؛لأنَّ الصَّدَّ يَدُلُّ على إعراضٍ وعدولٍ؛ يقال صددتُ فلاناً عن الأمر: عدلتُه عنه. ولمّا كان الصَّدُّ بمعنى الإعراض والإنصراف وهما مناسبان لحالة المنافقين في تعاملهم مع رسول اللّه والمؤمنين؛ حيثُ كانوا يُعرِضون عن الرَّسول وينصرفون عنه ويمنعون النّاس مِن قبول الدَّعوة، جاء التَّعبيرُ بالصَّدِّ، فإنَّه بيانٌ لإعراضهم عن المؤمنين ومَن يدعوهم إلى الاستغفار[5]. وجاء

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 723.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 409.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 244.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(5) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 416.

التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدِّلالة على تجديدهم ذلك الصّدّ[1]. وتعبيرًا عن إصرارهم ورسوخهم في الكفر والاستكبار.

نُكتةُ حذف متعلَّق الصَّدِّ:

الإعـــراض عن الدَّعوة وعن كُلِّ خير

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعل ﴿يَصُدُّونَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ دون ذِكر متعلَّقِ الصَّدِّ، فحُذف ما يصدّون عنه، وذلك لظهور المعنى من السّياق، فهم يُعرضون عن القائل الّذي يدعوهم إلى الذّهاب للنّبيّ ﷺ لِطَلَبِ الاستغفار[2]. كما أنّه صالحٌ أن يكون دالًّا على عموم الإعراض، فهم يصدّون عن كلّ خير، ويُعرضون عن الدّعوة والحقّ والاستغفار، وكلِّ ما فيه صلاحهم.

دلالةُ الواو في صدر الجملة الاسميّة:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالواو في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لأنَّها للحال، أي: (رأيتهم صادّين مستكبرين عن الاعتذار والاستغفار)[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميّة:

تأكيد الاستكبار وثـــبـــوتـــه في المنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الاسميّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ دون التَّعبير بالفعليَّة فَلَم يقل: (وهم يستكبرون)، لأنَّ الجملة الاسميّةَ تَدُلُّ على ثبوت صفة الاستكبار ورسوخه في نفوس المنافقين، بخلاف الفعليَّة، فلا تؤدّي هذا المعنى المراد، وهو أنَّ الاستكبار أصبح صفةً ملازمةً لهم لا تنفكُّ عنهم[4].

دلالةُ التَّعبير بالاستكبار مادَّةً وصيغةً:

التَّكبُّر عن قبول الـحـقِّ صـفـةٌ راسخَةٌ في أهل النِّفاق

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاستكبار في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ لدلالة التَّكبُّر والاستكبار على الامتناع عن قبول الحقِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 149.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 84.

والإذعان لله تعالى بالعبادة[1]. وجاء التَّعبير بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على رسوخ الوصف فيهم[2]، فعبّر بذلك ليُظهر إصرارَهم على رفض التّوبة، وامتناعَهم عن طلب الاستغفار، لا عن جهلٍ، بل عن شعورٍ باطلٍ بالعزّة والزّهوّ؛ لأنَّهم لا يجعلون أنفسهم في محل الاعتذار، بل إنَّهم لِشِدَّة غلظتهم لا يُدركون قُبح ما فعلوا؛ لأنَّ الكِبر يُعمي صاحبه عن رؤية الحقِّ.

دلالةُ حذف متعلَّق ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

مَن استكبر على الله ورسوله، استكبر على قبول الحقّ بجميع صوره

حُذِف متعلَّقُ ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لإفادة العموم، فَهُم مستكبرون أن يتوبوا إلى الله ويُنيبوا إليه، ومستكبرون أن يأتوا رسول الله ليستغفر لهم، ومَن استكبر على الله ورسوله، استكبر عن قبول الحقِّ بكُلِّ صوَره.[3]

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

المنافقون ليسوا أهلًا للاستغفار

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ عمّا سبقها لأنَّها جملةٌ معترضةٌ سيقت لمناسبة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وتظهر بلاغةُ الاعتراض في وقوعها بين حكاية أحوال المنافقين[4]، لِتُنبِّهَ على أنَّهم قد بلغوا مِن العناد مبلغًا لا ينفع معه استغفارٌ ولا دعوةٌ. فجاء هذا الاعتراضُ ليقطع الطَّمعَ في توبتهم، وأنَّهم ليسوا بأهلٍ للاستغفار[5].

ويجوز أن تكون الجملةُ استئنافيَّةً مسوقةً لبيان حال المنافقين عند الله، مع الكنايةِ عن أمرِ الرَّسول ﷺ بالتَّوَقُّف عن الاستغفار لهم.[6]

(1) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 84.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 11/ 490.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 244.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 84 - 85.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 4/ 262.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿سَوَآءٌ﴾:

المساواةُ بينَ الاستغفار وعدمِه دلالةً على اليَأس مِن الهداية

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ﴿سَوَآءٌ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾؛لأنَّه في دلالته اللغويَّة يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بين شَيئَيۡن[1]، فهو دالٌّ على أنَّ الاستغفار وعدمَه مستويان في حَقِّهم، فلا ينفعُهم الاستغفارُ لإصرارِهم على النِّفاق، واستمرارِهم على الكُفر[2].

سرُّ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء (على):

تمكُّنُ المساوة فيهم يُؤكِّد انتفاءَ انتفاعهم بالاستغفار

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (على) في قوله جلّ شأنه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ دون (عند)، وذلك لملازمة حرف الجَرِّ (على) لكلمة ﴿سَوَآءٌ﴾ غالباً في القرآن الكريم، ولأنَّها حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء - والمرادُ الاستعلاءُ المجازيُّ - وذلك للدّلالة على تمكُّن وصف المساواة بين الاستغفار وعدمِه في شأنهم حتَّى تخلَّقوا به، فصار مجرَّداً من أدنى مَيلٍ وكُلفةٍ، فهو مجازٌ في التَّلبُّس والتَّمكُّن، أي سواء فيهم[3]. وذلك لتأكيد عدم انتفاعهم بالاستغفار لغلوِّهم بالكفر والخداع.

بلاغةُ التَّعبير بالاستفهام:

عدم مبالاة المنافقين بالاستغفار من عدمه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاستفهامِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، ولا يُطلَب به جوابٌ، إذ هو استفهامٌ مجازيٌّ جيء به للتَّسوية بين الفعل وتركه، فهو كنايةٌ عَن قِلَّةِ اعتنائهم بِكلا الحالين بقرينة لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾[4]، فالمعنى: لا فرق في شأنهم بين أن تستغفر لهم أو لا، فقد خُتم على قلوبهم، وارتفع الرَّجاءُ منهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 245.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 245.

سرُّ التَّعبير بصيغة الاستفعال:

طلبُ المغفرة وسَتْرِ الذّنوبِ من الله تعالى

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن المغفرة بصيغة الاستفعال في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ للدِّلالة على طلب المغفرة(1)، فطلبُ المغفرةِ مستوٍ مع عدم طلبه.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما ارتكبه بعض المنافقين في حقِّه ﷺ هو معصيةٌ للّه ربِّ العالمين؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالاستغفار بصيغة الاستفعال الَّتي تحمل معنى الطَّلب للإشارة إلى طلبه ﷺ مِن ربِّه أمرَ المغفرة؛ لأنَّ الخطأ في حقِّ رسول اللّه معصيةٌ للّه.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ﴾:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ﴾ موَجَّهٌ لرسول اللّه ﷺ؛ لأنَّه كان حريصًا على صلاحهم ويُحِبُّ أن يستغفر لهم، ورُبَّما ندَبَه إلى ذلك بعضُ أقاربهم.

دلالةُ التَّعبير بالماضي في قوله ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ﴾ للإعلان بأنَّ حرمانَ اللّه إيّاهم مِن رحمته متحقِّقٌ حَتَّى مع تحقُّقِ استغفار الرَّسول لهم، وفيه تشبيهُ الوجود بالعدم في عدم الجدوى.(2)

نُكتةُ حَذفِ متعلَّق ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ﴾:

المرادُ بالاستغفارِ التَّوبةُ مِن النِّفاق

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ متعلَّق الاستغفار في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ لدلالة السّياق عليه، إذ المراد به الاستتابة من النِّفاق، فيستغفر لهم، إذ كان استغفاره متسبّبًا عن طلبهم التّوبة(3)، فاكتفى بظهور المعنى دون التّصريح به إيجازًا في التّعبير. وفيه كذلك إعراضٌ عَن ذِكر النِّفاقِ لقُبحه وشناعته.

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 4/ 263.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 182.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾ في مواضعها الثّلاثة:

نفي بلوغ المغفرة واختصاصها عَمَّن لا يستحقُّها

عَدَّى النَّظمُ الجليلُ فِعلَ المغفرة باللّام الجارَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ في مواضعها الثّلاثة لدلالتها على الاختصاص، فالاستغفار أو تركُهُ موجّهٌ إليهم، والخطاب يخصُّهم، وفائدة التّكرار تأكيد المعنى. فتخصيص الاستغفار بهم لا ينفعهم، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ يدُلُّ على أنَّ حُكم عدم المغفرة خاصٌّ بهم وهم المقصودون به[1]. ويمكن أن تكون للتّعدية، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5][2]. فيكون أثر المغفرة واقعًا عليهم.

دلالةُ التّعبير بـ﴿أَمۡ﴾:

استوى الاستغفار وعدمه عند المنافقين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بـ﴿أَمۡ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ وهي هنا مُتَّصلةٌ معادلةٌ، فعطفت الجملة الثّانية على الأولى للتّسوية التّامَّة بينهما[3]. أي: (استوى عندهم الاستغفارُ وعدمُه، لكُفرِهم ونفاقِهم فلم يعتَدّوا بالاستغفار)[4].

بلاغةُ طباق السَّلب بين إثباتِ الاستغفارِ ونفيِهِ:

تساوي أمرِ الاستغفار وعدمه عند المنافقين دليلٌ على طمس القلوب

جمع النَّظمُ الجليل بين إثبات الاستغفار ونفيه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ على طريقة الطِّباق، وهو طباق السَّلب، فجمع بين تحقيق الاستغفار ونفيه للدّلالة على أنّ المساواة تامَّةٌ بين الفعلين، فلا تأثير للاستغفار على وجه اليقين. وذلك يبيِّنُ رسوخَهم في النِّفاق.

بلاغةُ جناس الاشتقاق من مادَّة الاستغفار:

تكرارٌ لفظيٌّ يكشفُ الإصرارَ على الكفر والاستكبار

جَمَعَ النَّظمُ الجَليلُ بينَ ألفاظٍ مِن جذرٍ واحد في قوله جَلَّ شأنُه:

---

(1) ينظر في معاني اللّام: ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 98.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 724.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 296.

﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾ فوَرَدت ثلاثةُ أفعالٍ من الجذر (غفر) على سبيل الجناس الاشتقاقيّ. وفائدةُ ذلك التَّنبيه على معنى الاستغفار والمغفرة، وهو يُفصح عن مدى إصرارِ المنافقين على نفاقهم إذ يُعانِدون طلبَ المغفرة مِن النَّبيِّ ﷺ.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾:

العقابُ الإلهيُّ للمنافقين

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾؛ لأنّها جملة مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لبيان الحكم الإلهيِّ على المنافقين، ووعيدهم يوم القيامة، ولِذِكر جزائهم على استخفافهم بالدَّعوة إلى طلب الاستغفار مِن النَّبيِّ ﷺ[1].

دلالةُ نَفيِ المغفرة بـ﴿لَن﴾ في قوله ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾:

إصرارُ المنافقين على كُفرهم أعقبَهم الحِرمان مِن مغفرة الرَّحمن

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ نَفيَ المغفرةِ بـ﴿لَن﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾؛ وذلك للدِّلالة على أنَّ انتفاءَ المغفرةِ لَهم مِن اللّه تعالى مُؤَكَّدٌ لا ينتقض، فهو بيانٌ لِما سَيَلقَون يوم القيامة مِن سوءِ المصير، جزاءً وِفاقًا لإصرارهم على الكُفر والضَّلال[2]. فهو نفيٌ للمستقبل مُؤَكَّدٌ ومُبالَغٌ فيه، والمُراد منه بيانُ شِدَّةِ كُفرهم ورُسوخِهم فيه[3]. وفيه تيئيسٌ للمنافقين مِن أن ينالوا مَغْفرةَ اللّه سواء أقبلوا إلى رسول اللّه ﷺ يطلُبون المغفرة، فاستغفَرَ لَهُم أو لم يستغفِرْ لَهُم؛ فإنَّ اللّهَ سبحانه لا يغفر لهم؛ لأنَّهم لم يجيئوا إلى النَّبيِّ ﷺ إلّا بطريق النِّفاق، ولم يتحدَّثوا معه إلّا بألسنة المنافقين. ومِمّا يُؤَكِّد ذلك التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ الَّذي يدُلُّ على عدم وقوع المغفرة لرسوخ النِّفاق في قلوبهم وزوال استعدادهم لقَبولِ الهداية بسبب فِسقهم وخروجِهم عن الفطرة السَّليمة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 245.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 332.

(3) العليميّ، فتح الرّحمن: 7/ 67.

نُكتةُ إظهار اسم الجلالة بَعدَ إضماره:

إظهارُ الاسم الجليل يُؤَكِّد الحُكم ويُعَظِّم الجزاء

أظهَرَ النَّظمُ الجليلُ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ بَعدَ إضماره فيما سَبَقَ في أفعال الاستغفار السّابقة، وذلك لتفخيم الحُكم بعدم مغفرته لهم، وتأكيد تَحَقُّقِه، فهو المَلِكُ الأعظم الَّذي يَحكُم ولا مُعَقِّب لِحُكمِه[1]، ولأنَّ التَّعبير باسم الجلالة فيه تربيةُ المهابة في القلوب لكسر استعلاء المنافقين.

سرُّ تَكرار شِبه الجملة ﴿لَهُمۡۚ﴾:

تكرارٌ يُؤَكِّد الاختصاص المنافقين للشَّفاعة

كرَّرَ النَّظمُ الجليل شِبه الجملة ﴿لَهُمۡۚ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ وذلك لتأكيد معنى الاختصاص وانتفاء فائدة الاستغفار، وتحقيق الحُكم بأنَّ الله تعالى لن يغفر للمنافقين ذنوبهم.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

لا يغفرُ الله لمستكبرٍ فَسَقَ عن الإيمان بالله وبرسوله

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا، سيقت لبيان عِلَّة انتفاء مغفرته تعالى لهم، وذلك لأنَّه حَرَمهم اللُّطفَ والعناية والتَّوفيق للهداية لِما أتَوا بما يوجب الغضب عليهم[2].

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تأكيدُ التَّعليل للقطع بالحُكم

أكَّدَ النّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بحرف التَّأكيدِ، وبالجملة الاسميَّة، وبتقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ، وذلك لمناسبة النَّفيِ المُؤَكَّد السّابق في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ فجاء الخطابُ مؤكَّدًا لبيان سبب انتفاء مغفرتهم المؤكّد[3]، فيأتي الكلام على نَسَقٍ واحدٍ مِنَ القوَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 245.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 86.

والتَّأكيد، ولأنَّ مضمون الخبر الوارد في الآية مِن الحقائق العظيمة الَّتي يلزمها التَّفخيمُ بأدوات التَّوكيد لِخَطَرها.

نُكتةُ إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

العليمُ الخبيرُ بما في قلوب المنافقين هو الّذي نفى عنهم الهداية

أظهر النَّظمُ الجليل اسم الجلالة في موضع الإضمار في قوله جلَّ شَأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دون أن يقول: (إنّه لا يهدي القوم الفاسقين)؛ لتأكيد انتفاء تحقّق الهداية للفاسقين، لأنّه تعالى هو المُطَّلع على ما في قلوبهم من استعدادٍ لقبول الهدى واستحقاقه[1]. فاللّه تعالى الّذي له صفات الكمال مِن العِلم والقدرة هو الّذي نفى الهداية عنهم فأنَّى لهم التَّوفيق.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المنفيّ: ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

الحرمانُ مِن الهداية حكمٌ لا يزول عن الفاسقين

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفِعل المضارع المنفيِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدِّلالة على تَجَدُّد النَّفي واستمراره، فهو تعالى لا يهدي الفاسقين على الدَّوام لِعِلمه أزَلًا بأنَّهم لن يخرجوا عن فِسقهم، بل ورسوخهم فيه.

دلالةُ حَذف مُتَعَلَّق الفِعل ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

لم يَذكُر القرآنُ الكريمُ مُتَعلَّق الفِعل ﴿لَا يَهۡدِى﴾ بأن يقول مثلا: (لا يهدي القوم الفاسقين إلى الإيمان)، لإفادة نفي عموم الهداية للفاسقين في أيِّ أمرٍ نافعٍ مِن أمور الدُّنيا والآخرة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقَوم في قوله: ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

رسوخُ الفِسقِ فيهم حتَّى أصبح مِن مقوِّمات هويّاتِهم

جاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بِذِكر لَفظِ القَوم دون أن يقول: (إن اللّه لا يهدي الفاسقين)،؛ لِبَيان أنَّ ما وُصِفوا به مِن الفِسق هو مِن الطِّباع الَّتي رَسَخت في قلوبهم وصارت سَجيَّةً لَهُم حتَّى عَدّوه مِن مُكَمِّلات قَوميَّتِهم،

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 416.

وصار الفسقُ هو القاسِمَ المُشترك بينهم جميعًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نَفيَ الهداية مخصوصٌ بقومٍ تَمَرَّدوا على الحَقِّ وفَسَقوا عن أمرِ رَبِّهم.

دلالةُ الإظهار ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ في مَوضعِ الإضمار:

جاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بإظهار لفظ الفاسقين دون الإضمار فَلَم يَقُل: (إنَّ الله لا يهديهم)؛ لبيان غُلوِّهم في الفسق والإشارة إلى عِلَّة الحُكم؛ أو للجنس وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوَّليًّا.[1]

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

الرّسوخ في الخروج عن الطّاعة هو العِلَّة في الحرمان مِن التَّوفيق

وصَفَ النّظمُ الجليلُ المنافقين بالفِسق في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دون غيره مِن الأوصاف التي سَبَق ذِكرُها، للدِّلالة على عِلَّة عَدَم استحقاقهم الهداية فَهُم خارجون عَن أسباب الصَّلاح والتَّوفيق لِما دَأبوا عليه مِن الكُفر والنِّفاق[2]، ولِأنَّ كُلًّا مِن المنافقين والكافرين والمستكبرين يَدخُل تحتَ وصفِ الفاسقين.[3]

وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدِّلالة على كمال الوصف فيهم وثباته، أي الكاملين في الخروج عن طاعة الله تعالى، المبالغين في الإسراف في معصيته[4].

دَفعُ تَوَهُّم التَّعارض بين هذه الآية وبين آية التَّوبة:

لا غُفرانَ للمنافقين، ولا مطمع فيه

دَلَّت آيةُ سورةِ المنافقون على عَدَم الغُفران للمنافقين مطلقًا؛ أمّا آيةُ التَّوبة: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 80] فَتوهم طَمَعَ المنافقين في المغفرة بَعدَ استغفار رسول الله لهم أكثَرَ مِن سبعين مَرَّةً، والجواب على ذلك أنَّه لا تعارُضَ بين الآيتين فَإنَّ آية المنافقين هي الآيةُ الأخيرة، بَيَّنت أنَّه

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 253.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 332.

(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 149.

لا يَغفرُ اللّهُ لَهُم على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهم كُفّارٌ في الباطن. ولأنَّ المقصود في الآيتين مختلفٌ؛ فآيةُ سورة التَّوبة نَزَلت في اللّامِزين، وهذه نَزَلت في ابنِ أُبَيٍّ وأصحابه، كما نطقتْ به الأخبارُ الصحيحة.[1] كما أنَّه لا مفهومَ للعدد كما هو مقرَّرٌ عند الأصوليّين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّوْيُ والإنغاض:

اللّوي أصلٌ يدُلُّ على إمالةٍ للشّيء. يقال: لوى يده يلويها. ولوى برأسه: أماله[2]. ولَوى الرَّجُلُ رَأسَه وألْوَى برأسه: أمال وأعرض[3]. والمراد به في الآية الكريمة: أمالوها وعَطَفوها تَكَبُّرًا عَن الحَقِّ[4]. فاللّوي فيه إعراضٌ وتَكَبُّرٌ.

اللّـوي حركة الرّأس تكبّرًا وإعراضًا، والإنغاض حركته للجواب والاستفهام والتَّعجُّب

أمّا النَّغضُ فأصلُه يَدُلُّ على هَزٍّ وتحريك. والإنغاض: تحريك الإنسان رأسَه نحو صاحبه كالمتعجِّب منه[5]. وأخذ يُنْغِض رأسه كأنّه يستفهم ما يُقالُ له، أي يحرِّكُه ويميل إليه. أَنْغَضَ رأْسَه إذا حرَّكَه إلى فَوقُ وإلى أسفلُ[6]. فالنّغض هو حركة الرّأس للجواب، قال اللّه سبحانه: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ [الإسراء: 51]. فاللّوي حركة الرّأس للإعراض والاستكبار، والإنغاضُ حركة الرّأس للجواب والاستفهام والتّعجّب. فعبّر في الآية باللّوي لأنّه أراد بيان استكبارهم وإعراضِهم عن الدّعوة إلى طلب الاستغفار من النّبيّ ﷺ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 113، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 10/ 296.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لوي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لوى).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نغض).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نغض).

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

[المنافقون: 7 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

بعدَ أن حَكَى النَّظمُ الجليلُ جُملةً مِن أقوالِهم الشَّنيعةِ وسلوكِهم إزاءَ دَعوَتِهم إلى طَلَب المغفرة مِن النَّبيِّ ﷺ أتبَعَه هنا بحكاية جُملةٍ أخرى مِن مَقولاتهم الَّتي يقولونها في مجامعهم، ويقصدون بها الإضرارَ بدعوة الإسلام، فكما أعرضوا عن طلب الاستغفار فإنَّهم يدعون إلى كَفِّ الإنفاق[1].

بعدَ أن أعرضوا عَـــن طـلـب الاستغفار دَعَوا إلى مَنعِ الإنفاق

ولمّا ذَكَر في الآية السّابقة إعراضَهم عن القُرب مِن رسول الله ﷺ انتقل إلى وصفِهم في هذه الآية بذكر فعلٍ قبيحٍ؛ ولونٍ آخر مِن نفاقهم، وهو كيدهم للمسلمين في سورة نصيحة للأنصار في دعوتهم عَدَمَ الإنفاق على المسلمين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَضُّواْۗ﴾: (فضض) أصلٌ يدُلُّ على تفريقٍ وتجزئةٍ. من ذلك: فضضت الشَّيء، إذا فرَّقته، وانفضَّ القومُ: تفرَّقوا[2]. وفضاض الشَّيءِ: ما تَفَرَّق منه عند كسرك إيّاه. وانْفَضَّ الشّيء، أي انكسر. وفضضت القوم فانْفَضّوا، أي فرَّقتهم فتفرَّقوا. وكلُّ شيء تفرَّق فهو فضض[3]. الفَضُّ: كَسرُ الشَّيءِ والتَّفريق بين بعضه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 246.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فض).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فضض).

وبعضه، كفَضِّ ختم الكتاب، وعنه استعير: انْفَضَّ القومُ. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11][1]. والمرادُ به في الآية الكريمة: تفرَّقوا[2].

2) ﴿خَزَآئِنُ﴾: (خزن): يَدُلُّ على صيانَةِ الشَّيءِ[3]، يُقال: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واخْتَزَنه: أَحْرَزه وجَعَلَهُ في خِزانةٍ. والخِزانةُ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ، واحِدَةُ الخَزائن[4]، والمَخْزَن، ما يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ[5]، وخِزانَةُ الرّجلِ قلْبُه، وخازِنُه لِسانه[6]، والمقصودُ بالخَزائِنِ في الآية: جَمعُ خِزانَةٍ، وهي الأرزاق[7].

3) ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾: (عزز) أصلٌ يدُلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهما، مِن غَلَبَةٍ وقهرٍ[8]. والعِزُّ: القوَّةُ والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ والرِّفعةُ والامْتِناع، وهو خِلاف الذُلِّ[9]، يقال: عَزَّ يَعَزُّ بالفتح: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّمِّ: إذا غَلَب وقَهَر[10]. وعَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ اللّه، وهو يَعْتَزُّ بفلان[11]. والمراد به في الآية الكريمة: الأقوى والأقدرُ على المنع[12].

4) ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾: (ذلل) أصلٌ يدلُّ على الخضوع والاستكانة، واللّين[13]. والذُّلُّ ضدُّ العِزِّ، وهو ما كان عن قَهرٍ[14]. يُقالُ: ذلَّ يذِل ذُلًّا، فهو رَجُلٌ ذليلٌ بيِّن الذُّلِّ والذِّلَّة والمَذَلَّة، وجَمْعُه أذلّاء وأذِلَّة[15]، ويقال: ذَلَّ وتَذَلَّلَ، أي: هانَ، وضِدُّهُ: الصُّعوبَةُ، يُقال: ذَلَّ الشَّيْءُ، أيْ: سَهُلَ

(1) الرّاغب، المفردات: (فض).
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 445.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خزن).
(4) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (خزن).
(7) العليميّ، فتح الرّحمن: 7/ 67.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عز).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عزز).
(10) النّحّاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(12) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 445.
(13) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذل).
(14) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلل).
(15) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذل).

ولانَ[1]، والذَّلَولُ: السَّهْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[2]، والذِّلُّ بالكسر: اللّين والطَّواعية والانقياد[3]. يُقالُ: ذلَّ يذِلُّ ذِلًّا، فهو ذلول، ويكون وصفًا للإنسان، والذَّكرُ والأنثى فيه سواء، وجمع الذَّلول ذُلُل[4]، والمراد به في الآية الكريمة: الأعجز عن النَّفع[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون لا يفقهون أنَّ الأرزاق بيد الله

يُخبر اللّه تعالى في هاتين الآيتين أنَّ هؤلاء المنافقين يقولون لأهل المدينة: لا تُنفقوا على أصحاب رسول اللّه من المهاجرين الفقراء كي يتفرّقوا عنه، ولكنَّهم جَهِلوا أنَّ الأرزاق بيد اللّه وحدَه، فله دون سواه خزائنُ السَّماوات والأرض، يُعطيها مَن يشاء ويمنعها عمَّن يشاء، ولكنَّ المنافقين لا يفهمون تلك الحقائقَ التي يعرفُها كلُّ أحد، ويقول هؤلاء المنافقون: إذا رجعنا إلى المدينة لَنُخرِجَنَّ نحنُ الأعزّاءُ مِن المدينة القومَ الأذلّاء، والحقُّ أنَّ العِزَّة للّه وحدَه ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، لا لِأحدٍ سِواهم؛ ولكنَّ المنافقين لا يعلمون ذلك، لِفَرَطِ جَهلِهم[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

فضحُ كيدِ المنافقين بَعدَ إعراضهم عن الاستغفار

فَصَلَ النَّظمُ الجليُل الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لِكَشفِ مَكرِهم وبَيان سوء نيّاتهم، وانتقالًا مِن وصف إعراضهم عن الاستغفار إلى وصف نوعٍ آخر مِن أعمالهم

---

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (ذلل).
(2) اللَّخميُّ، شرح الفصيح، ص: 110.
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ذلل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذل).
(5) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 445.
(6) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 555.

وكُفرِهم، وهو الكيدُ للدّين[1]. ويجوز أن تكون الجملةُ مستأنفةً جاريةً مجرى التَّعليل لِفِسقهم أو لِعَدَمِ مغفرة اللّه لهم.[2]

نكتةُ التَّعبيرِ بضمير ﴿هُمُ﴾:

إظهارُ النِّفاق وكَشفُ كيدِ المنافقين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن المنافقين بالضَّمير المُنفصل ﴿هُمُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دون الضَّميرِ المستتر: (الّذين يقولون)؛ وذلك لمعاملتهم بنقيض مقصودهم، فإنَّهم سَتَروا كَيدَهم ونِفاقَهم بإظهار النَّصيحة، فَفَضَحَ اللّهُ باطنهم بالتَّصريح بالضَّمير، كما أنَّ في إظهار الضَّمير تعريضًا بالتَّوبيخ. وجاء بصيغة الجمع ليعود على عبد اللّه بن أُبيٍّ ابن سلول وأصحابِه مِن المنافقين، وكأنَّ التَّعبيرَ بالضَّميرِ ﴿هُمُ﴾ يُشير إليهم، وفي هذا مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخٍ.

دلالةُ التَّعبير بالجُملة الاسميَّة:

تأكيدٌ للمعنى وتقويةٌ للتَّوبيخ

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دونَ الفِعليَّة لإفادةِ إثبات الخَبرِ الوارد ذِكرُه في الآية في دَعوةِ المنافقين للأنصارِ بِعَدَمِ الإنفاقِ على المهاجرين رضوانُ اللّه عليهم، وفي التَّعبير بها تأكيدٌ للمعنى وتقويةٌ للتَّوبيخ[3].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسم الموصول في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وذلك للدِّلالة على أنَّهم قد عُرِفوا بما في حَيِّز الصِّلَة، وشُهِروا به[4] لفضحهم به؛ وجاء بصيغة الجَمعِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع أنَّ القائل واحدٌ وهو عبد اللّه بن أبيٍّ ابن سلول، لكنَّهم لَمّا رضوا بقوله ووافقوه عليه فَكَأنَّهم قالوا هذه المقالة السَّيِّئة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 246.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 232.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 246.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 246.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

إخراجُ أقوالِهم المُنكَرَة في ثوب النُّصح مِن باب الخداع

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ(القول) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دون أن يُعبِّر بـ(الأمر) أو (النَّهي)، لأنَّ القولَ أعَمُّ، فيندرج تَحتَه الأمرُ والنَّهيُ، ولِكَي يكونَ قَولُهم على سبيل النُّصح والحرص على الأنصار بِعَدَم ضياع أموالهم على سبيل الخداع والتَّلبيس، وجاء بصيغة المضارع للدِّلالة على أنّ هذه المقالة متكرَّرةٌ مِنهم، فَهُم قالوا ذلك وما زالوا يقولونه مُستَمرّين عليه[1].

دلالةُ النَّهي في قولهم ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾:

طلَبُ الكَفِّ عن الإنفاق على أصحاب رسول اللهِ تضييقًا عليهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بأسلوب النَّهي في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ وهو دالٌّ على طلب الكَفِّ عن الإنفاق، وتقديم العَون لِمن كان عند النَّبيِّ ﷺ[2]. والمرادُ مِن ذلك تحريضُ وإبعادُ النّاس عن النَّبيِّ ﷺ. وفيه إشارةٌ إلى ما تُكنُّه قلوبُهم مِن البغضاء والحقد على المسلمين الذي ظَهَر في قوله: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

سِرُّ التَّعبير بالنَّهي عن النَّفقة دون الإطعام:

تعميمُ أنواع التَّضييق على الصَّحابة الكرام

جاء التَّعبيرُ بالنَّهي عَن الإنفاق على لسان المنافقين في قوله: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (لا تُطعِموا) لأنَّ الإنفاق أعمُّ، فيشملُ المالَ والطَّعامَ والشَّرابَ واللِّباسَ، وهُم يُريدون بذلك تجويعَ المهاجرين رضوان اللّه عليهم حتَّى يَنفَضّوا عن رسول اللّه ﷺ.

دلالةُ ضَمير الجماعة في قوله ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾:

توسيعُ الحصارِ على المهاجرين

دعا رأسُ المنافقين عبدُ اللّه بن أُبَيٍّ ابن سلول ومَن معه الأنصارَ بضمير الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 86.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 410.

ليوَسِّعوا الدّائرة فيدخلَ في هذا الكثيرُ مِن الأنصارِ في زعمهم، وبذلك يكون الأمرُ على العموم ليتّسع الحصارُ على المهاجرين، وهذا دليلٌ على خُبث المنافقين في تعاملهم مع المسلمين.

نكتةُ حَذفِ مفعول الإنفاق:

إفـادةُ العُـمومِ والشُّمولِ

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ مفعولَ فِعلِ الإنفاق في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ فلم يقُل: (لا تنفقوا أموالَكم)؛ ليشمل كُلَّ ما يُنفَق مِن الأموال وغيرِها مِمّا هو مَحَلُّ الإنفاق. فدَلَّ الحذفُ على العُموم والشُّمول.

نكتةُ تَعدية فِعل الإنفاق بحَرفِ الاستعلاء:

التَّكبُّر والتَّعالي مِن شيَمِ المُنافق

عَدَّى النَّظمُ الجليلُ فِعلَ الإنفاق بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ وذلك للدِّلالة على التفضُّل والتَّكَبُّر، فجعلوا إنفاقَهم منّةً وعطاءً مِن فوق، لا إحسانًا خالصًا، فيظهر بذلك احتقارُهم للمنفَق عليهم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَنۡ﴾:

شـمـولُ النَّهـي لِكُلِّ مُسلِمٍ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ دون (الّذين)[1] لأنَّه أبلَغُ في دلالة العموم مِن التَّعبيرِ بـ(الَّذين) فيشمل كُلَّ مَن كان عند النَّبيِّ ﷺ، فلم يكن النَّهيُ عن الإنفاق عَن أحَدٍ بِعَينه، بل عن كُلِّ مُسلِمٍ، بخلاف التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فإنه وإن أفاد العموم لكنَّه قد يُحمل على مجموعةٍ مِن الصَّحابة دون غيرها، وليس هذا قصدَ المنافقين، بل قصدُهم كُلُّ مَن آمن برسول الله رجالًا ونساءً، شيوخًا وأطفالًا؛ لأنَّ قَصدَهم هو الحصار والتَّجويع.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿عِندَ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِشِبه الجملة ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ في قوله

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 296.

جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ للدِّلالة على النَّفَر الَّذين كانوا في رعاية النَّبيِّ ﷺ، ويعنون بهم فقراءَ المهاجرين وغيرهم[1]، مثل أهل الصُّفَّة، ومَن كانوا يَلحَقون بالمدينة مِن الأعراب العفاة، أو فريقٍ مِن الأعراب كان يُمَوِّنُهم رسول الله ﷺ، وقَصْدُ المنافقين مِن وراء ذلك إبعادُ الأعراب عن تلقّي الهدي النَّبَويِّ وعن أن يَتَقَوَّى بهم المسلمون، وهذا دليلٌ على خُبث هؤلاء المنافقين وسوء نيّاتهم.

تخصيصُ المَنعِ بِمَن هُم في كَنَفِ النُّبوَّة

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

جاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بِوَصفِ الرِّسالة على لسان المنافقين في قوله: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّهم لا يعتقدون ذلك مِن باب التَّهكُّم، ويحتمل أن يكون قالوه مِن باب النِّفاق كما سَبَقَ في صدر السّورة ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ أو أنَّهم قالوا بلفظٍ آخر نحو: (محمَّد وأصحابه)، فغيَّرها الله ﷻ إجلالاً إجلالًا لنبيِّه ﷺ وإكراماً وإكرامًا له.[2]

تَهَكُّمُ المنافقين بالمسلمين، أو تمامُ خِداعِهم ونِفاقِهم

غَرَضُ إضافة الرَّسول إلى اسم الجلالة:

أضاف النَّظمُ الجليلُ لَفظَ الرَّسولِ إلى اسم الجلالة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ والمنافقون لا يُقِرّون بِنُبوَّة النَّبيِّ ﷺ وإنَّما قالوا ذلك على سبيل الهُزء؛ لأنَّه لو كان رَسولَ الله لأغنى أصحابَه وما احتاجوا إلى أن يُنفق النّاسُ عليهم[3].

الهُزْءُ بالرِّسالة مِن شناعات المنافقين

دلالةُ التَّعبيرِ بِـ﴿حَتَّىٰ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِـ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ وهي هنا مستعملةٌ في التَّعليل، فإنَّ المراد من النَّهي عن الإنفاق هو تفرُّقُهم وتَركُهم النَّبيَّ ﷺ[4].

غايةُ النَّهي التَّفريقُ والتَّفتيتُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 247.

دلالةُ التَّعبير بـ(الانفضاض) مادَّةً وصيغةً:

التَّفريقُ بُغية التَّهوين وإظهارِ الخذلان

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالانفضاض في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ دونَ التَّفَرُّق لِوُجود فَرقٍ بينهما؛ فأصلُ الانفضاضِ يَدُلُّ على التَّفريق والتَّجزئَة؛ ويُطلقُ الفَضُّ على كَسرِ الشَّيءِ والتَّفريقِ بَينَ بَعضِه وبَعضِه، ويُطلَقُ على تفريق حلقة مِن النّاس بَعدَ اجتماعهم، فَهو تَفَرُّقٌ مَذمومٌ؛ بخلاف (التّفريق) الَّذي يَدُلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين، فَهو يَدُلُّ في مادَّته اللُّغويَّة على الانفصال، ولهذا آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالانفضاض لدلالته على التّفرّق المذموم الَّذي فيه كسرٌ لوحدة الجماعة المتَّصلة برسول اللّه، وذلك بأن يذهب كُلُّ واحدٍ مِن الَّذين عنده إلى أهله وشُغلِه الَّذي كان له قبل ذلك[1].

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ﴾:

يَـدْعــون لِمَـنـع الإنفاق، والحالُ أنّ بـيـدِ الـلـه الأرزاق

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ الجملة بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي هنا للحال[2]، أي يقولون ذلك والحال أنَّ المُلكَ كُلَّه لِلّه تعالى، وليس لأحدٍ أمرٌ في شأن الرّزق، فهو تعالى الآمر النّاهي[3]. ويجوز أن تكون الواو عاطفةً على جملة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ إبطالًا لمكر المنافقين فيما قَصَدوه مِن قولهم المتظاهرين به أنَّهم قصدوا النُّصح وهم كاذبون.[4]

دلالةُ اللَّام في (لله):

المُـلـكُ المُطـلَـق والتَّصرُّف التّامُّ، لله المَلِك العَلّام

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (اللّام) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وهي هنا دالَّةٌ على الملك والتَّصرُّف، أي ملكهما والتَّصرُّفُ بهما للّه تعالى وحدَه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 87.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 726.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 88.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248.

نُكتةُ تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

قدَّمَ النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على المسند إليه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فلم يقل: (خزائن السَّموات للّه) وذلك للدِّلالة على أنَّ الأرزاق بيد اللّه تعالى على وجه التّخصيص، وفيه إبطالُ زعم المنافقين بأنَّ عَدَمَ إنفاقهم يُؤَدّي إلى انفضاض الفقراء عن النَّبيِّ ﷺ[1]؛ بل خزائنُ الأرزاقِ بيد اللّه تعالى يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فهو المتصرِّفُ وحدَه؛ يُؤَكِّد ذلك دخولُ اللّام على اسم الجلالة والّتي تَدُلُّ على قصر الأرزاق عليه سبحانه، وهو قَصرُ قلبٍ لِلازم قَولِهم لا لصريحه؛ لأنَّ المنافقين لمّا قالوا ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ حسبوا أنَّهم إذا قطعوا الإنفاق على أصحابه لا يجدون ما يقتاتون به؛ فأعلَمَ اللّهُ رسولَه مباشرةً وأعلَمَهم تبعًا بأنَّ ما عند اللّه مِن الرِّزق أعظمُ وأوسَعُ[2].

حَصْرُ الملك بيد اللـه ينقض أماني المنافقين

نُكتةُ التَّعبير بِلَفظِ ﴿خَزَآئِنُ﴾ وجمعها:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الخزائن في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دون غيرها، وذلك لتعدُّد المراد بها؛ فتُطلق على مفاتيح الرِّزق والمطر والنَّبات، وفي هذا دلالة على أنَّ الأرزاقَ كُلَّها بيده تعالى[3]، وتُطلق على مقدوراته سبحانه؛ لأنَّ فيها كلَّ ما يشاء مِمّا يريد تيسيره لرسوله ﷺ مِن زكوات المسلمين وغنائم الغزوات وما فتح اللّه به عليه من البلاد بخيراتها.[4]

وَفرَةُ الأرزاقِ بلا عَدٍّ، وتنوُّعُها بلا حَدٍّ

وجاء التَّعبيرُ بالجمع للدِّلالة على أنَّ جميع ما في السّماوات وما في الأرض بيده تعالى؛ فخزائِنُه متعدِّدةٌ، مِنها ما هو في السَّماء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 333.

ومنها ما هو في الأرض، ومنها الخزائنُ الظّاهرة، ومنها الخزائنُ الباطنة، وكلُّها تحت أمرِه سبحانه يُنفِقُ منها كيفَ يشاء[1].

فائدةُ إضافة (الخزائن) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تمام الإحاطة بأرزاق العباد مع الانفراد بالتَّصرُّف

أضاف النَّظمُ الجليلُ لَفظَ (الخزائن) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للدّلالة على سَعة خزائنه تعالى، فَهُما مُحيطان بِكُلِّ شَيءٍ[2]، فهو تعبيرٌ عن ملك اللّه تعالى لِكُلِّ شَيءٍ يحتاجه الإنسانُ مِن الطَّعام والشَّراب والمعادن، وكُلِّ ما يَتَصَوَّرُه وفيه منفعةٌ له مادّيَّةٌ أو معنويَّةٌ. ومِمّا يُذكَر في دلالة الإضافة أنَّه لَمّا كان حصولُ أكثَرِ الأرزاق من السَّماء والأرضِ جميعًا، ذَكَرهما معًا.

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض):

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لِعِظَمِها وسَعَتِها وشَرَفِها على الأرض.

نُكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ (الأرض):

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بِجَمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك للدِّلالة على كثرتها وتعدُّدها، كما أنّه يُشير إلى سعة خزائنه تعالى[3].

دلالةُ الواو في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الاستئناف لتقرير حقيقة جهل المنافقين

عبَّرَ النّظمُ الجليل بالواو في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وهي هنا للاستئناف[4]، وذلك لتقرير حقيقةٍ مُستقلَّةٍ بذاتها وهي جهلُ المنافقين، وجَعلُها في جملةٍ مستأنفة يُنَبِّه على هذه الحقيقة ويُقَرِّرها.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 333.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 333.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 88.
(4) محمود صافي، الجدول: 14/ 257، وجماعة من المؤلّفين، إعراب القرآن: 4/ 2465.

دلالةُ التَّعبير بـ(لكنّ):

رَفعُ تَوَهُّم العِلم وإثبات الجهل للمنافقين

عبَّرَ النّظمُ الجليل بحرف الاستدراك (لكنّ) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وذلك لرفع ما قد يقع مِن وهم مِن قولهم إذ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ بأنَّهم قالوه عن بصيرةٍ وحِنكةٍ وعِلمٍ ويقينٍ بأنَّ انقطاع إنفاقهم عنهم سيقطع رِزقَهم فينفضّون عنه، فأبطل الاستدراك بـ(لكنّ) ذلك الوَهمَ، فَهُم إنّما قالوا ذلك لجهلهم بأنّ الأرزاق بيد اللّه تعالى وقدرته، ولأنَّهم لا يُدركون دقائق الأمور وخفاياها[1].

دلالةُ التَّعبير بالإظهار دون الإضمار:

الإظهارُ يُؤَكِّد الحقيقة الرّاسخة

جاء التَّعبيرُ بإظهار لفظ المنافقين دون الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ للتَّسجيل على نفاقهم، ولِبيان عِلَّة الحُكم، وللتّصريح بصفتهم الّتي جاء السّياقُ لبيانها وكَشفِها، وجاء التَّعبير بصيغة اسم الفاعل للمبالغة في اتِّصافهم به، أي (العريقين في النِّفاق)[2].

نُكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفِعليِّ المَنفيِّ:

تأكيدُ الحرمانِ مِن الفقه ورسوخِه في المنافقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المُسنَدَ إليه على المسنَدِ الفِعليِّ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ وذلك لِتَأكيدِ الحُكم وتقويةِ الخَبر، فَهو يُبَيِّنُ أنَّ انتفاء الفِقه ليس مجرَّدَ وصفٍ عارضٍ، بل هو صَفةٌ مُتأصِّلَةٌ وراسخةٌ فيهم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

جَهلٌ لِدَقائق الأمورِ مُتَأصِّلٌ ومستمِرٌّ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالفقه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ لأنَّ الفِقهَ يُطلَق على فَهم المعنى المراد، فيُقال: (فَقُه الرَّجل) بالضمِّ والكسر، إذا فَهِم أو عَلِم، ولأنَّه يُطلَق على الوقوف على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 88.

المعنى الخَفيِّ، ولَمّا كان الأمرُ كذلك، آثر التَّعبير بنفي الفقه عنهم؛ للدِّلالة على أنّهم لا يُدرِكون دقائق الأمور وخفاياها[1]. وذلك لِجَهلِهم بشأن المال والرِّزق فَظَنّوا أنَّهم يمنعون الرِّزق عن فقراء المهاجرين إذا منعوا الإنفاق عنهم. وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على تجدُّدِ النَّفي، فانتفاءُ فِقههم مُتَجدِّدٌ دائِمٌ لا يفارقهم.

نُكتةُ حَذفِ المفعول:

لا يفقهون تدابير الله في ملكه

حذَفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ (الفقه) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ للعلم به من السّياق؛ إذ المعنى: (لا يفقهون تدابير الله تعالى في ملكه، وأنَّ الأرزاق بيده تعالى). وهو مضمونُ قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فلذلك يقولون من مقالات الكُفر والضَّلال ما يقولون[2]. ويجوز أن يُنَزَّل الفعلُ منزلة اللّازم مبالغةً في انتفاء فقه الأشياء عنهم في كُلِّ حال.

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

ادّعاؤُهم العِزَّةَ كاشِفٌ لجَهالتهم

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجُملَةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل فقال: لِمَ كانوا لا يفقهون؟ فقيل: لأنَّهم يقولون ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾[3]. ويجوز أن يكون الاستئنافُ لبيان خُبث نواياهم في إفساد أخلاق الأنصار في علاقتهم بالمهاجرين ببثِّ بذور الفتنة والشِّقاق.

دلالةُ التَّعبيرِ بِ(القول) مادَّةً وصيغةً:

تصويرٌ لتجاذُبِ المنافقين أنواعًا مِن الكلامِ المتجدِّدِ الضّارِّ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالقول دون غيره؛ لأنَّه أعَمُّ، فَيَشمَلُ الكلامَ الظّاهرَ والكلامَ النَّفسيَّ، لأنَّ طَبيعةَ المنافقين تَقوم على الإخفاء لِما يضمرونه للمسلمين، وفيها تصويرٌ لِحالَةِ تَجاذُبِ أطرافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 253.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 232.

الحديثِ الَّذي يدور بينهم، فيقول بعضُهم لبعضٍ هذا القَولَ، وهو وإن صدر مِن عبد اللّه بن أبيٍّ ابن سلول إلّا أنَّهم وافقوه عليه، ويُؤَكِّد ذلك التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ وذلك لتصوير المشهد واستحضار الحالة البغيضة[1]. كما أنَّه دالٌّ على التَّجديد والاستمرار.

دلالةُ التَّعبير بالجمع في ﴿يَقُولُونَ﴾ مع أنَّ القائل واحدٌ:

أسنَدَ القرآنُ الكريمُ القولَ إلى جميع المنافقين في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ مع أنَّ القائل كبيرُ المنافقين ابنُ سلول، لأنَّه كان رئيسَهم وصاحبَ أمرِهم وهُم راضون بمقولته، فَرِضاهم بهذه المقولة جَعَلَهم في حُكم قائلها.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَئِن﴾:

تأكيدُ الأمرِ وتظاهُرٌ بالقوَّة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باللّام في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهي هنا موَطِّئَةٌ لِلقَسَم، مفيدةٌ لِلتَّأكيد[2]. وإنَّما أكَّدوا كلامَهم لِعِلمِهم أنَّ أكثرَ قَومِهم يُنكرون هذا القول[3]. وممّا يُذكَر في دلالة اللّام أنَّها تُعَبِّر عن حالة خَوفِهم وضَعفِهم؛ فأتَوا باللّام لِيُبرزوا صورة القوَّة في تنفيذ ما يقولون مَعَ أنَّهم جبناء ولا يملكون تنفيذ ما يقولون لِحُبِّ الأنصار لرسول اللّه.

دلالةُ التَّعبير بـ(إن) دون (إذا):

الحَزمُ والعَزمُ ليس حقيقيًّا في سلوك المنافقين

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداة الشَّرط (إن) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وهي دالَّةٌ على الاحتمالِ والشَّكِّ[4]. والتَّعبيرُ بأداة الشَّكِّ والاحتمالِ يَكشِفُ عن تناقُضٍ داخِليٍّ؛ وذلك أنَّهم يُؤَكِّدون كلامَهم بالقَسَم فَيُظهرونه مَظهَرَ الواثق القَويِّ، ولكنَّهم يُعَبِّرون عن شرطِهم بما يَدُلُّ على

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 410.

(2) جماعة من المؤلّفين، إعراب القرآن: 4/ 2465.

(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 296.

(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريُّ الجامع: 28/ 92.

الاحتمال وعَدَم اليقين، وهو تعبيرٌ عن ضعفِهم ونفاقِهم لِما رَأوا مِن نُصرةِ اللّه لِنَبيِّه في هذه الغزوة.

العودُ إلى الموئل مظنَّةُ القوَّة للضَّعيف

سِرُّ التَّعبير بـ(الرُّجوع) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالرُّجوع في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ دون العود لأنَّ الرُّجوعَ يَختلف عن العود، لدلالته على العَود إلى ما كان منه البدء[1]، مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه أو بِجزءٍ مِن أجزائِه أو بِفعلٍ مِن أفعالِه؛ بخلاف العَود فإنَّه يُطلَقُ على الرُّجوع إلى الشَّيءِ بَعد الانصراف عنه إمّا بالذّات أو بالقول والعزيمة، وعلى هذا فالرُّجوعُ أَعَمُّ مِن العود؛ لذلك آثر التَّعبيرَ به، ولأنَّ بَدْأ خروجهم كان مِن المدينة المنوَّرة فإنَّ عودهم إليها هو رجوعٌ، أي إذا رَجعْنا مِن غزوة بني المصطلق، وعُدنا إلى بلدنا المدينة المنوَّرة[2].

وجاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي ليُطَمئِنوا أنفسَهم ويُزيلوا خَوفهم مِن عدم العودة لسببٍ أو لآخر مِن انكشاف أمرِهِم وفضح مواقفهم؛ فأرادوا أن يُطَمئِنوا أنفسَهم في عودتهم إلى المدينة بالفعل الماضي.

ادِّعاءُ الاستحقاقِ والسُّلطةِ الموهومة

دلالةُ التَّقييد بشبه الجملة:

قَيَّدَ النَّظمُ الجَليلُ الرُّجوعَ بشبه الجملة ﴿إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ للدّلالة على مكان الرُّجوع، وأفاد حرفُ الجَرِّ ﴿إِلَى﴾ منتهى الغاية، والمدينةُ هي بلدتهم المعهودة، وهي يثرب[3]. ودَلَّ تقييدُ الفِعل بشبه الجملة أنَّ الإخراجَ مِن المدينة لن يكون إلّا بَعدَ انتهاء الرُّجوع إليها. وهذا يُفصِحُ عن شعورهم بأنَّ المدينة ملكٌ لهم، وأنَّها موطنُهم أصالةً، وهذا يمنحهم قوّةً ونفوذًا،

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 726 - 727.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 249.

فيرون أنَّ هذا يعطيهم استحقاقَ إخراج مَن يرونهم أذِلّاء. فيظهر عُتوُّهم وغرورُهم سافرًا.

نُكتةُ توالي المؤكّدات في ﴿لَيُخۡرِجَنَّ﴾:

العُتوُّ والتّكبُّر والثِّقةُ التّامّةُ بالنَّفس

أكَّدَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ باللّام والنّون الثَّقيلة وذلك لإبراز إصرار المنافقين على إخراج النّبيّ ﷺ والمهاجرين من المدينة[1].

وفيه إشارةٌ إلى إظهار ثقة جماعة المنافقين، وعلى رأسهم عبد اللّه بنُ أبيٍّ ابن سلول مِن تنفيذ هذا القرار، وأنَّه لا توجد له مُعَوِّقات لِغَلبتهم وقوَّتهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخروج في قوله ﴿لَيُخۡرِجَنَّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تَوَهُّمُ المنافقين أحقّيّةَ إخراجِ الرَّسولِ والمؤمنين

دلَّ التَّعبيرُ بالخروج في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ على أنَّ المنافقين صمَّموا على عَدَم مُساكنة المؤمنين في المدينة، وأن يجبروا المسلمين أن يعودوا إلى مواطنهم الّتي خرجوا منها، وجاء التَّعبير بصيغة المضارع للدِّلالة على شِدَّة إصرارهم على تنفيذ ذلك، وإن وجدت مُعَوِّقات، فلن يَمَلّوا تنفيذ ذلك.

وفي التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ دون التَّعبيرِ بقوله: (لنُخرجنَّهم) إشارةٌ إلى الاستعلاء والكراهية الموجودة في نفوس المنافقين بالتَّعبير عن أنفُسِهم بالأعزّاء وعن المؤمنين بالأذلّاء؛ فكَأنَّ منطقَهم مبنيٌّ على أنّهم أصحاب العزَّة، بخلاف التَّعبير بقوله: (لنخرجنَّهم) فإنَّه يحمِل معنى الاعتداء والتَّجاوز، أو مِن باب أخذِ حقوقهم المسلوبة، وهذا وذاك غيرُ مُرادٍ.

دلالةُ تعريف لفظَي ﴿ٱلۡأَعَزُّ﴾ و﴿ٱلۡأَذَلَّۚ﴾:

عَرَّفَ النَّظمُ الجَليلُ لفظَي ﴿ٱلۡأَعَزُّ﴾ و﴿ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ بالألف واللّام

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريُّ الجامع: 28/ 92.

العزّة الزائفة لا سبيل لبقائها

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وهي هنا لتعريف الجنس، فيُراد بالأعزّ الأنصار؛ فإنَّهم أهلُ المدينة، وأكثرُ أموالًا وعددًا من المهاجرين، وأرادوا بالأذلِّ جماعةَ المهاجرين، أي لَيُخرِجَنَّ الأنصارُ مِن مدينتهم المهاجرين[1]، وقولُهم هذا بمنطق الجاهليَّة والعصبيَّة المذمومة الَّتي جاء الإسلام بالنَّهي عنها.

سِرُّ التَّعبير بالأعزِّ دون غيره:

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بوصف الأعزِّ حكايةً لقول المنافقين في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾؛ لأنَّ الأعزَّ عندهم مَن تتوفَّرُ لديه أدواتُ الغلبة مِن سَعة المال وكثرة العَتاد، وهُم يَرون أنفُسَهم كذلك.

دلالةُ التَّعبير بـ(مِن) في قوله ﴿مِنۡهَا﴾:

إثارةُ الفوضى وعدمِ الاستقرار في المدينة أُمنيَّةٌ للمنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (مِن) في قوله جَلَّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ وهي هنا للابتداء، أي لنخرجنّ المهاجرين من المدينة[2]، والمراد أنّ الإخراج سيبدأ مِن داخل المدينة، لأنَّ المهاجرين قد استوطنوا المدينة ويعيشون داخلها. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يقصدون مركز المدينة وعاصمتها لا الأماكن المجاورة حولها، لأنَّ المدينة هي مقصدُهم، والإخراج منها إخراجٌ لِما حولها.

نُكتةُ تقديم شِبه الجملة:

الإخـــــراج مِـن المـديـنـــة هـو مقصود المنافقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليل شِبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ فلم يقل: (الأعزُ الأذلَّ منها)؛ وذلك للاهتمام بالمكان، إذ المقصودُ الإخراجُ مِن المدينة[3]، وذلك لأنّه ليس للمنافقين مِن حُجَّةٍ سوى أنَّ المدينة بلدُهم أصالةً، فاهتمّوا بتقديم ذِكرِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 249.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 296.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 417.

بلاغةُ الطِّباق بينَ الأعَزِّ والأذَلِّ:

الـكـشـفُ عن انحرافِ القيَم في نفوس المنافقين

جَمَعَ النَّظمُ الجليلُ بين لَفظَين متضادَّين في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ على سبيل الطِّباق بينهما، فوَضَعَ الأعزَّ في مقابل الأذلِّ لِشِدَّةِ التَّناقُض بينهما، وهذا يُبرز المعنى مِن خلال التَّضادِّ.

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾:

إبطالُ ما زعموه مِن العِزَّة وإثباتُ اختصاصِها باللهِ تعالى ورسولِه والمؤمنين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالواو في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهي هنا للحال، أي (نَسَبوا العِزَّة لأنفُسِهم والذُّلَّ للمؤمنين، والحالُ أنَّ كُلَّ مَن له نوعُ بصيرةٍ يَعلَمُ أنَّ المَلِكَ الأعلى هو الَّذي له وحده العزّةُ والغلبةُ والقوَّةُ، ولِمن أعَزَّه اللّه تعالى مِن رسولِه ﷺ والمؤمنين)[1]، وفيه إبطالٌ لكلامهم وتكذيبٌ لَهم فيما ادَّعَوه[2].

دلالةُ اللّام في ﴿وَلِلَّهِ﴾:

العـزَّةُ مختصّةٌ بـالـلّـه تـعـالى وحده

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحَرفِ الجَرِّ (اللّام) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ وهي هنا لامُ الاختصاص، أي: العِزَّةُ خالصةٌ لِلَّه وحدَه، مِلكًا وتصَرُّفًا، لا يشاركه فيها أحدٌ إلّا مَن أكرَمَه اللّهُ بالعزّة تبعًا لعزّته تعالى، وهُم رسولُه والمؤمنون[3].

نكتةُ تقديمِ شِبه الجملة على المسند إليه:

قَـصـرُ الـعِـزّةِ الـكـامـلـة عليه سبحانه

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبه الجملة على المسند إليه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ فَلَم يقُل (والعزّة للّه) وذلك للدِّلالة على الحَصرِ والقصر، أي إنَّ العِزَّةَ له وحده تعالى لا لغيره[4]، وهو قصرُ قَلبٍ؛ لأنّهم حَسِبوا أنّ العِزَّةَ لَهم لِما لَهم مِن كَثرةِ عَددٍ وقوَّةٍ، والمعنى: (العزّة للّه ولرسوله وللمؤمنين وليس لكم كما تحسبون)[5].

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 296.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 411.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 253.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 334.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الجليلُ العِزَّةَ بالألفِ واللّامِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ وهي هنا لتعريف الجنس، أي إنّ العزّةَ كلَّها للّه تعالى وحدَه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالعِزَّة:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعِزَّة لأنَّها تعني الغلبة والغنى الَّذي لا فَقرَ معه، وفي ذلك دعوةٌ للمؤمنين أن يُعزّوا أنفُسَهم ولا يُذلّوها.

نُكتةُ إعادةِ اللّامِ مَعَ الرَّسولِ والمؤمنين:

مَن اعتزَّ بالله لا يُذِلُّه أحدٌ

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ حَرفَ اللّامِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وذلك لتأكيد تَمَكُّنِ العِزَّة مِن النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، فهي عزَّةٌ مستمدَّةٌ من إيمانهم باللّه تعالى، كما أنّ فيه تشريفًا لَهُم بِذِكرِهم مع اسمه وجَعلِهم شُرَكاء بالعِزَّة[2]. فجاء تكرارُ اللّامِ ليُؤَكِّد ثبوتَ العِزَّة لهم.

دلالةُ الواو في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

بيانُ جهلِ المنافقين وانتفاءُ صفةِ العِلمِ عنهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالواو في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهي هنا للاستئناف[3] لِبيان حقيقةٍ مُستقِلَّةٍ بذاتها وهي جهلُ المنافقين وانتفاءُ عِلمهم، وجعلُ ذلك في جملةٍ مستأنفةٍ يُنَبِّه على ثبوت هذه الحقيقة ويُقَرِّرُها.

دلالةُ التَّعبير بـ(لكنّ):

وَهمُ الكثرة يغرُّ بالعزّة

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الاستدراك (لكنّ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وذلك لِرَفعِ ما قد يقع مِن وهمٍ من قولهم إذ قالوا: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 89.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 233، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 411.

(3) محمود صافي، الجدول: 14/ 258.

﴿ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ بأنَّهم قالوه عن بصيرة وعِلم، فظنّوا أنَّهم لِكثرتهم أحقُّ بالعزَّة، فأبطَلَ الاستدراكُ بـ(لكن) ذلكَ الوهمَ، فَهُم إنَّما قالوا ذلك لِجَهلهم وانتفاء عِلمِهم[1].

نُكتةُ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

النِّفاقُ الرّاسخ فـيـهـم أصــلُ جَهلِهم

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الظّاهر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فَلَم يقُل: (ولكنّهم لا يعلمون)، وذلك لتأكيد اتِّصافهم بالنِّفاق، فالتَّعبير باسم الفاعل يشير إلى رسوخ الوصف فيهم[2]، وبأنَّه العلَّةُ المُسبِّبة لِجَهلِهم، ولبيان إصرارهم على الكُفرِ. كما أنَّ الإظهارَ يجعل الجُملةَ مُستقلَّةً بذاتها فتكون أشَدَّ ذَمًّا لهم بالجهل[3].

نُكتةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفِعليِّ المنفيِّ:

تـأكـيـدُ الـجَـهـل وانـتـفـاءُ الـعِـلـم عن المنافقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المسند إليه على المسند الفِعليِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لتأكيد الحُكم وتقوية الخبر، فانتفاء العِلم عنهم حكمٌ ثابتٌ لهم، ووصفٌ راسخٌ فيهم. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العِلمَ المنافي للإيمان وللحقيقة ليس علمًا حقيقيًّا، بل هو عِلمٌ بظاهر الحياة الدُّنيا.

دلالةُ التَّعبير بالفِعل المضارع المنفيِّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

الجهلُ لا يفارق المنافقين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفِعل المضارع المنفيِّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في قولِه جَلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للدِّلالة على تجدُّدِ النَّفي واستمراره، فالعلمُ منتفٍ عنهم على الدَّوام، والجهلُ رفيقُهم لا يفارقهم.

ومِن معاني نفي العِلم عنهم وتجهيلِهم عَدَمُ تَأَمُّلهم في الأمارات والدَّلائل التي يُظهرها اللّهُ لرسوله وللمؤمنين؛ فلم يفطنوا لِتزايد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 248، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 411.

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 297.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.

المسلمين في أعدادِهم وأراضيهم، وتناقص أرضِ أعداء الإسلام يومًا بعد يومٍ.

نُكتةُ حَذفِ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

شمولُ جَهلِهم وفَرَطُ غرورِهم

حَذَفَ النَّظمُ الجليل مفعولَ فِعل (العلم) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للعلم به من السّياق، إذ التّقدير: (لا يعلمون أنَّ العِزَّة للّه ولرسوله والمؤمنين[1] فَهُم مِن فَرَطِ جهلهم وغرورهم يهذون بهذه الأقوال)، ويجوز أن يُنزَّلَ الفعلُ منزلة اللّازم؛ فلا يُقدَّر له مفعولٌ، وفي ذلك نفيٌ لِصفة العلم عنهم مطلقًا.

نُكتةُ تَكرار نَفيِ العِلم عنهم بعد نفي الفقه:

لا جهلَ أشدُّ مِن جهلٍ بالبديهيّات

نفى النَّظمُ الجليل العِلمَ في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بَعدَ أن نفى الفقهَ عنهم فيما سبق في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وذلك لأنَّ العِزَّة أمرٌ مَعنويٌّ، فهو مظنّة أن يجهلَه الكثيرُ، وقد جهِلَهُ المنافقون ولا يعلمونه فقال: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ونفى الفِقهَ عنهم في الآية السّابقة لِأنَّ الإنفاق أمرٌ ظاهرٌ حِسّيٌّ، وأكثرُ النّاس يعلمون أنَّ الرِّزقَ مِن عند اللّه تعالى فلا يحتاج هذا الأمر إلّا القليل من الفهم والفقه، فنفي الفقه تشنيعٌ وتقبيحٌ أشدُّ مِن نفي العلم[2]. لأنَّ إثباتَ الفقه للإنسان أبلغُ مِن إثبات العِلم؛ فيكون نفيُ العِلم أبلغَ مِن نفي الفقه؛ فأوثر ما هو أبلغ لما هو أدعى له، وبذلك تظهر بلاغة القرآن في اختيار كُلِّ فاصلة لِما هو مناسبٌ لسياقها وموضوعها.[3]

(1) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 446.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريُّ الجامع: 28/ 92.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 116.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الانفضاض والتّفرّق:

الانفضاضُ أصلُه يدُلُّ على تفريقٍ وتجزئة، انفضَّ القوم: تفرَّقوا[1]. الفَضُّ: كسر الشيء والتّفريق بينَ بعضِه وبعضِه، كفَضِّ ختم الكتاب، وعنه استُعيرَ: انْفَضَّ القومُ. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: 11][2]. والفضُّ: تفريقك حلقةً من النّاس بعد اجتماعهم، يقال: فضضتهم فانفضّوا أي فرَّقتهم[3]. فهو تفرّق كثيرٌ ككسر الشّيء.

الانفضاض كسرٌ وتفرُّقٌ كثيرٌ بعد اجتماع، والتّفريقُ انفصالٌ

أمّا التّفريق فأصله يدلّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين[4]. والفَرْقُ يقارب الفلق لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال. والفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرّدة من النّاس، وقيل: فَرَقُ الصّبح، وفلق الصّبح. قال: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء: 63]، والفَريقُ: الجماعة المتفرّقة عن آخرين[5]. فالتّفريق يدلّ على انفصالٍ بين شيئين أو أكثر، أمّا الانفضاض فيدلّ على تفرّق كثير، كما ينكسر الشّيء ويتفتّت إلى قِطَعٍ صغيرة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فض).
(2) الرّاغب، المفردات: (فض).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فضض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن
ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ
مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ
لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

[المنافقون: 9 - 11]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التّحذير من صفات المنافقين: دعـوةُ المؤمنين لِمَعالِمِ الخير

بعد أنْ كشَفَ النّظمُ الجليل صفاتِ المنافقين وفضح خبيئةَ قلوبهم وأظهر مساوِئَ أقوالهم للحذر منهم والتّحذير من صفاتهم: انتقل الخطابُ إلى المؤمنين ينبّههم ويحذّرهم من مشابهة المنافقين، ويدلّهم على الخير ويأمرهم بالإنفاق والإقبال على ذكر اللّه تعالى وحسن عبادته؛ فهو انتقالٌ من حكاية حال المنافقين إلى خطاب المؤمنين[1].

ومن دقيق المناسبة أنّه لمّا كان ما قصّه اللّهُ ﷻ عن المنافقين يُتعجّب منه غايةَ العجب من تصوُّرِ قائله له، فضلًا عن أن يتفوّه به، فكيف بأن يعتقده؟! نبّه هنا على العلّة الموجبة انطماسَ بصيرة المنافقين، وهي إقبالهم بقلوبهم على الدنيا[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُلۡهِكُمۡ﴾: (لهي) أصلٌ يدلّ على شُغْلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ؛ يُقال لَهيتُ عنِ الشَّيءِ إذا تركته لغَيرِه[3]. ويُعبَّر باللّهو عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، وما فيه شُغلٌ عمّا هو أهمُّ منه إليه[4]؛ وقول اللّه تعالى:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 614.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لهو).

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 3] أي: ساهيةً مشتغلة بما لا يعنيها. والمراد به في الآية الكريمة: لا يشغلكم[1].

2) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلّ على النّقص؛ فيقال خَسِر فلان يَخْسَرُ خُسْرًا وخُسْرانًا أي نقص، ويقال خَسَرْتُ الميزانَ وأخسَرْتُه إذا نَقصتَه[2]. والخُسْرُ والخُسْران: انتقاص رأس المال، ويُنسب ذلك إلى الإنسان، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غير مُرْبِحةٍ[3]. ويُستعملُ الخُسرانُ في المُقتنيات النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الَّذي جعلَه اللّه تعالى الخُسرانَ المبينَ[4]؛ والمراد به في الآية الكريمة: المغبونون بحظوظهم[5].

3) ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: (صدق) أصلٌ يدلّ على قوّة في الشّيء، قولًا وغيرَه؛ من ذلك الصّدق خلاف الكذب[6]. والصَّدَقَةُ: ما يُخرِجه الإنسان من ماله على وجه القُربَة كالزّكاة، لكنّ الصدّقة في الأصل تقال للمتطوَّع به، والزّكاةَ للواجب؛ وقد يُسَمّى الواجبُ صدقةً إذا تحرّى صاحبُها الصّدقَ في فعله[7]. والمُتَصَدِّق: مَن يُعطي الصّدَقَةَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18]، بتشديد الصّاد؛ أصلُه المُتَصدِّقينَ، فقُلِبَتِ التّاءُ صادًا، وأُدغِمت في مثلها. ومثلُه قول اللّه تعالى هنا ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، أصله: (فأتصدّق)[8]؛ والمراد به: أتصدّق وأُزَكّي مالي[9].

4) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: (صلح) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[10]، ويكون الرجلُ صالحًا في نفسه ومُصلِحًا في أعماله وأموره. والصُّلْحُ: تصالُحُ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) الخليل، العين: (خسر).
(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(5) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 446.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(7) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (صدق).
(9) العليميّ، فتح الرّحمن: 7/ 70.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

القوم بينهم[1]. فالصَّلاحُ: ضدّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال؛ وقوبِل في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2]. والمراد بالصّالحين في الآية: المؤمنون المنفقون المطيعون للّه[3].

5) ﴿خَبِيرٌ﴾: (خبر) أصلٌ يدلّ على العِلم؛ فالخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، والخبيرُ: العالِمُ بالأمر[4]. والخُبْرُ أيضًا: مَخْبَرَة الإنْسانِ، إذا خُبِرَ أي جُرِّبَ فَبَدَتْ أخْلاقُهُ؛ والخابِرُ: المُخْتَبِرُ المُجَرِّبُ؛ والخِبْرَةُ: الاختبارُ، تقول: أنتَ أَبْطَنُ به خِبْرَةً، وأطْولُ له عِشْرَةً[5]. والخُبْرُ: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر. وخَبَرْتُهُ خُبْراً وخِبْرَة، وأَخْبَرْتُ: أعلمْتُ بما حصل لي من الخَبَر؛ والخِبْرَة المعرفة ببواطن الأمر، واللّه تعالى الخَبيرُ، أيِ: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ والمراد به في الآية الكريمة: عالِمٌ بأخبار أعمالكم، وببواطنِ أموركم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المبادرةُ بالعمل الصّالح قبلَ فَواتِ الأوان

يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين الَّذين صدَّقوا اللّه ورسوله وعملوا بأحكام شريعته: لا تَشْغَلْكم أموالكم ولا أولادكم عن عبادة اللّه وطاعته والقيام بحقوقه وأداء فرائضه الَّتي فرضها عليكم، لأنّ من شغلته أموالُه وأولاده عن ذلك الحقّ، فأولئك هم البعداء في الخسارة. ثمّ يأمرهم بالإنفاق من بعض ما أعطاهم اللّه من رزقه وفضله، على وجه المبادرة في فعل الخير قبل أن يجيءَ الموتُ فيقطعَ آجالهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم نادمًا: يا ربِّ هلّا أمهلتني،

(1) الخليل، العين: (صلح).
(2) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 417.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (خبر).
(6) الرّاغب، المفردات: (خبر).

وأجّلت موتي قليلًا من الأمد ليتسنّى لي الإنفاقُ الكثير، ولِأكونَ من زمرة الصّالحين الأتقياء. ولكنّ هذا محضُ أماني، إذْ إنّ اللّه تعالى لن يؤخّر نفسًا إذا انقضى عمرُها وحلّ أوانُ موتها؛ واللّه سبحانه خبيرٌ بالَّذي تعملونه من خيرٍ وشرٍّ، عالمٌ ببواطن أعمالكم ومقاصدكم، وسيجازيكم على ذلك(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصلِ الآية عن سابِقَتِها:

أهلُ الإيمان أجدَرُ بالإنفاق والسّعيِ في سُبُلِ الخير

فَصَلَ النّظمُ الجليل الجملةَ من قول اللّه جلّ شأنُه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ عن سابقتها: لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، سيقت لمخاطبة المؤمنين، لِتَأمُرَهم بطاعة اللّه تعالى، وتنهاهم عن الاشتغال بالأموال والأولاد ونسيانِ ذكر اللّه تعالى(2).

بلاغة النِّداء:

التّحذيرُ من خطورة الانشغال بالأموال والأولادِ عَن ذِكرِ الله

عَبَّر النّظمُ الجليل بأسلوبِ النّداء في قول اللّه جلّ شأنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ للتّنبيه والاهتمام على مضمون الخطاب؛ فهو نداءٌ بتكليفٍ جديد، وبموعظةٍ يجب الانتباهُ إليها(3). فاستعمالُ أسلوبِ النِّداء لزيادة الإيقاظ والإبلاغ في التّنبيه من الغَفلَة الّتي تعتري الإنسان، وفيه لَفتُ انتباهِ المُنادَى عليه بأهمِّيَّة الكلام الَّذي يسمعه.

غرض النّداء بالموصوليّة:

الإيمانُ أساسُ الشّريعة

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الموصول في قول اللّه جلّ شأنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن

(1) جماعة من العلماء، التَّفسير الميسَّر: 1/ 555.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 93.

﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: لما تحمله صلة الموصولِ من داعي الامتثال والاعتناء للنّهي الوارد في الآية بعدم الانشغال بالمال والولد عن ذكر اللّه، ولِما تُؤذِن به الصِّلةُ من علّة الخطاب، للإقبال على مضمون الخطاب والاهتمام به؛ فبسبب الإيمان خوطبوا بالتّكليف(1).

نُكتةُ التّعبير بالماضي:

عدمُ الانشغال عن ذِكرِ الله من علاماتِ رُسوخِ الإيمان

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن فِعلِ الإيمان بصيغة الماضي في قول اللّه جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: للدّلالة على تحقُّقِ الإيمان، أي: (يا من آمنتم باللّه تعالى إيمانًا حقًّا(2)، ورَسَخ في قلوبكم الإيمانُ رسوخًا جعلكم لا تنشغلون بالمال والولد عن ذكر اللّه تعالى).

دلالة النّهي:

تحذيرُ أهلِ الإيمان من الافتتان بزينةِ الحياة الدّنيا

عبّر النّظم الجليل بأسلوب النّهي في قول اللّه جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تنبيهًا وتحذيرًا بالغًا من الانشغال بزينتَي الدّنيا: المالِ والوَلد، ومن التّمتّع بهما عن المقصد الأعلى وهو ذكر اللّه(3). ومن فوائد هذا الانتهاء أنّه يحمل في طَيّاتِه قطعَ وساوِسِ الشَّيطان، لا سيَّما وأنّ المال والولد من الغرائزِ الفِطريّة الّتي ينشأ الإنسانُ على حُبِّها والتمسُّكِ بها؛ فكان النّهيُ هو الأسلوبَ الحاسمَ والمناسبَ للتَّحذير عن الانشغال بها عن ذكر اللّه تعالى.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإلهاء:

الانشغالُ بما لا يُغني ممّا لا يليقُ بالمؤمنين

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الإلهاء في قول اللّه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دون

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 251.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 254.

الانشغال: لأنّ الانشغالَ منه ما هو محمودٌ - كما في قولِ النبيِّ ﷺ «إنّ في الصّلاة شُغْلًا»[1]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: 55] - ومنه ما هو مذمومٌ، كما في قوله تعالى: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ [الفتح: 11]؛ أمّا الإلهاء فهو مذمومٌ على وجه العموم. فاختار السّياق القرآنيُّ ما هو أوفَقُ للمعنى، لدلالة اللّهو على العمل الذي يشغل عن الواجب بلا جدوى فيه ولا فائدة؛ فالنّهي في الآية عن الانشغال عن عبادة اللّه تعالى بما لا فائدةَ فيه[2].

سرّ تخصيصِ الأموال والأولاد:

خُصّ النَّهيُ عن الالتهاء بالأموال والأولاد دون غيرهما لشدّة تسبُّبِهما في وجود اللّهو والانفعال فيه، ولأنّهما في فطرة الإنسان السببُ الرَّئيس في الإلهاء والانشغال عن طاعة اللّه.

نُكتةُ تقديمِ الأموال:

التّحذيرُ من مشابهة المنافقين في حِرصهم وبُخلِهم

قدّم النّظمُ الجليلُ لفظَ الأموالِ على الأولاد في قول اللّه تعالى ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ لأنّ السّياق جاء في الرّدّ على المنافقين ونهي التّشبّه بهم في البخل وعدم الإنفاق؛ فقُدِّم ذكر المال لمناسبة السّياق. ومن أسباب تقديم ذكر الأموال على الأولاد أنّ الأموال ممّا يَكثُر إقبال الناس على تنميتها والتَّفكير في كسبها، بحيث تكون أوقاتُ الشغل بها أكثرَ من أوقات الشغل بالأولاد؛ وكما أنّها تشغل عن ذكر اللّه بصرف الوقت في كسبها ونمائها، فإنّها تشغل عن ذكره أيضًا بالتَّفكير في كَنْزِها والحفاظ عليها؛ والمقام هنا يتعلّق بالإلهاء، وليس بمقام حبّ الأولاد حتّى يُقَدَّموا في الذِّكر على المال[3].

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1199)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (538).
(2) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثّريُّ الجامع: 28/ 93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 250.

بلاغة الإدماج:

وجود قاسمٍ مشتركٍ بين الأموال والأولاد في الإلهاء والانشغال عن ذكر الله

أدمج النّظمُ الجليلُ ذكرَ الأولاد مع الأموال في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ - وإن كان السّياق في شأن الأموال - "لأنّ الاشتغال بالأولاد والشَّفقةَ عليهم وتدبيرَ شؤونهم وقضاءَ الأوقات في التأنُّس بهم من شأنه أنْ يُنسيَ عن تذكُّر أمر اللّه ونهيِه في أوقاتٍ كثيرة؛ فالشُّغلُ بهذين أكثرُ من الشُّغلِ بغيرهما"(1).

دلالة إعادة حرفِ النّفي:

استقلال النّفي تأكيدٌ على شمول النّهي

أعاد النّظمُ الجليلُ حرفَ النّفي ﴿لَا﴾ مع ذِكرِ الأولاد في قول اللّه جلّ شأنُه ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لتأكيد النّهي، لأنّ "كلًّا من الأموال والأولاد سببٌ من أسباب اللّهو؛ أي: (لا تُلهكم أموالُكم بمفردها، ولا تُلهكم أولادُكم بمفردها، أو لا تُلهكم أموالُكم وأولادكم معًا)"(2). فلو لم تُذكَر اللّام بأن قيل: (لا تُلهكم أموالُكم وأولادُكم) لَتُوُهِّم أنّ النهي موجَّهٌ للجمع بينهما، أمّا إذا انفرد الانشغال بواحد منهما على سبيل الانفراد جاز؛ وهذا غيرُ مرادٍ في سياق الآية، فالأموال والأولاد كلٌّ واحدة منهما شاغلةٌ عن ذكر اللّه على حِدَة، فليكن المؤمن على حَذَرٍ من ذلك(3).

بلاغة المجاز العقليّ:

نهيٌ بَليغٌ عن الرُّكون إلى الأموال والأولاد

أُسنِد الإلهاء إلى الأموال والأولاد في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، والمراد بالنَّهي هم المخاطَبون، لكن لم يُقل: (لا تَلتهوا بالأموال والأولاد عن ذكر اللّه)، بل عدل عن ذلك على طريقة المجاز العقليّ؛ فهو من باب إطلاق المسبِّب على السّبب، أي: (لا تكونوا بحيث تُلهيكم الأموالُ والأولادُ)(4).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 251.
(2) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثّريُّ الجامع: 28/ 93.
(3) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 190.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.

وعُدِل عن توجيه النَّهي للمخاطَبين إلى توجيهه للأموال والأولاد: للمبالغة في النّهي عنهما؛ فجُعِل النّهي مُنصَبًّا عليهما لا على المخاطَبين[1]، وذلك لقوّة تسبُّبِهما في اللهْو، وشِدَّةِ التِصاقهما فيه، ولأنّهما السببُ الرَّئيس في الإلهاء. فكأنّ القرآن يأمر المؤمنين أن يَحموا أنفسهم من هذا السَّبب؛ وفي ذلك من التَّعليم والتَّنبيه للمؤمن ما لا يخفى، من باب أخذ الحذَرِ حتّى لا يَقَعوا في سبب الإلهاء، فضلًا من أن يتلبَّسوا به.

نكتة الإضافة إلى المخاطَب:

أخصُّ ما يملك العبد لا ينبغي أن يَصرِفَه عنِ الله

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الأموال والأولاد إلى كاف الخطاب في قول اللّه جلّ شأنُه: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ للدّلالة على أنّ الأموال الَّتي تهتمّون بجمعها وتحصيلها، والأولادَ الَّذين هم من أصلابكم: لا ينبغي أن يكونا سببًا في صَرفِكم عن ذكر اللّه تعالى[2].

نكتة التّعديَة بحرف المجاوزة:

النَّهيُ عن الأسباب المؤدّيَة إلى البعد عن ذكر الله

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَن﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: لدلالته على المُجاوزة والمُباعَدة[3]؛ أي (لا تَشغَلْكم ولا تُبعِدْكم عن ذكر اللّه تعالى). فعُلِم أنّ المنهيَّ هو أن يكون اللّهوُ بهما شاغلًا عن ذكر اللّه تعالى، أمّا إذا لم يكن كذلك فهو ليس في حيّز النّهي[4].

سِرُّ تخصيص الذِّكر:

كلّ العباداتِ ذكرٌ لله تعالى

عبّر النّظمُ الجليلُ بذكر اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دون

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 413.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 93.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.

غيره من العبادات - فلم يُقل (لا تُلهِكم عن الصَّلاة أو الزَّكاة أو الجهاد) - لأنّ لفظ الذكر لفظٌ عامّ، يشمل جميعَ الفرائض من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، لأنّ كلَّ عمل يعمله الإنسان يقصد به وجهَ اللّه هو ذكر للّه.

والذِّكرُ لفظ يجمع بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيّ؛ فهو يدلّ على ذكر اللّسان حقيقة، ويدلّ على الصّلاة والعبادة مجازًا[1]. والغرض من ذلك الدّلالةُ على العموم والشّمول، فهو يشمل كلّ أعمال الطّاعة والعبادة[2].

دلالة إضافة الذِّكر لله:

أضاف النّظمُ الجليلُ الذّكر إلى اسم اللّه في قوله جلّ شأنه ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، وذلك للتّذكير بعِظَم عبادة اللّه تعالى وذِكره، فيكون ذلك دالًّا على كمال التّحذير من الانشغال بالأموال والأولاد؛ فهو "المِلك الأعظم الّذي له الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيء، فله الملك، وله الحمد، يُعطي من يشاء، ويمنع من يشاء"[3].

ذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ ذِكر، وهو أولى بالانشغال به وأجدَر

وآثر القرآن الكريم التّعبيرَ باسم ﴿ٱللَّهِۚ﴾ دون اسم الرُّبوبيّة (الربّ): لأنّ المقامَ هنا مقامُ نهيٍ وهيبةٍ وجلالٍ، وتحذيرٍ وترهيبٍ للمؤمنين ممّا وقع به المنافقون فيناسبُه التّعبيرُ باسم الجلالة، الذي يُرَبّي المهابة في القلوب.

دلالة الواو في ﴿وَمَن﴾:

افتتح النّظمُ الجليلُ فاصلة الآية بالواو في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لدلالتها على الاستئناف[4]؛

الانشغال عن ذكر الله هو الخُسرانُ المُبين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 251.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 440.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 92.
(4) محمود صافي، الجدول: 14/ 260.

فالجملة مستأنَفةٌ لبيان عاقبة من يخالف النّهي الّذي جاء ذِكرُه في صدر الآية. فالنّهيُ يقتضي الكفَّ عن الفعل[1]، لذلك أطلق النّظمُ حكم الخسارة على المخالِفِ له.

بلاغة الجملة الشّرطيّة:

عبّر النّظمُ الجليلُ بالجملة الشّرطيّة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لبيان التّلازُم بين الخسارة وبين فِعلِ اللّهو عن ذكر اللّه تعالى وعبادته.

دلالة التّعبير بمادّة الفعل:

كلّ فعلٍ يُصرَف عن عبادة الله سبيلٌ للخسارة والمَحْق

عبّر النّظم الجليل بمادّة الفعل في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون (يعمل) لدلالة الفعل على العموم؛ فهو يشمل ما فُعل بإجادةٍ أو بغير إجادةٍ، وما كان بعلمٍ أو بغير علمٍ، وما كان بقَصْدٍ أو بغير قصدٍ[2].

دلالة صيغة المُضارَعة:

الخُسرانُ نتيجةُ الإصرار والتّكرار

جاء التّعبير بالفعل المضارع في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على التّجدّد والاستمرار باللّهو بالأموال والأولاد[3]؛ فلم يأت بالماضي لدلالته على أنّ ذلك الخسرانَ الكبير يتحقّق لو وقع الإلهاء مرّةً واحدة. وهذا غيرُ مراد، إذْ ليس من المعقول أن يكون ذلك الخسرانُ الكبير للوقوع في الإلهاء لمرّةٍ واحدةٍ، بل المناسِبُ أن يكون لمن تكرّر منه الوقوع.

سِرُّ الإسناد إلى المُلتهي:

كلُّ نفسٍ بما كسبت رَهينة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بقول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يُقل: (ومَن تُلهِه تلك)، بل نُسب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 93.

الفعل إلى المُلتهي: لينال بذلك جزاءَه، ولئلّا يُفهَمَ أنّه ليس بمقدورِ الشَّخص الانصرافُ عن اللّهو، وأنّه ليس بمسؤولٍ عن هذا الإلهاء؛ فجاء ذلك التَّعبيرُ للدِّلالة على أنّ الإلهاء من فعله وكسبه، وأنّه بمقدوره أن ينتهيَ عنه[1].

نكتة استعمالِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ما أبعدَ اللّاهين عــن مــنــازل السّائرين

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لإشارته إلى اللّهو عن ذكر الله تعالى بالأموال والأولاد[2]، وكأنّه يُصوِّر مَشهَدَ الإلهاء بالأموال والأولاد أمامَ أعيُن الناظرين؛ ففي الإشارة تبكيتٌ لهم على ما فعلوا. وفي اختيار الاسم الموضوعِ للبعيد دلالةٌ على المبالغة في بُعدِ اللّهو عن الخير والعمل الصّالح.

دلالة الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

شِدّة الارتباط بين الفعل والجزاء المُعَدِّ له

عبّر النّظم الجليل بالفاء الرّابطة في قول الله جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لِتَربِطَ الجوابَ بالشّرط[3]؛ فهي تفيد السّببيّةَ والتّرتّبَ الحَتميَّ بين اللّهو عن ذكر الله تعالى وبين الخسارة. فالانشغال بالدّنيا عن ذِكر الله تعالى جزاؤُه الخسرانُ على وجه اللّزوم[4].

نكتة التّعبير بـ(أولئك):

المشتغِل بالدّنيا عن طاعة مولاه في أقصى مراتبِ الخُسران

عبّر النّظمُ الجليلُ باسم الإشارة (أولئك) الدّالّ على البعد في قول الله جلّ شأنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على أنّهم في أقصى مراتبِ الخسران والغفلة؛ لمخالفتهم طاعةَ الله، وانشغالِهم بملذّات الدّنيا ومباهجها[5]. وفيه إشارةٌ إلى بعد منزلتهم عن ذِكر

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 184.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 730.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 414.

اللّه، بانشغالهم بأموالهم وأولادهم، حتّى لم يعد عندهم شيءٌ ينشغلون به إلّا الأموال والأولاد.

بلاغة القَصر:

الـخـاسِـرُ الحقيقيُّ من انقضَتْ أيّامُه بعيدًا عن ذكر الله

عرّف النّظمُ الجليلُ طرفَي الإسناد ووسَّطهما بضمير الفصل في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: للدّلالة على حصر صفةِ الخسارة بهم، قصرَ صفةٍ على موصوف. وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغة في اتّصافهم بالخسران؛ فخسران غيرهم لا يُعَدّ خسرانًا بالنَّظر إلى خُسرانِهم[1].

دلالة التّعبير بالخاسرين:

مـن يـشـتري مُتعَةً بدلًا عن الخير المطلَق هو العريق في الخسارة

عبّر النّظم الجليل بلفظ الخسارة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لأنّ استبدالَ العاجل بالآجل هو بمنزلة البيع والشّراء، فوصَفَهم بالخسران لأنّهم باعوا الآجلَ العظيم الباقيَ بالحقير العاجل الفاني[2]. ثمّ إنّ الوصفَ بالخسران هو المناسِبُ لسياق الآية، لأنّ الالتهاء بالأموال يكون لغرض الرِّبح وتنميتِه وزيادتِه وجمعِه للأولاد، من أجْل نعيم زائل ألهاهم عن ذكر اللّه؛ ومثل ذلك لا يُعَدّ رِبحًا، بل هو خسرانٌ مبينٌ. يؤكّد ذلك أنّ التَّعبير جاء بصيغة اسم الفاعل، للدّلالة على المبالغة في الوصف؛ أي (الكاملون في الخسران، العريقون فيه)، خسارةً ثابتةً لا تزول[3].

نكتة حذف متعلّق الخبر:

من خَسِر ثوابَ الله لم يربَحْ شيئًا

حذف النّظمُ الجليلُ متعلّق الخسارة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للدّلالة على عموم الخسارة، فهم خسِروا أنفسَهم وأهليهم وحياتَهم وآخرتَهم[4]؛ فالحذف يدلّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 93.

على التّعميم، والمراد به المبالغةُ بسَعَةِ خسرانهم، فخسارتُهم فوقَ كلِّ خُسرانٍ[1].

نُكتةُ عطف الأمرِ بالإنفاق:

التّحذير من الانشغال بالدّنيا متبوعٌ بالدّعوة إلى سُبُل الخير

عطف النّظمُ الجليلُ الأمرَ بالإنفاق في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ على النّهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[2]: لأنّه لمّا حذّر من الإقبال على الدّنيا والانشغال بها عطف عليه التّرغيبَ بالإنفاق والبذلِ لمخالفة المنافقين الّذين قالوا ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[3].

دلالةُ الفعل (أنفِقوا):

ما يُنفَق في سبيل الله يُدَّخَرُ فيَبقَى، وما بَقِيَ في الدّنيا يَزول ويفنى

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بمادّة الإنفاق دون غيرها في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لأنّه يدلّ على مُضيِّ الشيء ونفاذه؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ المؤمن يُنفِق من ماله لا ينتظر ثوابًا من النّاس، بل ينقطع رجاؤه من طلب ذلك منهم، لأنّه أخرجه واقتطعه فصار في حكم المفصول عن ماله. وكأنّ التعبير بالإنفاق يُشير إلى فناء الدنيا بما فيها. وفي هذا ردٌّ على المنافقين الّذين قالوا لأصحابهم ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وتمييزٌ لأهل الإيمان بقبول دعوة الإنفاق على الفقراء والمساكين.

وجاء الإنفاق بفعل الأمر ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ لدلالته على مُطلَق الطّلب، فيشمل الواجبَ والمستحبّ؛ فالإنفاق المأمور به يشمل ما يجبُ إنفاقُه وما يُندَبُ إليه[4]، "الزّكاةَ وصدقةَ التّطوع والنّفقةَ في الجهاد وغيرَ ذلك"[5].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 731.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 441.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 252.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 379.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

من لُطف المولى الـرِّضَى بالقليل من عباده

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، وهي هنا للتّبعيض؛ أي (أنفقوا بعضَ ما رزقناكم)[1]. والأمر بإنفاق بعضِ الرّزق هو توسعةٌ من اللّه تعالى على المسلمين، إذْ أعطاهم الكثيرَ، ورضي منهم بالقليل[2]، وهذا من سماحة الدّين ويُسرِه.

دلالة التّعبير بـ﴿مَّا﴾:

كلّ ما كان رِزقًا مِـنَ الـلـه ففيه حقٌّ للإنفاق

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ دون (الّذي): لِما فيه من الدِّلالة على العموم، فهو أعمُّ وأكثرُ شمولًا مِنَ (الَّذي)[3]؛ فالإنفاق يشمَل المالَ وغيرَه، وكلُّ ما يملكُه الإنسان، هو ممّا رَزَقَه الكريمُ المنّان.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ (رَزَقَ):

رِزقُ اللهِ سابِغٌ على ابْنِ آدم

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بمادّة الرِّزق في قول اللّه تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ دون غيرِها لأنّه عامّ، يُقال للعطاء الجاري دنيويًّا كان أو أُخرَويًّا، ولِما يَصِل إلى الجوف ويُتغذّى به، ويُطلَق على المال والجاه والعلم؛ لذلك كان التَّعبيرُ به لعموم مَدلولِه، ولأنّ الإنسانَ مُطالَبٌ بالإنفاق من علمه وجاهه، كما هو مُطالَبٌ بالإنفاق من ماله.

وعبّر النّظم الجليل عنه بصيغة الماضي ﴿رَزَقۡنَٰكُم﴾ للدّلالة على أنّ الإنفاق ممّا تحقّق من الرّزق، أي: (ممّا أعطيناكم من الأرزاق الكثيرة)[4].

بلاغة الالتفات إلى التَّكَلُّم:

الـــرّزقُ فضلٌ عـظـيـمٌ ومـنّـةٌ جـلـيـلـةٌ من الجليل

التفتَ النّظم الجليل من ضمير الغَيبة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 415.

﴿تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى ضمير المتكلّم في قوله ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، حيث أُسنِد الرّزق إلى ذات اللّه الجليلة: ليكون أدعى إلى طاعة الأمر، ولبيان أنّه تعالى هو الذي رزقهم بعظمته وفضله، وللإعلام بأنّ الأرزاق كلَّها منه تعالى، فهو المالك لكلِّ شيء، وبيده خزائنُ السَّموات والأرض؛ إلّا أنّه - تفضُّلًا منه - اكتفى منهم بإنفاق جزءٍ من تلك الأرزاق[1]، يدفعه العبد عن طيبِ نَفْسٍ، ويَكسِر شُحَّ نفسه، لأنّ الَّذي يملك العطاء والمنع هو اللّه. وجاء التّعبير بضمير التّعظيم للدّلالة على عظمة رزقه، أي: (ممّا رزقناكم بما لنا من عَظَمةٍ)[2].

دلالة التَّعبير بـ﴿مِّن﴾:

مهما طال الأجلُ فإنّ الدّنيا قصيرة

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وهي لابتداء الغاية؛ وفي هذا التّعبير دليلٌ على كمال تفضُّلِه تعالى، بقبول القليل من عباده وإن كان في زمنٍ قريب من حلول الأجل، للتّرغيب في التّأهّبِ للرّحيل عن هذه الدّنيا[3].

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قُرب الموت من الإنسان، الَّذي يقتضي أن يكون على استعدادٍ تامّ، لأنّ الموت قد يباغته في أيّ لحظةٍ؛ بخلاف خلوِّ التَّعبير من حرف الابتداء، فإنّه يدلّ على عموم الوقت قبل الموت، قريبًا كان أو بعيدًا.

فائدة الظّرفيّة:

المـوتُ أعجلُ غائبٍ بالمثول

عبّر النّظم الجليل بالظّرف الزمانيِّ ﴿قَبۡلِ﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 415.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.

للإشارة إلى قرب الموت، وللدّلالة على قَبول الإنفاق وإن كان في زمنٍ قريبٍ من أجَل الموت[1]، تحريضًا على المبادرة بالأعمال والإنفاق قبل فوات الأوان.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾:

المَرْءُ في فُسْحةٍ من الوقت ما لم يَحضُرْ أجلُهُ

عبّر النّظم الجليل بالفعل من مادّة الإتيان في قول الله جلّ شأنه ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لأنّ الإتيان يدلّ على سهولة المجيء[2]؛ ولم يقل: (من قبل أن يجيءَ أحدَكم الموت) "لأنّ المجيءَ فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ على النّفس، والموت لم تبدأْ سكراتُه بعدُ، فلو بدأت سكراتُه لاستعمل جاء. وبما أنّه سيحدث في المستقبل ولم يجِئْ بعدُ: اختار ﴿يَأۡتِيَ﴾" بصيغة المضارع[3].

نكتة تقديم المفعول:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

قدّم النّظم الجليل المفعول به على الفاعل في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فلم يقل (يأتي الموتُ أحدَكم): لأنَّ النّفسَ أهَمُّ للسّامع من سواها، والإنسانَ هو المقصودُ بأمر التَّوبة والإنفاق قبل حلول الأجل، وهو الَّذي يندم إذا عاجله الموت؛ وأخّر الموت لكراهة النّفوس له[4].

بلاغة المجاز في إتيان الموت:

مجيء الموت صورة مَهيبة لحضورٍ رهيب

أسند النّظم الجليل الإتيانَ للموت في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ على طريقة الاستعارة، فشبّه الموتَ بشخصٍ يأتي، فحُذِف المشبَّه به وأبقيت صفة الإتيان، والجامع هو الحضور والمباغتة. وذلك يُضفي على الموت الهَيبة والرّهبة، ويجعل حضوره في الذِّهن أشدّ وقعًا، فهو زائرٌ لا يَستأذن.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.

وفي التَّعبير بالإتيان إشارةٌ أيضًا إلى أنّ الموت قد انطلق لمقابلة الإنسان، ثمّ قد يأتيه في أيّ لحظة، في صِغرِه أو كِبَره؛ وفي هذا دعوةٌ للإنسان أن يكون مستعدًّا لاستقبال هذا الآتي.

تَمَنّي الإمداد مُسبَّبٌ عن دُنوِّ الموت

دلالة العطف بالفاء:

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قول الله جلّ شأنه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ دون غيرها من حروف العطف: لأنّها تفيدُ مع العطف السببيّةَ، حيثُ عَطفَتِ القولَ على الإتيان، فهذا القول مترتّب عليه، ومسبَّبٌ عنه، ويجيء عَقِبَهُ[1].

إلحاحُ المُتَحسِّرِ عند دُنوِّ الأجَل

دلالة الفعل (يقول):

آثر القرآن الكريم في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ التّعبيرَ بمادّة القول دون غيرها - كالكلام مثلًا - لأنّ لفظَ القول أعمّ، فيشمل الكلامَ وغيرَه، ويُطلَق على الكلام النفسيّ، وفي هذا تصويرٌ للحالة الّتي يكون عليها الإنسان عندما يرى علاماتِ الموت، فينادي ربَّه - سواء كان ذلك النِّداء عَلَنًا أو سِرًّا؛ ولا يتأتّى ذلك إلّا من مادّة القول. وجاء الفعل مضارعًا للدّلالة على أنّه يجدِّد هذا القولَ ويُصِرُّ عليه، إظهارًا لإلحاحه وتشبّثه.

الاستعجال في الخطاب يقتضي حذفَ ما يُمكِن حذفُه

نكتة حذف حرف النّداء:

حذف النّظم الجليل حرفَ النّداء في قول الله جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾، فلم يقل (يا ربِّ): لأنّ الله تعالى قريبٌ من عباده، فلا حاجةَ في مخاطبته إلى حرف النّداء الدّالّ على التّنبيه؛ كما أنّ مَن حضرته الوفاةُ فإنّ الوقتَ قصيرٌ، فحَذفُ حرفِ النّداء أنسبُ لسرعة الخطاب[2]. وفيه تصويرٌ لِلَهْفَة الإنسان إلى تأخير الأجل للعمل الصّالح.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 414.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.

دلالة النّداء باسمِ الرّبوبيّة:

عطاءُ الربوبيّة يُطمِع كلّ مُحتاج

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ الرّبوبيّة في قول اللّه تعالى ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾: لمناسبة السّياق، الدّالِّ على التّرحُّمِ والتوسُّل بعَطْفِ اللّه تعالى ورأفتِه(1).

نُكتةُ حذفِ ياء الإضافة:

ضيقُ الوقت معجّل بالخطاب

حذفَ النّظمُ الجليل ياءَ المتكلّم المضاف إليه في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾ فلم يقل (ربّي): لأنّ مَن حضرتْه الوفاةُ ليس لديه سَعةٌ من الوقت، فهو يتعجّل في الخطاب؛ فحَذفُ الياء لمناسبة ضيق الوقت(2).

دلالةُ حرفِ التّحضيض:

كمال التوسُّل لِنَيلِ المطلوب عند شدّة الحاجة إليه

عبّر النّظم الجليل بالحرف ﴿لَوۡلَآ﴾ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ دون (لو): لأنّ ﴿لَوۡلَآ﴾ للتّحضيض والطّلب الحثيث، والطّلب بها يصوِّر حالةَ المضطرّ، أي: (هلّا أخّرتني)؛ وهو طلبٌ لما يُضطّر إليه(3)، فإنّهم طلبوا طلبًا بكمال التّوسّل والرّجاء أن يُمهِلَهم إلى أجلٍ ليُظهروا الطّاعة. و﴿لَوۡلَآ﴾ أكثر حروفًا من (لو)، وهذا مناسب في طلب الشَّيء والإلحاح عليه، بخلاف التَّعبير بـ(لو)، فإنّها لا تُفيد إلّا مجرّد العَرضِ دون الإلحاح.

نكتة التّعبير بالماضي:

جُعِل المأمولُ واقعًا حثًّا على الاستجابة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل الماضي في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ دون المضارع: لتأكيد وقوعه في سياق الدّعاء، حتّى كأنّه قد تحقّق؛ ويدلّ على أنّ المراد به المضارعُ قرينةُ ترتُّبِ الفعلين المضارعين ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ عليه(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.

مهما قصر الأجلُ الممنوح فهو فرصةٌ لاستدراك ما فات

نكتةُ تنكيرِ ﴿أَجَلٍ﴾:

آثر النّظم الكريم تنكيرَ لفظِ الأجل في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾: للدّلالة على التّقليل، أي: (إلى أمد ليس بعيدًا)[1]؛ وذلك أدنى أن يُجاب له، وأيسر في التّحقيق، وكلُّ شيءٍ على اللّه يسيرٌ؛ وبالزّمن القليل يمكن استدراك ما فات من التّفريط، فلم يطلبوا أجلًا ليَعيشوا مدّةً أطول[2].

الأجل القريبُ أرجى في القبول

دلالة الوصفِ بالقُرب:

وَصَف النّظم الجليل الأجلَ بالقرب في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾: لأنّه أيسرُ في الطّلب، وأرجى أن يُستجاب له لأنّ النّاس تعارفت على أنّ الأمر اليسيرَ أيسرُ في القبول من البعيد، وغلب ذلك على شعورهم[3]؛ كما أنّه يشير إلى أنّهم لو أُخِّروا سيبادرون على وجه العجالة إلى الإنفاق[4].

التّصدّق والإنفاق غايةُ تمنّي تأخير الأجل

دلالة التّعبير بالفاء:

عبّر النّظم الجليل بحرف (الفاء) في قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي فاء السببيّة الواقعة في جواب التّحضيض أوِ التّمنّي[5]، فينتصب المضارع بعدها، لأنّه مسبَّبٌ عمّا قبلها؛ فعلّة طلب التّأخير في الأجل هو إيقاع الصّدقة وتحقيق الصّلاح. ودلّ التّعبير بها أيضًا على قرب الزّمن ومبادرتهم إلى تداركُ الفائت لو أُخِّروا، بدلالة الفاء على التّعقيب.

قِصَرُ الوقت يُحوِجُ لإيقاع العهد مؤكّدًا

دلالة صيغةِ فعل التَّصَدُّق:

عبّر النّظم الجليل بالفعل (أصّدّق) في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَأَصَّدَّقَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 215.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 253.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 234.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والأصل فيها (أتَصدّق)، فأُدغِم التّاء في الصّاد: لأنّ المقامَ مقامُ إيجازٍ لِقِصَر الوقت بحلول الموت، فاختار الكلمة الأقلّ حروفًا؛ كما أنّ التّضعيفَ يدلّ على المبالغة والتّكثير في الصّدقة، أي إنّه لو أُخِّر إلى أجل قريب سيُكثِر من الصّدقات[1].

توجيهُ قراءتَيْ فعلِ الكَون:

تعداد القراءات تنويعٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ

تعدَّدتِ القراءاتُ لِفعل الكون من قول اللّه جلّ شأنه ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، حيث قرأه أبو عمرو البصريُّ بالواو ونَصبِ النون ﴿وَأَكُونَ﴾، وقرأ الباقون ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم من غير واو. ووجه قراءة أبي عمرو أنّه معطوف على قوله تعالى ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، فهو منصوب كالذي عُطِفَ عليه؛ وإنّما نصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأنّه جوابٌ بالفاء لِما هو أمرٌ بالمعنى، كأنّه قيل: (أخِّرني فأصَّدَّقَ). فأجاب عن الأمر بالفاء على إضمار (أن) بعده، والتقدير: (فَأنْ أصّدّق)، فلمّا عطف الفعل على المنصوب نُصِب حملًا على اللّفظ دون الموضع.

وأمّا قراءة الباقين بالجزم فوجهُها أنّها معطوفةٌ على موضع الفاء وما بعده - ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ - لأنّ موضِعَه جزمٌ جوابًا للشّرط المقدَّر، والتقدير: (أخِّرني أصَّدَّقْ وأكُنْ من الصالحين)؛ فقوله تعالى ﴿وَأَكُن﴾ عطف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ دون اللّفظ[2].

الاحتباك في العطف بالواو:

الإنفاقُ والصّلاحُ عهدٌ بعد فوات الأوان

عطف النّظم الجليل جملةَ الكينونة على جملة التَّصَدُّق في قول اللّه جلّ شأنه ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ وإنّما جُزم في عطف الفعل المجزوم - والجزم قراءة الجمهور - على الفعل المنصوب من قول اللّه تعالى ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 94.
(2) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات وعللها: 3/ 1271.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ محسِّنُ الاحتباك، بإفادة التسَبُّبِ والمجازاة في كلٍّ من الفعلَين؛ ففعل التَّحضيض ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ جاء بمعنى الشّرط، وأثّر في الفعل الواقع بعد فاء السببيّة بالنّصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، وبالجزم في جواب الشرط ﴿وَأَكُن﴾. ومن لطائفِ هذا الاستعمال القرآنيّ البديع أنّ السائلَ بعد أن حثَّ سؤالَه أعقبه بأنّ الأمر ممكن، وكأنّه قال: (لولا أخّرتَني إلى أجل قريب فأصَّدَّقَ وأكونَ من الصالحين؟ إنْ تُؤَخِّرْني أصَّدَّقْ وأكُنْ من الصّالحين)؛ وفي هذا الاحتباك إيجاز بديعٌ وتوفيرٌ للمعاني(1).

نكتة استعمال فعلِ الكون:

التّعهدُ بالصّلاح على أعلى درجاته

عبّر النّظم الجليل بفعل الكون في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعبيرًا عن غاية صلاحهم المعهودِ به، حتّى كأنّهم وُجِدوا على صفة الصّلاح وجودًا فطريًّا بخلقتهم؛ وفي هذا التَّعبير تأكيدٌ لصدقِ أُمنيّتهم، وبرهانٌ على شدّةِ حَسرتهم.

دلالة ﴿مِّنَ﴾:

الانتماءُ إلى زُمرة الصّالحين دليلُ كمالِ الصّلاح

عبّر النّظم الجليل في قول اللّه تعالى ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بحرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ الدالِّ على التبعيض: تعبيرًا منهم بأنّهم يكونون بعضًا من جماعة الصّالحين المعروفين بصلاحهم، العريقين به.

دلالة تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

عرّف النّظم الجليل الصّالحين بالألف واللّام في قول اللّه ﷻ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو دالّ على الجنس، أي من جنس الصّالحين، تأكيدًا لصدق رغبتهم في الاستدراك.

سرّ تقديمِ الصّدقة:

في الإخبار عن ندامة المنافقين تسليةٌ للمؤمنين

قَدّم القرآنُ الكريم ذكرَ الصدقةِ على الصّلاح في قول اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 254.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لأنّ السياقَ في مَقام الدعوة إلى الإنفاق، بأمر اللّه تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾، وبما ذكرتِ السورةُ قبله من منع المنافقين الإنفاق على أصحاب رسول اللّه؛ وفي ذلك تبكيتٌ للمنافقين، وتسليةٌ للمؤمنين.

دلالة الواو:

تــذكــيرُ أهــل الإيـمـان بانتفاء تغيُّر الآجال

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالواو الاعتراضيّة، وسيقت الجملة المعترضة تذكيرًا للمؤمنين بأنّ ساعة الموت محدَّدة لا تتغيّر[1]؛ فهو حثٌّ للمؤمنين على البدار بالطّاعة والتّعجيل بالإنفاق والصّلاح قبل حلول الأجل ودنوّه. ويجوز أن تكون الواو للحال، أي: (قال ذلك والحال أنّه لن يُؤَخِّر اللّه نفسًا إذا جاء أجلها)[2]؛ كما يجوز أن تكون للاستئناف[3].

دلالة النَّفي بِ(لن):

سنّةُ الآجـال في العباد ماضيةٌ في كلّ الأزمان

آثر النّظم الكريم النّفيَ بـ(لن) في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ للدّلالة على النّفي المؤكَّد؛ فتأخيرُ النّفس عن أجلها منفيٌّ في المستقبل القريب والبعيد نفيًا لا ينتقض[4].

دلالةُ صيغة المضارع:

الإمهالُ والمدُّ في الأعـمـال مُنتَفٍ انتفاءً متجدِّدًا

جاء التَّعبير بالفعل المضارع من التَّأخير في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ للدّلالة على تجدُّد النّفي واستمراره؛ فاللّهُ لن يُمْهِلَ نفسًا فُسحةً من الأجل[5]، لا حاضرًا و لا مستقبلًا، حتّى قيام السّاعة، وهذه سنّةٌ من سُنن اللّه تعالى في خلقه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(3) محمود صافي، الجدول: 14/ 262.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 254.

بلاغة الالتفات إلى الغَيبة:

ما نفاه الله تعالى فمَنْ ذا الَّذي يفعله

التفت النّظم الجليل من التكَلُّم في قول اللّه تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ إلى الاسم الظّاهر في قوله جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾: للدّلالة على أنّه تقديرُ المِلكِ الأعظم الَّذي ليس له كفؤٌ في جلاله وعظمته، فلا اعتراضَ عليه، ولا قدرة لأحدٍ على تغيير آجاله(1).

سِرُّ تنكير ﴿نَفۡسًا﴾:

كلّ نفس بأجَلها، والموتُ سنّةٌ عامّةٌ في الخلق

آثر القرآن الكريم تنكيرَ المفعول من قول اللّه تعالى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾: للدّلالة على العموم والشّمول؛ فلا تأخيرَ لأيِّ نفسٍ، سواء كانت زكيّةً أو مُسيئةً، مؤمنةً أو غيرَ مؤمنة(2).

دلالة التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾:

حلولُ الأجَل حقيقةٌ لا مَفرَّ منها

عبّر النّظم الجليل بـ﴿إِذَا﴾ في قول الحقِّ جلّ شأنُه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾، وهو ظرفٌ لما يُستَقبل من الزّمان، متضمِّنٌ معنى الشّرط؛ والشّرط بها يدلّ على حتميّة الوقوع(3)، وأنّ أجَلَ الأنفُس آتٍ على وجه اليقين. ففي التَّعبير به قطعٌ لرجاء من يسألون الرجوعَ إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، وحسمٌ لأمانيِّهم.

دلالة التّعبير بالمجيء:

حضورُ الموت فيه صعوبةٌ ومشقّةٌ على النَّفس

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمجيء في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾: لما يدلّ عليه المجيءُ من المشقّة والصعوبة(4)؛ فالموت من أشدّ مشقّات الإنسان في حياته. ومجيءُ الأجل هو تعبيرٌ عن "حلول الوقت المحدّد للاتّصال بين الرّوح

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 255.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

والجسد، وهو ما علمه اللّه من طاقة البدن للبقاء حيًّا بحسب قواه وسلامته من العوارض المُهْلِكة"(1).

سِرُّ التَّعبير بالأجَل مُضافًا:

كـلُّ نفس لها عُمْرٌ تستَكْمِلُه وتستوفيه، وأجَلٌ تَبلُغُه ولا تجاوزُه

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالأجل في قول اللّه تعالى ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ لدلالته على المدّة المضروبة لحياة الإنسان في الدّنيا؛ فالأجَلُ هو مدّةُ مُقام الإنسان في الدّنيا وعُمرِه، وإذا ما حلّ الأجل فلا تأخير، لأنّه قد استوفى مدّةَ وُجودِه.

وأضاف النّظمُ الجليلُ الأجَلَ للضَّمير العائد على النّفس، للدّلالة على ما خُصَّت به من تقدير عُمرها وأجَلِها(2)؛ فكلّ نفسٍ لها أجَلٌ وأمدٌ ينتهي عنده عُمرُها.

دلالة الواو:

عِلمُ اللهِ الكاشِفُ موجِبٌ للمبادرة بالخيرات

صدَّرَ النّظمُ الجليل فاصلةَ الآية بالواو في قول اللّه جلّ شأنُه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لعطف هذه الجملة على الجملة السّابقة ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾(3)، إذا حُمِلَتِ الواوُ في جملة النَّفي على الاستئناف؛ والمعنى على هذا "إنّكم إذا علمتُم أنّ تأخيرَ الموت عن وقته ممّا لا سبيلَ إليه، وأنّه هاجمٌ لا محالة، وأنّ اللّه عليمٌ بأعمالكم، فمُجازٍ عليها من منعِ واجبٍ وغيره لم يَبقَ إلّا المسارعةُ إلى الخروج عن عُهْدةِ الواجب والاستعداد لِلِقاء اللّه"(4).

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

علمُ الله تعالى ببـاطـنِ الأمـور مُؤَكَّدٌ ثابتٌ

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبير بالجملة الاسميّة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على تأكيد المعنى وثبوته، فَعِلمُ اللّه تعالى بأعمال الإنسان الظّاهرة والباطنة مُحقّقٌ مؤكّد، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 417.
(3) محمود صافي، الجدول: 14/ 262.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 488 - 489.

يَشوبُهُ شكّ[1]. وفي هذا التَّأكيد ترغيبٌ للمؤمنين من إكثار الأعمال الصالحة، وترهيبٌ للكافرين، فاللّهُ مُطَّلِع على جميع أعمالهم.

الله يعلم الظّاهر والباطن على السّواء

دلالة التّعبير بالاسم الأحسن ﴿خَبِيرُۢ﴾ مُقَدَّمًا:

عبّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الخبير في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لدلالته على العلم بظواهرِ الأمور وخفيّها؛ فهو تعالى يعلم ما ظهر من الأعمال وما خفيَ منها، كأعمال القلوب والنّيّات[2]. وجاء الوصف على صيغة (فَعيل) وبالتّنكير للدّلالة على كمال المبالغة في الخبرة والعلم؛ أي هو بالغُ العلم ظاهرًا وباطنًا[3].

وقدّم النظم القرآنيُّ كلمة ﴿خَبِيرُۢ﴾ على متعلّقه ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: لأنّ حقَّه التقديم، ولأنّ سياق الآيات في الموت وما يتبعه من أمورٍ غيبيّةٌ، وهذا من اختصاص اللّه وصفاته سبحانه، فيناسب ذكر صفته (الخبير)[4].

تحقُّق عِلمِ الله بالأشياء

دلالة الباء:

الباء الجارّة في قول اللّه جلّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ للإلصاق؛ فعِلمُه تعالى ملتصقٌ بما تعملونه في الظّاهر والباطن[5]، لا ينفكّ عنه بحالٍ من الأحوال. وهذا يدلّ على كمال عِلمه، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء.

كلُّ الأعمال مكشوفةٌ معلومةٌ لله

دلالة التّعبير بـ(ما):

عبّر النّظم الجليل بـ(ما) الموصولة في قول اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ - دون (الّذي) - لما فيها من دلالة على العموم والشّمول؛ أي: (إنّه عالمٌ بكلّ عملٍ تعملونه، مهما كان). ويجوز أن تكون (ما) هنا مصدريّةً، أي: (إنّه يعلم عمَلَكم ذاتَه)[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 256.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 95.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

وَسِعَ عِلمُه كلَّ ما يعمله العبدُ قولًا وعملًا

عبّر النّظم الجليل بمادّة العمل في قول الحقّ جلّ شأنُه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لدلالتها على كلِّ ما صدَر من العبد من الأقوال والأفعال والحركات بقصد ونيّة[1]؛ فالعمل أخصُّ من الفعل، فكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا. وجاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على دوام علمه تعالى بتجدّد أعمالكم؛ فمهما عملتم الآنَ أو مستقبلًا فإنّ اللّه تعالى يعلمه[2].

نكتةُ تَرْكِ المفعول:

يشمَل علمُه تعالى الظّاهرَ والخفيَّ مِن الأعمال

لم يُذكَرْ مفعولُ العمل في قول اللّه جلّ شأنه ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لِما في هذا التّعبير من دلالة على العموم والإطلاق؛ فاللّه تعالى يعلم كلّ ما عملوا من اللّهوِ والانشغال عن ذكر اللّه، والإعراضِ عن الإنفاق، وغيرِها ممّا ظهر وخَفيَ من الأعمال والأقوال والنيّات.

توجيهُ قِراءَتَيْ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

اللّهُ خبيرٌ بأعمالِ جميع المكلّفين، ويجازيهم عليها

اختلف القرّاء في ضمير الفعل من قول اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فقرأ شعبة بياء الغَيبة (يعملون)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ فوجه من قرأ بالغيبة أنّه من باب الموافقة لما قبله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ والمعنى: (لن يُؤَخِّرَ اللّهُ نفوسَ الخلق إذا جاءت آجالُهم)، لأنّ النَّكرةَ في سياق النَّفي تفيدُ العموم؛ ثمّ قال تعالى (واللّه خبير بما يعملون) مع كثرتها وتنوُّعِها. وأمّا من قرأ بالخطاب فوجهُه أنّه يعُمُّ المخاطَبين أصالةً وغيرَهم تبعًا[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 97.

(3) ابن أبي مريم، الموضح: 3/ 1272.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيانُ والمجيء:

الإتيانُ ما جاء سهلًا بلا موانع، والمجيءُ ما فيه صعوبةٌ وشدّةٌ

الإتيان يدلُّ على مجيءٍ بسهولةٍ وإزالةِ موانع ومعوِّقات، وأمّا المجيءُ ففيه شدّةٌ وصعوبة[1]. وعبّر في الموضع الأوّل بالإتيان ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، لأنّ الموتَ سنّةٌ من سُنَنِ اللّه في خلقه؛ فهو إخبارٌ عامٌّ عن مجيء الموت، وليس حديثًا عن ساعة الموت الشّديدة. ثمّ السّياقُ فيه عمّا قبل الموت، والمرء في فُسحةٍ من الحياة، بخلاف الموضع الثاني ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾، فعند حضور الأجَل تتجلّى مشاقُّ الموت، وتغشى الإنسانَ سَكَراتُه.

خبير وعليم:

الخبيرُ أخصُّ من العليم، لأنّه عِلْمٌ ببواطنِ الأمور

العِلْمُ إدراكُ الشَّيء بحقيقته[2]، وهو نقيضُ الجَهْل[3]، وأمّا الخِبْرَة فهي المعرفة ببواطن الأمر؛ فالعليم مُدرِكُ الشّيء على حقيقته، وأمّا الخبير فهو العالم بباطن الشّيء. وقول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]، أي: (عالمٌ بأخبار أعمالكم، وبِبواطن أموركم)[4]؛ فأخبر في الآية بأنّه خبيرٌ للدّلالة على علمه بأسرار الآجال، ومكنوناتِ العباد، وغيرهما ممّا تضمّنته الآيةُ ممّا يقتضي علمًا باطنًا.

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جاء، جيأ)، (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).
(4) الرّاغب، المفردات: (خبر).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

سُورَةُ التَّغَابُنِ

التّعريف العامُّ بالسّورة

المكّيّ والمدنيُّ وعد الآي:

مدنيّة في قول الجمهور

هذه السّورة من أكثر السّور اختلافًا في مكّيَّتها أو مدنيَّتها؛ إذ ليس في الرّوايات الثّابتة ما يقطع الخلاف فيها، فقال بعضهم: هي مدنيّة بالكامل[1]، وقال بعضهم: هي مكّيّة إلّا من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن: 14] إلى قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [التغابن: 18][2]، ولعلَّ السّبب الآخر في اختلافهم فيها أنّ بعض موضوعاتها تناولت حقيقتَي الإيمان والكفر، يقول دروزة: "والسّورة من السّور الّتي يختلف الرّواة في مكّيّتها ومدنيّتها، غير أنّ مُعظم روايات ترتيب نزول السّور تَسْلُكها في سِلْك السّور المدنيّة، وفحوى آيات السّورة يُؤيّد مدنيَّتها، ويُؤيّد كونها نزلت دفعةً واحدةً أو متتابعةً، ومن الفحوى الّذي تدلُّ على مدنيَّتها: الأمر بطاعة اللّه ورسوله، والتّحذير من الزّوجات والأولاد، فهذا أسلوبٌ مدنيٌّ، واللّه أعلم"[3].

أمّا عدد آياتها فهي ثماني عشرةَ آيةً ليس فيها اختلاف باتّفاق أهل العدد[4].

ترتيب النُّزول وترتيب المُصحف:

جاء ترتيبها المُصحفيُّ بين سورتَي (المنافقون) و(الطّلاق)

هذه السّورة هي الرّابعة والسّتّون في التّرتيب المُصحفيّ الشّريف،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 317.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 9/ 325.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 544.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 248.

وهو التّرتيب الثّابت والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتَي (المنافقون) و(الطّلاق)، أمّا ترتيبها النّزوليُّ فقد اختلفوا فيه؛ فقيل: هي السّورة السّادسة بعد المائة في ترتيبِ نزولِ السّور، نزلت بعد سورة (التَّحريم) وقبل سورة (الصّفِّ)[1]، وقيل: بل هي السّابعة بعد المائة، نزلت بعد سورة (الجمعة) وقبل سورة (الصّفِّ)[2]، وقيلَ غيرُ ذلك.

فضائلُ السّورة:

هذه السّورة الكريمة من المُفصَّل الّذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التّوراةِ السّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[3]، ووردت فيها أحاديث أخرى لا تقوم حجة على ثبوتها.

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سـورةُ التّغابن اشـتُـهـرت بـهـذا الاسم ولم يثبت لها اسمٌ غيرُه

وردت تسميتها بسورة ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ في كتب السُّنّة، كصحيح البخاريّ[4]، وسنن التّرمذيّ[5]، وكذلك وردت تسميتُها بهذا الاسم في كتب التّفسير، وقد ذكروا أنَّ تسميتها بهذا الاسم لورود لفظة ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ فيها دون غيرها من السّور، وهذا الكلام غير مُسلَّمٍ به، فكم من سورة انفردت بلفظٍ ما ولم تُسمَّ به؟.

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسمِها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها الإبلاغ في التَّحذير ممّا حذَّرت منه (المنافقون)، بإقامة الدَّليل القاطع على أنَّه لا بدَّ من العرض على الملك للدَّينونة على النَّقير والقطمير يوم القيامة، يوم الجمع الأعظم، واسمُها:

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 544.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 258.
(3) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطّبراني في المعجم: (22/ 76)، رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)، برقم: (352).
(4) البخاري، صحيح البخاري، سورة التّغابن: 6/ 155.
(5) الترمذي، سنن الترمذي، بابٌ ومن سورة التّغابن: 5/ 419.

﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ واضحُ الدّلالة على ذلك، وهو أدلُّ ما فيها عليه، فلذلك سُمّيت به"(1).

والحقُّ أنَّ ما ذكره له وجاهتُه، فاسم هذه السّورة ليس مُرتبطًا ارتباطًا مُباشرًا بمحورِها الّذي يقوم على تقرير حقيقتَي الإيمان والكفر، وبيان سنن اللّه تعالى فيهما، وبيان ما ينبغي على المؤمنين أن يلتزموا به حتّى يفوزوا برضوان اللّه ﷻ في الآخرة، وحتّى يُهلك اللّه تعالى عدوَّهم في الدُّنيا والآخرة، لذا فإنَّ تسميتها بـ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ فيه ما يُشير إلى هذا التّمايز بين الفريقين في الآخرة، حيث يكون هذا التّغابنُ بين الفريقين في الجزاء، وفي هذا ما فيه من المُبالغة في التّهديد.

المحورها العامِّ للسورة:

محورُ السّورة يقوم على تقرير الإيمان وأركانه في نفوس أصحابه

إذا كان المحور العامُّ الّذي نظم آيات سورةِ (المنافقون) يقوم على تحذير المؤمنين منَ الاغترار بأقوال المنافقين وأفعالهم، وكشف أساريرِهم، وفضح مواقفِهم، وبيان صفاتهم؛ فإنَّ محور هذه السّورة يقوم على بيان حقيقتَي الإيمان والكفر وسنن اللّه تعالى فيهما، وما يلزم المؤمنين حتّى يفوزوا برضوان اللّه تعالى، فلا يُصيبُهم ما يُصيب الكفّارَ في الدُّنيا والآخرة، فلا يبقى مع هذا الإيمان الحقِّ وجودٌ للمنافقين.

لذا فقد اقتضاها هذا المحور أن تُبيّن لهم ما يأتي:

أوّلًا: بينت السورة سنّة اللّه تعالى في أنَّه خلق الخير والشَّرَّ، وترك للإنسان الاختيار بما أودَعه فيه من قدرة على التَّمييز بينهما، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: 2]، وبيَّن لهم أنَّ هذه السُّنّة الإلهيّة الاجتماعيّة

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 90.

ثابتةٌ كما هو شأن سننه الكونيّة الأخرى الّتي لا تقبل التَّبديل ولا التَّغيير: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3].

ثانيًا: اقتضاها هذا المحورُ أن تُذكِّرَهم بسنَّته تعالى الماضية في استئصال شأفةِ الكافرين وبيانِ جزائهم عبر الأزمان كلِّها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: 5].

وأن تُبيِّن لهم بعضَ أسانيد الكفر الواهية الّتي لا تتغيَّر عبر الأزمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ﴾ [التغابن: 6]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ﴾ [التغابن: 7].

ثالثًا: اقتضاها هذا المحور أن تُبيّن لهم المنهج السَّليم الّذي يجب أن يتّبعوه في الدُّنيا حتّى ينجوا من عذاب الآخرة ويفوزوا بالجنّة: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [التغابن: 8 - 10].

رابعًا: اقتضاها هذا المحورُ أن تُبيّن لهم سنّةً من سننِ اللّه تعالى في تقرير أنَّ كلَّ ما يُصيبُهم في دُنياهم من أذًى إنَّما هو بإذن اللّه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن: 11].

خامسًا: ثمَّ اقتضاها هذا المحورُ أيضًا أن تُفصِّل لهم عواملَ فلاحِهم في الدُّنيا والآخرة، وهي: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: 11]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ﴾ [التغابن: 12]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [التغابن: 16]، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾ [التغابن: 17].

سادسًا: اقتضاها هذا المحورُ أن تُحذِّرهم من المُعوِّقات الّتي تحولُ دون تطبيق منهج اللّه تعالى، وعلى رأسِ هذه المُعوِّقات فتنةُ الأزواج والأولاد والأموال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: 14]، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: 15].

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

الخيط النّاظم لموضوعات السّورة بيانُ حقيقتَي الإيمان والكفر وعاقبةِ أمرِهما

وتميَّزت السّورة الكريمة بالحديث عن آيات اللّه في الأنفس والآفاق، وفي الدّعوة للإنفاق، وفي إقراض اللّه تعالى قرضًا حسنًا، وفي توجيه المؤمنين وإرشادِهم، والحديث عن بعض فتن الحياة الدُّنيا، وفي تقرير أنَّ ما أصاب النّاس من مصيبة في الأرض أو في السّماء إلّا في كتاب، وكذلك في الحديث عن النّور والأمر بالتَّقوى، وغير ذلك من الرّوابط العجيبة.

أولًا: ذكرت السورة أن من في السماوات والأرض يسبحون اللّه، وأن الملك للّه وحده، وهو خالق البشر في أحسن صورة، مع وجود من آمن بوحدانيته واتبعه، ومن كفر ورفض نعم اللّه.

ثانيًا: حذرت السورة من إنكار رسالة النبي محمد ﷺ، وتوعّدت الكافرين بأن جزاءهم سيكون عند البعث، وأنه لا مستحيل في قيام الساعة، وأن الجزاء على الأعمال إما بالنار أو بالجنة.

ثالثًا: أكدت السورة أن اللّه عليم بكل شيء، ظاهرًا وخفيًا، وأن حكمته تقتضي أن يجري كل شيء وفقًا لمشيئته، وأن كل الأحداث، بما فيها المصائب والرخاء، بيده ومقدّرة بقدرته.

رابعًا: دعت السورة المؤمنين إلى الثبات على إيمانهم، والتوكل على اللّه رغم أعدائهم، مع التحذير من بعض الأقارب الذين قد يزرعون الشك، وحثتهم على الصبر على أموالهم المصادرة والإنفاق في سبيل اللّه.

خامسًا: شددت السورة على ضرورة الإيمان باللّه، وتصديق رسوله، والبعث، مع توجيه الدعوة للعمل الصالح، وضرورة الابتعاد عن الشرك، كي يكون الجزاء بالجنة، والنجاة من النار، مع التذكير بأن اللّه يقدر كل شيء وفق حكمته[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 259.

الخصائصُ الموضوعيّةُ لسورة التّغابن:

أولًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها تناولت الحديثَ عن يوم القيامة الّذي سمَّته: يومَ التَّغابن، الّذي لم ترد تسميتُه بهذا الاسم في سورة أخرى، وتحدَّثت بشكلٍ جديدٍ عن عداوة الأزواج والأولاد والأموال، وحذَّرت من فتنتهما بأسلوبٍ اختصَّت به.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمةُ بتعانُق مطلعِها وخاتمتِها بذكر أسماء اللّه الحسنى فيها، فقد ابتُدئت بصفة القدرة، واختُتمت بلوازمِها من العلم والعزّة والحكمة.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ لسورة التّغابن:

أولًا: تميَّزت السورة بأنَّها حوَتْ قاموسًا معجميًّا لافتًا للنَّظر من الألفاظ والتّراكيب الّتي بيَّنت علم اللّه الشّامل، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: 2]، ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: 8]، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١﴾ [التغابن: 11]، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التغابن: 18].

ثانيًا: امتازت السّورة الكريمة بوفرة أسماء اللّه الحسنى فيها.

ثالثًا: تميَّزت بأنَّها حوَت أبنيةً صرفيّةً لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾، ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾، ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، ﴿تُقۡرِضُواْ﴾، ﴿يَهۡدُونَنَا﴾، وغيرها.

رابعًا: تميَّزت أيضًا بأنَّها حوت لفظًا فريدًا في مادَّته وصيغتِه، وقد جاء اسمًا وعلَمًا على السّورة الكريمة، وهو لفظ: ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾.

خامسًا: برزَت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الطِّباق، وأسلوبُ المقابلة، فمن ذلك: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿مُّؤۡمِنٌۚ﴾ و﴿كَافِرٌ﴾، ﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعۡلِنُونَۚ﴾، ﴿وَتَوَلَّواْۖ﴾ و﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾، وغيرها.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بوفرةِ الأنساقِ التّعبيريّة الّتي لم تتكرَّر في غيرها، مثل: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: 2]، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: 6]، ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ [التغابن: 6]، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التغابن: 7]، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: 9]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: 11]، ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: 14]، ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ [التغابن: 14]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: 16]، وغيرها.

أوجه ارتباط سورة (التغابن) بسورة (المنافقون) قبلَها:

سورة التّغابن مُتّصلة تمامًا بسورتَي (المنافقون) و(الطّلاق) مضمونًا وأسلوبًا

أولًا: يرتبط وجه المناسبة بين سورة التغابن وسورة المنافقون من خلال سياقهما وعلاقتهما بسورة المنافقون، حيث وردت في الأولى أوصاف ونماذج من الكافرين وتحذيرًا للمؤمنين من صفاتهم وطرق نفاقهم، وفي الثانية يركز الله على أوصاف المنافقين وتحذيره من أخلاقهم، مع بيان أن الناس ينقسمون إلى مؤمن وكافر، وأن جزاء كل فريقٍ سيكون يوم القيامة، بما يتناسب مع أعماله، وهو ما يتشابه مع مضمون سورة المنافقون التي تتحدث عن تحذير المؤمنين من مخاطر النفاق.

ثانيًا: تذكر السورة أن من أهم المشكلات التي تواجه المسلمين هو انشغالهم بالأموال والأولاد عَن ذكر اللّه، وأن ذلك يُعد فتنة وابتلاء، وتُذكر في سورة التغابن أن الأموال والأولاد فتنة من اللّه، يختبر اللّه بها عباده، وهو ذات المفهوم الذي ورد في سورة المنافقون حيث نهى اللّهُ المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر اللّه، ويُحث على إنفاق المال في سبيل اللّه، وهو ما يبرز العلاقة بين التوجيهين بضرورة التوازن بين الدنيا والآخرة.

ثالثًا: تَتّفِقُ السورتان على أن التّقاعُسَ عن الإيمان والعمل الصالح، وعدمَ الإنفاق في سبيل اللّه سوف يوقع الناس في

الخَسارة يوم القيامة، حيث فيها يَغْبِن بعض الناس بعضًا، ويخسرون جزاءهم، فيَنْعَدِم رضا اللّه عنهم ويلاقون العذاب، وهذا يوضح أن السّورتين تحثّان على أهمية العمل الصالح، وتؤكّدان على أن التهاون في الإيمان والعبادة سبب في الخسارة الكبرى، وأن الطريق للنجاة هو الإخلاص للّه، والإنفاق في سبيله، وأن التخاذل يُعَرّض الناسَ لِلْخسران العظيم[1].

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 232.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [التغابن: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر أسباب الغفلة إلى ذكر موجبات التَّذكر واليقظة

لما ذُكر في آخر سورة (المنافقون) الحثُّ على الإنفاق وعدمُ الالتهاء بالأموال والأولاد عن ذكر اللّه تعالى، والمُسارعةُ إلى الإنفاقِ في سبيل اللّه تعالى قبل انتهاء الأجل، فكانت خاتمة السّورة تذكيرًا بأنَّ اللّه ﷻ هو صاحبُ الملك، وهو المُستحق للحمد لِما أولى عباده من العطاء العظيم، المتمثِّل في الأبناء والأموال؛ ناسبَ أن يكون مطلعُ سورة التّغابن حثًّا على التَّسبيح والتَّنزيه للّه رب العالمين، الّذي له الملك الحقيقيُّ لِما في السّماوات والأرض، وهو المُستحقّ للحمد التّام؛ فيكون مطلع سورة التّغابن مُتضمِّنًا توجيه النّاس إلى مَن يستحق العبادةَ الحقّة، والتَّوجه إليه دون سائر خلقِه في العناية والرّعاية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾: (ملك) أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء وصحّة[1]. والمُلْكُ: الحقُّ الدّائم للّه، فلذلك قال: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، فالمُلْكُ: ضبطُ الشّيء المُتصرّف فيه بالحكم[2]، والمُلك: هو القهرُ والتّسلُّط على مَن تتأتّى منه الطّاعة باستحقاقٍ وبغير استحقاقٍ.

والمعنى المحوريُّ: إمساكٌ أو امتِساكٌ بشدّة أو قوة مع شمول[3]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ملك).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملك).

والمقصود بالملك في الآية الخلق الّذي خلقَه اللّه تعالى فملكَه، ولا موجودَ إلّا وهو مخلوقٌ للّه تعالى.

2) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: نقيضُ الذَّمِّ؛ ويُقال: (حمدتُه على فعلِه)، ومنه: (المَحمَدة) خلافُ المَذمّة، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]، وأمّا قول العرب: (بدأت بالحمدُ للّه)؛ فإنّما هو على الحكاية؛ أي: بدأتُ بقول: الحمدُ للّه رب العالمين[1]، وهو الثَّناء على اللّه بالفضيلة[2]، والحمدُ المُرادُ في الآية: المحامدُ الحقّة كلُّها الواجبةُ له تعالى.

المَعنى الإجماليُّ:

التَّسبيح عنوان الاعتراف الحقِّ بدليل الملك والقدرة واستحقاق الحمد

أخبرتِ الآيةُ الكريمة بأنَّ كلَّ مَن في السّماوات ومَن في الأرض يُسبِّح اللّه تعالى اعترافًا بقدرته التّامّة وسيطرته على مخلوقاته، فله الملك وحدَه لا لغيره، وهو المحمود دَومًا، وهو القادر على كلِّ شيء، فالتَّسبيح له ما يُعزِّزه من القدرة والهيمنة للّه ﷻ، فذكرتِ الآيةُ تسبيح المخلوقات كلِّها للّه تعالى، ثمّ علّل ذلك بأنّه صاحبُ الملك، المستحقُّ للمحامد، القادر على كلّ شيء، فهذه الثّلاثة هي أركان مَن يستحقُّ التّسبيح والتّمجيد، ولا تكونُ إلّا للّه تعالى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلال:

دلالةُ التّسبيح عامّةٌ يدخل فيها كلُّ أنواعه وأقسامه

ابتدأتِ الآيةُ الكريمة بعنوان التّسبيح في مطلع السّورة؛ لأنَّ اللّفظة ضمّت أنواع التّسبيح، فيشمل تسبيح الخِلقة؛ يعني: أنّك إذا نظرت إلى شيء دلّتك خِلقَتُه على وحدانيَّته تعالى، وتنزيهه عمّا لا يليق به، وتسبيحَ المعرفة؛ بأن يخلق في كلِّ شيءٍ ما يُعرِّفه به تعالى ويُنزِّهه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حمد).

بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44]، وتسبيحَ الضّرورة، بأن يُجريَ اللّهُ التّسبيحَ على كل جوهر، من غير معرفةٍ له بذلك[1]، فجمع لفظ التّسبيح أحوال المخلوقات في اللّفظ الكريم ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهذا من بديع المطلع، وبراعة الاستهلال للسّورة، المشتملة على ما يدلُّ على عباده الموحِّدين، مع ذكر أضدادِهم من الكافرين.

الثّناءُ على المؤمنين والتّعريضُ بالمشركين

دلالةُ استعمال مفردة (التَّسبيح):

جاء استعمال الفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإضفاء عددٍ من الدّلالات على الآية، فالتّسبيح يُشير إلى الذّات الإلهيّة؛ فهو لم يُطلَق في القرآن كلِّه إلّا مع الذّات الإلهيّة[2]، وهو ابتداء تقرير تنزيه اللّه تعالى وقوة سلطانه؛ ليزداد الّذين آمنوا إيمانًا، ويكون أمر التّنزيه لهم تعليمًا وامتنانًا، والتّعريض بالمُشركين بطريق الكناية، فهؤلاء لم يُنزِّهوه ولا وقَّروه فنسبوا إليه شركاء[3]، فكان التّسبيح تعريضًا بهم؛ فهم ليسوا أهلًا لهذا التّسبيح؛ فإن أعرضوا عن الذِّكر والشُّكر، فهناك مَن يواظب عليهما[4].

دلالةُ التّعبير بصيغة المضارع:

التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ تنويهٌ بإقبال أهل السّماوات والأرض على تسبيح اللّه وتمجيده ما تعاقب الملَوان[5]، والثّناء عليهم بدوام ذلك منهم، والتّعريض بالغافلين.

التّسبيح الحقيق باسمه ما كان لله عزَّ اسمُه

معنى اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إمّا أن تكون بمعنى: التّقوية؛ أي: تقوية وصول الفعل إلى المفعول، والمعنى: سبَّحَه، وتحتمل أن

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 40.
(2) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية في الذكر الحكيم: 4/ 145.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 260.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 551.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 261.

تكون لامَ التّعليل؛ أي: أنّ التّسبيح الحقيق بهذا الاسم هو الصّادر عن كلِّ مُسبِّح لأجل اللّه تعالى؛ أي: لوجهه خالصًا[1]، وبناءً عليه أفادت اللّام دلالة الاختصاص بمعونة السّياق، وذلك أنّ التّسبيح له وحدَه؛ إمعانًا في العظمة والوحدانيّة.

نكتة تعدية فعل التّسبيح باللّام لا بنفسِه:

شموليّة التّعدّي باللّام مع إحاطته للعاقل وغير العاقل

تعدّى فعلُ التّسبيح باللّام ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ لا بنفسِه (يُسبِّح اللّهَ ما في السّماوات)؛ لعموم دلالة فعل التّسبيح الجاري على العقلاء وغيرهم، ولشُموله أوقاتَ التّسبيح كلِّها، أمّا المُتعدّي بنفسه فلا يُستعمل إلّا للعقلاء، وذلك إذا كان عاملًا في الضّمير، كقوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح: 9]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: 41 - 42][2].

نكتةُ تقديم شبه الجملة على المُسند إليه:

بيان مقصود السّياق والتّوجيه لغرض النّظم

قُدِّم شبه الجملة ﴿لِلَّهِ﴾ على المسند إليه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للعناية بمُستحِقِّ التّسبيح، وهو اللّه ﷻ[3]، فالتّقديم أفاد تخصيص التّسبيح للّه وحده لا شريك له لا لغيره، وهذا موضع الاعتبار في الجملةِ؛ فإنَّ إيراد التّسبيح إنّما يُرادُ به بيان اختصاصه باللّه تعالى وحده، مع ما فيه من ترقُّب النّفس وتشوُّقِها إلى ما سيرد من قولٍ بعد شبه الجملة، ففي التّقديم تشويقٌ لما في المسند إليه من دلالة.

نوع (ما) وفائدةُ تكرارها:

الإحاطةُ بكلِّ المُسبِّحين والعمومُ الدّالُّ على جميع المخلوقين

آثر النّظم الكريم استعمال أداة (ما) اسمًا موصولًا دون (الّذي)؛ للدّلالة على العموم، فيدخل فيها العاقل وغير العاقل، وهي أكثر عمومًا واستغراقًا من (الّذي)، وأفاد تكرارها في قوله تعالى:

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 100.
(2) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 275.
(3) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 278.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التّوكيد اللّفظيّ[1]، وتمكين الحدث من النّفس، والاستيفاء والإحاطة بكلّ المُسبّحين، وبما أحاط به علمُه سبحانه[2]، والاختلاف والتّباين الموجودَين بين أهل السّماوات والأرض؛ كما أنَّ التّكرار دالٌّ على المُبالغة[3] في التّسبيح، فكان التّكرار هامسًا بكلِّ هذه المعاني والإيماضاتِ الجاذِبة.

فائدة تعريف لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عهديّة، فهي السّماوات والأرض المعهودة لدى المُخاطَبين عند الإطلاق، فلا يتبادرُ إلى الذِّهن سواهما، وإن لم يُحط المُخاطَبون بهما، لكنَّ المعنى معهودٌ عهدًا إجماليًّا، فيدخل في اللّفظِ كلُّ سماءٍ، عرفَها الإنسان أو لم يعرفها، وكذلك كلّ أرض، وحملُها على الجنس له وجهٌ من القبول؛ أي: جنس السّماوات وجنس الأرض، عن طريق الاستغراق الحقيقي بوضع كلمة (كل) موضع (أل)، وتنكيرِ ما بعدها[4]، فيصحُّ أن نقول: كلّ سماء وكلّ أرض؛ للإشارة إلى جلالة الإلهيّة وهيبة ما خلقَ؛ استعدادًا للإذعان والتّسليم، والإشارة إلى القدرة المُطلقة.

كلُّ ما في السّماوات وما في الأرضِ مُقرٌّ بالإذعانِ والاستسلام

دلالة استعمال حرفِ الظّرفيّة:

استعمل النَّظم الكريم حرف الظّرفية لاستيفاء المظروفِ على الوجه الأكمل، حيث أدَّى دورًا كبيرًا في المعنى، فدلالة ﴿فِي﴾ تُعطي إحاطة شاملة بجميعِ المخلوقات في السّماوات والأرض، بما يعني: شمولَ القدرة الإلهية، وخضوع الخلق كلِّهم لتسبيحه والاعتراف بكماله المطلق سبحانه عن أيِّ نقص، فدلَّ حرف الظرفيّة على

الاعتراف بالكمالِ المُطلق صادرٌ عن جميع الخلق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 260.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 475.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 552.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 73.

الكمال المُطلق المُستغرق لكلِّ شيءٍ، من حيث إنَّ التّسبيح اعترافُ جميعِ المخلوقات بانتفاء النَّقص.

نكتة تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الملائكةُ سابقون في الوجود والتَّسبيح

قُدِّم ذكرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ذكرِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ أهل السّماوات عامَّتهم من الملائكة، وهم أسبَقُ في الوجود والتّسبيح من أهل الأرض، فإنّه لـمّا أراد خلقَ آدم قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]، وهم أدوَمُ تسبيحًا، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 20][1]، مع ما في أمر السّماوات من عظيم الشّأن، وعُلوِّ المكانة.

نكتةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

جمعُ الألفاظ يُلاحَظُ فيه البناء الصّوتيّ والملحظُ الدّلاليّ

آثر النَّظم الكريم في القرآن العظيم إفرادَ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لخفّته اللّفظيّة، فالجمع ثقيل، وليس ذلك الثِّقل في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقد ورد لفظ (الأرض) في القرآن ثلاثمائة وواحدًا وستين مرّةً بصيغة الإفراد[2]، ثمّ إنَّ لفظَ (الأرض) جارٍ مجرى المصدر، فهو بمنزلة السُّفل والتَّحت، فكما لا يُجمع السُّفل والتَّحت لا يُجمع ما جرى مجراهما، أمّا (السّماء) فهي وإن كان مثالها على المصادر كالعلاء؛ فهي أشبهُ بأبنية الأسماء[3]؛ لذا جُمعت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولم تُجمع ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ويُضاف إلى ذلك أنَّ إيثار جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لما هو المشهور من الإيذان بأنّها أجرام مختلفة الطِّباع مُتباينة الآثار والأحكام[4].

بلاغةُ فنِّ الطِّباق:

الـدَّلالـةُ على تنوُّعِ المسبِّحين

بين لفظَي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباقٌ، وفائدتُه: بيان القدرة

(1) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 279.
(2) الأمين الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 81.
(3) السهيلي، نتائج الفكر في النحو بتصرف، ص: 157.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 62.

المُطلقة، فقد جمع بين النّقيضَين على غير مثالٍ سابق، ولما فيهما من باهر القدرة وعِظَم الملَكوت.

نكتةُ الفصلِ بين الجمل:

تعليلُ أفعالِ العبادِ بكمالِ الملكِ لصاحبِ الجلال

فُصِل قولُه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ لأنّه استئنافٌ واقعٌ موقعَ التّعليل والتّسبُّب لمضمونِ قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فإنَّ مُلابسة جميع الموجودات لدلائل تنزيه اللّه تعالى عن الشُّركاء وعن النَّقائص لا مُقتضى لها إلّا انفرادُه بتملُّكها وإيجادها وما فيها من الاحتياج إليه، وتصرُّفه فيها تصرُّفَ المالك المُتفرِّد في ملكه[1]؛ فكأنّه قيل: لأنّه مالك المخلوقات فهي تُسبِّح له.

وتحتمل الجملةُ أن تكون حاليّةً[2]، والمعنى: يُسبِّح للّه ما في السّماوات وما في الأرض حال كون الملك كلِّه له وحدَه، وحال استحقاقه لجميع المحامد، وفي الحال معنى التَّعليل، فعلى التَّوجيهَين دلالةُ التَّعليل ظاهرةٌ، فبين الجملتين شبهُ كمال الاتصال.

نوع اللّام ودلالتُها:

اللّام الجارّة في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ تحتملُ الاختصاص، وتحتملُ الملك، كقولك: (الدّارُ لزيد)، وفيها معنى القدرة والاستيلاء، كقولك: (البلدُ للسُّلطان)، وهذه المعاني تتّصل ولا تنفصل.

فائدةُ تقديم شبه الجملة على المُسند إليه:

كلُّ ملكٍ لغير اللّه فمجازيٌّ زائلٌ لفقدِه الاستحقاقَ الكاملَ

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ لغرضِ القصر الادِّعائيّ المبنيّ على عدم الاعتداد بما لغير اللّه من ملك؛ لنقصه وعدم خلوِّه عن الحاجة إلى غيره، بخلاف ملكه تعالى، فهو المَلِك المُطلق الدّاخل في سلطانه كلُّ ذي مُلكٍ[3]، ففي التّقديم معنى اختصاص الملك والحمد باللّه ﷻ، وذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 267.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 105.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 261.

لأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنّه مُبدِئُ كلّ شيء ومُبدِعُه، والقائم به، والمُهيمن عليه، وكذلك الحمدُ؛ لأنّ أصول النِّعم وفروعَها منه[1]، فالتّقديم أشدُّ وقعًا من التّأخير، وأفخَمُ شأنًا في الدّلالة على المعنى المنشود، مع ما يحمله من التّعريض بالكفّار وآلهتهم الّتي لا تملك شيئًا، وفي تقدُّم شبه الجملة على المبتدأ في الجملتين إلماحٌ إلى المُطابقة اللّفظيّة في تناسب الآيِ وتشاكُلِها.

علّةُ الإضمار بعد الإظهار:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على طريق الإضمار بعد الإظهار؛ لأنّه الأصل، وغرضُه الإيجاز الّذي هو فرعٌ عن أصل طلب الخفّة[2].

مـالـكُ المـلـكِ مستحِقٌّ للحمدِ ظاهرًا وباطنًا

معنى تعريف لفظِ: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ جنسيّة استغراقيّة، فالمقصود جنس الملك والحمد، عن طريق الاستغراق الحقيقيّ بوضع لفظة (كلّ) موضعَ (أل)، وتنكيرِ ما بعدها[3]، فيدخل فيه كلّ ملك وكلّ حمد، والملمح هنا من دلالة الجنسيّة الاستغراقيّة الإشارةُ إلى السّيطرة التّامّة والهيمنة على كلّ ملك، واستحقاق كلّ حمد، وفيه إشارة إلى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال[4]، مع كمال الحمد واستغراقه.

كـلُّ مـلـكٍ فلله على التّحقيق، وكـلُّ حـمـدٍ فله في الذِّكر الأنيق

الفرقُ بين المِلك والمُلك:

دلَّت لفظة (المُلْك) على الحقِّ الدّائم لله، فلذلك قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، فالمُلْك ضبطُ الشّيء المُتصرَّف

المُـلـكُ ضـبـطُ الأشـيـاء مع التّحكُّم التّامِّ فيها

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 545.
(2) تمام حسان، البيان في روائع القرآن: 1/ 137.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 73.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 253.

فيه بالحكم، و(المِلْكُ) كالجنسِ للمُلْكِ، فكلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليس كلُّ مِلْكٍ مُلْكًا، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ، قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26][1].

نكتةُ إيثار كلمة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ دون مُرادفاتها:

ملك العبادِ فضلٌ مُؤقَّت من الله يُعطي ويُمنَعُ

آثر النَّظم الكريم استعمال كلمة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ دون مُرادفاتها نحو (الملَكوت)؛ لأنَّ الملَكوتَ هو ملك اللّه خاصّةً، ويدخل فيه ملكُه الظّاهرُ والباطنُ أو الخفيُّ، ممّا لا يطّلع عليه أو يُحيط به أحدٌ، وأمّا ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ فهو ملك اللّه تعالى الّذي قد يتفضَّل ببعضِه على عباده[2]، ليكون لهم ملكًا مُؤقّتًا ينتفعون به، وتجري عليه أحكامٌ معروفةٌ بين النّاس.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميّة:

الثَّبات والاستمراريّة مع كمالِ القدرة وتمامِ الهيمنة

دلّت الجملة الاسمية: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على الدّوام والاستمرار مع الثّبات، وفي الثّبات قوّة وتمكُّن، فملكه ثابتٌ لا يُنازعُه فيه منازعٌ، ولا يُزلزلُه مُزلزلٌ، فدلَّ ذلك على كمال القدرة، ومطلق الحكم والهيمنة، مع كمال الحمد، فلا محمودَ بحقٍّ إلّا هو؛ فدلَّ على دوام المعطوفات: الملك والحمد.

دلالةُ واو العطف:

تعداد الأسباب الموجبة للتَّنزيه لتأكيد الاعتقاد والتّعريض بالشّرك

ربطت الواو بين الجملتين في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ إشارةً إلى علائم القدرة والعظمة، ودلّت جملة: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على سبب تسبيح ما في السّماوات وما في الأرض؛ إذ التّسبيح من الحمد، لذا كان الحمد مختصًّا به وحده تعالى؛ فهو الموصوف بالجميل، وهو الحقيق بالحمد الجزيل والتّسبيح الجليل، فالعطف من باب تعداد الأسباب الموجبة للتَّنزيه، بغرض تأكيد موضوع التَّنزيه في خطاب العقلاء، وأنّه لا يكون إلّا للّه وحدَه، مع التَّعريض بالمشركين.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ملك).
(2) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 4/ 145.

مناسبةُ اقتران الحمد بالملك:

تجدُّدُ الحمد مُناسبٌ لثباتِ المُلْك لله وحدَه وبقائِه

بعد ذكر المُلك وأنّه للّه تعالى وحده ناسب ذكر الحمد بعد ذلك، لبيان ما يترتّب على الملك من استحقاق الحمد، ولمّا كان لا إنعامَ إلّا من اللّه تعالى وجبَ القطعُ بأنّ أحدًا لا يستحقُّ الحمد إلّا اللّه تعالى[1]، ومن دلالات الحمد شموليّةُ الزّمن، فللحمد تعلُّقٌ بالماضي، وتعلُّقٌ بالمستقبل، أمّا تعلُّقه بالماضي فهو أنّه يقع شكرًا على النِّعم المُتقدّمة، وأمّا تعلُّقه بالمستقبل فهو أنّه من أسباب تجدُّد النِّعم[2]، فكان الحمدُ شاملًا لكلِّ زمان، ولمّا كان المُلك مُستمرًّا له سبحانه دون سواه، ناسب الجمع بين استمرارِ الملك وتجدُّد الحمد.

نكتةُ بدء السّورة بالتّسبيح لا الحمد:

التّسبيح أصلُ الحمدِ، والحمدُ برهانُ المُسبِّح

بدأتِ السّورة الكريمة بالتّسبيح لا الحمد؛ لأنَّ التّحميد يدلّ على التّسبيح دلالة التّضمُّن، فإنّ التّسبيح يدلُّ على كونه مُبرّأً في ذاته وصفاته عن النّقائص والآفات، والتّحميد يدلُّ مع حصول تلك الصّفة على كونه مُحسنًا إلى الخلق مُنعمًا عليهم رحيمًا بهم، فالتّسبيح إشارةٌ إلى كونه تعالى تامًّا، والتّحميدُ يدلّ على كونه فوق التّمام، فكأنّ الحمد تتميمٌ للتّسبيح[3]، ولذلك ناسب البدء بالأصل، وذكر ما ينشأ عنه بعده، ومن هنا يُقدَّم في الدّعاء ذكرُ التّسبيح على التّحميد، فيُقال: سبحان اللّه وبحمدِه.

فائدةُ الواو ودلالتُها في جملة الفاصلة:

تأكيدُ الملكِ والحمد وبيانُ قصرهما بصفة القدرة المُطْلقة

الواو في الجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطفت الجملة على الجملتين السابقتين: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، وهي بمنزلة التّذييل لهما، والتّبيين لوجهِ معنى القصر في الجملتين: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، والتّقدير: على كلِّ شيءٍ هو صاحب الملك الحقِّ،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 193.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 195.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 1/ 194.

وهو المُختصُّ بالحمد الحقِّ[1]، فكان العطفُ بالقدرة مُبيِّنًا معانيَ الملك والحمد.

قدرةُ الله ﷻ فوقَ كلِّ قدرة

نكتةُ استعمال حرفِ الاستعلاء:

دلَّ حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ على صفة التَّمكُّن والاستيلاء والتَّصرُّف المُطلق، وهو ما يُناسبُ كون الملك والحمد له وحدَه.

قدرةُ الله تعالى مُحيطةٌ إحاطةَ استعلاءٍ بجميع المخلوقات

دلالةُ استعمال أداة العموم ﴿كُلِّ﴾:

دلّت لفظة العموم ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ على الإحاطة والشّمول، وهي الّتي أقامت دلالات القدرة، فمن دونها يختلُّ النَّظم، فلا يُقال: (وهو على شيء قدير)، فقدرته تعالى مُستعليةٌ على المجموع المطلق من المخلوقات جميعِها، فلا يخرج شيءٌ عن أداة العموم.

استغراقُ أفرادِ العمومات والأجناسِ

دلالةُ الإضافة:

أُضيف لفظُ ﴿كُلِّ﴾ إلى لفظٍ نكرةٍ وهو ﴿شَيۡءٖ﴾؛ لإفادة استغراق كلِّ فرد من أفراد الجنس[2]، و﴿كُلِّ﴾ من ألفاظِ العموم، والإضافة - زيادةً على ما سبق - تُفيد الاستقصاء الشّامل لكلِّ ما يصحّ أن يُطلق عليه شيءٌ، ففي ذلك القدرة المطلقة على معرفة كلِّ شيءٍ مهما كان، ففي الإضافة إحاطةٌ.

عمومُ قدرته ﷻ

نكتةُ تقديم شبه الجملة على المُسند:

قُدِّم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المسند ﴿قَدِيرٌ﴾ للاهتمام بمضمون شبه الجملة، الدّالِّ على الإحاطة والشُّمول، وهذا التَّقديم هو عادة القرآن في أكثرَ من ثلاثين موضعًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 261.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 99.

نكتةُ تنكير لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

قدرةُ الله مطلقةٌ لا ينازعه فيها منازع

دلَّ تنكيرُ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ على العموم للتّنبيه[1]؛ ليشملَ كلَّ مخلوق سواءٌ أكان عاقلًا أم غير عاقل، صغيرًا أم كبيرًا؛ بيانًا للقدرة المُطلقة، والهيمنة العظيمة المُتمثلة في لفظة: ﴿قَدِيرٌ﴾.

بلاغةُ التَّذييل في ذكر صيغةِ ﴿قَدِيرٌ﴾:

صيغةُ المبالغة (قدير) تأتي في سياق القدرة المُطلقة

جاء ذكرُ لفظ القدير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لبيانِ أنَّ المخلوقات الّتي تُسبِّح اللّه دالّة على صفة القدرة؛ فمَن يُشاهد المخلوقات يعلمُ أنَّ خالقَها قادر، وفي هذا التَّذييل وعدٌ للشّاكرين، ووعيدٌ وترهيبٌ للمُشركين[2]، وعزَّزت الصيغةُ ذلك، فالمُلاحظ أنَّ التَّنزيل إذا عمَّم القدرة أو أطلقَها لم يأتِ إلّا بصيغة المُبالغة، دون اسم الفاعل (قادر)؛ فإنَّ المقدرةَ على كلِّ شيء أو القدرة المُطلقة غير المُقيّدة تُنادي على صيغةِ المبالغة.

أمّا إذا جاء باسم الفاعل (قادر) فإنّه لا يُطلقُه ولا يُعمِّمه بل يُقيِّده بأمرٍ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: 65][3].

توجيهُ ترتيب صفاتِ الملك فالحمد فالقدرة:

بيانُ الملك العظيم المُستوجب للحمد المُقتَضي للقدرة

جاءت الكلمات المُتعلّقة بصفات اللّه تعالى ذاتَ ترتيبٍ دلاليٍّ، فاللّه سبحانه له الملك، والملك يقتَضي السَّيطرة والهيمنة وترتيبَ أحوال العباد على أحسن الهيئات، وهذا يقتَضي الحمد والشُّكر على ما أسبغَ عليهم من نِعَمٍ، ثمَّ كان التَّتميمُ بذكر القدرة، فلا يفعل ذلك إلّا قادرٌ على الهيمنة في مصائر العباد وأحوالهم، فكيف

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 261.
(3) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 331.

لا يُقدِّسُه جميعُ الأعيان؟ إذ له المُلكُ والملَكوت على سبيل الحصر والتّخصيص، لا مالكَ سواه، ولا مُتصرِّفَ فيه ولا مُستوليَ عليه إلّا هو، وله الحمدُ أيضًا؛ إذ لا مُستحقَّ للحمد بالاستحقاقِ إلّا هو، ولا مُفيضَ للنِّعم على الآفاقِ غيرُه، ولا مُقدِّرَ للأرزاق سواه، فهو قديرٌ لا تنتهي قدرتُه عند مقدورٍ[1]، فكان التَّرتيبُ على أحسنِ الوجوه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحمدُ والشُّكرُ:

الحمدُ أعمُّ من جهة مُتعلّقاتِه، والشُّكرُ أعمُّ من جهة أنواعِه

الحمدُ أعمُّ؛ لأنّه يقع على الثّناء، وعلى التَّحميد، وعلى الشّكر والجزاء، والشُّكر مخصوصٌ بما يكون مكافأةً لمن أولاكَ معروفًا، فصار الحمدُ أثبتَ؛ لأنّه يزيدُ على الشّكر[2]، ويُقال: إنَّ الشُّكر أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصُّ من جهة مُتعلّقاته فيه، والحمد أعمّ من جهة المُتعلّقات، وأخصّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا أنَّ الشّكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانةً، وباللِّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا؛ ومُتعلّقه النِّعمُ دون الأوصاف الذّاتيّة، فلا يُقال: شكَرْنا اللّه على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمودُ بها، كما هو محمودٌ على إحسانه وعدله، والشُّكر يكون على الإحسان والنِّعم. فكلُّ ما يتعلَّق به الشُّكر يتعلَّق به الحمدُ من غير عكسٍ، وكلُّ ما يقع به الحمد يقعُ به الشُّكر من غير عكسٍ، فإنَّ الشُّكر يقع بالجوارح، والحمدَ باللِّسان[3]، والحمدُ والشُّكرُ مُتقاربان، والحمدُ أعمُّهما؛ لأنَّك تحمدُ الإنسان على صفاته الذّاتيّة، وعلى عطائه، ولا تشكرُه على صفاته[4].

(1) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 418.
(2) النحاس، معاني القرآن: 1/ 57.
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 340.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من عمومِ الخلقِ إلى خصوصِ التَّمثيل

لمّا اختُتمت الآية السّابقة ببيان كامل القدرة وعراقتِها على كلِّ شيءٍ؛ فأفادت عمومَ القدرة، ناسب بيان أحد مظاهر هذه القدرة، في بعض جزئيّات هذا المظهر وهو الخلق، فهو انتقالٌ من العموم إلى التَّمثيل بخصوصٍ من ذلك العموم، وهو انتقالٌ بديعٌ يُبيِّنُ مقصودَ مطلع السّورة، وما بدأت به من ذكر الأوصاف الجليلة، والنُّعوت الجميلة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَافِرٌ﴾: الكُفر في اللُّغة: سترُ الشَّيء، ووُصِفَ اللَّيل بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والكافرُ على الإطلاقِ مُتعارفٌ فيمَن يجحدُ الوحدانيّة، أو النُّبوّة، أو الشّريعةَ، أو ثلاثتَها[1]، والمعنى المحوريُّ: تغطيةٌ تامّة كثيفة لا يظهرُ منها شيء للمُغطَّى[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

ما يقتَضيه الحقُّ لا يلتزمُه عمومُ الخلق

تُخاطبُ الآية الكريمة البشر بأنَّ الّذي خلقَهم هو اللّه تعالى، ترغيبًا بوجوبِ توحيده وعبادته، ثمَّ فرَّعت على ذلك حال النّاس ما بين مُؤمن وكافر وصفًا لما آل إليه البشر، ثمَّ ذكرت أنَّ اللّه بصير رقيبٌ ترهيبًا من الاستمرار على الكفر، وتحذيرًا من ترك الإيمان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتِها:

فصَلَ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ عن الآية السّابقة في

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (كفر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفر).

بيانُ عمومِ النِّعمِ بذكرِ بعضها لتحقيق مقصد السّياق

تعديد النِّعم وتتاليها، وذلك أنَّ هذه الآية بيانٌ لبعض قدرتِه تعالى العامّة، والمُراد: هو الّذي أوجدَكم كما شاء[1]، وذِكرُ بعضِ النِّعم تقريرٌ وبيانٌ لِما سبق، وتخلُّص للمقصود منه على وجه التَّصريح بأنَّ الّذين أشركوا باللّه قد كفروا بنعمته وبخلقِهم، زيادةً على جحدِهم دلائل تنزُّهه تعالى عن النَّقص الّذي اعتقدوه له[2]، فمنزلة الآية من السّابقة منزلةُ البيان من المُبيَّن، فبينهما كمالُ الاتِّصال.

نكتةُ ذكر الخالقِ سبحانه بالضَّمير:

الإشارةُ إلى الوحدانيّة والقدرة على الخلق بما لا يكونُ لغيرِ صاحبِها

جاء ذكرُ الخالق ﷻ بضمير (هو) دون الاسم الجليل، وذلك لبيان أنَّه إلهٌ واحد وإن اختلفت أسماؤُه[3]، ثمَّ إنَّ الضَّمير جاء توكيدًا لفظيًّا للضّمير في الآية الّتي تسبقُها: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وفي توظيف الضَّمير (هو) إظهارُ المنّة وسوابغ النِّعم على الإنسان، فهو الّذي خلقَه وسوّاه، فكان للإنسان المنزلةُ العليا والقِدحُ المُعلَّى في التّكريم.

بلاغةُ أسلوب القصر ونوعُه:

الإشارةُ بالكنايةِ للرّدِّ على المُشركين فيما زعموه لأصنامِهم

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ قصرٌ بتعريفِ الطَّرفَين، وهو قصرُ صفةِ الخالقيّة على اللّه تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ قُصِدَ به الإشارةُ بالكناية بالرّدِّ على المشركين، إذ عمدوا إلى عبادة أصنام يعلمون أنّها لم تخلُقْهم، فما كانت مستحقّةً لأنْ تُعبدَ؛ لأنّ العبادةَ شكرٌ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17][4].

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

آثر النَّظمُ الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، دون الاسم الظّاهر كأن يُقال: (هو خالقُكم)،

(1) روح المعاني، الآلوسي: 14/ 315.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 262.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 111.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 262.

الإشعارُ باختصاصِه سبحانه بحقوق صفة الخالق والتَّعريضُ بالمُشركين

فكان الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ نصًّا في الإفراد، وكونه مختصًّا من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع ممّا يدلُّ على علوِّ الشَّأن[1]؛ أي: هو دون سواه، ففيه بالإضافة إلى الخبر تخصيصٌ له بهذه الصِّفة، وتعريضٌ بمَن زعم أنَّ خالقًا مع اللّه تعالى، فكأنّه قال: هو الّذي خلقكم، لا مَن ادَّعيتُم له حقوق الخالق، فالمُشركون لم يقولوا: إنّ الأصنام خلقَت، ولكنَّهم عامَلوها مُعاملةَ مَن يخلُق، ولذلك عرَّض بهم، وبما زعموه لها من حقوق الإله العظيم.

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي:

الخلق المعلوم لا يقدرُ عليه إلّا الحيُّ القيّومُ

جاء التَّعبير بالفعل الماضي ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ للتّصريح بالثّبات والاستقرار، فلا زحزحةَ ولا زعزعةَ، وهذا يُناسبه الفعل الماضي الّذي دلَّ على أمرٍ حدَثَ وانتهى، وللتَّلويح بما يُشيرُ إليه الماضي بمعونة السّياق إلى دوام الخلق واستمرارِه.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الكفرُ بالخالقِ بعد منَّته سبحانه عجيبٌ صدورُه عن عاقلٍ

حرفُ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ إمّا أن يكون تفصيلًا لِما في قوله: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، فالفاءُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ [النور: 45][2]، ويحتمل أن تكون الفاء للتَّفريع المُشعِر بالتَّعجُّب من وجود مَن هو كافرٌ باللّه تعالى مع أنَّه سبحانه هو الّذي خلقَه، وخلق كلَّ شيء[3]، وتحتملُ أن تكون عاطفةً على: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، وهذا يقتضي أنَّ الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقةِ، لا في أصل الخلقةِ[4].

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

دلَّ حرفُ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾

(1) سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، ص: 34.
(2) روح المعاني، الآلوسي: 14/ 315.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 422.
(4) ابن جزى، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 380.

على التَّبعيض؛ أي: فبعضٌ منكم كافرٌ به تعالى، وبعضٌ منكم مؤمنٌ به ﷻ.

نكتةُ تقديم المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه:

تقديمُ الخطاب على الوصف لبيانِ الاهتمام بمقصود السّياقِ

قُدِّم المُسنَدُ على المُسنَدِ إليه في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾؛ لأنَّ المبتدأ جاء نكرةً، فيجب تقديمُ الخبر عليه، وهذه دلالةٌ نحويّةٌ، ولبيان العناية والاهتمام بشأن المُخاطَبين، وبأحوالهم وتفصيل مُعتقداتهم، فإنَّ السّياق جاء لبيان خروج المشركين عن الفطرةِ، الّتي تتمثَّل في استحضار أنَّ الإنسان مخلوقٌ للّه تعالى، ويجب عليه الانصياعُ لهذه الفطرة، الّتي هي التّوحيد لا غيرُ، والثَّباتُ على ملّة إبراهيم، لكنْ صدَر عن بعض النّاس كفرٌ، فكان الخطابُ لهم، فقُدِّم خطابُهم على وصفِهم لبيانِ المقصود.

نكتةُ تنكير لفظِ ﴿كَافِرٞ﴾ و﴿مُّؤۡمِنٞۚ﴾:

بيانُ العراقة والرُّسوخ في الكفر والإيمان

نُكِّر لفظُ ﴿كَافِرٞ﴾ لبيان أنَّه عريقٌ في صفة الكفر، مُهلكٌ نفسَه بما هيّأه لاكتسابِه ويسّره له بعد ما خلقَه في أحسنِ تقويم على الفطرة الأولى، وتنكيرُ ﴿مُّؤۡمِنٞۚ﴾ لبيان الرُّسوخ؛ أي: راسخٌ في الإيمان في حكمِ اللّه تعالى في الأزل، مُنجٍ نفسه بالأعمال الصّالحة الّتي طابق بها العلم الأزلي[1].

نكتةُ إعادة المُسند وترك فنِّ الاكتفاء:

بيانُ المُفاصلة بين الفريقَين والمُباعدة بين الوصفَين

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ إجمالٌ لكلِّ الخلق، ثمَّ جاءت الجملة الاسميّة: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ تفصيلًا بتكرار المسند في كلِّ جملةٍ نصًّا دون أسلوبِ الاكتفاء؛ لبيان بُعد المسافة بين الفريقَين، ففريقٌ له درجات، وهو فريق الإيمان، وفريقٌ له الدّركات وهو فريق الكفر، وتكرارُ الحرف هو الّذي أحدَثَ هذا البُعدَ بين الطّائفتَين،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 104.

وهذا التّكرارُ نصٌّ في المُفاصلةِ بين الفريقَين، فكلُّ فريقٍ مُنفردٌ بما انفردَ به من الوصف، ولا يلتقي أحدُهما بالآخر، فهي تُبيِّن المُفاصلة التّامّةَ بين الفريقَين.

فائدةُ تقديم ذكرِ ﴿كَافِرٌ﴾ على ﴿مُّؤْمِنٌ﴾:

إبرازُ عادة العربِ مع الكثرة والغلَبة والأهمّيّة والإشعار بالتّرقّي منَ الأدنَى للأعلى

قُدِّمَ ذكرُ ﴿كَافِرٌ﴾ على ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ مع أنَّ المُقدَّم في المقام المُؤمنُ[1]، وذلك لأنَّ الكافر هو المقصود بالكلام تعريضًا وتصريحًا[2]، فهو الأهمُّ في هذا المقام[3]، وتقديمُه هو الأنسَبُ بالتَّوبيخ[4]، ولأنَّ الكفّار أكثرُ[5]، ولكونه عدوًّا، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الله عالمٌ به وقادرٌ عليه، وما كان منه من شيءٍ إلّا بإرادتِه[6].

بلاغةُ فنِّ الطِّباق:

بيانُ عظيمِ شأنِ الإيمانِ بمعرفةِ مضارِّ الكفر

تظهر بلاغة الطّباق عند الجمع بين الكفر والإيمان في بيان نعمة الإيمان، فبضدِّها تتمايز الصِّفات، وتظهر الأشياء، فلولا وجود الكفر وما فيه من المضارِّ ما ظهر مقدارُ الإنعام بالإيمانِ وما فيه من المنافع[7]، فذِكرُ وصف الإيمان تتميمٌ وتنويهٌ بشأنِ أهل الإيمان، ومُضادّة حالهم لحالِ أهل الكفر ومقابلة الحال بالحال[8].

بلاغةُ الجملةِ الاسميّة:

رقابةُ الله تعالى دائمةٌ لا تغيب، وراسخةٌ لا تخيب

جاء التَّعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ للإيماء إلى ثبات مضمونها ورُسوخِه، فعلمُه تعالى راسخٌ على الدَّوام بما يعملُه العباد، ولذلك آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بها دون الجملة الفعليّة، ودوامُها هنا يعني الإحاطةَ الشّاملة بأعمال العباد

(1) الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص: 221.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 262.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 422.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 55.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 1/ 135.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 104.
(7) روح المعاني، الآلوسي: 14/ 315.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 262.

الظّاهرة والباطنة، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وبه يزداد التَّحذير من مُخالفة أمر الله تعالى، فعلى العباد أن يقفوا عند حدوده فيه؛ لئلّا يقَعوا في عقاب المُخالفة له، وأن يراقبوه ويتذكَّروا اطِّلاعه على أعمالهم ويتوخَّوا فيها الحقَّ والعدل والمصلحة، ويتَّقوا الهوى الصادَّ عن ذلك[1]، وهذا من القدرة المُطلقة الّتي تتلاحمُ مع تذييلِ الآية الأولى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

تربيةُ المهابةِ وتقويةُ الفخامةِ والخوفِ منَ الله تُحيطُ بسماعِ الاسمِ الأعظمِ

جاء التَّعبير بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ دون الضَّمير لتربية المهابة والخوف في نفوس العباد، فإنَّه المُتحكِّم في المصائر، والعالم بكلِّ ما يفعلُه البشر، كما أنَّ إظهار الاسمِ الجليل فيه إشارةٌ إلى تعظيم الحدثِ وإجلاله، وهذا يعني: أنَّ تكرير الاسم يكون في موضع التَّفخيم[2]، وإعادةُ الاسم دون الضَّمير صورةٌ من صور الخروج عن مُقتَضى الظّاهر، وهو نوع من الإطناب[3]؛ لأنّه يأتي لزيادة التّقرير، وتأكيدِ معنًى من المعاني باللّفظ نفسِه، ويقوم على إعادة الكلمة نفسِها مرّتين أو ثلاثًا؛ لِما لها من دلالةٍ قويّة على المعنى المُراد، فهي أحقُّ بالتّكرير[4].

نوعُ الباء ودلالتُها:

الرَّقابة الإلهيّةُ مُحيطةٌ بالعبادِ شديدةُ القُربِ منهم

جاء استعمالُ حرف الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لبيان شدّة المُلابسة بين العمل ومُتابعتِه، فما من عمل يُحدِثُ المرءُ إلّا وهو مرصود معلوم، فالباء للإلصاق أو الإلزاق، وهو شدّة اتِّصال الشّيء بالشّيء، فدلَّت التّعدية على شدّة المُراقبة والعلم.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/ 97.
(2) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 226.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 482.
(4) عبد الرحمن بو درع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.

نوعُ (ما) ودلالةُ استعمالها:

ما من عملٍ إلّا وهو تحت المُراقبة وعلى محكّ الجزاء

تحتمل (ما) في هذا السّياق أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى (الّذي)؛ أي: واللّه بالّذي تعملون بصير، فتكون الجملة الّتي تليها صلةَ الموصول لا محلّ لها من الإعراب، وتحتملُ أن تكون مصدريّة، فتُؤوَّل هي وما بعدها بمصدر، فعلى هذا يكون تقدير الكلام: واللّه بعملِكم بصيرٌ، واختير استعمال (ما) للدّلالة على الاحتمالَين، والعموم الّذي توحي به، فكلُّ الأعمال - وإن كثُرت - منظورةٌ مراقبةٌ مراقبةً شديدةً، فالرّبُّ بالمرصاد لكلّ ما يعملُه البشر.

نكتةُ تقديمِ المتُعلَّق على متعلِّقِه:

التّنبيه على الغفلةِ الّتي تهدأُ فيها عقولُ العباد

قُدِّم شبه الجملة ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على المُسند ﴿بَصِيرٌ﴾ إبرازًا لغرض الحصر والتَّخصيص، وفي هذا قصديّة العلم بكلِّ أعمالهم، وفيه من التَّرعيب والتَّخويف ما فيه، وفيه أيضًا تهديدٌ لكلِّ مخلوقٍ في كلِّ زمان ومكان أنَّ عملَه مرصودٌ مرئيٌّ منظورٌ من قِبل اللّه المُحيط، كما أنَّ التّقديم يومِئُ إلى أمرٍ آخرَ وهو العناية بالمُقدَّم بما يُحرِّكُ الأذهان النّائمة، والأفهام المُشتّتة، ففيه تنبيهٌ على الغفلةِ الّتي تهدأ فيها قلوب العباد.

بلاغةُ استعمالِ مفردة العمل:

حسابُ اللّه تعالى للأعمالِ المقصودة لا الأفعالِ العابرة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال مُفردة العمل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وذلك لأنَّ العمل أخصُّ من الفعل، فكلُّ عمل فعلٌ، ولا ينعكسُ[1]، وهذا يحملُ قصديّةَ الفعل والتَّوجُّه إليه؛ لأنَّ فيه امتدادَ زمان[2] غير الفعل، ومن ثمَّ عبَّر عنه بقوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ فالمقصود هنا المُثابرة على العمل لا الإتيانُ به مرّةً أو بسرعةٍ، وفيه إيماءٌ إلى عدالةِ اللّه تعالى؛ فإنَّ اللّه يُحاسب النّاس على مقاصد

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109 - 110.
(2) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

أعمالهم، ويُضافُ إلى ذلك بيانُ الدّلالة على أعمال القلوب كالإيمان، وهي المقصودةُ ابتداءً هنا[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المُضارع:

جاء التَّعبير بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالةِ على العمل الدَّؤوب وعدم التَّواني؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على الحال والاستمرار، فالرّقابة ومن ثمّ الحسابُ على الأعمال الدّائمة المُتجدّدة.

نكتةُ حذف المفعول:

كلُّ عملٍ ينشأُ عن قصدٍ فداخلٌ تحت الرّقابة الإلهيّة

حُذف مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ المقصود معلومٌ، وهو ما يعمله المخاطَبون، وبالحذفِ يذهب النَّظم إلى بيان عموم الأعمال وشمولها، فيدخل جميع الأعمال، مع التَّركيز على قيمة العمل؛ أي: شأنهم العملُ تلوَ العمل، ومن ثمَّ كان ذكر العمل لا ما يتعلَّقُ به.

توجيهُ تخصيص العمل بالذِّكر:

الأعمالُ لفظٌ عامٌّ يدخل فيه جميعُ ما يُحاسَبُ عليه الإنسان

في تخصيص العمل بالذِّكر مع علم الله ورقابته لكلِّ الأحوال والأقوال تنبيهٌ على أنَّ أعمالهم تُخشى عاقبتُها وعقابُها، كما أنَّ الأعمال ترجمةٌ صادقةٌ للأقوال، والعملُ شاملٌ لكلِّ الأحوال؛ فكان تخصيصُ ذكر العمل لا يُراد به الاقتصارُ على أعمال البدن، بل تدخلُ كذلك أعمالُ اللِّسان، وهي الأقوال، وأعمالُ القلوب، ولو قال: (بما تقولون) لاقتصَرَ الأمر على القول دون العمل، فكلُّ عملٍ يصحُّ أن يدخلَ فيه مفهومُ القول مع وجود القرائن، بخلافِ الأقوال فلا تُطلق إلّا ويرادُ بها منطوقاتُ الأفواه.

نكتةُ اختيارِ صفة: ﴿بَصِيرٌ﴾:

بيانُ عظيم مُراقبته تعالى لأحوال النّاسِ

خُتِمت الآيةُ بصفة الله: ﴿بَصِيرٌ﴾، وبهذه الصّيغة: (فعيل)؛ لبيانِ عظيم المُراقبة، وللإيماءِ إلى الآثار الظّاهرة لأعمال الكافرين والمؤمنين، حيث عُلِّقت بالوصف الدّالّ على تعلُّق العلم الإلهيّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 263.

بالمحسوسات[1]، وللرَّدِّ على السّائل الّذي يدعو بإنزال العقاب على الظّالمين، بأنَّ الله تعالى بصيرٌ بالعبادِ، فيُفهَم أنَّ تركَهم تربُّصٌ بهم لا إهمالٌ لأعمالهم.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿بَصِيرٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿بَصِيرٌ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ إحاطتَه سبحانه بالعمل شاملةٌ، فهو مُحيطٌ بكلِّ الأعمال الظّاهرة والباطنة، ففي التَّنكير التَّعظيمُ والشُّمولُ مع العموميّة.

بلاغةُ اجتماع فنون البيان والبديع في الفاصلة:

حشدُ أساليبِ البيان دليلُ إحكامِ النَّظم وجزالةِ الأسلوب

في جملةِ التَّذييل: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تتميمٌ واحتراسٌ واستطرادٌ، فهو تتميمٌ لما يُكمِّل المقصود من تقسيمِهم إلى فريقَين؛ مؤمنٍ وكافرٍ؛ لإبداء الفرق بين الفريقَين في الخير والشّرِّ، وهو عليمٌ بأنّه يقعُ، وليس الله مغلوبًا على وقوعه، ولكنَّ حكمتَه وعلمَه اقتضيا ذلك، وليعلم السّامعون أنَّ هناك جزاءً على الإيمان والكفر، ومُتابعةً لأفعال العباد، وهو احتراسٌ من أن يُتوهَّم من تقسيمهم إلى فريقَين أنَّ ذلك رِضًا بالحالَين، كما حُكيَ عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: 20]، وهو استطرادٌ بطريق الكناية به عن الوعد والوعيد[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ:

الفعلُ أعمُّ من العمل، والعملُ يختصُّ بالقصد

العمل أخصُّ منَ الفعل، فكلُّ عملٍ فعلٌ، ولا ينعكس، ولهذا جعلَ النُّحاة الفعلَ في مُقابلة الاسم؛ لأنَّه أعمٌّ، والعمل من الفعل ما كان مع امتدادٍ؛ لأنّه (فِعلٌ)، وبابُ (فعَلَ) لِما تكرَّر، وقد اعتبره الله تعالى فقال: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]، حيث كان فعلُهم بزمانٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 263.

وقال: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: 50]، حيث يأتون بما يُؤمَرون في طرفةِ عينٍ، فينقلون المدُنَ بأسرعَ من أن يقوم القائمُ من مكانه، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: 71]، فإنَّ خلق الأنعام والثِّمار والزُّروع بامتدادٍ، وقال: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، فإنَّها إهلاكاتٌ وقعَتْ من غير بُطءٍ[1].

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 98، والسيوطي، معترك الأقران: 3/ 604.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [التغابن: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تتميمُ سوابغِ النِّعمِ بخلقِ ما يُتِمُّها، وتكميلُ ذكرِ الرَّقابةِ بذكرِ مآلِها

لـمّا ذكرت الآيةُ السّابقة خلق اللّه تعالى للعبادِ، وأنَّ منهم مَن كان كافرًا ومنهم مَن آثر الإيمان؛ ناسب أن ينتقلَ إلى عموم خلق السّماوات والأرض، فجاءت الآية الكريمة تتميمًا لسوابغ النِّعم، فبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النِّعمة الشّاملةَ لخلقِ العالـم كلِّه على أتمِّ ما يكون من الحكمة والعدل[1]؛ فكانت السّماوات والأرضُ وحسنُ التّصوير.

ولـمّا ذكرَت فاصلةُ الآية السّابقة أمرَ مُراقبة اللّه لأعمال عباده ناسب أن يذكر في فاصلة هذه الآية مصيرَ عباده؛ ليكتمل ذكرُ خلق العباد بذكر عموم الخلق، ورقابةُ العباد بذكرِ المصير.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحقُّ: من صفاتِ اللّه تعالى، وهو ضدُّ الباطل، والأمرُ المقضيُّ، والعدل، والإسلام، والمال، والملك، والموجودُ الثّابتُ، والصِّدق، والموت، والحزم، وواحدُ الحقوق[2]، وحقَّ الأمرُ يحِقُّ ويحُقُّ حقًّا وحقوقًا: صار حقًّا وثبتَ، قال الأزهريُّ: معناه: وجبَ يجبُ وجوبًا[3]، والمعنى المحوريُّ: تمكُّنُ الشّيءِ في عمقِ مقرِّه[4]، والمرادُ بالحقِّ: ضدُّ الباطل.

2) ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾: الصّورةُ: ما ينتقشُ به الأعيانُ، ويتميَّز بها

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 119.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (حق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حق).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).

غيرُها، وذلك ضربان: أحدُهما: محسوسٌ يُدرِكُه الخاصّةُ والعامّةُ، بل يُدرِكُه الإنسانُ وكثيرٌ من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس بالمُعاينة. والثّاني: معقولٌ يُدرِكُه الخاصّةُ دون العامّة، كالصّورةِ الّتي اختصَّ الإنسانُ بها من العقل والرَّويّة، والمعاني الّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيءٍ، وإلى الصّورتَين أشار بقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: 64]، وقال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ [الانفطار: 8]، وقال: ﴿يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [آل عمران: 6]، فالصّورةُ أراد بها ما خُصَّ الإنسانُ به من الهيئة المُدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضَّلَه(1)، وهو المُرادُ في الآية.

المَعنى الإجْماليُّ:

خلقُ السّماوات والأرضِ وجمالُ التّصوير إلى فناءٍ سابقٍ يومَ المصيرِ

تُعدِّد الآيةُ الكريمة الآلاءَ والنِّعم بخلق السّماوات والأرض بالحقّ الّذي لا يحومُ حوله باطلٌ، وبالحكمة الّتي لا يشوبُها اضطراب أو عبَثٌ، ثمَّ بيَّن سبحانه بعض مظاهر نعمِه على النّاس، فكانت نعمةُ التّصوير الّتي يتميَّزون بها عن سائر المخلوقات، وهو جعلُ الشَّيء على صورةٍ لم يكن عليها، فأوجد النّاس على أحسن الصّور وأكملِها وأبدعِها وأجملِها، بدليل أنّ الإنسان لا يتمنّى أن يكون على غير صورتِه الّتي خلقَه اللّه عليها، والإيجادُ يعقبُه الفناء لكلِّ شيءٍ سوى وجهِه الكريم(2)، وبعد الفناء يكون المصيرُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

بُعدُ الكافرين عن الحقّ بسببِ فسادِهم وإعراضِهم عن رُؤيةِ الحقّ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾، حيث يُبيِّن أنَّ انقسامَهم إلى قسمَي الكافرين والمُؤمنين نشأ عن ابتعادِ

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (صور).

(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط بتصرف: 14/ 423.

فريق منَ النّاس عن الحق الّذي أُقيمَ عليه خلق السّماوات والأرض؛ لأنَّ الحقّ أن يُؤمن النّاس بوجود خالقِهم، وبأنّه واحدٌ وأن يُفردوه بالعبادة، فذلك الّذي أراده اللّه من خلقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56]، وقال: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 30]، فمَن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحقِّ والفطرة(1).

فائدةُ التَّعبير بالجملة الفعليّة:

بيانُ الانتهاء من الخلقِ مع تلوين الخطاب

جاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للتَّمهيد لِما بعده من ألفاظٍ، حيث ذُكر بعدَه فعلُ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾، و﴿فَأَحۡسَنَ﴾، فكانت الآيةُ قائمةً على الجملة الفعليّة ذات الفعل الماضي الدّالِّ على الفراغ من الخلق والانتهاء منه، فالخلقُ أصيلٌ وليس أمرًا عارضًا، ولبيان أنَّ هذا الخلق الكاملَ التّامَّ كان بقدرة الإله الواحد، فهو سبحانه الّذي خلق السّماوات والأرضَ بالحقِّ، فحقٌّ على هذه المخلوقات جميعِها أن تعبُدَه، وأن توجِّه وجوهَها إليه(2).

نكتةُ تكرارِ ذكرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

عندَ اختلافِ الاعتبار يحسُن التِّكرار

أُعيدَ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دون إضمارِهما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وذلك لأنَّ السّماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان، فذُكرتا في الآية الأولى باعتبار الغاية، وهي الخضوعُ والتَّسبيحُ، والمرادُ ما فيهما، وهنا ذُكرتا باعتبار أصلِ الخلق، ولذلك ذكرهما مع ما فيهما، فاختلفَ المقام والاعتبارُ فحَسُن التّكرارُ.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض):

تقدَّم ذكر نكتة تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض) قريبًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 264.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 270.

ويُضاف إلى ذلك التَّشاكلُ والتَّلاؤمُ مع ما قبلَها في الآية الأولى، وما بعدها في الآية الرّابعة؛ فحصل التّناسب والتّلاؤم.

نوعُ الباء ودلالتُها:

ما كان الخلقُ إلّا بسبب الحقِّ وظلَّ ملتصقًا به

تحتملُ الباء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ معنى المُلابسة، وهو معنًى أصيلٌ من معاني الباء، وعلى ذلك يكون المعنى: خلق السّماوات والأرض بالحقّ؛ أي: خلقهن خلقًا مُلتبسًا بالحقّ الّذي لا يحومُ حولَه باطلٌ، وبالحكمة الّتي لا يشوبُها اضطرابٌ أو عبثٌ[1]، وتحتمل معنى اللّام؛ أي: خلق ذلك لإظهارِ الحقّ، وهو أن يجزيَ المُحسن بإحسانِه والمُسيءَ بإساءتِه[2]، والمحلُّ الإعرابيُّ لشبه الجملة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هو النّصبُ على الحاليّةِ من الفاعل (اللّه)، أو من المفعول ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3].

غرضُ استعمال مفردة (الحقّ):

بيانُ أصالة الخلق بأنَّها مُلتصقةٌ بالحقِّ، والإيماء إلى دار الحقِّ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (الحق)، وذلك للإيماء إلى إثبات البعث والجزاء، والجزاء وعد ووعيد، للكافر والمؤمن، ولأنَّ قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلّق بفعل ﴿خَلَقَ﴾ تعلُّقَ المُلابسة المفاد بالباء؛ أي: خلقًا مُلابسًا للحقِّ، والحقُّ ضدُّ الباطل، والباطلُ هو العبَثُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: 38 - 39]، فتعيَّن أنَّ الحقَّ في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه ضدُّ العبثِ والإهمالِ[4]، فاجتمع في مُفردة (الحقِّ) أمران: الأوَّلُ في وصف الخلق في الحياة الدّنيا بأنَّه بالحقِّ، والآخرُ الإيماءُ إلى أنَّ الآخرةَ هي جزاءُ الحقِّ لجميع النّاس.

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 323.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 281.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 10.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 264.

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّصوير مادّةً وصيغةً:

بيانُ الاعتناء والحفل بخلقِ الإنسان ظاهرًا وباطنًا

دلَّ فعلُ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾ على تعديد نعمة حُسنِ الخلقةِ والتَّصوير إيماءً إلى خلق الإنسان في صورتِه الأخيرة، الّتي لن يكون بعدها صورةٌ، ولم تسبِقْها إلّا هذه الصّورة، فهو سبحانه صوَّر الإنسان هذه الصّورة الّتي يراها، لتبقى صورةُ الإنسان الّتي يُشاهدُها من نفسِه في المرآة، أو يراها في غيرِه، هي الصّورة الحسنى المُتجدِّدة الجمال والكمال، فلا يملّ، ولا يعترض على فطرتِه الخلقيّة، ولذلك جاء التَّعبير بصيغة المضارع، فعبر عن هذا الخلق بفعلِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّصوير خلقٌ على صورة مرادة تُشعِرُ بالعناية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]، فالتّصوير هو حالةُ كمال الخلقِ.

بلاغةُ فنِّ الإدماجِ:

الامتِنانُ بحُسنِ التَّصويرِ، وكمالِ الخلق

الإدماجُ في الآية إدماجُ امتنانٍ على النّاس بأنَّهم مع ما خُلقوا عليه من مُلابسة الحقّ على وجه الإجمالِ، وذلك من الكمال، وهو ما اقتضته الحكمةُ الإلهيّة؛ فقد خُلقوا في أحسنِ تقويم؛ إذ كانت صورةُ الإنسان مُستوفيةً الحسنَ مُتماثلةً، بخلافِ محاسنِ أحاسنِ الحيوان من الدوابّ والطّير والحيتان، فمنهم ذو مشيٍ على أربع مع انتكاس الرّأس غالبًا، أو زحفٍ، أو نقزٍ في المشيِ في البعض[1]، فالإنسان كان على أحسن صورة، وهذا في غاية الامتنان، الّتي توجِبُ غاية الإحسان في العبادة والحمد، وتنزيه اللّه بتسبيحه على الدَّوام.

غرضُ عطف فعل التَّصوير على فعل الخلق:

بيانُ العناية بخصوص البشر باعتبارِهم موضعَ التَّكليف

عُطِفَ فعلُ التَّصوير في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ﴾ على فعلِ الخلق؛ لبيانِ شدة العناية بالبشر من قِبَل خالقِهم، فقد هيَّأ لهم حياتهم قبل خلقِهم، ولبيان أنَّ تصوير الإنسان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 265.

آيةٌ من آيات عموم الخلق، فهو من عطف الخاصّ على العامّ، ولبيان تمام الإحكام المُطلق على كلِّ كبير وصغير في هذا الكون، وللإيماءِ إلى أنَّ الغرضَ من خلق السّماوات والأرض هو الإنسان[1].

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡسَنَ﴾ عاطفةٌ جملةً على جملة، ودالّة على التَّعقيب؛ أي: أوجدَ صورةَ الإنسان فجاءت حسنةً[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل ﴿فَأَحۡسَنَ﴾:

صورةُ الإنسان هي أحسنُ صورةٍ رأتها عينُ الخلق

دلَّ الفعلُ ﴿فَأَحۡسَنَ﴾ على الإتقان والإحكام على وجهٍ ليس في الغير[3]، بل لن يكون في غيرِه أفضل منه، ولم يخلق اللّه تعالى الإنسان في صورةٍ أقلَّ من الّتي هو عليها، ولن يبلُغَ الإنسانُ أحسنَ من الصّورة الّتي هو عليها، فالإحسانُ هو تمامُ الفضيلة والكمال في صورة الإنسان، فإنَّ مَن نظر في قدِّ الإنسان وقامتِه وأعضائه، وجدَه مُنتصبَ القامة باديَ البشرة مُتناسب الأعضاء والتَّخطيطات، مُتهيِّأً لمُزاولة الصّنائع واكتساب الكمالات[4]، فكان في ذلك العلمُ بأنَّ صورة الإنسان أحسنُ صورة، ومَن يظنُّ أنَّه سيصل بالإنسانِ إلى رتبةٍ أحسنَ من هذه الرُّتبة، فقد وقع في الطَّعن بالقرآن، بأن نسب لنفسِه ما يفوقُ تصويرَ الخالق ﷻ عمّا يقولُ الظّالمون علوًّا كبيرًا.

فنُّ بديع الجناسِ الاشتقاقيِّ:

جاء وصفُ الإنسان بحسن التَّصوير بالجناس الاشتقاقيِّ بين فعلِ: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾ واسم ﴿صُوَرَكُمۡۖ﴾ الجمعيِّ، إشارةً إلى تكريم الإنسان والاهتمام بظاهرِه وباطنِه.

(1) الحسين الإيجي، تفسير الإيجي: 4/ 320.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 191.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 552.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 552، والبيضاوي، تفسير البيضاوي: 5/ 62.

نوعُ الواو وفائدتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ للعطف على جملة ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّصوير يقتضي الإيجاد؛ فأعقب بالتّذكير بأنَّ بعد هذا الإيجاد فناءً ثمَّ بعثًا للجزاء[1]، وفي العطف وجهٌ آخرُ جديرٌ بالتأمُّل، وهو أنَّ جملة: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أشدُّ ارتباطًا بجملة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القادر على الخلق قادرٌ على الإفناء والإعادة، ويُضافُ إلى ما سبق من دلالة العطف زيادةُ الإيقاظِ لهذا الإيمان؛ لذا عطف عليه قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[3]، مع الإيماء إلى أنَّ على الإنسان أن يُحسِنَ مصيرَه، كما أحسنَ اللّٰه تصويرَه.

على الإنسانِ أن يُحسِنَ مصيرَه كما أحسنَ الله تصويرَه

نكتةُ تقديم شبهِ الجملةِ:

قُدِّم شبهُ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لقصر الرُّجوع إليه لا إلى غيره، والمسلم يُؤمن بهذا المصير، فخطاب القصر له، وأمّا الكافر فكفرُه المانعُ من الإيمان بالبعث عناديٌّ لا حقيقيٌّ، وعليه فالقصرُ مُتَّجه إليه كذلك، فعلى الإنسان أن يُحسِنَ سرائرَه باستعمالِ تلكَ القوى والمشاعرِ فيما خُلقنَ له[4]، فإليه وحدَه تعالى المرجعُ بعد انتهاء الآجال في هذه الحياة، لكي يُجازي العباد على الأعمال الدُّنيويّة، مع رعاية الفاصلةِ.

القصرُ للمُؤمن ترغيبٌ، وللكافر ترهيبٌ وتحريكٌ

براعةُ المُناسبة في اختيار لفظ: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ في الفاصلة دون الرُّجوع ونحوه؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ يدلُّ على البدايات والنِّهايات وما بينهما، فلمّا ذكر بداية الخلق، وبداية تصوير الإنسان، ناسب أن يذكر نهاية الأمر وهو البعثُ، فكان الأليقَ بالمقام لفظُ

مصيرُ البدايات الحتميّة إلى نهاياتٍ حتميّةٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 266.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 266.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 265.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل: 8/ 255.

﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لمُناسبته صيرورةَ الأمر من المبدأ إلى المُنتَهى، ففيه لمحٌ إلى أنَّ ما كان بدايةً سيصيرُ إلى النِّهاية، فهي خطابٌ للعقل بطريق الاستدلال بنهاياتِ البدايات، وللقلب الّذي يرى صيرورةَ كلِّ شيءٍ إلى غيرِ بدايته.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخلقُ والتَّصويرُ:

الخلـقُ إيـجادُ الـشَّيء على غير مـثـالٍ سـابـقٍ، والتَّصويرُ أخصُّ منه ومُتراخٍ عنه

الخلق مُعظم معانيه تدورُ حول التّقدير أو إيجاد الشّيء على مثال لم يسبق إليه[1]، والتَّصوير ضربان: أحدُهما: محسوس يُدرِكُه الخاصّة والعامّة، بل يُدرِكُه الإنسان بالمُعاينة، والثّاني: معقول يُدرِكُه الخاصّة دون العامّة، كالصّورة الّتي اختصَّ الإنسانَ بها من العقل والرَّويّة، والمعاني الّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيءٍ، وإلى الصّورتين أشار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: 64][2]، فالتَّصوير أمر أخصُّ من الخلق، وهو مُتراخٍ عنه.

المصيرُ والمرجعُ:

المرجعُ: انقلاب الشّيء إلى حال قد كان عليها. والمصيرُ: انقلاب الشّيء إلى خلاف الحال الّتي كان عليها، فيُقال: (مصيرُ الطّين خزفًا)، لا: (رجع الطّين خزفًا)؛ لأنه لم يكن قبلُ خزفًا[3].

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلق).

(2) الراغب، المفردات: (صور).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 492.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ [التغابن: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الخلق المُطلق إلى العلم المُطلق

لـمّا ابتدأتِ الآياتُ السّابقة بذكر التّسبيح والملك والحمد، الدّالّةِ على الاعتقاد الحقِّ، وذكرت القدرة المُطلقة، ثمَّ فصّلت في خلق السّماوات والأرض وتصوير الإنسان، وأنَّ المصير إليه سبحانه، ناسبَ الانتقال إلى ذكر العلم المُطلق؛ فإنَّ القدرة المُطلقةَ بيانٌ للحكم والهيمنة المُطلقة، وأمّا العلم المُطلق فهو بيانٌ للرّقابة، ولـمّا بدأتِ الآيةُ السّابقة بذكر خلق السّماوات والأرض ثمَّ ثنَّت بذكر تصوير الإنسان؛ ناسب أن يُبدأ هنا بذكر علمِ ما في السّماوات والأرض، ثمَّ التّثنية بذكر علم ما يُسِرُّه الإنسان وما يُعلِنُه، فهو انتقالٌ في الآيتين من الكلِّ إلى الجزء، ومنَ الوسيلة إلى الغاية، فالخلق وسيلةٌ لعمل الإنسان، وعملُه هو الغايةُ الّتي أوجدَ اللّه تعالى الخلقَ لها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُسِرُّونَ﴾: الإسرارُ: خلافُ الإعلان، قال تعالى: ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [إبراهيم: 31]، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ ويُستعمل في الأعيان والمعاني، والسِّرُّ: هو الحديث المُكتَّمُ في النَّفس، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]، و(أسرَرْتُ إلى فلانٍ حديثًا): أفضيتُ إليه في خُفية، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: 3][(1)]، والإسرارُ هنا: ضدُّ الإعلان، وهو ما يكتمُه الإنسانُ من عملٍ.

2) ﴿تُعۡلِنُونَۚ﴾: العلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكثر ما يُقال ذلك في المعاني دون الأعيان، يُقال: (عَلَنَ كذا، وأعلَنْتُه أنا)، قال تعالى:

(1) الراغب، المفردات: (سرر).

﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: 9]؛ أي: سرًّا وعلانيةً، وقال: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩﴾ [القصص: 69]، وعِلوانُ الكتابِ: يصحُّ أن يكون من (عَلَنَ) اعتبارًا بظهورِ المعنى الّذي فيه لا بظهورِ ذاته[1]، والمُرادُ بالإعلان هنا: ما يُظهِرُه الإنسانُ من أعماله وأقواله دون اكتراثٍ.

المَعنى الإجْماليُّ:

علمُ الله المطلقُ أصلُ الوجود، وعلمُه بما تُكِنُّه الصُّدور أصلُ الجزاء والحساب

تُبيِّن الآيةُ الكريمة صفةَ العلم المُطلق للّه ﷻ، وقد ذكرت علمَه لما في السّماوات والأرض، كنايةً عن إحاطتِه ﷻ بكلِّ ما فيهما؛ فإنَّه الّذي لا تغيبُ عنه غائبةٌ، وكان ذكرُ العلم المُطلق توطِئةً استدلاليّةً لذكر الغاية من ذلك، وهو علمُه سبحانه بما يُسِرُّه الإنسان ويُعلِنُه، وما يجولُ في صدرِه من مكنوناتٍ وخطراتٍ وأفكارٍ، والآيةُ تُحيطُ بالكلِّ، ثمَّ تُنبِّه على الجزء، ثمَّ تُنبِّه على دقائقِ هذا الجزء، وهو ما يجولُ في الصُّدور.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

علمُ الله تعالى المُحيطُ بالأعمال أصلُ الحسابِ يوم القيامة

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عن السّابق باعتباره استئنافًا بيانيًّا، فكأنّ سائلًا سأل: وهل يعلمُ سبحانه ما تُكِنُّه صدورُنا وتُسِرُّه قلوبُنا؟ فكان الجواب بذكر العلم المطلق، ثمَّ بيان أنَّه يعلمُ السِّرَّ وأخفَى، وذلك أنّه لما ذكر: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، والمصير حساب وجزاء للأعمال والأقوال، فتقدير السُّؤال بناءً على ما سيكون يوم الحساب من الجزاء على الأعمال الّتي يُسِرُّها النّاس.

غرضُ التَّعبير بالفعل المضارع:

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ للدّلالة على شُموليّة

(1) الراغب، المفردات: (علن).

العلمُ المُحيط بالزَّمان كلِّه يقودُ إلى التَّقوى والحذرِ في العمر كلِّه

علم اللّه وإحاطتِه بكلِّ مُستجدٍّ في الزَّمان والمكان، واستقرارُ هذه الحقيقة في قلب المُؤمن يُعرِّفه بربِّه العظيم، فيحذرُ عقابَه على كل فعلٍ يصدرُ عنه، صغيرًا كان أم كبيرًا، علَنًا كان أم سرًّا، فإنَّ استحضارَ العلم الإلهيِّ والاطِّلاع الربّانيِّ، يُنمّي في القلبِ التَّقوى.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالها:

إبهامُ الاسم الموصول إحاطةٌ بكلِّ مُبهمٍ ورقابةٌ لكلِّ معلومٍ

جاءت ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اسمًا موصولًا، وهي من أعمِّ وأشملِ الأسماء الموصولة، حتى قال النُّحاةُ: إنَّها تقع على كلِّ شيء، وتقع على ما ليس بشيءٍ؛ لأنَّها اسمٌ مبهم شديدُ الإبهام[1]، فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ مُبهم على البشر معلومٌ معروفٌ لا يخفى على اللّه منه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، والغرضُ الإحاطة والاستقصاء لكلِّ المعلومات، كما أنَّ علمَه سبحانه يستقصي السِّرَّ والإعلان.

فائدةُ استعمال حرفِ الظَّرفيّة:

جاء استعمال حرف الظّرفية لبيان المقصود بالجملة، وهو الإحاطةُ التامّة بالمظروف، فعلمُه ﷻ أحاطَ بما يخفى من المظروفات الّتي هي أشبه بالسَّرائر.

فائدةُ تكرارِ ذكرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تمكينُ المعنى مع الإحاطة الشّاملة، وعظمة المالك والملَكوت

أُعيد ذكرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُجاراةً للآيات السّابقة، فقد ذُكرت السّماواتُ والأرض في مُفتتح السورة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ثمّ كرّر ذكرهما في الآية الثّالثة، ثمّ الرّابعة، وفائدةُ التَّكرار إزالةُ شكٍّ وتمكُّنٌ في معنى السّيطرة والهيمنة لكلِّ ما في السّماوات والأرض، ويُضافُ إلى ذلك ما قيلَ قبلُ من أنَّ الإعادة للدّلالة على أنّه تعالى قد استوفى أدلّةَ التّوحيد، واتِّصاف ذاته الكريمة بصفات

(1) السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 139.

الجلال والإكرام، على أسلوبٍ بديعٍ جمعَ فيه بين دلالة المصنوع على الصّانع، والنِّعمة على المُنعم، ونبَّه على أنَّ كلَّ واحد يكفي صارفًا للمُشركين عمّا هم فيه منَ الشِّرك[1]، وفي إعادة الذِّكر أيضا إظهارٌ لعظمة اللّه في ملَكوته[2]، فهو الّذي يُسبِّحُ له ما في السَّماوات والأرض خضوعًا، لأنَّه هو الّذي خلقَهما، وهو العالـمُ بما فيهما.

نكتةُ الاكتفاء بذكرِ ﴿مَا فِي﴾ مع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دونَ (الأرضِ):

عدمُ تبايُن علم اللّه مع إحاطتِه بالكلّيات والجزئيّات

اكتفى النَّظم الكريم بذكر ﴿مَا﴾ في جانب السّماوات دون الأرض في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلك أنَّ سياقَ الآية في العلم، وهي تختلفُ عن الآية الأولى الّتي أُعيد فيها ذكرُ ﴿مَا﴾ وحرف الظرفية؛ وذلك لأنَّ تسبيح ما في السّماوات يختلفُ عن تسبيح ما في الأرض، فكان التَّباينُ بينهما سببًا في استقلال كلِّ جملة بما جاءت عليه، أمّا هنا فعلمُه سبحانه نُظِمَ على نظامٍ واحد، وعلى حدٍّ واحدٍ، فصار علمُه بما تحت الأرض كعلمِه بما فوقَها، وعلمُه في السّماء كعلمِه بما في غيرها، كما كان علمُه بما يكون كعلمِه بما كان، لم يختلف ولم يتباين[3]، فالعلم مُحيطٌ بالجميع إحاطةً واحدةً، فعلمُه ما في السّماوات لا يختلفُ أبدًا عن علمِه ما في الأرض، فكان عدم إعادة ﴿مَا فِي﴾ تنبيهًا على الوحدة في العلم، بخلاف سياقِ التّسبيح، فإنَّ ما يكون في السّماوات يختلفُ عمّا يكون في الأرض.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ عاطفةٌ من عطف الخاصِّ على العامِّ، ونكتةُ العطف دفعُ توهُّم المشركين أنَّ اللّه لا يعلم سرائرَهم وخفاياهم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 370.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 265.

(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1279.

دلالةُ تكرارِ فعل: (يَعۡلَمُ):

كُرِّر ذكرُ فعلِ (يَعۡلَمُ) في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾؛ لاختلاف أغراض ذكر العلم، فذِكرُ علم ما في السّماوات والأرض بغرض الإحاطةِ، وذِكرُ علم السِّرِّ والعلَن بغرض الزَّجر والتَّحذير، فلمّا اختلف الغرضُ حسُنَ التّكرارُ، ولما كان الاطِّلاع - في وهمِ النّاس - على أحوال العقلاء أصعبَ، قال مُؤكِّدًا بإعادة العامل: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾؛ أي: على سبيل الاستمرار[1]، فهو يعلم أعمالَ العباد وأقوالهم، وسيُحاسبُهم عليها.

تنوُّع الأغراض علّةٌ في تكرار الألفاظ وتنبيهٌ على الاختلاف

براعةُ تنوُّع المعنى في استعمالِ ﴿مَا﴾:

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ أن تكون موصولةً، والمعنى: ويعلم الّذي تُسرّون والّذي تُعلِنون، ففيه تنبيهٌ وتحذيرٌ من أعمالهم، كأنَّه قال: يعلم الّذي تُسرّونه ظنًّا أنَّ اللّه لا يعلمُه. وتحتمل المصدريّةَ، والمعنى: يعلم إسرارَكم وإعلانَكم، ففيه معنى الشُّيوع والذُّيوع؛ أي: يعلم كلَّ ما أسررتم وأعلنتم، والمعنيان مُرادان، ولا يمنع أحدُهما من الآخر.

التّنبيه والتَّحذير من سرائر الأعمال وعلَنِها مع الإحاطةِ بها

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

آثر النَّظمُ الكريمُ توظيف الفعل المضارع ﴿تُسِرُّونَ﴾، و﴿تُعۡلِنُونَۚ﴾ ليدلَّ على تجدُّد الأعمال الّتي يقومُ بها النّاسُ من سرٍّ وعلَنٍ؛ وأنَّ أعمالهم تتجدَّدُ على الدَّوام ما دامتِ الحياةُ قائمةً، ففيه تنبيهٌ على التَّكليف بالإيمان والأعمال الصّالحة، والتَّحذير من خلاف ذلك، وللإشارة إلى سعة علم اللّه بكلِّ سرٍّ وعلَنٍ، وعزَّز الشُّمولَ الإسنادُ إلى واو الجماعة الدّالةِ على كلِّ مُسِرٍّ ومُعلِنٍ.

التّنبيه على التّكليف بالإيمان وعمل الصّالحات، والتَّحذيرُ من خلاف ذلك

فائدةُ حذفِ مُتعلّق فعل الإسرار والإعلان:

حُذِفَ مُتعلق فعل الإسرار والإعلان في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 109.

العموم والإطلاقُ مع الإبهام والإيجاز

﴿تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾، بيانًا للعموم، فهو عالم بكلِّ شيء مهما عظُم، وما أُعلن وما أُسِرَّ، فهو يعلم كلَّ ما يصدرُ عن الإنسان، سواء حرص على إسراره وكتمانه، أم أظهره وكشف إعلانه.

نكتةُ تقديم فعل الإسرار على الإعلان:

قُدِّم ذكرُ فعل الإسرار على الإعلان في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾؛ لأنَّ المقصود من السّياق التَّنبيهُ على الأخفَى في ظنِّ النّاس، وذِكرُ العلَنِ من باب التَّتميم.

فنُّ بديعِ الطِّباق:

دلَّ الجمعُ بين الإسرار والإعلان في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ على شمول علم اللّه تعالى، فجمعَ طرفَي العلم للأعمال البشريّة؛ ليدلَّ على ما بينهما التزامًا.

بلاغةُ التَّتميم بعطفِ الإعلانِ على الإسرارِ:

التَّنبيه على تعلُّقِ علمِه تعالى بكلِّ الأعمال، والتَّحذيرُ من المُخالفة بين الظّاهر والباطن

عطف النَّظم الكريم فعلَ الإعلان على الإسرار في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾؛ تتميمًا للتَّذكير بعموم تعلُّق علمِه تعالى بالأعمال[1] كلِّها عظيمِها وحقيرِها، وفي التَّتميم تحذيرٌ وتخويفٌ من إضمار القبيح وإعلانِ الحسن، فالأصلُ أن يتطابقَ الظّاهرُ والباطن؛ فالمعنى: احذَروا أن تُسِرّوا غير الّذي تُعلنون، أو تُضمِروا في أنفسِكم غيرَ ما تُبدونه؛ فإنَّ ربَّكم لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مُحصٍ جميعَه، وحافظٌ عليكم كلَّه[2].

دلالةُ عطف الخاصِّ على العامِّ:

تمامُ العناية بالمُخاطَبين، وكمالُ الرِّعاية بالخلق أجمعين

قُدِّم ذِكرُ علم اللّه تعالى لِما في السّماوات والأرض، على ذكرِ علمِه لِما يُسِرُّه النّاسُ ويُعلنونه في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾، على سبيل عطف الخاصِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 267.

(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 417.

على العامِّ، وذلك من باب تقديم الكلّيات على الجزئيّات، وغرضُ ذلك التَّوطئةُ للمقصود، فذِكرُ علمِه بما في السَّماوات والأرض توطئةٌ للإعلام بعلمِه لِما يُسرّون وما يُعلنون؛ للتَّحذير والتَّنبيه، وهذا من تمام العناية بالمُخاطَبين، وكمال الرِّعاية بالخلق أجمعين، فإنَّ الأمر العظيم يُمهِّدُ له ما من جنسه ليقعَ في النَّفس موقع القَبول، وليحرصَ الإنسان أن يكون عملُه الباطنُ والظّاهرُ وفقَ أمر ربِّ العالمين.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿يَعۡلَمُ﴾، وفي كثرة المعطوفات إشارةٌ إلى المُبالغة في صفة العلم الّذي يورِثُ المهابةَ من العليم الخبير.

نكتةُ إظهار اسمِ الجلالة:

بيانُ العلّة مع استقلال الجملة وتربية المهابة

أُظهر اسمُ الجلالةِ (اللّه) بدلًا الإتيان بالضَّمير (هو) لتقرير ما قبله، كالدّليل عليه، ولأنّه إذا علم السّرائر، وخفيّات الضّمائر، لم يخفَ عليه خافيةٌ من جميع الكائنات[1]، ولتأكيد استقلالِ الجملةِ[2]، فإنَّ الإظهار يُشعِرُ بالاستقلال، ولتربية المهابة في النّفوس بذكر الاسم الأعظم.

غرضُ التَّعبير بالجملة الاسميّة في الفاصلة:

تشاكلُ الفاصلة مع أخواتها في الاسميّة مع شموليّة العلم

جاءت فاصلة الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جملةً اسميّةً لِما فيها من موافقة فواصل الآيات السّابقة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فكانت الرّابعة صنوَ شقيقاتها، ولأنّها أشدُّ وأدومُ، وأكثر ثباتًا؛ وفي هذا دليل على أنّه لا علم على الحقيقةِ إلّا علمُه، فعلمه كائنٌ بما كان ويكون وسيكون؛ مُستقرٌّ ثابت لا يزول.

(1) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 243.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 8/ 256.

غرضُ التّذييل بصفة العلم:

توكيدُ إحاطتِه سبحانه بجميع المُضمَرات

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لما قبلَه من شمولِ علمِه تعالى لسرِّهم وعلنِهم؛ أي: هو محيطٌ بجميعِ المُضمرات المُستكنّة في صدورِ النّاسِ بحيثُ لا تُفارقُها أصلًا؛ فكيف يخفى عليه ما يُسرّونَه وما يُعلِنونَه[1]؟ وهو ما يدلُّ على أنَّ المقصود في سياق الآية هو علمُ السّرائر؛ لأنّها موضعُ الوهم عند كثير منَ العالمين.

فائدةُ التّعبير بصيغة المبالغة وتنكيرها:

الإشـــارةُ إلى كمال العلم مع الاتّساق لسياقِ الآية

جاءت صيغةُ المبالغة ﴿عَلِيمُۢ﴾؛ إشارةً إلى كمال العلم، وكونِه مُحيطًا بكلِّ شيء، مُحصيًا كلَّ شيء عددًا، وهذا مُناسبٌ لذكر مادّة العلم في سياقِ الآية من ذكر علم السّماوات والأرض، ثمّ علم الإسرار والإعلان؛ فكان الختام بذكر العلم التّامِّ بالأحوال والكيفيّات، فناسب ذلك تذييل الآية بصفة ﴿عَلِيمُۢ﴾، وناسبَه كذلك تنكير الكلمة الدّالُّ على الشّمول والعموم لكلّ ما في الصدور.

نوعُ الباء ودلالتُها:

علم قريبٌ من السّرائر مُطّلع على القلوب

دلّت الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على الإلصاق، ويدلُّ على شدّة اتّصال الشّيء بالشّيء، فكأنّ الباء دالّةٌ على شدّة اتّصال علم الله بالأسرار والقلوب وما فيها، إشارةً إلى ضرورة تعظيم علم الله، والخوف منه، وأخذ الحذر من عقابه.

بلاغةُ استعمال مفردة (ذات):

تشخيصُ المقاصد والنّوايا الّتي أصبحت راسخةً في الصُّدور بأنّها ذاتٌ

مفردة (ذات) جاءت بالتّأنيث بمعنى حقيقة؛ أي: عليمٌ بحقيقة ما في الصُّدور، كما تقول العربُ: (لقيتُه ذات يوم)؛ فيُؤنِّثون؛ لأنَّ مقصدَهم: (لقيتُه مرّةً في يوم)[2]، وذات الصُّدور: هي الصُّدور؛ لأنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقول: 8/ 256.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/ 338.

ذات الشّيء نفسُه[1]، ووصفت بذلك لأنّها لتمكُّنها من الصُّدور جُعلت كأنّها مالكةٌ لها، فـ(ذات) بمعنى: صاحبة، وذكرُ الذّات للمُبالغة[2].

وتحتملُ أن تكون (ذات) بمعنى المُضمَرات ذواتِ الصّدور، فحُذِف الموصوف وأُقيمَت صفتُه مُقامه؛ أي: عليمٌ بالمُضمَراتِ صاحبةِ الصُّدور، وجُعِلَت صاحبةً للصُّدورِ؛ لمُلازمتِها لها وعدم انفكاكِها عنها، نحو: أصحاب الجنة، أصحاب النار[3]، ويظهرُ أنَّ هذا التّعبير يأخذ منحى التّشخيص، فإنَّ ذات الصُّدور هي المُضمرات الّتي أصبحت ثابتةً في صدور أصحابِها، فوصفت بالذّوات، ثم أُضيفت إلى الصّدور، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى يعلم حقائق الصُّدور، وبواعثَ الأعمال، ومقاصدَ الأفعال.

بلاغةُ المجازِ المرسل في لفظ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

الصُّدور أوسعُ دلالةً لاشتمالها القلبَ وأسبابَ الانشراح والضّيق

أطلق النَّظم الكريم الصُّدور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وأراد ما فيها، وهي القلوب، ونكتة ذلك: أنَّه لا تكاد القلوب تُفارقُ الصُّدور؛ لكونها حالّةً فيها، بل تُلازِمُها وتصاحِبُها[4]، فهو من المجاز المرسل بإطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، وإطلاق الصُّدور هو الأبلَغُ؛ لاشتمالها على القلوب، وما تستشعرُه الصُّدورُ من الارتياح للطّاعة، والانزعاج من المعصية، أو العكس، فإنَّ ضيق الصَّدر وانشراحَه أوسعُ دلالةً، وأرحبُ معنًى.

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الجهرُ والعلَنُ:

الجهر رفعُ الصّوتِ بشدّة، والإعلانُ إظهارُ الأمر بالصّوتِ وغيرِه

العلانيةُ: ضدّ السِّرّ، وأكثرُ ما يُقال ذلك في المعاني دون الأعيان، يُقال: عَلَنَ كذا، وأعلَنتُه أنا، قال تعالى: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 243.
(2) الراغب، المفردات: 4/ 291.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 3/ 373.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 310.

﴿إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 9]؛ أي: سرًّا وعلانيةً، وقال: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ [القصص: 69]، أمّا الجهر فيُقال لظُهور الشَّيء بإفراطِ حاسّة البصر، أو حاسّة السمع، أمّا البصر فنحو: (رأيتُه جهارًا)، قال اللّه تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، وقال: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، ومنه: جهَرَ البئرَ واجْتَهَرَها: إذا أظهرَ ماءها، وأمّا السّمع، فمنه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: 10][1].

ويُمكن القولُ: إنَّ الجهر لا يكون إلّا بإفراطٍ في الإسماع، أمّا العلنُ فلا يُشترط فيه ذلك، فقد يكون بإفراطِ إسماعٍ، وقد لا يكون.

القلبُ والصَّدر:

الصّدرُ حاوٍ للقلبِ، والقلبُ مركزُ العقل والإرادة

الصَّدر: موضعُ القلب، وهو أعزُّ موضعٍ في الإنسان؛ لجوارِ القلب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46]، والقلب قد يُعبّر عنه بالفؤاد والصّدر، قال اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32]، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: 1]؛ يعني في الموضعَين: قلبَك، وقد يُعبّر به عن العقل، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]؛ أي: عقلٌ؛ لأنّ القلب محلُّ العقل في قول الأكثَرين، والفؤاد محلُّ القلب، والصّدرُ محلُّ الفؤاد[2]، كما أنّ الصّدر موطنُ الانقباض والانبِساط، ويتأثّر بالمواقف، فينشرحُ لها أو يضيقُ، ولا يصلُ إلى فرط تأثُّر الفؤاد، أمّا القلب فموضعٌ يوصَفُ بالقسوة واللّين وكثرة التّقلُّب والتَّمكُّن، وهو محلّ العزم والفكر والعلم والقصد والشّجاعة وتعوّدِ الصّبر[3].

(1) الراغب، المفردات: (جهر)، (علن).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 189.
(3) إبراهيم هدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 95.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥﴾ [التغابن: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد ذكر صفاتِ القدرة والعلم تأتي الصِّفاتُ المُشتملةُ على إنزال العذاب

لمّا ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يُعرف ويُعبد، ويبذل الجهد في مرضاتِه، وتجتنب مساخطُه، أخبر بما فعل بالأمم السّابقين، والقرون الماضين، الّذين لم تزل أنباؤُهم يتحدَّثُ بها المُتأخِّرون، ويُخبِر بها الصّادقون، وأنّهم حين جاءتهم الرُّسل بالحقِّ، كذَّبوهم وعانَدوهم، فأذاقَهم اللّه وبالَ أمرهم في الدّنيا، وأخزاهم فيها[1]، فهو انتقالٌ من الإخبار عن صفات الخالق سبحانه المُشتملة على الرّحمة والقدرة والعلم، إلى صفاته المُشتملة على شديد العذاب، وقوّة العقاب، للجمع بين التّرغيب والتّرهيب، وتقديمُ التّرغيب في هذا المقام توطئةٌ بين يدَي التّرهيب؛ ليقع موقعَ القبول، عند أصحاب العقول.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذَاقُواْ﴾: الذَّوق: وجودُ الطَّعم بالفم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُه دون ما يكثر؛ فإنَّ ما يكثُر منه يُقال له: الأكلُ، واختير في القرآن لفظُ الذَّوق في العذاب؛ لأنَّ ذلك - وإن كان في العرفِ للقليل - يصلحُ للكثير، فخصّه بالذِّكر ليعُمَّ الأمرَين، وكثُر استعماله في العذاب، نحو: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56]، ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [السجدة: 20][2]، ومُعظم ما جاء في القرآن من التَّركيب ذوقٌ مجازيّ، من مثلِ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [آل عمران: 106]، وقولِه:

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 866.
(2) الراغب، المفردات: (ذوق).

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ [الطلاق: 9]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام: 148][1]، وهو المُراد في الآية.

2) ﴿وَبَالَ﴾: (وبل) أصلٌ يدلُّ على شدّةٍ في شيءٍ وتجمُّع[2]، والوَبْلُ والوابِلُ: المطر الثَّقيلُ، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ [البقرة: 264]، وقال: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ [البقرة: 265] ولمُراعاة الثِّقل قيل للأمر الّذي يُخاف ضررُه: وبالٌ، قال تعالى: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾، ويُقال: طعامٌ وبيلٌ، وكلأٌ وبيلٌ: يُخافُ وبالُه، قال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل: 16][3]، والمُراد في الآية: ما آلت إليه أفعال المُكذِّبين من نزول العذاب، فالوبالُ هو ما انتهى إليه أمرُهم وعاقبةُ حالهم.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

خطابُ المُكذِّبين للاعتبار من الغابرين رحمةُ ربِّ العالمين

تُخاطبُ الآيةُ الكريمةُ الكفّار على سبيل تقريرِهم: ألم تعلموا قصّةَ من كان قبلَكم من أهل الكفر المُصرّين عليه، فتجرَّعوا نتيجة عصيانهم وكفرهم وكان مصيرُهم العذابَ الشّديدَ؛ فتعتبروا ممّا حلَّ بهم، وما نزل عليهم؟ وفوق ذلك فلهم عذابٌ أليمٌ يوم القيامة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لأنَّ الآية عدٌّ لصنفٍ ثانٍ من أصناف كفرِهم، وهو إنكارُ الرِّسالة[4].

دلالةُ الاستفهام وغرضُه:

تقريرُ المُكذِّبين إنكارٌ عليهم وتوبيخٌ لهم ولفتٌ لأنظارِهم

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وبل).
(3) الراغب، المفردات: (وبل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 267.

﴿قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للتّقرير؛ أي: قد أتاكم، والتّقرير يُؤتى معه بالجملة منفيّةً توسعةً على المُقرَّر إن كان يُريد الإنكار، حتّى إذا أقرّ لم يستطع بعد إقرارِه إنكارًا؛ لأنَّه قد أعذرَ له من قبلُ بتلقينه النّفيَ، ثمّ مع ما سبق جاء التَّبكيتُ[1] مع غرضٍ آخرَ، وهو لفتُ أنظارهم إلى هذا النَّبأ الّذي يقُصُّه عليهم، فقد كانوا يعرفون ويتناقلون أنباءَ بعض الهلكى منَ الغابرين؛ فيعتبرون ممّا حملَه من دلالةٍ على اقترابِ الوعيد، ونزول مُقتضى التَّهديد.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المُضارع:

دلَّ الفعل المُضارع ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾ بعد دخول (لم) عليه على المضيِّ، لكنَّه نُزِّلَ منزلة المُضارع باعتبار أنَّ تجدُّدَ السّماع هو تجدُّدُ إتيانٍ، فكلّما سمعوا نبأً عن السّابقين تجدَّد لهم الاعتبارُ.

بلاغةُ التَّعبير المجازيّ:

احتمالُ لفظ (يأتكم) للاستعارة والمجاز العقليّ

قولُه تعالى: ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، حيث شبَّه بلوغَ نبأ السّابقين لأسماعِ المُكذِّبين بالإتيان، ثمَّ حذفَ المُشبّه وصرَّح بالمُشبّه به، ونكتةُ ذلك ترسيخُ إتيان أخبار السّابقين.

ويحتملُ اللَّفظُ أن يكون من باب المجاز العقليِّ، حيثُ أُسند فعلُ الإتيان إلى النَّبأ، والنَّبأ لا يأتي، وإنَّما يأتي به ناقلُ الأخبار.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ: ﴿نَبَؤُاْ﴾:

شبَّه النَّظم الكريمُ لفظ ﴿نَبَؤُاْ﴾ بشخصٍ يأتي، ثمَّ حُذِفَ المُشبّه به، وذُكِرَ المُشبَّه ورُمز له بفعل الإتيان المُختصِّ بالعقلاء، على سبيل الاستعارة المكنيّةِ الأصليّةِ.

سرُّ إيثار مُفردة: ﴿نَبَؤُاْ﴾:

استعملَ النَّظم الكريم لفظَ (النّبأ) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 424، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 268.

تنبيهُ الغافلين بألفاظِ البيان وتحذيرُهم بإشاراتِ الألفاظِ

﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وذلك لأنَّ السّياق يتناولُ قضيّةً خطيرةً ذاتَ شأنٍ، وهي ما حلَّ بالأمم السّابقة من العذاب بعد كُفرِهم باللّه تعالى، وحقُّ النَّبأ الأخبارُ ذاتُ الشّأن، ولا شيءَ أعظمُ من سياق التَّهديد والوعيد لِما قد يحلُّ بالمُكذِّبين قريبًا بسبب أعمالهم وأقوالهم، فكان اختيارُ هذه المُفردة دون الخير ترشيحًا لمعنى التَّنبيه، وتعزيزًا لدلالة التَّحذير.

فائدةُ إضافة لفظ: ﴿نَبَؤُا۟﴾ إلى الاسمِ الموصولِ:

الإرشادُ إلى الاعتبارِ بقومٍ مخصوصين أقوى في الاتّعاظ

أُضيف لفظُ ﴿نَبَؤُا۟﴾ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إضافةَ تخصيصٍ؛ كي يعتبروا بما حدث للسّابقين، فأمّا قومُ نوحٍ فقد تواترَ خبرُهم بين الأمم بسبب خبر الطّوفان، وأمّا عاد وثمودُ فهم من العرب ومساكنُهم في بلادهم، وهم يمرّون عليها ويُخبر بعضُهم بعضًا بها، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: 45] وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: 137 - 138][1]، فالإضافةُ مُرشِدةٌ إلى التَّذكير بقوم مخصوصين معروفين لديهم.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الاسمُ الموصول يُشير إلى معهودٍ بغرضِ التَّحذير والتَّنبيه

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصول خاصٌّ، يختصُّ بالجمع العاقل[2]، وكونُه مختصًّا من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع ممّا يدلُّ على عُلوِّ الشّأن[3]، أو انحطاط شأنِه، والشّأنُ هنا مُنحطٌّ؛ لدلالة صلة الموصول: ﴿كَفَرُوا۟﴾ الآتيةِ بصيغة الماضي الدالّة على تحقُّق الكفر وثباته، ورسوخِهم فيه والهلاك عليه، وفيه تنفيرٌ من مُجرّد إيقاع الكفر ولو بالنِّعمة، وفي ذلك إشارةٌ إلى كمال ذمِّهم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 411، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 196، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 526.

(2) ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص: 101.

(3) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، ص: 34.

واستحقاقهم العذاب الأليمَ بسبب كفرهم وعنادهم[1]؛ للإيذانِ بأنَّ كُفرَهم أمرٌ هائلٌ وجنايةٌ عظيمةٌ[2]، وفي ذلك تلويحٌ للمُخاطَبين من المُشركين بأن لا يكونوا على منوالِ السّابقين، فيقع عليهم ما وقع على غيرِهم للسَّبب نفسِه.

نكتةُ حذف مُتعلّق فعل: ﴿كَفَرُواْ﴾:

كفرُ المُعذّبين نالهم بسبب رُسوخ كفرِهم وبلوغِه أعلى الدَّرجات

حُذف مُتعلّق فعل: ﴿كَفَرُواْ﴾ دون تقييده بقيدٍ كاشف؛ لبيان أنّهم اتّصفوا بهذه الصّفة على سبيل الرّسوخ والعناد، فأصبحوا كافرين في أفعالهم وأقوالهم وحركات قلوبهم، فحذف المتعلّق للدّلالةِ على عراقتِهم في الكفر، وتماديهم فيه، وثباتهم على ما هم فيه من كفر دون استجابة لُمجيب، ففي الحذف تعميمٌ؛ لأنَّ الكفر لا يتوقَّف على الكفر باللّه، بل يتعدّى إلى الكفر بكلِّ نعمة وخير أسبغَها اللّه عليهم.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

دلَّ حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ على ابتداء الغاية الزّمانية، فكأنّهم يعرفونهم حقّ المعرفة من مبدأ الأمم الهالكة إلى خاتمتهم، وهذا أدعى إلى إعمال العقل.

نكتةُ حذف ضمير الخطاب منَ الظّرفِ:

إطلاقُ الظَّرف دون تقييد قاعدة في العموم والاتّساع

آثرَ النَّظم الكريم حذف ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾، فلم يقُلْ: (من قبلكم) كما جاء في كثيرٍ من الآيات، وذلك لإرادة العموم والاتّساع في الأمم الهالكة؛ فيكون الظّرفُ مُتعلّقًا بفعل: ﴿كَفَرُواْ﴾، أو قبل هذا الوقت، أو هذا العصيان والمُعاداة، فيكون ظرفًا لقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾[3]، أو أن يكون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أُريد به بعضُ الكفار، وهم الّذين أُرسل إليهم الرُّسل،

---

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 90.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 8/ 256.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 8.

فلم يستغرقوا ما مضى من الزّمان؛ فقال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ كالقرون المذكورين في الأعراف[1]، وتقدير الضَّمير واردٌ على إرادة (من قبلكم)؛ أي: في الكفر، وقد جاز بقرينة قوله: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾، والكافرون يعلمون أنَّهم المقصودُ؛ لأنّهم مُقدِمون على الكفر ومُستمرّون عليه[2].

الكفرُ سببٌ في عذاب الدّنيا والآخرة

نوعُ الفاء ودلالتُها:

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ للسّببيّة والتّعقيب؛ أي: إنَّ كُفر الّذين كفروا كان سببًا في هذا البلاء الّذي حلّ بهم في الدّنيا، بما أخذهم الله به من نكالٍ، وما أُرسل عليهم من مهلكاتٍ، كما أنّه سيكون سببًا في العذاب الأليم الّذي سيلقَونه يوم القيامة[3]، وفيه التَّعقيبُ الدّالُّ على انتفاء المُهلة وشدّةِ الأخذ.

براعةُ استعمال مفردة الذّوق:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿فَذَاقُواْ﴾؛ لِما فيها من الإشعار بأنَّ عذابهم الدُّنيويَّ مقدّمةٌ للعذاب الحقيقي في الآخرة، وهو بمنزلة التَّذوُّق لسائر الأكل والشّرب في المائدة الواحدة.

بيانُ شدّة العذاب مع التَّهكُّم بتنزيله منزلة الطَّعام والشَّراب

بلاغةُ الاستعارة في فعل الذَّوق:

فعل ﴿فَذَاقُواْ﴾ مجازٌ في مُطلق الإحساس والوجدان، حيث شبّه ما حلَّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريهٍ يذوقُه من حلَّ به ويبتلعُه؛ لأنَّ الذَّوق باللِّسان أشدُّ من اللَّمس باليد أو بالجلد؛ فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، والمعنى: أحسّوا العذاب في الدّنيا إحساسًا مكينًا[4]، واختيار حاسّة التَّذوُّق؛ لأنَّ كلَّ وسيلة إدراك قد تتَّصل بلون من ألوان التَّرف في الحياة، أمّا الذّوق فيتّصل بإمداد الحياة، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 111 - 112.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 268.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 977.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 268.

الأكلُ والشّرب، وبهما قوام حياة الإنسان، فهما ضرورتان للحياة لا مُجردُ ترفٍ فيها، وهذا أنكى في التَّعذيب والإهانة، ففيه تهكّمٌ الماحيُّ للمُخاطَبين، وقد يُعبَّر بالذَّوق عمّا يطرأ على النَّفس وإن لم يكن مطعومًا؛ لإحساسِها به كإحساسها بذوق المطعوم(1).

نوعُ الإضافة ودلالتُها:

أُضيف لفظ: ﴿وَبَالَ﴾ إلى الأمر، و﴿أَمْرِهِمْ﴾ هنا كفرُهم، من باب إضافة المُسبَّب إلى السَّبب، فكفرهم هو سبب وبالهم، فذوق الكفر الّذي وبالُه الخسارة أشدُّ في التَّحذير والوعيد.

نوعُ الواو ومعناها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاطفةٌ على الجملة قبلَها، وقد دلَّت الواو على مزيدٍ من التَّهديد والوعيد الّذي يلحق الكافرين، فالعذاب ليس مقصورًا على الدُّنيا.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

دلَّت اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الاستحقاق؛ أي: أنَّ ما سينالُه أولئك الكافرون من العذاب يوم القيامة، إنَّما ينالونه عن عدالةٍ إلهيّة بسبب كفرهم.

نكتةُ تقديم المُسند:

اختصاصُ العذاب بالكفّارِ جزاءً وِفاقًا

قُدِّم (لهم) على المُسند إليه ﴿عَذَابٌ﴾ لتنكير المبتدأ، وللعناية بالخبر المُقدّم، ووجه العناية ما يحمله من دلالة التَّنبيه على تنزيل ما نالوه من العذاب منزلة الاختصاص الّذي لا يكون لغيرِهم؛ نظرًا لما اقترفوه من ذنوبٍ وآثام، فهو إشعارٌ بأنَّ العذاب الأليم الّذي سينالُه أولئك سيجدونه آلَمَ عذابٍ، فكأنَّه أُعدَّ لهم لا لغيرِهم.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 98.

نكتةُ تنكير لفظِ: ﴿عَذَابٌ﴾:

شدّة العذاب مع إبهامه تخويفٌ وزجرٌ

نُكِّر لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ للإشارة إلى هولِ العذاب وشدّته بدلالة وصفه بلفظ ﴿أَلِيمٌ﴾، مع إبهامه، فهو عذابٌ لا يعلم ماهيَّته أو كنهَه إلّا اللّٰه تعالى؛ لأنّه ليس معهودًا عندهم، وفي التَّنكير تحذيرٌ لكلِّ كافرٍ مُصرٍّ على كفره، مُستمسكٍ به بأنَّه سيجدُ عقوبة كفرِه وتكذيبِه.

دلالةُ صيغة (فعيل):

بيانُ شدّة ألم عذابِ القيامة ودوامِه ومُلازمتِه

جاء التَّعبير بصيغة (فعيل) للفظِ: ﴿أَلِيمٌ﴾، وهي صفة مُشبّهة، للدّلالة على الثّبات واللّزوم والمُصاحبة، فكأنَّ العذاب هنا ملازمٌ مصاحبٌ، وفي اللّفظ اتّساع في الدّلالة، فهو بمعنى: مُؤلِم، فـ(فعيل) بمعنى (مُفعِل) قليلٌ، ويحتمل أن يكون من باب قوله تعالى: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: 21]، أي: ذاتِ رِضًا؛ أي: عذابٌ ذو ألمٍ، فيكون بمعنى (فاعِلٍ)، وهو كثيرٌ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَبالُ والعاقبةُ:

يُلحَظُ في الوبال النَّتيجة الواقعة بسببٍ، والعاقبةُ لمُطلق المآلِ

الوَبالُ لفظٌ دالٌّ على الأمر الشَّديد الثَّقيل، وفيها تكلُّفٌ ومُعاناة وثقلٌ، وقد يكون الوَبالُ محمودَ العاقبة[2]، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]، فبعد الوَبال عفوٌ عمّا سلفَ، وإن كان الأكثرُ في الوبال سوءَ العاقبة، دليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 186.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وبل).

قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾ [الحشر: 15]، ويأتي الوَبالُ بمعنى النَّتيجة ولحظِ السَّبب الّذي لأجلِه كان الوبالُ.

أمّا العاقبةُ فإطلاقُها يختصُّ بالثَّواب، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الروم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، ويُلحَظُ في العاقبة مآلُ الأمر ونهايتُه عمومًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ [التغابن: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر النَّتيجة إلى التَّحذير بذكر سببها

لمّا ذكر في الآية السّابقة ما أتى المُشركين من أنباء الكافرين وما حلَّ بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، ليقعَ تحذيرُ الكافرين الّذين أرسل الرَّسول ﷺ إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم؛ ناسب التَّصريح بالأسباب الّتي أدَّت إلى سوء عاقبة هؤلاء السّابقين، وهو التّكذيب والكفر، فهو انتقال من ذكر النّتيجة إلى التَّنبيه على سببها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبَشَرٞ﴾: البشرةُ: ظاهرُ الجلدِ، وجمعُها: (بَشَرٌ وأبشارٌ)، وعبَّر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظُهور جلدِه من الشَّعر، بخلاف الحيوانات الّتي عليها الصّوف أو الشَّعر أو الوَبَر، واستوى في لفظ (البشر) الواحدُ والجمع، وثُنّي فقال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾ [المؤمنون: 47]. وخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته وظاهره بلفظِ البشر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71][1].

2) ﴿فَتَوَلَّوۡاْ﴾: التَّولّي هو الانصرافُ والإعراضُ، وقد يكون بالجسم، وقد يكون بتركِ الإصغاءِ والائتمار، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20]؛ أي: لا تفعلوا ما فعل الموصوفون بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: 7]، ولا ترتسموا قولَ مَن ذُكِرَ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بشر).

﴿ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: 26]، ويُقالُ: (وَلّاه دُبُرَه): إذا انهزمَ، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: 111][1]، والمُراد في الآية: التَّولي بمعنى الإدبار عن الحقّ بعد انكشافه.

3) ﴿غَنِىٌّ﴾: يأتي الغِنى على ضُروب: أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا للّه تعالى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: 64]، ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قلّةُ الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: 8][2]. وصفة (غنيّ) إذا كانت صفةً للّه ﷻ فهو المالك لكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كل شيء؛ أي: أنَّها بمعنًى يشملُ ما يرزقُ به خلقه في الدُّنيا والآخرة، ويشمل الاستغناء والكفاية بكيفيّة لا يعلمُها إلّا هو سبحانه[3].

4) ﴿حَمِيدٌ﴾: الحمدُ: خلافُ الذّمِّ، يُقال: (حمدت الرّجل أحمدُه حمدًا)، إذا رأيتَ منه فعلًا محمودًا واصطنعَ إليك يدًا تحمدُه عليها[4]، ورجلٌ محمودٌ ومحمّدٌ، إذا كثُرت خصالُه المحمودةُ، والحميدُ: من صفات اللّه تعالى وتقدَّس بمعنى المحمودِ على كلِّ حالٍ، وهو من الأسماء الحسنى (فعيلٌ) بمعنى: محمود؛ وهذه اللَّفظة في الأصولِ: (فعيلٌ) بمعنى: (مفعول)، ولفظةُ (مفعول) في هذا المكان ينبو عنها طبعُ الإيمان، فعدَلْتُ عنها وقلتُ: (حميد) بمعنى (محمود)، وإن كان المعنى واحدًا[5].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ذكـرُ أسـبابِ العـذابِ إقامةٌ للحجّةِ ودفعٌ للشَّهوة ودحضٌ للشُّبهة

تُبيِّن الآية الكريمة سببَ الهلاك والدَّمار الّذي لحق الكافرين

(1) الراغب، المفردات: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (غنى).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غنى).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حمد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

من الأمم السّابقة، وهو أنّهم كانت تأتيهم رسلُهم بالآيات البيّنات، وبالمُعجزات الواضحات، الدّالّة على صدقِهم، فما كان من هؤلاء الأقوام إلّا أن أعرَضوا عن دعوة الرُّسل، فكفروا بسبب هذا القول الفاسد، وأعرضوا عن الحقّ إعراضًا تامًا، واللّه غنيٌّ عنهم وعن العالمين، محمودٌ من كلِّ مخلوقاته بلسانِ الحال والمقال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآية:

بيانُ النَّتائج بالأسباب والكشف عن عللِ المآلات من منهج القرآن في الإرشاد

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ إمّا على اعتبار أنّه استئناف بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا قد سأل عن ماهيّة الأمر الّذي بسببه ذاقوا العذاب، ووُعدوا بعذاب الآخرة، فهو لشبه كمالِ الاتِّصال، أو أنَّه بيانٌ لسببِ استحقاق العذاب الأليم بعد ذوق وبالِ كُفرهم، فهو لكمالِ الاتِّصال.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة البعيد:

تشخيصُ العذابِ أرسخُ أثرًا في العقول، وأشدُّ وعظًا للقلوب

آثر النَّظم الكريم استعمال اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، لبيان بُعد العذابِ الّذي وقع وسيقعُ عليهم، فجمع اسمُ الإشارة عذاب الدّنيا والآخرة، وليس المقصودُ بالجمع اتّحادَ العذابَين، بل اتّحاد سبب العذابَين، وفي البُعد تشخيص للعذاب، كأنّما يراه المُخاطَبون؛ ليقع الاعتبارُ والاتِّعاظُ.

بلاغةُ التَّعريض بالإشارة:

أخبارُ الغابرين تنبيهٌ للحاضرين وتقريبٌ لأذهان السّامعين

في الإشارةِ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ارتقاءٌ في التَّعريض إلى ضرب منه قريب من الصّريح، وهو المُسمّى في الكناية بالإشارة؛ فقد كانت مقالةُ الّذين من قبل مماثلةً لمقالة المُخاطبين؛ فإذا كانت هي سببَ ما ذاقوه من الوَبال، فيوشكُ أن

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 426.

يذوق مُماثلوهم في المقالة مثلَ ذلك الوَبال، فهذا عدٌّ لكفرٍ آخرَ من وجوه كفرهم، وهو تكذيبُهم الرَّسول ﷺ وتكذيبُهم بالقرآن؛ فإنّ القرآن بيّنةٌ من البيّنات لأنَّه مُعجزةٌ(1).

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ سببيّةٌ(2)، فالجملة في موقع العلّة، والمعنى: أنّهم ما نالوا ما نالوه من العذاب الأليم وسوء المصير إلّا بسبب كفرِهم وتكذيبِهم للرُّسل.

دلالةُ ضمير الشَّأنِ:

بيانُ دلالةِ التَّهويل في مسألة الإرسالِ وإنكارِ الكافرين لها

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ ضميرُ الشَّأن، جاء لقصد تهويل ما يُفسِّر الضَّمير، وهو جملة ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾(3)، ذلك أنَّ ضمير الشَّأن أو ضمير القصّة، يُستعملُ في معنى ذي شأنٍ، أو غرضٍ فخم؛ يستحقُّ توجيه الأسماع والنُّفوس إليه، فلا تُذكر الجملة مباشرةً خاليةً ممّا يدلُّ على تلك الأهميّة والمكانة؛ وإنّما يُقدِّمون لها بضميرٍ يسبقُها؛ ليكون الضَّمير بما فيه من إبهام وتركيز مُثيرًا للشَّوق، والتَّطلُّع إلى ما يُزيلُ إبهامَه، باعثًا للرّغبة فيما يبسطُ تركيزَه؛ فتجيءُ الجملة بعده؛ والنَّفس مُتشوِّقةٌ لها، في حرصٍ ورغبةٍ، فتقديم الضَّمير ليس إلّا تمهيدًا لهذه الجملة الهامّة، لكنَّه يتضمَّن معناها تمامًا، ومدلولُه هو مدلولها؛ فهو بمثابة رمزٍ لها ولمحة أو إشارة موَجّهةٍ إليها(4)، وأمرُ الرِّسالة أمرٌ جلَلٌ؛ لذا كان ضميرُ الشّأن هو المُعبِّرَ هنا عن عظمة شأنِ الرّسالة.

نكتةُ ذكر فعلِ الكون:

كثرةُ إرسالِ الرُّسل لتحقيق الحقِّ لا يعني الإذعانَ لاسم الإيمان

ذُكِرَ فعلُ الكون في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ﴾ لبيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 268.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 425.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(4) عباس حسن، النحو الوافي: 1/ 250.

كثرة إرسال الرّسل تحقيقًا للهداية والرّشاد، مع ما يُصاحبُها من الدّلالة على الاستمرار، وما ينشأُ عن ذلك من موقف المُعاندين المُكذّبين، فعلى كثرة إرسال الرّسل فهم يُكذّبون ويُعاندون، فهي تجمع كلَّ المعاني، ودلالتها على الزّمن مطلقةٌ، وتقييدها بالماضي أو الحال أو الاستقبال ما هو إلّا تأثير السّياق التَّركيبيّ[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾ لاستحضار الصّورة مع دوام واستمرار الرّسل وعدم الانقطاع، ففيه اهتمامٌ بالبشر، والحرص على هدايتهم، ممّا يدلُّ على تمام الحجّة.

نكتةُ إضافة الرّسل إلى الضَّمير:

من عناية الله بعبادِه أن يُخصِّص رسلًا لدعوتِهم وتذكيرِهم

في إضافة الرّسل إلى الضَّمير العائد على الكافرين في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾ بيانُ عناية الله تعالى بخلقه، حيث خصَّص لكلّ قوم رسلًا يدعونهم إلى الهدى والإيمان، مع ما فيه من التّشريف والإكرام، ولم يقل: (رسلنا)؛ وفي الإضافة لضمير الغائب بيانُ كمال عُتوِّهم وعنادِهم؛ أي: وبالله لقد جاء كلَّ أمةٍ من تلك الأممِ المُهلَكة رسولُهم الخاصُّ بهم بالمُعجزات البيّنةِ المُتكثِّرة المُتواردةِ عليهم، الواضحة الجلالة على صحّة رسالتِه الموجبةِ للإيمان حتمًا[2].

دلالةُ استعمال لفظِ (الرُّسل):

جاء استعمال لفظ (الرّسل) في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾؛ لبيانِ أنَّ الّذين أرسلَهم الله تعالى هم رسلٌ أصحابُ رسالات خالصة، وأنَّ كلَّ أمّةٍ اختصَّت برسولٍ.

نوعُ الباء ودلالتُها:

دلّت الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ على شدّة التصاقِ الرُّسل

(1) دليلة مزوز، الأحكام النحوية بين النحاة وعلماء الدلالة، ص: 442.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 255.

بحُجَجِهم الواضحة الباهرة؛ والمعنى: تأتيهم رسلُهم مُلتصقين بالبيِّنات، والبيِّنة المُلتصقة بصاحبِها تُؤكِّد قوّةَ حُجَجِه.

سرُّ إيثارِ مفردةِ (البيِّنات) وجمعها:

شدّةُ الوضوح مع عظمة البيِّنات وعراقتِها

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مُفردة (البينات) للدّلالة على وضوح الأدلّةِ والبراهين الّتي جاء بها الرُّسل مع كثرتها، وهذا ما أفادَه الجمعُ؛ والجمعُ دالٌّ على الكثرة والتَّعدُّد، مع مُناسبة الجمع (البيِّنات) للجمعِ ﴿رُسُلُهُم﴾، فتعدُّد الرّسل يومِئُ بتعدُّد البيِّنات، وكلُّ رسول يأتي بينات كثيرة خاصّةٍ به مُعينةٍ له حسب اقتضاءِ الحِكمة؛ فإنَّ مُراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين الرُّسل وضميرِ الأمم[1].

بلاغةُ المجاز بالحذف:

إقامةُ الصِّفة مُقامَ الموصوف إمعانٌ في قوّة الصّفة

لفظُ (البيّنات) يصلحُ أن يكون صفةً لموصوف محذوفٍ تقديرُه: (بالآيات البيِّنات)، وفي هذا تركيزٌ على وضوح الآيات وإعجازها؛ بحيثُ لا يقدرُ عليها بشر، فحذفُ الموصوف وإقامةُ الصّفة مُقامه إشارةٌ إلى عظمة البيِّنات وظهورِها بحيث لا تخفَى على ذي بصر.

نوعُ الفاء وفائدتُها:

المُسارعةُ في الإنكار والتَّكذيب دليلُ العنادِ واتّباع الشّهوات

دلّت الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ على السُّرعة والتَّعقيب، وهذا فيه من تصوير مُبادرة الّذين كفروا في الإنكار والرّفض ما فيه، بحيث إنّهم لم يتركوا لأنفسهم وقتًا للتّفكير كي يهتَدوا، بل سارعوا إلى حتفِهم، وسرعةُ الإنكار علامةُ العناد والاستسلام إلى شهوةِ النّفس، مع الاستعانة بتراث الآباء من الكفر والضّلال، ولواو الجماعة دلالةٌ على تواطُئهم في الإنكار واتفاقهم عليه، فليس الرّفض من واحد، وإنّما كانت كلمة (الكافرين) واضحةً واحدةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 255.

الكافر يُنكر أن يكون الرّسول بشرًا ولا يُنكر أن يكون الإلهُ حجرًا

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغرضُه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ﴾ استفهام إنكار وإبطال واستغراب؛ فهم قد قالوا باستحالة أن يكون بشرٌ مثل الرّسل يهدون بشرًا أمثالَ الكافرين، وهذا من جهلهم بمراتب النُّفوس البشريّة ومَن يصطفيه اللّه منها، ويخلقُه مضطلعًا بتبليغ رسالته إلى عباده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، وجهلوا أنّه لا يصلحُ لإرشاد النّاس إلّا مَن هو من نوعهم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95]، ولمّا أحالوا أن يكون البشر أهلًا لهداية بشرٍ مثله؛ جعلوا ذلك كافيًا في إعراضِهم عن قبول القرآن والتدبُّر فيه[1]، فكانوا أهل عراقةٍ في قلّة عقولهم وسخافة أحلامِهم، فأنكروا أن يكون رسولهم بشرًا، ولم يُنكروا أن يكون معبودُهم حجرًا[2].

نوعُ تنكير لفظ ﴿أَبَشَرٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿أَبَشَرٌ﴾ للنَّوعية؛ لأنَّ محطَّ الإنكار على كونهم يهدونهم، هو نوع البشريّة[3].

الوجهُ الجامع بين الكافر وإبليسَ هو الكِبرُ والإباءُ عن طاعة البشر

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَبَشَرٌ﴾:

الغالب في استعمال القرآن أنّه إذا أراد أن يُعبِّر عن الإنسان بالبشر فهو باعتبار ظهور جلده من الشّعر، فخُصَّ في القرآن كلُّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته وظاهره بلفظِ البشر، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، وقال ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، ولمّا أراد الكفّارُ الغضَّ من الأنبياء اعتبروا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 4/ 302.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.

ذلك فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: 15]، وقال تعالى: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[1]، ذهابًا في أنَّ البشر مخلوقٌ من طين، وما كان كذلك فهو دون أن يكون رسولًا، وهو ذاتُه السَّبب الّذي انطلق منه إبليسُ حين أبى أن يسجدَ لآدمَ عليه السلام.

نكتةُ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعليِّ:

كبرُ الكافر مانعٌ من الإذعان للحقِّ

قُدِّم المُسند إليه على المُسند الفعليِّ على وجهٍ عند النُّحاة في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾؛ لقصد تقوّي حكم الإنكار، وما قالوا ذلك حتّى اعتَقَدوه؛ فلذلك أقدموا على الكفر برسلهم؛ إذ قد اعتقدوا استحالةَ إرسال اللّه إيّاهم، فجزموا بكذبِهم في دعوى الرِّسالة فلذلك فرَّع عليه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾[2].

دلالةُ التّعبير بالفعل المُضارع:

جاء التَّعبير بصيغة الفعل المضارع ﴿يَهۡدُونَنَا﴾ للدّلالةِ على أنَّ الرّسل كانوا يدعون أقوامَهم دون توقُّفٍ أو انقطاع، فهم في حالةِ تجدُّدٍ دائمٍ، وهذه وظيفتُهم الّتي كُلِّفوها فتحمَّلوها.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾ تعقيبيّةٌ دالّة على سرعة الكفر وعدم التّواني؛ فالكفرُ متمكّنٌ من قلوبهم؛ أي: لم ينظروا في تلك البيّنات ولا تأمّلوها، بل عقّبوا مجيئَها بالكفر[3].

نكتةُ حذف مُتعلّق فعل ﴿فَكَفَرُواْ﴾:

الكفرُ عندما يصبحُ سجيّةً تأتي توابعُه سرّيّة

حُذِف متعلّق فعل ﴿فَكَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ الكفر كفرٌ عامٌّ مُتعدِّدُ المعاني والمُتعلِّقات، فالكفرُ باللّه تعالى وبالرُّسل والكتب، فالكفر ليس مُتعلِّقًا باللّه وحده، بل بكلِّ ما أُمروا أن يُؤمنوا به، مع إضفاء صفة

(1) الراغب، المفردات، ص: 125.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 189.

الكفر عليهم، فهم يفعلون الكفر سجيّةً، وهو ما يُرشِّحه استعمال الفاء الدّالّة على سرعة الكفر، ولا تكونُ المُسارعةُ في شيءٍ إلّا وفيه فضلُ تمكُّنٍ.

نكتةُ عطفِ التَّولّي على الكفر:

الكفرُ بالحقِّ والإدبارُ عن رسلِ الحقِّ علّتان صارفتانِ عن الأمنِ

عُطفُ فعل التّولي على الكفر في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾ للدّلالة على شدّة نُفور المُعاندين من الحقِّ، فقد جحَدوا رسالات ربّهم، وأدبروا عن رسلِهم، فلم يكن الفعل واحدًا، وإنّما تعدَّد بالكفر فالإدبارِ عن الحقّ، الّذي كان من شأنه - لو تمهّلوا قليلًا، ولم يستبدَّ بهم العناد - أن يهتَدوا إليه بأنفسهم، ولرأوا أنَّ ما يدعوهم الرَّسول إليه، هو دعوةٌ موجَّهةٌ إليهم من عقولهم، قبل أن يوجِّهها الرَّسولُ إليهم[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

كفرُ الكافر مظهرٌ من مظاهرِ غِنى الجبّار سبحانه

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ هي واوُ الحال؛ أي: والحال أنَّ اللّه غنيٌّ عنهم من زمنٍ مضى؛ فإنَّ غنى اللّه عن إيمانهم مُقرَّر في الأزل[2]، وجوِّز جعلُه حالًا بتقدير (قد)؛ أي: وقد استغنى بكماله، عرفوا أم لم يعرفوا، وتحتملُ أن تكون الواوُ للعطف، فيكون فعل (استغنى) معطوفًا على ما قبله[3]، على سبيل سرد الأخبار، فالكفّار كفروا باللّه، وأدبروا عن رسلِه، واللّه استغنى عنهم، ولم يزل غنيًّا عن العالمين.

دلالةُ السّين والتّاء:

السّين والتّاء في ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾ للمُبالغة، كقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥﴾ [عبس: 5]، والمعنى: غَنيَ اللّه عن إيمانهم، قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: 7][4].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 978.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.

دلالةُ الإيماء في فعلِ: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾:

جاء استعمالُ فعلِ: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾ لبيان إعراضِ اللّه عنهم، وطردِه إياهم بالاستغناء، من باب الرّدِّ عليهم بمثل منطقِهم وسلوكِهم، وأنَّهم لـمّا استغنَوا عن اللّه، فقد استغنَى اللّه عنهم[1].

نكتةُ حذف مُتعلّق فعل ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾:

حُذِف مُتعلّق فعل ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى﴾ لبيان العموم؛ ليتناولَ كلَّ شيءٍ، ومن جملته إيمانُهم وطاعتُهم[2]، وليكون هذا الفعلُ وصفًا للّه تعالى، فهو الغنيُّ عن خلقِه جميعًا.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ لا محلَّ لها من الإعراب[3]، دالّة على استقلاله ﷻ بالغنى والحمد واستغنائِه عن المخلوقات كلِّها.

نكتةُ التَّعبير بالجملة الاسميّة:

ثباتُ الحمد والغنى لصاحب الغِنى المُطلق إثباتُ حاجة البشر له

دلَّ التَّعبير بالجملة الاسميّة في فاصلة الآية ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ على نكتة الثَّبات والدَّوام وعدم الانقطاع، فغِناه عن مخلوقاته ثابتٌ لا يتزعزعُ، وهو الحميدُ المحمودُ بكلِّ لسان، فكانت الجملة الاسميّةُ مُشيرةً إلى عظمتِه واستغنائِه عنهم، ومَن كان غنيًّا عن البشرِ فهم المُحتاجون إليه، الطّالبون حمدَه وتعطُّفَه عليهم؛ فذِكر الغنى يتضمَّن طلبَ الخضوع والالتجاء إليه ﷻ.

نكتةُ إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

الكلمةُ الجامعةُ مَثَلٌ سائرٌ وحكمٌ دائرٌ

جاء التَّعبير بالاسم الظّاهر (اللّه) دون الضّمير، مع أنَّ ذكر الضّمير أخفُّ[4]؛ لتربية المهابة والخوف في النُّفوس كافّةً، فإنّه الغنيُّ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 978.
(2) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 491.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 348.
(4) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 226.

عن كلِّ عباده، مع الإشارة إلى التَّعظيم[1]، ولزيادة التَّقرير، وتأكيد المعنى باللَّفظ نفسِه، ولتجريَ الجملة مجرى الأمثال السّائرة.

تقريرُ المعاني طريقُ بيان المقاصدِ وتوكيدِ المطالب

مُناسبة التَّذييل بصفتَي: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

جاءت جملة الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تذييلًا؛ لما فيها من تقرير المعنى السّابق وتوكيدِه، فهو الغنيُّ عن كلِّ شيء فيما طلب منهم، الحميد لمن امتثل وشكر[2]، وهو سبحانه مُستوجبٌ للحمد بذاته؛ لكثرة ما يوجِبُه من أياديه وإن لم يحمده أحدٌ، أو محمودٌ تحمدُه الملائكة ﷺ، بل كلُّ ذرّة من ذرّات العالم ناطقةٌ بحمده، والحمد حيث كان بمُقابلة النِّعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله ﷻ[3].

صاحبُ الكمال يستوجبُ المحامدَ كلَّها

نكتةُ تقديمِ ﴿غَنِيٌّ﴾ على ﴿حَمِيدٌ﴾:

قُدِّم ذكرُ صفةِ ﴿غَنِيٌّ﴾ على صفة ﴿حَمِيدٌ﴾ من باب تقديم السَّبب على النَّتيجة؛ فالغنيُّ هو صاحبُ الكمال التّامِّ على الإطلاق، وصاحبُ الكمال التّامِّ صفةٌ تستوجبُ المحامد كلَّها، فكان استحقاقُ الحمد نتيجةً لغناه وكماله واستغنائه عن البشر.

التَّعظيم والتّفخيم ثوابتُ صاحبِ الكمال المُطلق

نكتةُ تنكير صفتَي: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

تنكير الصِّفتين: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إشارةٌ إلى تعظيم اللّٰه وتعظيم صفاته، مع التّفخيم المُلائم لعظمة الصِّفات؛ فهو بذاته غنيٌّ عن العالمين، فضلًا عن إيمانهم، لا يتوقَّفُ كمالٌ من كمالاته عليهم، ولا على معرفتِهم له، حميدٌ؛ أي: يحمدُه كلُّ مخلوقٍ، أو مُستحقٌّ للحمد بنفسه، وإن لم يحمَدْه حامدٌ[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 88.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 269.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 183.
(4) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 244.

دلالةُ صيغة (فعيل):

صفةُ الحمد ثابتةٌ لله تعالى بحمدِ العباد وبدونِه

جاء التَّعبير بصيغة (فعيل) لصفة ﴿حَمِيدٌ﴾ وهي صفةٌ مُشبَّهة، تدُلُّ على أنَّ الوصف ثابتٌ في صاحبِه أو كالثّابت، فلفظُ ﴿حَمِيدٌ﴾ أثبتُ وأبلَغُ من (محمود)؛ لرُسوخ الوصف فيها، فهو حميدٌ بحمد النّاسِ وبدون حمدهم، وهو ما يجعلُ اختيار هذه الصّيغة هو الأنسبَ مع صفة الغنيّ المُستغني عن عبادِه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر أسبابِ الكفر السّابق إلى ذكر أسباب الكفر الحاضر

لمّا بيّنت الآيةُ السّابقة سبب عذاب الأمم السّابقة، ناسبَ الانتقال إلى ذكر سببٍ يُنزل عذابَ اللّه وعقابه على الكافرين المُخاطَبين بهذه الآيات، وهو إنكار البعث، فهو تلويحٌ بالعقاب بعد ذكر ما حلَّ بالسّابقين، وهو انتقالٌ من ذكر أسباب الكفر الّتي أوجبت العذاب السّابق، إلى ذكر أسباب الكفر الحاضرة الّتي تومِئُ إلى اقترابِ العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَعَمَ﴾: (زعم) أصلٌ يدلُّ على القول من غير صحّةٍ ولا يقين، قال اللّه جلَّ ثناؤُه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾[1]، والمُراد في الآية: بيانُ أنَّ أقوال المُشركين قائمةٌ على غير يقينٍ ولا نظر، فهي مُجرّدُ قولٍ مزعوم.

2) ﴿يُبۡعَثُواْۚ﴾: (بعث) أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[2]، فالأصلُ: البعثُ إثارة الشّيءِ وتوجيهُه، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يُخرِجُهم ويُسيِّرهم إلى القيامة، وقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ [المجادلة: 6]، وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

الزَّعمُ مطيّةُ كذب المُشركين وبعثُهم كاشفٌ عن عقابهم

تُخبر الآيةُ الكريمة بما يقولُه مُنكرو البعث، في نفيهم لذلك على سبيل التَّوكيد والإمعانِ فيه، فهم يزعُمون أنَّهم لن يُبعَثوا أبدًا، ويأتي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زعم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الراغب، المفردات: (بعث).

الرّدُّ عليهم بالقسَم المُؤكِّد لبعثِهم، وأنّهم سوف يُنبَّؤون بما عملوا وقالوا، وذلك أمرٌ يسيرٌ على الله تعالى، فكما بدأ الخلق يُعيدُه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصلِ الآية عن سابقتِها:

الانقطاعُ بين الجزئيّاتِ لا ينفي المُناسبةَ بين الكلّيّات

قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ مفصولٌ عمّا قبله؛ لأنَّ الآية تُمثِّل ابتداءً جديدًا في الرّدِّ على المُشركين الّذين أنكروا البعثَ، فبينها وبين ما قبلها كمالُ انقطاع، وهذا لا يعني انتفاء المناسبة بين الآيتَين، بل هناك مناسبة وثيقة، وهي الانتقال من غرضٍ لآخرَ، وبين الغرضَين تكاملٌ في المقصد.

بلاغةُ استعمال مفردة: ﴿زَعَمَ﴾:

الزَّعمُ في غالب الاستعمال القرآنيّ نسبةُ قولٍ إلى اعتقادٍ فاسدٍ

آثرَ النَّظمُ الكريم اختيار خصوص مُفردة الزَّعم في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ دون عموم لفظ القول، والزَّعم هو قولٌ موسومٌ بمُخالفة الواقع خطأً؛ فمنه الكذب الّذي لم يتعمَّد قائلُه أن يُخالف الواقع في ظنِّ سامعِه، ومنه الخبر المُستغرَبُ المشكوك في وقوع ما أُخبر به[1]، ومنه ادّعاءُ العلم، وأكثرُ ما يُستعمل للادِّعاء الباطل[2]، وهذا أكثر استعمال القرآن في سياق نسبة الأقوال للمُشركين، فاختيارُ هذه المفردة يُحقِّق غرضَين، نسبة القول للمشركين، وبيان أنَّه قولٌ باطل مذموم.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الإيماءُ إلى أنَّ الزّاعمين هم قومٌ معهودون بإنكارِ البعث

آثرَ النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ دون الاسمِ الظّاهر: (الكافرون)؛ للإيماء إلى أنَّ الزّاعمين هم مخصوصون بهذا الزَّعم، وأنَّه ليس لمُطلق الكافرين، بل لقومٍ عُهِدَ عنهم تولّي كبر هذا الزَّعم، فقولهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 270.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 317.

مذمومٌ بقرينة لفظ الزَّعم، وبقرينة الاسم الموصول الّذي جاءت صلتُه شاهدًا على سبب زعمِهم، وهو الكفرُ.

غرضُ اقترانِ أداتَي ﴿أَن﴾ و﴿لَّن﴾:

استعمل النَّظم الكريم ﴿أَن﴾ وهي المُخفّفة من الثّقيلة، واسمُها ضمير الشّأن مع اجتلابِ حرفِ ﴿لَّن﴾ لتأكيد النّفي عند المُنكرين؛ لبيان أنَّ الزّاعمين كانوا موقنين بانتفاء البعث[1].

نكتة بناء فعل ﴿يُبۡعَثُواْۚ﴾ للمفعول:

تصويرُ حالة المُنكرين للبعثِ حين النُّطقِ بالجدالِ الباطلِ

بُني فعلُ ﴿يُبۡعَثُواْۚ﴾ للمفعولِ للعلم بالفاعل الّذي نُفي عنه هذا الفعل، ولاستحضار حقيقة قولهم عند النّفي والإنكار، فهم لا ينطقون باسم الجلالة في غالب كلامهم عند التَّطرّق للبعث وأمور الآخرة، بل ينفون ذلك على سبيل الإجمال، فكان حذف الفاعل مُناسبًا لتصوير المشهد، واستحضار الحالة الّتي كانوا عليها، مع ما في البناء للمفعول منَ الإيجاز.

دلالةُ استعمال لفظ: ﴿قُلۡ﴾:

التزامُ أمر الله تعالى في الرَّدِّ على المُشركين مركبُ نجاةٍ وجسرُ وصولٍ

لمّا ابتدأت الآيةُ بوصفِ قولِ المُكذِّبين بأنّه زعمٌ، ناسب بيان الرَّدِّ عليهم بلفظ القول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، فهو قولٌ مُتَّصفٌ بأركان القول المُجرّد عن الوصف الزّائد، ليقعَ التَّقابلُ بين زعم الّذين كفروا، وقول الرّسولِ ﷺ في تلقّي كيفيّةِ الرّدِّ عليهم، والتَّقابلُ يومِئُ إلى إسدالِ صفة الحقِّ على هذا القول، بالإضافة إلى أنَّه لا يُرادُ منَ الرَّسول ﷺ إلّا أن ينطقَ بالقول، مُتجرِّدًا عن أيِّ معنًى آخرَ، ففيه تمامُ الالتزام بأمر الله تعالى، كأنَّه قيل له: قل لهم ما عُلِّمته فحسبُ؛ ليكون أرسخَ في إقامة الحجّةِ في أداء التَّبليغ.

معنى ﴿بَلَىٰ﴾ ودلالةُ استعمالها:

إبطالُ النَّفي المُجرَّد بالإثبات المُؤكَّدِ

استُعمل حرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 271.

حرفُ جواب لإبطال الكلام المنفيِّ، و﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد ﴿لَّن﴾، وهو البعثُ[1]، فلمّا نفى أن يكون زعمُهم حقًّا، ناسب بيان الحقِّ الكامل بأقوى عبارات التّوكيد، فهو انتقالٌ من النَّفي المُجرّد إلى الإثبات المُؤكَّد.

بلاغةُ القسم وغرضُه الارتباطيّ:

إبطالُ زعم الكفّار البارد بأوكَدِ الأساليبِ مع التّهديد

الواوُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ حرفُ قسم، والقسمُ توكيدٌ وتشديدٌ باليمين، جيءَ به إبطالًا لزعمِهم؛ لينقضَ نفيَهم بأشدَّ منه[2]، وتمكينًا لمعنى البعث في النُّفوس، وتمسّكًا بالعقيدة الصّحيحة، وليس بعد قسم الرَّسول بربِّه توكيدٌ، وفي اليمين والقسم تهديدٌ؛ لأنّ التّهديد به أعظم وقعًا في القلب، فكأنّه قيلَ: ما تُنكرونه واللّه إنّه لواقعٌ لا محالةَ[3]، مع ما في القسم من تعليم للرَّسول ﷺ؛ أي: يُعلمه القسمُ تأكيدًا لما كان يخبرُ عن البعث، وكذلك جميع القسم في القرآن[4].

غرضُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيّة:

بيانُ التَّناقض بين الاعتقاد بالقدرة على ابتداء الخلق وبين نفي القدرة على إعادة الخلق

جاء التَّعبير بلفظ الرُّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ مُضافًا إلى ضمير المتكلِّم؛ لمناسبة المقام ذلك، فإنَّ إنكار البعث يعني إنكار القدرة على إعادة الخلق، الّذي هو من مُقتضيات الرُّبوبيّة، فذكرُ الرُّبوبيّة مُناسبٌ للتَّذكير بأصل خلقِهم، وأنَّ مَن اعترف بقدرة الخالق ابتداءً؛ فعليه أن يعترفَ بقدرته على إعادة الأجساد بعد موتها، فهو تلويحٌ لهم بالتَّناقض بين اعترافِهم بأنَّه الخالقُ الرّازقُ، وبين زعمِهم بنفي قدرته على إعادة الإحياء والبعث.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 548.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 271.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 58.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 553.

فائدةُ إضافة لفظ الرُّبوبيّة إلى الضّمير:

الإيماءُ إلى نصرة الدّين وظهوره على المشركين

أُضيف لفظُ الرُّبوبيّة إلى ضمير المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾؛ لتشريف وتكريم الرَّسول ﷺ، وللدّلالة على أمرَين، **الأوّل**: أنَّ الّذي ربّاه وعلّمه ورزقَه هو الّذي سيبعثُه ويبعثُهم، **والآخرُ**: أنَّ الّذي ربّاه وأرسلَه هو الّذي سينصرُه عليهم في الدُّنيا والآخرة، وهذه دلالةٌ إيمائيّة.

بلاغةُ توالي المُؤكّدات في جملة القسم:

القسم بالرَّبِّ التجاءٌ إلى العظيم لإثبات الحقِّ العظيم

في قوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ ثلاثةُ مؤكِّدات؛ واوُ القسم، واللّام الواقعة في جواب القسم، ونون التّوكيد الثّقيلة، وفي توالي المُؤكّدات بيانُ عظمة حال المُقسَم به (ربي)، الّتي تُؤذِنُ بقوّة حال المقسم عليه ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾ جوابِ القسم، وشدّةِ ثباته واستقامته؛ لأنَّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلّما كان المُستشهَدُ به أعلى كعبًا وأبينَ فضلًا وأرفعَ منزلةً؛ كانت الشّهادةُ أقوى وآكدُ، والمُستشهدُ عليه (جوابُ القسمِ) أثبتَ وأرسخَ[1]، ويُضاف إلى ذلك أنّ التّوكيد بمنزلة إعادة الجملة مرَّتَين وثلاثًا، ففيه إيجازٌ بعدم التّكرارِ اللَّفظي.

نوعُ حرف التّراخي ودلالتُه:

إنكارُ البعث حالةٌ لاشعوريّة في إنكار الجزاء للاستمرار في الشَّهوات

يحتملُ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ أن يكون حرف عطفٍ للتَّرتيب مع التَّراخي[2]، وجملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ، ويحتملُ أن يكون للتَّراخي الرُّتبي؛ فإنَّ إنباءهم بما عملوا أهمُّ من إثبات البعث؛ إذ هو العلّة للبعث[3]، ووجهُ ذلك أنَّهم أنكروا البعثَ لإنكارهم أن يُحاسَبوا، وهو ما يكشف حقيقةَ الهروب الغافل من إثباتِ البعثِ، فسبب الإنكار هو الرّغبة في الإكثار من الشَّهوات دون أن يكون

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 567.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

هناك اعتقادٌ يمنعُهم من الاستمرار فيها، فإنكارُ البعث يُمثِّل حالة الرّاحةِ المُؤقَّتة الّتي يتحايلُ فيها العقل على القلب؛ ليبقى المُشركُ ساقطًا في شهواته، مُتكثِّرًا من أهوائِه، ولذلك كان إثباتُ الجزاء أشدَّ عليهم من مُجرَّد إثبات البعث.

بلاغةُ الكنايةِ:

الإنـبـاءُ كـنـايـةٌ عـن الـحـسـاب وتـهـديـدٌ بإنزال العذاب

استعمل النَّظمُ الكريم لفظ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ كنايةً عن محاسبتِهم وجزائهم عمّا عملوه في الدُّنيا، فإنَّ الجزاء يستلزمُ علم المُجازَى بعمله الّذي جوزيَ عليه؛ فكان حصولُ الجزاء بمنزلة إخباره بما عملَه كقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ [لقمان: 23]، وهذا وعيدٌ وتهديدٌ بجزاءٍ سيِّئٍ؛ لأنَّ المقام دليلٌ على أنَّ عملَهم سيِّئٌ، وهو تكذيبُ الرّسول ﷺ وإنكارُ ما دعاهم إليه[1].

مُناسبة بناء فعلَي ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾ و﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ للمفعول:

المُناسبةُ في الرّدِّ علـى المُنكرين قوّةٌ في الخطاب وعـظـمـةٌ في المضمون

لـمّا ذكر النَّظم الكريم فعل ﴿يُبۡعَثُواْۚ﴾ مبنيًّا للمفعول، ناسب أن يأتي الفعلان ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾، و﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ في الرّدِّ عليهم كذلك مبنيّان للمفعول، ولمّا نفَوا البعث مع علمهم بالباعث ﷻ فلم يذكروه، ناسب كذلك أن يأتي الفعلان من دون ذكر الفاعل، فهي مُناسبةٌ ناطقةٌ بقوّةِ الرَّدِّ، وعظمةِ المضمون.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾ باءُ السّببيّة الدّالّةِ على الارتباط بين السّابق واللّاحق؛ أي: إنَّ الجزاء المُكنّى عنه بالتَّنبُّؤ سببُه عمل المُخاطَبين؛ ففيه مزيدُ وعيدٍ وتهديد.

نوعُ (ما) ودلالتُها البيانيّة:

أداة (ما) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ تحتملُ أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

احتمالُ (ما) المصدرية والموصوليّة وهي أدلُّ على خصوص السّياق

تكون موصولةً بمعنى (الّذي)؛ أي: ثمّ لتُنبؤن بالّذي عملتم، فيكونُ مقصودًا كنائيًّا عمّا صدر عنهم من إنكار البعث وما تبعَه من أعمال الصَّدِّ عن الدَّعوة والتَّوحيد. وتحتملُ أن تكون مصدريّةً؛ والمعنى: ثم لتُنبَّؤنَّ بعملِكم، فيكون محمولًا على عموم أعمالِ الكفر والفساد والإجرام، والمعنيان مُتآيلان، وإن كان الحملُ على الموصوليّة هو الأقربَ لسياقِ الآية.

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

دلَّ التَّعبير بالماضي ﴿عَمِلۡتُمۡۚ﴾ على أنَّ حسابَهم وجزاءَهم سيكون على ما ثبت من عملهم، وهو يومِئُ بالدَّعوة إلى ترك ما هم عليه، كي لا يثبت عليهم إلّا الخيرُ؛ ففيه قيمةٌ هدائيّةٌ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ اعتراضيّةٌ[1] على جعل الفاصلة تذييلًا لما سبق، فهي تُفيد التّأكيد والتّقرير لما سبق في الآية من إثبات البعث، وتحتمل مُطلق عطف الخبر على القسم.

بلاغةُ استعمال اسم الإشارة البعيد:

الإشارةُ إلى البعث بالبعيد يحتفظُ بعُلوِّ المكانةِ وكبير الفخامة

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ إمّا عائدٌ إلى البعث المفهوم من قوله: ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾، أو إلى معنى المذكور من مجموع: ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾[2]، وفي الرّبط باسم الإشارة اختصارٌ وإيجازٌ؛ لأنّه بلفظةٍ واحدةٍ عبَّر عن جملتين بينهما حرف عطف، والبُعد في اسم الإشارة دالٌّ على عظم منزلة البعث؛ لأنّه لا يقدر على فعل ذلك إلّا الغنيُّ الحميدُ، ودالٌّ بالتَّبعيّة على قدرة خالقِ الكونِ ومُدبِّر أمره.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

نكتةُ استعمال مُفردة ﴿يَسِيرٌ﴾:

الرَّدُّ على سوء ظنِّ المُشركين وفسادِ اعتقادِهم في استحالةِ البعث

استعمل النَّظم الكريم مفردة ﴿يَسِيرٌ﴾ في الإخبار عن يُسرِ البعث، دون أن يُقال: (واقع) كما قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾ [الذاريات: 6]؛ لأنَّ الكلام لردِّ قولهم باستحالة البعث بعلّةِ أنَّ أجزاءَ الجسد تفرَّقت فيتعذَّر جمعُها، فذكروا أنَّ العسير في مُتعارَف النّاس لا يعسُرُ على الله تعالى، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27](1)، فاستعمال هذه المُفردة فيه إيماءٌ إلى استصعاب ذلك عند ضعَفة العقول، واستبعاده فيما لم يُشاهدوه من مجاري الأحداث، ومسالك العادة، فسارَعوا إلى إنكارِه، فجاءت هذه المُفردة لتُبيِّن لهم سوءَ ظنِّهم، وفسادَ اعتقادِهم.

نكتةُ استعمال حرفِ الاستعلاء:

استعمل النَّظم الكريم حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، لبيان ضمان الله تعالى للبعث، فهو يضمنُه بنفسِه العليّة، فدلَّ حرف الاستعلاء على الوعد بالضَّمان.

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المسند ﴿يَسِيرٌ﴾ هي الاختصاصُ والقصرُ، فأمرُ يُسرِ البعث مُقتصرٌ على الله تعالى، ولتشويق المخاطبِ لسماع الخبر، مع مُراعاة الفاصلة.

غرضُ تنكير لفظ ﴿يَسِيرٌ﴾ ومجيئها صفةً مُشبَّهةً:

المُبالغةُ في اليُسرِ مع العراقة في تنفيذ الوعد والوعيد

نُكِّر لفظُ ﴿يَسِيرٌ﴾ لإفادة المُبالغة في اليُسر على الله، يُؤكِّد ذلك دلالةُ لفظة ﴿يَسِيرٌ﴾ من كونها صفةً مُشبَّهةً دالّةً على الثُّبوت والاستقرار، فكان التَّنكير مع الصِّفة المُشبّهة دالّتَين على العراقة في القدرة مع الإحاطة الشّاملة بكلِّ وعدٍ أوعدَ به.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّعمُ والقولُ:

القولُ أعمُّ من الزَّعم في تجرُّدِه من الصِّفات

الزَّعم قولٌ قد يكونُ حقًّا، ويكون في الغالب باطلًا، أو يكونُ مظنّةَ الكذب والشَّكِّ؛ لذا قيل للكفيل والرّئيس: زعيمٌ؛ للاعتقاد في قولهما أنَّهما مظنّةُ الكذب، وقد قصر القرآن الكريمُ مادّة ﴿زَعَمَ﴾ للدّلالة على القول الباطل والاعتقادِ الفاسد، أو ما هو مظنّةٌ للكذب، أمّا القول فهو كلامٌ ورأيٌ ومُعتقَد[1]، وهو مُجرّدٌ عن الاتِّصاف بصفةٍ زائدةٍ على أصل معناه، فهو مُتجرِّدٌ لبيان صدور كلامٍ عن مُتكلِّمٍ مع نسبته إليه، أو تركِه بدون نسبةٍ.

الإرسالُ والبعثُ:

الإرسالُ فيه بعث بتُؤَدةٍ، وفي الفعل معاني اليُسر والسُّهولة والرِّفق[2]، أما (بعَثَ) ففيها معنى الإثارة[3] والقوّة، إضافةً إلى أن (انبعَثَ) مُطاوع (أرسل)[4]، فكأنَّ البعث إحياءُ نتيجة الإرسال العظيم الفخمِ.

(1) إبراهيم هدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 102.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ [التغابن: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد بيان تحقُّق الهلاك الحتميِّ لمُنكري البعث ناسب بيان النَّجاة الحتميّة

لـمّا تقدَّم ذكرُ إنكار البعث، وأنَّ ذلك من المشركين موجبٌ كفرَهم باللّه وآياته، وأنَّهم إن ثبتوا على ذلك عنادًا فإنَّ الهلاك مصيرُهم، فناسب الانتقال إلى بيان ما فيه عصمتُهم من الهلكة والشَّقاء، وهو الإيمان باللّه ورسوله وكتابه(1)، ومن ثمَّ فالآيةُ تعقيبٌ على قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾؛ أي: أنّه إذا كان البعثُ أمرًا لا مفرَّ منه، والحسابُ والجزاءُ لا معدّى عنه؛ فبادروا إلى الإيمان باللّه، وأسرعوا بالخروج ممّا أنتم فيه أيّها الكافرون من أوهام وضلالاتٍ، والإيمان باللّه لا يتمُّ ويكملُ إلّا بالإيمان برسوله، والإيمانُ برسوله لا يقعُ إلّا مع الإيمان بالنّور الّذي أنزلَه اللّه إليه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلنُّورِ﴾: (نور) أصلٌ صحيح يدلُّ على إضاءة واضطراب وقلّة ثبات، ومنه: النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأنَّ ذلك يكون مُضطربًا سريعَ الحركة(3)، ويُعرَفُ بأنَّه الضَّوء المُنتشر الّذي يُعينُ على الإبصار، وذلك ضربان: دُنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربان: ضربٌ معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهيّةِ، كنور العقل ونور القرآن، ومحسوسٌ بعينِ البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النَّيِّرة، كالقمرَين والنُّجومِ والنَّيِّرات(4)،

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 866.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 980.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(4) الراغب، المفردات: (نور).

والمقصودُ بالآية: القرآنُ الكريم؛ لما احتَواه من نور البيان والدّلالة والحقِّ والصِّدق.

المَعنى الإجْماليّ:

تأمرُ الآية الكريمة المنكرين للبعث بالإيمان بالله على سبيل الأصالة، ثمّ الإيمان بالرّسول والقرآن على سبيل التَّبعيّة؛ حيث إنَّ العِناد على الكفر أمرُه وخيمٌ في الدّارَين، وإنّما أمرَ ﷻ بما أمر لأنَّه عليم بعملِكم، مُطَّلع عليكم، خبيرٌ بشؤونكم وما يُصلِحُكم؛ فإنَّ من شأن العاقل أن يستجيبَ للخبير العليم.

الاستجابةُ للحقِّ ديدنُ العقلاء، ومخالفةُ الخبير العليم مسلَكُ الأشقياء

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفاء الفصيحة:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هي الفصيحةُ الّتي تُفصح عن شرط مُقدَّر، وهي مُفصحة عن شرطٍ قد حُذف ثقةً بغاية ظُهوره؛ أي: إذا علمتم هذه الحججَ وتذكَّرتم ما حلَّ بنُظرائكم من العقاب، وما ستُنبَّؤون به من أعمالكم؛ فآمنوا بالله الّذي سمعتم ما سمعتم من شؤونه ﷻ، ورسولِه محمّدٍ ﷺ الّذي جاء رحيمًا ودودًا، وبالقرآن المُبين[1].

مَن عَلِم الحجج وأيقنَ بالبراهين آمنَ بربِّ العالمين

غرضُ الأمر ودلالتُه:

جاء فعلُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كاشفًا عن وجهِ الإلزام بالإيمانِ بالله ورسوله، فأمرُ الله تعالى المُستعلي بالجلال والكبرياء نافذٌ في جميع خلقِه، وقد دلَّ الأمر على سعة الرَّحمة، فإنَّ الأمرَ بالإيمان ما جاء إلّا بعد البيان وطرح مشاهد الاعتبار من حال الأمم السّابقة، وهذا رحمةٌ من الله تعالى، ثمَّ إنَّ إلزام العباد بما فيه مصلحتُهم العاجلةُ والآجلةُ هو من عيون الرَّحمة، لمن وعى نورَ الوحيِ، فأذعنَ للحقِّ.

الأمرُ بالإيمان من عيون الرَّحمة الّتي تأمر باجتناب المهالك وترك المفاسد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

آثر النَّظم الكريم إظهارَ الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لتوريث المهابة في صدور المُخاطَبين، ولزرع المحبّة لصاحبِ الجمال والجلال.

فائدةُ عطف الرَّسول على اسم الجلالة:

فـي الإيـمـانِ بالرُّسل كمالُ الإيـمـان؛ لأنَّ الـرّسـول هـو صاحبُ البلاغ عن الله

عُطِف الأمرُ بالإيمان الرّسول على الأمر بالإيمان اللّه تعالى لبيان أنَّ الإيمان باللّه وحدَه لا يكتملُ، إلّا إذا تحقَّق ركنُه الثّاني وهو الإيمان بالرَّسول، وليكون مُتَّسقًا مع ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم﴾؛ فحقُّ الرَّسول أن يُؤمَنَ به، لأنَّ الإخلال بهذا الرُّكن هو إخلالٌ بالرُّكن الأعظم.

دلالةُ إضافة الرَّسول إلى الضّمير:

في إضافة الرَّسول إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تشريفٌ وإكرامٌ للرَّسول، وفيه تقويةٌ لقلب الرَّسول، بأنَّه منصورٌ وهو في معيَّة اللّه تعالى.

دلالةُ اختيار وصف الرِّسالة:

أخـصُّ صفات الـرَّسـول كـونُه مرسلًا من الله تعالى

في اختيار وصف الرِّسالة في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مناسبٌ لوصف المُرسلين في قوله تعالى: ﴿تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فكان التَّناسب بين الآيات حاصلًا، ثم إنَّ الإيمان بالرَّسول إيمانٌ بأخصِّ صفاته وهو الرِّسالة، وذلك معلومٌ من إناطة الإيمان بوصف الرَّسول دون اسمِه العلَم[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

عُطِف الأمر بالإيمان بالنّور على الإيمان باللّه؛ ليأخُذَ حكمَه منَ الوجوب والإلزام، فإنَّ الإيمان باللّه وتركَ الإيمان بالقرآن غيرُ نافع، فالطّريق الدّالُّ على الإيمان باللّه هو القرآنُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 141.

الـقـرآنُ هـادٍ للبشر كاشفٌ عن ظلماتِهم

بلاغةُ اختيار صفة النّور في ذكر القرآن:

المُرادُ بقوله تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ القرآن، وفائدةُ ذكر هذه الصِّفة دون القرآن بيانُ أنَّ القرآن يُهتَدى به في الشُّبهات؛ كما يُهتَدى بالنّور في الظُّلمات، وإنَّما ذُكر النّور الّذي هو القرآن لما أنّه مُشتملٌ على الدّلالات الظّاهرة على البعث[1]، كما أنّه بإعجازه ظاهرٌ بنفسه مُظهرٌ لغيره[2].

النّـور الكاملُ فـي الحقيقة المـعـنـويّـة لا يـصدُقُ إلّا على القرآن

معنى تعريف لفظِ ﴿وَٱلنُّورِ﴾ ودلالتُه:

التَّعريفُ في لفظ ﴿وَٱلنُّورِ﴾ بمعنى الإضافة؛ أي: بنورِه الّذي أنزلنا[3]، أو بمعنى العِوض عن المُضاف إليه المحذوف، وهو (نوره)، والمعنى واحدٌ، وجاء كذلك ولم يقل: ونوره الّذي أنزلنا؛ ليستغرقَ كلَّ نورٍ نافعٍ معنويٍّ في القرآن، فهو النّور الكاشفُ على الحقيقة، وما سواه فنورُه مجازيٌّ، وعليه تكونُ الألفُ واللّام بمعنى الكمالِ على أحد نوعَي النّور، وهو النّورُ المعنويُّ.

الـنّـورُ وصـفٌ كـاشـفٌ عـن حقيقةِ القرآن مُـبرهَـنٌ عليه بالحجّةِ والبيان

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ (النّور):

لفظُ (النّورِ) الّذي هو القرآن، جاء على طريقة الاستعارة؛ لأنَّه أشبهَ النّور في إيضاح المطلوب باستقامة حجَّته وبلاغةِ كلامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء: 174]، وأشبه النّور في الإرشاد إلى السُّلوك القويم، وفي هذا الشَّبه الثّاني تُشاركه الكتبُ السَّماوية، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقرينةُ الاستعارة قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾؛ لأنّه من مناسبات المُشبَّه لاشتهار القرآن بين النّاس كلِّهم بالألقاب المُشتقّة منَ الإنزال والتَّنزيل، عرف ذلك المسلمون والمعاندون[4]، والاستعارةُ على هذا تصريحيّةٌ أصليّةٌ، حيث صرَّح بالمُشبَّه به وحذف المُشبَّه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 554.
(2) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 5/ 218.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 554.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 273.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾؛ للتَّعريف والتَّشريف، فالنّورُ الّذي أنزلَه الله تعالى يتمثَّلُ في القرآن، وشرَّفَه بكونه نازلًا من عند الله تعالى.

غرضُ الالتفات من الغيبة إلى التَّكلُّم:

إبرازُ العناية بأمر الإنـزال، وزيادة الـتَّرغـيـب في الإيمان بالقرآن

جاء الالتفاتُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ من الغيبة إلى التَّكلُّم المُتمثِّل بنون العظمة، وغرضُ ذلك إبرازُ العناية بأمر الإنزال، وتعظيمُ شأن القرآن[1]، وزيادةُ التَّرغيب في الإيمان بالقرآن تذكيرًا بأنّه مُنَزَّلٌ من الله تعالى؛ لأنَّ ضمير التَّكلُّم أشدُّ دلالةً على معادِه من ضمير الغائب، ولتقويةِ داعي المأمور[2].

بلاغةُ إظهار ما حقَّه الإضمارُ:

إظـهـارُ الاسـم الـجـلـيـل عـلى ألـسُـنِ الـعـباد تـعـليـمٌ لـلـذِّكـر القويم

ذِكرُ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، ونكتةُ ذلك أن تكون الجملةُ مستقلّةً جاريةً مجرى المثل والكلم الجوامع، ولأنَّ الاسم الظّاهر أقوى دلالةً من الضَّمير؛ لاستغنائه عن تطلُّب المعاد، مع ما فيه من تربية المهابة[3]؛ فإنَّ إظهار الاسم الجليل على ألسُنِ العباد، تعليمٌ لعبادةٍ جليلةٍ.

نوعُ الباء ودلالتُها:

اطِّلاعُ الله على قـلـوب الـعـباد ترغيبٌ وترهيبٌ

حرفُ الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لبيان شدّةِ المُلابسة بين العمل والعلم به، فما من عملٍ يُحدِثُه المرءُ إلّا والله خبيرٌ به، فالباء للإلصاقِ، وهو شدّةُ اتِّصال الشَّيء بالشَّيء، فدلّت التَّعديةُ على شدّة الالتصاق بين العمل والعلم به.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 318.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 272.

نوع (ما) ومعناها السّياقيُّ:

احتمالُ المصدريّة اتّساعٌ والموصوليّة تلويحٌ بأعمالٍ معهودةٍ

تحتملُ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن تكون اسمًا موصولًا، والمعنى: والله بالّذي تعملون خبيرٌ؛ فتكون الجملةُ الّتي تليها صلةَ الموصول لا محلَّ لها من الإعراب، وتحتملُ أن تكون مصدريّةً، فتُؤَوَّلُ هي وما بعدها بمصدرٍ، والمعنى: والله بعملكم خبير، و(ما) الدّالّةُ على شدّة الإبهام تشي بأنَّ كلَّ الأعمال معلومةٌ مرصودةٌ، وفي ذلك من التّهديد والتّخويف لمن خالف المنهج وكفر بالله ورسوله والقرآن.

نكتةُ تقديم شبه الجملة على المسند:

الحصرُ والتّخصيص وقصديّةُ مُراقبة أعمالِ البشر

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على المُسند ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لإبراز غرضِ الحصر والتّخصيص، وفي هذا قصديّة الخبرة والعلمُ بكلِّ أعمالهم، ففيه من التّهديد والتّخويف ما فيه، ويحتملُ أن يكون التّقديم إشارةً إلى مزيد الاعتناء بأمر العمل.

نكتةُ استعمال مُفردة (العمل):

كلُّ اعتقادٍ فاسدٍ يقودُ إلى عملٍ فاجرٍ

جاء استعمالُ مفردة (العمل) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، مع علم الله بجميع الأحوال تنبيهًا على أنَّ الإنسان محاسبٌ على أعماله الصادرة عنه بقصد، وهو عامٌّ في الأقوالِ والنّوايا، وإيثاره لبيان أنَّ كفرَ المُشركين لم يتوقّف على القول الكاذب، والزّعم الفاضح، بل تعدّاه إلى عملٍ دؤوبٍ، يخدمُ ما يُؤمنون به من إنكار البعث، والإشراك بالله.

دلالةُ التّعبير بالفعل المُضارع:

الاستمرارُ في العمل أخصُّ صفاتِ الإنسان

الفعل المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دالٌّ على تواصل العمل عملًا تلوَ عمل؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على الحال والاستمرار؛ ففي المضارع صورُ الحركة والاجتهاد والكسب، فأهمُّ صفة في الإنسان هي السَّعيُ والعمل المُتواصل، فقد خُصِّصوا به، وعُرِفوا من خلاله.

نكتةُ حذف المفعول:

حُذِف مفعولُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ لبيان العموم والشُّمول، فيدخلُ كلُّ عمل يعملُه هؤلاء، لبيان الإحاطة بأعمالهم، ففيه من القدرة التامّة ما فيه، مع ما فيه من التَّهديد، لما أُسرَّ وأُعلِن.

نكتةُ تخصيص صفة ﴿خَبِيرٌ﴾ بالذِّكر:

تعلُّق العلم الإلهيّ بالموجودات كلِّها لإقامةِ عنصر الرَّقابة في النَّفس البشريّة

الخبيرُ هو العليم، وجيءَ بهذه الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ دون صفاتٍ أخرى؛ لأنَّ ما يعملونه منه محسوساتٌ، ومنه غيرُ محسوساتٍ كالمُعتَقَدات، ومنه الإيمانُ بالبعث، فعلّق بالوصفِ الدّالِّ على تعلُّق العلم الإلهيِّ بالموجوداتِ كلِّها[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ من سنَّته ﷻ في كتابه الكريم أنَّه بعد كلِّ أمرٍ أو نهيٍ يذكرُ رقابتَه ﷻ في التَّنفيذ، ليعلم مَن يُهمل ومن يُطيع، ولكلٍّ جزاؤُه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ؛ وإذا كان المُكلَّفُ يستشعرُ أنَّه تحت رقابة اللّه دائمًا فإنَّه يُراقب اللّه في عملِه، ويكون منه الخيرُ واجتنابُ الشَّر[2].

بلاغةُ التَّذييل في جملة الفاصلةِ:

الحضُّ على الإيمان، والنَّهيُ عن الكفر جمعًا بين الوعد والوعيد

جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تذييلًا قُصِدَ به حضُّهم على الإيمان باللّه ورسوله والقرآنِ، ونهيُهم عن الكفر والإنكار، وفي التَّذييل قصدُ الوعد والوعيد؛ أي: واللّه تعالى مُطَّلع اطلاعًا تامًّا على كلِّ تصرُّفاتِكم، وسيمنَحُكم الخير إن آمنتُم، وسيُلقي بكم في النّار إن بقيتُم على كفرِكم[3]، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ ولأتباعِه، وتبشيرُهم بأنَّ العاقبة ستكونُ لهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/ 822.

(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 428.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التّكامل بين الآيات لاستكمال ذكر أركان الإيمان

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة الأمر بالإيمان بالله ورسوله والقرآن، وجاء الوعد والوعيد المضمّن في فاصلة الآية السّابقة، ناسب الانتقال إلى استكمال أركان الإيمان بذكر الإيمان باليوم الآخر، وما اشتمل عليه من أمر الحساب والجزاء، وما يكون فيه من الجمع الّذي تتولّاه الملائكة، ودخول الجنّات، فالعلاقةُ بين الآيتين علاقةُ تكامل في تكملة أركان الإيمان، والانتقال من ذكر ما يكون في الدُّنيا، إلى ما يكون في دار المعاد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾: الغَبْنُ: أن تبخسَ صاحبك في مُعاملةٍ بينك وبينه بضربٍ من الإخفاء، فإن كان ذلك في مالٍ يقال: (غَبَنَ فلانٌ)، وإن كان في رأي يُقالُ: (غَبِنَ)1، وغَبِنْتُ كذا غَبَنًا: إذا غفلتَ عنه فعددتَ ذلك غَبَنًا، ويومُ التَّغابُنِ: يوم القيامة لظهور الغَبْنِ في المُبايعة المُشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207]، وبقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 111]، وبقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، فعلموا أنَّهم غُبِنوا فيما تركوا منَ المُبايعة، وفيما تعاطَوه من ذلك جميعًا، وسُئِلَ بعضهم عن يوم التَّغابُنِ؟ فقال: تبدو الأشياءُ لهم بخلاف مقاديرهم في الدّنيا[1].

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (غبن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفوز والهناءة جزاء المُؤمن في يوم الجمع

تُبيِّن الآية الكريمة قدرته تعالى على جمع النّاس في موقفٍ واحدٍ، لينعم فيه أهل الجنة ويُغبن فيه أهل النّار، ثمّ يكون التّحفيز من ربِّ العباد؛ فمَن آمن وعمل صالحًا؛ فجزاؤُه تكفيرُ السّيِّئات والنَّعيم في الجنة مع الخلود الدّائم الّذي لا زحزحةَ فيه ولا زعزعةَ، وهذا هو الفوز العظيم الّذي لا يُضارعُه فوزٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ تعليقِ الظَّرف بالأنسبِ من المُتعلّقات:

تعلُّق الظّرف بمعنى الجزاء هو الأوفَقُ بالمقام

تعلُّق الظّرف ﴿يَوۡمَ﴾ إمّا بقوله تعالى: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾، والمعنى: لتُنبّؤنَّ بما عملتم يوم يجمعُكم، وإمّا بلفظ ﴿خَبِيرٌ﴾، والمعنى: واللّه خبير بأعمالكم يوم يجمعُكم[1]، فيكون معنى ﴿خَبِيرٌ﴾ محمولًا على معنى الجزاء لا على معنى العلم، فالعلم عامٌّ في الزّمان كلِّه، والجزاء مقصورٌ على يوم القيامة، ويحتملُ في الصّناعة اللَّفظية تعليقه بمُقدَّر؛ أي: اذكر يوم[2]؛ وذكر اليوم فيه تخويفٌ لأهل المعاصي، وزيادة اطمئنان لأهل الإيمان، والأولى في ذلك أن يكون التَّعلّق بفعل: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾؛ لأنَّه كنايةٌ عن الجزاء، والمذكور في يوم الجمع هو الجزاء.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع:

دلَّ التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ على استحضار صورة الجمع، وفيه دلالةٌ على الكثرة لوجود الضَّمير في الفعل ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾.

توجيهُ القراءات القرآنيّة:

تنوُّع أساليب البيان في اختلاف القراءات

قرأ الجمهور: ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾ بالياء، وقرأ يعقوبُ: ﴿نَجۡمَعُكُمۡ﴾

---

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 12/ 7505، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 319، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.

(2) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 5/ 218.

بالنّون[1]، وتوجيه ذلك أنَّ قراءة الجمهور جاءت على الغيبة، فلا التفات فيها؛ لأنّ ما قبلَها: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، وعلى انفراد يعقوبَ ففيها التفاتٌ من الغيبة إلى التّكلُّم.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

الأقربُ أن تكون اللّام بمعنى التَّعليل لدلالة السّياق والظّاهر عليها

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيَوۡمِ﴾ لامُ الأجَلِ أو التَّعليل، والمعنى: يوم يجمعُكم لأجل ما في يوم الجمع جمعِ الملائكة والثَّقلَين[2]، يجمعكم لأجل اليوم المعروفِ بالجمع المخصوص للحساب والجزاء، إشارةً إلى عِظَم هذا اليوم، وتحتملُ أن تكون اللّام للتَّخصيص؛ أي: أنّ الجمع مختصٌّ بهذا اليوم، وتحتملُ أن تكون بمعنى (في) على نحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، وتحتمل أن تكون للتَّوقيت، وهي الّتي بمعنى (عند) كالّتي في قولهم: (كتب لكذا مضين)، وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78][3]، والأولى في المقام، والأقربُ للسّياق والمقصد، أن تكون بمعنى التَّعليل؛ لأنّه الأصلُ والظّاهرُ والأنسَبُ بالمقام.

نكتةُ تسمية يوم القيامة بيوم الجمع:

الجمع هو اجتماعُ أبناء آدمَ قاطبةً للحساب

سُمّي يومُ القيامة بيوم الجمع في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾، وذلك لبيان أنّه هو يوم الجمع بالحقيقةِ المُطلقة، وكلُّ جمع سوى يومِ القيامة فليس بجمع على الحقيقة، فهو يجمعُ جميع المُرسلين والنَّبيّين، والأمم السّابقة واللّاحقة، يجمعُ بين جزاء أهل الجنّة وأهل النّار، ويجمع النّاس بعد أن انقطعوا عن الدُّنيا انقطاعًا كليًّا.

ومُناسبة ذكر هذا الوصف ليوم القيامة هو أنَّ المُشركين أنكروا البعث، فنبَّه عليه بوصف الجمع؛ ليُعلم أنَّهم سيُبعثون ويُجمَعون في

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 388.
(2) الإيجي، تفسير الإيجي: 4/ 320.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.

صعيدٍ واحد، فردَّ على استبعادهم البعث، بتقرير لازم البعث، وهو الجمع؛ فلا يُتصوَّر وجودُ جمعٍ إلّا بالبعث.

غرَضُ استعمال اسم الإشارة البعيد:

جيءَ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ لقصد الاهتمام بهذا اليوم بتمييزه أكملَ تمييز مع ما يُفيده اسمُ إشارة البعيد من علوّ المرتبة[1]، وتوجيه المُخاطَب للعناية بمضمونِ المُشار إليه.

دلالةُ إضافة ﴿يَوۡمُ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾:

أُضيفَ ﴿يَوۡمُ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ لبيان مُلابسة اليوم بالتَّغابن، ويجوز أن تكون الإضافةُ للتَّعظيم، تعظيم هذا اليوم؛ لما فيه من التَّفريق بين أهل الحقّ وأهل الباطل.

فائدةُ الاعتراض ودلالتُه:

تهويلُ الموقف العظيم بوصفٍ كاشفٍ عن بعض صفاته

جملة: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ اعتراضٌ بين جملة: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ بمُتعلَّقها، وبين جملة ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، وفائدةُ الاعتراض تهويلُ هذا اليوم تعريضًا بوعيد المُشركين بالخسارة في ذلك اليوم؛ أي: بسوء المُنقَلب[2]؛ أي: إذا لم تعلموا ما يومُ الجمع، فاعلموا أنّه يومُ التَّغابن، فدلّهم عليه بوصفٍ آخرَ سوى وصف الجمع؛ فاجتمع وصفان، الجمع الّذي يلفُّ النّاس في صعيدٍ واحد، والتّغابن الّذي يلفُّ النّاس بشعور الخوف والهيبة من جزاء ذلك اليوم.

معنى تعريف لفظ: ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾:

التَّغابنُ الكاملُ على التَّحقيق هو ما يكون يوم القيامة

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ هو تعريفُ الجنس[3]، وقد جاءت للدّلالة على أنّ التّغابن الحقيقيّ هو التّغابن في أمور الآخرة لِعظمِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 275.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 277.

ودوامِها[1]، فاللّام للاستعظام[2]، فتغابنُه هو التّغابن في الحقيقة، لا التّغابن في أمور الدُّنيا وإن جلَّت وعظُمَت[3].

بلاغةُ الاستعارة والمجاز والتَّمثيل في لفظ: ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾:

تعدُّد دلالات صيغة التّفاعل من مُشاركة وكثرة مع تهديد الكافرين وإيعادِهم

جاء لفظ: ﴿ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ على صيغة التّفاعل، وفي ذلك دلالتان: الأولى دلالة المُشاركة، والثّانية دلالةُ الكثرة، وفي الدّلالتين إلماحةٌ وإشارة. فالدّلالة الأولى الّتي تحملُ المُشاركة بين طرفَين، دلّت اللّفظة على كلٍّ منهما؛ أي: المُؤمنين والكافرين يغبنُ كلاهما الآخر؛ أي: ينقصه حقَّه، وقد حملها جمهور المُفسّرين على حقيقتها من حصول الفعل من جانبين؛ ففسَّروها بأنَّ أهل الجنّة غبنوا أهل النّار؛ إذ أهلُ الجنّة أخذوا الجنّة وأهل جهنّم أخذوا جهنّم، وكأنّ الجنّة كانت حقًّا للكافرين لكن لـمّا كفروا سُلِبوا حقَّهم، وهذا معنى القول الأوّل، ففي التّغابن تمثيلٌ لحال الفريقَين بحال مُتبايعَين أخذ أحدُهما الثَّمن الوافي، وأخذ الآخرُ الثَّمن المغبون، يُؤيِّد هذا السّياق القرآنيّ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ [التغابن: 10]، فهنا قرينةٌ على المُراد من الجانبَين، فيكونُ قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ [التغابن: 10] تفصيلًا للفريقَين، فيكون في الآية مجازٌ وتشبيهٌ وتمثيلٌ، فالمجازُ في مادّة الغبن، والتّمثيلُ في صيغة التَّغابن الدّالّة على المُشاركة، وهو تشبيه مُركّب بمنزلة التّشبيه البليغ؛ إذ التَّقدير: ذلك يومٌ مثلُ التّغابن.

أمّا الدّلالة الثّانية فهي دلالة الكثرة وشدّة الفعل، كما في قولنا: (عافاك اللّه، وتبارك اللّه) فتكون استعارةً؛ أي: خسارةً للكافرين؛

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 5/ 218.
(2) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 492.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 549.

إذ هم مناطُ الإنذار، وهذا يُفسِّره قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: 10]؛ فصيغةُ التَّفاعل مُستعملةٌ مجازًا في كثرة حصول الغبنِ تشبيهًا للكثرة بفعلٍ يحصل من مُتعدِّد.

وفي الاستعارة والتَّشبيه والتَّمثيل تهديد للمُشركين بسوء حالتهم في يوم الجمع؛ إذ المعنى: ذلك يوم غبنكم الكثير الشّديد بقرينة قوله قبله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾، والغابن لهم هو الله تعالى، ولولا قصدُ ذلك لما اقتصر على أنّ ذلك يومُ تغابن؛ فإنّ فيه ربحًا عظيمًا للمؤمنين بالله ورسوله والقرآن(1).

بلاغةُ القصر بتعريف طرفَي الإسناد:

الغبنُ الحقيقيُّ هو غبن الآخرة لا غبن الدُّنيا

أفاد تعريف جزأي جملة: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ قصرَ المسند على المسند إليه؛ أي: قصر جنس يوم التّغابن على يوم الجمع المُشار إليه باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو من قبيل قصر الصّفة على الموصوف قصرًا ادِّعائيًّا؛ أي: ذلك يومُ الغبن لا أيّام أسواقكم ولا غيرها؛ فإنَّ عدم أهمّية غبن النّاس في الدّنيا جعلَ غبن الدّنيا كالعدم، وجعلُ يوم القيامة مُنحصرًا فيه جنس الغبن(2).

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ استئنافيّةٌ؛ لفتًا لأهميّة الإيمان في بدء حياة صالحة مُنجية من النّار، باعثة على الخلود في الجنّة.

غرضُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيّة:

الحثُّ والحضُّ على الإيمان من مُحفِّزات العمل بالأركان

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ شرطيّةٌ، والفعلُ بعدها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 276.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.

مُستقبلٌ؛ أي: مَن يؤمنْ من المُشركين بعد هذه الموعظة نُكفِّرْ عنه ما فرط من سيّئاته، وفي الشّرطِ فتحٌ لباب الإيمان وعدم الإقناط، فالإحسان يُقابله إحسانٌ[1]، ففي الشّرط حضٌّ وحثٌّ على المُسارعة في الإيمان، بذكر عزّة الرّحمن، فإنَّ القويَّ العزيز هو الّذي يشترطُ على العباد.

دلالةُ التّعبير بصيغة المُضارع:

جاء التّعبير بالمُضارع ﴿يُؤۡمِنۢ﴾ حثًّا على تحقيق الإيمان في المستقبل، وللتّعبير بالمُضارع دلالةٌ ترغيبيّة حيث شجّع على التّدرّج في طلب الإيمان، حتّى يستويَ على سوقِه.

نكتةُ تقييدِ فعل الإيمان:

آثر النَّظم الكريم تقييد فعل الإيمان بقيد ﴿بِٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (ومن يؤمن ويعمل صالحًا)، وذلك بغرض إظهار اسم الجلالة؛ لتربية المهابة في النّفوس، وتعزيز مفهوم الإيمان المقبول.

فائدةُ عطف العمل الصّالح على الإيمان بالله:

عملُ الصالحات من الإيمان، وعطفُه من عطف الخاصّ على العامّ

اقترن العمل الصّالح بالإيمان في القرآن الكريم في نحو خمسةٍ وسبعين موضعًا، وفي هذا إيذانٌ صريح بأنّ عمل الصّالحات قرينُ الإيمان، فليس العطفُ تكريرًا لُمجرّد التّأكيد، بل للتّنبيه إلى قيمة عمل الصّالحات وموضعها من الإيمان، فهو من التّخصيص بعد التّعميم[2]، ومن عطف الخاصّ على العامّ، فالعمل الصّالح ذُكر مرَّتين؛ الأولى في مُسمَّى الإيمان، والأُخرى انفردَ بالذِّكر وحدَه، وذلك إبرازًا لأهمّيّة العمل الصّالح، كما أنّ الجمع بينهما فيه دلالة التّقابل بين عمل الظّاهر، وعمل الباطن كمحبّة اللّه وخشيته ورجائه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 274.
(2) عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني: 2/ 86.
(3) السعدي، تفسير السعدي: 1/ 418.

نكتةُ حذف الموصوف وإقامةِ الصّفة مُقامه:

اتّصافُ المُؤمن بعمل الصّالحات وحدَها دون غيرها

حُذِف الموصوف وأُقيمت الصّفةُ مُقامه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ فلم يقل: (وعمل عملًا صالحًا)، وذلك أنَّ الفعلَ (يعمل) دالٌّ على تقدير مصدره[1]، فالتَّعبير المُقدّر (عملًا)؛ أي: عملًا صالحًا، ثمّ إنّ إقامة الصّفة ﴿صَٰلِحًا﴾ مُقام الموصوف تُشعِرُ بأنَّ الموصوف (العمل) حاضرٌ[2] معناه؛ وحذفُه لفظًا يُسلِّط الضّوء على الصّفة، فهي المقصود الآكدُ في هذا السّياق.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿صَٰلِحًا﴾:

أفاد تنكير ﴿صَٰلِحًا﴾ شمولَ العمل وعمومَه، وعدمَ تخصيصه بعمل بعينه إلّا إذا كان خيرًا، فأيُّ عمل صالح هو في دائرة القبول؛ إطماعًا لهم في العمل الصالح.

توجيهُ القراءات القرآنيّة:

اجتماعُ القراءتَين في بيان الآمرِ والفاعل وتعظيم الجليل والاهتمام بالمُخاطَبين

قرأ المدنيّان وابنُ عامر: ﴿نُّكَفِّرْ﴾، وقرأ الباقون[3]: ﴿يُكَفِّرْ﴾، على معنى: يُكفِّرُ اللّه، والأوّل هو نونُ العظمة[4] الدّالُّ على القدرة المُطلقة في تكفير السّيِّئات، وفي الجمع دلالة المُشاركة بين اللّه وملائكته، فالآمرُ هو اللّه تعالى، والمُنفّذ هم الملائكة الّذين يمحون السّيّئات من الكتاب، وفي قراءة الإفراد تلاؤمٌ بين الأفعال: ﴿يَجۡمَعُكُمۡ﴾، ﴿وَيُدۡخِلۡهُ﴾، فالأمر موكولٌ إليه وحدَه لا غيره، مع ما في قوله تعالى: ﴿نُّكَفِّرْ﴾ بنون العظَمة على الالتفاتِ من الغيبة إلى التّكلّم؛ لأنَّ مقام الوعد مقامُ إقبال؛ فناسبه ضميرُ التّكلُّم، وقراءة الياء على مُقتَضى الظّاهر؛ لأنَّ ضمير الجلالة يُؤذِنُ بعناية اللّه بهذا الفريق[5].

---

(1) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 202.
(2) البغدادي، خزانة الأدب: 8/ 377.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 248.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 319.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 277.

دلالةُ حرفِ (عَنْ):

دلَّ حرف (عَنْ) على المُجاوزة والتّرك والعفو والغفران، فالأوزار الثَّقيلة صارت في طيِّ النِّسيان جزاء الإيمان، فالجزاء من جنس العمل، وهذا من مظاهر الرّحمة.

غرضُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم شبه الجملة ﴿عَنۡهُ﴾ على المفعول ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ تعجيلًا للمسرّة، واجتلابًا للفرحة، فهو أسرُّ للمُتلقّي، وفي التّقديم تشويقٌ لذكر المفعول؛ فالتّقديم بشارةٌ لمن آمن وعمل صالحًا.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الجمع والإضافة:

الوعد بالتَّوبة وتكفير السَّيِّئات من قيم الرّحمة والهدايات

جاء التَّعبير بصيغة الجمع للفظ: (السَّيّئات)، مع إضافتها إلى ضمير مَن يعزم على الإيمان وعمل الصّالحات؛ لبيان أنَّ هذه السَّيّئات مهما كانت كثيرةً؛ فإنَّ رحمته وسعت كلّ شيء، فالرّحمة مكتوبة لمن عاد وأناب ولو كانت مثلَ زبد البحر، وفي الإضافة تخصيصٌ بالعفو لمن أساء، ويُضافُ إلى نكتة الإضافة أنَّ السَّيّئات مُلابسةٌ لهم غيرُ مُنفكّة عنهم، فيكون تكفيرُها بعثًا للحثِّ على الإيمان والعمل الصّالح، وهذا من زرع قيم الهداية في نفوس العباد، ودعوتهم إلى المُسارعة وطلب المغفرة والعفو.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الإيمان يُكفّر السَّيِّئات ويُدخِلُ الجنّاتِ في آنٍ

دلّت واو العطف في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ على تعدُّد المكرُمات لمن تاب، ولم يستعمل النَّظم الكريم حرف (ثمّ)؛ لبيان أنّ الإيمان يُكفِّر السَّيّئات ويُدخِلُ الجنّات في آنٍ، وهذا من عظيم الإكرام، لمن أقبل على الله تعالى، ولم يمنَعْه عنادُه من الإصرار على الكفران.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المُضارع:

في التَّعبير بالمُضارع ﴿وَيُدۡخِلۡهُ﴾ تصويرٌ لمشهد إدخال الجنّات،

وتصوُّرُ هذا المشهد من دواعي الإقبال، فمَن أراد تحقيقه فعليه أن يمتثل حقائق العمل.

نكتةُ جمع لفظ: ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

كثرةُ النِّعم وتنوُّعُها مدعاةُ النَّفس وباعثُها

آثر التَّعبير القرآنيُّ جمع الجنّات في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لأنّ الجنّات سبعٌ؛ جنةُ الفردوس، وجنّة عَدْن، وجنّة النّعيم، ودارُ الخلد، وجنّةُ المأوى، ودارُ السّلام، وعليّون، وفي كلِّ واحد منها مراتبُ ودرجاتٌ مُتفاوتةٌ بحسب تفاوتِ الأعمال وأصحابها[1]، وفي الجمع تنشيطٌ وتعزيزٌ لنيلها.

نكتةُ تنكير لفظ: ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

التَّعدّد مع التّنويع والتّعظيم والتّشويق

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للتّنويع أو التّعظيم[2]، وللتّرغيب والتّشويق، ويُضافُ إلى ما سبق أنّ التّعبير القرآنيّ جاء بجمع القلّة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ لا (جنان)؛ إشارةً إلى قلّة الصّالحين مُقارنةً بأهل الكفر والعصيان؛ فكانت القلّة مُناسبةً للقلّة.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع:

دوامُ الجري إمتاعٌ وإسعادٌ لأهل الجنّة

دلّ التّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾ على الدّوام والاستمرار مع استحضار جمال الصّورة؛ إمتاعًا للنّاظرين وتمتيعًا للدّاخلين، وتصويرًا للسّامعين، وأحسنُ الماء ما كان جاريًا غير قارٍّ؛ لأنّه يكون بذلك جديدًا كلّما اغترف منه شاربٌ أو اغتسل مُغتسلٌ[3].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

ابتداءُ جري الأنهار من مبادي الجنّات عراقةٌ مُدهشةٌ وصورةٌ مُشرقةٌ

دلّ حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ على ابتداء الغاية المكانيّة، فالماء ينبعُ من بدء الجنّات، وفي هذا عراقةٌ في إمتاع النّظر، وتفريح النّفس، وتكريم أهل الجنّة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل: 1/ 69.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.

والأنهار مباديها أشرفُ، والجنّاتُ الّتي مباديها الأنهارُ من تحت أشجارها أشرفُ من غيرها[1]، ويظهرُ أنَّ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ قيدٌ كاشفٌ قصد منه زيادةُ إحضار حالة جري الأنهار؛ إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق، فهذا الوصفُ جيء به لتصوير الحالة للسّامع لقصد التَّرغيب[2].

نكتةُ المجاز العقليّ:

تشخيصُ الأنهار إمتاعٌ للأنظار

إسنادُ فعل الجري للأنهار في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه المكانيّة، وهو يُصوِّر الجريَ كأنَّه مُسيطر على المكان كلِّه، وكأنّ الجمال يُرحِّبُ بأهل الإيمان مُسابقًا إليهم، وفيها كنايةٌ عن العلوّ والرّفعة، فالأنهار من تحتهم وتحتها، وهذا يشي بأنّهم في مكان العلوِّ والرُّقيّ، والشّريف مكانًا ومكانةً.

معنى تعريف لفظ: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجنّة كالنَّكرة في الماهيّة ومعهودةٌ في أذهان السّامعين

التّعريف في لفظ: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تعريفُ الجنس، فيكون كالنّكرة، فيتساوى مع ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في تنكيرها، وقد يُرادُ من التّعريف العهدُ، إلّا أنّه عهدٌ تقديريٌّ؛ لأنّ الجنّات لمّا ذكرت استحضر لذهن السّامع لوازمُها ومقارناتُها فساغ للمُتكلّم أن يُشير إلى ذلك المعهود فجيء باللّام[3].

نكتةُ ذكر لفظ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

الاستمرارُ والخلودُ أمانٌ وتأنيسٌ

آثر النَّظم الكريم ذكرَ لفظ: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وهي منصوبةٌ على الحال، وفائدةُ ذكرها زيادةُ الاطمئنان والتَّمكين في النُّفوس؛ لأنّ النّفس تأنس بالاستمرار والدَّوام، وتخافُ الفَوت، فكان التَّعبير بالحال بصيغة اسم الفاعل زيادةَ تأنيسٍ للمُؤمنين بأنّهم مُتمكِّنون دومًا من الجنّة.

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 473.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 355.

بلاغةُ استعمال حرف الظّرفيّة:

تمكُّن المؤمنين من الجنّة تكريمًا وإبهاجًا

دلّ حرف الجرّ (في) على الظّرفيّة المكانيّة، فهو تصوير للجنّة بأنّها ظرفٌ احتوى مظروفَه، وهم المؤمنون، لتعزيز مفهوم الخلود، وأنَّه خلودٌ ومُكثٌ في الجنّة، فلا يبغون عنها تحويلًا، فالجنّات قد شملت كلَّ من آمن، وفي الظّرف تمكُّن، وكأنّهم خُلِّدوا في أفضلِ مكان في الجنّة لا في أيّ مكان، وإن كانت كلُّ الأماكن فاضلةً.

نكتةُ فصل جملة الفاصلة:

فُصِل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنَّه تقرير وتوكيد لما سبق، وهو تذييلٌ أفاد تقرير معاني التَّبشير بنصر كبير؛ تطمينًا لهم، وإدخالًا للفرحة، وبثًّا للبهجة في النُّفوس.

غرضُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

جاء استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ ليُضفي على المُشار إليه ﴿جَنَّٰتٍ﴾ التَّعظيم والتَّبجيل، فهو فوزٌ لعلوِّ مرتبته وارتفاعها، يُعدُّ أمرًا لا نظيرَ له ولا شبيهَ[1].

نكتةُ وصف الفوز بالعظيم:

الفوزُ العظيم هو الخلود في جنّات النّعيم وما دونه فعذابٌ أليم

يشترك الفوز في كلِّ موضع جاء في القرآن بأنّه الفوز بالجنّة، سواء وُصف بأنّه عظيم أو كبير أو مُبين، لكنّ الجامع بين كلّ أنواع الفوز أنّه أُخرويٌّ، وتتغاير الأوصاف بحسب السّياق، فأعلى الأوصاف هو العظيم، ويليه الكبير، ويليه المُبين[2]، وقد وصف ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بصفة ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ هنا؛ لأنَّ الفوز العظيم لا يُحيط به نطاقُ الوصف، ولا يوقَفُ على مطلب يُدانيه أصلًا[3]، فلا فوز وراءه، ولا فوز أعظم وأجلُّ منه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 119.

(2) فاضل السامرائي، أسئلة بيانية: 2/ 201.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 69.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ وصف الفوز بالعِظَم يعني أنّه فوزٌ بالمطالب وخلاصٌ منَ المكاره[1]، فهو مُنطَوٍ على النّجاة من أعظم المُهلكات والظّفر بأجلِّ الطَّلبات[2]، ومن هنا اكتسى بصفةِ العظمة، وليُشيرَ إلى حقارة ما ظنَّه المُشركون عظيمًا في الدُّنيا، في مُقابل الفوز العظيم في الآخرة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 135.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 319.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ [التَّغابن: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المقارنة بين ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين

لمّا دعت الآية السّابقة إلى الإيمان والعمل الصّالح، وبيَّنت جزاء ذلك - وهو الجنّات الَّتي تجري من تحتها الأنهار - جاءت هذه الآية بذكر الفريق المقابل، وهم الَّذين كفروا وكذَّبوا بآيات اللّه، وبيَّنت الجزاء المُعَدَّ لهم، وهو النّار مع الخلود فيها، وهذا من منهج القرآن؛ أن يُعَقِّب بالوعيد بعد الوعد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: اسمُ مكان مأخوذ من (صيَّر)، وأصل معناه المآل والمرجع، يقال: صار الشَّيء يصير صيرًا وصيرورة[2]، والتَّصيير هو الانتقال من حال إلى حال[3]، فالمصير هنا هو الموضع الَّذي يصير إليه الكفّار من العذاب.

المَعنى الإجْماليُّ:

غِلَظُ العذاب مناسبٌ لكفرهم وتكذيبهم

في الآية الكريمة تهديد ووعيد لمن كفر باللّه وكذَّب بآياته الَّتي جاء بها الرَّسول ﷺ، فكيف بمن جمع مع الكفر التَّكذيب بالآيات والمعجزات، ولم يستجيبوا لدعوته ﷺ، واستمروا على كفرهم وتكذيبهم لهذه الدعوة؟ لذلك وصفهم ربُّنا بأنَّهم أصحاب النّار، وساءت مصيرًا لأولئك.

(1) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 420.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(3) الراغب، المفردات: (صير).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في بدء الآية:

مطلقُ الجمع بين مصير المؤمن ومصير الكافر مع البَوْن الشّاسع بينهما

الواوُ في الآية الكريمة جاءت لمطلق الجمع بين فريق الإيمان، وبين فريق الكفر، وذلك بالعطف، والعطفُ يقتضي المغايرةَ، فكان فيه إشارةٌ إلى البون الشّاسع بينهما في العاقبة والجزاء، ففريق في الجنّة وفريق في السّعير، والجمع بين المصيرين فيه إشارة إلى ضرورة تجنُّبِ مصير الَّذين كفروا، والعضّ بالنَّواجذ على طريق أهل الإيمان.

دلالةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

كمال الذَّمّ لرسوخهم في الكفر

آثر القرآن الكريم التّعبير بالاسم الموصول وصلته (الَّذين كفروا)؛ للإشارة إلى كمال ذمِّهم واستحقاقهم العذابَ الأليم بسبب كفرهم وعنادهم وعدم الإنصات إلى هدي اللّه ووحيه[1]، وللدَّلالة على ثبوتهم على الكفر والتَّمسُّك بتلابيبه والرُّسوخ فيه، بدلالةِ استخدام الفعل الماضي، الدّالِّ على انتهاء الحدث والفراغ منه، فلم يعد عندهم استعدادٌ للإيمان أبدًا.

ومِمّا يذكر في دلالة التَّعبير بالموصول وصلته الثَّباتُ على الكفر والتَّكذيب[2]، وفي هذا تفظيع لحالهم وإظهار لشدَّة قُبحِهم.

دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه

في التعبير بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ إشارةٌ إلى رسوخ كفرهم وتمكُّنِه منهم مُذ نشؤوا، لا تبديل ولا تغيير، وللتَّنفير من إيقاع هذا الكفر؛ لأنَّ الخالق لا يستحقُّ إلّا الخضوعَ له لا الكفرَ به.

دلالة واو الجماعة في قوله: ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

نهج الكافرين في الكفر واحد

دلَّت واو الجماعة في الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على اختيارهم جميعًا

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 277.

اتجاهًا واحدًا وطريقةً واحدة في الاعتقاد، فلم يتخلَّف أحد عن الكفر، وإنما جعلوه ملاذًا وملجأً يحتمون به من صروف الدَّهر، وعلى تمسُّك أهل الكفر بمعتقدهم الفاسد، وسيرهم على نهج واحد وطريقة واحدة.

سرُّ التَّعبير بالكفر في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾:

التَّشنيع عليهم باختيارهم طريقَ الجحود والتَّكذيب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالكفر في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾ دون غيره؛ لِما يحمله هذا اللَّفظ من العموم؛ فيندرج تحته الشِّرك والظلم ونحو ذلك، ولِما يحمله من معنى السَّتر، فكأنَّهم وضعوا على قلوبهم حجابًا ساترًا من الدَّعوة، فلم يبصروا عظمتها وبراعتها.

وللإشارةِ إلى أنَّهم ستروا الفطرة الَّتي خُلقوا عليها وهي الإيمان، وفي هذا دليل على أنَّ الكفر طارئ على الإيمان.

نكتةُ حذف متعلَّق الكفر:

عمومُ كفر الكافرين

حُذف متعلَّق الكفر لقوله: ﴿كَفَرُواْ﴾، فلم ينصَّ القرآنُ على ما كفروا به؛ لأنَّ القصد هو تعميم جحود الكافرين، فكفرهم لا يقتصر على الكفر باللّه ﷻ، بل يتعدّاه إلى حجود كلِّ نعمةٍ وخير، وفيه زيادةُ تشنيعٍ عليهم وتبشيعٍ لكفرهم[1].

ومِمّا يذكر في دلالة حذف المتعلَّق: أنَّ الكافر يعيش كفر القمَّة، وكلُّ عمل مع كفر القمَّة هو عمل حابط عند اللّه[2]، فلا داعيَ لذكر المتعلَّق هنا؛ فالكفر وحده جدير بإحباط كلِّ ما معه.

سرُّ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾:

الجمعُ بين رذيلتين بيانًا لـلـعَـراقـة في الضَّلال

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ دون غيرها من حروف العطف؛ لأنَّ الواو في الآية الكريمة جاءت لمطلق الجمع بين الكفر والتَّكذيب، وفي هذا دلالةٌ على أنَّهم لم يكتفوا بالكفر

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 91.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/ 1693.

فقط، بل جمعوا بين الكفر بالله والتَّكذيب بآياته؛ فضمّوا مع رذيلة الكفر رذيلةَ التَّكذيب، فهؤلاء لم يكتفوا بالكفر، وإنما زادوا التَّكذيب؛ ليكون جزاؤهم وفاقًا. وفي العطف بالواو بيانٌ للإصرارِ على معاندة الرُّسل والتَّكذيب بالآيات.

نكتةُ الجمع بين الكفر والتّكذيب معَ تقديم الكفر:

جمع القرآن الكريم لهذا الصِّنف من النّاس بين الكفر والتَّكذيب؛ لأنَّ الكفر مبناه في القلب، أمّا التَّكذيب فوسيلته اللِّسان[1]، وقد كانت الوسيلتان حاضرتين معهم دومًا، ويضاف إلى ما سبق أنَّ بين اللَّفظتين (﴿كَفَرُواْ﴾، كذَّبوا) ترتيبًا يناسب الموقف؛ ذلك أنَّهم كفروا برسالته ﷺ، ويتبع الكفرَ تكذيبٌ بما فيها، وفي هذا بيان لِما هم فيه من غَيٍّ وضلال؛ لأنَّ "الكفر أعمّ من التَّكذيب؛ فالتَّكذيب حالة من حالات الكفر"[2]، يضاف إلى ذلك أن صيغة (فعّل) المتمثِّلةَ في الفعل ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ دالَّةٌ على نسبتِهم إلى الكذبِ، فكأنَّهم أصرّوا على التَّكذيب، فعُرفوا به حتّى صار ديدنَهم وطبيعتهم الَّتي يُعرفون بها.

سرُّ تعدّي الفعل ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بالباء:

تـأصُّـلُ صـفـةِ التَّكذيب فيهم وملازمتُها لهم

النـاظرُ في آيات القرآن الكريم يجد أن الفعل (كذَّب) يأتي مرَّة متعدّيًا بالباء - وهو كثير - ويأتى متعدّيًا بنفسه كما في قوله: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ [سبأ: 45]، وقد ورد متعدّيًا بالباء في هذا الموضع: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ وذلك لتأكيد لصوق كذبهم للآيات؛ ففرق بين أن تقول: (كذَّبوا بالآيات) و(كذَّبوا الآيات)، فهذا التَّركيب الأخير لا يقتضي التَّلازم بين التَّكذيب والآيات؛ بينما الفعل المتعدّي بالباء يفيد هذا التَّلازم؛ فكأنَّه عندما يرى الآيات يكذب بها؛ فلا ينفكُّ كذبه عن رؤيته للآيات[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 93.
(2) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 998.
(3) محمد داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/ 72.

دلالة التَّعبير بالآيات دون غيرها:

عمومُ تكذيبهم لكلِّ ما يدلُّ على وحدانيَّة الله

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالآيات في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لأنَّها أعمُّ؛ فيندرج تحتها الأدلَّة والمعجزات، ولأنَّ لفظ الآيات يصدق على الآيات القرآنيَّة والآيات الكونيَّة؛ لذلك كان التَّعبير بها هو المناسبَ هنا في حديثه عن كفر الكافرين وتكذيبهم؛ لأنَّهم كذبوا بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

نكتة جمع الآيات:

في جمع الآيات نكاتٌ:

كثرة الآيات لكثرة الأمم

الأولى: الدَّلالة على كثرة الآيات، فليست الآية واحدةً، بل هي آيات، فتطلق على الآيات المتلوة، ويحتمل كذلك دلالتها على المعجزات والبراهين الدّالَّة على التَّوحيد وصدق الأنبياء، فالآيات هي التَّنزيليَّةُ وما هو أعمُّ منها[1].

الثّانية: في الجمع إلماحة إلى كثرة الأمم، فناسَبَ ذلك كثرةُ الآيات؛ لأنَّ لكلِّ أمَّة آيةً أو آيات، فقابلت الكثرةَ الكثرةُ؛ لتناسبَ كلَّ عقل وفهم، فكان الجمعُ مستوعبًا لعقل كل من يعقل وفهم كل من يفهم.

الثّالثة: في الجمع استلزامٌ للهيمنة والسَّيطرة والعظمة والقدرة الباهرة على إيجاد الآيات الكونيَّة والتَّنزيليَّة.

دلالةُ إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

عظمةُ الآيات بعظمة مَن أضيفت إليه

في الإضافة دلالة على عظمة تلك الآية، فهي منسوبة إلى عظيم، والمضاف يأخذ عظمته وجلاله ممّا أضيف إليه، فصارت الآيات عظيمة، والمضاف للعظيم عظيم، والمضاف للجليل جليل.

ومما يذكر في دلالة الإضافة إظهارُ قبح الكافرين في كفرهم بالآيات وتكذيبهم بها؛ فشأن هذه الآيات الوصول إلى الإيمان بعظمتها وعظمة من أنزلها.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 283.

بلاغةُ التَّعبير بضمير العظمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دون لفظ الجلالة (الله):

تربية المهابة مع بيان العظمة

أوثر التَّعبيرُ بضمير العظمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دون لفظ الجلالة (الله)؛ للجمعِ بين تربية المهابة في النُّفوس، وإدخال الرَّوع على من خالف وعصى بذكر ضمير العظمة العائد إلى الله تعالى، بيانًا لعظمة ما أنزل الله من آيات؛ لكونِها مضافةً إلى ضمير العظمة.

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة البعيد:

تمييزُ الكفار ووعيدهم باستحقاق ملازمة النّار، مع بيان انحطاط منزلتهم

في التّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عن الكافرين والمكذِّبين تنبيهٌ على قبح ما فعلوا وتلبَّسوا به؛ لكي يكونَ تمييزًا لهم لا يلتبس معهم غيرُهم، مع ما يفيده اسم الإشارة من أنَّ استحقاقهم لملازمة النّار ناشئ عن الكفر والتَّكذيب بآيات الله، ويضاف إلى ذلك ما في اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الشَّرِّ وضعفِ العقل وسوءِ ما طُبعوا عليه، وإتيانِ ما لا يليق أنْ يأتوا به من التَّكذيب والكفر.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

دوامُ عذابِهم والتَّهكُّمُ بهم

آثرَ التَّعبيرَ بالأصحاب في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لِما يحمله هذا اللَّفظ من معنى الملازمة، وهذا يدلُّ على أن الَّذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله صحبتُهم للنّار دائمة؛ فلا ينفكّون عن النّار ولا تنفكُّ النّار عنهم؛ يؤكِّدُ ذلك وصف الخلود، ولأنَّ الصُّحبة تدلُّ على صحبة البدن، وهذا مقصود في عذاب الكافرين والمكذِّبين بدنًا وروحًا، وفي التَّعبير بالصُّحبة مع النّار استهزاء بهم، كأنهم هم الَّذين يصحبون النّار ويلازمونها.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

الملازمة والاختصاص

التَّعبير عنهم بلفظة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مضافةً إلى ﴿ٱلنَّارِ﴾ فيه دلالةٌ على شدَّةِ ملازمتهم للجحيم[1]، وفيه دليلٌ آخرُ على أنَّ الخلود في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 400.

النّار مخصوص بالكفار، من حيث إنَّ التَّركيب يُشعر بالاختصاص، والصُّحبةُ تدلُّ على الملازمة عُرفًا[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّ الصّاحب يكون من جنس صاحبه، فقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ يدلُّ على أنَّ أولئك الأقوام كانوا من جنس النّار في اشتعال قلوبهم وعقولهم حقدًا على دعوة اللّه ورسوله.

الموقع النّحويُّ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، وسرُّ عدم ذكر (أبدًا):

زيـادة التَّيئيس والوعيد

جاءت لفظة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ منصوبة على الحال، وفائدة ذكر ﴿خَٰلِدِينَ﴾ زيادةُ التَّيئيس والوعيد؛ لأنَّ النَّفس تأنَسُ بالاستمرار والدَّوام وتخاف الفوت، وفي ذكر الخلود هنا سخريةٌ عن طريق الوقوع فيما لا يُحمَدُ جزاؤه؛ فكان التَّعبيرُ بالحال هنا زيادةَ تخويف للكافرين بأنَّهم متمكِّنون دومًا من النّار. وفيه إلماحةٌ إلى طول مُدَّة المُكث والبقاء الَّذي لا انقطاع له. وقد حذف الظَّرف (أبدًا) اكتفاءً بذكره في الآيةِ السّابقة عليها[2].

دلالةُ الظّرفيّة (في):

احتـواءُ النّار للكافرين احتواءُ الظَّرف للمظروف

دلَّ حرف الجر (في) على الظَّرفيَّة المكانيَّة، والظرفيَّةُ احتواءٌ وسيطرةٌ وضمٌّ، وكأنَّ النّار قد شملتْ كلَّ مَن كفر وكذّب، وفي الظَّرف تمكُّنٌ، وكأنَّهم خلدوا في أقبحِ مكانٍ في جهنَّمَ لا أيِّ مكان، وإن كانت كلُّ الأماكن قبيحة، لكنَّهم في المكان الأقبح؛ لذلك كان التَّعبير بحرف الجر (في) هو الملائمَ في وصف حالة الكفّار؛ لِما يحمله من معنى الوعاءِ للموعَى به؛ تحقيقًا لشدَّة العذاب وقبحه.

دلالة ذكر قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾:

الخلود دليل الدَّوام، والمصير دليل بؤس المُقام

دلَّ ذكر قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ على بؤس مُقام هؤلاء الكافرين المكذِّبين؛ لأنَّ لفظ الخلود

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 5/ 188.

(2) عبد القادر بن ملا العاني، بيان المعاني: 6/ 245.

يقتضى المكث الطَّويل؛ لذلك جاء لفظ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لتبشيع هذا المكث الطَّويل، وفي ذكره أيضًا إقناط لهؤلاء من الفوز والنَّعيم، وتيئيس لهم من السَّعادة والحبور.

سرُّ التَّعبير بالمصير دون غيره في قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

زيادةُ التَّبشيع لمآل الكفرة والمكذِّبين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمصير دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنَّ المصير معناه: ما يصير إليه الشَّيء ويتحول إليه، ويُعبَّر به عن النِّهاية، وهذا هو المناسبُ لسياق سورة التَّغابن في عرضها لمواقف النّاس في هذا اليوم، وما ينتهي إليه أمرهم بعد الحساب، وهنا ذكر القرآن الكريم العذابَ المُعَدَّ للَّذين كفروا، وهو الخلود في النّار؛ ثمَّ بيَّنَ زيادةً في التَّبشيع سوءَ ذلك المصير، بقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

دلالة حذف المخصوص بالذَّمِّ:

حذفُ المعلوم لإعمالِ الفُهوم

حذف المخصوص بالذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنه مفهومٌ من سياق الآية، وفي ذلك دعوة لإعمال العقل في معرفة المحذوف، ولتجنُّب تكرار ذكر لفظ النّار بعد أن سبق ذكره في ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ التَّقدير (وبئس المصير النّار).

بلاغة مقابلةِ فاصلةِ هذه الآية بفاصلةِ الآية السّابقة:

تحقيقُ معنى التَّغابن بإبراز الفَرْق بين أهل السَّعادة وأهل الشَّقاء

جاءت جملة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بمقابلةِ الجملة الأخيرة في الآية قبلها، وهي ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن: 9]، وفائدته بيانُ التَّغابن الأعظم؛ لأنَّ أناسًا يُنعَّمون في الجنّة وآخرين يُعذَّبون في النّار، ويرى بعضُهم بعضًا ويتعارفون فيها كما كانوا في الدّنيا، فلا أعظمَ مِن هذا التَّغابن[1].

نكتةُ تأخير ذكر عقاب الكافرين عن ذكرِ ثواب ما أعدَّه الله للمؤمنين:

تظهرُ بلاغة نكتةِ تأخير عقاب الكافرين عن ثواب المؤمنين في

(1) عبد القادر بن ملا العاني، بيان المعاني: 6/ 245.

التَّبشيرُ بالفوز، مع تحسيرِ الكفّار والتَّمهيد لذكر المصيبة

إدخالِ البِشْر على من آمن وعمل صالحًا، وفيه مزيدُ وعدٍ للمؤمنين وتطييب لقلوبهم بتقديم المكافأة، كما أنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ يقدِّم ما هو أهمُّ، وهو هنا الثَّواب المُعَدُّ للمؤمنين؛ فكان تقديمه من باب تقديم الأهمِّ الأشرف على الأدنى، إضافةً إلى تحسيرِ الكفّار على ما سيلاقونه من عذاب، مقارنةً بالجزاء المُعطى من الله للمؤمنين.

وفي ذكر ضدِّ الإيمان - وهو الكفر والكافرون - تنويهٌ بأنَّهم اختاروا خلافَ الفطرةِ الإنسانيَّة الَّتي ينبغي أن يكونوا عليها، وفي ذلك إشادةٌ بالمؤمنين وبأنَّ إيمانَهم أنجاهم من الجحيم[1]، والفطرةُ دائمًا مقدَّمةٌ؛ لأنَّها هي الأصل. وفي هذا التَّرتيبِ تمهيدٌ لذكر المصيبة في الآية الحادية عشرةَ، فلا يحسُنُ أن تكون الآية التّاسعة محلَّ الآية العاشرة؛ لأنَّ الآية التّاسعة تنتهي بـ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن: 9]، فيكونُ من التَّنافر أن يُذكرَ بعدَها قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، فتلاؤمُ معطيات السّياق أدّى إلى تقديم جزاء المؤمنين على جزاء الكافرين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 400.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كـلُّ مـا يصيب المـرءَ مقدَّرٌ مِن الله

لمّا دعتِ الآياتُ السّابقة إلى الإيمان في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التغابن: 8]، ورغَّبَتْ فيه بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [التغابن: 9] بما ذكَرَتْ من الجزاء جاءت هذه الآيةُ لتقرِّرَ حقيقة الإيمان الصحيح الَّذي يَرُدُّ كل شيء إلى اللّه تعالى، ويوقن صاحبُه أنَّ كلَّ ما يصيبه من خير أو شر فهو بإذن اللّه تعالى.

كذلك: بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنَّ النّاس قسمان: كافرٌ باللّه مكذِّبٌ لرسوله لا يستجيب للهداية بل يكذِّب بها، ومؤمنٌ باللّه مصدِّق لرسله وهو يعمل الصّالحات أردَفَ ذلك ببيان أنَّ ما يصيب الإنسان من خير وشر هو بقضاء اللّه وقدره بحسب النُّظم الَّتي وضعها في الكون، فعلى الإنسان أن يَجِدَّ ويعملَ، ولا يباليَ بعد ذلك بما يأتى به القضاء؛ لعلمِه بأنَّ ما فوق ذلك ليس في طاقته، ولن يهولَهُ أمرُه، ولن يحزنَ عليه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّصِيبَةٍ﴾: أصلُها في الرَّمية، ثمَّ اختصَّت بالنّائبة؛ نحو ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: 165]، وتطلق على ما ينال الإنسانَ ويصيبه من خير أو شرٍّ، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: 50] الآيةَ، والإصابةُ في الخير اعتبارٌ بالصَّوب، أي: بالمطرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارٌ بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجع إلى أصلٍ واحد؛ فالصادُ والواو والباء أصلٌ صحيح

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 125.

يدلُّ على نزول شيء واستقراره قرارَه. من ذلك الصّواب في القول والفعل، كأنَّه أمرٌ نازلٌ مستقِرٌّ قرارَه. وهو خلاف الخطأ. ومنه الصَّوبُ، وهو نزولُ المطر[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أثر الإيمان بقدر الله في هداية القلب

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمة أنَّ كلَّ ما يصيب الإنسانَ من خيراتِ الدُّنيا ولذّاتِها، أو رَزاياها وشرورِها هو بقضاء الله وقدره بحسب ما وضَعَ من السُّنَنِ في نظم الكون، فعليه ألّا يحزن ولا يغتمَّ لِما يصيبه بعد ذلك؛ لأنه قد فعل ما هو في طاقته، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الإيمان يضيءُ القلب، ويشرح الصَّدر لخير العمل، والله عليم بالأشياء كلِّها، فهو عليم بالقلوب وأحوالها، ومُطَّلِعٌ على سرِّها ونجواها، فاحذروه وراقبوه في السِّرِّ والعلن[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

عاقبةُ المشركين في الدُّنيا والآخرة وتطييبُ خاطر المؤمنين

فُصلت هذه الآيةُ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ انتقل إليه بعد أن توعَّدَ المشركين بما يحصل لهم من التَّغابنِ يوم يجمع الله النّاس للحساب، ذلك لأنَّ تهديد المشركين بيوم الحساب يثيرُ في نفوس المؤمنين التَّساؤُلَ عن الانتصاف من المشركين في الدُّنيا على ما يلقاه المسلمون من إضرارهم بمكَّة؛ فإنَّهم لم يكفّوا عن أذى المسلمين وإصابتهم في أبدانهم وأموالهم والفتنة بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم[3]. وقيل: كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ للرَّدِّ على الكفّار الَّذين قالوا: لو كان المسلمون على حقٍّ لصانَهُم الله من المصائب في الدُّنيا[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 127.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 279.
(4) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 114.

بلاغةُ القصر في الآية:

في الآية الكريمة قصرُ موصوفٍ على صفةٍ بطريق النَّفي والاستثناء، وهو قصرٌ إضافيٌّ غرضُه تخصيصُ إحداثِ الرّزايا والمصائب بالإذن والأمر المُتعلِّقَين بالله، فلا شريكَ له في إحداثهما، وفي هذا إشارةٌ إلى الهيمنةِ والسَّيطرةِ الكاملتين على كلِّ الخلق والأحداث.

تخصيصُ وقوع الحادثاتِ بأمره وحده

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿أَصَابَ﴾ دون غيره كـ(حَلَّ) أو (وقَعَ):

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل ﴿أَصَابَ﴾ دون غيره من الأفعال كـ(حلَّ) أو (وقَعَ)؛ لأنَّه يدلُّ على نزول شيء واستقراره، وفي هذا دليلٌ على قوَّة المصيبة وشدَّتها؛ كأنَّها متوجِّهة إلى مَن تريد مِن دون مانع أو حاجز، يؤكِّدُ ذلك أنَّ القرآن لا يَستعمِلُ مع المصيبة إلّا ﴿أَصَابَ﴾، ولم يستعمل فعلاً آخرَ، فلم يقل: (وقعت مصيبة) أو (حلَّت مصيبة)، بل يستعمل ﴿أَصَابَ﴾ وتصرُّفاته، وربُّ العالمين بيّن لنا أنَّ المصائب مقدَّرة، وقد أصابتْ موقعَها المُقدَّرَ لها لم تخطئْه؛ لأن الفعل ﴿أَصَابَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأمر لم يقع عشوائيًّا؛ لذلك لا تؤدِّي لفظةُ (حلَّ) أو (وقع) هذا المعنى.

قـــوَّةُ الـفـعـل وتـوجُّـهُـهُ إلى المصاب

دلالةُ تذكير الفعل ﴿أَصَابَ﴾ دون تأنيثه:

جاء الفعل ﴿أَصَابَ﴾ مذكَّرًا من غير إلحاق التّاء به؛ فلم يقل (أصابت) مع أنَّ الإلحاق أكثر، ولعلَّ سبب ذلك تأويل المصيبة بلفظ المذكَّر مثل: الحادث، أو الشَّيء السَّيِّئ، ويضافُ إلى علة عدم إلحاق التّاء بالفعل - وهو قليلٌ - بيانُ أنَّ الأصل في فعل اللّه العطاءُ والخير، والإصابةُ بالمصيبة هو الاستثناء، فتلاءَمَ قلَّةُ الإلحاق بالتّاء مع قلّةِ الإلحاق بالمصائب.

تـأويـل المؤنَّـث بالمذكَّر مع دلالة قـلَّـةِ المصائب وكثرة العطاءات

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَصَابَ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَصَابَ﴾ دون المضارع (يصيب)؛ للدَّلالة على أن المراد المصائب الَّتي أصابت المسلمين من

معاملة المشركين لهم في الفترة المكّيَّة، وعلى هذا فهو إخبار بالماضي، وعلى أنَّ المراد ما يصيب الإنسان من خير أو شرٍّ في حياته، وهو أمرٌ متجدِّدٌ يقتضي التَّعبير بالمضارع، إلّا أنَّه جاء بصيغة الماضي للدَّلالة على أنَّ ذلك مقدَّرٌ في الأزل، ووقوعُه إظهارٌ لمّا قدَّرَهُ اللّه لا لإنشائه.

المصائبُ قُدِّرَتْ مِنَ الأزلِ، ووقوعُها إظهارٌ لقضاء الله

علةُ حذفِ متعلَّق ﴿أَصَابَ﴾:

لم يقل القرآن: (أصابكم)، وإنَّما قال: ﴿أَصَابَ﴾؛ ليكونَ الحكمُ عامًّا مطلقًا، لا يخصُّ جماعةً أو فريقًا، فالتَّعبيرُ بالفعلَ دون المفعول دالٌّ على أنَّ الإصابةَ قد تمَسُّ المؤمن وقد تمَسُّ الكافر، ولو خُصِّصَ اللَّفظُ بالمفعول لقُصِرَ على طائفةٍ بعينها وهم المخاطبون.

إفادةُ العموم دون الخصوص

دلالةُ حرفِ الصِّلةِ ﴿مِن﴾ في السّياق:

دلَّ التَّعبير بـ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ على تأكيدِ أنَّ كلَّ مصيبة أو رزيَّة هي من اللّه وحده دون غيره، صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ، يَسُرَتْ أم عَظُمَتْ، وقد يقال بتلاحم معنى ﴿مِن﴾ هنا؛ أي: أنَّها دالَّةٌ على الابتداء، وهو معنًى لا يفارقها كما يقول العلماء[1]، فيدلُّ معنى الابتداء على أنَّ أيَّ مصيبةٍ مبتداها ومنتهاها من عند اللّه ﷻ؛ فلا يدَ لمخلوق، إنَّما هو مستقبِلٌ فقط، لا حيلةَ له ولا قوَّة.

التَّأكيدُ على أنَّ كلَّ مصيبةٍ تقع بإذن الله

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ وموقعُها الإعرابيّ:

التَّنكيرُ دالٌّ على العموم والشُّمول؛ أي: أنَّ كلَّ مصيبة مَرَدُّها إذنُ اللّه وأمره، وفي التَّنكير بيانٌ لطلاقة القدرة، والسيطرة على كلِّ حوادثِ الدَّهر وريَبه، و﴿مُّصِيبَةٍ﴾ هنا فاعلٌ مجرور لفظًا بـ﴿مِن﴾ التَّوكيديَّة مرفوع محلًّا. واختصَّت المصيبةُ في استعمال اللُّغة بما يلحق الإنسانَ من شرٍّ وضرٍّ وإن كان أصلُ فعلها يقالُ لِما يصيب الإنسانَ مطلقًا، ولكن غُلِّبَ إطلاقُ فعلِ أصاب على لحوقِ السّوء[2].

بيانُ العموم وطلاقةُ القدرة الإلهيَّة

(1) أحمد درويش، دقائق المعاني في القرآن والسنة من خلال تلاحم معاني حرف الجر، من، ص: 38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

المصيبة أكبر عامل لإحداث الهمّ

تخصيصُ لفظة ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ بالذِّكر:

خُصَّتْ لفظةُ المصيبةِ بالذِّكر؛ لأنَّها تصوِّرُ حالة الهمِّ والغمِّ الَّتي تعتري النّاس، ولأنّها الباعثة على الحزن والضّيق والكرب، وهذا ما كان يحدثُ للمؤمنين؛ نتيجةَ الإيذاء والتَّخويف والإرهاب، كما أنَّ التَّنصيص على المصيبة هنا للدَّلالة أنَّ كلَّ شيءٍ ينالُ العبد إنما هو بإذن اللّه؛ لأنَّ جِبِلَّةَ الإنسانِ تأبى المصائب وتتوقّاها، ومع ذلك تصيبُه، وليس في مقدوره دفعُها بخلاف الخير، فقد يدَّعي المرءُ أنَّه حصَّلَهُ باجتهادٍ منه كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78][1].

المُقدِّرُ للمصائب والقاضي بها هو اللهُ وحده دون غيره

دلالة التَّعبير بالاستثناء:

الاستثناءُ في الآية الكريمة مُفَرَّغٌ؛ أي: ناقص منفيٌّ؛ لتقدُّم النَّفي، وفراغِ الجملة من المستثنى منه، وفائدةُ الاستثناء دفعُ ما يتوهَّمُه بعضُهم مِن أنَّ المصيبة ليست بإذن اللّه، فدلَّتْ ﴿إِلَّا﴾ على الحصر؛ فالإصابة بيد اللّه وحده دون غيره.

توجُّهُ المصيبةِ متوقِّفٌ على الإرادة

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ استعارةٌ مكنيَّة؛ بحذف المشبَّه به والدّلالة عليه بلازمٍ من لوازمه (الإصابة)، ويضاف إلى ذلك أنَّ الإذن هنا مستعارٌ لتكوين أسباب الحوادث، وهي الأسباب الّتي تُفضي في نظام العادة إلى وقوع واقعاتٍ، وهي من آثار صنع اللّه في نظام هذا العالم من ربط المسبَّبات بأسبابها، مع علمه بما تفضي إليه تلك الأسبابُ، فلمّا كان هو الَّذي أوجَدَ الأسبابَ وأسبابَ أسبابِها، وكان قد جعل ذلك كلَّه أصولًا وفروعًا بعلمه وحكمته أطلق على ذلك التَّقديرِ والتَّكوينِ لفظَ الإذن،

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 8/ 203.

والمشابهةُ ظاهرةٌ، ومقتضى هذه الاستعارةِ تقريبُ حقيقة التَّقلُّبات الدُّنيويَّة إلى عقول المسلمين باختصار العبارة؛ لضيق المَقام عن الإطناب في بيان العلل والأسباب[1].

دلالةُ الباءِ في لفظةِ ﴿بِإِذۡنِ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالباء في قوله: ﴿بِإِذۡنِ﴾؛ لِما تحملُهُ من المصاحبة والسَّببيَّة، وهذه معانٍ ثابتةٌ لحرف الباء، فالمصاحبةُ دلالةٌ على كون الإذن مصاحبًا للمصيبة، فلا تُحدث ما تُحدثه من أثر نفسيٍّ أو بدنيٍّ إلّا بالإذن المباشر من اللّه، وهنا ينضمُّ معنى السَّببيَّةِ في الباء، فيكون المعنى: لا تصيب المصيبة إلّا بسبب إذن اللّه، فيكون تلاحمُ المعاني دالًّا على طلاقة قدرة الخالق في الإصابة بالمصيبة من عدمها.

دلالةُ التَّعبير بالإذن دون العلم:

إلـزامُ المؤمنين الرِّضا بكلِّ ما قدَّره الله

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالإذن دون العلم؛ لأنَّ الإذن أخصُّ من العلم، ولا يكاد يستعمل إلّا فيما فيه مشيئة به، سواء رضيَ بوقوع الفعل أم لم يرض به، ولأنَّ الإذن في الشَّيء هو الإعلام بإجازته والرُّخصة فيه من غيرِ أنْ يدلَّ على الرِّضا به؛ فما وقع للمسلمين مثلًا في غزوة أحدٍ وقع بالإذن الكونيِّ لا بالإذن الشَّرعيِّ، ولأنَّ التَّعبير بالإذن يحمل معنى التَّمكين من الشَّيء مع العلم به، وهذا يُلزِمُ المؤمنين الرِّضا بما قدَّره اللّه لهم؛ لأنَّه واقع بإذنه[2].

نكتةُ إضافةِ الإذن إلى لفظ الجلالة:

تربيةُ المهابة واكتسابُ العظمة

نكتة إضافة الإذن إلى لفظ الجلالة تربية المهابة في النَّفس بذكر الاسم الأعظم، مع اكتساب الإذن قيمتَهُ بشرف الإضافة؛ لأنَّ الإذن اكتسب عظمته من قيمة إضافته لعظيم. وفيه تنبيهٌ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 162، والأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني: 3/ 972، والراغب، المفردات في غريب القرآن: (أذن).

مَقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند انهيال الرغيبة هو ألّا يحزنَ على ما فات، ولا يبطرَ بما ناله من خيرات[1].

وممّا يُذكر في دلالة الإضافة إعلان ذكر المصيبة، وأنَّها واقعة بإذنه، وفي ذلك إظهار للحقيقة؛ لتستقبلها النَّفس استقبالَ اليقين بأنَّ قدر اللّه هو الخير لعبده.

ترغيب المؤمن في الثَّبات والتَّصبُّر على المصيبة

بلاغةُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

أسلوبُ الشَّرط في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ إيماءٌ إلى قيمة الأمر بالثَّبات والصَّبر عند حلول المصائب؛ لأنَّه يَلزَمُ من هداية اللّه لقلب المؤمن عند المصيبة ترغيبُ المؤمنين في الثَّبات والتَّصبُّر عند حلول المصائب[2]، وفي التَّعبير بجملة الشَّرط تشويق إلى ذكر الجواب المنتظَر الَّذي يملأ القلبَ هدوءًا وسكينة بعد ذكر الإيمان باللّه، وفيه إشارة إلى أنَّ الجواب لا يتحقَّقُ إلّا بتحقُّقِ فعل الشَّرط.

الهدايةُ هدايةُ يقينٍ وتسليمٍ عند الابتلاء

سرُّ تقديم الإيمان على الهداية:

قُدِّمَ الإيمانُ على الهداية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ مع أنّ الهداية سابقة على الإيمان؛ لأنَّ المرادَ بالهداية في قوله: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ التَّوفيقُ واليقينُ لا الدَّلالةُ، وعلى هذا يكون المعنى: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ لليقين عند نزول المصائب، فيَعلَمُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذه الأولى. الثّانية: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ للرّضا والتَّسليم عند نزول المصائب. الثّالثة: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ للاسترجاع عند نزول المصائب، وهو أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]. الرّابعة: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾؛ أي: يجعلُه ممّن إذا ابتلي صبر، وإذا أُنعم عليه شكر، وإذا ظُلم غفر. والخامسة: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ لاتّباع السّنّة إذا صحّ إيمانه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 412.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 279.

وممّا يؤكّد هذه المعانيَ أنَّه قرئَ في الشّاذّ: (يَهْدَأْ) بفتح الدّال وبالهمز، من الهدوء، وهو السّكون، فمعناه: ومن يؤمنْ بالله إيمانًا خالصًا يَسكُنْ قلبُه، ويطمئنّ عند نزول المصائب والمحن، ولا يجزع ولايقلق[1].

الموقعُ النّحويّ لقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ ودلالتُه:

مقارنةُ مصيبة الكفر بنعمة الإسلام

جملةُ ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ استئنافيَّةٌ، وهي ردٌّ على أهل الكفر الَّذين يقولون: لو كانوا مؤمنين لَما نزلت عليهم المصائب.

والواو على هذا تكون مستأنِفةً لمعنًى جديدٍ مرتبطٍ بما قبله في شأن المصيبة في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ويكون المراد بالمصيبة الكفرَ على رأي بعضهم، والكفر أعظم المصائب، وتكون جملة ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ قد تضمَّنت الإيمان، والإيمانُ بالله أعظم النِّعم[2].

دلالةُ التَّعبير بـ(مَن) دون (الَّذي):

شمولُ دعوة الإسلام لكلِّ الخلائق

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بـ(مَن) دون (الَّذي) في قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾؛ لأن ﴿مَآ﴾ تدلُّ على العموم؛ فتشمل المفرد والمثنّى والجمع، والمذكر والمؤنَّث؛ بخلاف (الَّذي)؛ فإنَّها تدلُّ على المفرد المذكَّر فقط، وهذا غيرُ مراد في سياق الآية؛ لأنَّها سيقت من أجل الدَّعوة إلى الإيمان الَّذي يترتب عليه هداية القلب، والإسلامُ بهذا يفتحُ الباب أمام الجميع للدخول في حظيرة الإيمان، ولموافقة ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ [التغابن: 9]؛ حيث جاء التَّعبير بـ(من).

سرُّ التَّعبير بالإيمان في قوله: ﴿يُؤۡمِنۢ﴾ مع دلالةِ تكراره:

ملاءمةُ الإيمانِ للرِّضا؛ لكونهما من أفعال القلوب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإيمان في قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ دون

(1) جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور: 10/ 15.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 8/ 203.

غيره كالإسلام؛ لأن الإيمان عمل قلبيٌّ يتناسب مع الرِّضا بما قدر اللّه للعبد من المصائب؛ فالإيمان هو الَّذي يجعله يتقبل قضاء اللّه فيه بالرِّضا؛ لأنَّ الإيمان إذا تمكَّنَ من القلب استقبلت الجوارح ما قدَّره اللّه بيقين الإيمان، وكرَّرَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الإيمان ﴿يُؤْمِنْ﴾ مع ذكره سابقًا في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [التغابن: 9]؛ لاختلاف المراد في كلٍّ منهما؛ فهناك دعوةٌ عامة للإيمان يترتَّبُ عليها بعدَ العمل الصالح تكفيرٌ للسَّيِّئات ودخولٌ في الجنّات؛ أمّا هنا فجاء الأمرُ بعد أمرِ الابتلاء بالمصائب والتَّسليم بوقوعها بإذن اللّه، ومثلُ ذلك يحتاج إلى إيمانٍ يستقبل به العبدُ قدرَ اللّه.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنْ﴾ مع دلالة تعدّيه بالباء:

دوامُ الإيمان عاملٌ من عوامل الهداية

دلَّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنْ﴾ على أهمّيَّة استمرار الإيمان مع تجدُّده واستحضار صورته؛ لنيلِ هداية القلب، وفي المضارع حثٌّ على التَّمسُّك بهذا الإيمان الدّاعي إلى هداية القلب والتَّسليم لأمر اللّه، وجاءتِ الباءُ دالَّةً على الملابسةِ وشدَّة التَّعلُّق بالإيمان باللّه، أو الإلصاقِ، وهو معنًى لا يفارقها كما قال العلماء[1]، في إشارةٍ إلى أنَّ الهدايةَ أساسُها الإيمانُ باللّه وقضائه وقدره.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجلالة (اللّه):

تربيةُ المهابة في قلوب المؤمنين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بلفظ الجلالة (اللّه) في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾ دون التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة كما في قوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ [الجن: 13]؛ لتربية المهابة في القلوب، ولأنَّ سياق الآية يتحدَّثُ عن الابتلاء بالمصائب، وهذا أمرٌ يجعل النَّفس البشريَّة لا تتقبَّلُه، لكنَّ المؤمن باللّه وبما له من العظمة والجلال يدركُ أنَّ أقدار اللّه فيه لا رادَّ لها؛ لأنَّها بإذنه، ولا يستطيع أحد أن يمنع وقوعَها؛ لأنَّها من اللّه العظيم.

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 46.

الموقعُ النّحويّ لقوله: ﴿يَهۡدِ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِ﴾ وقع جوابًا للشَّرط الوارد في قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، وذلك لإفادة النَّتيجة المترتِّبة على الإيمان في قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾، وهي تحقُّقُ هداية القلب الَّتي تصل به إلى الرضا بالقضاء.

الـهـدايـةُ مِـن شرائطها الإيمانُ والتَّصديق

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في الشَّرط والجواب:

جاء فعل الشَّرط ﴿يُؤۡمِنۢ﴾ مضارعًا، وجواب الشَّرط ﴿يَهۡدِ﴾ مضارعًا، وفي هذا إشارة إلى أنَّ تجدُّد الإيمان يقتضي تجدُّد الهداية. وأنَّ "الإيمان تعقبُه جنَّةُ الرِّضا والتَّسليم عاجلًا، والكفر بضدِّ ذلك"[1]، وكأنَّ في الآية تعريضًا بالكافر الَّذي لن يهديَ اللّه قلبه؛ لعَراقة كفره وتصميمه عليه.

دوامُ هداية الله ينالُهُ المؤمنون الـثـابـرون على إيـمـانـهـم دون غيرهم

سرُّ التَّنصيصِ على القلبِ وجعلِه مفعولَ الهداية:

عدّى القرآنُ الكريم فعلَ الهدايةِ إلى القلبِ دون غيره من الجوارح في قوله: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾؛ لأنَّ القلب موضع التَّقلُّب والتَّغيُّر، فكانت هدايته هدايةً للإنسان، وغوايتُه وضلاله غوايةً للإنسان؛ تصديقًا لقول رسول اللّه ﷺ: (إنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه)، فهدايةُ القلب قرارٌ واطمئنان واستراحة عند تسلُّطِ الغمِّ والحزن، واطمئنانٌ للنَّفس، ووثوق بفضل اللّه[2]؛ لأنَّ هداية القلب تَصِلُهُ بالمعرفةِ الكلّيَّة الَّتي ترى في المصيبة أجرًا وتكفيرًا، فيستغني عن الرُّؤية الجزئيَّة القاصرة عن استكناهِ الحدث.

هـدايـةُ القلب هدايـةٌ للجسدِ كلِّه

وممّا يُذكر في سرِّ تعديةِ الهداية إلى القلب الإشارةُ إلى الأمر بالثَّبات والصَّبر عند حلول المصائب؛ لأنَّه يلزم من هدي اللّه قلبَ المؤمن عند المصيبة ترغيبُ المؤمنين في الثَّباتِ والتَّصبُّرِ عند حلول المصائب[3].

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 61.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 127.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

نكتةُ حذفِ متعلَّق الهداية:

إفادةُ العموم بدلالة السّياق عليه

حُذف متعلَّقُ الهداية في قوله: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾؛ لظهوره من السّياق، والقصدُ من هذا تعليمُ المسلمين الصَّبرَ على ما يغلِبُهم من مصائبِ الحوادث.

وممّا يُذكر في نكتة الحذف الإشارةُ إلى الشُّيوعِ وعدم تحديد نوع هداية القلب، فقد تكون الهداية لليقين، أو للتَّسليم، أو للثِّقة بأمر اللّه، أو ما يناسب السّياق، يؤكِّدُ هذا ما ذكره ابن عجيبة بقوله: "ومَن يؤمن باللّه عند النِّعمة والرَّخاء فيعلمُ أنَّها من فضل اللّه يهدِ قلبه للشُّكر، ومَن يؤمن باللّه عند الشِّدَّة والبلاء، فيعلمُ أنَّها من اللّه يهدِ قلبه للصَّبر والرِّضا"[1]. وقد يكون المتعلَّقُ هدايةً إلى الجنَّة، أو للأخلاق السَّنيَّة، أو لاتِّباع السُّنَّة واجتنابِ البدعة[2].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

بيانُ طلاقة القدرة

جاءت الواو في الجملة الاسميَّة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ للعطفِ على جملةٍ مقدَّرةٍ قبلها؛ لتعليل كلِّ ما سبق، والتَّقديرُ: (فاللّه على كل شيء قدير)؛ أي: لا يدع شيئًا يكون إلّا بإذنه، وعطف عليه قولَه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فكلُّ شيء يجري في الكون من هدايةٍ وغيرها عليمٌ به سبحانه[3]. أو هي مستأنفةٌ بمنزلة التَّذييلِ والتَّبيينِ لوَجْهِ القصرِ في بدء الآية؛ ليدلَّ على الإحاطة التّامَّةِ وكمال العلم الإلهيِّ، "وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم اللّه لبتي تهم الناس التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات[4].

دلالةُ تصدير الجملة باسم الجلالة (اللّه):

قدرةُ اللّه لا حدَّ لها، وعلمُه لا منتهى له

صُدِّرت الجملة الاسمية بلفظ الجلالة (اللّه)؛ لبيان طلاقة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 61.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 61.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 125.
(4) (ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

قدرته سبحانه، وأنَّها لا حدود لها؛ فلا يعجزها شي، وفي ذلك وعد للمؤمن، وطمأنة لقلبه، ووعيد لغيره بأنَّه يدرك ما يخفونه وما يبدونه.

نكتةُ إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

تربيةُ المهابة مع التَّفخيم وملاءمة السّياق

جاء التَّعبير القرآنيُّ بإظهار لفظ الجلالة (اللّه) في موضع إضماره؛ فلم يقل: (وهو بكلِّ شيء عليم) مع سبق ذكره قبل ذلك في الآية مرَّتين؛ لتربية المهابة وتعظيم الخشية من العليم، ولأنَّ الإظهار في موضع الإضمار يتعلَّقُ بالتَّفخيم والتَّعظيم للاسم المُظهَر، ويضاف إلى ذلك أنَّ الإظهار هنا يتلاءم مع الإظهارِ في الآية كلِّها، فقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فيه إظهارٌ في موطن الإضمار؛ أي: ومن يؤمن به؛ لأنَّ قبلها قولَهُ: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، فكان التَّلاؤم والتَّناسق في تركيب الآية. ثمَّ في الإظهار تنصيصٌ على استقلال الجملة، وكأنَّها مَثَلٌ يَصلُحُ أن يُذكَرَ منفردًا مِن دون تعلُّقٍ بسابقٍ أو لاحقٍ.

دلالةُ تكرارِ اسم الجلالة (الله) في الآية:

استقلاليَّةُ الجُمَل مع ترسيخ الحُكم

في الآية الكريمة تكرارٌ لاسم الجلالة (اللّه) في كلِّ جُمَلِها، فالجملةُ الأولى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، والجملة الثّانية: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾، والجملة الثّالثة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، وغرضُ ذلك التَّنويهُ بكلِّ جملةٍ من الجُمَل لبيانِ استقلالها عن أختها في إفادة المعنى، فالجملةُ الأولى مفهومةٌ برأسها، وكذا الثّانية، ولو قيل: (ومن يؤمن به) لاحتاجت الجملة إلى تعلُّقِها بما قبلها، لكنْ ظهورُ الاسم جعَلَها مستقلَّةً، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّكرار فيه ترسيخٌ لكلِّ حكمٍ في الأذهان بذكر الاسم الأعظم، مع إرساء المهابة في النُّفوس، فلئلّا يكونَ مظِنّةَ نسيانٍ تكرَّرَ بنَصِّه وفَصِّه.

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ﴾:

ملابسةُ العِلم واختلاطُه بكلِّ شيء

المعنى المحوريُّ للباء هو الإلصاق، وهو شدَّةُ اختلاطِ الشَّيءِ بالشَّيء، وقد دَلَّتِ الباءُ هنا على ملابسة العلم لكلِّ شيء واختلاطِه به، فلا شيءَ إلّا وهو معلوم في علم اللّه ﷻ. ثمَّ إنَّ النَّظم لا يستقيمُ إلّا بالباء، فكان الحرف ضالعًا في إقامةِ النَّظم دالًّا على استقامة التَّركيب.

دلالة التَّعبير بلفظ (كلّ):

الإحاطة والشُّمول

دلَّ التَّعبير بلفظ (كل) دون (جميع) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ على الإحاطة والشُّمول، وعلى استقامة الجملة لفظًا ومعنًى؛ فهي الَّتي أقامتْ دلالاتِ العلم، فمِن دونها يختلُّ النَّظم، فلا يقال: (واللّه بشيءٍ عليم)، فكانت لفظةُ (كلّ) الدّالَّةُ على الشُّمول هي الواشيةَ بمطلق العلم وكماله، ومِن دونِها يختلُّ التَّركيب، فاقتضى السّياقُ ذكرَ لفظةِ (كل)؛ إبرازًا لعراقة العلم والتّماهي فيه.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

شمولُها للموجود وللمعدوم

جاء التَّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ بعد لفظ (كلِّ) الَّذي يفيد الإحاطة والشُّمول؛ لبيان معنًى زائدٍ على معنى (كلّ)؛ حيث إنَّ لفظ (كلّ) يتعلَّقُ بالموجود؛ بخلاف لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ فإنَّه يتعلَّق بالموجود وبالمعدوم، وهو ما تعلَّقت به المشيئةُ.

وفي التَّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الموجوداتِ بعدَ وجودها لا تستغني عن الصّانع، بل تفتقرُ في كلِّ آنٍ لبقائها الَّذي هو تكرُّرُ الوجود إلى تأثيرِ الصّانع[1].

نكتةُ تنكير ﴿شَيۡءٍ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾:

عمومُ الأشياء وبيان العلم

دلَّ التَّنكير في لفظة ﴿شَيۡءٍ﴾ على العموم؛ فهو عمومٌ معناه التَّنبيه[2]؛ ليشملَ كلَّ مخلوقٍ سواءٌ كانَ عاقلًا أم غيرَ عاقل، صغيرًا

(1) النورسي، إشارات الإعجاز، ص: 142.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 317.

أم كبيرًا؛ بيانًا للعلمِ المطلق المتمثِّل في لفظةِ ﴿عَلِيمٌ﴾، فكلُّ شيءٍ داخلٌ في حيطة علمه وقدرته، وقد يفيدُ تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا التَّعظيمَ والتَّكريم، فالعلمُ لا يناسبُهُ إلّا شيءٌ عظيمٌ يتلاءم مع دلالته، فكان التَّناسبُ بين تنكير اللَّفظتين.

دلالةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

الاهــتــمــامُ بالمتقدِّم وإفادةُ الإحاطة

دلَّ تقديمُ شبه الجملة ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على المسنَدِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على الاهتمام بالمتقدِّم الدّالِّ على الإحاطة والشُّمول والقدرة المطلقة على كلِّ شيء.

وممّا يُذكر في سرِّ تقديمها التَّشويقُ إلى ذكر الخبر بعده، وفي ذلك تهديدٌ وتخويف للكافر وطمأنةٌ للمؤمن؛ لأنَّ الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾ جاء على صيغة المبالغةِ الدّالَّةِ على الإحاطة وكمالِ العلم وثبوته، فيَعلَمُ ما في القلوب مِن بَرْدِ الرِّضا أو حرارة التَّدبير[1].

نكتةُ تذييل الآية بصفة العلم:

طلاقةُ قدرة الله في كلِّ ما يحدث في الكون

ذُيِّلت الآيةُ بصفة العلم دون غيرها من الصِّفات من باب تناسُبِها مع ما تضمَّنَتْهُ الآيةُ من أنَّ المصائب بإذن اللّه، ومن أنَّ اللّه يهدي قلوب المؤمنين للثَّبات عند حلول المصائب والرِّضا بها؛ فهو سبحانه يعلم جميع ذلك[2]، فصار العلمُ هو أنسبَ الصِّفات هنا؛ لأنَّ إصابةَ المرء بالمصيبة مِن متعلَّقات العلم.

ثمَّ إنَّ أمرَ القلوب خفيٌّ، لا يعلمُ ما فيها إلّا خالقُها، فصار التَّعبير بصفة العليم هو أوفى التَّعبيرات؛ لأنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ في السَّماوات والأرض.

ولا يخفى ما في لفظة ﴿عَلِيمٌ﴾ من المبالغة الَّتي ترمز إلى كمال العلم وإحاطته بكلِّ شيء؛ فصار التَّذييل باللَّفظة أقعدَ وأمكنَ في إصابة المراد.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

رجاءُ الثّواب للمؤمنين وتحذيرٌ للكافرين

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ كنايةٌ عن مجازاة الصّابرين بالثّواب؛ لأنَّ علم الله تعالى يُطَمْئِنُ أهلَ الطّاعة بأنَّ أعمالهم معلومة عند الله فيرجون ثوابها، وترتفع بها درجاتهم(1)، وفيها تحذيرٌ للكافرين والعصاة؛ لأنَّ العلم يقتضي المراقبة؛ فالعليم لا يغيب عنه شيءٌ، ويراقبُ كلَّ شيءٍ، لذلك على الكافرين والعصاة أن يحذروا هذه المراقبةَ.

التَّشابُهُ اللَّفظيُّ:

تفصيلُ الأحوال في سورة الحديد وإجمالُها في سورة التَّغابن

تشابهتْ هذه الآيةُ مع قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [الحديد: 22]، والنّاظرُ في الموضعين يجدُ تشابهًا في بعض الألفاظ وتغايرًا في بعضها الآخَرِ؛ ففي سورة الحديد تفصيلٌ، وفي سورة التَّغابن إجمالٌ، وسرُّ ذلك: أنَّ سورة الحديد مبنيَّةٌ على التَّفصيل، حيث فصَّل أحوالَ الدُّنيا والآخرة فيها بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، فكان تفصيلُ ذكر المصيبة في النَّفس أو الأرض مناسبًا للتَّفصيل في الآيات؛ لأنَّ سورة الحديد أمعنُ وأوفى تعريفًا وأمدُّ تفصيلًا، أمّا التَّغابنُ ففيها إجمالٌ وعدمُ تفصيلٍ؛ لأنَّ الذِّكر انتقل مباشرةً بعد ذكر المصيبة إلى هدايةِ القلب، فناسَبَ الإجمالُ الإجمالَ، وناسَبَ التَّفصيلُ التَّفصيلَ، وتحصَّلَ نظمُ السّورتين على أتمِّ مناسبةٍ وأجلِّ تلاؤم، وجرى ذلك على مَسلَكِ العربِ وتفنُّنِها في كلامها وتصرُّفِها إذًا أطالَتْ لداعٍ موجِبٍ وفصَّلَتْ، أو أوجَزَتْ لُمقتَضٍ من المعنى وأجمَلَتْ، ولا يمكنُ على ما تبيَّنَ عكسُ الوارد في السّورتين بوجهٍ(2).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 468.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾ [التغابن: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

طاعةُ الله ورسوله دليل على الرِّضا بما قدَّره الله على عباده

لمّا ذكرت الآية السّابقة أنَّ المصائب الّتي تصيب العبد لا تقع إلّا بإذن اللّه جاءت هذه الآية لدعوة الإنسان إلى طاعة اللّه ورسوله، وألّا ينشغلَ بالمصائب عن الطاعة فيقعَ في المهالك؛ لأنَّ العبادة لا تُقبَلُ إلّا بالاتِّباع لا بالابتداع، ويمكن أن يُضافَ إلى ما سبق من المناسبة أنَّ الآية السّابقة تضمَّنتْ أنَّ المؤمنين متهيِّئون لطاعة اللّه ورسوله ﷺ فيما يدعوانهم إليه من صالح الأعمال، فكان طلبُ الطّاعة للّه ورسوله فرعًا عن تحقُّقِ الإيمان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: من الفعل (ولي)، و(التَّوَلّي) يكون بمعنى الإعراض إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا؛ قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النجم: 29]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ﴾ [محمد: 38]؛ أي: تُعرضوا عن الإسلام. ويكونُ بمعنى الاتّباع، نحوُ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: 51]، فمعناه: من يَتَّبِعْهم ويَنْصرْهم[2]. وهو في الآية هنا بمعنى الإعراض والانصراف.

2) ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدَّرة؛ يقال: بلغ المكانَ؛ أي: وصل إليه، وكذا إذا شارف عليه، والبلاغُ اسمٌ يدلُّ على الوصول عمومًا، والبلاغُ هنا بمعنى إيصالِ ما أراده اللّه على الوجهِ الأكمل، وفي البلاغِ كفايةٌ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.
(2) الهروي، تهذيب اللغة: (لم).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، مفردات غريب القرآن: (بلغ).

المَعنى الإجماليُّ:

مدارُ الفلاح على طاعة الله وطاعة رسوله فيما بلَّغ عن ربِّه

في الآية الكريمة أمرٌ جازم بطاعة اللّه وطاعة الرَّسول؛ لأنَّ مدار الفلاح والنَّجاح متوقِّفٌ على تلك الطّاعة، فإنْ أعرضتُم ورفضتُم ما جاء به الرَّسول فليس عليه هداكم، وإنَّما عليه فقط وظيفةُ البلاغ المبين الَّذي لا يَعتَورُهُ قصورٌ أو خِداج.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في مطلع الآية: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾:

الإيمانُ سبيلُ الالتزام بالطّاعة

الواوُ في مطلع الآية عاطفةٌ، عطفتْ قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ على قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾؛ لأنَّها تضمَّنتْ أنَّ المؤمنين متهيِّئون لطاعةِ اللّه ورسوله ﷺ فيما يدعوانهم إليه من صالح الأعمال[1]، وفي العطفِ بيان لقيمة الجمع بين الإيمان والطّاعة، فلا إيمانَ بلا طاعةٍ وإذعانٍ للّه ﷻ؛ لأنَّ طلب الطّاعة فرعٌ عن تحقُّق الإيمان.

دلالةُ التَّعبير بالفعل (أطيعوا):

ضرورةُ اتِّباع الله ورسوله ولزومِ طاعتِهما

دلَّ الفعل (أطيعوا) على ضرورةِ اتِّباع ما أمر اللّه به، وجاء به رسوله من أوامرَ ونواهٍ، وفي الفعل (أطيعوا) بيانُ أنَّ الطّاعة هي السَّبيل الأكيد للخروج من الهموم والمصائب الَّتي قد تعتري المرء، فكأنَّ المعنى: "إنْ أصابكم مكروهٌ فلن يُخرِجَكم منه إلّا طاعة اللّه والرَّسول؛ فهوِّنوا على أنفسكم المصائبَ، واشتغلوا بطاعةِ اللّه وطاعةِ رسوله"[2].

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بها: أنَّ فعلَ الطّاعة الصّادرَ من اللّه تأكيدٌ لعلمه في قوله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فهو العالم بطاعتكم ورضاكم عن حُكمه، أو معصيتكم وضَجَركم من هذا الحكم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 283.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الَّذين لا يرضَون بتقدير اللّه لهم في المصائب لا يوصفون بالطّاعة؛ لعدم تسليمهم؛ فأصلُ الطّاعة الائتمارُ بما أمَرَ به والارتسامُ فيما رسم، ويضادُّ الطاعةَ الكرهُ(1).

دلالةُ الجمع بين طاعة الله ورسوله:

بيانُ مكانة رسول الله ﷺ، فطاعتُه من طاعة الله

دلَّ الجمع بين طاعة اللّه ورسوله في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ على كلاءة اللّه لرسوله وحفظه والاهتمام بأمره، فالطّاعة ليست للّهِ وحده، وإنَّما لرسوله أيضًا، وطاعةُ أحدِهما دون الآخرِ فيها نقصٌ وخِداج.

دلالةُ الأمر بالطّاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾:

تلازُمُ الطّاعتين ولزومُ الجمع بينهما

دلَّ الأمر بالطّاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ على ضرورة جمع الطّاعتين، وفي الأمر تطييبٌ لخاطر الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه المُبلِّغ عن ربِّه؛ فكان في الأمر تأنيسٌ وترطيبٌ لقلبه الشَّريف ﷺ، وتبشيرٌ له بكثرةِ أتْباعه، ولعلَّ في التَّعبير بالأمر هنا ملمحًا آخرَ، وهو سرعةُ التَّنفيذ والامتثال للّه(2)، وكأنَّ الطّاعة قد حدثَت بالفعل.

سرُّ التَّعبير باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ دون غيره في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾:

إبرازُ عظمة الألوهيَّة في مقام العبوديَّة

علَّقَ القرآن الكريم الطّاعةَ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون لفظِ الرَّبِّ؛ للدّلالة على أنَّ مقام الطّاعة مقامُ عبوديَّة؛ فناسبه التَّعبيرُ بمقام الألوهيَّة، وهذا يقتضي كمالَ الانقياد والخضوعِ لأوامر اللّه؛ لأنَّ له الحُكمَ والسُّلطةَ دون غيره سبحانه.

سرُّ تقديم طاعةِ الله على طاعةِ الرَّسول:

طاعة الله أصلٌ وطاعةُ رسوله فرعٌ عنها

قُدِّمَتْ طاعةُ اللّه على طاعة رسوله في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾؛ لأنَّ طاعة اللّه هي الأصلُ، وطاعةَ رسول اللّه فرعٌ عنها؛ فقُدِّمَ الأصلُ على الفرع، ومراعاةً للسّياق؛ حيث تقدَّمَ

---

(1) الراغب، مفردات غريب القرآن: (طوع).

(2) سعد، بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 265.

الحديثُ عن علم اللّهِ بكلِّ شيء في ختام الآية السّابقة؛ فناسبَ ذلك ذكرُ طاعةِ اللّه أوَّلًا؛ لقرب الاتِّصال بينهما.

نكتةُ إعادةِ الأمر بالطّاعة مع الرّسول:

الفرقُ بين الإطاعتين مع اختصاص الرَّسول ببيان الأحكام

كُرِّرَ الأمرُ بالطّاعة مع الرَّسول ﷺ، مع أنَّ طاعته من طاعة اللّه ﷻ، ومع أنَّ حرف العطف بالواو يُغني عن تكرار الفعل، فلو قال: (وأطيعوا اللّه والرَّسول) لفُهِمَ معنى الطّاعةُ أيضًا؛ للتَّأكيد، وللإيذانِ بالفرق بين الإطاعتين في الكيفيَّة[1]، والغرضُ من التَّكرار رسوخُ الحُكم، وطلبُ ثباته في الذِّهن، وإبعادُهُ عن دائرة الشَّكِّ، وتمكينُهُ في دائرة اليقين، وإظهارُ الاهتمام بطاعته ﷺ فيما شرَّع استقلالًا، وفي هذا دليلٌ على وجوب اتِّباع ما ورد في الكتاب والسُّنَّةِ، وكذلك في تكرار الفعل دلالةٌ لبيان عطف المفصَّل على المجمل؛ لأنَّ في بعض آيات القرآن إجمالًا، والرَّسولُ ﷺ هو الَّذي فصّل هذا الإجمالَ، وقد يضاف إلى ذلك أنَّ طاعة الرَّسول واجبةٌ إذا أتى بأحكامٍ ليست في القرآن، فهنا تكون طاعتُهُ واجبةً؛ لأنَّها من طاعة اللّه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]، وأدلَّةُ القرآن تدلُّ على أنَّ كلَّ ماجاء به الرَّسولُ؛ مِن أوامرَ أمَرَ بها ونواهٍ نهى عنها هو لاحِقٌ في الحُكم بما جاء في القرآن الكريم[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلرَّسُولَۚ﴾:

الإشارةُ إلى الرَّسولِ المعهود لديكم، أو احتمالُ عموم الرُّسُلِ من عند الله

الألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ عهديَّةٌ؛ أي: ذلك الرَّسولَ الَّذي تعرفونه بينكم كمعرفتكم أبناءَكم أو أشدَّ، وهو الرَّسول ﷺ المعهودُ لديكم الَّذي يعيش بين ظهرانيكم، و(أل) هنا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 320.
(2) القاسمي، تفسير القاسمي: 1/ 109.

في قوَّة اسم الإشارة[1]، فكلمة ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ كأنَّها في قوَّة (هذا الرَّسول الَّذي تعرفونه)، ويجوز أن تكون (أل) جنسيَّةً دالَّةً على كلِّ رسولٍ؛ أي: أطيعوا اللّه وأطيعوا كلَّ رسولٍ يُرسِلُهُ اللّه ليُبلِّغَكم أمورَ دينِكم، فعدمُ إطاعةِ رسولٍ معصيةٌ لكلِّ الرُّسُلِ لا لرسولٍ واحدٍ.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَإِن﴾:

التَّحذيرُ من عصيانِ الرَّسول

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن﴾ استئنافيَّةٌ، والغرضُ منها التَّحذيرُ من عصيان اللّه ورسوله ﷺ[2]؛ بعدم الالتزام بالأوامرِ والاجتناب للنواهي.

دلالةُ التَّعبير بـ(إن) الشَّرطيَّة:

الإشارةُ إلى مدح أهل الطّاعات، بالتزامِ المأمورات، واجتنابِ المنهيّات

دلَّ التَّعبيرُ بـ(إن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ على حثِّ النّاس على الطّاعة وتوجيهِ مشاعرِهم بالالتزام بها، وإبعادهم عن المعصية، وفي التَّعبير بها مدحٌ لأهلِ الطّاعةِ الَّذين ثبتوا على طاعته، وتحفيزٌ لغيرِهم؛ كي يدخلوا دائرةَ الطّاعة.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

إبرازُ الوعيدِ لمَن تولّى وأعرَضَ، والثَّوابِ لمَن آمَنَ واتَّبع

تَظهَرُ بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّةِ ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا﴾ في إبراز الوعيد للكفّار، والتَّسلية للرَّسول ﷺ؛ لأنَّه قامَ بدَوْرِ البلاغِ على أكملِ وجهٍ وأتَمِّه، فقد أدّى الأمانة، ونهض بالواجب، وأقام الحجَّة.

دلالةُ حذف جواب الشَّرط:

تبليغُ الرَّسولِ الكريمِ الرِّسالة بكاملِ الأمانة

حُذف جواب الشَّرط لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ حتّى تذهبَ النَّفْسُ فيه كلَّ مذهبٍ، وتتعانقَ التَّقديراتُ في إبراءِ ذمَّة الرَّسول ﷺ من التَّقصير، وتعدُّدِ أنماط التَّرهيب والزَّجر للكفّار؛ فيجوزُ أن يكون تقدير الجواب: (فلا بأسَ عليه)، (فلا تثريبَ عليه)، وتكونُ جملةُ ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ دليلًا على الجواب أو تعليلًا له[3].

(1) تمام حسان، البيان في روائع القرآن: 1/ 148.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 320، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 258.

بلاغةُ الاستعارة في التّعبير بـ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

المبالغةُ في التَّشنيعِ على مَن أعرَضَ ونأى

التَّولّي مستعارٌ للعصيان وعدمِ قبول دعوة الرَّسول، وحقيقةُ التَّولّي الانصرافُ عن المكان المستقَرِّ فيه، واستُعير التَّولّي للعصيان تشنيعًا له ومبالغةً في التَّحذيرِ منه، ومثلُه قوله تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمّد: 38]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][1].

دلالةُ صيغة (تفعَّلَ) في الفعل ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

الاجتهادُ والتَّصرُّفُ في رفضِ الدَّعوة

دلَّ التَّعبير بصيغة (تفعَّلَ) في الفعل ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ على الاجتهاد والتَّصرُّفِ في تحصيل أصل الفعل، فكأنَّ في الفعل ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ محاولةً من الكفّار للنَّبيِّ ﷺ في التَّولّي، ومشايعته حتّى الوصولِ إلى الإعراض التّامِّ والانصراف الَّذي ترنو إليه نفوسهم؛ من رفضها اتِّباعَ النَّبيِّ ﷺ؛ اتِّباعًا لِما أَلْفَوا عليه آباءهم، "وفي التَّعبير بها مزيدُ وعيدٍ للكفّار لإصرارهم على التَّولّي، وبيانٌ لكمال بلاغِهِ ﷺ"[2].

سرُّ التَّعبير بـ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ لا (تولّوا):

التَّلاؤمُ وتكريمُ المخاطبين عند خطابهم

جاء التَّعبير بالخطاب المباشر ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ ليتلاءَمَ مع مطلع الآية ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ بالخطاب المباشر، وفي الخطاب دعوةٌ صريحة إلى ترك التَّولّي والزَّجر لَمن اتَّخذَ التَّولّيَ سبيلًا للكفر بما جاء به النَّبيُّ، ثمَّ في الخطاب المباشر تكريمٌ لهم، بأنْ جعَلَهم أهلًا للخطاب؛ كي يخجلوا من كفرهم، ويعلنوا طاعتَهم للّه ورسوله.

بلاغةُ القصر في الآية:

لزومُ البلاغ مع الحثِّ على الطّاعة

في قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفته؛ فالرَّسولُ ﷺ مقصور على لزوم البلاغ له، لا يعدو ذلك إلى لزوم شيءٍ آخرَ. وهو قصرُ قلبٍ تنزيلًا لهم في حالة العصيان

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 230.

(2) الثعالبي، تفسير الثعالبي: 5/ 439.

المفروض منزلةَ من يعتقد أنَّ اللّه لو شاء لألجَأهم إلى العمل بما أمرهم به؛ إلهابًا لنفوسهم بالحثِّ على الطّاعة[1].

نكتةُ تعدية البلاغ بحرف الاستعلاء:

تمكُّنُ الدَّعوة منه وسيطرتُها على قلبه ﷺ

دلَّتْ تعديةُ البلاغ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ على التَّمكُّن والتَّلبُّس، فقد صار البلاغ بمنزلة الشُّغلِ الشّاغل للرَّسول ﷺ، هو همُّه ليلَ نهار، لا يتركُه قيدَ أُنمُلة، فصار يُعرَفُ بالبلاغ ولا يُعرف بغيره؛ فكان الحرفُ هنا هو المعبِّرَ عن استيلاء الدَّعوة على عقل الرَّسول وقلبه، ويضاف إلى ذلك أنَّ الحرف (على) فيه معنى الثِّقل والتَّحمُّل، فكانت التَّعديةُ به متناسبةً مع البلاغ الَّذي يَثقُل ويَعظُم مع قوم بُهْتٍ لا يؤمنون.

دلالةُ إضافةِ الرّسول إلى ضمير العظمة ﴿رَسُولِنَا﴾:

التَّعظيم وتطييب خاطر الرَّسول

دلَّتْ إضافةُ الرَّسول إلى ضمير العظمة ﴿رَسُولِنَا﴾ على عظيم قَدْرِه ورفعةِ شأنه؛ لأنَّه ﷺ رسولُ ربِّ العالمين[2]، ومن تعظيم اللّه تعظيمُ رسوله الأمين، وفي الإضافة تطييبٌ لخاطر الرَّسول الأعظم إذا تولّى النّاس وأعرضوا عنه، وفي الإضافةِ أيضًا بيانُ الكلاءة والحفظ لرسوله، وتهديد لمن يتولّى عنه؛ فإضافته إلى (نا) العظمة تعني التَّبعيَّةَ المطلقة من الرَّسول لربِّه لا غيره.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبة إلى التَّكلُّم في ﴿رَسُولِنَا﴾:

التَّشريفُ بعزِّ الإضافة

في الضَّمير التفاتٌ من الغَيْبة إلى التَّكلُّم، وهذا يفيد تشريف الرَّسول بعزِّ الإضافة إلى المتكلِّم[3]، فالمضافُ إلى العظيم عظيمٌ، والمضاف إلى الجليل جليل، فاجتمع للرَّسول ﷺ عظمتان؛ عظمةُ نفسِه، وعظمةُ إضافته إلى العظيم، وفي الإضافة الماحةٌ إلى أنَّ الرَّسول لا ينطق عن الهوى، وإنَّما كلُّ ما ينطق به تابعٌ لمرادات اللّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾:

المَهَمَّةُ الأولى للرَّسول البلاغُ عن الله لا هدايتُهم

في الآيةِ تقديمٌ للجارِّ والمجرور الخبرِ على المبتدأ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ ونكتةُ ذلك قصرُ الصِّفة على الموصوف؛ وفي هذا إلماحةٌ إلى أنَّ المَهَمَّةَ الأولى للرَّسول هي التَّبليغ لا الهداية؛ لأنَّ وظيفته هي تعريفُ النّاس بطرائق الهدى والإشارة إليها.

بلاغةُ المجاز في لفظةِ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

قيمةُ (البلاغ) في وصول الدَّعوة إلى البشر

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالبلاغ عن التَّبليغ؛ وفي هذا مجازٌ مرسلٌ، حيث عبَّر باللّازم الَّذي هو البلاغُ والوصولُ إلى الغاية المرادة عن الملزوم الَّذي هو التَّبليغ والتَّوصيل[1].

دلالةُ وصف ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

وضوحُ (البلاغ) وقطع العذر عمَّن تنكَّب الطَّريق

وَصْفُ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فيه نكاتٌ؛ **الأولى**: الوضوح؛ أي: البلاغ الواضح، وفي هذا إعلانٌ بأنَّ الرَّسول ﷺ بلّغ ما أُمِرَ به على الوجه الأكملِ قطعًا للمعذرة عن عدمِ امتثال ما أمَرَ به[2]، و**الثّانيةُ**: أنَّ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ معناه: بيِّنٌ في نفسه واضحٌ جليٌّ، وفي ذلك ذكرى لِمَن كان له قلب، و**الثّالثة**: أنَّ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: مُبَيِّنٌ لكم أحكامَ اللّه تعالى وتكاليفَه، بحيث لا يعتريها شبهةٌ، بل هي واضحة نيِّرة جليَّة[3]. وقد يضاف إلى دلالة الوصف هنا الإشارةُ إلى قيمة البلاغة والفصاحة في التَّبليغ عن اللّه، فالدَّعوةُ تحتاجُ إلى البيان، ولن يكون البيان إلّا بالفصاحة.

أمّا **النُّكتةُ الرّابعة** فهي نكتةٌ لفظيَّةٌ تتعلَّقُ بتوافُق رؤوس الآيِ القائمة على حرف النّون ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، وبعدها ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهذا جانبٌ مَرْعيٌّ في النَّظم.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/ 135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/ 359.

المتشابهُ اللّفظيُّ:

تشابهتْ هذه الآيةُ مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢﴾ [المائدة: 92]، والنّاظر في الآيتين يجدُ تشابهًا بينهما مع اختلافٍ في موضع سورة المائدة، وذلك بزيادةِ قولِه: ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 92] وقولِه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ [المائدة: 92]؛ مع أنَّ المعنى في الآيتين يتضمَّن الأمرَ بطاعة اللّه وطاعة رسوله والتَّحذيرَ من التَّنكُّبِ والتَّولّي عن ذلك.

وسرُّ ذلك الاختلافِ ناتجٌ عن مراعاة السّياق في السّورتين؛ فموضعُ سورة المائدة جاء عقبَ اجتنابِ الخمر وما ذكر معها وبيانِ علَّة ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91]؛ فلمّا ختمت الآية بالتَّهديد المُشعِرِ بشدَّة الوعيد ناسَبَ ذلك قولَهُ: ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 92]؛ ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ [المائدة: 92]. أمّا موضعُ سورة التَّغابن فلم يَرِدْ قبله ما يوجب هذا التَّحذيرَ والتَّوكيد؛ حيث كان الكلام على أنَّ ما أصاب العبدَ من مصيبةِ خيرٍ أو شرٍّ فهي بإذن اللّه، فلم يَرِدْ بعدها نهيٌ عن مُحرَّم يستوجب التَّحذير والتَّأكيد؛ لذلك لم يَرِدْ ما ورد في سورة المائدة، فجاء كلٌّ على ما يناسبُه(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّولّي والإعراض:

بينَ اللَّفظتين تقاربٌ دلاليٌّ، حيث يشتركان في معنًى عامٍّ هو البُعد والتَّرك، ويختصُّ كلٌّ منهما بملمح دلاليٍّ يميِّزُه؛ فالإعراضُ لا يُشترَطُ أنْ يكونَ في الشَّرِّ، فقد يكون المُعرِض تاركًا للشَّرِّ مُجانِبًا له، وهو أدنى وأخفُّ من الصَّدِّ والصُّدود؛ لذا استُعمل في تركِ الأذى والكفِّ عنه، أمّا التَّولّي فهو إعراضٌ عن الشّيء بالجسم وبترك الإصغاء والائتمار، وهو أشدُّ من الإعراض(2).

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 137.

(2) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 1/ 320.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التَّغابن: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الوحدانيَّةُ سبيلُ التَّوكُّلِ عليه

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقة الأمرَ بطاعة اللّه وطاعة رسوله، وحذَّرت من التَّنكُّب والتَّولّي عن هذه الطّاعة جاءت هذه الآيةُ بالتَّعريف بالإلهِ الَّذي يُدّعَى النّاسُ إلى طاعته وطاعة رسوله بأنَّه إلهٌ واحد لا إلهَ غيره، تفرَّدَ بالألوهيَّة، وعليه يتوكَّلُ المؤمنون(1).

وكذلك: لمّا ذكرت الآياتُ السّابقة بعض الأوصاف الحميدة لحضرته ﷻ من أوَّلِ قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ إلى الآياتِ الَّتي بعدها جاءت هذه الآية لتبيِّنَ أنَّ مَن كان موصوفًا بهذه الصِّفات هو الإله الحقُّ لا معبودَ إلّا هو، ولا مقصودَ إلّا هو، عليه التَّوكُّلُ في كلِّ باب(2).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾: التَّوْكيلُ: أن تعتمدَ على غيرك وتجعلَه نائبًا عنك، والوكيلُ فَعيل بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٨١﴾ [النساء: 81]؛ أي: اكتفِ به أن يتولّى أمرك ويتوكَّلَ لك، قال تعالى: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين؛ يقال: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيت له، ويقال: وكَّلْتُهُ فتوكَّلَ لي، وتوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته، قال ﷻ: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التَّوبة: 51](3)، والمعنى المحوريُّ: تركُ الأمر؛ أي: تفويض القيام به إلى مَن فيه الكفاية للقيام به(4).

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 10/ 987.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 10/ 341.

(3) الراغب، المفردات: (وكل).

(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الإلهيَّةُ المطلقة سبيلٌ لحسن التَّوكُّل

تخبرنا الآية الكريمة بالألوهيَّة المطلقة؛ فلا إلهَ غيره، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، فهو الحقيقُ بالتَّوكُّل عليه، وهذا تذكير للمؤمنين بما يعلمونه؛ أي: مَن آمن بأنَّ اللّه لا إله إلّا هو كان حقًّا عليه أن يطيعَه، وأنْ لا يعبَأ بما يصيبه في جانب طاعة اللّه من مصائبَ وأذًى[1]؛ فإنَّ الألوهيَّة تقتضي التَّبتُّلَ إليه وقطعَ التَّعلُّق بغيره.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة التَّوحيد عمّا قبلها:

تعلُّقُ الطّاعة بالألوهيَّة مع التَّذكير بها

فُصلت جملةُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها في موقع العلَّة لجملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، وتفيدُ أيضًا تعليلَ جملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾؛ لأنَّ طاعة الرَّسول ترجع إلى طاعة اللّه، ويجوز أن تكون جملةً معترضة بين جملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ وجملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أو هي جملة ابتدائية، واسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ خبر، والغرضُ تذكيرٌ للمؤمنين بما يعلمونه؛ أي: مَن آمن بأنَّ اللّه لا إله إلّا هو كان حقًّا عليه أن يطيعه، وأن لا يعبَأ بما يصيبه في جانب طاعة اللّه من مصائبَ وأذًى[2].

سرُّ تصديرِ الجملة بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُظهَرًا دون إضماره:

استحضارُ العظمة والكمال

افتُتحت الجملةُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُظهَرًا في مقام الإضمار؛ إذ لم يقل: هو لا إله إلّا هو؛ لاستحضار عظمة اللّه تعالى بما يحويه اسم الجلالة من معاني الكمال، ولتكونَ الجملة مستقلَّةً بنفسها فتكونَ جاريةً مَجرى الأمثال والكَلِم الجوامع[3]، ولأنَّها تدلُّ على الوحدانيَّة واستحقاق العبادة، ومعنى الكمال كلِّه؛ لأنَّه المنفرد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 281.

بذلك، فإذا أُطلق اللَّفظُ انصرف إليه ولم يُفهم منه سواه ﷻ عن الشَّبيه والمثيل والمقارب والنَّظير[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّ اللفظة جاءت تمهيدًا وتوطئةً لما بعدها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، فكأنَّها أحدَثتِ التَّواصلَ بين أطراف العمليَّة النَّظْميَّة، فلا يستقيمُ بدءُ الآية بجملةِ التَّوحيد من دون اللَّفظ الأعظم (اللّه)، مع دلالة لفظ الجلالة على المهابة والفخامة، وهو مع هذا دالٌّ على الانفراد؛ لكونه أعرفَ المعارف، فلا يحتاج إلى قرينةٍ أو مَعونة[2].

سرُّ التَّعبير عن الوحدانيَّة بجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾:

النَّصُّ على الإلهيَّة وعدمِ النَّظير مع المبالغة

جاء التَّعبير عن الوحدانيَّة بجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾؛ لأنَّها نصٌّ في إثبات الوحدانيَّة ونفيِ الآلهة، ولتقريرِ كمال التَّوحيد بعدم وجود إله غيرِ اللّه، وفي العبارة القرآنيَّة "مَدُّ التَّعظيم في نحوِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، ويسمّى مَدَّ المبالغة، وإنَّما سُمِّي مَدَّ المبالغة لأنَّه طلبٌ للمبالغة في نفي إلهيَّة سوى اللّه تعالى، وهذا مذهبٌ معروف عند العرب؛ لأنَّها تَمُدُّ عند الدُّعاء وعند الاستغاثة وعند المبالغة في نفي شيءٍ"[3]. وفي التَّعبير خبرٌ عن التَّوحيد، ومعناه معنى الطَّلب؛ أي: وحِّدوا الإلهيَّةَ له[4].

بلاغةُ القصر في كلمةِ التَّوحيد:

قصرُ الإلهيَّة على الله وحده

تظهرُ بلاغة القصر في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، وذلك بقصرِ صفة الألوهيَّة على ذات اللّه سبحانه قصرًا حقيقيًّا؛ أي: "وما إلهٌ قطُّ في الوجود إلّا إلهٌ موصوف بالوحدانيَّة لا ثانيَ له، وهو اللّه وحده لا شريك له".

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/ 921.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 17.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 336.
(4) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 137.

"والغرضُ هنا تقرير الكلام وتمكينُه في الذِّهن؛ لدفع ما فيه من إنكارٍ أو شكٍّ"[1]، وفيها تعريفٌ بالوحدانيَّة وكمالِ التَّوحيد حصرًا، وهو المقصودُ الأعظم من جميع الشَّرائع[2].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ دونَ: (لا إله إلّا الله):

التَّفرُّدُ بالألوهيَّة ودفعُ التَّكرار

جاء التَّعبير بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ دون (لا إله إلّا الله)؛ لأنَّ اسم الله ذُكِر أوَّلًا في بدء الآية، فكان الأولى أن يعود عليه الضَّمير؛ لأنَّ المعنى بالضَّمير واضحٌ ولا لبسَ فيه، يُؤكِّدُ ذلك ورودُ هذه الجملة في القرآنِ مرّاتٍ عديدةً؛ منها قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: 2]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآيةَ [النِّساء: 87]، إلى غير ذلك من المواضع الَّتي وردت في القرآن، وفي هذا تربيةٌ للعقيدة وتثبيتُها بحيث لا تتزعزعُ، ولا تهتزُّ في قلب المؤمن.

سرُّ الاكتفاءِ بالوحدانيَّة في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ مِن دون زيادةِ أوصافٍ أُخرى:

التَّركيزُ على الإلهيَّة لنفي الشُّركاء

اكتفى التَّعبير القرآنيُّ بالوحدانيَّة، مِن دون ذكرٍ لصفاتٍ أُخرى؛ لأنَّ الغرض التَّركيزُ على الوحدانيَّة ونفيُ الشَّريك في الملك، ومجيءُ صفاتٍ أخرى يُزاحم الوحدانيَّةَ في هذا السّياق، يضاف إلى ذلك أنَّ السّورة مليئةٌ بالأوصاف الأُخرى للّه تعالى كما في الآية الأولى ﴿قَدِيرٌ ١﴾ [التغابن: 1]، والآية الثّانية ﴿بَصِيرٌ ٢﴾ [التغابن: 2]، والآية السّادسة ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٦﴾ [التغابن: 6]، وما تلا ذلك من آياتٍ، ولفائدةٍ أخرى؛ هي أنَّ المشركين عندما سمعوا وصفَ الرَّحمن قالوا: وما الرَّحمن؟ فظنّوا أنَّ للرَّسول إلهين، وهذا محتملٌ منهم، فالأوصافُ الزّائدةُ يفهمُها المشركون لضعفِ عقيدتهم أنَّها آلهةٌ مع الإله الواحد الأحد،

---

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 5.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 28.

فاكتفى القرآنُ بذكر الوحدانيَّة دون زيادةٍ عليها، فكأنَّ الوحدانيَّةَ مُحَصَّنةٌ بعدم الوصف الزّائد.

دلالةُ ﴿لَآ﴾ النّافية للجنس مع الاستثناء:

نفيُ كلِّ أنواع الآلهة المعبودة من دون الله

دلَّتْ ﴿لَآ﴾ النّافية للجنس في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ على استغراق النَّفي لجميع الآلهة المعبودة من دون اللّه، وهذا الاستغراقُ مِن دلالات ﴿لَآ﴾ النّافية للجنس، ودلَّ الاستثناء على دفع توهُّم دخوله ﷻ في النَّفي العامِّ الَّذي أحدثته ﴿لَآ﴾ النّافية للجنس، علمًا بأنَّ النَّفي مع الإثبات أبلغُ في الإثبات، وفيه مبالغةٌ في الثَّناء، فقولهم: لا كريمَ إلّا فلانٌ أبلغُ مِن قولهم: فلانٌ كريم[1].

سرُّ اختلافِ الأوصاف بعدَ جملة التَّوحيد:

مراعاةُ السّياقِ مطلبٌ قرآنيٌّ في اختيارِ أسماء الله الحسنى وصفاته

النّاظرُ في الأوصاف الَّتي جاءت بعد جملة التَّوحيد ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ يجدُ أوصافًا متعدِّدةً؛ ففي البقرة وآل عمران جاء وصفا: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255] [آل عمران: 2]، وفي النِّساء: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 87]، وفي طه: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: 8]، وفي النَّمل: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦﴾ [النمل: 26]، وهنا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولدى تدقيقِ النَّظرِ نجدُ أنَّ كلَّ وصف جاء مناسبًا للسّياق الَّذي ورد فيه، ومن ذلك موضعُ التَّغابن الَّذي ورد فيه بعد جملة التَّوحيد قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وهو مناسبٌ لسياق الآية السّابقة عليه من طلب الطّاعة للّه ورسوله؛ حيث جاءت هذه الجملةُ لإعلام رسول اللّه ﷺ بكثرة أتباعه، وبيَّنَ أنَّ سبيل ذلك هو التَّوكُّل على اللّه، وأنَّ أهل الإيمان هم أولى النّاس بحقيقةِ التَّوكُّل؛ فكان ختامُ الآية بجملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ هو المناسبَ لموضع سورة التَّغابن.

---

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 1/ 257.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

المـلازمـةُ بين التَّوكُّلِ والإيمان

دلَّ التَّعبيرُ بالواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على عطف هذه الجملة على جملة ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّها في معنى: وتوكَّلوا على اللّه؛ فإنَّ المؤمنين يتوكَّلون على اللّه لا على غيره، وأنتم مؤمنون، فتوكَّلوا عليه[1]. فكان ثَمَّ ملازمةٌ بين الإيمان والتَّوكُّل على اللّه.

نكتةُ تعديةِ فعل التَّوكُّل بـ(على):

التَّوكُّلُ على الله فيه تقويةٌ للعبد في تحمُّلِ المَشاقِّ والمصاعب

التَّعديةُ بـ(على) في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ فيها مزيدُ معنًى لإثبات صفة الواحدانيَّة والقدرة؛ لأنَّ (على) تدلُّ على الأشياءِ الصَّعبة المستثقَلة الَّتي تحملُ المشاقَّ والمتاعبَ، فأوجَبَ اللّه ذلك على نفسِهِ تفضُّلًا وتكرُّمًا لا إلزامًا حتميًّا؛ لأنَّ اللّه لا يجبُ عليه شيءٌ، إضافةً إلى أنَّ مِن دلالات الحرف (على) التَّمكُّنَ، وفي هذا إشارةٌ إلى ضرورةِ أنْ يتمكَّنَ الإيمان من قلب المؤمن ويترسَّخَ فيه، بحيث لا يَرى أحدًا يُتوكَّلُ عليه إلّا اللّه.

دلالةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾:

قصرُ التَّوكُّل على الله ﷻ

في تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن لا يعتمد إلّا عليه، ولا يتقوّى إلّا به؛ لِما أنَّه يعتقد أنَّ القادر بالحقيقة ليس إلّا هو، وفي هذا حثٌّ لرسول اللّه ﷺ على التَّوكُّل عليه والتَّقوّي به في أمره حتّى ينصرَهُ على مَن كذَّبه وتولّى عنه[2]، ويدلُّ على إفادةِ الاختصاص؛ أي: أنَّ المؤمنين لا يتوكَّلون إلّا على اللّه[3]، وفيه تعظيمٌ لمن يُتوكَّلُ عليه، على سبيل الاستقلال لا الاشتراك.

نكتةُ إظهارِ لفظ الجلالة في موضع إضماره:

تربيةُ المهابة في النُّفوس

جاءَ التَّعبير بإظهارِ اسم الجلالة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 555.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دون إضماره؛ لتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتسيرَ مَسرى المَثَلِ[1]، وفيه إدخالٌ للمهابة في النَّفس بذكرِ الاسم الأعظم الَّذي يُتوكَّلُ عليه بحقٍّ، ويضافُ إلى ذلك التَّبرُّكُ باسمه والتَّلذُّذُ بذكره؛ لكونِ القلوب تُؤَلِّهُهُ وتتعلَّقُ به وتطمئنُّ إلى ذكره، وقلوبُ المؤمنين أشدُّ اطمئنانًا لذكره، فهو أدعى إلى التَّثبُّتِ واليقين بأهمّيَّةِ التَّوكُّل عليه، ويضافُ إلى ما سبقَ أنَّ الإظهارَ هنا لتعليلِ طلب التَّوكُّل؛ لأنَّ الألوهيَّة من موجبات التَّوكُّل عليه[2].

دلالةُ الأمرِ بالتَّوكُّل دون غيره:

اللهُ وحدَهُ له الخلقُ والأمر

في دلالةِ الأمر بالتَّوكُّل أغراضٌ:

الأوَّلُ: أنَّ إيمانهم بأنَّ الكلَّ منه سبحانه يقتضي ذلك[3].

الثّاني: علمُهم أنْ لا مُؤثِّرَ في الكون غيرُه. وفيه حثٌّ لرسول اللّه والمؤمنين على الصَّبر لِما يصيبُهم مِن أذى الكفّار[4].

الثّالث: اللّه هو النّافع الضّارُّ وحده، والمؤمنون يؤمنون بأنْ لا إله إلّا هو[5].

الرّابع: تسليةُ المؤمنين والرَّبطُ على قلوبهم تثبيتًا لهم؛ لكيلا يأسفوا على إعراض المشركين؛ لأنَّ اللّه أمَرَهم أنْ لا يتوكلوا إلّا عليه، وفيه إيذانٌ بأنَّ المؤمنين لا يخالفون أمرَ اللّه، وذلك يَغيظُ الكافرين[6].

علّةُ حذفِ مُتعلَّقِ التَّوكُّل:

إفادةُ العموم والشُّمول في كلِّ مقامات التَّوكُّل

جاء الفعلُ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ من دون مُتعلَّقٍ لبيان العموم والشُّمول، والمعنى: توكَّلوا عليه في كلِّ أمرٍ من أموركم صغيرًا كان أو كبيرًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 2/ 79.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 218.
(4) شهاب الدين الكوراني، غاية الأماني، ص: 175.
(5) الإيجي، تفسير الإيجي: 4/ 321.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.

سهلًا كان أو صعبًا، ظاهرًا كان أو خفيًّا؛ لأنَّه المُتفرِّدُ بالجلال والعظمة، وتكرَّمَ بقضاءِ حوائجِ العباد المتوكِّلين عليه حقَّ التَّوكُّل.

سرُّ التَّعبيرِ بوصف الإيمان دون غيره:

تشريفُ المتوكِّلين عليه مع بيان سرِّ التَّوكُّل

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بوصف الإيمان دون غيره من باب تشريف المتوكِّلين على الله بوصف الإيمان، ولأنَّه سرُّ طلب التَّوكُّل عليه، بدليل قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾؛ فالإيمانُ هو الوصفُ المقتضي ذلك؛ لأنَّ مَن آمن وكان عريقًا في إيمانه فلن يتوكَّلَ إلّا عليه.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بوصف الإيمانِ أنَّ عطاءاتِ اللّه لعباده مترتِّبةٌ على الإيمان، مثلَ الأرزاق والنَّصر والفتح والتَّوكُّل ونحوِ ذلك.

دلالةُ الإظهار في موقع الإضمار في لفظةِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

عمومُ الخطاب لكلِّ المؤمنين

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ إظهارَ لفظةِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقل: وعلى اللّه فليتوكَّلوا؛ لإفادةِ عموم حكم التَّوكُّلِ بمَن خوطبوا بهذه الآية وغيرهم في كلِّ زمانٍ ومكان، ولِما فيه من معنى التَّفخيم لهؤلاء المؤمنين المتوكِّلين على اللّه؛ لأنَّ التَّعبير القرآنيَّ لو أتى بالضَّمير في موضع الإظهار لَما أثبَتَ لهم صفةَ الإيمان، فكان الإظهارُ أولى من مقام الإضمار؛ لأنَّ الإيمان يتطلَّبُ تجدُّدَ التَّوكُّلِ على اللّه والاستمرارَ عليه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

بينَ الإيمان والتَّصديق فروقٌ مِن أوجُهٍ

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ بينَهما فرقًا من جهة التَّعدّي، وهو فرقٌ في اللَّفظ، وذلك أنَّه يقال للمخبر: صدَّقَه، ولا يُقال: آمَنَه، بل: آمَنَ به أو آمَنَ له. كما قال تعالى: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: 26]، وقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: 83]، وقال على لسانِ

فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الشُّعراء: 49] إلى غيرها مِن الآيات. فالصِّدقُ يتعدّى بنفسه بخلاف الإيمان، فلا يقال: آمنتُهُ، إلّا مِن الأمان الَّذي هو ضدُّ الإخافة.

الوجهُ الثّاني: أن لفظَ الإيمانِ ليس مُرادفًا لِلَفظِ التَّصديق في المعنى؛ فإنَّ كلَّ مُخبر عن مشاهدةٍ أو غيبٍ يقال له في اللُّغة: صدقتَ، كما يقال: كذبتَ، وأمّا لفظُ الإيمان فلا يُستعملُ إلّا في الخبر عن غائبٍ، وذلك أنَّه مشتقٌّ من الأمن، فيستعمل في خبرٍ يُؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب، ولهذا لم يردْ قطٌّ في القرآن وغيره لفظُ (آمَنَ له) إلّا في هذا النَّوع.

الوجهُ الثّالثُ: أنَّ لفظ الإيمان في اللُّغة لم يُقابَلْ بالتَّكذيب كلفظِ التَّصديق، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظُ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختصُّ بالتَّكذيب، بل لو قال: أنا أعلمُ أنَّك صادقٌ لكنْ لا أتَّبِعُك، بل أُعاديكَ وأُبْغِضُك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفرُه أعظمَ، فلمّا كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التَّكذيبَ فقط عُلم أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديقَ فقط.

الوجهُ الرّابعُ: أنَّ الإيمانَ في اللُّغة مشتقٌّ من الأمن الَّذي هو ضدُّ الخوف، فهو مُتضمِّنٌ مع التَّصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدلُّ عليه الاستعمالُ والاشتقاق، أمّا التَّصديق فلا يتضمَّنُ شيئًا من ذلك(1).

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 7/ 290.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾

[التَّغابن: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا أمر اللّه بطاعته وطاعة رسوله فيما سبق، وبيَّن سبحانه أنَّه المستحقُّ للطّاعة بوحدانيَّته بيَّن في هذه الآية مُعوِّقاتِ هذه الطّاعةِ وحذَّرَ منها، وذلك بقوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ بعض الأزواج والأولاد يُعيقون أمرَ الطّاعة ويُثبِّطون عنها، وذلك للانشغال بأمورهم.

ومن المناسبةِ أيضًا: أنَّه لمّا كانت الأوامر في القرآن تارةً تكون باعتبار الأمر الدّينيِّ كسائر الطّاعات المحضة، وتارةً باعتبار الأمر التَّكوينيِّ، وهو ما كان بواسطة مالٍ أو ولد أو أهل أتمَّ سبحانه القسمَ الأوَّلَ في الآيتين الماضيتين، ثمَّ شرع في هذه الآيةِ بذكر الأمر الثّاني؛ لأنَّه قد ينشأ عنه فتنة في الدّين أو في الدُّنيا؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾: (حذر) أصلٌ واحد، وهو من التَّحرُّزِ والتَّيقُّظ. يقال: حذِرَ يحذَرُ حَذَرًا، ورجلٌ حَذِرٌ وحَذورٌ: متيقِّظٌ مُتحرِّزٌ[1]، والحِذْر والحَذَرُ: الاحتراز من المُخيف[2]، والمعنى المحوريُّ: توتُّرُ أثناءِ الشَّيء؛ أي: اشتدادُها وتداخلُ بعضها في بعضٍ مع غِلَظةِ ظاهرِه[3].

2) ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾: (غفر) تدلُّ على السَّتر، يقال: غفر اللّه ذنبه غَفرًا ومغفرةً وغُفرانًا[4]، والغَفْرُ: إلباسُ ما يصونه عن الدّنس، والغُفرانُ والمغفرةُ من اللّه هو أن يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّهُ العذاب. قال تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 285][5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حذر).
(2) ابن سيده، المحكم: (حذر).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (حذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(5) الراغب، المفردات: (غفر).

المَعنى الإجْماليُّ:

التَّحذيرُ من فتنة الأزواج والأولاد والأموال

في الآيةِ الكريمة نداءٌ من اللّه لعباده المؤمنين بأن يأخذوا حذرَهم من بعض أزواجهم وأولادهم؛ حيث يفعلون معهم فعلَ العدوِّ؛ لأنَّهم يكونون حجرَ عثرةٍ في سبيل لحاقهم بالجهاد والدِّفاع عن دين اللّه، وهنا يطلبُ القرآن منهم أن يحذروهم، وأن يقوا أنفسَهم من شرورهم وآثامهم، ومع ذلك فهم من أهلك وذوي قرابتك؛ فإنْ كان منكم بادرةُ أذًى نحوهم لموقفهم السَّلبيِّ فاتركوا الأذى والعقاب، واعفوا عنهم واغفروا ما كان منهم، فإنْ عفوتم وغفرتم فلكم المغفرة من اللّه ﷻ؛ لأنَّه عظيمُ المغفرة والرَّحمة بعباده.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ ابتداءِ الآية بالنِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

التَّلطُّفُ مع التَّنبيه والتَّحذير

ابتُدِئت الآيةُ بالنِّداء الدَّالِّ على الإقبال في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من باب التَّلطُّف بالمؤمنين، وللإشعارِ بأنَّ النِّداءَ وما بعده ليس على سبيلِ الزَّجرِ والتَّوبيخ، وإنَّما على سبيل التَّودُّدِ والتَّحبُّبِ بقصدِ التَّوطئةِ للجملة الخبريَّة الَّتي ستأتي بعد النِّداء، فهو خطابٌ "يفيدُهم كمالًا ويُجنِّبُهم ما يفتنُهم"[(1)]، وفيه إشعارٌ بخبرٍ مهمٍّ عظيم؛ لأنَّ شأن الأخبار العظيمة أنْ يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النَّفسَ لقبولِها؛ لتستأنسَ به قبل أن يَفجَأها[(2)]، وعليه فالنِّداءُ هنا دالٌّ على التَّنبيهِ وضرورةِ الاستعداد لِما بعده، وفيه إغاظةٌ للأولاد والأزواج الكافرين الَّذين يعادون آباءَهم المؤمنين لإيمانهم، ويؤذونهم بسببه[(3)]، وقد يكونُ النِّداء تحذيرًا من اللّه للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإنَّ بعضَهم عدوٌّ لكم[(4)]؛ فكان التَّحذيرُ لإثارة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 282.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 51، 52.

(3) القاسمي، تفسير القاسمي: 9/ 246.

(4) السعدي، تفسير السعدي، ص: 868.

اليقظة في قلوب الَّذين آمنوا، والحذرِ من تسلُّل المشاعرِ الدّاعية للخوف والإدبارِ عن نُصرة الدَّعوة[1].

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (المؤمنون):

عـلـوُّ شـأنِ المؤمنين وبيانُ كرامتهم

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون الاسم الظّاهر (المؤمنون) له فائدتان:

الأولى: مناسبتُه لِما قبله في الآية الكريمة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فكأنَّ اللّه في هذه الآية يقول: أنتم المؤمنون المَعْنيّون بالوصف في الآية السّابقة.

الثّانية: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصولٌ خاصٌّ، يختصُّ بالجمع العاقل[2]، فالاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصٌّ في المراد، وكونُهُ مختصًّا من شأنه أن يكونَ معهودًا لدى السّامع، ممّا يدلُّ على علوِّ الشَّأن[3].

وفي التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (المؤمنون) دليلٌ على أنَّ الصِّلة سببُ الحكم؛ فالإيمانُ هو الدّاعي إلى تحذيرهم من طاعة الكفّار، وتركُ طاعة الكفّار من مقتضَيات الإيمان، وفيه دعوةٌ لكلِّ مَن تلبَّسَ بالإيمان - بدلالة الفعل على الحدوث - أنْ يأخذَ حذرَهُ ممّا يفتنُه عن دينه سواء كان من الأموال أو الأولاد أو الأزواج[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

ثـبـاتُ الإيـمـان فـي نفوسهم، وظـهـورُه في سلوكهم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل الماضى ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على ثبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظهوره في سلوكهم وطبائِعهم، فجملةُ الصِّلةُ أفادت المدح والتَّقريظ، "فإتيانُ الفعل الماضي قُصد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 283.
(2) ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص: 101.
(3) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، ص: 34.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/ 1236.

به الالتباسُ والاستصحاب"[1]، ولأنَّ الاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمانٍ ماضٍ محدَّد، على خلافِ اسم الفاعل الَّذي لا يدلُّ على زمان محدَّد؛ لذلك آثر التَّعبيرَ بالفعل ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (أسلموا):

الإيمانُ يشملُ الإسلامَ، ولا عكسَ

آثرَ القرآنُ التَّعبير بقوله: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (أسلموا) لمناسبته لِما قبلَها ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولو جاء التَّعبير بالفعل الماضي (أسلموا) لربَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ الَّذين آمنوا قومٌ غيرُ الَّذين وُصِفوا بالإيمان، ولأنَّ الإيمان تنزيهُ اللّٰه عن الشِّرك وتوحيده في العظمة[2]، كما أنَّ الإيمان صفةُ القلب؛ أي: آمَنوا بقلوبهم[3]، وهذا مناسبٌ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وهذا التَّعبير من خصائص الأسلوب القرآنيِّ، فلم يأتِ في القرآن نداءُ المسلمين بقوله: (يأيُّها الَّذين أسلموا)، فكان النِّداء بالإيمان لا الإسلام؛ لِما يحملُه من معنى التَّصديق والاعتقاد.

نكتةُ حذف متعلَّق الإيمان:

بيانُ عمومِ الإيمان وشموله

حُذف متعلَّق الفعل ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لإفادة العموم والشُّمول، فالإيمانُ باللّٰه يقتضي الإيمانَ بكلِّ ما أُنزِلَ مِن كتبٍ وأُرسِلَ مِن رسلٍ، ويقتضي الإيمانَ بالملائكة، ويقتضي التَّسليم التّامَّ لكلِّ ما أنزله واللّٰه وشرعه من أحكام، فكان الحذفُ هو المحقِّقَ لهذه الغايات، ويضاف إلى ذلك أنَّ الحذف قُصد به الاختصارُ؛ لقيام القرائن الدّالَّة على الحذف، ولحثِّ المنادى عليه، بأنْ يكونَ سلوكه كلُّه متعلِّقًا بمتطلَّبات الإيمان من خشوعٍ وطاعة واستجابة للّٰه ورسوله، فكان التَّركيزُ على الفعل دون متعلَّقه.

---

(1) محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم - القسم الثالث الجزء الأول، ص: 187.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 118.

(3) السابق: 12/ 461.

دلالةُ تعدُّدِ المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾:

تمكينُ المعنى واستحضارُ الاهتمام بالخبر

تعدَّدتِ المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ الآيةَ من خلال ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملة؛ للدَّلالة على أغراضٍ لفظيَّة ومعنويَّة، كتمكينِ المعنى في نفس المتلقّي وإزالةِ الشَّكِّ من نفسه؛ فربَّما شكَّ شاكٌّ في هذا الأمر، فجاء بالمؤكِّدات المتواليةِ لتثبيتِه، كما أنَّ في التَّوكيدِ اختصارًا للكلام، فذِكرُ ﴿إِنَّ﴾ أغنى عن تكرار الجملة مرَّتين أو أكثر[1]، والتَّوكيدُ يدلُّ على ضرورة الاهتمام بالخبر المتلوّ بعدَ أداة التَّوكيد، نظرًا لخطورتِهِ في كيفيَّة التَّعامل مع الأزواج والأولاد، يضاف إلى ذلك غرضٌ رابع؛ هو أنَّ التَّوكيد جعَلَ الآيةَ عامَّةً في كلِّ معصيةٍ يرتكبها الإنسانُ بسبب الأهل والولد، وخصوصُ السَّبب لا يمنعُ عمومَ الحكم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾:

الاحتراسُ في الحكم

دلَّت ﴿مِنۡ﴾ في الآية الكريمة على التَّبعيض، وعلامة التَّبعيض وضعُ لفظةِ (بعض) مكانَها مع استقامة المعنى، وهذا واضحٌ في هذا السّياق؛ فالمعنى: فإذا كان بعضُ أبنائكم وأزواجكم عدوًّا لكم؛ لما يفعلونه في سبيل إخافتكم فإنَّ ثَمَّ أزواجًا وأبناءً أصدقاءَ لكم يطيعونكم ولا يعصونكم، فدلَّ التَّبعيض على عراقة الإنصاف في ألفاظ القرآن وحروفه.

وممّا يُذكر في سبب دلالة ﴿مِنۡ﴾ على التَّبعيض أنَّها جاءت لبيان الواقع وقتَ نزول هذه الآية؛ فقد كان أكثرُ أولاد المؤمنين عند نزول هذه الآية مشركين، فكانوا أعداءً للمسلمين[3]، وقد يقال: إنَّ ﴿مِنۡ﴾ ههنا بيانيَّةٌ، وهذا لا وجهَ له؛ لأنَّه يترتَّبُ عليه معانٍ سيِّئةٌ في بنيان

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 402.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 140.
(3) الشيخ رشيد رضا، تفسير المنار: 10/ 116.

المجتمع، فيحلُّ الإزعاج مكانَ الطُّمأنينة؛ وينظرُ كلُّ والد إلى أولاده بعين الارتياب، وكلُّ زوج إلى زوجته بعين التَّوجُّس والرّيبة، وعلى هذا فالقولُ بالتَّبعيض هو الملائم لا القولُ بالبيانيَّة.

نكتةُ تقديم عداوةِ الأزواج على الأولاد:

العـــداوةُ في الأزواج أكثر

قُدِّمت عداوةُ الأزواج على الأولاد في قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾؛ لأنَّ القرآن يقدِّم الكثير على ما دونه، ولمّا كانت العداوةُ في الأزواج أكثرَ منها في الأولاد[1] قدَّمَ الأزواج على الأولاد، ولمراعاةِ التَّرتيب الزَّمني، فالأزواجُ قبل الأولاد، فإنَّنا نجد أنَّ العداوة تأتي من الأزواج قبلَ الأولاد، ونعلم أنَّ الزَّوجة في بعض الأحيان هي الَّتي تكرهُ أوَّلًا ثم يتأثَّرُ بكراهيتها ويتشبَّهُ بها الأبناء، وهذا منطقٌ صحيح؛ لأنَّ الَّذي يتكلَّم هو ربٌّ حكيم[2]. فكان ذكر الأزواج أقعدَ في المعنى المراد، فقُدِّم[3]. ويضاف إلى ما سبق أنَّ عداوة الأزواج قد تُفضي إلى الفراق والطَّلاق فتصبح زوجتُه أجنبيَّةً عنه، أمّا عداوة الأبناء فقُصارُها القسوةُ والشِّدَّةُ لا الفراق، فقُدِّم ما هو أشدُّ على ما هو شديدٌ.

دلالةُ إضافةِ الأزواج والأولاد إلى ضمير المخاطب:

التَّخصيص وشمول الجنسين مع الدَّعوة إلى العفو والتَّسامح

دلَّت إضافة الأزواج والأولاد إلى ضمير المخاطب على التَّخصيص، فلو قيل: إنَّ من الأزواج والأولاد عدوًّا لَما اختصَّ الخبر بهم، بل كان على العموم، وفي تعيينِ ضمير المخاطب تمهيدٌ للتَّخصيص في ﴿لَّكُمۡ﴾، فلو كان التَّعبير من دون ضمير المخاطب لَدلَّ على أنَّ من أزواجِ وأولاد الآخرين عدوًّا لكم، وهذا معنًى فاسدٌ لا يصلح، ولكان معنى ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ غيرَ ملائم لِما قبله.

(1) محمد أبو موسى، الإعجاز القرآني، ص: 435.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/ 4671.
(3) السيوطي، معترك الأقران: 1/ 135.

وممّا يُذكر في دلالة الإضافة وجودُ إلماحةِ تربويَّةٍ أُسَريَّة، وهي استحباب العفو والصَّفح إنْ أخطأ أبناؤكم وأزواجكم؛ لأنَّهم في نهايةِ المطاف منكم، وأنتم بهم، وهذا يؤدّي إلى ضرورة تماسُك الأسرة وعدم قطع أواصرِ المودَّة والمحبَّة.

ومن بلاغةِ تركيب الإضافة بيانُ شمول الحكم للجنسين، فكما أنَّ الرَّجل يكون ولده وزوجه عدوًّا له كذلك المرأة يكونُ زوجها وولدها عدوًّا لها، يؤكِّدُ هذا أنَّ عموم قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ يدخلُ فيه الذَّكر والأنثى؛ لدخولِهما في كلِّ آية[1].

دلالةُ تقديم شبه الجملة:

الاهـتـمـامُ بـالـمـتـقـدِّم والتَّنصيصُ على خطورته

قُدِّم شبهُ الجملة - وموقعُه الإعرابيُّ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ - على اسمها؛ للاهتمام بهذا الخبر، ولِما فيه من تشويق إلى الاسم؛ ليتمكَّنَ مضمون هذا الخبر في الذِّهن أتمَّ تمكُّن؛ لِما فيه مِن الغرابة والأهمّيَّة"[2]، وفي التَّقديم كذلك إلماحةٌ في دلالة ﴿مِنْ﴾ على التَّبعيض، ذلك أنَّ التَّعبير القرآنيَّ لو جاء: (إنَّ عدوًّا لكم من أزواجكم وأولادكم) لفاتَ معنى التَّبعيض، وأشكلَ المعنى، فيكون كلُّ الأزواج والأولاد عدوًّا، وهذا ليس مرادَ النَّصِّ، ففي تقديم شبه الجملة نصٌّ على تبعيضيَّة ﴿مِنْ﴾، فيكون المعنى: "إنَّ بعضهم كذلك، فمن الأزواج أزواج يُعادين بعولتَهنَّ ويخاصمْنَهم ويجلبْنَ عليهم، ومن الأولاد أولادٌ يعادون آباءهم ويعقّونهم ويجرِّعونهم الغصصَ والأذى"[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى الإنصاف وتبيينِ الواقع، ودعوةٌ إلى معرفة سبب النزول.

نكتةُ تنكير ﴿عَدُوًّا﴾ مع إفرادها:

التَّقليل وعدمُ اسـتـشـراء الظَّاهرة

وقعتْ لفظةُ ﴿عَدُوًّا﴾ مفردةً منكَّرة؛ لبيان التَّقليل، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك ليس بكثير في المجتمع الإسلاميِّ، وإن كان

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 140.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 284.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 321.

موجودًا، لكنَّه لا يرتقي إلى مرحلةِ كونِه ظاهرةً، لكن ينبغي التَّحذيرُ منه كي لا يستشريَ ويتمدَّد؛ لذلك لم يأتِ التَّعبير بالجمع (أعداء)؛ لأنَّه يختلف عن المفرد؛ فلا يُرادُ به إلّا الجمع الَّذي يدلُّ على الكثرة في تعدُّد صور العداوة؛ بخلاف الإفراد، فإنَّه يدلُّ على الاتِّفاق في العداوةِ ووحدةِ الهدف فيها.

الحقيقةُ والمجاز في لفظةِ ﴿عَدُوًّا﴾:

العـداوةُ بين خباثة النَّفس وسوء التَّفكير

الإخبارُ عن بعض الأزواج والأولاد بأنَّهم عدوٌّ يحتملُ الحقيقةَ والمجاز، فيجوز أن يُحملَ على الحقيقة؛ فإنَّ بعضهم قد يُضمر عداوةً لزوجه، وبعضُهم لأبويه من جرّاء المعاملة بما لا يَروقُ عنده مع خباثةٍ في النَّفس وسوءِ تفكيرٍ، فيصيرُ عدوًّا لَمن حقُّه أن يكون له صديقًا، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدّين ومن الانتماء إلى الأعداء، هذا على الحقيقة. ويجوز أن يكون على معنى التَّشبيه البليغ؛ أي: كالعدوِّ في المعاملةِ بما هو مِن شأن معاملةِ الأعداء، كما قيل في المَثَل: (يفعلُ الجاهلُ بنفسه ما يفعلُ العدوُّ لعدوِّه). وهذا من استعمال اللَّفظ في حقيقتِه ومجازِه[1].

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَّكُمۡ﴾:

عـداوةُ الأزواج والأبنـاء على الخصـوص لا العموم

دلَّت اللّام في قوله: ﴿لَّكُمۡ﴾ على معنى التَّخصيص لا على العموم؛ لأنَّ هذه الظّاهرةَ ليست شأنًا عامًّا في المجتمع المسلم، بل سلوكٌ خاصٌّ كما فسَّرَهُ سببُ نزول الآية أنَّ بعضَ الأزواج والأولاد كانوا داعين للآباء على الكسلِ والتَّخلُّفِ عن الجهاد، ويجوزُ أن يكون معنى اللّام الاستحقاقَ، والمراد استحقاقُ الآباء المتقاعسين عن اللَّحاق برَكْبِ الجهاد عداوةَ الأبناء؛ لضعفِ العزيمة وقلَّة الإرادة، فكأنَّ مَن يتخلَّفُ عن الجهادِ يستحقُّ عداوةَ الأزواج والأبناء؛ ففي اللّام إذن اتِّساعٌ في دلالة الموقف، فالآباءُ مقصِّرون؛ لأنَّهم ضعُفوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 284.

واستكانوا واستجابوا لوسوسة الأزواج والأبناء، وكذا الأبناءُ لديهم قصورٌ؛ لأنَّهم سببٌ في التَّقاعس.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾:

وقوعُ العداوة من الأبناء للآباء خروجٌ عن الأصل

الفاءُ في هذا السّياق هي الفصيحةُ، وهي الَّتي تُفصح عن شرطٍ مقدَّرٍ؛ أي: إنْ عرفتُم ذلك فاحذروهم[1]؛ لأنَّ الأصل عدمُ وقوع العداوة، لذلك يستغربُ البعض مثلَ هذا الأمرِ؛ فكأنَّ الفاء أفصحت عن وجود ذلك، وأشارت إلى أنَّ كثيرًا من النّاس يجهلُ هذه الحقيقة، فإنْ ظهر لكم أمرُ العداوة فاحذروهم، ويجوز أن يكونَ معناها السَّببيَّةَ؛ لأنَّ عداوتهم سببٌ للأمرِ بالحذر[2].

سرُّ الحذرِ مِن الجميع لا البعضِ في قوله: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾:

بيانُ الحذر من مجموع الفريقين؛ لاشتمالهم على العداوة

الأصلُ أنْ يكون الحذرُ من بعضهم لا كلِّهم، على اعتبار أنَّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ لكنْ جاء التَّعبير بصيغة الجمع ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، وذلك من باب الإشارة إلى زيادة التَّحذير والخوف من كلِّ أحد؛ يؤكِّدُ هذا عبارةُ الشَّوكانيِّ: "والضَّميرُ في ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ يعودُ إلى العدوِّ، أو إلى الأزواج والأولاد، لكنْ لا على العموم، بل إلى المتَّصفين بالعداوة منهم"[3]، ففي الآيةِ مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الكلِّيَّةِ عندما ذكرَ الكلَّ وأرادَ الجزء بقرينةِ ﴿مِنۡ﴾ التَّبعيضيَّة.

ويجوزُ أن يقالَ توجيهًا لهذا العموم: إنَّ الحذر نوعان: الحذرُ عن البعض؛ لأنَّ منهم مَن ليس بعدوٍّ، والحذرُ عن مجموع الفريقين؛ لاشتمالهم على العدوِّ[4].

(1) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 114.
(2) القونوي، حاشية القونوي: 19/ 120.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 284.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 321.

سرُّ التَّعبير بالحذرِ دون غيره في قوله: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾:

الاحتراز من الشَّيء قبل حصوله

آثرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالحذر دون غيره؛ لأنَّ الحذر يحمل معنى الاحتراز من شيء مخيف لم يقع بعدُ؛ فهو أمر غيرُ متحقِّق وقوعُه بعدُ، وهذا واضحٌ في عداوة الأزواج والأولاد؛ فالأصلُ ألّا تقع هذه العداوة، لكن قد يعتري هذه العلاقةَ ما يوجب الحذر من دعوة الأبناء والزَّوجات إلى ما يؤدّي إلى التَّقصير في حسن علاقةِ العبد بربِّه، كما تروي كتب التَّفسير في سبب نزول هذه الآية؛ من منع بعض الأولاد لآبائهم من اللَّحاق بالجهاد أو الذَّهاب إلى المدينة للَّحاقِ بالرَّسول ﷺ، وهذا من باب التَّثبيط عن كمال الطّاعة، ولا يفعلُ ذلك إلّا الشَّيطانُ؛ لعداوته للإنسان؛ ففعلُهم هذا كفعلِ العدوِّ.

دلالةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾:

الحذرُ شاملٌ لأمورِ الدُّنيا والدّين

دلَّ حذفُ متعلَّق ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ على العموم؛ لأنَّ الحذرَ يكون من ضررٍ في البدن، ومن ضررٍ في الدّين، وضررُ البدن يتعلَّق بالدُّنيا، وضرر الدّين يتعلَّق بالآخرة، فحذَّرَ اللّه سبحانه العبدَ من ذلك وأنذرَهُ به[1]، فكان الحذفُ شاملًا لأمرَي الدُّنيا والآخرة.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾:

عدمُ المؤاخذةِ على الظَّنِّ أجدرُ بالطَّلب

في العطفِ دلالةٌ على الاحتراس؛ لأنَّه إذا كان العفوُ مطلوبًا محبوبًا إلى اللّه تعالى - وهو لا يكونُ إلّا بعد حصول الذَّنب - فإنَّ عدم المؤاخذة على مجرَّد ظنِّ العداوة أجدرُ بالطَّلب؛ ففُهم النَّهيُ عن معاملة الأزواج والأبناء معاملةَ الأعداء لأجل إيجاس العداوة، بل المقصودُ مِن التَّحذير التَّوقّي وأخذُ الحيطة لابتداء المؤاخذة[2].

نكتةُ الشَّرط بـ(إنْ) دون (إذا):

قلَّةُ الوقوع مع الدَّعوة إلى ضرورة العفو

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ(إنْ) دون (إذا)؛ للدَّلالة على قلَّة وقوع الحدث في

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 140.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 284.

المجتمع الإسلاميِّ، وللتَّحريض والإقدام على ضرورة العفو والصَّفح والغفران بدلَ العقوبة والمؤاخذة.

دلالةُ التَّعبير بالأفعال المضارعة المتتابعة:

بيانُ تجدُّدِ العفو والصَّفح والمغفرة في مقابلةِ تجدُّدِ العداوة من الأزواج والأولاد

جاءَ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على التَّجدُّدِ والاستمرار واستحضار قيَمِ الصَّفح عن الأزواج والأولاد، وإظهارِ رحابةِ هذه القيَمِ وبابِها المتَّسع، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالمضارع فيه دلالةٌ على تجدُّد هذه الأفعال في كلِّ الأوقات؛ مُقابَلَةً لتجدُّدِ وقوع العداوة من الأزواج والأولاد.

دلالةُ تكرارِ هذه الأفعال مع قُربها في المعنى:

الدَّعوة إلى تحقيقها باختلاف مستوياتها؛ سعيًا إلى إصلاح الأسرة المسلمة

كرَّرَ العفوَ والصفح والمغفرة مع قربها في المعنى؛ للزِّيادة في تحسين عفوِ الوالد عن ولده والزوج عن زوجته، والدَّعوةِ إلى تحقيق ذلك مع الاختلاف في مستويات العفوِ والصَّفح؛ لذلك كان التَّعبير بهذه الأفعال مع ما فيها من اشتراكٍ في المعنى العامِّ لتحقيقِ الغرض المقصود من إصلاح العلاقة الأسريَّة، وهو موضعٌ يكونُ التَّكرير للمعنى المراد وإن اختلفت ألفاظُه أولى بالاستعمال[1]؛ لرَأْبِ الصَّدعِ ونَزْعِ الوساوس من الأسرة.

دلالةُ التَّرتيب في قوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾:

دلالةُ الأفعال على المَحْوِ ثمَّ تركِ التَّثريب مع الإخفاءِ التَّامِّ للخطأ

دلَّ التَّرتيبُ في الآية على التَّرقّي في الأمر بمكارم الأخلاق من الحَسَن إلى الأحسن، ومن الفضل إلى الأفضل[2]؛ لأنَّ العفوَ محوُ ذنبٍ، ويكتمل المحوُ بتركِ التَّثريب والمؤاخذة، ويزدادُ الأمرُ صفحًا بإخفاء كلِّ سبيلٍ إلى المؤاخذة.

سرُّ تأخيرِ المغفرة عن العفو والصَّفح:

مراعاةُ المُجاورة

جاء تأخير المغفرة عن العفو والصَّفح في قوله تعالى: ﴿وَإِن

(1) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 162.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 362.

﴿تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ لمناسبةِ ما بعده، ولأنَّه تمهيدٌ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، ولأنَّ المغفرة صيانةٌ للعبد عمّا استحقَّه من العقاب للتَّجاوز عن ذنوبه، من الغَفر، وهو إلباسُ الشَّيءِ ما يَصونُه من الدَّنس[1].

علَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الأفعال الثَّلاثة:

دلالـةُ السّياق مع إرادةِ عموم الـتَّرغـيـب في العفو

حُذف متعلَّقُ الأفعال الثَّلاثة في الآية؛ لدلالةِ السّياق على المعنى المراد، وهو: ﴿تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ عمّا صدر من أولادكم وأزواجكم ممّا يؤذيكم، ولإرادةِ عموم التَّرغيب في العفو[2]؛ بمعنى أنْ تصيرَ هذه الأخلاق طبيعةً ساريةً في أخلاق المسلم، فيُعرفَ بها لا بغيرها، فكان حذفُ المتعلَّقِ دالًّا على ذلك، ولإحداثِ التَّناسب بين الأفعال بحذف المتعلَّق في الجميع.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

الـتَّرغـيـبُ في العفوِ والصَّفح والغفران

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّةٌ تعليليَّة؛ لأنَّ جملة الجواب محذوفة، والتَّقدير: يعاملْكم بمثلِ ما عاملتم به؛ لأنَّه غفور رحيم، وفي ذلك حثٌّ على هذه الأفعال؛ سعيًا إلى تعزيزِ روابط الأسرة المسلمة.

دلالةُ حذفِ جواب الشَّرط:

الـحـثُّ عليه؛ لـعـلـمِـه مِـن السّياق

حُذف جواب الشَّرط لقوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾؛ للتَّرغيب في العفو والصَّفح والغفر، فالتَّقدير: وإنْ تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحبَّ اللّٰه ذلك منكم؛ لأنَّ اللّٰه غفورٌ رحيم؛ أي: للَّذين يغفرون ويرحمون[3].

دلالةُ التَّأكيد في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

الـدَّعـوةُ إلى التَّخلُّق بما حثَّ الله عليه

أُكِّدت هذه الجملةُ بحرف التَّأكيد (إنَّ) مع اسميَّة الجملة؛

---

(1) الراغب، المفردات: (غفر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 285.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 285.

للدَّعوة إلى التَّخلُّق بهذه الخصال في إصلاح العلاقة الأسريَّة، ولبيان أهمّيَّة الاستمساك بهذه الخصال؛ كي تكونَ خلقًا دائمًا وطبيعةً مستقرَّة.

نكتةُ تذييلِ الآية بقوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

ذُيِّلت الآية الكريمة بوصفين جليلين للّه ﷻ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفي التَّذييل نكاتٌ:

الامـتـنـانُ مع الـتَّرغـيـب والـدَّعـوة لنشرِ ثقافة العفو

الأولى: قصدُ الامتنان على المؤمنين عامَّةً لا المخالفين فقط بالغفران والرَّحمة.

الثّانيةُ: التَّرغيب في العفو والغفران بدلالةِ صيغ المبالغة (فعول وفعيل)، والصّيغتان دالَّتان على الكثرة مع التَّكرار، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ العباد سيتكرَّرُ منهم الخطأ، ومغفرة اللّه ورحمته تمحو ذلك.

الثّالثةُ: في اللَّفظتين دعوةٌ صريحة إلى نشر ثقافة العفو والغفران.

دلالةُ تقديم لفظةِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

مراعاةُ الجناس الاشتقاقيِّ

في تقديمِ الغفور على الرَّحيم مناسبةٌ بين ألفاظ الجناس الاشتقاقيِّ: ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾، ﴿غَفُورٌ﴾، فاللَّفظتان متتابعتان متناسبتان، ولأنَّ المغفرةَ تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليةٌ، والتَّخلية مقدَّمة على التَّحلية.

سرُّ التَّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

زرعُ المهابـة والخشية

جاء التَّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الإضمار؛ فلم يقل: (فإنَّه)؛ لإدخالِ المهابة والخشية في النَّفس، ولأنَّ المغفرة تعني ستر الذُّنوب، ولا يتأتّى ذلك إلّا مِن القادر الَّذي يجمع صفاتِ الجمال والجلال.

الفرقُ بين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و(الغفورُ الرَّحيم):

الـتَّـنـكيرُ حديثٌ عـن مـخـالـفـات البشر، والتَّعريف فـي الـتَّـوحـيـد والتَّعظيم

النّاظر في سياق أسلوب القرآن يجدُ اقتران المغفرة بالرَّحمة تارةً منكَّرة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتارةً معرَّفة (الغفور الرَّحيم)، وكلٌّ منهما له دلالة؛ فإذا كان الحديثُ عن مخالفات البشر ومعصيتهم

أتى الأسلوب بالتَّنكير ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غالبًا؛ أمّا إذا كان عن توحيد اللّه ﷻ وإثبات صفاته فإنَّه غالبًا ما يأتي معرَّفًا (الغفور الرَّحيم)[1].

بلاغةُ جناس الاشتقاق بين ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ و﴿غَفُورٌ﴾:

استدعاء السَّمع مع ربط السبب بالنتيجة

في الجناس الاشتقاقيِّ استدعاءٌ لميل السّامع للإصغاءِ إليه؛ لأنَّ النَّفس تستحسن تقارب الكلمات، شريطةَ أن يكون المعنى هو الرَّئيسَ، وفي الجناس دعوةٌ إلى تأكيد سيطرة ثقافة المغفرة ومحوِ الذُّنوب وسترها، وبخاصَّة إذا لم تكن الذُّنوب متعمَّدةً، يؤكِّد ذلك الجمعُ بين المضارعِ الدّالِّ على الاستمرار والدَّوام واستحضار صورة المغفرة، وبينَ الاسميَّة ﴿غَفُورٌ﴾ الَّتي جاءت على صيغة المبالغة الدّالَّة على عراقة المغفرة وثباتِها من قِبَلِ اللّه ﷻ، وفي الجناسِ ربطٌ بينَ السَّبب والنَّتيجة؛ فإنَّكم إنِ اتَّصفتم بغفران الذَّنب فنتيجتُه إحسانٌ إليكم بغفران ذنوبكم، فدلَّ الجناسُ الاشتقاقيُّ مع دلالة الصّيغ على أهمّيَّةِ ثباتِ صفة الغفران في المجتمع.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأبناء والأولاد:

هناك فرقٌ بين الولد والابن؛ فالابنُ يفيدُ الاختصاص ومداومة الصُّحبة، ولهذا يقال: (ابنُ الفَلاة) لمن يداومُ سلوكَها، وتقول: (تبنَّيت ابنًا) إذا جعلتَهُ خاصًّا بك، ويجوزُ أن يقال: إنَّ قولنا: هو ابن فلانٍ يقتضي أنَّه منسوب إليه، ولهذا يقال: النّاسُ بنو آدمَ؛ لأنَّهم منسوبون إليه، ولأنَّ أصل الابن التَّأليف والاتِّصال، من قولك: بُنَيَّة، ولهذا جُمع على (أبناء)، فكان بين الأب والابن تأليف.

أمّا الولدُ فيقتضي الولادةَ ولا يقتضيها الابنُ، ولا يُسمّى الإنسانُ والدًا إلّا إذا صار له ولدٌ، وليس هو مثلَ الأب؛ لأنَّهم يقولون في

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية في الذكر الحكيم: 2/ 206.

التَّكنية: أبو فلان وإنْ لم يلد فلانًا، ولا يقولون في هذا: والد فلان، ويقال: الابنُ للذَّكر، والولدُ للذَّكر والأنثى[1]، وقيل: الأولاد تُطلَقُ عرفًا على أولاد الأبناء، بخلاف الأبناء؛ فإنَّها تطلقُ عليها بدليل دخول الحفدة في المستأمَن على أبنائه، فبينهما عمومٌ وخصوص، فلا يلزم من تناول لفظِ الابن له تناولُ لفظِ الولد[2]، وممّا يقال في الفرق بينهما: إنَّ لفظة (ولد) تصلُح أن تكون مفردًا وجمعًا[3]، أمّا الابن فهي للمفرد وحده.

العفو والصَّفح:

ذهبَ البعضُ إلى أنَّ العفو والصَّفح بمعنًى في اللُّغة، ولكنَّ الأدقَّ أنَّ كلَّ لفظ منهما له معنًى يميِّزه من الآخر؛ فالصَّفح: تركُ التَّثريب، وهو أبلغُ من العفو؛ لأنَّه مأخوذ من صفحة الوجه؛ كأنَّه أعرض بوجهه منصرفًا عن ذنبه غيرَ ملتفت إليه؛ فهو بذلك أَوْلاهُ صفحةً جميلة من وجهه، معرضًا عن ذنبه، أمّا العفوُ فهو التَّجاوز عن الذَّنب مع ترك العقاب عليه، مأخوذ من العفو بمعنى الفضل؛ فهو أقلُّ من الصَّفح؛ لأنَّه قد يعفو الإنسانُ ولا يصفح. وقيل: العفوُ ترك عقوبة المذنب، والصَّفحُ: تركُ لومه. ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]؛ ترقّيًا في الأمر بمكارم الأخلاق من الحَسَنِ إلى الأحسنِ، ومن الفضلِ إلى الأفضل[4].

---

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 282.

(2) الكفوي، الكليات، ص: 27.

(3) الراغب، المفردات: (ولد).

(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية: 362، وابن منظور، لسان العرب: (صفح)، والراغب، المفردات: (صفح).

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾

[التَّغابن: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الأمـوالُ والأولاد مـــن أعــظـــم أسباب الفتنة

لمّا حذَّرت الآية السّابقة من عداوة الأولاد والأزواج أصحابَ الهمم العالية، وأنَّهم من أعظم أسباب الخذلان عقَّبَ في هذه الآية بأنَّهم والأموالَ فتنةٌ وابتلاء كبير للمؤمن الَّذي يريد لنفسه ولدينه الرِّفعةَ، والآيةُ تعميمٌ بعد تخصيص، وتأكيدٌ للتَّحذير الَّذي اشتملت عليه الآية السّابقة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞۚ﴾: (فتن) أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار، من ذلك الفتنة، يقال: فتنتُ أفتِنُ فَتْنًا، وفتنتُ الذَّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَهُ، وهو مفتونٌ وفَتينٌ(2). وأصل الفَتْنِ: إدخال الذَّهبِ النّارَ؛ لتظهر جودتُه من رداءته، واستُعمل في إدخال الإنسان النّارَ. قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13](3).

المَعنى الإجماليُّ:

الأمـوالُ والأولاد اختبارٌ وابتلاء

بيَّنت الآية الكريمة أنَّ الأموال والأولاد اختبارٌ وابتلاء من اللّه تعالى لخلقه؛ لأنَّه قد يترتَّبُ عليهما الوقوعُ في الآثام والشَّدائد، وكثيرًا ما رأينا المال والأولاد يدفعان صاحبَهما إلى فعل المُهلِكات؛ فكان تحذيرُ القرآن من الاغترار بالمال والولد؛ لأنَّ ما عند اللّه من الأجر والثواب أعظم من متاعِ الدُّنيا، فلا تَشغَلْكُمُ الأموال والأولاد عن طاعة اللّه تعالى(4).

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 433.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(3) الراغب، المفردات: (فتن).
(4) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 371، ومحمد محمود حجازي، التفسير الواضح: 28/ 87.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بأسلوب القصر:

ملازمةُ الفتنة للأموال والأولاد

جاء التَّعبير القرآنيُّ بأسلوب القصر في الآية بـ﴿إِنَّمَآ﴾، والمقصورُ هنا ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾، أمّا المقصور عليه فالخبر ﴿فِتْنَةٌ﴾، والقصرُ هنا قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، فقد قُصرت أموالهم وأولادهم على أنَّهم من أسباب الفتنة؛ فهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ لكثرة ملازمة هذه الصِّفة للموصوف، وغرضُ القصر هنا قصدُ ادِّعاء المبالغة في إثبات أنَّ الأموال والأولاد فتنةٌ، يؤكِّد هذا قولُ ابن عاشور: "أي: ليست أموالكم وأولادكم إلّا فتنةً، وهو قصرٌ ادّعائيٌّ؛ للمبالغة في كثرة ملازمة هذه الصِّفة للموصوف؛ إذ يَندُرُ أنْ تخلوَ أفرادُ هذين النَّوعين - وهما أموال المسلمين وأولادهم - عن الاتِّصاف بالفتنة لَمن يتلبَّس بهما"[1].

بلاغةُ الإدماجِ في ذكر الأموال:

عدمُ شمول أخذِ الحذر من الأموال في الآية السابقة

أدمج في الآية الكريمة ذكرَ الأموال؛ لأنَّها لم يشملْها طلبُ الحذر ولا وصف العداوة في الآية السّابقة، وممّا يُذكر في وجه إدماج الأموالِ هنا أنَّ المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين، فغلبوهم على أموالهم[2]، فكان الإدماجُ لبيان تدافُعِ كلِّ المذكورات في إفتان المؤمن، ومحاولةِ إبعاده عن جادَّة الحقّ.

سرُّ عدمِ ذكر الأموال في الآية السّابقة:

فتنةُ الأهل مضاعفة

لم تذكر الأموال في الآية السّابقة مع الأزواج والأولاد في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾؛ لأنَّ الغرض هو التَّحذيرُ من أشدِّ الأشياء اتِّصالًا بهم، وهي أزواجهم وأولادهم، ولأنَّ فتنة هؤلاء مضاعفة؛ لأنَّ الدّاعيَ إليها يكون من أنفسهم ومن مساعي الآخرين وتسويلِهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 285.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 285.

علَّةُ ذكر ﴿مِنۡ﴾ في باب العداوة، وعدمِ ذكرها مع الفتنة:

غلبةُ الفتنة بالأموال والأولاد

في حديث القرآن عن التَّحذير من وقوع العداوة من الأزواج والأولاد جاء بـ﴿مِنۡ﴾ الّتي تقتضي التَّبعيض في قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾؛ لأنَّ بعضهم عدوٌّ، وآخرين منهم ليسوا بأعداء، فاقتضت ﴿مِنۡ﴾ عراقةَ الإنصاف والعدل، وفي الفتنة لم يرد لفظُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾؛ وذلك لغلبة الفتنة بهما[1]، فلم يكن التَّعبير في حاجةٍ إلى ﴿مِنۡ﴾.

سرُّ تقديم فتنة المال على فتنة الأولاد:

شدَّةُ فتنة المال، وحاجةُ المرء إليه أكثرُ من الولد

قُدِّمت الأموال على الأولاد لعدَّة أغراضٍ:

الأوَّلُ: المالُ أعظمُ فتنةً؛ لأنَّه يُطغي ويشغل المرء، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7]، وقال عن المنافقين: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ [الفتح: 11][2]، "ولأنَّها جاءت في معرض ذكر الافتتان، ولا شكَّ أنَّ الافتتان بالمال أدخلُ من الافتتان بالأولاد؛ لِما فيه من تعجيل اللَّذَّة والوصول إلى كلِّ مسرَّةٍ والتَّمكُّنِ من البسطة والقوَّة"[3].

الثّاني: تحكُّمُ المرء في ماله وسيطرتُهُ عليه أمكَنُ مِن تحكُّمه وسيطرته على عياله، فقدَّمَ الأمكنَ على الممكن.

الثّالثُ: قدَّمَ الأموالَ من باب تقديم السَّبب؛ فإنَّه إنَّما شُرِعَ النِّكاح عند قدرته على مؤونته، فالمالُ سببُ التَّزويج، والتَّزويجُ سببٌ للتَّناسل، ولأنَّ المال سببٌ للتَّنعيم بالولد، وفَقْدُهُ سببٌ لشقائه[4].

الرّابعُ: أنَّ الإنسان يملكُ أموالًا قبل أن يكون له أولاد، وأنَّ المال أكثر نفعًا للرَّجُل من ولده، وأكثر شغلًا له[5].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 192.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 192.
(3) العلوي، الطراز: 2/ 36.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 248.
(5) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 147.

الخامسُ: لكلِّ واحدٍ مالٌ وإنْ قلَّ، فهو لا يستطيع العيشَ من دونه، أمّا الولد فليس كلُّ أحدٍ عنده أولاد.

نكتةُ العدول عن ذكر فتنة الأزواج:

الاكتفاءُ بذكر فتنة الأولاد بفحوى الخطاب

عدَلَ القرآن الكريم عن ذكر فتنة الأزواج في هذه الآية مع الأموال والأولاد، مع أنَّها من الفتنة؛ لدلالة فتنة الأولاد عليهنَّ بدلالة فحوى الخطاب، فإنَّ فتنتَهنَّ أشدُّ من فتنة الأولاد؛ لأنَّ جرأتهنَّ على التَّسويل لأزواجهنَّ أشدُّ من جرأة الأولاد[1].

ويضافُ إلى ما سبق في سبب ترك ذكر الأزواج في الفتنة أنَّ منهنَّ مَنْ يَكُنَّ صلاحًا وعونًا على الآخرة[2]، وقد يقال أيضًا: إنَّ الأولاد في الفتنة أمكنُ من الأزواج؛ لأنَّ الزَّوجة يمكن هجرها وتركها بالطَّلاق، فتصبح غريبة عن الزَّوج، أمّا الأولاد فلا يمكن ذلك معهم.

دلالةُ إضافة المال والأولاد إلى ضمير المخاطب:

احترامُ المِلْكيَّة والخصوصيَّة مع النَّظر إلى الواقع

أُضيف الأموالُ والأولاد إلى ضمير المخاطب في قوله: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾؛ لاحترام مِلْكيَّة الإنسان في المال وخصوصيَّة الأولاد، ولأنَّها بيانٌ للواقع؛ فالرَّجل لا يُفتن إلّا بماله؛ حيث يُثَبِّطُهُ عن الطّاعة في بعض الأحيان؛ لكثرةِ انشغاله به وللحرص على جمعه، وولدُ الإنسان يكونُ فتنةً له دون ولد غيره، وذلك بانشغاله بأموره، والحرصِ على تكوين ثروةٍ له.

سرُّ التَّعبير بلفظة ﴿فِتۡنَةٞۚ﴾ دون غيرها كلفظة (اختبار):

الفتنةُ أشدُّ الاختبارات وأبلغها

آثر القرآن الكريم التَّعبير بلفظة ﴿فِتۡنَةٞۚ﴾ دون غيرها كلفظة (اختبار) مثلًا؛ لأنَّ الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغه[3]، فالفتنة اختبار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.

(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 434.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217.

وزيادة، فهي اضطرابُ النَّفْس وحَيرتُها من جراء أحوال لا تلائم مَن عرضت له[1]، ولأنَّ الفتنة أوسع معنًى من الاختبار، فالفتنة لها اثنا عشر معنًى ذكرها الفيروزآبادي[2]، لذا صلح أن تفسَّر هنا بالبلوى والمصيبة واللَّذَّة والنّعمة، بخلاف لفظة (اختبار).

سرُّ الإخبار عن الأموال والأولاد بالفتنة:

المبالغةُ بذكر الخبرِ سواءٌ كان السَّعيُ أم لم يكن

جاء الإخبار عن الأموال والأولاد بأنَّهم فتنةٌ؛ للمبالغة، والمراد: أنَّهم سببُ فتنةٍ، سواء سعَوا في فعل الفتن أم لم يسعَوا؛ فإنَّ الشُّغل بالمال والعناية بالأولاد فيه فتنة[3]، ثمَّ إنَّ المرء يحبُّ النّعمة واللَّذَّة، والفتنة في هذا الموضع: النَّعمة واللَّذَّة مع معنى البلوى أيضًا[4]، قال الماورديُّ: "في سبب الافتتان بالأموال والأولاد وجهان: أحدُهما: لأنَّه يلهو بهما عن آخرته ويتوفَّر لأجلهما على دُنياه. الثّاني: لأنَّه يشحُّ لأجل أولاده، فيمنعُ حقَّ اللّه من ماله، لذلك قال النَّبيُّ ﷺ: (الولدُ مَبْخَلةٌ مَحْزَنةٌ مَجْبَنة)"[5].

سرُّ علاقةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ بسورة المنافقون:

ارتباط القرآن مع بيان سبب النَّهي عن الإلهاء

لمّا ذكر في نهايات سورة (المنافقون) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: 9] جاء ببيان علَّة ذلك التَّحذير بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾، فصارت هذه الجملةُ بمثابة التَّعليل لتلك الجملة المذكورة في نهاية سورة (المنافقون)؛ يؤكِّدُ هذا أنَّها جاءت على ترتيبها؛ يعني: الأموال أولًا، والأولاد ثانيًا في كلتا السّورتين[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.
(2) الفيروزآبادي بصائر ذوي التمييز: 4/ 167.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.
(4) المفضل بن سلمة، الفاخر، ص: 243.
(5) الماوردي، تفسير الماوردي النكت والعيون: 6/ 25.
(6) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 143.

بلاغةُ المُحَسِّن المعنويّ (الجمع) بين الأموال والأولاد:

بيانُ التَّماهي في الفتنة بالمال والولد

الجمع: هو أن يجمع المتكلِّمُ بين متعدِّد تحتَ حكم واحد، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وهذا من المحسِّنات المعنوية كما نصَّ على ذلك الهاشميُّ[1]، والغرض بيانُ التَّماهي في الفتنة بكلا الأمرين لدرجةِ أنَّه جمعهما في حكم واحد؛ لأنَّ الصِّنفين "من شِباكِ الشَّيطان وحباله، يريدُ أن يصدَّكم عن سبيل اللّه بتزيينهما إليكم وتحبيبهما في قلوبكم؛ لتشتغلوا بهما عن اللّه، فتنحطّوا عن زمرة المخلصين المتوكِّلين"[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾:

ما عند الله خيرٌ وأبقى

دلَّت الواو هنا على المُغايرة بين ما قبلها ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ وبين ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، وذلك ببيان الفرق الواسع بين ما يُلهي ويَفتِنُ وبين ما يُكافَأ به ويبقى، وتشير أيضًا إلى اشتراك الجملتين في إعطاءِ معنًى عامٍّ، وهو أنَّ ما عند اللّه من الأجر عن كفِّ النَّفس عن المنهيّات هو خيرٌ من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد[3].

سرُّ ذكر اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾:

تربيةُ المهابة في القلوب وتعظيم الأجر

ذُكر اسم الجلالة (اللّه) في هذا السّياق؛ تربيةً للمهابة في قلب المؤمن مع بركةِ ذكرِ الاسم الأعظم الَّذي يحمل ترغيبًا للمؤمن وترهيبًا للكافر، وبيانِ أنَّ عطاءه عظيم؛ فهو الَّذي يُطلَبُ منه، وكلُّ ما عداه عاجزٌ لا يُعتدُّ به، وفيه بيانُ عظمة الفضل، فالأجر إذا كان من عند اللّه فهو أعظمُ من كلِّ عظيم.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾:

ثباتُ الأجر ودوامه لمَن يستحقُّه

دلَّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ على ثباتِ

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 310.

(2) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 420.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 324.

ذلك الأجر ورسوخِه لكلّ مستحقٍّ، وفي هذا دليل على عظمة هذا الأجر؛ لأنَّه من اللّه ﷻ؛ يؤكِّد هذا أنَّ التَّعبير القرآنيَّ كرَّر ذكر الاسم الأعظم مرَّتين في هذا التَّركيب: مرَّةً بالاسم الصَّريح ومرَّةً بالضَّمير العائد عليه ﴿عِندَهُۥٓ﴾، وهذا أمكنُ وأقعد في عظمة الأجر المُدَّخَرِ للمؤمنين، وفي ثبوته ورسوخه.

نكتةُ تقديم الظَّرفيَّة ﴿عِندَهُۥٓ﴾:

تقديمُ الظَّرف ﴿عِندَهُۥٓ﴾ هنا فيه نكتتان:

بيانُ الاهتمام مع تعجيلِ المسرَّة

الأولى: بيانُ الاهتمام بالمتقدِّم؛ لأنَّ العنديَّة عنديَّةُ كرامة وتشريف للأجر؛ لتعلُّقه باللّه تعالى؛ فهو عنده لا عند غيره.

الثَّانيةُ: تعجيل المسرَّة بالعنديَّة، وبَثُّ الثِّقة في النَّفس بأنَّ ما عند اللّه لن يضيعَ، فهو محفوظٌ مكلوء.

دلالةُ وصف الأجر بأنَّه عظيم:

في وصفِ الأجر بأنّه عظيمٌ فوائدُ:

عطاءاتُ الآخرة أعظمُ من عطاءات الدُّنيا بكثير

الأولى: التَّنبيه على أنَّ سعاداتِ الآخرة خير من سعادات الدُّنيا؛ لأنَّها أعظم في الشَّرف، وأعظم في الفوز، وأعظم في المدَّة؛ لأنَّها تبقى بقاءً لا نهايةَ له، فهذا هو المراد من وصف اللّه الأجرَ الَّذي عنده بالعِظَم[1].

الثَّاني: وصفُ الأجر بالعظيم سببُه ثِقَلُ التَّضحية وضخامة التَّكليف في موطن الفتنة والعداوة، ومن ثَمَّ كان الجزاء من جنس العمل بذكر الأجر العظيم؛ كي يكونَ الأجر تحفيزًا للمرء لترك الافتتان بالمال والأهل.

الثَّالثُ: قيل: الأجر العظيم يعني: الجنَّةَ؛ فهي الغايةُ، ولا أجرَ أعظمُ منها في قول المفسِّرين[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 477.

(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 266.

الرّابعُ: يمكن استنباط وجهٍ آخرَ لوصف ﴿أَجْرٌ﴾ بـ﴿عَظِيمٌ﴾، وهو تعلُّق تذييل الآية بما بعدها، فبعدها حديثٌ عن الإنفاق والدَّعوة إليه وتركِ البخل، وهذي الدَّعوةُ لا بدَّ لها من مُحَفِّزٍ كي يُنفِّذَها المرءُ، فكان المحفِّزُ هو الأجرَ العظيم؛ أي: إنْ تركتُم البخلَ والشُّحَّ فلكم الأجرُ العظيم؛ فالجزاءُ من جنس العمل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والبلاء:

ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ الفتنة كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهرُ معنًى وأكثر استعمالًا، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ﴾ [الأنبياء: 35]. وقال في الشّدّة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 102]، وفيما سبق مساواةٌ بين الكلمتين، إلّا أنَّه بالبحث في استعمالات اللُّغة والقرآن يتبيَّنُ وجودُ ملامحَ تجعل كلَّ لفظة تمتاز عن أختها بمعانٍ خاصَّة بها، فالابتلاءُ اختبارٌ بالشِّدَّة والضَّرّاءِ وكذا اختبارٌ بالخير، أمّا الفتنة فهي مادَّةُ الابتلاء؛ أي: هي إيقاع الإنسان في الشِّدَّة لاختباره، والفتنةُ قد تدلُّ على معانٍ متعدِّدة مثل: العذاب والشِّرك والكفر والتَّحريق والضَّلال، والإثم والقتال والإحراق والإزالة والصَّرفِ عن الشَّيء، فدلالاتُ الفتنة أوسع من دلالات الابتلاء[1].

واستقراءُ آيات الفتنة والابتلاء جميعًا يَهدي إلى ملحظٍ في سياق الاستعمال لكلٍّ منها: الامتحان بمعنى الاختبار في آيتين، وهو من الله تعالى في آيةِ الحجرات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [الحجرات: 3]، ومن الَّذين آمنوا للمهاجرات في آية المتحنة: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾، وجاء الابتلاء مرَّةً واحدة في ابتلاء الأوصياء رشدَ اليتامى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النِّساء: 6]، وغلب مجيئُه فيما يَبتلي به الله تعالى عبادَه، مثل: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة: 49]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ [الدُّخان: 33]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥

(1) الراغب، المفردات: (فتن)، ومحمد داود معجم الفروق الدلالية، ص: 48، وعائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، ص: 481.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصّافّات: 104 - 106]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾ [المؤمنون: 30] ونظائرها. ومعها الآيتان في اليوم الآخر، بدلالة السّياق: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ [الطارق: 9]، و﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30]، وأمّا الفتنة فتكون من الله تعالى في مثل آيتي العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 2 - 3] ونظائرِها. وتكون الفتنةُ من الشَّيطان [الأعراف 27]، والسِّحرِ [البقرة: 102]، والمنافقين [الحديد: 14]، ومن الكفّار والمشركين في آية [النِّساء: 101]، وفيها المسألة - وآيات [يونس: 83]، [التَّوبة: 47]، [الإسراء: 74]، [المائدة: 49]، [العنكبوت: 10]، [البروج: 10]، ومن فتنة النّاس بعضِهم لبعض [الفرقان: 20]، وقولُ الرّاغب وابن الأثير: "إنَّ البلاءَ والفتنة أظهرُ في الشِّدَّةِ وأكثرُ استعمالاً" يؤيِّدُه الاستقراء، ويقلُّ مجيئها في الابتلاء بالنّعمة والخير[1].

(1) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، ص: 482.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

[التَّغابن: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّقوى سببٌ لدرء الفتنة

لمّا ذكرت الآية السّابقة أنَّ المال والولد من أسباب الفتنة جاءت هذه الآية ببيان كيفيَّة الخروج من هذه الفتنة، وذكرت أنَّ تقوى اللّه على قدر الاستطاعة والجهد، والسَّمعَ والطّاعة، والإنفاقَ درءًا لشحِّ الفتنة، وجلبًا لفلاح الآخرة هي الميزانُ الَّذي يقيم عليه المؤمن أمرَ دينه كلَّه، وبها يتَّقي هذه الفتنَ الَّتي تهبُّ عليه من كل جهة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوقَ﴾: يقال: وقيتُ الشَّيءَ أقيه وقاية ووقاء، والوقاية: حفظ الشَّيء ممّا يؤذيه ويضرُّه. قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدُّخان: 56] والتَّقوى: جعلُ النَّفس في وقاية ممّا يخاف، وصارت التَّقوى في تعارف الشَّرع حفظَ النَّفس عمّا يُؤَثِّمُ، وذلك بترك المحظور، ويتمُّ ذلك بترك بعض المباحات(2).

2) ﴿شُحَّ﴾: بخلٌ مع حرصٍ، وذلك فيما كان عادةً، قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ [الحشر: 9]. يقال: رجل شَحيحٌ، وقوم أشِحَّةٌ، قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: 19](3).

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 983.
(2) الراغب، المفردات: (وقى).
(3) الراغب، المفردات: (شحح).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّقوى سبيل الوقاية من الفتن في الدُّنيا والآخرة

في الآية الكريمة دعوةٌ إلى بذل أقصى قدرات النَّفس لبلوغ منزلة التَّقوى بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾؛ أي: ابذلوا في تقواه جهدَكم وطاعتكم، واسمعوا مواعظه وأوامره سماعَ قبولٍ، وأطيعوه في كلِّ ما أمر، وأنفقوا ممّا رزقكم يكن خيرًا لكم وأفضل، ولا يكن الولد والأهل مدعاةً للجبن والبخل، واعلموا أنَّ مَن يوقَ شح نفسه فقد فاز في الدُّنيا والآخرة، وكان من أهل الفلاح[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

الإيمانُ سبب التَّقوى

دلَّت الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ على السَّببيَّة؛ لأنَّ الايمان سببٌ للتَّقوى؛ يعني: ابذُلوا في تقواه جهدَكم وطاقتكم[2]؛ للوصول إلى الإيمان، ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحةً وتفريعًا على ما تقدَّمَ؛ أي: إذا علمتم هذا فاتَّقوا اللّٰه فيما يجب من التَّقوى[3]، في معاملة الأولاد والأزواج ومصارفِ الأموال، وكونُ الفاء فصيحة يقتضي الحذف، وغرضه التَّركيز على قيمة التَّقوى؛ وقايةً للنَّفس ممّا يُؤذيها.

سرُّ التَّعبير بالتَّقوى دون الخوف:

التَّقوى رأس الأمر وذِروة سنامه

آثرَ القرآن التَّعبير بالتَّقوى في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ دون (خافوا)؛ لأنَّ الخوف يتعلَّق بالمستقبل، ومعناه توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة أو معلومة؛ أمّا التَّقوى فمعناها: أنْ يجعل العبد لنفسه وقايةً ممّا يخاف الوقوعَ فيه، بأنْ يحفظَها ممّا يوقِعُها في غضب اللّٰه وعقابه في الحال والاستقبال، ولأنَّ التَّقوى يندرجُ تحتها معاني الخوف والخشية والرَّهبة؛ فهي أعمُّ هذه الألفاظ.

(1) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح: 28/ 87.
(2) محمد ثناء المظهري، التفسير المظهري: 9/ 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 286.

الغرضُ من الأمر في ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

النُّصح والإرشاد

الغرضُ من الأمر في الآية الكريمة النُّصح والإرشادُ إلى رعاية حقِّ اللّه في التَّعامل مع الأولاد والأزواج ومصارف الأموال، فلا يصُدَّنَّكم حبُّ ذلك والشُّغلُ به عن الواجبات، ولا يُخرِجْكم الغضبُ ونحوه عن حدِّ العدل المأمور به، ولا حبُّ المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال، فالأمرُ بالتَّقوى شاملٌ للتَّحذير المتقدِّم وللتَّرغيب في العفو[1]، ففي الأمر إدماجٌ بين عدَّة أغراضٍ: النُّصحِ والإرشاد، مع التَّحذير والتَّرغيب.

نكتةُ حذف المتعلَّق في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

قصدُ العموم الشّامل لجميع الأحوال

حُذِفَ متعلَّقُ (اتَّقوا) لقصد تعميم ما يتعلَّق بالتَّقوى من جميع الأحوال المذكورة؛ وبذلك يكون هذا الكلامُ كالتَّذييل؛ لأنَّ مضمونه أعمُّ من مضمون ما قبله[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون لفظ الرُّبوبيَّة:

مناسبةُ سياق التَّحذير مع لَحْظِ معنى الهيبة والقهر والجلال

جاءَ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ لفظ الجلالة يدلُّ على الهيبة والقهر والجلال، وهو مناسبٌ للسّياق في التَّحذير من الفتنة بالأموال والأولاد؛ بخلاف التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة؛ فإنَّه يأتي في مقام الإنعام والتَّربية، ولأنَّ التَّعبير بلفظ الجلالة يوجبُ أخذَ الحذر من عذاب اللّه بالتَّمسُّك بطاعته وسماع أوامره.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾:

القصد إلى عموم الطّاعات في عموم الأوقات

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾؛ لأنَّها مصدريَّة ظرفيَّة؛ أي: اتَّقوا اللّه في كلِّ أوقاتكم قدرَ استطاعتكم، وسرُّ الظَّرفيَّة تعميمُ الأزمان كلِّها وتعميمُ الأحوال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.

تبعًا لعموم الأزمان، وفيه أيضًا تعميمٌ للاستطاعات؛ حتّى لا يتخلّى المؤمنون عن التَّقوى في شيءٍ من الأزمان، وجُعلت الأزمانُ ظرفًا للاستطاعة لئلّا يُقَصِّروا بالتَّفريط في شيءٍ يستطيعونه فيما أمروا بالتَّقوى في شأنه، ما لم يخرج عن حدِّ الاستطاعة إلى حدِّ المشقَّة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185][(1)].

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾:

اتِّساع المعنى في تعدُّد المراد

تظهرُ بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ في دلالتها على اتِّساع المعنى؛ لأنَّ الاستطاعة هنا تَحتَمِلُ أنْ يكون الأمرُ من باب التَّسهيل والتَّخفيف، وتحتمل أنْ يكون من باب التَّشديد؛ بمعنى: أنَّه ما وجدت الاستطاعة فاتَّقوا؛ أي: لا تُبْقوا من الاستطاعة شيئًا إلّا وتفعلونه، وهذا يرجعُ إلى أنَّ المعنى: فاتَّقوا اللّه ما تيسَّر لكم، أو ما أمكنكم من غير عسرٍ[(2)].

وفي ذكر ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ احتراسٌ؛ ذلك أنَّ التَّقوى في شأن المذكورات وغيرها قد يَعرِضُ لصاحبها التَّقصيرُ في إقامتها حرصًا على إرضاءِ شهوة النَّفس في كثيرٍ من أحوال تلك الأشياء، فزيدَ تأكيدُ الأمر بالتَّقوى بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[(3)].

بلاغةُ التَّعبير هنا بالاستطاعة، وفي آل عمران بقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾:

التَّقوى على قدر الاستطاعة هي حقُّ التَّقوى

لا تعارضَ بين الآيتين، فمَن اتَّقى اللّه ﷻ قدرَ استطاعته فقد اتَّقاهُ حقَّ تُقاتِه، وذلك بامتثاله للأوامر واجتنابه للنَّواهي، ويجوز أنْ يكون المرادُ المبالغةَ في التَّقوى؛ حتّى لا يتركَ شيئًا من المستطاع.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ آيةَ آل عمران في أصل الدّين وهو التَّوحيد، بدليل قوله بعدها: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: 102]؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 287.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 205.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

أمّا آيةُ التَّغابن فهي في مقام الفروع والأعمال، بدليل قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾، وعلى كلٍّ فإنَّ المقصود أنْ يبذل المسلم قصارى جهده في أداء ما كلَّفه اللّه به.

وذهب بعضهم إلى أنَّ آية التَّغابن ناسخةٌ لموضع آل عمران، والرّاجحُ عدم النَّسخ، ويُفسَّرُ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بما سبَقَ من بذل الجهد، بأنْ يجاهدوا في اللّه حقَّ جهاده، ولا يأخذَهم في اللّه لومة لائم، ويقوموا للّه بالقسط ولو على آبائهم وأبنائهم[1].

دلالة الواو في عطف هذه الأفعال:

الجمع بين الطّاعات باجتناب المنهيّات وامتثال المأمورات

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالواو في عطف هذه الأفعال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ﴾؛ لأنَّها لمطلق الجمع في الحثِّ على جمع التَّقوى والسَّماع والطّاعة والإنفاق على أحسن الوجوه، ويضاف إلى ذلك أنَّ العطف على الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ فيه إطنابٌ بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمام بالسَّمع والطّاعة، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّقوى تتبادر في ترك المنهيّات؛ فإنَّها مشتقَّة من (وقى)؛ فتقوى اللّه أن يقيَ المرء نفسه ممّا نهاهُ اللّه عنه، فكان التَّصريح بالمعطوفات اهتمامًا بكِلا الأمرين: اجتنابِ المنهيّات وامتثالِ المأمورات؛ لتحصلَ حقيقة التَّقوى الشَّرعيَّة[2]، فكانت الواوُ هي الدّاعيةَ إلى هذا المعنى بجمع المتعاطفات الإنشائيَّة.

سرُّ التَّعبير بالسَّماع مع دلالة الأمر:

السَّماعُ سبيل الاستجابة والقبول

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بالسَّماع في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ لأنَّه يحتمل معنيين: أحدُهما: أصغوا إلى ما يُنَزَّلُ عليكم من كتاب اللّه، وهو الأصل في السَّماع. الآخَرُ: أنَّ معناه: اِقبَلوا ما تسمعون،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 6623، والشنقيطي، أضواء البيان: 10/ 66، ومحمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 30.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

وعَبَّر عنه بالسَّماع لأنَّه فائدته[1]، ويدلُّ الأمرُ بالسَّمع على لزوم تكليفاتِ الشَّريعة والإقبالِ على سماع مواعظِ النَّبيِّ ﷺ، وهذا كمالُ التّقوى قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزُّمر: 17 - 18][2].

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾:

تحقيقُ اللّازم والملزوم بكلمة واحدة

تظهرُ بلاغةُ المجاز في التَّعبير بقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ في دلالتِه على الامتثال وتحصيل المأمور، وهو أخصرُ؛ لأنَّه بكلمةٍ واحدة تحقَّقَ الملزومُ - وهو طلبُ الإصغاء - ولازمُه وهو طلبُ الامتثال، ففيه مجازٌ مرسلٌ بإطلاق السَّبب وإرادة المسبَّب بقرينة أنَّ الطَّلب من الأعلى إلى الأدنى.

دلالةُ الأمر بالطّاعة:

الدَّعوة إلى كمالِ الانقياد

جاء الأمرُ بالطّاعة في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ للدَّلالة على كمال الانقياد لأوامرِ اللّه ورسوله، ولا ينبغي أن يكون المالُ والولد عائقًا عن الطّاعة؛ بل يجب تقديمُ مرادِ اللّه على هوى الإنسان؛ لأنَّ الطّاعة تقالُ في الائتمارِ لِما أمرَ والارتسام فيما رسمَ، ولأنَّ عدم الطّاعة يكون معصيةً، وفي هذا ذمٌّ وتوبيخٌ لِمَن تنكَّبوا طريقَ الطّاعة[3].

سرُّ التَّعبير بالإنفاق ودلالةُ الأمر به:

التَّحريض على الإنفاق بمرتبتيه (الوجوب والنَّدب)

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإنفاق؛ لأنَّه لفظ عامٌّ، فيشملُ الإنفاق بالمال وغيره، وقد يكون واجبًا وتطوُّعًا، وآيات القرآن في هذا كثيرةٌ، ولأنَّ الإنفاق يقال للشَّيء الَّذي مضى ونفذ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما أنفقه الإنسان خرج عن سلطته وأصبح حقًّا للفقير، وفي ذلك تزكية للإنسان لعدم فتنته بالمال، بدليل أنَّه أخرجه عن

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 266.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.
(3) الراغب، المفردات: (طوع).

حبٍّ وطواعيةٍ. وعبَّر بالأمر بقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾؛ لِما فيه من التَّحريض على الإنفاق بمرتبتيه: الوجوب والنَّدب، وفي الأمر إرشادٌ إلى قيمة الإنفاق درءًا للشُّحِّ الَّذي يعتري النَّفس.

نكتةُ حذف متعلَّقات هذه الأفعال:

إيثارُ العموم وبيان أهمّيَّة الاتِّصاف بالمتعلَّق المحذوف

حُذفت متعلَّقاتُ الأفعال، وتقديرُها: "واسمعوا مواعظه تعالى، وأطيعوا أوامرَهُ ﷻ، وأنفقوا ممّا رزقَكم في الوجوه الّتي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه جلَّ شأنُه"[1]؛ بيانًا للعموم الحاصل في الحذف، وكأنَّ التَّعبير: ليكنْ منكم تقوى وسماعٌ وإطاعةٌ وإنفاقٌ؛ كي تتَّصفوا بذلك، وفي ذكر المتعلَّق تضييقٌ للمعنى وتسكيرٌ عليه.

دلالةُ عطف الأمر بالإنفاق على الأمر بالتّقوى:

الإنفاق من علامات التَّقوى

عطف القرآن الكريم الأمرَ بالإنفاق في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ على الأمر بالتّقوى مع وجود فاصلٍ بينهما، وهما السَّمع والطّاعة في قوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾، وذلك من باب التَّخصيص بعد التَّخصيص؛ لأنَّ الإنفاق ممّا أمر اللّه به، فهو من المأمورات[2]، وهو علامة التّقوى، وفي ذكر الإنفاق إشارةٌ إلى أنَّ الأولاد مبخلةٌ، فكان الإنفاقُ درءًا للبخل، ويضاف إلى ما سبق أنَّ ذكر الإنفاق يناسبُ لفظة ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ في الآية السّابقة، ثمَّ إنَّ في ذكر الأمرِ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تمهيدًا لِما يأتي بعده: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾، ففعلُ الأمر رابطٌ بين سابقٍ ولاحق؛ إقامةً للنَّظم بوَصْلِ أركانه ومقدِّماته ومختتماته.

دلالةُ التَّرتيب في الأوامر:

التَّقوى تتطلَّبُ الانقياد والطّاعة والإنفاق

بدأت الآيةُ مجموعَ الأوامرِ بالأمرِ بالتَّقوى؛ لأنَّها أصلُ الخوف من اللّه، فكلُّ ما بعدها مترتِّبٌ عليها، ولأنَّها تحتاج إلى من ينفِّذها، فجاءَ الفعلُ ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ الدّالُّ على الإصغاء والانقياد والتَّسليم، وقد

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 288.

عُطف عليه الفعل (أطيعوا)؛ ليكونَ تأكيدًا لأمر السّماع والتّسليم، وعُطف الفعل ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ على ما قبله للتّأكيد على كمال التّقوى، وليكونَ توطئةً للجملة الشَّرطيَّة بعده ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، فكان التّرتيب هنا بين الأفعال ليُسلِم كلَّ فعلٍ قيادَهُ للآخرِ بحيث يكتمل المعنى من كلِّ أنحائه.

ويمكنُ أن يقال في سرِّ التَّرتيب: إنَّ الأمر بالتَّقوى في حدود الاستطاعة مرجعُهُ إلى القلب، وما انعقد عليه من إيمان بالله ومراقبة لأوامره ونواهيه، فهذا جانبٌ يُمثِّلُ الصِّلةَ بين العبد وربِّه، وحسابُه في هذا على الله. وهناك جانبٌ آخرُ من الإنسان فيما يتَّصلُ بأوامر الله ونواهيه، وهو الجانب الَّذي يَمَسُّ المجتمع الَّذي يعيش فيه، والَّذي تحكُمُه أوامرُ هذا الدّين الَّذي يدينُ به، وهو الجانبُ الظاهر، الَّذي يتمثَّل في الاستماع لأولي الأمرِ والطّاعة لهم، وتقديمِ المال المطلوب منه فيما يبدو من ظاهرِ حاله لوليِّ الأمر[1]، فكان التَّرتيب جمعًا لجانبي القلب الخفيِّ والظاهر المرئيِّ.

تعدُّدُ الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿خَيۡرٗا﴾:

التَّعدُّد الإعرابيُّ ثراءٌ للمعنى

في نصبِ لفظة ﴿خَيۡرٗا﴾ اتِّجاهاتٌ مختلفة، **فالاتِّجاهُ الأوَّلُ**: مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وائتوا خيرًا لأنفسكم؛ أي: افعلوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ كما ذكر سيبويه، وهذا تأكيدٌ للحثِّ على امتثال هذه الأوامر، وبيانٌ لكون الأمور خيرًا لأنفسهم من الأموال والأولاد. **والاتِّجاهُ الثّاني**: خبرٌ لـ(يكنْ) مقدَّرًا جوابًا للأمر؛ أي: يكنْ خيرًا، وفي هذا التَّقدير ربطُ السَّبب بالنَّتيجة، كأنَّ الخيريَّة مترتِّبة على الإنفاق. **والاتِّجاهُ الثّالث**: على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف؛ أي: إنفاقًا خيرًا، وفي حذف المصدر المقدَّر تركيز على قيمة الخيريَّة بالإنفاق؛ وفيه جمعٌ بين الفعلِ ونعت مصدره، ونعتُ المصدر حلَّ محلَّ المصدر

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 996.

وقامَ مَقامَهُ فأخذ مدلولَهُ، **والاتِّجاه الرّابعُ**: هو نصبٌ على المفعوليَّة بـ﴿وَأَنفِقُواْ﴾، والخيرُ المال، وفيه إيقاعُ الفعل على الخير، وتسلُّطُ الفعل على المفعول ﴿خَيۡرٗا﴾ فيه استباحةُ المال في جانب الخير[1].

سرُّ التَّعبير بلفظة ﴿خَيۡرٗا﴾ منكَّرةً:

قصدُ عمومِ الخير

عبَّر القرآنُ عمّا يُنفَقُ بلفظ ﴿خَيۡرٗا﴾ مُنكَّرًا لإفادة العموم، فكلُّ صورِ الخير داخلةٌ فيه، فهو خيرٌ في ذاته، وهو خيرٌ لمن ينفَق من أجله، وهو خيرٌ لمن ينفِقه[2]، فالخيرُ عامٌّ في الذّات وفي الصِّفات، فناسَبَ التَّعبيرُ به في هذا السّياق، وفيه إلماحٌ إلى أنَّ مَن لم يُنفِقۡ لم يُحَصِّلۡ كمالَ التّقوى، وفيه ذمٌّ للإمساك عن بذل المال.

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾:

الخيرُ مبدؤُهُ ومنتهاه النَّفسُ

دلَّ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ على التَّخصيص؛ أي: أنَّ النَّفقة فرضًا كانت أو نفلًا يعودُ أجرُها على الإنسان نفسِه؛ قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]؛ فكلُّ ما يفعلُه الرَّجل من خير فلنفسه[3]، فكان التَّقييد باللّام دالًّا على التَّخصيص ومؤذنًا برجوع الخير لفاعله.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ لا (نفوسكم):

أهلُ الإنفاق قلّةٌ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ﴿لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ لا (نفوسكم)؛ جَرْيًا على عادة القرآن في جمع النَّفس على (أنفُسٍ) في الغالب، حيث ورد هذا الجمعُ في أكثرَ من مئةٍ وخمسين موضعًا[4]؛ أمّا جمعُها على (نفوسٍ) فورَدَ على نُدرةٍ، وذلك في موضعين، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 25]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التَّكوير: 7]، والفرقُ بينهما يتمثَّل في القلَّة والكثرة، فالقلَّة في

(1) أحمد درويش، التفسير النحوي الدلالي لسورة النساء من خلال كتاب سيبويه، ص: 167 وما بعدها.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 996.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 266.
(4) سعيد اللحام، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: 286 وما بعدها.

الجمع (أنفُسٌ) بوزن (أفعُلٍ)، والكثرة في الجمع (نفوسٌ)، ولعلَّ جمع القلَّة هنا واشٍ بأنَّ المنفقين قلَّةٌ بالنَّظر إلى عدد المسلمين عمومًا، وأنَّ الإنفاق مهما بلغ فهو قليلٌ في جانب عطاء اللّه ﷻ، أو أنَّ كلَّ ما تأتونه قليل في جانب نِعَمِ اللّه عليكم، فكان الأوفقُ التَّعبيرَ بالقلَّة لا الكثرة.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾:

صَـوْنُ النَّفس عن الشُّحِّ أمارةُ الفلاح

دلَّت الواوُ في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ على الاستئناف؛ لبيان معنًى جديدٍ يرتبط بما قبله، فكأنَّ التَّعبير بالفعل ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن فوائد الإنفاق "صونَ النَّفس عن الشُّحِّ المطاع"[1].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشّرطيَّة:

الـحـضُّ على مكارم الأخلاق

في التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة حضٌّ للنّاس على التَّحلّي بفضيلةِ السَّخاء والكرم[2]، وإشارةٌ إلى تعميم الدَّعوة بوقاية النَّفس من الشُّحِّ؛ أخذًا من التَّعبير بـ(مَن) الَّتي تدلُّ على عموم الخطاب؛ فهو ليس لطائفةٍ بعينها، وإنَّما لكلِّ طائفةٍ[3]؛ واللَّفظُ القرآنيُّ صالحٌ لكلِّ زمان ومكان، ويضاف إلى ذلك تكريمُ المؤمنين بتجنيبهم خطابَ الشُّحِّ بعدم توجيهه لهم، مع كون الجملة مستقلَّةً بنفسها، فكأنَّها مَثَلٌ.

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿يُوقَ﴾:

الشُّحُّ عدوٌّ راصدٌ يترصَّدُ الإنسان

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بلفظ الوقاية في قوله: ﴿وَمَن يُوقَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الشُّحَّ عدوٌّ راصدٌ، يتربَّصُ بالنَّفس الإنسانيَّة في أيِّ لحظةٍ يغفلُ فيها الإنسان عن حراسةِ نفسه منه، فإذا غفلَ الإنسان عن هذا العدوِّ دخلَ على نفسه واستولى عليها[4]. وفي ذكر لفظةِ

(1) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 421.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 862.

الوقاية دعوةٌ إلى أنْ يجعلَ المرء بينه وبين الصِّفات الذَّميمة المشارِ إليها بالنَّفس وقايةً تَحول بينه وبينها، فلا يكونَ مانعًا لما عنده حريصًا على ما عند غيره حسدًا[1].

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُوقَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله:

التَّركيزُ على أسباب الوقاية من الشُّحّ

بُني الفعلُ ﴿يُوقَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعله؛ تركيزًا على عمليَّة الوقاية من الشُّحِّ؛ وكأنَّ الوقاية لن تكون إلّا بتوفيق اللّه، فحُذف الفاعل للعلم به، ثمَّ في البناء لِما لم يُسمَّ فاعله ترفُّعٌ بالمؤمنين من مخاطبتهم بالشُّحِّ، فلم يُقل: (إن تَتَوقَّوا شُحَّ أنفسكم)؛ مُجانَبةً لما يمجُّ أسماعهم، وإنَّما كان الحديث عامًّا لا يخصُّ طائفةً بعينِها.

سرُّ التَّعبير بالشُّحِّ دون البخل:

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بالشُّحِّ دون البخل؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالبخلُ متعلِّقٌ بالجانب المادّيِّ المتمثِّل في عَرَضِ الدُّنيا من مالٍ وغيره، فيقال: منَعَ الرَّجلُ سائلَهُ ما لديه من فضلٍ، وذهب بعضُهم إلى أنَّه منعُ الواجب، ويرادُ به منعُ الزّكاة؛ بل تتَّسع دائرته لتشملَ كلَّ ما أمسك عنه الرَّجل من فضلِ اللّه عليه.

أمّا الشُّحُّ فهو أوسعُ مِن أنْ يبخل الرَّجل بماله وفضل اللّه عليه؛ فهو يشحُّ بالجاه وبالمعروف وبالعِلم، ولأنَّه شيءٌ متعلِّقٌ بالنَّفس؛ لكونها مجبولةً على منع الخير، سواءٌ كان من مال الشَّخص أم من مال غيره، وممّا يدل على أنَّه طبعٌ في النَّفس قوله تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128]؛ لذلك آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالوقاية من الشُّحِّ؛ لأنَّه أوسعُ وأعمُّ من البخل؛ فمَن وقى نفسَه الشُّحَّ كان لوقايتها من البخلِ أولى[2].

---

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 249.

(2) محمد ياسر خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 176.

نكتةُ إضافة الشُّحِّ إلى النَّفس:

الشُّحُّ غريزةٌ في النَّفس وطبيعةٌ فيها

أُضيف الشُّحُّ إلى النَّفس في الآية الكريمة؛ لأنَّ الشُّحَّ غريزةٌ فيها[1]، مقتضيةٌ للحرصِ على المنعِ الَّذي هو البخلُ؛ فالشُّحُّ من طباع النَّفس، فإنَّ النُّفوس شحيحة بالأشياء المحبَّبة إليها، قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128][2]، "فمن عرف حقيقةَ نفسه وما طُبعت عليه عَلِمَ أنّها منبعُ كلِّ شرٍّ، ومأوى كلِّ سوءٍ، وأنَّ كلَّ خيرٍ فيها إنَّما هو فضلٌ من الله منَّ به عليها، وليس منها"[3].

دلالةُ الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الوقايةُ من شحِّ النَّفس سبيلُ الفلاح

جاءت الفاءُ رابطةً للشَّرط بالجواب، والظّاهر من الآية أنَّ الفلاح مترتِّبٌ على عدم شُحِّ النَّفس بشيءٍ من الأشياء الَّتي يقبُحُ الشُّحُّ بها شرعًا؛ من زكاةٍ أو صدقةٍ أو صلةِ رحمٍ أو نحو ذلك، كما تفيده إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفس[4].

سرُّ التَّعبير بالإفراد أوّلًا ثمَّ بالجمع ثانيًا:

مراعاةُ اللَّفظ والمعنى

في التَّعبير بالإفراد في قوله تعالى: ﴿نَفۡسِهِۦ﴾ والجمع: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ مراعاةٌ لِلَفظةِ (مَن) الدّالَّةِ على جواز الإفراد والجمع، فَروعيَ اللَّفظ فأُفردَ ﴿نَفۡسِهِۦ﴾، وروعيَ المعنى فجُمِعَ (أولئك هم)، وفيه إيماءٌ إلى قلَّة المتَّصفين بذلك في الواقع عددًا وكثرتِهم معنى[5].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

التَّعظيم وعُلوُّ مكانتِهم ببُعدهم عن الشُّحِّ

دلَّ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك) على تعظيم هذا النَّوع من النّاس الَّذين يبتعدون عن شحِّ الأنفس، فالبُعد بُعد مكانةٍ، وعلوُّ رتبةٍ؛ أي: العالو الرُّتبةِ[6]، وفيه مزيدُ عنايةٍ بذكرهم،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.
(3) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 1/ 235.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 240.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 247.
(6) الشربيني، السراج المنير: 4/ 308.

وفيه إيماءٌ إلى ضرورة جلب المَحْمدةِ بالإنفاق، وتحذيرٌ من جلب المذمَّة بالشُّحِّ.

بلاغةُ القصر في ختام الآية:

المبالغة في تحقيق وصف المفلحين

لّما كانت وقايةُ شحِّ النَّفس فلاحًا عظيمًا جيءَ في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند، وهو قصرُ جنسِ المفلحين على جنس الَّذين وُقوا شحَّ أنفسِهم، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للمبالغة في تحقيق وصف المفلحين الَّذين وُقوا شحَّ أنفسهم، حتّى نُزِّل فلاحُ غيرهم بمنزلة العدم[1]، فصيغةُ القصر المؤدّاة بضمير الفصل مبالغةٌ لكثرة الفلاح الَّذي يترتَّب على وقاية شحِّ النَّفس، حتّى كأنَّ جنس المُفلِح مقصور على ذلك الموقَى[2]، وفي القصر تأكيدُ الوقوع كي لا يشكَّ فيه شاكٌّ، أو ينازعَ فيه مُنازِعٌ، أو يظنَّ ظانٌّ توهُّمَ المشاركة فيه.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ كمالِ الفوز وعمومِه في الدُّنيا والآخرة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفلاح دون غيره في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لأنَّ الفلاح هو الظَّفَرُ وإدراك بُغية، وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويّ، فالدّنيويُّ: الظَّفر بالسّعادات الّتي تطيبُ بها الحياة الدّنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ، والفلاحُ الأخرويّ، بأربعةِ أشياء: بقاءٍ بلا فناء، وغنًى بلا فقر، وعزٍّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل. ولذلك قيل: (لا عيش إلّا عيشُ الآخرة)[3]؛ فالفلاح عامٌّ في أمور الدُّنيا والآخرة؛ لذا أوثر في البيان القرآنيِّ، وعلى ذلك يكون ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ هم الفائزين الَّذين حازوا جميع المرادات بتقوى الله، ولأنَّ الفعل (فلح) معناه الشَّقُّ، يقال: شققتُ الأرض؛ أي: فلحتُها[4]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 289.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 95.

(3) الراغب، المفردات: (فلح).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).

وهذا يعني: أنَّهم ما بلغوا مرتبة الفلاح إلّا بعدَ جهدٍ جهيد، وعملٍ دؤوب؛ يؤكِّد ذلك التَّعبير بالاسميَّة الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والاستمرار في جهدهم وفي عطاء اللّه لهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستطاعة والقدرة:

الفرقُ بينهما: أنَّ (الاستطاعة) انطباعُ الجوارح للفعل، و(القدرة): هي ما أوجب كون القادر عليه قادرًا. ولذلك لا يوصف اللّه تعالى بأنَّه مستطيع، ويوصف بأنَّه قادر، وقيل: الاستطاعةُ أخصُّ من القدرة، فكلُّ مستطيعٍ قادرٌ لا العكس؛ لأنَّ الاستطاعة اسمٌ لمعانٍ يتمكَّن بها الفاعل ممّا يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء: إرادتُه للفعل، وقدرتُه على الفعل بحيث لا يكون له مانعٌ منه، وعلمُه بالفعل، وتهيُّؤُ ما يتوقَّف عليه الفعل. ألا ترى أنَّه يقال: فلانٌ قادر على كذا، لكنَّه لا يريدُهُ، أو يمنعُهُ منه مانع، أو لا علم له به أن يعوزه كذا؟ فظهرَ أنَّ القدرة أعمُّ من الاستطاعة، والاستطاعةَ أخصُّ من القدرة[1].

الشّحّ والبخل:

الشُّحُّ: بخلٌ معَ حرصٍ، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والشُّحُّ: ضدُّ الإيثار؛ فإنَّ المُؤْثِرَ على نفسه تاركٌ لِما هو محتاج إليه، والشَّحيحُ حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شَحَّ وبخل بإخراجه، فالبخلُ ثمرة الشُّحِّ، والشُّحُّ يأمرُ بالبخل؛ كما قال ﷺ: "إيّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا"[2]. فالبخيلُ: مَن أجابَ داعيَ الشُّحِّ، والمُؤْثِرُ: مَن أجابَ داعيَ الجود والسَّخاء والإحسان[3]، وقيل: البخلُ منعُ الواجب، والشُّحُّ: منعُ المستحبِّ[4]، وقيل: الشُّحُّ: اللُّؤمُ، وهو أن تكون النَّفسُ كزَّةً حريصةً على المنع، وأمّا البخلُ فهو المنعُ نفسُه[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.
(2) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في الشح: (1698).
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 300.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 396.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 246.

الفلاح والنَّجاح:

النَّجاحُ: أمرٌ دنيويٌّ، أمّا الفلاح فيشمل الأمورَ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، لذا ناسب وصف الفائزين بأنَّهم هم المفلحون؛ ليشملَ الفلاحُ فلاحَ الدُّنيا وفلاحَ الآخرة، فكلُّ مفلحٍ ناجحٌ، ولا ينعكسُ، فقد ينجحُ المرء في أمور الدُّنيا، لكنَّه في أمور الآخرة صفرُ اليدين[1].

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية: 1/ 88.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

[التَّغابن: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِما قبلَهما:

الـتَّرغـيـب في الإنفاق بتعظيم الثَّواب

لمّا أمر الله في الآية السّابقة بالإنفاق، ورهَّبَ وحذَّرَ مِن ضدِّه على وجهٍ أعمَّ رغَّبَ في هذه الآية في أمر الإنفاق ببذل المال من باب التّأكيد على فضيلة الإنفاق؛ لصعوبته على النَّفس؛ لحرصها على كنز المال وادِّخاره.

ومنها: لمّا أمرَ الله بالإنفاق في الآية السّابقة عليها أكَّدَهُ بقوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، ورتَّبَ عليه تضعيفَ القرض وغفرانَ الذُّنوب[1]؛ فكانت المناسبةُ قائمةً بين الآية وما قبلها؛ تحذيرًا من الشُّحِّ ودعوةً للإنفاق.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُقۡرِضُواْ﴾: (قرض) أصلٌ صحيح، وهو يدلُّ على القطع. يقال: قرضتُ الشَّيء بالمقراض. والقرض: ما تعطيه الإنسانَ من مالِكَ لتُقضاه[2]، قالَ الله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: 245]، والقرضُ: اسمٌ لكلِّ ما يُلتمَس عليه الجزاءُ مِن صدقةٍ أو عملٍ صالح[3].

2) ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾: (ضعف) أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على خلاف القوَّة، ويدلُّ الآخر على أن يُزادَ الشَّيء مثلَهُ. فالأوَّل: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، وهو خلاف القوَّة. يقال: ضَعُفَ يَضْعُفُ، ورجل ضعيف،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 193.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرض).

(3) الهروي، تهذيب اللغة: (قرض).

وقوم ضُعَفاءُ وضِعافٌ. وأمّا الأصل الآخر فقال الخليل: أضعفتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضعَّفتُهُ تضعيفًا، وضاعفتُهُ مُضاعفةً، وهو أن يُزادَ على أصل الشَّيء فيُجعلَ مثلين أو أكثر[1]، والمعنى في الآية على الوجه الثّاني من المضاعفة والزّيادة.

3) ﴿شَكُورٌ﴾: الشُّكر: الثَّناء على الإنسان بمعروفٍ يوليكَهُ[2]، وقيل: الشُّكر تصوُّرُ النِّعمة وإظهارها، فالشُّكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعَم عليه، والشُّكر ثلاثةُ أضرُبٍ: شكرُ القلب، وهو تصوُّر النِّعمة. وشكرُ اللِّسان، وهو الثَّناء على المنعِم. وشكرُ سائرِ الجوارح، وهو مكافأة النِّعمة بقدر استحقاقه، وإذا وصف الله بالشُّكر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ فإنَّما يُعنى به إنعامُه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة[3].

4) ﴿حَلِيمٌ﴾: الحلمُ: ضبط النَّفس والطَّبع عن هَيَجانِ الغضب[4]، والحِلم الأناةُ والعقلُ، وأصل الحلم في العربيَّة: اللّينُ، ورجلٌ حليم؛ أي: ليِّنٌ في معاملته في الجزاء على السَّيِّئة بالأناة[5]، وفي الحلم صفح وستر[6]، والحِلم من الله تعالى عن العصاة بعدم تعجيل معاقبتهم في الدُّنيا[7].

5) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: العِزَّةُ: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يُغلب. من قولهم: أرض عَزاز؛ أي: صُلبة. قال تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النِّساء: 139]. والعزيزُ: الَّذي يَقهَر ولا يُقهَر. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا﴾ [يوسف: 88][8]، فالعزيز هنا: ذو القوَّةِ والجبروت، الَّذي لا يغلبُه أحدٌ ولا يقهَرُه.

6) ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: (حكم) أصلٌ واحد، وهو المنع. وأوَّل ذلك الحُكم، وهو المنع من الظُّلم[9] والحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام[10]، ومن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكر).
(3) الراغب، المفردات: (شكر).
(4) الراغب، المفردات: (حلم).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 200.
(6) الفيومي، المصباح المنير: (حلم).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 199.
(8) الراغب، المفردات: (عزّ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(10) الراغب، المفردات: (حكم).

أسمائه تعالى: الحَكَم، والحكيم، والحاكم، وهو أحكم الحاكمين، ﷻ، قال ابنُ الأثير: "الحكيم فَعيلٌ بمعنى فاعل، أو هو الَّذي يحكم الأشياء ويُتقِنُها، فهو بمعنى مُفْعِل. وقيل: الحكيم ذو الحكمة"(1).

المَعنى الإجْماليُّ:

الـدَّعــوةُ إلى الإنفاق والجزاء المترتّب عليه

يقول اللّه تعالى في الآيتين: إن تنفقوا في طاعة اللّه متقرّبين إليه بإخلاصٍ وطيبِ نفسٍ يضاعفْ لكم ذلك الإنفاقَ؛ الحسنةَ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويسترْ لكم ما فرط من زلّاتكم. ثمَّ بيَّن علَّة المضاعفة ورغّب في النَّفقة فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، فيثيب مَن أطاعه بأضعافٍ مضاعفة، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذُّنوب والخطايا. ثمَّ ذكر ما يزيد في التَّرغيب في النَّفقة أيضًا فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه، فكلُّ ما تعملونه محفوظٌ لديه في أمّ الكتاب، لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ، وسيُثيبُكم عليه ويجازيكم به أحسنَ الجزاء، وهو ذو العزَّة والقدرة، النّافذُ الإرادةِ، الحكيمُ في تدبيرِ خلقه على ما يعلمُ من المصلحة(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبلها:

مضاعفةُ الجزاءِ أساسُه الإنفاقُ والـوقـايـة من الشُّحّ

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها وقعت جوابًا لسؤالٍ يَرِدُ في الخاطر؛ كأنَّ سائلًا سأل: ما قيمةُ الإقراض والإنفاق؟ فكان الجوابُ في هذه الجملة ببيان ما أعدَّه اللّه من الثَّواب، وذلك بمضاعفة الحسنات وغفران الذُّنوب.

بلاغةُ الاستهلال بالجملة الشَّرطيّة:

في الاستهلال بالجملة الشَّرطيَّة تحضيضٌ وحثٌّ على الإنفاق في

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حكم).

(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 132.

التَّحضيض والحثُّ على الإنفاق

سبيل اللّه، وإعلاءٌ لشأن المُنفِق، ورفعٌ لقدره، حتّى لكأنَّه يقفُ بين يدي خالقه والمنعم عليه موقفَ المُقرِضِ، الدّائن[1]، وفيه تهييجٌ لأهل التَّقوى بضرورة الإقراض، وهو أسلوبٌ من الكلام يرادُ به استدعاءُ أقصى طاقات المخاطَبِ، واستنفارُ كلِّ ما تَجيشُ به نفسه من عزمٍ؛ لتحقيقِ ما تطلبُهُ منه، ويشعر المؤمن بأنَّه شديد القرب من ربه، ويجعلُ حبلَ المودَّة بينه وبين مولاه قويًّا متينًا[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

آثرَ القرآن التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ﴾ دون (إذا)؛ للإشارةِ إلى قلَّة المُقرضين على الرَّغم من عظمة الجزاء، وفي دلالةِ القِلَّةِ إلماحٌ إلى عظمةِ مَن يُنفِقُ وأنَّه ذو قدرٍ ومكانةٍ وشأن.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ﴾:

تشريفُ الله وتكريمه للمُقرِضين

في الخطاب المباشَر بواو الجماعة ﴿تُقۡرِضُواْ﴾ إيماءةٌ إلى جلالةِ شأنِ من يُخاطَبون، ودرجتِهم العظيمة؛ فهم أهلٌ لخطاب اللّه؛ ففي الخطاب إذن تشريفٌ وتكريم لهم، وفيه إشارة إلى معيَّةِ اللّه بالحثِّ والإرشاد على الإقراض والإنفاق على أهل اللّه من الفقراء والمحتاجين.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿تُقۡرِضُواْ﴾:

التَّلطُّفُ في الاستدعاءِ لأعمال البرّ

آثرَ القرآن التَّعبير بالقرض في قوله: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ﴾ من باب التَّلطُّف في الاستدعاء[3] إلى أعمال البرِّ والإنفاق في سبيل الخير بألطفِ الكلام وأبلغه، وقد دلَّ الفعلُ ﴿تُقۡرِضُواْ﴾ على الفعل الحَسَنِ؛ من اتِّباع أمر اللّه وطاعته، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن قدَّمَ له خيرًا: قد أحسنتَ قَرْضي، وقد أقرضتَني قرضًا حسنًا؛ لأنَّ اللّه سبحانه لا

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 997.

(2) إبراهيم عوض، عصمةُ القرآنِ الكريمِ وجهالاتُ المبشرين، ص: 63.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 551.

يستقرضُ مِن عَوَزٍ[1]، ولكن ليبلوَ خيارَ عباده، فعبَّرَ بالقرض عن الفعل الحسن إشارة إلى اتّساع معناه، فكلُّ فعل يُرضي اللّهَ وينفعُ عبادَهُ هو قرضٌ.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالقرض الدَّعوةُ إلى البذل والعطاء لاستحقاق الثَّواب؛ فكما أنَّ القرض لا يَضيعُ عند المقترض؛ لأنَّ أداءه واجب، كذلك الثَّواب المترتِّب على ذلك مضمونٌ وواصلٌ إلى صاحبه؛ لأنَّه من الكريم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تُقۡرِضُواْ﴾:

المـؤمـن دائـم الإقراض لمولاه

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُقۡرِضُواْ﴾ إشارةٌ إلى أهمّيَّة تجدُّد القرض واستمراره واستحضار صورته في النُّفوس، فلا يكفي أن يكون مرَّةً، وإنَّما يكون مرَّةً بعد مرَّة، بحيث يُعرف المسلم بهذه السِّمَةِ الطَّيِّبةِ مبتغيًا بذلك رضوانَ اللّه، ومضاعفةَ الحسنات، وفي الفعل عمومُ المقصد، إذ يصحُّ أن يتوجَّه الخطاب إلى الغنيِّ والفقير، إلى الأغنياء في بذل أموالهم، وإلى الفقراء في إخلاء أيّامهم وأوقاتهم عن مراداتهم وإيثارِ مراد الحقِّ على مراد أنفسهم، فالغنيُّ يقال له: آثِرْ على مرادكَ في مالِكَ وغيرِه، والفقير يقال له: آثِرْ حُكمي في نفسكَ وقلبك ووقتك[2].

بلاغةُ الاستعارة في فعل الإقراض:

تـوقُّـعُ الـثَّـواب مقابلَ الإعطاء

تتمثَّلُ بلاغة الاستعارة في الفعل ﴿تُقۡرِضُواْ﴾ في أنَّ القرض لغةً: القطعُ[3]، والقرض أن تعطيَ شيئًا ليعود إليك، والمقصود هنا البذل والإنفاق، شبَّهَ حال المؤمن في تقديمه العملَ الصّالح توقُّعًا لثوابه من اللّه تعالى بحال المقرض في تقديمه المالَ وإعطائه أحدًا بجامع

(1) البرقوقي، الذخائر والعبقريات: 1/ 176.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 135.

(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 179.

عودة المال إلى المقرض على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة[1]، ويجوز أن تكون الاستعارة مكنيَّةً أيضًا[2]، وعلى كلٍّ يكون الغرضُ هو التَّرغيبَ بالإنفاق في وجوه الخير.

دلالةُ التَّصريح باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

تربيةُ المهابة وضمانُ ثبات الأجر

في ذكر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ تربيةٌ للمهابة في النَّفس، وطَمْأنةُ مَن يبذل القرض بأنَّ ثوابَه ثابتٌ لن يضيع؛ لأنَّ الَّذي يُقرِضُ النّاسَ كأنَّه أقرَضَ اللّه، وإقراض اللّه تعالى مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل الطّائل للثَّواب الآجل[3]، ويجوزُ أن يكون على حذفِ مضافٍ؛ أي: إن تقرضوا عبادَ اللّه، فكان في ذكر لفظة ﴿ٱللَّهَ﴾ والمرادُ عبادُهُ الفقراء سترٌ لهم، وإخفاءٌ لحالهم مع دلالةِ المعيَّةِ الإلهيَّة للفقراء والمساكين.

سرُّ تسميةِ الصَّدقة ﴿قَرْضًا﴾:

القرضُ وعدٌ بالإعادة

سُمّيت الصَّدقة قرضًا؛ لأنَّه وعَدَ بإعادتها مضاعفةً، وذلك لأنَّ المقترض يعيدُ ما اقترَضَ؛ لتهوينها على النَّفس، وللتَّرغيب فيها؛ فإنَّ النَّفس يسهُلُ عليها الإقراضُ أكثرَ من إخراج المال من غير إعادة[4]، كما أنَّ القرض لا يضيعُ عند اللّه؛ لأنَّه يجب أداؤه، ولا يجوز الإخلال به؛ فهو يقعُ في يد الغنيّ الَّذي له ملك السماوات والأرض، فكان "تأكيدًا لاستحقاق الثَّواب به؛ إذ لا يكون قرضًا إلّا والعوضُ مستحَقٌّ به"[5].

ويضاف إلى ما سبق: أنَّ في القرض دلالةً على المحبَّة؛ لأنَّه لا يُقرِضُكَ إلّا مُحِبٌّ، فكان في ذلك حثٌّ على البذل[6]، والصّورةُ الحسّيَّةُ للقرض هنا لا تعبِّرُ عن نقلِ المعنى الذِّهنيِّ فقط، بل توحي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 174.
(2) الشهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 8/ 203.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 554.
(4) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 354.
(5) الجصاص، أحكام القرآن: 1/ 547.
(6) إبراهيم الهدهد، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 2/ 650.

بزيادته ونمائه أيضًا. وذلك من خلال اللَّمسات التَّعبيريَّة والنَّفسيَّة في تصوير المعنى الذِّهنيِّ، فالإنفاق قرضٌ للّه، وهو تعبيرٌ لطيف يوحي للإنسان بأنَّه يملك الأموالَ وينفقها، بل ويقرضها لربِّه قرضًا حسنًا ناميًا[1].

نكتةُ وصف القرض بالحسن:

الدَّلالةُ على تشريف القرض وكونِهِ عن طيب نفسٍ

دلَّ وصف القرض بالحسن في قوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ على أنَّه هو ما توافرت فيه أمورٌ،

منها في المُقرِض، وهو: الإخلاصُ، وكونُه عن طيب نفسٍ وبشاشةِ وجهٍ من دون منٍّ أو تكديرٍ، مع قصدِ وجهِ الخير ورضا اللّه.

ومنها في المال، وهو: أن يكونَ حلالًا طيِّبًا ومن كريم المال.

ومنها الجهةُ الَّتي يُنفَقُ فيها، وهي: ما كان أشدَّها حاجةً وأكثرَها نفعًا للمسلمين[2].

وقد ذكر الآلوسيُّ صفاتٍ عشرًا للقرضِ الحسن فقال: "ما يجمع عشرَ صفاتٍ: أن يكون من الحلال؛ فإنَّ اللّه تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إلّا طيِّبًا، وأن يكون من أكرمِ ما يملكُه المرء، وأن يكون والمرء صحيحٌ شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر، وأن يضعَه في الأحوج الأولى، وأن يكتمَ ذلك، وأنْ لا يُتبِعَه بالمنّ والأذى، وأن يقصدَ به وجه اللّه تعالى، وأن يستحقرَ ما يعطي وإن كثُرَ، وأن يكون من أحبِّ أمواله إليه، وأن يتوخّى في إيصاله للفقير ما هو أسرُّ لديه من الوجوه كحمله إلى بيته"[3].

علَّةُ التَّعبير باسم المصدر ﴿قَرْضًا﴾:

الجمعُ بين القرض وعملية الإقراض

في التَّعبير باسم المصدر ﴿قَرْضًا﴾ لا المصدرِ (إقراضًا) ثلاثُ عللٍ:

(1) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 114.
(2) فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني: 1/ 354.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 173.

الأولى: أنَّ العرب تُقيم الاسمَ مُقامَ المصدر، كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا﴾ [البقرة: 245]، ولم يقل: إقراضًا[1].

الثّانية: إرادةُ الجمع بين المعنيين بالمصدر واسمه، فمعنى القرضِ في اللُّغة المالُ، والإقراض إذنُ القرض، فالآيةُ تحتمل المعنيين، فلو كان القصد الإقراضَ لكان إعرابها مفعولًا مطلقًا، ولو كان المقصود المالَ لكان إعرابها مفعولًا به. والمعنى المرادُ من الآية الكريمة: (إنْ تقرضوا الله إقراضًا حسنًا؛ أي: خالصَ النّيَّة لله، محتسِبين الأجرَ من الله، ومالًا حسنًا؛ أي: طيِّبًا حلالًا)، فهناك إذن إقراضٌ حسنٌ ومالٌ حسن، ولمّا قال تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ جمعَ بين الأمرين معًا: إقراضًا حسنًا، ومالًا حلالًا طيِّبًا[2]، فكان التَّعبير باسم المصدر هو الأنجعَ والأوفقَ بدلالة الآية.

الثّالثة: بيانُ عادةِ القرآن الرّاسخة، فالتَّعبير القرآنيُّ لم يوظِّف الإقراضَ بالمصدر في سياقاته، إنَّما وظَّفَ القرضَ في جميعها، وهذا واضحٌ بالنَّظر إلى الآيات الواردة في القرآن: [البقرة: 245]، [المائدة: 12، الحديد: 11]، [الحديد: 18]، [التَّغابن: 17]، [المُزَّمِّل: 20].

دلالةُ الجناس الاشتقاقيِّ:

استـعـذابُ الإنفاقِ وسعادةِ الفقير

الجناسُ الاشتقاقيُّ بين ﴿تُقْرِضُواْ﴾ و﴿قَرْضًا﴾ يعطي الكلامَ جَرْسًا تستعذبُهُ النَّفس، ويُؤَثِّرُ في المتلقّي، فهو من البديع، غيرَ أنَّه لا يُستعذَبُ إلّا إذا كان خادمًا للمعنى، وكلُّ جناسات القرآن خادمةٌ للمعنى المراد، والمراد هنا مزيدُ التَّأكيد على حثِّ النّاس على إخلاص النّيَّة، وتحرّي الحلال فيما ينفقون؛ لأنَّ المالَ الحرام والمباهاةَ والرّياءَ من مفسدات الأعمال[3]، وفي

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 126.
(2) فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني: 1/ 113.
(3) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية: 2/ 652.

الاشتقاق بتكرارِ مادَّةِ (قرض) مفتاحُ سعادةٍ للفقير بزوال كربه وضيق نفسه.

الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾:

محاربةُ الشُّحِّ والتَّرغيبُ في الإنفاق

الفعلُ ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾ وقع مجزومًا في جواب الشَّرط ﴿إِن تُقۡرِضُواْ﴾، وفيه دعوةٌ لمحاربة الشُّحِّ والبخلِ؛ لأنَّه لمّا كان شحُّ النَّفس أمرًا مُستحكِمًا في الطَّبيعة البشريَّة جاء بالجواب ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾ لإعظام التَّرغيب في محاربة الشُّحِّ بنيلِ المضاعفة في الثَّواب والأجر، وذلك "بأنْ رتَّبَ عليه الرِّبحَ في الدُّنيا والغفرانَ في الآخرة"[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المفاعَلة في الفعل: ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾:

دلالة المبالغة مع السَّببيَّة في المجاز

من دلالات المفاعلة المشاركةُ، والفعلُ (يضاعف) على وزن ﴿فَاعِلُ﴾؛ لكنَّ المفاعلة هنا غيرُ مقصودة؛ إذ لا مشاركةَ، وإنَّما المقصودُ المبالغةُ المشيرة إلى المغالبة[2]، وفي الفعل مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه السَّببيَّة؛ لأنَّ القرضَ سبب المضاعفة[3].

بلاغةُ توجيهِ القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾:

الإشارةُ لمَن بذل المالَ كلَّه أو جُلَّه مع كمال الإخلاص

قرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو جعفر ويعقوب مشدَّدةً: ﴿يُضَعِّفۡهُ﴾، وقرأ الباقون بألف: ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾[4]؛ فقراءة المفاعلة ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾ لمن بذلَ المالَ كلَّه أو جُلَّه، وأخلصه للّه تعالى مع تحقُّقِ كاملِ شروط الإخلاص، فهذا يضاعِفُ له بالواحد عشرًا إلى سبعمائة ضعفٍ، أمّا قراءة ﴿يُضَعِّفۡهُ﴾؛ أي: يجعله ضعفين فقط فذلك من فضل اللّه لمن أنفق وبذل لكن اختلَّتْ شروط الإخلاص، أو أقرض بيسير المال لا كثيره، فهذا يناسبه دلالة (ضعَّف) الدالَّة على التَّكثير، لكنَّه التَّكثير الَّذي لا يبلغُ حدَّ المبالغة كما في ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 135.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 554.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 554.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 228.

فتكون القراءتان مُسْتَقْصِيَتَيْنِ مقاماتِ الخطاب مع تكثيفِ المعاني ووَجازة العبارة.

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾:

الـتَّـخـصـيـصُ بتعجيل المسرَّة

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باللّام في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾؛ لتعدُّدِ معانيها؛ فتكونُ للمِلكِ والاختصاص، ولامُ المِلك هي لام الإضافة والاستحقاق[1]، واللّام أيضًا دالَّةٌ على الاختصاص، وهو معنًى لا يفارقها، وكلُّ المعاني راجعةٌ إليه[2].

وممّا يُذكر في دلالة اللّام إدخال البشر والسَّعادة على قلب المنفِق بتعجيل المسرَّة، وعدم إشراك غيره معه في الثَّواب؛ تمييزًا له؛ لمسارعته في الإقراض والإنفاق.

نكتةُ عطف (المغفرة) على (المضاعفة):

بـركـةُ الإنـفـاق مـمـتـدَّةٌ لـلـمـضـاعـفـة والغفران

عُطفت (المغفرة) في قوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ على (المضاعفة) في قوله: ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ مهما اجتهَدَ فلن يبلغَ الكمال في جميع ما أُمر به؛ لأنَّ الدّين وإن كان يسيرًا فهو متينٌ، (لن يُشادَّهُ أحدٌ إلّا غلبَهُ)[3]، ففي العطف هنا بيانُ نقصانِ عمل العبد، والمغفرةُ جابرةٌ للنُّقصان، وفي العطف تعديدٌ لكثرة العطاءات والبركات.

وممّا يُذكر في دلالة العطف الإشارةُ إلى التَّرغيب في الطّاعة، والتَّحذيرُ من المعصية، وفي ذلك جلبُ السُّرور ودفعُ الشُّرور[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع (يغفر):

استمرارُ المغفرة لاستمرار الذُّنوب

جاء الفعلُ مضارعًا هنا؛ لبيان التَّناسب بين المعطوف (يغفر) والمعطوف عليه ﴿يُضَٰعِفۡهُ﴾، وللدَّلالة على استمرارِ غفران الذُّنوب من دون توقُّفٍ، وفيه دلالةٌ على كثرةِ الذُّنوب والسَّيِّئات؛ لتوالي

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 109.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدينُ يسرٌ، الحديث رقم: (39).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 136.

الغفران وتتابعه، وفي المغفرة إشارةٌ إلى صفةِ الحِلم الَّتي ذُيِّلتْ بها الآيةُ ﴿حَلِيمٌ﴾.

نكتةُ إعادةِ شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾:

تـوالي التَّخصيص لبيان التَّكريم

تكرارُ شبهِ الجملة ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة تخصيصِ المغفرة بهؤلاء القوم، فكما كرَّمَهم بتخصيص المضاعفة فثَمَّ تكريمٌ آخرُ بتخصيص المغفرة، وفي ذلك إشارةٌ إلى بركاتِ الإنفاق، وحلم اللّٰه وكرمه، مع رفع درجة هؤلاء المنفقين بقربهم من اللّٰه، وفيه توكيدٌ بالتَّكرار[1]؛ تمكينًا لحسن الجزاء، ومحوِ السَّيِّئات.

ويضاف إلى ما سبق أنَّ التَّكرار ضرورةٌ، وتظهر الضَّرورة عند عدم تصوُّره؛ لأنَّ الرّابطة تضعُفُ عندئذٍ بين عناصر الكلام[2]، فلا يُتصوَّرُ أنْ يقالَ: (يضاعفه لكم ويغفر) من دون (لكم)؛ تكريمًا لهؤلاء المُقرِضين، وربطًا لأوصال التَّركيب، وفي التَّكرار تكميلُ اللَّذَّة وزيادةُ السُّرور بالعطاءات الربّانيَّة.

فائدةُ التَّذييل باسمَيْ ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾:

مناسبةُ الشَّكورِ للقَرض والإقراض، والحليمِ لعدم معاجلته بالعقوبة

ذُيِّلت الآيةُ بوصفَيْ ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ من باب التَّناسب لِما ورد في الآية؛ لأنَّ ما قبل الشُّكر عطاءٌ من العبد بالقرض والإقراض، فكان الشُّكر في مقابلة العطاء، أمّا ﴿حَلِيمٌ﴾ فهو الَّذي يفعل بكم ما يفعل مَن يحلُمُ عن المسيءِ، فلا يعاجلُكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم[3]، فكان مناسبًا للمضارع ﴿وَيَغْفِرْ﴾، وكأنَّ في الآية لفًّا ونشرًا، بذكر الصِّفتين المناسبتين؛ ففي أوَّل الآية إنفاقٌ وإقراضٌ، وهذا يلزمُه شكرٌ، وبعدَ الإقراض جاءت المغفرةُ لمحوِ السَّيِّئات، وهذا يلزمُه حلمٌ من دون تعجيلٍ بالعقوبة، فكان الوصفُ بـ﴿حَلِيمٌ﴾، مع ملاحظةِ دلالة المبالغة في صيغتي ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ على الكثرة والتَّكرار مرَّةً بعد مرَّة.

---

(1) تمام حسان، البيان في روائع القرآن: 1/ 135.

(2) حسين رفعت، الموقعية في النحو العربي، دراسة سياقية، ص: 223.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 551.

سرُّ تقديم ﴿شَكُورٌ﴾ على ﴿حَلِيمٌ﴾:

التَّحليةُ بالشُّكر قبلَ التَّخلية بالحلم

قدَّمَ السّياقُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿شَكُورٌ﴾ على ﴿حَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ من باب مراعاة التَّناسب؛ فقدَّم ﴿شَكُورٌ﴾ لملاحظة القرض والإقراض، وتلاه ﴿حَلِيمٌ﴾ لملاحظة ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾؛ لأنَّه لا يعاجل بالعقوبة، وفيه احتراسٌ بذكر الحلم؛ حتّى لا يَظُنَّ ظانٌّ بأنَّ اللّه يشكرُ المُنفِقَ، ويعاقبُ المُهمِلَ المُقصِّر، فكان في ذكر الاسمين بهذا التَّرتيب ملاحظةُ هذا المعنى، ويجوزُ أن يكون التَّقديم لملاحظةِ رؤوسِ الآيِ بعدَ ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، فالآيةُ الأخيرةُ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، فكان تأخيرُ ﴿حَلِيمٌ﴾ لرعاية ذلك المطلبِ أيضًا.

ويُضاف إلى ما سبق أنَّ ﴿شَكُورٌ﴾ فعولٌ بمعنى فاعلٍ مبالغةُ تَلَطُّفٍ لهم، فسَمّى ذلك الثّوابَ شكرًا، وجعَلَ نفسَه شاكرًا، وقد أومَأَ إلى هذا المقصد إتباعُ صفة ﴿شَكُورٌ﴾ بصفة ﴿حَلِيمٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك من حلمه بعباده، مِن دون حقٍّ لهم عليه سبحانه[1].

دلالةُ الاقتران بين ﴿شَكُورٌ﴾ و﴿حَلِيمٌ﴾:

إظهارُ المنَّة على عباده المؤمنين، بإثابتهم وعدم معاجلتهم بالعقاب

اقترن اسم (الشَّكور) باسم (الحليم) مرَّة واحدة، وذلك في هذه الآية: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، واقترانه به يفيد أنَّه ﴿شَكُورٌ﴾ يثيب من أطاعه بأضعافٍ مضاعفة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلُ مَن عصاه بالعقوبة، بل يُمهِلُه ولا يُهمِلُه. وقيل: ﴿شَكُورٌ﴾؛ أي: يَجزي على القليل بالكثير، ﴿حَلِيمٌ﴾؛ أي: يصفَحُ ويتجاوزُ عن الذُّنوب والسَّيِّئات[2].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ في هذا السّياق:

كمالُ علمِه ضمانٌ لحقوق خلقه

في تركيبِ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ في هذا السّياق ترغيبٌ أيضًا في الإنفاق؛ إذ أعلَمَهم أنَّه لا يغيب عنه من أمورهم شيءٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 291.

(2) سعد بن عبد الرحمن ندا، مفهوم الأسماء والصفات (بحث مجلة): 46/ 61.

يعلم الخفيَّ منها والمُعلَنَ، وما غاب عنهم فلم يَرَوهُ، وما ظهَرَ لهم فشهدوه، فذو العلم بهذه المثابة معاملتُهُ مضمونةٌ لا يُخشى ضياعُها ولا نسيانُها[1].

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿عَٰلِمُ﴾:

علمُ الله أزليٌّ محيطٌ بكلِّ شيء

في التَّعبير باسم الفاعل ﴿عَٰلِمُ﴾ دلالةٌ على كمال العلم وعراقته، وأنَّه لا يعزُبُ عنه شيءٌ، سواء أكان حاضرًا أم غائبًا.

نكتةُ ذكرِ (العلم) مِن دون (القدرة):

العزيزُ عالمٌ قادرٌ غالب

نكتةُ ذكر العلم ﴿عَٰلِمُ﴾ من دون القدرة (قدير أو قادر) أنَّ العزيز يدلُّ على القدرةِ، مِن عَزَّ إذا غلَبَ، والحكيمُ على الحكمة، وقيل: العزيزُ: الَّذي لا يُعجزه شيءٌ، والحكيمُ: الَّذي لا يلحقُهُ الخطأ في التَّدبير، والله تعالى كذلك، فيكونُ عالمًا قادرًا حكيمًا جل ثناؤُه وعظُمَ كبرياؤه[2].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

الدَّلالةُ على الإحاطة والشُّمول

بين لفظتي ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ طباقٌ، وفي الطِّباق جمعٌ بين النَّقيضين، وعالِمُ النَّقيضين علمُهُ محيطٌ شاملٌ لكلِّ مخلوق، ففيه إيماءةٌ إلى الإحاطة التّامَّة بكلِّ المخلوقات والموجودات. وعطَفَ (الشَّهادة) على ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ لتحصلَ الدَّلالةُ عليها مرَّتين؛ أوَّلًا باللُّزوم وثانيًا بالمطابقة[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

استغراقُ كلِّ غيبٍ وشهادة

(أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ استغراقيَّةٌ؛ دلَّتْ على استغراقِ كلِّ غيبٍ وكلِّ شهادة[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى عراقة العلم وكماله بكلِّ غيبٍ وكلِّ شهادةٍ.

---

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 371.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 557.
(3) أبو العباس البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/ 272.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 221.

نكتةُ تقديم (عِلْمِ الغيب) على (عِلْمِ الشّهادة):

بيانُ شرف المعلوم

قُدِّمَ الغيبُ على الشَّهادة في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لبيان شرف المعلوم؛ لأنَّ علم الغيبيّات أعظمُ من المشاهَدات[1]، والتَّمدُّح به أعظم، ومن نكت التَّقديم أنَّ في غيبه ما لا يحصى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: 8]، فوجهُ تقديمِ الغيبِ في الذِّكر لسَعَةِ عالَمِه وزيادةِ خطرِه على الشَّهادة[2]، ومِن نكت التَّقديم تقدُّمُ الغيب على الشَّهادة في الوجودِ وتعلُّق العلمِ القديم به[3]، ومِن نكت التَّقديم بيانُ أنَّ الغيب والشَّهادة في علمه سواءٌ، فنُزِّلَ التَّرقّي في اللَّفظ منزلةَ ترقٍّ في المعنى؛ لإفادةِ استوائهما في علمه تعالى، ويوضحُه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: 10]، فصرَّحَ بالاستواء[4].

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ولا غيبَ يغيبُ عنه:

قصورُ علم البشر؛ فالغيبُ والشَّهادة عنده سواء

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ الإشارةُ إلى علمِ البشر القاصرِ؛ فعلمُ البشر هو علمُ شهادةٍ، وما غاب عنهم لا يعرفونه، فكان من معاني ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ هنا الغيبُ والخفاءُ على البشر، أمّا علمُه سبحانه فيستوي فيه الغيب والشَّهادة[5].

دلالةُ تعدُّدِ ذكرِ أوصافه سبحانه في هذه الآية:

التَّرغيبُ والتَّرهيب

الغرضُ من ذكر هذه الأوصاف الواردة في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الإشارةُ إلى كمالِ عظمته تعالى، مع مناسبتِها للتَّرغيب والتَّرهيب اللَّذَينِ اشتملت عليهما الآياتُ السّابقة كلُّها؛ لأنَّ العالمَ بالأفعال ظاهرِها وخفيِّها لا يفيتُ شيئًا من الجزاء عليها بما رتَّب لها، ولأنَّ العزيزَ لا يُعجِزُهُ شيءٌ، والحكيم الموصوف

(1) الزركشي، البرهان: 3/ 253.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 4/ 100.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل: 8/ 233.
(4) الزركشي، البرهان: 3/ 254.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/ 5428.

بالحكمة لا يدعُ معاملةَ النّاس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعَها ونَوْطِ الأمور بما يناسب حقائقَها.

نكتةُ تركِ العطف بين هذه الصِّفات:

شدَّةُ اتِّصالِ الصِّفات بالموصوف

تُرِكَ العطفُ بين الأخبار المتعدِّدة؛ لأنَّها صفاتٌ مجتمعةٌ في موصوفٍ واحدٍ، بينَها شدَّةُ اتِّصالٍ وتلاحُم، وكأنَّ الجميع في حكم صفةٍ واحدة، والعطفُ بالواو يُشعِرُ بالتَّغايُرِ بين الصِّفات، فيأتي حرف العطف (الواوُ) فيما تباعَدَ من الصِّفات؛ لأنَّه يصيرُ أمرًا مستغرَبًا، أمّا في الصِّفات القريبة فلا يؤتى بالعطف، فاقتضى ذلك تركَ العطف، والصِّفاتُ في الآية قمَّةٌ في القرب لا البعد.

نكتةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

قصرُ العِزَّة والحكمة على الخالق وحده قصرًا حقيقيًّا

قال ربُّنا سبحانه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بالتَّعريف، ولم يقل: (هو عزيز حكيم) بالتَّنكير، ونكتة ذلك أنَّه أراد أن يقصرَ العزَّةَ في الحقيقة عليه وحده، ولا عزَّةَ لغيره، والحكيم هو الحاكم في الحقيقة، ولا حاكمَ سواه على وجه الحقيقة، فاللّٰه تعالى هو الَّذي يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُؤتي المُلكَ ويَنزِعُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26]، إذن هو صاحبُ العزَّة، والحكمة: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، الحكَم: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرَّعد: 41].

نكتةُ التَّرتيب بين ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

عادةُ القرآن دومًا تقديمُ (العزيز) على (الحكيم) مع تكامُلِ الأوصاف والأخبار

نكتةُ التَّرتيب بينَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ جاءَ جريًا على عادة القرآن في التَّرتيب بين العزَّة والحكمة، قالوا: لأنَّه عَزَّ فحَكَمَ[1]، ويضاف إلى هذه العادة أنَّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ من صفات الذّات،

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 481.

و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ من صفات الأفعال؛ وهو من باب تقديمِ السَّبب على المسبَّب؛ لأنَّه عَزَّ فحَكَمَ[1].

دلالةُ المبالغة بصيغةِ (فعيل) في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

بيانُ التَّناسب مع عراقةِ العِزَّة والحكمة

تتمثَّلُ نكتةُ المبالغة في أمرين؛ **الأوَّلُ**: التَّناسبُ بين الآيتين الكريمتين؛ فالآيةُ السّابعةَ عشرةَ، ذُيِّلَتْ بـ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، وهذي الآيةُ ذُيِّلتْ بـ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، و**الثّاني**: الدَّلالة على قوَّةِ العِزَّةِ والحكم؛ فالعزيزُ لا يُغلَبُ ولا يُقهر، والحكيم هو صاحب معرفة الأشياء وإيجادِها على غاية الإحكام[2].

ولعلَّ في الصّيغتين دلالةً على أنَّه لا يحتاج قرضَكم فهو العزيز الغنيُّ عنكم، وهذا مناسبٌ لِما قبله، أمّا الحكيمُ ففيه إغاظةٌ للكافر، فهو يضاعِفُ للمؤمن بحكمةٍ وإن اقترَفَ ما اقترَفَ، أمّا الكافرُ فلا حَظَّ له من عطاءٍ أخرويٍّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القرض والدَّين:

أكثرُ ما يُستعمَلُ القرضُ في العَين والوَرِق، كأنْ تأخذَ من مالِ الرَّجل درهمًا لتردَّ عليه بدله درهمًا، فيبقى دينًا عليك إلى أنْ تردَّه، فكلُّ قرضٍ دينٌ، وليس كلُّ دينٍ قرضًا؛ وذلك أنَّ أثمان ما يُشترى بالنَّسَأ ديونٌ وليست بقروضٍ، فالقرضُ يكون من جنسِ ما اقتُرِض، وليس كذلك الدَّين، وقيل: الدَّينُ: ما لَهُ أجَلٌ، وما لا أجَلَ له فقرضٌ[3].

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 45.
(2) الراغب، المفردات: (حكم).
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 425، 426.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

❁ التّعريف العامٌّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعد الآي:

هذه السّورة مدنيّة اتّفاقًا، وقد نقل ابن عطيّة الإجماع على ذلك[1]، وبذلك قال السّيوطيّ[2]، ولا شكَّ أنّ تشريعاتِ الطّلاق والعدّة وما يتعلّق بهما من أحكام وتعقيبات يتّصل بالعهد المدنيّ.

وأمّا عدد آياتها فهي إحدى عشرةَ آيةً في البَصريّ، واثنتا عشرةَ في عدد الباقينَ[3].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

ترتيبُها المصحفيُّ بين سورتي التّغابن والتَّحريم

هذه السّورة هي الخامسة والسّتّون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي التّغابن والتّحريم. وأمّا ترتيبُها النّزوليّ فقد اختلفوا فيه: فقيل: هي السّورةُ المئة في ترتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ محمّد وقبلَ سورَةِ البيّنة[4]، وقيل: بل هي السّادسةُ والتّسعون، نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البيّنة[5]، وقيل غيرُ ذلك.

فضائل السّورة:

هذه السّورة من المُفَصَّل

هذه السّورة الكريمة من المفصّل الذي قال فيه النبيُّ ﷺ، فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسْقَعِ رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 322.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 249.
(4) دروزة، التفسير الحديث: 8/ 333.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 293.

الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ الطّلاق اشتهرت بهذا الاسم ولم يثبت لها اسمٌ غيرُه

وردت تسميتها بسورة الطّلاق في كتب السّنّة، مثلِ صحيح البخاريّ[2]، وكذلك وردت تسميتها بهذا الاسم في كتب التّفسير، وقد ذكروا أنّ تسميتها بهذا الاسم لورود هذه اللّفظة فيها.

وقد قام البِقاعيُّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودها: تقدير حسن التّدبير في المفارقة والمهاجرة بتهذيب الأخلاق بالتّقوى، لا سيّما إن كان ذلك عند الشّقاق، لا سيّما إن كان في أمر النّساء، لا سيّما عند الطلاق، ليكون الفراق على نحو التّواصل والتّلاق.

واسمُها "الطّلاق" أجمعُ ما يكون لذلك، فلذا سمّيت به. وكذا سورة النّساء القصرى؛ لأنّ العدل في الفراق بعضُ مطلق العدل، الذي هو محطُّ مقصودِ سورة النّساء"[3].

وهذا يتأتى مع محور هذه السّورة يقوم على تقرير أنّ الالتزام بشرع اللّه وتقواه في الأمور كلّها مِن شأنه أن يحفظ الأمّةَ من الزّوال؛ فإنّ الظّلم الاجتماعيّ من خلال تطبيق أحكام الأسرة والمحافظة على البيت الصّغير من شأنه أن يحفظَ البيت الكبير للأمّة؛ فإنّ التّآكُلَ والتّظالم الاجتماعيّ يؤدّي في النّهاية إلى الاضمحلال الحضاريّ؛ فإنّ الأمم إنّما تنهض وتزدهر ما استقامت أخلاقُها.

المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على ربط الصّلاح الاجتماعيّ بالشّهود الحضاريّ

إذا كان المحورُ العامّ الذي نظَم آياتِ سورة التّغابن يقوم على

(1) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

(2) البخاري، صحيح البخاري، باب سورة الطلاق: 6/ 155.

(3) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 95.

بيانِ حقيقتي الإيمان والكفر وسنن اللّه تعالى فيهما، وما يلزم المؤمنين حتّى يفوزوا برضوان اللّه تعالى، فلا يصيبَهم ما يصيب الكفّار في الدّنيا والآخرة - فإنّ محور هذه السّورة يقوم على الرّبط بين الصّلاح الاجتماعيّ والأخلاقيّ وبين النّهوض الحضاريّ والاستقرار العامّ، فهي متمّمة لها.

أولًا: نجد السّورة الكريمة قد بدأت بالوصيّة بالتزام أحكام الطّلاق السُّنّيّ وإحصاء العدّة، وبيّنت بعض الأحكام المتعلّقة بالعدّة، وحذّرت من تعدّي حدود اللّه آمرةً بتقواه.

ثمّ بيّنت الأحكام المختلفة بالعِدَدِ الشّرعيّة المختلفة خلا عدّة المتوفّى عنها زوجها؛ لأنّ السّورة الكريمة تناولت العِدَدَ من حيث صيانةُ العلاقات الزّوجيّة وحفظُها، وعِدّة المتوفّى عنها زوجها قرّرتها سورة البقرة، وليس محلُّها هنا؛ لأنّه بحصول الوفاة تنتهي هذه العلاقة الزّوجيّة، فلم تَعُدِ الحاجةُ للحديث عن حفظها وصيانتها.

ثانيًا: اقتضاها هذا المحور أن توصيَهم خلال تلك الأحكام المادّيّة والمعنويّة بتقوى اللّه ﷻ، مبيّنة لهم ثمرات التّقوى؛ لأنَّ الأمّةَ تنهض بالتّقوى، ويكون لها وجودها الحضاريّ.

ثالثًا: اقتضاها هذا المحور أن تحدِّثَهم عن القُرى السّابقة التي تعدَّتْ حدود اللّه، فوقع عليها عذاب الاستئصال؛ كي تقرّرَ لهم بكلّ وضوح أنّ الحضارات مِن شأنِها أن تزول إنْ ظهَرَ فيها الفساد الدّاخليّ بمخالفة شرع اللّه تعالى، فحكمُ الأمم هو حكمُ الأفراد في الحياة والموت، وإنّ التّآكُلَ الدّاخليّ في مبادئِ الأمّة والاستقرارِ الاجتماعيّ حتّى على مستوى الأسرة الصّغيرة من شأنه أن يهويَ بالأمّة بعد ذلك.

رابعًا: اقتضاها هذا المحور أخيرًا أن تبيّن لهم بعضَ سنن اللّه الكونيّة؛ لتقرّر لهم هذا الرّبط بين سنن اللّه الكونيّة وبينَ سُنَنِه الشّرعيّة، وكلّ ذلك ليعلموا مدى علمه وقدرته ﷻ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12].

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

أولًا: شرعت السّورة في الكلام على أحكام الطّلاق السُّنّيّ الّذي يستقبل به العدّة، وأحكامِ العدّة، وإحصاءِ وقتها، مع تقوى اللّه ورقابته في إعلان انقضائها.

مَدارُ السّورة يدورُ حول بيان الأحكام الشّرعيّة الّتي تحفظ الأسرةَ والأمّة

ثانيًا: أمرت الأزواج بعدئذٍ بالإمساك بالمعروف أو المفارقة بالإحسان، وأشادت في مجال العلاقات الزوجيّة وغيرها بتقوى الله والتّوكُّل عليه.

ثالثًا: أبانت حكمَ عِدّةِ المرأة اليائسةِ من المحيض الَّتي انقطع دمُها لِكِبَرٍ أو مرض، وعدّةِ الصّغيرة التي لم تَحِضْ، ومدّتُهما واحدةٌ، وهي ثلاثة أشهر، وأردفت ذلك ببيان عدّة المرأة الحامل، وهي وضعُ الحمل.

رابعًا: اقتضى البيان توضيح حكمِ النّفقة والسّكنى أثناء العدّة، وحكم إعطاء الأجر على الرّضاع، وتقديرَ النّفقة يسارًا وإعسارًا، وتخلَّلَ ذلك الأمرُ بالتّقوى منعًا من الظّلم وتجاوز الحدود.

خامسًا: خُتمت السّورة بالتّحذير من مخالفة الأحكام وتعدّي حدود الله، وهدَّدت بالعقوبة المماثلة لعقوبات الأمم الباغيةِ الَّتي تخطّت أوامر الله، وكرّرت الأمر بالتّقوى، وذكّرت بمهمَّة الرّسول ﷺ، وهي تلاوةُ آيات الله؛ لإخراج المؤمنين من الظّلمات إلى النّور، وأوضحت جزاء الإيمان والعمل الصّالح، ثمّ أوردت البرهان القاطع على قدرة الله الشّاملة وعلمه الواسع بخلق السّموات السّبع والأرضينَ السّبع، وتنزُّل وحي الله وأمره وقضائه بين السّموات والأرض[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة الطّلاق:

تميّزت سورة الطّلاق بخصائصَ أفرَدَتْها عن غيرها من السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها تناولتِ الحديثَ عن أحكام الطّلاق وتَبِعاتِهِ المادّيَّةِ والمعنويّة من زوايا جديدةٍ لم تأتِ بهذه الطّريقة في سورةٍ أخرى، فتناولت أنواعَ العدّة وأحكامَها التّفصيليّة، واختُتمت بالحديث عن القُرى العاتيةِ وسببِ إهلاكها ومآلها في الدّنيا والآخرة.

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 262.

ثانيًا: وتميّزت السّورة الكريمة بأنّها شارَكَتْ أُختَيها المفتتَحتينِ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وهما الأحزاب والتّحريم، وامتازَتْ ثلاثتها بأنّها ابتدأت بالأمر أو النّهي للنّبيّ ﷺ، فضلًا عن التّناسق الموضوعيّ والأسلوبيّ بين هذه السّوَر.

ثالثًا: و تميّزت السّورة الكريمة أيضًا بحديثها عن التّقوى وثمراته في خمس آيات(1) منها؛ وذلك لأنّ هذه الأحكام الّتي ذكرتها السّورة لن تُنفّذَ إلّا إذا استقرّت التّقوى في القلوب، فتنفيذ هذه التّشريعات لا يحتاج إلى قوّة الرّدع وشدّة العقوبة بقدر احتياجه إلى صلاح النّفوس، وإنّ الشّهود الحضاريّ لا يتحقّق بالقوّة المادّيّة والعسكريّة والاقتصاديّة وحدها، مِن دون المبادئِ والعقائد الّتي تحفظ الأمّة.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الطّلاق:

أولًا: كما تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت نحو ثلاث عشرة جملةً شرطيّةً مستهلّة بـ(إذا) و(إن) و(مَنْ)(2)، والسّبب في ذلك أنّ طبيعة الجملة الشّرطيّة أنْ تُرتِّبَ جزاءً على فعلٍ ما، أو تربطَ سببًا بنتيجة، والسّورة زاخرة بالأحكام الشّرعيّة الّتي يجب تنفيذُها إن تحقّقت أسبابها.

ثانيًا: كذلك تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ أبنيةً صرفيّةً لم تَرِدْ في غيرها من السّور أو وردت على قلّةٍ، مثل: ﴿وَأَحْصُواْ﴾، ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾، ﴿ٱلْأَحْمَالِ﴾، ﴿وَيُعْظِمْ﴾، ﴿وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿حَمْلٍ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿عَتَتْ﴾ [الطلاق: 8]، وغيرها.

ثالثًا: و تميّزت السّورة الكريمة بوَفْرة الأنساق التّعبيريّة الّتي لم تتكرّر في غيرها، مثل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: 6]، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطلاق: 6]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: 7]، وغيرها.

(1) آيات: 1، 2، 4، 5، 10.
(2) الآيات: 1(2)، 2(2)، 3، 4(2)، 5، 6(3)، 7، 11.

مناسبة سورة الطّلاق لما قبلها:

سورةُ الطّلاق متّصلةٌ تمامًا بسورتي التّغابن والتّحريم مضمونًا وأسلوبًا

تتّضح المناسبة بين سورة التّغابن وسورة المنافقون من خلال النقاط الآتية:

أولًا: أشارت سورة التغابن إلى أن المؤمن قد يَعرِضُ له ما يضطرُّه إلى فراق من نُبِّهَ على فتنته وعظيم محنته في السور السابقة، فاقتضت الحكمة أن تأتي سورة الطلاق منبِّهَةً على كيفيّة الحكم في هذا الافتراق، موضحةً أحكامَ الطلاق، وأنَّ هذه العداوةَ وإن استحكمتْ، ونارَ الفتنة وإن اضطَرَّمت، لا تَوجِبُ التبرّيَ بالجملة وقطع المعروف.

ثانيًا: لمّا كان الأولاد قد يظهر منهم ما يوجب فراقهم ويُبعدون غير مفترقين، فإن ذلك يختلف عن المرأة التي يُحتاج في حقها إلى ما أوجبته الأحكام الواضحة، فحُدِّدَ وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع، إذ إن الأحكام تتناسب مع حال المرأة، وتبيّن كيف يُمكن أن تُتَّبَعَ الأحكام بشكل يحقق المصلحة، مع أن الله تعالى أشار في آخر سورة التغابن إلى كمال علمه، بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [التغابن: 18]، وأشار في آخر هذه سورة الطلاق إلى كمال علمه بمصالح النساء والأحكام الخاصّة بطلاقهنَّ، فكأنه بيّن ذلك العلمَ الكلّيَّ بهذه الجزئيات، إذ إن علم الله بما يخفى ويُحتجب من مصالح العباد، يبيّن أن الأحكام الشرعية تأتي من علم كاملٍ، بحيث تراعي مصالحهم.

ثالثًا: يمكنُ أن يُضافَ إلى ذلك أن الله تعالى بيّن في آخر سورة التغابن أن علمَهُ مستوعِبٌ لِكُلِّ شيء، وأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [التغابن: 18]، مما يدل على أن علمه يُحيط بمصالح عباده ويعلم خفايا الأمور، وهو سبحانه يضبطُ تلك المصالح ويُشرع الأحكام التي تتعلق بخصوص المرأة، خصوصًا في مسائل الطلاق، ليتحقق التوفيق والرفق، ويُدرَك أن تلك الأحكام تنبع من علمه الواسع بكل ما يخصُّ النِّساء، وما يتعلّق بطلاقهنَّ، ويُحقق بذلك مصالح المجتمع والدين.

رابعًا: تتجلى المناسبة بين السورتين في أن كلًّا منهما ينبه على أن علم الله هو الكمالُ، وأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [التغابن: 18]، وأن أحكام الطلاق إنما جاءت برحمةٍ من الله، وبمراعاة للمصلحة، بحيث يُعَزِّزُ ذلك الإحسانَ والرفق، ويُؤكد أن الحكْمَ في الطلاق هو من علم الله، وأنه يراعي في ذلك جميع المصالح، سواءً كانت مصالح الأولاد أو النساء، كما أنه يُحذر من أن الفتنة والضرر لو حدثا، فإن الله يعلم، وهو يحيط بكل شيء، وأنه لا تَتَصرّفُ الأمور إلا بأمره، وفق ما يُحقق مصالح عباده، ويوفي حقَّهم ويضمن حقوقهم، وهي من موجبات كمال علمه ورحمته[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن: 339 - 340، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 261.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المُلك والحمد والعلم من مقرَّرات سورتي التَّغابن والطَّلاق

بين سورتيِ التَّغابن والطَّلاق وشائجُ قُربى، وبخاصَّةٍ بين البدايات والنِّهايات المتعلِّقة بكلتا السّورتين، يُظهِرُ ذلك: أنَّه تعالى قال في أوَّل تلك السّورة - أي: التَّغابن -: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [التغابن: 1]، والمُلكُ يفتقر إلى التَّصرُّفِ على وجهٍ يحصلُ منه نظام المُلك، والحمدُ يفتقر إلى أنَّ ذلك التَّصرُّفَ بطريق العدل والإحسان في حق المتصرِّف فيه، وبالقدرة على مَن يمنعه عن التَّصرُّف، فكان في بدء سورة التَّغابن الملكُ والحمد والعدل، وتقرير الأحكام في سورة الطَّلاق متضمِّنٌ لهذه الأمور المفتقرة إليها، فيكون لسورة الطَّلاق نسبة إلى سورة التَّغابن، هذي هي المناسبة الأولى بين السّورتين. أمّا المناسبة الثّانية فآتيةٌ مِن أنَّ الحقَّ ﷻ أشار في آخر سورة التَّغابن إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [التَّغابن: 18] وفي أوَّل هذه السّورة إلى كمال علمه بمصالح النِّساء وبالأحكام المخصوصة بطلاقهنَّ، فكأنَّه بَيَّنَ ذَلِكَ الكُلِّيَّ المتعلِّقَ بعلم الله في سورة التَّغابن بِهَذِهِ الجزئيّات المتعلِّقة بعلم مصالحِ النِّساء في سورة الطّلاق[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾: أصل الطَّلاقِ: التّخليةُ من الوَثاقِ، يقال: أَطۡلَقۡتُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 558.

البعيرَ من عِقاله، وطَلَّقْتُهُ، وهو طالِقٌ وطَلْقٌ بلا قيدٍ، ومنه استُعير: طَلَّقْتُ المرأةَ، نحوُ: خلّيتُها، فهي طالِقٌ؛ أي: مُخَلّاةٌ عن حِبالة النّكاح[1]، والمعنى المحوريُّ تسيُّبُ ما كان محبوسًا، مندفعًا من حبسه بقوّةٍ ابتعادًا وانبساطًا، ومن ذلك طلاق المرأة من زوجها، فهو لمعنيين: أحدُهما حَلُّ عُقدة النِّكاح، والآخَرُ بمعنى التَّخْلية والإرسال[2]. وفي الشَّريعَةِ: هو رَفْعُ الحِلِّ الَّذي بِهِ صارَتِ المَرْأَةُ مَحِلًّا لِلنِّكاحِ، ويوجِبُ زَوالَ المِلْكِ بِاعْتِبارِ سُقوطِ اليَدِ عِنْدَ انْقِضاءِ العِدَّةِ في المَدْخولِ بِها، وانْعِدامِ العِدَّةِ عِنْدَ عَدَمِ الدُّخولِ، والِاعْتِياضِ عِنْدَ الخُلْعِ[3].

2) ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: (عدّ) أصلٌ صحيح واحد لا يخلو من العدِّ الذي هو الإحصاء. ومن الإعدادِ الذي هو تَهْيِئَةُ الشَّيء، وإلى هذين المعنيين ترجع فروعُ الباب كلُّها. فالعدُّ: إحصاء الشَّيء، تقول: عَدَدتُ الشَّيء أعدُّه عدًّا فأنا عادٌّ، والشَّيء معدود[4]، والعِدَّةُ بالكسر: الشَّيء الذي يُعدُّ. والمعنى المحوريُّ: توالي جنس الشَّيء متَّصلًا منضبطًا[5]، وهيَ في الشَّرْعِ: اسْمٌ لِمُدَّةٍ تَتَرَبَّصُ فيها المَرْأَةُ لِمَعْرِفَةِ بَراءَةِ رَحِمِها أَوْ لِلتَّعَبُّدِ أَوْ لِتَفَجُّعِها عَلَى زَوْجِها[6].

3) ﴿وَأَحْصُواْ﴾: الإحصاء: التَّحصيل بالعدد، يقال: قد أحصيتُ كذا، وذلك من لفظ الحصا، واستعمال ذلك فيه من حيث إنّهم كانوا يعتمدونه بالعدّ كاعتمادنا فيه على الأصابع، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ٢٨﴾ [الجن: 28]؛ أي: حصّله وأحاط به[7]، ويقال: (أَحْصَى) الشَّيْءَ: عَدَّهُ[8]، وفي المصباح للفيّوميِّ: "أن الفعل يتحمَّلُ ثلاثة معانٍ: تقول: أحصيتُ الشَّيءَ بالألِفِ: عَلِمتُهُ، وأحصيتُه: عَدَدتُه، وأحصيتُه: أَطَقْتُهُ[9].

4) ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: (فحش) كلمةٌ تدلُّ على قبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، يقولون: كلُّ شيءٍ جاوز

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (طلق).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلق).
(3) السّرخسي، المبسوط: 6/ 2.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدّ).
(5) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (عدد).
(6) الشربيني، مغني المحتاج: 5/ 78.
(7) ابن سيده، المحكم: (حصا).
(8) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حصي)، والرازي، مختار الصحاح: (حصا).
(9) الفيومي، المصباح المنير: (حصي).

قَدْرُهُ فهو فاحشٌ[1]، والمعنى المحوريُّ: صُدورُ ما يفشو استقباحه، أو حِدَّةُ وقْعِهِ على الحِسِّ، وقد فسَّر الشّافعيُّ - رحمه الله - الفاحشةَ بالبَذاءِ وسلاطةِ اللِّسان[2]. الفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قبحُهُ من الأفعال والأقوال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ [النّور: 19]، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: 33]، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النِّساء: 19]، كنايةً عن الزّنا، وكذلك قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ [النِّساء: 15][3].

5) ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: (بين) أصل واحد، وهو بُعْدُ الشَّيء وانكشافُه، وبان الشَّيءُ وأبان إذا اتَّضحَ وانكشَفَ. وفلانٌ أبينُ من فلانٍ؛ أي: أوضحُ كلامًا منه[4]. والكلمةُ قرئت باسم الفاعل واسم المفعول، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر عن عاصم: (مبيَّنة) بفتح التَّحتيَّة؛ أي: كانت فاحشةً بيَّنتْها الحُجَّة أو بيَّنَها الخارجُ، ومَحمَلُ القراءتين واحد[5].

6) ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: الحدّ: الحاجز بين الشَّيئين الَّذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، يقال: حَدَدْتُ كذا: جعلتُ له حدّا يُميَّز، وحَدُّ الدّار: ما تتميَّزُ به عن غيرها، وحَدُّ الشَّيءِ: الوصفُ المحيط بمعناه المميِّزُ له عن غيره، وحَدُّ الزِّنا والخمر سمّي به لكونه مانعًا لمتعاطيه من معاودة مثله، ومانعًا لغيره أن يسلكَ مَسلَكَهُ، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أحكامَه، وقيل: حقائقَ معانيه.

وجميعُ حدود الله على أربعة أوجه: إمّا شيُءٌ لا يجوز أن يُتعدّى بالزّيادة عليه ولا القصورِ عنه، كأعداد ركعات صلاة الفرض، وإمّا شيءٌ تجوز الزّيادة عليه ولا يجوزُ النُّقصان عنه كالزَّكاة، وإمّا شيءٌ يجوز النُّقصان عنه ولا تجوز الزّيادة عليه كالتَّزوُّجِ بأربعٍ فما دون، وإمّا شيءٌ يجوز كلاهما كصلاة النَّفل المقيَّدة مثلِ الضُّحى؛ فإنَّها ثمانٍ، فتجوز الزّيادة عليها والنُّقصان منه[6].

7) ﴿يَتَعَدَّ﴾: العين والدّال والحرف المعتلُّ أصلٌ واحد صحيحٌ يرجع إليه الفروعُ كلُّها،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (فحش).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (فحش).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 301.
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حدد)، والأمثلة المذكورة في التمثيل للحدود من تعليقات المحقق.

وهو يدلُّ على تجاوُزٍ في الشّيء وتقدُّم لِما ينبغي أن يُقتصَر عليه، والتَّعدّي: تجاوُزُ ما ينبغي أن يُقتصَر عليه[1]، وتخطّي الحقِّ إلى ما ليس حقًّا[2].

8) ﴿يُحۡدِثُ﴾: (حدث) أصل واحد، وهو كونُ الشَّيء بعدَ أنْ لم يكن. يقال: حدث أمرٌ بعدَ أن لم يكن[3]، والحدوث: كون الشَّيء بعد أن لم يكن، عَرَضًا كان ذلك أو جوهرًا، وإحْداثه: إيجاده[4].

9) ﴿أَمۡرًا﴾: الأَمْرُ: الشَّأنُ، وجمعه أُمور، ومصدرُ أمرتُه: إذا كلّفتَهُ أن يفعل شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][5]. والمعنى المحوريُّ: نفاذٌ مع علوٍّ[6]، وقد قال القنَّوجيُّ: "أراد بالأمر هنا الرَّغبةَ في الرَّجعة، والمعنى: التَّحريض على الطّلاق الواحدة، والنَّهي عن الثَّلاث. فإنَّه إذا طلَّق ثلاثًا أضرَّ بنفسه عندَ النَّدم على الفراق والرَّغبة في الارتجاع، فلا يجدُ إلى المراجعةِ سبيلًا"[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التـزامُ أحكـام الـطَّلاق وعـدمُ تعدّيها

أمر الله المؤمنين - إذا أرادوا تطليق نسائهم - أن يطلِّقوا نساءهم في الطُّهر الَّذي يُحسب لهنَّ من عدّتِهنَّ، وهو الطُّهر الَّذي لا وقاعَ فيه، ولا يطلقوهنَّ في حيضٍ لا يَعتَدِدْنَ به من قُروئهن. كما أمرهم بضبطِ العِدَّةِ وحفظِها، والخوفِ من تعدّي حدود الله، وعدم إخراجِهنَّ من مساكنهنَّ الَّتي كُنّ فيها قبل الطَّلاق حتى تنتهيَ عدّتُهن، إلّا أنْ يأتينَ بمعصيةٍ ظاهرة كالبذاءِ على الأحماء والأزواج،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (عدو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدث).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حدث).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أمر).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر).
(7) القنوجي، نيل المرام: 451.

أو الخروجِ من الدّار قبل انقضاء العدّة، ومَن يتعدَّ هذه الحدودَ فقد ظلم نفسه، وارتكبَ ما يضرُّها ويجعلُها تندم على ما فعلت. ثمَّ أبانَ حكمة الإبقاء في البيوت، وهى سهولةُ مراجعتِها لميل القلب إليها وتحوُّلِه من بُغْضٍ إلى محبَّةٍ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النِّداء بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

عظمةُ النَّبيِّ والحفايةُ بندائه، مع اختلاف درجات المستقبلين للنِّداء

تتمثَّل بلاغة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في كون الجملة مصدَّرةً بحَرْفَي النِّداء والتَّنبيه: الياء و الهاء، وفي ذلك مزيدُ اعتناءٍ بمضمون الجملة التي ستتبعُ النِّداء، فمِن غايات الحروف في البيان القرآنيِّ الحفايةُ بتنبيه المخاطب بمضامينِ المعاني. وحرفُ النِّداء (يا) لنداء البعيد كما يقول النحاة: "وللمنادى النّاءِ أو كالنّاء يا"، والمنادى النّائي هو البعيد، ويوظَّفُ أيضًا لنداء القريب؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ بُعْدُ النَّبيِّ ﷺ، إلّا إذا كان بُعدَ مكانٍ ومكانةٍ، أو هو من إنزال القريب منزلةَ البعيد؛ للتَّنبيه وإبعاد غفلة قومه، وهذا توكيدٌ ومَظهَرٌ من مظاهره، ففي النِّداء إعلاءٌ لشأن النَّبيِّ ورفعٌ لقدره العظيم، ففيه تعظيمٌ وتكريم. وقد يضافُ إلى ما سبق أنَّ توظيف أداة النِّداء (يا) لبيانِ دلالتها على اختلاف إقبال البشر على تنفيذِ التَّكليفات، وذلك إذا كان النِّداء للأمَّة، فمنهم القريبُ الذي سيبادر بالتّنفيذ، ومنهم البعيد الذي سيتخفَّف من التّكليف ولن يطيعَ، ومنهم الواقعُ بين القريب والبعيد، وهو المتوسِّط الذي سوف ينفِّذُ الأمر لكن بتباطُؤٍ وتلكُّؤٍ وعدمِ مبادرة.

بلاغةُ المنادى (أيُّ):

تتابعُ التّأكيدات مظهرٌ من مظاهرِ التَّنبيه؛ التفاتًا للحكم

(أيُّ) في النِّداء تأتي وُصلةً لنداء المحلّى بـ(أل)(2)، وهي مظهرٌ من مظاهر التّوكيد في ذكر المنادَى، فالمنادى كأنَّه ذُكر مرَّتين،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 134.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 92.

مرَّةً بكونه منادًى أصيلًا، ومرَّةً أخرى بذكره بدلًا أو صفةً كما يقول النُّحاةُ بعدَ لفظةِ (أيُّها). كما أنَّ في لفظة (أيُّ) مظهرًا من مظاهر الإطناب، ففيها جزالةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيل[1]، فالإجمالُ في (أيّ)، والتَّفصيلُ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾. وثَمَّ توكيدٌ آخَرُ يتمثَّلُ في (الهاء) الَّتي هي للتَّنبيه، والتَّنبيهُ هنا تنبيهٌ للقوم من خلالِ خطاب النَّبيِّ الأعظمِ ﷺ، ففيه تنبيهٌ مِن الخطاب لِمَن حضَرَ[2].

نكتةُ خُصوصيَّةِ لفظةِ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ بالنِّداء:

إمـامـةُ الـنَّـبـيِّ قومَهُ وتَرَؤُّسُه، وسدُّه مَسدَّهم كلِّهم

خُصَّ النَّبيُّ ﷺ بالنِّداء وعُمَّ بالخطاب؛ لأنَّ النَّبيَّ إمامُ أمَّته وقدوتُهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلانُ، افعلوا كيت وكيت؛ إظهارًا لتقدُّمه واعتبارًا لترؤُّسِه، وأنَّه مَدَرَةُ قومه ولسانُهم؛ أي: بيتُهم، والَّذي يَصدُرون عن رأيه، ولا يَستبِدّون بأمرٍ دونه، فكان هو وحدَه في حكم كلِّهم، وسادًّا مَسَدَّ جميعِهم[3]، وهذا كلامٌ حسن كما ذكر أبو حيّانَ في البحر[4]، وكأنَّ ثَمَّ محذوفًا تقديرُه: يا أيُّها النَّبيُّ وأمَّةَ النَّبيِّ إذا طلَّقتم، فالخطابُ له ولهم؛ أي: أنت وأمَّتُك[5]، فأغنى ذكرُه عن ذكرهم، فاختيارُ "لفظ النَّبيّ لِما فيه من الدَّلالة على علوِّ مرتبته"[6].

وعبارةُ أبي السُّعود: "تخصيصُ النِّداء به ﷺ مع عموم الخطاب لأمَّته أيضًا؛ لتشريفه ﷺ، وإظهارِ جلالة مَنصِبه، وتحقيقِ أنَّه المخاطب حقيقةً، ودخولُهم في الخطاب بطريقِ استتباعه ﷺ إيّاهم وتغليبِه عليهم"[7]، وفي النِّداء ملاطفةٌ، فإذا أراد اللَّه بالخطاب

(1) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 154.
(2) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 155.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 552.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 196.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 196.
(6) الشهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 8/ 203.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 260.

المؤمنين لاطفَهُ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وإذا كان الخطابُ باللَّفظ والمعنى جميعًا له قال: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41][1]، وفيه أيضًا تنزُّلُ الخطاب في الرُّتبتين؛ ليبيِّنَ للأعلى ما يبيِّنُه للأدنى[2]. ويضافُ إلى ما سبق مِن اصطفاءِ لفظةِ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ دون (الرَّسول) مفردةُ (نبأ) الدّالّةُ على أنَّ ما سيُقال أمرٌ عظيم، يجبُ الانتباهُ له وعدمُ إهماله؛ كي تكونَ هناك مراقبةٌ ذاتيَّةٌ من المرء المقصود مِن هذه الأنباء.

بلاغةُ التَّعبير بالجملةِ الشَّرطيَّة:

تلازُمُ الشَّرطِ مع الجزاء في الوقوع

تتمثَّل بلاغةُ الجملة الشَّرطيّة في قيامِها على الرَّبط بينَ السَّبب والنَّتيجة، وكأنَّهما متلازمان في الوقوع، فالشَّرطُ معلومُ الوقوع، وإنْ كان الشَّرطُ معلومَ الوقوع فالجزاءُ لازمُ الوقوع[3]، فالتَّطليقُ حادثٌ؛ لتصدُّره بـ﴿إِذَا﴾ مؤكِّدَةً الوقوعَ، والجزاءُ لازمُ الوقوع، لكنْ بشرط عدم الإضرار.

نكتةُ الاشتراط بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

وقوعُ الطَّلاق خلافُ الأصل، مع جواز وقوعِه ساعةَ استحالة العِشرة

نكتةُ الاشتراط بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن) هو الخروجُ عن الظّاهر في استعمال كلتا الأداتين؛ فإنّ الإتيان بـ﴿إِذَا﴾ في هذا الموضع - وهي مستعملةٌ مع الأمرِ المحقَّقِ الوقوع - هو خروجٌ عن الظّاهر؛ لأنّ الطّلاق مكروهٌ في شريعة نبيّنا ﷺ، ولكنَّ الغرض من أداة التّحقيق هو التّأكيدُ على تحقُّق جواب الشّرط في جَعْلِ طلاقهنَّ حال وقوعه أن يكونَ موافقًا لشرع اللّه في كونه مستقبِلًا للعِدَّة. والمراد: إذا طلَّقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم، ولكنْ طلِّقوهن لعدَّتِهنَّ؛ أي: في أطهارِهنَّ، وتعليقُ ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ بـ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّة مُشعِرٌ بأنَّ الطّلاق خلافُ الأصل في علاقة الزّوجين الّتي قال اللّه فيها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 143.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 55.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 421.

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الرّوم: 21][1]، فكأنَّ صورةَ الشَّرطِ جاءتْ في هذا السّياق؛ لأنَّ الطَّلاق لم يقعْ بعدُ؛ فكان ذلك تنفيرًا من ذلك، وتبعيدًا عنه، ويضاف إلى ذلك أنَّ الطَّلاق لا بدَّ له من نيَّةٍ جازمةٍ، فكانت ﴿إِذَا﴾ هي الواشيةَ بهذا التّوجُّه.

وفي التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دلالةٌ على لزوم الأمر، وأنَّه ليس ثَمَّ بُدٌّ مِن وقوع الفرقة بين الرَّجل والمرأة[2] إذا استحالت العِشرة بينهما، أمّا (إنْ) فدالَّةٌ على الشَّكِّ في وقوع الطّلاق بين الزّوجين، وهذا خلافُ الواقع. ويجوزُ أن نقولَ: إنَّ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)؛ لأنَّ الحديث عن حالاتٍ تجسَّدتْ بالفعل؛ لذا صار الأمرُ واقعًا معيشًا، ويؤكِّد هذا توظيفُ الفعلِ الماضي ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ الدّالِّ على انتهاء الحدث، والنِّكاتُ لا تتزاحمُ في بيان دلالة الكلمات والأدوات.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بالفعل الماضي ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾:

تنزيلُ المُشارِفِ منزلةَ الشّارع، وتعليقُّ الخاصِّ بالعامِّ

الفعلُ الماضي ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ مستعملٌ في معنى: أرَدتُّمُ الطّلاقَ، وهو استعمالٌ واردٌ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، بتشبيهِ الفعلِ المستقبليِّ بالماضي بجامع تحقُّق الوقوع، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6] الآية، والقرينةُ ظاهرةٌ. والآيةُ تدلُّ على إباحةِ التَّطليق بدلالةِ الإشارة؛ لأنَّ القرآن لا يُقدِّرُ حصولَ فعلٍ محرَّم من دون أن يبيِّنَ منعَه[3]، ففي الفعل ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ إذن تنزيلُ المُشارِفِ للفعلِ منزلةَ الشّارع فيه. ويجوزُ في الفعل ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ أن يكونَ مِن تعليق الخاصِّ بالعامِّ، وهو أبلغُ في الدَّلالة على اللُّزوم، كما يقال: إنْ ضربتَ زيدًا فاضربْه ضربًا مبرِّحًا؛ لأنَّ المعنى: إنْ يَصدُرْ منك ضربٌ فليكنْ ضربًا شديدًا، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 295.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1002.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 295.

أحسنُ من تأويله بالإرادة[1]، والمعنى: إنْ يكنْ منك تطليقٌ فليكنْ للعدَّة، ويجوز أن يكون الفعلُ الماضي دالًّا على زمنه كما جاء في النُّكتة السّابقة.

دلالةُ التَّضعيف في لفظةِ ﴿طَلَّقْتُمُ﴾:

الطَّلاقُ لا يكونُ إلّا بعدَ مقدِّماتٍ كثيرة

ورَدَ قولُه تعالى: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾... ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ بصيغةِ التَّضعيفِ والجمع، وممّا يلفِتُ النَّظر هنا: أنَّ فعل (طلّق) قد جاء مضعَّف اللّام، و(طلَقَ) فعلٌ لازم، ويأخذُ مفعولًا بزيادةِ همزةٍ أوَّلَهُ (أطلق)، أو بتضعيف لامه (طلَّق)، وذكر علماءُ اللُّغة كذلك أنَّهما بمعنًى واحدٍ، إلّا أنّ الأوَّل كان لغير النّساء، واختصّ الثّاني بالنّساء[2]، وفي التّضعيف معنى التّدرُّج إلى الكمال، وأنَّ الّذي بالهمزة يدلُّ على تمام الفعل[3]، والفائدة هنا: أنَّ قرار الطّلاق ينبغي أن يكون بعدَ مقدّماتٍ كثيرة، كلُّ مقدّمةٍ تكون نتيجتُها: الطّلاق هو الحلُّ، على حدّ القاعدة: "إذا تقابل الجمعُ بالجمع تقتضي القسمةُ آحادًا"[4]، ولعلّنا نلاحظُ الجمعَ في ﴿طَلَّقْتُمُ﴾؛ ليدلَّ ذلك على أنَّ القضيَّة قضيَّةُ مجتمعٍ لا فردٍ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهمّيَّةِ الاعتناء بهذه القضيَّة؛ لِما يترتَّب عليها من مصالحَ ومفاسدَ.

معنى (أل) في ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾:

معنى العهدِ دالٌّ على طائفةٍ بعينِها، والجنسيَّةُ فيها الشُّمول

(أل) في لفظة ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ للعهد، والمراد بالنّساء فيها المدخولُ بهنَّ من المعتدّات بالحيض[5]؛ لأنَّ غير المدخول بهنَّ خرجْنَ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: 49].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 325.
(2) الهروي، إسفار الفصيح: 1/ 526 - 528، والراغب، المفردات، (طلق).
(3) ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، شرح التسهيل: 4/ 1765، والسامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 66، 81.
(4) الرازي، المحصول: 6/ 98، والتفتازاني، شرح التلويح على التوضيح: 1/ 98.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 328.

ويجوزُ أن تكونَ (أل) جنسيَّةً شاملةً لكلِّ النّساء؛ لأنَّ لفظ الطّلاق يصلح لكلِّ امرأةٍ متزوِّجةٍ ممّا يصحُّ أن تتعرَّض للطَّلاق.

نكتةُ وُرودِ لفظةِ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾:

دلالـةُ الـكـثرةِ والـشُّـمـول، مـع الـتَّـنـاسـب بـين الـعـامـل والمعمول

كلمةُ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ ليس لها مفردٌ من لفظها، فمفردُها امرأةٌ، وعادةُ القرآن أنّه عند القلَّة يستعملُ لفظةَ ﴿نِسۡوَةٞ﴾ [يوسف: 30] كما في سورة يوسف، ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ [يوسف: 30]، ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [يوسف: 50]، فإذا أراد الكثرةَ والتَّعدُّدَ ومطلقَ جماعة الإناث استعمَلَ لفظةَ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾؛ إشارةً إلى كثرة النّساء، وأنَّ ذلك ليس واقعًا في دائرة صغيرة، وإنّما يعمُّ كلَّ النّساء المدخول بهنّ، وهُنَّ كثيرٌ، فالمقصودُ نساءُ الأمّة. وقد يكون معنى الجمعِ مناسبًا للجمع في الفعلِ ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾، فالخطابُ لم يأتِ بالإفراد (طلَّقتَ)، وإنّما ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾، فكان التَّناسُبُ حاصلًا بين العامل ومعموله، وقد قيل: النِّساءُ جمعُ نسوةٍ، فهو جمعٌ واحدُه اسمُ جمعٍ، ودليلُ ذلك أنَّ النِّسبة إلى النّساء تكونُ بلفظ النّسوة، فيقال في النَّسب إلى نساءٍ: نِسْويٌّ؛ لأنَّ واحدَه نسوةٌ؛ إذ الجمعُ عند النَّسب يُرَدُّ إلى مفرده(1)، ومن هنا جيءَ بالنِّساءِ للعموم، وبالنِّسوةِ للقلَّة والعدد القليل.

سرُّ إيثارِ لفظةِ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ على لفظة (الأزواج):

انـفـصـامُ عُـرى الـمـودَّة والسَّكن بينَ الزَّوجين

جاء التَّعبير القرآنيُّ ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ولم يقل: (طلَّقتُم الأزواجَ)؛ توضيحًا لحاصلٍ، وهو انفصامُ عُرى المودَّة والمحبَّة بين الزَّوجين، فكأنَّ المرأة ستصيرُ أجنبيَّةً عنه بعد أنْ كانت حليلتَهُ وزوجته، والزَّوجيَّة مبدؤُها ومنتهاها المودَّةُ والرّحمة، وهاتان لم تعودا موجودتين، فصار لفظ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ هو الأوفقَ بمتطلَّبات الموقف.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾:

ضـرورةُ الـفِـراقِ إنْ لـم يـكـن ثَـمَّ وِفاق

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ التَّعقيبُ وربطُ الجواب(2)، فمن

---

(1) محمد ياس خضر، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 317.

(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 118.

دون الفاء لا يلتئمُ الكلام؛ لوقوع الجواب جملةً طلبيَّةً، والتَّعقيبُ والرَّبطُ دالّان على العواقبِ الوبيلة الّتي تترتَّب على الإمساكَ ضِرارًا من دون طلاق، فكأنَّ الفاء واشيةٌ بضرورةِ الفِراق إن لم يكن هناك وِفاق، وتدلُّ الفاءُ على جملةٍ محذوفة قبلها، قد يكون تقديرها: إذا طلَّقتم النّساء فاختاروا وقتًا ملائمًا لذلك، فطلّقوهنّ لعدَّتهنّ...، وقد تكونُ الفاءُ تحذيريَّةً للأزواج حتّى لا يضرَّ الزَّوجُ مطلَّقتَهُ بطلاقٍ بِدْعيٍّ محرَّمٍ.

دلالةُ تكريرِ فعل التَّطليق ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾:

فضلُ العنايةِ بالطلاق؛ لكونه حدثًا عظيمًا

تكريرُ فعل ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ لمزيد الاهتمام به، فلم يقل: إذا طلَّقتم النِّساء فلطُهِّرهنَّ(1)، وفي التَّكرارِ تركيزٌ على الحدث العظيم الّذي تعالجه الآيات، وأنَّه سيكون المرتكزَ الضّوئيَّ الّذي ستدور حوله موضوعاتُ السّورة، فكان التَّكرارُ هامسًا بقيمةِ المكرَّر، واشيًا بضرورةِ الحِفاية بكلِّ أحكامِه وفروعه.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾:

الإرشادُ للاتِّباع، والنَّهيُ عن الإضرار بالمرأة

في الأمر ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ إرشادُ المؤمنين إلى ما يجب عليهم اتِّباعُه إذا ما أرادوا مفارقةَ أزواجهم، ونهيُهم عن إيقاع الطّلاق في حال الحيض أو ما يشبهها كالنِّفاس؛ لأنَّ ذلك يكون طلاقًا بِدْعيًّا محرَّمًا؛ إذ يؤدّي إلى تطويل عِدَّةِ المرأة؛ لأنَّ بقيَّة أيّام الحيض لا تُحسَبُ من العِدَّة، ويؤدّي أيضًا إلى عدم الوفاء لها؛ حيث طلَّقها في وقتٍ رغبتُه فيها فاترةٌ(2).

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾:

بيانُ وقتِ الطُّهر؛ لدلالةِ اللّام على التَّوقيت والتَّحديد

اللّام في قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لامُ التَّوقيت، وهي بمعنى (عندَ)، مثل: كتَبَ ليوم كذا من شهر كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]، ولمّا كان مدخول اللّام هنا غيرَ زمانٍ عُلِمَ أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 295.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 443.

المراد الوقتُ المضاف إلى عدَّتهن؛ أي: وقتُ الطُّهر، ومعنى التَّركيب: أنَّ عدَّةَ النّساء جُعلتْ وقتًا لإيقاع طلاقِهنَّ، فكُنّيَ بالعِدَّة عن الطُّهر؛ لأنَّ المطلَّقة تعتدُّ بالأطهار. وفائدةُ ذلك أنْ يكون إيماءً إلى حكمة هذا التَّشريع، وهي أنْ يكون الطّلاق عند ابتداءِ العِدَّة، وإنّما تُبتدَأُ العِدَّةُ بأوَّل طهرٍ من أطهارٍ ثلاثةٍ؛ لدفع المضرَّة عن المطلَّقة بإطالة انتظار تزويجِها؛ لأنَّ بين حيضها - إذا طُلِّقَتْ فيه - وبين طهرها أيامًا غيرَ محسوبة في عدَّتها، فكان أكثرُ المطلِّقين يقصدون بذلك إطالةَ مدَّة العدَّة؛ ليوسِّعوا على أنفسِهم زمنَ الارتياء للمراجعة قبل أن يَبِنَّ منهم[1]. وقيل: إنَّ اللّام بمعنى (في)؛ أي: في عدَّتِهنَّ[2].

نكتةُ إضافةِ العدَّةِ إلى ضمير النّساء:

خصوصيَّةُ العِدَّةِ بالنِّساء المدخولِ بهنَّ

تتمثَّلُ نكتةُ إضافةِ العدَّةِ إلى ضمير النّساء في الإشارة إلى أنَّهن النّساءُ المدخولُ بهنَّ؛ لأنَّ غير المدخول بهنَّ لا عدَّةَ لهنَّ إجماعًا[3]، ثمَّ إنَّ العدَّةَ أمَسُّ بهنَّ وحدهنَّ وأخَصُّ؛ لذا قالوا: الطّلاق للرّجال، والعدَّة للنّساء، ويضافُ إلى ذلك التَّنويهُ بحالهنَّ وأنَّهنَّ منتظِراتٌ ألّا يضرَّهنَّ أزواجهنَّ في عدَّتِهنَّ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾:

ربطُ الطَّلاقِ بحدودِهِ وشرائطِه

جاءت الواو في قوله: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ عاطفةً ودالّةً على مطلق الجمع؛ أي: إذا طلّقتم النّساء فلا يُجعَلِ الطّلاق على عمومه، وإنّما ينبغي أنْ يضافَ له إحصاءُ العدَّة؛ إشارةً إلى ارتباطِ قضيَّةِ الطّلاق بشرائطِها وحدودها.

دلالةُ الأمر بـ﴿وَأَحۡصُواْ﴾:

الإرشادُ والنُّصح لضبطِ العدَّة؛ لكثرة فوائدِها

الإحصاءُ: معرفةُ العدِّ وضبطه، وهو مشتقٌّ من الحصى، وهي صغارُ الحجارة؛ لأنَّهم كانوا إذا كثُرتْ أعدادُ شيءٍ جعلوا لكلِّ معدودٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 295.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 558.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 297.

حصاةً ثمَّ عدّوا ذلك الحصى، قال تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجنّ: 28]. وقد جاء الأمرُ هنا للإرشاد والنُّصح بضبط أيّام العدّة، والإتيان على جميعها، وعدم التّساهل فيها؛ لأنّ التّساهل فيها ذريعةٌ إلى أحدِ أمرين: إمّا التَّزويجِ قبل انتهائها فرُبَّما اختلط النَّسَب، وإمّا تطويلِ المدَّة على المطلَّقة في أيّام مَنۡعِها من التَّزوُّج؛ لأنّها في مدَّة العدَّة لا تخلو من حاجة إلى مَن يقوم بها[1]. قال أبو حيّان: "وفي الإحصاء فوائدُ: مراعاةُ الرَّجعةِ، وزمانِ النّفقة، والسُّكنى، وتوزيعُ الطّلاق على الأقراءِ، وإذا أراد أن يطلِّق ثلاثًا، والعلمُ بأنّها قد بانت، فيتزوَّج بأختها وبأربعٍ سِواها"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعِدَّةَۖ﴾:

العهديَّة؛ لمشروعيَّةِ العِدَّةِ قبلًا

التَّعريف في ﴿ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ للعهد؛ فإنَّ الاعتدادَ مشروعٌ من قبل، والكلامَ على تقدير مضافٍ؛ لأنَّ المُحصَى أيّامُ العدَّة[3]، ولم يقل القرآن: (وأحصوا عدَّتهن)؛ بُعۡدًا عن تكرار الكلمة بعينِها من دون طائل، مع جوازِ جعلِها مَثَلًا لا تعلُّقَ له بما قبله، وفي الإضافةِ (عدَّتهن) فَواتُ جعلِها مثلًا.

بيانُ المخاطبينَ بفعل الإحصاء:

تعدُّدُ المخاطبين من زوجٍ ووليٍّ

تعدَّدَ المخاطبون بواو الجماعة في الأمر ﴿وَأَحۡصُواْ﴾، وذلك على أوجه، **الأوَّلُ**: المخاطبون هم مَن عاد عليهم الضَّمير ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾؛ فيأخذُ كلُّ مَن يتعلَّق به هذا الحكمُ حظَّه من المطلِّق والمطلَّقة ومَن يطَّلعُ على مخالفةِ ذلك من المسلمين وخاصَّةً ولاة الأمور من الحُكّام وأهلِ الحسبة، فإنَّهم الأولى بإقامةِ شرائع اللّه في الأمَّة، وبخاصَّةٍ إذا رَأوا تفشّيَ الاستخفاف بما قصَدَتۡهُ الشّريعة[4]. **والثّاني**: إنَّ عَوَدَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 195.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.

الخِطاب على الأزواج أولى؛ لأنَّ الضَّمائر كلَّها لهم[1]، وكذلك كانوا هم المخاطبين لغفلة النِّساء[2]. و**الثّالث**: المخاطب بقوله: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ الأزواجُ على سبيل الأصالة؛ لأنَّهم هم المخاطبون بقوله: ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ وبقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، ويدخلُ معهم الزَّوجات على سبيل التَّبَع، وكذلك كلُّ من له صلةٌ بهذا الحكم، وهو إحصاءُ العِدَّة[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

الاعــــتراضُ بلَفْتِ النَّظَر إلى أهمّيَّةِ التَّمسُّكِ بالتَّقوى

جاءَ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مُصدَّرًا بالواو، وهذي الواوُ جاءتِ اعتراضيَّةً بين الجملتين الطلبيَّتَين: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾، ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[4]؛ حثًّا على التَّقوى وتمسُّكًا بها في موقفٍ عصيب، يُبتغى فيه وجهُ اللّه تعالى. ويمكنُ أن تكون الواوُ للحال على تقدير: وأحصوا العدَّةَ متَّقين للّهِ في أثناء ذلك.

نكتةُ حذف متعلِّق ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

عـمومُ التَّقوى وشمولُها لكلِّ مطلوب

في حذفِ متعلّق ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عمومٌ وشمول؛ ليعمَّ جميعَ ما يُتَّقى اللّهُ فيه، فيكون هذا من قبيل الاعتراض التَّذييليِّ، وأوَّلُ ما يُقصَدُ بأنْ يُتَّقى اللّه فيه ما سيق الكلامُ لأجله[5]؛ فالأصلُ إظهار التَّقوى في موقف الطَّلاق، ثمَّ عمَّ ذلك بالحذفِ؛ كي يصلحَ في كلِّ موضوع، سواءٌ أكان الأمرُ طلاقًا أم غيرَه، وكأنَّ التَّقوى صارت شعارًا ودثارًا للإنسان المسلم.

دلالةُ الأمر بـ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

بيانُ التَّحذيرِ والتَّحدّي، وعدمُ الاستهانةِ بحقوقِ المرأة

جاءَ الأمرُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ دالًّا على التَّحذير من التَّساهل في أحكام الطّلاق والعدّة؛ لأنَّ أهل الجاهليَّة لم يكونوا يُقيمون

(1) القِنَّوجي، نيل المرام، ص: 449.
(2) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 496.
(3) د، سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 444.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.

للنِّساء وزنًا، وكان قرابةُ المطلَّقات قلَّما يُدافعونَ عنهنَّ، فتناسى النّاس تلك الحقوقَ وغَمَصوها، فلذلك كانت هذه الآياتُ شديدةَ اللهجة في التَّحدّي[1]. وفي الأمرِ للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين معه خروجٌ عن ظاهر الأمر بكونه للإيجاب، وانصرافُه إلى معاني الزّيادة والثّبات، وفي ذلك دلالةٌ على استحقاقهم الخطابَ من ربِّهم، وأنَّهم أهلٌ لأنْ يُنفِّذوا ما أمرهم اللّه به بلا توانٍ أو تكاسلٍ.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾:

المبالغةُ في الاتِّقاء ومراعاةِ حقوقِ النِّساء

يجوزُ في لفظةِ ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾ النَّصبُ على البدليَّة أو النَّعتُ، فهي تابعٌ، والتّابعُ يأخذُ حكمَ متبوعه في الإعراب، وفي النَّصِّ على الرُّبوبيَّة تأكيدٌ للأمر ومبالغةٌ في إيجاب الاتِّقاء[2]، مع إضافةِ لفظة (ربّ) إلى ضمير المخاطبين؛ إشعارًا بأنَّهم أحِقّاءُ بالخطاب والتّكريم، رعايةً لحقوق البشر، فكما يُربّيكم ربُّكم ويرعاكم كونوا أهلًا لتَقواهُ وإعطاءِ النِّساء حقوقَهنَّ، وعبارة البقاعيِّ: "لإحسانه في تربيتكم في حملكم على الحنيفيَّة السَّمحة ودفعِ جميع الآصارِ عنكم"[3]. ويضاف إلى ذلك أنَّ فيه من المبالغة ما ليس في عدم الذِّكر، "فإنَّ لفظَ الرَّبِّ يُنبِّهُهم على أنَّ التَّربية الّتي هي الإنعامُ والإكرام بوجوهٍ متعدِّدةٍ غايةُ التَّعداد، فيبالغون في التّقوى حينئذٍ خوفًا من فَوْتِ تلك التّربية"[4]. ثمَّ إنَّ لفظةَ (الرَّبِّ) فيها معنى الانتقام والغَيرة، فهو الّذي ربّاكم بمقتضى العدالة، فعليكم أن لا تتجاوزوا عنها، فلا تزيدوا على عدَّتهن بالمراجعة عليهنَّ ثمَّ تطليقِهنَّ[5].

علَّةُ الجمع بين لفظ الجلالة والوصفِ بـ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾:

ضرورةُ اتِّقاءِ الغضب ورعايةُ الحقوق والأحكام

تتمثَّلُ علَّةُ الجمع بين لفظ الجلالة وبين الوصفِ بـ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 298.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 329.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 143.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 561.
(5) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 422.

زيادةِ الحرص على التَّقوى؛ لذا أُتبِعَ اسمُ الجلالة بوصف ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾ للتَّذكير بأنَّه حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى غضبُه[1]، مع التّحذير من التّساهل في أحكام الطّلاق والعدَّة كما كان أهلُ الجاهليَّة يفعلون، وللمبالغة في وجوب المحافظة على هذه الأحكام. ثُمَّ في الجمع بين الاسم والصِّفة جمعٌ بين تربيةِ المهابة والخشيةِ من ذكر الاسم الأعظم، وبحارِ النِّعَمِ الّتي أسبَغَها الرَّبُّ على البشر، فيلزمُهم من ذلك المبالغة في تفعيل جانب التَّقوى في هذا الموقف الصَّعب الّذي تظهرُ فيه الأخلاقُ السّامقة.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾:

تحقُّق معنى الإحصاءِ كاملًا مع الاعتناءِ بالطَّلب

قولُه تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ جملةٌ استئنافيّة أو حاليّة من ضميرِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾؛ أي: حالةَ كون العدَّة في بيوتهن، ويجوزُ أن تكونَ بدلَ اشتمال من مضمون جملة ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾؛ لأنَّ مُكثَهنَّ في بيوتهنَّ في مدَّة العدَّة يُحقِّقُ معنى إحصاءِ العدَّة، ولكلا الوجهين جُرِّدت الجملةُ عن الاقتران بالواو جوازًا أو وجوبًا[2]، وفي تجريدِ النَّهي من حرف العطف إيذانٌ باستقلاله بالطَّلب اعتناءً به[3]، ويضاف إلى ذلك أنَّ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ توطئةٌ لقوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، حتّى كأنَّه نهى عن الإخراج مرَّتين: مندرجًا في العموم، ومفردًا بالخصوص[4].

علَّةُ النَّهي في قوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾:

حفظُ النَّسب وصيانةُ المرأة

نهى الله ﷻ أنْ يُخرِجَ الرّجلُ المرأةَ المطلَّقة من المسكنِ الّذي طلَّقها فيه، ونهاها هي أن تخرجَ باختيارها، فلا يجوزُ لها المبيتُ خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيبَ عنه نهارًا إلّا لضرورة التَّصرُّف؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 299.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 299.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 329.
(4) السكندري، حاشية السكندري على الكشاف: 4/ 554.

وذلك لحفظ النَّسب وصيانةِ المرأة[1]، ورعايةِ المودَّة والرّحمة بين الاثنين، وفي بقائِها في بيت الزّوجيّة بعد الطّلاق الرّجعيّ مَدْعاةٌ لأنْ يعيدَها الرّجل إلى عصمته بالقول أو بالفعل.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ بدءَ العدَّة قائمٌ والمرأةُ في بيتها

مِن المعاني المرتبطة بـ﴿مِنۢ﴾ ابتداءُ الغاية، وهذا المعنى يَشي بأنَّ ابتداء العدَّة يجب أن يكونَ والمرأةُ في دارها، غيرَ خارجة ولا مُخرَجة، محاولةً للحفاظ على كرامةِ المرأة الّتي قضت حياتَها في البيت محافِظةً عليه، حارِسةً له، يؤكِّد الإشارةَ إلى التَّكريم إضافةُ البيوتِ إلى ضميرهنَّ فقال: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾، وهذا له نكتٌ عدَّةٌ كما في المسألة التّالية.

نكتةُ إضافةِ البيوت إلى ضميرِ النّساء:

الاستحقاقُ واستصحابُ الحال مع بقاءِ حكم الزّوجيّة وقصديّة المكارمة

في إضافةِ البيوتِ إلى ضمير النّساء نكتٌ، الأولى: الإيماءُ إلى أنّهنَّ مُستحِقّاتٌ المكثَ في البيوت مدَّةَ العدَّةِ بمنزلة مالِكِ الشَّيءِ، وهذا ما يُسمّى في الفقه مِلكَ الانتفاع دون العين. الثّانية: بقاءُ المطلّقات في البيوت الّتي كُنَّ فيها أزواجًا استصحابٌ لحالِ الزّوجيّة؛ إذ الزَّوجةُ هي المُتصرِّفةُ في بيت زوجها، ولذلك يدعوها العربُ (ربَّةَ البيت). الثّالثة: بيانُ أنَّ للمطلَّقة حكمَ الزَّوجة ما دامت في العدَّة إلّا في استمتاع المطلِّق. الرّابعة: قصديّة المُكارمة بينَ المُطلِّق والمطلَّقة. الخامسة: قصدُ الانضباط في علّة الاعتداد؛ تكميلًا لتحقُّق لَحاقِ ما يَظهَرُ مِن حملٍ بأبيه المطلّق حتّى يَبْرَأ النَّسبُ من كلِّ شكٍّ[2]. ففي الإضافةِ إليهنَّ وهي لأزواجهنَّ تأكيدُ النَّهي ببيان كمال استحقاقهنَّ للسَّكن كأنَّه مِلكُهنَّ[3]، وقيل: أُضيفت إليهنَّ لاختصاصها بهنَّ من

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 384.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 299.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 329.

حيث السُّكنى(1)، وتعبيرُ البقاعيِّ: "وكأنَّه عبَّر بذلك إشارةً إلى أنَّ استحقاقَها لإيفاءِ العدَّة به في العظمة كاستحقاق المالك، ولأنَّها كانت في حال العصمة كأنَّها مالكةٌ له، فليس من المروءة إظهارُ الجفاء بمنعِها منه"(2).

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾:

بقاءُ المعتدَّة في البيت هو الأصلُ، والخروجُ خلافُ الأصل

جاءت الواوُ في قوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ عاطفةً ما بعدها على جملةِ ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾، وهو نهي لهنَّ عن الخروج؛ فإنَّ المطلِّقَ قد يُخرِجُها فترغبُ المطلَّقة في الخروج؛ لأنَّها تستثقلُ البقاء في بيتٍ زالَتْ عنه سيادتُها، فنهاهنَّ اللّه عن الخروج. وهذا التَّرتُّبُ بين الجملتين يُشعر بالسَّببيَّة، وأنَّ لكلِّ امرأةٍ معتدَّةٍ حقَّ السُّكنى في بيت زوجها مدَّةَ العدَّة؛ لأنّها معتدَّةٌ لأجلِهِ؛ أي: لأجلِ حفظ نسبه وعِرْضه(3). وقد يُفهَمُ أنَّ عدم إخراجهنَّ لتملُّكِهنَّ المسكنَ، فجاءَ العطفُ بالنَّفي بقوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾؛ أي: بأنفسهنَّ إنْ أردنَ ذلك من غيرِ مُخرِجٍ من جهة الزَّوج أو غيره، فعُلم من ذلك تحتُّمُ استكمال العدَّةِ في موضع السُّكنى، وأنَّ الإسكان على الزوج(4).

معنى (لا) في ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾:

التّأكيدُ على عدم خروجِ المرأة في كلِّ الأحوال

تَحتمِلُ (لا) أن تكون نافيةً وناهية، فإذا كانت لا ناهيةً كالّتي قبلها فظاهرٌ فيه الدَّلالة على منع خروجهنّ، وإذا كانت نافيةً فهو نفيٌ مرادٌ به النَّهيُ، وهو أبلغُ من النَّهي الصّريح(5)، فهي خبريَّةٌ في معنى الإنشاء، وكأنَّ عدم الخروج حاصلٌ بمجرَّدِ النَّفي.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 554.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 143.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 299.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 143.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 329.

علَّةُ الجمع بين الإخراج ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ والخروجِ ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾:

غَلْقُ دوائرِ الإذن بالخروج والإخراج

نجدُ فرقًا في المعنى بين التَّعبير بالفعل الرُّباعيِّ المزيد بحرفٍ (أخرج) وبين الثُّلاثيِّ (خرَجَ)، أمّا سببُ النَّهي عن الإخراج فلأنَّ الزَّوج قد يُخرج المرأة من بيتها لأسبابٍ، منها: الغضبُ عليها، الثّاني: كراهةُ مساكنتِها، الثّالث: حاجةُ الأزواج إلى المساكن. أمّا الثُّلاثيُّ فمعناه: أنَّ أمر الخروج بأيديهنَّ، فكان النَّهيُ للأزواج بعدم إخراج الزّوجات[1]، والنَّهيُ للزّوجات أيضًا بعدم الخروج، فيكون الجمع بين عدم الإخراج وعدم الخروج مُؤذِنًا بالمكثِ التّامِّ في البيت أو المسكن، وتعبيرُ القرطبيِّ: "﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ يقتضي أن يكون حقًّا في الأزواج، ويقتضي قولُه: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أنّه حقٌّ على الزّوجات"[2].

بلاغةُ القصرِ في الآية:

الإشارةُ إلى ضرورة الامتثال التّامِّ للأوامر والنَّواهي

قَصَر النَّظمُ القرآنيُّ الخروجَ والإخراج على حالةٍ معيَّنة، وعبَّر عن ذلك بصيغة النَّفي والاستثناء الّتي هي أقوى أدوات القصر؛ لبيان ضرورة الامتثال للأمر من طَرَفي المعادلة، وهو من قَصْرِ الموصوف على الصّفة، وهو قصرٌ ادّعائيّ، فالنَّهي للأزواج؛ نظرًا لِما يمتلكون من قوَّةٍ وقِوامة، والنَّهي أيضًا للزّوجات؛ لِما يمتلكنَ من قدرة على الإتيان بالبَذاءِ وسلاطةِ اللِّسان وكلِّ ما لا يليق في فترةٍ حالكة من الحياة الزّوجيّة.

دلالةُ عَوْدِ الاستثناء وغرضُه:

عمومُ الاستثناء، وجوازُ عَودِهِ على الخروج والإخراج أو أحدِهما

الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ فيه احتمالاتٌ في عَوْدِه، فيَحتمِل أن يرجعَ إلى الجملتين اللَّتينِ قبله ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ كما هو الشّأنُ فيه إذا ورَدَ بعد جُمَلٍ على أصحِّ الأقوال لعلماء الأصول. ويحتمل أن يرجعَ إلى الجملة الأخيرة منهما، وهو

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 554.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 154.

مقتضى كونِهِ موافِقًا لضميرها؛ إذ الضّميرُ في كلتيهما ضميرُ النِّسوة ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، ﴿يَأْتِينَ﴾، وهو استثناءٌ مفرَّغ من عموم الأحوال الّتي اقتضاها عموم الذّوات في قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، فالمعنى: إلّا أن يأتين بفاحشةٍ فأخرجوهنَّ أو ليَخرُجنَ؛ أي: يُباحُ لكم إخراجُهنَّ، وليس لهنَّ الامتناع من الخروج، وكذلك عكسُه[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَن يَأْتِينَ﴾:

بشاعةُ الإتيان، فلا وصفَ يُبيِّنُ قبحَه

المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَأْتِينَ﴾ منصوبٌ على الحالِ من ضميرِ الخارجات ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، ويجوزُ أن يكون منصوبًا على نزع الخافض: إلّا مذنباتٍ بإتيانهنَّ الفاحشةَ، وهي حال مستثناة من عموم الأحوال؛ أي: لا يخرجن في حالةٍ من الحالات إلّا في حال كونهنَّ مذنباتٍ[2]، ويجوز أن يكون بدلَ اشتمالٍ من مضمون جملةِ ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾؛ لأنَّ مكثَهنَّ في بيوتهنّ في مدّة العدّة يحقِّق معنى إحصاء العدّة[3]. وعلَّة الإتيان بالمصدر المؤوَّل بيانُ بشاعة الإتيان بالفاحشة، وكأنَّه لا مُفردةَ تصفُ بشاعتَهُ وقُبحَهُ؛ لأنَّ المصدر المؤوَّل لا يوصف كما هو مقرَّرٌ في عُرف النُّحاة[4].

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَأْتِينَ﴾:

التَّحذير من محاولة الفعل القبيح مع تنبيهِ الأولياء إليه

الفعلُ المضارع دالٌّ على التَّجدُّدِ والاستمرار واستحضارِ صورة الإتيان بالفاحشة، وفي المضارع جلبٌ للتَّعبير بالمصدر المؤوَّل الدّالِّ على بشاعة الإتيان والتَّفكير فيه، وفي المضارع تنبيهٌ إلى أنَّ بعض النّساء قد يحدثُ ذلك منهنَّ محاولاتٍ ذلك باستمرار، فكان المضارع مُحذِّرًا من محاولة الفعل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 300.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 28/ 278.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 299.
(4) فاضل السامرّائي، معاني النحو: 3/ 147.

بلاغةُ المجاز في التّعبير عن فعل الفاحشةِ بالإتيان بها:

المُـقـدِمُ على الفاحشة مُقدِمٌ على العقوبة

دلَّ الفعل ﴿يَأۡتِينَ﴾ على بلاغةٍ متمكِّنةٍ في الآية الكريمة؛ لأنَّ الإقدام على الفاحشة لمّا كان لا يقع إلّا بمقدِّماتٍ فكأنَّ فاعل الفاحشة هو الّذي يذهبُ إليها ويختارُها بطبعه، وليست هي الّتي تأتيه وتتعرَّض له، فاستُعير الإتيانُ لفعل شيء؛ إشعارًا بأنَّ الفعل مقصودٌ وقد سبقه العزمُ؛ لأنَّ فاعل شيءٍ عن قصدٍ يشبه السّائرَ إلى مكانٍ حتّى يصلَهُ، يقال: أتى الصَّلاةَ؛ أي: صلّاها، وربَّما قالوا: أتى بفاحشةٍ وبمكروهٍ، كأنَّه جاء مصاحبًا له[1]، ففي الآية استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفي ذلك تصويرٌ للمعاني العقليّة وإبرازٌ لها في صورة المحسوس، وذلك داعٍ إلى استِكْناهِ حقيقتها، وتقبيحِها والتّنفير منها. ويمكن أن تُجرى الاستعارةُ على المكنيّة، حيث شبّه الفاحشةَ بالشّيء المحسوس الّذي يُؤتى به، وحذف المشبّه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو الإتيان، وأسنده إلى المشبّه على سبيل الاستعارة المكنيّة التّخييليّة، كما أنَّ التّعبير بالإتيان يفيدُ أنَّ الآتيَ هو الّذي اختار العقوبة لاختيارِه الفاحشةَ؛ فالمُقدِمُ على الجريمة لا بدَّ أن ينتظرَ العقوبة؛ فالجزاءُ من جنس العمل.

بلاغةُ المجاز المرسَل في ﴿يَأۡتِينَ﴾:

مَن حامَ حولَ الفاحشة وقَعَ فيها

في الفعل ﴿يَأۡتِينَ﴾ مجازٌ مرسلٌ بعلاقة السَّببيَّة، إذ أُطلق السَّببُ (الإتيان) وأُريد المُسبَّبُ وهو الفعل، وبلاغةُ ذلك حاضرةٌ في أنَّ مَن سار في طريق الخطأ وصل إليه أو كاد، وفي ذلك تحذيرٌ من الإتيان بالفاحشة.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾:

الباءُ دالَّـةٌ على العـزمِ والقصدِ والتَّمكُّن

أصلُ معاني الباء هو الإلصاقُ أو الإلزاق بتعبيرِ سيبويه، والإلصاقُ شدَّةُ اتِّصال الشَّيء بالشَّيء، فدلّت الباء على شدَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 270.

ملابسة المرأة بالفاحشة، والملابسةُ دالَّةٌ على الفعل بتمكُّنٍ وقصدٍ، فكانت الباء دالَّةً على العزم الصّريح والفعل الأكيد.

عمومُ الفاحشة وتعدُّد فُهومِها ما بين الزِّنا والمعاصي

نكتةُ تنكير ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾:

تتمثَّل نكتة التَّنكير في الشُّيوع والعموم؛ ذلك أنَّ التَّنكير جعَلَ للكلمة تفسيراتٍ متعدِّدةً، فالفاحشة: الفَعلةُ الشّديدةُ السّوءِ، بهذا غلب إطلاقها في عُرف اللُّغة، فتشملُ الزِّنا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ [النِّساء: 15]، وتشملُ غيرَه من الأعمال ذات الفساد كما في قولِه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: 28]، وقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]. وقد قيل: الفاحشةُ متى وردت في القرآن معرَّفة فهي الزِّنا كما في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: 80]، ومتى وردت منكَّرةً فهي المعاصي[1].

وضوحُ الفاحشة وبيانُ ثُبوتِ المدَّة

نكتةُ وصفِ الفاحشة بـ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾:

وُصِفت الفاحشةُ بأنَّها ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾، وهذا يرادُ منه أحدُ أمرين: إمّا أنْ يُرادَ به أنَّها واضحةٌ في جنس الفواحش؛ أي: هي فاحشةٌ عظيمة، وهذا المقامُ يشعر بأنَّ عِظَمَها هو عِظَمُ ما يأتيه النِّساء من أمثالها عرفًا. وإمّا أنْ يُرادَ به: مبيِّنةُ الثُّبوتِ للمُدَّة الّتي تخرج[2].

تكاملُ القراءات وتنويعُ الحَدَث

بلاغةُ توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾:

قرأ الجمهورُ: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ بكسرِ الياء التّحتيّة؛ أي: هي تُبيِّنُ لَمَن تبلغه أنّها فاحشةٌ عظيمة، فإسنادُ التَّبيين إليها مجازٌ باستعارة التَّبيين للوضوح، أو تُبيِّنُ لولاةِ الأمور صدورَها من المرأة، فيكونُ إسناد التَّبيين إلى الفاحشة مجازًا عقليًّا، وإنما المُبَيِّنُ مُلابِسُها وهو الإقرار والشّهادة، فيحمل في كلّ حالةٍ على ما يناسب معنى التَّبيين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 301.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 301.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُّبَيَّنَةٖ﴾ بفتح التّحتيّة[1]؛ أي: كانت فاحشةً بيَّنَتْها الحجَّةُ أو بيَّنَها الخارجُ. ومحملُ القراءتين واحدٌ[2]، فمَن قرأ بالكسر أراد اسمَ الفاعل، ومَن قرأ بالفتح أراد اسمَ المفعول، والواضحُ من القراءتين دلالةُ التَّكامُل؛ فالفاحشةُ يُظهِرُها صاحبها بفعله لها، ولعظيم قُبحها صارت كأنَّها هي فاعل التَّبيين، فالفاحشةُ على قراءة كسر الياء تستنكفُ من فاعلها فتفضحُه.

تأكيدُ المدح بما يشبهُ الذَّمَّ في قوله: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن﴾:

تفظيعُ الخروج من البيت بجعلِهِ ريبةً

في جملةِ ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن﴾ جاء المعنى: ولا يخرجنَ؛ أي: هنَّ منهيّاتٌ عن الخروج إلّا أن يُردنَ أن يأتينَ بفاحشة، ومعنى ذلك إرادةُ تفظيعِ خروجهنَّ؛ أي: إنْ أردنَ أن يأتين بفاحشة يَخرجن، وهذا ما يُسمّى تأكيدَ الشَّيء بما يشبهُ ضدَّه، أو تأكيدَ المدح بما يشبهُ الذَّمَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ [التَّوبة: 74]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8]، فجَعلت الآيةُ خروجَهنَّ ريبةً لهن، وحذَّرت النِّساء منه بأسلوبٍ خَطابيٍّ، فيكون هذا الاستثناءُ منعًا لهن من الخروج على طريقةِ المبالغة في النَّهي.

معنى الواو في قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، وموقعُ الجملة بعدها:

دلالةُ الاعتراض على إقامةِ الأحكام بلا تأخيرٍ أو تسامحٍ

الواو اعتراضيَّةٌ، والجملة معترضةٌ بين جملة ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾، وجملة ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، وأريد بهذا الاعتراض المبادرةُ بالتَّنبيه إلى إقامة الأحكام المذكورة من أوَّل السّورة إقامةً لا تقصيرَ فيها ولا خيرةَ لأحدٍ في التَّسامح بها، وخاصَّة المطلَّقة والمطلّق أنْ يحسَبا أنَّ ذلك من حقِّهما انفرادًا أو اشتراكًا[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/248.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 301.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 304.

عَوْدُ اسمِ الإشارة، ودلالةُ التَّعبير باسمِ الإشارة:

الإيجازُ مع الإشارةِ إلى رفعةِ الحدود وعِظَمِ منزلتها

الإشارةُ إلى الجُمل المتقدِّمة والأحكام المتقدِّمة باعتبار معانيها بتأويل القضايا[1]، وفي ذلك إيجازٌ لفهم المعلوم السّابق، وهذا العَوْدُ من أهمِّ دلالات أسماء الإشارة، والتَّعبير باسم الإشارة للبعيد فيه إيماءٌ إلى عظمة حدود اللّه ورفعة منزلتها، يؤيِّد ذلك إضافة ﴿حُدُودُ﴾ إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِۚ﴾ زيادةً في تعظيمِها وتشريفها، والتَّحذيرِ من مخالفتها، مع تكرار نفس التَّركيب الإضافيِّ بعدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا التَّعظيم إشارة إلى ضرورة تنفيذها والالتزام بها، فتعظيم الحدود من تعظيم صاحبها.

نكتةُ إضافة الحدود إلى لفظ الجلالة:

تشريفُ الحدود وتعظيمُها؛ لإضافتها إلى عظيم

وقوعُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ خبرًا عن اسم الإشارة الّذي أُشير به إلى أشياءَ معيَّنةٍ يجعلُ إضافةَ ﴿حُدُودُ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِۚ﴾ مرادًا منها تشريفُ المضاف وتعظيمه، فالمضاف يكتسبُ قيمته ممّا أضيف إليه، والمعنى: وتلك ممّا حَدَّ اللّه، فلا تفيد تعريفَ الجمع بالإضافةِ عمومًا؛ لصرف القرينة عن إفادة ذلك؛ لظهور أن تلك الأشياء المعيَّنة ليست جميعَ حدود اللّه.

بلاغةُ التّشبيه في قوله: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

الحدودُ حاجزٌ بين الحلال والحرام، فيلزمُ شدَّةُ تحرّيها

الحدودُ: جمعُ حدٍّ، وهو ما يَحُدُّ؛ أي: يَمنَعُ من الاجتياز إلى ما وراءَه للأماكن الّتي لا يحبّون الاقتحام فيها، فقد شُبِّهت الأحكامُ بالحدود؛ للمحافظةِ على ما تقتضيه الحدود، وفي بلاغةِ التَّشبيه إعلامُ العباد بدقَّة الفاصل بين الحلال والحرام، فكان ذلك داعيًا إلى شدّة الاعتناء بتحرّي الحلال واجتناب الحرام.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾:

العطفُ تتميمٌ وتذييلٌ تحذيرًا من التَّعدّي والتَّجاوز

جاءت الواو عاطفةً، فقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 304.

عُطِفَ على جملة ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، فهو تتميم، وهو المقصودُ من التَّذييل[1]، وفي التَّتميم والتَّذييل تحذيرٌ من التَّعدّي والتَّجاوز.

معنى (مَن) الشَّرطيَّة:

دلالةُ الشَّرط على العموم

جيءَ في هذا التَّحذير بـ(مَن) الشَّرطيَّة؛ لإفادة عموم كلِّ مَن تعدّى حدود اللّه، فيدخل في ذلك الّذين يتعدَّون أحكامَ الطّلاق وأحكام العدّة في هذا العموم.

نكتةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

في الشَّرطِ فضلُ تحذيرٍ وتخويف لمَن يَظلِمُ المرأةَ

نكتةُ التَّعبير بأسلوب الشّرط - ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ الآيةَ - الدَّلالةُ على سرعة تحقُّقِ ظلم النَّفس والزّوجة بتعريضها للمكايدة من المرأة، بمجرّد وقوع الشّرط، وفيه تحذيرٌ للمخاطبين ووعيدٌ لهم إنْ تجاسروا على ظلم المرأة.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾:

تهويلُ أمرِ تعدّي حدودِ الله

جيءَ بهذا الإطناب في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ لتهويلِ أمر هذا التَّعدّي؛ لأنّ المتعدّيَ على حدود اللّه يتعرَّضُ لسخط اللّه وعقابه، فكان الإطنابُ واشيًا بقيمة الحدود وأهمّيَّةِ عدم الاستخفاف بها، وحُرمةِ التَّعدّي عليها، ووجوبِ الامتثالِ لها.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَعَدَّ﴾:

استحضارُ صورة المتعدّي مع تحذيره

دلَّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَعَدَّ﴾ على استحضار صورةِ المتعدّي القبيحة، مع تحذيرِ مَن يستمرُّ في هذا التَّعدّي والتَّجاوز، وفيه إعلامٌ بأنَّ التَّعدّيَ على الحدود قائمٌ ما دام النّاس ودامت العلاقات الزَّوجيّة، مع صلاحيةِ الفعل لكلِّ تعدٍّ على حدود اللّه من طلاقٍ وغيره.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 305.

نكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمار ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾:

تربيةُ المهابة والخشية مع تعظيم الحدود

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: حدودَه تعالى المذكورةَ؛ بأنْ أخَلَّ بشيء منها، وإظهارُ لفظةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في موضع الإضمار (حدوده)؛ لتهويلِ أمر التَّعدّي والإشعارِ بعلّة الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: أضرَّ بها[1]، وفيه تربيةُ المهابة والخشية بسبب ذكر الاسم الأعظم في التَّركيب، وفي موقف التَّشابُكِ في العلاقات الزَّوجيّة يحتاجُ الموقف إلى زاجرٍ مَخوف الجناب، ولن يكون إلّا اللّهَ ﷻ.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾:

الرَّبطُ مع سرعةِ العقاب وقُربِه

الفاء جاءت رابطةً للجملة، فهي واقعةٌ في جواب الشّرط؛ وذكرُها جعَلَ التَّركيبَ قائمًا على الشّرط، فجزم الفعل ﴿يَتَعَدَّ﴾ بحذف حرف العلَّة، فكأنَّها قنطرة بين الشَّرط والجزاء، وحذفُ الفاء يُبعِدُ الجملة عن الشّرط؛ لأنَّ الجملة ستكون حينئذٍ: (ومن يتعدّى حدود اللّه قد ظلم نفسه)، فالفاءُ دالَّةٌ على سرعة العقاب وقُربه، وحذفُها لا يشعر بهذا المعنى.

نكتةُ التَّوكيد بـ(قد):

تمكينُ المعنى وقربُ حال الظُّلم

فائدةُ التَّوكيد إزالةُ الشَّكِّ، وتمكينُ المعنى من نفس المتلقّي، وفي التَّعبير بـ(قد) بيانُ أنَّ مَن تعدَّى الحدودَ وتجاوَزَها فإنَّه يُعرِّضُ نفسَه للعقاب لا محالةَ في ذلك. ولحرف التَّحقيق (قد) دلالةٌ، فهذا الحرفُ لتقريب الحال؛ أي: أنَّها قرَّبت الماضيَ من الحال القائمة؛ ليكون معنى التَّقريب قائمًا، وهو تقريبُ الحال القائمة من الماضي المستقرّ، وكأن التّعبير: مَن يتعدَّ الحدود فالظُّلم حاضرٌ بين عينيه، ولن يتأخَّر العقاب عليه، ولا توانيَ في إيصاله إليه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 305.

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿ظَلَمَ﴾:

الإشارةُ إلى تحوُّلِ الموضع الحسنِ إلى قُبح الموضع

الظُّلم هو وضع الشَّيء في غير موضعه، فكأنَّ التّعبيرَ "ومَن يتجاوزِ الحدَّ الّذي حدَّهُ اللّه تعالى فقد وضَعَ نفسَه موضعًا لم يضعْه فيه ربُّه"[1]. فالفعلُ دالٌّ على قصدِ تغيير الموضع الحسن إلى قبح الموضع، ويُلحَظ في مادة (ظلم) الظُّلمة، فكأنَّ الظّالم نفسَه تعدى منطقة النّور وتجاوزها إلى منطقة الظُّلمة والضّلال والعمى.

نكتةُ تسلُّط فعل الظُّلم على النَّفْس:

التَّفريط في صلاح النَّفس تفويتٌ للمصالح الدّينيَّة والدُّنيويَّة

أخبر اللّه ﷻ عن المتعدّي الحدودَ بأنَّه ظلَمَ نفسَه؛ للتَّخويف تحذيرًا من تعدّي هذه الحدود؛ فإنَّ ظلم النَّفس هو الجريرة عليها بما يعود بالإضرار، وذلك منه ظلمٌ لها في الدُّنيا بتعريض النَّفس لعواقبَ سيِّئةٍ تنجرُّ من مخالفةِ أحكام الدّين؛ لأنَّ أحكامه صلاحٌ للنّاس، فمَن فرّط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها، وظلمٌ لها كذلك في الآخرة بتعريضِها لعقوبة اللّه ﷻ.

علَّةُ ذكرِ النَّفس لا الزَّوجة في قوله: ﴿ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾:

الزَّوجُ والزَّوجةُ كنفسٍ واحدةٍ، فما يظلمُها يظلمُه

ذكر ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ لا (زوجه) مع أنَّ الظُّلم واقع عليها أيضًا؛ تعميمًا للظُّلم على النَّفس وعلى الزَّوجة، فالمتبادرُ أنَّه يظلم نفسَه بتعريضها للعقاب، لكنْ قد يُعبَّر عن زوجته بالنَّفس، فهي نفسُه أيضًا؛ نظرًا لقوَّة العلاقة الّتي كانت قائمةً بينهما، فهما كنفسٍ واحدة، والميثاقُ بينهما ميثاقٌ غليظ، وهي وهو من نفسٍ واحدة، فما يظلمُها يظلمُه، وكأنَّه مجاز مرسل باعتبار ما كان، فالجملةُ قنطرةٌ للخير المنتظَر في قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾؛ من تحوُّلِ الكراهيةِ إلى محبَّةٍ والتِئام.

نكتةُ فصل قوله: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ﴾:

وقعتْ هذه الجملةُ تعليلًا لجملة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وما أُلحِقَ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 561.

تفصيلُ الأحوال مع دلالةِ البدليَّة على ظلم النَّفس وإضاعة المصالح

بها ممّا هو إيضاحٌ لها وتفصيلٌ لأحوالها، ولذلك جاءت مفصولةً عن الجمل الّتي قبلها، ويجوزُ كونُها بدلًا من جملةِ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ ظلم النَّفس بعضُهُ حاصلٌ في الدُّنيا، وهو مشتملٌ على إضاعة مصالح النَّفس عنها.

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿لَا تَدۡرِي﴾:

مشافهةُ المتعدّي بالخطابِ للزَّجر والتَّرغيب

الخطابُ في قوله: ﴿لَا تَدۡرِي﴾ لغيرِ معيَّنٍ، جارٍ على طريقةِ القصد بالخطاب إلى كلِّ مَن يصلُحُ للخطاب ويهمُّه أمر الشّيء المخاطَبِ به من كلِّ مَن قصَرَ بصرَهُ على حالة الكراهية الّتي نشأ عليها الطّلاق، ولم يتدبَّر في عواقب الأمور، ولا أحاطَ فِكرُه بصور الأحوال المختلفة المتقلِّبة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النِّساء: 19]. وهنا فائدةٌ أخرى في التَّعبير بـ﴿لَا تَدۡرِي﴾؛ فهي تجري مجرى المَثَل، فلا يراد ممّا فيها من علامة الخطابِ ولا من صيغة الإفراد إلّا الجَرْيُ على الغالب في الخطاب، وهو مبنيٌّ على توجيه الخطاب لغير معيَّن[1]. جاء في إعراب القرآن وبيانه للدَّرويش: "﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب، والفائدةُ منه مشافهة المتعدّي بالخطاب؛ لمزيد الاهتمام بالزَّجر عن التَّعدّي، وقد تورَّطَ بعضُهم، فحسِبَ أنَّ الخطاب للنَّبيِّ، والمعنى: ومَن يتعدَّ حدود اللّه فقد ظلم نفسه وأضرّ بها، فأنت لا تدري أيُّها المتعدّي مغبَّةَ الأمر، وما عسى أن يُسفِرَ عنه، لعلَّ اللّه يُحدِثُ في قلبك بعد ذلك الّذي أقدمت عليه من التَّعدّي أمرًا يقتضي خلافَ ما فعلتَ، فيُبدِّلُ ببُغضِها محبّةً، وبالإعراض عنها إقبالًا عليها، وبالصُّدود رضًا"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 307.

(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 121.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿تَدۡرِي﴾ مادَّةً وصيغةً:

المعرفةُ والحيلةُ لاستئناف الحياة الزَّوجيَّة وصلاح الحال

الدِّرايةُ: المعرفةُ المدركة بضربٍ من الحيَل، يقال: دَرَيْتُه، ودَرَيْتُ به، دِرْيَةً، نحو: فِطْنَة، وعنه استُعير المِدْرَى لِما يُصلَحُ به الشَّعر[1]، ففي دلالة الفعل (درى) قصدٌ إلى المعرفة، وفيه أيضًا قصدٌ إلى الصّلاح والإصلاح، فاختيارُ الفعل ﴿تَدۡرِي﴾ إنّما جاء للإشارة إلى ضرورة توخّي الحذر في الطّلاق والنُّفور من الزَّوجة، ومحاولةِ توظيف الحيَلِ المحمودة لاستئنافِ الحياة الزّوجيّة، وعدمِ قطع أواصرِ المحبَّة بين الزَّوجين.

بيانُ مفعولَيْ ﴿تَدۡرِي﴾:

جملةُ التَّرجّي سادَّة مسدَّ المفعولين

﴿لَعَلَّ﴾ ومعمولاها سادَّةٌ معلِّقةٌ الفعلَ ﴿تَدۡرِي﴾ عن العمل، والجملةُ المترجّاة في موضع نصبٍ بـ﴿لَا تَدۡرِي﴾ سدَّت مسدَّ المفعولين. هذا، وقد نصَّ أبو حيّان على أنَّه ينبغي أن يُزاد في المُعَلِّقات (لعلَّ)، فقد قال: "ولا أعلمُ أحدًا ذهبَ إلى أنَّ (لعلَّ) من أدوات التَّعليق وإن كان ذلك ظاهرًا فيها كقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾ [الشورى: 17]"[2].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿لَعَلَّ﴾ وبيانُ اسمها وخبرها:

استشرافُ أمرٍ محبوب من المحبَّة بعدَ التّنافر

المعنى المحوريُّ للحرف ﴿لَعَلَّ﴾ التَّوقُّع، وهو التَّرجّي في المحبوب[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى محموديَّةِ الأمر. هذا، وقد قيل: إنَّ ﴿لَعَلَّ﴾ في مثل هذه التَّراكيبِ دالَّةٌ على الاستفهام، وخُرّج عليه: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾ [عبس: 3]، ولذا علّق ﴿تَدۡرِي﴾[4]، وهذا مذهبُ الكوفيّين، ويمكنُ أن تكون ﴿لَعَلَّ﴾ هنا دالَّةً على التَّعليل[5]؛ أي: لأنَّ اللّه سيُحدث بعد ذلك أمرًا.

(1) الراغب، المفردات: (درى).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 474.
(3) السيوطي، الإتقان: 2/ 276.
(4) السيوطي، الإتقان: 2/ 276.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 291.

بيانُ التَّحوُّلِ في العلاقةِ بينَ الزَّوجين من السُّخط إلى الرِّضا

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُحۡدِثُ﴾:

دلَّ التّعبير بالفعل المضارع على الاستمرار واستحضار صورة الحدث، والحدوثُ إشارةٌ إلى التَّبدُّل الدّائم في العلاقة بين الزَّوجين، فقد تكون المحبَّةُ بديلَ البُغض والإعراض، والإقبالُ بديلَ الصُّدود.

القدرةُ المطلَقةُ على إحداث الفعل مع الثّبات عليه

نكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾:

تقدَّمَ المسندُ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿يُحۡدِثُ﴾ مراعاةً لحال ﴿لَعَلَّ﴾ الّتي لا تدخلُ إلّا على الجملة الاسميّة، فجاء التَّعبير على أصل التَّركيب، وفي بناء الجملة على الاسم دلالةُ الثّبات والقوّةِ على إحداث الفعل، والقدرةِ المطلَقة عليه.

فائدةُ التَّعبير بالظّرفيّة ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾:

قربُ الحدث والإشارةُ إلى أهمّيَّةِ الرَّجعة

البَعْديَّةُ فيها إشارةٌ إلى قرب الحدث والأمر، وفي لفظةِ (البَعد) و(البُعد) معنى الهلاك[1]، وكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ في الرَّجعة والتّآلُفِ بُعدًا مِن الهلاك والضّياع.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اختصارُ النَّظم مع عُلوِّ مكانةِ الحدود وكمالِ بيانها

المقصودُ الإشارةُ إلى أهمِّ ما في العدَّة من المصالح، وهو ما يُحدثه الله من أمرٍ بعد الطَّلاق[2]، ففي الإشارةِ اختصارٌ للنَّظْم، بعدم ذكرِ ما لا فائدةَ منه في النَّظم، مع علوِّ مكانة الحدود، وأهمّيَّةِ البُعد عن تعدّيها، وكمال بيانها. وقد يُراد من اسم الإشارة التَّعدّي[3] الّذي قد يُحدِثه الزّوج، فيكون في عدم ذكر التَّعدّي طيًّا لذِكْر اللَّفظة؛ استدعاءً للمودَّة والعِشرة.

سرُّ اختيارِ لفظةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ دون غيرها:

سَعَةُ المعنى، واتِّساعُ المَشارب، وبيانُ خطورة الموقف

لمّا كان الحدث عظيمًا، وتقوم عليه الأُسرة، وفيه صراعٌ بين زوج

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 306.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 330.

وامرأته، وثَمّ أخذٌ وردٌّ بيّنٌ؛ وظّفَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفظة (الأمر) الدّالّةَ على عظم الموقف وقوّته، إضافةً لسَعةِ معناها، وتعدُّد مشاربها، فالأمرُ يدلُّ على وجوه: الأمرُ القضاءُ، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ يعني: يقضي القضاءَ، وكقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]؛ أي: القضاء. والأمرُ الدّينُ، كقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 93]، وأصلُ هذا كلِّه واحدٌ؛ لأنَّ الأشياء كلَّها بأمر اللّه تعالى، فسُمّيت العلائقُ أمرًا[1].

نكتةُ تنكير ﴿أَمۡرٗا﴾:

تنويعُ المنافع واتّفاقُها في العودة وتبدُّل الأحوال

تنكيرُ لفظةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ للتّنويع؛ أي: أمرًا موصوفًا بصفةٍ محذوفة؛ أي: أمرًا نافعًا لهما، وهذا الأمرُ هو تقليب القلوب من بغض إلى محبّة، ومن غضب إلى رضًا، ومن إيثارِ تحمُّل المخالفةِ في الأخلاق مع المعاشرة إلى تحمُّلِ آلام الفراق، وبخاصَّةٍ إذا كان بين المتفارقين أبناء، أو من ظهور حملٍ بالمطلَّقة بعدَ أن لم يكن لها أولاد، فيَلُزُّ ظهورُهُ أباه إلى مراجعة أمّه المطلَّقة[2]، وقد قال القِنَّوجيُّ: "أرادَ بالأمر هنا الرَّغبةَ في الرَّجعة، والمعنى التَّحريض على الطّلاق الواحدة، والنَّهيُ عن الثّلاث؛ فإنَّه إذا طلق ثلاثًا أضرَّ بنفسه عند النَّدم على الفِراق والرَّغبةِ في الارتجاع، فلا يجدُ إلى المراجعةِ سبيلًا"[3].

۞ الفروقُ المُعْجَميَّة:

الطَّلاق والتَّسريح والمُفارقة:

الطَّلاق يكون على أيِّ وجهٍ، أمّا التَّسريح فهو طلاقٌ مرتبطٌ بالجَمال والحُسن

ثلاثةُ ألفاظٍ تَجمعُ صَريحَ الطَّلاقِ الّذي لا يُدَيَّنُ فيها المُطلِّقُ بها، وسمّى اللّه ﷻ الطّلاق سراحًا، فقال: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: 49]، كما سمّاه طلاقًا، مِن طلَّقَ المرأةَ، وسمّاه الفراق[4]،

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 465.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 306.
(3) القنوجي، نيل المرام: 451.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سرح).

والطّلاقُ: حَلُّ عُقدة النِّكاح، والتَّخلية والإرسال، والتَّسريحُ في الطّلاق مستعارٌ من تسريح الإبل، كالطَّلاق في كونه مستعارًا من إطلاق الإبل(1). وقد سمّى القرآنُ الطّلاقَ (تسريحًا) لبيان حُسن المعاملة، وجمال الكيفيَّة الّتي يوقعون بها الطّلاق حيث اقتضَتْهُ الضَّرورة ولا بديلَ له؛ لأنَّ التَّسريح في الأصل: الإرسال للمَرعى. ففيه إيحاءٌ للأزواج العازمين على الطّلاق أن يُحسنوا معاملة زوجاتهم، ولا يسيؤوا إليهنَّ(2)، فواضحٌ أنَّ الأصل هو الطَّلاقُ، ويكونُ على أيِّ وجهٍ. أمّا التَّسريح فهو طلاقٌ مرتبط بالجَمال والحُسن، وفيه إشارةٌ إلى الإرسال وخروج المرأة من بيتها، فهو طلقةٌ ثالثةٌ؛ فقد أخرج أبو داود وجماعةٌ عن أبي رزين الأسديِّ: أنَّ رجلًا قال: يا رسول اللّه - صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم - إنّي أسمعُ اللّه تعالى يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: 229] فأين الثّالثة؟! فقال: (التَّسريح بإحسانٍ هو الثّالثة)(3)؛ لذا قيل: التَّسريح: هوَ إطلاق الشَّيْء على وجهٍ لا يتهيَّأ للعَوْدِ(4). أمّا المفارقة فمترتِّبة على الطَّلاق والتَّسريح، وقيل: إنَّ المفارقة والتَّسريح طلاقٌ، لكنْ في المفارقة إساءةٌ، وفي التَّسريح لطفٌ(5).

الإحصاء والعَدّ:

الإحصاءُ: عدٌّ مع الحفظ، وفيه معنى الإحاطة باستيفاءِ عددِ كلِّ شيءٍ(6)، أمّا العَدُّ فليس يشترطُ فيه الحفظُ، فالعدُّ ضمُّ أعدادٍ بعضِها إلى بعضٍ(7)، فالإحصاءُ عَدٌّ وزيادة، فهو أعمُّ من العدِّ، فيه تدقيقٌ ومعرفةٌ بخصائص الشَّيء وصفاتِه تفصيلًا بعدَ عدِّهِ إجمالًا؛ لذلك قال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾ [مريم: 94]، فقد علم صفاتِ كلِّ واحد منهم وحالاتِه وخصائصَه، إحصاءً تفصيليًّا، فضلًا عن عدِّه إجمالًا، وهذا من بديع علم اللّه ﷻ بخلقه، ومن روائع نظمه. وهنا قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النَّحل: 18]، فإنِ استطعتُم عدَّها على سبيل الافتراض لا الواقع - والعدُّ أسهلُ - فإنَّكم لن

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سرح).
(2) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 1/ 426.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 530.
(4) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 312.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 112.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عدد).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عدد).

الإحصاءُ عَدٌّ وزيادة، فهو أعمُّ من العدّ

تستطيعوا إحصاءَها[1]، وعلى هذا فتوظيفُ مادَّة (أحصى) يُرادُ بها الدِّقَّةُ الشّديدة مع الإحاطةِ الكاملة بأيّام العدَّة.

البيت والدّار والمسكن:

كلُّ سكنٍ بيتٌ ودارٌ، وليس كلُّ بيتٍ ودارٍ سكنًا

أصلُ البيت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: باتَ إذا أقامَ باللَّيل، كما يقال: ظلَّ بالنَّهار، ثُمَّ قد يقال للمسكن: بيتٌ، مِن غير اعتبارِ اللَّيل فيه، وجمعُه أبياتٌ وبُيوتٌ، لكنِ البيوتُ بالمسكن أخصُّ، والأبياتُ بالشِّعر، ويقع ذلك على المتَّخَذِ من حجرٍ ومدرٍ وصوفٍ ووبر، وبه شُبِّهَ بيت الشِّعر، وعُبِّر عن مكان الشَّيء بأنَّه بيته[2]، وقد يكون البيتُ جزءًا من الدّار فيقال: البيتُ موضعُ المبيت من الدّار المخصوصة من المنزل المختصّ من البلد[3]. أمّا السَّكنُ فيستعمل في الاستيطانِ، نحو: سَكَنَ فلانٌ فكانَ كذا؛ أي: استوطَنَهُ، واسم المكان السَّكن، فالسَّكنُ سكونٌ[4] بعد حركة، وهذا ليس شرطًا في البيت والدّار، فكلُّ سكنٍ بيتٌ ودارٌ، وليس كلُّ بيتٍ ودارٍ سكنًا، يقال: السَّكَنُ أيضًا: سُكْنى الرَّجُلِ في الدّارِ، يُقالُ: لَكَ فيها سَكَنٌ[5].

الفاحشة والذَّنب والسَّيِّئة والإثم والزَّلَّة والجُناح والحِنث والجُرم:

تشترك هذه الألفاظُ في الدّلالة على الذُّنوب والآثام، ثُمَّ تستقلُّ كلُّ لفظةٍ بمعانٍ خاصَّة

الفاحِشَةُ: ما عظُمَ قبحُهُ من الأفعال والأقوال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28][6].

الإثمُ: الذَّنب الَّذي يستحقُّ العقوبة عليه، ولا يصحُّ أنْ يوصفَ به إلّا المجرمُ، سواءٌ أريد به العقابُ أو ما يستحقُّ به من الذُّنوب.

وبين الذَّنب والإثم فرقٌ، من حيث إنَّ الذَّنب مطلقُ الجُرم

(1) عبد الله الهتاري، على الشبكة العنكبوتية: الفرق بين العد والإحصاء.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بيت).
(3) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 86.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سكن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: 13/ 212.
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (فحش).

عمدًا كان أو سهوًا، بخلاف الإثم؛ فإنَّه ما يستحقُّ فاعله العقاب، فيختصُّ بما يكون عمدًا، ويسمّى الذَّنبُ تَبِعةً اعتبارًا بذَنَبِ الشَّيء، كما أنَّ العقوبة باعتبار ما يحصل من عاقِبَتِه. والهمزةُ في الإثم من الواو، كأنَّه يَثِمُ الأعمالَ؛ أي: يكسرُها، وهو أيضًا عبارة عن الانسلاخ عن صفاء العقل، ومنه سُمّي الخمرُ إثمًا؛ لأنَّها سبب الانسلاخ عن العقل ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]؛ أي: في تناوُلِهما إبطاءٌ عن الخيرات، و ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: 283]؛ أي: ممسوخٌ.

الإثمُ والوِزْرُ: هما واحدٌ في الحكم العُرفيِّ، وإن اختلفا في الوضع، فإنَّ وضع الوزر للقوَّة؛ لأنَّه من الإزار، وهو ما يُقوّي الإنسان، ومنه الوزير، لكن غُلِّب استعمالُهُ لعمل الشَّر؛ لمكانِ أنَّ صاحب الوزر يتقوّى ولا يلين للحقِّ، ووُضِعَ الإثمُ لِلَّذَّةِ، وإنَّما خُصَّ به فعلُ الشَّرِّ؛ لأنَّ الشُّرورَ لذيذةٌ.

الذَّنبُ والمعصية: كلاهما اسمٌ لفعلٍ مُحرَّم يقع المرءُ عليه عن قصدِ فعل الحرام، بخلاف الزَّلَّة؛ فإنَّه اسمٌ لفعلٍ محرَّم يقع المرء عليه عن قصدِ فعل الحلال، يقال: (زلَّ الرَّجُلُ في الطّين) إذا لم يوجد منه القصدُ إلى الوقوع ولا إلى الثَّبات بعده، ولكن وُجد القصدُ إلى المشي في الطريق كما وُجد في الزَّلَّةِ قصدُ الفعل لا قصدُ العصيان، وإنَّما يعاتب لتقصيرٍ منه، كما يُعاتَبُ مَن زلَّ في الطّين، وقد تُسمّى الزَّلَّةُ معصيةً مجازًا.

الذَّنبُ والجُناحُ والحِنثُ والجُرمُ والعِصيانُ: يُستعمل الذَّنبُ فيما يكون بين العبد وربه، وفيما يكون بين إنسانٍ وإنسانٍ وغيره، بخلاف الجُناح؛ فإنَّه ميلٌ يُستعمل فيما بين إنسان وإنسان فقط. والحِنثُ أبلغُ من الذَّنب؛ لأنَّ الذَّنب يُطلق على الصَّغيرة، والحنث يبلغُ مبلغًا يلحقُه فيه الكبيرة. والجُرم بالضَّمِّ: لا يُطلَقُ إلّا على الذَّنب الغليظ، والمجرمون: هم الكافرون. والعصيانُ بحسب اللُّغة: هو المخالفةُ لمطلق الأمر، لا المخالفة للأمر التَّكليفيِّ خاصَّةً، يرشدُك إليه قولُ عمرو بن العاص لمعاوية:

أمرتُكَ أمرًا جازِمًا فعصيتَني[1]

(1) الكفوي، الكليات، ص: 40.

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ
وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ
بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ
مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ
حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾

[الطلاق: 2 - 3]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قبلَهُما:

الطَّلاقُ وما يترتَّبُ عليه من أحكام

ترتبط الآية الثّانية بالآية الأولى ارتباطًا وثيقًا، فإذا كانت الآية الأولى حديثُها عن الطَّلاق وأحكامه فهذه الآية حديثٌ عمّا بعدَ الطَّلاق من أحكام؛ ذلك أنَّ المرأة إذا اقتربت من انتهاء الأجل فللرَّجُلِ الإمساك أو المفارقة مع أحكام ذلك وإحكامه من ضرورةِ اتِّخاذ شهود العدل، فبينَ الآيتين السَّببُ ونتيجتُه؛ أي: الطَّلاقُ وما يترتَّب عليه من أحكام.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بَلَغۡنَ﴾: (بلغ) أصلٌ واحد، وهو الوصول إلى الشَّيء، تقول: بلغت المكانَ، إذا وصلتَ إليه. وقد تُسمّى المشارَفةُ بلوغًا بحقِّ المقاربة[1]. البُلوغ والبَلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدّرة، وربَّما يعبّر به عن المشارَفة عليه وإن لم ينتهِ إليه، فمن الانتهاء: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، وقوله ﷻ: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 232][2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بلغ).

2) ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأجَل: المدّة المضروبة للشّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجلٌ، فيقال: دنا أجلُه، عبارة عن دنوِّ الموت. وأصله: استيفاءُ الأجل؛ أي: مدَّةِ الحياة، وبلوغ الأجل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ [البقرة: 231] هو المدَّةُ المضروبة بين الطّلاق وبين انقضاء العدَّة، وقوله تعالى: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 232] إشارةٌ إلى حينِ انقضاء العدّة، وحينئذٍ لا جُناحَ عليهنّ فيما فعلن في أنفسهن[1].

3) ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾: (مسك) أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على حبس الشَّيء أو تَحَبُّسِه[2]، والمراد هنا عدمُ إخراجها من بيتها.

4) ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾: (عرف) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على تتابُع الشَّيءِ متَّصِلًا بعضُه ببعض، والآخرُ على السُّكون والطُّمأنينة[3]، وقيل: هو اسم جامع لكلِّ ما عُرف من طاعة اللّه والتَّقرُّب إليه والإحسان إلى النّاس، وكلِّ ما نَدَبَ إليه الشَّرعُ ونهى عنه من المحسِّنات والمقبِّحات، وهو من الصِّفات الغالبة؛ أي: أمرٌ معروفٌ بين النّاس إذا رأوه لا ينكرونه. والمعروف: النَّصَفَةُ وحسن الصُّحبة مع الأهل وغيرهم من النّاس[4]، والمعروفُ: اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل أو الشّرع حُسنُه، قال: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104][5].

5) ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾: (فرق) أصلٌ صحيح يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين[6]، ففي الفعل دلالةُ التّرك والبُعد والانفصال، ومعنى المفارقة بالمعروف: أداءُ المهر والتَّمتيع والحقوق الواجبة، والوفاءُ بالشّرط، قال الرّاغبُ: "والفِراق والمفارقة تكونان بالأبدان أكثر"[7]، والمعنى المحوريُّ: فصلُ بعضِ شيءٍ أو أشياء من بعضِها الآخَرِ فصلًا واصلًا إلى العمق[8].

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عرف).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عرف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(7) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (فرق).
(8) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).

6) ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾: اسم بمعنى صاحب، يُتوصّل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع، ويضاف إلى الظّاهر دون المضمر، ويثنّى ويجمع، ويقال في المؤنّث: ذات، وفي تثنيته: ذواتا، وفي جمعه: ذوات، ولا يُستعمل شيء منها إلّا مضافًا، قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ [البقرة: 251]، وقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النّجم: 6]، ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 83]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: 3]، ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: 177][1]. والعَدْل: هو المَرْضيُّ من النّاس قولُه وحكمُه، هذا عدلٌ، وهما عَدْلٌ، وهم عَدْلٌ، وتقول: هو يَعْدِلُ؛ أي: يحكُمُ بالحق والعدلِ، وهو حَكَمٌ عدلٌ ذو مَعْدَلَةٍ في حُكْمه[2].

7) ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾: إقامَةُ الشّيء: توفيةُ حقّه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 68]؛ أي: توَفّوا حقوقهما بالعلم والعمل، ولم يأمر تعالى بالصَّلاة حيثما أمر، ولا مدح بها حيثما مدح إلّا بلفظ الإقامة، تنبيهًا أنّ المقصود منها توفيةُ شرائطها لا الإتيانُ بهيئاتها، نحو: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، فإقامة الشّهادة معناها توفيةُ شرائطها[3].

8) ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ﴾: الشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، وإمّا بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السَّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المجرّد أولى، والشّهادة مع المشاهدة أولى[4].

9) ﴿يُوعَظُ﴾: الوَعْظُ: زجرٌ مقترن بتخويف، وهو التّذكير بالخير فيما يرقّ له القلب، والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: الاسم. قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النَّحل: 90]، ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: 46][5].

10) ﴿مَخْرَجًا﴾: الخروج: نقيض الدُّخول، خرَجَ يخرُج خروجًا ومخرجًا، فهو خارج وخَروجٌ وخَرّاجٌ، وقد أخرجه وخرج به. الجوهريُّ: "قد يكون المخرجُ موضع الخروج،

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ذو).
(2) الخليل، العين: (عدل).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (قوم).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (شهد).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وعظ).

يقال: خرج مخرجًا حسنًا، وهذا مخرجُه"[1]، والمخرج هنا هو النَّجاة من كلِّ كرب في الدُّنيا والآخرة[2].

11) ﴿وَيَرۡزُقۡهُ﴾: الرِّزق يقال للعطاء الجاري تارةً دنيويًّا كان أم أخرويًّا[3]، قال ابنُ فارس: "الرّاء والزّاء والقاف أصل واحد يدلُّ على عطاءٍ لوقتٍ، ثمَّ يحمل عليه غيرُ الموقوت. فالرِّزق: عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤه. ويقال: رزقه اللّه رزقًا"[4]. والأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنةٌ للقلوب والنُّفوس كالمعارف والعلوم، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6][5]. والرِّزقُ في الآية يصلحُ للظّاهر والباطن، فالكلمةُ شاملةٌ لكلِّ أنواع الرِّزق.

12) ﴿يَحۡتَسِبُۚ﴾: الحَسْبُ: العَدُّ والإِحْصاءُ؛ والحَسَبُ ما عُدَّ، وقَوْلُه ﷻ: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ جائِزٌ أن يَكونَ مَعْناهُ: مِنْ حَيْثُ لا يُقَدِّرُه ولا يَظُنُّه كائِنًا، من حَسِبْتُ أَحْسِبُ؛ أي: ظَنَنْتُ، وجائِزٌ أن يَكونَ مأخوذًا مِن حَسَبْتُ أَحْسُبُ، أراد: من حَيْثُ لَمْ يَحْسُبْه لنفْسِه رِزقًا، ولا عَدَّه في حِسابه[6].

13) ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾: أي: نافذُ أمرِه، والمعنى: سيبلغ اللّه أمرَه فيما يريدُ منكم، والبُلوغ والبَلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدّرة[7].

14) ﴿قَدۡرٗا﴾: (قدر) أصلٌ صحيح يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكُنْهِهِ ونهايته. فالقَدْرُ: مبلغُ كلِّ شيء. يقال: قَدْرُهُ كذا؛ أي: مبلغُه. وكذلك القَدَرُ. وقَدَرْتُ الشَّيء أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ من التَّقدير، وقَدَّرْتُه أُقَدِّرُه[8]، وتَقْديرُ اللّه على وجهين: أحدُهما بالحكم منه أن يكونَ كذا أو لا يكونَ كذا، إمّا على سبيل الوجوب، وإمّا على سبيل الإمكان. وعلى ذلك قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (خرج).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (رزق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(7) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بلغ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

﴿ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾. والثّاني: بإعطاء القُدْرَةِ عليه، وقوله: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾ [المرسلات: 23]، للتّنبيه أنّ كلّ ما يحكُم به فهو محمود في حكمه، أو يكونُ من قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

علاقةُ الرَّجُلِ بزوجته بعدَ إيقاع الطَّلاق وأهمّيَّةُ التَّقوى

بعدَ أن أمر سبحانه بإيقاع الطّلاق واحدةً فواحدة، ومنَعَ الخروج من المنزل والإخراج منه إلّا إذا أتين بفاحشة مبيِّنة، ونهى عن تعدّي تلك الحدود حتّى لا يحصلَ الضَّرر والنَّدم - خيَّرَ الرَّجُلَ إذا شارفت عدَّةُ امرأته على الانتهاء بين أمرين: إمّا أن يُراجِعَها ويُعاشِرَها بإحسان، وإمّا أن يُفارِقَها مع أداء حقوقها الّتي لها مع التَّفضُّل والإكرام، فإذا اختار الرَّجعة فليُشهِدْ على ذلك شاهدَيْن عدلَيْن قطعًا للنِّزاع ودفعًا للرّيبة. ثمَّ أبانَ أنَّ هذه الأحكامَ إنّما شُرعت للفائدة والمصلحة، وأرشد إلى أنَّ تقوى اللّه تَفتحُ السُّبلَ للمرء وتُخرِجُهُ من كلِّ ضيقٍ، وتَهديه إلى الطَّريق المستقيم في دينه ودنياه، وأنَّ مَن يتوكَّلُ على ربِّه يكفيه ما أهمَّه، ويفرِّجُ عنه كربَه. ثمَّ ذكر أنَّ أمور الحياة جميعًا بقضاء اللّه وقدره، فلا يجزعِ المؤمنُ ممّا يصيبه من النَّوائبِ، ولا يفرحْ ويَبطَرْ بما ينالُه من خيراتها[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

الإحصاءُ يكون بحفظِ المدَّة، والفاءُ واشيةٌ بهذا المَطلب

الفاء في هذا السّياق عاطفةٌ تفريعيَّةٌ، فقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ تفريعٌ على جميع ما تقدَّمَ من أحكامِ العدَّة معطوفٌ على جملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾؛ لأنَّ إحصاءها يكون بحفظ مدَّتها واستيعاب

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (قدر).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 138.

أيّامها؛ فإذا انتهت المدَّة فقد أعذر اللّه لهما، والزّيادة عليها إضرارٌ بأحدهما أو بكليهما، وفائدةُ الآجال الوقوفُ عند انتهائها[1].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيّة:

تحقُّق الإمساكِ أو المفارقة بمجرَّد بلوغ الأجل

نكتةُ التَّعبير بأسلوب الشَّرط - ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ﴾ الآيةَ - الدَّلالةُ على سُرعة تحقُّق الإمساك بمعروفٍ أو المفارقة بمجرَّد وقوع الشَّرط، وفيه تحذيرٌ للمخاطبين المتكاسِلين في تطبيق شرع اللّه، وفيه تنبيهٌ وتوجيهٌ بضرورة عدم التّواني في إعطاء المرأة حقوقَها.

نكتةُ الاشتراط بـ(إذا) دون (إنْ):

أهمّيَّةُ استيفاءِ أمرِ العدَّة، وعدمُ التَّخاذُلِ في تحقُّقِها

تتمثَّل نكتةُ الاشتراط بـ(إذا) دون (إنْ) في أنَّ التَّعبير بالشَّرط (إذا) فيه دليلٌ على ضرورة تحقُّقِ الأمر؛ أي: أمرِ استيفاء العدَّة، وعدمِ التَّخاذل في استيفائها، فـ(إذا) تختلف عن (إن) الّتي تحملُ معنى الشَّكِّ وعدم التَّحقُّق، وهو هنا مُنتَفٍ تمامًا. ومن نكتِ التَّعبير بالشَّرط (إذا) أنَّه جاء مُتمِّمًا دلالة (إذا) في الآية الأولى بضرورة استيفاء كلِّ أمرٍ يتعلَّق بالمرأة صيانةً لها وكرامةً، فكان ثَمَّ تناسبٌ بذكر الأداة نفسِها في الموضعين.

نكتةُ إضافة الأجَلِ إلى ضميرهنّ:

التَّنبيه على أنَّ مشقَّةَ الأجل تقعُ عليهنَّ

تتمثَّلُ نكتةُ إضافةِ الأجَلِ إليهنَّ في بيانِ أنَّهنَّ المتحمِّلاتُ للمشقَّةِ واللَّائي دون غيرهنَّ، وكونِهنَّ قَضَيْنَ ما عليهنَّ فاستحققْنَ ما لهنَّ من حقٍّ في الإمساك أو المفارقة، فلا ينبغي الزّيادةُ عليهنَّ.

بلاغةُ المجاز في قولِه: ﴿بَلَغۡنَ﴾ في بلوغ الأجَل:

تعدُّدُ الوظائف البلاغيَّة مبالغةً في عدم التَّسامح في أمرِ بلوغ الأجَل

بلوغُ الأجلِ أصلُهُ: انتهاءُ المدَّة المقدَّرة له كما يُؤذِنُ به معنى البلوغ الّذي هو الوصول إلى المطلوب، وهنا تشبيهُ الأجل المعيَّن بالمكان المَسيرِ إليه، وشاع ذلك في الاستعمال، فالمجازُ في لفظ الأجل، وتَبِعَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 307.

المجازُ في لفظة البلوغ. هذا، وقد استعير اللَّفظُ لإكمال المدَّة؛ تشبيهًا للزّمان بالطَّريق الموصلة إلى المقصود على طريق الاستعارة التَّبعيَّة، وهذا الاستعمالُ مجازٌ آخَرُ؛ لمشابهةِ مقاربةِ الشَّيء بالحصول فيه والتَّلبُّسِ به، وقرينةُ المجاز هنا هو لفظُ الأَجَلِ؛ لأنَّه لا تُتصوَّرُ المراجعةُ بعدَ بلوغ الأجل؛ لأنَّ في ذلك رفعَ معنى التَّأجيل(1).

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿بَلَغۡنَ﴾:

عدمُ التَّسامح في البلوغ

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿بَلَغۡنَ﴾ في هذه الآية الدَّلالةُ على مقاربةِ ذلك الانتهاء؛ مبالغةً في عدم التَّسامح فيه، وكأنَّ الأمر قد حصل بالفعل، فالأمرُ منضبِطٌ لا تقديمَ فيه ولا تأخيرَ.

علَّةُ التَّعبير بلفظ الأجل:

إيقاعُ الفعل حاصلٌ في البلوغ فيجب مراعاته

الأجلُ مدَّةٌ من الزَّمن جُعلت ظرفًا لإيقاع فعلٍ في نهايتها أو في أثنائها، وكأنَّ اللَّفظة دالَّةٌ على عَراقةِ انتهاء الأجل، وأنَّه قمينٌ أنْ يُراعى فلا يُهملَ؛ لمحدوديَّته، ودلالته على أمرٍ محدَّد ووقت مؤكَّد، قيل: الأجلُ: المُدَّةُ المضروبة بين الطَّلاق وبين انقضاءِ العدَّة كما ذكر الرّاغبُ.

سرُّ تعريف الأجل بالإضافة:

حسنُ الأداءِ يتبعه حسنُ الجزاء

جاءَ التَّعبير بـ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ معرَّفًا بالإضافةِ إلى ضمير المعتدّاتِ دون غيرها من طرق التَّعريف؛ إشارةً إلى أنَّ النِّساء أدَّيْنَ ما عليهنَّ من تكليفٍ من دون زيادة أو نقص، فإذا أدَّينَ ما عليهنَّ فإنَّه لا يجوزُ تطويلُ مدَّةِ العدَّة، وتجاوزُ ما شرعه اللّه.

معنى الفاء في ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ودلالة الأمر:

ربطُ أوصالِ الكلام، مع ضرورة المسارعة إلى الإمساك أو المفارقة

جاءت الفاءُ واقعةً في جواب الشَّرط؛ لأنَّ الجوابَ طلبيٌّ بتوظيف فعلِ الأمر الدّالِّ على الإباحة(2)، والفاءُ رابطةٌ لأوصال الجملة؛

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 307.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 308.

لأنَّها الّتي أقامت المعنى، ومن دونها يختلُّ النَّظم، ومن خصائصِها الدَّلالةُ على السُّرعةِ وعدمِ التَّمهُّل في الأمر، فكان الإمساكُ المأمورُ به حقيقًا بأن يُسارَع إليه، وكذا المفارقةُ في الفعل ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾.

بلاغةُ المجاز في فعل الإمساك:

الإشـارةُ إلى أهـمّـيَّـةِ عـدم الـتَّـفـريـط في المطلَّقة المعتدَّة

الإمساكُ: اعتزامُ المراجعة، عُبِّر عنه بالإمساك؛ للإيماءِ إلى أنَّ المطلَّقة الرَّجعيَّةَ لها حكم الزَّوجة فيما عدا الاستمتاعَ، فكأنَّه لمّا راجَعَها قد أمسَكَها أنْ لا تُفارِقَهُ، فكأنّه لم يفارقها؛ لأنَّ الإمساك هو الضَّنُّ بالشَّيء وعدمُ التَّفريط فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، وأنَّه إذا لم يُراجِعْها فكأنَّه قد أعادَ فِراقَها وقسا قلبُه.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾:

ملازَمةُ المعروف في كلِّ مسائلِ العدَّة

الباءُ في ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ سواءٌ أكان ذلك في المفارقة أو الإمساك جاءَتْ دالَّةً على الملابسةِ؛ أي: ملابسةِ كلٍّ من الإمساك والفراق للمعروف، والملابسة شدَّةُ اتِّصالٍ واختلاطٍ، فالقرآنُ يشيرُ إلى ضرورةِ ملازمةِ المعروف في كلِّ مسألةٍ من مسائلِ العدَّة، سواءٌ أكان ذلك إمساكًا أم فِراقًا.

سرُّ التَّعبير بـ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾ دونَ ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ كما في البقرة:

في المفارقةِ قربٌ من الإساءةِ، أمّا التَّسريحُ فأقربُ إلى الإحسان

سرُّ التَّعبير بـ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾ دون ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ [البقرة: 231] كما في البقرة؛ لاشتمالِ آية البقرة على النَّهي عن مضارَّة النِّساء وتحريمِ أخْذ شيءٍ منهنَّ ما لم يكن منهنَّ ما يُسوِّغُ ذلك؛ مِن ألّا يُقيما حدودَ اللّه، فلمّا اكتَنَفَها ما ذُكر، وأتبَع ذلك بالمنع عن عَضْلِهنَّ، وتكرَّر أثناء ذلك ما يُفهِمُ الأمرَ بمجاملتهنَّ والإحسان إليهنَّ حالَي الاتِّصال والانفصال - لم يكنْ ليناسِبَها أنْ يُعبَّرَ بلفظ: (أو فارقوهنَّ)؛ لأنَّ لفظ الفِراق أقربُ إلى الإساءة منه إلى الإحسان، فعوَّل على ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة، وهو لفظ التَّسريح، فقال تعالى:

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ [البقرة: 231]، وليجريَ مع ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 229]. وقيل هنا: ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 229]؛ ليناسبَ به تعالى المذكورَ من قوله: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾ [البقرة: 229]، وقد روعي في هذه الآي كلِّها مقصدُ التَّلطُّفِ وتحسينِ الحال في الصُّحبة والافتراق. ولمّا لم يكن في سورة الطّلاق تعرُّضٌ لعَضْلٍ، ولا ذِكْرُ مُضارَّةٍ؛ لم يُذكَر التَّسريحُ، وورَدَ التَّعبير بلفظ: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ﴾ على الانفصال، ووقَعَ الاكتفاءُ فيما يراد من المجاملة في الحالين بقوله: ﴿بِمَعۡرُوفٖ﴾[1].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في الجملة:

التَّخييرُ عدمُ جوازِ الجمعِ بينَ الفراقِ والإمساك

دلَّتْ ﴿أَوۡ﴾ في الجملةِ الشَّريفة على التَّخيير، والتَّخييرُ معناه: عدمُ جواز الجمع بين المطلوبَين، فله الإمساك أو المفارقة، وفي التَّخيير تنفيسٌ واتِّساعٌ؛ كي يتخيَّرَ الزَّوجُ ما تصلحُ به الحياةُ.

نكتةُ استعمالِ لفظةِ ﴿بِمَعۡرُوفٖ﴾ منكَّرةً في الإمساكِ والمفارقة:

عدمُ اشتراطِ رضا الطَّرفين؛ لحرصِ كلٍّ منهما على ما ينفعُه

المعروفُ: هو ما تعارَفَهُ الأزواج من حُسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق؛ فالمعروفُ في الإمساك: حُسنُ اللِّقاء، والاعتذارُ لها عمّا فرَّطَ، والعَوْدُ إلى حُسن المعاشرة. والمعروفُ في الفِراق: كفُّ اللِّسانِ عن غيْبتِها وإظهارِ الاستراحة منها. والمعروف في الحالين من عمل الرَّجل؛ لأنَّه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق[2]. وقد جاء اللَّفظُ نكرةً؛ لأنَّ الزَّوج يجوزُ له قبلَ العدَّة أن يفارقَ امرأته أو يُمسِكَها بما تعارَفَ النّاس عليه، ففي التَّنكير اتِّساعٌ للمسألة، كما أنَّه لا يُشترَطُ فيه رضا الطَّرفين؛ لحرصِ كلٍّ منهما على ما ينفعُه، فناسب ذلك التَّنكيرُ في الآية الكريمة[3]؛ لعموم المعروف. ويضافُ

(1) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 112.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 308.

(3) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 252.

إلى علَّةِ التَّنكيرِ ما ذكره البِقاعيُّ عندما قال: "ولمّا كان الإنسانُ لِما له مِن النُّقصان لا يقدرُ على كمال الإحسانِ قال منكِّرًا: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: حسنِ عِشرةٍ لا بقصد المُضارَّة"[1].

نكتةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾:

الإمساكُ أو الفِراقُ غيرُ مأذونٍ به إذا خلا من المعروف

لمّا قيَّدَ أمرَ الإباحة في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بقيدِ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ فُهِم منه أنَّه إنْ كان إمساكٌ دون معروفٍ فهو غيرُ مأذونٍ فيه، وهو الإمساكُ الّذي كان يفعلُهُ أهلُ الجاهليَّة؛ أنْ يُطلِّقَ الرَّجل امرأتَه، فإذا قاربت انتهاءَ عدَّتِها راجَعَها أيّامًا ثمَّ طلَّقَها، يفعلُ ذلك ثلاثًا ليُطيلَ عليها من العدَّة، فلا تتزوَّجَ عدَّةَ أشهرٍ إضرارًا بها[2]، فالتَّقييدُ جبرٌ للنُّقصان الّذي يعتري المرءَ، ولو حُذِفَ القيدُ لوقَعَ خللٌ في العلاقات؛ ومِن ثَمَّ كان القيدُ لإزالةِ ما يَعتري الموقفَ من سوءِ نيَّةٍ وتلاسُنٍ واتِّهامٍ بحقٍّ وباطلٍ.

نكتةُ تكرارِ لفظةِ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾:

عراقةُ الفضلِ والمعروفِ في العلاقة الزَّوجيَّة

تتمثَّلُ نكتةُ تكرارِ لفظة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ في تأكيدِ مصاحبةِ المعروف لكلِّ حركةٍ في معترك الحياة الزَّوجيَّة، فاقتصارُ المعروف على الإمساك فقط قد يدلُّ أنَّ المعروف ينبغي أن يُصاحِبَ الإمساكَ وحده، واقتصارُ المعروف على المفارقة وحدَها قد يُشعِر المتدبِّرَ أنَّ المعروف يلتقي مع المفارقةِ وحدها دون الإمساك؛ نظرًا لصعوبةِ الموقف، فكَرَّرَ القرآنُ لفظةَ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مع الإمساكِ والمفارقة احتراسًا من هذا الظَّنِّ، وتأكيدًا لعراقة الفضل والمعروف في العلاقة الزَّوجيَّة. وفي التّكرار إيفاءُ الحقِّ مع حسن الكلام؛ فلا يقصدُ أذاها بتفريقِها من ولدها مثلًا، أو مِنهُ إنْ كانت مُحِبَّةً له مثلًا بقصد الأذى فقط من غير مصلحةٍ، وكذا ما أشبَهَ ذلك من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 308.

أنواع الضَّرر بالفعل أو القول، فقد تضمَّنت الآيةُ بإفصاحِها الحثَّ على فعل الخيرات، وبإبهامِها اجتنابَ المنكرات[1].

نكتةُ تقديمِ الإمساك على المفارقة:

الإمساكُ أرضى للهِ وأوفقُ بمقاصدِ الشَّريعة

تقديمُ الإمساكِ - أعني: المراجعةَ - على إمضاء المفارقةِ إيماءٌ إلى أنَّه أرضى للهِ تعالى وأوفقُ بمقاصد الشَّريعة، مع ما تقدَّمَ مِن التَّعبير عن المراجعة بالإمساك، ففُهِم أنَّ المراجعة مندوبٌ إليها؛ لأنَّ أبغضَ الحلال إلى الله الطَّلاقُ.

بلاغةُ الطِّباق بين فِعلَي الإمساك والمفارقة:

البَوْنُ الكبير بينَ الإمساك والمفارقة

يَحكي الطِّباقُ بين فِعلَي الإمساك والمفارقة ذلك البَوْنَ الشّاسع بين الإمساك والمفارقة، فالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ، والبَوْنُ الشّاسع قائمٌ بين الفعلين، فالإمساكُ استبقاءُ العِشرة، وتماسُكُ الأسرة، أمّا المفارقةُ فيترتَّبُ عليها التَّشتُّتُ والتَّشظّي وإنهاءُ الميثاق الغليظ، فالإمساكُ من صرائحِ الرَّجعة، والفِراقُ من صرائح الطَّلاق[2]، فكان الطِّباقُ مُؤذِنًا بتدارُكِ الأمر والإبقاءِ على الحياة الزَّوجيَّة، وهذا مؤيَّدٌ بتقديم الإمساك على المفارقة، كما ذكرنا في المسألة السّابقة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾:

الإشارةُ إلى ضرورة اكتمالِ عمليَّة الطَّلاقِ أو الإمساك

الواوُ هنا عاطفةٌ الفعلَ الطَّلبيَّ (أشهِدوا) على الفعلين السّابقين ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾؛ إشارةً إلى ضرورة اكتمال عمليَّةِ الطّلاق أو الإمساك؛ فالإشهادُ هو المُوَثِّقُ لعمليَّتي الإمساك أو المفارقة؛ لأنَّ الإشهادَ جُعل تتمَّةً للمأمور به في معنى الشَّرط للإمساك أو الفِراق؛ لأنَّ هذا العطفَ يُشبه القيدَ وإن لم يكن قيدًا، وشأنُ الشُّروط الواردة بعدَ جُمَلٍ أنْ تعودَ إلى جميعها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 147.

(2) السيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ص: 266.

تردُّدُ دلالةِ الأمر بينَ الوجوب والاستحباب والنَّدب

دلالةُ الأمر ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾:

يمكنُ حملُ دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ على الوجوب، فيتركَّبُ من هذين أنْ يكون الإشهادُ على المراجعة وعلى بتِّ الطلاق واجبًا على الأزواج؛ لأنَّ الإشهاد يرفع أشكالًا من النَّوازِلِ، ويأتي تبرّيًا عن الرّيبة وقطعًا للنِّزاع. وقيل: إنَّ الأمر هنا مستحبٌّ، ولعلَّ مستند هذا القول عدمُ جريان العمل بالتزامه بين المسلمين في عصر الصحابة وعصور أهل العلم، وقياسُهُ[1]؛ فالآلوسيُّ قال: "هذا أمرُ ندبٍ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ [البقرة: 282]"[2]، وفي الأمر دلالةٌ على أنَّ كلًّا من المرافقة والمفارقة أمر عظيم، تُبنى عليه أحكامٌ فتحرُمُ أضدادُها، فيكون الخلافُ فيها في غاية الخَطَر، والإشهادُ أليقُ بالمراد، وأقطعُ للنِّزاع، لذا قال تعالى حاثًّا على الكياسةِ واليقظة والبُعد عن أفعال المغفَّلين العَجَزةِ: ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾[3].

عدمُ وقوع التَّجاحُدِ بين الزَّوجين، مع مخافةِ أن تُنكِرَ المرأةُ المراجعة

فائدةُ الإشهاد في الرَّجعةِ والطَّلاق:

فائدةُ الإشهاد أنْ لا يقعَ بين الزَّوجين التَّجاحدُ، وأن لا يُتَّهَمَ في إمساكِها، وأن لا يدَّعيَ أحدُهما بقاءَ الزَّوجيَّةِ وثبوتَها ليَرِثَ في حال وفاة الآخَر، وقيل: إنَّ الإشهاد إنَّما أُمروا به للاحتياط؛ مخافة أن تنكر المرأة المراجعة فتنقضيَ العدَّةُ فتنكِحَ زوجًا[4]. ومِن حِكَم ذلك: أنَّه قد يُطلِّقُها ويرتجِعُها، فيزيِّنُ له الشَّيطانُ كتمانَ ذلك حتّى يطلِّقَها بعد ذلك طلاقًا محرَّمًا ولا يدري أحدٌ فتكونَ معه حرامًا، فأمر اللّه أن يُشهد على الرَّجعة ليَظهَرَ أنَّه قد وقعت به طلقةٌ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 308.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 330.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 147.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 561.
(5) ابن تيمية، الفتاوى: 33/ 34.

نكتةُ التّعبير بـ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾:

عراقةُ صفةِ العدل في الرِّجال

التَّعبيرُ بـ﴿ذَوَىْ﴾ دالٌّ على عراقةِ المطلوبين للشَّهادة، كأنَّ العدلَ سِمَةٌ مترسِّخة فيهم، فهم معروفون بهذه الصِّفة، مشهورون بها؛ لذا أضيفوا إليها، ويضاف إلى ذلك اختصاص الشَّهادة على الرَّجعة بالذُّكور دون الإناث؛ لأنَّ ﴿ذَوَىْ﴾ مذكَّرٌ، ولذلك قيل: لا مدخلَ للنِّساء فيما عدا الأموال[1]. وقد اتَّجَهَ ابنُ القيِّم إلى جواز شهادة المرأة فقال: "قوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يتناول الصِّنفين، لكنْ قد استقرَّت الشَّريعة على أن شهادة المرأة نصفُ شهادة الرَّجل، فالمرأتان في الشَّهادة كالرَّجل الواحد، بل هذا أولى؛ فإنَّ حضور النِّساء عند الرَّجعة أيسرُ...، فإذا جوَّزَ الشّارع استشهادَ النِّساء في وثائقِ الدُّيون الّتي تكتبها الرِّجال مع أنَّها إنَّما تُكتَبُ غالبًا في مجامع الرِّجال فلَأنْ يسوغَ ذلك فيما تشهدُهُ النِّساء كثيرًا كالوصيَّة والرَّجعة أولى"[2].

وفي ذكرِ ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾ دلالةٌ على وجودِ مَن لا يَعدِلُ من المسلمين؛ لأنَّ في التَّنصيص تعريضًا بغيرهم، ومعناه التَّهييجُ والإثارة لتحرّي أهل العدالة.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾ دونَ غيره كـ(عادِلَين):

أهمّيَّةُ تمكُّنِ العدلِ في الشّاهدَينِ

لم يقل الله تعالى: (عادِلَين) أو نحوَه لعدم عراقة الوصف مقارنةً بالمصدر ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ﴾ فالوصفُ بالمصدر دالٌّ على تمكُّنِ الصِّفة في الرَّجُلين، وكأنَّهما والعدلَ سواءٌ، وهذا ما لا نَجِدُهُ في الوصف باسم الفاعل، مع ملاحظةِ أنَّ المصدرَ يَستوي فيه المفردُ والمثنّى والجمع، المذكَّرُ من ذلك والمؤنَّث، يقال: رجلٌ عدلٌ، ورجلان عدل، ورجال عدل، وامرأة عدل، وامرأتان عدل، ونسوة عدل، كلُّ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 153.
(2) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين: 1/ 41.

ذلك على معنى: رجالٌ ذَوو عدلٍ، ونسوةٌ ذواتُ عدلٍ على سبيل المثال، فهو لا يُثنّى ولا يُجمَع ولا يُؤنَّث(1)، وفي ذلك إشارةٌ إلى توحيدِ القول بين الرَّجُلين، فلا خلافَ ولا اختلافَ، أمّا التَّثنيةُ فيُلحَظُ فيها الاختلافُ الّذي ربّما يقع بين الرَّجُلين، وفي هذا من الحرصِ على إقامة العدلِ ما فيه.

دلالةُ تنكير لفظةِ ﴿عَدۡلٖ﴾:

جـــوازُ دلالتي الـــشُّـــمـــول والـتَّـقـلـيـل في تنكيرِ (عدل)

تنكيرُ لفظةِ ﴿عَدۡلٖ﴾ دالٌّ على شمولِ العدل وعمومه، فهم عادلون في كلِّ ما شَهِدوا به، ويمكن أن يقال: إنَّ التَّنكير دالٌّ على التَّقليل؛ أي: أشهدوا كلَّ من له صلةٌ بعدلٍ، قيل: العدلُ: من لم تظهر منه ريبةٌ، وهذا قول الفقهاء، والعدلُ حقيقةً: الّذي لا يخاف إلّا اللّهَ(2)، وقد يكون العدل هنا بمعنى العقل(3)، وفي كلٍّ إشعارٌ بأهمّيَّة العدل في الإشهاد.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ﴾:

أهمّيَّة الاجتهاد في معرفةِ أهل العدل

قال تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾، ولم يقل: (من علمتم أنَّهما ذوا عدلٍ منكم)، فعلَّق الحكم بالوصف؛ لبيان أهمّيَّةِ الاجتهاد بحسب الإمكان في معرفة الصِّدق والعدالة وأهل الأمانة والعدل(4).

معنى (مِن) في ﴿مِّنكُمۡ﴾:

اخــتــصــاصُ الـمـسـلـمـين الأحـرارِ الرِّجالِ بالشَّهادة دون غيرهم

دلَّ حرفُ الجرِّ هنا على اختصاص الشَّهادة بالمسلمين، والأحرار منهم(5)، ومِن ثَمَّ يخرجُ من الإشهاد غيرُ المسلم، قال النَّسفيُّ: "﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ من المسلمين"(6)، ويخرج العبيد، قال

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 324.
(3) الثعالبي، اللطائف والظرائف، ص: 41.
(4) ابن تيمية، منهاج أهل السنة: 7/ 269.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 153.
(6) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 497.

ابنُ جزيّ: "يُؤخذ من ذلك ردُّ شهادة العبيد"[1]، وعلى هذا فالحرفُ (مِن) دالٌّ على التَّبعيض، وقد يكونُ دالًّا على بيان الجنس، أي: مِن جنس المسلمين.

الموقعُ النّحويّ لقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾:

النَّـعـتُ فيه تثبيتٌ لقيمةِ العدل واختيارِ ذَويه

الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ هو النَّصبُ، نعتًا لـ﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ﴾[2]، وفي النَّعت دلالةُ الثُّبوت في الصِّفة، فالصِّفة ليست متنقِّلةً كالحال، وإنَّما هي ثابتةٌ، فكان التَّركيب الإنشائيُّ الطَّلبيُّ مبنيًّا على تثبيتِ قيمة العدالة، وضرورةِ الاهتمام بانتقائهم واختيارهم.

هذا على القولِ بأنَّ (مِن) معناها التَّبعيضُ، أمّا على جعلِ (مِن) لبيان الجنس فموقعُ ﴿مِّنكُمۡ﴾ نصبٌ على الحال، ونجدُ في الحال هنا معنى الشَّرط؛ لأنَّ الحالَ قَيْدٌ في صاحبِها كما هو معلوم، والتَّقدير على ذلك: ذَوَي عدلٍ شريطةَ أنْ يكونا منكم.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الـجـمـعُ بين الـشَّـهـادة وإقامـتِـها على وجهِها

جاءَ قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ عطفًا على ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، وفي العطفِ جمعٌ بين قضيَّةِ الشَّهادة والتَّتميم بإقامةِ الشَّهادة على وجهها.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الحثُّ على أداءِ الشَّهادة وإن كان فيها مشقَّة

الخطابُ موجَّهٌ لكلِّ مَن تتعلَّق به الشَّهادة من المشهود عليهم والشُّهود، كلٌّ يأخذُ بما هو حظُّه من هذين الخطابين[3]، وفي الأمرِ حثٌّ على أداءِ الشَّهادة؛ لِما قد يكون فيه من العُسر على الشُّهود، إذ ربَّما يؤدّي ذلك إلى أن يتركَ الشّاهد مهامَّ أموره، ولِما فيها من عُسرِ لقاء الحاكم الّذي تؤدَّى عنده، وقد يبعُدُ المكان، أو يكون

---

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 385.

(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 120.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 310.

للشّاهد عوائقُ تحول بينه وبين أدائها[1]، لذا قال: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، فحثَّ على الأداءِ على وجه العدل. يُضاف إلى ذلك أنَّ توظيفَ الأمر ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ دالٌّ على تمامِ شرائط الشّهادة، بضرورةِ تحرّي الدِّقَّةِ الكاملةِ في الأداء.

بلاغةُ المجازِ في إقامةِ الشَّهادة:

أهمّيَّةُ استيفاءِ الشَّهادة على وجهِها تامّةً مستقيمة

معنى إقامةِ الشَّهادة: إيقاعُها مستقيمةً لا عِوجَ فيها، فالإقامةُ مستعارةٌ لإيقاع الشَّهادة على مُستوفي ما يجبُ فيها شرعًا ممّا دلَّت عليه أدلَّةُ الشَّريعة[2]، والقيامُ بالأمور بطريقةِ القرآن يَقتضي شيئَين: القوَّةَ والثَّباتَ مع العدل والاستقامة، جاءَ الأمرُ بذلك في ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾، وهذا يقتضي أنَّه يأتي بها تامّةً مستقيمةً؛ فإنَّ الشّاهد قد يَضعُفُ عن أدائها وقد يُحرِّفها، فإذا أقامَها كان ذلك لقوَّته واستقامته. قال البقاعيُّ: "الشَّهادةَ الّتي تحمَّلتُموها بأدائِها على أكملِ أحوالها، كما يفعل مَن يريد إقامةَ شيءٍ ليصيرَ واقفًا بنفسه غيرَ محتاج إلى ما يُدَعِّمُه"[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ﴾:

الاستغراقُ دالٌّ على إقامةِ كلِّ شهادةٍ بحقِّها ومستحقِّها

تعريفُ الشَّهادة للاستغراق؛ أي: كلَّ شهادةٍ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ المأمور به الشَّهادة الشَّرعيّة[4]. والجملةُ الكريمة دليلٌ على أنَّ أداء الشَّهادة على وجهها الصَّحيح عند الحُكّام وغيرهم أمرٌ واجب؛ لأنَّ الشَّهادة هنا اسمٌ للجنس، ولأنَّ اللّه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: 283][5]، وقد أفردَها بالذِّكر تعظيمًا لشأنها وإبرازًا لأهمّيَّتها في دنيا الحياة الزَّوجيَّة.

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 310.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 149.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 310.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 448.

معنى اللّام في ﴿لِلَّهِۚ﴾:

لامُ الأجْلِ فيها امتثالٌ لأمرِ الله وحده

اللّام هنا لامُ الأَجْليَّة؛ أي: لأَجْلِ اللّه وامتثال أمره لا لأجل المشهود له، ولا لأجل المشهود عليه، ولا لأجل منفعةِ الشّاهد والإبقاء على راحته[1]، وهي لامُ التَّعليلِ. وقد جعَلَها اللّه شهادةً له هولرَبْطِها بطاعته وجعلِها هنا سِمَةً من سمات المؤمنين، وهي أمانة من الأمانات، فالجارُّ والمجرور ﴿لِلَّهِۚ﴾ متعلّق بالفعل الطَّلبيِّ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾؛ حثًّا على جعل اللّه هو المبدَأ والختامَ، فلا اعتبار لغيره. قال البقاعيُّ: "ولمّا كان ربَّما مَيَّلَ أحدٌ من المشهود عليهما الشّاهدَ بشيءٍ من المُرغِّبات، فأدّاها على وجهِها لذلك الشَّيءِ لا لكونه الحقَّ - قال مُرغبًا مُرهِّبًا: ﴿لِلَّهِۚ﴾؛ أي: مخلِصين لوجهِ الملك الأعلى المحيط بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرةً، وهو ذو الجلال والإكرام، في أدائها على وجهِ الحقِّ ظاهرًا وباطنًا، لا لأجل المشهود له ولا المشهود عليه، ولا شيءٍ سوى وجهِ اللّه"[2].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الحثُّ على إقامةِ الشَّهادة مع تنشيطِ الفكر

نكتةُ فصل قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ هي الحثُّ على إقامةِ الشّهادة لوجه اللّه، ولأجل القيام بالقسط[3]، وفي الفصلِ تنشيطٌ للذِّهن؛ لاستئنافِ الفكر في الأحكام والمحافظة على أدائها، يضافُ إلى ذلك أنَّه "لمّا كانت أحكامُه ﷻ - لا سيَّما في الكتاب المُعجِزِ - مقرونةً بعِلَلِها، وفيها عند التَّأمُّل رقائقُ ودقائقُ تخشعُ لها القلوب، وتَجِبُ الأفئدةُ في داخل الصُّدور قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: الّذي ذكرتُ لكم أيَّتُها الأمَّةُ من هذه الأمور البديعة النِّظام، العاليةِ المرام، وأولاها بذلك هنا الإشهادُ وإقامة الشَّهادة"[4]. فالفصلُ إمّا لكمالِ الاتّصال، وإمّا من الاستئناف البيانيّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حكمة هذه التَّشريعات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 310.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 149.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 555.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 149.

غرضُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

استيفاء الأحكام المتعلّقة بالإمساك والمفارقة

غرضُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد الإشارةُ إلى جميعِ ما تقدَّم من الأحكام الَّتي فيها موعظةٌ للمسلمين، من قوله: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾[1]، وكأنَّ وظيفةَ اسم الإشارة للبعيد استيفاءُ كلِّ الأحكام الواقعة في دائرةِ الإمساك والمفارقة بلفظٍ واحد فقط، وضمُّ القريب والبعيد من الأحكام، ففيها إيجازٌ بعَوْدِ الاسم على ما سبق، ولولا اسمُ الإشارة لجازَ أن يكرَّرَ الكلامُ، فجاءَ اسم الإشارة مُؤْذِنًا بالإيجاز والاختصار.

بلاغةُ المتشابه في سورة الطَّلاق، وسورةِ البقرة:

الإفرادُ في البقرة إشارةٌ لقلَّة المستجيبين، والجمعُ في الطَّلاق دالٌّ على الكثرة

في آية البقرة: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فأفرد الخطابَ، وقال: ﴿مِنكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ [البقرة: 232]، وفي آيةِ الطّلاق قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ بأداة خطابِ الجميع، ولم يقل: (منكم)، وسرُّ ذلك: أنَّ آية البقرة وردتْ في سياق التَّشديد على عدم ظُلم الزَّوجات أو الإضرار بهنَّ، ففيه تصنيفُ المُضرّين بالزَّوجات باحتيالِهم على أخذِ أموالهنَّ بغير حقٍّ، وهذا ما يظهرُ في قولِه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ [البقرة: 229]، وقولِه بعد ذلك: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ [البقرة: 231]، وقد استدعى ذلك النَّواهي، فبالغت الآيةُ في زجرِهم حين قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: 231]، وهذا أشدُّ شيءٍ في تعنيف المضرّين بهنَّ، ثمَّ نهى سبحانه عن عَضْلِ النِّساء فقال: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 231]، فكان التَّعبيرُ باسم الإشارة للمفرد ﴿ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 232] بحرف الخطابِ للواحد إشارةً لتقليل المستجيبين المتورِّعين عن الطَّمع في أموال الزَّوجات والإضرارِ بهنَّ عَضْلًا أو احتيالًا على ما لديهنَّ. ويؤكِّدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 311.

هذا التَّقليلَ دلالةُ حرف الجَرِّ ﴿مِنكُمۡ﴾ [البقرة: 232]، الّتي تُشعِرُ أنَّ المستجيبين ليسوا الكلَّ بما يُعطيه مفهومُ ﴿مِنكُمۡ﴾ [البقرة: 232].

ولمّا كان الواردُ في سورة الطَّلاق أخفَّ في المطلب وأيسرَ في التَّكليف ترى أنَّ الأحكام المتعلِّقة بالطَّلاق - وهي الّتي دارَتْ عليها آيُ هذه السّورةِ - كلُّها فروعٌ ثَوانٍ، فالسَّلامةُ فيها أيسرُ، وسالكُ طريقُها أكثر، فناسَبَ ذلك ورودُ الخطاب بالحرف الذى يخاطب به الجميعُ ويشملُهم، فقيل: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وقيل: ﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ﴾، ولم يَرِدْ هنا: (من كان منكم)؛ لكثرة المنفِّذين لأحكامه، فروعيَ في كلٍّ مِن السّورتين ما بُنيت عليه القصَّةُ[1]. ويمكنُ أن يقالَ: إنَّ الخطابَ بالجمع في سورة الطَّلاق ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ لأنَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ ولأمَّته جميعًا، فناسَبَ ذلك مُستهَلَّ السّورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

دلالةُ التّعبير بـ﴿يُوعَظُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ دلالات الزَّجر المقترن بالتَّخويف مع النُّصح والتَّذكير

تتمثَّلُ علَّةُ الفعلِ ﴿يُوعَظُ﴾ في النَّظر إلى دلالاته المختلفة، فالوَعْظُ: زجرٌ مقترن بتخويف، والوعظ: هو التّذكيرُ بالخير فيما يرقُّ له القلب[2]، ويضافُ إلى دلالات الزَّجر والتَّخويف، وفيه النُّصح والتَّذكير بالعَواقب؛ فهو تذكيرُكَ للإنسان بما يُلَيِّن قلبَه من ثوابٍ وعِقاب[3]، ويضافُ إلى ما سبق أنَّه لمّا كانت أوامرُ اللّه تعالى وقصصُه وأحكامه وجميعُ كلامه مختصًّا من بين كلام النّاس بأنَّه يرقِّقُ القلوبَ ويُلَيِّنُ الشَّكائم لكونِه روحًا لِما فيه العدلُ الذي تهواه النُّفوس، وتعشقه الألباب، وتميل إليه الطبائع، وقامت به السَّماوات والأرض، ولِما فيه أيضًا من ذكرِ مَن تعشقُه الفِطَرُ القويمة من جميع

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 67، 68.
(2) الراغب، المفردات: (وعظ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وعظ).

أهل الخير من الأنبياء والملائكة والأولياء، مع تشريف الكلِّ بذكر اللّه؛ لمّا كان كذلك سُمّيَ وعظًا[1].

دلالةُ بناء ﴿يُوعَظُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعله:

نفعُ الوعظ ولو لم يُعرف القائل، مع الإشارة إلى كلِّ مُكوِّنات عمليَّة الوعظ

في بناءِ الفعل ﴿يُوعَظُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعله إشارةٌ إلى أنَّ الوعظ بنفسه نافعٌ ولو لم يعرف قائله، وإلى أنَّ الفاعل معروفٌ أنَّه اللّه؛ لكونه سُمّيَ وعظًا مع كونه أحكامًا[2]. ففي البناء تركيزٌ على عمليَّة الوعظ، وفي التَّركيز إشارةٌ إلى العمليَّة برُمَّتها: الواعظِ، والموعوظِ، ومادَّةِ الوعظ، وزمانِ الوعظ، ومكانِ الوعظ، فأدَّى الفعلُ المبنيُّ لِما لم يسمَّ فاعله دورَهُ في الإشارة إلى كلِّ مكوِّنات العمليَّة الوعظيَّة.

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾:

سببُ الوعظ رعايةُ حقوقِ المرأة

الباءُ من أصولِ معانيها السَّببيَّة؛ والباءُ رَبَطتِ التَّركيبَ، والمعنى: أنَّ الوعظَ كان بسبب الحقوق الَّتي أُقِرَّتْ للمرأة، الّتي يجبُ مراعاتها والحفايةُ بها.

وجهُ تخصيص المؤمنين بالموعظة ﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ﴾:

المؤمنون هم المُبادِرون مع إلهابِهم وتهييجِهم

وجهُ تخصيص المؤمنين بالموعظة ﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ﴾ أنَّهم هم الَّذين سينتفعون بما يوعظون به، فيبادرون إلى تنفيذِه فورَ سماعه، وفيه مدحٌ لِمَن آمن باللّه واليوم الآخر، وفيه إلهابٌ وتهييجٌ لضرورة الاستماع للموعظة والمسارعةِ إلى تنفيذها؛ لأنَّ الوعظ هو التَّحذير ممّا يضرُّ والتَّذكيرُ المُلَيِّنُ للقلوب[3].

سرُّ إيثارِ الاسم الموصول ﴿مَن﴾ وتقييدِه بالإيمان:

المؤمنون هم الأحِقّاءُ بالتَّنفيذ، فحَسُنَ التَّخصيص

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ الدّالِّ على العُموم إشارةً إلى عمومِ الموعظة لكلِّ مؤمنٍ تمكَّنتْ في قلبه صفةُ الإيمان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 150.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 150.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 311.

باللّه واليوم الآخر، ولو استخدَمَ النَّظمُ الحكيمُ اسمًا موصولًا مختصًّا كـ(الّذي) مثلًا لتقيَّدَ الوعظُ وانحصَرَ به دونَ غيره.

ولمّا كان الاسم الموصولُ لا يَظهَرُ إلّا بصلته؛ لأنَّه اسمٌ ناقصٌ يحتاج إلى ما يجبُرُ نقصَه كان الجبرُ هنا بصفة الإيمان ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾؛ لأنَّ الوعظ فيه التَّهديد والتَّرغيب، فكان المؤمنون هم الأحِقّاءَ بهذا، فحَسُنَ التَّخصيصُ؛ لأنَّه المُقِرُّ بها، مع التَّعبير بالمضارع الدّالِّ على الاستمرار واستحضار صفة الإيمان المتمكِّنة فيه باللّه واليوم الآخر، وكأنَّ الإيمان صفةٌ عُرِفَ بها المُنفِّذُ للموعظة.

نكتةُ تصديرِ جملةِ الصِّلة بفعلِ الكون:

دلالةُ (كان) على الزّمانِ مطلقةٌ؛ إشارةً إلى رسوخ الإيمان

من الخصائصِ الأسلوبيَّة لـ﴿كَانَ﴾ إمكانيَّةُ استخدامِها للدَّلالة على الدَّوام والاستمرار، فهي من حيث المعنى التَّركيبيُّ تُشبِهُ (لم يزل)، ومقتضى هذا أنَّها تنتقلُ دلاليًّا من إفادة ارتباط مضمون الجملة بعدَها بالزَّمان الماضي إلى إفادة امتدادِ هذا المضمون من الماضي إلى الحاضر واستمراره إلى المستقبل، وهذا يعني أنَّ دلالة ﴿كَانَ﴾ على الزَّمان مطلقةٌ[1]، وهذا يؤكِّدُ حتميَّةَ الإيمان الّذي لا يتعلَّق بوقت، فهو مسترسلٌ ممتدٌّ، وهذا يناسب دلالة المضارع في الفعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾، ففي ﴿كَانَ﴾ دلالةٌ على رسوخِ الإيمان في جميعِ الموعوظين[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

دوامُ الإيمان عاملٌ من عوامل التَّمسُّك بالتَّقوى

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ على أهمّيَّة استمرار الإيمان مع تجدُّدِه واستحضار صورته؛ لنَيْلِ هداية القلب، وفي المضارع حثٌّ على التَّمسُّك بهذا الإيمان الدّاعي إلى التَّقوى والتَّسليم لأمر اللّه، فهو يوقِعُ ويُجدِّدُ منكم ومن غيركم على سبيل الاستمرار الإيمانَ بالمَلِكِ الذي له الكمالُ كلُّه[3]. مع دلالة الباء على الملابسةِ

(1) أحمد درويش، تجليات النعوت الفريدة في النظم القرآني المدني، ص: 125.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 150.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 150.

وشدَّة التَّعلقُّ بالإيمان بالله، أو الإلصاقِ، وهو معنًى لا يُفارقها كما قال العلماء[1].

نكتةُ تقديم الإيمان بالله على الإيمان باليوم الآخر:

الإيمـانُ بالله هــو الــدّاعــي للإيمانِ باليوم الآخــر وتـنـفـيذِ التَّكليفات

جاء التَّركيبُ على الأصل، فالإيمانُ بالله هو الدّاعي للإيمان باليوم الآخر، كما أنَّ الله ﷻ هو الآمرُ النّاهي، وعقَّبَ باليوم الآخر؛ لأنَّه هو الّذي يحصلُ به التَّخويف والتَّرهيب، وفيه تُجنى ثمرةُ امتثالِ المأمورات واجتنابِ المَنْهيّات.

نكتةُ التَّعبير بـ(اليوم الآخر):

تجنُّبُ العاصي المـعــاصيَ مع التَّذكير بحُسن الـخـاتـمـة أو قُبحِها

ليوم القيامة أسماءٌ كثيرة، منها: اليومُ الآخِر، الواقعة، السّاعة، يومُ التَّلَاق، يومُ الفصل، وكلُّ اسم يأتي مناسبًا لسياقه، أمّا ذكرُ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ هنا فقد جاءتْ فتحًا لباب العمل الصّالح وإعطاءِ المرأة حقوقَها؛ كي يتجنَّب العاصي المعاصيَ الّتي تسيطرُ في هذا الموقف العصيب، وهنا جاء النَّعت بـ ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ للتَّذكير بحسن العاقبة أو قبحها، فليكنْ آخرَ العهد بامرأتِكَ التَّنفيذُ الصَّريحُ لأوامر الله تعالى مع اجتناب نواهيه؛ كي تتجنَّب ما أُعِدّ في اليوم الآخر من خسارٍ، وتفوزَ بنعيمه، وكأنَّ لفظةَ ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ عبَّرتْ عن موقِفَي الدُّنيا والآخرة. وقيل: إنَّ سببَ التَّذكير بـ(اليوم الآخر) أنَّ اليوم الآخر هو المحطُّ الأعظمُ للتَّرقيق[2]، فهو المزيلُ لقساوة القلب، ومحطُّ الحكمة؛ لأنَّ الدُّنيا مزرعةٌ للآخرة، ولا يكونُ زرعٌ بغير حصادٍ، فخلوُّ الإيمان عن اليوم الآخِر مُعدِمٌ للإيمان، فقال لذلك: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾، أمّا من لم يكن متَّصفًا بذلك فكأنَّه لقساوة قلبه ما وُعِظَ به؛ لأنَّه لم ينتفع به أبدًا[3].

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 46.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 157.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

الواوُ اعتراضيَّةٌ، لبيانِ قيمة التَّقوى بالتَّرهيب والتَّرغيب

جاء النَّظمُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اعتراضًا بين جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ وجملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ الآيةَ، فإنَّ تلك الأحكامَ لمّا اعتُبِرتْ موعظةً بقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ أعقبَ ذلك بقضيَّةٍ عامَّة، وهي أنَّ تلك مِن تقوى اللّه تعالى، وبما لتقوى اللّه من خيرٍ في الدُّنيا والآخرة، على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والتَّرهيب بالبشارة والتَّرغيب[1]. ويضاف إلى ما سبق أنَّه لمّا كانت العبادة لا تكون إلّا بالإعانة، وكان التَّقدير: فمن اتَّعَظَ بذلك كان اتِّعاظُه شاهدًا له بإيمانه بذلك، وكان متَّقيًا عطَفَ عليه قولَهُ اعتراضًا بين هذه الأحكام تأكيدًا للتَّرغيب في الإعانة المترتِّبة على التَّقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يَخَفِ المَلِكَ الأعظمَ، فيَجعَلْ بينه وبين ما يُسخِطُه وقايةً ممّا يُرضيه، وهو اجتلابُ ما أمَرَ به واجتنابُ ما نهى عنه من الطّلاق وغيرِه ظاهرًا وباطنًا، وذلك صلاحُ قويِّ العلمِ بالإيمان والعملِ بفعل المأمور به وترك المنهيِّ عنه[2].

فائدةُ الاعتراضِ بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

في الاعتراضِ حملُ النُّفوس على تقبُّلِ التَّشريعِ وملازَمة التَّقوى

جيءَ بهذا الاعتراض بين هذه الأحكام؛ لحمل النُّفوس على تقبُّل تشريعاته تعالى وآدابه، ولحضِّ الزَّوجين على مراقبته سبحانه وتقواه؛ أي: ومَن يتَّق اللّه تعالى في كلِّ أقواله وأفعاله وتصرُّفاته يجعلْ له سبحانه مخرجًا من هُموم الدُّنيا وضوائقِها ومتاعبِها، ومِن شدائدِ الموت وغَمَراته، ومن أهوال الآخرة وعذابها، ويرزُقْه الفوزَ بخيرِ الدّارين من طريقٍ لا تخطُرُ له على بال، ولا تَرِدُ له على خاطر، فإنَّ أبواب رزقه سبحانه لا يعلمُها أحدٌ إلّا هو ﷻ. وفي هذه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 311.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 151.

الجملة الكريمة من البشارة للمؤمن ما فيها، حتّى يَثبُتَ فؤادُه، ويستقيمَ قلبُه، ويحرصَ على طاعة اللّه تعالى في كلِّ أحواله[1].

بلاغةُ التّعبير بالجملةِ الشّرطيّة:

ملازَمةُ المَخرج للتَّقوى، مع إلهاب المؤمن بالتزامها

تتمثَّل بلاغةُ الجملة الشَّرطيَّة في قيامها على الرَّبط بين السَّبب والنَّتيجة، وكأنَّهما متلازمان في الوقوع، فالشَّرطُ معلوم الوقوع، وإنْ كان الشَّرطُ معلومَ الوقوع فالجزاءُ لازم الوقوع[2]. وفي الشَّرط دليلٌ على أنَّ كلَّ عسير من الأمور يتيسَّر بالتَّقوى، حتّى عُسرُ تقتيرِ الرِّزق، وشفاءِ الدّاء العَسِرِ العلاجِ، والخلاصِ من المحبس؛ أي: الفكاكِ من الأسر[3]، وكأنَّ الشَّرط فيه مندوحةٌ للمتَّقي بأنَّه إذا اتَّقى فالمخرجُ حاضرٌ لهذا، وفي هذا إلهابٌ وتهييج للمؤمن بالتَّقوى وعدمِ ظلم المرأة بإعطائِها حقوقَها المرجوَّة. وعبارةُ أبي حيّان: "ومفهومُ الشَّرط أنَّه إنْ لم يتَّقِ اللّه، فبَتَّ الطَّلاقَ وندم لم يكن له مخرجٌ، وزال عنه رزقُ زوجته"[4].

الفرقُ بين ﴿يَتَّقِ﴾ مطلقًا ومقرونًا بغيره:

الإشارةُ إلى عموم الأمرِ والنَّهي

قال البقاعيُّ: "التَّقوى إذا انفردتْ في القرآن عن مقارنٍ عمَّتِ الأمر والنَّهي، وإذا قُرنت بغيرِها نحوِ إحسانٍ أو رضوان خَصَّت المناهيَ"[5]، وقد جاءت هنا مطلقةً من دون عطفٍ، فلم يقل القرآن: (ومن يتَّق اللّه ويصبر) أو: (ومن يتَّقِ اللّه ويُحسِن)؛ إشارةً إلى عمومِ الأمر والنَّهي في هذا السّياق.

دلالةُ التّعبير بالأفعال المضارعة ﴿يَتَّقِ﴾ و﴿يَجْعَل﴾:

عراقةُ التَّقوى في الخروج من الهموم والغموم

يدلُّ الفعلان المضارعان على ضرورة الاستمرار في التَّقوى كي

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 449.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 421.
(3) القصاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 4/ 340.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 190.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 132.

تكونَ علامةً له، يُعرَف بها ويوسَم، ومضارعيَّةُ الجَعْلِ فيها تلازمٌ بين الفعلين؛ فكأنَّ التَّقوى هي المنفذُ الكبير للخروج من الهموم والغموم الّتي قد تجتاحُ المؤمنَ. وفي هذا حثٌّ على الاتِّقاء، وبيانُ عراقتِه؛ لِما له من الجزاء الحسن. والتَّنصيصُ على التَّقوى بإلصاقِها في أحكام الطّلاق يوحي بدقَّة انطباقها وتحقُّقها عندما يتَّقي المتَّقون اللّهَ في هذا الشّأن بصفةٍ خاصّة. وهو الشّأنُ الّذي لا ضابطَ فيه أحسُّ ولا أدقُّ مِن ضابطِ الشُّعور والضَّمير، فالتَّلاعبُ فيه مجالُهُ واسعٌ، لا يقفُ دونه إلّا تقوى اللّه وحساسيَّةُ الضَّمير.

بلاغةُ حذفِ متعلِّق التَّقوى في قوله: ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

عمومُ الحذف؛ لملازمةِ المؤمن تقوى اللّه مع اتِّساع الدَّلالة

دلَّ الحذف على العموم؛ فمجالاتُ التَّقوى غيرُ محصورةٍ في أمور محدّدة، وإنّما تتجاور مع كلِّ أحداث الحياة، فكأنَّ سِمَةَ المؤمن هي التَّقوى وملازمتُها؛ كي تكونَ شعارًا للمؤمن، فالحذفُ أدّى لاتِّساع الدَّلالات، فمِن المعاني المحذوفة: ومن يتَّق اللّه يجعل له مخرجًا؛ أي: من يتَّق عذابَ اللّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والوقوفِ على حدوده الّتي حدَّها لعباده وعدمِ مجاوزتها؛ يجعلْ له مخرجًا ممّا وقع فيه من الشَّدائد والمِحَن. ومن معاني الحذف: مَن طلَّقَ كما أمره اللّه يكنْ له مخرجٌ في الرَّجعة في العِدَّة، وأنَّه يكونُ كأحدِ الخُطّابِ بعدَ العِدَّة. ومن المعاني أيضًا: ومن يتَّق اللّه بالصَّبر عند المصيبة يجعل له مخرجًا من النّار إلى الجنَّة(1)، أو مخرجًا ممّا نهى اللّه عنه.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾:

التَّخصيصُ والحثُّ على التَّقوى والتَّعجيلُ بالمسرَّة

اللّامُ دالَّةٌ على التَّخصيص؛ أي: تخصيصِ المخرج بهذا المتَّقي، وفي هذا حثٌّ للمؤمن على التَّقوى، وفي تقديم شبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول ﴿مَخۡرَجٗا﴾ تعجيلٌ بالمسرَّة، وإدخالُ البِشر والسُّرور على مَن يخشى اللّه ويتَّقيه.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 289.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَخۡرَجٗا﴾:

التَّعظيمُ والعمومُ والاتِّساع

تنكيرُ ﴿مَخۡرَجٗا﴾ للتَّعظيم، وللعموم أيضًا؛ أي: مخرجًا ممّا نهى اللّه عنه، أو مخرجًا من كلِّ شيءٍ ضاق على النّاس. وقد يكون المعنى: ومن يتّق اللّه في أداء الفرائض يجعل له مخرجًا من العقوبة، وقيل: ومن يتّق اللّه في اتِّباع السُّنَّة يجعل له مخرجًا من عقوبة أهل البِدَع[1].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾:

الحَرَجُ سببٌ لمنحِ اللُّطف للمتَّقين بتخلُّصهم من الأهوال

لمّا كان أمرُ الطّلاق غيرَ خالٍ من حرجٍ وغمٍّ يَعرِضُ للزَّوجين، وأمرُ المراجعة لا يخلو في بعضِ أحواله من تحمُّل أحدِهما لبعض الكُره من الأحوال الّتي سبَّبَتِ الطَّلاقَ؛ أعلَمَهما اللّه بأنَّه وعدَ المتَّقين الواقفين عند حدوده بأنْ يجعلَ لهم مخرجًا من الضّائقات. شبَّهَ ما هُم فيه من الحَرَجِ بالمكان المغلق على الحالِّ فيه، وشبَّه ما يمنحُهم اللّه به من اللُّطف وإجراءِ الأمور على ما يلائمُ أحوالَهم بجعلِ منفذٍ في المكان المغلق يَتخلَّصُ منه المتضائقُ فيه. ففي الكلام استعارتان، إحداهما ضِمنيَّةٌ مَطْويَّة، والأُخرى صريحةٌ، وشمل المخرجُ ما يَحُفُّ من اللُّطف بالمتَّقين في الآخرة أيضًا، بتخليصِهم من أهوال الحساب والانتظار، فالمخرجُ لهم في الآخرة هو الإسراعُ بهم إلى النَّعيم[2].

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ﴾:

عراقةُ العطاءاتِ المترتِّبة على التَّقوى

مِن دلالاتِ الواو مطلقُ الجمع، وهو المعنى المرادُ في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ﴾، ففيها تعدُّدُ الآثارِ المترتِّبة على التَّقوى، فأوَّلُ أثرٍ إيجادُ المخرج لكلِّ نازلةٍ، مع الرِّزق بغير حساب، وفي تعدُّدِ المعطوفات دليلٌ على عراقةِ العطاءات المترتِّبة على التَّقوى، وفي الفعل عراقةُ القدرةِ المطلَقة مع الحَوْلِ والقوَّة، فكان تعدُّد العطاءات بجَلْبِ المَسارِّ في الدّين والدُّنيا والآخرةِ في نظير ما اجتُلِبَ من فعل الأوامر[3].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 289.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 311.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 151.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع (يرزقه):

لمّا كان من دواعي الفِراق والخلاف بين الزَّوجين ما هو مِن التَّقتير في الإنفاق لضيق ذات اليدِ، فكان الإحجامُ عن المراجعةِ عارِضًا كثيرًا للنّاس بعدَ التَّطليق؛ أُتبِعَ الوعدُ بجَعلِ المخرج للمتَّقين بالوعد بمخرجٍ خاصٍّ، وهو مخرجُ التَّوسعةِ في الرِّزق[1]. وفي المضارع دلالةٌ على الرِّزق المستمرِّ الدّائم، الملازم للتَّقوى والخوف من اللّه.

من آثارِ التَّقوى التَّوسِعةُ الدّائمةُ في الرِّزق

علَّةُ الجمع بينَ جَعْلِ المخرجِ والرِّزق:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ هو شرطٌ يواجَهُ به كلٌّ من الزَّوج والزَّوجة، وأمّا الجوابان - وهما: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، ثمَّ ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ - فأوَّلُهما للزَّوجِ الّذي وعده اللّه سبحانه بأن يجعل له مخرجًا إذا هو اتَّقى اللّه، وأمّا الجواب الآخر فهو للزَّوجة الّتي وعدها اللّه سبحانه بأن يرزقَها من حيث لا تحتسبُ ولا تقدرُ إذا هي اتَّقتِ اللّه في موقفها من زوجها في فترة العدَّة. وهذا لا يمنعُ من أن يكون ذلك الشَّرطُ وجواباه للعموم؛ بمعنى: أنَّ كلَّ مَن اتّقى اللّه يجعلُ اللّه له مخرجًا، ويرزقُه من حيث لا يحتسب، ولكنْ لمّا كان ذلك في مواجهة الزّوجين المُزمِعَين على الفراق جاءت الجملة الشَّرطيَّةُ ضابطةً لحالِهما، فأعطَتْ كُلًّا منهما ما يناسبه، ثمَّ كان منها هذا الشُّمولُ الّذي يسعُ النّاسَ جميعًا[2].

مناسبةُ المخرجِ للزَّوج، ومناسبةُ الرِّزقِ للمرأةِ، مع جوازِ العموم لكِلا الطَّرفين

معنى ﴿مِنۡ﴾ و﴿حَيۡثُ﴾ في التَّركيب:

دلَّتْ ﴿مِنۡ﴾ في الآية الكريمة على ابتداءِ الغاية المكانيَّة بدلالةِ ﴿حَيۡثُ﴾ بعدها، وفي ابتداءِ الغاية التَّعجيلُ بالرِّزق، فكأنَّ التَّعبير: ومَن يتَّق اللّه يرزقْه اللّه على الفَورِ من غيرِ شيءٍ يخطر له على البال، فالجارُّ والمجرور متعلّقان بالفعل (يرزقْه) المترتِّبِ على

الظَّرفيَّةُ والابتداءُ دالّان على سرعةِ مجيءِ الرِّزق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 312.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1007.

التَّقوى. ولا يجوزُ أن تكون ﴿مِنْ﴾ زائدةً؛ لأنَّها أصيلةٌ في بابها، ينهَدُ بها التَّركيب.

بلاغةُ المجاز في ﴿مِنْ حَيْثُ﴾:

الأحوالُ جهاتُ الرِّزق الوارد للمتَّقي

تتمثَّلُ بلاغةُ المجاز في ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ في كون ﴿حَيْثُ﴾ مستعملةً مجازًا في الأحوال والوجوه، تشبيهًا للأحوالِ بالجِهات؛ لأنَّها لمّا جُعِلتْ مُقارِنةً للرِّزق أشبَهَتِ المكانَ الَّذي يَرِدُ منه الواردُ؛ ولذلك كانت ﴿مِنْ﴾ هنا للابتداءِ المَجازيِّ تبعًا لاستعارة ﴿حَيْثُ﴾. ففي الحرفِ ﴿مِنْ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ[1]، وأحلى الهِباتِ ما جاء من مكانٍ لا يُرجى[2].

بلاغةُ الاحتراس في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾:

دفعُ توهُّمِ مَن يَتوهَّمُ أنَّ طُرقَ الرِّزق معطَّلةٌ عليه

في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ احتراسٌ؛ لئلّا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ طُرقَ الرِّزق معطَّلةٌ عليه، فيستبعدَ ذلك، فيُمسِكَ عن مراجعة المطلَّقة؛ لأنَّه لا يستقبلُ مالًا يُنفِقُ منه، فأعلَمَهُ اللّهُ أنَّ هذا الرِّزقَ لطفٌ من الله، واللّه أعلمُ كيف يهيِّئُ له أسبابًا غيرَ مُرتقَبةٍ، فمعنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾: من مكانٍ لا يَحتسِبُ منه الرِّزقَ؛ أي: لا يَظُنُّ أنَّه يُرزَقُ منه، فلا مشقَّةَ عليه في وصوله إليه، فيأكلُ ويلبسُ من غير انتظارٍ ولا استشرافِ نفسٍ، ولا تعبٍ، فيخرجُ له من الغَيب بالبديهة ما يكفيه عن السُّؤال، ومَن عَرَفَ اللّهَ عَرَفه بكمالِ قدرته وإحاطة علمِه بكلِّ ذرَّةٍ، فيُلقي زِمام الاختيار إليه، فيَكفيه كلَّ مُؤَنِه في الدُّنيا والآخرة، وهو السَّميع العليم[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ﴾:

تَوالي عطاءاتِ الخيرِ المترتِّبةِ على التَّقوى

جاءت الواوُ في السّياق؛ تعديدًا لمَكامِنِ الخير؛ تكملةً للّتي قبلّها؛ فإنَّ تقوى اللّه سببُ تفريجِ الكرب والخلاصِ من المضائق،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 151.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 69.

وملاحظةُ المسلمِ ذلك، ويقينُه بأنَّ اللّه يدفعُ عنه ما يخطرُ بباله من الخواطرِ الشَّيطانيَّة الّتي تُثَبِّطُهُ عن التَّقوى يُحَقِّقُ وعدَ اللّه إيّاه بأنْ يجعلَ له مخرجًا ويرزقَهُ من حيث لا يحتسب[1]، وفي العطفِ إلماحةٌ أُخرى، وهي التّأكيد والإبلاغ في الوعدِ؛ لأجلِ ما جُبِلَ عليه الإنسانُ من القلق في أموره[2].

بلاغةُ التَّعبير بالجملةِ الشَّرطيَّة:

الحثُّ على التَّوكُّلِ؛ لسرعةِ الثَّمرةِ المرجوَّةِ من ورائه

دلَّ التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّةِ على تلازُم العلاقةِ بين الشَّرطِ والجواب، فكأنَّ التَّعبير فيه حثٌّ على التَّوكُّل والاعتمادِ على اللّه؛ لأنَّ الثَّمرةَ المرجوَّة سريعةُ المَنالِ، قريبةُ التَّحقُّق. وفي التَّعبيرِ بـ(مَن) دلالةٌ على العُموم القائم في الكلمة، وفي هذا إشارةٌ إلى سعةِ أمر التَّوكُّلِ وسَعةِ كفاية اللّه له، فالوعدُ لا يتخلَّف؛ لذا قالوا: "ما في القرآن آيةٌ أكثرُ تفويضًا من آيةٍ في سورة النِّساء القُصرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ﴾"[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَوَكَّلْ﴾:

الحثُّ على التَّوكُّل، وتجدُّدُه بتجدُّدِ الأزمنةِ والأمكنة

في قوله تعالى: ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ حثٌّ على الاستمرار في التَّوكُّل، وتجدُّدِه بعموم الأزمنة والأمكنة؛ لأنَّ التَّوكُّلَ في حياة المسلم أمرٌ مُتجدِّدٌ في كلِّ لحظةٍ، فلا يعملُ المسلم عملًا مهما دقَّ أو عَظُمَ إلّا متوكِّلًا على اللّه ﷻ؛ فأمرُ التَّوكُّلِ عامٌّ شامل، بدلالة حذف المتعلِّق. وفي هذا دلالةٌ على أنَّ أمر التَّوكُّل من موجِبات المعيَّةِ الإلهيَّة، فاللّه عزيزٌ غالبٌ في ذاته، قادرٌ على إعانةِ مَن استعان به، حَكيمٌ متقن في فعله وأمره، يفعلُ ويأمر ما تستبعدُه العقول، وتدهشُ فيه الأحلام. ويُفهَمُ بأسلوب المخالفة: أنَّ مَن توكَّل على غيرِه ﷻ ضاعَ؛ لأنَّه لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 312.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 151.
(3) السيوطي، معترك الأقران: 1/ 358.

يعلمُ المَصالِحَ، وإنْ عَلِمَها لم يعلمْ أين هي، وإنْ علمَ لم يعلم متى يستعملُها، وإنْ علمَ لم يعلم كم المقدارُ المستعمل، وإنْ علمَ لم يعلم كيف يستعملُها، وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كلِّه، وما لا يَعلَمُهُ حقَّ علمِهِ غيرُه، والآيةُ تُفهِمُ أنَّ مَن لم يتَّقِ اللّه يُقتَّرُ عليه، ومَن لم يتوكَّل لم يُكفَ شيئًا من الأشياء[1].

إفادةُ تخصيصِ التَّوكُّلِ بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

الجـزاءُ الأوفـى بَـدْؤُهُ وخاتمتُه التَّوكُّل على الله

لمّا جاءَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ في سياقِ الشَّرط، وكان الشَّرطُ قيدًا للجملة دلَّ ذلك على أنَّ التَّوكُّل فيه اختصاصٌ باللّه وحدَهُ دونَ غيره، فكان المعنى: أنَّ الجزاءَ حاضرٌ ثابتٌ غيرُ متغيِّرٍ إنْ ثبَتَ أمرُ التَّوكُّل، مع ما في لفظة ﴿عَلَى﴾ من الإلزام الإلهيِّ والتَّفضُّل على البشر، بإثبات أنَّ أهل التَّوكُّل هم أهلُ الكفاية والمعيَّة. قال الشّربيني في السِّراج المنير: "وحرفُ الاستعلاء للإشارة إلى أنَّه كان حَملُ أموره كلِّها عليه سبحانه؛ لأنَّه القويُّ العزيز الّذي يدفعُ عنه كلَّ ضارٍّ، ويجلبُ له كلَّ سارٍّ، إلى غيرِ ذلك من المعاني الكبار، فلا يبدو له عالم الشَّهادة شيءٌ يَشينه"[2]. ويضافُ إلى اختصاصِ التَّوكُّل على اللّه أنَّه الملكُ الّذي بيدِه كلُّ شيءٍ، ولا كُفوءَ له، فقد جمعَ الأركانَ الثّلاثةَ الّتي لا يصلحُ التَّوكيلُ إلّا بها، وهي العِلْمُ المحيطُ؛ لئلّا يُدلَّسَ عليه، والقدرةُ التّامَّةُ؛ لئلّا يعجزَ، والرَّحمةُ بالمتوكِّل والعنايةُ به لئلّا يَحيفَ عليه[3].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾:

ملازمةُ الكِفاية للتَّقوى مباشرةً

جملةُ ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ - أي: كافيهِ - وقعتْ جوابًا للشَّرط مقترنةً بالفاء؛ لأنَّ الجواب جملة اسميَّة، فكانت الفاء واجبةً، وفيها معنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 155.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 315.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.

السُّرعة والملازمة؛ فكان الحَسْبُ والكفايةُ بعد التَّقوى مباشرةً بلا فاصل؛ إشارةً إلى التَّرغيب في التَّقوى وملازمتِها؛ ليكونَ في جناب اللّه وكَلاءَتِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾:

من ثمراتِ التَّوكُّل عراقةُ الكفايةِ والكَلاءة

دلَّ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ على الثّبات والرُّسوخ وعراقة الكفاية والحفظ؛ فالجملة الاسميَّةُ أرسخُ قَدَمًا من الجملة الفعليَّة، وفي هذا إشارةٌ إلى أهمّيَّة التَّوكُّل على اللّه؛ لأنَّ التَّوكُّل من أقوى الأسباب الّتي يدفعُ بها العبد ما لا يُطيق من أذى الخلقِ وظلمِهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك. و﴿حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي: كافيهِ. ومن كان اللّه كافيَهُ وواقيَهُ فلا مطمعَ فيه لعدوِّه، ولا يضرُّه إلّا أذًى لا بدَّ منه كالحرِّ والبرد، والجوع والعطش، وأمّا أن يضرَّه بما يبلغ منه مرادَهُ فلا يكونُ أبدًا[1].

فائدةُ مجيءِ جوابِ الشَّرط بلفظِ بـ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾:

في حقِّ التَّوكُّل على الله كفايةٌ من كلِّ أذى

لم يقل القرآن: (ومن يتوكَّل على اللّه نؤتِهِ كذا وكذا من الأجر) كما قال في الأعمال، بل جعَلَ نفسه سبحانه كافيَ عبدِهِ المتوكِّلِ عليه وحسبَهُ وواقيَهُ، فلو توكَّل العبد على اللّه حقَّ توكُّلِه وكادَتْهُ السّموات والأرض ومن فيهنَّ لجعل له ربُّه مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره[2].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾:

الوعدُ ميسَّرٌ؛ لحصول الأسباب وإن كانت مفقودة

جاءت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ في موضع العلَّة لجملةِ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾؛ أي: لا تستبعدوا وقوعَ ما وعدكم اللّه حين ترون أسبابَ ذلك مفقودةً؛ فإنَّ اللّه إذا وعد وعدًا فقد أراده، وإذا أراد اللّه أمرًا يسَّر أسبابه[3].

(1) ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، ص: 649.
(2) ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، ص: 649.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 312.

فائدةُ توالي المؤكِّدات:

في التَّوكيد إزالةُ الشَّكِّ، وتثبيتُ الإيمانِ بالوعد

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ توالت المؤكِّداتُ وهي ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةُ الجملة؛ لتزيلَ الشَّكَّ من نفس كلِّ شاكٍّ، وتثبتَ إيمانَ المؤمن بوعد اللّه المتحقِّق حتمًا، سواءٌ توكَّل عليه المسلم أم لم يتوكَّل؛ فالإرادةُ لا تتعلَّق بتصرُّف البشر، ويضاف إلى ما سبق أنَّه لمّا كان ذلك أمرًا لا يكادُ يحيط به الوهمُ علَّقهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ مُهوِّلًا له بالتَّأكيد[1]، ففي التَّوكيد تهويلٌ وإعلامٌ بالإحاطة الكاملة والهيمنة.

نكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمار:

عراقةُ التَّهويل وكمالُ التَّنزيهِ مع تربية المهابة

دلَّ الإظهارُ في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بدلًا من (إنَّه) - مع أنَّ ذِكْرَ الضَّمير أخفُّ - [2] على أنَّه لمّا كان ذلك أمرًا لا يكاد يحيطُ به؛ جاء التَّهويل بالإظهار في موضع الإضمار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: المحيطَ بكلِّ كمالٍ، المنزَّهَ عن كلِّ شائبةِ نقص[3]. وفي الإظهارِ تربيةُ المهابة والخشية بذكر الاسم الأعظم. ويضافُ إلى ذلك أنَّ الإظهار يجعل الجملةَ كالمَثَل، يقالُ بمفرده من دون حاجةٍ إلى سياق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾، أمّا الإضمارُ فيَجعلُ الجملةَ مفتقرةً دومًا إلى سياقٍ. ويصحُّ أن يقالَ: إنَّ إظهار الاسم الجليل للإشارةِ إلى تعظيم الموعود وإجلاله[4]، وهذا يعني: "أنَّ تكرير الاسم في الجملة الواحدة... يكونُ في موضع التَّفخيم"[5]. ثُمَّ إنَّ في إعادةِ الاسم دون الضَّمير صورةً من صور الخروج عن مقتضى الظّاهر، وهو نوعٌ من الإطناب[6]؛ لأنَّه يأتي لزيادة التَّقرير، "وتأكيدِ معنًى من المعاني باللَّفظ نفسه، ويقومُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 153.
(2) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 226.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 315.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 88.
(5) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 226.
(6) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 482.

على إعادة الكلمة نفسِها مرَّتين أو ثلاثًا، لِما لها مِن دلالةٍ قويَّة على المعنى المراد... فهي أحقُّ بالتَّكرير"[1].

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾:

حتميَّةُ الوصولِ إلى الشَّيء مع القدرةِ المُطلَقة لله تعالى

معنى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾: واصلٌ إلى مراده، والبلوغُ مجازٌ مشهور في الحصول على المرادِ[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى القدرة المطلَقة، والسَّيطرةِ على الكون والخلائق؛ وفيه دلالةٌ على أهمّيَّةِ التَّوكُّلِ على القادر الجبّار الّذي لا يغلبُهُ شيءٌ.

علَّةُ استعمالِ لفظةِ ﴿أَمۡرِهِۦۚ﴾:

تعدُّدُ الدَّلالات بينَ العظمة والصَّغار والقدرة المطلَقة

سمّى الله ﷻ مرادَهُ النّافذَ لا محالةَ أمرًا بقوله: ﴿أَمۡرِهِۦۚ﴾ إشارةً إلى أنَّه ممّا يستحقُّ أن يُؤمَر به، وإلى أنَّه في سرعة الكون، إذا أُريدَ لم يتخلَّفْ بوجهٍ، بل يكونُ كالمؤتَمَرِ الحقيرِ للملك الجليل الكبير[3].

بلاغةُ توجيهِ القراءات القرآنيَّة المتواترةِ في ﴿بَٰلِغُ﴾:

تكامُلُ القراءتين على استيعاب كلِّ الأزمنة

قرَأ حفصٌ: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغيرِ تنوينٍ مع جرٍّ ﴿أَمۡرِهِۦۚ﴾ بالإضافةِ، وقرأ الباقون: ﴿بَٰلِغٌ﴾ بالتَّنوينِ مع نصبِ ﴿أَمۡرَهُۥ﴾[4]، ولكلٍّ من القراءتين دلالةٌ تختلف عن الأخرى؛ فالقراءةُ بدون تنوينٍ على الإضافةِ تدلُّ على الماضي، والقراءةُ بالتَّنوين تدلُّ على الاستقبال، وفيها يكون ﴿أَمۡرَهُۥ﴾ منصوبًا على أنَّه مفعولٌ به لاسم الفاعل؛ بمعنى: سيبلغُ أمرَهُ فيما يريدُ منكم[5]؛ أي: ولا يفوتُهُ مرادٌ. ويمكن أن يقال: إنَّ دلالة ﴿بَٰلِغُ﴾ من دون تنوينٍ أيضًا على المستقبل ممكنةٌ، وحُذِف التَّنوينُ للتَّخفيف.

(1) عبد الرحمن بو درع، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 313.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 153.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 388.
(5) تاج الدين الواسطي، الكنز في القراءات العشر: 1/ 74.

بلاغةُ التَّعليلِ في قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ﴾:

عدمُ التَّهاون في أمرِ العدَّة والمراجعة والشَّهادة

وَقَعت الجملةُ المؤكَّدةُ بـ﴿قَدۡ﴾ موقعَ التَّعليل لجملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾؛ فإنَّ العدَّة من الأشياء، فلمّا أمر الله بإحصاءِ أمرِها علَّل ذلك بأنَّ تقديرَ مدَّةِ العدَّة قد جعلَهُ اللّهُ وقدَّره، فلا يسوغُ التَّهاوُنُ فيه[1]. ولها موقعُ التَّعليل لجملةِ ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: إذا بلغْنَ القَدْرَ الّذي جعله اللّه لمدَّة العدَّة فقد حصل المقصدُ الشّرعيُّ الّذي أشار إليه قولُه تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، فالمعنى: فإنْ لم يُحدِثِ اللّهُ أمرَ المراجعة فقد رفَقَ بكم وحطَّ عنكمُ امتدادَ العدَّة. ولها موقعُ التَّعليل كذلك لجملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾؛ فإنَّ اللّه جعل الشَّهادة قَدْرًا لرفع النِّزاع، فهذه الجملةُ جزءُ آيةٍ، وهي تحتوي على حقائقَ من الحكمة[2].

دلالةُ التَّذييلِ بقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾:

المحافظةُ على الحدودِ وعدمُ تَعدّيها

وقَعَ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ موقعَ التَّذييلِ لجملة ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾؛ أي: الّذي وضَعَ تلك الحدودَ قد جعَلَ لكلِّ شيءٍ قدرًا لا يَعدوه كما جعل الحدودَ. ويقال: إنَّه لمّا كان ضربُ المقادير من القادر موجبًا لعدم الإخلالِ بشيءٍ منها؛ علَّلَ ذلك بما اقتضى تحتُّمَ الوعدِ والتَّوكُّل فقال: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: المَلِكُ الّذي لا كُفوءَ له ولا مُعقِّبَ لحُكمه[3].

نكتةُ التَّوكيد بـ﴿قَدۡ﴾:

ضرورةُ اليقين وعدمِ الشَّكِّ في إنجازِ وعدِ الله بتيسير أسبابه

جاء الوعدُ المؤكَّدُ من الله تعالى أنَّه يَكفي مَن يتوكَّلُ عليه؛ فقدَّرَ لذلك أسبابَهُ، كما قدَّر أسباب الأشياءِ كلّها، فلا ينبغي أن يشك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 313.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 153.

أحدٌ في إنجاز وعده؛ فإنَّه إذا أراد أمرًا يسَّرَ أسبابَهُ من حيث لا يحتسبُ النَّاسُ، وتصاريفُ اللّٰه تعالى خفيَّةٌ عجيبة.

دلالةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾:

التَّذكيرُ بأنَّ الله عَلِمَ مواعيدَهُ وهيَّأ لها مقاديرَ حُصولها

لهذهِ الجملةِ موقعٌ تتجلّى فيه صورةٌ من صور إعجاز القرآن في ترتيب مَواقعِ الجمل بعضِها بعدَ بعضٍ، فهذه الجملةُ لها موقعُ الاستئناف البيانيِّ، النّاشئَ عمّا اشتملت عليه جُمَلُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ استعداد السّامعين لليقين بما تضمَّنته تلك الجمل متفاوتٌ؛ فقد يستبعدُ بعضُ السّامعين تحقُّقَ الوعد لأمثاله بما تضمَّنته تلك الجملُ بعَرْضِها على ارتباك أحواله، أو يتردَّدُ يقينُه فيقول: أين أنا من تحصيل هذا؟ حين يُتبع نظرَه فيرى بَوْنًا عن حصول الموعود بسبب انعدام وسائله لديه، فيتملَّكُه اليأسُ، فهذا الاستئنافُ البيانيُّ وقع عقب الوعد تذكيرًا بأنَّ اللّٰه عَلِمَ مواعيدَهُ، وهيَّأ لها مقاديرَ حصولِها؛ لأنَّه جعَلَ لكلِّ شيءٍ قدرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل ﴿جَعَلَ﴾:

دلالــةُ الفعلِ عـلى العـمـومِ بتعدُّدِ معانيه

الأصلُ في الفعلِ ﴿جَعَلَ﴾ دلالتُهُ على العموم؛ فهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فعَلَ وصنَعَ) وسائرِ أخواتهما، نقول: جعَلَ يقولُ، ولا نقول: صنَعَ يقولُ، وهو كذلك يتصرَّفُ على عدَّةِ أوجه: **الأوَّل**: يَجري مَجرى (صارَ وطَفِقَ) فلا يتعدّى، نحو: جعَلَ زيدٌ يقولُ كذا. **والثّاني**: يَجري مَجرى (أوجَدَ)، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، نحوُ قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]. **والثّالث**: إيجادُ شيءٍ من شيء وتكوينُه منه، نحو: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النَّحل: 72]. **والرّابع**: تصييرُ الشَّيء على حالةٍ دون حالة، نحو: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: 22]. **والخامس**: الحكمُ بالشَّيء على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 313.

الشَّيء، حقًّا كان أم باطلًا[1]. والفعلُ هنا يحتملُ المعنى الثّانيَ؛ أي: أوجَدَ لكلِّ شيءٍ قدرًا.

نكتةُ إظهار اسمِ الجلالة في موضع إضماره:

تربيةُ المهابة وتهويلُ الموقف رعايةً للحقوق

تتمثَّلُ نكتةُ إظهارِ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضع إضماره - إذ لم يكن التَّعبيرُ: (قد جعل لكلِّ شيءٍ قدرًا)، وهو في غير القرآن جائز - في غرضٍ مهمٍّ هو تربيةُ المهابةِ والخشيةِ، بسبب ذكر الاسم الأعظم في التَّركيب، ويضاف إلى ذلك السَّمْتُ العامُّ للآيات؛ فقد تكرَّرَ ذكرُ اسم الله في الآيات السّابقة عليها؛ تركيزًا على تهويل الموقف لا تهوينِه بذكرِ الاسم الأعظم.

معنى اللّام في ﴿لِكُلِّ﴾:

تخصيصُ الحُكمِ بكلِّ شيءٍ اهتمامًا ورعاية

دلَّتِ اللّامُ في قولِهِ: ﴿لِكُلِّ﴾ على تخصيصِ الحكم المتعلِّق بكلِّ شيءٍ، وتخصيصُ الجَعْلِ فيه إلماحةٌ إلى العناية بكلِّ شيءٍ، وأنَّ له تقديرًا محدَّدًا.

نكتةُ دخولِ لفظةِ (كلّ):

إقامةُ التَّركيب، مع التَّناسبِ بين المضاف والمضاف إليه

جاءتْ لفظةُ (كلّ) لإقامةِ التَّركيب وتمامِه، وهذا يُتصوَّرُ بحذفِ (كلّ)، فعند حذفِها يختلُّ النَّظمُ، فلا يقال: (قد جعل لشيءٍ قدرًا)، بالإضافة إلى التَّناسب بين لفظتَيْ (كلّ) و﴿شَيۡءٍ﴾، فـ﴿شَيۡءٍ﴾ دالٌّ على العموم، وكذلك (كلّ)، والمقصودُ العمومُ المطلَق، فكان ثَمَّ تناسبٌ بين المضاف والمضاف إليه.

نكتةُ تنكير ﴿شَيۡءٍ﴾:

عمومُ ما يتعلَّقُ بالقدْرِ، مع جوازِ كون التَّنكير للتَّقليل

التَّنكيرُ في الآية أفادَ العُمومَ؛ أي: جعَلَ لكلِّ شيءٍ؛ من الفقر والغنى، والمرض والصِّحَّة، والشِّدَّة والرَّخاء[2]، وعليه فقولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ فيه نصٌّ صريحٌ أنَّه تعالى قد جعَلَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جعل).

(2) جعفر شرف، الموسوعة القرآنية: 10/ 36.

لكلِّ شيءٍ من الأشياء - أيًّا كان - قدرًا لا يَتَعدّاهُ بزيادةٍ ولا بنُقْصان.

ولفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ أعمُّ العُمومات[1]، فناسبَ العمومُ في ﴿شَيۡءٍ﴾ العمومَ في (كلّ).

وقد يدلُّ التَّنكير على التَّقليل، والمعنى: أنَّ كلَّ شيءٍ - وإنْ قلَّ - في معيَّةِ اللّه وتقديرِه، وفي هذا دلالةٌ على عظيم قدرةِ اللّه وإحاطتِه الشّاملةِ لكلِّ شيء. ويضافُ إلى ما سبق عادةُ القرآن وأسلوبُه، فلفظةُ (كلّ) إذا أضيفت إلى لفظةِ ﴿شَيۡءٍ﴾ فإنَّ المضاف إليه يظلُّ نكرةً دومًا، فناسَبَ ما جاءَ هنا عادةَ التَّركيب في القرآن كلِّه.

غرضُ تقديم شبهِ الجملة ﴿لِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على المفعول به ﴿قَدۡرٗا﴾، وموقعُه الإعرابيّ:

رعايةُ الفاصلة مع العناية بالتَّخصيص

يتمثَّلُ التَّقديم في غرضين: أحدُهما لفظيٌّ؛ وهو رعايةُ الفاصلة بين الآيات التّالية ﴿قَدۡرٗا﴾، ﴿يُسۡرٗا﴾، ﴿أَجۡرًا﴾، أمّا الآخرُ فمعنويٌّ، ويتمثَّلُ في التَّخصيص، وفي التَّخصيص عنايةٌ بكلِّ شيءٍ. ويضاف إلى ما سبق أنَّ شبه الجملة وقعَ حالًا من لفظةِ ﴿قَدۡرٗا﴾؛ لأنَّ نعت النَّكرة إذا تقدَّم عليها صار حالًا، والحالُ قيدٌ لصاحبها، وقد يكونُ شبهُ الجملةِ ﴿لِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ متعلِّقًا بـ﴿جَعَلَ﴾ إذا كانت بمعنى الخَلْق، أو في موضع المفعول الثّاني المقدَّمِ إذا كانت بمعنى التَّصيير[2].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿قَدۡرٗا﴾ مادَّةً وصيغةً:

تأقيتُ الطَّلاقِ والأمرِ بإحصاء العدَّة، وتمهيدُ ما بعدها

تتعدَّدُ دلالاتُ اللَّفظةِ ﴿قَدۡرٗا﴾، وهي مصدرُ: قدَرَهُ - بتخفيف الدّال - المتعدّي إلى مفعولٍ، ومعناه: وضَعَ فيه بمقدارٍ كمّيَّةً ذاتيَّةً أو معنويَّةً تُجعَلُ على حسبِ ما يَتحمَّلُه المفعول، فقَدْرُ كلِّ مفعولٍ لفعلٍ قَدْرُ ما تَتَحمَّلُه طاقتُه واستطاعتُه من أعمال، أو تتحمَّلُه مساحتُه من أشياءَ، أو يتحمَّلُه وعْيُهُ لِما يَكِدُّ به ذهنُه مِن مَداركَ وأفهامٍ. ومن

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 8/ 213.

(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 121.

فروع هذا المعنى ما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وقوله هنا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطّلاق: 7]. ومِن جُزئيّاتِ معنى القَدْرِ ما يُسمّى التَّقديرَ، مصدرُ (قدَّرَ) المضعَّف إذا جُعِلَ شيئًا أو أشياءَ على مقدارٍ معيَّنٍ مناسِبٍ لِما جُعِلَ لأجله كقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: 11][1]. وهذا بيانٌ لوجوب التَّوكُّل عليه تعالى وتفويضِ الأمر إليه ﷻ؛ لأنَّه إذا عُلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من رزقٍ وغيره لا يكونُ إلّا بتقديره تعالى؛ لا يبقى إلّا التَّسليمُ للقدر. وفيه - على ما قيل - تقريرٌ لِما تقدَّمَ من تأقيتِ الطَّلاقِ والأمرِ بإحصاء العدَّة، وتمهيدٌ لِما سيأتي إن شاء اللّه تعالى من مقاديرها[2]. فكان التَّنكيرُ للتَّعظيم والتَّفخيم مع الإحاطة والشُّمول لكلِّ أمرٍ، فالأجَلُ والزَّمَنُ اللّذانِ جعَلَهما اللّه قَدْرًا لكلِّ شيءٍ لا يَنخَرِمان، فيقعُ فيهما حتمًا أمرُ اللّه البالغُ النّافذُ، دونَ أنْ يتوقَّفَ على شيءٍ أو يعوقَهُ شيءٌ إذا حانَ أجَلُهُ المُقدَّرُ عندَه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوعظ والنَّصيحة:

بينَ الكلمتين عمومٌ وخصوص

الوَعْظُ: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، وهو التَّذكيرُ بالخيرِ فيما يَرِقُّ له القلبُ، والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: الاسمُ. قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النَّحل: 90]، ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: 46][4]، والنَّصيحةُ كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عن جملةٍ هي إرادةُ الخير للمنصوح له، فليس يمكنُ أن يعبَّرَ عن هذا المعنى بكلمةٍ واحدةٍ غيرِها تجمعُ معناها[5]. وقيل: النَّصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ معناها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 315.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 332.
(3) عبد القادر بن ملا العاني، بيان المعاني: 6/ 78.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وعظ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).

حيازةُ الحظِّ للمنصوح له، والنَّصيحةُ من وجيزِ الأسماء ومختصرِ الكلام، وإنَّه ليس في كلام العرب كلمةٌ مفردة تُستوفى بها العبارةُ عن معنى هذه الكلمة، وقيل: النَّصيحة: الإرشاد إلى ما فيه صلاحُ المنصوح له، ولا يكونُ إلّا قولًا، فإنِ استُعمِلَ في غيرِ القول كان مجازًا[1]، فالوعظُ جزءٌ من النَّصيحة، فبين الكلمتين عمومٌ وخصوص.

المعروف والإحسان:

الفرقُ بينَهما قائمٌ في الظُّهور والخَفاء

المعروفُ: اسمٌ لكلِّ فعلٍ يُعْرَفُ بالعقل أو الشّرع حُسنُه، قال: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104][2]، والعين والرّاء والفاء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على تتابُعِ الشَّيءِ متَّصِلًا بعضُه ببعضٍ، والآخرُ على السُّكون والطُّمأنينة[3]، قيل: وهو اسمٌ جامع لكلِّ ما عُرف من طاعة اللّه والتَّقرُّبِ إليه والإحسان إلى النّاس، وكلِّ ما نَدب إليه الشَّرعُ ونهى عنه من المحسّنات والمقبّحات، وهو من الصِّفات الغالبة؛ أي: أمرٌ معروفٌ بين النّاس، إذا رأوه لا ينكرونه. والمعروفُ: النَّصَفَةُ وحسنُ الصُّحبة مع الأهل وغيرهم من النّاس[4]. والإحسانُ على وجهين: أحدُهما: الإنعام إلى الغير، والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا عَلِمَ علمًا حَسَنًا أو عَمِلَ عملًا حَسَنًا؛ وعلى هذا قولُ عليٍّ رضي الله عنه: (النّاسُ أبناءُ ما يُحسِنون)؛ أي: منسوبون إلى ما يعلمونه وما يعملونه من الأفعال الحسنة[5]. ولعلَّ الفرق بينهما قائمٌ في الظُّهور والخفاء، فأصلُ المعروف هو الظُّهور، اسمٌ لكلّ فعلٍ يُعْرَفُ بالعقل أو الشّرع حُسنُه،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (نصح).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عرف).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (عرف).

أمّا الإحسانُ فمِن صفاته الخفاءُ، مثلَ: أنْ تعبدَ اللّه كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، وفي التَّدرُّج أيضًا، فالمعروفُ فعلُ الخير بوجهٍ عامٍّ، أمّا الإحسانُ فمعروفٌ وزيادةٌ، فهو القيام بالمعروف على أكملِ وجهٍ، فصنعُ المعروف أخفُّ من الإحسان.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

جمعٌ لأحوالِ المُعتدّات من مطلَّقاتٍ ويائساتٍ وذَواتِ حَمْل

لمّا وسَّطَ اللّه بين العِدَدِ الجملَ الواعظة في الآيات السّابقة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ دلالةً على عظمتها، وحثًّا على امتثالها والمبادرة إليها، وختَمَ بالتَّقديرِ - أتبَعَ ذلك ببيانِ مقاديرِ العِدد على وجهٍ أبان أنَّ الكلام الماضيَ كان في الحوائضِ الرَّجعيّات[1]، وهذي الآيةُ عن يائساتِ المحيض وأولاتِ الأحمال، فجمَعَ كلَّ ما يتعلّقُ بالمعتدّات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾: اسمُ موصول، وأكثرُ ما يدلُّ على المؤنَّث نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾، لكنَّه يدلُّ كذلك على جماعةِ الذُّكور، كما قال الشاعر:

أبى لَكُمُ أنْ تَقْصُروا أو يَفوتَكُمْ***بتَبْلٍ مِنَ اللّائي تُعادونَ تابَلُ

واللّائي قد تأتي بمعنى اللَّواتي بوزن القاضي والدّاعي، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾[2]. واللّائي واحدُها: (الّتي) و(الّذي) جَميعًا[3]، ويجوز: اللّاءِ، بالكسر بلا ياءٍ، ولا مدٍّ ولا همز[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 155.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لأى).
(3) الكفوي، أبو البقاء فصل الألف واللام، ص: 165.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (لتى).

2) ﴿يَئِسْنَ﴾: اليأسُ: القنوط، وقطعُ الأمل، وقيل: اليأس نقيضُ الرّجاء، واليأسُ: انتفاء الطَّمع، وقد يَئِسَ من الشّيءِ يَيْأسُ، وفيه لغةٌ أخرى: يَئِسَ يَيْئِسُ بالكسرِ فيهما، على يَفْعَلُ ويَفْعِلُ، واليأسُ: العِلْم، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: 31]؛ أي: أفلم يعلموا[1].

3) ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: الحيض، معروف. حاضت المرأة تحيضُ حيضًا ومحيضًا، والمحيض يكون اسمًا ويكون مصدرًا، يقال: حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحاضًا ومحيضًا، وعند النَّحويّين أنَّ المصدر في هذا الباب بابه المَفْعَل، والمَفْعِل جيِّدٌ بالغ، وهي حائضٌ، هُمزَتْ وإنْ لم تجرِ على الفعل؛ لأنَّه أشبَهَ في اللَّفظ ما اطَّرَدَ همزُهُ من الجاري على الفعلِ نحو: قائم وصائم وأشباهِ ذلك[2].

4) ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾: (الرَّيبُ): الشَّكُّ، والاسم (الرّيبة)، وهي التُّهمة والشَّكُّ. و(رابني) فلانٌ من باب (باع) إذا رأيتَ منه ما يَريبُكَ وتكرهُهُ، و(استَرَبْتُ به) مثلُهُ. وهُذَيل تقولُ: (أرابني). و(أراب الرَّجلُ): صار ذا ريبةٍ، فهو (مُريبٌ). و(ارتابَ فيه): شَكَّ. و(رَيْبُ المَنونِ): حوادثُ الدَّهر[3]. وقد يقال: إن ارتبتم في هذا السّياق؛ أي: إنْ تَيَقَّنتُم إياسَهُنَّ، وهو من الأضداد[4].

5) ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾: (أولاتُ) للإناث، واحدتُها (ذات) تقول: جاءني (أولات) الأحمال[5]؛ بمعنى: صاحبات؛ وهو مضافٌ إلى اسمٍ ظاهر، ولا يجوز إضافته إلى المضمر[6]، والمعنى: أنَّ أولاتِ الأحمال عِدَّتُهنَّ تنتهي بوضعِ حَملِهنَّ.

6) ﴿يُسْرًا﴾: (يسر) أصلان، يدلُّ أحدهما على انفتاح شيءٍ وخفَّته، فاليسرُ: ضدُّ العسر[7]، واليسرُ: سهولةٌ وسماحةٌ وقلَّة تشديد[8]، وانتفاءُ الصُّعوبة؛ أي: انتفاء المشاقِّ

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (يئس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حيض).
(3) الرازي، مختار الصحاح: (ريب).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 200.
(5) الرازي، مختار الصحاح: (أول).
(6) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 94.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (يسر).

والمكروهات. والمقصودُ من هذا تحقيقُ الوعدِ باليُسرِ فيما شأنُهُ العسرُ؛ لحثِّ الأزواج على امتثال ما أمَرَ اللهُ به الزَّوجَ؛ من الإنفاق في مدَّة العدَّة، ومن المراجعة، وترك منزله لأجل سُكناها إذا كان لا يَسعُهما، وما أمَرَ به المرأةَ؛ من تربُّصِ أمَدِ العِدَّة وعدمِ الخروج.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

أحكامُ المُعتدّاتِ والأمـرُ بالتَّقوى وثمارُها

في الآية الكريمة حديثٌ عن أصنافِ المُعتدّاتِ وعِدَّةِ كلِّ واحدةٍ منهنَّ، مثل اللّائي بلغنَ سنَّ اليأسِ فانقطَعَ حيضُهنَّ لكِبَرِهنَّ، فعِدَّتُهنَّ ثلاثة أشهر، وكذا الصِّغيراتُ اللَّواتي لم يَحِضْنَ، إنْ شَكَكتُم وجَهِلتُم كيف تكون عِدَّتُهن، وما قَدْرُها؟ وعِدَّةُ الحوامِلِ أنْ يَضَعْنَ حملَهنَّ سواءٌ كنَّ مطلَّقاتٍ أو متوفًّى عنهنَّ أزواجُهنَّ. ثمَّ يأتي الحديثُ عن التَّقوى وثمراتِها، فمَن يَخَفِ اللهَ ويَرهبْهُ، فيؤدي فرائضَه ويجتنبُ نواهيَه يُسهِّلْ عليه أمورَهُ، ويجعلْ له من كلِّ ضيقٍ فرجًا، ويُنِرْ له طريقَ الهدى في كلِّ ما يَعرِضُ له من المشكلات؛ فإنَّ في قلب المؤمن نورًا يَهديه إلى حلِّ عَويصاتِ الأمور.

هذا الّذي شرَعَ لكم من الأحكام السّالفة في الطَّلاق والسُّكنى والعِدَّةِ هو أمرُ اللهِ الّذي أمركَم به، وأنزَلَهُ إليكم؛ لتأتَمِروا به، وتعملوا وِفْقَ نهجِه. ثمَّ كرَّرَ الأمرَ بالتَّقوى؛ لأنَّها ملاكُ الأمرِ وعمادُه في الدُّنيا والآخرة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي﴾:

بيانُ أحكامِ نوعٍ آخرَ من النِّساء في العِدَّة

الواوُ في قوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي﴾ عَطَفتْ ما بعدَها على قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ فإنَّ العِدَّة هنالك أُريد بها الأقْراءُ؛ فأشعَرَ ذلك أنَّ تلك المُعتدَّةَ ممَّن لها أقراءٌ، فبقي بيانُ اعتدادِ المرأة الّتي تجاوزتْ سِنَّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 144.

المحيض أو الّتي لم تبلُغْ سِنَّ مَن تحيضُ، وهي الصَّغيرة، وكِلتاهما يَصدُقُ عليها أنَّها آيسَةٌ من المحيض؛ أي: في ذلك الوقت[1]، ففي العطفِ بيانُ أحكامٍ أُخرى تتعلَّقُ بعِدَّةِ نوعٍ آخَرَ مِن النِّساء بعدَ بيان عِدَّةِ النِّساء ذَواتِ الأَقْراء.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول وصلتِهِ:

تمكُّنُ الصِّفةِ مِـن النِّساء مع كثرتِهنَّ في المجتمع

إيثارُ القرآنِ للاسم الموصول أو الاسم النّاقص (اللّائي) مع صلته - والصِّلةُ هي المبيِّنةُ والمكمِّلة - فيه إيماءةٌ إلى ثباتِ ذلك اليأس، مع استمرارِهِ مدَّةَ وُجودِهنَّ، فاليأسُ ملتصقٌ بهنَّ لا يفارِقُهنَّ، فقد ارتفَعَ طمثُهنَّ، فلا يرجونَ أنْ يَحِضْنَ.

ونلحظُ أنَّ التَّعبير بالاسم الموصول فيه تشويقٌ وإثارةُ ذهنٍ إلى ما يلي الاسمَ من فعلٍ، فجاء الفعلُ ﴿يَئِسۡنَ﴾، مع ملاحظةِ أنَّ التَّعبير ورَدَ على الجمعِ (اللّائي) لا (الّتي)؛ لأنَّ هذا الاسمَ هو المُرتكَزُ الّذي تُبنى عليه التَّراكيبُ الّتي تليه، تلك الّتي بُنيَتْ على الجمع ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾، ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾، ثمَّ في الجمع إشارةٌ إلى الكثرةِ المتمكِّنة في المجتمع، من اللّائي يئسن من المحيض.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَئِسۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اليأسُ انقطاعُ أملٍ في الحيضِ؛ للتَّعدُّدِ أو عدم الظُّهور

اللّائي يَئِسنَ من المحيض هنَّ النِّساءُ القواعد اللّائي خَرَجن عن المحيض، فصِرْنَ مِن غير أهله ويئسنَ منه، ولا يكون يائسًا من شيءٍ مَن يرجوه، فدلَّ ذلك على أنَّه أريد بذلك انقطاعُ الحيض، وارتفاعُ الرّجاء[2]. فاليأسُ: عدمُ الأمل، والمَيْؤوسُ منه في الآية يُعلم من السّياق من قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: يَئِسنَ من المحيض، سواءٌ كان اليأسُ منه بعدَ تعدُّدِهِ، أم كان بعدم ظهوره؛ أي: لم يكن انقطاعُه لمرضٍ أو إرضاعٍ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 315.
(2) الطحاوي، أحكام القرآن: 2/ 331.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 315.

دلالةُ (مِنْ) الجارَّةِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾، وقوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾:

حكمُ المطلَّقة يائسةِ المحيضِ مع دلالةِ التَّخصيص ودَحْضِ التَّعميم

في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ دَلَّتْ ﴿مِنَ﴾ على ابتداءِ الغاية للمُطلَّقة الّتي انقطَعَ حيضُها فصارت في سنِّ اليأسِ، وهي متعلِّقةٌ بالفعل قبلَها، و﴿مِن﴾ الثّانيةُ للبيانِ، متعلِّقةٌ بمحذوفٍ[1]، والبيانُ دالٌّ على أنَّ هذا الحكمَ خاصٌّ بأزواج المسلمين؛ لحُرمةِ فُرُشِهم وحفظِ أنسابِهم، سواءٌ كنَّ مسلماتٍ أو من أهل الكتاب، ففي دلالةِ البيان تخصيصٌ للنِّساء، يُؤكِّدُ هذا دلالةُ الإضافةِ ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾، فلم يكن التَّعبيرُ: (النِّساء)، وفي الإضافة تخصيصٌ ودَحْضٌ للتَّعميم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ لا (الحيض):

اتِّساعُ المعنى طلبًا للاحتياطِ ودَرْءِ المفسدة

في التَّعبير بـ﴿ٱلۡمَحِيضِ﴾ اتِّساعٌ في المعنى؛ فاللَّفظةُ دلَّت على اسمِ الزَّمان واسم المكان والمصدرِ؛ أي: الحيضِ وزمانِه؛ لوصولها إلى سنٍّ يجاوزُ القَدْرَ الّذي ترجو فيه النِّساءُ الحيضَ، فصارت بحيث لا ترجوه[2]، وفي هذا احتياطٌ ودَرْءٌ للمفسدة النّاتجة عن عدم الالتزام بالوقت والمكان.

دلالةُ الشَّكِّ في ﴿إِنِ﴾ مع ثباتِ العِدَّةِ شَكَكنا أم لم نَشُكّ:

اكتمالُ أحكامِ المطلَّقات كبيراتٍ وصغيراتٍ وآيسات

المرادُ بالشَّكِّ الجهلُ بمقدارِ عِدَّةِ الآيسة والصَّغيرة، وإنَّما علّقَ به لأنَّه لمّا نزل بيانُ عِدَّة ذوات الأقراء في سورة البقرة؛ قال بعضُ الصَّحابة رضي الله عنهم: قد بقيَ الكبارُ والصِّغار، لا ندري كم عدَّتُهنَّ، فنزلت هذه الآيةُ على هذا السَّبب، فلذلك جاءت مقيَّدةً بالشَّكِّ والجهل[3].

وقيل: إنَّ دلالةَ ﴿إِنِ﴾ مُلغاةٌ هنا، فلا عملَ للشَّرط[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾:

المرأةُ الآيسةُ مِنَ الحيض تعتدُّ بالأشهرِ لا القُروء

قولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ اعتراضٌ بين المبتدأ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي﴾ وبين

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 354.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 155.

(3) جعفر شرف، الموسوعة القرآنية، خصائص السور: 10/ 36.

(4) الكفوي، الكليات، ص: 195.

الخبر ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾، وهو شرطٌ لا مفهومَ له، وإنّما أُريد به الوصفيّة؛ للإشارة إلى الحال الدّاعيةِ إلى هذا الحكم الّذي تضمَّنته الجملة، وهو أن يكون ذلك عن شكٍّ وارتياب في حال المرأة الّتي بلغتْ السّنَّ المَيْؤوسَ فيها من الحيض ثمَّ ترى الدَّمَ، لا تدري إنْ كان دمَ حيض أو استحاضة، فهذه عدَّتُها ثلاثةُ أشهر؛ أي: أنَّها تعتدُّ بالأشهر، ولا تعتدُّ بالقروء[1]. وقد فَهِمَ الظّاهريَّةُ مِن الشَّرط أنَّ الكبيرةَ الّتي انقطع دم الحيضُ عنها لا عدَّةَ عليها إذا لم تَرتَبْ في ذلك؛ أي: في انقطاعِ الحيض عنها، غيرَ أنَّ أسباب النُّزول توضِحُ المسألةَ؛ فقد قال الصَّحابة: قد علمنا عِدَدَ النِّساء جميعًا، فما عِدَّةُ الكبيرة الّتي يئست من المحيض؟ وما عِدَّةُ الصَّغيرة الّتي لا تحيض؟ فنزلت الآيةُ لبيان عِدَّتهنَّ، ويصيرُ معنى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: إنْ أشكَلَ عليكم حُكمُهنَّ، وجهلتُم كيف يَعتَدِدْنَ فهذا هو حُكمُهنَّ[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل الارتياب:

تـعـدُّدُ دلالاتِ الارتـيـاب من جـهـلٍ وشـكٍّ ويقين

في الفعلِ ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾ اتِّساعٌ في معنى النَّظم، فالارتيابُ قد يكون دالًّا على الشَّكِّ أو الجهلِ بمقدارِ عِدَّةِ الآيسة والصَّغيرة، وإنَّما علَّقَهُ به لأنَّه لمّا نزَلَ بيانُ عِدَّة ذوات الأقراء في سورة البقرة؛ قال بعضُ الصَّحابة ﵃: قد بقي الكبار والصِّغار، لا ندري كم عِدَّتهنَّ، فنزلت هذه الآية على هذا السَّبب، فلذلك جاءتْ مقيَّدة بالشَّكِّ والجهل[3]، فذكرُ الارتيابِ في الآية إنَّما هو على وجهِ ذكر السَّبب الّذي نزل عليه الحكمُ، فكان بمعنى: واللّائي يَئِسنَ من المحيض من نسائكم إن ارتبتُم فعدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهر[4]، وكأنَّ الآية خطابٌ لِمَن لم يعلم ما حكمُهنَّ في العدَّة وارتاب: هل عليهنَّ عدَّةٌ أو لا؟ وهل عدَّتُهنَّ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1009.
(2) عمر أبو شوفة، المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، ص: 283.
(3) الرازي، غرائب التنزيل، ص: 526.
(4) الجصاص، أحكام القرآن: 5/ 351.

كاللّاتي في سورة البقرة أو لا؟ فمعنى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: إن أشكَلَ عليكم حكمُهنَّ وجهلتم كيف يَعتَدِدْنَ فهذا حُكمُهنَّ[1]، وقد يقال: إن ارتبتم؛ أي: إن تيقَّنتُم إياسَهنَّ، وهو من الأضداد[2].

علَّةُ حذفِ متعلِّق الارتياب:

تعدُّدُ التَّقديراتِ واتِّساعُ الفُهوم داعٍ للحذف

متعلِّقُ الارتيابِ محذوفٌ، فقيل: تقديرُه: إن ارتبتُم في أنَّها يَئِست أم لا؛ لإمكانِ ظُهورِ حملٍ وإن كان انقطع دمُها. وقيل: إن ارتبتُم في دم البالغات مبلغَ اليأس؛ أهو دمُ حيض أم استحاضة؟ وإذا كان هذا عدَّةَ المرتاب فيها فغيرُ المرتابِ فيها أولى.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾:

ربطُ النَّظمِ وأوصالِ الكلامِ، مع سرعةِ بيانِ الحكم وتأكيدِه

جاءت الفاءُ في هذا السّياق واقعةً في جواب الشَّرط، وتقدير الكلام: إنِ ارْتَبْتُمْ؛ أي: إن شَكَكتُم وتردَّدتُم في عدَّتهنَّ، أو: إنْ جهلتُم عدَّتَهنَّ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ[3]؛ فالفاءُ وقعت رابطةً للكلام، مع إفادتها سرعةَ البيان. وقد تكون الفاءُ صلةً، وتدلُّ في مثل هذا السّياق على تأكيد مضمون الكلام[4]، فالكلامُ يمكن أن يُبنى على حذفِ الفاء بجعلِ جملةِ (عدَّتهنَّ ثلاثةُ أشهرٍ) خبرًا؛ أي: اللّائي يئسن من المحيض عدَّتُهنَّ...، فجاءت الفاءُ لتأكيدِ الحكم مع بيان ضرورة الاستجابةِ له.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾:

تعدُّدُ الأوجهِ النَّحويَّةِ داعٍ لتعدُّدِ تعليقِ العِدَّة

(اللّائي) مبتدأ أوَّل، و﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ خبره، والجملةُ خبر الأوَّل، والشَّرطُ معترضٌ، وجوابُه محذوف. ويجوز أن يكون ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ جوابُه ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، والجملةُ الشَّرطيَّةُ خبرُ المبتدأ، ويجوزُ أن يكون ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ خبرًا عن الجميع

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 108.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 200.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 332.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 110.

(اللّائي يئسن) و(اللّائي لم يحضن)، وهو وجهٌ حسنٌ كما ذكر السَّمينُ الحلبيّ(1).

علَّةُ التَّعبير بـ﴿أَشۡهُرٖ﴾ لا (الحيض):

الغرضُ استبراء الرَّحِم، ولا يكونُ إلّا بالحيض، مع ضرورة إتمام الأشهر

أقامَ الأشهرَ مُقامَ الحيض دون الأطهار؛ لأنَّ الغرض الأصيل في العدَّة استبراء الرَّحِم، والحيضُ هو الّذي تُستبرَأُ به الأرحامُ دون الطُّهر، ولذلك كان الاستبراءُ مِن الأمَةِ بالحَيْضة(2). ويقال أيضًا: لمّا كان الأشهرُ شُرعت بدلًا عن الأقراء، والبدلُ يُعتبَرُ بتمامه؛ فإنَّ الأشهر لا بدَّ مِن إتمامها - وجَبَ أيضًا أن يكون الكمالُ مُعتبَرًا في المُبدَل، فلا بدَّ أن تكونَ الأقراءُ الكاملةُ هي الحيضَ(3). وقيل: كلُّ شهرٍ يقومُ مَقامَ حَيْضةٍ؛ لأنَّ أغلبَ عوائدِ النِّساء أن يكون كلُّ قرءٍ في شهر(4)، فكان التَّعبيرُ بالأشهر إشارةً إلى ذلك، مع دلالة جمع القلَّة ﴿أَشۡهُرٖ﴾ على فترةٍ محدَّدةٍ تنتهي بعدها العدَّةُ، فالعَدَدُ مرادٌ به التَّحديدُ الدّقيق.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾:

تعدُّدُ أنماطِ النِّساء مع تغايُرِهنّ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ عطفٌ على ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ والتَّقدير: عِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهر(5)، فيكونُ الاسمان الموصولان دالَّين على فئتين من النِّساء: المرأةِ اليائسة من المحيض، والمرأةِ الّتي لم تحض بعدُ، فجَمَعت الواوُ الفئتين في أسلوبٍ واحد خبريّ، وهذي وظيفتُها مطلق الجمع، أو بيانُ التَّغايُرِ بين المعطوف والمعطوف عليه، قال الآلوسيُّ: "وجوِّزَ عطفُ هذا الموصولِ على الموصولِ السّابق وجعلُ الخبرِ لهما من غيرِ تقديرٍ"(6). وقد قيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 355.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 271.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 6/ 437.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 156.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 315.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 332.

﴿يَحِضۡنَۚ﴾ مُنتظمٌ مع ما قبله منقطعٌ عما بعده[1]، ممّا يدلُّ على قوَّةِ الرّابطة بين هذه الجملةِ وما قبلها.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التَّناسبُ مع اتِّحاد الحُكم والتَّشويقِ لِما بعده

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ للعُموم في العاقل[2]، وظاهرُ العموم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ أنَّ الحُرَّةَ والأمَةَ في ذلك سواء، فكما تعتدُّ الحرَّة الآيسة أو الصَّغيرة بثلاثةِ أشهرٍ، كذلك تعتدُّ الأمَةُ الآيسة أو الصَّغيرة ثلاثةَ أشهر. وفي التَّعبير بالاسم الموصول وصلته مناسبةٌ لِما قبله في التَّعبير، فالجملةُ هنا معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾، فبينَ الجملتين تناسبٌ. يضافُ إلى ذلك أنَّ الحكم هنا متعلِّق بما قبله، وهو كونُ العدَّة ثلاثةَ أشهر كما عدَّةُ الآيسةِ من الحيض، فضارَعَ الحكمَ الفقهيَّ التَّركيبُ الجُمليُّ، كما أنَّ الاسمَ الموصول داعٍ إلى ذكر الصِّلة، ففيه تشويقٌ لِما بعده من صلةٍ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَحِضۡنَۚ﴾:

استمرارُ الحكمِ مُذْ بدَأ إلى يومِ الدّين

في التَّعبير بالمضارع دلالةٌ على استمرار وجود النِّساء اللّائي لم يحضن؛ لصغرهنَّ أو لعدم طُروءِ الحيضِ عليهنَّ بعدُ، فالحكمُ سارٍ عليهنَّ مذ كان إلى يوم الدّين، والمضارع هو الواشي بهذا الاستمرارِ والدَّوام.

دلالةُ الواو في الذِّكر والحذف:

الواوُ تُشَرِّكُ المعطوفَ مع المعطوف عليه فيما ثَبَتَ له من حكمٍ وإعراب

إذا كان الخبرُ ظاهرًا سهلَ التَّعيين لدليلٍ يدلُّ عليه جاز حذفُهُ، مثلَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فقد حُذف الخبر من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 176.

(2) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص: 229.

والتَّقدير: واللّائي لَمْ يَحِضْنَ كذلك أو مثلُهن، فيكون الخبرُ مُفردًا محذوفًا وحده. أو التَّقدير: فعِدَّتُهنَّ كذلك، فيكون المبتدأ والخبر الواقعان جملةً خبريةً محذوفَيْن. والّذي سوَّغَ الحذفَ هنا هو العطف بالواو؛ لأنَّ هذا العطفَ يُشَرِّكُ المعطوفَ مع المعطوفِ عليه فيما ثبَتَ له من الإعراب والحكم. ولذلك صرَّحَ بالخبر بعده في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لاختلاف أجَلِ الحامل عن أجل غيرِها اليائسةِ من المحيض أو مَن لم تحض. فذكرُ الخبر هنا واجبٌ؛ لأنَّ حذفه يؤدّي إلى فسادِ المعنى[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾:

العطفُ يحصلُ معه تفصيلٌ لأحوال المطلّقات

جاءت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عاطفةً ما بعدَها على جملة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾، فهي إتمامُ التَّفصيلِ لأحوالِ العدَّة المجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾، وتقديرُ الكلام: وأولات الأحمال منهنَّ - أي: من المطلَّقات - أجلُهنَّ أنْ يضعنَ حملهنَّ. فحصلَ بهذه الآية مع الَّتي قبلها تفصيلٌ لأحوالِ المطلَّقات، وحصلَ أيضًا منها بيانٌ لإجمال الآية الّتي في سورة البقرة[2]. وقيل: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ مبتدأ خطابٍ ليس بمعطوفٍ على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾[3]، فالواوُ على هذا استئنافيَّةٌ، تبدأ حكمًا جديدًا هو انتهاءُ العدَّة بوضع الحمل.

دلالةُ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾:

عمومُ اللَّفظةِ للمطلَّقات والمتوفّى عنهنَّ أزواجُهنّ

اللَّفظُ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ مطلقٌ، فشمل المطلَّقات والمتوفّى عنهنّ، فدلَّ على أنَّ عدَّتهنَّ وضعُ الحمل[4]، فعمومُهُ شموليٌّ؛ لأنَّه اسمُ جمعٍ مضافٌ إلى معرفة. وأيضًا الحكمُ هنا معلَّلٌ بوصفِ

(1) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 319.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 563.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 557.

الحَمْليَّة[1]، ويدلُّ على أنَّ انتهاءَ العدَّةِ بوضع الحمل: أنَّ المبتدأ والخبرَ في قوله تعالى: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ معرفتان، أمّا المبتدأ فظاهرٌ، وأمّا الخبر - وهو قولُه تعالى: ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ - فلأنَّه في تأويلِ مصدرٍ مضافٍ إلى معرفةٍ؛ أي: أجلُهنَّ وضعُ حملِهنَّ، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين، اقتضى ذلك حصرَ الثّاني في الأوَّل، كقوله: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]. وبهذا احتجَّ جمهور الصَّحابة على أنَّ الحامل المتوفّى عنها زوجُها عدَّتُها وضعُ حملها[2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ وقوله: ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾:

الـذِّكـرُ بالاسم والـضَّـمـير فيه رعايةُ حقِّ المرأة وجنينِها

وقعَ الاسمُ ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ مبتدأً ثانيًا بعد المبتدأ الأوَّل ﴿أُوْلَٰتِ﴾، والمصدرُ المؤوَّل من أن والفعلِ ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ وقع خبرًا للمبتدأ الثّاني، أي: وأولاتُ الأحمال أجلُهن وضعُ الحمل.وقد بُنيت الجملةُ على تكرار الجملةِ الاسميَّة اهتمامًا بذكر أولات الأحمالِ، وكأنَّ العناية بها وبجنينها، فذُكرت مرَّتين: مرَّةً بالاسم الظّاهر ﴿أُوْلَٰتِ﴾، ومرَّةً بالضَّمير في ﴿أَجَلُهُنَّ﴾، إضافةً إلى الضَّمير في ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾، وقد كان يمكن أن يقال في غير القرآن: وأجَلُ أولات الأحمال وضع الحمل، لكنَّ التَّعبير القرآنيَّ آثَرَ الجملة الاسميَّةَ وعَوْدَ الضَّمير؛ رعايةً للمرأة واهتمامًا بجنينها، ويجوزُ أن يكون ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ أي: وأجلُ أولاتِ الأحمال[3].

فائدةُ التَّعبير بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ لا المصدرِ الصَّريح (وَضْع):

اتِّـسـاعُ المصدر وتحديدُ الزَّمن

الخبرُ ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ جاء على هيئة المصدرِ المؤوَّل لا الصَّريح؛ لأنَّ المصدرَ المؤوَّلَ لا يوصف، وكأنَّ عدمَ الوصف واشٍ باتِّساعِ المصدر

(1) القنوجي، فتح البيان: 14/ 188.

(2) ابن القيم، زاد المعاد: 5/ 527.

(3) العكبري، التبيان: 2/ 1227.

وعدم تحديده؛ إشارةً إلى عظمة اهتمام الإسلام بالمرأة وما في بطنها، إضافةً إلى أنَّ ﴿أَن﴾ في ﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ عَلَمٌ في المستقبل، وهذا يُفهَمُ منه أنَّ الوضعَ لم يَحِنْ بعدُ، أمّا المصدرُ الصَّريح فهو حدثٌ غيرُ دالٍّ على زمنٍ بعينه، فكان التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل أنجعَ وأدقَّ في التَّعبير عن الرِّسالة القرآنيَّة.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَضَعۡنَ﴾ لا (يَلِدْنَ):

الــوضــعُ عــامٌّ لـجـمـيـعِ مـا في البطن، والولادةُ خاصَّةٌ بما يكون ولدًا

غرضُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَضَعۡنَ﴾ دونَ (يلدن) أنَّ الحملَ اسم لجميع ما في بطنهنَّ، ولو قال: (يلدن) لكانت عدَّتُهنَّ بوضع بعضِ حملهنَّ، وليس كذلك(1)، وفي المضارع استمراريَّةُ الحدث وتطاوُله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مع ثبات الحكم. ويمكن أن يقال: إنَّ التَّعبير بالوضع لا بالولادة دالٌّ على أنَّها إذا وضعت المرأة ما وضعت من علقةٍ أو مضغةٍ حَلَّتْ، ولو قال: (يَلِدْنَ) لدلَّ على أنَّها لا تحلُّ إلّا بما يكون ولدًا كما قال الشّافعيُّ وأبو حنيفة(2)، فكان التَّعبيرُ بـ﴿يَضَعۡنَ﴾ عامًّا للولد وغيره، أمّا (يلدن) فخاصٌّ بالولد وحده.

علَّةُ جعلِ خبر ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ بالوضعِ لا بالأشهرِ أو الأقراء:

العلَّةُ حفظُ الماء واستبراءُ الرَّحم ورعايةُ النَّسب

لم يُعيِّنِ الشّارعُ لأولات الأحمال حدًّا معيَّنًا من إقراءٍ أو أشهرٍ؛ لأنَّ المقصود الأصليَّ من التزام المدَّة والعدَّة حفظُ الماء واستبراءُ الرَّحم؛ لئلا ينجرَّ في خلط النَّسب، وبالوضع يحصلُ المقصود على الوجهِ الأتمِّ، ولهذا لم يَحُدَّ لهنَّ سوى الوضع(3).

نكتةُ إضافةِ الحمل إلى ضميرهنَّ:

شــدَّةُ اتِّـصـالِ الحملِ بالحامل

في إضافةِ الحمل إلى ضميرهنَّ تنبيهٌ على شدَّةِ اتِّصال الحمل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 563.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 165.
(3) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 423.

بالحامل[1]، فهو يخصُّها وحدَها دونَ غيرِها، وفي هذا إشعارٌ بتعلُّقِ أولاتِ الأحمال بحملهنَّ.

نكتةُ إفرادِ الحمل:

الإشــارةُ إلى الاخـتـصـاصِ والـتَّـخـفـيـف ونفي الاشتراكِ ومراعاة التَّوْأم

لإفرادِ لفظةِ ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾ نِكاتٌ، الأولى: هي أنَّ كلَّ امرأة مختصَّةٌ بحملها هي لا أحمالِ الأُخريات، فانتهاءُ كلِّ امرأةٍ من عدَّتها بوضع حملها هي، لا حملِها وحمل الأخريات، والإفرادُ هو الدّالُّ على ذلك لا الجمع. الثّانية: في الإفراد إشارةٌ إلى تخفيفٍ ليس في الجمع، وكأنَّ اللَّفظةَ توحي بانتهاءِ المعاناة تمامًا، أمّا الجمعُ فلا يَحمِلُ هذه الدَّلالةَ، وإنَّما يَحمِلُ دلالةَ تعدُّدِ الأثقال، والموقفُ هنا موقف راحةٍ وسكينة بعد وضعِ حملها. الثّالثة: في الإفراد تَّنصيصٌ على أن الحَمل هو ما في البطن، أمّا الأحمالُ فتصلحُ جمعًا لـ(حِمل) و(حَمل)، فكان الإفرادُ دالًّا على حَمل البطن، يقول الرّاغب: "الحَمل معنًى واحدٌ اعتُبِرَ في أشياءَ كثيرةٍ، فسوّيَ بين لفظه في فعل، وفُرِّقَ بين كثيرٍ منها في مصادرها، فقيل في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيءِ المحمول على الظَّهر: حِمل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمل، كالولد في البطن، قال تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ [فاطر: 18]"[2]. الرّابعة: جاء اللَّفظُ على الإفراد؛ لأنَّ المرأة قد تكون حاملًا في ولدين، فإنْ وضعت أحدَ الولدين انقضتْ عدَّتُها؛ لأنَّ القرآن قال: ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، ولم يقل: أحمالَهنَّ[3]. الخامسة: لمّا كان توحيدُ الحمل لا ينشأُ عنه لُبْسٌ، وكان الجمعُ ربَّما أوهَمَ أنَّه لا تحلُّ واحدةٌ منهنَّ حتّى تضعَ جمعًا قال: ﴿حَمۡلَهُنَّۚ﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 191.

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حمل).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 563 رأي لبعض العلماء وضعفه الرازي.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.

الواوُ اعتراضيَّةٌ، وفي الاعتراض تذكيرٌ دائمٌ بالتَّقوى

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

جاءَ النَّظمُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اعتراضًا بين جملةِ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ وجملةِ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، وفي الاعتراضِ تذكيرٌ دائمٌ بالتَّقوى، وإشارةٌ إلى خيرِها في الدُّنيا والآخرة. وقد تكونُ الواوُ عاطفةً؛ تلميعًا بالحثِّ على التَّقوى إشارةً إلى ذلك وترغيبًا في لزوم ما حدَّه سبحانه، فقال عاطفًا على ما تقديره: فمَن لم يحفظ هذه الحدودَ عسَّرَ اللّهُ عليه أمورَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾[1].

تلازُمُ المَخرجِ مع لـزومِ التَّقوى وإلهابِ المؤمنِ بها

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

في الجملةِ الشَّرطيَّة تكريرٌ للموعظة، وهو اعتراض، والمقصود موعظةُ الرِّجال والنِّساء على الأخذِ بما في هذه الأحكام، ممّا عسى أن يكونَ فيه مشقَّةٌ على أحدٍ بأنَّ على كلٍّ أن يصبرَ لذلك امتثالًا لأمر اللّه؛ فإنَّ الممتثلَ - وهو مسمّى المتَّقي - يجعلُ اللّهُ له يسرًا فيما لَحِقَهُ من عسرٍ[2].

وتتمثَّلُ بلاغة الجملة الشَّرطيَّة - كما ذكرنا في الآية الثّانية - في قيامِها على الرَّبط بين السَّبب والنَّتيجة، وكأنَّهما متلازمان في الوقوع، فالشَّرطُ معلومُ الوقوع، وإنْ كان الشَّرطُ معلومَ الوقوع فالجزاءُ لازمُ الوقوع[3]. وفي الشَّرط دليلٌ على أنَّ كلَّ عسير من الأمور يتيسَّر بالتَّقوى، حتّى عسرُ تقتيرِ الرِّزق، وشفاءِ الدّاء العَسِرِ العلاج، والخلاصِ من المحبس؛ أي: الفكاكِ من الأسر[4]، وكأنَّ الشَّرطَ فيه مندوحةٌ للمتَّقي بأنَّه إذا اتَّقى فالمخرجُ حاضرٌ لهذا، وفي هذا إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمن بالتَّقوى وعدم ظلم المرأة بإعطائها حقوقَها المرجوَّةَ. ومفهومُ الشَّرط أنَّه إنْ لم يتَّقِ اللّهَ لم يكن له مخرجٌ، وزال عنه الخير.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 157.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 421.
(4) القصاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 4/ 340.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأفعالِ المضارعة ﴿يَتَّقِ﴾ و﴿يَجۡعَل﴾:

عراقةُ التَّقوى في الخروجِ من الهموم والغموم، مع العناية بأحكام المرأة

يدلُّ الفعلان المضارعان - كما ذكرنا في الآية الثّانية - على ضرورةِ الاستمرار في التَّقوى؛ كي تكونَ علامةً له، يُعرَفُ بها ويوسَمُ، ومضارعيَّةُ التَّقوى والجعلِ فيها تلازمٌ بين الفعلين؛ فكأنَّ التَّقوى هي المنفذُ الكبير للخروج من الهموم والغموم الّتي قد تجتاح المؤمنَ. وفي هذا حثٌّ على الاتِّقاء وبيانُ عراقتِه؛ لِما له من الجزاءِ الحسن. والتَّنصيصُ على التَّقوى بإلصاقِها في أحكام العدَّة يوحي بدقَّةِ انطباقها وتحقُّقِها عندما يتَّقي المتَّقون اللّهَ في هذا الشّأن بصفةٍ خاصَّة. وهو الشّأنُ الّذي لا ضابطَ فيه أحسُّ ولا أدقُّ من ضابط الشُّعور والضَّمير، فالتَّلاعبُ فيه مجالُهُ واسعٌ، لا يقفُ دونه إلّا تقوى اللّه وحساسيَّةُ الضَّمير. وقد جاء الفعلان توكيدًا مكرَّرًا بوجوب تقوى اللّه وبيان ما يعود على المتَّقي من فوائدَ كبيرةٍ، حيث يجعلُ اللّهُ اليسرَ في أمورِهِ ويكفِّرُ سيِّئاتِه ويُعظِمُ له الأجر. وواضحٌ أنَّ هذا بسبيلِ تدعيم أوامرِ اللّه والتزام حدوده المرسومة في الآيات. وفيه ما هو ظاهرٌ من توكيد العناية الرَّبّانيَّة بالمرأة، وقد يقال: إنَّ الأمر بالتَّقوى تكرَّرَ مبالغةً في أمر النِّساء، وذلك لضَعْفِهنَّ ونُقصانِ عقلهنَّ، وما يبدو منهنَّ ممّا يوجِبُ النُّفرةَ والغضب[1].

بلاغةُ حذفِ متعلّق التَّقوى في قوله: ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

عمومُ الحذف؛ لملازمةِ المؤمنِ تقوى الله مع اتِّساع الدَّلالة

في الحذف تناسبٌ بين هذه الآية والآية الثّانية في ذكر مسألة التَّقوى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، وقد دلَّ الحذفُ على العموم؛ فمجالات التَّقوى غيرُ محصورة في أمورٍ محدَّدة، وإنَّما تتجاور مع كلِّ أحداث الحياة، فكأنَّ سِمَةَ المؤمن هي التَّقوى وملازمتُها؛ كي تكونَ شعارًا للمؤمن. فالحذفُ أدّى لاتِّساع الدَّلالات، فمن المعاني

(1) الكوراني، شهاب الدين، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، ص: 183.

المحذوفة: ومن يتَّق اللّه يجعل له مخرجًا؛ أي: مَن يتَّقِ عذابَ اللّه بامتثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه والوقوفِ على حدوده الّتي حدَّها لعباده وعدمِ مجاوزتها يجعل له مخرجًا ممّا وقع فيه من الشَّدائد، أو: من يتَّقِ غضب اللّه، أو محارمَه، أو غيرَ ذلك.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يَجۡعَل﴾:

المـلازمـةُ بين التَّقوى والتَّيسير

الفعلُ ﴿يَجۡعَل﴾ وقَعَ مجزومًا في جواب الشَّرط بعدَ ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾، والجوابُ مترتِّبٌ على الشَّرط، فبينَهما تلازمٌ، وفي هذا إشارةٌ إلى الآثارِ الطَّيِّبةِ المترتِّبة على التَّقوى، وهي تيسيرُ الأحوالِ وغَلْقُ بابِ العسر، قال الخطيبُ الشّربينيُّ: "يوجِدُ إيجادًا مُستمرًّا باستمرارِ التَّقوى؛ لأنَّ اللّهَ لا يملُّ حتّى تملّوا"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَّهُۥ﴾:

التَّخصيصُ، والحثُّ على التَّقوى، والتَّعجيلُ بالمسرَّة

اللّامُ دالَّةٌ على التَّخصيص؛ أي: تخصيصِ المَخرجِ بهذا المُتَّقي، وفي هذا حثٌّ للمؤمن على التَّقوى، وفي تقديمِ شبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول ﴿يُسۡرٗا﴾ تعجيلٌ بالمسرَّة، وإدخالُ البِشْر والسُّرور على مَن يخشى اللّهَ ويتَّقيه.

معنى ﴿مِنۡ﴾ الجارَّة في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾:

التِصاقُ اليُسرِ بكلِّ أمرٍ مِن بَدْئِهِ

﴿مِنۡ﴾ للابتداءِ المجازيِّ المرادِ به المقارنةُ والملابسة[2]، وفائدةُ الابتداءِ أنَّ اليُسر قائمٌ من أوَّلِ العمل، فاليسرُ ملازمٌ من البدء للخاتمة، مقارِنٌ للعمل، مُلابِسٌ له، وحَذْفُ ﴿مِنۡ﴾ من التَّركيبِ - وهو محالٌ - داعٍ إلى بيان أهمّيَّتِها في التَّركيب، فلو كان التَّركيب: يجعلُ له أمرَهُ يسرًا، لكان اليسرُ موجودًا، لكنَّ احتمالَ التّأخير فيه وارد، فلمّا ذُكرت ﴿مِنۡ﴾ دلَّ ذلك على اصطحاب التَّقوى لليُسر من أوَّلِ الأمر. ويجوزُ في ﴿مِنۡ﴾ تلاحُمُ المعاني؛ بمعنى: أنَّها تصلُحُ

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 317.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.

للبيان، وقُدِّمَتْ على المبيَّنِ للفاصلة، ويجوز أن تكونَ بمعنى (في)، ويجوزُ أن تكونَ تعليليَّة[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾:

إقامةُ السَّجعةِ مع التَّرهيب بتعسيرِ الأمرِ ساعةَ فَقْدِ التَّقوى

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفِ حالٍ من ﴿يُسۡرٗا﴾[2]، فنعتُ النَّكرة إذا تقدَّمَ عليها صار حالًا، وفائدةُ التَّقديم إقامةُ السَّجع المرصَّع، كأنَّه الدُّرُّ والياقوتُ، مثل: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩﴾ [الطلاق: 9]، وهو من المحسِّنات البديعيَّة[3]، ومع هذا الجانب اللَّفظيِّ المرعيِّ هناك جانبٌ دلاليٌّ قائمٌ، وهو أنَّ الحال وصفٌ لصاحبه، فدلَّ على ملازمةِ التَّيسيرِ للأمرِ إنْ جُعِلَت التَّقوى عنوانًا، فإذا فُقِدَت التَّقوى فُقِدَ تيسيرُ أمرِه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿يُسۡرٗا﴾:

عمومُ أحوالِ التَّيسيرِ ساعةَ مُراعاةِ التَّقوى

اليسرُ: انتفاء الصُّعوبة؛ أي: انتفاءُ المشاقِّ والمكروهات. والمقصودُ من هذا تحقيقُ الوعد باليُسر فيما شأنُهُ العسرُ؛ لحثِّ الأزواجِ على امتثال ما أمر الله به الزَّوجَ؛ من الإنفاق في مدَّةِ العدَّة، ومن المراجعةِ وتركِ منزله لأجل سُكناها إذا كان لا يَسَعُهما، وما أمر به المرأةَ؛ من تربُّصِ أمَدِ العدَّة، وعدمِ الخروج ونحوِ ذلك[4]. ففي التَّنكير عمومٌ لمعاني اليسر، وهو أن يسهلَ عليه - إنْ أراد الرُّخصة لاتِّباع نفسِه إيّاها - الرَّجعةُ ما دامتْ في عدَّتِها، وإن انقضت عدَّتُها ثمَّ دعتْهُ نفسُه إليها قدَرَ على خِطبتها[5]. وفي التَّنكيرِ دلالةُ التَّفخيم والتَّعظيم، كأنَّه قال: يسرًا عظيمًا فخمًا لا نظيرَ له، مع الألِفِ في نهاية الكلمة الدّالَّةِ على الإطلاق، وعدمِ حدِّ اليُسر بحدٍّ معيَّنٍ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 334.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 28/ 281.

(3) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 380.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.

(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 58.

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّةِ المتواترةِ في ﴿يُسۡرٗا﴾:

تعدُّدُ أنماطِ اليُسرِ بتعدُّدِ أنماطِ المتَّقين

قُرِئت لفظةُ ﴿يُسۡرٗا﴾ بضمِّ الياء مع سكون السّين، وهذه قراءةُ الجمهور، وقُرِئت أيضًا ﴿يُسُرًا﴾ بضمِّ الياء وضمِّ السّين ضمَّةَ إتباع[1]. واختلافُ القراءاتِ واشٍ بتعدُّدِ الاتِّجاهات والمَشارِبِ؛ ذلك أنَّ المُتدبِّر لأحوالِ الحركات يجدُ أنَّ الضَّمَّةَ ثقيلةٌ في الحركة، بل تكاد تكونُ أثقلَ الحركات، أمّا السُّكونُ فليس بثقيل، بل ليس بحركة، حتّى إنَّ سيبويه يُسمّيه الوقفَ. وهنا نقولُ: إنَّ كلَّ قراءةٍ تدلُّ على معنًى، فاليُسْرُ بضمٍّ فسكونٍ فيها السُّهولة الشَّديدة؛ لأنَّ صاحبَها حقَّقَ كلَّ معاني التَّقوى، أمّا ﴿يُسُرًا﴾ بضمِّ الياء والسّين ففيها ثِقَلُ بعضَ الشَّيءِ وإنْ كان المعنى العامُّ هو السُّهولةَ واللُّيونة، ولكنَّها ليست كسهولةِ قراءة الجمهور بالضَّمِّ والسُّكون.

وهذا يعني: أنَّ النّاس في استقبالهم لأوامرِ التَّقوى نوعان: نوعٌ يُحَقِّقُ التَّقوى الكاملةَ بكلِّ معانيها، فاليُسْرُ عنده متحقِّقٌ تمامَ التَّحقُّق. والنَّوع الثّاني: مَن يُحَقِّقُ التَّقوى منقوصةً، فيُطبِّقُها في موطنٍ ويهجُرُها في موطنٍ، فإنَّ مَن يتثاقلُ عن تحقيقِ كاملِ معاني التَّقوى يتثاقلُ عنه بعضُ معاني اليُسر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّائي واللّاتي:

(اللّاتي) أخفُّ من (اللّائي)؛ لكونِهِ بغيرِ همزة

كلاهما اسمُ موصول، غيرَ أنَّ (اللّائي) أعمُّ، فالأكثرُ في دلالتِهِ على المؤنَّث، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾، لكنَّه يدلُّ كذلك على جماعة الذُّكور، كما قال الشّاعر:

أبى لَكُمُ أنْ تَقْصُروا أو يَفوتَكُمْ***بتَبْلِ مِنَ اللّائي تُعادونَ تابَلُ

أمّا (اللّاتي) فلا تطلقُ إلّا على المؤنَّث، ومفردُهُ (التي)، و(اللّائي) قد تأتي بمعنى اللَّواتي بوزن القاضي والدّاعي. وفي التَّنزيل العزيز:

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 216.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾[1]، و(اللّائي) واحِدُها (الّتي) و(الّذي) جَميعًا[2]، ويجوز اللّاءِ، بالكسر بلا ياءٍ، ولا مدٍّ ولا همز[3]، وقد قيل: إنَّ (اللّاتي) أخفُّ من (اللّائي) لكونِه بغير همزة[4].

اليأس والقُنوط:

اليـأسُ مِـن منعاتِ القلب، والقنوطُ ظهورُ آثاره على ظاهرِ البدن

في الفرقِ بين اليأس والقنوط أقوالٌ؛ **الأوَّل**: القنوطُ شدَّةُ اليأس، فهو يأسٌ مُفرِطٌ، فيكونُ الفرقُ بينهما مثلَ الفرق بين الدُّعاء والاستغاثة، فالاستغاثةُ دعاءٌ خاصٌّ في حالةٍ خاصَّةٍ، وهي داخلةٌ في الدُّعاء، فيكونُ القنوطُ يأسًا، ولكنَّه أعظمُ اليأس وأشدُّهُ[5].

والثّاني: كِلاهما بمعنى قطعِ الرَّجاء من رحمةِ اللّه، إلّا أنَّ اليأسَ من منعات القلب، والقُنوطَ تظهرُ آثاره على ظاهر البدن، جاء في الكشّاف: "فيَؤوسٌ قَنوطٌ بولِغَ فيه من طريقين: من طريقِ بناء فَعول، ومِن طريق التَّكرير. والقنوطُ أن يظهرَ عليه أثرُ اليأسِ فيتضاءَلَ وينكسرَ؛ أي: يقطعَ الرَّجاءَ من فضل اللّه ورَوحه، وهذه صفة الكافر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]"[6]. **والثّالث**: اليأسُ قد يأتي بمعنى العلم، وهذا ما ليس في القُنوط الّتي تدلُّ على معنًى واحد فقط، ودليلُ معنى العلم في اليأس قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: 31].

الرَّيب والشَّكّ:

الرَّيبُ أعمُّ من الشَّكِّ

الشَّكُّ: تردُّدٌ بين أمرينِ مع رُجحانِ أحدِهما، أمّا الرَّيب ففيه شكٌّ بتُهمةٍ[7]، وقد يعني الرَّيبُ صُروفَ الدَّهرِ ونوائبَهُ، وهذا ليس في المصدر (الشَّكّ).

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لأى).

(2) الكفوي، أبو البقاء فصل الألف واللام، ص: 165.

(3) الزبيدي، تاج العروس: (لتى).

(4) ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص: 188.

(5) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 245.

(6) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 9.

(7) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كلُّ ما سبقَ من أحكامٍ هي أمرُ الله المُنْزَل

ناسَبَتِ الإشارةُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ إلى الأحكام المتقدِّمة من أوَّلِ السّورة(1)، فكانت الآيةُ خلاصةَ ما قيل؛ مِن أنَّ ذلك أمرُ الله المُنْزَلُ الّذي إنْ نُفِّذَ فالجزاءُ المُنتظَرُ كبيرٌ: تكفيرُ السَّيِّئاتِ وإعظامُ الأجر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُكَفِّرۡ﴾: (كفر) أصلٌ صحيح يدلُّ على معنًى واحدٍ، وهو السَّترُ والتَّغطية، يقال لِمَن غطّى درعَهُ بثوبٍ: قد كَفَرَ دِرْعَهُ. والمُكَفِّرُ: الرَّجُلُ المتغطّي بسلاحه(2)، والكُفرُ: نقيضُ الإيمان. ويقال لأهل دار الحرب: قد كَفَروا؛ أي: عَصَوا وامتنعوا. والكُفرُ: نقيضُ الشُّكر، كَفَرَ النِّعمةَ؛ أي: لم يشكرها. والكُفرُ أربعةُ أنحاء: كُفْرُ الجُحود مع معرفة القلب، كقوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]. وكُفْرُ المعاندةِ: وهو أن يعرفَ بقلبه، ويأبى بلسانه. وكُفْرُ النِّفاق: وهو أن يؤمنَ بلسانه والقلبُ كافرٌ. وكُفْرُ الإنكار: وهو كُفْرُ القلب واللِّسان. وإذا ألجأتَ مطيعَك إلى أن يعصيَك فقد أكْفرتَهُ(3). وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها.

2) ﴿وَيُعۡظِمۡ﴾: (عظم) أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّة. فالعِظَمُ: مصدر الشَّيء العظيم. تقولُ: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظَمًا، وعظَّمتُهُ أنا، فإذا عظَمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(3) الخليل، العين: (كرف).

في عينيك قلتَ: أعظمتُهُ واستعظمتُهُ[1]، وأعظَمَ الأمرُ: صار عَظيمًا. والمعنى: أنَّ الأجرَ صار عظيمًا كبيرًا، فالهمزة للصَّيرورة أو التَّعدية.

المَعنى الإجْماليُّ:

في تنفيذِ الأحكام دلالةُ التَّقوى

ذكرت الآيةُ أنَّ مَن يتقي اللّهَ في العمل بما أنزل اللّه من هذه الأحكام، ويحافظُ على الحقوق الواجبة عليه ممّا ذَكَرَ؛ من الإسكانِ، وترك الضّرارِ، والنَّفقة على الحوامل، وإيتاءِ أجر المرضِعات وغيرِ ذلك؛ يستوجبُ تكفيرَ السَّيِّئاتِ والأجرَ العظيم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الاعتراضُ دالٌّ على أهمّيَّةِ الوقوفِ لتنفيذِ أمرِ اللّه مع تعليلِ التَّقوى

الجملةُ الاسميَّةُ ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ معترضةٌ بين الجملتين المتعاطفتين[3] الشَّرطيَّتين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، وفائدةُ الوقوع بين الشَّرطين الدّالَّين على التَّقوى؛ الوقوفُ على حدود اللّه وأوامره، والخوفُ من تَخَطّي تلك الأوامر. "ولمّا كان تكريرُ الحثِّ على التَّقوى للسُّؤال عن سببه استأنَفَ قولَهُ كالتَّعليل له: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمرُ المذكورُ من جميع هذه الأحكامِ العاليةِ المراتبِ"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيد:

بُعدُ منزلةِ الأمر في الفَضْلِ وسموُّ الأمر

الإشارةُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ إلى الأحكامِ المتقدِّمة من أوَّل السّورة؛ من حُكمِ الطَّلاق والرَّجعة والعدَّة، وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهدِ المُشار إليه؛ للإيذان ببُعدِ منزلتِه في الفضل[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 557.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.
(5) الصابوني، روائع البيان: 2/ 621.

نكتةُ إفرادِ المُخاطَبِ مع أنَّ الخطاب للجمع في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الفرقُ بيانُ الحاضرِ والمنقضي، مع تعيين الفرق بين البُعد والقرب

نكتةُ إفراد الكاف مع أنَّ الخطابَ للجمع، كما يُفصِحُ عنه قولُه تعالى: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أنَّها لمجرَّدِ الفَرْقِ بين الحاضر والمُنقضي، لا لتعيين خصوصيَّة المخاطبين[1]، إضافةً إلى أنَّها لتعيينِ الفرق بين البُعد والقرب، لا لتعيين خصوصيَّة المخاطبين.

دلالةُ إفرادِ لفظةِ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾:

أمورُ العدَّةِ والطَّلاقِ كأمرٍ واحدٍ، فينبغي رعايتُها كلِّها

دلَّ إفرادُ لفظةِ ﴿أَمۡرُ﴾ على توحُّدِ كلِّ الأمور، فكأنَّها أمرٌ واحدٌ في ضرورةِ تنفيذِها كلِّها، كأنَّها شيءٌ واحد لا أشياءُ متعدِّدة، فينبغي رعايتُها كلِّها من دون إهمالٍ لأمرٍ مهما كان صغيرًا.

نكتةُ إضافةِ الأمرِ إلى لفظ الجلالة:

تشريفُ الأمرِ وتفخيمُهُ، والتَّحذيرُ من تَعَدّيهِ وعدمِ الالتزام به

يكتسبُ المضافُ قوَّتَهُ وشرفَهُ ممّا أُضيف إليه، وقد أُضيف لفظُ ﴿أَمۡرُ﴾ إلى اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وفي هذا تشريفٌ للأمر وتفخيمٌ له، مع تربيةِ الخشية والمهابة لهذا الأمرِ؛ لاقترانه بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾، والأمرُ هنا يعني: حكمَهُ وما شرَعَهُ لكم، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52][2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾:

ثباتُ الإنزال وعدمُ انتقاله

جملةُ ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ وقعت في محلِّ نصبٍ على الحالِ من صاحبها ﴿أَمۡرُ﴾؛ لكونِه معرفةً، وقد جاءت الحالُ جملةً فعليَّةً فعلُها ماضٍ؛ إشارةً إلى ثباتِ الأمرِ وتحقُّقِه، علمًا أنَّ الأصلَ الغالبَ في الحال الانتقالُ والتَّغيُّرُ، لكنَّه قد يأتي دالًّا على الثَّبات كما قال ابنُ مالكٍ:

وكونُهُ مُنتقِلًا مُشتقّا***يَغلِبُ لكنْ ليس مُستحَقّا

بلاغةُ الاستعارةِ في إنزالِ الأمر:

شرفُ المعاني والألفاظِ ورفعتُها

إنزالُ الأمر: إبلاغُه إلى النّاس بواسطةِ الرّسول ﷺ، أطلَقَ عليه

(1) الصابوني، روائع البيان: 2/ 621.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.

الإنزالَ تشبيهًا لشرفِ معانيه وألفاظه بالشَّيءِ الرَّفيع؛ لأنَّ الشَّريفَ يُتخيَّلُ رفيعًا، ففي قوله: ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾ استعارةٌ مكنيَّة[1].

نكتةُ تعديةِ فعل الإنزال بـ(إلى):

علوُّ رتبةِ الأمر مع تكريم المتَّقين؛ لكونِهم محطَّ انتهاءِ غاية الإنزال

دلَّتْ تعديةُ الفعل ﴿أَنزَلَهُۥٓ﴾ بحرف الجر (إلى) على علوِّ رتبةِ الأمر المُنزَل[2]، وفيه تكريمٌ للمتَّقين؛ لأنَّهم صاروا محطَّ انتهاءِ غايةِ الإنزال؛ إشعارًا بقبولهم للأمر، ومبادرتهم إلى تنفيذه.

بلاغةُ الكناية في إنزالِ الأمر إليهم:

الحثُّ على رعايةِ الأمر، والاستعدادُ للتَّنافس في تنفيذه

الكلامُ كنايةٌ عن الحثِّ على التَّهَمُّم برعاية الأمر والعملِ به، وبعث النّاس على التَّنافس في العلم به؛ إذ قد اعتنى اللّه بالنّاس، حيث أنزل إليهم ما فيه صلاحُهم[3]، فكان الإنزال دلالةً على الرِّعاية والتَّكريم والاهتمامِ بما في الحياة الأسريَّة بين الزَّوجين.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

التَّذكيرُ الدّائمُ بالتَّقوى مع العلوِّ عن مَهاوي المُهلِكات

الجملةُ معطوفةٌ على الجملة المعترضة ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، فلها حكمُ الاعتراض[4]. وفي الاعتراضِ تذكيرٌ دائم بالتَّقوى والحرصِ عليها؛ لأنَّها الرُّكن الأصيل الّذي تُبنى عليه التَّعاملاتُ. وفي العطفِ ارتقاءٌ وعلوٌّ من مَهاوي المُهلِكات، فمَن أباه هَوَى في مَهاوي المُهلِكات إلى أسفلِ سافلين، لذا عطَفَ عليه قولَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معه بالاجتلاب والاجتناب[5].

بلاغةُ التَّعبير بالجملةِ الشَّرطيَّة:

التَّلازُمُ بينَ التَّقوى وتكفير السَّيِّئات وإعظامِ الأجر

جيءَ بالوعدِ من الشَّرطِ؛ لتحقيقِ تعليق الجواب على شرطه، وتتمثَّلُ بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قيامها على الرَّبط بين السَّبب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 325.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.

والنَّتيجة، وكأنَّهما متلازِمان في الوقوع، فالشَّرطُ معلومُ الوقوع، وإنْ كان الشَّرطُ معلومَ الوقوع فالجزاءُ لازمُ الوقوع، وفي الشَّرط دليلٌ على أنَّ التَّقوى سببٌ رئيس في تكفيرِ السَّيِّئات وإعظام الأجر، وكأنَّ الشَّرطَ فيه مندوحةٌ للمتَّقي بأنَّه إذا اتَّقى فتكفيرُ السَّيِّئاتِ حاضرٌ، وفي هذا إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمن بالتَّقوى وعدم ظلم المرأةِ بإعطائها حقوقَها المرجوَّة. ومفهومُ الشَّرطِ أنَّه إنْ لم يتَّقِ اللّه لم يكن ثَمَّ تكفيرٌ للذُّنوبِ أو إعظامٌ للأجر.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأفعال المضارعة ﴿يَتَّقِ﴾، و﴿يُكَفِّرْ﴾، و﴿وَيُعْظِمْ﴾:

عراقةُ التَّقوى في تكفيرِ السَّيِّئاتِ وإعظامِ الأجر

تدلُّ الأفعالُ المضارعةُ الثَّلاثةُ ﴿يَتَّقِ﴾ و﴿يُكَفِّرْ﴾ و﴿وَيُعْظِمْ﴾ على ضرورةِ الاستمرار في التَّقوى؛ كي تكونَ علامةً له، يُعرَفُ بها ويوسَم، فالمُتَّقي يُجدِّدُ في كلِّ وقتٍ على الدَّوام التَّقوى؛ كي يظلَّ في تَرَقٍّ دائم في معارج القبول، ومُضارعيَّةُ التَّقوى والجَعْل والإعظام فيها تلازُمٌ بينَ الأفعال الثَّلاثة؛ فكأنَّ التَّقوى هي المنفذُ الكبيرُ لتكفير السَّيِّئات وإعظام الأجر. وفي هذا حثٌّ على الاتِّقاءِ وبيان عراقتِه؛ لِما له من الجزاءِ الحَسَن. وقد جاءت الأفعالُ توكيدًا مكرَّرًا بوجوب تقوى اللّه وبيانِ ما يعودُ على المتَّقي من فوائدَ كبيرةٍ، حيث يجعلُ اللّه اليسرَ في أموره، ويكفِّرُ سيِّئاته، ويُعظِمُ له الأجرَ. وواضحٌ أنَّ هذا بسببِ تدعيم أوامر اللّه والتزام حدوده المرسومة في الآيات. وفيه ما هو ظاهرٌ من توكيد العناية الرَّبّانيَّة بالمرأة. وقد يقال: إنَّ الأمر بالتَّقوى تكرَّرَ مبالغةً في أمر النِّساء، وذلك لضَعفِهنَّ ونُقصان عقلهنَّ، وما يبدو منهنَّ ممّا يوجِبُ النُّفْرةَ والغضب(1).

بلاغةُ حذفِ متعلِّق التَّقوى في قوله: ﴿يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

عمومُ الحذفِ؛ لتلازُمِ المؤمنِ تقوى الله

في الحذف - كما ذكرنا قبلُ - تناسبٌ بين هاتين الآيتين (الثّانيةِ والرّابعة) في ذكرِ مسألة التَّقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ

(1) الكوراني، شهاب الدين، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، ص: 183.

مَخۡرَجٗا﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، وقد دلَّ الحذفُ على العموم؛ فمجالاتُ التَّقوى غيرُ محصورة في أمورٍ محدَّدة، وإنَّما تتجاورُ مع كلِّ أحداث الحياة، فكأنَّ سِمَةَ المؤمن هي التَّقوى وملازمتُها؛ كي تكونَ شعارًا للمؤمن.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يُكَفِّرۡ﴾:

ارتباطُ التَّقوى بتكفيرِ السَّيِّئاتِ وتعظيمِ الأجر

وقَعَ الفعلُ ﴿يُكَفِّرۡ﴾ مجزومًا جوابًا للشَّرط، والجوابُ مترتِّبٌ على الشَّرط، فبينَهما تلازمٌ، وفي هذا إشارةٌ إلى الآثارِ الطَّيِّبةِ المترتِّبة على التَّقوى؛ من تكفيرِ السَّيِّئاتِ وإعظام الحسنات، وفي المضارعينِ دلالةٌ على الاستمساك بالتَّقوى، ممّا يترتَّبُ عليه دوامُ تكفير السَّيِّئات وإعظام الأجر. وتكفيرُ السَّيِّئات: تغطيةٌ عظيمةٌ، وسترٌ، وتغييبٌ، وإسقاطٌ ﴿عَنۡهُ﴾ جميعَ ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾؛ ليتخلّى عن المُبعِدات، فإنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئات.

معنى (عن)، ونكتةُ تقديمها على المفعول:

التَّجاوزُ والتَّركُ والتَّعجيلُ بالبُشرى

الدَّلالةُ الرَّئيسةُ لحرف الجرِّ (عن) هي المجاوزةُ، وفي المجاوزة تجاوزٌ وتركٌ وبُعدٌ، فدلَّ الحرفُ على أثرِ التَّقوى، ومجاوزةِ العبدِ للسَّيِّئة وبُعدِه عنها، وقُربِهِ من الحسنةِ بأسلوب المخالفة. وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَنۡهُ﴾ على المفعول به ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ تعجيلٌ بالبُشرى والهَناءةِ والسَّعادة على قلبِ المُتَّقي.

نكتةُ إضافةِ السَّيِّئاتِ إلى ضميرِ المتَّقي:

المناسبةُ، مع اختصاص تكفير السَّيِّئة بفاعلِها وحدَهُ

في نكتةِ إضافة السَّيِّئاتِ إلى ضمير المُتَّقي وجهان: **الأوَّل:** مناسبةُ قولِه: ﴿عَنۡهُ﴾، فالحرفُ والاسمُ اتَّصلا بالضَّميرِ ذاتِه مناسَبةً للسّياق، وكذا الحرفُ ﴿لَهُۥٓ﴾ في الجملة الّتي تليه. **الثّاني**: اختصاصُ السَّيِّئةِ بفاعلها، فكأنَّ كلَّ مُتَّقٍ خُصَّ بتكفيرِ سيِّئاتِهِ وإعظامِ أجرِهِ، وفي هذا دلالةٌ على الآثارِ العظيمة المترتِّبة على التَّقوى. يضاف إلى

ذلك جمعُ لفظةِ ﴿سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، فكأنَّه تكفيرٌ لجميع سيِّئاته؛ ليتخلّى عن المُبعِدات، فإنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئات[1].

معنى الواو في ﴿وَيُعۡظِمۡ﴾ ودلالةُ الفعل:

تعدُّدُ العطاءاتِ الرَّبّانيَّة واختصاصها بالمتَّقي

دلَّتِ الواوُ على العطاءِ المُطلَق، وتعدُّدِ أنواعِ الخُيورِ المترتِّبة على التَّقوى من إعظام الأُجور، والفعلُ جاء بوزن (يُفعِل) الدّالِّ على التَّعديةِ والجَعْلِ، وفيهما من القصديَّة ما فيهما، وهذا آتٍ من تصوُّرِ كونِ الفعلِ لازمًا (يَعْظُمُ أجرُهُ)، فليس في اللُّزوم قصديَّة، أمّا (يُعظِمْ) ففيه قصديَّةُ الإعظام من الله؛ لدلالةِ الاختصاص في الحرف ﴿لَهُۥٓ﴾، وتقديم شبه الجملة الدّالِّ على تعجيلِ الاختصاص بالبُشرى. "ولمّا كان الكريمُ لا يرضى لِمَن أقبل إليه بالعفوِ فقط قال: ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾؛ بأنْ يُبدِّلَ سيِّئاته حسناتٍ، ويوَفّيَهُ أجرَها في الدّارين مضاعَفًا، فيتحلّى بالمقرِّبات، وهذا أعظمُ من مُطلَقِ اليُسر المتقدِّم"[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿أَجۡرًا﴾:

تعظيمُ الأجرِ وعمومُهُ وتتميمُه

دلَّ التَّنكيرُ في لفظةِ ﴿أَجۡرًا﴾ على تعظيم الأجر وعُمومِه؛ أي: يُعطيه أجرًا عظيمًا أيَّ أجرٍ كان، ولذلك نُكِّرَ؛ فالتَّنكيرُ للتَّعميم المُنبِئِ عن التَّتميم[3]. وقد قيل: إنَّ إعظامَهُ الأجرَ له أنْ يُدخِلَه جنَّتَهُ فيُخلِّدَهُ فيها[4].

الغرضُ من تتابُعِ بيانِ ثمراتِ التَّقوى في الآياتِ السّابقة:

الحفاظُ على الحقوقِ، وتركُ المَضارّ

أُعيدَ التَّحريضُ على العملِ بما أمر اللّهُ بالوعدِ بما هو أعظمُ من الأرزاق وتفريج الكرب وتيسير الصُّعوبات في الدُّنيا، وذلك هو تكفيرُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 36.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 59.

السَّيِّئات وتوفيرُ الأجور[1]، وفيه دليلٌ على أنَّ التَّوبة مع ما تَحُطُّ من السَّيِّئات تُنَمّي له أجرًا برأسِه[2]. و"لمّا كان الكلامُ في أمر المطلَّقات وأحكامِهنَّ مِن العِدَدِ وغيرها، وكُنَّ لا يُطلِّقُهنَّ أزواجُهنَّ إلّا عن بُغضٍ لهنَّ وكراهةٍ؛ جاء عقيبَ بعضِ الجمل الأمرُ بالتَّقوى من حيث المعنى، مُبرَزًا في صورةِ شرطٍ وجزاءٍ في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ إذ الزَّوجُ المُطلِّقُ قد يَنسُبُ إلى مُطلَّقتِهِ بعضَ ما يَشينُها به ويُنَفِّرُ الخُطّابَ عنها، ويوهِمُ أنَّه إنَّما فارَقَها لأمرٍ ظهَرَ له منها - فلذلك تكرَّرَ قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في العملِ بما أنزلَهُ من هذه الأحكام، وحافَظَ على الحقوقِ الواجبةِ عليه؛ مِن تركِ الضِّرار، والنَّفقةِ على المعتدّات، وغيرِ ذلك ممّا يلزمُه، يُرتِّبْ له تكفيرَ السَّيِّئاتِ وإعظامَ الأجر"[3].

نكتةُ التَّرتيبِ بين هذه الثَّمرات:

التَّرتيبُ تخليةٌ وتحليةٌ، وارتقاءٌ في مَعارِجِ ثمراتِ التَّقوى

في التَّرتيبِ بين الجزاءاتِ نكتةُ التَّخْليةِ والتَّحْلية، فتكفيرُ السَّيِّئاتِ تخليةٌ من آثارِها القبيحة، وفي إعظامِ الأجرِ تحليةٌ بجَلْبٍ للسَّعادةِ والحُبورِ جرّاءَ التَّقوى، ﴿يُسۡرٗا﴾؛ أي: سهولةً وفرجًا وخيرًا في الدّارين بالدَّفع والنَّفع، وذلك أعظمُ من مُطلَقِ الخروجِ المُتقدِّمِ في الآيةِ الأولى ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾؛ أي: ومَن يتَّقِ اللهَ في اجتنابِ معاصيهِ يجعلْ له من أمره يسرًا في توفيقه لطاعته، ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ بأنْ يُبدِّلَ سيِّئاتِه حسناتٍ، ويوَفّيَهُ أجرَها في الدّارين مُضاعَفةً، فيتحلّى بالقُرُبات، وهذا أعظمُ من مُطلَقِ اليُسرِ المتقدِّم[4].

نكتةُ اختلافِ جزاءِ التَّقوى في الآياتِ الثّانية والثّالثة والرّابعة والخامسة:

اختلافُ الأحوالِ والأزمان والقضايا داعٍ إلى تعدُّدِ العطاءاتِ الرَّبّانيَّة

اختلَفَ جزاءُ التَّقوى في الآياتِ الكريمات، ففي الآيتين الثّانية والثّالثة كان الجزاءُ المخرجَ والرِّزقَ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 324.
(2) القصاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 4/ 341.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 201.
(4) الشربيني، السراج المنير: 4/ 317.

﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾، أمّا الجزاءُ في الآية الرّابعة فهو تيسيرُ الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، أمّا الآيةُ الخامسة فكان جزاءُ التَّقوى تكفيرَ السَّيِّئاتِ وإعظامَ الأجر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

وعلَّةُ ذلك الاختلافِ: أنَّ السّورةَ بُنيت على عددٍ من الأمور والأحكام: **الأوَّلُ**: الأمرُ بالمحافظة على إيقاع الطَّلاقِ في وقته الصَّحيح لاستقبالِ العِدَّة؛ حتّى لا يقعَ إضرارٌ بالمطلَّقة بتطويلِ عِدَّتها. **والثّاني**: الأمرُ بإحصاءِ العِدَّةِ والمحافظة عليها، وألّا تخرجَ المعتدَّةُ من بيتها حيث وقَعَ عليها الطَّلاق ولا تبيتَ عنه، إلى ما يرجع إلى هذا. **والثّالث**: إنفاذُ ما يقعُ الاعتمادُ عليه في إمساكٍ أو مفارقة؛ من حُسنِ الصُّحبة وجميلِ العِشرةِ إن اعتمَدَ الإمساكَ، أو بالإمتاعِ والتَّلطُّف رَعْيًا لِما تقدَّمَ من الصُّحبةِ إنْ عوَّلَ على المفارقة.

ومراعاةً لهذه القضايا الثَّلاثةِ تعدَّدَ جزاءُ التَّقوى، فبإزاءِ أوَّلِ قضيَّةٍ من أوامرِ السّورة قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في إيقاعِ الطَّلاقِ في محلِّه ووقتِه ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من تقلُّبِ الأحوالِ وصيرورةِ البُغض وُدًّا، فيجدُ السَّبيلَ إلى المراجعةِ سهلًا بالتزامِه الوجهَ الجاريَ على السُّنَّةِ وأخذِه بالطّاعة، فينشرحُ صدرُهُ بتيسيرِ أمرِه، ويكثُرُ رزقُهُ بتقوى ربِّه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.

ثُمَّ تأتي القضيَّةُ الثّانية في التَّقوى، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في صبرِه أيّامَ العِدَّةِ على ما يَلزَمُهُ من نفقةٍ وسُكنى - حيث يَلزَمُ ذلك وإنْ طالت الأيّام - فكأنَّ طولَها مع ما يتكلَّفُهُ فيها مَظِنَّةٌ للضَّجَرِ وكُرَبِ النَّفْس، فإذا اتَّقى اللّهَ في ذلك (يسَّرَ عليه) تلك المشقَّةَ، وقرَّبَ عليه أمرَها وإن بَعُدَت المشقَّةُ، وجعَلَ له من أمره يُسرًا.

ثُمَّ تأتي القضيَّةُ الثّالثة، فإذا اتَّقى اللّهَ عندَ تمامِها والإشرافِ على انفصالِها، وأخَذَ بالسُّنَّةِ، واتَّقى الله فيما يختارُهُ تعالى له ويَقضيه من إمساكٍ أو فِراقٍ، فيلتزمُ المعروفَ إنْ أمسَكَ، ويُتْبِعُ كلَّ سيِّئةٍ جَرَتْ حالَ طلاقِهِ وغضبِهِ - من قبحِ كلامٍ، أو قصدِ مَضَرَّةٍ وإنْ كانت بأدنى إيلامٍ أو إساءةِ معاملةٍ تُنافِرُ المُجاملةَ والمُكارَمةَ - بحَسَنةٍ تُقابِلُها وتمحوها؛ من إظهارِ التَّندُّمِ، وطلاقةِ البشرِ، والإغضاءِ عن كلِّ ما جَرى أيّامَ المُنافرة، ويَستبدِلُ

بالمناقشةِ المُياسَرةَ، فإذا فعَلَ هذا واتَّقى اللّه في ذلك كفَّرَ عنه سيِّئاتِه وأعظَمَ أجرَهُ جزاءً على تلك الأعمال.

ويَشهَدُ لِما تَمَهَّدَ من جزاءِ تقوى اللّه سبحانه في تلك الحالاتِ ما أفصح به ما بعدُ من الآيات، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطَّلاق: 6]، إلى قوله سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٖ يُسْرٗا ٧﴾ [الطَّلاق: 7]، وتأمَّلْ جَرْيَ هذه الآياتِ والوصايا الجليلةِ وما تشير إليه؛ مِن الإشفاقِ وجميلِ التَّجمُّلِ والإنفاقِ مع ما تقدَّمَ تَجِدْهُ جاريًا على أوضحِ التَّناسُبِ وألَحِّ الالتئام[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أنزل إليكم) و(أنزل عليكم) و(أنزل لكم):

النُّزولُ المتعلِّق بـ (اللّام) فيه معنى التَّخصيص

الأصلُ في النُّزول: الانحطاطُ من عُلوٍّ كما قال الرّاغب، وكلُّ كلمةٍ ترتبطُ بحرفِ الجرِّ المتعلِّق بها: فالحرفُ (إلى) معناه انتهاءُ الغاية المكانيَّة والزَّمانيَّة، أمّا الحرفُ (على) ففيه استعلاءٌ، فكأنَّ التَّنزيلَ يأتي من علوٍّ بتوظيف (على)؛ لأنَّ (على) بمعنى (فوق)، وينتهي إلى الأنبياء والرُّسل بتوظيف الحرف (إلى)؛ لأنَّ (إلى) للنِّهاية، فلا تختصُّ بجهةٍ من دون أُخرى، وقد كان أكثرُ المواضعِ الّتي ذُكِرَ فيها إنزالُ القرآن على الرَّسول ﷺ متعدّيًا بـ(على)، وأكثرُ ما جاء إنزالُه على النّاس جاء متعدّيًا بـ(إلى)، ثمَّ كلُّ موضعٍ قيل فيه: (أنزلنا إليك) دلَّ على تشديدٍ في التَّكليف، أمّا مواضعُ الإنزال بـ(على) ففيها تشريفٌ[2].

وثَمَّ ملحوظةٌ جديرةٌ بالتَّأمُّل، وهي أنَّ عددَ تعديةِ النُّزول بـ(على) يساوي عددَ آياتِ النُّزول بـ(إلى)، فكِلاهما ورَدَ سبعًا وعشرين مرَّةً

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 478.
(2) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص: 113.

كما ذكر أحدُ الباحثين، وفي هذا إلماحٌ إلى أنَّ التَّساويَ دليلٌ على التَّوازُنِ بين مواطنِ التَّشريف ومواطنِ التَّكليف، أو هو تكافؤُ الحقوقِ والواجبات[1]. وأمّا النُّزولُ المتعلِّق بـ(اللّام) ففيه معنى التَّخصيص؛ لأنَّ هذا المعنى من المعاني الأصيلةِ في اللّام، وفي التَّخصيصِ إشارةٌ إلى الاهتمام والحفاوة.

(يُكفِّرُ) و(يَغفِرُ):

الغُفرانُ بالفضلِ والرَّحمة، والتَّكفيرُ بالعملِ والطّاعات

في الفعلِ (كفَّرَ) سَتْرٌ وتغطيةٌ وإذهابٌ وإزالة، أمّا الغَفْرُ فالصَّونُ مِن الدَّنسِ ومسِّ العذاب، وتجاوُزٌ عن الخَطايا والذُّنوب، وأصلُها التَّغطيةُ والسَّترُ مع الحماية[2]، فبينَهما تقاربٌ، غيرَ أنَّ الغُفرانَ شاع في العفوِ عن الذَّنب، والتَّكفيرَ في تعويضِ الذَّنبِ بعِوَضٍ، فالغُفرانُ بالفضلِ والرَّحمة، والتَّكفيرُ بالعمل والطّاعات، كتكفيرِ الحِنْثِ بالصَّوم، والظِّهارِ بالإعتاق[3].

(1) محمد الأمين الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم: 114، 115.
(2) الراغب، المفردات: (كفر) و(غفر).
(3) الواحدي، الوسيط: 1/ 534، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/ 1551.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ٦﴾ [الطلاق: 6]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إعطاءُ المرأةِ حقوقَها من علاماتِ التَّقوى

لمّا تقدّم إيجابُ ترك المطلّقة في منزل الطَّلاق، وأُذِن في إخراجها عند الفاحشة المبيّنة، وربّما كان منزلُ الطَّلاق مستعارًا، وكان ممّا لا يليق بالزَّوج؛ استأنف البيان له بما لا يحتمل لَبْسًا، فجاءَت الآية آمرةً بالحلم عنهنَّ فيما يمكن الحلمُ فيه؛ حفظًا للقلوب وإبعادًا للشِّقاق بعد الإيحاش بالطَّلاق؛ لئلّا يَعْظُم الكَسْرُ والوحشة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾: (سكن) أصل واحدٌ مطَّرد، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركَة، يُقال: سكنَ الشَّيء يسكُن سكونًا؛ فهو ساكن[2]، والمَعْنى المحوريُّ لهذه المادَّةِ يدلُّ على استقرارٍ في جوفِ حَيِّزٍ، ومِنْهُ السَّكَن، وهوَ البَيْتُ والمنزِل يَسْتَقِرّ السّاكن في جوفهِ[3].

2) ﴿وُجْدِكُمْ﴾: (وجد) تدلّ اشتقاقاتُه على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيء يُلفيه[4]، ويُعبَّر عن التّمكّن من الشَّيء بالوجود، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، أي: حيث رأيتُموهُم، وقوله: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾، أي: تَمَكُّنِكُم وقَدْرِ غناكم، أي: سعتكم، وقد يُعبَّر عن الغِنى بالوجدان والجِدَة، وقد حُكيَ فيه الوَجْد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 158 - 159.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد).

والوِجْد والوُجْد[1]، وهو تحصلُ شيء ذي بالٍ في حَوْزة كانت خاليةً منه، كالمال والضّالَّة والتَّحقُّق المادّيّ عن عدَمٍ[2].

3) ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾: (ضرر) ثلاثةُ أصولٍ، أحدُها: خلاف النَّفع[3]، والضُّرُّ: "سوءُ الحال، إمّا في نفسه لقلّة العِلْم والفضل والعفّة، وإمّا في بدنه لعدَم جارحَةٍ ونَقْصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرة من قلّة مالٍ وجاهٍ"[4]، والمعنى المحوريُّ زحمٌ ودفعٌ للممتلئ بالتَّضييق أو النَّقص، والمضارَّة هنا تكونُ بتطويلِ العِدَّة وسوء العِشْرَةِ وتَضْييقِ النَّفقة[5].

4) ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾: الضّيقُ، والضَّيِّقُ: ضدُّ السَّعة، ويُستعمَل في الفقر والبخل والغمّ ونحو ذلك، يُقال: تَضايَق القومُ؛ إذا لم يتوسّعوا في خُلُقٍ أو مَكان، وتضايَق بِهِ الأمرُ، أي: ضاقَ علَيه، وهوَ مجازٌ، وله نفْسٌ ضيِّقَةٌ، وضَيَّق على فُلان، وأمْرٌ مُضيَّق، وقولُه تعالَى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ ينطوي على تضْييقِ النّفَقَة، وتَضْييق الصّدْر[6].

5) ﴿وَأۡتَمِرُواْ﴾: الائْتِمارُ: قبول الأمر، ويقال للتَّشاور: ائتمارٌ؛ لقبول بعضِهم أمرَ بعض فيما أشار به[7]، و(الائتمار) و(الاستئمار): المشاورة، وكذا (التّآمر) كالتَّفاعل، وقوله تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾، أي: ليأمرْ بعضُكم بعضًا بالمعروف[8].

6) ﴿بِمَعۡرُوفٖۖ﴾: (عرف) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على تتابُع الشَّيء متَّصلًا بعضُه ببعض، والآخر: على السُّكون والطُّمأنينة[9]، والمعروف: اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل أو الشّرع حسنُه، قال اللّه تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104][10]، أو هو اسم جامع لكلِّ ما عُرِف مِن طاعة اللّه تَعالى والتَّقرُّب إليه والإحسان إلى النّاس، وكلّ ما نَدَب إليه الشَّرع، ونهى عنه من المُحَسَّنات والمُقَبَّحات، وهو من الصِّفات الغالبة،

(1) الراغب، المفردات: (وجد).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (وجد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(4) الراغب، المفردات: (ضر).
(5) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضر).
(6) الراغب، المفردات: (ضيق)، والزبيدي، تاج العروس: (ضيق).
(7) الراغب، المفردات: (وجد).
(8) الجوهري، الصحاح: (أمر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(10) الراغب، المفردات: (عرف).

أي: أمر معروف بين النّاس، إذا رأوهُ؛ لا يُنْكِرونه، وهو: النّصفة وحسن الصّحبة مع الأهل وغيرهم من النّاس(1).

7) ﴿تَعَاسَرۡتُمۡ﴾: العُسْرُ نقيض اليُسر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾ [الشرح: 5]، والعُسرة تعسُّر وجودِ المال، وتعاسَر القوم: طلبوا تَعْسِير الأمر(2)، وينصرف التّعاسر كثيرًا إلى ضيق النَّفقة، أي: قلّة الموجود منها عن المطلوبِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾، والتَّعاسر هنا منه ما هو ماليٌّ وهوَ نفقة الإرضاع، وما هو غير ماليٍّ، كرَفْضِ الأمِّ إرضاعَ ولدِها(3).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حقوقُ المعتدَّة من النَّفقة والسُّكنى

بعد أن ذكر مقدار العدّة للصغار والكبار والحوامل؛ أرشد إلى ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة، ثم أردف ذلك ببيان أنّ الحوامل لهنّ النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة ما بلغت، فإذا هنّ ولدن؛ وجب لهنّ الأجر على إرضاع المولود، فإن لم يتّفقا عليه؛ أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها، والأم أحقّ بالإرضاع؛ إذا هي رضيت بمثل أجرتها، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يستطيع، فاللّه لا يكلف نفسًا إلّا ما تطيق(4).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابِقَتِها:

الآية بيانٌ لبعض الأحكام، واشتِمالٌ لبعضٍ آخَرَ

هذه الجملة وما أُلْحِق بها من الجمل إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ﴾ تشريع مستأنف، فيه بيانٌ لِما أُجْمِل في الآيات السّابقة من قوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، وقوله: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عسر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عسر).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 145.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فتَتَنَزَّل هذه الجمل من اللّاتي قبلها منزلةَ البيان لبعضٍ، وبَدلِ الاشتمال لبَعْضٍ، وكلُّ ذلك مُقْتَضٍ للفَصلِ، وابتُدِئ ببيان ما في ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من إجمالٍ[1].

ويجوزُ أن يكون ارتباطُ هذه الآية الكريمةِ بما قبلها؛ لكونِها وقعَت استئنافًا جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبلها من الحثِّ على التقوى، كأنَّه قيل: كيف نعمَل بالتَّقوى في شأن المُعْتَدّات؟ فقيل: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾[2]، فصار إعطاءُ المرأة المطلَّقة حقوقَها من أوضح علاماتِ التَّقوى.

دلالة التَّعبير بالأسلوب الطَّلبيِّ في ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾:

حفظُ القلوبِ وإبعادُ الشِّقاق

دلّ فعل الأمر في الآية الكريمة على الحِلْم عنِ المُطَلَّقات فيما يمكِنُ الحِلْمُ فيه؛ حفظًا للقلوبِ وإبعادًا للشِّقاق بعد الإيحاش بالطَّلاق؛ لئلّا يَعْظُم الكسر والوحشة[3]، وفي الفعل همزةُ التَّعْدِيَة بوزن (أَفْعَلَ) التي تشير إلى الإلزام وضرورة الانصياع للأمر، فالأمر للوجوبِ[4]، والوجوب يعني ضرورةً عدمَ التَّهاون في تنفيذ الأمر، وفيه تنديَةٌ للجَفاف الذي أحدَثَهُ الطَّلاق.

بيانُ مرجِعِ الضّمائر في ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾:

جوازُ عودِ الضَّمير على كلِّ مُطَلَّقة

ضمَّ فعلُ الأمر ضميرَ رفعٍ - وهو واو الجماعة - للدّلالة على الزّوج المُطَلِّق، وضَمَّ ضميرَ نصبٍ - وهو الهاءُ - للدّلالة على هؤلاء المُفارَقات في العدَّة؛ إن كنَّ مطلَّقاتٍ حاملات أو مبتوتات أو رجعيّات، بخلاف ما كان من العدّة عن وفاة بغير حمل، أو كان عن شبهة أو فسخٍ[5]، ويجوز أن يعود الضَّمير على كلِّ مطلَّقة فتكون السُّكنى والنَّفقة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 325.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 334.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 159.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 325.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 159.

واجبتَين لكلِّ مطلَّقة[1]؛ إذ "ليس فيما تقدَّم من الكلام ما يصلُح لأنْ يعود عليه هذا الضّمير إلّا لفظ النّساء وإلّا لفظ (أولات الأحمال)، ولكنْ لم يقل أحد بأنَّ الإسكان خاصٌّ بالمعتدّات الحوامل، فإنَّه يُنافي قوله تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، فتعيَّن عود الضَّمير إلى النّساء المطلَّقات كُلِّهنّ، وبذلك يشمل المطلَّقة الرَّجعية والبائنة والحاملَ؛ لِما علمتَه في أوّل السّورة من إرادة الرّجعية والبائنة من لفظ: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وجمهور أهل العلم قائلون بوجوب السّكنى لهنّ جميعًا"[2].

معاني ﴿مِنۡ﴾ في السّياق ودلالاتُها:

القرب في السَّكن مظنّة التَّفقُّد والرّعاية

جاءت ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ حاملةً عددًا من الاتّجاهات، فهي دالَّة على التَّبعيض، أي: في بعضِ ما سكنتُم، ويُؤخذ منه أنّ المسكن صالحٌ للتَّبعيض بحسب عُرف السّكنى، مع تجنُّب التَّقارب في المبيت؛ إنْ كانت غيرَ رجعيَّة، فيُؤْخَذ منه أنَّه إن لم يَسَعْهُما؛ خرجَ الزَّوج المُطلِّق[3]، وعلى التَّبعيضيَّة يكونُ مُبَعَّضُها محذوفًا، معناه: أسكنوهنّ مكانًا من حيث سكنتُم، أي: بعضَ مكانِ سُكناكم، كقوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: 30]، أي: بعض أبصارِهم، وهذا يعني أنَّه إن لم يكن إلّا بيت واحد، فأسكنها في بعض جوانبِه؛ جازَ، ويجوز أنْ تكون على مذهب الكوفيّين صلةً، والمعنى: (أسكنوهنّ حيث سكنتم)، فيكون الظَّرف متعلِّقًا بـ ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾، ويصحّ أنْ تكون ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية، فتتعلّق بما بعدها بالفعل ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾[4]، ومعنى ابتداء الغاية: معنى متلبّس بـ (من)، وإدخال (مِنْ) في النّظم للدّلالة على قربها منكم؛ ليسهلَ تفقُّدُها والحفاظ عليها وقضاءُ حوائجِها[5].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 478.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 325.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 327.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 118.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 159.

دلالة الظَّرف ﴿حَيۡثُ﴾ في الآية:

السُّكنى حقٌّ للمطلَّقة مراعاةً لوَحْشَتِها وانكسارِ قَلْبِها

دلّتْ ﴿حَيۡثُ﴾ على الظَّرفيّة المكانيّة هنا، أي: في البيوت التي تسكنونَها، أي: لا يُكلَّف المُطَلِّق بمكان للمطلَّقة غيرِ بيتِه، ولا يمنعها السُّكنى فيهِ، وهذا تأكيدٌ لقوله: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، فإذا كان المَسكن لا يسع مَبيتَيْن متفرّقين؛ خرج المُطلِّق منه، وبقيت المطلَّقة[1]، وفي هذا عدمُ تكليفِ النّفس فوق طاقتها، وقد يكون ذلك سببًا لعودة الإيناس مرَّةً أُخرى فيما تصلُح له العودة، ويُزاد على ما سبق أنَّ الظّرفيَّة تعني الإحاطةَ والشمول كـ (في)، وفي هذا إشارة إلى تكريم المرأة والحفاوة بها في أشدِّ لحظات الحياة، ففي الأمرِ معاشرةٌ ومفارقة بالمعروف على الدّوام.

دلالةُ الموقع النّحويّ لقوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾:

تَعلَّق شبهُ الجملة بالفعل ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾، وهذا التَّعلّقُ يقتضي أن تكونَ ﴿مِنۡ﴾ دالَّةً على ابتداء الغايَة[2]، وفي الابتداء إشارةٌ إلى الاعتناء بالسُّكنى على أيٍّ وجهٍ كانت.

بلاغةُ المجاز في ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾:

السَّكن حقٌّ أصيل للمرأة

في قول الله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ مجازٌ على طريقةِ الاستعارة التّصريحيَّة التّبعية في الحرف ﴿مِنۡ﴾؛ لقوّة هذا الحَرْفِ؛ لذا دخَل على ما لم يدخل عليه غيرُه، بدخوله على الظَّرف ﴿حَيۡثُ﴾، وكأنَّ في الحرف ﴿مِنۡ﴾ دلالةَ (في) الدّالِّ على الظّرفيّة بالإحاطة، وفيهِ مَعْنى التَّمكين وتثبيت حقِّ المرأة في السَّكن؛ لأنَّ الأمر في ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ على الوجوب، فجاء الواجب مقتَرنًا بأقوى حروف الجرِّ الدّال على التَّمكّن وضرورته، فأفادَ الحرفُ ﴿مِنۡ﴾ التَّبعيضَ وابتداءَ الغاية على الأصالةِ، والظّرفيّة على التّبعيّة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 326.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 118.

دلالة التّعبير بلفظ السّكنى:

دلّ التّعبير بفعل السّكنى في قوله: ﴿سَكَنتُم﴾ على أمرين، **الأوّل:** مطابقةُ فعلِ الأمر ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وملاءَمَتُه. **والآخر:** أنّه مأخوذ من معنى السَّكن والهدوء ومحاولة إعادة الطّمأنينة إلى قلب المُطَلَّقة، فقد يكون السَّكن مدعاةً لإرجاعها؛ إن كانت بائنًا بينونةً صُغرى، ثُمَّ إنّ في السَّكن إشارةً إلى التّكريم وإزالة الإيحاش من قلوبهنّ، وفيه إلماحَة إلى غلبَةِ المَعْروفِ في أشدِّ لحظات الحياة، فالهمزةُ للتّعديةِ، وفيها معنى الإلزام والجبر، وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المفعولَ الثّانيَ محذوفٌ في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ أي: مكانًا[1]، والحذف اختصارًا واقتصارًا للعِلْم بالمفعولِ.

في السَّكن تكريم للنّساء، وإزالة الإيحاش من قلوبهِنَّ

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ وقعت مع مجرورها بدلًا مطابقًا من قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾، والبدل يطابق المُبْدَل منه، وفي هذا إشارة إلى أنَّ معانيَ (من) هنا هي المعاني التي سبقَت في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾، فهي ابتداءُ غايةٍ أو تبعيضيَّةٌ، ولا تكون صِلَةً؛ لأنَّها واجبة الذّكر على اعتبار البدليّة التي يُعاد فيها العامل وجوبًا، وفي التَّكرار إلماحةٌ إلى الاهتمام بسُكنى المرأة بالوسائل المتاحة كافَّةً.

سكنى المرأة واجبٌ بحسب السَّعة

بلاغةُ توجيهِ القِراءات القُرآنيّة في ﴿وُجْدِكُمْ﴾:

قرأ الجُمهورُ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بضمِّ الواو، وقرأ رَوْحٌ عن يعقوبَ: بكَسْرِها: ﴿مِّن وِجْدِكُمْ﴾[2]، وقرئ في الشاذِّ بالفتح[3]؛ وهي لغاتٌ ثلاثٌ، فالكسرُ بمعنى: الوُسْع، والوَجد - بالفتح - يُسْتَعمَل في الحزن والغضب والحبّ، والوُجْدُ - بالضَّمِّ -: الغِنى والقدرة، يقال: افتقر الرَّجل بعد وُجْدٍ، وفي التَّعبير بالوجْد بقراءاته الثَّلاث إلى حالات

الإشارةُ إلى حالات الموقف كافَّةً في العدّة، مِن ضيق وحُبٍّ وسَعة وغضب

(1) محمد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 4/ 130.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 388.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 357.

الموقف أجمعها، ففي الموقف: الحزنُ والغضَب والحبّ والضّيق والغنى والقدرة، فجاءت القراءاتُ الثّلاث جامعةً لملامح الموقف المعقَّدة، ويعلّق البقاعيُّ على علّة التّعبير بـ ﴿وُجْدِكُمْ﴾ قائلًا: "ولمّا كان الإنسان ربّما سكن في ماضي الزّمان ما لا يقدر عليه الآن؛ قال مبيِّنًا للمَسْكَن المأمور به، مُبْقيًا للموادَدَة بعدم التّكليف بما يشقّ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾، أي: سعَتِكُم وطاقَتِكم بإجارةٍ أو ملك أو إعارة حتّى تنقضيَ العدّة بحمل كانت أو غيره"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾:

نفي الشّنآن وعدم الإضرار في كلِّ زمان ومكان

الواوُ في قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، دالَّةٌ على مُطلَق الجمع بين الأمر والنَّهي، ففي الجملتين الإنشائيَّتين إيجابُ السُّكنى وعدم المضارّة؛ لأنَّ الإسكان قد يكون مع الشَّنآن والكراهيَّة، فكان النَّهي هنا دالًّا على عدم الإضرار في كلِّ زمان ومكان[2]، وعلى هذا فيكونُ بين الجملتَيْن توسُّطٌ بين الكمالَيْن؛ لاتِّحادِهما إنشاءً، ولما بينَهما من التَّناسُبِ لفظًا ومَعْنًى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فلاشتراكِهما في الفعليَّةِ، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما - وهو واوُ الجماعَةِ العائدَةُ إلى المُطلِّقين - وأمّا في المَعْنى؛ فلما فيه من الأمْرِ بمصالِحَ تعودُ على المُطلَّقَةِ.

دلالةُ النّهيِ في الفعل وبلاغتُه:

الإضرار بالمطلّقات منهيٌّ عنه بأيّة وسيلة كانت

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ إتباعُ الأمر بإسكان المطلَّقات بالنَّهي عن الإضرار بهِنَّ في شيءٍ مِنْ مُدَّة العدَّة، وفي ذلك فائدةٌ، وهي البُعْد عن ضيق المحلّ أو التَّقتير في الإنفاق أو مراجعةٍ يعقُبُها تطليقٌ لتَطْويل العدَّة عليهنَّ؛ قصدًا للنِّكاية والتَّشفّي، أو للإلْجاء إلى افتِدائها من مراجعتِهِ بخُلْعٍ، وفي النَّهي تحذيرٌ مِنَ اللَّعب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 159.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 159.

بآيات اللّه تَعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: 231][1]، وفي التَّعبير بفعل المضارّة مبالغة، فالمُضارَّة: الإضرار القويُّ، فكأنّ المبالغة راجعةٌ إلى النَّهي لا إلى المنهيِّ عنه، أي: هو نهي شديد، كالمبالغة في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، في أنَّها مبالغة في النَّفي[2]، وقد يكون وجه المضارّة لمقصد حسنٍ بأن يكون تأديبًا لأمرٍ بمعروف؛ ليُتَوَصّل بصورةِ شرٍّ قليلٍ ظاهرٍ إلى خير كثيرٍ[3].

معنى اللّام في ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾:

النَّهي عن الإضرار بالمطلَّقات وإن كان تضييقًا

اللّام في ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾؛ لتعليل الإضرارِ، وهو قيدٌ جرى على غالِب ما يعرِض للمُطَلّقين من مقاصد أهل الجاهليّة، كما تقرّر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ [البقرة: 231]، وإلّا فإنَّ الإضرار بالمطلّقات منهيٌّ عنه، وإن لم يكن لقصد التَّضييق عليهنّ[4]، فكأنَّ الجملة التّعليليَّة تأكيدٌ لنفي كلِّ إضرارٍ ولو بالتَّضييق عليهنَّ.

بلاغةُ الاستعارة في الفعل ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾:

التَّضييق جامعٌ كلَّ معاني الحرَج والأذى

المراد بالتَّضييق: التَّضييقُ المجازيُّ، وهو الحرَج والأذى[5]، ففي اللَّفظة استعارةٌ تصريحيَّة، بتشبيه الحرج والأذى بالضّيق، مع حذف المشبّه، والتّصريح بالمشبّه به؛ لبيان قُبح التّضييق وإظهاره جامعًا كلَّ معاني الحرَجِ والأذى.

نكتة تعدية فعلِ التّضييق بحرف الاستعلاءِ:

غياب التَّقوى مدعاةٌ للظُّلم والقهر

دلَّ حرفُ الجرِّ (على) على الاستعلاءِ، والاستعلاءُ يلزم منه القدرةُ والقهر، فأشار حرف الجرِّ إلى الهَيمنة والسّيطرة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 327.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 160.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 327.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 327.

المرأة المطلّقة، والقدرةُ داعيَةٌ إلى الظُّلم إن غابت التَّقوى، فكان الحرفُ مشيرًا إلى بيان درجةٍ استعلائيَّة للرَّجل على المرأة، وقد جاء الاستعلاء في سياق التَّقوى؛ لئلّا يظلم الرَّجل المرأة بأيّ صورةٍ مِنْ صوَر الظُّلم.

نكتة حذف مفعولِ ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾:

إبـراز قيمة اجتثاثِ الضّيق في العلاقات الأسريّة

حُذِف مفعولُ ﴿لِتُضَيِّقُواْ﴾، وقدَّره العلماءُ بالمساكن أو النَّفقة[1]، وفي الحذفِ دليلُ السَّعة في المَعْنى، فالمعنى أنَّه لا ينبغي أن يحدُث أيُّ أمر يتعلَّق بالضّيق مهما صغُر، سواء أكان في المساكِن أم النَّفقات أم غيرِهما، فعنوانُ الضّيق يجب أن يُجتَثَّ من العلاقات الأسريّة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِن كُنَّ﴾:

تفصيلُ أحكام المُطَلَّقات الحواملِ

جاءت الواو عاطفةً على ما قبلها[2]، فهي لمطلق الجمع؛ تفصيلًا لأحكام المطلَّقات، وللإشارة إلى خصوصيَّة الحَمْل والإرضاع.

بلاغةُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

إزالَةُ غموض الحُكْم ودَفْعُ تَوَهُّم غيرِ المُراد

دلّت الجملةُ الشّرطيَّة على شدّة تعلُّق الجوابِ بالشَّرط، فالإنفاقُ لازمٌ لِلمُطَلَّقة الحامِلِ لِترتُّب جوابِ الشَّرط على الشَّرط، والأسلوبُ الشَّرطيُّ داعٍ إلى استِشْرافِ الجواب وانتظارِه، فذِكْرُ ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ يتطلّب انتظارَ حُكْم ما بعدَهُ، فيأتي الجوابُ لإزالة غموضِ الحُكْم المُتَعَلّق بالمرأة الحامِلِ، وقَد ذكرَ بعضُ أهل العلم في علَّة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة أنَّ فائِدَتَهُ أنّ مدَّة الحَمْل ربَّما طالت، فظَنَّ ظانّ أنّ النَّفقة تَسْقُط؛ إذا مَضى مِقْدارُ عِدَّة الحائِل[3]، فكان الشَّرط موضِّحًا ورافِعًا اللَّبْسَ عن الجملةِ.

الحَمل علّة لوجوبِ النَّفقة، وهي مستوعبةٌ جميعَ أمَدِ الحَمْل

وفيه أيضًا بيانُ أنّ حكمَ النّفقة قَبْلَ الوضع مخالفٌ لحُكْمِ النّفقة

---

(1) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 124.

(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 124.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 559.

بعد الوضع، وهذا الشّرط لا يدلّ على سقوط نفقةِ سائرِ المعتدّات[1]، وفي الشَّرط كذلك تعلُّق الحكم بعينِ موصوفه، فالظّاهر أنَّ تلك الصِّفة علَّةٌ بدلالةِ الشَّرط، فصار الحملُ علّةً لوجوب النَّفقة[2]، أو أنّ الشَّرط ليس له مفهومٌ، وإنَّما سيقَ لاستيعابِ الإنفاقِ جميعَ أمَدِ الحَمْل[3].

نكتة الاشتراط بـ (إن) دون (إذا):

حـالُ المطلَّقة الحامل صورةٌ مِن حالاتٍ كثيرةٍ، وعلى المطلِّق أن يتّقيَ الله تعالى في الإنفاق

في التَّعبير بـ (إنْ) دون (إذا) إشارةٌ إلى فنّ الإلهاب والتّهييج لكلّ مطلّق بأن يتَّقي الله سُبحانَهُ بالإنفاق على المرأة الحامل، كأنَّه يشبه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٩١﴾ [البقرة: 91]، وهم مؤمنون بالفعل، وفي التّعبير بـ (إن) دون (إذا) الإشارة إلى أنَّ حالات النِّساء المطلّقات كثيرةٌ، وهذه حالٌ من تلك الحالاتِ في الأحكام.

دلالة المركّب الإضافيّ ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾:

الـدّلالـةُ على عـمـومِ ذواتِ الحَمْلِ

التَّركيب الإضافيُّ في قوله: ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ معناه: ذواتِ حَبْلٍ، أي: حاملات، وفي الإضافةِ دلالةٌ على العمومِ، أي: سواءٌ أكان الحملُ قريبَ الوضْعِ أم بَعيدَهُ.

نكتةُ إفرادِ لفظَة ﴿حَمۡلٖ﴾:

الوضع تخفيفٌ للمرأة وإنهاءٌ لمعاناتها

لإفرادِ لفظَة ﴿حَمۡلٖ﴾ نُكَتٌ، إحداها: التَّناسُب بينَ إفراد اللَّفظة هُنا وإفرادها في قوله: ﴿يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾. والثّانية: أنَّ كلَّ امرأةٍ مختصّة بحَمْلِها هي لا أحمال الأخريات، فانتهاءُ كلّ امرأة من عدّتها بوضعِ حَمْلِها هي لا حملها وحمل الأخرياتِ، والإفراد هو الدّالُّ على ذلك لا الجمع. والثّالثة: في الإفرادِ إشارة إلى تخفيفٍ غيرِ موجود في الجمع، وكأنَّ اللَّفظة توحي بانتهاء المعاناة تمامًا، أمّا الجمع؛ فلا يحمِل هذه الدّلالة، وإنَّما يحمل دلالةَ تعدُّد الأثقال.

(1) عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر: 2/ 644.
(2) الشيرازي، اللمع في أصول الفقه، ص: 110.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 328.

معنى الفاءِ في ﴿فَأَنفِقُواْ﴾ ودلالةُ الأمرِ:

رعايَةُ الأمِّ وجنينِها والالتزامِ بما يحتاجانِه من اهتمامٍ

جاءت الفاءُ رابطةً لأسلوب الشَّرط في قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾، ووجودُها واجبٌ لاقْتِران الجواب بفعلٍ طلبيٍّ، وفي الفاء الرّابطة دلالةٌ على المُسارعة والمبادرة إلى الإنفاق، بدلالة أسلوبِ الأمْرِ المفيدِ الوجوبَ، وفي هذا رعايةٌ للأمِّ وجنينِها، والالتزام بما يتَطَلّبانِه مِن رعاية واهتمامٍ.

دلالةُ حَذْفِ مفعولِ (أنفقوا):

العنايةُ بكلِّ شؤون المرأةِ وإن دقّ أو صَغُرَ من أمارات التَّقوى

دلّ الحذفُ هُنا على اتِّساع النَّفقة على قَدْرِ المُسْتَطاع، بحيثُ لا يبخل الزَّوج، ولا يشحّ بأيِّ متطلّباتٍ تحتاجُها المرأة الحاملُ؛ حثًّا له على الرِّعاية وعدم التَّرك، ويزادُ على ذلك أنَّ حذف المفعول فيهِ عنايةٌ بالفاعلِ وبالإنفاقِ مِن دونِ ارتباطٍ بالمُنفَق؛ إشارةً إلى الاعتناءِ بِمَعاني التَّقوى وقيمَتِها، فمِن دلالات التَّقوى الاهتمامُ بكُلِّ شأنٍ مِن شؤون المرأةِ، فكان في الحَذْفِ اتِّساعٌ وتركيزٌ على الإنفاقِ دون مُتَعَلّقها؛ كي يدلّ على أنَّ الإنفاق والإكرامَ صِفَتان ثابِتَتان في المؤمن صاحبِ التَّقوى، وإن كان الظَّرف حالِكًا.

نكتةُ تعدية فعلِ الإنفاق بـ (على):

تَقْتَضي المصلحة رعايةَ الزّوج لِطليقَته حتّى تضع حَمْلَها

في تعدية فعلِ الإنفاق بـ (على) إشارةٌ إلى قوامةِ الرَّجل واستعلائه بما أنفقَ على زوجتِه أو طليقته، فهو راعي طليقته - فضلًا عن زوجتِه الباقيةِ في عِصْمَتِه - حتّى تضعَ حَمْلَها؛ فلا انفصام في العلاقات؛ لأنَّ المصلحة تُحتِّم إكمال الإنفاق؛ رعايةً للماضي المتمثّل في الزّوجة والمستقبل المتمثّل في الجنينِ.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

عِلَّة الإنفاقِ الاعتدادُ بوَضْعِ الحَمْلِ

دلَّت ﴿حَتَّىٰ﴾ على الغايةِ والتَّعليل، أي: غايَة الإنْفاق، والمَعْنى أنَّ الإنفاقَ كائنٌ للمَرْأةِ المطلّقة حتّى تَضَعَ حَمْلَها، فإنَّ العِلَّة في

الإنفاق الاعتدادُ بالحمل[1]، فمعنى ﴿حَتَّىٰ﴾: "إلى غايةٍ، هيَ وضعُهُنَّ للحَمْلِ"[2].

سِرُّ إيثار الفِعْلِ المُضارع: ﴿يَضَعْنَ﴾:

الحملُ عامٌّ لجميعِ ما في البَطْنِ، والولادة خاصَّة بما يكون ولدًا

في التَّعبيرِ بالفعل المُضارع استمراريَّةٌ لِلحدَث وتَطاوُله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، مع ثباتِ الحُكم وتجدُّده، والتَّعبير بالوَضْعِ لا بالولادة دالٌّ على أنّ المرأة إذا وضعت ما وضعت مِن علقةٍ أو مُضْغَة حلَّتْ، ولو قالَ: (يلدن)؛ لدلَّ على أنَّها لا تحلّ إلّا بما يكون ولدًا، كما قال الشّافعيُّ وأبو حنيفة[3]، فكان التَّعبير بـ ﴿يَضَعْنَ﴾ عامًّا للولَدِ وغيرِه، بخلاف (يَلِدْن) فهو خاصٌّ بالولدِ وحدَهُ.

نكتةُ إضافة الحَمْلِ إلى الضَّمير:

الحامل شديدةُ الالتِصاقِ بجَنينِها

أُضيف الحَمْلُ إلى الضَّمير الرّاجِع إلى ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾؛ لتُناسِبَ الآية الرّابعة من السّورة ذاتِها ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾، وفي الإضافةِ أيضًا تنبيهٌ على شدَّة اتِّصال الحَمْلِ بالحامِلِ[4]، فهو يَخُصُّها وحدَها لا غيرها، وفي هذا إشعارٌ بتعلُّقِ أولاتِ الأحمال بحَمْلِهِنَّ.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾:

الإرضاعُ يَلي انقضاءَ الحَمْلِ بالوَضْعِ

جاءت الفاءُ عاطفةً على ما قبلها[5]؛ لبيانِ أحكام المعاملاتِ بينَ الرَّجل ومُطَلَّقتِه الحامل بعدَ تمام الحمْلِ والوضع، وكأنَّ الفاء تَطْوي أحداثًا لا داعيَ لذِكْرِها، وتقدير الكلام: حتّى يضَعْنَ حملَهُنَّ، فإنْ تَمَّ الحَمْلُ بالوضْعِ؛ فإنَّ الإرضاعَ هو التّالي، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 160.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 293.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 191.
(5) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 124.

بلاغَةُ التَّعبير بالجملةِ الشَّرْطيَّةِ:

ذِكْرُ جملةِ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾ يتطلَّب انتظارَ حكمِ ما بعده، فيأتي الجوابُ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾، فيكونُ فيه مِن التَّشويق والجذب ما فيه، فضلًا عَن التَّناسب الحاصل بين هذا الشَّرط وما سبَقَهُ ﴿وَإِن كُنَّ﴾ الآيةَ، ويُزادُ على ذلك مِن ارتباط الجواب بالشَّرط أنَّ الإرضاع عملٌ في الذِّمَّة، فإذا سَلَّمَتْهُ؛ وجبَ إيتاؤُها أُجْرَتَها[1].

الإرضـاعُ عمـلٌ في الذِّمَّة، فإذا أكملت المرأةُ المُهِمَّة؛ وجَبَ إيتاؤُها أُجْرَتَها

نكتةُ الاشتراطِ بـ (إن) دون (إذا):

أُشير بأداةِ الشَّكِّ (إن) إلى أنَّه لا يجب على المطلَّقة الإرضاعُ[2]، إذا كان الطِّفْلُ يَقْبَلُ غيرَها، بخلاف ما لو لَمْ يَقْبَل من المراضِع غيرَها؛ فإنَّه يتعيَّنُ عليها بأجرة مِثْلِها، وقد يُشير حرفُ الشَّكِّ إلى قلَّة مَن تَرْفُضُ إرضاعَ وليدِها، فكان التَّعبير بـ (إن) هو الأنسَبَ من (إذا)، وأيضًا فإنَّ في التَّعبير بالشَّرط (إن) إلهابًا للزّوجين بضَرورةِ تَحَمُّل المسؤوليَّة وتَبِعاتها، فالرَّجُلُ بالإنفاق وعدمِ التَّقتير وإيتائها أجرَها، والمرأةُ بالإرضاع.

الإرضـاعُ غير واجبٍ على المرأةِ المُطَلَّقةِ

دلالةُ التّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿أَرْضَعْنَ﴾:

دلّ التّعبير بالفعل الماضي ﴿أَرْضَعْنَ﴾ على كثرةِ مَن تقبَلُ إرضاعَ وليدِها، فالماضي دالٌّ على تحقُّق الأمْرِ وثَباتِه، ووقوعُ الفِعْلِ في التَّركيب الشَّرطيِّ حوَّل دلالتَه إلى الاستقبال مع دلالة الماضي على التَّحقُّق، فضَمَّت الجملةُ زمَنَيْن: زمنَ الماضي، وزمنَ المستقبلِ؛ إشارةً إلى أنَّ المسؤوليَّة الأدبيّة قائمَةٌ في الماضي معَ المُطَلّقات، وفي المستقبل مع المطلّقة وجَنينِها، وهو دليلٌ على أنَّ اللَّبَن وإن خُلِقَ لمكانِ الولَدِ؛ فهو ملكٌ لها، وإلّا لم يكُن لها أن تأخُذَ الأجرَ، وفيه دليلٌ على أنَّ حقَّ الرّضاع والنَّفقة على الأزواج في حقِّ الأولادِ وحقّ

مـدارُ المسؤوليَّة قـائِمٌ في الماضي مع المُطَلّقات، وفي المستقبل مع المُطَلّقة وجنينها

(1) الزركشي، شرح الزركشي على مختصر الخرقي: 4/ 223.

(2) البقاعي نظم الدرر: 20/ 160.

الإمساك والحضانة والكفالة على الزّوجات، وإلّا لكانَ لَها بعض الأجر دونَ الكُلّ[1].

معنى اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾:

إرْضاعُ الولَدِ بعدَ الفِراق كالإنفاقِ، وهوَ حقٌّ على الأبِ وحدَه

دلّت اللّامُ في ﴿لَكُمۡ﴾ على التَّخصيص أو الأجْليّة، أي: أرضعن مِن أجْلِكُم، وفي حَرْف الجرِّ (اللّام) مع الضّمير دلالةٌ على أنَّ نسَبَ الطِّفل للرِّجال[2] لا للنِّساء، يقول ابن عاشور: "وأفْهَمَ قولُه: ﴿لَكُمۡ﴾ أنَّ إرضاعَ الولد بعد الفراق حقٌّ على الأبِ وحدَهُ؛ لأنَّه كالإنفاقِ، والأمّ تُرْضِعُ ولدَها في العِصْمَة؛ تَبَعًا لإنفاق أبيه عَلَيْها"[3]، وفي التَّعبير بشِبْهِ الجُمْلَة ﴿لَكُمۡ﴾ إفادَةُ العِنايَة بالمُخاطَبين، فهَذِه الأحكام الشَّرعيّة يُشَرِّعُها اللّهُ تَعالى لإصلاح أحوالِ عِبادِهِ وإسْعادِهِم[4].

نكتَةُ حذفِ مَفْعولِ الإرضاع:

الإرضاعُ غَريزَةٌ في الوالدةِ يَنْدُرُ الانفكاكُ عَنْها

حُذِفَ مفعول الفعل ﴿أَرۡضَعۡنَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، فالتَّقدير: أرْضَعْنَ المولودَ، ويجوزُ أن يكون الحذفُ هنا؛ للإشارة إلى أنَّ عمليَّةَ الإرضاع سِمَةٌ وغريزَةٌ في الوالدة، وقلَّ من تنفكُّ عن ذلك، ويُزاد على ذلك أنّ الحذفَ غَرَضُهُ العُمومُ، والتَّقدير: فإن أرضعْنَ لَكُم ولدًا من غَيْرِهِنَّ أو منهُنَّ[5].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾:

التَّعجيل في إيتاء الأجيرِ أجرَهُ

جاءت الفاء في سياق الجملةِ الشَّرطية لسبَبَيْن: أحدهما: رَبْطُ أوصالِ الكلام حتّى يَلْتَئِمَ في سلسلةٍ واحدة، وهي سلسلة الشّرط، ووجودُ الفاءِ واجبٌ هنا؛ لأنَّ الجوابَ جملةٌ طلَبيَّة. والآخر: إظهارُ السُّرعة والمبادرة في إيتاءِ الأجور بمجرّد الانتهاءِ مِن العمَلِ والفراغِ منْهُ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 564.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 160.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 329.
(4) مجموعة من الباحثين، موسوعة الفروق اللغوية: 7/ 27.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 559.

دلالَةُ الأمْرِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾:

حُصولُ المُرْضِعَة على أجْرِها استحقاقٌ واجبٌ أداؤُه

دلَّ الأمر في ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ على الوجوب والإلزام، وفي هذا ضمانٌ لحقّ المرأة المرضعة في حصولها على أجرها، ويُلاحَظ في دلالة الأمر بالإيتاءِ إيصالُ الشَّيء إلى منتهاهُ[1]، وفي هذا مِنَ التَّحرّي في إيفاءِ الحقّ ما فيه.

سِرُّ إيثار التَّعبير بالإيتاءِ دونَ الإعطاء:

الأصْلُ في إيفاءِ الأُجورِ أن تكونَ وافيَةً وعَن طيبِ نَفْسٍ

أوثِر التَّعبير بالإيتاءِ دون الإعطاء؛ لأنَّ الإيتاءَ يكونُ عَن طيبِ نَفْسٍ، أمّا الإعطاءُ فَقَد يكونُ عَن طيب نَفْسٍ وعَن كُرْه، وفي الإيتاء أيضًا قوَّةٌ في إثباتِ المفعول ليسَت للإعطاء؛ لِذا أُمِرَ المُسْلِمون بإيتاء الزَّكاة لا إعطائها، وكذلك لا يكونُ الإيتاءُ إلّا للشَّيء الكثير والعظيم الشَّأنِ، في حين يكونُ الإعطاءُ للشَّيء القليل أو الزَّهيد إلّا إذا اقْتَرَن بما دلَّ على الكثرةِ، فالإيتاءُ أبلَغُ في هذا المَقام[2].

نكتَةُ إضافَةِ الأُجورِ إلى ضَميرِهِنَّ:

ما يُدفعُ للمرأةِ حَقٌّ أصيلٌ لَهُنّ وليس تَفَضُّلًا عليهِنّ

تتمثَّل نُكْتَةُ إضافَةِ الأجورِ إلى ضمير النِّساءِ في بيانِ أحقّيَّة المرأة في هذا الأجْرِ، وأنَّ ما يَدْفَعونَهُ ليسَ تفضُّلًا عليهنَّ، وإنَّما هو من حقِّهنَّ؛ لأنَّ اللَّبن وإن خُلِقَ لمكانِ الولد؛ فهو مِلْكٌ لها، فكان الأجرُ جرّاء ما تَفْعَلُ، والأجر مفردٌ، وقد جُمِعَ، فقيل هنا: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أو أنّه مصدرٌ بمعنى اسْمِ المفعولِ؛ ولذلك جُمِعَ في قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ [آل عمران: 185]، وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ [فاطر: 30]، وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[3].

دلالةُ الأمر في ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾، وبيانُ مرجِعِ الضَّمير فيه:

يدلّ الأمر في الفعل ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ على وجوب التَّناصح بين الزَّوجين،

(1) الخلوتي، روح البيان: 3/ 211.

(2) مجموعة مؤلفين، موسوعة الفروق اللغوية: 7/ 40، 41، بتصرف.

(3) عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 5/ 593.

ولو بعدَ الطَّلاق، وأن يكون بينَهُما العدلُ لا الشُّحُّ والأَثَرَة والطَّمع، وفي هذا تطهير لقلوب الزَّوجين مِن الانتصار للنَّفس والانتقام من الآخر؛ لِما سَلَفَ مِن سوء عِشْرَةٍ[1]، فالائتمارُ: التَّشاور والتَّداول في النَّظر، وأصلهُ مُطاوِعُ أمَرِه؛ لأنَّ المُتَشاوِرَيْن يأمُر أحدُهُما الآخرَ، فيَأْتَمِرُ الآخرُ بِما أمَرَهُ[2].

التَّناصح واجب بين الزَّوجين قبل الطَّلاق وبعده

والضَّمير في الفعل ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ خطابٌ للرِّجال والنِّساء الواقع بينَهُم الطَّلاق؛ ليتشاوروا في أمْرِ إرضاعِ الأمِّ ولدَها، وما يبذلُهُ الأبُ لَها مِن الأُجْرَةِ على ذَلِكَ[3].

دلالة الظَّرفيَّة ﴿بَيۡنَكُم﴾:

دلّ الظَّرف ﴿بَيۡنَكُم﴾ على أهمّيَّة الإرضاع، ورُغِّب فيه بالظَّرف ﴿بَيۡنَكُم﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الخَيْرَ لا يتعدّاهُما وحْدَهُما، ففيه زيادَةُ رغبَةٍ[4] في تيسيرِ شأنِ الإرضاع.

أمْرُ الإرضاع مخصوصٌ بالزَّوجين

عِلَّة تنكيرِ لفظةِ (معروف):

جاءت لفظة (معروف) في السّياق؛ تأكيدًا للائْتِمار بالمَعْروف، وفي تنكيرِه تحقيقٌ على الأمَّة بالرِّضا بالمُسْتَطاع، وهو مع الخلْقِ بالإنصافِ، ومع النَّفس بالخلافِ، ومع الحقِّ بالاعترافِ[5].

دلالَةُ قَيْدِ الائْتِمار بِمَعْروفٍ:

قُيِّدَ الائتمارُ بالمعروفِ، ومعناه: وائْتَمِروا ائتمارًا مُلابِسًا لِما هو المعروفُ في مثل حالِهم وقَوْمِهم، أي: معتاد مقبول، فلا يَشْتَطُّ الأبُ في الشّحِّ، ولا تَشْتَطُّ الأمُّ في الحِرص[6]، ثُمَّ إنّ المرادَ مِنَ المعروفِ

إبرازُ قيمَةِ المَعْروفِ المُعْتادِ دَحْرٌ للاشتِطاط من الأبِ والأمِّ

(1) عبد العزيز الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن: 4/ 2164.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 329.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 329.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 329.

المستحسَنُ المَقْبولُ شَرْعًا مِن إعطاءِ الأجرةِ الكاملةِ والزّيادة عليها مراعاةً للمُروءَة[1].

بلاغَةُ التَّعْبير بالجُمْلَة الشَّرْطيّة:

التَّعاسُر في أُجْرَة الرَّضاع مدعاةٌ لاسْتِرْضاعِ امرأةٍ أُخْرى

الشَّرطُ في الآيةِ يُفيدُ أنَّ الأُمَّ إنْ تشَطَّطت على الأبِ في أجرة الرَّضاع، وبالغت في الطَّلب؛ فلِلأبِ أن يَسْتَرْضِع لولَدِه امرأةً أُخْرى بِما هو أرفَقُ، ففي الشَّرطِ والجوابِ كمالُ ارتباطٍ[2]، وعبارة الشَّوكانيِّ: "﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾، أي: في أَجْرِ الرَّضاع، فأبى الزَّوج أن يُعْطيَ الأمَّ الأجرَ، وأبتِ الأمُّ أن تُرْضِعَهُ إلّا بما تُريد من الأجر، ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾، أي: يَستَأْجِر مُرْضِعَةً أخرى تُرْضِعُ ولَدَهُ"[3]، وفي الشَّرط استِشْرافٌ للجَوابِ الذي يُتِمُّ معنى الكلام، ويُظْهِر المَعْنى تامًّا كامِلًا.

نكتَةُ الاشتراط بـ (إن) دون (إذا):

علـى الـزَّوجين تحمُّل المسؤوليّة، فمصلحة الطِّفل مقدَّمة

أُشير بأداة الشَّرطِ (إنْ) - المفيدةِ الشَّكَّ في وقوع مدخولِها - إلى أنَّ وجودَ مَن الغالِبُ عليه الشَّرُّ قليلٌ ونادِرٌ[4]، وفي التَّعبير بالشَّرط (إن) إلهابٌ للزَّوج وزَوْجَته بِضَرورَةِ تحمُّل المسؤوليّة وتجنُّب المُعاسَرَة، والذَّهاب إلى طريقِ المُياسَرَة.

دلالة التّعبير بـ ﴿تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ مادّةً وصيغَةً:

تَـرْكُ التَّعنُّت والتَّشدُّد ونَبْذ الخلاف سبيلٌ إلى الاتِّفاق

التَّعاسر صدورُ العُسْرِ من الجانِبَيْن، وهو تفاعُلٌ مِن قَوْلِك: عَسَرْتُ فُلانًا؛ إذا أخذتَه على عُسْرِه، ويقال: تعاسَرَ البيِّعان؛ إذا لم يَتَّفقا، فمعنى ﴿تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾: اشتدَّ الخلافُ بينَكُم، ولَم تَرْجِعوا إلى وفاق، أي: فلا يَبْقى الوَلَدُ دونَ

(1) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 424.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 73.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 293.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.

رضاعَةٍ[1]، وفي إسنادِ التَّعاسُر إلى الأبوَيْنِ، وإن كان ذلك مِن أحَدِ الطَّرفين؛ إشارَةٌ إلى أنَّ هذا التَّعاسر الذي وقع محسوبٌ عليهما معًا؛ لأنَّه إذا كان التَّعنُّت والتَّشدُّد من أحدِهما؛ فإنَّه كان من المُمْكن - لو تلطَّف الطَّرف الآخر، ويُقابل التَّعنُّت بمثلِهِ - أن يتمَّ الاتِّفاق، ويقع التَّياسُر بينَهُما؛ ولهذا فَهُما شَريكانِ في التَّعاسُر الذي يقَعُ بينَهُما[2].

بلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبير بـ ﴿تَعَاسَرۡتُمۡ﴾:

يُقال: تعاسَرَ القومُ؛ إذا تحرّوا تَعْسير الأَمْرِ، فـ ﴿تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ معناهُ: تَضايَقْتُم[3]، وفي تحرّي التَّعاسُر في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ استعارَةٌ، وكأنَّ التَّعاسُر شيءٌ ماديٌّ يُطْلَبُ لذاتِه، وفيه ما فيهِ مِن تَقْبيحِ التَّعاسُر والحِرْصِ عليهِ.

الحِرْصُ على التَّعاسر مُقَبَّحٌ منبوذٌ

دلالَةُ السّين في فِعْلِ الرّضاع:

سين الاستقبالِ في الفعلِ ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾ مستعملٌ في معنى التَّأكيد، كقوله: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: 98]، وهذا المعنى ناشِئٌ عَن جَعْلِ علامة الاستقبالِ كنايَةً عَن تجدُّد ذلك الفعلِ في أزمنةِ المُسْتَقْبَل تحقيقًا لتَحْصيلِه[4]، وفي السّين سرعَةٌ ليسَت في (سوف)، وفيه إشارةٌ إلى ضرورةِ الإسْراع باستِئْجار مُرْضِعَة لمَصْلَحَة الابْنِ إن أبَتِ الأمُّ الرَّضاعَ، وذلك يقتضي أنَّ جملةَ ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾ خبرٌ بمَعْنى الأمْرِ، أي: فَليَسْتَرْضِعْ لولَدِه مرضعةً أُخرى[5].

الحثُّ على السُّرعة في استِئْجارِ المُرْضِع

دلالةُ تعلّق ﴿لَهُۥٓ﴾ بالفعل:

تعلُّق الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥٓ﴾ بالفِعْلِ ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾، والجملة بمُتَعَلِّقها خبَرٌ مستعمَلٌ كنايَةً عَن أمْرِ الأبِ باستِئْجار ظِئْر، أي:

في التَّعلُّق كنايَةٌ عنِ الأمْرِ باستِئْجار مُرْضِعٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1013.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 73.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.
(5) الحلبي، مختصر التفاسير: 3/ 378.

مرضع للطِّفل، بقرينة تعليقِ ﴿لَهُۥٓ﴾ بقوله: ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾[1]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾ إشارةٌ إلى الاهتمام بالمَوْلودِ بضَرورةِ عدَم التَّواني في استِئجار المُرْضِع، فالهاءُ عائدَةٌ على الصَّبيِّ، ويجوز عَوْدُها على الأبِ كقوله: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾.

نكتَةُ الالتفاتِ مِن الخِطاب للغَيْبَة:

الإشـــارةُ إلى ضَرورة المُياسَرة والاستِنان بسُنَّة الرَّسول ﷺ

سياق الآية: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ خطابٌ للزَّوجين، لكنَّه عدَلَ عن الخِطاب إلى الغيبة، فقال: ﴿لَهُۥٓ﴾، ولو جرى التَّعبير مِن دون التِفاتٍ؛ لكانَ: (فسترضع لكَ أُخْرى)، لكنَّه قال: ﴿لَهُۥٓ﴾، وعلَّة: "صَرْفِ الخِطاب إلى الغَيْبَة: الإيذانُ بأنَّ الأبَ ترَكَ الأَوْلى فيما هو جَديرٌ به مِن المُياسَرَة؛ لكونِه حقيقًا بأن يكون أوسعَ بطانًا وأعظمَ شأنًا من أن يُضَيّق عمّا ترضى به المرأةُ اسْتِنانًا به ﷺ في أنَّه: «ما خُيِّر بين أمرين إلّا اخْتارَ أيْسَرَهُما ما لَم يَكُن إثمًا»[2]، فالغَيْبَةُ لا تَخلو من مُعاتَبَة الأبِ أيضًا؛ إذ أُسْقِط في الجوابِ عَن حَيِّز شرَفِ الخِطابِ[3].

نُكْتةُ تنكيرِ ﴿أُخۡرَىٰ﴾:

تخصيصُ الأمِّ بالعتاب؛ لأنَّ المـبـذول من جِهَتِها - وهو لبَنُها - ليس مِمّا يُضَنُّ به عادةً

أفادَ تنكيرُ ﴿أُخۡرَىٰ﴾ على الإطلاقِ لا على العموم؛ لورودِه في سياق الإثباتِ، أي: مرضعة غيرُ الأمِّ، ويُغْني اللّهُ تَعالى عنها، وليس له إكراهها إلّا إذا لم يقبلْ ثَدْيَ غيرِها، وهذا الحكمُ لا يختصّ بالمطلقةِ بَل المنكوحة كذلك[4]، وفيه معاتبةٌ للأُمِّ على المُعاسرَة، كما تقول لمن تَسْتَقْضيه حاجةً فيتَوانى: سَيَقْضيها غيرُكَ؛ تُريد لَنْ تَبْقى غير مقضيَّة، فأنتَ ملومٌ[5]، وإنَّما خَصّ الأمَّ بالعِتاب؛ لأنَّ المَبْذولَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (6126)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2327)، وينظر: البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.

(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 38.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.

(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 559، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 38.

مِن جِهَتِها هو لبَنُها لولَدِها، وهو ليس بمالٍ ولا ممّا يُضَنُّ به في العُرْفِ، ولا سيّما مِن الأمِّ، والمبذول من جهة الأبِ هو المال، وهو مضنونٌ بهِ في العادة، فهي إذًا أجدَرُ باللَّوم وأحقُّ بالعَتْبِ(1).

بلاغة توالي الجمل الشّرطيّة في الآية الكريمة:

تعلُّق العمَلِ بالنَّتيجة والحثّ على تنفيذِ الأحكام

الملاحظ أنَّ كل آياتِ سورة الطَّلاق بَدْءًا مِن الآية الأولى حتّى الآية السّابعةِ - نهاية أحكام الأُسْرَةِ - تتضمَّن جملًا شَرْطيَّة، قائمة على السَّببِ والنَّتيجة، فناسبت هذه الآيةُ الآياتِ السّابقةَ عليها، وفي إقامة الآيات على الشَّرط والجوابِ إشارَةٌ إلى التَّعلّق بين الفِعْلِ ونتيجَتِه المُتَوَخّاة؛ جَلْبًا للعَمَل وتنفيذ أوامرِ اللّهِ تَعالى المُتَعَلِّقة بالإنفاق والرّضاعة وإيتاء الأجر، وفي الشَّرط والجوابِ جَذْبُ المُتَلَقّي؛ لانتظار الجوابِ الذي مِن خلالِه يَتِمُّ المعنى، ويَكْتَمِل، من خلال إعلاميَّة الجُمْلَة.

الفروقُ المعجميّة:

الوُجْد والاسْتِطاعَة والقُدْرَة والسَّعة والطّاقة:

تعدُّد دلالاتِ الوُجْدِ يجمَعُ ملامحَ موقفِ عِدَّةِ المُطَلَّقة المُعَقَّدة

الوُجد: التَّمكُّن، وقَدْر الغِنى، والسَّعةُ، والاستطاعة: أخصّ مِن القُدْرَة، فكلُّ مستطيع قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ بمستطيعٍ؛ لأنَّ الاستطاعة: اسمٌ لمعانٍ يتَمَكَّن بها الفاعلُ مِمّا يُريدُهُ مِن إحداثِ الفِعْلِ، وهيَ أربعَةُ أشياءَ: إرادته الفعلَ، وقدرتُه على الفعلِ بحيثُ لا يكون له مانعٌ منهُ، وعِلْمُه بالفعل، وتَهَيُّؤُ ما يتوقَّف عليه الفعلُ، ألا ترى أنَّه يقال: فلان قادرٌ على كذا، لكنَّه لا يُريدُه، أو يمنَعُهُ منهُ مانِعٌ، ونحو ذلكَ، فظهر أنَّ القدرة أعمُّ من الاستطاعة، والاستطاعةَ أخصُّ من القدرة(2)، أمّا السَّعة؛ فـ "تقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل، كالقدرة والجودِ ونحو ذلك، ففي المكان نحو قوله: ﴿إِنَّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 147.
(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 48.

﴿أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: 56]، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً﴾ [النساء: 97]، ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: 10]، وفي الحال قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، والوُسْعُ من القُدْرَة: ما يَفْضلُ عَن قدر المكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]؛ تنبيهًا على أنَّه يكلِّف عبدَه دونَ ما ينوءُ بِهِ قُدْرَته، وقيل: معناه يكلِّفه ما يُثْمِرُ له السَّعَة"[1]، والطّاقة غايةُ مَقْدرةِ القادِر واستفراغ وسْعِه في المقدور، يقال: هذا طاقتي، أي: قدر إمكاني[2]، وفي الوجد لغاتٌ ثلاثٌ؛ فالوِجْد - بالكسْرِ - بمعنى: الوُسْعِ، والوَجد - بالفَتْح - يُسْتَعْمل في الحزن والغضب والحبِّ، والوُجْدُ - بالضَّمِّ -: الغنى والقدرة، وفي هذا الموقف: حزنٌ وغضبٌ وحبٌّ وضيقٌ وغنًى وقدرةٌ.

الإساءَة والمَضَرَّة والعَضْل:

إيذاءُ المُطَلَّقات والتَّضييق عليهنّ مدّةَ العِدّة محرّمٌ

السّوء أيضًا: كلُّ ما يَقْبُح، والضُّرُّ: سوءُ الحال، والإساءَةُ قبيحَةٌ، وقد تكون المضرَّة حسنةً؛ إذا قُصد بها وجهٌ يَحْسُن، نحو المَضَرَّة بالضَّرب للتَّأديب، وبالكدِّ للتَّعلُّم والتَّعليم[3]، فـ"قد يكون وجهُ المُضارَّة لمقصدٍ حسن، بأن يكون تأديبًا لأمر بمعروف ليُتَوصَّل بصورةِ شرٍّ قليلٍ ظاهرٍ إلى خير كثير"[4]، أمّا العَضْلُ في التَّضييق الشَّديد؛ فهو كلُّ مَنْعٍ شَديدٍ؛ لذا يُقال: داءٌ عُضالٌ، أي: صَعْبُ البُرء[5]، ومن هُنا فاختيار لَفْظِ ﴿تُضَآرُّوهُنَّ﴾؛ لأنّ الآيَةَ حذّرت من إيذاء المطلّقات والإضْرار بهنّ مدّة العدّة تَضْييقًا أو نَقْصًا، بتَطْويلِ العدَّة وسوء العِشْرَة وتَضْييق النَّفقة.

(1) الراغب، المفردات: (وسع).
(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 336.
(3) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 43.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 160.
(5) الراغب، المفردات: (عضل).

الأجْر والثَّواب:

الإرْضَاعُ مدّة العدّةِ يَسْتَوْجِب المُكافأةَ والعِوَض

الثَّواب وإن كان في اللُّغة الجزاءَ الذي يرجِع إلى العاملِ بِعِلْمِه، ويكون في الخَيْر والشَّرّ، إلّا أنَّه قَد اختَصّ في العُرْف بالنَّعيم على الأعمالِ الصّالحة مِن العقائِدِ الحَقّة، والأعمال البَدَنيَّة والماليّة، والصّبر في مواطِنه بحيثُ لا يَتَبادَرُ منهُ عندَ الإطْلاقِ إلّا هذا المَعْنى، والأجر: إنَّما يكون في الأعمال البدنيّة مِن الطّاعات، ويدلُّ عليه قول عليٍّ رضي الله عنه لبعضِ أصحابه في علَّةٍ اعْتَلَّها: "جعلَ اللّه ما كانَ مِن شَكْواكَ حطًّا بسيِّئاتك". فإنَّ المرض لا أجر فيه، لكنَّه يحطُّ السَّيِّئات، وإنَّما الأجر في القول باللِّسان، والعمل بالأيدي والأقدام[1]، ومِن هنا ناسب لفظ الأجور في الآية مكافأة الإرضاع مدّة العدَّة بوَصْفِه عملًا يَسْتَوْجِبُ العِوَضَ عنه عَيْنًا.

(1) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 18.

﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ حالاتِ المُياسَرَةِ والمُعاسَرَةِ

ترتبط الآيةُ الكريمة بما قبلَها ارتباط التَّفصيل بالإجمال؛ ذلكَ أنَّ المُعاسرة لمّا كانت غالبًا في ترك السَّماح، وكان ترك السَّماح من خوف الإعدام؛ نبّه سبحانه على أنَّ ذلك ليس بعذر بتقسيم النّاس إلى موَسَّع عليه وغيره، ولأنَّ الأليق بالمَوَسَّع عليه أن يوَسِّع، ولا يُسيء الظّنَّ بربِّه، وقد جَرَّب رِفْدَهُ، وأنَّ المُقْتِر عليه لا ينبغي أن يَفْعَلَ فِعْلَ مَن يخافُ أن يُخْلَف وعدُه، فقال شارحًا للمُياسَرة: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ﴾، أي: ذو مالٍ واسعٍ، ولم يكلِّفْهُ سُبْحانَهُ جميعَ وُسْعِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَةٖ﴾: (وسع) كلمةٌ تدلُّ على خلاف الضّيق والعُسْر، يقال: وسع الشَّيء واتَّسع، والوُسْعُ: الغِنى، واللّهُ الواسعُ، أي: الغنيُّ، والوُسْعُ: الجِدَةُ والطّاقة، وهو يُنْفِقُ على قدر وُسعه، وقال تعالى في السَّعة: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾، وأوسَعَ الرَّجل: كان ذا سَعَةٍ، والهاءُ عِوَضٌ من الواو، ويقال: إنَّه لفي سَعة من عَيْشه[2].

2) ﴿قُدِرَ﴾: (قدر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مبلَغ الشَّيء وكُنْهه ونهايَته[3]، وقدر على عياله قدرًا، مثل: قتَر، وقُدِر على الإنسانِ رِزْقُه قدرًا، مثل: قتر[4]، ومعنى ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ﴾، أي: ضيِّق عَلَيْه[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 162.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وسع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قدر).
(5) الهروي، تهذيب اللغة: (قدر).

3) ﴿يُكَلِّفُ﴾: (كلف) أصل صحيح يدلُّ على إيلاعٍ بالشَّيء وتعلُّقٍ به[1]، ومنهُ التَّكْليف، وهوَ مصدر: كلفت الرَّجل؛ إذا ألزمتَهُ ما يشقُّ عَلَيْه، مَأْخوذ من الكَلَف الَّذي يكون في الوَجْه، وهوَ في اصْطِلاح الأصوليّين: إلْزامُ ما فيه كُلْفَة، فالمندوب على - هذا التَّعريف - لَيْسَ مُكَلّفًا بِه؛ لعدم الإلْزام فيه، ومثلُهُ: المكروهُ، أو أنَّ التَّكليفَ: طلبُ ما فيه كلفةٌ، فيدخُلُ فيه المندوبُ والمكروهُ؛ لأنَّ كلًّا مِنْهما مطلوبٌ فِعْلُه، أو تركُهُ على سبيلِ الأولويَّة، وإنَّما سُمّي الأمر تكليفًا؛ لأنَّه يُؤَثِّر في المأمور تغييرَ الوجهِ إلى العُبوسَة، وهو الانقباضُ لكراهَةِ المَشَقَّة[2].

4) ﴿عُسْرٍ﴾: العُسْرُ: نقيض اليُسر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: 5 - 6]، والعُسْرَةُ: تَعَسُّرُ وجودِ المالِ، قال تعالى: ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: 117]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، وأعْسَرَ فلانٌ بمعنى: أضاق[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّفقة على قدْرِ الاستطاعَةِ والوُسْعِ

في الآية الكريمة الإشارةُ إلى حالاتِ النَّفقة، فالنَّفقة لكلٍّ من الموسِر والمُعْسِر على قَدْرِ ما يَسْتَطيعُ، فاللّه تَعالى لا يُكَلِّف نفسًا إلّا ما تُطيق[4]، مَع الوَعْدِ باليُسْرِ في قابِلِ الأيّام.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابِقَتِها:

إنفاقُ المُسلِم مقيّدٌ بالسَّعة

فُصِلت الآية عن سابقتها؛ لأنَّ هذه الآية تُعَدُّ تذييلًا على وجهِ البيانِ لما سبَقَ من أحكامِ الإنفاق على المعتدّات والمرضعات بِما يعمّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلف).
(2) الكفوي، الكليات: (كلف).
(3) الراغب، المفردات: (عسر).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 145.

ذلك، ويعمّ كلَّ إنفاقٍ يُطالَب به المُسْلِم مِن مفروض ومندوبٍ، أي: الإنفاق على قَدْرِ السَّعة[1].

معنى اللّام في ﴿لِيُنفِقْ﴾:

اللّام في ﴿لِيُنفِقْ﴾ هي اللّام الجازمة، وهي لامُ الأمْرِ، وتُسَمّى لامَ الطَّلب[2]، وقُرئَ شاذًّا (لِيُنفقَ) - بالنَّصب - على أنَّ اللّام تعليليَّةٌ بمعنى (كي)، وتقدير الكلام: شَرَعْنا ذلك لِيُنْفِقَ[3].

دلالةُ الأمْرِ بالإنفاقِ:

الإنفاقُ واجِبٌ على الأبِ

دَلَّ الأمْرُ في الآيةِ عَلى الوُجوبِ والإلزام، فالمرادُ: لِيُنْفِقْ كلُّ واحِدٍ مِن الموسِر والمُعسِر ما يَبْلُغُه وُسْعُه، والظَّاهر أنّ المأمورَ بالإنفاق الآباءُ، ومِن هنا عُدّت هذه الآيَةُ أصلًا في وجوبِ النَّفقة على الأبِ[4].

نكتَةُ إضافَةِ ﴿ذُو﴾ إلى ﴿سَعَةٍ﴾:

أهلُ التّوسِعَة في المالِ مأمورون بالإنْفاقِ

في التَّعْبير بـ ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء مِن أهلِ التّوسِعَة، ومِن ثَمَّ أُمِر أهلُ التَّوسعة أن يُوَسِّعوا على نِسائهم المُرضِعات على قَدْرِ سعَتِهم، فكأنَّ إضافَةَ ﴿ذُو﴾ إلى اللَّفظة أشارت إلى شيءٍ ثابتٍ في المُخاطَب بدلالةِ مَعْنى (صاحب)؛ لذا فسَّر البقاعيُّ التَّركيب، فقال: "أي: مالٍ واسِعٍ"[5].

نكتَةُ تنكيرِ ﴿سَعَةٍ﴾:

تحقُّق السَّعة بأيَّة كيفيّة مدعاةٌ للإنفاق

جاء التَّنكير في لفظةِ ﴿سَعَةٍ﴾ بيانًا لِعُموم السَّعة، أي: إن وُجِدَت سعَةٌ أيّةُ سعَةٍ؛ فلا يبخَل الأزواجُ على المُطَلَّقات، وأيضًا فإنَّ التَّعريف قد يتوهَّم فيه مَعْنى الاستِغراق، وهَذا خلاف المَقْصود، فكان التَّنكيرُ هو الأوفَقَ لِسياقِ المَوْقف.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.
(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/ 318.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 335.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 335.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 162.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

السَّعة توجِبُ الإنفاقَ وإنْ كان عَلى التَّبعيض

اختلَف في ﴿مِّن﴾ ما بينَ الابتِدائيَّة والتَّبعيضيَّة، فابنُ عاشورٍ يَرى أنَّها ليسَت التَّبعيضيَّة، وإنَّما هي الابتدائيَّة؛ لأنَّ الإنفاق يصدرُ عَن السَّعة في الاعتبار، وليسَت (مِن) هذهِ كـ (مِن) التي في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3]؛ لأنَّ النَّفقة هنا لَيْسَت بعضًا من السَّعَة[1]، غير أنَّ الآية تحتمل التَّبعيض، أي: فَليُنْفِق مِن بَعْضِ ما أعطاهُ اللّهُ تَعالى، قال البقاعيُّ: "ولم يُكَلِّفْهُ سُبْحانَه جميعَ وُسْعِه، بل قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ التي أوْسَعَها اللّهُ عليه"[2]، والمفهومُ من كلامهِ دلالَةُ التَّبعيض بقرينة "لَم يُكَلِّفه جميعَ..."، وأيضًا فإنَّ التَّبعيض في (من) علامتُه وضعُ لفظَةِ (بعض) مكانَها، وهوَ هنا جائزٌ، فيَجوز أن نقولَ تَفْسيرًا لـ (من)؛ ليُنْفِق بعضَ سَعَتِه.

نكتةُ إضافة السّعَةِ إلى ضميرِ المُنفِق:

الاعتبارُ بكفايَةِ الزَّوجِ لا الزَّوجة المُطَلّقة

في إضافةِ السَّعَةِ إلى ضمير المُنْفق نكتة فقهيَّة، وهيَ جَعْلُ الاعتبارِ بالزَّوج في اليُسْر والعُسْر دونَها، ولأنَّ الاعتبارَ بكِفايَتِها لا سبيل إلى عِلْمِه للحاكِم ولا لغيره، فيُؤَدّي إلى الخصومة؛ لأنَّ الزَّوج يدَّعي أنَّها تَلْتَمِسُ فوقَ كِفايَتِها، وهي تَزْعُم أنَّ الذي تَطْلُبُ تطلبُهُ قَدْرَ كفايَتِها، فجعلناها مُقَدَّرة قطعًا للخُصومَة، والأصل في هذا عندَهُم قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقوله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236][3].

معنى الواوِ في ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ﴾:

المُعْسِر لا يُعْفى مِن الإنفاقِ

جاءت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ حرفَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 162.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 170.

عَطْفٍ[1] يُفيد مُطْلَقَ الجَمْعِ؛ كي يَحْوِيَ طرَفَيِ الإنفاق: الموسِرَ والمُعْسِرَ، فيكون الحكمُ أوعَبَ وأشمَلَ.

دلالةُ البِناء للمفعولِ في الفعلِ ﴿قُدِرَ﴾:

تحديدُ العَطاء تهذيبٌ للنُّفوس

بُني الفعلُ للمفعولِ، أو لما لم يسمَّ فاعلُه؛ للعِلْم بفاعِل المَنْع والعَطاء، وهو اللّهُ ﷻ، وفي التَّعبيرِ تعليمٌ لحُسْنِ الأدَبِ معَ اللّهِ تَعالى[2]، وقد بُنِيَ الفِعْلُ بعدَها للمعلوم ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ إشارةً إلى نسبةِ الخَيْرِ والبَسْطِ والإيتاء إلى اللهِ سُبحانَهُ، فهو الذي يقبِضُ، ويَبْسُط، وإليه يرجِعُ الأمْرُ كلُّه، وقد دلَّ الفعل ﴿قُدِرَ﴾ على أنَّ القدر لَه حكمة، ففي الفِعْلِ مَعْنى التَّقدير والضَّبط، وهو مقابلُ السَّعة، وقد يُلْمَحُ من الفِعْلِ معنى الخير؛ لأنَّ بعضَ المالِ يُفْسِدُ، فكان في توظيفِ الفعلِ الدّلالةُ على الإعطاءِ بحدودٍ؛ كَيْ لا يَفْسُدَ العبدُ، قال البقاعيُّ: "جعلهُ اللّهُ - الذي لا يقدر على التَّضييق والتَّوسيع غيرُه - بقَدْر ضروريّاته فَقَط من غيرِ وُسْعٍ لشَيْءٍ غيرِها لأمْرٍ من الأمور التي يُظْهِرُ اللّهُ بِها عجزَ العِباد رحمةً لَهُم؛ ليُهَذِّب به نُفوسَهُم"[3].

نكتَةُ تعديةِ ﴿قُدِرَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ:

المالُ زينَةُ الحياة وعَصَبُها، ومِفْتاحُ حلِّ الأزمات

توظيفُ حَرْفِ الاستِعْلاءِ إشارةٌ إلى سيطرةِ المال وهَيْمَنَتِه على مُتَطَلَّبات الحياة، فالمال هُنا هو العصَبُ، وهو الذي يُسَكِن الأزمةَ، أو يُشْعِل فَتيلَها، فكانَ الاستعلاءُ دالًّا على السَّيطرةِ والتَّمكُّن والتَّمكين.

نكتَةُ إضافَةِ الرّزق إلى ضميرِه:

اختِصاصُ الرّزق بِصاحِبِه

أُضيفَت لفظةُ (رزق) إلى الضَّمير؛ إشارةً إلى أنَّ الرِّزق مختصٌّ بصاحبِه لا يتعدّاه، وفيه تَواؤُمٌ بين لفظة ﴿رِزْقُهُۥ﴾ ولفظة ﴿سَعَتِهِۦ﴾، ففي الكلمتين إضافةٌ إلى الضَّمير، في إشارةٍ إلى أنَّ الحكمَ لا يتَعَدّى الموسِرَ والمُعْسِر، وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ إفادَةُ التَّخصيصِ.

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 355.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 163.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 162 - 163.

بلاغةُ الكِنايَةِ في قوله: ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾:

مَن ضاق رزقُه مِن المالِ؛ فليُنْفِقْ بما يَسمَحُ به الحالُ

معنى قوله: ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾: جُعِل رِزْقُه مقدورًا، أي: محدودًا بقَدْرٍ مُعَيَّن، وذلك كناية عن التَّضييق، يقال: قَدَرَ عليه رزقَهُ؛ إذا قَتَرَه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: 26]، أي: مَن كان في ضيقٍ مِنَ المالِ؛ فليُنْفِق بما يَسمَحُ بِهِ رِزْقُه بالنَّظر إلى الوفاء بالإنفاقِ ومراتبِه في التَّقديم[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَلۡيُنفِقۡ﴾:

الأمرُ الواجبُ بالإنفاقِ على المرضِعِ على قَدْرِ السَّعة

جاءت الفاءُ رابِطَةً للجُمْلَةِ، وهي لازمةٌ في الجواب؛ لأنَّ الجواب جملةٌ طلبيَّة مقترنَةٌ بلام الأمْرِ، وفي الأمرِ دلالةٌ على وجوب الإنفاقِ، وقَد أفادَت مَع الرَّبط مَعْنى المُبادرَة والمُسارعَة إلى الإنفاقِ مِن سَعَتِه، قال البقاعيُّ: "﴿فَلۡيُنفِقۡ﴾، أي: وجوبًا على المُرْضِع وغيرها مِن كلِّ ما أوجبهُ اللَّهُ عليه، أو نَدَبَهُ إليه... وفي هذا إرشادٌ إلى الاقتِداءِ بِهِ ﷺ في عدَمِ التَّكلُّف واليُسْرِ في كلِّ أمْرٍ على حسَبِ الأوقاتِ"[2].

معنى (مِنْ) ودلالتُها:

التَّبشير بالرَّحمة ورعاية حال المُنفِق

دلّت (مِنْ) على التَّبعيض، وفي التَّبعيضِ رحمَةٌ ورعايَةُ حالٍ، فالإنفاقُ بعضٌ لا كلٌّ، حتّى يدبِّر أحواله من بقيَّة ما أوتي، ففي الآية تبشيرٌ بأنَّه ﷻ لا يُخْلي أحدًا من شيءٍ يقومُ بِهِ ما دامَ حيًّا[3].

معنى (ما) وموقِعُ الجملةِ بعدَها:

نِعَمُ اللهِ تَعالى وعطاياه متعدِّدة، ولا حرج في الإنفاق ممّا أنْعَم

(ما) في قوله: ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ اسمٌ موصول يقع على كلِّ شيء، ويقَعُ على ما ليس بشَيْءٍ، وهو بمعنى: الذي، وقد دلَّ الاسم الموصول بصيغته على عموم الإيتاءِ، فالإنفاقُ يكون من أيِّ شيء أعطاهُ اللّه تَعالى إياه، وفي إدغام (مِنْ) مع (ما) ضمٌّ للشَّفتين، وكأنّ الإدغام واشٍ بضرورة حياطة الصَّغير وضمّه إلى إشفاق والدِهِ وعَطْفِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 331.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 163.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 163.

والِدَته، و(ما) اسم مُبْهَمٌ لا يتبيّن إلّا بصِلَته، فكانت في الصِّلة معنى البُشْرى بالإيتاءِ.

نكتةُ اصطفاء فعلِ الإيتاء:

الجزاءُ مِن جنس العمل

في اصطفاءِ الفعل ﴿ءَاتَىٰهُ﴾ مناسَبَةٌ بين (آتوهن) و﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾، فإنَّه إذا أنفقَ؛ أَنْفَقَ اللّهُ تَعالى عليه، وإذا بَخِلَ؛ قَتَر اللّه سُبحانَهُ رِزْقَه، وفي الإيتاءِ سهولَةٌ ويسرٌ وحسنُ إعطاءٍ.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ عمّا قبله:

مِن وجوه الرَّحمة عدَمُ مؤاخذَةِ المَعْدومِ

في الآية الكريمةِ استئنافٌ بيانيٌّ، فقال معلِّلًا أو مستأنفًا جوابًا لَمن يقول: فما يفعَلُ من لم يكن له موجود أصلًا[1]، فكان الجواب المشتمل على الرّحمة والعفوِ وعدم المؤاخذة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَا يُكَلِّفُ﴾:

تهوينُ التَّكليف بلا جبْرٍ ولا تحميلٍ

لمّا كان اللّهُ تَعالى له التَّكليف بما لا يُطاق؛ أخبر بأنَّه رَحِمَ العبادَ بأنَّه لا يفعله[2]، بلا جبر وتحميلٍ، وفي التَّكليفِ إلزامُ ما فيه كُلْفَة ومَشَقَّة أو طَلَبُ ما فيه ذلكَ، وفي الفعل تهوينُ الخَطْبِ بما قد يَنْزِلُ بالإنسان من حِمل ثقيل، فكان الفعلُ المُبَشِّر بخفَّة الحمْلِ وتقوية الظّهر ﴿لَا يُكَلِّفُ﴾.

نكتة إظهار الاسْمِ الأحسَنِ وتكرارِه:

التَّيسير في الأمورِ من وُجوه رحمةِ اللهِ تَعالى بِعبادِه

في تَكرار النَّظم القرآنيّ للاسْم الأحسَنِ (اللّه) في هذه الآية من السّورة، دونَ الاقتصارِ على الضَّمير، إشارةٌ إلى تربية التَّعظيم والتَّوقير لصاحب الجلالِ والعظَمَة، معَ استقلالِ كلّ جملة بنَفْسِها، فالتَّكرارُ تعظيمٌ للشَّأن، وأيضًا فإنَّه أَدْخَلُ في التَّعظيم من عود الضَّمير، وفيه أنَّ التَّكرار آتٍ في كلِّ مناطق التَّيْسير والتَّهوين، وعدم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 163.

التَّكليف فوق الطّاقة، وإيتاء المال، وتحويل العُسْر إلى يُسْرٍ، ففي إعادة الذّكر إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تَعالى يريد من عباده اليُسْرَ، ولا يريد منهم العُسْرَ، وفي التَّكرار أيضًا استحضارُ العظمة الدّائمة لتنفيذ المطلوبات، وعدم التّواني عنها، فإذا كان اللّهُ ﷻ قد كلأ العبادَ بكلِّ العطاءات؛ فحريٌّ بنا أن نُسارع، ونُبادر إلى الإيفاءِ بالتَّكليفات؛ "لأنَّ فيه مِن باب التَّزلُّف والتَّقرُّب له ﷻ بأنَّ له مِن صفات الحِلم والرَّأفة والرَّحمة ما يُرجى معه العَفْوُ عنهم"(1).

نكتَةُ تنكيرِ ﴿نَفۡسًا﴾:

بيانُ العمومِ وتنديَةُ التَّكليف بالشَّفقة على كلِّ نَفْسٍ

نُكِّرت لفظة ﴿نَفۡسًا﴾؛ بيانًا للعُموم والشّمولِ، أي: أيّة نفسٍ، مؤمنةً كانَت أو كافرةً؛ وذلك لورودِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْي، وهو ممّا يُفيدُ العمومَ، وفي هذا بيانٌ لعظيم الرّحمة وسرمديّة العطاء، وتَنْدِيَةَ التَّكليف بالشَّفقة، فالتَّشريع لا يكون إلّا للعمل والتَّنفيذ، وهذا يعني أنَّ اللّه تَعالى في كلِّ الشَّرائع لم يكلِّف الإنسانَ فوقَ طاقَته، فهذا حكمٌ عامٌّ في الشّرائع كلِّها(2).

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه وغَرَضُه:

امتازت شريعةُ الإسلامِ بالتَّيسير وعدَمِ المَشَقَّة ونفي الحَرَج عَن العِباد

جاء القَصْرُ هنا قصرًا حقيقيًّا؛ تحقيقًا لتَخْصيصِ التَّكليف بالمُتيسَّر، فكأنه قال: لا يكلِّفها إلّا وُسْعَها من الإيتاء، ففيه تخصيصٌ بالتَّيسير وعدمِ المشقّة، وقد امتازَت شريعةُ الإسلام باليُسْرِ والرِّفق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: 78]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ولذلك كان مِن قواعِدِ الفِقْهِ الكُلّيَّة أنّ "المشقّة تجلبُ التَّيسير"، وكانت المشقّة مظنّةَ الرُّخْصَة.

(1) مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفروق اللغوية: 4/ 423.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 135.

دلالةُ الفعل ﴿ءَاتَىٰهَاۚ﴾ في السّياق:

استمالةُ قلبِ المُعسِر

في الفعل ﴿ءَاتَىٰهَاۚ﴾ تطييبٌ واستمالَةٌ لقَلْبِ المُعْسِر؛ لِمكان عبارة ﴿ءَاتَىٰهَاۚ﴾ الخاصّة بالإعسارِ قبلُ وذِكْر العُسْر بعدُ[1]، ففي الإيتاءِ مِن التَّيسير والسّهولة ما فيه.

نكتةُ الفصلِ في: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ﴾:

إبرازُ أمرِ السّعة في الرِّزق بالتَّبشير به

في فصل قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبله تكملةٌ للتَّذييل، فإنَّ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ يناسب مضمون جملةِ: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾، ففي مضمونِ الجُمْلَتَيْن الإشارةُ إلى السَّعَة، والتَّبشيرِ بها[2].

نكتةُ دُخولِ حرفِ الاستقبالِ:

اللهُ تعالى مُتكفِّلٌ بأرزاق عباده، ومقدِّرُها قبلَ إيجادِهم

سينُ الاستِقبالِ في الفعل ﴿سَيَجۡعَلُ﴾ مُستَعمَلٌ في معنى التَّأكيد، كقوله: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: 98]، وهذا المعنى ناشئٌ عَن جَعْلِ علامةِ الاستقبالِ كنايَةً عن تجدُّد ذلك الفعلِ في أزمنة المستقبل تحقيقًا لتَحْصيلِه[3]، وفي السّين دلالَةٌ عَلى أنَّ اللَّه تَعالى قد تكفّل بأرزاقِ عِبادِه، وقدَّرها قبل إيجادِهم، فهو وعدٌ لا خُلْفَ فيه، وفي السّين إشارةٌ إلى عِتاب الأمِّ وجبرٌ للأبِ[4].

فائدةُ الجُمْلَةِ الخَبَرِيَّة ﴿سَيَجۡعَلُ﴾:

رجاءُ اليُسْر بعد العُسْر تسليمٌ وثقَةٌ باللهِ تعالى

قول اللّه تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ خبر مستعمَلٌ في بَعْثِ التَّرجّي وطَرْحِ اليأس عن المُعْسِر من ذوي العِيال، ومعناه: عسى أن يجعَلَ اللّهُ تَعالى بعد عُسْرِكُم يسرًا لكُم، فإنَّ اللّه سُبحانَهُ يجعَلُ بعدَ عُسْرٍ يسرًا، وهذا الخبر لا يقتضي إلّا أنَّ مِن تصرُّفات اللّهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 336.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 332.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 161.

تَعالى أن يجعل بعد عُسْرٍ قوم يُسْرًا لهم، فمَن كان في عسرٍ؛ رجا أن يكون ممَّن يشمَلُه فضلُ اللّه سُبحانَهُ، فيُبَدِّل عُسْرَهُ باليُسر[1]، وفي المضارع دلالةٌ على الاستمرارِ التَّجدُّدي واستحضارِ صورةِ الجَعْلِ.

دلالةُ الظَّرْفِ ﴿بَعۡدَ﴾:

مِـن وُجـوه التَّسليم وصدق الإيـمـان عـدمُ تعجُّل اليُسْرِ

دلَّ الظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ على ضرورة الانصياع؛ لتقديرِ اللّهِ تَعالى وحُكْمِه، والصَّبر على عطاءاته يُسْرًا وعُسْرًا، وإن طال أَمَدُ العُسْرِ؛ لذا خلا التَّعبير مِن حرف الجرِّ (من) الدّالَّة على القُرْبِ؛ لبَيان أنَّ إطالة مُدَّة العُسْرِ مُنْبِئَةٌ باختيارِ العَبدِ، ولم يأتِ الظَّرف (مع)؛ لأنَّ الحالَ هنا حالٌ عامَّة لا خاصَّة.

بلاغةُ تنكير لَفْظَتَي العُسْرِ واليُسْر:

مَـهْـمـا اشـتـدَّ الـعُـسْـرُ؛ فـإنَّ رحمة الله تَعالى أعظَمُ

مِن بلاغة القرآنِ الكريم الإتيانُ بلَفْظَتي ﴿عُسۡرٍ﴾ و﴿يُسۡرٗا﴾ نَكِرَتَيْن غيرَ مُعَرَّفين باللّام؛ لئلّا يُتَوهَّم من التَّعريف معنى الاستغراق، كما في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾ [الشرح: 5][2]، ويُلمح في تنكير اللَّفْظَتَيْنِ أنَّ العُسْرَ مَهما عظُمَ، واشتدَّ، فإنّ بَعْدَهُ يُسْرًا مِن اللّه تعالى كبيرًا عظيمًا.

بلاغة الطِّباق في الجَمْعِ بين العُسْر واليُسْر:

الـلّـه تـعـالى بحِكْمَتِه وقُدْرَتِه المُطْلَقَة أعلَمُ بما ينفَعُ عبادَهُ

تنطلق بلاغة الطِّباق في الآية من التّضادِّ الحاصل بين حالَيْن، حال العُسْر وحالِ اليُسر، ففي الجمع بينَ النَّوعين إشارةٌ إلى تقلُّبات الحياة، ومرور المرءِ بما يسرُّ مرّةً، وما يسوءُ مرّةً، وفي الجمع بينَهُما إيماءٌ إلى القدرة المطلقة للّهِ ﷻ الكامل في تصرّفه، الحكيم في فِعْلِه، وفيه رحمةٌ ورأفَةٌ من الخالِقِ سُبحانَهُ بأنّه العالم بما ينفعُهم، ويُسْعِدُهم، وأيضًا فإنَّ فيه مِن البشارةِ وتفريجِ الكرُبات ما به يَسْعَدُ المَرْءُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 332.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 333.

في البقرة تخفيف بعدَ دعاءٍ، وفي الطَّلاق رزقٌ بين قبضٍ وبَسْطٍ

بيانُ المتشابهِ اللَّفظي بين عبارتَي ﴿وُسْعَهَا﴾ و﴿مَآ ءَاتَىٰهَا﴾:

جاءَت آيةُ سورةِ البقَرَةِ، وهيَ قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286] مسبوقة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، أي: عندما بالغ المؤمنون في الدُّعاء خفّف اللّهُ تَعالى عنهم ما شدَّد به عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]، أمّا آية الطَّلاق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾، فبُدئت بقوله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾، أي: لمّا كان رزقُ اللّهِ تَعالى بين البَسْطِ والقَبْضِ؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾[1].

إذا قَضى اللّهُ تَعالى عُسْرًا؛ قَضى معَهُ اليُسر حتّى يغلِبَه

سرُّ التَّعبير بخاتمة الآية:

قال اللّه تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح: 5]، وقد خُصَّت كلُّ آيةٍ بِما فيها، من التَّعبير بالجملة الفعليَّة ولفظ ﴿بَعۡدَ﴾ في آية الطَّلاق، والجملة الاسميَّة ولفظ ﴿مَعَ﴾ [الشرح: 5] في سورةِ الشَّرح.

ووجهُ ذلك: أنَّ آية الطَّلاق صُدِّرت بقول اللّه تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾، فلمّا أراد اللّهُ تعالى بشارة مَن قُدر عليه رِزْقُه باليُسْر بعدَ ذلك؛ ناسَبَهُ قولُه: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ بلفظ البعديَّة، وجيءَ بالجملةِ الفعليَّة؛ لدلالتِها على التَّجدُّد والحدوثِ، وهو أنسَبُ لتغيُّر حالِ الرِّزق وانتقالِه.

أمّا آية سورة الشَّرح؛ فإنَّه قد تَقَدَّمها قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ

(1) مجموعة مؤلفين، موسوعة الفروق اللغوية: 4/ 424.

﴿لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]، فلمّا كان السّياق مُتَعَلِّقًا بإنعامِ اللّهِ تَعالى على رسولهِ ﷺ؛ ناسبَهُ ذِكْرُ ﴿مَعَ﴾ [الشرح: 5] والتَّعبير بالجملةِ الاسميَّة المُؤَكَّدة بأكثَرَ من مُؤَكِّد؛ زيادةً في تطمين النَّبيِّ ﷺ بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح: 5][1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

نِعَمُ اللهِ تَعالى عظيمةٌ، وشُكرُها بالإنفاقِ منها في وجوهِ الخَيْرِ عن طيبِ نَفْسٍ

الإيتاءُ يكونُ عَن طيبِ نفسٍ، أمّا الإعطاء؛ فقد يكون عن طيبِ نفسٍ وعَن كُرْه، وأيضًا فإنَّ في الإيتاء قوَّةً في إثباتِ المَفْعولِ ليسَت للإعطاء؛ لذا أُمِر المسلمون بإيتاء الزَّكاة لا إعطائها، ومن الفروقِ أيضًا: أنَّ الإيتاء لا يكون إلّا للشَّيء الكثير والعظيمِ الشَّأن، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّه للشَّيء القليل أو الزَّهيد، إلّا إذا اقترن بما دلّ على الكثرةِ، فيكونُ التَّعبيرُ بالإيتاءِ أبلَغَ في هذا المقامِ[2]، ولمّا كانت نِعَمُ اللّه تعالى كثيرةً وعظيمةً، وكان الإنفاقُ في هذا الموضعِ وفي كلِّ موضعِ خيْرٍ ينبغي أن يكونَ عن طيبِ نفسٍ، أوثرَ لفظُ الإيتاء على الإعطاءِ.

التَّكليف والابتلاء والتَّحميل:

لا يكلِّفُ اللهُ تعالى النَّفس إلّا ما تُطيقُ؛ ثَقُلَ وشَقَّ ذلك أمْ لَم يَثْقُلْ

التَّكليف إلزامُ ما فيه مشقَّةٌ، وأصله في العربيَّة: اللُّزوم، ومِن ثَمَّ قيل: كَلِفَ بفلانة يَكْلَفُ بها كَلَفًا؛ إذا لَزِم حبَّها، ومنه قيل: الكَلَفُ في الوجهِ؛ لِلُزومهِ إيّاه، والمُتَكلّف للشَّيء المُلْزِم به على مشقَّة، وهو الذي يلتزم ما لا يَلْزَمُه أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: 86]، ومثلُه: المكلَّف، والابتلاءُ هو استخراجُ ما عندَ المُبْتَلى وتَعَرُّف حالهِ في الطّاعة والمعصيةِ بتَحْميلِه المَشَقَّة، وليس هو من التَّكليف في شيءٍ، فإن سُمّي التَّكليف ابتلاءً في بعض المواضعِ؛ فقد

(1) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 869.

(2) مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفروق اللغوية: 7/ 40 - 41، بتصرف.

يجري على الشَّيء اسمُ ما يُقاربه في المعنى، ويُقال للنِّعمة: بلاءٌ؛ لأنه يُسْتَخْرَجُ بها الشُّكر، والبلى يسْتخرج قوَّة الشَّيء بإذهابه إلى حال البالي، فهذا كلُّه أصل واحدٌ[1]، أمّا التَّحميل؛ فلا يكون إلّا لِما يُستَثقَل، ولهذا قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البقرة: 286]، والإصرُ: الثِّقل، والتَّكليف قد يكون لِما لا ثِقَلَ له، نحو الاستغفار، تقول: كلَّفَهُ اللّه تَعالى الاستغفارَ، ولا تقول: حَمَّلَهُ ذلك[2]، ولِسَعَةِ دلالة لفظِ التَّكليف لشُمولِهِ الشّاقَّ، وما لا ثِقَلَ له؛ ناسَب سياق الآية اصْطِفاء لفظ (يكلّف)؛ للدّلالة على أنّ اللّه تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وُسْعَها، ثَقُلَ هذا التَّكليف أم لَم يَثْقُلْ.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 216.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 216.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩﴾ [الطلاق: 8 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّحذير من التَّهاون في أحكامِ الطَّلاق، وتهديدُ مَنْ يجترئ عليها

بعد أن تحدَّثتِ السّورةُ عن الطَّلاق، موضحةً أحكامَه، ومرغِّبةً في التَّريُّث والتّأنّي والتَّمسُّك ببقاء الرّابطة الأسريّة، وداعيةً إلى التَّحلّي بتَقْوى اللهِ تَعالى والتزام حُدودِهِ والقيام بواجبِ النَّفقة مع الوعدِ بالعَوْنِ والتَّيسير عندَ اللُّجوء إليه؛ ناسب أن يُبَيَّن في هذه الآيات جزاءُ مَن يستهين بما وردَ فيها مِن أوامرَ ونواهٍ وأحكام تضبطُ هذا الخيار، وتحذِّر مِن التهاون فيها، وتهدد بالعذاب والنكال مَن يجترئ عليها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَتَتۡ﴾: (عتو) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى استِكْبارٍ، يقال: عَتا يَعْتو عُتوًّا، بمعنى: استَكْبَرَ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ [الفرقان: 21]، والعُتُوُّ هوَ: النُّبُوُّ عن الطّاعة، يقال: عَتا يَعْتو عُتوًّا وعِتيًّا، قال تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الذاريات: 44]، ومنه قوله هنا: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾[2].

2) ﴿نُّكۡرٗا﴾: (نكر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إِلَيْها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ، وأَنْكَرَهُ: لَمْ يَقبَلْهُ قَلبُهُ، ولَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسانُهُ، ومنه النُّكْر - بالضَّمِّ -: الأمرُ الشَّديدُ الصَّعبُ حِدّةً، قال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 333، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1015، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 458.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (عتو).

تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر: 6]، وقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ [الكهف: 74]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[1].

3) ﴿فَذَاقَتْ﴾: (ذوق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ اختِبارُ الشَّيْءِ مِن جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، فَيُقالُ: ذُقْتُ المَأكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اختَبَرْتُه[2]، فالذّوق: وُجودُ الطَّعْمِ بالفَم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُه دونَ ما يكثُر؛ لأنَّ ما يكثُر منه يُقال له: الأكل[3]، والمعنى المحوريُّ: معرفةُ طَعْمِ الشَّيءِ، أي: وقْعُه على الحسِّ بالتَّناول منه، ومنه: الإحساسُ المادّيُّ المباشر، قال اللّٰه تعالى: ﴿بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، ومعظم ما جاء في القرآن من هذا التَّركيب: ذوقٌ مجازيٌّ، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [آل عمران: 106]، وكقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾[4].

4) ﴿وَبَالَ﴾: (وبل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى شِدَّةٍ في شَيْءٍ وتَجَمُّعٍ، ووَبَلَةُ الشَّيْءِ: ثِقَلُهُ، ومِنْهُ يُقالُ: شَيْءٌ وبيلٌ، أيْ: وخيمٌ، ولمراعاةِ الثِّقَل قيل للأمرِ الذي يُخاف ضَرُّرُه: وبالٌ، قال تعالى: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن: 5]، وقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾، معناه: ثِقْلُه ووِزْره[5].

5) ﴿عَـٰقِبَةُ﴾: (عقب) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلى تَأْخيرِ شَيْءٍ وإِتْيانِه بَعْدَ غَيْرِهِ[6]، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فَهوَ عَقيبُهُ، كَقَوْلِكَ: خَلَفَ يَخْلُفُ، بِمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ إذا مَضى أَحَدُهُما عَقِبَ الآخَرِ، وهُما عَقيبانِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما عَقيبُ صاحِبِه[7]، ويختصّ إطلاقُ العاقِبة بالثّواب، نحو: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: 83]، وتُستعمَل بالإضافةِ في العقوبةِ نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ [الروم: 10]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[8].

6) ﴿خُسْرًا﴾: (خسر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى النَّقْصِ، فَمِنْ ذلِكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ذوق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذوق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وبل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(7) الفراهيدي، العين: (عقب).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (عقب).

يُقالُ: خَسَرْتُ الميزانَ وأخسرْتُه؛ إذا نَقَصْتَهُ[1]، والمعنى المحوريُّ: نَقْصُ الشَّيء بذهابِ أجزاءٍ منهُ فَقْدًا، كنقص المَكيلات، والموزونات، وكَنَقْصِ مالِ التّاجر، وفُسِّر الخُسر بالهلكَةِ، والغَبن، والعقوبةِ، وبالنَّقص المادّيِّ، والضَّعف، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ [يوسف: 14]، أي: عَجَزة، ومستحقّون الهلاكَ، وكما في قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

العقابُ الشَّديد والخُسْرانُ المُبِين جزاءُ المُسْتَكْبِرين عن طاعةِ اللهِ تَعالى ورسلِهِ عليهم السلام

يُبَيِّن اللّٰهُ تعالى في هاتين الآيتينِ أنَّ كثيرًا من أهل القُرى السّابقة، خرجوا عن طاعة ربِّهم، وعصوا رسلَه، فكانت نتيجةُ ذلك أنْ سَجَّل اللّٰهُ تعالى عليهم أفعالَهُم تَسْجيلًا دقيقًا، وجازاهُم عليها جزاءً عادِلًا، بأنْ عَذَّبَهُم عذابًا شديدًا، وعاقَبَهُم عِقابًا نُكرًا، فترتَّب عليه أنْ ذاقَ أهل تلك القرى سوء عاقِبَة بَغْيِهِم وجُحودِهم لنِعَم اللّٰه تعالى، فكانت نهايتُهم نهايةً خاسرةً خسارةً عظيمةً، كما يَخْسَر التّاجر صَفْقَتَهُ التِّجاريَّة التي عليها قوام حَياتِه ومَعيشَتِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالَتُها في صدرِ الآيةِ:

على المسلمين ألّا يقعوا في مخالفَةِ أحكامِ اللهِ تَعالى ورسلِه، كما فعل السّابقون

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾ هي واو الاستئنافِ، والجملةُ بعدها مستأنفةٌ؛ للتَّنبيه على مصير القُرى التي رفضت الانصياعَ لأوامر اللّٰه تعالى وأوامر رسله، وتعدَّت ما شُرِعَ لها مِن حدود وأحكام؛ تحذيرًا للمسلمين من الوقوع في مِثْلِ ما وقَع سابِقوهُم فيه، فيحلَّ بهم ما حَلَّ بأقوامٍ من عقابٍ عظيم على قِلَّة اكتراثِهم بأوامِرِ اللّٰه تعالى ورُسُلِه؛ ولئلّا يَسْلُكوا سبيلَ التَّهاون بإقامة الشَّريعة، فيُلْقي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خسر).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 459.

بهم ذلك في مهواة الضَّلال، ويُمْكِنُ أن تكون الواوُ لِعَطْفِ الجُمْلَة بعدَها على مَجْموعِ الجُمَلِ السّابقة عليها في السّورة الكريمة، عَطْفَ غرضٍ على غرضٍ(1).

موقِعُ (كَأيِّن) الإعرابيُّ ودلالَتُهُ:

القُـرى التي أهْلَكَها اللهُ تعالى بسبَبِ عُتوِّ أهلها عن أحكامِه كثيرةٌ جدًّا

قوله: (كَأيِّن) اسمٌ لعددٍ كثير مُبْهَم، يفسِّره ما يميِّزُه بعده من اسم مجرورٍ بـ ﴿مِّن﴾، وهو بمعنى (كَمْ) الخبريَّة، ويُعْرَبُ مبتدأً مبنيًّا على السُّكون في محلِّ رفع، وفي التَّعبير به دلالةٌ على كثرة القرى التي أهلكها اللّهُ تعالى وعذَّبها عذابًا شديدًا؛ بسببِ عُتوِّ أهلها عن أحكامه وشرائع رسلِه، واجترائهم على الحدودِ التي أُمِروا بالتِزامِها، وسبق تَحْذيرِهم مِنَ التَّعدّي عليها(2).

نُكْتَةُ التَّعبير بـ (كَأيِّنْ) دون (كَمْ):

لا فـرْقَ بين المُعْتَدين في الطَّلاق والعاتين عَن أوامرِ اللهِ تَعالى مِن أهلِ القُرى الهالكَةِ

(كَأيِّن) اسم مركَّب من كاف التَّشْبيه، و(أي) المُنَوَّنة، وهي توافِقُ (كم) في خَمْسَة أُمور: الإبهام، والافتقار إلى التَّمْييز، والبِناء، ولُزوم التَّصدير، وإفادة التَّكثير تارَة وهوَ الغالِب، وتُخالفها في خَمْسَةِ أُمور، أحدها: أنَّها مركَّبة، و(كم) بسيطة على الصَّحيح. والثّاني: أنَّ مُمَيّزها مجرورٌ بِـ (من) غالِبًا. والثّالث: أنَّها لا تقع استفهاميَّة عِنْد الجُمْهور. والرّابع: أنَّها لا تقَعُ مجرورة. والخامِسُ: أنَّ خَبَرها لا يَقع مُفردًا(3)، ولمّا كان التَّعبير في هذه الآيةِ وارِدًا في سياق التَّحذير من العُتوِّ عن أوامر اللّه تعالى، وتهديدِ مَنْ تهاون في الأخْذِ بحُدوده عامَّة، والأخذ بحدودِ الطَّلاق بصفةٍ خاصَّة؛ ناسَبَ التَّعبير بـ (كَأيِّنْ) دون (كم)؛ لِما يُفيده الأوَّل من تشبيهِ المُنْتَهِك لحدودِ اللّه تَعالى التي دُعيَ المسلمون إلى الالتزام بها في أمر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 333.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 165.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 246، 247.

الطَّلاق، بالعاتين عن أوامر اللّه تعالى ورسله من القُرى الهالكةِ، في استحقاق الحساب الشَّديد والعذاب النّكر والخُسْران المبين؛ لأنَّ الجميع مُتَشابِهون في تجاوز الحدود والاستكبار عليها.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

مُعاقبةُ القُرى التي تَعتو عن أمر الله تعالى ورُسُـلـه سنَّةٌ مُطَّردةٌ

قولُه تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ نصبِ تمييزٌ لـ(كَأيِّنْ)، و﴿مِّن﴾ حرفُ جرٍّ، وهو صِلَةٌ يُفيد تأكيدَ كثرةِ القُرى التي عذَّبها اللّه تَعالى؛ بسبب خُروجِها عن الحدود، والمقصودُ مِن إفادَةِ التَّكثير هنا: تحقيق أنَّ العذاب الذي نال أهلَ تلك القرى شيءٌ ملازمٌ لجزائهم على عتوِّهم عن أمْرِ رَبِّهم ورُسُلِه، فلا يَتَوَهَّم متوهِّمٌ أنَّ ذلك مصادفةٌ في بعض القرى، وأنَّها غيرُ مُطَّردة في جميعِهم(1).

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ نكرةً:

عـادة اللِّسان العربيِّ إطلاق لـفـظ الـقـريَـةِ على التَّجمُّعات السَّكنيَّة

عبّر النَّظمُ القرآنيُّ عن الاسم المجرور بلفظ: ﴿قَرۡيَةٍ﴾ دون (أمة) ونحوِها؛ جريًا على ما هو شائع في اللِّسانِ العربيِّ من إطلاق لفظ القريةِ على التَّجمُّعات السَّكنيَّة الكبيرة وغيرها، كما في قول اللّه سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ [الأعراف: 4]، ولأنَّ في اجتلاب هذا اللَّفظ تعريضًا بالمشركين من أهل مكَّة ومشايعةً لهم بالنّذارة، وفيه أيضًا تذكيرٌ للمُسْلمين بوعد اللّه تعالى بنَصْرِهم ومَحْقِ عَدوِّهم(2)، وجيء بـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ نكرةً لِما يُفيدُهُ التَّنكير مِنَ التَّكثير والتَّعظيم، والمعنى: كم مِن مدينَةٍ كبيرةٍ جامعةٍ عَتَتْ(3).

بلاغَةُ المجاز في لفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

في تعبيرِ البيان القُرآنيِّ بلفظ: ﴿قَرۡيَةٍ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المَحَلِّيَّة؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 333.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 333.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 165.

حدودُ اللهِ تَعالى مسؤوليَّة المجتمع كلِّه، وعقابُها ليس مقصورًا على مَن انتَهَكَها، أو تَعَدّاها

إذْ أُطْلِقَ لفظُ القرية، وأُريد أهلُها مِن الكفرة والمشركين الذين عتوا عن أوامر اللّهِ تعالى ورُسُله، والتَّعبير بلفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أنّ العذاب الذي نزل بالعاتين عن أوامر اللّه سُبحانَهُ كان من الشِّدَّة والعظمة لدرجَةٍ جَعَلَت قُراهُم بما فيها من جبال وأحجار كأنَّها تَشْعُر به، وتَفْزَعُ مِن هَوْلِه وشدَّته، وثَمَّ مَلْمَحٌ آخرُ يُستفاد من التّعبير بلفظِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وهو أنّ حدود اللّهِ تَعالى في أمر الطَّلاق وفي غيره من الأمور هي مسؤوليَّة المجتمع كلِّه، وعقابُها ليس مقصورًا على مَنِ انتهكها، أو تَعَدّاها[1].

بلاغةُ التَّعبير بفعل العُتوِّ ماضيًا:

أهلُ القرى السّابقة تجاوزوا الحدود في العتوِّ والاستكبار

قولُه تعالى: ﴿عَتَتۡ﴾ جملة فعليَّة في محلِّ رفْعٍ خبَرُ (كَأَيِّن)، وقد أوثر التَّعبيرُ فيها بفعل العُتوِّ؛ للدَّلالة على مبالغةِ أهْلِ القُرى المُتَحَدَّثِ عنها في العِناد، ومُجاوزَتِهم الحدَّ في الإعراضِ والاستكبار، والمَعْنى: استَكْبَرَت، وجاوَزَت الحدَّ في عِصْيانها وطُغْيانها، فأعرضَت عِنادًا[2]، وجيء به ماضيًا؛ للدَّلالة على وُقوعِ ذلك منها على سبيلِ القَطْعِ والجَزْم، مِن غير افتراءٍ أو ادِّعاءٍ، وهو ما ترتَّب عليه سرعةُ نُزولِ العذاب بها وبأهلِها.

وَجْهُ تعديةِ فِعْلِ العُتوِّ بـ ﴿عَنۡ﴾:

العتاةُ السّابقون استَهانوا بحدودِ الله تَعالى، ولم يتَلَبَّثوا عندها بالتَّفكير أو التَّدبُّر

في تعديةِ الفعل الماضي: ﴿عَتَتۡ﴾ إلى معموله: ﴿أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ بحرف المجاوزة ﴿عَنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ دلالَةٌ على استهانة هؤلاء المُعَذَّبين بحدود اللّه تعالى وعدم تلبُّثهم عندها بنوعٍ مِن التَّفكير أو التَّدبُّر المُفْضي إلى الامتثالِ والالتزام، ما يُؤَكِّد استكبارَهُم وإعراضَهُم، والمعنى: تجبَّرت، وتكبَّرت، واستهانَت مُعْرِضَةً عن أمر ربِّها ورُسُلِه، فلم تَمْتَثِل ذلك[3].

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره، ص: 161.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 165.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 336.

نكتةُ إضافَةِ الأمْرِ إلى لفظِ الرَّبِّ:

عظيمُ إحْسانِ اللهِ تَعالى لا يستحقّ العتوّ عَن أمرِهِ

أوثِر إضافَةُ الأمر إلى اللّهِ تَعالى بوصف الرُّبوبيَّة، في قوله تعالى: ﴿أَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ لكونه يدلُّ على تكبُّرهم وإعراضهم عن الالتزام بِحُدود ربِّهم على الرَّغم مِن أنَّهم غارقون في نِعَمِه، مُسَرْبَلون في إحْسانِه وكَرَمِه، ما يدلُّ على سوءِ طَبيعَتِهم، وخُبْث طَويَّتِهم، واستِحْقاقِهم ما نزل بهم مِن العذابِ الشَّديد.

لطيفَةُ إضافَةِ وصفِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ القَرْيَةِ:

لا حصْرَ للنِّعم التي اختصَّ اللهُ تعالى بها تلك القُرى

أوثِرت إضافة اسمِ الرَّبِّ إلى ضمير القريةِ، فقيل: ﴿رَبِّهَا﴾؛ لِما تُشْعِر به الإضافة من اختصاص أهلها بعظيم الرِّعاية، ووافر النِّعم، وكثير الخيرات التي لا يقدِرُ على رِزْقِهم بها أحدٌ سِوى اللّهِ جلَّ في علاه، والمعنى: عَتَوا عن أمرِ ربِّهم الذي أحسَنَ إليهم، ولا مُحْسِنَ إليهم غيره، بكثرةِ الرّزق، وطيبِ العَيْش، واللُّطف في التَّربية، والرَّحمة بعد الإيجاد والملك، وغير ذلك ممّا لا حَصْرَ لَهُ[1].

نكتةُ عطفِ الرُّسل بالواو، وسِرُّ إضافتهِ إلى الضَّمير:

الاجتراءُ على أوامرِ الرُّسلِ داخلٌ في الاجتراء على أوامرِ اللهِ تَعالى

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾؛ لعطفِ ما بَعْدَها على ﴿رَبِّهَا﴾، وقد أوثِرَ عطفُه بالواو التي تفيد الاشتراك في الحكم؛ للإشارة إلى أنَّ طاعةَ الرُّسل من طاعة اللّهِ سُبحانَهُ، وأنَّ العُتوَّ عن أوامرهم داخلٌ في العُتوِّ عن أوامر اللّهِ ﷻ، وفي إضافَتِهِم إلى الضَّمير العائدِ إلى اسم الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّهَا﴾ تشريفٌ لَهُم، وإعلاءٌ لقَدْرِهِم، وإيذانٌ بأنَّ عصيانَهُم مِن عِصيان اللّهِ تَعالى، والاجتراءَ على حدودِهم اجتراءٌ على حدود اللّه تَعالى، وفيه ما يدعو إلى توقير الرَّسول ﷺ، واحترام ما يأمُرُ به بوجهٍ عامٍّ، وما يأمُرُ بِهِ في أحكام الطَّلاق بوجهٍ خاصٍّ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 165.

معنى الفاءِ في ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾:

عُتوُّ أهلِ القُرى سببٌ في نزول العذاب بهِم

الفاءُ في قوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ حرفُ عطفٍ يُفيدُ بجانِبِ التَّعقيب مَعْنى التَّسبُّب، ما يَعْني: أنَّ عُتوَّ أهلِ القُرى عَن أوامر اللّه تعالى واجتراءَهُم على حُدودِه وتَجاوُزَهم شرائعَ رُسُلِهِم؛ تَسَبَّب عنه حسابُ اللّهِ تَعالى لَهُم، ونزولُ عذابِهِ بِهِم، على وجهٍ بالغٍ في الشِّدَّة والإسراع، وفيه مِن التَّعريض والتَّهديد ما لا يغيب، والمعنى: فتسبَّب عن عدَمِ شُكْرِهِم للإحسان أن أحصَيْنا أعمالَها[1].

دلالَةُ التَّعبير بـ (حاسَبْناها) مادَّةً وصيغةً:

الحدودُ التي تُتَجاوَزُ في أمْرِ الطَّلاق داخلَةٌ في دائرَةِ الحِسابِ دُخولًا بُرْهانيًّا

تعبير القرآنِ الكريم بالفِعْلِ (حاسَبْناها) يجوزُ أن يكون على حقيقَتِه، فيُراد به: حسابُ الآخرة، وشِدَّتُه يُرادُ بها: قوَّةُ المناقشَةِ فيه، والانتهارُ والتَّوبيخُ على كلِّ سيِّئَة ارتَكَبوها، وكلِّ حدٍّ تجاوَزوهُ، وتَعَدَّوْهُ، ويَدْخُلُ فيها الحدودُ التي تَجاوَزوها في أمْرِ الطَّلاق دُخولًا بُرْهانيًّا، والتَّعبير فيهِ بالماضي دونَ المُضارع دالٌّ على تأكُّد حُصول الحِساب مِن غيرِ شكٍّ أو رَيْبٍ، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبير بفِعْلِ الحِساب مُستَعمَلًا في الجزاءِ على الفِعْلِ بِما يُناسِب شدَّتَه مِن شديد العقاب؛ تشبيهًا لتَقْدير الجزاءِ بإجراء الحساب بين المُتعامِلين، وهو الحسابُ في الدُّنيا، ولذلك جاء ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾، و(عَذَّبْناها) بصيغة المُضيِّ، والمعنى: فَجازَيْناها على عُتوِّها جزاءً يكافِئُ طُغْيانَها واستكبارَها[2].

بلاغَةُ الالتفاتِ في الضَّمائر:

حسابُ مَن تجاوَزَ حدودَه بعامَّةٍ، وحدودَ الطَّلاق بخاصَّة

كان مقتضى الظّاهر أن يُسنَد فعلُ الحساب إلى الضَّمير العائد إلى اسم (الرَّبِّ) في ﴿رَبِّهَا﴾ على وجهِ الغَيْبَةِ، بأن يُقال: (فحاسَبَها...)، لكنَّ النَّظم الكريم عدل إلى التَّعبير بضمير التَّكلُّم قائلًا: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾؛ لأنّ الكلام إذا نُقِل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 165.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 334.

كان أحسنَ تطريةً لنشاطِ السّامعِ وإيقاظًا للإصغاءِ إليه مِن إجرائهِ على أسلوب واحدٍ[1]، ولِما يُفيده العدولُ إلى أسلوبِ التَّكلُّم هنا مِن شدَّة التَّهديد، والإشعارِ بعِظَم الجُرم الذي ارتكبَهُ أهلُ هذه القُرى التي اجتَرَأت على حُدودِ اللّهِ تعالى وحُدودِ رُسُلِه الكِرام، وفيهِ إلماحٌ إلى أنَّ اللّه تعالى سَيَتَولّى بنَفْسِهِ مُحاسبَةَ مَن يتجاوز الحدودَ التي حدَّها في أمْرِ الطَّلاق وفي غيره، حتّى لا يَجْتَرِئَ عليها أحدُ الطَّرفين؛ نكايةً في الآخر أو انتقامًا منهُ.

موقعُ ﴿حِسَابًا﴾ الإعرابيُّ، ودلالَةُ وصْفِهِ بالشِّدَّة:

حسابُ العاتينَ عَن أوامرِ الله تَعالى شاملٌ لا هوادَةَ فيهِ ولا تَجاوُزَ

قوله: ﴿حِسَابًا﴾ مفعولٌ مطلَقٌ يُفيد تأكيدَ قيام اللّهِ تعالى بمُحاسَبَة الذين يَجْتَرِئون على أوامرِه وأوامرِ رُسُلِه؛ تأكيدًا ينفي أدنى شكٍّ في حسابِهم، ووَصْفُه بالشِّدَّة لبيانِ نوع هذا الحسابِ، وتوضيحِ أنَّه حسابٌ لا هوادَةَ فيهِ ولا تَجاوُزَ، وأنَّه سَيكونُ على قَدْرِ ما عَتَوا، واستكبروا بالمعنى المُطابَقيِّ، مِن ذِكْرِ الأعمالِ كُلِّها على سبيل الاستقصاء والمجازاة عليها من غيرِ استِثناءٍ لشَيءٍ مِنها مَهْما كانَ[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ المَوصوفِ وصِفَتِه:

حقيقةُ حسابِ العاتين ومَدى شِدَّته لا يُحيطُ بهما أحدٌ إلّا الله تَعالى

جيءَ بالمفعولِ المُطلق وصِفَته نَكِرَتَيْن، فقيل: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾؛ للإشارة إلى أنَّ حقيقة الحساب ومدى شِدَّته لا يُحيط بهِما إلّا اللّهُ ﷻ، ولو كان في اللُّغَةِ ما يفي بحَقيقَتَيْهِما؛ لعُبِّر بهِ عنهُما، وفيه من التَّرهيب من شِدَّة الحساب وصُعوبَته ما يُثير المُتَلَقّي إلى توقير ما شرعَهُ اللّهُ تَعالى، واحترام ما حدَّه من حدودٍ في كلِّ جوانبِ الحَياة.

بلاغَةُ الجِناس في الجُمْلَةِ:

بين قوله تعالى: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾ وقولِه: ﴿حِسَابًا﴾ جناسُ الاشتِقاق؛ إذِ اجتَمَع اللَّفظان في أصل الاشتِقاق، واجتماعُهما هنا دالٌّ على أنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 14.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

حِسابُ العاتين سَيَكونُ مُكافِئًا لإعْراضِهِم واستِكبارِهِم

الحساب سيكون على قدر العمل ومِن جِنْسِه، وسيكون فيه مِن الإهانة والازدراءِ بقَدْرِ ما كان منهم مِن الإعراض والاجتراءِ والاستكبار؛ إذِ الاجْتراء على حدود اللّه تَعالى والاستهانةُ بشَريعَةِ رُسُلِه الكرام من الكبائرِ التي لا يُتسامَحُ فيها، ولا يُمْكِنُ التَّجاوز عنها؛ لِما هو مَعْروفٌ مِن أنَّ اللّه تَعالى حدَّ تلك الحدود، وسمّاها بهذا الاسْم؛ ليَضَعَ بها ضوابِطَ صارِمَةً، وقواعِدَ فاصلَةً تحفَظُ للنّاس حُقوقَهُم، وتَضْمَنُ عدَمَ طُغْيانِ قَويِّهم على ضَعيفِهِم، ومِن ثَمَّ فإنَّ تَجاوُزَها اعتداءٌ على اللّهِ تَعالى، واستهانَةٌ به، واعتداءٌ على خَلْقِه، وظلمٌ لهم، ومثلُ هَذا لا بُدَّ أن يكونَ حسابُه شديدًا، وعقابُه رادِعًا.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في شِدَّةِ الحِساب:

سَيُحاسِبُ اللّهُ تَعالى العاتين على كلِّ أعمالِهم

إخبار البيانِ القُرآنيِّ بأنَّ اللّه تعالى سَيُحاسِب العاتين على أمرِه حِسابًا شَديدًا، فيه كنايَةٌ عَن أنَّ هؤلاء سيكونُ وُقوفُهم للحسابِ طَويلًا، وليسَ قَصيرًا؛ لأنَّ استِهانَتَهُم بحُدود اللّه تَعالى، وتعدّيَهم عليها سيكونُ سَببًا في مُناقَشَة كلِّ الأعمالِ التي اقْتَرَفوها طوال حياتِهِم، وسَيُجْزَون على كلِّ فعلٍ بما يليقُ به، بخلافِ غيرِ العاتين، فإنَّهم سَيُحاسَبون حسابًا يسيرًا، بعرض الأعمالِ فَقَط مِن غيرِ جَزاءٍ على قَبيحِها[1]، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ [الانشقاق: 7 - 9].

معنى الواوِ في ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾:

عِقابُ العاتين سَيَعْقُبُ حِسابَهُم على وجهٍ بالِغٍ في الإسراعِ كأنَّه يُصاحِبُهُ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾؛ لعطفِ ما بَعْدَها على ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾، وقد أوثِرَ عطفُها بالواوِ التي تُفيدُ المُصاحَبَة؛ للإشارَةِ إلى أنَّ العقابَ سَيَعْقُب الحساب على وجهٍ بالغٍ في الإسراع كأنَّه يُصاحِبُه، أي: كأنَّه يَحْصُل في الوقت الذي يَتِمُّ فيه الحسابُ، من غيرِ فارِقٍ زمنيٍّ، ما يدلُّ على هولِ الموقف وشدَّته.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

دلالة التَّعبير بفِعْلِ العَذاب ماضيًا، مُسْنَدًا إلى ضميرِ العظمَةِ:

الإيماءُ إلى شدَّة العذابِ وعظَمَتِه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن العذابِ الذي سَيَحْدُثُ للعاتين في الآخرة بالفعلِ الماضي: ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾؛ تشبيهًا للمُستقبَل بالماضي في تحقُّق الوقوعِ وتأكُّد الحصول، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، ولا يمنع ذلك مِن أن يكونَ فيه إشارَةٌ إلى ما نَزَلَ بأهْلِ هذهِ القُرى مِن عذابٍ دُنْيَويٍّ يعرِفُهُ المُخاطَبون، ويشاهدون آثارَهُ باقيَةً، يَمُرّون عليها في أسفارِهِم، وجيء بفعل العذاب مُسْنَدًا إلى ضمير العظمة بصيغَةِ التَّكلُّم إبلاغًا في التَّهديد والتَّخويف؛ لما فيه مِن الإعلامِ بعَظَمةِ العذابِ وجلالَتِهِ وشدَّتِه.

لطيفَةُ تعدية فِعلَي الحِساب والعذابِ إلى ضميرِ المؤَنَّث:

العاتون المُستكبِرون صاروا عندَ الحساب والعذاب كالنِّساء في الضَّعف والعجزِ

عُدّي فِعْلا الحسابِ والعذابِ إلى ضميرِ القَرية بصيغة المُؤَنَّث، دون ضمير الجَمْعِ العائدِ إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾، وقال: ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾، مع أنَّ المُرادَ أهلُ القُرى، دون أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (فحاسبناهم) (وعذَّبناهم)؛ جريًا على الظّاهر في التَّعبير عن المُؤَنَّث السّابق ذِكْرُه بالضَّمير، وللدّلالة على أنَّ أهلَ تلك القُرى - الذين بَلَغوا في العتوِّ والاستكبارِ على أمْرِ اللّهِ تَعالى مبلغًا لا نظيرَ لَهُ - صاروا عندَ الحِساب والعذاب كالنِّساء في الضَّعف والعجْز، وفقدانِ الحولِ والطَّولِ الذي يحولُ بينَهُم وبين شدَّة الحِساب، ونكارة العذاب، وفي ذلكَ مِن الإهانة ما لا يَخْفَى.

دلالة التَّعبير بِلَفْظِ ﴿عَذَابٗا﴾ نكرةً:

عذابُ العاتين على حدودِ اللهِ تَعالى لا يُحيط أحدٌ بحقيقَتِه

قولُه تعالى: ﴿عَذَابٗا﴾ مفعولٌ مطلق يُفيد تأكيدَ تعذيبِ اللّهِ تَعالى للَّذين يَجْتَرئون على أوامرِهِ وأوامرِ رُسُلِه؛ تأكيدًا يحولُ دون الشَّكِّ في وقوعِ العذاب، ويُحَذِّر العاتين من الاستمرارِ عَلى ما هُم فيه، ويُحَذّر غيرَهُم، ويُثيرُهُم إلى النُّفور من أن يكونوا مِثْلَهُم، أو يسيروا على مَنْهَجِهم في العُتوِّ والاستكبار على حدودِ اللّهِ تَعالى، في أيِّ

جانِبٍ مِن جوانبِ الحَياة، وجيء به نكرةً؛ للإشارة إلى أنَّ حقيقةَ هذا العذابِ وماهيَّتَهُ لا يُحيطُ بها أحَدٌ إلّا اللّهُ جلّ في علاه، وفيه مِن التَّرهيب ما لا يَغيبُ.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿نُكۡرٗا﴾ نكرةً:

عـذابُ العاتين على حُدودِ اللهِ سُبحانَهُ سَيُنْكِرُه الـرَّأيُ مِـن فظاعتِه إنكارًا شديدًا

قوله تعالى: ﴿نُكۡرٗا﴾ صفةٌ للمَفعولِ المُطْلَق، وأوثِر وصفُ المَفعولِ به؛ لبَيانِ نَوْعِ العذابِ الذي سَيُعَذِّبه اللّه تَعالى للعاتين على حدوده، وتأكيدًا أنَّه عذابٌ يُنْكِره الرَّأي من فَظاعَةِ كيفيَّته إنكارًا شديدًا[1]، وجيءَ به نَكِرَةً؛ للإشارةِ إلى أنّ نكارتَهُ لا يُحيط بها أحدٌ إلّا اللّهُ تَعالى، وأنَّها مِن الشِّدَّة والقوَّة لدرجةٍ تجعَلُ العقلَ يحير في أمرِه؛ لأنَّه لم يَرَ مثلَهُ ولا قريبًا منهُ؛ ليَعْتَبِرَ به، ويتَّعظ[2].

بلاغَةُ الجِناس في الجُمْلَة:

مَـنِ اجـتَرأ على الـلـهِ تـعـالى؛ جَـعَـلَـهُ الـلـهُ سُبحانَهُ عبرةً للمُعْتَبِرين

بين قوله: ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ وقوله: ﴿عَذَابٗا﴾ جناسُ الاشتقاق؛ إذِ اجتَمَعَت الكَلِمَتان في أصلِ الاشتِقاق، واجتِماعُهُما هنا دالٌّ على أنَّ عذابَ القُرى التي عتا أَهْلُها على أوامِر ربِّهم، وتَجاوَزوا حُدودَهُ في مُخْتَلف مَناحي الحياة بِما فيها حدودُ الطَّلاق وضوابطه سيكون على قَدْرِ عَمَلِهم ومِن جِنسِه، وسيكون فيه مِن الإهانة والازدراء بقَدْرِ ما كان منهم مِن الإعراضِ والاجتِراء والاستكبار؛ لأنَّ عتوَّهم على حدودِ اللّه تَعالى بمنزلة الاجتراء على اللّهِ ﷻ، ومَنِ اجتَرَأَ على اللّه تَعالى؛ كان حقًّا على اللّهِ تَعالى أن يَجْعَلَهُ عبرةً للمُعْتَبِرين.

نكتَةُ تقديمِ الحِساب على العذابِ:

الـعـاتـون على حـــدودِ الـلـهِ تَعالى سَيُعَذَّبون عـذابًـا نَـفْـسيًّا وآخَرَ حِسّيًّا

قدَّمتِ الآيةُ الكريمةُ الحسابَ على العذابِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾؛ جريًا على العادة في أنَّ الحِساب يكونُ قَبْلَ العِقاب، ولأمْرٍ آخَرَ يتمَثَّل في أنَّ دقَّة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

الحِساب وشدَّتَهُ وانتِهارَهُ فيها نوعٌ مِن العذاب النَّفسيِّ الذي يسبِقُ العذابَ الحسّيَّ، فيَجتَمِعُ بذلك على العاتين نوعانِ مِن العذاب، أوَّلُهما نَفْسيٌّ، وهوَ الانتهارُ والتَّوبيخ والوقوف مع كلِّ عمَلٍ عملوهُ بالسُّؤال والمناقشة، والآخر: العذابُ النُّكْر، الذي سيكون حسّيًّا لا محالة، فعن عائشَةَ رضي الله عنها: أنّ رَسولَ اللّه ﷺ قالَ: «لَيْسَ أحَدٌ يُحاسَبُ يَوْمَ القيامَةِ إلّا هَلَكَ»، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللّه، ألَيْسَ قَدْ قالَ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: 7 - 8]، فَقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «إنَّما ذلِك العَرْضُ، ولَيسَ أحَدٌ يُناقَشُ الحِسابَ يَومَ القيامَةِ إلّا عُذِّبَ»[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَذَاقَتْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَذَاقَتْ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيدُ بجانِبِ التَّعقيب معنى التَّسبُّب، والمَعْنى: فذاقَت بسَبَبِ عُتوِّها على حدودِ اللّه تَعالى، وما تَرَتَّب عليه مِن شِدَّة الحسابِ ونكارة العذاب عقوبةَ ذلك العُتوِّ وألَمَ ذلك الاجتراء[2].

بلاغةُ المَجاز في التَّعبير بفِعْلِ الذَّوْق:

التَّعبير عن إحساسِ العاتي بالعذابِ وشُعورِه بآلامِه بالذَّوق في قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السَّببيَّة[3]؛ إذِ الذَّوْقُ سببٌ رئيسٌ في الإحساسِ، ويجوز أن يكونَ مِن بابِ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة، التي شُبِّه فيها نزولُ العَذاب بالذَّوق، ثُمَّ حُذِفَ المُشَبَّه بعد تَناسي التَّشبيه وادِّعاءِ أنَّ المُشَبَّه فَرْدٌ مِن أفراد المُشَبَّه به، واشتُقَّ منه (ذاقَتْ) بمعنى: عُذِّبت على سبيلِ الاستِعارَةِ التَّبعيَّة، التي تُصوِّر نُزولَ العذابِ ووُقوعَهُ بالشَّيء المحسوس ترهيبًا مِنْهُ، وتحذيرًا مِن مُزاولةِ أسْبابِه.

تَصويرُ وُقوع العذاب بالشَّيء المحسوسِ تَرْهيبًا منهُ، وتحذيرًا مِن مُزاوَلَة أسْبابِه

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (103)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2876).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.

وجهُ التَّعبير بفِعْلِ الذَّوق ماضيًا، مُسْنَدًا إلى ضمير القَرْيَةِ:

سيذوقُ الجميعُ وبالَ الاجتراءِ على حدودِ الله تعالى، وسَيَعْرِفُونَ عاقِبَتَه

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بفِعْلِ الذَّوق ماضيًا، فقال: ﴿فَذَاقَتْ﴾؛ لدلالته بمعناه ومبناهُ الذي يتوسّطه حرفُ المدِّ على حصولِ العذابِ ووُقوعه بما لا يدَعُ مَجالًا للشَّكِّ؛ تشبيهًا للمُستَقبَل بالماضي في تحقُّق الوقوعِ وتأكُّد الحصول، وللدّلالة على عُمْقِ أثَرِه فيهم، وشدَّة ألَمِهم، وعِظَم فَجيعَتِهم بسَبَبِه، وإسنادُه إلى ضمير القَرْيَةِ دالٌّ على أنَّ جميعَ أهلِها ذاقوا وبالَ اجترائِهم على حُدودِ اللّه تَعالى، وأدركوا نَكارتَه بلا استثناءٍ.

نكتَةُ إضافَةِ الوَبالِ إلى الأمْرِ:

سَيَذوقُ العاتون الوبالَ الذي تسبَّب لهم فيه أمرُهم وشأنُهم الذي كانوا عَليه

إضافةُ الوبالِ - الذي يَعْني الوخامةَ والسّوء - إلى الأمرِ المُضافِ إلى ضمير القَرْيَةِ في قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ مُشْعِرٌ بأنَّ وخامةَ العذابِ وسوءَه ونكارتَه مردُّه إلى الحالِ التي وصَلَ إليها أهلُ تلْكَ القُرى في العتوِّ عن أمْرِ اللّهِ تَعالى ورُسُله، وتجاوز حدودهما، وعدم الأخْذِ بشَريعَتِهما، والاحتكام إلى ما يَشْرَعُه كلُّ واحدٍ منْهُم لنَفْسِه، وما يأمُرُهُ به هَواهُ، فإضافة ﴿وَبَالَ﴾ إلى (أمْرِ) من إضافَةِ المُسَبَّب إلى السَّبب، والمعنى: ذاقوا الوبالَ الذي تسبَّب لهم فيه أمرُهم وشأنُهم الذي كانوا عليه[1].

نوعُ التَّشبيه وبلاغَتُه في قوله: ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾:

أهلُ القُرى أقْبَلوا على ما فيهِ هَلاكُهم وعذابُهم، كما تُقْبِلُ المَواشي على المَراعي المُهْلِكة

يُطلَق (الوَبالُ) في لسان العرب على المَرْعى؛ إذا كان كَلَؤُه وخيمًا ضارًّا لما يرْعاهُ، وإضافتُه إلى الأمر من باب التَّشبيه البليغ الذي يُضاف فيه المُشَبَّه به إلى المُشَبَّه، كما في قولنا: ذَهَبُ الأصيل، ولُجَيْن الماء، وفيه مثَّل التَّعبيرُ القرآنيُّ الأمرَ بالمَرْعى الوَخيم الذي يُمْرِضُ، ويُهْلِك[2]؛ تشبيهًا محذوفَ الأداةِ للإبلاغِ في تَوْصيفِ الحالِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

التي كانوا عليها، ولبيان أنَّ أهلَ هذه القُرى فَعَلوا ما فيهِ هَلاكُهم وعذابُهم؛ تنفيرًا مِن تَعاطي أسبابِ هَلاكِ السّابقين، وتحذيرًا مِن الوُقوعِ فيها.

دلالَةُ استعمالِ الأمْرِ دونَ العتوِّ ونحوِه:

اتِّفاقُ العُتاة والائتمارُ فيما بينَهُم على إنفاذِ العُتوِّ والإصرارِ عليه

المرادُ بـ ﴿أَمۡرِهَا﴾: الحالُ التي كان عليها أهلُ تلك القرى مِن العتوِّ والاستكبار على حدودِ اللّه تعالى، وشرائعِ رُسُلِه، كما هو مفهومٌ من السّياق، وأوثِرَ التَّعبير به دون العتوِّ والاستكبار، فلم يُقل: (وبال عتوِّهِم، أو استكبارِهم)؛ للدّلالة على أنَّهم كانوا يَأتَمِرون فيما بينَهُم لِهَذا العُتوِّ، ويتَّفقون مع بَعْضِهِم على إنفاذه، والمَعْنى: ذاقتْ وبالَ العُتوِّ، وجميعَ ما كانت تأتمرُ فيه[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾:

عاقبةُ العاتينَ ومآلُ استِكبارِهِم هو الخُسْرانُ المُبين

الواو في قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ هي واوُ الاستئنافِ، والجملة بعدها استئنافيَّةٌ، جيءَ بها لتَيْئيسِ العاتين مِن تغيُّر مآلِهم، وتبدُّل مصيرِهم؛ لأنَّ الإنسان قد يذوقُ العذابَ، ثُمَّ يَعْقُبُه الخيرُ والسَّلامة[2]، وأيضًا فإنَّ المعتاد أنْ يُسَلّيَ كلُّ مقهور نفسَه، ويُمَنّيها بانتظار العاقبَة[3]، فكان الغرضُ مِن هذه الجملة هو التَّنبيهَ على أنَّ عاقبة العاتين عن أوامرِ اللّه تعالى ومآلَ استكبارهم هو الخُسْران المبين لا غير.

نكتةُ التَّعبير بفِعْلِ الكوْنِ مادَّةً وصيغةً:

عقابُ العاتين عَلى حُدودِ اللهِ مُقَدَّرٌ في الأزل

أوثر التَّعبيرُ في جملة: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ بالفعل (كان)؛ للدَّلالة على أنَّ هذا النّوع من العذاب - سواءٌ حصل في الدُّنيا أم في الآخرة - مُعَدٌّ ومُقدَّر في الأزلِ لكلِّ مَنْ يَعْتو على حدودِ اللّهِ تَعالى، ويَرْفُض الانصياع لها، ويسير في علاقتهِ معَ النّاس وفق أهوائه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 248.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

وتبعًا لمِزاجِه، وجيءَ به بصيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن عاقِبَتِها في الدُّنيا تغليبًا، وفي كلِّ ذلك تفظيعٌ لِما لَحِقَهُم؛ مبالغةً في التَّحذير ممّا وقعوا فيه[1].

لطيفة إضافة العاقبة إلى الأمر:

عذابُ العاتين على أمْرِ اللهِ تَعالى ورسلِه يَنْزِلُ في أعقابِ العُتوِّ مباشرةً

قولُه تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسم (كانَ)، وقد أوثِرَت إضافَتُه إلى ﴿أَمْرِهَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحسابَ الشَّديدَ والعذابَ النُّكْرَ الذي سبق الإخبارُ بِهِ حدث للعاتينَ عَن أمْرِ اللّهِ تَعالى ورسله، وسَيَحْدُثُ لِمَن ينهَجُ نَهْجَهُم في أعقابِ العُتوِّ مباشرة، فلَم ولَن يتمَّ إمهالهم أو التّأخُّر به عنهم، ما يعني: أنَّ شناعةَ جُرْمِهم وفظاعةَ ذَنْبِهم أوجبَت نُزولَ العذابِ بِهِم على وجهٍ بالغٍ في الإسراعِ في الدُّنيا، يُزاد عليه ما أعدَّه اللّهُ تعالى لَهُم في الآخرة، والمعنى: آخر عَمَلِها الذي كانت فيه ومنتهاهُ[2].

دلالَةُ التَّعبير بِلَفْظِ ﴿خُسْرًا﴾ نَكِرَةً:

لا خسرانَ أعظمُ مِن خسرانِ العاتينَ عَن حُدودِ اللهِ تَعالى

قولُه تعالى: ﴿خُسْرًا﴾ خبَرٌ للفِعْلِ النّاسخ، وقد أوثر التَّعبير به؛ للدّلالة على أنَّ تلك القرى الظّالمة العاتية قد ذاقت عاقبة أمرِها الوَبيل، وتجرَّعت كؤوسَ العذاب، فكانت نهايتُها الخسرانَ المُبين في الدُّنيا؛ إذ دمَّر اللّه تَعالى عليها وعلى أهْلِها[3]، وفيه دلالةٌ على أنَّهم يُعذَّبون عذابًا نفسيًّا بجانب العذابِ الحسّيّ؛ تنفيرًا مِن فِعْلِهم، وتحذيرًا مِن السَّير على مِنْوالِهم، وأوثِر تنكيرُهُ لِما يُفيدُهُ التَّنكير من التَّعظيم والتَّفخيم، والمعنى: وكان عاقبةُ أمرِها خُسْرًا هائِلًا، لا خُسْرَ وراءَه[4]، ولا مانع مِن أن يكون نفسُ الخُسْرِ في الدّارين، فكُلّما امتدَّ الأمر؛ وجدوهُ أمامَهُم، فإنَّ مَن زَرَعَ الشَّوك؛ لا يجني

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 166.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1016.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 263.

الوِرْدَ، ومَن أضاع حقَّ اللّه تَعالى؛ لا يُطاع في حظِّ نفسه، ومَن احتَرَقَ بمُخالَفَة أمرِ اللّه سُبحانَهُ؛ فَليَصْبِر على مُقاساةِ عُقوبتِه[1].

نوعُ المجازِ وبلاغَتُهُ في التَّعْبير بالخُسْران:

تصويرُ حالِ عاقِبَةِ العاتين السَّيئة بحال التّاجر الذي خَسِرَ مالَهُ وتِجارَتَهُ

التَّعبير بـ ﴿خُسْرًا﴾ استعارةٌ تَصْريحيَّة، شُبِّه فيها حالُ عاقِبَةِ العاتينَ عَن حُدودِ اللّه السَّيِّئة بحال التّاجر الخاسِر في تِجارَتِه؛ ذلك أنَّهم لمّا عتوا عن أمر ربِّهم؛ حَسِبوا أنَّهم أرضَوا أنفُسَهُم بإعراضِهم عَنِ الرّسل، وانتصروا عليهم، فَما لَبِثوا أن صاروا بمَذَلَّة وهوانٍ وندَمٍ، كَما يصير التّاجر عندما يَخْسَرُ مالَهُ وتِجارتَهُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَرْيَة والمدينة:

مَنِ اجترأ على حدودِ اللّهِ تَعالى؛ عاقَبَهُ اللّهُ سُبحانَهُ أينما كانَ

القريةُ: كُلُّ مَكانٍ اتَّصلَتْ بِهِ الأبْنِيَةُ، واتُّخِذَ قرارًا، وتَقَعُ عَلى المُدُنِ وغَيْرِها، والجَمْعُ قُرًى[3]، وسُمّيَتْ قَرْيَةً لاجْتِماع النّاس فيها[4]، ولا يُلْحَظُ فيها التَّحَصُّن، وعبَّر بها القرآنُ مفردةً ومثنّاة ومجموعةً فيما يُقارِب الخمسينَ موضِعًا، أمّا المدينةُ؛ فهيَ اسْمٌ للمِصْرِ الجامعِ المُحَصَّنِ، وأصلها: الحصنُ يُبنى في أُصْطُمَّة الأرض - أي: مُعظَمِه - وكلُّ أرضٍ يُبنى بها حِصْنٌ في أُسْطُمَّتِها، فهيَ مدينَةٌ، أطْلَقَها القرآنُ على العواصِم ونحوِها[5]، واستَعْمَلَها مفردةً ومجموعَةً فيما يُقارِبُ سبْعَ عشرةَ مرَّة، وهذا يعني أنَّ القريةَ أعمُّ من المدينةِ، وأقلُّ سُكّانًا منها، ومِن ثَمَّ أوثر التَّعبير بها لعُمومها وشُمولها القرى والمُدَنَ، بخلاف لفظ (المدينة) الموحي بأنَّ عقاب العتوِّ مقصور على أهلِها، وهو معنًى واضحُ الفساد؛ ولذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.
(3) الحموي، المصباح المنير: (قري).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قري).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).

كان التَّعبير القرآنيُّ دالًّا على أنَّ مَنِ اجترأ على حدود اللّٰهِ تَعالى؛ عاقبهُ اللّٰهُ ﷻ أينما كانَ.

مَن اجترأ على حدود اللّٰهِ تَعالى؛ خَسِرَ خسرانًا هائلًا أيًّا كان اجْتِراؤُهُ

العُتوّ والبَغْي والطّغيان والظّلم:

العُتوُّ هو: النُّبوُّ عن الطّاعة، والمبالغةُ في المكروهِ[1]، والبَغْيُ: التَّعدّي والاستطالة[2]، والطُّغيان: مُجاوزَة الحَدِّ في المَكْروه مَعَ غَلَبَة وقهْرٍ[3]، أمّا الظُّلم؛ فأصلُه وضْعُ الشَّيء في غير موضعِه[4]، ويُفهَم مِن هذه التَّعريفاتِ أنَّ العُتوَّ دون البَغْيِ والطُّغيان والظُّلم، ومع ذلك أوثِرَ التَّعبير به؛ للدّلالة على أنَّ أيَّ تعدٍّ أو تجاوزٍ لحدود اللّٰهِ تَعالى بعامَّة، وحدودِهِ في أمر الطَّلاق بخاصَّةٍ؛ فإنَّ فاعلَهُ يَسْتَحِقُّ الحساب الشَّديد، والعذاب النّكر، والخسران المُبين؛ لأنَّه اجترأ على اللّٰهِ تَعالى، ومَنِ اجْتَرَأَ على اللّٰهِ تعالى؛ اشْتَدَّ حسابه، وعظُم عقابه، وخَسِر خسرانًا هائلًا، مَهْما كانَ اجتراؤُهُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 230، والراغب، مفردات القرآن: (عتو).
(2) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (بغى).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(4) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (ظلم).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾ [الطلاق: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ ما أعدَّه اللهُ تَعالى للعاتين عن أمرِه في الآخرة بعدَ ذِكْرِ ما نزل بهم في الدُّنيا

بعد أن بيَّنت الآيتانِ السّابقتان عقابَ القرى التي عتَت عن أمر ربِّها ورسله، وما أنزله اللّهُ تَعالى بها مِن عذابٍ بِسَبَبِ ذلك؛ ناسب أن توَضِّح هذه الآيةُ ما أعدَّه لهم من عذابٍ في الآخرة، وأن تَدْعوَ المؤمنين إلى تَقْوى اللّهِ تعالى، والاتِّعاظ بما أنزَلَهُ إليهم مِن ذِكْرى وتحذيرٍ في القرآن الكريم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: (لبب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ، ومِنْهُ اللُّبُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وهوَ خالِصُهُ، وما يُنْتَقى مِنْهُ، ولِذلِكَ سُمّيَ العَقْلُ لُبًّا[2]، فاللُّبُّ هو: العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان من معانيه، وقيل: هو ما زَكى من العَقْلِ، فكلُّ لبٍّ عقلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا، ولهذا علَّقَ اللّه تَعالى الأحكام التي لا تُدْرِكها إلّا العقولُ الزَّكيَّة بأولي الألْبابِ[3]، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]، وليس في القرآنِ الكريمِ من التَّركيب إلّا كلمة ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بهذا المعنى[4].

2) ﴿ذِكۡرٗا﴾: (ذكر) أَصْلانِ، أَحَدُهُما: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، يُقالُ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلى ذُكْرٍ - بِضَمِّ الذّالِ - أي: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ: العَلاءُ والشَّرَفُ[5]، والذّكر

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 459.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (لبب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

ذِكرانِ: ذكرٌ عَن نسيانٍ، وذكرٌ عَن إدامَةِ الحِفْظِ، ومِن الثّاني قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: 43]، أي: الكتب المُتَقَدِّمة، وقولُه: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾[1]، معناه: القرآن الكريمُ أو الرَّسولُ الأمينُ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

على المُؤْمنين أنْ يتَّعظوا بما يذكِّرُهم به القرآنُ الكريمُ

تُبَيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ ما أصاب أهلَ القُرى التي عتَت عَن أمْرِ ربِّها ورسله مِن عذاب في الدُّنيا ليس نهايةَ المَطاف؛ لأنَّ اللهَ تعالى هيَّأ لهم عذابًا أشدَّ منه وأبقى في الآخرة، ومِن ثَمَّ فَعَلى أولي الألباب الذين آمنوا باللّه تَعالى حقَّ الإيمان أن يَتَّقوه، فَيَلْتَزِموا أوامرَه، ولا يتجاوزوا حدودَه، فهو الذي أنزل عليهم القرآنَ؛ ليذكِّرهم بما فيه عمّا غَفَلوا عنه مِن سلامة العقيدة، وكريم الأخلاق، وجميل الآداب، والالتزام بأوامر اللّه سُبحانَهُ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الآيةِ عَن سابِقَتِها:

عذابُ العاتين في الدُّنيا يَتْبَعُه عذابٌ خاصٌّ في الآخرة

جاءت جملة: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لكمال الاتِّصال الذي تُنَزَّل فيه الجملةُ المفصولة ممّا قبلها منزلة التّابع من المتبوع، فتُفصَل عنها كما يُفصلان، ذلك أنَّ جملة: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ بمنزلة البيانِ لقوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾، أو بمنزلةِ البدل منهُ، أو التَّأكيد له، ويجوزُ أن يكون الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سُؤالٍ أثارَتْهُ الجُملةُ الأولى، تقديرُه: هل لهذه القرى عذابٌ غيرُ ما نزل بها؟ فتأتي الجملةُ الثّانيةُ لتُبيِّن أنَّ لهم في الآخرةِ عذابًا خاصًّا، بجانب العذاب الذي نَزَلَ بهم في الدُّنيا[4].

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ذكر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 337.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 460.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 560، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 167، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 365، 366.

دلالة التَّعبير بفعل الإعداد ماضيًا، مُسندًا إلى الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾:

العذابُ الذي أعدَّه اللهُ تعالى للعاتين سيكونُ في الآخرة

في التَّعبير بفعل الإعداد إشارة إلى أنَّه عذاب مُهيَّأٌ مُحْكَمٌ، وفيه تهويلٌ لهذا العذاب؛ إذ أُعِدَّ على وجهٍ خاصٍّ يليقُ بجُرْمِهم وعُتوِّهم، وعُبِّر به ماضيًا؛ لإفادةِ التَّحقُّقِ والوقوعِ، فالعذاب مُعَدٌّ لَهُم سَلَفًا، ليس بينَهُم وبين حلولِه عليهم إلّا أن يموتوا، وإسناده إلى الاسْمِ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ - الذي لا يُعبَّر به إلّا في مواضع التَّأليه والتَّعظيم - فيه نوعٌ مِن تهويلِ العذاب وتضخيمه؛ لِما فيه مِن دلالة على أنَّ القائم على إعداده وتجهيزه للعاتين عن أمرِه في الطَّلاق وغيره هو الملكُ الأعظمُ ذو العزَّة والجبروتِ.

دلالةُ القَيْدِ ﴿لَهُمۡ﴾ مُقدَّمًا:

العذابُ الأخرويُّ للعاتين عن أوامِرِ الله تَعالى مُجَهَّزٌ لهم، ولا يُعذَّبُ به غيرُهم

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ حرف جرٍّ يدلُّ على أنّ العذاب الشّديد الذي أعدّه اللّه تعالى، وهيَّأه في الآخرة مخصوصٌ بالعاتين مِنْ أهلها عَن أمرِ اللّه تَعالى ورسله، ولا يُعَذَّب به أحدٌ غيرهم.

والقيد ﴿لَهُمۡ﴾ متعلّق بفِعْلِ الإعْدادِ، جيءَ به مُقَدَّمًا على المفعول به ﴿عَذَابًا﴾؛ لتَقْوِيَةِ اختِصاصِ العذاب بأهل القُرى التي عتَت عَن أمر ربِّها ورُسُله، ولتأكيدِ كونِه مُعَدًّا لهم، مُجَهَّزًا من أجْلِهم، لا مِن أجل أقوامٍ أو أُناسٍ آخرين.

وَجْهُ تنكيرِ ﴿عَذَابًا﴾، ولطيفةُ وصْفِه بالشِّدَّة:

عذابُ العاتين في الآخرة لا يُقادَرُ قدرُه، ولا تحيطُ العبارةُ بوصفِه

أوثِر تنكيرُ المفعول به ﴿عَذَابًا﴾؛ لِما يفيده التَّنكير من التَّهويل والتَّضخيم، وللإشارة إلى أنّ العبارة لا يُمْكِنُها أن تَصِفَ العذاب الذي أعدّه اللّه تعالى للعاتين عن أمْرِهِ في الآخرة، فهو عذابٌ لا يُقادَرُ قدرُه، ولا تُحيط العبارةُ بحقيقته ولا بوَصْفِه، وأوثر صَوْغُ وصفه بالشِّدّة على وزنٍ من أوزان المبالغةِ، فقيل: ﴿شَدِيدٗا﴾؛ لدلالته بمَعْناهُ ومبناه الذي يتوسّطه حرف المدّ على بلوغه في الشِّدّة والفظاعة مَدًى لا يُمْكِن تصوُّره، ولا يستطيع أحدٌ أن يحيط به، وفيه ترهيبٌ

من العُتوِّ عن أمر اللّه تَعالى ورسله، وتمهيدٌ وترغيبٌ في تقوى اللّه سُبحانَهُ، الحائلة بين النّاس والعذاب المُتَحَدَّثِ عنه.

تقوى الله تَعالى والخوفُ منه نتيجةٌ حتميَّةٌ للموعِظَةِ المَمْزوجَةِ بالتَّهديد

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حرفُ عَطْفٍ يُفيد تسبُّب ما بعدها عمّا قبلها من موعظة، فبَعْدَ أن تمَّت الأحكامُ ودلائلُها، وأُحكِمت الآياتُ وفواصلُها، والتَّهديداتُ وغوائلُها، كانت فَذْلَكتُها وثمرةُ سياقِها وموعظتِها ما تسبَّب عن ذلك من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ تنبيهًا على ما يُحْيي الحياةَ الطَّيِّبة، ويُنْجي في الدّارين[1]، وكأنَّ تقوى اللّه سُبحانَهُ والخوفَ منه نتيجةٌ حتميَّةٌ لما سبق ذكرُه من الموعظة والتَّهديد.

تقوى اللّه تَعالى هي الحارِسُ اليَقِظُ الذي يُساعِدُ على امتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي

غرَضُ الأمْرِ بالتَّقوى:

قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أسلوبُ أمْرٍ، غرضُهُ توجيهُ المُخاطَبين وإرشادُهُم إلى ما يُنجيهم من العذاب الشَّديد الذي أعدَّه اللّه تعالى للعاتين عَن أوامره في الآخرة، ومن العذاب النُّكر الذي نَزَلَ بِهِم في الدُّنيا، وأوثر الأمْرُ بالتَّقوى دون غيرها؛ لأنَّها بمنزلةِ الحارسِ اليَقِظِ الذي يُساعِدُ على امتثال أوامر اللّهِ تَعالى واجتنابِ نَواهيه.

الموعظةُ تُساعِدُ دائمًا في قبول النُّفوس للتَّكليف فِعْلًا أو تركًا

سرُّ تقديمِ الأمْرِ بالتَّقوى على النِّداء:

المُعتاد في البيانِ القرآنيِّ أن يَتَقَدَّم النِّداء على الأمر والنَّهي، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ جرى في هذه الآية على غير المُعْتادِ، فقَدَّم الأمر بالتَّقوى على النِّداء، وسِرُّ ذلك أنَّ النُّفوس متهيِّئةٌ لها، والعقولَ متفَهِّمةٌ للهدَفِ من الأمر بها، عَقِبَ المَوْعِظَة الواردة بعد بيان حدودِ الطَّلاق وأحكامه، ومِن ثمَّ فلا ثِقَلَ في التَّكليف بها، والمعنى: أعدَّ اللّهُ تَعالى لَهُم هذا العذاب، فلْيَكُن لَكُم ذلكَ يا أولي الألباب داعيًا لتَقْوى اللّهِ تَعالى وحذَرِ عِقابِهِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 167.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 560.

لطيفَةُ إظْهارِ الاسْمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾ في موضِعِ الإضْمارِ:

كان مُقْتَضى الظّاهر أن يُقال بعدَ جُمَلَةِ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾: (فاتّقوه...)، لكنَّ النَّظم الكريم عدلَ عَن التَّعبير بالضَّمير إلى إظهارِ الاسْمِ الجليل، وتعدية الأمر بالتَّقوى إليه مباشرةً، قائلًا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ تربيةً للمَهابَة، وغَرْسًا لتَعْظيمِه في القُلوب، وتعميقًا للخَوْفِ منهُ في النُّفوس؛ إذِ المَعْروفُ أنَّ كلَّ شيءٍ بيَدِه، ولا يخرجُ أمرٌ عن إرادته، وأنَّ تَقْواهُ والخوفَ منه هو الحائلُ بين النّاس وبين شديدِ عِقابِه، وعظيم حسابه، والمعنى: اتَّقوا اللّه الذي له الأمرُ كلُّه بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه[1].

تقوى اللهِ تَعالى والخوفُ منهُ هوَ الحائلُ بين النّاس وبين شديدِ عقابه وعظيمِ حسابه

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ(يا):

(يا) في قوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ حرفُ نداءٍ، يُفيد إيقاظَ المُخاطَب وتنبيهَهُ على أهمّيَّة ما يُنادى من أجله، وبيان أنَّه ممّا يجبُ تلقّيه بمزيدٍ مِنَ الحِرْصِ والإصغاء؛ نظرًا لأهمّيَّته البالغة بالنِّسبة للفَرْدِ والأُسْرَة والمجتمع والأمَّة، ما يعني: أنَّ حدود اللّه تعالى التي وضعَها في أمْرِ الطَّلاق وفي غيره من جوانبِ الحياة، ممّا يجِبُ أن تَنْتَبِهَ له العقولُ، وتنشطَ لأجل تأمُّله وتدبُّرِهِ الأفكارُ، وتُشْحَذ للعمَلِ بهِ الهِممُ والعزائمُ.

حدودُ اللهِ تعالى ممّا يجِبُ أن تَنشَطَ لفَهْمِهِ العقولُ، وتُشْحَذَ لتَنْفيذِهِ الهِمَمُ والعزائمُ

الغرض من النِّداء بوصف: (أولي الألْباب):

(أولي الألْبابِ) منادى منصوبٌ بالياء؛ لأنَّه مضافٌ، و(أولي) بمعنى: أصحابِ، و﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جمع: لُبٍّ، وهو: ما زكى مِنَ العَقْلِ، وفي نداءِ المُؤْمنين به إيماءٌ إلى أنَّ العقول الرّاجحة تَدْعو إلى تقوى اللّه تَعالى؛ لأنَّها كمالٌ نفسانيٌّ، ولأنَّ فوائدَها حقيقيَّةٌ دائمةٌ، ولأنَّ بها اجتنابَ المضارِّ في الدُّنيا والآخرة[2]، وفيه أيضًا دعوَةُ المُؤْمنين

في تدبُّر أحكام الطَّلاق مصلحةٌ تعودُ على الأمَّة كلِّها، متى التَزَمَتْ بها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 167.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 336.

إلى تدبُّر أحكام الطَّلاق الواردة في السّورة؛ لِفقْهِ ما فيها مِن مَصْلَحَةٍ تعودُ على الأمَّة كلِّها، متى التَزَمتْ بِها[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وجَمْعِه:

المعهودُ عن أهلِ الإيمانِ هو حُسْنُ الفَهْمِ، وحِدَّةُ العقل، والبُعدُ عن التَّقليد

(أل) في ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لتعريف العَهْدِ، وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنّ المعهودَ عَن أهلِ الإيمان هو حسنُ الفهم، وحِدَّةُ العقل، والإقبالُ أو الإعراضُ عن الأفعال بعدَ إعمال العقلِ وتحكيم اللُّبِّ، وليس عن تقليدٍ وانسياقٍ، وأوثر التَّعبير به جَمْعًا هنا وفي جميع مواضعِهِ؛ لأنَّ المدح به لا يكونُ إلّا في المواضع التي يُخاطَب فيها المؤمنون بصيغة الجمع - كما هنا - أو يُعَبَّر عنهم بأسلوبِ الجَمْعِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]، ولِما في جَمْعِهِ من دلالة على أنَّ السِّمةَ الغالبةَ على المَعنيَيْن بها أو على أَكْثَرِهم هي كمالُ العقل، وحسنُ الفهم، وصوابُ الفعلِ.

موقِعُ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ودلالتُه:

قَبولُ أولي الألباب الإيمانَ عنوانٌ على رجاحَةِ عُقولِهم

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصول في محلِّ نصبٍ بإضْمارِ (أعْني)، وهوَ بيانٌ للمُنادى، أو نعتٌ له، أو بدلٌ منه، وفعلُ الإيمان الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ جملة لا محلَّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، وهذا الإتباعُ يومِئُ إلى أنّ قبولَهم الإيمانَ عنوانٌ على رجاحة عُقولِهم، وأيضًا فإنَّ التَّعبيرَ عن الصِّلة بفِعْلِ الإيمانِ فيهِ إشْعارٌ بأنَّ الإيمانَ سببٌ للتَّقوى وجامع لمُعْظَمِها، وأنَّ للتَّقوى درجاتٍ هي التي أُمِروا بأنْ يُحيطوا بها هُنا[2].

بلاغَةُ التّعبير بالاسْمِ المَوْصول وصِلَتِه:

شهادةُ اللهِ تَعالى لأولي الألباب بالإيمان تشريف وثناء

تعبيرُ النَّظم الكريم بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فيه نوعٌ من تفخيمِ (أولي الألْبابِ)، وتشويقٌ إلى الصِّفة التي تميَّزوا بها من غيرهم، والتي

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره، ص: 162.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 336.

تعدُّ برهانًا على رجاحة عُقولِهم وحسن اختياراتِهم، ومجيءُ صِلَتِه فِعْلًا ماضيًا: ﴿ءَامَنُواْ﴾ دالٌّ على أنَّهم تَعمَّقوا في صِفَةِ الإيمان، وتعمَّقتْ فيهم هذه الصِّفة، لدرجةِ أنَّ اللّه تعالى اختارها مِن بين أوصافهِم، وشَهِدَ لهُم بِها، وفي حذفِ مَعْمولِ الفِعْلِ دليلٌ على أنَّهم آمنوا بكلِّ ما يَجِبُ عليهِم الإيمانُ بِه.

علَّةُ فَصْلِ جُمْلَةِ: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلها:

جاءت جملة: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ مفصولة عمّا قبلها لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُنَزَّل فيه الجملة الثّانية ممّا قبلَها منزلةَ السَّبب من المُسَبَّب، ومِن ثمَّ تُفْصَلُ عنها كما يُفصَلان، وبيانُ ذلك أنَّ النَّظمَ الكريمَ علَّل الأمرَ بالتَّقوى الواردَ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بجملة: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾؛ لأنَّ إنزال الكتابِ نفعٌ عظيمٌ وفائدة جليلة تُسْهِمُ في تحلّي المؤمنين بالتَّقوى، وتوجِبُ عليهِم شُكْرَها[1]، ويجوزُ أن يُقال: لأنَّ بَعْثَ الرَّسول فيهم وإرسالَهُ إليهِم نعمَةٌ كُبْرى وفَضْلٌ عظيمٌ؛ إذْ يَرَوْنَ فيهِ النَّموذج الأمثلَ للتَّقوى، ويتَعَلَّمون منه سُلوكَ المُتَّقين[2].

القرآنُ الكريمُ والرَّسولُ ﷺ نِعْمتانِ تَسْتَوجِبانِ الشُّكر

فائدَةُ التَّوْكيدِ بـ ﴿قَدۡ﴾:

توكيدُ نعمة إنزالِ الذِّكر إلى المؤمنين وبَعْثِ الرَّسول فيهم بـ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ للاهتمام بالخبَرِ، وإثارةِ النُّفوس إلى تصفُّح القرآنِ وتدبُّره، والتَّأسّي بالرَّسول ﷺ والأخذ بشريعتهِ في كلِّ الأحوال، بما فيها حالُ الفِراق والطَّلاق[3].

مِن الواجبِ على أولي الألباب تدبُّر القرآن والعمَلُ به وبأوامِر النَّبيِّ ﷺ

نكتةُ إظهارِ الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

كان يجوز أن يُقال: (فاتقوا اللّه... قد أنزل إليكم ذكرًا)، لكنَّ النَّظم عدلَ عن إضمار الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ إلى إظهاره، فقال:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 336.
(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره، ص: 162.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 337.

مَنْ خالَف القرآنَ والرَّسول ﷺ؛ عرَّض نفسَه لعقاب العاتينَ عَن أمْرِ اللهِ تَعالى

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعظيمًا لنعمةِ إنزالِه القرآنَ إلى المؤمنين، وتقديرًا لإرسالِه فيهم خاتم المُرْسَلين، وللإلماحِ إلى أنَّ ما يُرْشِدانِ إليه مِن تَعاليمَ، وما يَضعانِه مِن حُدودٍ في أمْرِ الطَّلاق أو في غيره إنَّما هو بتوجيهٍ من اللهِ سُبحانَهُ، وأنَّه فضلُ إنعامٍ منه سبحانه؛ لِما فيه مِنْ مصلحَةٍ أكيدَةٍ، ومِن ثمَّ وجَبَ الأخذ به وعدم العُتوِّ عنه؛ لأنَّ مَنْ يفعلُ ذلك؛ فقَد عرَّض نفسَه لعقابِ العاتينَ.

دلالةُ تعدية فعل الإنزال إلى الضَّمير بحرف الانتهاء:

الالتزام بما يأمُرُ به القرآنُ والرَّسول ﷺ هو المأمولُ في المُؤمنين والمُتوقَّعُ منهم

(إلَى) في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الانتهاءَ الدّالَّ على أنَّ الغاية التي مِن أجلها أنزل اللهُ القرآنَ الكريم، وأرسلَ خاتم الأنبياءِ والمُرْسَلين هي تذكيرُ المُؤْمنين أوَّلًا، وتذكير غيرِهم ثانيًا بالحُدود الواجب اتِّباعها، والأوامر المُحَذَّر من العتوِّ عنها، وأوثِرَ التَّعبير عن المؤمنين بضَميرِ الخِطاب المَجْرور بحَرْفِ الانتِهاء والمُشْعِر باخْتِصاصِهِم بالإنزالِ دونَ غَيْرِهِم؛ لأنَّ الالتزامَ بما يأمُرُ بِهِ القرآنُ الكريمُ وما يدعو إليه الرَّسول ﷺ هو المأمول فيهم والمُتوقَّع منهم.

نكتةُ تقديم شِبْهِ الجُمْلَة:

الإيماءُ إلى الاهتِمامِ بِشَأْنِ أهلِ الإيمانِ

قوله: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بفِعْلِ الإنزالِ، جيءَ بِهِما مُقَدَّمَيْنِ على المَفْعولِ ﴿ذِكۡرٗا﴾؛ لإشعار المؤمنين بالاهْتِمام بأمْرِهِم، وتعزيز حِرْصِ اللهِ تعالى على التزامِهِم بحدودِهِ بعامَّة، والحدود التي شرَعَها في حال الطَّلاق بخاصّة، مِن خلال تذكيرِهِم بها في القرآن الكريم، وتحذيرهم مِن انتِهاكِها على لِسانِ الرَّسول الأمين ﷺ.

معنى ﴿ذِكۡرٗا﴾، ووجْهُ تنكيرِه:

قوله: ﴿ذِكۡرٗا﴾ معناه: القرآنُ الكريمُ، وقد سُمّي به في آياتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّه يتضمّن تذكيرَ النّاس بما هُم في غَفْلَةٍ عنهُ مِن دلائلِ

التَّوحيد، وما يتفرّع عنها من حُسْنِ السُّلوك، ثُمّ تَذْكيرهم بما تضمَّنه مِن التَّكاليف[1]، ويجوزُ أن يُراد به: الرَّسولُ ﷺ، عُبِّر به عنهُ لمواظبَتِه على تلاوة القرآنِ الذي هو ذِكْرٌ، أو لتبليغهِ والتَّذكير به[2]، وأوثِرَ تنكيرُه - أيًّا كان المقصودُ به - للتَّفخيم والتَّعظيم، والدّلالة على أنَّه كامل مذكورٌ، فيه غايةُ الشَّرف لكلِّ مَن يَقْبَلُه، بل تشرَّفت الأرضُ كلُّها بِنُزولِه، ورفع عنها العذاب، وعمَّها النّور والصّواب؛ لأنَّ فيه تبيانَ كلِّ شيء، فمَن استَضاء بنورِه؛ اهْتَدى، ومَن لجأ إلى بَرْدِ أفنائِه؛ وصَلَ مِن داء الجهل إلى شِفائِه[3].

القرآنُ والرَّسول ﷺ كلاهُما يذكِّرُ النّاس بما هُم في غَفْلَةٍ عَنْهُ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الألباب والعَقول والنُّهى:

اللُّبُّ: ما زَكَى من العَقْلِ، وهو خالصُ صِفات المَوْصوف بِهِ، والعَقْلُ: ما يحصر مَعْلومات المَوْصوف بِهِ، أمّا النُّهى؛ فهوَ النِّهايَة في المعارف الَّتي لا يحْتاج إلَيها في مُفارقَة الأطفال ومن يجْري مجراهم، وهي جمعٌ، واحِدها: النُّهية، ويجوز أن يُقال: إنَّها تفيد أن المَوْصوف بها يصلُحُ أن يُنْتَهى إلى رأيه[4]، ولَمّا كان التَّعبير واردًا في سياق الأمْرِ بالتَّقوى التي تحول بين الإنسان وبين مُخالفة حدودِ اللّه تعالى والتَّعدّي على أوامِره؛ ناسب نداء المؤمنين بـ (أولي الألْبابِ)؛ للدّلالة على أنَّ الالتزامَ بالحُدودِ وعدَمِ العتوِّ عنها - وبخاصَّة في حال الطَّلاق والفِراق - يحتاج إلى عقولٍ زاكيةٍ قادرةٍ على كبح جماحِ النُّفوس، وتطويعها لإرضاء اللّه تعالى بفِعْلِ أوامِره، والتزام حدودِه، وعدَمِ الاعتداء على الآخرين أو النَّيْل منهم عنادًا أو انتقامًا.

الالتزامُ بالحُدودِ وعدم العُتوِّ عنها يحتاج إلى عقول زاكية قادرة على كَبْحِ جِماح النُّفوس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 84.

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ [الطلاق: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

كما أنَّ القرآنَ مُذَكِّرٌ؛ فالرَّسول ﷺ مذكِّرٌ أيضًا

بعد أن مدحتِ السّورةُ المؤمنين برجاحةِ العَقْلِ، وذكَّرتهم بنعمةِ إنزال القرآن إليهم؛ ليُنَبِّهَهُم إلى ما هُم عنه غافلونَ؛ ناسَبَ أن تذكِّرهم في هذه الآية بنعمةِ إرسالِ الرَّسول إليهم؛ لأنَّه ﷺ صورةُ سوَرِ القرآنِ، والعاملُ بهِ المُبلِّغُ لَهُ، وقد كان القرآنُ الكريمُ خُلُقًا لَهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، يقال: بانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانكَشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[2]، والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحَةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، ويقال: آية مُبَيَّنَة اعتبارًا بمَن بيَّنَها، وآية مُبَيِّنَة اعتبارًا بنَفْسِها، وآيات مبيَّنات ومبيِّنات، قال تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾[3]، أيْ: واضحات موضِّحات[4].

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: (ظلم) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما: خِلافُ الضّياءِ والنّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، والجَمْعُ: ظُلُماتٌ[5]، والمعنى المحوريُّ: حَجْبُ ما ينبغي، أو ما يُستَحق، أي: منعُه أو انتِقاصُه، كمَنْعِ الضَّوء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (بين).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

في حالِ الظُّلمة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، وقال أيضًا: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾، أي: ظلمات المعاصي والحيدَة عن الصِّراط المستقيم[1].

3) ﴿ٱلنُّورِۚ﴾: (نور) أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى إضاءَةٍ واضطِرابٍ وقِلَّةِ ثَباتٍ، ومِنْهُ: النّورُ والنّارُ، سُمّيا بِذلِكَ مِنْ طَريقَةِ الإضاءَةِ، ولِأَنَّ ذَلِكَ يَكونُ مُضطَرِبًا سَريعَ الحَرَكَةِ[2]، والنّور: الضّوءُ المُنْتَشِر الذي يُعينُ على الإبصار، وقد استَعْمَلَهُ القُرآن في قوله تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾، بمعنى الإيمانِ عَلى سبيلِ الاستِعارَةِ؛ إذ المعنى: ظلمات المعاصي والحيدَة عن الصِّراط المستقيم إلى نور الطّاعة والتَّجَلّي[3].

4) ﴿أَحۡسَنَ﴾: (حسن) أَصلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وامْرَأَةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ[4]، والحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، ومعناه المحوريُّ: نَقاءُ الشَّيء ورِقَّتُه بخُروج الخَشن أو الغليظ الذي يُخالِطُه، فيَشوبُ رِقَّتَه[5]، وقد عَبَّر به القرآنُ الكريمُ في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ عن التَّعجُّب والتَّعظيم، لما يُرزَق به المؤمنُ من الثَّوابِ والنَّعيمِ في الآخرة[6].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أَنَّ مِن نِعَمِ الله تعالى التي توجب على المؤمنينَ شُكْرَه بمزيد تقواهُ نعمةَ إرسالِ رسولِ الله ﷺ إليهم؛ ليَتْلوَ

اتِّباع الرَّسول ﷺ سببُ الهداية في الدُّنيا، وسببُ النَّعيم الذي لا مثيلَ له في الآخرة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الراغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الراغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 561.

عليهم آياتِ اللّه تَعالى التي تكشف لهم طريقَ الحقِّ والهدى، وتأخذ بأيْديهم؛ ليَخرجوا من ظُلُمات الجَهالَةِ إلى نور الإسلام والإيمان، وتَعِدُ الآيةُ مَن آمَنَ باللّه تعالى، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا، وانتَفَع بالنّور الذي أُنزل على الرَّسول ﷺ بأنْ يُدْخِلَهُ اللّهُ تعالى جنّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدًا فيها، لا يتحوَّل عنها أبدًا، ويُرزقُ فيها رزقًا حسنًا من فضل اللّه تعالى وإحسانه، ويَنْعَمُ فيها بما شاء من نعيمٍ، لا يحيطُ به وصفٌ، ولا يَحُدُّه حدٌّ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع ﴿رَّسُولًا﴾ الإعرابيُّ، ودلالتُهُ:

شخصيَّةُ الرَّسول ﷺ صورةٌ مُجَسَّمَةٌ لذكر الله

قولُه تعالى: ﴿رَّسُولًا﴾ يجوزُ إعرابُه بدلًا من ﴿ذِكْرًا﴾، أو مفعولًا به لفِعْلٍ محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، والتَّقدير: أرْسَلَ إليكم رسولًا، وإبدالُ الرَّسول مِن الذِّكر في سياقِ الأمْرِ بإقامَةِ حُدودِ اللّه تَعالى بعامَّة، وحدودِ الطَّلاق وحقوق النِّساء بخاصَّة له دلالاتٌ عِدَّةٌ، أوَّلها: تشريفُ الرَّسول ﷺ وتكريمُهُ بالشَّهادة مِن اللّه تعالى على أنَّه أفضلُ خَلْقِه، وأكثرهُم ذِكْرًا لربِّه، وأحسنُهم معاملةً لأزواجه في الرِّضا وفي الغضَبِ. والثّانية: أنَّ الذّكر الذي جاء مِن عندِ اللّه تَعالى سَرى إلى المؤمنين من خلالِ شخصيَّة الرَّسول، حتّى لكأنَّ الذِّكر نفَذَ إليهِم مُباشرةً بذاتِه. والثّالثة: كأنَّ شخصيَّةَ الرَّسول صلى اللّه عليه سولم قد استحالت ذكرًا، فهي بمنزلةِ الصّورة المُجَسِّمة لهذا الذِّكر، وهذا يدلُّ على أنَّ ذكْرَ اللّه تعالى كان في خاطِر الرَّسول ﷺ دائمًا في مواجَهَةِ الحَياة، حتّى أصبَحَ ذِكرًا يواجِهُ الحياةَ(2).

نكتةُ تَنكير ﴿رَّسُولًا﴾:

الرَّسول ﷺ أحسَنُ النّاس في معاملةِ النِّساء زواجًا وعِشْرةً وفراقًا

جيء بـ ﴿رَّسُولًا﴾ نكرةً؛ لِما يدلُّ عليه التَّنكيرُ مِن التَّعظيم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1018، 1019.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره: 163، 164.

والتَّفخيم الذي يتناسَبُ مع الدَّعوة إلى التأسّي بالنَّبيِّ ﷺ والسَّير على منهجِهِ في الخوفِ مِن اللّهِ تَعالى والتزام حُدوده، لا سيّما فيما يتعَلَّق بالأُسْرَةِ زواجًا وعِشْرةً وفراقًا.

موقعُ جملةِ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ ودلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ جملة في محلِّ نَصْبِ صفَةٌ لـ﴿رَّسُولًا﴾، وقد عبَّرَ بها النَّظم القرآنيُّ ليوضّح: كيف كان الرَّسولُ ﷺ ذكرًا للنّاس بعامَّةٍ وللمُؤْمنين بخاصَّةٍ.

دلالة التّعبير بفعل التِّلاوة مضارعًا:

إعلامُ النّاس بما نـزَلَ مِن الوَحْيِ كـان الـشُّـغـلَ الشّاغلَ لرسولِ الله ﷺ

في جملة الصِّفة عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعل التِّلاوة - الموضوع للمُتابعة[1] والمُسند إلى ضمير الرَّسول ﷺ - مضارعًا؛ لما يَدُلُّ عليه مِن تَجَدُّد قيامِه ﷺ بتلاوة القرآنِ المُنْزَل إليه، ومتابعة إعلامِ أتْباعه بالوحي المشتَمِل على أوامرِ اللّه تَعالى وحُدودِه، وعدم كِتْمانِ شيءٍ منه، ما يعني: أنَّ إعلامَهم بما يَأْتي به القرآنُ من حدودٍ وأحكامٍ، كان الشُّغلَ الشّاغلَ لرسول اللّهِ ﷺ، والعملَ الذي لا يفتُر عنه.

نكتةُ تَعدية فِعل التِّلاوة بحرفِ الاستعلاءِ:

أحكامُ القرآنِ وحدودُه مِن عند الله سُبحانَهُ، وليست مفتراةً ولا موضوعةً

تعديةُ فعلِ التِّلاوة إلى ضميرِ المُؤْمنين بحرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ هذا الوحي بما فيهِ مِن حدودٍ وأحكامٍ نازلٌ من عندِ اللّهِ تَعالى جلَّ في علاه، وليس مُفْتَرًى ولا موضوعًا من قِبَلِ الرَّسول ﷺ ولا مِن قِبَلِ غيره، وفيه أيضًا دلالَةٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ كان حريصًا على أنْ يقرأ القرآنَ على أتباعه المؤمنين، كما أُنزِلَ عليه - بوساطة جبريلَ عليه السلام - مِنْ لدن ربِّ العالمينَ.

بلاغة تقديم شِبْهِ الجملة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ:

قولُه تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بفعل التِّلاوة، أوثَرَ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (تلى).

كان الرَّسول ﷺ حريصًا على إبلاغ المؤمنين كلَّ ما ينزلُ إليهم من آياتٍ وأحكامٍ

أحكامُ القرآنِ وحدودُه علاماتٌ ظاهرةٌ على إعجازه الاجتماعيِّ

تَقْديمُهما على المفعول ﴿ءَايَٰتِ﴾؛ للدّلالة على الاختِصاص، الذي يُظْهِرُ عنايةَ الرَّسول ﷺ الكبيرَةَ بأتباعه المؤمنين، وحرصَهُ الشَّديدَ على إبلاغهم وتذكيرهم بكلِّ ما يَنْزِلُ إليهِ من آياتٍ وأحكامٍ وغيرهِما.

لطائِفُ التَّعبير بـ ﴿ءَايَٰتِ﴾ مضافةً إلى الاسمِ الأحسَن ﴿ٱللَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتِ﴾ مفعولٌ بِه لفِعْلِ التِّلاوة، وهو جمعٌ مفردُه: آيَة، وهي: العلامَةُ الظّاهرة الثّابتة، وأضيفَت إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّخصيص، ومَنْحِها مزيدًا من المهابةِ والتَّقديس، والمقصودُ بها: القرآنُ الكريم، وفي التَّعْبيرِ عَنْها بـ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون (كتاب الله) أو غيره - في سياق سورةِ الطَّلاق - إيماءٌ إلى ما في أحكامِ القُرآن وحُدوده بعامَّة وأحكام الطَّلاق وحدوده بخاصَّة مِن علاماتٍ ظاهرَةٍ على الإعجازِ الاجتماعيِّ للقرآن الكريم، فأحكامُ القرآنِ وحدودُه دائمًا تجمَعُ، ولا تفرِّق، وكذلك أحكامُ الطَّلاق وحدودُه؛ إذْ إنّ الزَّوجين إذا أرادا الفِراق؛ فإنَّهما يُفارقانِ - في ضَوْءِ هذه الأحكام والتَّوجيهات - وفي قلوبِهما بذورٌ للودِّ لم تَمُت، ونداوةٌ قد تُحيي هذه البُذور، فتَنْبِت، فضلًا عَن الخُلُقِ الجميل الرَّفيع الذي يُريد الإسلامُ أن يَصْبغَ به حياةَ المُجْتَمَعِ المُسْلِم، ويُشيعُ فيهِ سماتِه وخصائصَه، وهذه الأحكام كذلك لا تَصْطَدِمُ مَع طباع البشر؛ لأنَّ الشّارع الحكيم راعى فيها التَّركيبة البَشَريَّة والطَّبيعة الإنسانيَّة في مُخْتَلف أحوالها، وإنَّ أحكامًا بهذه الكيفيَّة لجديرةٌ بأن تُسَمَّى ﴿ءَايَٰتِ﴾، وبَدَهيٌّ أنَّها لا تكون إلّا من عندِ اللهِ جَلَّ في علاهُ[1].

موقعُ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ الإعرابيُّ ودلالَتُهُ:

لفظ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حال من ﴿ءَايَٰتِ﴾، وفي التّعبير به دلالَةٌ على أنَّ الوضوحَ

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول ﷺ وتوقيره، ص: 164.

والبيانَ والظّهور والانكشاف هو الحالُ الثّابتة الدّائمة لِما ينزِلُ مِن آيات القرآن الكريم، والذي يتلوه النَّبيُّ ﷺ بِدَوْرِهِ على النّاس أجمعين، والمعنى: حالَ كَوْنِها مبيِّنات لكُم ما تَحْتاجونَ إليه من الأحكامِ[1].

التَّوجيه البلاغيُّ للقراءاتِ الواردةِ في ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾:

آياتُ القرآنِ واضحاتٌ موضِّحاتٌ كلَّ ما يَنْزِلُ للنّاس من حدودٍ وأحكامٍ

اختلف القرّاء في ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾، فقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وأبو بكر وأبو جعفرٍ ويعقوبُ بفتح الياءِ: ﴿مُبَيَّنَٰتٖ﴾، وقرَأَ الباقونَ بكسرها: ﴿مُبَيِّنَٰتٖ﴾[2]، وقراءةُ الفتحِ تعني: أنَّ اللّه تعالى قد بيَّنها، ووضَّحها، حتّى لا يلتَبِسَ أمرُها على أحدٍ مِن خَلْقِه، قال تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]، وقراءة الكَسْرِ تَعْني: أنَّها واضحة بِشِدَّةٍ؛ لدرجة أنَّها تبيِّنُ للنّاس بعامَّة وللمؤمنين بخاصَّة ما نزل إليهم مِنَ الحدود والأحكام، بيانًا واضحًا لا لبسَ فيه بأيِّ حالٍ من الأحوالِ[3].

معنى اللّامِ في ﴿لِّيُخۡرِجَ﴾:

النّور هو ثمرةُ إنزالِ القرآن، وإرسالِ النَّبيِّ العدنان

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ﴾ متعلِّقةٌ بـ ﴿يَتۡلُواْ﴾ أو بـ ﴿أَنزَلَ﴾، وهي حرفٌ يُفيد التَّعليل، فبَعْدَ أن بيَّن النَّظم الكريمُ أنَّ الذِّكْرَ والرَّسول ﷺ صارا بمنزلةِ الشَّيْءِ الواحِدِ، وعُلِم ما في هذه المُراسَلَة مِنَ الشَّرف؛ أتبع ذلك بيانَ شَرَفٍ آخَرَ، فَبَيَّنَ ثمرة إنزاله إليهم، وهي إخراجُ الذين عَلِمَ اللّهُ تعالى أنَّهم يؤمنون، أو مَن قدَّر اللّهُ سُبحانَهُ لهم الإيمانَ وعملَ الصّالحات مِن الظُّلمات إلى النّورِ[4].

غرضُ التّعبير بالاسمِ الموصول وصِلَتِه:

التزامُ حدودِ الطَّلاق والعملُ بها داخلٌ في حقيقة الإيمانِ

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبير بالاسْم المَوْصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصلتِهِ ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ليُتَوَصَّل بصلته إلى تشريفِ المُخاطَبين،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 264.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.

وإلى بيانِ ما به يُستَكمل إيمانُهم، ما يعني: أنَّ التزام حدودِ اللّٰهِ تَعالى بعامَّة، والتزامَ حدودِ الطَّلاق التي شرعَها في هذه السّورة بخاصَّة، داخلٌ في حقيقة الإيمان، ومكوِّنٌ أصيل من مُكَوِّناته، ولا ينفَعُ إيمان مِن غير العَمَلِ بها، والامتثال لها، والتَّخلّي عمّا سبَقَها مِن أعرافِ الجاهِليَّة وتَقاليدِها.

دلالَةُ التّعبير بفِعْلِ الإيمان ماضيًا، ووجْهُ حذفِ مَعْمولِهِ:

المـؤمـنـونَ حريصـونَ على فِـعْـلِ كـلِّ ما يتبيَّنُ لهم أنَّه جزءٌ من الإيمان

عبّر النَّظم الكريم في جملة الصِّلة بفعل الإيمان ماضيًا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدّلالة على رُسوخِ قَدَمِهم في الإيمانِ وتَغَلْغُلِه في قُلوبِهم، ولبيانِ حِرْصِهم على الامتثالِ لكُلِّ ما يدخُلُ فيه، ويتَبَيَّن لهم أنَّه جزءٌ منهُ، وحُذف معمولُ فِعْلِ الإيمانِ؛ ليَعُمَّ الفعلُ كلَّ ما من شأنِه أن يُؤْمِنوا به، ويدخلُ فيه حدودُ الطَّلاق دخولًا بُرْهانيًّا.

وجهُ تخصيصِ المؤمنين بالذِّكْرِ دون غيرهِم:

إثـارةُ المُؤمنين وإلـهـابُـهـم إلى امتثـالِ أحكـامِ الطَّلاق وحدودِهِ

جُعِلت علَّةُ إنزال القرآن وإرسال الرَّسول ﷺ إخراجَ المؤمنين من الظُّلمات إلى النّور، مع أنَّ القرآن والرَّسول ﷺ أُنْزِلا لإخراج النّاس جميعًا من ظلمات الكُفْر والجهالة إلى نور الإيمان والأعمالِ الصّالحة؛ نظرًا إلى خصوص الفريق الذي انتفَعَ بهذا الإرسال؛ اهتِمامًا بشأنِهِ ورفعةً لمقدارِه[1]، وفيه نوعٌ مِن إثارة المؤمنين وإلهابِهم إلى امتثال أحكام اللّٰهِ تَعالى وحدوده، بِما فيها أحكامُ الطَّلاق وحدوده.

نكتةُ عَطْفِ العمل على الإيمانِ:

المؤمنونَ يُحيلون الأحـكـامَ التي تُتْلى عليهم إلى واقعٍ يَعيشونَه

الواو في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لعطف ما بعدَها على فِعْلِ الإيمانِ، أوثِر عَطْفُهُ بالواو؛ للدَّلالة على أنَّ المخاطَبين لم يَكْتَفوا بالإيمان القلبيِّ بما أُنْزِلَ إليهم وما تُلي عليهم في أحكام الطَّلاق وغيره، وإنَّما بادروا إلى العمل به، وقَسروا أنفُسَهُم عليه، وجعلوه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

واقعًا في حياتهم، حتّى صار دأبًا لهم وعادةً، والمعنى: أقرّوا ببواطِنِهم، وعملوا بجوارِحِهم بالصّالحات من الأعمال؛ تصديقًا لما قالوه بألسِنَتِهم وتحقيقًا[1]، وعطْفُ الأعمال الصّالحةِ على الإيمانِ من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ حقيقةُ الإيمانِ شرعًا: قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فكان في هذا العطْفِ إشادَةٌ بالعمَلِ الصّالحِ لذِكْرِهِ مرَّتين مرَّةً مندَرِجًا تحت اسم الإيمانِ، ومرَّةً على سبيلِ الاستقلالِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ونكتة جَمْعِه:

(أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لتعريفِ الجِنْسِ، ما يعني: أنَّ المُؤْمنين الذين أَنْزَلَ اللّهُ تَعالى عليهم الكتابَ، وأرسل إليهم الرَّسول يَعْمَلون كلَّ ما يتحقَّق لَدَيْهِم أنَّه مِن جِنْسِ العمَلِ الصّالح، ولا يُقصِّرون في الإتيان به، ولا يفرِّطون، وجيء به جَمْعًا؛ للدَّلالة على كثرة الصّالحات وتَنَوُّعها، وشمولها أحكامَ الطَّلاق وحدودَه؛ لأنَّها مِن العمَلِ الصّالح الذي يُثاب فاعلُه، ويُعاقَبُ مَن يعتو عليه، ويتجاوزه بالحِساب الشَّديد، والعذاب النُّكُر، كما وضَّحت السّورةُ الكريمةُ.

حدودُ الطَّلاق من العمل الصالح الذي يُعاقَب مَن يَعْتو عليه ويتجاوزُه

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنَ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ هي الابتدائيَّةُ المؤكِّدةُ أنَّ المخاطَبين كانوا يعيشون في ظلمات الضَّلال والجهالة في كلِّ مناحي الحياة، ويدخل فيها ما يتعلَّق بالطَّلاق والزَّواج، وأنَّ القرآنَ الكريمَ والرَّسول ﷺ كانا سببينِ رئيسَيْنِ في إخراجهم منها إلى نور الإيمانِ والهدى، أو كانا سببَيْنِ رئيسَيْنِ في إخْراجِهِم وانتِشالِهِم من الظُّلمات النَّفسانيَّة، والأخلاق الرَّذيلة المُؤَدّية إلى ظُلمة الجوارح بعملها الظّلم وانتشارها في السُّبل الشَّيطانيّة، إلى النّور الرَّوْحانيّ الخالص، الذي لا دنَس فيه؛ بسُلوك صراطِ اللّه تَعالى الذي هو واحدٌ لا شتاتَ فيه، وبيِّنٌ لا لبسَ بهِ[2].

مِنَ المُؤَكَّد أنَّ المُخاطَبين كانوا يَعيشون في ظُلُماتِ الضَّلالِ والجَهالَةِ قَبْلَ الإنزال والإرسالِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 169.

معنى (أل) في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾:

(أل) في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾ لتعريف العهد؛ إذْ عَبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الكفر والضَّلال والإيمان والهُدى بأمرَيْن حِسّيَّيْن مَعْهودَين للمُخاطَبين؛ ليَتَّضح لهُمُ الفرقُ الشّاسعُ بين ما كانوا عليه قبلَ إنزالِ القرآنِ الكريم وإرسالِ الرَّسول ﷺ، وما صاروا إليهِ بَعدَ إرسالِهما.

نكتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلنُّورِۚ﴾:

الظَّلامُ متعدِّدُ الأنواعِ متشعِّبُ المسالك، أمّا النّورُ؛ فطريقُه واحدٌ

يُلحَظ في الآية أنَّها جَمَعَت ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وأفردت ﴿ٱلنُّورِۚ﴾؛ جريًا على ما دَرَجَ عليه البيانُ القرآنيُّ مِن جَمْعِ الأوَّل؛ لتعدُّد أنواع الضَّلال، وكثرة طُرُقِه، وتشَعُّب أساليبه، فهناك ظُلْمَةُ الجَهل، وظلمةُ العِناد، وظلمة التَّقليد في الباطِل، وغيرُ ذلك كثيرٌ، وإفرادِ الثّاني - وهو النّور -؛ لأنَّ طريقَهُ واحدٌ، وهو الإيمانُ باللّه جَلَّ في علاه[1].

نوعُ الاستعارة وأثرُها في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾:

كان الطَّلاقُ في الجاهليّة غيرَ محدودٍ بعَدَدٍ، وكان النّاسُ يَظْلِمون النِّساءَ ظلمًا بَيِّنًا

تعبير الآيةِ الكريمةِ عَن الكُفْرِ والجهالَة بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وتعبيرُها عن الإيمانِ بـ﴿ٱلنُّورِۚ﴾ فيهما استعارتانِ تَصْريحيَّتان؛ شُبِّه فيهما الكفر بالظُّلمات، وشُبِّه الإيمانُ بالنّور، ثُمَّ استُعيرَ المُشَبَّه به للمُشَبَّه، بعد تَناسي التَّشبيهِ وادِّعاءِ أنَّ المُشَبَّه فرد من أفراد المشبَّه به، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التي تَدُلُّ على أنَّ شريعةَ الإسلام قد صحَّحت للنّاس كلَّ الأخطاء التي كانوا يَقَعونَ فيها في مَوْضوعِ الطَّلاق وحقوق المرأة؛ إذ كانَ الطَّلاق لا عددَ له، ويُراجِعُ الرَّجل زوجَهُ مَهما بلغَ عددُ طَلقاتِها، كما كان النّاس يأخذون في ذلك بشرائعَ جائرَةٍ في حقِّ النساء، فنزلت هذه السّورة بإنْصافِهِنَّ في طلاقِهِنَّ وعدَّتهن، وتحذير النّاس من الإصرار على شَرائِعِهم الجائرة في هذا الأمر وفي غيره، وبذلك صانَ الإسلامُ المرأةَ عَن

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 397.

التَّبذُّل، هذا إلى جانبِ رَفْعِ قَدْرِها، وتقرير مالِها مِن حقوقٍ تَعْدِلُ ما عَلَيْها مِن واجباتٍ(1).

بلاغَةُ الطِّباق في الآيةِ:

إظهارُ الفارق بينَ ما كان عليه النّاس قبلَ الإرسالِ والإنْزالِ وبينَ ما صاروا إليهِ بَعْدَهُما

في الآيةِ الكريمةِ طباقٌ بين اسمَيْنِ هُما ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِۚ﴾، جمَع بينهما النَّظمُ الكريمُ لإظهار الفارقِ بينَ ما كان عليه النّاسُ قبل إنزال القرآنِ وإرسال الرَّسول ﷺ مِن ظُلْمَةِ التَّفكير، وظلمةِ الاعتقاد، وظلمةِ الخُضوع للعادات والأعرافِ الجائرة في حقوق النِّساء وغيرهِنَّ، وما صاروا إليه بعدَ نزول القرآنِ وإرسال الرَّسول ﷺ من وضوحٍ وإنصافٍ وعدالةٍ، تُلْزِم الرَّجل بإبقاءِ المرأة في بيتِها أثناءَ عِدَّتها، وتُبَيِّن عددَ الطَّلقات التي يُمَكِنُ مراجعَتُها بعدَها، وتحذِّره من الثّالثة؛ لأنَّه لا رجعة عند وُقوعِها، وتوضّح مدّة العدَّة التي يراجع مطلَّقَتَه فيها، وتَفْرِض عليه الإنفاقَ عليها وعلى أولادهِ ممّا آتاه اللّه تَعالى، وتحذِّره مِنَ البخل والتَّقتير، وتَعِدُه بسَعَةِ الرّزق؛ إذا هو أنفقَ، ولَم يَبْخَل، وغير ذلك ممّا ينير الطَّريق للأمّة كلِّها، ويجعلها حارسةً على حدود الطَّلاق، مسؤولةً عن الالتزام بها، وإلّا شَمِلَ العقابُ على العتوِّ عنها كلَّ أفرادِها.

نوعُ الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لعطف ما بعدَها على ما سبقَها مِن الأمر بالتَّقوى والتَّنويه بالمتَّقين(2)، وقد أوثر العطفُ بها؛ لبَيان جَزائِهم في الآخرة بعد ذِكْرِ جزائهم في الدُّنيا، ويجوزُ أن تكون استئنافيَّةً، والجملة بعدَها مستأنفة بغَرَض الإثارة والتَّنبيه على أنَّ جزاء الإيمان والعمل الصّالح ليس في الدُّنيا وحدها، ولكنَّه

(1) عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، ص: 318 - 319، وعبد الحافظ البقري، من إعجاز القرآن الكريم في بيانه عن الطلاق، ص: 113 - 114.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

في الآخرة أيضًا، وأنَّ في الآخرة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ورزقًا واسعًا لا مثيلَ له.

موقعُ (مَن) الإعرابيُّ، ووجهُ التَّعبير به:

نعيمُ الآخرةِ مقيَّدٌ حصولُه لراغبيهِ بالإيمانِ وعَمَلِ الصّالحات

(مَنْ) في جملة: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ اسمُ شَرْطٍ في محلِّ رفْعٍ مبتدأٌ، أوثِرَ التَّعبير به لِما فيه مِن الإلهاب والإثارة إلى فِعْلِ الشَّرط والإتيان به، من أجل الفوز والظَّفر بما يترتَّب عليه من الجزاء العظيم، فمجيء الوعدِ على امتِثالهم بالنَّعيم الخالد بصيغة الشَّرط دالٌّ على أنَّه نعيم مقيَّدٌ حصولُه لراغبيه بالإيمانِ وعمل الصّالحات[1].

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الإيمانِ مضارعًا:

المؤمنُ يتجدَّدُ إيمانُه بالمَلِك الأعلى، ويترقّى باستِمرارٍ في معارِج معارفِه

أوثِرَ التَّعبير عن فِعْلِ الشَّرط بصيغة المضارع، فقيل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لدلالته على تجدُّد إيمانه بما يتجدَّد نزولهُ مِن الوحي إلى رسولِ اللّه ﷺ وتسليمه بما فيه مِن حدودٍ وأحكام؛ تسليمًا لا يقبَلُ التَّردُّد أو التَّزَعْزُعَ، ويجوزُ أن يكون المعنى: يتجدَّدُ في كلِّ وقتٍ على الدّوام إيمانهُ بالملِك الأعلى؛ بألّا يزالَ في تَرَقٍّ في معارج معارفِهِ[2].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الإيمانُ المُفضي إلى الجنَّة هو الإيمانُ بكلِّ ما كان مِن عند الله تَعالى، سواءٌ أكان ذلك في الطَّلاق أم في غيره

الباءُ في قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ حرف جرٍّ يفيد الإلصاقَ أو السَّببيَّة، وفي إدخالِه على الاسم الأحسَن (اللّه) دلالةٌ على أنَّ الإيمانَ المُفضيَ إلى الجزاءِ المَذْكورِ في جواب الشَّرط هو الإيمانُ بكلِّ ما كان مِن عندِ اللّهِ تَعالى، سواءٌ أنْزَلَهُ اللّهُ تَعالى في كِتابِهِ، أو أمَر به على لسانِ رسوله ﷺ، وسواءٌ أكان في أمْرِ الطَّلاق أم في غيره من الأمور والأحوالِ.

نوع الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾:

الواو في جملة: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ لعطف ما بعدَها على قوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 170.

﴿يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، وأوثر عطفه بالواو؛ للدّلالة على أنَّ الجزاء المذكور لا يكون إلّا لِمَن يقرنون الإيمان بعمل الصّالحات، ولمن يُحيلون ما نزَلَ إليهم مِن ذِكرٍ، وما تلاه عليهم الرَّسولُ ﷺ من حدودٍ وأحكامٍ إلى واقعٍ عمليٍّ، يَحيَون به، ويجعلونه عاداتٍ يتمَسَّكون بها، ويرفضون التَّخَلّيَ عنها؛ تقديسًا لها، وإيمانًا باللّهِ تَعالى الذي أنزلها، وتقديرًا للرَّسول ﷺ الذي تلاها.

الجنَّة لا تكون إلّا لِمَن يَقْرِنون الإيمانَ بعمل الصّالحات

بلاغَةُ التَّعبير بفِعْلِ (العَمَلِ) مضارعًا:

أوثر التَّعبير بفعل العمَلِ مُضارِعًا، فقال تعالى: ﴿وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾؛ لِما يمتاز به المضارع من الدَّلالة على تجدُّد قيام المؤمن بالأعمال الصّالحة، وعدم توقُّفه عنها، أو تردُّده في القيام بها، ولِما يُفيده كذلك مِن استحضار الصّورة المُتَحَدَّث عنها، كأنَّها حاضرة ماثِلَةٌ، يَبْدو فيها المؤمنُ الرّاغبُ في الفوز بالجنَّة، والرّزق الوفير الذي لا مثيل له، وهو ينتقل من صالحٍ إلى صالحٍ، ويتحوَّل من طاعةٍ إلى طاعة، غير مانٍّ ولا مستكثرٍ.

المؤمن ينتَقِلُ مِن طاعةٍ إلى أُخرى، ومِن عمَلٍ صالح إلى آخَرَ، غيرَ مانٍّ ولا مُسْتَكْثِرٍ

موقعُ ﴿صَٰلِحٗا﴾ الإعرابيُّ، وسِرُّ تنكيره:

قولُه تعالى: ﴿صَٰلِحٗا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه الفعل (يَعْمَلْ)، والمعنى: يعمل عملًا صالحًا[1]، وأوثر التَّعبير بالصِّفة دون ذِكْرِ المَوْصوفِ قبلَها؛ للإشارةِ إلى أنّ المعوَّل عليه في قبولِ الأعمال، والمجازاة عليها بالجنَّة في الآخرة، هو صلاحُها وخلوصُها لوجهِ اللّه جلَّ في علاه، وأنَّ الإخلاصَ والصَّلاح يجِبُ أن يكون هدفَ المؤمن الرّاغب في ثوابِ الآخرة ونعيمها، فلا يَسْعى أبدًا إلى عمَلٍ غيرِ صالِحٍ، وأوثِرَ تنكيرُ الصِّفة لِما يُفيدُهُ التَّنكير في سياق الشَّرط - كإفادَتِهِ إيّاه في سياقِ النَّفي - من العموم والشُّمول الدّالّ على قيام

صلاحُ الأعمال وخلوصُها للهِ تَعالى هو المعوَّل عليه في قَبولِها والمجازاةِ الحسَنَةِ عليها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

المؤمن بكُلِّ الأعمال الصّالحة، والمعنى: ويعمل جميعَ الصّالحات، أي: المأمور بها أمرًا جازِمًا، بقرينة استقراءِ أدلَّة الشَّريعة[1].

نكتةُ العدولِ عن الجَمْعِ إلى الإفراد في ﴿صَٰلِحًا﴾:

كلُّ عملٍ صالحٍ له وزنُه وقيمتُه وأثرُه في دخول المؤمنِ جنَّةَ النَّعيمِ في الآخرة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن مفعولِ (يَعْمَلْ) بصيغة المفرد، فقال: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل: (الصالحات)، كما قال مِن قبلُ في جملة: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لِما يُفيده تنكيرُه مِن التَّكثير، ولِما يُفيدُهُ إفرادُه مِن الإشارة إلى أنَّ كلَّ عمَلٍ صالح له وزنُه وقيمتُه وأثرُه في دخول الجنَّة، ما يعني أنَّه أحدُ الأسباب المُفْضية إلى الفوز بالنَّعيم الذي أعدَّه اللّه تعالى للمؤمنين في الآخرة، ما يترتَّب عليه ألّا يَستَقِلَّ مؤمنٌ عملًا، وألّا يعْتوَ عن حدٍّ مِن حدود اللّه سُبحانَهُ؛ لأنَّ التزامَه بهذا الحدِّ قد يكون السَّببَ المُفضي به إلى جنَّةِ الخلود، والرّزقِ الذي ليس له حُدودٌ.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ مضارعًا مسندًا:

اللّه تعالى سيتولّى مجازاةَ المُؤْمِنِ الذي يعمَلُ الصّالحات بِنَفْسِهِ

أوثر التَّعبيرُ عن فعل الإدخال بصيغةِ المُضارع؛ لأنَّه سيَحْصُلُ في الآخرة، وأُسْنِدَ إلى الضَّمير المستتر في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ العائدِ إلى اللّه سُبحانَهُ؛ تشريفًا للمؤمن وإعلاءً لقَدْرِه؛ لِما فيه مِن دلالةٍ على أنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ سيَتَولّى جزاءَهُ على الإيمانِ وعمَلِه الصّالحات بنَفْسِه. وعبَّر عن المفعول (المؤمن) بالضَّمير؛ جريًا على الأصلِ في التَّعبير عن الاسم الذي سبق ذِكْرُهُ قريبًا بالضَّمير، ولِما يُفيده التَّعبيرُ به من تعيين المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يحولُ دونَ صَرْفِ الحَديثِ عنهُ إلى أحدٍ آخَرَ.

نكتَةُ تَنْكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجَمْعِها:

المؤمنُ الذي يَعْمَلُ الصّالحات يَتنوّعُ نعيمُه بما يُكافِئُ ما جاءَ به مِن إيمانٍ وعملٍ

قولُه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به ثانٍ لفعل الإدخال، وأوثر تنكيرُه لتَعْظيمِ الثَّواب وتفخيمه، وليَتَسَنّى وصفُه بجملة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 338.

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، والتي تُبْرِز جانبًا من جوانب النَّعيم المُشَوِّق إلى إتيان فِعْلَي الشَّرط وامتثالهما، وجُمِعَ؛ ليَدُلَّ على كثرة الجنان، وتنوُّع نعيمها وتعدُّده، بما يكافئُ ما جاء به المؤمنُ من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، ويوازيه.

دلالةُ التَّعبير بفعل الجَريانِ مُضارِعًا:

قولُه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جملة في محلِّ نصبٍ صفةٌ لـ ﴿جَنَّٰتٖ﴾، أوثِرَ التَّعبير فيها عَن فِعْلِ الجَريانِ بصيغَةِ المُضارع، فقيل: ﴿تَجۡرِي﴾؛ لِما يَدُلُّ عليه مِن تجدُّد جريان الماء، واستمرار تدفُّقه في الأنهار، ما يُضْفي على الجِنانِ مَزيدًا مِن النَّعيم والجمال؛ لأنَّ أحسن الماء ما كان جاريًا غير قارٍّ؛ إذ يكون بذلك جديدًا؛ كلَّما اغترف منه شاربٌ، أو اغتسل منه مغتسلٌ"[1]، فضلًا عمّا يمتازُ به التَّعبير بالمضارع من استحضارِ صورة الماء، وهو يَجْري في الأنهار كأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ، تدفَعُ المُخاطَبين إلى فعلِ ما يُفضي إلى التَّنعُّم بهذا الماء الجاري مِن غيرِ تَرَدُّد أو استثقالٍ.

استحضارُ الصّورة يَدْفَعُ المُتَلَقّي إلى فِعْلِ ما يُفضي إلى التَّنعُّم بالماء الجاري

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

﴿مِن﴾ في جملة: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لابتداءِ الغايةِ[2]، فابتداءُ جريِها كائنٌ من تَحْتِ أشجار الجنّات وأصولِها، وأوصافُ الجنَّة على خلافِ المشاهَدِ مِن أحوال الدُّنيا[3].

نكتةُ تقييدِ الجَريانِ بالتَّحتيَّة:

قُيِّدَ جريانُ الماءِ مِن تحت الجنّات مع أنَّ الأنهارَ كذلك؛ إذْ لا تجري مِن فوقُ؛ وذلك أنَّ هذا القيدَ كاشفٌ قُصِدَ منه زيادةُ إحضارِ حالِ جَرْيِ الأنهارِ، ففيه تصويرُ الحالِ للسّامع[4]، والمعنى: أنَّ أنهار

أرضُ الجنَّة فيها عيونٌ تتفجَّر أنهارًا في أيِّ مكانٍ يُريدُه المؤمن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 182.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 2/ 357.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 355.

الماءِ تتخلَّلها، حتّى كأنَّها تحتها، أو أنَّ الماء تحتها فعلًا؛ بأن تكون أرضُها عيونًا نابعة، أيُّ موضعٍ أراد منهُ المؤمنُ إجراءَ نهرٍ جَرى[1].

غَرض تقديم شِبْهِ الجُمْلَة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل:

المَاءُ سببٌ رئيسٌ في كمال الاستمتاعِ بالجِنان

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ تأكيدًا لمعنى جريان الماء ووجودِه فيها، وإبرازًا لصورَته وأثَرِه الرَّئيس في نعيم الجنان، وكمال الاستمتاع بها، فالتَّقديمُ لبيانِ بهاء هذه الصّورة، ولفْتِ الأنظار إلى قيدٍ معروفٍ؛ ليُتَفَكَّر في سِرِّ إيرادِه.

فائدةُ جمع ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وتعريفها:

جيء بالمسند إليه ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جمعًا لإرادَةِ التَّكثير، وعُرِّف باللّامِ المفيدةِ الجنسَ، فيكون في قوَّة النَّكرةِ، والمعنى: تجري من تحتِها أنهارٌ.

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللّامُ لِلعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمّا ذُكرتِ الجنّاتُ؛ استَحْضَرَ السّامعُ لوازمَها ومقارناتها.

ويَحْتَمِل أن تكون لِلعَهْدِ الخارجيِّ، ويكون المعهودُ هو المذكورَ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنّاتِ بأنْ يقال: (تَجْري مِن تحتِها أنهارُها)؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ التَّنعُّمَ بالأنهارِ تنعُّمٌ مستقلٌّ، وليس ذلك تنعُّمًا تابعًا لِلجَنّات.

نوعُ المجاز وبلاغتُهُ في جملةِ الصِّفة:

كأنَّ الأنهارَ هي التي تَجْري مِن شِدَّة اندِفاعِ الماءِ وسُرْعَةِ تدَفُّقه

في إسناد الفِعْلِ ﴿تَجۡرِي﴾ إلى ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجاز عقليٌّ، علاقتُهُ المكانيَّة؛ إذْ مِنَ المعلوم أنَّ النَّهر - وهو الشَّقُّ في الأرض - لا يجري، إنَّما الجاري ماؤُه، وفيه نوع مِنَ التَّصوير الذي يرينا سرعةَ المياه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 170.

في جريانها، حتّى ليُخيَّل إلينا أنَّ الأنهارَ هي التي تجري، ولو قيل: (تجري من تحتها المياه)؛ لَمَا كشَفَت هذه الحقيقةُ عَن امتلاءِ الأنهار بالماء وسرعة جَريانِه فيها، ولكان أقصى ما يُفهَم منها مجرَّدُ وصف الماء بالجريانِ.

الموقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ودلالةُ جَمْعِهِ:

ساكِنُ الجنَّة يتمتَّع بالنَّعيم الحِسّيِّ، والنَّعيم النَّفسيِّ

قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ مِن ضميرِ المَفْعولِ في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، وجيء به جَمْعًا؛ مراعاةً لمعنى اسْمِ الشَّرط (مَنْ) بعد أن روعيَ لفظُه في ضمائر فِعْلِ الإيمان، وفعلِ العمَلِ، وفعل الإدخال، وللدّلالة على أنَّ المؤمن الذي يعمل الصّالحات، ويلتزم حدودَ اللّه تَعالى في الطَّلاق وفي غيره يُنَعَّم بنَوعَيْنِ من النَّعيم، أحدهما: حسّيٌّ، وهو الخلود في الجنَّة، والتَّمتُّع بنعيمها على وجهِ التَّأبيد. والآخرُ: نَفْسيٌّ، وهو الأُنْسُ بالأصحاب والإخوان من المؤمنين؛ لأن منادمةَ الإخوان من أعلى نعيمِ الجنان[1].

فائدة التَّعبير بـ ﴿أَبَدٗاۖ﴾:

نعيمُ الجنَّة لا يتوقَّف، ولا ينتهي

لم يكتفِ النَّظمُ الكريم بما يُفيدُ الخُلود، فعبّر بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾؛ لتأكيد أنَّ هذا الخلود لا يتخلَّله انقطاعٌ لهذا النَّعيم، وليس له نهايةٌ، وفيه نوعٌ من التَّطمين الباعِث إلى زيادة التَّرغيب في إتيانِ الشَّرط المُفْضي إلى هذا النَّعيم الذي لا يَنْقَطِعُ، ولا يَنْتَهي.

موقعُ جُمْلَةِ: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ وفائِدَتُها:

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ جملةٌ في محلِّ نصبِ حالٌ ثانيَةٌ مِن الضَّمير المنصوب في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، جيء بها لإفادة معنى التَّعجُّب والتَّعظيم؛ لِما يُرْزَقُهُ المُؤمن من الثَّواب في الجنَّة[2] جزاءَ إيمانِه وعمله الصّالح وامتثاله حدودَ اللّهِ تَعالى في كلِّ أموره.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 214.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 486.

نكتَةُ التَّوكيدِ بـ ﴿قَدۡ﴾:

رزقُ الجنَّة مؤكَّد الحصولِ مِن غير شَكٍّ أو رَيْبٍ

﴿قَدۡ﴾ حرفُ تحقيقٍ، عُبِّر به لتأكيدِ حُسْنِ ما يُرْزَقُه المؤمنُ في الجنَّة، مِن رزقٍ وافرٍ متنوِّع؛ تأكيدًا يَنْفي الشَّكَّ، كما ينفي أنْ يكونَ لهذا الرِّزق مثيلٌ أو شبيهٌ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الحُسْن مادَّةً وصيغةً:

رزقُ الجنَّة لا مثيلَ له، ولا شبيهَ به

أوثِرَ التَّعبير بفعل الحُسْنِ المُسْنَدِ إلى الاسم الأحسَنَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ﴾؛ للدّلالة على أنَّه لا أحسن ولا أفضل ولا ألذَّ ولا أعظمَ ممّا يُرْزَقُهُ المؤمن في الجنَّة من الثَّواب، وسائر المطاعم والمشارب، وكلِّ ما لذَّ، وطاب ممّا تَقَرُّ به الأعين، وتطمئنُّ إليه النُّفوس[1]، وأوثر التَّعبير به ماضيًا مع أنَّه سيحصُلُ في الآخرة تَشْبيهًا للمُستَقْبَل بالماضي في تأكُّد الوقوع، وتحقُّق الحصولِ.

نكتةُ إظْهارِ الاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾:

تشريفُ المؤمن، وتعظيمُ ما أنعَمَ اللهُ بِهِ عليهِ مِن الرِّزق

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (قد أحسنَ له رزقًا)؛ جريًا على ما سبق من التَّعبير عن فاعل الإدخالِ بالضَّمير في قوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ﴾، لكنَّ النَّظم الكريم عدَلَ عن الإضمارِ إلى إظهار الاسْم الجليلِ، فقال: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ﴾؛ لتشريف المُؤْمِن، وتعظيم ما أنعمَ اللهُ بِهِ عليه مِن الرِّزق جزاءَ عَمَلِه؛ لِما هو معروفٌ مِن أنَّ العطيَّة تكون على قدر المُعْطي، والمعنى: قد أحسَنَ المَلِكُ الأعلى ذو الجلالِ والإكرامِ[2].

معنى اللّام في ﴿لَهُۥ﴾، ووجه تقديم شبه الجملة:

التَّعجيل بالبُشرى يدفَعُ إلى المُداومة على ما كان سببًا فيها

قوله: ﴿لَهُۥ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بفعل الإحسان، واللّام فيه حرف يفيد اختصاصَ المؤمنِ - الذي يلتزم حدودَ اللهِ تعالى في الطَّلاق وغيره - بالرِّزقَ الذي لا رزقَ أحسَنُ منه في الآخرة، وأوثر تقديمُ الجارِّ والمجرور تعجيلًا للبُشْرى، وإسراعًا بإدخال السُّرور

---

(1) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 10/ 1475.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 171.

على نفسِه في الدُّنيا، ما مِن شأنه أن يَدْفَعَ إلى المُداومَةِ على ما كان سَبَبًا في ذلكَ.

نكتَةُ تَنْكيرِ ﴿رِزْقًا﴾:

لا حدودَ لعظَمَةِ الرِّزق الذي سَيُرْزَقُهُ المؤمن في الجنَّة

قولُه: ﴿رِزْقًا﴾ مفعولٌ به لفعل الإحسان، وقد جيء به نكرةً مختومًا بألف المدِّ؛ ليدلّ بمعناه ومبناهُ على أنَّه لا حدود لعظمة الرِّزق الذي سيُرْزَقُه المؤمنُ في الجنَّة؛ إذ المعنى: قد وسَّع اللّه تعالى لهذا المؤمن الصّادق في إيمانِه رزقَهُ في الجنَّة، وأعطاه من الخير والنَّعيم، ما يَشْرَحُ صدرَه، ويُدخل السُّرور على نفسِه، ويُصلح باله[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمَل والفِعْل والصُّنع والكسْب:

المؤمنون يَجْعَلونَ أفعالَهم وصنائعَهم وكَسْبَهم طاعاتٍ تُؤَهِّلُهُم لجنَّة الخلود

العملُ: إيجادُ الأثَر في الشَّيء، يُقال: فلان يَعْمَلُ الطّين خزفًا، ويعمل الخوصَ زِنْبيلًا والأديمَ سِقاء، ولا يُقال: يفعَلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ الشَّيء عبارة عمَّا وُجِد في حالٍ كان قبلها مقدورًا، سواءٌ أكان عن سبَبٍ أم لا[2]، والصُّنعُ: ترتيبُ العمَلِ وإحْكامُه على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يوصِل إلى المراد منه[3]، أمّا الكسبُ؛ فهو الفعل العائدُ على فاعله بنَفْعٍ أو ضُرٍّ، وقيل: ما وقع بِمراسٍ وعلاج، أو ما فُعِل بجارحَة[4]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق الحديثِ عمّا يترتَّبُ عليه دخولُ الجنَّة، والتَّمتُّعُ برزقها الوافر ونعيمها الذي لا يُضاهَى؛ ناسب التَّعبير بمفردة (العمل)، فقال تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾؛ لدلالته على أنَّهم يُطَوِّعون أفعالَهم وصنائعَهم وكسبَهم، ويجعلونها طاعةً خالصةً للّه تعالى؛ كي تكون سببًا في دخولِهم جنَّةَ الخلود، وتمتُّعِهم فيها بالرِّزقِ غيرِ المحدود.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 461.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 135.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 137.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّذكير بما يبعث على تعظيم ما شَرَعَ اللهُ تعالى مِن الدّين القويم

بعد أن تحدَّثت الآياتُ السّابقةُ عن القُرى التي حاسبها اللّه تَعالى وعذَّبها في الدُّنيا، وأعدَّ لها عذابًا شديدًا في الآخرة؛ بسبب عُتوِّها عن أمرِ اللّه تعالى ورسله، وبعد أن دعَت المؤمنين إلى التزام حدودِ اللّه سُبحانَه، ووعدَتْهُم نظيرَ ذلكَ جنَّةَ الخُلود والرِّزق الجميل؛ ناسب أن تُختم السّورةُ ببيان قُدْرَةِ اللّه تَعالى التّامّة، وسلطانه العظيم؛ ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شُرِعَ مِن الدّين القويمِ في أمْرِ الطَّلاق وفي غيره[1].

اللهُ تعالى قادرٌ على تغيير الأخلاقِ والعادات، كما قَدِرَ على خلق الأرض والسَّماوات

ومن وجوه المناسبة أيضًا أنّه لمّا تقدم أنَّ فائدةَ الذّكر النَّقلُ من خُلُقٍ إلى خُلُقٍ، وكان من المعلوم أنَّ تحويلَ جبلٍ من مكانه أيسرُ من تحويلِ شَخْصٍ عن خُلُقِه وشأنه، وتقدَّم أنَّ أجرَ المجاهدة في ذلك الجنّاتُ الموصوفة، وكان ذلك يحتاج إلى قدرةٍ تامَّة؛ ناسب أن يُدَلِّل في هذه الآية على عَظيمِ قُدْرَتِه سُبْحانَهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: (أمر) أُصولٌ خَمْسَةٌ، منها: الأَمْرُ مِنَ الأُمورِ، والأَمْرُ: ضِدُّ النَّهْيِ[3]، والأَمْرُ: الشَّأن، وجمعه: أُمور، ومصدر أَمَرْتُه: إذا كلّفتَهُ أن يفعل شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وعلى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 171.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).

ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ [آل عمران: 154][1]، ويأتي في القرآن على سبعة عشر وجهًا، منها: الوحي، كما في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 5]، وقوله هُنا: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾[2]، فهو الأمر بالتَّكوين أو بالتَّكليف، ويجوزُ أن يكون أمْرَ اللّهِ تَعالى وقضاءَه، أو ما يُدبَّر مِن عجائب صنعِ اللّه سُبحانَهُ وتدبيره[3].

2) ﴿أَحَاطَ﴾: (حوط) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بالشَّيْءِ، فالحَوْطُ مِن حاطَهُ حَوْطًا[4]، والإحاطة تُقال على وجهَين، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحَطْتُ بمكانٍ كذا، أو تُستعمَل في الحفظ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظ له مِن جميع جهاته، والآخَرُ: في العِلْم، نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120][5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ تعالى قادرٌ علـى أن يُنْزِل بِمَن يعتون عن أمرِه مثلَ ما أنزل بالذينَ عَتَوا مِن قَبْلُ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ قدرةَ اللّه سُبْحانَه، وبَسْطَةَ سلطانِه على هذا الوجود، وأنَّه تَعالى خَلَقَ سبعَ سماواتٍ، وخَلَقَ مِن الأرض مِثْلَهُنَّ، وتشير إلى أنَّ مَن نظَرَ في خَلْقِ السَّماوات والأرض، يتبيَّنُ له ما للّه تعالى مِن قدرةٍ، وما لَهُ مِن علم قائم على هذه العوالم، يَضْبِطُها، ويدبِّر أمرَها، وأنَّ مَنْ عَلِمَ هذا؛ عَلِمَ أنَّه مخلوقٌ للّه تعالى، لا يَخْرُجُ عن سلطانه، ولا يغيبُ عن علمه شيءٌ ممّا عمل، وأنَّه محاسب على ما يعمل من خير أو شرٍّ، فلْيتَّقِ اللّهَ ﷻ، ولْيَعْمل عملًا صالحًا، حتّى

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أمر).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 73.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (حيط).

لا يقعَ تحتَ غَضَبِه، وينزل منازل الهَلْكى، مِن الضّالّين العاتين عن أوامرِ اللّهِ تَعالى ورسلهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

تأكيدُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى على عَذابِ أهْلِ الكُفْرِ وإكْرامِ أهْلِ الإيمانِ

جاءت جملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها بمنزلة التَّأكيد لِما سبقها مِن قدرة اللّه تعالى على تعذيب مَن عَتَوا عن أمره، وإكرامِ مَن التزم حدودَه، بإدخاله الجنَّة والفيضِ عليه من أحسن الرِّزق وأعظمه، فيما يُعْرَفُ بكَمال الاتِّصال الذي تُنَزَّل فيه الجملةُ المفصولةُ ممّا قبلَها منزلةَ التّابع من المتبوع.

ويجوزُ أن تكون الجملةُ مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا، فإنَّه بعد أن جرى ذِكْرُ شؤون من عظيمِ شُؤون اللّه تعالى، ابتداءً من قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ إلى هنا، فقد تكرَّر الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، وضميرُه، والإسنادُ إليه؛ زهاءَ ثلاثين مرَّة، فاقتضى المقامُ عقِبَ ذلك أن يُزاد تعريفُ النّاس بهذا العظيم[2].

موقِعُ الاسمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ الإعرابيُّ، ودلالَةُ إظْهارِه:

مَنْ أنزل عذابَه بمن عَتَوا عن أمرِه هو اللهُ خالِقُ السَّماواتِ والأرض

كان مقتضى الظّاهر بعد أن قيل: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ أن يُقال (هو الذي..)، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ عدل عن التَّعبير بالضَّمير إلى إظهار الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مع قُرب العَهْدِ به؛ لتقرير أنَّ مَنْ أنزل عذابَه بمن عَتَوا عن الحدودِ، ومَن وعد المؤمنين بالخُلود في الجنَّة والرِّزق العظيم، هو اللّهُ الذي خلقَ السَّماوات السَّبع والأرضين السَّبع، وهو الذي وسِع علمُه ما فيهما مِن صغيرٍ وكبير، وقليلٍ وكثير، ويدخل في ذلك التزامُ خَلْقِهِ بما أُنزل عليهم، وطاعتُهم مَنْ أُرْسِلوا إليهم، وعتوُّهم أو التزامُهم بما شُرِع لهم، ولا يَخْفى ما فيه من

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1020.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 339.

التَّرغيب في الإيمان وعمل الصّالحات، والتَّرهيب من الكفر والعُتوِّ عن حدود اللّه تَعالى وأحكامِه.

غَرض التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

لا قُدْرَة لأحدٍ غير اللهِ تعالى على خلقِ السَّماواتِ والأرضِ

عُبِّرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لزيادةِ التَّقرير، وبيان اختصاصِ اللّهِ تَعالى وحدَهُ بخلق السَّماوات والأرض؛ إذْ لا قدرةَ لأحدٍ على ذلك غيرُه، والمعنى: الذي أَوْجَد وحدَهُ من العدَم بقُدْرته على وفْق ما دبَّر بعِلْمِه على هذا المنوال البديع القريبِ[1].

فائدةُ التَّعبير بجُمْلَةِ الصِّلة:

النّاسُ داخِلونَ في جُمْلةِ مَنْ خلق اللهُ تعالى في السَّماواتِ والأرضِ

قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ جملةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ صلةُ الموصول، وقد ذُكِرت هذه الصِّلة لِما فيها مِن الدّلالة على عظيم قُدْرَته تعالى، وعلى أنَّ النّاس - وهُم مِن جملة ما في الأرض - خلقُه وعبيدُه، فعليهم أن يتَّقوه، ولا يَتَعَدَّوا حدودَه، وأن يُحاسِبوا أنفُسَهُم على مدى طاعتِهِم إيّاه، فإنَّه لا تخفى عليه خافية، وأنَّه قدير على إيصالِ الخير إليهم؛ إن أطاعوه، وعقابِهم إن عَصَوه[2].

سرُّ التّعبير بفعل الخَلْق ماضيًا مُسْنَدًا:

خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما أمرٌ يسيرٌ على اللهِ تعالى

عبَّر البيانُ عن إيجادِ السَّماوات السّبع والأرض بالفعل: ﴿خَلَقَ﴾؛ لكونه إيجادًا من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[3]، وجيء به ماضيًا مسندًا إلى الضَّمير المستتر العائد إلى اللّه تَعالى؛ تعظيمًا للفِعْلِ وتفخيمًا، ولبيان سهولتِه على اللّهِ تَعالى بما له من العظمَةِ والقدرة التي لا يعجزها شيءٌ، والمعنى: أَوْجَدَ مِنَ العدَمِ بقدرته على وفْقِ ما دبَّر بعلمه[4].

نكتةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾ وجَمْعِها:

الجمعُ أدخلُ في إثبات قدرة اللهِ تَعالى على كلِّ شيء

أوثر تنكيرُ لفظ ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾؛ جريًا على عادة اللِّسان العربيِّ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 339.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (خلق).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 172.

تنكير التَّمييز وإضافَته إلى العدَدِ، ولِما يفيده التَّنكير من التَّعظيم والتَّفخيم معنى وجِرْسًا، أمّا الجمعُ؛ فقَد جاء جريًا على عادة البيانِ القُرآنيِّ في جمع السَّماواتِ لأسرارٍ كثيرة، منها: أنَّ السَّماوات أشرفُ مِن الأرض، وأنَّ الجمع أبلغُ في التَّفخيم من الإفراد، ومنها: أنَّ أوامر اللّه تعالى إلى الأرض تختَرِقُ جميعَ السَّماوات السَّبع، ما يزيد شرفَها وأفضليَّتَها، ومنها: أنَّ السَّماواتِ طباقٌ بعضُها فوق بعض، والأرضَ وإن كانت سَبْعًا؛ فليسَ بعضُها فوق بعضٍ، وإنَّما بعضُها موالٍ لبعض[1]، ويُلْحَظُ أنَّ البيان الكريم يجمَعُ السَّماوات ويُفْرِدُ الأرضَ في كلِّ مقام يُراد فيه عرضُ جلال اللّه تَعالى، وعظمة قدرتِه، وسعَة مُلْكه؛ ليكون في ذلك العرض ما يَدْعو إلى التَّأمُّل والنَّظر، وتوجيه البَصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفُقِ المحدود الذي يعيش فيه مَن لا يَمُدّون أبصارَهُم إلى أكثر مِن مواقِع أقدامِهِم[2].

حسابُ العاتين وعقابُهم أهونُ من خَلْق سماءٍ واحـدةٍ، فكيف إذا كانت سَبْعًا؟

فائدَةُ التَّنصيص على عدَدِ السَّماوات:

حَرَصَ البيانُ القرآنيُّ على ذِكْرِ عدَدِ السَّماوات التي خلقها اللّهُ ﷻ؛ لِبَيان أنَّها ليست سماءً واحدة، وإنَّما هي سبعٌ متطابقةٌ، بعضُها فوقَ بعض، وفي ذِكْرِ العدَدِ زيادةُ تأكيدٍ لقدرة اللّهِ تَعالى عَلى كلِّ شيء، بِما في ذلك مُحاسبَةُ مَن يَعْتون عن أمره وعقابُهم، ويَتَعَدَّوْنَ ما شرعَهُ مِن حُدودٍ، وما أمَرَ بِهِ مِن أحكام، ويَظْلِمون الضُّعفاء من خَلْقِه، لا سيَّما المرأة التي نزلَت السّورةُ الكريمةُ لإنْصافِها وإكرامِها، وهو ما يعدُّ هَيِّنًا؛ إذا قورِنَ بخَلْقِ سماءٍ واحدة، فكيف إذا كانت السَّماواتُ التي خلَقَها اللّه تعالى سَبْعًا؟.

وجهُ تقديم خَلْق السَّماوات على خَلْق الأرْض:

أوثر تقديمُ خَلْقِ السَّماوات على خلْقِ الأرْض؛ لشَرَفِها وعظَمَتِها،

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 1/ 489، والخفاجي، عناية القاضي: 4/ 3.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/ 119.

وسهولة النَّظر إليها، وظهور أوجه الإعجاز فيها بكثرةٍ، وسرعةِ إدراكِ حقيقة الإعجاز في خَلْقِها بقليلٍ من التَّفكُّر، وكونِ كلِّ شيءٍ فيها يصلُح أن يكون برهانًا مستقلًّا على عظمَةِ اللّٰهِ تَعالى وقدرته على الحساب والعذاب في الدُّنيا والآخرة، وغير ذلك ممّا يُعَدُّ هيِّنًا إذا قورِنَ بشيءٍ ممّا فيها، كالشَّمس والقمر والنُّجوم واللَّيل والنَّهار أو غيرها.

أوجهُ الإعجازِ تَظْهَرُ في السَّماوات بوجهٍ أكثَرَ وأوسَعَ

دلالةُ العَطْفِ بالواوِ:

جيءَ بِجُمْلَةِ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ بالواو التي تفيد المُشارَكَةَ؛ للدّلالة على ما بينَهُما من التَّماثل والتَّشارك في الإعجاز، وأوجهِ الدّلالة على قدرة اللّٰه تعالى على الحسابِ والعِقاب الذي يعدُّ أيسرَ وأسهلَ من خلق أرضٍ واحدة، فكيف إذا كانَت سبعًا، بعضُها فوق بعضٍ، بين كلِّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ، كما بين السَّماء والأرض، وفي كلِّ أرضٍ سُكّان من خلق اللّٰه تعالى - كما هو قولُ الجمهورِ - أو كانت سبعًا مُطْبَقَةً، بعضُها فوق بعض من غير فُتوقٍ - في قول الضَّحّاكِ - بخلافِ السَّماوات[1]؟.

الأرضُ شأنُها شأنُ السَّماوات في الدّلالة على قُدْرَةِ اللهِ تَعالى

معنى (مِنْ) ودلالتُها:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ هي البيانيَّةُ المَوَضِّحةُ أنَّ اللّٰه تعالى خلَق أرضًا تماثلُ السَّماواتِ في العدد، وفي الإعجاز، وفي الدّلالة على قدرة اللّٰه تعالى على كلِّ شيءٍ، بما في ذلك محاسبةُ العاتين عن حدودِه ومعاقبتُهم في الدُّنيا والآخرة.

نوع (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ودلالتُها:

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لتعريف الجِنْسِ، أي: إنَّ خَلَقَ من جنسِ الأرضِ التي يَمْشون عليها سَبْعَ أرضين، خلقَها اللّٰهُ سَبْعًا، كما خلَقَ السَّماوات التي يرونَها، ويعرفونها سبْعًا، وذلك يُؤَكِّد عظيمَ قدرته

عظيمُ قُدْرَة الله تعالى وَسَعَةُ عِلْمِه وإحاطتِه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 265.

ﷻ، وسعةَ علمِه وإحاطتِه بكلِّ شيءٍ فيهما، بِما في ذلك التزامُ حدوده والعُتوُّ عنها؛ لأنَّ الذي خلق يعلمُ ما خلق، ويعلم مَنْ خَلَق بداهةً، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14].

موقِعُ ﴿مِثۡلَهُنَّۖ﴾ الإعرابيُّ، ودِلالَتُه:

خَلْقُ الأرْضِ ليس أضعفَ دلالةً على قدرةِ اللهِ تعالى مِنْ خلق السّماوات

قولُه: ﴿مِثۡلَهُنَّۖ﴾ - بفتح اللّام - معطوفٌ على: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾، أو هوَ منصوبٌ بفعل بعدَ الواو، تقديره: وخَلَقَ مثلَهُنَّ مِن الأرض، وقُرِئَ شاذًّا (مِثْلُهُنَّ) بالرَّفْعِ على أنَّه مبتدأ مؤخَّر، والجارُّ والمجرورُ قبلَهُ خَبَرٌ مقدَّم، وأيًّا كان موقعُه الإعرابيُّ؛ فالتَّعبير به يدلُّ على أنَّ الأرض مثلُ السَّماوات في العدَدِ، ومثلُها في الكُرَويَّة، وإحاطةِ كلِّ واحدَةٍ مِنْها بالتي تَحْتَها، وأنَّ التي نَحْنُ عليها هي السّابعة العُلْيا؛ لأنَّ ذلك أدلّ على ما سيقَ لَهُ الكلامُ مِن تمام عِلْم اللّه تعالى وشمول قدرتِه[1]، ويجوزُ أنْ تكون مماثلةُ الأرض للسَّماوات في دلالةِ خَلْقِها على عظيم قُدْرَةِ اللّه تعالى، ما يعني: أنَّ خلقَ الأرض ليس أضعفَ دلالةً على القدرة مِن خلقِ السَّماوات؛ لأنَّ لكلٍّ منهما خصائصَ دالَّةً على عظيم القُدْرَةِ[2].

بلاغةُ الطِّباق في الآية:

الحِسابُ والمُجازاةُ أيسرُ مِنْ خَلْقِ السَّماوات والأرض وكلٌّ على اللهِ تَعالى يسيرٌ

في الآية نوعٌ مِن الطِّباق يسمّى: الطِّباق الخفيَّ؛ لأنَّ التَّضادَّ فيه ليس بينَ اللَّفظين مباشرةً، لكنَّه حاصلٌ بين لازم كلِّ طرف منهُما، فالسَّماوات تطابِقُ الأرضَ باعْتِبار أنَّ الأولى تدلُّ على جِهَةِ العُلوِّ، والثّانية تدلُّ على جهة السُّفْل، وأيًّا كان نوعُ الطِّباق فإنَّ الجَمْعَ بين خلق السَّماوات السَّبع والأرَضينَ السَّبع يُؤَكِّد عظيمَ قدرةِ اللّه تعالى، ويُسْرَ كلِّ شيءٍ عليه وسهولتَه؛ لأنَّ مَنْ قدر على خَلْقِ السَّماوات بما فيها، والأرض بما يحويه باطِنُها قادرٌ على الحسابِ والمجازاة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 339.

بالجنَّة والنّار من بابٍ أوْلى؛ لأنَّ ذلك أيسرُ مِن خَلْقِ السَّماوات والأرض وأسهلُ.

موقعُ جملَةِ ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ ودلالَتُه:

كُلُّ ما في السَّماوات والأرضِ خاضِعٌ لسُلْطانِ اللهِ تَعالى

جملةُ ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ يجوزُ أن تكونَ مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا، بغَرَضِ التَّنبيه على أنّ كلَّ ما في السَّماوات والأرض داخلٌ في سُلْطانِ اللّهِ تعالى، خاضعٌ لِما يأمُرُ بِهِ، ويَنْطَبِقُ عليهِ ما تَجْري به السُّنَنُ التي يدبِّر اللّهُ تَعالى بها أمور كونِه الفَسيح، وأنَّه لا يمكن لأحد مِن خَلْقِه أن يفْسُق عن ذلكَ، أو يَشِذَّ، ويجوز أن تكونَ الجُمْلَةُ صفةً للسَّماوات والأرض، عُبِّر بها للدّلالة على أنَّ مِن صفاتِهما أنَّ أمرَ اللّهِ تَعالى وقضاءَه يَجْري بينَهُنَّ، وينفذُ حكمُه جلَّ شأنُه فيهنَّ[1].

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ التَّنزُّل مُضارِعًا:

عبَّر القرآنُ الكريم بفِعْلِ التَّنزُّل مُضارِعًا على صيغَةِ التَّفعُّل، فقال: ﴿يَتَنَزَّلُ﴾؛ ليُفيدَ تجدُّد نزولِ أوامِرِ اللّه تَعالى بين السَّماء والأرض، واستمرار تَدَرُّجها في الارتِقاءِ بالنّاس مِن حَسَنٍ إلى أحسَنَ؛ تماشيًا مَعَ طبيعَتِهِم، واتِّساقًا مع ضَعْفِهِم، والمعنى: يَتَنَزَّل بالتَّدريج[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

في كلِّ سماءٍ وفي كلِّ أرضٍ خلقٌ من خَلْقِ الله تَعالى، وأمرٌ من أمْرِه، وقضاءٌ من قضائِهِ

(أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ لتعريف الجِنْسِ، والمعنى: يتنزَّل كلُّ ما يأمُر به اللّهُ تعالى مِن أمْرٍ بالتَّكوين أو بالتَّكليف، يُبلغ إلى الذينَ يأمُرُهُم اللّهُ تَعالى به مِنَ المَلائكة؛ ليَبْلُغوه، أو لمَنْ يأمرهم اللّهُ تَعالى من الرُّسل؛ ليبلِّغوه عنه، أو مِنَ النّاس ليَعْلَموا بِما فيهِ، كلُّ ذلك يقع فيما بين السَّماء والأرض[3]، ويجوزُ أن يكونَ المَعْنى: يجري أمرُه وقَضاؤُهُ بينَهُنَّ، وينفذُ مُلْكُه فيهنَّ، فعن قتادةَ: في كلِّ سماءٍ وفي كلِّ أرضٍ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 462.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 172.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 341.

خلقٌ من خلقه، وأمرٌ من أمره، وقضاءٌ من قضائه، وقال بعضُ أهل التَّفسير: هو ما يُدبَّر فيهِنَّ مِن عجائِبِ تدبيرِه[1].

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

كلُّ ما يتنزَّل مِن عندِ الله تعالى لَهُ خَطَرُه وأهَمّيّتُه

المراد بـ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ هُنا هو الأمرُ بالتَّكوين أو بالتَّكليف، ويجوزُ أن يكونَ أمْرَ اللّهِ وقَضاءَه، أو ما يُدبَّر من عجائب صُنْعِ اللّهِ تَعالى وتدبيره، والتَّعبير عن ذلك بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ المفيدِ للشَّأن والحالِ[2] دالٌّ على أنَّ كلَّ ما يتنزَّل من عند اللّهِ تعالى له خطرُه وأهمّيَّتُه؛ لكونه أمْرًا بخَيْرٍ، أو نهيًا عن شرٍّ، أو تصحيحًا لخطأٍ، أو ترغيبًا في ثواب، أو تخويفًا من عقاب، ما يعني: أن كلَّ مَنْ في السَّماوات والأرض مِن أعلاهنّ إلى أدناهنّ يجِبُ أن يتلقّاه بالقبولِ والامتثالِ.

بلاغَةُ المَجاز في تنزُّل الأمْر:

كلُّ ما يأمُرُ بِهِ اللهُ تعالى عظيمُ القَدْرِ جليلُ الشَّأنِ

حقيقة النُّزول والتَّنزُّل: أن يكونَ مِن عُلوٍّ إلى سُفْلٍ[3]، والمرادُ بتنَزُّلِ أمْرِ اللّهِ تَعالى هنا: مخاطبةُ اللّهِ تَعالى به مَن في السَّماوات والأرض ومَن بينَهُنَّ، والتَّعبيرُ عنه بالتَّنزُّل استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيه خطابُ اللّهِ تَعالى مَنْ في السَّماوات والأرض بالتَّنَزُّل، ثُمَّ استُعير الثّاني للأوَّل بعد تَناسي التَّشبُّه، وادِّعاء أنّ المشبّه فردٌ من أفراد المُشَبَّه به، على طريقةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الدّالّة على عظمةِ ما يأمُرُ بِه اللّهُ تعالى، وارتفاعِ قَدْرِه.

فائدة الظّرفيّة ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾:

أمرُ اللهِ تَعالى يتنزَّل بين السَّماوات والأرضِ بكامِلِ عَدَدِهما

قولُه: ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ ظَرْفٌ متعلِّق بفعلِ التَّنزُّل، والتَّعبير به تأكيدٌ على أنَّ المراد: ما بين هذه الأرض التي هي أدناها، وبين السَّماء السّابعة،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 265.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 41.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 39.

فالأكثرونَ على أنَّ ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ إشارة إلى ما بينَ الأرضِ السُّفْلى التي هي أقْصاها، وبين السَّماء السّابعة التي هي أعْلاها[1].

معنى اللّام في ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾:

مِـن أسـبـابِ خَلْقِ اللهِ تَعالى السَّماواتِ والأرضَ أن يَعْلَمَ النّاسُ قدرتَهُ على كلِّ شيءٍ، وإحاطة عِلْمِه بكلِّ شيءٍ

اللّام في قوله: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ هي لامُ التَّعليل، وهي مُتَعَلِّقة بـ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى: إنَّ ممّا أرادَهُ اللّهُ تَعالى مِن خلقهِ السَّماوات والأرض: أنْ يعلمَ النّاسُ قدرةَ اللّهِ تَعالى على كلِّ شيءٍ وإحاطة علمِه بكلِّ شيء؛ لأنَّ خَلْقَ تلك المَخْلوقاتِ العظيمة، وتَسْخيرَها وتدبيرَ نِظامِها في طولِ الدَّهر يرشد أفكارَ المُتَأمّلين، ويدلُّها على أنَّ مُبْدِعَها يقدرُ على أمثالها، فيستدلّونَ بذلك على أنَّه قديرٌ على كلِّ شيء؛ لأنَّ دلالتَها على إبداعِ ما هو دونَها ظاهرةٌ، ودلالتها على ما هو أعظَمُ منها وإن كانَت غيرَ مشاهدَةٍ، فقياسُ الغائِب على الشّاهد يدلّ على أنَّ خالقَ أمثالِها قادرٌ على ما هو أعظم، وأيضًا فإنَّ تَدْبيرَ تلك المخلوقاتِ بِمِثْلِ ذلكَ الإتقان المُشاهَدِ في نِظامِها، دليلٌ على سعَةِ عِلْم مُبْدِعِها، وإحاطته بدقائِق ما هو دونَها، وأنَّ مَن كان عِلْمُه بتلك المنزلة لا يُظَنّ بعِلْمِهِ إلّا الإحاطة بجميع الأشياء[2].

بلاغة التّعبير بالفِعْلِ المُضارع: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾:

عِلْمُ النّاس بقدرة اللهِ وسِعَةِ علمِه يتجدَّد مع كلِّ أمرٍ يتنزَّل، وكلِّ قضاءٍ يُبْرَم، وكلِّ آيةٍ تقعُ

عبَّر النَّظم الكريم عن فِعْلِ العِلْم المُسْنَدِ إلى ضميرِ المُخاطَبين بصيغَةِ المُضارع، فقال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الغايةَ مِن خَلْقِ اللّه تَعالى السَّماواتِ والأرضَ أنْ يتجدَّد علمُ المخاطَبين في كلِّ زمان ومكان بقدرة اللّهِ تعالى على كلِّ شيء وإحاطة علمِه بكلِّ شيء، وأنْ يحدُثَ لَهُم ذلك مع كلِّ أمرٍ يتنزَّل، وكلِّ قضاءٍ يُبْرَمُ، وكلِّ آية تقعُ، وكلِّ معجزةٍ تحدُث، وكلِّ سُنَّةٍ تتحقَّقُ.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 82، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 340.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 341، 342.

خلقُ السَّماواتِ والأرضِ لا يترك عندَ المُخاطَبِ ذرَّةً من الشَّكِّ في قدرةِ اللهِ تعالى على كلِّ شيء

أثر تتابع المُؤَكِّدات:

قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ جملة في محلِّ نصبٍ سدَّت مسدَّ مفعولَي ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، جيءَ بها مؤكّدة بـ (أنَّ) والجملةِ الاسميَّة، وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبرِ ﴿قَدِيرٞ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنَّ خلقَ السَّماوات السَّبع وخلق الأرَضين السَّبع لا يَترك في نفس المُخاطَب ذرَّةً من الشَّكِّ في قدرة اللّهِ تعالى على ما دونَهُما، ولا في قدرتهِ على ما هو أعظَمُ مِنْها، ولا في قُدْرَتِه على الحسابِ والعِقاب الذي هو أسهَلُ وأيسَرُ مِن خلقهما بكَثيرٍ، والمَعنى: فَعَلَ ذلك لِتَعْلَموا أنَّ مَن قدر على ما ذُكِر قادرٌ على كلِّ شيء؛ لاستِحالَةِ صُدورِ الأفعال المَذْكورةِ ممَّن ليسَ كذلكَ(1).

عظمَةُ القدرَةِ الإلهيَّة على كلِّ شيءٍ

دلالَةُ التَّعبير بحرف الاستعلاءِ:

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ المفيد للاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ دالٌّ على عَظَمةِ القدرةِ الإلهيَّة، حتّى دخلَ كلُّ شيءٍ تحت قَهْرِهِ وسُلطانِه، كبيرًا كان ذلك الشَّيءُ أو صغيرًا.

مَنْ قدرَ على إيجاد ذرَّةٍ من العدَمِ؛ قدر على إيجاد ما هو دونَها ومِثْلَها وفَوْقَها

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ مُضافًا إلى ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرَةً:

عبَّر البيانُ الكريمُ عن الاسم المَجْرورِ بلفظ: ﴿كُلِّ﴾ مضافًا إلى ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةً، فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لإفادة عموم قدرةِ اللّه تعالى وشمولِها كلَّ الأشياء مهما كانت، وأين كانَت، ومَتى كانَت، والمَعْنى: لا يُعْجِزُهُ شيءٌ مثلُ السَّماوات والأرض، ولا يُعْجِزه شيءٌ أعظم مِنْهُما، ولا يُعْجِزُه شيءٌ أصغر مِنْهُما، فإنَّ مَنْ قدر على إيجادِ ذَرَّة من العدَم؛ قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها إلى ما لا نهايةَ له؛ لأنَّه لا فَرْقَ في ذلك بين قليلٍ ولا كثيرٍ، ولا جليلٍ ولا حقيرٍ(2).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 265.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ على الخَبَرِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على الخبَرِ ﴿قَدِيرٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لتأكيدِ قُدْرَةِ اللّهِ تعالى على كلِّ شيء، وتقويَةِ اخْتِصاصِه بذلِكَ.

اخْتِصاصُ اللهِ تَعالى بالقُدْرَةِ المُطْلَقَةِ العامَّة

لطيفَةُ العَطْفِ بالواوِ:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ لعَطْفِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، وأوثِرَ عَطْفُه بالواو التي تُفيدُ المُشارَكَةَ؛ للدّلالة على أنَّ اللّه تعالى قادرٌ عَن عِلْمٍ؛ لأنَّ مَنْ قدر على ذلك الخَلْقِ العجيبِ وعَلى غيرِه؛ كان عالِمًا بدقائقهِ وأسراره، ولا تخفى عليهِ خافيةٌ.

مَن قدر على الخلقِ العجيبِ؛ كان عالمًا بدَقائِقِه وأسْرارِه بَداهَةً

وجهُ التَّعبيرِ بفِعْلِ الإحاطَةِ مادَّةً وصيغَةً:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن عِلْمِ اللّه تعالى بِما يحدُثُ في كونِهِ بالفِعْلِ ﴿أَحَاطَ﴾؛ للدّلالة على عِلْمِه بها من جميع وُجوهِها، وإحاطَتِه بكُلِّ تَفاصيلِها، وفيه تخويفٌ شَديدٌ بالغَلَبَة، فالمعلومُ الَّذي عُلِم من كُلِّ وجه بِمَنْزِلَة ما قد أُحيط بِهِ بِضَرْب سورٍ حَوْلَه، وذلك السّور يمْنَع أن يَخْرُجَ عنه ما هوَ منْهُ، وأن يَدْخُلَ فيهِ ما لَيْسَ فيه[1]، وأوثِرَ التَّعبير به ماضيًا؛ للدّلالة على سعَةِ عِلْمِه تَعالى وشُمولِهِ الماضي، وما هو آنيٌّ، وما هو مستقبليٌّ، ولو عُبِّر بالمُضارع، فقيل: (قد يُحيط)؛ لسَبَقَ إلى الوَهْمِ أنَّ عِلْمَهُ تعالى لا يشمَلُ ما مَضى مِن أقوال النّاس وأفعالِهم، ولكانَ التَّعبيرُ غيرَ مُتَّسق مع الإخبارِ بِعَظيمِ قُدرة اللّه تعالى عَلى كُلِّ شيءٍ.

عِلْمُ اللهِ تَعالى يشمَلُ الماضيَ والحاضِرَ والمستقبلَ

معنى الباءِ في ﴿بِكُلِّ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيدُ الإلصاقَ، وهو أصلُ

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 94، 95.

معانيهِ، وفي التَّعبير به دلالَةٌ على أنَّ العِلْمَ بتَفاصيل الأشياء مَهْما كانَت مِن اختصاصات اللّه تعالى، ومن السِّمات التي لا تنفكُّ عنه جلَّ شأنُه.

بلاغة التَّكرار في قوله: (كُلِّ شَيۡءٍ):

تحذيرُ المُخالِفين وتَرْهيبُهم مِن الاستمرارِ على ما هُم فيهِ

كان مُقْتَضى الظّاهر بعد قوله: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أن يُقال: (وأن اللّه قد أحاط به علمًا)، لكنَّ البيانَ القرآنيَّ عدلَ عن التَّعبير بالضَّمير إلى التَّكرار، فقال: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ للتَّأكيد والمُبالغَة في عِلْمِه بدقائق الأشياء وتفاصيلها، بما في ذلك الالتزام بحدوده، والعتوُّ عنها، والبواعث الدّافعة إلى مُخالَفَتِها من الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ ترهيبًا مِن الاعتداء والظُّلم وتخويفًا، والمعنى: لِتَعْلَموا أنَّ اللّه بكلِّ شيءٍ مِن خَلْقِه محيطٌ عِلمًا، لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، فَخافوا أيُّها المُخالِفون أمرَ ربِّكم عقوبتَه، فإنَّه لا يَمْنَعُه مِن عقوبتِكم مانعٌ، وهو على ذلك قادرٌ، ومحيطٌ أيضًا بأعمالِكم، فلا يَخْفَى عليه منها خافيةٌ، وهو مُحْصيها عليكم؛ ليُجازيَكم بها، يومَ تُجْزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ[1].

موقِعُ ﴿عِلۡمَۢا﴾ الإعرابيِّ، وبلاغَةُ تَنْكيرِه:

ما شَرَعَهُ اللّه تعالى مِن الأحكامِ يَضْبِطُ علاقَةَ النّاس، ويُحقِّق العدالةَ بينَهُم

قوله تعالى: ﴿عِلۡمَۢا﴾ تمييز مُحَوَّل عَن الفاعِلِ؛ لأنَّ أصلَ التَّركيب: وأنَّ اللّهَ قد أحاطَ علمُه بكلِّ شيءٍ، فعَدَل البيانُ القُرآنيُّ إلى التَّعبير بالمَصْدَرِ، وجعله تمييزًا مُتَعَلِّقًا بفِعْلِ الإحاطة؛ لبيانِ أنَّ إحاطةَ اللّه تعالى هنا إحاطَةٌ عِلْميَّة، وأنَّ قُدْرَتَهُ المُطْلَقَة مَصْحوبَةٌ بالعِلْم الشّامل، فاللّهُ سُبْحانَه يعلَمُ أفعالَ خَلْقِه، ويعلَمُ البَواعِثَ التي تَدْفَعُهُم إليها، ويعلَمُ طَبائِعَهُم وتَقَلُّباتِها، ويضع الشَّرائع والأحكام التي تَضْبِطُ علاقاتِهِم، وتُحَقِّق العدالَةَ بينَهُم، ومِن ثَمَّ وجَبَ الالتزامُ بها وعدمُ العتوِّ عنها.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 82.

على المُسْلِمين أن يَلْتَزِموا حدودَ اللهِ تعالى في الطَّلاق وغيرِه

وجهُ ارتباط خاتِمَةِ السّورة بمَطْلَعِها وموضوعِها:

نزلت سورةُ الطَّلاق لتَضْبِطَ علاقة المُسْلِمين مع حدودِ الله تَعالى بوجهٍ عامٍّ، وتضبِطَ علاقتَهُم مع حدود الطَّلاق والفراقِ بوجهٍ خاصٍّ، وبدأت في ذلك بنِداء النَّبيِّ ﷺ؛ للإشعار بأهمّيَّةِ ما يُنادى لأجله، وأنَّه أمر يخصُّ الأمَّة كلَّها، ثُمَّ دعَت الجميعَ إلى التَّحلّي بتقوى الله سُبحانَهُ والخوفِ منهُ بأساليبَ متنوِّعة، وبَيَّنَت العِدَّةَ ومُدَّتها، وحثّت على الإنفاقِ، ووعَدَت بالمساعدةِ والمُعاوَنَة والتَّيسير، ثُمَّ رهَّبت من العُتوِّ عمّا شرَعَهُ اللهُ تَعالى ببيانِ عِقاب العاتين عَن أوامِرِه المُتَجاوِزين حدودَهُ مِن السّابقين، ثُمَّ خُتِمت ببيان قدرةِ الله تعالى على كلِّ شيءٍ وسعَة عِلْمِه وإحاطَتِه بكُلِّ شيءٍ، ما يعني: أنَّ له الخبرةَ التّامَّة بما يأمُرُ بِهِ مِنَ الأحكام في العِلْم بمَصالِحِه ومَفاسِده، فعامَلوهُ مُعاملَةَ مَن يَعْلَمُ إحاطَةَ عِلْمِه، فيَعْلَم أنَّه رقيبٌ عليه، فإذا طَلَّقْتُم؛ فافْعَلوا ما أمَرَكُم به؛ لتَسْلَموا في الدّين، وتَسْعَدوا في الآخرة والأولى، ودَبِّروا في جميع أموركم مثلَ ما دُبِّر به أمرُكم في تربيَتِكُم ومَسْكَنِكم أرضَه وسَقْفَه، فإنَّه جعل فيه جميع ما تحتاجونه، وبسَطَ نوالَهُ على مَنْ يُرضيه ومَن يُسْخِطه، ونشَرَ حِلْمَه وفَضْلَه، وأخَّر بَأْسَه وعدلَه، وبذا عانقَ آخرُ السّورة أوَّلها، وبيَّن مُجْمَلَها ومُفَصَّلها، فسبحان مَن هذا كلامُه! والله عليمٌ بذات الصّدور(1).

ومِن أوجُه المُناسبَةِ بينَ مطلَعِ السّورة ومَقْطَعِها أنَّ الله تعالى خاطب نبيَّه ﷺ في أوّلها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ثُمَّ التفَتَ إلى المؤمنين، فقال سُبحانه: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾، ثُمَّ نادى في آخر السّورة المؤمنين، وأمرَهُم بتَقْواهُ، فقال ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾، فأمرهم الله تعالى بتقواهُ في البَدْءِ والخِتام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 178.

ومِن أوجُهِ التَّناسب أيضًا أنَّ اللّه تعالى بدأ السّورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وذلك مناسِبٌ لقولِه في الخِتام: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾، فالذي ناداهُ ربُّهُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مَطْلَعِ السّورة هو الرَّسولُ الذي أنْزلَ عليهِ الآياتِ المبيّنات، المذكورُ في خواتيمِ السّورة(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْق والجَعْل:

مَـنْ قـدر على الإيجادِ من عدمٍ، قادرٌ على الثَّواب والعقابِ

الخَلْق: التَّقْدير، والنّاس يَقولونَ: لا خالق إلّا اللّهُ، والمُراد: أنَّ هَذا اللَّفْظ لا يُطلق إلّا على اللّهِ تعالى؛ إذْ لَيْسَ أحدٌ إلّا وفي فِعْلِه سَهْوٌ، أو غلطٌ يجْري مِنْهُ على غير تَقْدير، غير اللّه تَعالى، أمّا الجَعْلُ؛ فَهو الإحداثُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، ويجوز أن يُقال: إنّ ذلِك يَقْتَضي أنّه جعلها على هَذِه الصِّفة الَّتي هيَ عَلَيْها، كَما تَقول: جعلتُ الطّين خزَفًا(2)، ويُفهَم من ذلك أنَّ الخلقَ: إيجادٌ من عدَم، أمّا الجعلُ؛ فهو إحداثٌ وتعديلٌ يَلْحَقُ الموجودَ، ولمّا كان الغرَضُ بيانَ قدرةِ اللّهِ تَعالى على محاسبَةِ مَن يَتجاوَزُ حُدودَهُ ومُعاقبته في الدُّنيا والآخرة، وإثابَة مَنْ يَتَّقيه وينزِل على أوامره بالخُلود في الجنَّة والرّزق الذي لا مثيلَ لَهُ؛ ناسب التَّعبير بفعل الخَلْق، فقال: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾؛ لدلالته على أنَّ مَن أوجَدَ السَّماوات السَّبع والأرضين السَّبع مِن عدم؛ قادرٌ على الحساب والجزاءِ - ثوابًا وعقابًا - وقادرٌ عَلى فِعْلِ ما هو أعظَمُ مِن ذلكَ.

(1) فاضل السامرائي، التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، ص: 76.
(2) العسكري، الفروق اللغوية: 136 وما بعدها بتصرف.

سُورَةُ التَّحرِيمِ

سُورَةُ التَّحرِيمِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعد الآي:

سورة التَّحريم مدنيَّة اتِّفاقًا

سورة التَّحريم مدنيَّةٌ، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيَّة الإجماعَ على ذلك(1)، وبذلك قال السُّيوطيُّ(2)، وإن كان قد نقلَ عن قتادة بعد ذلك أنَّ المدنيَّ منها هو الآياتُ العشرُ الأولى منها، والباقي مكّيٌّ(3)، ولم يذكُر مستندًا لذلك، ولا شكَّ أنَّ موضوعاتها، ومناسباتِ نزولِ بعضِ آياتها، وما يتعلَّق بها من أحكامٍ وتعقيباتٍ يتَّصل بالعهد المدنيِّ.

وأمّا عددُ آياتها؛ فَهي إِحْدَى عشرَة آيةً في البَصريِّ، واثنتا عشرَة آيةً في عدد الباقينَ(4).

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

لا تلازمَ في ترتيب السّورة بين التَّرتيب النُّزوليِّ والمصحفيِّ

ترتيبُ هذه السّورة في ترتيب المصحف السّادسةُ والسِّتّون، وهو التَّرتيبُ الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتَي الطَّلاق والملك، وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ؛ فقد اختلفوا فيه، فقيل: هيَ السّورة السّادسةُ بعد المئة في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَرِ؛ نَزَلَتْ بَعدَ سورَةِ الحجرات وقَبلَ سورَةِ التَّغابن(5)، وقيل: قبل سورة الجمعة(6).

فضائل السّورة:

اختصاصُ النَّبيِّ بالمفصَّل مزيَّةٌ وفضيلة

سورة التَّحريم من سور المفصَّل الذي قال فيه ﷺ فيما رواه عنه

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 329.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 43/ 1.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 66/ 1.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 250.
(5) دروزة، التفسير الحديث: 8/ 529.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 343.

واثلة بن الأسقع ﷺ: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[1]، فالمفصَّل هو السّوَرُ التي خُصَّ بها النَّبيُّ ﷺ في الكتاب الخاتم، وكانت خصوصيَّةٌ امتاز بها، فكأنَّما أُعطيَ الكُتبَ جميعًا، وزادَ عليها المفصَّل.

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

التَّحريم هو الاسمُ العَلَمُ الذي اشتهرت به السورة

سُمّيت سورة التَّحريم بهذا الاسم في كتب السُّنَّة[2]، وكتب التَّفسير، وقد ذكروا أنَّ تسميتها بهذا الاسم لورودِ لفظةِ (التَّحريم) فيها، وذكر السُّيوطيُّ تسميَتَيْن أخريَين لها هما: (المُتَحَرِّمُ) وسورةُ (لِمَ تُحَرِّمُ)[3]، وذكر لها الآلوسيُّ اسمًا آخر وهو: سورة (النَّبيّ)، وسورة (النساء)[4]، ولعلَّ ذلك عائدٌ لاستهلالها بندائه ﷺ، وما يتعلَّق بحياتِه الشخصيَّة في مسألة التَّحريم؛ فالنِّداءُ بوصف النُّبوَّة مع ذكرِ توجيه الاستفهام العتابيِّ في تحريم ما أحلَّ اللّٰهُ له يُعطي دلالةً خاصَّةً به ﷺ، وقال ابن عاشور:" سورة (اللَّمَ تُحَرِّمُ) بفتح الميم وضمِّ التّاء مُحقَّقةً وتَشديد الرّاء مَكسورة بعدها ميمٌ على حكاية جُملَةِ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾"[5]، والسّورة لم تُعرَف بعد ذلك إلّا بسورة التَّحريم، فهو الاسم العَلَم عليها.

وقد ربطَ البقاعيُّ بين اسمَيها "التَّحريم والنَّبي" ومقصودِها، فقال: "ومقصودُها الحثُّ على تقدير التَّدبير في الآداب مع اللّٰه ومع رسوله، لا سيَّما للنِّساء اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ في حُسن عشرتِه، وكريم صُحبتِه، وبيان أنَّ الأدب الشَّرعيّ تارةً يكون باللّين، وأخرى بالسَّوط

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (76/ 22)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2415).

(2) الترمذي، سنن الترمذي، سورة الطلاق، باب وَمِنْ سورَةِ التَّحْريمِ: 5/ 420.

(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 158.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 341.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 343.

وما داناه، ومرَّةً بالسَّيف وما والاه، واسماها (التَّحريم) و(النَّبيّ) موضِّحٌ لذلك"(1).

والحقُّ أنَّ ما قاله هذا العالمُ الألمعيُّ مرتبطٌ بمحورها الَّذي يقوم على تحذير النّاس - بدءًا من بيت النُّبوَّة الأوَّل - من مخالفةِ شريعةِ الله، ومن إظهار عصيانه حتَّى لا يقع عليهم عذابُه في الدُّنيا والآخرة، ولا شكَّ أنَّ أوَّل ما يجبُ مُراعاته في ذلك هو الأدبُ مع النَّبيِّ ﷺ.

المِحوَر العامّ للسورة:

التزام شرعِ الله تعالى في جميع الأحـــوال هـو ميزانُ القبول

يقومُ محورة السورة على التَّحذير من مخالفة شرع الله، والخروجِ عن نهجِه، وبيانِ العقوباتِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة المترتِّبة عليه في حال عدم القيام بإصلاحِ آثار هذه المخالفات، مؤكِّدةً ما جاء في سورة الطَّلاق من أنَّ تقوى الله تعالى هو الميزانُ الحقُّ والمعيارُ الصَّحيحُ للالتزام بشَرعِهِ.

فاقتضاها هذا المحورُ أن تُبيِّن الأمور الآتية:

أولًا: بيَّنتِ السورة للمؤمنين بعض الإجراءات اللّازمة؛ للقيام بها عند حدوث المخالفة والخروج عن الجادَّة، فبدأت ببيتِ النُّبوَّة معاتبةً النَّبيَّ ﷺ على ما بدَرَ منه، من أن يُحرِّم على نفسه ما أحلَّه الله له.

ثانيًا: عاتبت السورة زوجات النبي ﷺ على ما بدَرَ من بعضهنَّ من إفشاء سرِّهِ ﷺ، وبيَّنت لهنَّ بعد ذلك ما يترتَّب عليهنَّ في حال إصرارهنَّ على عدم التَّوبة، من طلاقهنَّ واستبدالهنَّ.

ثالثًا: عيَّنت السورة للكافرين الوقتَ الذي تُقبَل فيه التَّوبة وإصلاح المخالفات التي وقعوا فيها، مقرِّرةً لهم أنَّه بانقضاء الأجل لا يمكن أن ينتفعوا بتوبةٍ أو إصلاح.

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 99/ 3 - 100.

رابعًا: طالبت السورة المؤمنينَ بالمبادرة إلى التَّوبة النَّصوح، مبيِّنةً لهم عواقبَ هذه التَّوبة عليهم، وضربت لهم السّورة بعد ذلك نماذجَ أربعةً من النِّساء؛ لأنَّ مطلع السّورة ارتبطَ بالنِّساء، وهذه النَّماذج تشمَلُ الكافرينَ والمؤمنين، فضُرِبَ للكافرين أنموذجَين بامرَأتي نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام؛ إذ أصَرَّتا على المخالفة دون محاولة التَّوبة والإصلاح، وضُرِبَ للمؤمنين بعدها مثَلٌ بأنموذجَيْن آخرَيْن في زوجة فرعون وفي مريم عليها السلام، وما كان منهما.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة على أحوال النِّساء في الإيمانِ والكفر، والطّاعةِ والمعصية

تضمَّنت السّورة بعضَ أحكام التَّشريع الخاصَّة بأمَّهات المؤمنين؛ لتكون نموذجًا يُحتذى به لجميع الأمَّة؛ إذ ابتدأت السّورة بعتابٍ لطيفٍ للنَّبيِّ ﷺ، لتحريمِهِ على نفسه شيئًا مباحًا؛ إرضاءً لبعض أزواجه، ثمَّ وجَّهت العتابَ لبعض أزواج النَّبيِّ؛ لإفشائهنَّ السِّرَّ حين أسرَّ النبيُّ ﷺ إلى بعضهنَّ حديثًا خاصًّا، فباحت به، ممّا أغضبَ النَّبيَّ ﷺ، وهمَّ بتطليق أزواجه، فَهدَّدهُنَّ اللّهُ بإبداله أزواجًا خيرًا منهنَّ، وناسبَ هذا التَّذكيرَ باتِّقاءِ أهلِ بيتِ الإيمانِ النّارَ، والتَّرهيبَ من الجزاء، وبالتَّوبة النَّصوح، وبجهاد الكفّار والمنافقين؛ من غير انشغالٍ بأحوال البيت والأسرة من أزواجٍ وأولاد.

وخُتمت السّورة بضرب مَثَلَيْنِ عظيمَين: أحدهما للكافرين، والثّاني للمؤمنين، والأوَّل مثَلُ الزَّوجة الكافرة - امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام - عند الرجل المؤمن الصالح، والثاني مثَلُ الزَّوجة المؤمنة - امرأة فرعون - عند الرَّجل الكافر الفاجر، ومثَلُ المرأة الحرَّة التَّقية البَتول في غير عِصمةِ أحد؛ تنبيهًا للنّاس على وجوبِ اعتمادِ الإنسانِ على نفسه، وأنَّه لا يُغني في الآخرة أحدٌ عن أحد، ولا ينفعُ حسَبٌ ولا نسَبٌ؛ إذا أساءَ العمل[1].

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 301.

خصائص السّورة الموضوعيَّة تدلُّ على الارتباط بمحورها

الخصائص الموضوعيَّة للسورة:

أولًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها تناولت الحديث عن أحداثٍ خاصَّةٍ ببيت النُّبوَّة لم ترد في غيرها من السّور، وتحدَّثت عن أوصاف الزَّوجات اللواتي يمكن أن يزوِّجهنَّ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ؛ إن لم تتُبْ زوجاته عمّا بدرَ منهنَّ، وتحدَّثت عن الأمر بالتَّوبة النُّصوح، وانفردت بالأمثلة النِّسائيَّة، التي ضربها اللّه تعالى للمؤمنين والكافرين.

ثانيًا: تميَّزت السورة بأنَّها شاركت أخواتها المفتتحة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وهما الأحزاب والطَّلاق بأنَّ ثلاثتها ابتدأت بالأمر أو النَّهي للنَّبيِّ ﷺ، فضلًا عن التَّناسق الموضوعيِّ والأسلوبيِّ بين هذه السّوَر.

ثالثًا: تناولت السورة الحديثَ عن التَّوبة أكثر من مرَّة[1]، وعن الإنباءِ أربع مرّاتٍ في آيةٍ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها انفردت بذِكر أوصافِ النِّساء، التي يمكن أن يُبدل اللّه تعالى بهنَّ أزواجَه ﷺ؛ إنْ لم يَتُبنَ، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾، وأوصافُهُنَّ هنا مرتبطةٌ بنسيج السّورة ومِحوَرها العامِّ[2].

خصائص السّورة الأسلوبيَّة تدلُّ على الارتباط بمحورها

الخصائص الأسلوبيَّة للسورة:

أولًا: امتازت السّورة باحتوائها خمسة نداءاتٍ: نداءَيْن للنَّبيِّ ﷺ، ونداءَيْن للمؤمنين، ونداءً واحدًا للكافرين.

ثانيًا: كثُر في السّورة فنُّ الجناس الاشتقاقيِّ، وتنوَّع ظُهور

(1) الآيات: 4، 5، 8.
(2) الآيات: 1، 6، 7، 8، 9.

الأبنية فيها، مثل: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿نَبَّأَتْ﴾ و﴿نَبَّأَهَا﴾ و﴿أَنۢبَأَكَ﴾ و﴿نَبَّأَنِيَ﴾، ومثل: ﴿تَتُوبَآ﴾ و﴿تَـٰٓئِبَـٰتٍ﴾ و﴿تُوبُوٓاْ﴾ و﴿تَوْبَةً﴾، ومثل: ﴿أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ و﴿بِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾، ومثل: ﴿وَٱغْلُظْ﴾ و﴿غِلَاظٌ﴾، ومثل: ﴿عَـٰبِدَٰتٍ﴾ و﴿عَبْدَيْنِ﴾، ومثل: ﴿تَظَـٰهَرَا﴾ و﴿ظَهِيرٌ﴾ و﴿وَأَظْهَرَهُ﴾، ومثل: ﴿ٱدْخُلَا﴾ و﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

رابعًا: حوت السّورة الكريمة أبنيةً صرفيَّةً لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿تُحَرِّمُ﴾، و﴿تَحِلَّةَ﴾، و﴿أَسَرَّ﴾، و﴿نَبَّأَتْ﴾، و﴿وَأَظْهَرَهُ﴾، و﴿نَبَّأَهَا﴾، و﴿أَنۢبَأَكَ﴾، و﴿نَبَّأَنِيَ﴾، و﴿تَتُوبَآ﴾، و﴿صَغَتْ﴾، و﴿قُوٓاْ﴾، و﴿نَّصُوحًا﴾، و﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، و﴿يُغْنِيَا﴾، و﴿ٱدْخُلَا﴾، و﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، وقد انفردت السّورة بمفردة ﴿ثَيِّبَـٰتٍ﴾ مادَّةً وصيغة.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التَّعبيريَّة التي لم تتكرَّر في غيرها، مثل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾، و﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، و﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، و﴿أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، و﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، و﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، و﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا﴾، و﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، و﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾.

مناسبة سورة التَّحريم لما قبلها:

مناسبة السّورة للسّابق كمناسبة الشَّقيق لشقيقه من حيث الأصول والصِّفات الذّاتيّة

تتعلَّق سورة التَّحريم بسورة الطَّلاق من أوجُه:

أولًا: افتُتحت السّورتان بخطاب النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، كما اشتركتا في الأحكام المخصوصة بالنِّساء، فالأولى سورة الطَّلاق في بيان أحكام الطَّلاق والعدَّة وحقوق المعتدَّة وحسن المعاشرة، وسورة التَّحريم في موقف بعض نساء النَّبيِّ ﷺ، وكيفية معاملة النَّبيِّ ﷺ لهنَّ بالحسنى واللّين والنُّصح.

ثانيًا: تركَّزت سورة الطَّلاق على تحريم ما أحلَّ اللّه بالطَّلاق، وإنهاء خصومة بعض نساء الأمَّة، أمّا سورة التَّحريم ففيها تحريمُ ما أحلَّ اللّه من نوعٍ آخر بالإيلاء، وإنهاء خصومة نساء النَّبيِّ ﷺ، وإفرادُها بأحكامهنَّ تعظيمًا لهنَّ.

ثالثًا: تشتركُ السّورتان في بيان أنَّ الميزان الحقيقيَّ الذي ينبغي أن توزَنَ به الأمورُ هو ميزانُ الإيمان والتَّقوى، فهو الميزانُ الذي يحفظ الأمَّة من الزَّوال والاستبدال، فضلًا عن أنَّ هذه السّورة الكريمة قد ظهرت فيها صفةُ عِلم اللّه تعالى وإحاطته بخفايا الأمور، وهذا مرتبطٌ بالآية الأخيرة في سورة الطَّلاق التي سبقتها(1).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 300.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم: 1]

مناسبة السّورة للسّورةِ السّابقة:

هَـذيُ السّورتين فـي رعـايـة البيوت، مِن فِقه الفِراق إلى حِفظ البيت وصيانة الميثاق

جاءت سورة التَّحريم عَقِبَ سورةِ الطَّلاقِ في ترتيب المُصحف، وبينهما مِن أوجُهِ المُناسبةِ ما لا يخفى، فهي مُتواخيةٌ مع الَّتي قبلها في الافتتاح بخطاب النَّبيِّ ﷺ، وكلتا السّورتين تُعنَيان بشأن الأزواج وأحوال النِّساء، حقوقًا وواجباتٍ: فسورة الطَّلاق أفصحت عَن حقوق النِّساءِ في حال الفِراق، وسورةُ التَّحريم نبَّهت على ما يجب على الزَّوجين من حفظٍ للبيت ورعايةٍ للميثاق، وكذلك عالجت السّورتان ما يطرأ في البيوت المُسلمة من خلافٍ ونزاعٍ، فوضع اللّه تعالى فيهما مِن الحلولِ ما يُقيم بُنيان الأسرة على أُسُسِ المودَّة والرَّحمة[1].

مُناسبة الآية لخاتمة السّورة السّابقة:

بيانُ إحاطةِ عِلْمِ اللـه مِـن عـالَـم المـلـكـوت إلى سرائر النُّفوس

لمّا خَتَمَ اللّهُ سبحانه سورةَ الطَّلاق بِذِكرِ إحاطة عِلْمِه بكلِّ شيءٍ، وتَنَزُّلِ أمْرِه في السَّماوات والأرضين، بقوله جَلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطَّلاق: 12]، افتتح سورةَ التَّحريم بإظهار عُلوِّ أمْرِه، وإحاطته بسرائر خَلْقِه، لا سيما ما وقع بين صَفوَةِ خَلْقِه، سَيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ، وأزواجه الطّاهرات أمَّهاتِ المؤمنين، عليهنَّ الرِّضوان[2]، فهو انتقالٌ من ذِكْر الخَلْقِ العامِّ، والقُدرة عليه، ورِعايته الرِّعاية الدّائمة، إلى ذِكر الخَلْقِ الخاصِّ، ورعايته الرِّعاية الشَّريفة، وأنَّ كلَّ ذلك بيد القادر سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 341.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 43.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبۡتَغِي﴾: (بغي) أصلٌ يَدُلُّ على الطَّلب، بَغَيْتُ الشَّيء أبغيه بُغاءً وابتغاء: طلبته[1]، ومنهُ البِغْيَة، وهيَ الطِّلْبَةُ والحاجَة[2]، وخُصَّ الابتِغاءُ بالاجتِهادِ في الطَّلَبِ[3]، والمعنى هُنا: تَطْلُبُ رضا أزواجكَ بتحريم ما أحلَّ اللّه لك[4].

2) ﴿مَرۡضَاتَ﴾: (رضي) أصلٌ يَدُلُّ على تَشبُّع النَّفس وامتلائها بَلالًا ورِقَّةً، يُقال: رَضيَ عنه، ورضي عليه يَرْضَى رِضًا ورِضْوانًا ومَرضاةً: ضِدُّ سَخِطَ، فهو راضٍ[5]، وأرضاهُ: أعطاهُ ما يُرضيهِ، واستَرضاهُ، وتَرَضّاهُ: طَلَبَ رِضاهُ، ورَضيتُهُ، وبه، فهو مَرْضُيٌّ ومَرْضيٌّ، وارتَضاهُ لصُحبَتِهِ وخِدمَتِه، وتراضَياهُ: وقَعَ به التَّراضي، واستَرضاهُ: طلبَ إليه أن يُرضيَهُ في أمرٍ مِن الأمور[6]، والمعنى هُنا: رِضاهُنَّ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العتاب الإلهيُّ لِنبيِّ الرَّحمة للتَّأديب والتَّشريف

افتتح اللّه سُبحانه هذه السّورة الكريمةَ بخطاب نبيِّه المُصطفى ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، أي: لِمَ تمتنع عمّا أباحه اللّه لك مُبتَغيًا ومُلتَمِسًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك؟ ثُمَّ بيَّن سُبحانه سَعَةَ رحمتِه ومغفرته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بِهِم، وقد غَفَرَ لك - يا مُحمَّدُ - تحريمَك على نَفْسِك ما أحلَّه اللّهُ لك، ورَحِمَك[8].

---

(1) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (بغي).
(2) الجوْهريّ، الصِّحاح: (بغي)، وابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب: (بغا).
(3) الرّاغِب، المُفْردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (بغى).
(4) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 14/ 475، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 304.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ريض، روض).
(6) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رَضيَ).
(7) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 10/ 363، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 384.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 90/ 23، وابن الجوزي، زاد المسير: 304/ 4 - 306، وابن سِعدي، تيسير الكريم الرَّحمن: 873، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 347.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الافتتاح بأسلوبِ النِّداء:

تهيئةُ المخاطَب لسماعِ ما يعنيه من الأحكام والإرشادات

صُدِّرت السّورة الكريمة بعتابٍ رقيقٍ مِن اللّه ﷻ لرسوله الكريم ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ لأنَّه حَرَّم على نفسه شيئًا أباح اللّه له ولغيره التَّمتُّعَ به؛ فافتتاحُ السّورة بنداء النَّبيِّ ﷺ تنبيهٌ على عِظَم ما يُلقى إليه، ممّا يَهتَمُّ به النَّبيُّ ﷺ والأُمَّةُ، وتهيئةٌ لسماع خطابٍ يهمُّه، ويهمُّ أمَّته مِن بعده تزكيةً لهم وتهذيبًا[1]، وتشريفًا له بإظهار منزلته؛ إيذانًا بالإقبال والتَّكريم، فالنِّداءُ هُنا نِداءُ إقبالٍ وتَشريفٍ، نادى اللّه فيه نبيَّه؛ ليُقبل إليه بالكُلّيَّة، ويُدبِرَ عن كُلِّ ما سِواه من الأزواج وغيرهنَّ[2].

معنى النِّداءِ بأداة البُعد (يا):

التَّنبيه والتَّأكيد على عِظَم ما يُلقى من الخطاب

صُدِّر النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بالأداة (يا)، التي هي مِن حروف التَّنبيه للبعيد، وهي أمُّ حروف النِّداء، وأكثرُها استعمالًا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها، وقد يُنادى بها القريب توكيدًا[3]، فإذا نودي بها القريبُ المُفاطِنُ الحاضرُ، فإنَّما هو توكيدٌ مُؤذِنٌ بأنَّ الخطابَ الذي يتلوه مَعنيٌّ به جِدًّا[4].

معنى (أيُّ) ودلالتها البيانيَّة:

الإشعارُ بِعَظَمة المُنادى ورِفعة منزلته

(أيُّ) اسمٌ مبهمٌ، لا يستقِلُّ بالفهم حَتَّى يُردَف بما يرفع إبهامَه مِن وصفٍ أو إضافةٍ، فهي واسطةٌ لنداء مَن اتَّصف بـ(أل)، و(أي) هو الَّذي يعمل فيه حرفُ النِّداء، وجيء بها في هذا المقام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ للإشعار بأنَّ المُنادى مِن الجلالة والعظمة،

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 180.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 207، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 346، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 266.

(3) ابن هشام، مغني اللَّبيب: 2/ 429، والمالقي، رصف المباني، ص: 513.

(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/ 89.

بحيث يُجعل مُبهَمًا أوَّلًا، ثم يوصَف بما يدلُّ على كمالِه[1]، وفيه رائحةُ التَّشويق والبيانِ بَعدَ الإجمال.

دلالةُ الهاء في دخولها على (أيُّ):

تقوية النِّداء السّابق وتأكيده

الهاءُ في (أيُّها) هاءُ تنبيهٍ وتوكيدٍ، أُلحِقَت بالنَّعت؛ عِوَضًا عَن المضاف إليه؛ لتدُلَّ على تعيين المُنادَى، وأنَّه المقصودُ بالنِّداء، وهي تُعاضد حرف النِّداء وتُقوِّيه، فتزيده قوَّةً وتوكيدًا[2].

دلالة تعدُّد المُؤكِّدات والمُنبِّهات:

تعظيمُ الخِطاب وتوقيرُ المُخاطَب

يَكثرُ النِّداء بهذا التَّركيب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في الكتاب العزيز، لِما في هذا الأسلوب مِن وُجوه التَّنبيه والتَّوكيد ومظاهرِ التَّعظيم، ولِما اشتمل عليه من المُبالغة، ذلك أنَّ ما يُخاطِبُ اللّٰهُ به عبادَه في كتابه مِن أوامرٍ ونواهٍ، ومواعظَ وزواجرَ، ووَعدٍ ووعيدٍ، وأخبارٍ عَن القرون الغابرة، كلُّها أمورٌ عِظامٌ وخطوبٌ جِسامٌ، ومعانٍ تستوجبُ انتباهَ القلوب، وتفتُّحَ الأسماع، وإقبالَ البصائر، فاقتضت الحالُ أن يُنادَوا بالآكد الأبلغ[3]، وفي نداء النَّبي ﷺ، بهذا التَّركيب الجليل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، تشريفٌ لمقامه، وتوقيرٌ له وتكريمٌ لشأنه، وتنبيهٌ للأمَّة إلى عِظَمِ ما يُلقى إليه؛ إذ الخِطاب له ولِمن بعده مِن أُمَّته.

التَّحبُّب والتَّأنيس للنَّبيِّ الكريم

وممّا يُلحَظ في نداء النَّبيِّ ﷺ بهذا التَّركيب الجامع بين أداة النداء (يا) والاسم المُبهَم (أيُّ) وأداة التَّنبيه (ها)، أنَّ فيه - إلى جانب ما فيه مِن التَّعظيم والتَّشريف - لونًا من التَّحبُّب والتَّأني؛ إذ جمَعت الصّيغةُ معانيَ التَّنبيه والتَّشويق، ثُمَّ أُردِفت بالصِّفة الجليلة، الَّتي اصطفاه اللّٰه بها، وهي النُّبوَّة، فكأنَّ الخطابَ نداءُ مُحِبٍّ لمحبوبٍ، يُقبِلُ عليه بما يوقِظ قَلبَه، ويُبهج سَمْعَه، فجَمَعَ له بَينَ

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 266.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 5.
(3) الزَّمخشري، الكَشّاف: 1/ 90.

التَّكريم والتَّلطُّف، وبَينَ الإجلال والوصال(1)، وإنَّما يُؤخذ هذا المعنى من سياق الكلام.

بلاغةُ تقديم النِّداء على العِتاب:

تهيئة المخاطَب للعتابِ دليلُ مكانتِه عند ربِّ العباد

قُدِّم النِّداءُ على العِتابِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾؛ لنُكتَةٍ بلاغيَّةٍ لطيفةٍ، فإنَّ مِمّا يُلحظ في عتاب اللّه تعالى لنبيِّه أنَّ النَّظم القرآنيَّ درجَ على تهيئة الرَّسول ومؤانسته قبل توجيه العتاب إليه، فهو محفوفٌ باللُّطف والإيناس، مسبوقٌ بما يُهيِّئ النَّفس لِتَلَقّيه في مقام التَّبجيل، كما في ندائه بوصف النُّبوَّة في الآية التي بين أيدينا، وكما في التَّعبير عنه بالوصف ذاته في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: 67]، وكما في تقديم العفو على العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 43]، وكما في تحاشي خطابه في هذا المقام إجلالًا له عن المواجهة، ولإيهام أنَّ الذي حدث صدَرَ عن أحدٍ غيره، في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾ [عبس: 1 - 2]؛ إيذانًا بأنَّ العتاب إنَّما هو في سياق الحفاوة؛ إرادةً لتأديبه وتزكيته وتهذيبه(2)، وفي هذا المسلك الرَّبّاني تربيةٌ ربّانيَّةٌ بديعة، يُستَنُّ بها في مقام التوجيه والإصلاح؛ إذ العتاب يُعَدُّ ثَمرةَ مَحَبَّةٍ، ميزانُه الرِّفقُ، ولسانُهُ الاحترام(3).

غرض النِّداء بوصف النُّبوَّة دون اسمِ العَلَم:

التَّنويه بالشأنِ الرَّفيع وبيان المنزلةِ الكريمة

مِن دقائق الخطاب القرآنيِّ وبدائعِ نَظْمِه أنِ اختصَّ النَّبيَّ ﷺ بندائهِ بوَصفِ النُّبوَّة دون اسمِهِ العَلَم، كما هنا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ تنويهًا بمقامه الرَّفيع، وتوقيرًا له، ولم يُخاطبه

(1) صبحي المليجي، من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة سورة التَّحريم نموذجًا: 3/ 2117.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 207، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 180، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 157، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 219.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2116.

باسمه العَلَم، كما خاطَبَ سائرَ الرُّسل، بقوله: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [هود: 76]، و﴿يَـٰنُوحُ﴾ [هود: 48]، و﴿يَـٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 110]؛ وذلك لأنَّ خطاب هؤلاء الرُّسل الكرام جاء في سياق الإخبار عن ندائهم، فالنِّداءُ وقَعَ، وتَحَقَّق، أمّا نداؤه ﷺ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ فهو نداءٌ مباشرٌ، مع ما فيه من إظهار جلالة منزلته، والتَّنويه بشأنه الرَّفيع، كيف لا؟ وهو الذي اصطفاه اللّه مِن بَينِ خَلْقِه، وجَعَلَه أكرمَ أنبيائه ورُسُلِه(1).

التَّذكيرُ بمقامات النُّبوَّة ومَهامِّها الجليلة

وفي هذا الوصفِ من التَّذكير بمقامات النُّبوَّة ومهامِّها الجليلة، والتَّنبيه على عظيم شأنها، ما يحملُ النَّفسَ على الترفُّع عن شواغل الحياة، مِمّا لا يليق بمقام النُّبوَّة، فجاء النِّداء بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداءَ إقبالٍ وتشريفٍ، وتذكيرًا بوصف العصمة المُلازم لهذا المقام؛ تنزيهًا له ﷺ عَمّا قد يعتري غيرَه مِمَّن لَم يُعصَم(2).

كما أنَّ مُخاطبةَ النَّبيِّ ﷺ بهذا الوصف الجليل لِما في ذلك من التَّأنيس والتَّشريف، ولأنَّه أوفقُ الأحوال في مقام التَّلَقّي عَن اللّه تعالى، وأليقُ بالمقام الجليل، وفي ذلك تنبيهٌ لكلِّ سامعٍ أن يُنَزِّهَ سَمْعَه وقَلْبَه عمّا يُشوِّش على النَّبيِّ ﷺ أدنى تشويش(3).

علَّةُ اختيار صِفةِ النُّبوة دون الرِّسالة:

النِّـداءُ بوصفِ النُّبوَّة يُشيرُ إلى القضايا الخاصَّة والعـلاقـات الأُسريّة

مِمّا يستوجب نَظَرَ المتأمِّل في نظم الكتاب العزيز أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُنادَ في مواضع التَّنزيل باسمه العَلَم البتَّة، بل اختُصَّ في كُلِّ نداءٍ بوصفٍ من أوصاف الشَّرف والاصطفاء، فإمّا أن يُنادَى بوصف النُّبوَّة، أو بوصف الرِّسالة، أو بما يُناسبُ الحالَ التي كان عليها، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزَّمل: 1]، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: 1]، وهذا من لطيف خِطاب اللّه ﷻ لنبيِّه؛ إذ يُخاطبه بوصف

---

(1) عبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1206، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 11/ 5.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 207.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 180.

الرِّسالة إذا كان المقامُ مقامَ تبليغٍ وأداءٍ، ويُناديه بوصف النُّبوَّة؛ إذا كان السّياقُ في الأحكام الخاصَّة أو العتاب الرَّقيق، كما هو الحال هنا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، فسُبحان مَن عظَّم نبيَّه حتَّى في خطابه، وأكرَمَه حتَّى في أسلوب ندائه(1).

بلاغةُ الاستفهام وغَرَضُه:

خروج الاستفهام إلى العتابِ لدفعِ تحريمِ ما أباحَهُ الله تعالى

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ خَرَجَ مَخرج التَّلطُّف في العِتاب، لا على جهة الإنكار، ولذلك قُدِّم بَيْنَ يديْه نداءُ التَّوقيرِ والتَّشريف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وقد أُريد بالاستفهام نفيُ الموجب لتحريم ما أباحَهُ اللّه؛ تنبيهًا على أنَّه لا باعث هُنالك يقتضي المنع مِمّا جعله اللّه متاعًا مُباحًا، وإنَّما كان ذلك من النَّبيِّ ﷺ على جهة الوفاء والتَّطييب والإرضاء لأُمَّهات المؤمنين، وقد التزمَهُ ﷺ إمّا بيمينٍ أو عَهدٍ، فأنزل اللّه ما يُبيِّن له أنَّ حَقَّ التَّشريع للّه وحده(2).

تحريكُ العقل وإيقاظُ النَّفس للتَّوجُّه إلى مضمونِ الخطاب

كما أنَّ الاستفهامَ مِن أبلغِ أساليبِ التَّنبيهِ وأشدِّها تأثيرًا في النَّفسِ؛ إذ يُحرِّكُ الفكرَ، ويوقظُ القلب، ويبعثُ على التَّوجُّهِ إلى معنى الخطابِ بعنايةٍ وتروٍّ، لِما فيه مِن طَلَبِ الجوابِ، وما يستدعيه مِن مُراجعةٍ للنَّفسِ وتأمُّلٍ في الحال، فإنَّ الاستفهامَ - وإن فُسِّرَ أحيانًا بالإنكار - فالأصلُ فيه أنَّه ضربٌ من الاستنهاضِ الباطنيِّ، يردُّ المخاطبَ إلى نفسه، ويستثيرُ قريحتَه، ليَعيَ الكلام، ويُحسنَ الجواب(3)، وهو في هذا المقام ألينُ مَسلكًا، وأدقُّ مدخلًا، يليقُ بمقامِ مَن خوطب به ﷺ.

وَمَن دعاه الاستفهامُ إلى التَّأمُّلِ في مضمون الخطاب ومعناه، وجَدَ فيه تلويحًا بمقامِ النَّبيِّ الكريمِ، وتلَطُّفًا بمكانته عند ربِّه الجليل؛

(1) العثيمين، القول المفيد على كتاب التَّوحيد: 93/ 2، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني: 3/ 2114.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 207، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 346.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 119.

إذ لم يكن منه ذلك التَّحريم إلّا إرادةً للإصلاح، ورجاءً للفائدة، ومراعاةً لقلوبِ أزواجه بما يَشقُّ عليه، وإنَّ في ذلك لمزيدَ تنويهٍ بفضله، وإشعارًا بأنَّ مقام النُّبوَّة لا يُدانى، فيُعْذَر فيه مَن قصرَ عنه، ويُرفَع فيه النَّبيُّ فوق مَن سواه؛ ليَظهَرَ كمالُهُ ببيانِ نُقصانِ غيرِه[1].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالتَّحريم عن الامتناع:

بيانُ شِدَّةِ الامتناعِ كأنَّما هو أمرٌ محرَّم

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ مُفردة ﴿تُحَرِّمُ﴾، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ - إجراءً له على غير معناه الشرعيِّ - تصويرًا لشدَّةِ عزم النَّبيِّ ﷺ على الكفِّ، ومُبالغتِه في الوفاء بما التزمَ به لأزواجه[2]، فإنَّه ليسَ تحريمًا يُقصَد به إنشاءُ الحُكم بوحيٍ مِن اللّه تعالى، ولكنَّه امتناعٌ صادرٌ عن كريمٍ خُلُقٍ، وتلطُّفِ عشرةٍ، وتطييبِ خاطرٍ، فمعنى ﴿تُحَرِّمُ﴾، أي: (تُحرِّمه على نفسك)، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَـٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [آل عمران: 93]، فجرى اللَّفظُ مجرى الاستعارةِ التَّصريحيَّة، أُجريَ فيها التَّحريمُ على الامتناعِ، فعاملَ ما امتنَعَ مِن أَخْذِه كالامتناع عن الشَّيء المحرَّم.

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تُحَرِّمُ﴾:

تصوير الفعل كأنَّه قائمٌ يُرى، ومشهودٌ يُتَلقّى

جاء التَّعبيرُ بالفعل المُضارع، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ - مع أنَّ الامتناع قد مضى - لتصوير الفعل كأنَّه قائمٌ يُرى، ومشهودٌ يُتَلقّى؛ لِما في ذلك من استحضار الصّورة في الذِّهْنِ، وتقريب المعنى إلى القلب، وهو مِن دقائق الأساليب الَّتي يُراد بها تعميقُ التَّأثير، وتوكيدُ المعنى[3]، مع إفادة تجدُّد الفعل واستمراره، وكأنَّ الامتناعَ يَقَعُ تَكرارًا، ويتجدَّد مرارًا[4]، فهو لم يمتنع مرَّةً واحدةً، بل امتنعَ امتناعًا مستمرًّا.

---

(1) ابن المنير، حاشية ابن المنير على الكشاف: 4/ 562.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 346.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني: 3/ 2120.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 346.

دلالة الإتيان بالموصول ﴿مَآ﴾ دون الظّاهر:

الإيماء إلى تعليلِ الحكم وتوكيدِ الامتنان بما أباحَهُ الله لعباده

مِن دقائق النَّظم الكريم الإتيانُ بالموصول، في قوله تعالى: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، دون الاسم الظّاهر؛ لِما في الصِّلة من الإيماء إلى تعليل الحكم؛ تنبيهًا على أنَّ ما أحلَّه اللّه لعبده، فقد أذِن له في التَّمتُّع به، ولم يُؤذَنْ له تحريمُه على نفْسِه، إلّا أن يعرِضَ عارِضٌ مِن ضُرٍّ أو مَرَضٍ؛ إذ التَّناولُ له شُكرٌ للنِّعمة، واعترافٌ بالمِنَّة، وإظهارٌ لِفَقْرِ العبد إلى ما يَسوقه اللّه إليه مِن فَضْلٍ ورزق(1).

بلاغة الكناية في التَّعبير بالموصول:

تعظيمُ مقامِ النُّبوَّة وسترُ خصوصيّات النَّبيِّ الكريم

اختلف المفسِّرون في تعيين المقصود بالموصول ﴿مَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾، فمن قائلٍ: (المرادُ مارية)، ومِن قائلٍ: (العسل)، وفي استعمال الموصول ضَرْبٌ من الكناية اللَّطيفة، فسواءٌ أكان المقصودُ ماريَّة أم العسلَ، فإنَّ استعمالَ الموصول يَحتملهُما معًا، مع نكتة أنَّ هذا الأمر مِن خصوصيّات النَّبيِّ ﷺ التي لا بُدَّ مِن سترها؛ تكريمًا لمقامه وتشريفًا لمنزلته(2).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَحَلَّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قَطْعُ طريقِ التَّوهُّم، وتنزيهُ مقام النَّبيِّ ﷺ عمّا لا يليق

عبَّر النَّظمُ الكريمُ في جُملة الصِّلَة، في قوله تعالى: ﴿تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾، بالفعلِ ﴿أَحَلَّ﴾؛ لأنَّه يُؤكِّد أنَّ الشَّيءَ الَّذي امتنع عنه النَّبيُّ ﷺ من المُباحات الَّتي يجوز للإنسان التَّمتُّعُ بها في أيِّ وقتٍ شاء، دون حَرَجٍ أو قيدٍ.

وجاء الفعلُ بصيغة الماضي؛ لأنَّه لو عُدِلَ إلى صيغةِ المُضارع فقيل: (يُحِلُّ)؛ لأوهَم أنَّ الامتناع كان عَن جنس المُباحات، لا عن فردٍ منها، وأنَّه كلَّما تجدَّدَ شيءٌ مِن الإباحة؛ أتبعَهُ النَّبيُّ ﷺ بتحريمه على نفْسِه، وذلك ما لا يليقُ بمقام النُّبوَّة، ولا يتناسبُ مع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28 /346 - 347.

(2) المطعني، التَّفسير البلاغي للاستفهام للقرآن الحكيم: 4/ 270.

جلالة مَن رضي اللّهُ له ما أحلَّ، فاستعمالُ الماضي هُنا دليلُ تمام النِّعمة، وقطعٌ لطريق التَّوهُّم، وتنزيهٌ لمقام النَّبيِّ ﷺ عَمّا لا يليقُ بمنزلتِه العاليةِ ومَرتَبتِه الجليلة[1].

بديعُ فنِّ الطِّباق:

شَدُّ أواصرِ المعنى توقيرًا للنِّعمة وتمامًا للمِنَّة

مِن دقائقِ البيان وروائعِ النَّظم الطِّباقُ بَيْنَ فِعلَي التَّحريم والحِلِّ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾؛ إذ قابلَ فِعلَ ﴿تُحَرِّمُ﴾ بما يُضادُّه، وهو قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ﴾، فاجتمعَ في التَّعبير مَعنَيان مُتقابلان، ورُكِّب إلى جانبِ الحِلِّ إضافةُ ﴿لَكَۖ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ما أُبيح إنَّما أُبيحَ للانتفاع والرِّفق، فجاء الطِّباق؛ ليَشُدَّ أواصِرَ المعنى، ويُؤَكِّدَ أنَّ الرَّأفَةَ بالمُكلَّف تقتضي الإقبالَ على ما أحلَّه اللّه، لا الزُّهدَ فيه ولا تحريمَه والامتناعَ منه، مَهْما كانت الدَّوافعُ؛ توقيرًا للنِّعمة، وشكرًا للمُنعِم[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليل في مقام التَّحليل:

سياقُ التَّشريع يُناسبُه تعظيمُ المُشرِّع وتفخيمُ شأنِه

في إسنادِ فعلِ التَّحليل إلى الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إيماءٌ إلى ما يوقِظ القلبَ لتعظيم المُحَلِّ - جلَّتْ عَظمتُه - والتَّنبيهِ على أنَّه المالكُ الحقُّ الَّذي لا يُنازَعُ في أمرِه، ولا يُرَدُّ عليه قضاؤه، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجوبِ توقيرِ ما أحلَّه سُبحانه، وشُكرِ نعمته بالتَّمتُّع بما أباح[3].

عِلَّةُ فصل جملة: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾:

عِللُ التَّحليل والتَّحريم قائمةٌ على مصالح الشَّرع ومقاصده

فُصِلَت جُملةُ: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ إمّا لأنَّها تفسيرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿تُحَرِّمُ﴾، فهي كاشفةٌ عن موجبه، أو لأنَّها حالٌ من فاعله، دالَّةٌ على هيئة الفعلِ عند صدورِه، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2120.

(2) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 28/ 302.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 180، وصبحي المليجي، من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2120.

سائلًا سأل: ما باعثُ هذا التَّحريم؟ فقيل خطابًا للنَّبيِّ: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، وهو تعليلٌ يُؤذِنُ بأنَّ هذا الموجبَ لا يصلح أن يُبنى عليه التَّحريم[1].

نكتةُ التَّعبير بصيغة الابتغاء:

الإيماءُ إلى المُبالغةِ في الطَّلب، واستفراغِ الوُسعِ فيه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بِفعلِ ﴿تَبۡتَغِي﴾، في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، على ما فيه مِن صيغةِ الافتعال؛ لأنَّه يُفيدُ طلبًا شديدًا، واجتهادًا عظيمًا في بلوغ الغاية؛ إذ الافتعالُ في مثل هذا الموضع يدلُّ على التَّكلُّف والمبالغة، وكأنَّه ﷺ، بما فَعَلَ من الامتناعِ عمّا أباحَ اللّهُ له، قد بالغَ في إرادةِ ما يُرضي أزواجَه، وبَذَلَ الوُسعَ في ذلك؛ طلبًا لمرضاةٍ يُرجى صلاحُ الحالِ منها، وما ذاك إلّا عائدٌ إلى كريم سجيَّته، وعظيم خُلُقه، وحُسنِ مَعشرِه، صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليه، فالتَّعبير بالفعلِ ﴿تَبۡتَغِي﴾، دون الاقتصار على (تبغي) مثلًا إيماءٌ إلى المُبالغةِ في الطَّلب، واستفراغِ الوُسعِ فيه، ممّا يُناسب المقامَ، ويُعظِّمُ المعنى، ويُبيِّنُ ما بلغَه النَّبيُّ من الوفاء، وحُسْنِ العِشْرَة[2].

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

الإيماءُ إلى حسنِ معشر النَّبيِّ وطيبِ خُلقهِ الكريم

يُشير التَّعبيرُ بالمضارع في فعل ﴿تَبۡتَغِي﴾ في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، إلى أنَّ ابتغاءَ رسول اللّه ﷺ لمرضاة أزواجه مستمرٌّ متجدِّد، وأنَّه ابتغاءٌ في الأصل مشروعٌ في المباحات، وفي الحياة الأسريَّة التي تركَها الشَّرعُ لتصرُّفِ الأزواج، بل فيه إيماءٌ إلى حُسنِ معشَرِه، وطيبِ أخلاقه، فهو خيرُ الخلقِ لأزواجه، فإنَّ العتابَ لم يكن على ابتغاء مرضاةِ الأزواج، بل على تحريمِ ما أحلَّ اللّه طلبًا لمرضاةِ الأزواج.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 266، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 346.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 182.

دلالة التَّعبير بـ﴿مَرۡضَاتَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإشعارُ بالاجتهاد في تحصيل الرِّضا، والمُبالغة فيه

جاء التَّعبير بلفظ ﴿مَرۡضَاتَ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ على جهة الإيجاز البليغ؛ إذ هي اسمُ مصدرٍ من (رَضيَ)، وأصلها (مَرْضَوَة)، فقُلِبَت واوُها ألفًا تخفيفًا، وفي هذا اللَّفظ - بما فيه من مادَّة الرِّضا وصيغة المُفاعلة الدّالَّة على المُبالغة - دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ بذل الوسعَ في تحصيل الرِّضا، وهو صادرٌ منه عَن كرم خُلقٍ، وعظيم وفاءٍ، وحرصٍ على دوام الأُلفة والمَودَّة، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على عُلوِّ مقام النُّبوَّة، وأنَّ الأولى بأهل البيت وأزواج النَّبيِّ أن يعرفوا قَدْرَه، ويَسْعَوا في رضاه، لا أن يكون ﷺ في كُلفةٍ لأجْلِهم، وإنْ فعل ذلك؛ فمِن حُسْن خُلُقه، وكَرَم طبعِه(1).

دلالة إضافة ﴿مَرۡضَاتَ﴾ إلى ﴿أَزۡوَٰجِكَۚ﴾:

إضافة ﴿مَرۡضَاتَ﴾ إلى ﴿أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، تحتملُ الإضافة إلى المفعول، أي: تُرضيهنَّ، أو إلى الفاعل، أي: أن يَرضَين، ولكلٍّ وجهُه في المعنى(2)، والإضافةُ بمعنى اللّام، أي: لأزواجك.

غَرَضُ جمع لفظ الأزواج:

بيانُ العدلِ النَّبويِّ في معاملةِ جميع الأزواج

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ جَمْعَ لفظِ الزَّوجِ في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، مع أنَّ الاسترضاءَ حاصِلٌ لواحدةٍ منهنَّ، كما جاء في الرِّوايات على التَّوجيهَين المشهورَين؛ تنبيهًا على أنَّ خُلُق النَّبيِّ ﷺ في حُسن المعاشرة، وجميلِ الإرضاء، قد عمَّ سائرَ أُمَّهات المؤمنين، فاستوى فيه جميعُهن، وفي هذا الإطلاق سَترٌ كريمٌ على مَن صدر منه السَّبب، وتربيةٌ للنُّفوس على الإغضاء، لا سيَّما عند علاج ما يَعرِض مِن الشَّأن الخاصِّ، كما أنَّ إطلاقَ الجَمْعِ يُشعِر

(1) القنوجي، فتح البيان: 7/ 133.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 10/ 363، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 298.

بأنَّ طِباع النِّساء في الغَيرة مُتقاربة، فلا يُستنكَر مِن بَعضِهنَّ ما قد يوجد مِن غَيرِهِنَّ، وهو مِن دقائق البلاغة في البيان الرَّبّانيِّ(1).

نُكتة إضافة لفظ الأزواج إلى الضَّمير:

الانتسابُ إلى النَّبيِّ ﷺ هو أصلُ الفضل ومَحَلُّ الشَّرَف

أُضيفَ لفظُ الأزواج إلى ضمير النُّبوَّة الكريم، في قوله تعالى: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الانتساب إلى النَّبيِّ ﷺ هو أصلُ فَضْلِهنَّ ومحلُّ شَرَفِهنَّ، وأنَّهنَّ تَبَعٌ له، فالآية تُشير إلى أنَّ نساء النَّبيِّ هنَّ الأحقُّ بالحِرْص على ابتغاء مرضاته، فمَهْما علا شأنُهنَّ، فإنَّما ارتَفَعن بانتسابهنَّ إلى النَّبيِّ، فليكن سَعْيُهنَّ إلى رضاه، لا سعيُه إلى رضا واحدَةٍ منهنَّ، فإنَّه أجلُّ وأرفَعُ مِن أن تُكلَّفَ نَفْسُه ما ليس بواجبٍ عليها، وهو عند ربِّه ذو جاهٍ ومقامٍ محمود(2).

مَقصدُ ذِكرِ الاسم الجليل في مقام العتاب:

ذِكرُ العظيم تمهيدٌ إلى بيان عظمة الرَّحمة والغفران

مِن لَطيف مسالك البيان أنَّه لمّا كان المقامُ مَقامَ تهذيبٍ بلُطفٍ وعتابٍ برحمةٍ، جاء التَّعبيرُ بالاسم الجليل (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما صدر منه ﷺ مِن الاجتهاد في طلب مرضات أزواجه، إنَّما هو واقعٌ، والحالُ أنَّ اللّهَ - جلَّتْ عظمتُه - غفورٌ رحيمٌ، فجاء ذكرُ الاسمِ الجليلِ مُمَهِّدًا لِما بعده مِن ذكرِ عظيم الرَّحمة والغفران؛ ليُربّي في النَّفس ثقة العبدِ برحمةِ ربِّه(3).

نُكتة تنكيرِ الاسمَيْن الجليليْن:

تعظيمُ شأن الرَّحمة وتفخيمُ قدرِ المغفرة

جاء الاسمان في قوله تعالى: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ نكرَتين، والمعنى: (واسع المغفرة، عظيم الرَّحمة)؛ إذ تجاوزَ عن النَّبيِّ ﷺ ما امتنعَ عنه؛ فدَلَّ التَّنكيرُ على تعظيمِ شأنِ رحمةِ اللّه، وتفخيمِ قَدْرِ مغفرتهِ سُبحانه(4).

(1) إسماعيل حَقّي، روح البيان: 10/ 49، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 460.
(2) النَّسفي، تفسير النَّسفي: 14/ 475، وإسماعيل حَقّي، روح البيان: 10/ 49، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 460.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 182.
(4) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 10، والصّابوني، صفوة التفاسير: 3/ 384.

فائدةُ تعدُّد الأخبار:

تعدَّدَ الإخبارُ عَن اسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، كأنَّه قيل: (واللّه غفورٌ، واللّه رحيم)؛ لبيان العلاقة بين المغفرة والرَّحمة، وأنَّها علاقةٌ لا تنفكُّ بحال.

دلالةُ المُبالغة في صيغتي ﴿غَفُورٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾:

بيانُ سَعة مغفرة اللّه تعالى وعظيم رحمته

جيء بصفتَي الغفور والرَّحيم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغة المُبالغة؛ لِما في ذلك من إشعارٍ بِسَعة مغفرة اللّه تعالى وعظيم رحمته، فهو كثير الرَّحمة والمغفرَة، لا يُؤاخِذُ على اجتهادٍ نابعٍ من مكارم الأخلاق، من سَعْيٍ في تأليف القلوب وتَرفُّعٍ عن المُشاحنة، فجيء بهاتين الصِّفتين على هاتين الصّيغتين بعد العتاب؛ لإذهاب وقْعِهِ من نَفْس النَّبيِّ ﷺ، فهو عتابٌ يُفيض لُطفًا ومَحَبَّةً، كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 43](1).

غَرَضُ تقديمِ صفة ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

تقديمُ المعلولِ على العلَّة بيانٌ لوجه الارتباط بين الرَّحمة والمغفرة

في الإخبار عن اللّه بوصف الرَّحمة بعدَ ذِكر المغفرة إيماءٌ إلى أنَّ هذا العتابَ كان رحمةً من اللّه تعالى بنبيِّه وإشفاقًا عليه؛ بسبب ما كان مِن حرمانٍ لِنَفْسِه وتضييقٍ عليها(2)، أو مِن باب تقديم الإخبار عن النتيجة على الإخبار بالعلَّة، أي: تقديم المعلول على علّته، فكأنَّه قيل: لمَ المغفرة؟ فيكونُ الجواب: لأنَّها مقتضى الرحمة.

دلالةُ التَّعبير بالاسميَّة دون الفعليَّة في الفاصلة:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بصيغة الاسميَّة، المُسبغةِ للثَّبات والدَّيمومة؛ تنبيهًا على أنَّ مغفرةَ اللّه تعالى ورحمتَه دائمةٌ له لا تنقطع، وممتدَّةٌ لا تَنْحَبِس.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 347، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 28/ 306.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 157.

بلاغة التَّذييل بالاسمَيْن الجليلَيْن:

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذييلٌ، وفيه استِئناسٌ للنَّبيِّ ﷺ وتأنيسٌ مِن وحشةِ المَلام، أي: (واللّٰه غَفورٌ رَحيمٌ لكَ)[1]، مع ما فيه من الإيماءِ إلى علوِّ مقامه ﷺ وأنَّ عتابَهُ إنَّما وقع لِتَرك الأولى، وأنَّ تَرْكَ الأولى بالنِّسبة للمقام الكريم يُعَدُّ كالذَّنب؛ لأنَّ مَن رُفِع قدرُه رُفِعَ حسابُه، ومقامُه الكريم يقتضي أن يُعاتَب على دقائق الأمور، ولو لم تكن ذَنْبًا، وهذا مِن تمام الاعتناء به، وغايةِ الرِّعاية له؛ لكمال المنزلة، ومزيدِ القرب[2].

لكلِّ مقامٍ مقالٌ بما يُناسبُ المخاطَب من الملام

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبيُّ والرَّسول:

الرَّسول: هو الرَّجُلُ المبعوثُ مِن اللّٰه إلى النّاس المُخالِفين بشريعةٍ مُجدِّدةٍ يدعو النّاس إليها، ويُجاهدُهم عليها، والنَّبيُّ: مَن أوحى اللّٰه إليه بإصلاح أمْرِ قوم بِحَمْلِهم على شريعةٍ سابِقةٍ، أو بإرشادِهم إلى ما هو مُستقرٌّ في الشَّرائع كُلِّها.

النَّبيُّ أعمُّ من الرَّسول، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ دون العكس

فالنَّبيُّ مَن بَعَثَه اللّٰهُ؛ لتقرير شرعٍ سابِقٍ، كأنبياءِ بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، فيكون النَّبيُّ أعمَّ من الرَّسول[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 347.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 343، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 157.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 75، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 297.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من العتابِ إلى دفعِه ببيانِ أسبابِه

لمّا عاتبَ اللّهُ نبيَّهُ ﷺ، بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؛ أَرْدَفَ ذلك ببيانِ الرُّخصة في الرُّجوع إلى ما حَرَّمه على نفسه، فبيَّن أنَّه لا حرجَ عليه في حَلِّ يمينِه، التي نَشأت عن هذا التَّحريم؛ تسليةً لقلبه، ورَفْعًا للحَرَجِ عنه، وتأكيدًا لِعَدَمِ لزوم الاستمرار في التَّحريم المبنيِّ على اليمين، فَعَلَّل ذلك، وقَرَّره بقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، أي: شَرَعها، وبَيَّنَها، وأوجَبها؛ لِتكون مَخرجًا شَرعيًّا مِن اليمين؛ إذا انعقدت على أمْرٍ، ثُمَّ بان خلافُه، أو اقتضَت الحِكمةُ الرجوعَ عنه[1]، فهو انتقالٌ مِن العتابِ على الامتناع، إلى بيان كيفيَّة التَّعامل مع ما هو خلافُ الأولى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَضَ﴾: (فرض) أصلٌ يدُلُّ على حَزِّ الشَّيءِ الصُّلبِ، يُقالُ: فَرضَ يَفرِضُ فَرضًا، فهو فارِض، وهي مَفروضة، ومنه الفَرضُ: الثُّقبُ في الزَّندِ في المَوضِع الَّذي يُقدَحُ منه، والمِفرَضُ: الحَديدةُ الَّتي يُحزُّ بها[2]، فهو يدلُّ على قطعٍ في الشَّيءِ الصُّلبِ، ولذا جاءَ بمعنى قطع الحُكم في الشَّيء، وسُمِّيَ الفَرضُ فَرضًا؛ لمُشابَهتِه الحَزَّ في أنَّ لَهُ مَعالمَ وحُدودًا[3]، وفرَضتُ الشَّيءَ أفرِضه فَرضًا، وفَرَّضتُه للتَّكثير: أوجَبتُه، وفَرائضُ اللّهِ: حُدودُه الَّتي أمرَ بها، ونهى عنها،

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 319، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 50، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 183.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).

(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فرض).

والفَرضُ: ما أوجبه اللّه ﷻ، سُمّي بذلك؛ لأنَّ له مَعالِمَ وحدودًا[1]، ومعنى ﴿فَرَضَ﴾ هُنا: بيَّن، وشَرَع[2].

2) ﴿تَحِلَّةَ﴾: (حلل) أصلٌ يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ[3]، وتَحِلَّة على وزنِ تَفعِلة (مِن مَصادِرِ فعَّلَ، كالتَّوصيةِ، والتَّسميةِ)، وأصلُها تَحْلِلةٌ، فأُدغِمَتْ[4]، وسُمّيت الكفّارة تَحِلَّةً؛ لأنَّ عُقدةَ اليمينِ تنحَلُّ بها، أو لأنَّ الحالِفَ يتَحَلَّلُ بها عن اليمينِ، أي: يخرجُ من تبِعاته، والتَّحِلَّة في الآية هي الانفكاكُ عن اليمين، أي: الكفّارة.

3) ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾: (يمين) أصلُه لليد اليُمنى (الجارحة)، وكذلك: الحَلِفُ والقَسَم، يُجمَع على أيْمان وأيْمُنٍ[5]، وسُمّيَ الحَلِفُ يَمينًا؛ لأنَّ المُتَحالِفَيْن كَأنَّ أحَدَهُما يَصْفِقُ بيَمينِهِ عَلَى يَمينِ صاحِبِهِ[6]، فاليمينُ في الحلف مستعارٌ من اليَد اعتبارًا بما يفعلُه المُعاهِد والمُحالِف وغيره[7]، والأيمانُ في الآية بمعنى الحلِف والقَسَم[8].

4) ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: (ولي) أصلٌ يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ[9]؛ والمَولى: هو السَّيِّدُ والمُنْعِمُ والنّاصرُ والمُعينُ، والوَلايةُ: توَلّي الأمرِ، والوِلايةُ النُّصْرةُ، وحقيقتُه: تولّي الأمر، والوَليُّ والمَولَى يُستَعمَلانِ في ذلكَ، كلُّ واحدٍ منهما يُقالُ في معنَى الفاعل، أي: الموالي، وفي معنَى المفعول، أي: الموالَى، فيُقالُ: اللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومَولاهُم، أي: ناصرُهم، ومُتولّي أمرِهم[10]، والمعنى هُنا: وليُّكم وناصِرُكم ومؤيِّدُكم[11].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرض).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 472، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 186، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 494.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلل).
(4) مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 1/ 691، والجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 453.
(5) الفراهيدي، العين: (يمن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يَمَنَ).
(7) الرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يَمَنَ)، والواحدي، البسيط: 3/ 483.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 22/ 489، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/ 102.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ولي)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 89.
(10) الرَّاغب، المُفردات: (ولى).
(11) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 569، وملا حويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 3/ 232.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تَحِلَّةُ الأيمانِ مَظهَرٌ مِن مَظاهِرِ رحمةِ الرَّحمنِ وتدبيرِ الحكيمِ الدَّيّانِ

أبانتِ الآيةُ الكريمةُ عَن وجهٍ مِن وجوه رحمةِ اللّه بعباده ولُطفِه بهم، فقال جَلَّ ذِكْرُه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، أي: شَرَعَ لكم تحليلَ أيمانِكم بالكفّارة المبيَّنة في كتابه؛ إذا بدا لكم الرُّجوعُ عمّا حَلَفتُم عليه، فَرغَّبكم في الأخذ بهذه الرُّخصة، ودلَّكم على السَّبيل المُفضي إلى التَّيْسير، ولم يُضيِّق عليكم فيما عَقَدتم الأيمانَ به، بل جَعَل لكم إلى الحلِّ منه مَخْرَجًا، تَرَفُّقًا بكم ورحمةً، واللّهُ وليُّكم وناصِرُكم - أيُّها المؤمِنونَ - ويتولَّى أُمورَكم بما فيه صَلاحُكم، وهو بالغُ العِلم بمَصالحِ عِبادِه وغيرِها، بالغُ الحِكمة في خَلْقِه وشَرْعِه وقَدَرِه وتَدبيرِ عِبادِه، لا يَشْرَعُ إلّا ما فيه الخيرُ لعباده[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عن سابقتها:

تشريعُ كفّارةِ اليمين تأنيسٌ لقلب النَّبيِّ الكريم، وإرشادٌ له ولأُمَّته

جاء قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ مفصولًا، وقد سيقَ لبيان ما شَرَعَه اللّه تعالى مِن كفّارة اليمين؛ تأنيسًا لقلب نبيِّه الكريم، وإرشادًا له ولأُمَّته إلى حُكْم الشَّرع فيما وقع مِن اليمين، وقد فُصِلت الآيةُ عن سابقتها؛ لِما بينهما مِن كمال الاتِّصال، الذي تقوَى فيه صِلاتُ الجُمَل ببعضها لدرَجَةٍ لا تحتاج معها إلى واصِلٍ لفظيٍّ، ويُمكن أن يكون الفصلُ لِشِبْهِ كمال الاتِّصال، ولاندراج الثّاني تحت حُكم الأوَّل؛ إذْ كان في ختام الآية السّابقة قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فناسبَ أن يُتبَع ببيان وجْهٍ مِن وجوه مغفرتِه ورحمتِه، وهو المَخرَجُ مِن اليمين بالكفّارة، فجاءت هذه الآيةُ كالتَّفسير والتَّفصيلِ لِما أُجمل[2].

---

(1) البغوي، تفسير البغوي: 5/ 117، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 185، والسّعدي، تفسير السّعدي، ص: 873.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 347.

نُكتَةُ التَّوكيد بـ﴿قَدۡ﴾:

تنزيلُ الكفّارة منزلةَ الأمرِ المغفولِ عنه

افتُتح الخبرُ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، بحرفِ التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾؛ تنزيلًا لرسول الله ﷺ مَنزِلةَ مَن لا يعلَمُ أنَّ اللّه فرَضَ تَحِلَّةَ الأيْمانِ بآيةِ الكفّارةِ؛ إذ لم يُبادر بأخذ الرُّخصة في حلِّ ما حرَّم على نفسه تَعظيمًا للقسَم، فجاء التَّأكيدُ بأداة ﴿قَدۡ﴾؛ ليُقرِّرَ أنَّ الأخْذَ بالكفّارةِ لا تَقصيرَ عليه فيه، فإنَّ فيها مِن الوفاء بتعظيم الاسم الجليل ما فيها، وفي ذلك تسكينٌ لخاطر النَّبيِّ ﷺ[1]، مع ما فيه من التَّنبيه على أمرِ الكفّارة الَّتي عومِلَتْ معاملة الشَّيء المغفول عنه.

دلالة استعمال مفردة ﴿فَرَضَ﴾:

الفَرضُ يأتي بمعنى التَّذكير بالأمر المشروع بقصدِ الحثِّ عليه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ فعل ﴿فَرَضَ﴾، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، بمعنى التَّشريعِ والتَّبيين، لا الإلزامِ والإيجاب، وذلك أنَّ الفرضَ إنَّما يُعدَّى بـ(على)؛ إذا أُريدَ به الإيجابُ المحضُ، وقد جاء هُنا مُتعدّيًا باللّام: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، فدلَّ على أنَّ المُرادَ الشَّرعُ والتَّوسعةُ والإذْنُ؛ تنبيهًا على أنَّ التَّحلُّل بالكَفّارة مأذونٌ فيه مشروعٌ لا يُنافي الورع، ولا يُخِلُّ بحُرمة اليمين، بل هو في ميزان الشَّريعة وجهٌ من وجوه التَّعظيم لِأمرِ اللّه، وعُبِّر بـ(الفرض) هنا، وهو لفظٌ في أصله يُفيد الجزمَ والقَطْعَ؛ ليُغريَ إلى الأخذ بالرُّخصة، ويبعثَ على قبولها من غير حرج[2]، ونكتةُ استعمال ﴿فَرَضَ﴾ دون (شرع) ونحوه هو الإيماءُ إلى أنَّ بعضَ الأيمان قد فُرِض في شأنها فرضًا حَلُّ اليمين.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي للفعل ﴿فَرَضَ﴾؛ وذلك لبيان أنَّه أمرٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 347.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 50، وزاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 254، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 353.

حتميٌّ، قد شُرِع للمؤمنين؛ لِحَلِّ أيمانهم الَّتي عقدوها، فهو يُرشِّح معنى التَّذكير بما هو كائنٌ.

نُكتة ذِكْرِ الاسم الجليل:

الأليَقُ بالسّياق التَّشريعيِّ التَّعبيرُ بالاسم الجليلِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الجليل، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾، في مقام التَّشريع؛ لأنَّه الأليَقُ بالسّياقِ التَّشريعيِّ؛ لِما يُفيض به من معاني الألوهيَّة، وقد جاء على وجهٍ مِن وجوه التَّفخيم والتَّمجيد؛ تنبيهًا على أنَّ الشّارع لهذا الحكم، والمتولّيَ لأمْرِكُم فيه، والمتفضِّلَ عليكم بهذه الرُّخصة، هو اللّهُ ﷻ، الذي لا شريكَ له في حُكمِه، ولا مُعقِّبَ لأمره[1].

نوعُ اللَّام ودلالتُها:

اختصاصُ أُمَّةِ الإسلامِ بِحُكمِ كفّاراتِ اليمينِ وتَحِلَّةِ القَسَمِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ لام الاختصاص، تُفيد أنَّ هذا التَّشريع مخصوصٌ بأُمَّة الإسلام؛ تكرمةً لها ورحمةً، فتَحِلَّةُ الأيمانِ شُرِعَت مِن أجْلِ مَنفَعَة المؤمنين ودَفْعِ الحَرَج عنهم، وقد اشتمَلَ هذا الفرضُ على تمييزٍ لهذه الأُمَّة عن الأمم السّالفة، فإنَّ مَن كان قبلَهم لم يُؤذن لهم في الحنث، كما وقع في خبر أيّوب عليه السلام؛ إذ أمَرَه اللّه تعالى أن يضربَ بيده ضغثًا، ولا يحنث، ولم يُرخِّص له في تَرْكِ ما نَذَره، أو حَلَف عليه، وأمّا هذه الأمَّة المرحومة؛ فقد جُعِل لها مَخرجٌ مُشَرَّعٌ، وكفّارةٌ مُبيَّنَةٌ، فكان ذلك مِن تمام رحمة اللّه بها، وفضلِ تشريعه عليها[2].

غَرَضُ تقديم شِبهِ الجُملة:

قُدِّمَت شِبهُ الجُملةِ ﴿لَكُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾؛ للإيذان بالاهتمام مع الاختصاص، فهو يُنبئ أنَّ هذا التَّشريعَ خُصَّ به المؤمنون تشريفًا لهم، وتحنُّنًا عليهم، وتأنيسًا لقلوبهم؛ لِما فيه من مزيدِ الاعتناءِ بشأنهم.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 183.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 77/ 10.

غَرَضُ الانتقال مِن الإفراد إلى الجمع:

بركةُ النَّبيِّ تلحقُ الأمَّة كلَّها

جاء الخطابُ في الآية الكريمة: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ جمعًا؛ لتعميم الحُكم وتوسيع أهْلِه، فإنَّ الخطابَ وإنْ تَوَجَّه ابتداءً للنَّبيِّ ﷺ، إلّا أنَّ التَّشريعَ فيه عامٌّ للأُمَّة كافَّةً، فجاء بالجمع إشارةً إلى عموم الحُكم، ورَفْعِه عن مُجَرَّدِ مَقام العِتابِ الخاصِّ، إلى مَقامِ التَّشريع العامِّ[1]، وهذا مِن بَرَكات سيِّد الخلق ﷺ، فما جاء في سياق العتاب الخاصِّ؛ كان خيرُه عامًّا للأمَّة كلِّها.

سِرُّ التَّعبيرِ بِمُفرَدَة ﴿تَحِلَّةَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الإغـراء بالأخذ بـالـكـفّـارة والـعـودة إلى سـابـق الـحـال قـبـل وقـوع اليمين

﴿تَحِلَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ على وزن (تَفْعِلَة)، ثُمَّ أُلقيَتْ حَرَكَةُ اللَّامِ الأولى على الحاء، وأُدغمت في الثّانية، و(تفْعِلَة) من مصادر التَّفعيل كالتَّوصية والتَّسمية، و(التَّحلَّة) مصدرُ حللت، وتَحِلَّةَ أيمانِكُم: كَفّارة اليمين، وعبَّر عنه بـ (تَحِلَّة)؛ للإشارة إلى أنَّ في الكفّارة حلًّا لِما تَعَقَّد، وصار صعبًا باليمين، أو ما يجري مجراه، وأنَّ الشَّيءَ الذي حُرِّم، ومُنِع باليمين صار بعد الكفّارة حلالًا مُباحًا؛ فإذا كَفَّر؛ صار كمَن لم يَحلِفْ، وأوثِرَ التَّعبيرُ بلفظ تَحلَّةَ دون غيره؛ لِما في جَرسه من قوَّةٍ تناسبُ تعبير القرآن بالفعل ﴿فَرَضَ﴾، بجانب ما يُشعر به من انطلاقٍ بعد قيد، وانفكاكٍ بعد حَبْسٍ، ممّا يُغري بالأخذ به والعودة إلى سابق الحال وماضي العهد قبل وقوع اليمين[2].

بلاغةُ المَجازِ في لفظ ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾:

اليَمينُ عَلامَةُ الوثوق ودليلُ اللُّزوم

الأيمانُ في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ جَمْعُ يمينٍ، وهي في أصلِ الوضعِ اسمٌ للجارحةِ، ثُمَّ أُطلِقَت مجازًا على

---

(1) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 35/ 268، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 353، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 270.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 186، والجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 3/ 453، وصبحي المليجي، من أسرار النظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2124.

القَسَم، إذْ كان القومُ إذا تعاقدوا، وتبايعوا، ضرَبَ بعضُهم على يدِ بعضٍ؛ تأكيدًا للعهدِ وتوثيقًا للميثاق، فصارت اليدُ مَعلَمًا على التزام القولِ وتوثيق الحَلِف[1]، فنُقِلت من الحقيقة الحِسّيَّة إلى المعنَويَّة بنوعٍ من المجازِ المرسلِ، علاقتُه السَّببيَّةُ؛ إذْ أُطلق اسمُ السَّبب، وهي الجارحة على المُسبَّب (وهو القَسَم)؛ لِما كان بينهما مِن علاقةٍ قويَّةٍ نَشَأت من عُرف العرب وعادتهم.

دلالة جمع القلَّة (الأيمان):

في استعمال جَمْعِ القلَّة دَعوةٌ إلى التَّقليل مِن الأيمان

لفظُ ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ جمعُ مُفردُهُ (يَمينٌ)، وهو جمعُ تكسيرٍ على زنة (أفْعالٌ)، وهو مِنْ أوزانِ جمعِ القِلَّة، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ هذه الأيمانَ مُتَّصِفَةٌ بالقِلَّة، أو أنَّه يجبُ على المسلم أنْ يُقلِّلَ منها، فلا يُطلِقُها كثيرًا في كلامه.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾:

تصويرُ اليمين بالعقدةِ التي تُحَلُّ؛ لِبَيان يُسْرِ أمْرِ الكفّارة

كلمةُ ﴿تَحِلَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ مأخوذَةٌ مِن (الحَلِّ) الذي هو في الأصل نقضُ العُقدة، أو فكُّ الرَّبط المُحكَم، وهي صورةٌ محسوسةٌ تُستعمل في الحِبال والعُقَد، "فكأنَّه باليمين على الشَّيء لالتزامه عَقَد عليه، وبالكَفّارة يَحُلُّ ذلك"[2]، وقد حُذِف المُشبَّه به (العُقدة)، وأُبقيَ على شيءٍ مِن لوازمه، وهو (التَّحِلَّة)، فأُطلِقَت هُنا على تحليل اليمين، فشُبِّهت اليمينُ بالعُقدة المحسوسة، وشُبِّه الخروج منها بفكِّ العُقدَة أو حَلِّها، ففي الكلام استعارةٌ[3] مَكنيَّةٌ مُجرَّدَةٌ بالتَّشخيص، والاستعارةُ في كلمة ﴿أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، فهي المُشَبَّه، و(العُقدَة) مُشَبَّهٌ به محذوفٌ، ووجه

---

(1) الفيومي، المصباح المنير: 681، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 343.

(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 151.

البلاغة في هذه الاستعارة أنَّ فيها تصويرًا بديعًا؛ إذ صوِّرت اليَمينُ بعَقدٍ مُحكَم، والتحلَّةُ حَلٌّ لذلك العَقد، وفي التَّعبير بها مَسحةُ تلطُّفٍ ورَحمةٍ، تُهوِّن على النفس نقضَ اليمين بالكفّارة، وتُشير إلى أنَّ في هذا الخروجِ مِن اليمين طُهرةً وبراءةً، لا عيبَ فيها ولا ملامَ، بل هي مأذونةٌ مِن اللّه الحكيم العَلّام.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الانتقال من بيانِ الرُّخصةِ الشَّرعيَّةِ إلى تقريرِ المعنى الإيمانيِّ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ استئنافيَّةٌ استئنافًا نحويًّا، انتقلَ بها النظمُ الكريمُ مِن بيانِ الرخصةِ الشرعيَّةِ إلى تقريرِ المعنى الإيمانيِّ؛ ترسيخًا للثِّقةِ بذكر جلالِ المولى ونُصرته لعباده، وهذا الانتقال يُهيِّئُ النَّفسَ لقبول الحُكم السّابقِ بما يَحملُه مِن طُمأنينةِ النُّفوس بالولايةِ الإلهيَّة والعناية الرَّبّانيَّة[1].

وتحتملُ أن تكون الواوُ حاليَّةً، فتكون جُملتُها تذييلًا لقوله تعالى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾، ومِن ثَمَّ فهي تؤكِّد ضرورةَ التَّخلّي عَمّا يُسَبِّبُ للنَّفس إرهاقًا وعَنَتًا، والأخذَ بما رخَّصَ اللّه ﷻ فيه[2].

بلاغةُ إظهارِ ما حَقُّه الإضمار:

تعظيمُ الاسم الجليل في مقام الولاية والنُّصرة

أُعيد ذِكْرُ الاسم الجليلِ (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، ووُضِع موضِعَ الضَّمير؛ إظهارًا لما هو مكنونٌ من حقِّ التَّعظيم، وإجلالًا لما يَجِب له مِن وجوه التَّكريم؛ إذ لا يُكتفى في مقام الولاية والنُّصرة بالنِّعمة بمجرَّد الإضمار، بل يُصرَّحُ بالاسم العَلَم الأعظم؛ ليكونَ في التَّكرار تَمَكُّنٌ في القلب، وتوكيدٌ لما يجبُ مِن الامتثالِ للأمر، والخضوعِ لجلاله، والاعترافِ بفَضْلِه، فكان ذِكْرُه على جِهَةِ الإظهار أحقَّ بالمقام، وأولى ببلاغة

---

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 12/ 68، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 2/ 487.

(2) الدعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 357، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 126.

الكلام، وهذا مِنَ الإطناب المحمود، الذي يأتي بمعانٍ ودلالات، لا يوفّيها حقَّها الإضمارُ.

بلاغةُ التَّعبير بالجُملة الاسميَّة:

تثبيتُ المؤمنين مِن الله تعالى رحمةٌ تُحيط بها الرَّأفة

التَّعبيرُ بالجُملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ مُشعِرٌ بالثَّبات والدَّوام، فولايته سُبحانه للمؤمنين ثابتةٌ باقيةٌ غيرُ منقطعة، وفي هذا الأسلوب ما فيه من بثِّ الطُّمأنينة والسَّكينة في قلوب أولياء الله تعالى؛ إذ صوغُ الكلام على أنَّه خَبرٌ حتميٌّ مقطوعٌ بمضامينه ودلالاته، يورِّث السَّكينة، ويبعث على الرّاحة.

بلاغةُ الكناية في استعمال مُفرَدة (المولى):

الـدَّلالـةُ على الرَّأفةِ والتَّيسيرِ الإلهيِّ

(المولى) في اللُّغة يُطلَق على السَّيِّد، والمملوك، والحليف، وابنِ العمِّ، والأولَى بالشَّيء، والصّاحِبِ المُعين[1]، وفي التَّعبيرِ بالمولى في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، كِنايةٌ بديعةٌ عن الرَّأفةِ والتَّيسيرِ؛ إذ أُطلِق اللَّفظُ على النّاصرِ والمُتولّي شؤونَ عباده، بعدَ ذِكرِ حُكم التَّحلُّلِ مِن الأيمان؛ ليُستشعَر منه أنَّ الرُّخصةَ مأذونٌ بها مِن وليٍّ رحيمٍ، يرعى مصالحَ أوليائه، ويُيَسِّرُ عليهم أمورَهم، فهي كِنايةٌ تنطوي على عنايةٍ ومودَّةٍ إلهيَّةٍ لا تخفى[2].

نُكتة القصرِ بتعريف الطَّرفين:

تأكيدُ مضمونِ الجُملة وتقريرُه بانحصار الصِّفَةِ في الموصوف

جاء القصرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، بمجيء المسنَدِ والمُسنَدِ إليه مَعرفتين؛ لبلوغ المُسنَدِ إليه في استحقاقِ ما أُسنِد إليه حدًّا يقتضي حصرَ المُسنَدِ فيه[3]، والقصدُ هُنا هو إثباتُ الولاية لِلّه تعالى أوَّلًا بالذَّات، ثمَّ نفيُ الولاية عنْ غيرِه ثانيًا بالتَّبع، والمعنى: اللّهُ مَولاكُم لا غيرُه، كما أنَّ تقديمَ اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 348.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 406.

﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ يقوّي هذا القَصرَ، ويُعاضده؛ إذ يدلُّ على ولايتهِ ﷻ نَصًّا، ونفيِ ولاية غيرِهِ ضِمنًا، فَدلَّ القَصْرُ على تأكيدِ مضمونِ الجملة وتقريرِهِ على سبيلِ انحصارِ صِفَةِ ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ في الموصوف (اللّه)، وثباتِ ولايةِ اللّه للمؤمنين ودوامِها، فهو أولى بهم مِن أنفُسِهم، وأحقُّ بالولاءِ مِن خَلقِه كافَّةً، وفيه تأكيدٌ أنَّ النُّصرةَ والتَّدبيرَ لا تُرجى إلّا مِن المولى الحقِّ، وليُدفَعَ ما قد يُتَوهَّمُ مِن أنَّ غيرَ اللّهِ قد يكون مولى المؤمنين.

نوعُ الواو ودلالتُها:

تشريعُ الحقِّ صادرٌ عَن عِلمِه وحِكمتِه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ عاطفةٌ على الجملة السابقة، تُفيد أنَّ ما سبَقَ مِن التَّشريع والتحليل واقعٌ تحتَ عِلم اللّه التّامِّ وحِكمَتِه البالغة، فهي تقويَةٌ معنَويَّةٌ للتَّشريع، تُعلي مِن قَدْرِه، وتدلُّ على أنَّه مُنزَّلٌ عن تمامِ عِلْمٍ وحكمة.

بلاغةُ التَّذييلِ بهذَيْن الاسمَيْن الجَليلَيْن:

علوُّ شرفِ الحُكمِ المُتقدِّم، وتنزيهُه عن كُلِّ خَلَلٍ

خُتِمَت الآيةُ بالتَّذييلِ بهذين الاسمَين الجليلين: ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ تنبيهًا على عُلوِّ شرفِ الحُكمِ المُتقدِّم، وتنزيهًا له عن كلِّ خَلَل، فإنَّه صادِرٌ عن عِلْمِ مَن لا يخفى عليه شيءٌ، وحكمةٍ لا يُخالطها العبثُ والهوى، فكان في ذِكرِ العِلم إحاطةٌ بجميعِ ما خفيَ وظَهَر، وفي ذِكرِ الحِكمةِ إشارةٌ إلى أنَّ التشريعَ نازلٌ على وفقِ المصالحِ ومجاري الأحوال، فلْيُسلِّم المؤمنونَ لِحُكمِه، وليَرضوا برُخصَته، فإنَّه أحكَمُ الحاكمين، وأعلمُ العالمين[1].

نُكتة القصر بإسناد الصِّفتَين إلى الضَّمير:

الرِّفقُ بالنَّفس مِن بواعث التَّشريع ومقاصدِ الأحكام

إيثارُ صِفَتَي العلم والحكمة، وإسنادُهما إلى ضمير الحَقِّ ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ عن طريق قَصْرِ الصِّفة على

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 1029.

الموصوف قصرًا حَقيقيًّا، يؤكِّد ما تدعو إليه الآياتُ مِن ضرورةِ تخفيف النَّبيِّ عن نفْسِه، وعدمِ الإصرار على فِعل ما يُرهِقُها، والأخذِ بما رَخَّصَ اللّٰه تعالى، وشَرَعَهُ مِن أجلِ عباده(1).

فائدةُ المُبالغة في صيغة صِفَتَي العِلم والحكمة:

الـدَّلالـة على سَعَةِ عِلْمِ الله وكمالِ حِكمَتِه

جاءت الصِّفتان ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، على صيغة (فعيل)، وهي من صيغ المُبالغة، وفيها دلالةٌ على سَعَةِ عِلْمِه وكمال حِكْمَتِه سبحانه، أي: إنَّه بالِغُ العِلم والحِكمَة، لا يخفى عليه شيء، ولا يُشَرِّعُ إلَّا ما فيه تمامُ المَصلَحةِ لعباده(2).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كَتَبَ) و(فَرَضَ):

في الكَتْبِ مَزيدُ إلزامٍ وتأكيد

تأتي كلمة (كَتَبَ) في كتاب اللّٰه تعالى على معانٍ عِدَّة، فتأتي بمعنى: شَرع لكم، وبمعنى: فَرض، وقَدَّر، وحَكَم، وقَضى، وأوجَبَ، وأثبَتَ(3).

فتكون في مَوْضِعِ (الفَرْضِ)، كقوله تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البَقَرَة: 178]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: 183]، وتكون بِمَعْنى الحُكْم(4)، وبمعنى القضاء والتَّقدير كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51]، أي: ما قضاه، وقدَّره، وأبْرَمَهُ(5).

وَوجهُ ذَلك أنَّ الشَّيء يُراد، ثمَّ يُقال، ثمَّ يُكْتَبُ؛ فالإرادةُ مبدأٌ، والكِتابَةُ مُنْتَهى، فالأمرُ قد فُرِضَ، وفُرِغَ منه(6)، ثمَّ يُعبَّر عَن المُراد الَّذي هوَ المَبْدَأُ؛ إذا أُريد بِهِ توكيدٌ بِالكِتابَةِ الَّتي هيَ المُنْتَهى؛ فالكتابة توكيدٌ لهذه المعاني(7).

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2126.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 81، والشّربيني، تفسير الخطيب الشربيني: 4/ 353.
(3) أبو نصر الجوهريّ، الصّحاح: (كتب)، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيات: 766، ومحمّد بن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 400، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 308.
(4) مرتضى الزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كتب).
(6) ابن القوطيّة كتاب الأفعال، ص: 65.
(7) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، ص: 766، والرّاغب، المفردات السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كتب).

أمّا (الفرض)؛ فإنَّه يأتي بمعنى الإيجاب، أي: ما أوجَبَهُ اللّه تعالى، بِقَطْعِ الحُكم فيه[1]، والفرضُ لا يكون إلّا مِن اللّه ﷻ[2]، وكلُّ مَوْضِعٍ ورَدَ فيه (فَرَضَ اللّهُ عليه)؛ ففي الإيجاب الذي أدخله اللّه فيه، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [الأحزاب: 50]، أي: قد علِمَ اللّه ما يجبُ فَرْضُهُ على المُؤمنينَ في الأزواجِ والإماءِ مِن المَهْر والنَّفقة[3]، كما تأتي كلمة (فَرَض) في كتاب اللّه تعالى على معانٍ عدَّة:

فيأتي الفرضُ بمعنى التَّقدير، كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾[4] [الأحزاب: 38]، ويأتي بمعنى أنزل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾، [القصص: 85]، أي: أنزل عليك القرآن[5].

ويأتي (فَرَض) بمعنى (بيَّن)، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾، أي: بَيَّن لكم كَفّارَةَ اليَمين[6].

فمَعَ اشتراك اللَّفظتين في الدَّلالة على بعض المعاني واختلافهما في البعض الآخر إلّا أنَّ في مادَّة الكَتْبِ مزيدَ تأكيدٍ وحَتْمٍ وإلزامٍ في باب الإيجاب، وهي أعمُّ من مادَّة الفَرْضِ، وأوسعُ منها في المعنى.

الوليُّ والمَوْلَى:

الــوليُّ خــاصٌّ بــالــمؤمــنــين، والمَوْلَى عامٌّ بهم وبالكافرين

المَوْلَى: هوَ السَّيِّدُ، والمملوكُ، والحليفُ، وابْنُ العمِّ، والأولَى بالشَّيء، والصّاحِبُ المُعين[7]، فهو يدلُّ على معانٍ عِدَّة، وهو أيضًا

(1) الرّاغب، المفردات: (فرض).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 223.
(3) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، ص: 689.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 233.
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 458.
(6) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، ص: 688.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).

مِن مصطلحات الأضداد، الذي يَدُلُّ على الشَّيء وضِدِّه، كما في السَّيِّد والمملوك، فتُستَعمل للفاعل والمفعول، فيُقال: (مولى فلان)، ويُقال: (اللّهُ مولانا).

والمعنى في حَقِّ اللّه: (المُعينُ الذي تَرْكَنُ إليه، وتعتَمِدُ عليه، وتحتمي به عند الشِّدَّة والرَّخاء، وفي السَّرّاء والضَّرّاء).

والوليُّ في أسماء اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولَى؛ فيُطلَق على المعنى الخاصِّ بالمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد: 11]، ويُطلق أيضًا بالمعنى العامِّ مثل قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 30].

ولا تعارُضَ بَيْنَ الآيتين الكريمتين؛ إذ معنى كَونِه مولى الكافرين، أي: (مالِكُهم والمُتصرِّف فيهم بما شاء)، ومعنى كَونِه مولى المؤمنين دون الكافرين، أي: (ولاية مَحبَّةٍ ونُصرةٍ وتوفيقٍ)(1).

(1) الشّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 89.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا خُتِمت الآيةُ السّابقةُ بِذِكْرِ عِلْمِ اللّه الواسع وحكمتِه البالغة، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أعقَبَها بما يَدُلُّ على سَعةِ عِلْمِه وإحاطتِه، فَذَكر إسرارَ النَّبيِّ ﷺ لبعضِ أزواجِه حديثًا، فكأنَّه قال: (إنَّ الذي يُخبركم بِسِرٍّ أَسِرَّ في الخفاء، لا يَخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء)[1]، فهو انتقالٌ مِن ذِكْر توحيد الأسماء والصِّفات، واعتقادِ ما تختصُّ به مِن حقائقَ لا تكون لغير اللّه تعالى، إلى ذِكرِ مثالٍ على ذلك.

إتباعُ الدَّعوَى بالدَّليلِ خيرُ بيانٍ على عقيدةِ التَّوحيد

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَرَّ﴾: (سرر) أصلٌ يدُلُّ على الخَفاء وكِتمان ما في النَّفْس، والسِّرُّ هو خفاءُ الشَّيءِ، وما كانَ مِن خالِصِه ومُستَقَرِّه، والجَمْعُ أسرارٌ، فالسِّرُّ: خِلاف الإعلانِ، يُقالُ: أسرَرْتُ الشَّيءَ إسرارًا، خِلافَ أعلَنْتُه، وسِرُّ الشَّيءِ خيارُه؛ لأنَّه يُخفى، ويُضَنُّ به[2]، والسِّرُّ يُستَعملُ في الأعيان والمَعاني، وأَسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أفضيتُ إليه في خُفْيَة[3]، والمعنى هنا: إذ أخفى الرَّسول ﷺ كلامًا، فلم يذكُرْه لأحَدٍ إلّا أنَّه أفضَى به إلى بعضِ أزواجِه، وأمَرَها أن تكتُمَه، ولا تُفشيه[4].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 157.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (سر)، والجوهري، الصّحاح، (سرر)، وأحكام القرآن لابن العربي: 1/ 288.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سرر).
(4) السّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 3/ 467، والباليساني، حسن البيان: 6/ 2577.

2) ﴿عَرَّفَ﴾: (عرف) أصلٌ يَدُلُّ على تَمَيُّزِ أعلى الشَّيءِ أو ظاهِرِهِ، بمَلْمَحٍ يَدُلُّ عَلَيه، ويُبيِّنه، أو على أمرٍ فيه، كعُرفِ الدّيك والفَرَسِ، ومِنهُ عُرفُ الرَّملِ والجَبَلِ: أعاليه، عَرَّف الشيءَ؛ إذا بَيَّنَه ليُعْرَفَ، وعَرَفاتٌ: المُرْتَفِعاتُ الكَثيرَةُ المُنْتَشِرَةُ، وعَريفُ القَومِ: سَيِّدُهُم[1]، والمعنى هُنا: أعْلَمَ ببعض الحديث تَكرُّمًا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ حَدَثًا وقَع بين النَّبيِّ ﷺ وزَوجه حفصةَ سِرًّا، فنبَّأت به عائشة رضي الله عنها، فأطلَعَ اللّهُ نبيَّه على ما كان مِن إفشاء الحديث؛ إذ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها، فأعرَضَ عنه تكرُّمًا وحِلمًا، فلمّا واجَهَها ﷺ بما أفشَت؛ قالت مُتعجِّبَةً: مَنْ أخبَرَك بذلك؟ فقال: أخبَرَني بذلك العَليمُ الخَبيرُ الذي لا تَخفى عليه خافيَةٌ[3].

إنباءُ العليمِ الخبيرِ للنَّبيِّ الكريمِ عن إفشاءِ زوجِهِ الحديث

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ عاطِفَةٌ قِصَّةً على قِصَّةٍ؛ إذ إنَّ حادثةَ إفشاء حفصة للسِّرِّ تختلف عن واقعة تحريم النَّبي ﷺ بعضَ ما أُحِلَّ له، ولكنَّها تتعلَّق بها فالعطف بالواو يُفيد التَّنبيهَ على ما انطوَى عليه ذلك الحَدَثُ النَّبويُّ مِن مَواعظَ جليلةٍ، وعِبَرٍ بليغةٍ، تُضيءُ أفئدةَ الأُسَرِ المسلمة، وتبثُّ فيهم روحَ الأدبِ والمهابةِ مِن حُرمة البيوتِ، سيَّما بَيْتُ النُّبوَّة، حيثُ وقعت القصَّةُ، وكانَ النبيُّ ﷺ طَرَفًا فيها، فخوطِبَ القارئُ بها؛ تعميمًا للفائدةِ، وتقريرًا للعِظة، وتجليةً لما في سيرةِ الزَّوجِ المُصطفى

عطفُ القصَّة على القصَّة؛ لما بينهما من المَواعظ الجليلة، والعِبَر البليغة

(1) الحميري، شمس العلوم: (التَّعريف)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 565.
(3) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 274.

من سُموِّ خُلقٍ، وعظيمِ حِلمٍ، ونفاذِ بصيرةٍ؛ ليُحتذى به في كُلِّ بيتٍ ومقامٍ(1).

معنى (إذ) ووظيفُتها البيانيَّة:

استحضارُ الحادثة في سياقها؛ ليكون للخبر وقعٌ أبلغ، وللعبرة أثرٌ أتَمُّ

(إذ) ظرفٌ لِما مضى من الزمان، وقد استُعمِل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾، وهو متعلِّقٌ بفعلٍ مُضمرٍ، تقديره: (اذكُرْ حينَ وقوعِ الإسرار)، فهو استدعاءٌ للوقت الذي جَرَت فيه الحادثة، جيء بها؛ لاستحضار الحادثة في سياقها؛ ليقع الوقوفُ عليها وقوفَ الشّاهد لا السّامع، فيكتسب المقامُ بذلك مزيدًا من التَّجلية والتَّأثير، حتَّى كأنَّ النّاظرَ يَشهَدها عيانًا، ويُعايشُ مشاهدَها ومُجرياتِها، فيكون للخبر وقعٌ أبْلَغُ، وللعبرة أثرٌ أتَمُّ(2).

بلاغة استعمال مفرد ﴿أَسَرَّ﴾:

الإشعارُ بتحقُّق الفعل وثبوته، والتَّقريرُ لحكمة الكتمان وعلوِّ المقصد فيه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردةِ ﴿أَسَرَّ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ دَخلَت عليه الهمزةُ، وهي للجَعْل، أي: (جَعَل الكلام سِرًّا)، فهو ممّا يُقال فيه: أسَرَّ في نفسه؛ إذا كتم، وأسرَّ إليه؛ إذا حدَّثَه بسِرٍّ؛ فكأنَّه أنهاه إليه، وفي هذا التَّعبير دلالةٌ بليغةٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما خَصَّ الحديثَ بالكتمان لمصلحةٍ رآها، وحكمةٍ قَدَّرها، فلو لم يكن رأى في الإسرار مصلحَةً؛ لما أسَرَّ الحديث، ولا أوصى بكتمانه؛ إذ هو ﷺ أبعَدُ الخَلقِ عن كتمان ما فيه خيرٌ مَحْضٌ أو نفعٌ عامٌّ، فكان في التَّعبير بهذا الفعل إشعارٌ بتحقُّق الفعل وثبوته، وتقريرٌ لحكمة الكتمان وعلوِّ المقصد فيه(3).

بلاغةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

التَّوطئة لبيانِ عِلْم الله تعالى للسِّرِّ وأخفى

جاء فِعلُ ﴿أَسَرَّ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾؛ لبيان

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 351، وفاروق الزّين، بيان النَّظم في القرآن الكريم: 4/ 209.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 12، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 51، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 351، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 498.

أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أسرَّ الكلامَ على وجه التَّحقيق والتَّوكيد، وأصبَحَ الإسرارُ جزءًا من الماضي المكتوم، وهو ما يوطِّئ؛ لبيانِ عِلم الله تعالى لما أُسِرَّ، ولكشفِ الإسرار مِن قِبَل بعض أزواج النبيِّ ﷺ.

بلاغةُ تلوين الكلامِ مِن الخطاب إلى الغَيبة:

تلوينُ الأساليب تنبيهٌ يوقظُ البصائر، ويُحرِّك القلوب

افتُتِحت الآيتان السّابقتان بأسلوب الخطاب، الأولى جاء الخطابُ فيها للنَّبيِّ ﷺ، والثانية جاء الخطابُ فيها لأُمَّته تبعًا له، وهذه الآية: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾، جاءت بأسلوبِ الغَيبة؛ ليُشادَ عليه بناءُ العِبرة، وتُستَخرج منه دروسُ الأدب ومحاسنُ الأخلاق، ويكون فيه من التَّنبيه ما يوقِظُ القلوبَ، ومِن التَّحذير ما يردعُ النُّفوس، فجرى الكلامُ على سَنَنِ الحكمة، ونُسِج بلُحمةِ التَّربيةِ والتزكية؛ ليكون أبلغ في الإفادة، وأقوى في إيقاظ الغافل، وتعليم المُتأدِّب[1].

دلالة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

الإيذانُ بعِظَم المنزلة وتفخيم الشأن

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ هو رسول الله ﷺ، و(أل) هُنا للعهد الذِّهنيِّ، فهو المعروف عند السّامع والمُخاطَب مِن سياق الآيات، كما أنَّه لا يُفهَم مِن الإطلاق سواه ﷺ، فكان ذِكْرُه باللَّفظ المعهود إيذانًا بعِظَم منزلته، وتفخيمًا لشأنه، وتنبيهًا على خصوصيَّة الخطاب به دون غيره حتَّى في باب العتاب[2].

نُكتة تعدية فعل ﴿أَسَرَّ﴾ بحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

تعظيمُ مقام السِّرِّ، وتشديدُ حُرمةِ إفشائه

في تعدية فِعْلِ ﴿أَسَرَّ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، لطيفةٌ بيانيَّةٌ دقيقةٌ؛ إذ دَلَّت على أنَّ الإسرار انتهى إلى جهةٍ مخصوصةٍ بعينها، فلا يُقال فيها إلّا مع قَصْدِ الإبلاغ لمُعيَّن، يُقال: أسرَّ إليه؛ إذا أسرَّ أمرًا خاصًّا لأجْله، فـ(أسرَّ إليه)، ليست كـ(أسرَّه)، فإنَّ الأولى تُشعِر بأنَّ السِّرَّ بَلَغَ المسموعَ إليه

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 350.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 51، وتفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 498.

بطريق التقَصُّدِ والاختصاص دون غيره، وكأنَّ الكلام نُقل إليه نقلًا خفيًّا مُتعمَّدًا، فيه قصدٌ للإيداع والائتمان، لا مجرَّدَ الإفضاء، وفي ذلك تعظيمٌ لمقام السِّرِّ، وتشديدٌ في حُرمته[1].

فائدةُ الإبهام بلَفْظِ ﴿بَعۡضِ﴾ دون التَّعيين:

الـوقـوفُ على مَـغزَى القِصَّةِ وموضعِ الحكمةِ هـو مـقـصـودُ الكلام

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ ﴿بَعۡضِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، دونَ التَّصريحِ بالاسم، وذلك لِما في هذا اللَّفظِ من الإبهام، وهو أسلوبٌ كِنائيٌّ قُصِدَ به السِّتر؛ إذ ليس المُرادُ تعيينَ الأعيان، بل استنباطُ العِبرة، والوقوفُ على موضع الحكمة فيما جرى، فالمرادُ العِلمُ بمَغزى القِصَّةِ، وما فيها ممّا يُجتنَبُ مِثلُه، أو يُقْتَدَى به[2].

كما أنَّ في الإبهام تعظيمًا لمقام النَّبي ﷺ، وصَونًا لحرمةِ أزواجه رضي الله عنهن عن التَّعيير والتَّشهير، فجاء الإبهامُ أليقَ بمقام النُّبوَّة، وأوفى بأدبِ القرآن[3].

دلالةُ الإضافة وفائدتها:

الـزَّوجـةُ هي مـوضـع الثِّـقـة عـنـد زوجـهـا، ومُستودَعُ سِرِّه

أُضيفَ لفظُ ﴿بَعۡضِ﴾ إلى ﴿أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، وأُضيفَ لفظُ (أزواج) إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، والمقصودُ حَفْصةُ رضي الله عنها؛ وذلك للإشعار بموضع الثِّقة، وتأكيدٌ على أنَّ إيداع سِرِّه ﷺ كان في مَحَلِّه؛ إذْ لا أحد أحَقُّ بحفظ سرِّ الرَّجل مِن زوجه، فهي موضع السُّكون والمَوَدَّة، ومَوئِلُ الأمان والاطمئنان، وفي هذه الإضافة أيضًا تلويحٌ بالعِتاب، فإنَّ مَن كان لها هذا القُربُ وهذه المنزلة، كان حريًّا بها أن تَحفظ ما خُصَّت به، لا أن تُفشيَهُ، فالخطاب فيه ملامحُ التَّوجيه والتَّأديب، المستنبطة مِن بلاغة الإضافة وشَرَفِ النِّسبة[4].

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 873، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 351، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1207.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 210، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 352.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 185، والمطعني، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 269.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 352.

نُكتة تقديم شبه الجُملة على المفعول:

تقديمُ المقصود بالكلامِ، وهو مَوضِع الإسرار

قُدِّم ذِكرُ شِبه الجملة: ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾، على المفعول به ﴿حَدِيثٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾؛ وذلك لرعاية مقام الاهتمام والتَّخصيص؛ إذ التَّقديم يُفصِح عَن العناية بشأن المقدَّم ذكرُه، وأنَّه المَحَلُّ المقصود بالإسرار، قبل الإفصاح عن مضمون الحديث نفْسِه.

غرضُ تنكير لفظ ﴿حَدِيثٗا﴾:

الإيماءُ إلى خُصوصيَّته، وأنَّه ليس مِن شأن الرِّسالة

نُكِّر لفظ ﴿حَدِيثٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾؛ للإبهام وكونه أمرًا خاصًّا ليس مِن شأن الرِّسالة؛ إذ لو كان مِن قبيل ما يُبلَّغ، ويُذاع؛ لَصَرَّحَ به، ولأورَدَه مُعرَّفًا مبسوطًا، مع ما في تنكيره مِن تكريم مقام النَّبيِّ ﷺ، وستْرٍ لِما أراد اللّه سترَه مِن أمرٍ خاصٍّ به، فدلَّ ذلك على أنَّ الحديث المُسَرَّ به لم يكن مِن قبيل ما يُفشى، أو يُكشف، ثُمَّ لَمّا أطلعَنا اللّهُ عليه بعد ذلك، فإنَّما كان ذلك ليُستنبَطَ منه ما فيه من العِبر والأحكام؛ إذ أحوالهُ ﷺ كُلُّها هديٌ وشرْعٌ، ما لم يَرِدْ فيه تخصيصٌ[1].

بلاغة المجاز المرسل في استعمال لفظ ﴿حَدِيثٗا﴾:

التَّعبير بفعل الحدثان يكسو الألفاظَ حياةً، ويُلبس المعاني حُلَّة التَّجدُّد

إطلاق (الحديث) على (الكلام)، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ مجازٌ؛ لأنَّه مُشتقٌّ من الحَدَثان، أي: الوقوع والتَّجدُّد، فكان إطلاقُه أوَّلًا على الفعل نفسِه الذي يقع في الخارج، ثم استُعمِل في الكلام النّاقل لذلك الفعل أو المُنبِئ عنه، على جهة المجاز المُرسل بعلاقة المُلابسة؛ إذ إنَّ الكلام يتضمَّن وصفَ الحدثِ أو الإخبارَ به، "فالذي حَدَث هو الفِعل ونحوه، ثُمَّ شاع حتى صار حقيقةً في الخَبَرِ عنه، وصار إطلاقُه على الحادثة هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 186.

المجاز، فانقلبَ حالُ وضعِه واستعمالِه"[1]، وبلاغة هذا المجاز في إطلاق (الحديث) على الكلام، أنَّه يكسو الألفاظَ حياةً، ويُلبس المعاني حُلَّة التَّجدُّد.

نوع الفاء ودلالتها:

التَّعقيب بالفاء يَـدلُّ على سببِ الإفشاء وسرعته

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ تحتمل أن تكون للاستئناف، وأن تكون للتَّعقيب، عُطِفت بها الجُملة الشَّرطيَّة على قوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ الإفشاء أعقبَ الإسرارَ قريبًا بلا تَراخٍ، فكان في هذا التَّرتيب تصويرٌ لحال المُبادرة السَّريعة بإذاعة الحديث؛ فالفاء توحي بسُرعة الوقوع، وفيه توبيخٌ خَفيٌّ، وتحذيرٌ مِن قِلَّة الكتمان وسُرعةِ الإذاعة[2].

وقد جيء بالشَّرط مقرونًا بالفاء، في قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾، عطفًا على ما قبلها؛ تنبيهًا إلى التَّسبيب مع التَّعقيب؛ إذ إنَّ ما جرى مِن إخبار النَّبيِّ ﷺ لها بعد ذلك، إنَّما كان نتيجةً مُترتِّبةً على إفشائها للحديث، فهو أثرٌ من آثار فِعلِها[3].

بلاغة التَّعبير بالجُملة الشَّرطيَّة:

تشويقُ النَّفْس بـترقُّـب الـجـزاء الـــذي يـتـأخَّـر لحكمة التَّهيئَة

جاء التَّعبيرُ بالجُملةِ الشَّرطيَّة، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾؛ لِما فيه مِن لطيفِ البلاغة ودقيق الحِكمة؛ ففيه بيانٌ شافٍ، وإيضاحٌ كافٍ، وتشويقٌ للنَّفس بترقُّب الجزاء الذي يتأخَّرُ لحكمة التَّهيئَة، فإذا وقع؛ ثَبَتَ أثَرُه، ورسَخ معناه، وعظُمَ وقعُه[4].

بلاغةُ استعمال مُفردة (النبأ) دون (الخبر):

بيانُ عظيمِ شَأنِ الحَدَث، فهو نبأٌ يُـكـشَـف لا خـبـرٌ يُروى

اختيارُ فِعْلِ (نبَّأ) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، يومِئُ إلى خطورَتِه في نَفْسِها، وعظيمِ شَأنِه فيما يخُصُّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 351.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2128.

(3) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 132.

(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2130.

البيتَ النَّبويَّ؛ إذ الإنباءُ للأمر ذي الشَّأن؛ فهو ليس مجرَّدَ خبرٍ يُروَى، بل هو نبأٌ سرّيٌّ يُكشف؛ فالنَّبأ هو الخبرُ الجليلُ الذي يَقرَعُ السَّمع، ويهُزُّ النَّفس؛ وليس كُلُّ خبرٍ يُسمَّى نبأً، بل ما كان عظيمًا في مضمونه، جسيمًا في أثَرِه، وفي هذا التَّعبير أيضًا إشارةٌ إلى ما خلَّفه هذا الإفشاء مِن أثرٍ في بَيْتِ النُّبوَّة؛ إذ كان نبأُها ذلك سَبَبَ اهتزازٍ في بيت النبوَّة، فاستحقَّ أن يوصَف بالنَّبأِ؛ لِما جَرَّه مِن توابع، وآثارَ مِن مواقف، فكان حقُّه أن يُصاغ بهذا اللَّفظِ(1).

فائدة التَّعبير بصيغة (نبَّأ):

بيانُ المبالغة في شأن نقلِ السِّرِّ

جيءَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، بفعل ﴿نَبَّأَتۡ﴾ بصيغته المُضعَّفة؛ للدَّلالة على المُبالغة في نقل السِّرِّ بجميع تفاصيله، فقَد أخْبَرت به غيرَها، وأعْلَنَته بَعدَ أن كان مستورًا، وأظهَرَته بَعْدَ أن كان خافيًا، ولم تُخْفِ أيَّ شيءٍ منه عَن صاحبتِها(2).

فائدةُ الإضمارِ وعَدَمِ التَّصريح بالاسم:

استبقاءُ جَلالِ الحُرمة النَّبويَّة، وصيانةُ جَناب أمَّهات المؤمنين

أفاد إضمارُ اسم المُنبِئَة بالحديث في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ - والضَّميرُ عائدٌ إلى قوله تعالى: ﴿بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ - استبقاءً لجلال الحُرمة النَّبويَّة، وصيانةً لجناب أُمَّهاتِ المؤمنين عن التَّصريح والتَّشهير، فإنَّ التَّصريحَ بالاسم في هذا الموضع يوهِم التَّعيين بقصد اللَّوم والذَّمِّ، وهو ما تنزَّه عنه أسلوبُ القرآن، لا سيَّما في مقامٍ يُحيط ببيت النُّبوَّة الطّاهر(3).

نُكتة حذف مفعول ﴿نَبَّأَتۡ﴾:

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿نَبَّأَتۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾، وتقديره: (نبَّأت به صاحبَتَها أو غيرَها)؛ اكتفاءً بما دَلَّ عليه

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 14/ 1026.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 14/ 1025، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2128.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 186.

السّياق، واستغناءً عن التَّصريح بالمفعول؛ إذ لا تَعَلُّقَ للمقصود به، ولا مَدخلَ له في تحقيق الغَرَض، فجاء الحذفُ مِن باب الإيجاز بالحذفِ، الذي تُراعى مِن خِلاله مقاماتُ الكلام؛ لأنَّ المقصودَ مِن ذِكر القِصَّة ليس التَّتبُّع للتَّفاصيل، ولا التَّعيين للأشخاص، وإنَّما العبرةُ بالواقِعة، والاهتداءُ بما تضمَّنَتْه مِن أدبٍ وحكمةٍ، وتوجيهٍ ربَّانيٍّ كريم[1].

مُراعاةُ الإيجاز بما يُحقِّق العِبرةَ مِن القِصَّة والاهتداءَ بما تضمَّنته مِن أدبٍ وحكمةٍ

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بيانُ مَشهَدِ التَّعريف بالغيب

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ تحتمل أن تكون للحال، وفيها إيماءٌ بديعٌ إلى أنَّ الإنباءَ وقَع والحالُ أنَّ ربَّ العِزَّة قد أطْلَع نبيَّه الأمين على مكنون ذلك الأمر؛ إيذانًا بعظيم منزلته، ودلالةً على كمال العناية به، وإشارةً لطيفةً إلى إحاطته تعالى بما يُدَبَّر في الخفاء، ويُتداول في السِّرِّ، أيًّا كان قائِلُه ومُدبِّرُه[2]، وتحتمل أن تكون للعطفِ على ﴿نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾، أي: اجتمع حدَثان: إنباءُ بعض الأزواج بالحديث، وإظهارُ اللّه لهذا الإنباءِ، فيكونُ جوابُ الشرط: ﴿عَرَّفَ﴾ لهذين الفعلين معًا.

بلاغةُ الاستعارة التصريحيَّة في فعل (أظهره):

معنى الإظهار يُراد منه الإطلاعُ أصالةً والنَّصرُ إيماءً

قولُه تعالى: ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، أي: (أطلَعَه عليه)، وهو مُشتقٌّ من الظُّهور بمعنى التَّغلُّب، واستُعير الإظهار بمعنى الإطلاعِ؛ لأنَّ إطلاعَ اللّهِ نبيَّه ﷺ على السِّرِّ، الذي كان بَيْنَ زوجتَيه - رضي الله عنهما - كان غلبةً له عليهما فيما دبَّرَتاه، وذلك أنَّ حفصة وعائشة - رضي الله عنهما - قد أرادتا كتمان الحديث، فدبَّرتا أمرًا خفيًّا لا يطَّلع عليه أحد، فكانتا في ذلك كَمَن يُغالبُ على أمرٍ، فيُحكِم غَلْقَه وسَتْرَه، غير أنَّ اللّه جَلَّ شأنُه لمّا أطلَعَ نبيَّه ﷺ على ما أسرَّتا، كان في ذلك غلبةٌ له

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 566، والطِّيبي، حاشية الطيبي على الكَشّاف: 15/ 499.
(2) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2487.

على سرِّهما، فالإظهار هُنا مِن الظُّهور بمعنى الغلبة والانتصار، وليس هو مِن الظُّهور الذي هو ضِدُّ الخفاء، ففي التَّعبير به استعارةٌ تصريحيَّة - شُبِّهَ فيها الإطلاعُ بالإظهار بمعنى التَّغلُّب - تُفصح عن عنايةٍ إلهيَّةٍ، وتدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ في حِفظِ اللّه وعِلمه، لا يُدبَّر أمرٌ حولَه إلّا ويَبلُغه، وإنْ خفيَ على النّاس أجمعين، فسُبحان مَن أظهَر، وأطلَع، وقَهر، فأبلغ[1]، فاللّهُ ناصرٌ نبيَّه في كلِّ الميادين وشتَّى المجالات.

بلاغة إسناد فعل الإظهار إلى الاسم الجليل:

في إسناد فعل (أظهَرَه) إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ﴾، تنبيهٌ إلى عظيم عناية اللّه تعالى برسوله؛ لأنَّ إعلامه بما لا عِلْمَ له به مِمّا يَهُمُّه فيه مِن العناية والاهتمام ما لا يحتاج إلى بيان[2].

فائدة استعمال حرف الاستعلاء:

تمكُّن العلم في الحضرة النبويّة إشـــرافٌ عــالٍ وثباتٌ بيِّن

استعمل النظمُ الكريمُ حَرفَ الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، أي: (أظْهَر نبيَّه ﷺ على الإنباء الذي وقَع مِن بعض الأزواج)؛ لبيانِ التَّمكُّن مِن معرفةِ ما حدث من الإنباء بين الأزواج، وهو ما يُقوّي دلالة الإطلاع والإشراف على الإنباء.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

يـرجِعُ الضَّميرُ إلـــى الإنـبـاء وما يَتبَعُه مِن تفاصيل

الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾، راجعٌ على الإنباء المُستفاد مِن قوله: ﴿نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾، أو إلى الحديث المُضمَر، بتقدير مضافٍ دلَّ عليه السّياق، والتقدير: (أظهَرَه اللّه على إفشائه)، ففي هذا الضَّمير إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى أطلعَ نبيَّه ﷺ

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 51، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 352، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 470.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 353.

لا على ذات الحديث فحسب، بل على فِعل الإفشاء نفسِه، أي: على حقيقة ما كان من النَّبأ وما صَحِبَه مِن الحَدَث(1).

دلالةُ مفردة ﴿عَرَّفَ﴾ ونُكتة فصل الجملة:

التَّفريق بَيْنَ الإظهار الإلهي والتَّعريف النَّبوي

المقصودُ بالتَّعريف في قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾، أي: (أعلمَها ببعضِه)؛ إظهارًا للمقصود مِن الموعظة، وقد صَدَر التَّعريفُ مِن النَّبي ﷺ على وجْهِ الحِكمَة والتَّأديب؛ ليوقِفَ زوجَته على ما كان مِنها مِن مخالفةٍ لِواجب حِفظ سرِّ الزَّوج وصيانة ما يُؤتَمن عليه، وقد جاءت الجملة مفصولةً؛ لأنَّها جواب الشَّرط؛ ففيه دلالةٌ على استقلالِ هذا المقام، وإبراز مقصد التَّعريف، وتفريقٌ بين الفِعلِ الإلهيِّ، وهو الإظهار، والفعلِ النَّبويِّ وهو التَّعريف(2).

توجيه القراءات القرآنيَّة:

اتِّساعُ القراءات القرآنيَّة للمعاني العديدة؛ سَعةٌ دلاليَّةٌ وأُفقٌ بَيانيٌّ

قرأ الجمهور قولَه تعالى: ﴿عَرَّفَ﴾، وهو من التَّعريف، أي: (أعلَمَها النَّبيُّ ﷺ ببعض ما أفْشَتْه)، وقرأ الكِسائيُّ: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيفِ الرّاءِ(3)، فهي على معنى المُجازاة، كقول العرب: (لأعرِفنَّ لك ذلك)، أي: لَأُجازيَنَّك عليه، فالكلمةُ ههنا تُفيد الكِناية عَن التَّوبيخ والعتاب، لا الإخبارَ فَحَسْب، بل على وجه الجزاء المقصود به الزَّجْرُ والتَّأنيبُ، وقد قيلَ في تأويل هذه القراءة: إنَّه ﷺ طَلَّق حفصةَ - رضي الله عنها - تطليقةً، ثُمَّ راجَعها، أو عاتبَها عِتابًا شديدًا، فجاء التَّعبير في موضع الكناية، دالًّا على التَّوعُّد والمُجازاة(4).

غَرَضُ حذفِ الفاعِل والمفعول الثاني:

توجيهُ الأنظارِ إلى التَّعريفِ لا الأشخاص

آثرَ النَّظمُ الكريمُ حَذْفَ المفعولِ في قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 353.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 353، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 470، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 463.

(3) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 388.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 210، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 355، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 132.

دون أن يُقال: (عرَّفها النَّبيُّ بعضَه)، وذلك لنكتةٍ بلاغيَّةٍ لطيفةٍ؛ إذْ لم يكن المقصودُ في السّياقِ التَّنبيه على المعرَّف إليها، بل على فِعْلِ المُعاتبة وجناية المُفشي، فجرَى التَّعبيرُ على مقتضَى المقام، فذُكِرَ الفِعلُ ومَفعولُه، وحُذف الفاعلُ والمفعولُ الثّاني للاكتفاء بالسّياق، وللدَّلالة على أنَّ التَّركيزَ إنَّما هو على فعلِ الإفشاء والتَّعريف، لا على الأشخاص بعينِهم، فجاء التَّعبيرُ أبْلَغَ في العتاب(1).

دلالةُ التَّعبير بِمُفرَدة (أعرض):

نفسُ الكريم لا تستقصي العِتابَ، بل تُشير، وتومئ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدة الإعراض، في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾؛ لبيانِ كمال أدبِ النَّبيِّ ﷺ في التَّعامل مع زوجِه وعُلوِّ خُلُقِه؛ إذْ لم يستقصِ في المُعاتبة، بل اكتفى بالإعلام ببعضِ ما كان، وترْكِ ما سواه؛ تَلطُّفًا في العتاب، وتَرَفُّعًا عن الفضيحة، وإيثارًا لحُسن التَّأديب على التَّفصيل في اللَّوم، وفي هذا الإعراضِ ما يَدُلُّ على أنَّ المقصودَ قد حصَلَ بالتَّعريض دون التَّصريح، وأنَّ النَّفس اللَّطيفة يكفيها أدنى تنبيه، فتوقِنُ أنَّ السِّرَّ المُذاعَ لم يَخْفَ على الله، فسُبحان مَن عَلَّم نبيَّه مكارمَ الخُلُق(2).

بلاغةُ المقابلة بَينَ التَّعريف والإعراض:

الإشارةُ إلى سُموِّ أخلاق النَّبيِّ ﷺ، وكمال حِلمه

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾، مقابلةٌ لطيفةٌ بَينَ فعلي: ﴿عَرَّفَ﴾ و(أعرض)، تُفصِح عن سُموِّ أخلاق النَّبيِّ ﷺ، وكمال حِلمه، ولينِ جانبِه في معاتبة أزواجه، فقد جَمَعَ بين البيان والإغضاء، والإشارة والكفِّ، فعَرَّفَ ببعض ما كان؛ تَلَطُّفًا في العتاب، وأعرضَ عن بعضه؛ توقيرًا وكرَمًا، وتجنُّبًا للخَوض في دقائق الذَّنب، وهذا الأسلوبُ البليغُ أبعَدُ

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 566، والطّيبي، حاشية الطّيبي على الكَشّاف: 15/ 499، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 132.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 353، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 274، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 158.

في أثَرِه، وأقرَبُ إلى إحياء النَّدم في نفس المُعاتَب، فإنَّ "الكَفَّ عن بعض العَتَب أبْعَثُ على حياء المعتوب، وأعْوَنُ على توبته"[1].

بلاغةُ العدولِ عن ذكرِ (عرَّف) إلى (نبَّأ):

الكلامُ يأتي وصفًا لمتلقِّيه، وتصويرًا لمشهد المخاطَب

عدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن مفردة (عرَّف) إلى (نبَّأ)، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾، وهذا فيه مِن لطيفِ البلاغة وجليلِ الحكمة ما يُناسِبُ المقامَ النَّبويَّ في التَّربية والعتاب، فمجيءُ فِعلِ الشَّرط: ﴿نَبَّأَهَا﴾ بهذا اللَّفظ هو باعتبار وقْع الكلام عليها، فهو نبأٌ عظيم بالنِّسبة لها، وشأنٌ كبيرٌ في سَمْعِها، فأن تَعلَمَ أنَّ اللّه ﷻ يُخبر نبيَّه ﷺ بما أفْشَت مِن سِرِّه، سيجعلها في ملامةٍ شديدة، ولم يكن ذلك لمُجرَّد إخبارٍ أو كَشْفٍ، بل لأداءِ واجبِ التَّأديب والمُعاتبة؛ إذ لا يُطلِعُ اللّهُ نبيَّه على خفايا الأمور إلّا لحكمةٍ سامية، ومقصدٍ جليل، وهو في هذا الموضع التَّنبيهُ على الخطأ، دون التَّشهير بالذَّنب، وذلك مِن سُموِّ خُلُقه ﷺ، ولذلك جاء جوابها: ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾، فعبَّرت به على سبيل التَّثبُّت مُعبِّرةً عن غاية الدَّهشة، واستبعدت في ظاهر قَولِها أنْ يصِلَ النَّبيُّ ﷺ إلى عِلْم ما كان بَيْنَ خاصَّتها، وفي ذلك بُرهانٌ على صدق النُّبوَّة، وأنَّ العلمَ الذي أوتيه وحيٌ صريح مِن لَدُن العليم الخبير، أراد به تقويمَ السُّلوك[2].

بلاغة الاستفهام وغَرَضُه:

تصويرُ التَّعجُّب والدَّهشة التي أنتجَت استحضارَ ما بَدر مِن الخَطأ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ استفهامٌ على الحقيقة، ومعناه يَحمِل في طيّاته التَّعجُّب، بل هو أليَقُ بالمقام، فإنَّ حَفصَةَ ﵂، لمّا سَمِعت مِن النَّبيِّ ﷺ ما يَدُلُّ على عِلْمِه بما أفْشَت مِن سرِّه؛ وقَعَ في نَفْسِها وقعًا عظيمًا، فبادرت بالسُّؤال على جهة التَّعجُّب والدَّهشة؛ إذ كانت تَظُنُّ أنَّ ما دار بينها وبَيْنَ عائشة ﵂ في

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 187.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 210، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 351.

طَيِّ السِّرِّ والخفاء لا يَبلُغُه أحدٌ، فكيف وقد بَلَغَ النَّبيَّ ﷺ؟ وفي هذا الاستفهام كنايةٌ دقيقةٌ عَن تيقُّظها المُفاجئ إلى عِظَم ما صنَعَت، واستحضارِها لِما بَدرَ منها مِن الخَطأ، الذي حجبتها عنه حالَةُ الوُدِّ والصَّفاء مَعَ عائشة رضي الله عنها[1].

استفهامٌ حقيقيٌّ مِن السَّيِّدة حفصة رضي الله عنها

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿أَنۢبَأَكَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغة ﴿أَنۢبَأَكَ﴾، دون (نبَّأك) في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾، فعُدِلَ عن صيغة التكثير (فعَّل) إلى صيغة (أفعل)، في إشارةٍ لطيفةٍ إلى التَّردُّد، الَّذي راوَدَ حفصةَ رضي الله عنها في تعيين المُنبِّئ، أهو الوحيُ أو عائشةُ رضي الله عنها، فناسبَ تركَ التَّشديدِ في الوزن[2].

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة القريب:

الدَّلالةُ على حضور الأمرِ في وجدان حفصة حضورُهُ في الواقع

في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ - أي: الخَبَر - جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَاۖ﴾ دون البعيد، لنُكتةٍ لطيفةٍ؛ إذ دلَّ على استحضارِ الأمرِ في ذِهْنِ المُتكلِّمَةِ، فحَضَرَ في وجدانها حضوره في الواقع، وتصويرُه كأنَّه حاضرٌ بين يديها، فلفظ ﴿هَٰذَاۖ﴾ يُشير إلى أنَّ الأمر صار مَشهودًا، ظاهرًا، معلومًا، وهو أبلغُ في التَّعبير عن المُفاجأة والدَّهشة، وأدلَّ على شِدَّة وقْعِ الخبر في نفس حفصَةَ رضي الله عنها.

عِلَّةُ فَصْلِ جملة: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

استجلابُ انتباهِ المُخاطَب مع الأحداث لجَدارتها بالمُتابعة والاهتمام

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه جوابٌ على سُؤالٍ قَبْلَهُ، ويُراد به استجلابُ انتباه المُخاطَب مع الأحداث لجدارتها بالمُتابعة والاهتمام، وعِظَم ما فيها مِن دروسٍ ومعانٍ، وهذا مِن سَنَنِ النَّظم القُرآنيِّ، أن يُفرِدَ القولَ بالفِعل (قال)؛ إذا كان المقامُ مقامَ جوابٍ يحمِلُ مِن الفائدة ما يقتضي الوقوفَ عنده

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 354، والفرماوي، السَّهل المُفيد: 3/ 464.
(2) المهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 425.

والتَّأمُّلَ في معانيه، لا سيَّما إذا تَضمَّن ذِكْرَ اللّه وأسمائِه الحُسنى، كما في قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ مُضعَّفًا:

التَّضعيفُ يَدُلُّ على المُبالغة والتَّوكيد؛ تنويهًا بِعِظَم الخبر، وتثبيتًا له في النَّفس

عدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن صيغة (أنبأني)، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، فلم يوافِق ما جاء في السؤال: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾، الذي جاء بالهمزة لا التَّضعيف - فيكون ردًّا على سؤالها بالمفردة وصيغتها - بل آثَرَ الفِعلَ المُضعَّف ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ في موضع الإنباء، لِنُكتَةٍ بيانيَّة؛ إذ التَّضعيفُ يدلُّ على المُبالغة والتَّوكيد، فَعَدَلَ إلى (نبَّأ) الذي هو أبلغُ تنبيهًا على تحقيقِه، وقد جاء على هذا الوجه؛ تنويهًا بعِظَم الخَبَر، وتثبيتًا له في النَّفس؛ لما يقتضيه المقامُ من تحقيقِ النَّبأ، ورَفعِه فوق مراتِب الأخبار المُعتادة كونه مِن قِبَل اللّه ﷻ[2].

فائدةُ إسناد فِعْل (الإنْباء) إلى العليم الخبير:

الأنبياءُ صلوات اللّه عليهم وسلامُه لا يعلمون الغيبَ في أخصِّ شؤونهم

في قوله تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ دليلٌ على أنَّ الأنبياء صلواتُ اللّه عليهم وسلامُه لا يعلمون الغيبَ مِن أنفسهم، ولا يُطاعون على ما خفيَ إلّا بإعلامٍ مِن اللّه تعالى، ووَحيٍ مِن لَدُن عَليمٍ خَبيرٍ، فقد أُسنِدَ فِعلُ ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ إلى اللّه ﷻ؛ بيانًا لمصدر العِلْم، وتنزيهًا لِنَفْسِه عَن دعوى عِلم الغَيب، وهو مِن كمال التَّوحيد، وفيه تأكيدٌ على أنَّ عِلْمَ الغيب لا يكون إلّا لِمَن شاء اللّهُ أن يُطلِعَه عَلَيه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: 26 - 27][3]، وفي ذلك ردٌّ على مَن يدَّعي معرفةَ الغيب في شؤون غيره، فإذا كان النبيُّ ﷺ لا يَعلَمُ ما يخصُّ شؤونَه الأُسَريَّة،

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2130.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نبأ).
(3) العثيمين، شرح رياض الصّالحين: 1/ 318.

فكيف له أن يعلَمَ فوق ذلك؟ وكيف لِمَن هو دونَه مِن النّاس في العِلْمِ والطُّهْرِ والإيمانِ أنْ يَعلَم أحوالَ الآخرين؟.

نُكتةُ إيثارِ وصْفَي العَليم الخَبير:

التَّنبيهُ على ما يُناسِب المَقام في الوعظِ والاعتبار

آثرَ النَّظمُ الكَريمُ انتقاءَ ذِكْرِ الوصفَين الكريمَين، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ للتَّنبيهِ على ما يُناسبُ المَقام، فإنَّ السّياقَ يُؤكِّد على أنَّ الأمرَ الذي أُطلِع عليه النَّبيُّ ﷺ كان خَفيًّا عَن الخَلقِ، فناسبَ أن يُنسَب العِلمُ به إلى العليم الخَبيرِ؛ ليتَحقَّق في القلبِ أنَّ اللّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء، ففيهما مِن التَّذكيرِ بما يجبُ أنْ يَعْلَمَه النّاسُ مِن إحاطةِ اللّهِ تعالَى عِلْمًا وخَبَرًا بكلِّ شَيءٍ[1].

نُكتةُ إتْباعِ وصْفِ العليمِ بوَصْفِ الخَبيرِ:

التَّـنـبـيـه على سعة عِلْمِ اللهِ ونفاذِه إلى خفايا النُّفوس

في إتْباعِ وصْفِ العليم بوَصْفِ الخَبيرِ في قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، تنبيهٌ على سعة عِلم اللّه ونفاذه إلى خفايا النُّفوس وبَواطنِ الصُّدور، فإنَّ اللّهَ عَلِمَ دَخيلةَ المُخاطَبةِ وما قصَدَتْه من إفشاءِ السِّرِّ للأُخرَى، ولِما في اسمِ اللّه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ مِن المُبالَغةِ ممّا ليس في ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

غَرَضُ إطلاقِ فِعْلِ ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ عَن التَّقييد:

توجيهُ الأنظارِ إلى الفاعلِ المسؤولِ عنه؛ لإفادةِ عُمومِ جميلِ أفعاله

أُطلِقَ فِعلُ ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ عَن التَّقييد، في قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فلم يَذكُر النَّبيُّ ﷺ الشَّيءَ الذي أُخبِر به، فلم يقل: (نبَّأني العليم الخبير بهذا)؛ لكونه جوابًا عَن قولها: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، وقد اعتُمِدَ في السُّؤالِ عن المُنبِئ، وأوقِعَ المُنبَّأُ به فضْلةً في الكلام، فإنَّ حفصة رضي الله عنها سَألَت عن المُنبِئ (مَن أنبأك)، ولَم تَسأل عَن صِفة الإنباء (ماذا أنبأ)، فصارَ مَحلُّ العناية في السُّؤال مُنصَبًّا على

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 354.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570.

المُخبِر دون الخَبَر، فاقتُصِر في الجواب على تعيين المُنبئ، وزويت الإشارة إلى المُنَبَأ به اكتفاءً بما تقرَّر في ذهن السّامع من السّياق؛ ثمَّ إنَّ في تَرْك النَّبأ إيحاءً بالعموم والتَّفخيم، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ، يقول: ما مِن شَيءٍ أُنبئتُ به إلّا وقد نَبَّأني به العليمُ الخبير، لا يَخفى عليه خافٍ، ولا يَغيب عنه ظاهرٌ ولا باطِنٌ؛ لذلك أُردِفَ بالعليمِ الخَبيرِ، أي: العليمُ بكُلّيّاتِ الأحوالِ، والخبيرُ بجُزئيّاتِها[1].

بلاغةُ التَّذييل بالاسمَيْن الجليلَيْن:

الإشـارةُ إلى الإحـاطـة الـرَّبّـانـيَّـةِ مِـن العناية الخاصَّة والرِّعايةِ التامَّة

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ إشارةٌ بليغةٌ إلى ما أحاط اللّهُ تعالى به نبيَّه ﷺ من عنايةٍ خاصَّةٍ ورعايةٍ تامَّة؛ إذْ ليسَ مِن دَلالَةِ النَّصر والتَّأييد أبلغ مِن أن يُطْلِعَه على ما خَفيَ عنه، ممّا له به تعلُّقٌ وشَأنٌ، كما أنَّ في هذا الإخبار مِن رَبِّ العزَّة تعليمًا لِحَفصة رضي الله عنها ولغيرها أنَّ ما أسرَّهُ النّاس لا يَخفى على مَن يعلَمُ السِّرَّ، فهو العليمُ بجليلِ الأمورِ ودقيقِها، الخبيرُ بما تُكِنُّه الصُّدور وتُخفيه الضَّمائر[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَبَر والنَّبأ:

الـنَّـبأُ خـبرٌ ذو شـأنٍ عـظيـمٍ، والخَبَرُ أعمُّ

النَّبأ: الخبر الذي له شأنٌ عظيمٌ[3]، ومنه اشتقاق النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُخبِرٌ عن اللّه تعالى، ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]، فَوَصَفُه بالعَظَمَة، وصفٌ كاشِفٌ عَن حقيقَتِه.

ولا يُقال للخبر: نبأٌ حتَّى يَتَضَمَّن هذه الأشياء، والصّيغة الفعليَّة للنَّبأ: (أنبأ) أقوى أيضًا منها للخبر (أخْبَرَ)، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١﴾ [الشعراء: 221][4].

(1) الطّيبي، حاشية الطّيبي على الكَشّاف: 15/ 500.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 355.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 529.

الإبداءُ والإظهار:

الإبداءُ هو الإظهارُ الزّائِدُ البَيِّنُ

الإظهارُ مِنَ الظُّهورِ، وهوَ الانكِشافُ والبُروزُ، يُقالُ: ظَهَرَ الشَّيءُ؛ إذا انكَشَفَ، وبَرَزَ[1]، والإبداءُ ظُهورٌ في غايَةِ الشِّدَةِ والوُضوحِ والبَيانِ، فَبَدا الشَيءُ بُدوًّا، أي: ظَهَرَ ظُهورًا بَيِّنًا قَويًّا[2]، فَقَولُنا: (بَدا) يُشيرُ إلى السُّطوعِ في الظُّهورِ، فَفيهِ قَدْرٌ زائِدٌ عَن مُجَرَّدِ الظُّهورِ؛ إذًا هُناكَ ظُهورٌ، وظهورٌ بيِّنٌ ساطِعٌ، فَيَكونُ بَينَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ، فالإظهارُ أعَمُّ مِن الإبداءِ، والإبداءُ أخَصُّ مِن حَيثُ شِدَّةُ الظُّهورِ وقوَّتُه، قال تَعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ [النّور: 31].

(1) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَةِ: (ظهر).

(2) الرّاغب، المفردات: (بَدا)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بدو).

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد إفشاء السِّرِّ التَّوبةُ والإنابةُ

لمّا بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقة إفشاءَ بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ سِرَّه إلى صاحِبَتِها؛ ناسَبَ أن يَتَوجَّه الخِطابُ إليهما عِتابًا رفيقًا، فَأعلَمَهُما أنَّ فِعلَهما ليس بمستقيم، وأنَّ قلبَيهما قد مالا عن الحَقِّ الذي يليقُ بمقامهما، فاستوجبَ ذلك التَّذكيرَ والإنذارَ، فجاء الأَمْرُ الإلهيُّ صريحًا بالتَّوبة في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما صدَرَ عنهما زَلَّةٌ تُطلَب لها الإنابة، وخَطَأٌ يُقوَّم بالرُّجوع والتَّوبة[1]، فهو انتقالٌ مِن ذِكر الحَدَث الخاصِّ بهما، إلى ذِكرِ ما يترتَّب عليه مِن التَّوبة والإنابة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَغَتۡ﴾: (صغو) أصلٌ يَدُلُّ على المَيلِ[2]، صغا يَصغوويَصْغي صُغوًّا، أي: مال، وصَغَتِ النُّجومُ؛ إذا مالت للغروب، وأصغَيْتُ الإناء: أمَلْتُه[3]، يُقال: صغا الرَّجلُ؛ إذا مالَ على أحد شِقَّيْه، أو انحنَى في قَوسِه[4]، والميلُ إمّا أن يكون عن الحَقِّ[5]، أو إلى الحقِّ، كما في هذه الآية الكريمة، أي: (مالت القلوب إلى الحقِّ)، أو (عن الحقِّ)، كما سيأتي في محلِّه.

(1) زاده، حاشية مُحيي الدِّين على تفسير البيضاوي: 8/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صغا).
(3) الرّاغب، المفردات، والجوهري، الصِّحاح: (صغا).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صغو صغى).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 188، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570.

2) ﴿تَظَٰهَرَا﴾: (ظهر) أصلٌ يَدُلُّ على مَعنَيَين: القوَّة والبُروز، يقال: ظَهرَ الشَّيءُ يَظهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهِرٌ؛ إذا انكَشَفَ، وبَرزَ، والأصل فيه كُلِّه: ظَهْرُ الإنسانِ، وجَمعُه: أظهُرٌ وظُهورٌ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كأنَّهُ أسنَدَ ظَهرَهُ إلى ظَهرِكَ[1]، وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، و﴿تَظَٰهَرَا﴾ في الآية أصلُهُ: تتظاهَرا، حُذِفت إحدى تاءَيْهِ تخفيفًا، ومعناه: تَتَعاوَنا عليه[2].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التَّوجيهُ الرَّبّانيُّ الكريمُ لأهلِ بيتِ النُّبوَّة

وَجَّهت الآيةُ الكريمةُ الخِطابَ بالتَّوبة إلى زوجَي النَّبيِّ ﷺ حفصة وعائشةَ رضي الله عنهما؛ تنبيهًا على أنَّ ما صدَرَ عنهُما مِمّا لا يليقُ بحُرمةِ بَيْتِ النُّبوَّة، فقال جَلَّ شأنه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: إنْ ترجِعا إلى الله تعالى - يا حَفْصةُ وعائِشةُ - فقد صدَر منكما ما يوجِبُ التَّوبةَ، فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ، ثُمَّ أعقبَ ذلك بتحذيرٍ شديدٍ، فقال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، أي: وإن تتَعاوَنا على إيذائه أو مُضايقته، فإنَّ الله وليُّه وناصِرُه دونَكما، ومعهُ جبريلُ، وصالحُ المؤمنين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والملائكةُ مِن بعد هؤلاء جميعًا أعوانٌ له وظُهرٌ يَحمونه، ويَقفونَ دونه، ويَذودونَ عنه، فلا يَضُرُّ الرَّسولَ، تعاوُنُكما عليه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فَصْلِ الآية عَن سابِقَتها:

الانتقالُ مِن سَوْقِ القِصَّة وتمهيدِ الحكاية، إلى مقامِ الوَعظ والتَّأديب

لَمّا انقضى صدرُ السّورة بما تَضمَّنه مِن عتابٍ لطيفٍ، وبيانِ ما كان مِن السَّبب المفضي إليه؛ كان مِن المناسب بيانُ ما يجبُ عليهما مِن التَّوبة؛ فالفصلُ محمولٌ على شبهِ كمالِ الاتصال، فكأنَّ سائلًا

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المُفردات: (ظهر).
(2) الثَّعالبي، الجواهر الحِسان: 5/ 451.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 94، 97، 98، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 331، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 299.

سأل: فماذا أعقبَ ذلك؟ فجاءت هذه الآية مفصولةً عَمّا قبلها؛ إيذانًا بأنَّ الكلامَ قد انتقلَ من سَوْقِ القصَّة وتمهيدِ الحكاية، إلى مَقام الوَعظِ والتَّأديب، والخطابِ المقرون بالتَّرغيب والترهيب؛ قصدًا إلى إصلاحِ ما كان، وتدارُكِ ما وقعَ مِن زلل، فكان الاستئنافُ بالخِطاب الجليلِ الذي وجَّهه اللهُ إلى حفصةَ وعائشةَ رضي الله عنهما[1].

فائدَةُ التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرط:

الإثارة والتَّهييج والحثُّ على الإسراع بالتَّوبة

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأسلوب الشَّرط، دون أن يُؤتى بصيغة الأمر الجازم، كما هو الغالب في مواضع التَّكليف، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: 31]، بل جاء هذا التَّعبيرُ هنا على جهةِ التَّشريفِ للمُخاطَبَتَين، والتَّلطُّفِ في الخطاب مَعَ مَن يُرجَى تَأثُّرُه، ويُؤمَّلُ منه القبول، ففي التَّعبير بـ (إنْ) أداة للشَّرط نوعٌ مِن الإثارة والتَّهييج والحَثِّ على الإسراع بالتَّوبة؛ لتُنبِّهَ القلوبَ الغافلَةَ، وتُثيرَ في النُّفوس رهبةً ورجاءً، يؤيِّده، ويقوّيه تقديمُ التَّرغيب فيها على التَّحذير مِن العدول عنها إلى التَّظاهُرِ والمُكايَدات، بجانِب ما فيه مِن إقامةِ المُخاطَبتين بَيْنَ الخوف والرَّجاء، ودَفعِهِما إلى النَّظر في الحال والمآل، فتُبادران إلى التَّوبة قبل فواتِ الأوان؛ لتستمرّا على التَّوبة، وتبتعدا عَن كُلِّ ما يتناقض معها، فلا تعودا إلى ما كان منهما ولا إلى غيره مَرَّةً أُخرى[2].

دلالة استعمال أداة ﴿إِن﴾:

استعمالُ أداة ﴿إِن﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ دون (إذا) المقتضيةِ القَطْعَ بوقوع التَّوبة؛ لبيان أنَّ توبَتَهما صادرةٌ عنهما ضِمنَ إطار الاجتهاد البشريِّ، لا العصمة الأكيدة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 251، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2137.

تعيينُ المخاطَبتين بالألفاظ الصَّريحة والضِّمنيَّة

تعيينُ المقصودِ بضميرِ التَّثنيَة:

الخطابُ بالتَّثنية في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، مقصودٌ به الزَّوجتان الكريمتان: المُذيعةُ والمُذاعُ إليها، فأمّا الأولى؛ فالإشارةُ إليها ظاهرةٌ، دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، فهي التي أسَرَّ إليها النبيُّ ﷺ بعضًا مِن حديثه، ثُمَّ أذاعَتْه، فهي المُنَبِّئة، وقد صرَّح النَّصُّ بالفِعل المُسنَد إليها، وأمّا الثّانية - وهي المنبَّأة - فلم يُصرِّح باسمِها، ولكن فِعل ﴿نَبَّأَتْ﴾ يقتضيها من لزوم معناه؛ إذ لا إنباءَ إلّا بمُخبَرٍ له، ولا إفشاءَ إلّا في سَمْع من يُسرُّ إليه، فكان وجودُها مُضمَّنًا في السّياق، وإن لم يُذكَر تصريحًا، وفي هذا مِن التَّلطُّف في العتاب ما لا يخفى، ثُمَّ إنَّ التَّوبة لم تُطلب من المُنبِّئَة وحدَها، بل شُرِكت فيها المُنبَّأة؛ إذْ كانت شريكةً في سَماع السِّرِّ، وكان عليها أنْ تنهاها عن ذلك، أو أنْ تُخبرَ زوجَها بما أذاعَتْه عنه ضَرَّتُها، فكانتا معًا موضعَ العتاب، ومُستَحِقَّتَيْن للإنابة والتَّوبة، فصَدَرَ الخطابُ إليهما تثنيةً؛ تأديبًا وتعليمًا، وعَدلًا ورَحمةً[1].

تعظيمٌ لشأن التَّوبة، وإشعارٌ بأنَّها فرض السّاعة لا يُؤَخَّر

سِرُّ تقديم ذِكرِ الحثِّ على التَّوبةِ على التَّظاهُر:

افتتح الحقُّ سُبحانه المقامَ بتقديم الرَّغبة بذِكر الحثِّ على التَّوبة في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، على ذكر التَّظاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾؛ لسَبْقِ التَّلَطُّف على التَّهديد، على سَنَن الذِّكر الحكيم؛ إذ يُقدِّمُ ما تَأْلَفُهُ النُّفوس، وتطمئنُّ له القلوب، ليفتحَ بها بابَ الإقبال، ويُمهِّدَ السَّبيلَ لقبول التَّوجيه، فَصُدِّر الخطابُ بنداء التَّوبة، ووُعِد بالقبول؛ إنْ هُما تابَتا؛ ترغيبًا في الإنابة، وتحَنُّنًا في الدَّعوة، ثُمَّ أعقبَه بالتَّحذير البالغ، والوعيد الصّادق؛ إنْ عدَلَتا عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.

التَّوبة إلى الاستمرار في التَّظاهر والمُكايدة[1]، ولأنَّ تقديمَ التَّوبَةِ هو المأمولُ منهما والمرجوُّ من أمثالهما.

بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

التَّشريفُ لرسول الله بِعِتابِ نِسائِه لأجْلِه

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عَن الغَيبة في الآياتِ السّابقةِ إلى الخطاب في هذه الآية، وفي هذا مِن المُبالغة في العتاب ما فيه؛ لأنَّ مَن يُعاتِبُ؛ يتحاشى مواجهة المعاتَب أوَّلًا، حتى لا يَنفِر منه، فإذا قَبِل منه، وبَدَت عليه أمارات الاستجابة؛ توجَّه إليه بالحديث المُباشِر، وعاتبَهُ بما يُريد، فهو أبلغُ في معاتبتهما[2].

كما أنَّ في الالتفات إليهما ضَرْبًا مِن التَّشريف لِرَسول الله بالإقبال على نسائه بالعتاب لأجْله؛ قيامًا عنه بما رُبَّما أزعَجَه لو باشَرَهُ؛ حِفظًا لخاطِرِه الشَّريفِ مِمّا قد يُغَيِّرُه[3].

بلاغةُ حذف جواب الشَّرط:

المجازُ بالحذفِ ينقل الذِّهن مِن التَّقدير إلى الاعتبار

حُذِف جوابُ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، للإيجاز، وتوجيهًا للذِّهن إلى العِبرة، وتقدير المحذوف: (فذلك واجبٌ عليكما)، أو: (فَيَتُبِ الله عليكما)، أو: (كان خيرًا لكما)، غيرَ أنَّ الجوابَ لم يُصرَّح به، بل دلَّ عليه ما بعدَهُ مِن قوله: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾؛ إذْ كان ذِكْرُ ميلِ القلوب في موضع تعليلٍ للحثِّ على التوبة، وتنبيهٍ على الموجب لها، وفي هذا الحذف مِن البلاغة ما لا يخفى، فإنَّه أوقعُ في النَّفْس، وأبلغُ في العتاب؛ إذ جُعل القارئُ أو السامعُ يتفطَّن إلى الجواب مِن سياقِ الخطاب، كأنَّ البيان يقول: (إن كان منكما توبةٌ؛ فقد كان ذنبٌ استوجَبَها)، وأيُّ ذنبٍ أعظمُ من صَغْوِ القلوب عن محبوب النَّبيِّ ﷺ[4].

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2134.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 566، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 570، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 471.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 188.

(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 6/ 335، والعكبري، التِّبيان في إعراب القرآن: 1/ 373، وملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 180.

الفاءُ تعليليَّةٌ؛ لِبَيان نتيجةِ إفشاء السِّرِّ من مَيل القلوب

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، ليست فاءً رابطةً فَحَسْب، بل هي فاءُ تعليل، جيء بها؛ لبيان أنَّ ميل القلوب عن مقتضى الأدَبِ مع النَّبي ﷺ هو العِلَّة الموجبةُ للتَّوبة، كما يقول القائل: اعبُد رَبَّك، فالعبادة حَقٌّ؛ فالجزاءُ معقودٌ على عِلَّته، ومعنى الكلام: (إنْ تتوبا إلى اللّه؛ فذلك أولى بكما وأوجَبُ؛ لأنَّ قلوبَكما قد زاغت، ومالت عن محبَّة ما يُحبُّه النبيُّ، وكراهةِ ما يَكرَهُه)[1].

تـقـريـبُ وقـوعِ المـيـل إلى المسارعة بالتَّوبة

نُكتةُ دخولِ حَرفِ التَّحقيق:

أفاد حرفُ (قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ التَّوكيدَ والتَّحقيقَ، وتَقَرُّبَ الماضي مِن الحال[2]، كأنَّ ذلك المَيلَ لم يكن شيئًا قد طالَ عَهدُه، وبَعُدَ، وفيه إشعارٌ بقُرب عهدِ الوقوع، فجاءت (قد)؛ لتُحَقِّقَ وقوعَ المَيل، وتُقرِّبَ زَمَنَه؛ ليكونَ أدعَى للتَّوبة، وأقرَبَ للتَّأثُّر؛ إذِ الذَّنبُ إذا استُحضِر قُربُه في النَّفس؛ عَظُم وقعُه، وسهُلَ رُجوعُ القلبِ منه.

الـصَّـغـوُ مَـيـلُ القلوبِ

بلاغةُ التَّعبير بمفردة ﴿صَغَتۡ﴾:

معنى (صغت): مالت، يُقال: صَغَى إليه يَصْغي صَغْوًا وصُغوًّا وصغًا: مال، قال تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، أي: لِتَميل، واختير ﴿صَغَتۡ﴾ دون (مالت)، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، باعتبار تعلُّقها بالقُلوب، فإنَّ (صغى) غالبًا ما يُستَعمل مع الأفئدة والقلوب في القرآن الكريم، وهو مُتَعَلِّقٌ بالميل المرتبط بالوجدانيّات.

بلاغةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ فِعل ﴿صَغَتۡ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ فِعل ﴿صَغَتۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، فلم يقل: (فقد صغت قلوبكما عن الحق، أو إلى

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 52، والمظهري، التَّفسير المظهري: 9/ 340.
(2) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 14/ 10.

احتمالُ أن يكون المَيلُ عن الحقِّ وإلى الحقِّ

الحق)؛ وذلك لاحتمال الفِعل للمُتَعَلِّقَين، وقد حمل جمهورُ المُفسِّرين فعل (صغى) على الميل عن الحَقِّ؛ إذْ مال قلباهُما عَمّا وجَبَ مِن كتمان السِّرِّ، وإكرام المصطفى ﷺ، لا سيَّما فيما تعلَّق بخيارٍ اختاره لنفسه، فأحبّا ما كرِه، وكرِها ما أحبَّ، فكان ذلك ميلًا في المحبَّة، وإن لم يكن عن سوء نيَّة، فاستحقَّ التَّقويمَ والعتاب[1].

وذهب بعضُ أهل التَّحقيق إلى أنَّ هذا الميلَ هو ميلٌ إلى التوبة، وإقرارٌ بالذَّنب، واعترافٌ بالخطأ، كما تميل النَّفْسُ إلى الخير بعد زللها[2]، وهو توجيهٌ لطيفٌ بديعٌ؛ إذ الميل المُترتِّب على التَّوبة هو ميلٌ إلى الحقِّ، ويُقوّي هذا الوجهَ المقابَلةُ، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، وهو الأليقُ بأُمَّهات المؤمنين رضوان الله عليهنَّ.

بلاغةُ الإسنادِ بَينَ المجاز والحقيقة:

الزَّلَلُ إنَّما يقع مِن الباطن لا مِن فلتات الظّاهر

في إسنادِ فِعل الصَّغو إلى القلوب ومجيءِ القلوبِ فاعلًا له، في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، يحتمل أن يكون مِن باب الحقيقة، ويحتمل أن يكون من قبيل الاستعارة المَكنيَّة التي شُبِّه فيها القلبُ بإنسانٍ يختار، ويوازن بين الأمور، فيميل إلى ما فيه الخير والصلاح، ويبتعد عَمّا فيه الشَّرُّ والفساد، وكلا الاحتمالين يُبرز ما للقلب مِن تأثيرٍ عظيم على كُلِّ أعضاءِ البَدَن، وأنَّه المتحكِّمُ في أفعال البشر؛ لقول النَّبي ﷺ: "ألا وإنَّ في الجَسَد مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهيَ القَلْبُ"[3]، ففي إسناد الصَّغو إليه تعظيمٌ لشأنه، وتنبيهٌ على خطورته، وإيماءٌ إلى أنَّ الزَّلَلَ إنَّما يقع مِن اختلال الباطن، لا مِن مُجرَّد فَلتَةِ الظّاهر[4].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 188، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 570.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 356.

(3) الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لدينه، برقم: (52)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب المساقاة، بابُ أخْذِ الحَلالِ وتَرْكِ الشُّبُهاتِ: برقم: (1599).

(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2136.

جَمعُ لفظِ القلوب لجمع أحوالِه وتعظيمِ شأنِه

بلاغةُ جَمعِ القلوب دون تثنيَتِها:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ تثنيةِ الفاعل ﴿قُلُوبُكُمَاۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، مع سبقِ تثنية الخِطاب ﴿إِن تَتُوبَآ﴾، ولحاقِ ذلك: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾؛ وذلك لتعظيم شأن القلب؛ إذ هو موضعُ القبول والرَّدِّ، ومَعدِنُ التَّوبةِ والإنابة، فوُضِع الجَمعُ مَوضِعَ التَّثنية، كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء: 78]، وإنَّما هو داود وسليمان ﷺ، وكذلك فإنَّ المضافَ إليه مُثنّى، وتكرَهُ العرَبُ أن تَجْمَعَ بين تثنيَتين، فَتَصرِفُ الأوَّل منهما إلى لفظِ الجمع؛ لأنَّ لفظَ الجمعِ أخفُّ؛ لأنَّه أشبه بالواحد[1]، "وفي جَمْعِ القلوب جَمْعَ كَثْرَةٍ تأكيدٌ لِمَيل القَلب، بكثرةِ المَعارف، وبما أفادَهُ العتاب مِن الحياء، فصارتا جديرتين بالمُبادرة إلى التَّوبة متأهِّلتَين لها غاية التَّأهُّل"[2]، ويحتملُ الجمعُ أن يكون باعتبار أحوال القلب، أي: فقد مالت أحوالُ قلبَيكُما؛ فأطلقَ المَحَلَّ، وأراد الحالَّ فيه على سبيل المجاز المرسَلِ للعلاقة المَحَلِّيَّة.

سُموُّ مقامِ النُّبوَّة، وشرفُ منزلته عند رَبِّه؛ إنذارًا لِمَن هَمَّ بمُخالفتِه

بلاغة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

التَّعبيرُ بالجُملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، يَدُلُّ على سُموِّ مقام النُّبوَّة، وشَرَفِ منزلته عند رَبِّه، وإنذارًا لِمَن هَمَّ بمخالفته، وإن كان مِن أقرب الخلق إليه، فكانت (إن) أداةَ تعليق، و﴿تَظَٰهَرَا﴾ فعلَ الشَّرط، والجُملةُ المقرونةُ بالفاء دليلُ الجَواب، وسَبَبٌ أُقيم مَقامَه، والتَّقديرُ: (إن تَظاهَرا عليه؛ فلن يعدم مَن يُظاهِرُه اللهُ والملائكةُ وصُلحاءُ المؤمنين)، ولم يُذكر الجوابُ صراحةً، بل أُقيمَ الدَّليلُ مقامه، فجيء بجملةٍ اسميَّةٍ مُؤكَّدة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾، ويجوز أن تكون هي بنفسها الجوابَ كنايةً عَن التَّهديد[3].

---

(1) المجاشعي، النُّكت: 1/ 501.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 188.

(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 225، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 349.

بديعُ المُقابلة بين التَّوبة والتَّظاهر:

إظهارُ التَّفاوت بَيْنَ المقامَين للحثِّ على سلوكِ أشرفِهِما

مِن بدائع النَّظم القرآنيِّ في هذه الآية الكريمة ما جاء على سَنَن المُقابلة البليغة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله عَقِبَه: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، فقد قوبلَ بَيْنَ التَّوبة والتَّظاهُر، تَقابُلَ الضِّدَّين؛ لإظهار تَفاوت المَقامَين، وتَبايُن الطَّريقين، فجُعِل لكلِّ طَرَفٍ شرطٌ يُبنَى عليه الجزاء؛ ليقع في النَّفس وقوعَ البيان والتَّبيين، ويستقرَّ في القلب استقرارَ اليقين، فإنَّ المُقابلة مِن أبلَغِ أساليب الخطاب؛ إذ تُظهِرُ حُسنَ الحَسَنِ بمُقارنته لقُبْحِ القبيح، وتزيدُ الحَقَّ إشراقًا بإزاء الباطل(1).

نُكتة استعمال أداة (إن) دون (إذا):

العبادُ مُخَيَّرون في أفعالِهم تخييرًا مطلقًا

استعملَ النَّظمُ الكَريمُ أداة الشَّرط (إن)، في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾، دون (إذا) لِنُكتَةٍ بَليغةٍ؛ إذ أداة (إنْ) موضوعةٌ في الأصل لِما هو مظنَّةُ الوقوع، فجيءَ بها هنا؛ دفعًا لتوهُّم تحقُّقِ التَّظاهُر، واستبعادًا لِوُقوعه بَعد ما سَبَق مِن التَّرغيب في التَّوبة، والوعدِ بالمثوبة، والتَّلويح بِلُطف العِتاب؛ ففي هذا التَّعبيرِ الشَّريفِ إشارَةٌ إلى أنَّ التَّظاهُر قد صار مَظِنَّةً لا ضرورةً، واحتمالًا لا يقينًا، فناسبَ التَّعبير بما يَدُلُّ على الشَّكِّ؛ لتبقى النَّفسُ الموعوظةُ مُعلَّقةً بَيْنَ الخَوفِ والرَّجاء(2).

بلاغة الاستعارة في فعل ﴿تَظَٰهَرَا﴾:

بيانُ قوَّةِ المُساعدة وشِدَّتِها، وتصويرُ كيفيَّة حصولها

المُرادُ بالتَّظاهُرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾: التَّعاونُ والتَّآزُرُ، يُقال: ظاهرَ فلانٌ فلانًا؛ إذا أعانَهُ على ما يُريده، وأصْلُه مِن الظَّهر؛ لأنَّ مَن يُعينُ غيرَه، فكأنَّه يَشُدُّ ظهرَه؛ إذِ الظَّهرُ أقوى عُضوٍ في الجسم، والمُعينُ أو المساعد كأنَّه يشُدُّ بِظَهره ظَهَرَ مَن

(1) الطّوفي، الإشارات الإلهية: 1/ 646، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2138.

(2) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 157، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 189.

يُعينه، ويُعاونه[1]، فجُعِل التَّعاون بينهما كأنَّه تثبيتٌ وتدعيمٌ، يُشَبَّه فيه المُعينُ قرينَه بِمَن يُسنِدُ ظَهرَه إلى ظَهرِ أخيه، فاستُعيرَ الفِعلُ؛ لإفادة معنى المعاضدةِ القويَّة، لا مجرَّد الاتِّفاق، وفي هذا تصويرٌ لِشدَّة المُؤازرة، وقوَّةِ المساندة بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعية؛ للدَّلالة على قوَّة المُساعدة وشدَّتها، ولتصوير كيفيَّة حصولها.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

ولايةُ الله لنبيِّه عِلَّةُ الأمنِ مِن المُتظاهرينَ عليه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ داخلةٌ في جواب الشَّرط، جاءت لِرَبطِ الجملةِ بما قَبلَها مِن شَرطٍ مُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، والتَّقدير: (وإن تَظاهَرا، وتَعاوَنا على إفشاء سِرِّه ﷺ، وإظهارِ ما يكرَهُه، فلن يعدم مَن يُظاهرُه، ويُعاونُه؛ لأنَّ اللّه ﷻ ناصِرُه، وجِبْريلُ رئيسُ الملائكة المقرَّبين قرينُه ورفيقُه)، فجاءت الفاء؛ لتُبيِّن أنَّ ولاية اللّه لنبيِّه ﷺ، هي عِلَّة الأمن مِن المُتظاهرين عليه، وأنَّ مقامهُ محفوظٌ بِعَين العنايةِ الإلهيَّة، وإن اجتمعَ عليه مَن اجتمع[2].

وفي حَذفِ جواب الشَّرطِ نَوعٌ مِن التَّهويل الذي يَدفَعُ النَّفسَ إلى أن تَذهَب فيه كلَّ مذهب، وبه يتحقَّقُ المقصودُ مِن البيان[3].

فائدةُ التَّعبير باسم الجلالة:

جاء التَّعبيرُ باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾؛ لتربية المَهابة، ولأنَّه أدْخَلُ في تعظيم الذّات، وأهيَبُ في النُّفوس عند الخطاب، لا سيَّما في مقام التَّرهيب.

فائدةُ تَتابُعِ المُؤَكِّداتِ وتَعَدُّدِها:

إثباتُ مضمونِ الكلامِ وتقريرُه في نَفسِ المُخاطَب

التَّأكيدُ بـ(إنَّ) والجُملةِ الاسميَّة وتوسيطِ الضَّميرِ بَين اسم الجلالة والخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾؛ لإثباتِ

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 471.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 466.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 8/ 44، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 358.

مضمونِ الكلامِ في نَفسِ السّامِعِ، وتقريرِه في قَلبِ المُخاطَبِ؛ إذْ نُزِّل المُخاطَبُ مَنزلَةَ مَن يُداخِل قَلْبَه شَكٌّ في النُّصرة، فاقتضى المقامُ كثرةَ التَّوكيد، وفيه مِن التَّخويف ما لا يخفى[1].

بلاغةُ القَصرِ وغَرَضُه:

الإيــذانُ بـأنَّ نُصرتَهُ ﷺ هي لله تعالى وحدَه

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، جاء على أسلوب القصر، بتوسيطِ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بينَ المبتدأِ والخَبرِ، وهو مِن أبلَغِ أساليبِ التَّخصيص، وأحكَمِها في إيراد المعنى على جهةِ التَّثبيت والتَّوكيد؛ إذْ دَلَّ على حَصرِ الوِلايةِ في جنابِ اللّهِ تعالى؛ نفيًا لما سواه، وإثباتًا له وحدَه، وسيقَ القصرُ - على تقدير وقوعِ الشَّرط- إعلامًا للمخاطَبتَين، وتنبيهًا لسامعي الآية، بأنَّ ولاية النَّبي ﷺ ليست بأيدي أحدٍ مِن الخَلقِ، فلا تُنالُ بمُظاهَرَةٍ، ولا تُنتزَع بتآزُرٍ، وإنَّما هي للّه وحدَه، ناصرُه دونكم، وحامي جنابِه دون سواكم، ففيها إيذانٌ جليلٌ بأنَّ نُصرته صلوات اللّه عليه عزيمةٌ مِن عزائمِ الرُّبوبيَّة، وتوَلٍّ مِن حضرةِ الألوهيَّة، لا يُنيبُ فيه أحدًا[2].

دلالةُ إضافة لفظِ (مولى) إلى الضَّمير:

التَّـنـبـيـهُ على إحـاطـةِ النَّـبـيِّ بالعنايةِ الإلهيَّةِ والرِّعايةِ الرَّبّانيَّة

أُضيفَ لفظُ ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، إلى الضَّميرِ الغائبِ العائدِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ تنبيهًا على ما أُحيط به مِن عنايةٍ إلهيَّةٍ، ورعايةٍ رَبّانيَّةٍ، تحفَظُهُ في مَغيبه، وتَكلَؤُه في حُضورِه، وتدفَعُ عنه تظاهُرَ المُتظاهِرين، وإنْ دَبَّروه خفيةً، وفي صيغة الغَيبة مِن الأدَب ما يُنادي على سُموِّ المنزلة، وفي إضافةِ (المولى) إلى ضميره الشَّريفِ ما يدُلُّ على القُربِ والولاية[3].

بلاغةُ التَّتميم في المعطوفات:

بَعدَ ذِكرِ ولايةِ اللّه لنبيِّه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾، عَطَفَ عليها

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2138.
(2) السّيرافي، التَّقريب في التَّفسير: 4/ 408.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 1382.

ولايةُ الله تعالى أصْلُ كلِّ ولايةٍ، ولا نُصرة بدون نُصرتِهِ

قولَه: ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تتميمًا وإعلامًا بأنَّ ولايةَ اللّٰه هي الأصلُ في النُّصرة، ومناطُ القوَّة، وأمّا ما سواها مِن تأييدِ جبريلَ وصالحِ المؤمنين والملائكة؛ فزيادةٌ في الإكرام، وتتميمٌ لمعاني التَّطمينِ والتَّثبيتِ، وتطييبٌ لخواطر المؤمنين، وتعظيمٌ لجانب النَّبيِّ الكريم ﷺ، وإظهارٌ للآياتِ البيِّنات، كما في يوم بدرٍ وحُنين، قال اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 126][1].

غرَضُ تقديم ذِكرِ جبريل عليه السلام على الملائكة:

التَّنويهُ بِشأنِه، والتَّعظيمُ لِقَدرِه، والتَّذكيرُ بتكرار نزولِهِ بالوحي

قُدِّم ذِكرُ جبريل عليه السلام على سائر الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ لما لهُ عليه السلام من مزيد الفضل، وعظيمِ الشَّرَف، وسامِق المنزلة عند رَبِّه؛ إذْ هو سيِّدُ الملائكة، وأمينُ الوحي، والمبلِّغُ عَن رَبِّ العالمين إلى صفوةِ خَلقِه مِن المرسلين، فكان حقيقًا بالتَّصدير والتَّقديم؛ تنويهًا بشأنه، وتعظيمًا لِقَدْرِه، وبيانًا لِمقامِه عند أُمَّهات المؤمنين خاصَّةً؛ لِمعرفتهنَّ له بمشاهدة تكرارِ نُزولِه؛ إذ هو الذي ما انفكَّ عن بيتِ النبوَّة، يحملُ آياتِ الهُدى، ويُبَلِّغُ شرائعَ المولى[2].

نُكتة عطفِ صالحِ المؤمنين على جبريل عليه السلام:

التَّنويهُ بشأن عِبادِ الله الصّالحين بأن يأخُذوا حُكمَ جبريل في الولاية والنُّصرَة

عُطِفَ صالحُ المؤمنين على جبريل، في قوله تعالى: ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تنويهًا بشَأنِ عباده الصّالحين مِن أهلِ الإيمان، وإشارةً إلى عظيمِ مَنزِلَتِهم؛ إذْ شُرِّفوا بالاقتران في الذِّكر معَ روح القُدُس، وجُعِلوا في عِداد مَن يُناصِرُ رَسولَ اللّٰه ﷺ؛ ذَبًّا عن مقامه، وإعزازًا لشأنه، وفي ذلك إلماحٌ إلى أنَّ اللّٰه سبحانه قد أحاط نبيَّه بأجنادٍ مِن الظَّهير الجَليِّ (المشاهد)

---

(1) الجمل، الفتوحات الإلهية: 8/ 44.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 9/ 343، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 472.

والظَّهيرِ الخَفيِّ (غير المشاهد)، فاجتمع له من النُّصرة ما تُطالعه العَين، وما تقصر دونه الأبصار؛ ليكون في مأمنٍ مِن كيد الكائدين، ظاهرِه وخَفيِّه[1].

دلالةُ الإضافة وبراعتُها، بين التَّصريح والتَّلويح:

المــؤمــنــون الصّالحون هُم أرسَخُ الخَلْقِ في نُصرةِ سيِّد الخَلْقِ

أُضيف لفظُ (صالح) إلى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾؛ ليكون قولُه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، جامعًا بين صفتين عظيمتين وهما الصَّلاحُ والإيمانُ، والإضافةُ مِن باب إضافة الصِّفَةِ إلى موصوفها، أي: (المؤمنون الصّالحون)، ولم يُطلَق الوصفُ على عموم أهلِ الإيمان؛ تنبيهًا على أنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ، والشَّرَفَ كُلَّ الشَّرفِ، إنَّما هو لِمَن جَمَعَ بَين شَرفِ الانتساب إلى الإيمان، وكمالِ التَّحَلّي بالصَّلاحِ، فَخَصَّهم بهذا الوصفِ الشَّريفِ في هذا المقام؛ إذ هو موطِنُ المعونة على أمر الدّين، وموضِعُ التَّناصر على نُصرة الحقِّ، ولا يَنهَض بأعباء ذلك إلّا من صحَّ إيمانه، وزَكَى عَمَلُه، وخَلُصَت نيَّتُه، فَهُم الصّالِحون مِن بَيْنِ المؤمنين، الذين تصلح بهم الجماعة، وتقوم بهم الحُجَّة، ويشتدُّ بهم أَزْرُ الرِّسالة، ويُستعان بهم في مواقع البلاء، ومواطن الابتلاء[2].

ويحتمل قولُه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أن يكون لعامَّة المؤمنين الصّالحين، مِمَّن صدق إيمانُهم، وحسُنَ عملُهم، ويحتمل أن يكون المراد به الشَّيخَين، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ووجهُ تَخصيصِهما بالذِّكر أنَّ الخطاب موَجَّهٌ إلى بِنتَيهما عائشة وحفصة، فكان في التَّلويح بذكرِهما زجرٌ بليغٌ، وتهديدٌ رفيعٌ، كأنَّما قيل: (إن تظاهرتُما عليه، فاعلما أنَّ أبويكما لا يكونان معكما، بل هما مِن أنصاره وأوليائه، لا يُسلِمان رسولَ اللّه ﷺ، ولا يَرضَيان أذاه)، والحمل على العموم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 85.

أظهرُ وأبينُ، والحمل على التَّلويحِ أخفى وأدَقُّ، ولكلٍّ منهما أثَرُه في الزَّجر، ورائِحَتُه في الفهم(1).

فائدة توسيط ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ بين جبريل والملائكة:

نُـصـرةُ سَـيِّـد الـخَـلـقِ مرتبطٌ بالسُّنَن الكونيَّة والـعـطـايـا الرَّبَّانيَّة

وُسِّط قوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، بَيْنَ (جبريل و(الملائكة) في الذِّكر؛ لأنَّهم ظهيرٌ للنَّبيِّ ﷺ، كما أنَّ جبريلَ ظَهيرٌ، غيرَ أنَّ مُظاهرَتَه عليه السلام مظاهرةٌ معنويَّةٌ بالتَّأييد مِن عند الله، وأمّا الصّالحون مِن المؤمنين؛ فَمُظاهرَتُهم له ﷺ في تدبير شؤون الرِّسالة، ونَشرِ الشَّريعة، وإقامةِ أحكام الدّين بَيْنَ النّاس إلى قيام السّاعة، فَهُم ظهيرٌ في ظاهر الأرض، كما أنَّ أولئك ظهيرٌ مِن عالَم الغيب(2)، فَذِكرُ النّاصِرين في عالَم الشَّهادة بَين النّاصِرين في عالَم الغيب، من التَّعليم البديع، بأنَّ السُّنَنَ الكونيَّة أصْلٌ في قيام الحياة الدُّنيَويَّة، وأنَّ المُسَبَّبات إنَّما تنشأ عن أسبابها، لا عن أمنيّاتها، وأنَّ العطايا الرَّبّانيَّة لا تُعارض العملَ بالسُّنَنِ الكَونيَّة.

بلاغةُ التَّعريض ودلالةُ التَّلميح:

الـتَّـأديـبُ بالتَّعريض مِن سُنن البلغاء في خطاب العقلاء

ذكَرَ بعضُ علماء البيان أنَّ في تخصيص الصّالح مِن المؤمنين دون عمومهم، إشارةً لطيفةً وتعريضًا دقيقًا، يُفهَم منه أنَّ المخاطبتَين - على تقدير وقوع الشَّرْط - ليستا من الصّالحين؛ إن تظاهرَتا، وفي ذلك تلويحٌ لا تصريحٌ، وزجرٌ في صورة نُصحٍ على سنن البلغاء في التَّأديب بالتَّعريض دون التَّصريح(3).

نُكتة العَطْفِ بِذِكر الملائكة على ما تقدَّم:

ترفيعُ قَدْر النَّبيِّ المـصـطـفى ﷺ بَينَ أهل الأرض والسَّماء

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عَطْفٌ على ما قَبْلَه، وفيه مزيدُ تعظيمٍ لِشَأنِ النُّصرة، بإظهارِ كثرة النّاصرين وتعدُّد صفوف المؤازرة، وفي هذا العطفِ الشَّريفِ ترفيعٌ لِقَدْر النَّبيِّ المصطفى ﷺ،

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 16، والنَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 14/ 482.
(2) المنصوري، المقتطف: 5/ 275، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 267.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.

وتنويهٌ بمحبَّة أهل السماوات له؛ إذ لم يقصُر اللّه نُصرَته على جُند الأرض، بل ضَمَّ إليهم جُند السَّماء؛ ليُعلم أنَّ نُصرَته ﷺ مُؤَيَّدةٌ بالعناية الإلهيَّة مِن فَوق سبع سماوات، وأنَّ ملائكةَ الرَّحمن شهِدوا له بالظَّهير، فكان ذلك أعظمَ في الشَّأن، وأبلغَ في البرهان، وأجلى في تمكين مقامه بين أهل الأرض والسَّماء[1].

فائدَةُ تعدُّد المعطوفات وتنوُّعها:

إنذارُ المتظاهرين عـلى الـنَّـبـيِّ الكَريم

تعدُّدُ المعطوفاتِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، مِن شَأنِه أن يُلقيَ في قُلوب المُخاطبَتَين ما يصدُّهم عن مُجرَّد التَّوهُّم بالتَّظاهر على النَّبي الكريم ﷺ؛ لكونهما مِن أحبِّ زوجاته إليه، كما أنَّ في جمع هذه المعطوفات إفزاعًا بعد إفزاعٍ، وإنذارًا بعد إنذارٍ؛ لتُقطَعَ بذلك ألْسُنُ المنافقين عن الطَّمَعِ في إضعاف أمر النُّبوَّة؛ إذ تكفي في نُصرته ولايةُ اللّه ﷻ، ومع هذا فقد زيد عليها جبريلُ الأمين، ثُمَّ خُلَّصُ المؤمنين، ثم جُند السَّماء مِن الملائكة أجمعين، فإنَّ مَن ظاهره اللّهُ وملائكتُه وجبريلُ وصالِحُ المؤمنين، لا تُرجى عليه يدُ بَشَرٍ، ولا يُظَنُّ به وهَن، وفي ذلك قطعٌ لأطماعِ مَن ظَنَّ أنَّ النَّبي ﷺ قد تُشغِلُه شؤونُ الأزواجِ عن مقامِ التَّبليغ[2].

فائدةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿بَعۡدَ﴾:

البعديَّةُ بعديَّةُ رُتبـةٍ ومـقـامٍ، قُصِدَ بها تفخيمُ شـأن مُـظـاهـرة الملائكة

يحتمل المرادُ بالبعديَّة في قَوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ احتمالات مُتَعَدِّدَة، فإمّا أن تُحملَ على بَعديَّة الرُّتبة والمقام لا البَعديَّة الزَّمانيَّة، قُصِدَ بها تفخيمُ شَأنِ مُظاهرة الملائكة، وتعظيمُ منزلتهم في النُّصرة، حتَّى لا يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ تَأخُّرَ ذِكرِهم دليلٌ على تأخُّر فَضلِهم، وبيانُ ذلك أنَّ مُظاهرة الملائكة، وهم جُند

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 358.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 349، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 158، والزُّحيلي، التَّفسير المُنير: 28/ 309.

السَّماوات، أعظمُ وقعًا وأشَدُّ بأسًا مِن مُظاهرةِ صالِح المؤمنين، كما أنَّ جمْعَهُم مع جبريل أتمُّ نُصرَةً، وأكملُ ظهيرًا مِن نُصرَتِه وحدَه؛ وفي هذا التَّعبيرِ الجليلِ مِن التَّيئيس لِمَن يَهُمُّ بالمكايدة، والتفزيع لِمَن سَوَّلَت له نفسُه المعارَضة، ما يليقُ بجلال المقام؛ إذ لا يُتصوَّر أن يُنال مِن نَبيٍّ هذه نُصرَتُه، ومَن وراءَهُ هؤلاء الظُّهَراء[1].

ويحتمل أن تكون البَعديَّةُ هُنا بَعديَّةً في الذِّكْرِ لا في الزَّمان، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: 13]، أي: مع ذلك، وفائدةُ إيراد الملائكة في الذِّكر بعد ذِكْرِ اللّٰه وجبريل وصالح المؤمنين، أنَّ أولئك قد ظهرت آثارُ تأييدهم بيِّنةً للعيان، فاللّٰه ﷻ يُؤيِّده بالوحي، وجبريلُ أمينٌ عليه، والمؤمنون يُجاهدون بَيْنَ يديه، فجاء ذِكرُ الملائكةِ لتذكير المخاطَبتَين بعظيم أثرهم، وإن خفيَ عن الأبصار، كإمدادهم يوم بدر، واستغفارهم له في السَّماوات العُلا، وهو تأييدٌ باطِنٌ، فلا يُتَوَهَّمَنَّ مِن تأخير ذِكرِهم أنَّهم أدنى مرتبةً مِن جبريل أو مِن صالح المؤمنين[2].

رفْعُ قَدرِ الملائكة مِن الإدماجِ الخَفيِّ في سياق نصرة النبيّ

وقد يُحمل تأخيرُ ذِكر مظاهرة الملائكة ﵈ على وجهٍ مِن وجوه البلاغة، وهو دفعُ ما قد يُفهَم مِن التَّقديم على أنَّه تفضيلٌ في المنزلة، فجيء بالملائكة بعدَ ذِكر صالِحِ المؤمنين، لا لأنَّ منزلتَهم أدنى، ولكن تنويهًا بمكانتهم، وتنبيهًا على أنَّ مُظاهرتهم أجلُّ شأنًا، وأبعدُ مقامًا، فلا يُظنُّ أنَّ التَّرتيب ترتيبُ تفضيل، بل هو ترتيبٌ يُقصَد به التَّخصيص والتَّفصيل، فكأنَّ الخِطاب يقول: (بعد أنْ عُرِف أنَّ جبريل وصالح المؤمنين في جُملة الأنصار، فاعلم أنَّ جُند الملأ الأعلى مِن بعد ذلك كُلِّه، هُم ظهيرٌ له ﵊)، فجاء هذا التَّرتيب؛ ترفيعًا لقدرهم، وجبرًا لما قد يوهمه الفصلُ بينهم وبين جبريل؛ إذ هو منهم وفيهم[3].

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 54.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 359.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 267.

غَرَضُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

التَّنبيهُ على رِفْعَةِ قَدْرِ المُشارِ إليهم والتَّأمُّل في قَدْرِ أولئك الأنصار

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، اسمُ إشارةٍ عائدٌ إلى ما تَقَدَّم مِن ذِكْرِ مُظاهَرَةِ اللّه تعالى، وجبريلَ، وصالِحِ المؤمنين لنبيِّه ﷺ، وقد جيء باسم الإشارة البعيد على ما فيه مِن ترفيعٍ وتهويلٍ؛ تنبيهًا على رِفْعَةِ قَدْرِ المُشارِ إليهم، وتعظيمًا لشأنِ نُصرتهم، وإشعارًا بأنَّ منزلتَهم في النُّصرة ليست مِمّا يُقارَب، أو يُدانى، بل هي رفيعةُ المقام، وفي هذا التَّعبيرِ مِن لطيفِ الإشارةِ ما يُرادُ به حَثُّ السامع - لا سيَّما مَن خوطب بهنَّ - على التَّأمُّلِ في قدرِ أولئك الأنصار(1).

نُكتَةُ تنكيرِ لَفظِ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

نُكِّرَ لَفظُ ﴿ظَهِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛ تفخيمًا لشأن المُظاهرة والنُّصرة، وتكثيرًا لصوَرِها؛ إيذانًا بأنَّها نُصرةٌ عظيمةٌ لا تُحدُّ، ولا تُقاسُ بمُظاهرة البَشر.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿ظَهِيرٌ﴾:

الإشارةُ إلى قوَّة النُّصرة وعظيم المؤازرة

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ بصيغة (فعيل)؛ لما فيه مِن المُبالغة، فهو دالٌّ على قوَّة النُّصرة وشِدَّة المؤازرة، وهو بمعنى: (المُظاهِر)، أي: (المُعين المؤازر)، وهو مأخوذٌ مِن الظَّهر، كأنَّهم يُسنِدونه، ويَشُدّون ظَهرَه، لا يَدَعونه وحدَهُ في مقام المدافعة.

غرَضُ إفراد لفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

مظاهرة الملائكة في النُّصرة كفردٍ واحد

أُفرِدَ لفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ - مع تعدُّد الملائكة - إمّا على تأويل جماعتهم بالفوج الواحد؛ إذ هم في النُّصرة كأنَّهم ذاتٌ واحدةٌ وظهرٌ واحدٌ، وإمّا جريًا على سنن العرب في إفراد (فعيل)، الذي هو بمعنى (فاعل)، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: 69]، وكثيرًا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 359، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2142.

ما يأتي (فعيل) للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد، فكَأنَّهم في المظاهرة يدٌ واحدة على من يُعاديه[1].

نُكتةُ حَذفِ المتعلّق بلفظِ ﴿ظَهِيرٌ﴾:

مراعاةُ أحوالِ المخاطَبين أدبٌ قرآنيٌّ ونهجٌ هِدائيٌّ

لم يَذْكُرِ النَّظمُ الكريمُ مُتعَلّقَ قوله تعالى: ﴿ظَهِيرٌ﴾، فلم يقل: (ظَهيرٌ عليكما) أو (عليهما)، وذاك مِن دقائق النَّظم القرآنيِّ؛ إذ سُكِت عن التَّصريح بالجهة المُعان عليها؛ ليبقى الوعدُ بالمُظاهرة عامًّا على إطلاقه، يشمَل تظاهُرَهُما وتظاهُرَ غيرِهما، كما أنَّ في هذا الإطلاق رعايةً لحال المخاطَبين، وبسطَ السّتر، وتكريمَ المقام النَّبَويِّ[2].

بلاغةُ الجِناس الاشتقاقيِّ:

الإشعارُ بأنَّ الجزاء واقعٌ مِن جنس العمل

بينَ لفظِ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ ولفظ ﴿ظَهِيرٌ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الجزاء واقعٌ مِن جِنس العمل، وأنَّ مَن تظاهر على النَّبيِّ ﷺ وجَدَ في مُقابِلِه مظاهرةً أعظَمَ، ونَصرًا أقوى؛ مِن جنود الأرض والسَّماء، لا تُدانيها مظاهرةُ بَشَرٍ، فمهما بَلَغ تظاهُرُهما؛ فلن يُعادلَ مُظاهرة الملائكةِ وجبريلَ وصالِحِ المؤمنين مع الرَّسول الكريم[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّغو والمَيل:

المَيلُ عامٌّ، والصَّغوُ خاصٌّ بالوجدانيّات

الصَّغوُ يُستعمل في القرآن مع الوجدانيّات، فهو مَيلُ القلب والفؤاد لسماعِ أمرٍ، أو مَيلُ القلب إلى أمرٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، وقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 10/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 359، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 472.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2142.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 359.

﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، والإصغاء: الميلُ إلى جهةٍ تكونُ هي محورَ الاهتمام، أو الاستماعُ بعنايةٍ لجهة الصَّوت، أو الاشتغالُ بمَن يهمُّنا أمرُهم، كما تعني الهَوَى مع الغيرِ الآخر[1]، وأمّا المَيلُ؛ فهو أعمُّ مِن ذلك.

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسانُ العرب: (صغا).

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّحذيرُ مِن عقوبةٍ أُخرى بعد التَّرغيب والتَّرهيب

بَعدَ أن بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقة ما كان مِن شأنِ الحادثة التي حصلت مع بعض أزواج النَّبيِّ ﷺ، وما جاء في تضاعيفها مِن التَّرغيب في التَّوبة، والتَّرهيبِ مِن التَّظاهر على النَّبيِّ؛ ناسبَ أن يُذكَرَ لونٌ مِن ألوان التَّرهيب الدُّنيَويِّ، القاطِعِ بإنهاء العلاقة الزَّوجيَّة في البيت النَّبَويِّ؛ لتحذير المُخاطبتَين وغيرهما مِن عقوبةٍ دُنيويَّةٍ شديدةٍ، وهي عقوبة الطَّلاق مع ما يحصل مِن المؤاخذة في الآخرَةِ عند عدم التَّوبة؛ لأنَّ أشَدَّ ما على المرأة أن تُطَلَّقَ، ثُمَّ إذا طُلِّقَت أن يُستبدَلَ بها، ثُمَّ أن يكون البَدلُ خيرًا منها[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: (قنت) أصلٌ يَدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[2]، والقُنوتُ: لُزومُ الطّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطّاعةُ الدّائِمةُ، وما يترتَّب عليها مِن انقيادٍ وخُضوعٍ ونحو ذلك، وقَنَتَتِ المرأة لزوجها: أطاعته[3]، والقُنوت: الخُشوع، والقانت: القائم بجميع أمر اللّه تعالى، وقانتٌ للّه: مطيعٌ خاشعٌ، فالقُنوت: خُشوعٌ وإقرارٌ بالعبوديَّة وقيامٌ بالطّاعة، والمعنى هنا: مُطيعات خاضعات[4].

2) ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: (سيح) أصلٌ يَدُلُّ على استمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[5]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 192، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 360.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قنت).
(3) الخليل، العين، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قنت).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 350، 472، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 6/ 691.
(5) ابن فارس، اللغة: (سيح).

مِن: ساحَ الماءُ يسيحُ؛ إذا جرَى، وانبسطَ مِن غيرِ نهايةٍ ولا حَدٍّ[1]، فيُقالُ: ماءٌ سائحٌ وسَيِّحٌ؛ إذا جرَى، وذهبَ، والسّائحُ في الأرض مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهواتِ[2]، وقيل للصّائم: سائحٌ؛ لأنَّ الَّذي يَسيحُ مُتعبِّدًا يَسيحُ ولا زادَ مَعَه، إنَّما يَطْعَمُ إذا وجَدَ الزّادَ؛ والصّائمُ لا يَطْعَمُ أيضًا[3]، فالمعنى هنا: صائمات، أو: مهاجرات.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكُرُ الآيةُ الكريمَةُ وعيدًا آخَرَ يَقرَعُ القلوبَ، ويَهُزُّ النُّفوسَ، ألا وهو الطَّلاق، وهو ممّا تَشُقُّه النِّساء أشدَّ المَشَقَّة، فقال جلَّ شأنه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ - يا نِساءَ النَّبيِّ - ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ثُمَّ وصَفَ اللّهُ تعالى هؤلاء البدائلَ بأوصافٍ جامعةٍ لكمال الظّاهر والباطن: فَهُنَّ مُخلِصاتٌ للّه في الإيمان والعمل، خاضِعاتٌ لِطاعته، قائماتٌ بشرائع الدّين الظّاهرة، مِن صَلاةٍ وصيامٍ وسائِرِ العِبادات، قائماتٌ كذلك بشرائعه الباطنة، مِن العقائد الصَّحيحة وأعمالِ القلوب السَّليمة، مُطيعاتٌ للّه طاعةً دائمةً، لا يُقَطِّعُها فُتورٌ، مُقلِعاتٌ عَن الذُّنوب؛ إن وقَعْنَ فيها، مُتذَلِّلاتٌ لِخالقِهِنَّ في عبادته وخَشيَتِه، صائماتٌ في مواطن الصَّوم والطّاعة؛ مِنهُنَّ الثَّيِّباتُ اللّاتي سَبَقَ لَهُنَّ الزَّواج، ومِنهُنَّ الأبكار العذارى اللّاتي لم يسبق لَهُنَّ زواج[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصل الآية عن سابقتها:

استئنافُ المعاني للتَّعقيب بالتَّرهيب الدُّنيويِّ

فُصِلَت هذه الآيةُ عمّا قَبلَها؛ لأنَّها كلامٌ مُستأنَفٌ عُدِلَ به إلى

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (سيح).
(2) ابن سيده المرسي، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (سيح).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سيح).
(4) ابن جرير الطّبريّ، جامع البيان: 23/ 100، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 193، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 299، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 873.

تذكيرِ جميعِ أزواجه بالحَذَرِ مِن أن يَضيقَ صَدرُه عَن تَحَمُّلِ أمثالِ هذا الصَّنيع، فيُفارِقهُنَّ؛ لِتُقلِعَ المتَلَبِّسَةُ، وتَحذَرَ غيرُها مِن مِثلِ فِعلِها؛ فالجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، عُقِّبت بها جملة: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، التي أفادت التَّحذيرَ مِن عِقابٍ في الآخرة؛ إن لم تَتوبا مِمّا جَرَى مِنهُما في شَأنِ رَسولِ اللّه ﷺ، أفاد هذا الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِن عُقوبةٍ دُنيَويَّةٍ لَهُنَّ وهي عقوبةُ الطَّلاقِ؛ إضافَةً إلى ما يَحصُلُ مِن المؤاخذة في الآخرة؛ إنْ لم تتوبا؛ ولذلك فُصِلت عن التي قبلها لاختلاف الغَرَضَين(1).

دلالةُ استعمال ﴿عَسَىٰ﴾ في السّياق:

الدَّلالةُ على التَّحقيق المُستلزِمِ للإنذار والموجِب للادِّكار

﴿عَسَىٰ﴾ مِن أفعال الرَّجاء، وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، قد خَرَجَت عَن معناها الأصليِّ إلى معنى التَّحقيق، لا على وجه التَّوقُّع والتَّرقُّب، بل على جهة الزَّجر والإنذار؛ لِما فيه مِن التَّهديدِ المستترِ ضِمنَ أسلوب الشَّرطِ المفروضِ لا الواقع، وقد اختير هذا الأسلوبُ - مع عِلْمِ اللّه تعالى بأنَّ الطَّلاق لن يقع، وأنَّ أمَّهات المؤمنين سيرجعن إلى ما فيه الرِّضا - ليكون في سياق التَّذكير والتَّهذيب؛ إذ التَّبديلُ مُقَيَّدٌ بشرط الطَّلاق، وهو أمرٌ لم يقع، لكن على فرض وقوعه، فإنَّ اللّه تعالى قادرٌ على أن يُبدِلَ نبيَّه ﷺ بمَن يتَّصفن بخصال الإخلاص والطّاعة، كما وردَ في بقيَّة الآية، فهو مِن باب التَّعليق على ما لم يقع، ولا يلزمُ وقوعُه(2).

نُكتة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

الأليقُ بالمقامِ إظهارُ معاني الرِّعاية والعناية

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بعُنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾، دون لفظ الألوهيَّة مثلًا، والمعنى: (المُحسِن إليه المُربّي له

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 360.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 193، والسّعدي، تفسير السّعدي، ص: 873، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 360.

بِنِعَمه)، والمُتكفِّلُ بجميع مصالحه الظّاهرة والباطنة، المُشاهَد منها والمَغيب، ففي هذا اللَّفظ ما يَدُلُّ على تمام اللُّطف، وكمال العناية[1].

سِرُّ توسيط اسم الرُّبوبيَّة بين أداة الرَّجاء وخَبَرها:

تَوَسَّط الاسمُ الكريمُ بين أداة الرَّجاء وخَبَرِها، على وجهٍ يُفيد الاهتمامَ والتَّهويل، ويستثير القلوبَ بمعاني الوعيد والتَّخويف، فهو يُفيد تعظيمَ الأمر، ويُنبِّهُ السّامِعَ إلى أهمّيَّة ما بعدَه[2].

غرضُ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير:

تشريفُ مقامِ النَّبيِّ وبيانُ عُلوِّ منزلته

أُضيفَ لَفظُ الرُّبوبيَّة إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ في إرشادٍ بديعٍ إلى عظيمِ منزلته عند ربِّه وتشريفه، وأنَّ هذا التَّطليق - إن وقع - فلن يُنقِص من حالِه شيئًا، ولن يُكدِّر عليه عيشَه، فإنَّه مُستغنٍ عنهنَّ، وإنَّ ربَّه ﷻ هو المتكفِّلُ بأمره، الرّاعي لشأنه، الضّامنُ لسعادته وتوفيقِه[3].

بلاغةُ الاعتراض بالجُملة الشَّرطيَّة:

التَّرهيبُ بالإبدال بذكرِ الطَّلاق والفراق

جاء التَّعبيرُ بالشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ مُعترِضًا بَيْنَ اسم ﴿عَسَىٰ﴾ وخَبَرِه؛ ليُفيد بأنَّ هذا الإبدال - إن وقع - لا يكون إلّا عَقِبَ طلاقٍ وفراقٍ، وفيهما من الخسارة المعنويَّة ما يُنذر بزوال أعظم نِعمة نِلْنَها بعد الإسلام، وهي صُحبةُ النَّبيِّ ﷺ، وشَرفُ الانتماء إلى بيته، ويُشعر الأسلوبُ الشَّرطيُّ بأنَّ الفراق ليس بالأمر الهَيِّن، بل هو حرمانٌ من مقام لا يُدانيه شرَفٌ، وفُرقةٌ عن رسول الله لا يُعوِّضها عِوَضٌ، وفي ذلك من الألم النَّفسيِّ والتَّأديب ما يَرُدُّ النَّفسَ عن التَّمادي، ويبعث على التَّوبة والكَفِّ، ولو خلا التَّعبيرُ من هذا الشَّرط؛ لفات هذا المعنى[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 192، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشَّربيني: 4/ 358.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 192.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 252، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2144.

(4) الخرّاط، المجتبى: 4/ 1361، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2145.

المواعظُ تعمُّ الجميع والتَّنبيهُ على الأخطاء يخصُّ صاحبَها

بلاغة الالتفات من خطاب التَّثنية إلى خطاب الجمع:

انتقل النَّظمُ الكريمُ من خطاب التَّثنية ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ إلى خطاب الجمع ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، فعدل عن تخصيص الزَّوجتَين إلى تعميم الخطاب لسائر أُمَّهات المؤمنين ﵅؛ تنبيهًا على أنَّ التَّوجيهَ الإلهيَّ لا يقتصر على مَن وقَعَت منها الهفوة، بل يَعُمُّ كُلَّ مَن كانت في بيت النَّبيِّ ﷺ؛ إذْ قد تقعُ من غيرها صورةٌ مِمّا وقع، أو يختلجُ في صدرِ إحداهنَّ شيءٌ مِن مثله، فكان هذا الالتفاتُ مِن أبلغ أساليب التَّهذيب، وأدقِّ طرائقِ التَّذكير؛ إذ دَلَّ على أنَّ أهلَ بيت النُّبوَّة الذي هو مَحَلُّ الوحي ومَهبَطُ التَّشريع، هُم أيضًا أهلٌ للموعظة[1].

تمامُ تحقيق مقصديَّة التَّحذير بالتَّنبيهِ الاحتماليِّ لا القَطعيِّ

نُكتة الشَّرط بأداة ﴿إِن﴾ دون (إذا):

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أداةِ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، التي تُفيد مظنَّة الوقوع؛ للتَّنبيه إلى أنَّ الطَّلاق لا يُستبعَدُ حصولُه، فكان في اختيارها هُنا إيماءٌ إلى أنَّ الطَّلاق أمرٌ غيرُ واقعٍ في الحال؛ لكنَّه غير مُستبعَدٍ في الإمكان، فالكلامُ خارجٌ مَخرجَ الشَّرط لا لتحقيق الشَّرط، بل للتَّهذيب والتَّقويم، وقد عَلِمَ اللهُ ﷻ أنَّ الطَّلاقَ لَن يَقَع، لكنَّه جَلَّ شأنُه قَدَّر أنَّه لو وقَع؛ لكان الإبدالُ واقعًا بِحِكمَةٍ[2].

بيانُ الإرادة الحُرَّة، والإشارةُ إلى صُدورِ الأمرِ عن صاحبِ الأمر

نُكتةُ إسنادِ فِعل التَّطليق إلى الضَّمير:

إسنادُ فِعلِ التَّطليق إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ، في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، إشارةٌ جَليَّةٌ إلى أنَّ أمرَ الطَّلاقِ مُفوَّضٌ إليه، وأنَّ القرار عائدٌ إلى إرادته الشَّريفة، لا مُعَقِّب عليه فيه، ما دام بإذن رَبِّه وتحت رعايته، فهو الذي يملك عقدَ النِّكاح وحِلَّه، مَتى اقتضت

(1) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 9/ 207.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 193، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 350، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2145.

الحكمة والمصلحة، وفي هذا الإسناد أيضًا إشعارٌ بهيبة المقام النَّبويِّ، وتنبيهٌ إلى أنَّ رسولَه ﷺ، وإن كان حليمًا رحيمًا، فإنَّ له في بيته سُلطانًا، لا يُستبعد معه أن يلجأ إلى الفراقِ؛ إن لزِمَ الأمر[1].

دلالَةُ حَذفِ جواب الشَّرط:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّبديلَ مُترتِّبٌ بدَهيٌّ على وقوع الطَّلاق

في حَذفِ جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، سِرٌّ مِن أسرار الإيجاز القرآنيِّ؛ إذْ لم يُصرَّح بجواب الشَّرط، بل تُرِك؛ ليُفهَم من السّياق، ويُقدَّر بما دَلَّ عليه صدرُ الآية، أي: (إن طَلَّقَكُنَّ، فَعَسى رَبُّه أن يُبدِلَه أزْواجًا خيرًا منكنَّ)، وهذا الحَذفُ في موضعه؛ إذ المقصود منه الإيماء إلى أنَّ التَّبديلَ مُترتِّبٌ بدهيٌّ على وقوع الطَّلاق، فكان في عدم ذِكرِ الجواب إشعارٌ بأنَّ الأمرَ لا يحتاج إلى بيان؛ لكمال ظهوره، وارتباطه التّامِّ بما بَعدَه، وفي ذلك أيضًا نُكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهي تعليقُ التَّبديلِ على شرطٍ لم يَقَع، فلمّا لم يتحقَّق الطَّلاقُ؛ لم يتحقَّقِ الإبدال، وجاء حَذفُ الجوابِ؛ لِيُشعِرَ بِأنَّ الأمرَ موقوفٌ على حصول ما قَبلَه[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارِع في قوله تعالى: ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ الدّالِّ على الاستقبال بدلالة السّياق، أي: (إن حصل الفراقُ؛ وقَعَ الإبدال)؛ لما فيه من التَّحذيرِ والتَّنبيه.

غَرَضُ إسنادِ فعلِ الإبدالِ إلى لفظِ الرُّبوبيَّة:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وإكرامُه بما يُريحُ بالَه

إسنادُ فِعل ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾ إلى عنوان الرُّبوبيَّة ﴿رَبُّهُۥٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾، تشريفٌ بالغٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ إذ دَلَّ ذلك على أنَّ الله تعالى هو الذي يتولَّى أمرَ الإبدالِ بنَفْسِه، دون أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 360، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2145.

(2) العليمي، فتح الرحمن: 7/ 98، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2145.

يُكلِّفَ نبيَّه بالطَّلب أو السَّعي؛ إكرامًا له، وراحةً لِقلبِه، وقَطعًا لِما قَد يُشغِلُه عَن مهامِّ الرِّسالة العُظمى، فَجاءَ الإسنادُ إلى اللّه ﷻ؛ ليَدُلَّ على أنَّ الإبدالَ ميسورٌ لا مَشَقَّةَ فيه، مضمونُ العاقِبة، مأمونُ المآل؛ لأنَّه صنيعُ ربٍّ رحيم كريم، وفي المُقابل أُسنِدَ فِعلُ الطَّلاق إلى النَّبيِّ ﷺ؛ تشريفًا له أيضًا، وبيانًا لأنَّه يملكُ أمرَهُ، ولا يُنازَع في حَقِّه، فكان في الجمعِ بين الإسنادين: الطَّلاقِ إليه، والإبدالِ إلى ربِّه، أبلغُ المزايا، وأعظمُ الدَّلالات على منزلتِه وكرامةِ شَأنِه عِندَ اللّه[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

جـمـعـتِ القراءتانِ دلالةَ الإبدالِ ونوعيَّةَ الإبدال

قرأ الجُمهورُ: ﴿يُبۡدِلَهُۥٓ﴾ بالتَّخفيف، الدّالِّ على مُطلَق الإبدال، مِن غير نَظرٍ إلى الكَثرة والمبالغة، وقَرَأ نافِعٌ وأبو عمرو وأبو جعفرٍ بالتَّشديد: ﴿يُبَدِّلَهُۥٓ﴾[2]، وهي قراءةٌ تُفصِحُ عَن مَعنى التَّكثير والمُبالغة؛ إذِ التَّشديدُ في الفِعل يَدُلُّ على تكرار الفِعل أو قوَّته وشِدَّته، فكان في قراءة التَّشديد إيماءٌ إلى تبديلٍ عظيم، لا يقِفُ عند مُجَرَّدِ التَّعويضِ، بل يتجاوزُ إلى ما هو أكمَلُ خَلْقًا، وأتَمُّ خُلُقًا، وأشَدُّ طاعةً وإخلاصًا، كما دلَّت عليه الصِّفاتُ المذكورةُ[3]، وقد جمعتِ القراءتان الدَّلالتين: دلالة الإبدال، ودلالة نوعيَّة الإبدال.

نُكتة تنكير لفظ ﴿أَزۡوَٰجًا﴾:

تعظيمُ النِّساء المُـبـدَلات وتـشـريـفُ مقامهنَّ

نُكِّر لفظُ ﴿أَزۡوَٰجًا﴾، وهو مفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿يُبۡدِلَهُۥٓ﴾؛ للتَّعظيم والتَّكثير؛ تنبيهًا على عظيمِ ما يُبدِلُ اللّه به نبيَّه ﷺ؛ إذ المقصودُ ليس مُجرَّدَ الإخبار عن التَّعويض، بل الإشارةُ إلى ما هو أتمُّ وأفضَلُ، في الدّين والخُلق والسَّريرة، وكُلٌّ منهنَّ تحملُ مِن صِفاتِ الكمال ما يَجعَلُهُنَّ أجْدَرَ بِصُحبة النَّبيِّ وأليقَ بمقامِه الشَّريف.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 193.
(2) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 193، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 350، والملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 181.

غَرَضُ استعمال لفظ الأزواج دون النِّساء:

الإيماءُ إلى الشَّرفِ الحاضر والتَّلويحُ بِفَقدِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَزۡوَٰجًا﴾، دون أن يُقال: (نساءً)؛ لما في ذلك من دقائق البيان؛ إذ الْمُراد بالإبدال ليس مُجرَّدَ استبدالِ نساء، بل هو إيذانٌ بأنَّ المبدَّلاتِ حرائرُ، لا سراري، وأنَّ الإبدال واقعٌ في مقام الزَّوجيَّة، وهو أوجَعُ للقلب وأبلغُ في الإنذار؛ إذ الحُرَّة تألمُ أشدَّ الألم؛ إذا أُبدلت بأخرى، ثم كانت تلك الأخرى خيرًا منها في الدّين والخُلُق والطّاعة، وفي ذِكْرِ الزَّوجيَّة تلويحٌ لهنَّ بأنَّ الشَّرَفَ الذي نِلنَه، والمقامَ الذي تشرَّفن به، إنَّما هو بِشَرَفِ الزَّوج، وفَضلِ النَّبيِّ ﷺ عليهنَّ[1].

نُكتةُ استعمال لفظ ﴿خَيۡرًا﴾ مُنَكَّرًا:

إفادةُ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ والتَّكثيرِ في وجوه الخيريَّة

جاء لفظ ﴿خَيۡرًا﴾ نَكِرةً؛ للتَّعظيم والتَّفخيم؛ ليوافِقَ تعميمَ الصِّفات المذكورات، والتَّكثيرَ في وجوه الخيريَّة، وفيه مِن الإثارة للنَّفس وتهييج الوجدان نحو تبيُّن ما اشتملت عليه تلك الخيريَّة من صفات الكمال ما فيه، فإذا أُلقي المعنى مُبهَمًا؛ اشتاقت النَّفسُ إلى تفصيله، وتَهَيَّأت لِتَلَقّي ما يوضِّحُ وجهَ البيان فيه، فإذا ورَد التَّفصيلُ بَعدَه؛ رَسَخَ في القلب، ووَقَع موقِعَ التَّأثير، وكان شعورُ السّامِع به أكملَ وأشدَّ، ثُمَّ إنَّ في هذا التَّنكير تعظيمًا لشأنِ الخَيريَّة، التي يَختارُها اللّٰه لرسوله الكريم ﷺ، وبيانًا لمعيار التَّفضيل في نسائه، وهو الإيمان والتَّقوى، والصَّلاح والطّاعة، والخضوعُ والعبادة، فكلُّ مَن اجتمعت فيها هذه الصِّفاتُ، فهي أولى بصُحبته، وأحقُّ بمنزلته[2].

فائدَةُ خطاب الجمعِ دون التَّثنية:

التَّوسعةُ في دائِرة العِتاب، والمبالغةُ في التَّحذير

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿مِنكُنَّ﴾، جاءَ بضَميرِ الجَماعة لا التَّثنية، فهو محمولٌ على التَّغليب؛ إذ الأصلُ في الخِطاب أنَّه موَجَّهٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 360، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2146.

(2) عطية سالم، تتمّة أضواء البيان: 8/ 221.

إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما، لكنَّه أُجري مجرى خطابِ الجماعة؛ توسعةً في دائرةِ العِتاب، ومبالَغَةً في التَّحذير، وقد يُحمَلُ اللَّفظُ أيضًا على التَّعميم لجميع أمَّهات المؤمنين، لا لِوُقوعِ ذنبٍ مِن الجميع، بل ليتَّعظنَ بالخطاب(1).

توجيهُ ذِكرِ صِفَتَي الإسلام والإيمان:

الإسـلامُ والإيمانُ قاعدةُ القـبولِ وأصلُ الوصولِ

ذَكَرتِ الآيةُ الكريمةُ مجموعةً مِن الأوصاف للنِّساء المستبدَلات في قوله تعالى: ﴿يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾، والإسلامُ والإيمانُ اتَّصفت به نساءُ النَّبيِّ ﷺ خيرَ اتِّصاف، فذِكرُ هذين الوصفين يَدُلُّ على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ مراتبُ يتفاوت النّاس فيها، تزيد وتنقص؛ إذ لا يُشكُّ في أنَّ أُمَّهات المؤمنين رضوان الله عليهنَّ كُنَّ على الإسلام والإيمان، ومَعَ ذلك أخبرَ الله أنَّه يُبدل رسولَه ﷺ أزواجًا خيرًا منهنَّ، موصوفاتٍ بالإسلام والإيمان، فدلَّ ذلك على أنَّ الخيريَّة ها هنا إنَّما هي لزيادةِ درجات الإسلام، وعُلوِّ مراتب الإيمان، وفيه أبلغُ رَدٍّ على المرجئة(2).

نكتة تقديم الإسلام على الإيمان:

الـبـدءُ بـجـمـالِ الظّاهِرِ، والمُنتَهَى سَلامةُ الباطن

بَدَأت الآيةُ بذِكر الإسلام قبل الإيمان: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾؛ إشارةً إلى ظاهرِ الانقياد قولًا وعملًا، وذِكرُ الإيمانِ بَعدَه تَخصيصٌ لِما وقَر في القَلب مِن إخلاص ويقين، وإعلاءٌ لمكانته في سُلَّم المراتب؛ إذْ هو أشرَفُ أحوال الباطن، ومناطُ القبول عند رَبِّ العالمين، ولِدَفعِ تَوَهُّم النِّفاق، وأنَّ الإسلامَ مَبنيٌّ عَلى أحوالِ الباطنِ المقبولِ، فَبَدَأ بالظّاهر لِبُدوِّ جَماله عند بادئ النَّظر، وثنَّى بالإيمان؛ لِتَقَعَ الطُّمأنينة عند منتهى النَّظَر، فالمرأةُ المُختارةُ لصُحبة النَّبيِّ ﷺ تَجمَعُ بَيْنَ جمال الظّاهر وسلامة الباطن.

---

(1) ملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 181، والمظهري، التّفسير المظهري: 9/ 343.
(2) القصاب، النّكت الدّالة على البيان: 4/ 367.

توجيهُ ذِكرِ صَفة ﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾:

القُنوتُ دَليلُ الإيمانِ وبُرهانُ الإسلام

جاء وصفُ الأزواج المستبدلات بأنَّهنَّ ﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾؛ إيماءً إلى دوام الطّاعة، واستمرار الانقياد للّه ورسوله ﷺ، وهو في طَيِّه تعريضٌ لطيفٌ بِمَن وقع مِنها تقصيرٌ أو تهاونٌ في ذلك المقام، فجاء الوصفُ تذكيرًا رفيقًا، وعِتابًا كريمًا، يوقِظُ القَلبَ، ويَحُثُّ النَّفسَ على ملازمة الطاعة والأدب[1]، وهو دليلُ جمالِ الإيمان، ومظهرٌ مِن مَظاهرِ حُسنِ الإسلام.

فائدةُ التَّعريض بوصفِ ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾:

التَّحريضُ على التَّوبةِ ممّا فات والحثُّ عليها ممّا هو آتٍ

أُشيرَ بِصِفَةِ ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ إلى صفةٍ مِن أشرَفِ صِفاتِ المؤمنات، وهُنَّ اللَّواتي إذا وقَعن في ذَنبٍ؛ أسرَعن إلى التَّوبة، وأقبَلنَ على اللّه بإنابةٍ صادقةٍ، وفي هذا الوصف تَعريضٌ بإعادةِ التَّحريضِ على التَّوبةِ مِن ذَنْبِهما، ويُذَكِّرُ بما سَبَقَه مِن الأمرِ الإلهيِّ في قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

بلاغةُ الاستعارة في مفردة ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾:

تشريفُ حالِ مَن تُفارِقُ الدُّنيا إلى مقامات الطّاعة

في لفظ ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ بليغةٌ؛ إذ أُطلِق لفظُ ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ على الصّيام مجازًا؛ لِما بينهما مِن مُشابهةٍ في تركِ الزّادِ والانقطاعِ عن المألوف، فإنَّ السّائحَ في الأرضِ يطوفُ بلا زادٍ يَطعَمُهُ، فكذلك الصّائم، يظلُّ ممسكًا ممتنعًا عن الطَّعام حتى يأتيَهُ وقتُ الإفطار، فكأنَّ الصّائم يسيحُ في نهارِه صبرًا وعبادةً، كما يَسيحُ العابدُ في الأرض تَعَبُّدًا وخُشوعًا، وعلى القول بأنَّ السّائحات هُنَّ المهاجرات، فهي على جِهَةِ المجاز استعارةٌ أيضًا؛ لأنَّ المُهاجِرَة هَجَرَت المألوفَ، وتَرَكَت الوطنَ والأهلَ لِلّه ورسوله، كما يتركُ الصّائِمُ شَهوَتَه وطَعامَه لِلّه تعالى، فشابَهَت الهِجرَةُ الصّيامَ

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 873، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 361.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 361.

في فِطام النَّفس عن مألوفاتِها، وسَمَّى اللّهُ ذلك سياحةً؛ تشريفًا لحال مَن تُفارِق الدُّنيا إلى مقاماتِ الطّاعة[1].

لطيفةٌ في غريبِ استعمالِ لَفظِ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾:

تلويحٌ مليحٌ برغبةِ النِّساء ببيتٍ يدفعُ الهمَّ، ويُريحُ البال

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لَفظِ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ - وهو لفظٌ غريبٌ - دون (صائمات) - وهو لفظٌ مشهورٌ واضحٌ - لِلَطيفَةٍ بديعةٍ، وهي أنَّ السائحات يَبقَينَ في سياحةٍ في الأرض حتَّى يتسنَّى لهنَّ الاستقرارُ والمُكثُ في مكانٍ بعَينِه، فهي إشارةٌ إلى أنَّ السّياحةَ مُقترِنَةٌ بِعَدَم الاستقرار، وحالُ الاستقرار تسعى له كلُّ امرأةٍ عاقِلَة، فكيف إذا كان بيتَ رسولِ اللّه ﷺ؟ فجاء هذا اللَّفظُ بطريق التَّلويح المليح؛ لإشعار نساء النَّبيِّ رضوان اللّه عليهنَّ أنَّ هناك مَن تسعى سائحةً لأجلِ أن تَظفَر بحُسنِ استقرار، فهو تلويحٌ برغبة أولئك بالاستقرار المُطلَق، فكيف يكون الحالُ؛ إذا كان الاستقرارُ في بيتٍ يسرُّ البال؟.

بلاغةُ ترتيب ذِكرِ الصِّفات:

ترتيبُ الصِّفات جاء على طريق إثباتِ الدَّعوى ثم إتباعِها بالدَّليل

جاء ترتيبُ الصِّفات في قولِه تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ على نسَقٍ بديع، يُراعي مراتِبَ الكمال في الدّين والخُلُق، ويَجمعُ بين تهذيب الباطن وتجميل الظّاهر، بما يُلائم مقامَ مَن يُصاحبُ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ، فابتُدِئَ بوصف ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾؛ لما فيه مِن الإشارة إلى أصل الدّين، ثم ثُنّي بصفة ﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾؛ لأنَّه الدَّليل الباطنُ على دعوى الظّاهر، ثم أُتبِعَ ذلك بصفة ﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾، وهي صفةٌ تدلُّ على دوام الطّاعة، والخضوع التّامِّ، وهو برهانُ كمالِ الإيمان، ثُمَّ جاء بصفة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الطّاعة لا تدوم إلّا مع التوبة، فإنَّ العبد لا يخلو من زلَّة، ولا ينجو من تقصير، ثُمَّ جاء بصفة ﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾؛ ليُبيِّن أنَّ التوبةَ الصحيحة تُثمِرُ

(1) الأعرج، غرائب القرآن: 6/ 321، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 571، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 160.

عبادةً خاشعةً، ومُداومةً على الطّاعات، ثُمَّ جاء بصفة ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾، وهي كناية عن الصّيام؛ لما فيه مِن ترك الشَّهوات، والانقطاعِ إلى اللّه، وفيه أيضًا تخفيفٌ للجسد، وتطهيرٌ للرّوح، وبَعدَ الحديث عن الصِّفات الدّينيَّة المُفيدة في حُسنِ عِشرة الزَّوج، تَحَدَّث عن الصِّفات البدنيَّة، فقال: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا﴾ تتميمًا وتكميلًا[1].

نُكتةُ تَركِ العطف بَيْنَ الأصناف السَّبعة وإثباتِه في الوصفين:

تــركُ الـعـطـفِ يـدلُّ عـلى إرادة جميع الصِّفات، وإثباتُه يدلُّ على التَّوزيع

جاءت جميعُ الصِّفات التي هي نعتٌ للموصوف ﴿أَزۡوَٰجًا﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ مِن غير عَطفٍ؛ تنبيهًا على أنَّ كُلَّ واحدةٍ من تلك الأزواج قد اجتمعت فيها هذه الصِّفات، لا أنَّها جاءت مُتفرِّقةً بينها؛ إذ لو عُطفت الصِّفات بالواو؛ لاحتمَل أن يُراد بها التَّوزيع، فيكون بعضُ النِّساء مُتَّصِفًا ببعض الصِّفات دون بعض، وذلك خلافُ المقصود مِن تمام الكمال في كلِّ واحدةٍ منهنَّ، فَلَمّا أرادَ النَّظمُ الحكيمُ أن يُفهِم اتِّحادَ الصِّفات في كُلِّ زوجة، حَذَفَ العطفَ بين النُّعوت، ثُمَّ لمّا جاءَ إلى الصِّفتين المتقابلتين في نهاية الآية، وهما ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾؛ أثبتَ العَطفَ بينَهُما؛ لِما بينَهُما من التَّقابل؛ إذ لا يجتمعُ الوصفان في واحدة[2]، فجاء العطفُ بالواو؛ لإفادة الجمع بين نوعَين متمايزَين من النِّساء، وذِكرُ الأبكار مقصودٌ لما لهنَّ من صفاتٍ محبوبةٍ عند الرِّجال، كشِدَّةِ الحياء، ورقَّة الطَّبع، وعدم سابقةِ عِشرةٍ، وذلك ممّا تجنحُ إليه الطِّباعُ، وتميلُ إليه النُّفوس، كما أنَّ في ذِكر الثَّيِّبات مع الأبكار إشارةً إلى تمام النِّعمة، واتِّساع الاختيار؛ إذ جَمَعَ اللّهُ لِنَبيِّه ﷺ من هذا وذاك، فناسبَ أن يُذكَر

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 195، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2148.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 567، 568، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 225، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 212، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 573.

النَّوعان تنويعًا وتشريفًا، وجاء العطفُ؛ تأكيدًا لهذا المقصود، وقيل: إنَّما وُسِّط العاطفُ بينهما؛ لأنَّهما في حُكم صِفةٍ واحدة؛ إذِ المعنى: مُشتمِلاتٌ على الثَّيِّباتِ والأبكارِ، فالمقصودُ أنَّه يُزوِّجُه بالنَّوعَينِ: الثَّيِّباتِ والأبكارِ(1).

سِرُّ ذِكرِ الثَّيِّبات في مقام المدح:

كونُ الثَّيِّب قد تـفـوقُ الـبـكـرَ في وجــوهٍ مِـن الفضل

قد يُقال: كيف ذُكِرت الثَّيِّباتُ في مقام الثَّناء والمدح، في قولِه تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ مع أنَّ الرَّغبة في الأبكار أغلبُ وأشدُّ في طباع الرِّجال؟ والجوابُ أنَّ الثَّيِّب قد تفوقُ البِكر في وجوهٍ مِن الفضل، كرَجاحةِ العقل، وتمام التَّجربة، وحُسنِ العِشرة، وقد تُفضَّلُ لجمالٍ أو مالٍ أو شرفِ نسبٍ(2)، كما أنَّها أحرَصُ على حقوقِ زوجِها، وألْيَنُ في مُجاراةِ رغباته، وأدوَمُ قيامًا بشؤون بيتِه بل قد تجتمعُ لها هذه الخصالُ، فيغلبُ فَضلُها على كثيرٍ مِن الأبكار(3).

كما أنَّ النَّظم الكريم قد جمعَ بَيْنَ الثَّيِّبات والأبكار في مقام الامتنان على النَّبي ﷺ؛ لئلّا تنصرفَ الرَّغبةُ كُليًّا إلى الأبكار دون غيرهنَّ، وليُعلَمَ أنَّ في الثَّيِّبات مِن الخيرِ والفَضلِ ما يدعو إلى الاقتداء بالنَّبيِّ ﷺ في تزويجِهنَّ(4).

غَرَضُ تقديم صفة ﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾ على (أبكارًا):

دفْعُ أوهـامِ أنَّ الأبكارَ أفضَلُ في الـشَّـرع وأدعـى للنِّكاح مطلقًا

قُدِّم وصفُ ﴿ثَيِّبَٰتٖ﴾ على وصف (أبْكارًا) في هذا الموضع، مع أنَّ الأبكارَ عادةً أحبُّ إلى النُّفوس؛ لوجوهٍ من المعاني الجليلة، منها: أنَّ أكثرَ أُمَّهات المؤمنين كُنَّ ثيِّباتٍ حين تَزَوَّجَهُنَّ النَّبيُّ ﷺ، فناسبَ أن يُبدأ بهنَّ في الذِّكر موافقةً للواقع، ومنها أنَّ فيه تعليمًا

---

(1) الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 321، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 225، وأبوحيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 212، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 54/ 3.

(2) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 571، 572، والشّربيني، تفسير الخطيب الشّربيني: 4/ 330.

(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 362.

(4) الماتريدي، تفسير الماتريدي: 10/ 88.

وتشريعًا، بأنَّ الخيْريَّة لا تُحصَر في البكارة، بل قد تكون الثَّيِّب أولَى وأكمَل؛ إذا اجتمعَ لها حُسنُ العِشرة، وتمامُ العقل، وكمالُ الخُلق، ومنها أنَّ التَّقديم؛ للتَّنبيه على أنَّ النَّبي ﷺ لا ينظر إلى ظاهر الحالة فحسب، بل يختارُ في أزواجِه المعانيَ العالية، لا مُجرَّد البكارة، فابتُدئ بالثَّيِّبات؛ توكيدًا لهذا المعنى، وكي لا يبقى في نفوس المقتدين أثرٌ في تفضيل الأبكار شرعًا، فيُظنَّ أنَّ في ذِكرِهنَّ دون الثَّيِّبات فضلًا لا يكون في الثَّيِّبات، وقيل: إنَّ التقديم جاء على جهة التَّنويع، لا على وجه الأفضليَّة؛ ليُبيِّنَ أنَّ كِلَيهما داخلٌ في قدرته تعالى على الإبدال(1).

بلاغةُ التَّفصيل بعد الإجمال:

التَّنبيهُ على أنَّ الصِّفات المذكورات هي أصول الخيريَّة

جيءَ بتفصيل الصِّفات عَقِبَ قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ تلك الصِّفات هي أصولُ الخيريَّة ومُقَوِّماتُها، لا تُنال إلّا بامتزاجِ الإيمان الصّادق بالأخلاق الفاضلة، فإذا جُمعت في امرأةٍ؛ استحقَّت أن تكونَ من خيار النِّساء، ثُمَّ إذا صارت زوجًا للنَّبيِّ ﷺ؛ اكتمَل فَضلُها، وارتفعَ قَدرُها، فصارت خيرًا مِن سائر النِّساء باقترانها بسيِّد البشر عليه الصلاة والسلام(2).

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُنوت والخُشوع:

الخُشوعُ لِينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ، والقنوتُ دَوامُ الطّاعَةِ

الخُشوعُ: لينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ، ورِقَّتُهُ وسُكونُهُ، وحُضورُهُ وقتَ تَلَبُّسِهِ بالطّاعَةِ، فَتَتْبَعُهُ جميعُ الجَوارِحِ والأعْضاءِ(3)، أمّا القُنوتُ؛ فَيَرِدُ في القُرْآنِ على قِسمَين:

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 571، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 362، وعطيّة سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 360.

(3) ابن رجب الحنبليّ، الذّلّ والانكسار للعزيز الجبّار، ص: 35.

القِسْمُ الأوَّلُ: قُنوتٌ عامٌّ لِجَميعِ المَخْلوقاتِ بِمَعْنى الخُضوعِ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرّوم: 26]، والمَعْنى: الكُلُّ عَبيدٌ خاضِعونَ لِرُبوبيَّتِه، وتَدْبيرِه ﷻ، لا مَعْبودَ بِحَقٍّ سِواهُ.

والقِسْمُ الثّاني: القُنوتُ الخاصُّ: وهوَ دَوامُ الطّاعَةِ للّهِ على وجْهِ الخُشوعِ، وهوَ الأكثَرُ في القُرآنِ الكَريم، ومِنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزُّمَر: 9]، ونَحْوُ ذَلِكَ[1].

العِبادَة والطّاعَة:

الطّاعَةُ أوْسَعُ وأشْمَلُ مِنَ العِبادَةِ

الطّاعَةُ هيَ الفِعلُ الواقِعُ عَلى حَسَبِ ما أرادَهُ المُريدُ مَتى كانَ المُريدُ أعلَى رُتْبَةً مِمَّن يَفْعَلُ ذَلِك، وتَكونُ للخالِقِ والمَخْلوقِ[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 59]، والعِبادَةُ هيَ تَعْظيمُ اللّهِ تَعالَى بِأمْرِه، بِشَرْطِ النّيَّةِ ومَعرِفَةِ المَعبودِ، ولا تَكونُ إلّا لِلخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وحْدَهُ، أمّا الطّاعَةُ؛ فهيَ مُطْلَقُ امتِثالِ الأمْرِ والنَّهْيِ، فالطّاعَةُ أمْرُها واسِعٌ[3].

(1) عبد الرّحمن السّعدي، تيسير اللّطيف المنّان: 01/ 311.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 221.
(3) زكريّا الأنصاريّ، الحدود الأنيقة، ص: 77.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إصلاحُ بيتِ القُدوة مُقدَّمٌ على إصلاحِ بيوتِ الأُمَّة

لمّا كانت الآياتُ السّابقةُ قد تناولت ما وقَعَ في بيت النُّبوَّةِ مِن عتابٍ لطيفٍ، وموعظةٍ رفيقَةٍ لأُمَّهاتِ المؤمنين - رضي الله عنهن - على ما بدا مِن تقصيرٍ أو مُنافرةٍ؛ دلَّ ذلك على أنَّ النَّفْسَ البَشَريَّة، وإن عَلَت مراتبُها، وشرُفت منزلتها، لا تبرأُ مِن العوارض التي تكدِّر صفوَها، فتفتقر إلى التَّذكير والمراجعة، ليعود إليها صفاؤها وإشراقها، فإذا كان هذا في أزكى البيوت - بيت النُّبوَّة - فكيف بما يقع في سائر بيوت المؤمنين؛ حيثُ الضَّعفُ أظهَرُ، والغفلةُ أرجَى؟ ولهذا ناسبَ أن تُتبع تلك الموعظة الخاصَّة، بموعظةٍ عامَّةٍ، تَشمَلُ جماعة المؤمنين، فتوجَّه الخطابُ إلى عمومهم بالأمر بحفظ النَّفس والأهل مِن موارد الهلكة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، فأعقبَ سُبحانه ببيان ما يجبُ على مَن أنعمَ اللّه عليه بنعمة الإيمان، مِن لزوم شُروطه[1].

كما وُجِّه الخطابُ إلى المؤمنين بعد خطاب النَّبيِّ ﷺ وأهلِ بيته؛ ليأتسوا به عليه السلام في مقام الموعظة، فلا يجدوا في توجيه النُّصح إلى أهليهم حَرَجًا؛ إذ قد سُبِقوا إلى ذلك في بيت النُّبوَّة نفسه، فكان في ذلك تسليةٌ لهم، وتأسٍّ بمقام المصطفى، وتشجيعٌ على القيام بواجب الإصلاح والتَّقويم في دوائرهم الخاصَّة، كما فعل رسولُ اللّه ﷺ في بيته الشَّريف[2].

(1) النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 489، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 212، والخطيب، التّفسير القرآني: 14/ 1031، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 365.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُوٓاْ﴾: (وقي) أصلٌ يَدُلُّ على دفْع شيءٍ عن شيءٍ بغيره، والوقاية: ما يقي الشَّيء، أو: حفظُ الشَّيء ممّا يؤذيه، ويَضرُّه؛ باتِّخاذ حاجزٍ دونه، يُقال: وقاهُ يَقيهِ وقايةً: حَفِظَه، وصانَهُ، ومَنَعَه مِنَ الضَّرَرِ والأذى، واتَّقى الشَّيء: جعل بينه وبينه وقاية[1]، والتَّقْوَى: جَعْلُ النَّفس في وِقايَةٍ مِمّا يُخاف، ثُمَّ صارتِ التَّقْوَى في تعارُف الشَّرع: حِفظ النَّفسِ عَمّا يؤثم، وذلك بتركِ المحظور[2]، والمعنى هُنا: احفَظوا أنفسَكُم مِن العذاب بتركِ المعاصي[3].

2) ﴿وَقُودُهَا﴾: (وقد) أصلٌ يَدُلُّ على اشتعال نارٍ[4]، والوَقودُ بفتح الواو: ما توقَدُ به النّارُ مِن حَطبٍ وغَيْرِه، والوُقودُ: بالضَّم مصدرٌ بمعنى التَّوقُّدِ والاتِّقادِ[5]، ومعنى (الوَقود) هنا: ما يُطرَح في النّار؛ لتتَّقِدَ، وتلتهِبَ، وتشتَعِلَ[6].

3) ﴿غِلَاظٌ﴾: (غلظ) أصلٌ يَدُلُّ على عِظَمِ الجِرْمِ وتَجَسُّمه مَعَ صَلابَةٍ، ويدلُّ لازِمُهُ علَى الشِّدَّةِ والقوَّة[7]، فالغِلظَة: ضِدُّ الرِّقَّة، ويُقال: غِلظةٌ وغُلظةٌ، وغَلُظَ الرَّجُلُ؛ إذا اشتَدَّ، فهو غَليظٌ، وفيهِ غِلْظَةٌ، أي: شِدَّةٌ واستِطالَةٌ، فهو غَيْرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ[8]، فأصلُه أن يُستعملَ في الأجسام لكن قد يُستعارُ للمعاني، والغِلظَةُ: الخُشونة[9]، وغِلَظُ القلب: عبارةٌ عَن قِلَّةِ الرَّحمة، وبإزائه رِقَّةُ القَلب[10]، والغِلظَة: الشِّدَّةُ البالغة مَعَ الحِدَّة[11]، والمعنى هنا: قُساةٌ في أخذِهم أهلَ النّار[12].

4) ﴿شِدَادٌ﴾: (شدد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيءِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقى).
(2) الرّاغب، المفردات: (وقي).
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 58/ 10، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 472.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وقد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (وقد).
(6) الباليساني، حسن البيان: 6/ 2579.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(9) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(10) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/ 949.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(12) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 477، وجمال، التفسير الفريد: 8/ 3137.

قَوَّيْتُه[1]، والشَّدُّ: التَّقوية[2]، يُقال: شَدَّ الشَّيءَ يَشُدُّه شَدًّا: أوثقَه، وقوّاه[3]، والشِّدَّةُ: الصَّلابة، وهي ضِدُّ اللّين[4]، يُقال: حَجَرٌ شَديدٌ، أي: صُلْبٌ[5]، وتأتي بِمعنى الإسراعِ، فيُقال: شَدَّ في العَدوِ واشتَدَّ شَدًّا؛ إذا أسرَعَ[6]، والمعنى هُنا: أقوياءُ في معاملة أهلِ النّار الذين وُكِّلوا بهم[7].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بوِقاية الأنفُس والأهلِ مِن نارٍ عظيمةٍ عليها ملائكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ

توجِّه الآية الكريمةُ نداءً للمؤمنين، تأمرُهم بأن ينهَضوا بما أوجبَهُ اللّه عليهم مِن رعايةِ أنفُسِهم، بأن يَجعلوا بين أنفُسِهم وأهليهم وبين النّارِ حاجزًا يَقيهم منها؛ بتَعليم أنفُسِهم العِلمَ النّافِعَ، وقيامِهم بالعَمَلِ الصّالحِ، وتعليم أهليهم وتأديبِهم، ثُمَّ وصَفَ النّار التي أُمِروا بالاتِّقاء منها، بأنَّها نارٌ موقَدةٌ وقودُها النّاسُ والحجارة، قد أُنيطَ أمرُها بملائكةٍ، قُساةٍ في أخذِهم أهلَ النّار، لا تأخذُهُم بالمُعذَّبين رَأفَةٌ، أقوياءُ لا يُخالِفونَ أمْرَ اللّهِ، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء بحرف (يا):

تعظيمُ النِّداء والإشـــارةُ إلى عَظَمةِ المضمون

افتُتِحت الآيةُ الكريمةُ الخِطابَ بِنِداءِ عَظيم الشَّأنِ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفي افتتاحِه بالنِّداء دلالةٌ على أهَمّيَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شد).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (شد).

(7) الثّعلبي، الكشف والبيان: 9/ 349، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 366.

(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 103، والسّمرقندي، تفسير السّمرقندي: 3/ 469، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 333، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 874.

المضمون، وتنبيهٌ للسّامع أن يُصغيَ لِما يَلي مِن الأمر، وقد خُصَّ النِّداءُ بحرف (يا)؛ لما فيه مِن الإشارة إلى نوعِ بُعدٍ، إمّا حقيقيٌّ وإمّا حُكميٌّ؛ لإشعار المُنادَى بأنَّه قد قصَّر، أو غَفَل عَن بَعضِ ما يجبُ عليه، فجاء النِّداءُ؛ لينبِّهه، ويستنهِضَه، ويُقرِّبه مِن طاعةِ رَبِّه[1].

غَرَضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

التَّنويهُ بِصِفَةِ الإيمانِ وأَثَرُها فـي إحـيـاءِ المطلوبِ بالنِّداء

في تعريفِ المنادَى بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تنويهٌ بِشَأنِهم، وتنبيهٌ على أنَّ أوثَقَ ما يُعرَفون به، وأشرَفَ ما يُنعَتون به هو الإيمانُ؛ إذ هو حِليَةُ القلوب، ووِسامُ النُّفوس، وغايةُ ما يُتفاخر به في الدُّنيا والآخرة، فكأنَّما قيل: (يا مَن شَرَّفَكُم اللّه بزينةِ الإيمان، وتَمَيَّزتُم عَن غيركم بهذه الصِّفة العليَّة، الزَموا ما يَليقُ بها، وحقِّقوا مُقتضاها، فإنَّ مَن وُصِفَ بشَيءٍ، حُقَّ عليه أن يتحلَّى بحقيقته، ويُرِيَ اللّهَ مِن نَفسِه صِدقَ الصِّلة، وذلك لا يكونُ إلّا بالقيام بما سيأتي مِن أمرٍ بالخير ونهيٍ عَن الشَّرِّ، والحرصِ على تزكيةِ النَّفسِ والأهلِ؛ ليكونَ الإيمانُ ظاهرًا في القول والعمل)[2].

نُكتةُ التَّعبير بصيغةِ الماضي:

الإيـمـانُ قـاعـدةُ العمل والاسـتـجـابـةِ لأمرِ الله ونَهيِه وتحذيره

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ الإيمانَ قد تَحقَّق فيهم، وثَبَت، وأنَّهم أهلٌ للنِّداء، وما تضمَّنه مِن الأمرِ والتَّحذير؛ فالإيمانُ وصفٌ راسخٌ فيهم، يُبنى عليه التَّكليفُ، وتُناطُ به الأوامرُ والنَّواهي، فكأنَّ اللّهَ تعالى يقولُ لهم: (أنتم الذين صدَّقتم، وآمنتم فيما مضى، فاثبتوا على ما آمنتم به، وحقِّقوا لوازِمَه في واقِعِكم، ومنه القيامُ بِأمرِ أنفُسِكم وأهليكم).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 365، والجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 387.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 18، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 2152/ 3 - 2153.

دلالةُ صيغة الأمر ﴿قُوٓاْ﴾:

في توجيهِ الأمرِ ﴿قُوٓاْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ ما يدلُّ بصيغة الفعل ومادَّته على قوَّة الأمر وعُلوِّ الخَطبِ، وتَبعَثُ في النَّفس رَهبةَ المأمور به، وعِظَم التَّبِعَة المُتَرَتِّبَة على التَّفريط فيه؛ إذ ليس الأمر بوقاية النَّفسِ والأهلِ - مِن نارٍ وقودُها النّاسُ والحجارةُ - مِن شأنٍ يُتهاوَن به، بل هو مِن آكدِ ما يجبُ على المؤمن أن يستجمِعَ له عَزْمَ القلب، وحَزْمَ الجوارح، ثُمَّ إنَّ التَّعبير بهذا الفعل يُشعِر بوجوب المُبادرةِ والمسارعة، ويوقِظُ القلوبَ إلى خُطورةِ العاقبة؛ إنْ فُرِّط في هذا الواجبِ الجليل[1].

الإشعارُ بوجوب المُبادرة والمُسارعة، وإيقاظُ القلوب إلى خطورة العاقبة

غَرَضُ تقديم النَّفس على الأهل:

قُدِّم ذِكرُ النَّفسِ على الأهلِ في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾؛ لِما جُبلَ عليه الإنسانُ مِن تقديم نَفسِه فيما يُحذَر، وحِرصِه على نجاتها قبل غيرها، فناسبَ أن يُبتدأ بها في مقام الوقاية، كما أنَّ تزكية المرء لِنَفسِه، وموعظتَه لها، أبلغُ في أثرِه؛ إذا أرادَ أن يعِظَ غيرَهُ، فإنَّ مَن قرَنَ عملَهُ بكلامِه؛ كان أدعَى للقبول، وأيضًا فإنَّ صَلاحَ القائمِ على البيت أساسٌ في صَلاحِ أهلِه، فإذا استقامَ؛ استقامَت به أحوالُ مَن تحت كنَفِه[2].

لا خَيرَ في واعظٍ غفلت نفسُه عَن وعظِ لسانه

دلالةُ عطفِ الأهلينَ على الأنفُس:

عُطِفَ الأهلُ على النَّفس في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، بواوٍ تُفيدُ المُصاحَبة والتَّشريكَ في الحُكم؛ إيذانًا بأنَّ وقاية النَّفس لا تنفكُّ عن وقايةِ الأهل، وأنَّ العاقلَ لا يَخلصُ بنفسِه، ويَذرُ من يليه، بل يَسعى في نَجاتِهم سَعيَه في خلاصِه، ويجتهدُ

الإيذانُ بأنَّ وقاية النَّفس لا تَنفكُّ عن وقايةِ الأهل

(1) الرّسعني، رموز الكنوز: 8/ 188.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 162، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 704، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 1532.

في وعظِهم كاجتهادِه في صَلاحِ أمرِه، حتَّى كأنَّ النَّفسَ وأهلَها في الاتِّعاظِ والنَّجاةِ كالجسدِ وأطرافِه، يُصيبُها الخيرُ دفعةً واحدةً، وتَعمُّها الرَّحمة في وقتٍ مُتقاربٍ لا تَفاوُتَ فيه، بل هُما في الخَطَر شُركاء، وفي النَّجاةِ سواءٌ[1].

توجيهُ تخصيص الأهلِ بالذِّكر:

الأقربون أولى بالمعروف، وأحقُّ بالمُبادرة إلى التَّذكير

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ الأهلَ بالنُّصح، في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، مع اشتراك الأجانب في حُكم الموعظة؛ لما تقرَّر في الأذهان من أنَّ الأقربين أولَى بالمعروف، وأحقُّ بالمُبادرة إلى التَّذكير؛ إذْ رابطةُ القَرابَةِ توجبُ مزيدَ العناية، ووشائجُ النَّسَبِ تُقَدِّمهم في سُلَّم الإصلاح، وهذا ونظائرُه في القرآن الكريم كثيرٌ، منه قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، فبدأ بالأقرَب فالأقرَب؛ لِما لَهُم من الحظِّ في القُرب والمُخالطة.

ثُمَّ إنَّ شروطَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر قد تتعذَّرُ في شأنِ الأجانب، فلا يُستطاعُ النَّفاذُ إليهم، بخلافِ الأهل، فإنَّ للرَّجل فيهم سُلطانًا، ولسانُه فيهم أمضَى، وسُبُل النُّصح إليهم أيسَر، فَهُم أولى النّاس بِوَعظِه، وأجدَرُهم بنُصحِهِ، فإنَّ فيهم صلاحَ بَيتِه، وفي صلاحِهِم صلاح أمرِه[2].

بلاغةُ المجاز في مفردة ﴿قُوٓاْ﴾:

ذِكرُ نتائج العمل مِن موجبات التَّرغيب فيه والتَّرهيب مِن تركه

خاطَبَ النَّظمُ الكريمُ أربابَ الحِجى مِن المؤمنين، فقال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، وهو أمرٌ قد انطوى على عظيمِ الموعظة؛ إذ وُجِّه الخطابُ إلى ذوي الولاية مِن أهل الإيمان، أن يكونوا حُجُبًا بين أهليهم وبين لظى الجحيم، وقد جاء فعل ﴿قُوٓاْ﴾

---

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 1851، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 194، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 212.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 58/ 10.

مجازًا مُرسلًا، علاقته السَّببيَّة؛ إذ أُطلق المُسَبَّب (الوقاية)، وأُريدَ به السَّبب (الموعظة والتَّوجيه)؛ لأنَّ هذه الأسباب هي التي تُفضي - بإذن الله - إلى السَّلامة من النّار، باعتبار أنَّ الموعظة وما يَتبعُها مِن هدي واستقامَةٍ سببُ الوقايةِ مِن النّار، وفيه مِن الحثِّ على الأخذِ بالأسباب الموصلَةِ إلى النَّجاة ما فيه.

ويحتملُ أن يكون المجازُ استعارةً تصريحيَّة، شُبِّهَت الموعظةُ والتَّقوى والعملُ الصّالح، وكُلُّ ما يُفضي إلى النَّجاة، بالحاجبِ المانع، والوقايةِ الحسّيَّةِ الحائلةِ بَينَ الإنسان ومَهلَكَته، فجعلها كأنَّها درعٌ مانع، أو جدارٌ واقٍ، يَحولُ بين الإنسان وبَينَ عذاب السَّعير؛ مُبالغةً في بيانِ أثرِها، وتصويرًا لعَظيم وقعِها، وهو ممّا يُهيِّجُ السّامع، ويَستميلُ النَّفسَ إلى ما يُرضي ربَّها[1].

غَرَضُ تنكير لفظ ﴿نَارًا﴾:

تعظيمُ النّار وتهويلُها، وبيانُ شِدَّة حرِّها وفظاعةِ أمرِها

نُكِّر لَفظُ ﴿نَارًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ في سياق التَّهديد؛ للتَّعظيم والتَّهويل؛ ليدلَّ بذلك على فظاعةِ الشَّأن، وهَولِ الخَطب؛ فهي نارٌ لا يَعلم مقدارَ حَرِّها إلّا اللّهُ، ولا يُقدِّرُ مِقدارَ سَعيرِها إلّا هو، فالتَّنكيرُ في مقام الوعيد يدلُّ على الشِّدَّة والفظاعة؛ إيذانًا بأنَّها نارٌ خارِجَةٌ عن المألوف، مُفزِعَةٌ في أوصافِها، مُستَعِرَةٌ في لهيبها، عظيمةٌ في أثرِها[2].

بلاغة استعمالِ مُفردة الوقود:

تحذيرُ النّاس أن يكونوا سببَ استمرار النّار

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿وَقُودُهَا﴾، في قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾، وهو ما تُسعَّر به النّار، وتُلَهَّب، وأصلُه ما يُجعل فيها لإذكاءِ لهيبها وإشعالِ سَعيرها، وهو سرُّ بقائها وثباتها؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 365، والصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 358، والزّحيلي، التّفسير المنير: 28/ 314.

(2) القنوجي، فتح البيان: 14/ 216، والطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 476، والجزائري، أيسر التّفاسير: 5/ 387.

ففيه تهويلٌ لشأنِ اشتعالها، واستمرارِ نارِها، فإذا عَلِم النّاسُ أنَّهم الوقود؛ دَفَعَهم ذلك للاتِّقاء، والابتعادِ عن أسباب دخولِها.

دلالةُ إضافةِ الضَّمير إلى النّار:

نارُ الآخرة هَولٌ عظيمٌ، وسَعيرٌ مُقيمٌ، وعَذابٌ لا يُطاق

أُضيفَ لفظُ (الوقود) إلى ضمير النّار في قوله تعالى: ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾، على وجهٍ فيه إيماءٌ بَليغٌ وإشارةٌ عجيبةٌ، تُنبِئُ عَن هَول هذه النّار وشِدَّةِ اشتِعالها، فإنَّها نارٌ ليست كسائر النّيران؛ إذْ نيرانُ الدُّنيا لا تُلهَب إلّا بِوَقودٍ يُعَدُّ لَها، مِن حَطَبٍ أو نَفطٍ أو ما شابَهَهُ، وأمّا نارُ جَهَنَّم - أعاذنا الله منها - فإنَّما تَتَّقِد بما يُلقَى فيها مِن النّاس والحجارة، فهي توقدُ بنفس ما تُحرِقُ، ولا تحتاج إلى وقودٍ سابقٍ على ما يُلقى فيها، وهذا مِن دلائلِ عظيمِ اشتعالها وشِدَّة سَعيرِها، فَوقودها ليس شيئًا يُجلَب مِن خارجها، بل هو عَيْنُ ما تُنزل عليه مِن العذاب، ثُمَّ إنَّ الحجارة مِن أشَدِّ ما يحتمل النّار، ومع ذلك فإنَّ هذه النّار العاتية تتَّقد بها، فلا تُبقي فيها جمادًا ولا عاقلًا إلّا أحرَقت لُبَّه، ولا عَجَب، فإنَّها نارٌ أعَدَّها الجَبّار، وقودُها مَن عَصاهُ، لا تنطفئُ، ولا تَهدَأُ، ولا يُرجَى لها خُمود[1].

غَرَضُ تعريف المُسند ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾:

التَّهويلُ البالغُ والتَّخويفُ الشَّديدُ من نارٍ وقودُها النّاس والحجارة

تعريفُ المُسنَد في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾، جاء لأجل تمكينِ المعنى في ذِهن المُخاطَب وتقريرِه في نَفسِه، ودَفعِ ما قد يُساوِرُه مِن غَفلَةٍ أو تَقصيرٍ، وقد تَحَقَّق هذا المعنى مِن وجهَين:

أوَّلُهما: نفيُ أن تكون نارُ جهنَّم كغيرها مِن نيران الدُّنيا، توقَد بالحطب ونحوه، بل وقودُها ذاتُه هو ما يُلقى فيها؛ فالنّاس المُشرِكون هُم مادَّتها، فبها يشتعلُ سَعيرها[2].

---

(1) التفسير القرآني للقرآن: 14/ 1032، والطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 476، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 472.

(2) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 476.

وثانيهما: إثباتُ أنَّ الحجارة - مع ما فيها من الصَّلابة والمُمانعة - تتَّقدُ بها تلك النّار لعظيم حرارتها وقوَّة لهيبِها، مِمّا يدلُّ على شِدَّتها وهَولِ عَذابها، وفي مجموع ذلك تهويلٌ بالغٌ وتخويفٌ شديدٌ، يُؤَدّيان إلى ترسيخ الغَرَضِ الوعظيِّ، وتنبيهِ القلوب إلى خُطورةِ التَّقصير في وقايةِ النَّفسِ والأهلِ من نارٍ هذا وقودُها[1].

نُكتَةُ قَرنِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بالحجارة في الذِّكر:

اجتماعُ النّاسِ والحجارةِ في القَسوةِ والإهانةِ تهويلٌ للموقف وتعظيمٌ للعذاب

عَطْفُ (الحجارة) على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، تعظيمٌ لشأن العذاب وتغليظٌ للوعيد؛ فتلك الأصنام التي عبَدَها المشركون، يُقذفون معها في النّار؛ ليَرَوا مصيرَ معبوداتهم، فتزداد حسرتهُم، كما أنَّ الحجارة يكون فيها الكبريت أشدَّ ما يكون اشتعالًا، فتزيد النّار لهيبًا واشتعالًا، كما فيه دلالةٌ على فَرْطِ شِدَّة النّار وعظيم حَرِّها؛ إذِ الأحجارُ بطبعِها مِمّا يُطفئُ النّيرانَ، ويَحبِسُ لهيبَها، فإذا اشتعلت بها النّارُ بَدَلَ أن تنطفئ؛ فقد دَلَّ ذلك على أنَّها نارٌ فائقةُ الوصف، بالغةُ الحَدِّ في السَّعير والاشتعال، كما أنَّها ذُكِرَت؛ ليُعلم أنَّ نارًا تُحرِقُ الحجارة، أولى وأقدرُ على إحراقِ البَشَرِ، مع الإيماء إلى أنَّ النّاس الذين دخلوا النّار هم أصحابُ القلوب التي هي كالحجارةِ في عدم الاستجابة لأمرِ اللّه تعالى، ففي قَرْن ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بـ(الحجارة) تصويرٌ مُرعِبٌ لعذابٍ يجمعُ بين الإحراق والإهانة، فيُساوى الإنسان - المكرَّم في أصل خَلقِه - بالحجر، فيُطرَح كما يُطرح، فاجتمَع في هذا الجمع العذابُ الحِسّيُّ والمعنَويُّ، وهو وعيدٌ يَهُزُّ القلوبَ، ويَدفَعُ النُّفوسَ إلى طَلَبِ النَّجاة[2].

(1) صبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2156.

(2) العزّ بن عبد السّلام، تفسير العزّ بن عبد السّلام: 2/ 290، والماوردي، النّكت والعيون: 6/ 44، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2156، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 162.

ملائكةُ العذابِ أصحابُ المُكنةِ في التَّصرُّفِ والتَّسلُّط على مَن في النّار

بلاغةُ الاستعارةِ في حرف الاستعلاء:

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ بحرف الجَرِّ (على)، وهو حرفٌ يُفيد الاستعلاءَ المكانيَّ، والمقصودُ به هُنا التَّمكُّنُ والتَّسَلُّطُ؛ إشارةً إلى أنَّ أولئك الملائكةَ موكَّلون بالنّار، مُتَسَلِّطون عليها، نافذو الأمرِ في تصريفِ أحوال أهلِها بأمر اللّه تعالى، وقد صوِّرت هذه العلاقةُ بأسلوب الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبَعيَّة؛ إذ شُبِّهت هيئةُ الملائكة القائمين على النّار بهيئة الفارس المُستعلي على دابَّته، المُتحكِّمِ في سيرِها وتوجيهِها، فكان في هذا التَّصوير إيحاءٌ بقوَّة السَّيطرة، والولايةِ والقيامِ، والاستيلاءِ والغلبةِ على ما فيها مِن الأمور، وكأنَّ النّار في قبضتِهم مُنقادةٌ لا تخرجُ عن أمرِهم[1].

نُكتة تنكير لفظ ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾:

نُكِّر المُسنَد إليه ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم؛ ليقعَ في النَّفسِ أنَّهم ملائكةٌ عِظامٌ لا يُشبِهُهم غَيرُهم في الوصف، ولا يَرقى إلى مرتبتِهم أحَدٌ[2].

دَفْعُ الأوهامِ بذِكرِ أوصافٍ تُبيِّن حقائقَ المقام

فائدةُ وصفِ الملائكةِ بالغِلظة والشِّدَّة:

لمّا كان قد يُتوهَّمُ مِن إطلاقِ لفظ ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ أن يكون ذلك موجِبًا للسُّكون والاطمئنان؛ لِما عَهِد النّاسُ مِن صفاتهم في مواضعِ الرَّحمة، ومظاهرِ اللّين والشَّفَقة، وطبيعَتِهم النّورانيَّة، وخضوعِهم الدّائم لأمر اللّه تَعَبُّدًا وطاعةً، فاقتضَت بلاغةُ التَّنزيلِ أن يُزال هذا الإيهام، ويُدفعَ هذا الظَّنُّ، بوصفِ المُسند إليه بأوصافٍ تَقطَعُ الرَّجاء، وتُفزِع القلوب، فجاء النَّظمُ بقوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾، فلو اقتصر على قوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾؛ لَما أفادَ ما أفادَهُ هذا الوَصفُ مِن الرُّعب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 366، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 473.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2158.

والرَّهبة، الذي يَكشِفُ حقيقَةَ أولئك الحُرّاسِ، ويُنَزِّلُهم في القلب مَنزِلَةَ المُخيفِ المُرهِب؛ تنبيهًا على أنَّهم ليسوا موضعَ أمَلٍ في شفاعةٍ، ولا مَحَلَّ رجاءٍ في رَحمَةٍ، وإنَّما هُم جُنودٌ غِلاظٌ شِدادٌ، وقد كان هذا الوصفُ لازمًا لإتمام التَّصوير، وتحقيقِ غاية التَّخويف[1].

وفيه تلميحٌ إلى صِفَةِ الرَّحمةِ في قَلبِ النَّبيِّ ﷺ، المدفوع عنه هذا الوصف، فمَن عَصاهُ في الدُّنيا زاهِدًا في رحمتِه؛ فلْيَلقَ غِلظةَ الملائكة، وفي إطلاقِ الوصف ما يُفيدُ العُمومَ في الشِّدَّة والغِلْظة، فهُم غِلاظٌ في أبدانهم، وقلوبهم، وأفعالهم، وغِلَظُهم ليس مخصوصًا بوجهٍ دون آخر، بل هو شامِلٌ لكلِّ معنًى يرِدُ تحت مادَّة الغِلَظ، فلا يُنتظر منهم رأفةٌ، ولا يُرتجى عندهم لينٌ؛ فهُم غِلاظٌ في الهيئة، شِدادٌ في البطش، وفي هذا الوصف إرهابٌ وإفزاعٌ، وقطعٌ لطريق الأمل والتَّخفيف[2].

نُكتةُ إتباعِ وصْفِ الغِلظة بوصفِ الشِّدَّة:

دَفـعُ تَـوَهُّـم الإفـلاتِ مِـن الـعـذاب أو الـهُـروبِ مِـن العقاب

ثنَّى النَّظمُ الكريمُ وصفَ الملائكةِ بصفة الشِّدَّة، في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾، التي سيقت لزيادة التَّيئيس والتَّخويفِ؛ إذ وُصِفوا بـ(الشِّداد)، وهو جمعٌ يَدُلُّ على شِدَّة القوَّة والبأسِ في الأبدانِ والأفعالِ، فكان في ذلك قطعٌ لِما قد يَعتري النُّفوسَ مِن وهمِ الفرار أو التَّغلُّب، أو ما يتسلَّلُ إلى الخيال مِن احتمال الخروجِ مِن أيديهم، فإنَّهم مُستحكِمون في قبضتِهم، لا يُغالبون، ولا يُدافعون[3].

بلاغة الكناية في الوصف:

بيانُ كمال القوَّةِ فـي الـتَّـنـفـيـذ، وسُرعةِ الامتثال لأوامر الجليل

في وصف الملائكة بقوله تعالى: ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾، كنايةٌ بليغةٌ عن كمال قوَّتهم في التَّنفيذ، وسُرعة امتثالهم لأوامر اللّه دون

(1) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 5/ 333، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 213.

(2) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 5/ 333، وصبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2158.

(3) الخطيب، التّفسير القرآني: 14/ 1032، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 366.

إمهالٍ أو تردُّدٍ، فهي تَدُلُّ على صفاتٍ عظيمةٍ مِن الطّاعة والقوَّة والانقياد، فالكناية هنا توحي بكمال الطّاعة، وشِدَّة البأس، وتمام الخضوعِ لِعَظَمَة الجَبّار ﷻ، على وجهٍ يُرهِبُ السّامع، ويملأ قَلبَه خضوعًا وخوفًا[1].

دلالةُ النَّعت بجملة ﴿لَّا يَعۡصُونَ﴾:

طاعةُ الله تعالى وصفٌ ثابتٌ للغِلاظ الشِّداد

قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ نعتٌ للملائكة، فَهُم يَتَّصِفون بِعَدَم عصيان الله تعالى، ولأنَّ في هذه الجُملة ثناءً عليهم، وإشادةً بكمالِ طاعتهِم وخضوعِهِم لأمر الله؛ لِما يقتضيه الوصفان الأوَّلان مِن كراهيَة النُّفوس لهم، فجاء هذا الثَّناءُ كاشفًا عن حقيقتهم، ومُبرِّرًا لوصفِهِم، فَهُم وإن اشتدّوا، فإنَّما اشتدّوا بأمرٍ، وغَلَظوا بِحُكمٍ، فكان في هذا الفصل بيانٌ صريحٌ بأنَّ ما يُباشرونه مِن التَّعذيب والبطش إنَّما هو بأمرٍ مِن الله، لا يملكون فيه تَصَرُّفًا ولا رأيًا[2].

دلالةُ نفيِ العصيانِ عن الملائكةِ الكرام:

إظهارُ كمالِ الخضوعِ وتمامِ الامتثال

نفيُ العصيان عن الملائكة ﷺ يَدُلُّ على خلوِّهم مِن صفات المُعاندة والتَّكبُّر، فهُم لا يعصون الله، ولا يتعالَون على طاعته، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]؛ مِمّا يُبرز كمالَ خضوعهم، وتمامَ امتثالهم لأوامر الله ﷻ[3].

دلالة التَّعبير بصيغة المُضارع:

استمرار الطّاعة وتجدُّد الامتثال وصفٌ يضادُّ وصف أصحاب النّار

جاء التَّعبير بالأفعال المُضارعة، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار طاعتهم وتَجَدُّد امتثالهم، فَهُم في كُلِّ وقتٍ وحينٍ على استعدادٍ تامٍّ لتنفيذ ما يُؤمَرون به؛ لا يتراخَون، ولا يتوانَون، فالمضارع في ﴿يَعۡصُونَ﴾ و﴿وَيَفۡعَلُونَ﴾

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 366.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 351.

و﴿يُؤۡمَرُونَ﴾، يُفيد الحال والاستقبال، ويدلُّ على أنَّهم دائمون على الطّاعة، مُتَّصِلون بها، لا يطرأ عليهم فتورٌ ولا مخالفة[1].

بلاغة التَّعبير باسم الجلالة:

تعظيمُ المقام، وتربيةُ المهابةِ في النُّفوس

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾؛ لِما فيه مِن تعظيم للمقام، وتربيةٍ للمهابة في النُّفوس؛ إذ دلَّ على أنَّ هؤلاء الملائكة قائمون على النّار بأمر اللّٰه وتكليفٍ منه جلَّ شأنه، فهُم لا يملكون لأنفسهم حولًا ولا قوَّة، ولا يُخالفون له أمرًا[2].

بلاغة السَّلب والإيجاب:

توكيدُ الطّاعة بفعل الأوامر كمالٌ في الانقياد وتمامٌ في الاستجابة

في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ فنُّ السَّلْبِ والإيجابِ، وهو فنٌّ عجيبٌ، في بناءِ الكلام على نفي الشَّيء مِن جِهةٍ وإيجابِه مِن جهةٍ أخرى، فقَدْ سلَبَ ﷻ عن هؤلاءِ الموصوفينَ العِصيانَ، وأوجَبَ لهمُ الطّاعةَ، وهذا الأسلوبُ يُبرزُ كمالَ انقيادِهم لأوامرِه، وهذا الجمعُ بين النَّفي والإثبات يُعطي المعنى قوَّةً وتوكيدًا، ويُظهِر عَظَمَةَ هؤلاء الموصوفين في امتثالِهم لأمر اللّٰه تعالى[3].

نُكتة التَّعبير بالفعل الماضي:

الإشارةُ إلى دوام الامتثال وتكرُّرِه ونَيلِ شرفِ العصمة على الدَّوام

جاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿أَمَرَهُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾، مع أنَّ نفي العصيان جاء بصيغة المُضارع ﴿لَّا يَعۡصُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الأمر قد وقَعَ، وأنَّ العصيان لا يكون إلّا بعد صدور الأمر، فجاء النَّفيُ بصيغة الاستقبال؛ لأنَّ الطّاعة تَتَجدَّد منهم، كُلَّما تَجدَّد الأمر، وفي ذلك إشارةٌ إلى دوام الامتثال وتكرُّره، كما هو الحالُ في تعذيبِ الأشقياء، فإنَّه يتكرَّرُ على أيديهم مَرَّةً

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 277، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 163.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2159.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن: 10/ 139.

بعد مَرَّةٍ، وقد استدَلَّ بعضُ الأئِمَّة بهذه الآية على عِصمة الملائكة أجمعين؛ إذ نفيُ العصيان عنهم جاء مطلقًا في كُلِّ ما يُؤمَرونَ به، في كُلِّ زمانٍ ومكان(1).

بلاغةُ الإطناب بالعطف:

بيانُ تعدُّد الخصال العِظام للملائكة الكرام

اختلف العلماءُ في المعنى الذي تُفيده جُملة: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، والسَّببُ في هذا الخلاف يعود إلى العطف الذي يقتضي في الأصل المُغايرة بَيْنَ الجُملتين؛ فذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الجُملة الثّانية تكرارٌ للأولى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾، لكنَّه تكرارٌ يُرادُ به التَّوكيد(2)، بينما رأى بعضُهم أنَّ بينهما فَرْقًا بيِّنًا؛ فالأولى تَدُلُّ على قبولهم للأوامر وعدمِ استكبارِهم عنها، أمّا الثّانية؛ فبيانٌ لامتثالِهم الفعليِّ دون تثاقُلٍ أو توانٍ(3)، أو أنَّ الجُملة الأولى؛ لبيان استمرارِ إتيانِهم بأوامره، والثّانية؛ لأنَّهم لا يفعلون شيئًا ما لم يُؤمَروا به(4)، وعدَّ الآلوسيُّ الجملة الأولى لنفيِ المعاندة والتَّمرُّد والاستعلاء؛ لِما فيه مِن بيانٍ لِتَعَدُّد خِصالِ هؤلاء الملائكة العظام، والثّانية لإثبات فِطنتهم ونفيِ الكسل عنهم في أداء المَهامِّ(5)، والأظهَرُ الجمعُ بَيْنَ كُلِّ هذه الآراء، فالجُملة توكيدٌ لما يُفهَمُ ضِمْنًا من نفي العصيان، جاء لإطالة الثَّناء وتعظيم الصّورة البديعة لطاعتهم، فالتَّصريحُ بالفعل أوضَحُ مِن نفي الضِدِّ، وجاء العطفُ مع اختلافِ الدَّلالة للتَّنويه بعظمة امتثالِهم، بل يحتملُ أن يكونَ نفيُ العصيان مُتعلِّقًا بأعمالِهم الخاصَّة، أمّا فعلُ ما يُؤمَرونَ به؛ فمُرتبطٌ بما كُلِّفوا به من شؤون النّارِ وتعذيب العُصاة(6).

---

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 474.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 253.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 569، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 163.

(4) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 277.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 351.

(6) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 573، 574، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 366.

نكتةُ استعمالِ حرف ﴿مَا﴾:

الإلحاحُ إلى استعداد الملائكة للقيام بالتَّكاليف على أيِّ وجهٍ كان

استعمل النَّظمُ الكريمُ ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾؛ للإلماح إلى استعدادِهم للقيام بالتَّكاليف على أيِّ وجهٍ ورَدَ الأمرُ، وكيفما وقعَ؛ تعظيمًا لأمر الآمرِ ﷻ، فَهُم يُؤَدّونَ أوامرَه في أوانِها دون تأخيرٍ أو توانٍ، فلا يُرجئون ما أُمِروا به، وهم قادرون على إنفاذِها دون عَجزٍ أو ضعفٍ، كائنًا ما كان مضمونُها، وفي ذلك أبلغُ الثَّناء على الملائكة الأطهار[1].

نكتةُ بناءِ فِعل ﴿يُؤۡمَرُونَ﴾ للمفعول:

لا تَرَدُّد في تنفيذ الأوامر عند العِلم بصفاتِ الآمر

بُنِيَ فعل ﴿يُؤۡمَرُونَ﴾ للمَفعول، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾؛ ليدلَّ على كمال انقيادهم وسُرعةِ امتثالِهم، لِما استقرَّ في قلوبِهم مِن يقينٍ جازِم، وعِلمٍ راسِخ، بأنَّ كُلَّ ما يُكلَّفون به من شِدَّةٍ وغِلظَةٍ تُجاهَ أهلِ النّار، إنَّما هو مِن عند الحَقِّ سُبحانه، الحكيم العدل، فلا يَتَرَدَّدون، ولا يَتثاقلون، بل يُنفِّذون الأمرَ مُطمَئِنّين إلى مصدرِه، مُستسلمين لجلال اللّه ﷻ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّة:

الفعل والعمل:

العمل فِعلٌ صادر مِن حيوانٍ بقصدٍ، والفِعلُ أعمُّ منه

الفعلُ كونُ الشَّيء مُؤثِّرًا في غيره[3]، ولَفظُ الفِعلِ أعمُّ من معنى سائر أخواته، نحو: العمل، والصُّنع، والإبداع، والإحداث، والخَلق والكسب[4]، أمّا العمل؛ فهو كلُّ فعلٍ صادر من الحيوان بقصدٍ، فالعملُ لا يُقال إلّا لِما كان مِن الحيوان دون ما كان مِن الجماد، ولِما كان بقصدٍ وعِلمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[5]، فهو أخصُّ من الفعل[6].

---

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 168، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1208، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2159.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2159.

(3) الجرجاني، التّعريفات، ص: 168.

(4) الجرجاني، التّعريفات، ص: 168.

(5) المناوي، التَّوقيف على مُهمّات التعاريف، ص: 247، والرّاغب، المفردات: (عمل).

(6) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (عمل).

والعملُ لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرِنَ بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعض الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلم؛ تنبيهًا أنَّه من مقتضاه[1].

فالفعل لفظٌ عامٌّ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلم أو غيرِ علمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان مِن الإنسان والحيوان والجماد[2]، والعملُ أخَصُّ منه.

(1) تفسير الراغب الأصفهاني: 1/ 119.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 322.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾ [التحريم: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بيان أحوال المعذَّبين إلى تعيين المعذَّبين

بَعدَ أن بَيَّنت الآيات السابقة أنَّ مَن يُقَصِّر في حَقِّ نفسه وأهله يُعَرِّض نَفسَه لعذاب النّار؛ انتقل السّياقُ الإلهيُّ إلى تَصويرِ مشهدٍ مِن مشاهِدِ هذا العذاب؛ لزيادة التَّخويف والتَّنفير، خُصوصًا مِن عواقِبِ التَّقصير؛ فقال سُبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فَبَيَّن سُبحانه ما تَقولُه الملائِكَةُ لِأهل النّار عندما يُعرَضون على النّار التي سيكونون حَطبًا ووقودًا لها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡتَذِرُواْ﴾: (عذر) أصلٌ يَدُلُّ على اعتراض ما يحول دون المعتاد من نفاذٍ أو سيرٍ أو رؤيةٍ[2]، والاعتِذارُ مَصدَرُ (اعتَذَرَ)، وأصلُه مِن العُذرِ، وهو الحُجَّةُ التي يُعتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرفَعُ اللَّومَ فهو عُذرٌ، يُقال: عَذَرتُه عُذرًا، أي: رَفَعتُ عَنهُ اللَّومَ، واعتَذَرَ مِن ذَنبِه، وتَعَذَّرَ؛ إذا تَنَصَّلَ منه، واحتَجَّ لِنَفسِه، قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: 94]، والنّاسُ في الاعتذار عن الذَّنب على ثلاثة أوجه: مَن أنكر، أو برَّر، أو اعترف، وتاب، فالتَّوبةُ أرفَعُها، وكُلُّ توبةٍ عُذرٌ، وليس كُلُّ عُذرٍ توبةً، واعتَذَرَ أيضًا بِمعنى أعذَرَ، أي صارَ ذا عُذرٍ، ويُقال: اعتَذَرَ إلى فُلانٍ، فَعَذَرَه، أيْ: أزالَ ما كان في نَفْسِه

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 572، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 366، 367، والخطيب، التَّفسير القرآني: 14/ 1032.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عذر).

عليه في الحَقيقَةِ أو في الظّاهِرِ[1]، والاعتذارُ هُنا هو التَّوبة، والتَّوبةُ غَيرُ مقبولةٍ بعد الدُّخول في النّار[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قطعُ الرَّجاء مِن قلوبِ الكافرين

بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ ما يُقال للكافرين يومَ القيامة مِن توبيخٍ وتأنيبٍ، فيُقالُ لهم: يا مَن كَفَرتُم باللّه، لا تعتذروا، فهذا يومُ الحساب، لا يُقبَل فيه عذرٌ، فقد فاتَ وقتُ قَبولِ الاعتِذارِ، وأنتم اليوم تحصدون نتيجةَ أفعالِكم التي ارتكبتُموها في الدُّنيا مِن كُفرٍ ومعصية[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ النِّداء بأداة (يا):

الكافرُ بعيدٌ عن رحمةِ الله تعالى باختيارِه الكُفر على الإيمان

افتتحتِ الآيةُ الكريمةُ خطابَ الكافرين بنداءٍ يَحمِلُ في طَيّاته التَّبكيتَ والتَّحسيرَ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقد استُعمِلت أداةُ النِّداء (يا) التي تُفيد البُعد، فَهُم لِحَقارَتِهم وبُعدِهم عَن الرَّحمة والخير صاروا في منزلةِ البعيد الذي لا يُرغَبُ في الاقتراب منه، ولا يُؤبَهُ له، وهذا الأسلوبُ يعكس نوعًا مِن العذاب النَّفسيِّ، يُضاف إلى العذاب الحِسِّيِّ بالنّار[4].

بلاغة المجاز بالحذف:

تصويرُ هَولِ الموقفِ بحذف القولِ أشدُّ في مباغتةِ المخاطَب

جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هي مقولٌ لقولٍ محذوفٍ، حُذِفَ إيجازًا واعتمادًا على فَهْمِ السّامع مِن سياق الحال؛ إذ المقامُ مقامُ تهديدٍ وتبكيتٍ، فكان الحذفُ أبلغَ في تصوير الهَول، وإنَّما يُقال لهم ذلك؛ إذ تدفعُهم الملائكةُ إلى الجحيم دفعًا؛ امتثالًا لأمر

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 30، والكفويُّ، الكليَّات، ص: 308.

(2) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 572.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 197، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 168، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 199، والسّعدي، تفسير السعدي، ص: 874.

(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2161.

رَبِّهم، فيُلقى في روعهم أنَّه لا سبيل للاعتذار، وقد انقطعت علائقُ الرَّجاء، وظَهَرَ للعيان أنَّ الجزاءَ مَحضُ ما كَسَبَتْهُ أيديهِم مِن الكُفر والعِصيان(1).

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول:

بيانُ عِلَّة استحقاقِ الكافرين المصيرَ المشؤومَ

آثرَ النَّظمُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ للتَّذكير بسبب استحقاقِهم المصيرَ المشؤومَ؛ إذْ لم يُذكَروا باسم مُجرَّدٍ، بل وُصفوا بكُفرهِم ليُقالَ لهم يوم القيامة: أنتم مَن ورَدَ النّارَ جزاءً على كُفرِكم، وتماديكُم في التَّعدّي على حدود اللّه، وتقصيرِكم في حقوق أنفسِكم وأهليكم، فيكون في هذا التَّعبير بيانٌ للجرم وتقريرٌ للعُقوبة، وتنبيهٌ على وجه الاستحقاق بتعليل صلة الموصول بذِكر الكفر(2).

نُكتةُ حَذفِ مُتعلِّقِ فِعل الكُفرِ:

تعميمُ ذمِّ الكافرين وتوسيعُ دائرَة توبيخِهم

حُذِف مُتعلِّق فِعلِ الكُفرِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتعميم الذَّمِّ وتوسيع التَّوبيخ؛ ليشملَ كُلَّ صوَر الكُفر وأنواعه، سواء كان كُفرًا باللّه، أم برُسُله، أم بآياته، أم بشَرعِه؛ إذ المقامُ مقامُ تهويلٍ وتفظيعٍ، فالحذفُ مُشعِرٌ بأنَّ كُفرَهم مستغرِقٌ لِكُلِّ ما يجبُ الإيمان به، مِمّا يَدُلُّ على شِدَّة جُرمهم.

نُكتة التَّعبير بصيغة الماضي:

أهلُ النّار أُشرِبَت قلوبُهم الكفر، فاستحقّوا التَّقريع

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ الكُفْرَ قد استقرَّ، واستحكَمَ في قلوبهم، فهو وصفٌ راسِخٌ، وجِنايةٌ قديمةٌ، تمكَّنت مِن نفوسهم، واستفحلَ شرُّها، فصاروا بها مستوجبين للتَّوبيخ والعذاب؛ إذ الفعلُ الماضي يُفيد تحقُّقَ الوقوع(3).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 268، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 352.
(2) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 14/ 492.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2161.

دلالةُ النَّهي وغرضُه:

التَّوبيخ والتَّيئيسُ؛ فلا عُذْرَ مسموعٌ لأصحاب النّار

قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، نهيٌ خَرَج مَخرَجَ التَّوبيخ والتَّيئيس؛ إذ لا فائدة في اعتذارِهم، وقد انقطعَ وقتُ القبول، وزالَ نفعُ التَّبرير، فالمعنى: (لا تعتذروا، فإنَّ اعتذارَكُم مَردودٌ، وعُذركم غير مقبول، بل لا عُذرَ لكم أصلًا)، وهذا النَّهيُ يحمل في طيّاته التَّقريعَ والتَّنكيلَ، ويُشعِرُهم بذُلِّ الخيبة والهوان؛ جزاءً وفاقًا لما كانوا عليه مِن كفرٍ وإجرام، فالنَّهيُ عن الاعتذار؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم، أو العُذرُ لا يَنفَعُهم[1].

غرضُ حذف معمول فعل ﴿تَعۡتَذِرُواْ﴾:

كلُّ ما صدرَ عن الكافر فغيرُ مقبولِ الاعتذارُ عنه

حُذِف مَعمولُ الفعل في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾، فلم يقل: (لا تعتذروا عن كفركم)؛ للإيماء إلى التَّعميم، أي: لا تعتذروا عن شيءٍ مِن أعمالكم، لا عَن كُفركم، ولا عَن معاصيكم، ولا عَن تقصيركم في حقِّ أنفُسكم وأهليكم؛ فَكُلُّ عذرٍ مردودٌ، وكُلُّ توبةٍ حينئذٍ غير مقبولة، فكان في حذفِ المعمول إشارةٌ إلى شُمول النَّهي لِكُلِّ صوَرِ الاعتذار، وتأكيدٌ على أنَّ البابَ قد أُغلِق، وأنَّ ما مضَى لا يُجبَرُ بالاعتذارِ بعد فواتِ الأوان[2].

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ في الفعل:

الإشارةُ إلى أنَّه اذا كان الاعتذارُ المتكلَّف مردودًا، فمُطلق الاعتذار أولى بالرَّدِّ وعدمِ القبول

جاء الفعلُ بصيغة الافتعال ﴿تَعۡتَذِرُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّكلُّف والمُبالغة في طلب المعذرة؛ إذْ صيغةُ الافتعال تُفيد بَذلَ الجُهد في استجلابِ القبول واسترضاءِ المخاطَب، فجاء النَّهي عن هذا اللَّون من الاعتذار؛ بيانًا لبُطلانه وسُقوطه، فإذا كان الاعتذارُ المتكلَّف مردودًا؛ فمُطلق الاعتذار أولى بالرَّدِّ وعدم القبول؛ لِعَدَم نفعه، ولِبُطلانِ أثَره يومَ لا ينفَعُ نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِن قَبلُ[3].

---

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 225، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 213، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 477.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2162.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 199، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 367.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾:

لفظ (اليوم) يَجمَعُ الرَّهبةَ والهَولَ والتَّقريعَ والتَّوبيخَ

(أل) في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ للعهد الحضوريِّ، والمقصودُ يوم القيامة، ذلك اليوم المشهود العظيم، المعروف في الأذهان بِعظَم شأنه وهَولِ مَواقفه، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل) جاء ليُفيدَ التَّعيينَ والتَّنبيهَ على عِظَمِ المقام، وكأنَّ لا يومَ سِواهُ في الشِّدَّة والرَّهبة، وفيه إشعارٌ بأنَّ هذا القولَ يُقال لهم في ذلك اليوم العصيب على سبيل التَّوبيخ والتَّحقير، حين يُقطَع الرَّجاءُ، ويُغلَقُ بابُ العُذر[1].

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

تحقيقُ العدل الإلهيِّ، وتعليلُ ميزان الجزاء

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على جهة الاستئناف البيانيِّ[2]، جاء جوابًا لِما يُقدَّر في النفس من تساؤلٍ: لِمَ لا يُقبل عُذرُهُم؟ فجاء البيانُ مُفحِمًا حاسمًا: (إنَّما تُجزون على ما اقترفتموه مِن الكفر والعصيان، لا تُعَذَّبون إلّا بما قَدَّمت أيديكم)، وفي هذا الفصلِ تحقيقٌ للعدل الإلهيِّ، وتقريرٌ لميزانِ الجزاء، وتفنيدٌ لِكُلِّ عُذرٍ متكلَّفٍ أو دعوى باطلة، وفيه تعليلٌ للنَّهي عن الاعتذار.

بلاغةُ القصر ونوعُه وغَرَضُه:

قصر الجزاء على مُطابقته لما كانوا يَعملونهُ في الدُّنيا

أفادَت ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، قصْرَ الجزاءِ على مُطابقته؛ لِما كانوا يَعملونه في الدُّنيا، قصرَ قَلبٍ، أي: ردًّا على ما قد يُتوهَّمُ منهم مِن رغبةٍ في تخفيف العذاب، أو التِماسٍ لعذرٍ يُهَوِّنُ مِن العقوبة الَّتي شاهَدوها، فجاء التَّعبيرُ على سبيلِ الحسم، كأنَّهم في مقام مَن يطلب الرَّحمةَ أو التَّخفيفَ، فقيل لهم: (ليس لكم جزاءٌ إلّا على وفق أعمالكم، فلا ظُلْمَ ولا تجاوز، وإنَّما هو العدلُ المحضُ، بما كسبَتۡ أيديكم)[3].

(1) القونوي، حاشية القونوي: 19/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 352.

(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 28/ 299، ومحمَّد طيب إبراهيم، إعراب القرآن الكريم الميسر: 1/ 560.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 199، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 367.

مُكافأة الكافرين على أعمالهم متجدِّدةٌ كأعمالهم في الدُّنيا

دلالة التَّعبير بفعل ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مادَّة (الجزاء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فيها معنى المكافأة والمقابلة، وهي تَدُلُّ على أنَّ ما يَنالُهُ العبد مِن العذاب أو الثَّواب، إنَّما هو على قدر عمله، لا يزيد، ولا ينقص، فَمِن أجلِ كُفرِكُم وعُتوِّكُم وظُلمِكُم تَدخُلون النّار جزاءَ عملكم، وفي ذلك المعنى يقول اللّه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: 17][1]، وأتى الفعلُ بصيغة المضارع؛ لِما فيه من استحضار صورةِ الجزاء، وللدَّلالة على تجدُّدِه واستمراره.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾:

في التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للعموم، فجاء الموصولُ لإبهامها وتحقيرِها معًا؛ إشارةً إلى أنَّ جزاءَهُم يوم القيامة الهوانُ وسوءُ المصير.

نكتةُ ذِكر فِعل الكون:

أعمالُ الكافرين ليست أعراضًا عابرةً بل إصرارٌ دائمٌ

دخولُ فِعل الكون في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ ما كانوا يفعلونه لم يكن مُجرَّد أفعالٍ عارضةٍ، بل كان حالًا راسخًا، ووصفًا ثابتًا، فهو مِن شِيَمِهم وطِباعهِم، لا ينفكُّ عنهم، فدلَّ التَّعبير بـ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على تَمَكُّنهِم مِن المعصية، واستمرارِهم عليها، حتَّى صارت كالجِبِلَّة والطَّبع المُستقِرِّ في نفوسهم، يستحِقّون عليها الجزاءَ العادل[2].

نُكتة حذف مُتعلّق فعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ فِعلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للإيماء إلى التَّعميم في معنى العمل؛ ليشملَ كُلَّ ما كانوا

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 28/ 5950.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 199.

يَعملونهُ مِن كفرٍ ومَعاصٍ وآثامٍ، فكان في حذفِ المتعلِّق توسيعُ دائرةِ الذَّمِّ، وتأكيدُ أنَّ الجزاءَ لا يقتصرُ على عملٍ مخصوص، بل هو على مجموعِ ما كانوا يَقترِفونَ مِن الشُّرور، وهو أبلغُ في التَّقريع، وأظهَرُ في بيانِ الاستحقاق[1].

توسيعُ دائرة الذَّمِّ، وتأكيد أنَّ الجزاء لا يقتصرُ على عملٍ مخصوص

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 302، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 217، والشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 427.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان وجه النَّجاة من عـذاب يوم القيامة

لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّ يوم القيامة لا مجال فيه للتَّوبة ولا يقبل فيه الاعتذار، جاءت هذه الآية لتُبَيِّن وجه النَّجاة من عذاب يوم القيامة، فنبّههم اللّه تعالى إلى أنَّ السَّبيل إلى دفع العذاب هو التَّوبة في دار العمل اليوم، أي: في الدُّنيا، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ وفيه لطيفة: وهي أنَّ التَّنبيه على الدَّفع بعد التَّرهيب فيما مضى يفيد التَّرغيب بذكر أحوالهم والإنعام عليهم وإكرامهم[1].وأيضًا لَمّا دلَّ الأمر باتّقاء النّار، والثَّناء على الملائكة بأنَّهم لا يعصون اللّه، على أنَّ الموجَّه إليهم الخطاب مقصِّرون في حَقِّ ربِّهم - جاء التَّوجيه الإلهيُّ بعد ذلك ليبيِّن لهم سبيل الخلاص من هذا التَّقصير، وهو التَّوبة الصّادقة والعمل الصّالح[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّصُوحًا﴾: النُّصْحُ: أصلُه يدلُّ على مُلاءَمَة بين شيئَين وإصلاحٍ لهما، والنُّصْحُ: خِلافُ الغِشّ[3]، ضِدُّ الغِشِّ، وكلُّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ؛ ونَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي، أي: أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ، والنُّصْحُ:

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 200.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).

مَصْدَرُ نَصَحْتُه[1]. والنَّصيحة: إرادةُ الخيرِ والصّلاح للمنصوح له وإرشادُه له، فهو قولٌ فيه دعاءٌ إلى صلاحٍ، ونهيٌ عن فسادٍ[2]، والنُّصْحُ: تَحرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِه[3]. ومعنى توبة نصوحًا: صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ[4].

2) ﴿يُخۡزِى﴾: أَصْلُ الخِزْيِ: ذُلٌّ يُستَحْيا منْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[5]، وخَزِيَ كرَضيَ الرَّجلُ يَخْزَى خِزيًا، وهو خزيان: إذا استحيا من قبيحٍ يفعله، والاسم الخزاية. وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخْزاهُ اللّه، أي: أبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[6]، والخِزْيُ: الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضيحَةً[7]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[8]، والهَوانُ[9]. والمعنى هُنا: يوم لا يُهينه ولا يُذلّه ولا يفضحه[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بالتَّوبة النَّصوح وبيانُ ثمراتها وآثارها

يوجِّه اللّه سُبحانه النِّداء إلى عباده المؤمنين، آمِرًا لهم بأن يتوبوا من ذنوبهم توبة نصوحًا، صادقةً في النّيَّة، خالصةً من الرّياء، مُخلَصةً في الإقلاع والعزم على عدم العَود، ويُبشِّرهم بأنَّ من ثمرات هذه التَّوبة أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سوءَها، ويدخلهم جنّات تجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها، وذلك في اليوم الَّذي يُكرِم اللّه فيه النَّبيَّ ﷺ، ويُعلي شأن المؤمنين معه،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (نصح).
(3) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 106، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 407.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(10) تفسير السَّمعاني: 5/ 477، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 277.

فلا يلحق بهم هَوانٌ ولا خِزْيٌ. يومئذٍ يسري النّور بَيْنَ أيديهم وعن أيمانهم، وهو نور أعمالهم، وهم يدعون اللّٰه تعالى قائلين: رَبَّنا زدنا من هذا النّور، وأتْمِمْه لنا، حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمام، واغفر لنا ذنوبنا، ونجِّنا من عواقبها، إنَّك وحدَك بالغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (يا) وسِرُّ النِّداء بها:

التَّوبة النَّصوح سبيل المؤمنين لمحو ما فَرَط من سيِّئاتهم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ هو النِّداء الثّاني الذي يوجّهه اللّٰه تعالى إلى عباده المؤمنين، وهو نداء يُخاطب به من وُعِظوا وقُدّمت لهم النَّصيحة[2]، ونودوا بأداة البعد الدّالَّة على عِظَم منزلتهم وشرف مكانتهم؛ لأنَّه نداءٌ لمن وُعِظوا وآنست قلوبهم نور الهداية، فقد أمرهم اللّٰه بالتَّوبة إن وقعوا في الذُّنوب؛ إذ في التَّوبة صلاحٌ لأنفسهم، وتزكيةٌ لقلوبهم، فهي امتداد لأمرٍ سابقٍ بأن يصونوا أنفسهم وأهليهم من نار عظيمة، وكيف تُصان الأرواح من عذابها إلّا باجتناب ما يقود إليها[3].

دلالة تكرار النِّداء لأهل الايمان:

استدعاء النُّفوس المؤمنة إلى تجديد اليقظة عند كُلِّ نداء

من أسرار إعادة نداء المؤمنين - مع قُرب العهد بالنِّداء الأوَّل - الفصل بَيْنَ خطابهم وخطاب الكافرين، فجاء هذا التَّكرار مقصودًا لا لغرض التَّكرار فحسب، بل لاستدعاء النُّفوس المؤمنة إلى تجديد اليقظة عند كُلِّ نداء، وتفتيح أبواب البصيرة عند كُلِّ خطاب[4].

كما أنَّ اللّٰه ﷻ قد خاطب المؤمنين في النِّداء الأوَّل، آمِرًا إيّاهم

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 109، والواحدي، البسيط: 22/ 26، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمان، ص: 874.
(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 388.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 367.
(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2165.

بأن يَقوا أنفسهم وأهليهم من نارٍ وقودها النّاس والحجارة، وما يتبعها من العذاب الشَّديد؛ فقد أتبع ذلك في هذا النِّداء بالأمر بالتَّوبة، لتكون تطهيرًا لنفوسهم من أدران الذُّنوب، وصيانةً لهم من السَّيِّئاتِ الَّتي قد تجرُّهم إلى تلك النّار الَّتي أُمروا باتِّقائها، فجاءت التَّوبة هُنا مكمّلةً للتَّقوى هناك، متمّمةً لوسائل النَّجاة[1].

التَّوبة مكمّلةٌ للتَّقوى متمّمةٌ لوسائل النَّجاة

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

في التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تنويهٌ بشأن الإيمان وأهله؛ وذلك لما في الصِّلة من دلالة على العِلَّة والمقتضي للأمر، فالإيمان هو المدار الَّذي يدور عليه الأمر، والسَّبب الَّذي من أجله وُجِّه إليهم النِّداء، ففي ذكر الإيمان تذكيرٌ لهم بما يقتضيه إيمانهم من التَّوبة والإنابة، وتنبيه إلى أنَّ التَّوبة من الذُّنوب من لوازم الإيمان الصّادق. فكأنَّ الآية تقول: يا من اخترتم الإسلام دينًا وحقَّقتم الإيمان، ورضي اللّٰه عنكم بوصف الإيمان؛ بادروا إلى ما يكمل حالكم، ويطهّر قلوبكم، ويصدِّق إيمانكم، وهو التَّوبة الخالصة من كلِّ ذنب[2].

التَّوبة والإنابة مقتضى الإيمان الصّادق ولازمُه

نكتة حذف مُتعلِّق الإيمان:

حَذْفُ متعلِّق الإيمان في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُفيد للعموم ومُفصِح عن الشُّمول، فالإيمان هُنا مُطلَق، يشمل كُلَّ ما يجب الإيمان به: من الإيمان باللّٰه، وبرسوله محمَّد ﷺ، وبالقرآن، إذ هو أدلُّ على تمام الإيمان واستكمال مراتب التَّصديق[3].

شمول الإيمان لكُلِّ ما يجب الإيمان به

دلالة أمرِ أهلِ الإيمانِ بالتَّوبة:

الأمر في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ﴾ يحمل معنيين بحسب حال المخاطب:

---

(1) الفرماوي، السَّهل المفيد: 3/ 466.

(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 478، ومحمَّد عبد المنعم جمال، التَّفسير الفريد للقرآن: 8/ 3138.

(3) ابن وهب، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والهرري، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: (29/ 476).

المؤمن لا يَسْلَم من الخطأ والزَّلل وعليه المبادرة إلى التَّوبة إنْ زلّت القدم

فما يخصّ المؤمن العاصي، فهو أمرٌ على حقيقته، يُفيد الوجوب؛ إذ التَّوبة فرضٌ عليه لا محيد عنه، وأمّا مَن لم يقع في معصية، فالأمر له على وجه الثَّبات والاستمرار على الطّاعة، مع التَّوقّي والتَّحرُّز من الوقوع في الذَّنب. وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنَّ العصمة ليست إلّا للأنبياء، وأنَّ غيرهم من المؤمنين لا يسلم من الخطأ والزَّلل، فكلّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التَّوّابون. فالمطلوب من المؤمن ليس العصمة من الذَّنب، بل المبادرة إلى التَّوبة إذا ما زلّت به القدم، فجاء الأمر الإلهيُّ ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، مُشتملًا على النُّصح والإرشاد، داعيًا إلى طريق الفوز والنَّجاة. وفيه دعوة إلى تطهير القلوب، وردّ الحقوق إلى أهلها، والرّجوع إلى اللّه رجوعًا صادقًا، تُحفظ به النَّفس من العذاب، وتُهيَّأ به للجنَّة ورضوان اللّه[1].

سِرُّ تقديم نداء أهل الإيمان قبل أمرهم:

تهيئة القلوب، واستنهاض الأرواح، وإيقاظ الأسماع لتلقّي ما يأتي بعده

في تقديم نداء أهل الإيمان قبل الأمر الإلهيِّ سرٌّ من أسرار العناية الرَّبّانيَّة؛ إذ سبقه خطابٌ يُهيّئ القلوب، ويستنهض الأرواح، ويوقظ الأسماع لتلقّي ما يأتي بعده بعين التفكّر، وأُذُنِ الإنصات، وقلبٍ حاضر متأهّب، فالنِّداءُ الَّذي يُنادي الأرواح بأحبّ أوصافها (الإيمان)، يُشعرها بالقُرب والتَّكريم، ويستدعي منها حالةً من الامتثال، فحين يجيء الأمر بعد هذا النِّداء، يكون قد مَهَّد له السَّبيل، وطرَق باب النَّفس بلينٍ ورحمةٍ، فيُثمر امتثالًا صادقًا.

نكتة تعدية فعل التّوبة بـ﴿إِلَى﴾:

التَّوبة الحَقَّة طريق الوصول إلى الله تعالى

تعدية فعل (التَّوبة) بحرف الجَرِّ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تنطوي على لطيفة بلاغيَّة دقيقة؛ إذ يدلُّ هذا الحرف على بلوغ الغاية، فجاء ليُشير إلى أنَّ التَّوبة الحَقَّة هي الَّتي تُفضي بصاحبها إلى اللّه، وتقوده إلى مرضاته، وتقرّبه من حضرته ﷻ[2].

(1) الباليساني، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2580.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2166.

دلالة حذف مُتعلّق التَّوبة:

في حذف متعلّق التَّوبة في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دلالة بليغة على العموم والشُّمول؛ إذ لم يُقيِّد النَّظم الكريم التَّوبة بذنب بعينه، ليتّسع معنى اللَّفظ ويشمل جميع الذُّنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، مِمّا ورد في سياق السّورة وما لم يرد، وهذا الإطلاق يُشير إلى وجوب التَّوبة الشّاملة، الَّتي يتطهّر بها القلب من كُلِّ تقصير[1].

أمارة التَّوبة الشّاملة طهارةُ القلب من كُلِّ تقصير

الموقع النَّحويُّ لقوله ﴿تَوۡبَةٗ﴾ ودلالته البلاغيّة:

كلمة ﴿تَوۡبَةٗ﴾ في قوله تعالى ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ واقعة في مَحلِّ نصبٍ مفعول مطلق، جاءت لتوكيد الفعل ﴿تُوبُوٓاْ﴾، ولتعزيز معناه وتثبيته في النَّفس[2].

تأكيد الفعل (توبوا)، ولتعزيز معناه وتثبيته في النَّفس

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ بين: ﴿تُوبُوٓاْ﴾، و﴿تَوۡبَةٗ﴾:

التَّوافق اللَّفظيُّ بَيْنَ الفعل والمصدر ﴿تُوبُوٓاْ﴾، و﴿تَوۡبَةٗ﴾ يُعدُّ من ضروب الجناس الاشتقاقيِّ، وهو من المُحسِّنات البديعيَّة الَّتي تُقوّي المعنى، وتُضفي عليه جَرْسًا صوتيًّا مؤثّرًا، يؤكِّد الكلام ويُذكِّرُ السّامع بعظمة المأمور به، وهو التَّوبة النَّصوح الَّتي تتكرَّر لفظًا لتتأكَّد في النَّفس معنًى.

تأكيد الكلام وتذكير السّامع بعظمة المأمور به

دلالة الوصف بـ ﴿نَّصُوحًا﴾ مادّة وصيغة:

جاء المفعول المطلق ﴿تَوۡبَةٗ﴾ مُبيِّنًا للنَّوع؛ إذ أُتبع بالصِّفة ﴿نَّصُوحًا﴾، فبيَّن النَّظم الكريم أنَّ المُراد: توبةٌ خالصةٌ، صادقةٌ، مُستوفية لشروطها، جامعةٌ لمعاني الإخلاص والنَّدم والعزم على عدم العَوْد[3].

استيفاء شروط التَّوبة سبيلُ قبولها

---

(1) سليمان الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 8/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 354، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.

(2) محيسن، المستنير في تخريج القراءات المتواترة: 3/ 196.

(3) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والمكّي، المعين على تَدَبُّر الكتاب المبين: 1/ 561.

الدَّلالة على المُبالغة في النُّصح والصدق فيه

وُصِفت التَّوبة بكونها ﴿نَّصُوحًا﴾ بيانًا لنوع التَّوبة المطلوبة، فهي توبة خالصة نقيَّة، قد بلغت الغاية في صدقها؛ و(نصوح) على وزن (فعول)، بمعنى (فاعل) يستوي فيه المُذكَّر والمؤنَّث. وهي صيغة مُبالغة تَدُلُّ على الكثرة والتَّمام، كما يُقال (شكور) و(صبور)، فكأنَّ التَّوبة بلغت من صدق النُّصح مبلغًا يجعلها هي بنفسها ناصحةً لصاحبها، حاملةً له على طريق النَّجاة[1].

بلاغة المجاز في التَّعبير بالنُّصح:

في وصف التَّوبة بـ﴿نَّصُوحًا﴾ مجاز عقليٌّ، أُسند فيه النُّصح إلى التَّوبة، والنُّصح إنَّما هو في الحقيقة من شأن التّائب لا التَّوبة، فهي لا تنصح بذاتها، وإنَّما التّائب هو من ينصح نفسه بإحسان الإنابة والرُّجوع، فيأتي بالتَّوبة بها على وجهها، فجاء الإسناد من باب المجاز، لعلاقة المصدريَّة، فجُعل الفعل في حُكم الفاعل[2].

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالنُّصح:

من مظاهر صِحّة التوبة وقبولها أنَّها تغرز في النَّفس العزم على عدم العَوْد إلى الذَّنب

والوصف أيضًا من قبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شُبِّهت التَّوبة الَّتي لا غشَّ فيها ولا تردّد، بإنسان ناصح يعظ صاحبه ويزجره عن العود، ثمَّ حُذف المشبَّه، وأُقيم عليه دليل من لوازمه، وهو النُّصح، فجاءت ﴿نَّصُوحًا﴾ استعارةً تخييليّة، تُجسِّد التَّوبة في صورة قوَّة ناصحة موجِّهة[3]؛ وفي معنى (النَّصوح) أيضًا ما قيل من اشتقاقها من النَّصاحة، وهي الخياطة، فكأنَّ التَّوبة تُشَبَّه بخياطةٍ تُصلح ما خَرَقَتْه الذُّنوب من رداء النَّفس وثوب الطّاعة، فتُجبِر الفَتْقَ، وتعيد للنَّفس صفاءها. وفيه على هذا المعنى استعارة تقوم على تشبيه المعقول بالمحسوس، حيث شُبِّهت التَّوبة الخالصة، وهي أمر معنويٌّ،

---

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 4/ 226، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 28/ 5951.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 569، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 573، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 61.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 368.

بالخياطة، وهي فعل محسوس يُصلِح ما تمزَّق، وقد ذُكر في الكلام المشبَّه به، وهو الخياطة، وأُريد المشبَّه، وهو التَّوبة[1]، فكانت استعارة مكنيَّة مرشَّحة.

ويترجّح وجه الاستعارة عند التَّأمُّل[2]؛ لما فيه من إضفاء الرّوح والمعنى على التَّوبة، حتَّى تبدو ككائن حيّ، فيه قوَّة الإرادة والنَّهي، تقف سدًّا منيعًا بين التّائب وبين ماضيه، وتحمله إلى رضا اللّٰه، وتمضي به في طريق الطُّهر والصَّلاح، فلا يزال يسمع صوتها في قلبه، حتَّى يبلغ مأمنه من النّار، ويُبشَّر بالجنَّة دار القرار.

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في ﴿نَّصُوحًا﴾:

الدَّلالة على عظمة هذه التَّوبة من جهة حقيقتها وصدقها، وبيانٌ لفعل التّائب وإخلاصه

اخْتَلَفَ القرّاء في ﴿نَّصُوحًا﴾، فقرأ شُعبة عن عاصم بِضَمِّ النّونِ: ﴿نُّصُوحًا﴾، وقَرَأ الباقونَ بِفَتْحِها: ﴿نَّصُوحًا﴾[3]، فقراءة الجُمهور على فتح النّون: ﴿نَّصُوحًا﴾، وهي صفةٌ للتَّوبة، على وزن فَعول من صيغ المُبالغة، كقولهم: (رجل صبور)، و(عبد شَكور)، فالمعنى: توبةٌ قد بلغت الغاية في النُّصح، خالصةٌ في مقاصدها، صادقةٌ في طهارتها، تُخلِّص صاحبها وتُنجيه، كأنَّها بذاتها تنصح التّائب، وتردُّه عن مواضع الزَّلل. أمّا قراءة أبي بكر عن عاصم بالضَّمِّ ﴿نُّصُوحًا﴾، وهي على تأويلٍ آخر؛ إذ تكون مصدرًا، فيكون المعنى: توبوا إلى اللّٰه نُصوحًا لأنفسكم، أي: توبةً تنصحون بها أنفسكم، وتبذلون فيها خالص جهدكم في الرُّجوع إلى اللّٰه، كما يُقال: (نصحت له نصحًا ونُصوحًا)[4].وقال بعضهم: المعنى على هذه القراءة أنَّ التَّوبة ذات نُصحٍ خالصٍ للنُّفوس[5]، فهي لا يُراد بها

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 225، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 164.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 368.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 389.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 199، والسَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 3/ 470.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 311.

رياء ولا تسويف، بل هي نابعة من إرادة الصَّلاح والإنابة. وعلى كلتا القراءتين، تجتمع الدَّلالة على عظمة هذه التَّوبة المطلوبة: فهي في الأولى صفة للتَّوبة من جهة حقيقتها وصدقها، وفي الثّانية بيانٌ لفعل التّائب وإخلاصه في توبته لنفسه وربِّه، فكلتاهما تلتقيان في الدَّعوة إلى توبة صادقة، بالغة في الخلوص، عميقة الأثر في النُّفوس.

بلاغة الإطناب في الجُملة الكريمة:

الـوفـاء بالمعنى المطلوب من هذه التَّوبة

في قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ تجلَّت بلاغة الإطناب في أبهى صورها، حيث زوِّد الأمر بالتَّوبة بما يُغني المعنى ويزيده بيانًا وتوكيدًا، فلم يقتصر النَّظم الإلهيُّ على الفعل ﴿تُوبُوٓاْ﴾، بل أتبعه بالمصدر ﴿تَوۡبَةٗ﴾، ليؤكِّده، ثُمَّ زاده بيانًا بصفة ﴿نَّصُوحًا﴾، فكان في هذه الألفاظ القليلة وفاءٌ بالمعنى المطلوب؛ إذ دلّ على أنَّ التَّوبة المطلوبة ليست أي توبة، بل توبة صادقة بالغة الغاية في الإخلاص، تُصلح القلب وتردّ العبد إلى مولاه ردًّا جميلًا.

دلالة فصل قوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ عمّا قبله:

تـعـلـيـل لـلأمـر بالتَّوبة النَّصوح وبـيـان ثمرتها الطَّيبة

جاءت الجُملة الكريمة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ في مقام التَّعليل للأمر بالتَّوبة النَّصوح، وكأنَّ السّامع وقد سمع النِّداء الإلهيَّ الَّذي نادى قلبه فسأل: ولِمَ هذه الدَّعوة إلى التَّوبة؟، فجاء الجواب مستأنفًا مفصولًا، على وجه شبه كمال الاتِّصال، الَّذي هو من أبلغ ضروب البلاغة وأشدّها تأثيرًا، وهذا الفصل يُحدث في نفس المُتلقّي تشويقًا يوقظ الوعي، ليتلقّى التَّعليل وكأنَّه جواب مُنتظر، فإذا استقرّ المعنى في القلب، أورثه ذلك انقيادًا وامتثالًا عن رغبة ومَحَبَّة[1].

دلالة التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة وإضافته إلى ضميرهم:

في إضافة اسم الجلالة إلى ضمير المؤمنين، مع التَّعبير عنه بلفظ

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.

الرُّبوبيَّة دون غيره سِرٌّ بلاغيٌّ لطيفٌ، إذ اختير عنوان الرُّبّوبيَّة لما يحمله من معاني اللُّطف والرِّعاية والتَّدبير والإصلاح؛ فـ(الرَّبُّ) هو المُتكفِّل بشؤون عباده، المُصلِح لأحوالهم، المتعهِّد لهم بالنِّعَم، الرّاعي لأرواحهم وأبدانهم، فجاء الخِطاب به مُناسبًا لحال التّائب المُقبل، المُنكسر بَيْنَ يدي مولاه. ثُمَّ إنَّ إضافته إلى ضميرهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ جاء تشريفًا وتخصيصًا وتقريبًا، ليَشْعُرَ المُخاطَبون بأنهم ما زالوا في حظيرة العناية، لم يُقْصِهِمُ الذَّنب، ولم يُبعِدهم التَّقصير، بل هم محلُّ الرَّحمة، ومهوى لطف الله - فكان ذلك التَّعبير أحرى بمقام الانقطاع عن الذِّنب، والرُّجوع إلى كنف التَّوبة[1].

من صور تشريف المُخاطَبين إشعارهم بأنَّهم ما زالوا في حظيرة العناية، لم يُقصِهم الذَّنب، ولم يُبعِدهم التَّقصير

سِرُّ التَّعبير عن مغفرة السَّيئات ومحوها بالتَّكفير:

اختير لفظ التَّكفير في قوله تعالى: ﴿يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ دون غيره من الألفاظ، لما في مادّته من الدَّلالة على السَّتْر والتَّغطية؛ إذ أصل الكلمة يدلُّ على التَّغطية المحكمة، ومنه سُمّي الكافر؛ لأنَّه يُغطّي قلبه عن الإيمان، وسُمّيت الكفارة؛ لأنَّها تستر الذَّنب وتمحوه[2].

المبالغة في بيان عظمة المغفرة وكمال الطُّهر بعد التَّوبة

وقد ورد هذا التَّعبير في مقام التَّرغيب والتَّلطُّف الإلهيِّ، لما فيه من مبالغةٍ في بيان عظمة المغفرة وكمال الطُّهر بعد التَّوبة، فهو يُصوِّر مغفرةً تغمر الذَّنْبَ وتغطّيه تغطيةً عظيمةً وتُخفيه كأنْ لم يكن، وتستر المعصية عن سجلِّ الحساب، وتُطَهِّر النَّفس من آثارها[3].

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يُكَفِّرَ﴾:

في التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يُكَفِّرَ﴾ دلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، فاختير المُضارع ليدلَّ على أنَّ مغفرة الله ممتدَّة لا تنقطع،

مغفرة الله للعبد مستمرَّة ما دام العبد يُقبل عليه بتوبة صادقة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كفر).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 201، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2169.

فهو يمحو الذُّنوب عنكم على وجه دائم، ويتجاوز عن السَّيِّئاتِ في كلِّ حين، ما دام العبد يُقبل عليه بتوبة صادقة وإنابة خالصة، فالغفران جارٍ، والصَّفح مستمرٌّ، والتَّكفير مُتتابع.

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المُنسبك من ﴿أَن﴾ والمضارع:

الـدَّلالـة على تَـرتُّب التَّكفير عـلى الـتَّـوبـة مُباشرة

في التَّعبير بالمصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ و﴿يُكَفِّرَ﴾ دلالة دقيقة على ترتُّب التَّكفير على التَّوبة مباشرة، إذ جاءت ﴿أَن﴾ والفعل المُضارع لتُفيد معنى المصدر، فصار المعنى: (عسى ربُّكم تكفيرَ سيِّئاتكم)، وهذا البناء يوحي بأنَّ الجزاء معقود على السَّبب بلا فاصل، وأنَّ مغفرة اللّٰه لاحقة لتوبة العبد فورًا، جزاءً عاجلًا لصدق الإنابة[1]. وفي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل أيضًا ولا سيَّما مع (أنْ) دلالةٌ على مجرّد معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، وبذا يكون نفس التَّكفير هو المراد دون صفة من صفاته، وكيفيّاته.

وكذلك علينا أن لا ننسى أنَّ خبر (عسى) لا يكون إلّا مضارعًا، ولم ترد (عسى) في القرآن الكريم إلّا ومضارعها مسبوقٌ بـ (أنْ) المصدريَّة. وكذلك (عسى) من اللّٰه تعالى في القرآن الكريم تُفيد التَّحقيق.

إسناد الفعل إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ:

عـطـايا الـرَّبِّ الـكـريـم تَـفـوق توقّع التّائبين

إسناد الفعل ﴿يُكَفِّرَ﴾ إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ يحمل في طيّاته إيحاءً عظيمًا باليقين والطُّمأنينة؛ إذ دلَّ على أنَّ الَّذي يكفّر السَّيِّئاتِ هو اللّٰه نفسه، ربّ العظمة والجلال، فكان ذلك أبلغ في ترسيخ الثِّقة بوقوعه، وأشدَّ تأثيرًا في قلوب التّائبين، فإذا كان العطاء يُقاس بقَدْر المعطي، فما ظنّك بعطيّة الرَّبِّ الكريم، واسع المغفرة، الَّذي لا يعجزه شيء؟[2].

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.

سِرُّ إيراد ضمير المخاطبين مجرورًا بـ(عن):

التَّوبة الصّادقة تنزع الذَّنب نزعًا من صحائف التّائبين الصّادقين

إيراد ضمير المُخاطَبين مجرورًا بـ(عن) في قوله تعالى: ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، مع كون (عن) تُفيد المجاوزة؛ يَشي بمعنًى رفيع ودلالة مؤثِّرة؛ إذ يوحي بأنَّ هذه السَّيِّئات -على كثرتها وقبحها- تُدفع عن التّائب دفعًا، وتُبعد عنه إبعادًا تامًّا، حَتَّى ليُخيّل للنّاظر أنّها ما صدرت عنه قطُّ، ولا كانت من شأنه ولا صفته.

فكأنّ التَّوبة الصّادقة تنزع الذَّنب من صحائفهم نزعًا، وتفصله عن ذواتهم انفصالًا، فيغدو التّائب نقيًّا، بريئًا من سَيِّئاتِه كما يُبرَّأ السَّليم من الدّاء(1).

نكتة إضافة السَّيِّئاتِ إلى ضميرهم:

نسبة السَّيِّئات إيقاظٌ للضَّمير وتحريكٌ للقلب نحو الإنابة

في إضافة السَّيِّئات إلى ضمير المُخاطبين في قوله تعالى: ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ إشارة لطيفة لإيقاظ الضَّمير وتحريك القلب نحو الإنابة؛ إذ تُسند إليهم السّيِّئات، لتقرير أنَّها صدرت منهم، وأنَّهم هم أهلها، وأنّ ربَّهم هو الَّذي سترها عليهم عنايةً بهم واهتمامًا بشأنهم، ولا شكّ أنّ استشعار هذا المعنى يزيد من إثارة المُخاطبين إلى امتثال الأمر بالتَّوبة النّاصحة بعد التَّقصير في حقِّ اللّٰه تعالى، وحقِّ رسوله وحَقِّ النَّفس والأهل(2).

دلالة عطف إدخال الجنّات على تكفير السَّيِّئات:

لما ذكر نفع التَّوبة في دفع المضارّ، ذكر نفعها في جلب المسارّ

لمّا بيَّن اللّٰه تعالى أثر التَّوبة في دفع المضارّ وتكفير السَّيِّئات، أتبع ذلك بذكر أثرها في جلب المسرّات ونوال الثَّواب، فقال: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فجاء الفعل معطوفًا بالواو على ما قبله، فمتى تحقّقت المغفرة، تحقّق دخول الجنَّة تبعًا لها لا محالة؛ فالتَّكفير سابق في التَّحقُّق ومُمهِّد في المعنى،

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2170.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201.

إشعارًا بأنَّ رحمة الله لا تقف عند ستر الذَّنب، بل تمتدّ لتفيض بالنَّعيم المقيم[1].

دلالة إسناد فعل الإدخال إلى ضمير الرَّبِّ سبحانه:

توليّ الله تعالى الإدخال إلى الجنّة تكريم مُزدان بالرَّحمة والعناية الإلهيّة

في إسناد فعل الإدخال في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ إلى ضمير الرَّبِّ ﷻ، إشارة سامية إلى عِظَم هذا الفعل ورفعة شأنه؛ إذ إنّ المُدخِل هو الله ﷻ، فهو إدخال تُجلِّله الرَّحمة، ويزدان بالتَّكريم، وتحفُّه العناية الإلهيَّة من كُلِّ جانب[2].

نكتة تنكير ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وجمعها:

الدّلالة على سَعة النَّعيم وشموله

جاء لفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في الآية منكّرًا وذلك للدَّلالة على سَعة النَّعيم وشموله، فهو نعيم متنوّع شامل لجميع ألوان الفضل والإكرام الرَّبّانيِّ، لا يشوبه نقص، ولا يحدّه وصف، فكان التَّنكير إشارة إلى عِظَم ما لا يُحدّ، واتّساع ما لا يوصف.

الدّلالة على كثرة المُخاطَبين وتفاوت المنازل وتعدّد الدَّرجات

وجمع (الجنّات) في هذا الموضع يدلُّ على كثرة المُخاطَبين؛ لأنَّ لِكُلٍّ منهم جنَّةً، ويوحي بتفاوت المنازل وتعدّد الدَّرجات[3]، فليست الجَنَّة درجةً واحدةً، بل مقامات مرتَّبة بحسب حال التّائبين، وصدق توبتهم، وعمق إخلاصهم. وفي هذا التَّعبير إغراء ضمنيٌّ ونداء خفيٌّ إلى التَّسابق في بلوغ أعلى مراتب التَّوبة النَّصوح، طمعًا في نيل أرفع درجات الجنّات وأعلاها.

الموقع النَّحويُّ لقوله ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ ودلالته في مقام التَّنعُّم:

الدّلالة على الحياة الأبديَّة وكمال اللَّذَّة في الجَنَّة

جاءت جملة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ نعتًا لقوله ﴿جَنَّٰتٖ﴾، على ما هو جارٍ في أسلوب القرآن، حيث تُذكر الجنّات مقرونةً بهذه الصِّفة الدّالَّة على تمام النِّعمة وكمال البهجة، إذ إنَّ جريان الأنهار

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 201.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2171.

(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 64.

إشارة الى الحياة الأبديَّة وهو من أعظم ما يُكمّل لذَّة الجَنَّة، ويُعلي به قدر نعيمها[1]. ثمَّ إنّ ريَّ أشجارِ الجنّاتِ يزيدُ في نضارتِها، ولأنَّ النَّظرَ إلى مياهِ الأنهارِ مِنْ ألوانِ النَّعيم، ولأنَّ جريانَ الأنهارِ يُسبِّبُ كثرةَ الرّياضِ والأشجارِ، والسّاحاتِ والدّيارِ[2].

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

الإيحاء بدوام الجريان واستمراره بلا انقطاع

جاء التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾ إيحاءً بدوام الجريان واستمراره بلا انقطاع، إذ أُثر استخدام المُضارع للدَّلالة على الحركة المُتجدِّدة؛ لأنَّ أحسنَ الماء وأطيبَه ما كان جاريًا غير آسِنٍ، فهو دائم النَّقاء، مُتجدِّد الصَّفاء[3]. وذلكَ يزيدُ النَّعيمَ والبهجةَ في نفوسِ أهلِ الجنَّةِ، ويقوّي التَّعريف بدوام تنوُّعها وزهرتها وعظيم بهجتها[4].

بلاغة المجاز العقليّ في التَّعبير بجريان الأنهار:

إبراز حركة الماء في سرعة جريانه وانسياب حركته

إسناد الفعل ﴿تَجۡرِي﴾ إلى الأنهار من باب المجاز العقليّ، بعلاقة المكانيَّة، وفيه لمسة تصويريَّة بارعة، تُبرز حركة الماء في سرعة جريانها، حتَّى يُخيّل للنّاظر أنّ الأنهار هي الَّتي تنساب وتتحرَّك، لا الماء وحده، وذلك لما في العبارة من إيحاء بالقوَّة والسَّعة، ولو قُصِر التَّعبير على قول (تجري المياه)، لما كشف عن سِرِّ روعة جريان الماء في الأنهار ولكان أقصى ما يستشفُّ منها مجرَّد وصف الماء بالجريان.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

كلُّ مكان في الجنّة متهيّئٌ لنبع جارٍ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لابتداء الغاية المكانيّة، وتدلُّ على أنّ ماءها غير مجلوب، بل كلُّ مكان منها متهيِّئٌ لأنْ ينبع منه ماء يجري؛ لأنَّ أرضها معدن المياه فهي لا تزال يانعة

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 64، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 400.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2172.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 165.

غضَّة وفي ذلك ثباتٌ لبهجتها ودوامٌ لزهرتها ونضارتها[1]. ثمّ إنّ المياهَ لو عمَّتِ الأرضَ لا تتركُ فيها مُستقرًّا؛ ولو استغرقتِ المكان أفسدت؛[2]، ولذلك لم يُقَلْ: تجري تحتَها الأنهارُ.

سِرُّ حذف المتُعلّق في الجُملة الكريمة:

تَـنَـعُّـم الفكر واتِّساع التَّصوُّر ولذَّته

في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، حُذف المتعلِّق بـ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، وهو (القصور) و(الأشجار)، اعتمادًا على ما يُفهم من السّياق، وفي هذا الحذف بلاغة عالية، إذ يُترك للعقل والخيال أن يتأمَّل ما ﴿تَحۡتِهَا﴾، فيتصوَّر قصورًا شامخة، وأشجارًا وارفة، تتخلّلها الأنهار وتتدفّق من تحتها المياه وفيه من تَنَعُّم الفكر واتِّساع التَّصوُّر ولذَّته ما فيه[3].

بلاغة تقديمِ القيد ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

تعجيل البهجة والتَّشويق إليها

قُدِّمَ شبه الجملة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لتعجيل البهجة والمسرّة للمؤمنينَ، والتَّشويق إلى بيان الجاري وفاق هذه الهيئة العجيبة المتهيّئ كلّ موضع فيها الى جريان الماء.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

النَّعيم المعلوم في الأذهان يُبهج النُّفوس ويُنعش الأرواح

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، جاءت (أل) لتعريف العهد، مُشيرة إلى الأنهار الأربعة المعهودة في أوصاف الجنَّة، وهي: نهر الماء، ونهر اللَّبن، ونهر العسل، ونهر الخمر، كما ورد في سورة مُحمَّد ﷺ، فليس الحديث عن أنهار مجهولة، بل عن نعيم معلوم في الأذهان، وأوصافٍ معهودة تُبهج النُّفوس وتُنعش الأرواح، وتُرسِّخ صورة النَّعيم في أذهان المؤمنين، كأنَّها حاضرة منظورة[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 277، 5/ 214.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 400.

(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.

(4) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 42، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 478.

دلالة فصل قوله ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى﴾:

تفصيل الجزاء المعنويِّ بعد الجزاء الحسّيِّ

جاء الاستئناف في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ليُفيد مزيد عنايةٍ وبيانٍ؛ إذ فُصِلت الجُملة لتُبرز عظمة الجزاء المعنويِّ الَّذي يُضاف إلى الجزاء الحِسيِّ للتَّوبة، فكما بَشَّر التّائبين بمغفرة الذُّنوب ودخول الجنّات، أُلحق بها وعده بالتَّكريم، ورفع المهانة، وصون الكرامة من كلِّ ما يُذلُّ أو يُخزي، فهذا الفصل يُشعِر باستقلال مقام ذلك اليوم، وسمو منزلته؛ إذ هو موعد الوعد، ومشهد التَّكريم. وقد ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قوله تعالى ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، غير أنَّ الأَوْلى أن يُعلَّق بـ عامل مقدّر، كأن يُقدَّر في السّياق: (اذكروا يوم لا يُخزي)، وذلك لتحاشي التَّكرار المعنويِّ، فإنَّ قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ﴾ يتضمَّن وعدًا بالمغفرة والرِّضوان، وهو بذاته مُستلزم لنفي الخِزي[1].

دلالة الظَّرفية الزَّمانيَّة في ﴿يَوۡمَ﴾ وتعليقها بنفي الخزي:

يوم القيامة زمان وقوع الجزاء الإلهيِّ، ويوم الوعد والوفاء

جاء الظَّرف الزَّمانيُّ ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعلِّقًا - على أحد الأوجه - بالفعل ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، ليبيِّن زمان وقوع الجزاء الإلهيِّ ووقته، وهو يوم القيامة، يوم الوعد والوفاء، يوم يُميَّز فيه المكرَّمون، وهذا التَّعلُّق يُعَدُّ بمثابة تخلُّص بديع إلى الثَّناء على النَّبيِّ ﷺ وأتباعه، فالخطاب وإن كان موجَّهًا للتّائبين، فقد انصرف إلى مقام التَّشريف للنَّبيِّ والمؤمنين معه، في سياق ترسيخ العاقبة الحُسنى، وتثبيت وعد الكرامة، في اليوم الَّذي تظهر فيه نتائج التَّوبة، ويُجلى فيه فضل اللّه على أوليائه[2].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 253.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 14/ 1034.

سِرُّ العدول عن ذِكْرِ إكرام المؤمنين والثَّناء عليهم بنفي الخزي:

تطييب خواطر أهـل الإيـمـان والتَّعريض بأهل الكُفران

في نفي الخِزْيِ عن أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ثناءٌ رفيعٌ يُفهم في طيّاته التَّعريضُ بمن لم يُؤمن؛ إذ يدلُّ على أنَّ الكافرين يَحيقُ بهم الخِزيُ يوم القيامة، وفي هذا التَّعبير تطييبٌ لخواطر المؤمنين واستحمادٌ لهم؛ إذ عصمهم من حال الكافرين، وجعلهم في مأمنٍ من خزيٍ مُهين[1].

نوع الإضافة في جُملة ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ﴾:

نـفـي الـخـزي فـي مـواضـع الـشِّـدّة من مظاهر التَّكريم والتَّشريف

جملة ﴿لَا يُخۡزِى﴾ واقعة في محلّ جرٍّ بالإضافة إلى ﴿يَوۡمَ﴾، وهي إضافة تُفيد بمفهوم المخالفة أنّ الخِزي من خصائص ذلك اليوم، وعلامة من علاماته البارزة. ومن ثمَّ فإنَّ نفي الخِزي عن النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين في هذا الموطن العصيب؛ يُعدُّ مظهرًا من مظاهر التَّكريم والتَّشريف، وسببًا للتَّطمين والبشارة، ودليلَ سعادة ونجاة، وهو لون من ألوان النَّعيم المعنويِّ الَّذي يُضاف إلى ما وُعِد به التّائبون من النَّعيم الحسيِّ، ليكتمل لهم السُّرور في الآخرة، حسًّا ومعنًى[2].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يُخۡزِى﴾ مادّة وصيغة:

حقيق بالمؤمنين التَّنزيه والأمان، وبالكافرين الذُّلّ والهوان

لفظ ﴿يُخۡزِى﴾ قد يكون مأخوذًا من الخِزي بمعنى الفضيحة والذُّلِّ، وعليه يكون في التَّعبير تعريض بالكافرين، الَّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، وهذا المعنى ينسجم مع سياق التَّهديد والوعيد للكافرين. وقد يُحمل اللَّفظ على معنى الخزاية، أي الحياء والخجل، وهو خزيٌ نفسيٌّ يُلازم المرء حين يرى نقصه، فيستولي عليه الحزن والنَّدم؛ وهو ما يُفهم من دعاء أهل الإيمان: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والرَّسعني، رموز الكُنوز: 8/ 192.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2173.

تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: 194] وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾ [الشعراء: 87][1].

الخزي منفيٌّ عن النَّبيِّ والمؤمنين في كُلِّ موقف من مواقف القيامة

في التَّعبير بالفعل المُضارع المنفيّ ﴿لَا يُخۡزِي﴾ دلالة على استمراريَّة نفي الخزي وتجدُّد معناه، فالمعنى: أنَّ الخِزي مرفوعٌ على الدَّوام عن النَّبيِّ ﷺ، والمؤمنين، في كلِّ حالٍ وآن، لا يعتريهم في كُلِّ موقف من مواقف القيامة، ولا في موطن من مواطن الفزع، ولا عند العرض والحساب.

نُكتة تعدية ﴿يُخۡزِي﴾ إلى لفظ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بعد إسناده إلى اسم الجلالة:

الإيماء إلى لزوم الأدب مع النَّبيِّ ﷺ وتوقيره

تعدية فعل ﴿يُخۡزِي﴾ المنفيِّ إلى ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ ﷺ، بعد إسناده إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، لا تخلو من دلالة رفيعة، فهي إلى جانب ما تُفيده من تكريم وتشريف، تومئ إلى لزوم الأدب مع النَّبيِّ ﷺ، وتوقيره، فقد خصّه بمقام الرِّفعة والتَّنزيه، فكأنَّ التَّعبير يُلفت المخاطَبين إلى علوّ منزلته عند ربّه، ووجوب معاملته بما يليق بمن رفعه اللّه عن الخِزي، وقرّبه في الدُّنيا والآخرة[2].

نكتة عطف (الَّذين آمنوا) على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

نكتة التَّعبير بصفة (النَّبيّ) مادّة وصيغة

لم يذكر اللّه تعالى رسوله ﷺ، باسم ولا بصفة غير ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾؛ ونبيٌّ على صيغة (فَعيل) وهو بمعنى فاعل ومفعول، ونبا: ارتفع، فإن كان بمعنى (فاعل) فهو رافع من آمن به، وإن كان بمعنى (مفعول) فهو مرفوع قد رفعه اللّه بالرِّسالة، فكيف يُخزى من رفعه اللّه تعالى ومن ارتفع بالإيمان بالرِّسالة؟!.

تشريفُ أهل الإيمان وإعلاء قدرهم

اختلف العُلماء في الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، فمنهم من ذهب إلى أنَّها للعطف، عطفًا على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، ومنهم من رأى أنَّها للاستئناف النَّحويِّ، وأنَّ (الَّذين آمنوا) مبتدأ، خبره

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المُحرَّر الوجيز: 5/ 334، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 65.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2174.

﴿مَعَهُۥ﴾، ومنهم من جعل الخبر هو ﴿نُورُهُمۡ﴾، إلى غير ذلك من الأقوال. غير أنَّ الأرجح - فيما يظهر - أنَّ الواو للعطف، وهو الأوفق بسياق السّورة، وما اشتملت عليه من الدَّعوة إلى تعظيم النَّبيِّ ﷺ، وتوقيره، والتَّأدُّب معه في القول والعمل، وترك المُماراة والمُكايدة[1].

وفي اقتران ذِكرِ النَّبيِّ ﷺ، بذكرهم تشريفٌ وتعظيمٌ لهم، وإعلاءٌ لقدْرهم، لا تعريضٌ بالنَّبيِّ ﷺ، وإظْهارٌ لعلوِّ منزلتهم[2].

بلاغة الكناية في التَّعبير بالخزي:

الدَّلالة على أسباب الهوان يوم القيامة

في التَّعبير بالخِزْيِ كناية عن العذاب، لما بينهما من مُلازمة، إذ لا يخلو العذاب من خزي وذلٍّ، وعليه فاللَّفظ يشمل كُلَّ خزي يكون سببًا من أسباب الهوان يوم القيامة، سواء أكان من الحساب، أو من الفضيحة بكشف الكتاب، أو من العقاب الجسديِّ والنَّفسيِّ، أو غيرها من ألوان الخزي الَّتي تُحيط بالكافرين في ذلك اليوم العظيم[3].

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته (الَّذين آمنوا):

الدَّلالة على العموم في المؤمنين والثَّناء عليهم بما في حيز الصِّلة من معنى

التَّعبير عن المؤمنين في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، بالاسم الموصول، يتضمَّن معنى التَّعظيم والتَّشريف لهم؛ إذ في إيثار هذا الأسلوب ما يدلُّ على التَّوسِعة والعموم، بحيث يشمل كُلَّ من صدَّق بالنَّبيِّ ﷺ، ووقَّره، سواء من عاصروه وشهدوا دعوته، أو من جاؤوا بعده إلى يوم الدّين، فالاسم الموصول شاملٌ لِكُلِّ من انتسب إلى هذا الإيمان حقًّا، مِمّا يزيدهم رفعة وفضلًا[4]. وفي الموصول أيضًا إيذانٌ بأنَّ سببَ انتفاءِ الخزيِ عنهم هو إيمانُهم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 356.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 214، والزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 370.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 65، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 479.

(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2174.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370.

فائدة ذِكْرِ المعيَّة وبيان تَعلُّقها:

تشريفهم بالقُرب منه في الآخرة كما شُرِّفوا بالإيمان به في الدُّنيا

لفظ المعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يُفيد معنى الاجتماع، والمقصود أنَّ الله لا يُخزي هذا الجمع المبارك الَّذي يسعى نورهم بين أيديهم، فكان في اجتماعهم مع نبيِّهم تكريمٌ لهم وتعظيم؛ إذ شُرِّفوا بالقرب منه، كما شُرِّفوا بالإيمان به. فالمعيَّة هنا معيَّة رتبة وولاية واتِّباع، لا مجرَّد الصُّحبة الزَّمنيَّة، وهي معيَّة تُنجي وتكرِّم وتُقرِّب[1].

ولفظ (مع) يَحْتَمِل أن يتعلَّق بحال محذوفة من (الَّذين آمنوا)، أي: في حال كونهم مع النَّبيِّ ﷺ، في انتفاء خزي الله عنهم، وعلى هذا الوجه يكون عموم اللَّفظ مخصّصًا، فلا يشمل من ارتدّ بعد الإيمان ومات على الكفر؛ لأنهم لم يثبت لهم شرف المعيَّة، ولا استحقّوا النجاة من الخزي. ويَحتمِل أن يتعلَّق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: الَّذين آمنوا به وصحبوه، فيكون المراد بهم أصحاب النَّبيِّ ﷺ، الَّذين ثبتوا على الإيمان، ولم ينقلبوا على أعقابهم، فتدلّ الآية حينئذٍ على فضيلة عظيمة لهم، وتشير إلى وعدٍ بالمغفرة والنَّجاة لجميع الصَّحابة رضوان الله عليهم، ممَّن تحقّقت فيهم الصُّحبة والإيمان الكامل[2].

نُكتة فصل قوله ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾:

بيانُ كيفيَّة نفي الخزي ووجه تَحقّق الكرامة

جاءت جملة: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، لكمال الاتِّصال في المعنى بينهما، فهذه الجملة مُفسِّرة لكيفيَّة نفي الخزي، ووجه تَحقّق الكرامة، فالنّور الحاصل بَيْنَ أيديهم وحولهم هو المظهر الحسّيُّ والمعنويُّ لرفع الخزي عنهم. ويَحْتَمِل أن تُؤخذ على جهة التَّوكيد، فتجيء الجملة لتُعزِّز هذا الوعد

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370.

الإلهيَّ بنجاة النَّبيِّ ﷺ، والمؤمنين معه كما يُمكن أن يكون في الجملة الاستئنافيَّة تعريض بخصوم أهل الإيمان ومناوئيهم الَّذين حُرموا من هذا النّور، إشارةً إلى المُفارقة الشّاسعة بينهم، حيثُ الظُّلمة والخزي لأولئك، والنّور والرِّفعة لهؤلاء[1].

نكتة إضافة النّور إلى ضميرهم:

الاختصاص بالنّور سِمةٌ للكرامةٍ وعلامة للاصطفاء

الضمير في قوله ﴿نُورُهُمۡ﴾ عائد إلى النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وإضافة (النَّور) إليهم توحي بأنَّ لهم نورًا خاصًّا يمتازون به من غيرهم، ويُعرفون به بين الخلائق يوم القيامة، فهو سمةُ كرامةٍ وعلامةُ اصطفاء، وليست هذه الإضافة من باب التَّعريف الذّاتيِّ للنّور، بل هي إضافة تُفيد الاختصاص[2].

دلالة التّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَسۡعَىٰ﴾:

نور المؤمنين يوم القيامة دائم التَّجدد والانبساط

التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَسۡعَىٰ﴾ يُفيد صورةً حيَّةً متجدِّدةً توحي بأنَّ نور المؤمنين يوم القيامة دائم التَّجدُّد ومستمرُّ الانتشار[3]، يسعى أمامهم وعلى جوانبهم، فيشقُّ لهم الطَّريق على الصِّراط كما يشقُّ ضوء القمر دُجى اللَّيل البهيم، نورٌ لا يخبو ولا يضعف، يبعث الطُّمأنينة في نفوسهم، ويُجلّي لهم معالم النَّجاة في موطنٍ تزلّ فيه الأقدام وتَدْلَهِمُّ فيه الخُطوب.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بسعي النّور:

إبراز عظمة ذلك النّور وقوّته إيذانٌ بالمهابة، وإظهارٌ للمكانة

في التَّعبير عن امتداد النّور وانتشاره بقوله تعالى:﴿يَسۡعَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ بليغة، صوِّر فيها النّور بماشٍ يسعى، تشبيهًا لسُرعة انتشاره وشِدَّة ضيائه بسرعة مَشْي السّاعي في الأرض، وفي

(1) الكوراني، غاية الأماني: 1/ 192، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2175.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 370، 371.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 10/ 203.

هذا إبراز لعظمة ذلك النّور وقوّته، فهو لا يثبت في موضع واحد، بل يتحرَّك معهم حيثما تحرَّكوا، ويلازمهم كيفما توجَّهوا. وفي هذا دلالةٌ على شرفهم وعلوّ منزلتهم، كما تُرفَع الرّايات أمام الملوك والسّادة، وتُساق الجياد بَيْنَ يدي الخلفاء والعظماء، إيذانًا بالمهابة، وإظهارًا للمكانة؛ فأهل الإيمان في موكب مكرَّم، يُباهي بهم الخلائق في مشهد القيامة العظيم[1].

توجيه المتشابه بين هذه الآية وآية سورة الحديد:

هذه الآية الكريمة الَّتي بين أيدينا جاءت في سياق تعظيم النَّبيِّ ﷺ، ورفع منزلته، وقد قُرن بها ذكر المؤمنين الَّذين آمنوا معه، ممّا يفيد قربهم منه وعلوّ قدرهم؛ ولذلك ناسب المقامُ أن يُقدَّم ﴿نُورُهُمْ﴾ في قوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾، فجاءت الجملة اسميَّةً تفيد الثَّبات والاستمرار، إشعارًا بتمكُّن النّور فيهم، واستقراره في مقام الكرامة. أمّا في سورة الحديد، فالسّياق سياق بشارة عامَّة للمؤمنين يوم القيامة، ولم يُذكر فيها أنَّهم مع النَّبيِّ ﷺ، فكان الأنسب التَّعبير بالفعل: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: 12] للدَّلالة على تجدُّد النِّعمة وحدوثها شيئًا بعد شيء، فناسب ذلك أن تُقدَّم الجملة الفعليَّة لما فيها من تصويرٍ لحركة النّور وبروزه المُتجدِّد[2].

بلاغة التَّشبيه الضِّمنيِّ:

نـور المؤمن يهدي السّاري، ويُطمْئِنُ الخائف، ويشقُّ الظُّلمة بطمأنينة وسكينة

في قوله تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ - مع ما ذُكِرَ من الاستعارة السّابقة - تشبيهٌ ضمنيٌّ بديع، يُفهم من السّياق دون أن تُصرَّح فيه أركان التَّشبيه المعروفة، فقد صوِّر النّورُ الَّذي يسبق المؤمنين ويُحيط بهم من أمامهم ويمينهم، وهم يقطعون الصِّراط في طريقهم إلى الجَنَّة؛ بأنَّه يُشبه ضياء القمر الَّذي ينبلج في سواد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2175.

(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/ 468.

اللَّيل، يهدي السّاري، ويُطمئن الخائف، ويشقُّ الظُّلمة بطمأنينة وسكينة، فكما يُضيء القمر للنّاس طريقهم في ليلٍ بهيم، كذلك نورهم يُضيء لهم سبيل النَّجاة، في مشهد يعكس طمأنينة السَّير، ويسر العبور، ورفعة المنزلة[1].

دلالة التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

الدَّلالةُ على رفعة الشَّأن والبشارة بالنَّجاة وتمام الكرامة

في تخصيص جهتَيِ الأمام واليمين بقوله تعالى: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، دلالةٌ على رفعة الشَّأن وتمام الكرامة، فإنَّ النّور إذا كان أمامهم، شهدوه بأبصارهم، وساروا فيه مطمئنّين، فكان لهم زينةً ومهابة، وعلامةً ظاهرةً على الفضل والقبول؛ إذ لا يعرفون في طريقهم إلى الجنَّة رجوعًا ولا التفاتًا، ولا يُعرَفون إلّا بالإقدام والثَّبات، وأمّا كونه عن أيمانهم، فلأنَّها جهة السُّؤدد والبركة، وهم من أهل اليمين الَّذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، لا يلتفتون إلى الشَّمائل، ولا تضعف عزائمهم بالتَّردُّد أو الشَّكِّ؛ والاقتصار على ذكر الأمام واليمين لا ينفي إحاطة النّور بهم من كلِّ الجهات، وإنَّما هو لبيان أعظم جهتين في الانتفاع: جهة السَّعي الأماميِّ، وجهة اليمين ذات الشَّرف، فالنّور يفيض ويشعُّ، يُكرم اللّه تعالى به عباده الصّالحين، فيكون لهم في الظّاهر كرامة، وفي الباطن طمأنينة، وفي المآل بشارةُ النَّجاة[2].

دلالة قوله: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ على المحذوفات:

الإشارة إلى اكتمال النّور في هاتَيْن الجهتين

عدولُ التَّعبير القرآنيِّ عن استعمال حرف الجَرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ إنَّما هو إشارةٌ بليغة إلى اكتمال النّور في هاتَيْن الجهتين، وامتلائه لهما امتلاءً شاملًا لا يعتريه نقصٌ ولا

(1) الصّابوني، صفوة التفاسير: 3/ 387.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 166، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 479، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 480.

يَحْتَمِل فيه التَّبعيض، ممّا يصوّر كرامةً تامّةً، وهدايةً كاملة ترافق المؤمنين في سيرهم يوم القيامة[1].

سرُّ تخصيص اليمين من بَيْنِ الجهات:

اليمين علامةٌ للسَّعادة، وقائدٌ لهم على الصِّراط إلى الجنَّة

خُصَّت جهة اليمين بالذِّكر؛ لأنَّ أهل السَّعادة يؤتون صحائفهم من أيمانهم، والَّتي بايعوا بها النَّبيَّ ﷺ، على الإيمان والنّصرة؛ بخلاف أهل الشّقاوة الَّذين يؤتون صحائفهم من شمائلهم أو من وراء ظهورهم، فصارت الجهة علامة للسَّعادة، وقائدًا لهم على الصِّراط إلى الجنَّة، وزينةً تُزاد على هيبتهم ونورهم في المحشر. وهم بين منازل السّابقين وأهل اليمين، يسيرون على طريقهم، ويُكرمون بالضّياء من جهاتهم المباركة[2].

دلالة فصل قوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾:

وصف حالهم مع النّور السّاطع بَيْنَ أيديهم وبأيمانهم

جُملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ واقعة في موقع الحال من الضَّمير في ﴿نُورُهُمۡ﴾، وهي كاشفة عن مقام دائم من الافتقار إلى اللّه تعالى، لا يفارق النَّبيَّ ﷺ، والمؤمنين معه، في الدُّنيا ولا في الآخرة، بل إنّ احتياجهم إلى ربِّهم في دار الكرامة أعظم، لشدَّة رغبتهم في دوام لقائه وتمام نعمته. ومن أبرز مظاهر هذا الافتقار دعاؤهم المُستمرُّ بأن يُتمّ اللّه لهم نورهم، ويغفر لهم، تعبيرًا عن تعلّقهم برضاه، ورجائهم في كمال القبول[3]. فالجُملة الأولى تصف النِّعمة الظّاهرة (سعي النّور)، وهذه الجُملة تصف حالهم مع تلك النِّعمة ولذلك فُصلت عنها.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

الدّلالة على تَجدُّد دعائهم واستمرار إلحاحهم

التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ يوحي بأنَّ دعاءهم: ﴿رَبَّنَآ

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 66، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203.

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ صادر عن ضراعة دائمة مُتجدِّدة، لا تنفكُّ تلهج بها ألسنتهم، مجاهرين بها؛ إذ يدركون تمام الإدراك أنَّ اللّه تعالى يفعل ما يشاء، وليس لأحدٍ أن يحتجّ عليه بحقٍّ أو يستوجب عليه نعمة. وتزداد شدَّة إلحاحهم في الدُّعاء وصدق اللَّجأ حين يشاهدون انطفاء نور المنافقين، فيزداد خوفهم، ويشتدُّ تضرُّعهم، رجاءَ أن يتمَّ اللّه لهم نورهم، ولا يسلبهم إيّاه بعد أن أُعطوه[1].

نُكتة حذف أداة النِّداء:

الاكتفاء بالمنادى سُبحانه تُشعر بـشِـدَّة الـقُـرب مـنـه وقـصـده وحده

﴿رَبَّنَآ﴾: أصله: يا ربَّنا حُذفت أداة النِّداء اكتفاء بالمنادى سُبحانه[2] ولدلالة الحال على القصد إليه، وفي هذا الحذف إشارة بليغة إلى شدَّة القرب بين العبد وربِّه؛ فكما أنَّ من يخاطب من هو قريبٌ منه لا يحتاج إلى أن يقول (يا زيد)، بل يكتفي بـ(زيد) فقط، فكذلك حَذْفُ حَرْفِ النِّداء في هذا الموضع يُفيد قُرْبَ اللّه تعالى من عباده المؤمنين، وقُرْبَهم منه في مقام الدُّعاء والضَّراعة، فنادوه مُباشرةً، لفَرْط أُنسهم به، وشِدَّة رجائهم فيه. وكذلك التَّبرُّك بالبداءة باسمه (الرَّبّ) تبارك وتعالى.

فائدة النِّداء بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضميرهم:

شِـدَّة الافتقار إلـــى رحـمـتـه إشـعـارٌ باليقين في رعايته، وثِقةٌ مُطلقة بلُطفه

في مقام تضرّعهم، اختاروا مناداة اللّه تعالى بوصف الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم ﴿رَبَّنَآ﴾، تعبيرًا عن شِدَّة فاقَتِهم وتمام حاجَتِهم إلى رحمته وإحسانه، وإظهارًا لافتقارهم الدّائم إلى نِعَمه في الدّارين، وأنَّهم لا غنى لهم عنه طرفة عين. وفي هذا النِّداء إشعارٌ بيقينهم في رعايته، وثقتهم المطلقة بلطفه، لما يفيض به اسم ﴿رَبَّنَآ﴾ من دلالات العناية والتَّدبير، وكفاية المؤمِّل، وسدّ خَلَّةِ المحتاج، فهو نداء المُحِبِّ الواثق من عناية خالقه ورعاية مُربّيه ومُصلح شؤونه[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203.

(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 12/ 78.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 203، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.

دلالة فعل الطَّلب بقوله ﴿أَتۡمِمۡ﴾:

الدلالة على افتقارهم، وحُسن أدبهم مع الله ﷻ

الفعل ﴿أَتۡمِمۡ﴾ خرج عن معنى الأمر إلى الدُّعاء خوفًا وطمعًا؛ لأنَّه صادر من المؤمنين إلى ربِّهم، فهم لا يأمرون بل يدعون ويتضرَّعون، يسألون الله ﷻ إتمام نورهم؛ خوفًا من أن يُصيبهم ما أصاب المنافقين من انطفاء النّور والتَّخبط في الظلمات، وطمعًا في كرمه وما عنده، ودعاؤهم هذا يُعبّر عن افتقارهم، وحُسن أدبهم مع اللّه ﷻ، كما في استغفار النَّبيِّ ﷺ، مع مغفرة ذنبه، طلبًا لدوام الفضل والرَّحمة[1].

معنى اللّام في ﴿أَتۡمِمۡ لَنَا﴾، ودلالتُها في الجُملة:

أعظم صور الكرامة تخصيصُ النعم وإدامتُها

اللّام في قوله ﴿أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ هي لام التَّخصيص، وهي هنا تفيد أنَّ هذا النّور مطلوب خصيصًا لهم دون غيرهم، لما في ذلك من شِدَّة حاجتهم إليه، وإدامة النِّعمة به، وهذا يُمثِّل أعظم صور الكرامة[2].

نُكتة إضافة النّور إلى ضميرهم:

تعاظمُ النّور يناسب شدّة الإيمان

في إضافة النّور إلى ضميرهم في قوله ﴿نُورَنَا﴾ توكيدٌ للخصوصيَّة المستفادة من اللّام، أي أنَّ لكلِّ واحد منهم نورًا خاصًا به، يتناسب مع درجة إيمانه وعمله الصّالح[3]؛ وهذه الإضافة تُبرز شرف هذه النِّعمة، وأنَّ فقدها بعد نيلها يعدُّ أشدَّ إيلامًا من عدمها من الأصل، لما فيه من اجتماع فقدٍ حسّيٍّ وحرمان معنويٍّ، يورثان قَطْعَ الرَّجاء وانكسارَ النَّفس.

نُكتة عطف طَلَبِ المغفرة بعد إتمام النّور:

مُراعاة مقام الفرح والرَّجاء الَّذي يعيشه المؤمنون آنذاك

قُدِّم الدُّعاء بإتمام النّور على طلب المغفرة، مع أنَّ المغفرة سبب في نيل النّور، مراعاةً لمقام الفرح والرَّجاء الَّذي يعيشه المؤمنون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.
(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.
(3) المكي، المعين على تدبر الكتاب المبين: 1/ 561.

آنذاك؛ إذ إنَّهم في موطن نعمة وسعادة، فناسب تقديم مطلب النّور، ثُمَّ جاء طلب المغفرة بعده، لا لأنَّهم استغنوا عنها، بل لإظهار التَّواضع ونفي شبهة الغرور، حتَّى لا يُظنَّ أنَّهم يرون النّور حقًّا مكتسبًا، لا فضلًا مَنَّ اللّه ﷻ به، وفي ذلك غاية الأدب وحسن التَّذلُّل(1).

دلالة فعل الطَّلب بـ(اغفر):

الطَّلب والرَّجاء مُتضمِّنٌ التَّضرُّع والابتهال

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ خرج عن معنى الأمر إلى الطَّلب والرَّجاء المُتضمِّن للتَّضرّع والابتهال؛ إذ ليس هو أمرًا من المكلَّف لربّه، بل توسُّل من المؤمنين إلى ربِّهم ﷻ العظيم، وقد ورد بصيغة الأمر ليُفيد شِدَّة الحاجة وصدق الرَّجاء، فهو دعاء صادر من جهة دنيا إلى جهة عُليا، طَلَبًا لدوام المغفرة واستمرارها بمحوِ كلِّ نقصٍ كان يميل بهم إلى أحوال المنافقين، في مشهدٍ يجمع بين الافتقار والرَّجاء(2).

نكتة تكرار ضمير المُتكلِّمين ﴿لَنَآۖ﴾ في الجُملة:

شِدَّةُ تَعلُّقهم بما يسألون، وصِدقُ حاجتهم إليه؛ توكيدٌ للضَّراعة والابتهال

في تكرار ضمير المُتكلِّمين ثلاث مَرّات أوَّلها مجرورًا بالحرف في ﴿لَنَآۖ﴾، والثّانية مجرورًا بالإضافة في ﴿نُورَنَا﴾، والثّالثة في قولهم ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ تعبيرًا بليغًا عن شدَّة تعلّقهم بما يسألون، وصدق حاجتهم إليه، وفيه توكيد للضَّراعة والابتهال في تحقيق ما يدعون به من مغفرة الذُّنوب وزيادة النّور وعدم حرمانهم من أيِّهما(3).

نُكتة حذف مُتعلِّق المغفرة:

التَّضرُّعُ جامعٌ يعكس خوفهم من كلِّ ما يُبعدهم عن مقام أهل النّور

حذفُ مفعول ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ يفيدُ الإطلاق، فيدلّ على طلب مغفرةٍ شاملةٍ لكلِّ ذنبٍ أو تقصيرٍ، سواء أكان ظاهرًا أو خفيًّا، كبيرًا أو صغيرًا، ممّا قد يَنْقُصُ من منزلتهم أو يُقرّبهم من حال غير

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2176.

المؤمنين[1]، وفيه تضرُّعٌ جامعٌ يعكس خوفهم من كلِّ ما يُبعدهم عن مقام أهل النّور.

دلالة فصل جملة الفاصلة:

تقرير كمال القُدرة إشعارٌ برسوخ مضمونه في عقيدة الدّاعين

فُصلتْ جُملة ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عن الَّتي قبلها لاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاءً؛ فالسّابقة إنشائيَّة دُعائيَّة، واللّاحقة خبريَّة تقريريَّة، وفي هذا الفصل ما يَدُلُّ على شبه الانقطاع بينهما؛ إذ هي تفصيل لما سبق من جوابِ سؤالٍ قد يتبادر إلى الذِّهن بعد الدُّعاء السّابق؛ فكأنَّ قائلًا قال: لماذا طلب المؤمنون من ربِّهم ﷻ، أنْ يتمّم لهم نورهم وأنْ يغفر لهم؟ فجاء تفصيل السَّبب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، أي: إنَّك سُبحانك أنت القادر على كُلِّ شيء من المغفرة والعقاب، والرَّحمة والعذاب، وفي هذا الفصلِ إشعارٌ بِشِدَّة رسوخ هذا المعنى في نفوسهم، وثباتِ يقينهم بكمال قُدرة اللّٰه ﷻ.

فائدة صيغة المُبالغة في ﴿قَدِيرٞ﴾:

التَّصريح والإقرار والتَّسليم بقُدرته تعالى المطلقة على كُلِّ شيء

﴿قَدِيرٞ﴾ على وزن (فَعِيْل) إحدى صيغ المبالغة المشهورة، وهو من أسمائه الحسنى وكلُّ أسمائه حسنى، أي: البالغ القدرة على كُل شيءٍ فيفعل بهم ما يشاء، ولا يمنعه أو يمتنع منه شيءٌ من مغفرة وعذاب، ورحمة وعقاب، واستجابة الدُّعاء وتحقيق الرَّجاء. وفي التَّعبير بصيغة المُبالغة أيضًا دلالة على كمال القُدرة وشمولها، وفيه تصريح وإقرار بقدرته المطلقة على كُلِّ شيء، مِمّا يجعل أملَهم في إجابة الدُّعاء بالمغفرة وزيادة النّور؛ وصل حَدَّ اليقين الَّذي لا شكَّ فيه ولاقلق معه[2].

نكتة تذييل الآية بصفة القدرة:

قولهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ جاء تذييلًا بليغًا يُؤكِّد ما

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 205، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 363، ولجنة من العلماء، التَّفسير الوسيط: 10/ 1490.

الإشعار بتَعليلِ الدُّعاءِ السّابق كِنايةً عن رَجاءِ إجابتِه لهُم

انطوت عليه قلوبهم من يقينٍ راسخ بقدرة ربِّهم على إجابة دعائهم، وإتمام نورهم، ومغفرة ذنوبهم، فالجملة جاءت مشحونة بجملة من المؤكِّدات محقِّقة للإيمان والرَّجاء، تعبّر عن فرحتهم العميقة بما هم فيه من كرامة، وحرصهم الشَّديد على دوامها. وفيها من الإثارة الوجدانيَّة ما يضاعف التَّعلُّق بالله ﷻ، إذ جاء التَّذييل مؤكّدًا، ومشيرًا إلى أنَّ ما يطلبونه ليس بعيدًا عن قدرة من لا يعجزه شيء، فكأنَّهم علّلوا دعاءهم بهذا الخبر، وفيه كناية رقيقة عن رجائهم الصّادق في نيل الإجابة[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتمام والإكمال:

الكمال أخصُّ بالصِّفات والمعاني، والإتمام بالأعيان والمباني

الفرق بين الإتمام والإكمال فرق دقيق يُدركُ بالتَّأمُّل: فالإتمام صفةٌ تتوجَّه إلى الجواهر والأعيان ويُراد به إزالة النَّقص في أصل الشَّيء، كمن يبني بيتًا فيُتمّه بعد أن كان ناقص البُنيان. أمّا الإكمال، فهو صفة تتوجَّه إلى الأعراض وهو إزالة النَّقص العارض بعد تمام الأصل، ويتعلّق غالبًا بالصِّفات والمعاني، كمن يُجمّل البيت بعد إتمامه ويُكمله بزينة أو ترتيب[2]. وعليه فالكمال أبلغ؛ لأنَّه يأتي بعد تمام الأصل، ليزيد عليه كمالًا في الوصف أو الهيئة، ولذا يُقال: الإتمام للأصل، والإكمال، يرد على التّامِّ فيزيده كمالًا، في حين أنّ التَّمام يرد على النّاقص فيرفعه إلى حدِّ الكفاية. ومن هنا فالإتمام أنسب لمقام التَّأدُّب في الخطاب، والطَّلب والدُّعاء من الله ﷻ بإتمام النّور.

وكذلك على العبد تعلَّم الدُّعاء كي لا يحصل تعدّي فيه، وأعظمُ تكريمٍ للعبد حين يكون في رعاية الله ﷻ .

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2177.

(2) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 14، وابن القيم، اجتماع الجيوش الإسلامية: 2/ 34.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾ [التحريم: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا لم ينفعهم التَّذكير، ولا ما حذَّر النَّذير شرَّع جهادهم القدير

لمّا كَشف اللّه ﷻ في الآيات السّابقة عن مصير الكافرين، وأبان عن عذابه المُعدّ لهم في الآخرة، تصريحًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، وتلميحًا بما أعدَّه للمؤمنين من كرامة ونور بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ - أُتبع ذلك بتكليف النَّبيِّ ﷺ، بجهاد أعداء اللّه من الكفّار والمنافقين، أولئك الَّذين لم تنفذ إلى قلوبهم الموعظة، ولم تُحرّك أفئدتهم مشاهدُ الوعيد الأخرويِّ بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: فلمّا استغلق عليهم باب الانتفاع بالتَّذكير، كان لا بدّ من جهادٍ يوقظهم، وسيفٍ يَرْدَعُهم، رجاءَ أن تُثمر رهبة العاجلة ما لم تُثمره خشية الآجلة، فيرجعوا إلى الحقِّ بعد عناد، وتلين قلوبهم بعد قسوة، ويثوبوا إلى رشدٍ طال عنه المدى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِدِ﴾: تَدُلُّ تَصريفاتُ الجيم والهاءِ والدّالِ على المشقَّة[2]، ويأتي بِمَعْنى الطّاقةِ والوُسْعِ، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ على استِفْراغ الوُسع في مُجالَدة العَدوِّ، وهو ثلاثةُ أضربِ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهِر، ومُجاهَدَةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[3]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 371، 372.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).

(3) الرّاغب، المفردات: (جهد).

على النُّفوس، ومادَّة (جَهَدَ) حيثما وُجِدت، ففيها معنى المبالغةِ[1]. والمعنى هُنا: ابذل جهدك ووسعك في مغالبة الكفّار والمنافقين ومُدافعتهم بالمال والعلم أو الدَّعوة والقتال[2].

2) ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: تدلُّ اشْتِقاقاتُ الغَيْنِ واللّامِ والظّاءِ على عِظَمِ الجِرْمِ وتَجَسُّمِه مَعَ صَلابَةٍ، ويدلُّ لازِمُهُ علَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ[3]، وأَصْلُ الغِلْظَةِ اسْتِعْمالُها في الأَجْسامِ، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلمَعاني، كقَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبة: 123]، أي: خُشونَةً[4]، والغِلْظَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، هي الشِّدَّةُ البالِغَةُ مَعَ الحِدَّةِ. والمعنى هُنا: اشْدُدْ وطْأتكَ على كلا الفريقين بالقول و الفعل و لاتعاملهم باللّين[5].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: تَدورُ تصريفاتُ الهَمْزَةِ والواوِ والياءِ على مَعْنَيَيْنِ؛ هُما: التَّجمُّع، والإشْفاقُ[6]، ومِنَ الأوَّلِ: التَّأوّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلَى بعضٍ[7]. والمَأْوى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[8]، ليلًا أو نهارًا، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أويًّا، على فُعولٍ، وإواءً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43][9]، والمعنى هنا: ومسكنهم ومكثهم ومصيرهم جَهَنَّمُ الَّذي يَصيرونَ إلَيْهِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنادي اللّه تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ، مُكلِّفًا إيّاهُ بالجهاد، فيأمره أن يجاهد الكافرين المحارِبينَ بالسَّيفِ، وغيرَ المحارِبينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعِظةِ، وأن يجاهد المنافقين بالسَّيف إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لرَدِّ شُبُهاتِهم، وأن يكون شديدًا عليهم في القول والعمل، فإنَّهم إن تمادَوا في كفرهم ونفاقهم، فمصيرهم المحتوم في الآخرة هو نار جهنَّم، وما أسوأ ذلك المصير مرجعًا ومآلًا[11].

(1) البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 247.
(2) الطَّبراني، التفسير الكبير: 6/ 307، وعبد المنعم تعليب، فتح الرحمن: 7/ 3711، والمكي، المعين على تدبُّر الكتاب المبين: 1/ 561.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(5) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 421، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 389.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(7) الخليل بن أحمد، العين: (أوى).
(8) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (أوا).
(10) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 497، والمنصوري، المقتطف: 5/ 278.
(11) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 497، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 201، والسِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ النِّداء والتَّوكيد والتَّنبيه:

الإشارة إلى جلال المخاطَب وخطورة الأمر الملْقى إليه

من دقائق البيان وروائع التَّنزيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، إذ ابتدأ الحق ﷻ خطابه الجليل بصيغة النِّداء، وهي صيغة تليق بجلال المخاطَب وخطورة الأمر المُلقى إليه، فقد صدَّر النِّداء بأداة الإقبال (يا)، ثُمَّ أعقبه بـ (أيُّها)، وهي نكرة مقصودة، لا يتجلَّى معناها إلّا بما يتلوها من بيان، فكان في ذلك تدرّجٌ من الإبهام إلى الإيضاح، ومن التَّعميم إلى التَّخصيص، تقويةً للمعنى، وإحكامًا للخطاب[1].

توكيد النِّداء السّابق

ثُمَّ زُيّن هذا النِّداء بـ(ها) التَّنبيه، فاجتمع فيه نداءان: أحدهما يدعو السّامع للإصغاء، والآخر يُنبّهه إلى خطورة ما يُلقى إليه، فكان التَّوكيد فيه مُضاعفًا، والبلاغةُ فيه محكمةَ البناء، دالَّةً على أنَّ ما بعده من الأمر ليس من قبيل الخطاب العادي، بل هو تكليف جليل، ومقام عظيم، ألا وهو جهاد الكافرين والمُنافقين[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

توكيد خصوصيَّة النَّبيّ في مقام التَّكليف والوحي

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، جاءت (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ للعهد، وقد انقسمت دلالتها بَيْنَ وجهين، كلاهما يُجلّي خصوصيَّة الخِطاب وسُموّ: فهي إمّا للعهد العلميِّ، والمُراد به النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، أو هي للعهد الحضوريِّ، أي أنَّ المخاطب هو النَّبيُّ الحاضر حين التَّنزيل، ولا نبيَّ في الأرض ساعة نزول الآية سواه ﷺ، فينصرف الذِّكر إليه دون غيره. وهذان الوجهان مُتقاربان، يجمعهما كون الخطاب مُخصَّصًا برسول الله ﷺ، وموجَّهًا إليه وحده، دلالة "أل" في السّياق لتوكيد خصوصيَّة النَّبيِّ في مقام التَّكليف والوحي[3].

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المُحرَّر الوجيز: 5/ 334، والزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 3/ 2692.
(2) ابن فرس الأندلسي، أحكام القرآن: 3/ 591.
(3) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 24.

فائدة ندائه ﷺ، بوصف النُّبوَّة دونَ الاسم:

إظهار مقام النبيّ الرَّفيع عند ربِّه، وإعلاء قدر منزلته بَيْنَ الأنبياء

من أساليب القرآن الكريم البليغة، وطرائقه الرَّفيعة في خطاب النَّبيِّ ﷺ، أنَّه لم يُنادِه باسمه العلم مُجرَّدًا قَطُّ، فلا تجد في التَّنزيل: (يا مُحمَّد)، كما خوطب غيره من الأنبياء بـ: (يا آدم)، و(يا موسى)، و(يا عيسى)، بل جاء النِّداء مقرونًا بوصف النُّبوَّة أو الرِّسالة، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، وهذا من دلائل التَّشريف وعُلوِّ المنزلة، إذ خُصَّ النَّبيُّ ﷺ، بالنِّداء بصفته الجليلة، دون اسمه، إظهارًا لمقامه الرَّفيع عند ربِّه، وإعلاءً لقدر منزلته وفضله بَيْنَ الأنبياء(1).

وفي ذلك أيضًا تعليمٌ للأمَّة أدبَ الخطاب مع نبيِّها، وأنَّه لا يُخاطَب كما يُخاطَب سواه، بل يُعرَف ويُذكر بصفاته الَّتي شرَّفه اللّه ﷻ بها، كما في مطلع هذه السّورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، فجمع الخطاب بَيْنَ التَّكريم والتَّأديب، وبَيْنَ التَّشريف والتَّعليم(2). خاطبه بهذا الوصف، ليدل على فضله عليهم وهذا ظاهر.

سرّ ندائه ﷺ، بوصف النُّبوَّة دونَ الرسالة:

وعبّرَ بوصف النُّبوّة الدَّالّ على الرِّفعة بالإعلام بالأخبار الإلهيَّة المبنيِّ على الإحكام والعظمة المثمرة للغلبة، وأمَّا وصف الرِّسالة فيغلب فيه الرَّحمة فيكثر إقباله على اللِّين والمسايسة(3).

دلالةُ تَخصيص النَّبيِّ بِالخطاب بلفظ ﴿جَٰهِدِ﴾:

تَخصيص النَّبيِّ وتشريفه بِالخطاب؛ لأنَّه المُبلِّغ عن ربِّه، وقائدُ أمَّته، ورائدُها

جاء نداء اللّه ﷻ لنبيِّه الكريم ﷺ، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ على وجهٍ يُسمِع الأمَّة جمعاء، وإن كان ظاهرُه توجيهًا خاصًّا للنَّبيِّ الكريم، إذ المقصود بالخطاب في جوهره هو مجموع الأمَّة، تنبيهًا لهم أنَّهم

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرازي: 30/ 574.
(2) عبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1209.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 206.

معنيّون بما أُمر به نبيُّهم، داخلون في دائرة التَّكليف، مُطالَبون بتحقيق مُقتضاه. فاختُصَّ النَّبيُّ ﷺ، بالخطاب تشريفًا وتكليفًا؛ لأنَّه المُبلِّغ عن ربِّه ﷻ، وقائدُ أمَّته، ورائدُها في مقام الجهاد والدَّعوة، فالأمر في قوله ﷻ: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ وإن وجِّه إليه ﷺ، إلّا أنَّه محمول على العموم، يشمل جميع المؤمنين؛ لأنَّ الصِّراع مع الكُفر والنِّفاق ليس أمرًا شخصيًّا، بل هو معركة كبرى يَتطلَّب من الأمَّة بأسرها أن تشحذ قواها، وتُجمّع طاقاتها، لنُصرة الحَقِّ ودفع الباطل[1].

نُكتة التَّعبير بالفعل ﴿جَٰهِدِ﴾ مادَّة وصيغة:

الإيماء إلى عِظم المُهمَّة، وتنوُّع صورها، وتشعُّب سُبلها

اختار النَّظم الكريم لفظ ﴿جَٰهِدِ﴾ دون (قاتل)، لِما في ذلك من إيماء إلى عِظم المُهمَّة، وتنوّع صورها، وتشعّب سُبلها، فالجهاد أوسع ميدانًا من القتال، وأعمُّ من أن يُقصر على حمل السِّلاح، إذ يشمل بذل الجهد الَّذي يكون بمُقاتلة الكافرين، ومُجادلة المنافقين - الَّذين ارتضوا الغدر - بالحُجّة والبيان، ومُنازلة الباطل بِكُلِّ وسيلة مَشروعة. ولذا جاء اللَّفظ بصيغة المُفاعلة، إشارة إلى أنَّ المُجاهِد سيُلاقي من خصومه - الكفّار والمنافقين - من المقاومة والعناد والمكر، ما يستوجب مُضاعفة الجهد، واستفراغ الوسع، وبذل الطّاقة النَّفسيَّة والجسديَّة على حَدٍّ سواء إذ أصل المُجاهدة بلوغ الجهد في رضوان اللّه ﷻ[2].

بلاغة لفظة ﴿جَٰهِدِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الدَّلالة على الجهاد بالسَّيف والسِّنان واللِّسان والبيان

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، يرد سؤالٌ: كيف أُمر النَّبيُّ ﷺ، بجهاد الكافرين والمُنافقين، مع أنَّه قد قاتل الكافرين بالسَّيف، ولم يُعرف عنه أنَّه قاتل المُنافقين بنفس الصّورة؟.

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 479.

(2) النَّحاس، إعراب القرآن: 4/ 305، والرّازي، تفسير الفخر الرازي: 30/ 574، وعبد المنعم تعليب، فتح الرَّحمان: 7/ 3711.

والجواب: أنَّ جهاد المُنافقين لم يكن بالسِّلاح كما هو الحال مع الكُفّار، بل كان بالحُجَّة والبيان، كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ [الفرقان: 52]، أي: جاهدهم بالقرآن، بالحُجج والبراهين، وبفضح كيدهم وإظهار نفاقهم؛ وذلك لأنَّ نفاقهم مُستتر لا يظهر، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ، كَفَّ عن قتلهم حتَّى لا يُقال: إنَّ مُحمَّدًا يقتل أصحابه.

وقد كان جهاده ﷺ، للمُنافقين أشدَّ وقعًا عليهم من السَّيف؛ إذ ألقى الله الرُّعب في قلوبهم، وجعلهم في خوف دائم، يحسبون كُلَّ صيحة عليهم، فَعَطْفُ ذكر المنافقين على الكافرين في الآية لا يقتضي بالضَّرورة المُساواة في نوع الجهاد، بل يُحمل لفظ ﴿جَٰهِدِ﴾ على معناه الأعمِّ، فيشمل القتال والرَّدَّ بالحُجَّة، والإيقاع بهم بما يَردعهم ويكفُّ شرَّهم من التَّخويف. كما أنَّ في التَّعبير ما يُشعر المُنافقين بأنَّ النَّبي ﷺ والمؤمنين لهم بالمِرصاد، فلا يجرؤ أحدهم على إظهار ما يُبطن، خشية أن يُعامل مُعاملة الكافر في حال افتُضح أمره، كما قال تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠﴾ [الأحزاب: 60][1]؛ فاللَّفظ مُسْتَعْمَلٌ في حقيقته ومجازه.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

الألف واللّام في لفظَي ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ تُفيدان الاستغراق، أي: أنَّ الأمر بالجهاد موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ، تُجاه جميع من اتّصف بالكفر أو النِّفاق، دون استثناء، فيشمل الخطاب كُلَّ صنوف الكافرين والمنافقين على اختلاف أحوالهم.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ عَلَى (المُنَافِقِينَ):

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، جاء تقديم ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ على (المنافقين) لمناسبة المقام، إذ السّياق يتناول الأمر بالمُجالدة والمواجهة الحربيَّة، وهي ألصق بالكافرين الَّذين جاهروا بالعداوة، وصرَّحوا بالمُخالفة، فكانوا أولى بالابتداء في الذِّكر، لما اتَّصفوا به من شِدَّة البأس، وقوَّة المواجهة، فلمّا كان الكفّار أشَدَّ شَكيمَةً وأقْوَى

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 254، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 372.

أَسْبابًا في القِتالِ، وأقوى عُدّة، وأصلَبَ عزمًا في ميادين القتال، لِتَصَدّيهم الصَّريح ومواجهتهم العلنيَّة، قدّمهم اللّه تعالى في الخطاب ثُمَّ ثُنّي بالمُنافِقينَ؛ لكونهم أَخْوَفَ وأَضْعَفَ نَفْسًا، وأَهْوَنَ قَدْرًا، ولِذا فَإنَّهم لَم يَجْرُؤوا عَلَى إظْهارِ المُخالَفَةِ، فبَدَأ بـ ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾؛ لأنَّ جهادهم من الأمور المُسَلَّم بها؛ لكون جهادهم أمرًا ظاهرًا مُتَّفقًا عليه، بخلاف جهاد المُنافقين، الَّذي يقتضي فطنةً وبصيرةً[1].

تقديمهم لما اتَّصفوا به من شِدَّة البأس، وقوَّة المواجهة

دلالة عطف (المُنافقين) على ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾:

عُطف (المُنافقين) على ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ باستخدام واو المعيَّة، في إشارة بليغة إلى أنَّ جهاد الفريقين مُتلازمان في الأهمّيَّة، وإن اختلف ظاهر الحال، فالكُفّار يُهاجمون الأمَّة من ظاهرها، والمُنافقون ينخرونها من باطنها، وكلاهما يُشكِّلُ خطرًا داهمًا على بنيان الجماعة واستقرارها. وقد نُبّه في هذا العطف على ضرورة التَّيقُّظ لعدوِّ الدّاخل، كما يُستعدُّ لعدوٍّ الخارج، فالمُنافقون خَطرهم خَفيٌّ، لا يَقِلُّ شراسة عن عدوٍّ يرفع السَّيف جهرًا. ومن وجوه الحكمة في هذا العطف، ما ذهب إليه جمعٌ من أهل العلم، أنَّ فيه إلقاءً للرُّعب في قلوب المُنافقين، ليدركوا أنَّ النَّبيَّ ﷺ، والمؤمنين لهم بالمرصاد، وأنَّ نِفاقهم معلومٌ، وكيدهم مكشوف، فإذا بَدَرت منهم بادرة تفضح أمرهم، عوملوا معاملة الكُفّار، فيرتدعوا، ويكفّوا عن إيذاء المؤمنين خوفًا من الفضيحة والهلاك[2].

شُمول الجهاد، وتحقيق الرَّدع، والتَّهديد يُزلزل القلوب، ويكشف خبث النّيات

معنى الواو في قوله ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾ ودَلالَتها:

في قوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، أي: الزَم الشِّدَّة والخُشونة بالفعل والقول؛ بالتَّوبيخ والزَّجر والإبعاد والهجر[3] في معاملة

الغِلظة جزءٌ من الجهاد ومن لوازمه في مقام المُدافعة استدعاءً للهيبة والتَّأثير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 463، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 372.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 206.

الفريقين الكُفّار والمُنافقين - بحسب ما يُناسب حالهم - سواء في ميدان القتال أو في مقام الحُجّة والمُحاجَّة. وقد جاء عطف الأمر بالغِلظة على الجهاد، للإشارة إلى أنَّ الغِلظة جزءٌ من الجهاد، بل هي لازمة في مقام المُدافعة، وخصوصًا مع من لا تنفع معهم الموعظة، ولا يستقيم لهم حالٌ بالرِّفق واللّين. فالواو في ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾ تُفيد عَطْفَ أمْرٍ على أمْرٍ، مع ما فيه من الإشارة إلى تلازم المعنيين: الجهاد والغِلظة، في هذا السّياق الَّذي يقتضي الحَزم والقوَّة(1).

دلالة الأمر بالغِلْظة:

المقام لا ينفع فيه إلّا الشِّدة، ولا يُصلِح حالَ أهله إلّا الغِلظة

لم يأتِ الأمر بالغلظة في القرآن الكريم موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ، إلّا في موضعين، أحدهما في هذه الآية: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، والآخر في سورة التَّوبة، وقد جاء ذلك على وجهٍ خاصٍّ، عُطف فيه الأمر بالغِلظة على الجهاد، تنبيهًا على أهمّيَّته، وتوكيدًا لمقامه، لكونه يُخالف الطَّبيعة الَّتي جُبل عليها النَّبيِّ ﷺ، من الرَّأفة والرَّحمة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159]. فكان في هذا التَّوجيه الإلهيِّ تحوُّل مؤقّت عن سجيَّة اللّين إلى مقتضى الحزم، في مقام لا ينفع فيه إلّا الشِّدَّة، ولا يُصلح حال أهله إلّا الغِلظة، لا سيَّما إذا كان العدوُّ يُجاهر بالكفر أو يندسّ بالنِّفاق، فجهاد هؤلاء لا يكتمل إلّا بصرامة تُفزع، وزجر يردع، فكان لا بدّ من تغليظ الفعل والقول، وشِدَّة التَّخويف، وإظهار المصير المهول الَّذي ينتظرهم، لعلَّ في ذلك ما يردّهم عن غيّهم، أو يُخلي السّاحة من شَرِّهم. وفي الأمر بالغلظة، إشارة عظيمة إلى أنَّ الشِّدَّة على أعداء الله من مكارم الأخلاق، وأنَّ من كانت رحمته للعالمين، مأمورٌ بأن يغلُظ في مقام الحرب والعداوة، فإنَّ اللّين في غير موضعه ضعف، والرَّحمة في غير أهلها مهانة، وقد قال تعالى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 570.

في وصف صحابة النَّبيِّ ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، فالجمع بين الشِّدَّة والرَّحمة، بحسب موضعها، هو كمال الخُلُق ونهاية الحِكمة(1).

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿وَٱغْلُظْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، جاء التَّعبير بالغلظة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، حيث نُقلت الغِلظة من معناها الحسّيِّ، وهو صلابة الشَّيء المحسوس وخشونته، إلى المعنى المعنويِّ، وهو الشِّدَّة في المُعاملة دون لين أو تسامح، فصوّرت المعاملة القاسية بصورة ملموسة تُحاكي الخشونة الجسديَّة، لما في ذلك من تجسيدٍ للمعنى وتقوية للأثر. وهذه الاستعارة تمنح التَّعبير طابعًا قويًّا، يُلقي في نفس السّامع إحساسًا بالشِّدة المرهوبة، ويُضفي على الأمر بالجهاد بُعدًا نفسيًّا يُرهب القلوب المريضة بالكفر والنِّفاق، ويُشعرهم أنَّ الرَّحمة هُنا مَوْؤودَةٌ، وأنَّ الحزم قد بلغ مداه، في إقامة الحقِّ وصدّ الباطل(2).

الأمر بالجهاد يُرهب القلوب المريضة بالكفر والنِّفاق

نُكتة تعدية فعل الغِلظة بحرف الاستعلاء:

من لطائف التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، تعدية الفعل (اغلظ) بحرف الجَرِّ (على)، الدّالِّ على الاستعلاء، وفي ذلك إشارة بلاغيَّة رفيعة، إذ يُصوَّر أثر الغلظة كأنَّه يعلو عليهم ويُطبق على نفوسهم، فيتمكَّن منهم كما يتمكَّن الرّاكب من جواده، وهي مُبالغة في تصوير وقع الشِّدَّة عليهم، وتقوية للاستعارة السّابقة بتحويل الغلظة من معنى معنويٍّ إلى هيئة حسّيَّة تُحسّ وتُرهَب، وتكون رادعة لهم عن التَّمادي في الكفر والنِّفاق، ومانعة من الإضرار بالصَّفِّ المؤمن أو تهديد وحدته(3).

الغلظة تردع التَّمادي في الكفر والنِّفاق، وتمنع الإضرار بالصَّفِّ المؤمن

---

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 67، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 373.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2181.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾:

بيان آجِل حالهم، بعد بيان عاجله

لمّا كان انتقام أولياء اللّه من أعدائه لا ينبع من هوى النَّفس أو رغبة شخصيَّة، بل هو خالصٌ لوجه اللّه تعالى، لم يكن هذا الانتقام الدُّنيويُّ كافيًا في حقّ أولئك الأعداء؛ إذ لا يستحقّون حُرمة ولا مكانة، مهما بدتْ عليهم مظاهر القوَّة والعظمة في الدُّنيا، فجاء التَّهديد الإلهيُّ واضحًا بقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لبيان أنَّ مآلهم في الآخرة هو العذاب الأشدُّ، والنّار العظيمة، وقد افتُتحتِ الجملةُ بـ(الواو) الاستئنافيَّة، تنبيهًا على أهمّيَّة هذا المصير، وما يحمله من معانٍ عظيمة تُعزِّز الأمر بجهاد الكافرين والمُنافقين، والتَّشديد عليهم، فالجُملة تُظهر العاقبة الأخرويَّة، بعد بيان الحال في الدُّنيا؛ لتبعث في المؤمنين مزيدَ حماسٍ للجهاد، وتؤكِّدُ أنَّ ما ينتظر أعداء اللّه في الدّار الآخرة هو أشدُّ وأنكى ممّا يُصيبهم في الحياة الدُّنيا[1].

بلاغة تقديم المأوى على جهنَّم:

التَّوكيد على شناعة مصير الكافرين والمنافقين، وسوء عاقبتهم

قُدّمَ لفظ المأوى على جهنَّم؛ لأنَّ المأوى لفظ عامٌّ يشمل كُلَّ مُستقرٍّ، أمّا جهنَّم فلفظ خاصٌّ، فاقتضى السّياق تقديم العامِّ على الخاصِّ لإفادة القصر والحصر، أي: لا مأوى لهم ولا مُستقرَّ غير النّار، وفي هذا الأسلوب البلاغيِّ توكيدٌ عظيم على شناعة مصيرهم، وسوء عاقبتهم، إذ ليس لهم مأوى يأوون إليه يوم القيامة إلّا جهنَّم، ولا قرار لهم إلّا في العذاب المقيم[2].

بَلاغة الاستِعارَة التَّهَكُّميّة في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

ذِكْرُ المأوى أبلغ في تقريع الكافرين والمنافقين وتهديدهم

لفظ (المأوى) في أصله يَدلُّ على المكان الَّذي يقصده الإنسان

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 207، والمهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 427، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 12/ 79.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2182.

طلبًا للسَّكينة والاستقرار، حيث يجد فيه الرّاحة والأمان، بيد أنَّ التَّعبير القرآنيَّ في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ قد عبّر بهذا اللَّفظ في موضع العذاب، فجعل جهنَّم مأوى لهم، وهذا من الاستعارة التَّهكُّميَّة البليغة، حَيْثُ أُطلق اللَّفظ بما يُفهم منه المدح، وهو في حقيقته ذمٌّ شديد، فالتَّعبير يوحي في ظاهره بمكان إيواء، لكنَّه في الحقيقة مكان للعذاب والهوان والخلود في النّار، وهذا أبلغ في تقريعهم وتهديدهم، فذِكْرُ المأوى في هذا المقام تهكُّم عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

معنى الواو في قوله ﴿وَبِئْسَ﴾:

الهوان والذِّلّة والصَّغار منزلة الكافرين والمنافقين عند الله تعالى

عُطفت جُملة الذَّمِّ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ على ما قبلها، كنايةً عن مدى ذُلِّهم وحقارة شأنهم وخِسَّة منزلتهم عند الله تعالى، وفي ذلك قطعٌ لِكُلِّ رجاء في هدايتهم، وسَدٌّ لباب الطَّمع في إيمانهم؛ إذ إنّ احتمال توبتهم لو بقي قائمًا، لربّما استدعى شيئًا من اللّين والرِّفق، وهو ما لا يتناسب مع الأمر الإلهيِّ بالجهاد المقرون بالغلظة والشِّدَّة، فجاء هذا الذَّمُّ ليحسم الموقف، ويُغلِق باب الملاينة معهم تمامًا[1].

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ المأوَى والمصير:

التَّوكيد على فظاعة عاقبتهم وشِدَّة خُسرانهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، جاء الجمع بَيْنَ المأوى والمصير مع أنَّ كليهما يُشير إلى المرجِع والنِّهاية، لكن بينهما فرق دقيق في الاعتبار: فالمأوى يُقصد به مكان الإقامة والاستقرار، والمصير يُراد به ما يصير إليه الإنسان ويرجع إليه في نهاية أمره، فجُمع بين اللَّفظين للتَّفنُّن في التَّعبير[2]، وللتَّوكيد على فظاعة عاقبتهم وشِدَّة خُسرانهم، من حيث البداية والنِّهاية، والاستقرار والمآل.

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2182.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 267.

وقد يُطرح هنا سؤال: إذا كان قوله ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدلُّ ضِمنًا على أنَّ مصيرهم سيِّئ، فما الحاجة إلى التَّصريح بقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؟.

مصيرُ الكافرين والمنافقين في جَهَنَّمَ أبديٌّ، وعذابُهم لا يُخَفَّفُ ولا ينقطع

والجواب: أنَّ التَّعبير بـ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جاء بصيغة مُطلقة، والمُطلق يدلُّ على الدَّوام والثَّبات، أمّا ذكر المأوى وحده فقد يُفهم منه مقام مُؤقَّت أو جزئيٌّ، فجاءت جُملة الذَّمِّ التَّذييليّة لتُزيل كُلَّ احتمال للتَّخفيف، وتُثبت أنَّ مصيرهم إلى جهنَّم أبديّ، سيِّئ مطلقًا، لا يُخفَّف ولا ينقطع(1).

نكتة حذف المخصوص بالذَّمِّ:

المُبالغة في التَّهويل على وجه يزيد من قوَّة الذَّمِّ وهول العاقبة

المخصوص بالذَّم في قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه السّياق، وهو إمّا (جهنَّم) أو (المأوى)، كما في قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وحَذفه اعتمادًا على ما تقدَّم، لظهوره من السّياق، وليكون في الحذف مُبالغة في التَّهويل؛ ليُترك للمخاطَب أن يتصوّر بشاعة المصير دون أن يُصرّح به مُباشرة، لما في ذلك من شِدَّة الإيقاع في النَّفس. وفيه أيضًا تصريحٌ باللّازم، وتوكيدٌ لما عُلِمَ ضِمنًا، على وجه يزيد من قوَّة الذَّمِّ وهول العاقبة(2).

سِرُّ العدول من ذِكْرِ المأوى إلى ذِكْرِ المصير:

التَّوسعة في المعنى، والتَّوكيد على شناعة العاقبة

يكمن وجه البلاغة في العدول عن المشاكلة اللَّفظيَّة؛ إذ لم يقل: (وبئس المأوى) موافقةً لما سبق من قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، بل قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ وذلك لأنَّ (المصير) أعمُّ من (المأوى)، فالتَّعليق على الأعمِّ يُفيد توكيد الحكم على الأخصِّ ضمنًا، فإذا ثبت سوء المصير - وهو يشمل كُلَّ مرجع ومآل - فإنَّ سوء المأوى، وهو جزء منه، يكون ثابتًا بطريق أولى، وفي هذا توسعة في المعنى، وتوكيد لشناعة العاقبة(3).

(1) الرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 574، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/ 214.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 482، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 480.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 254.

بَراعَةُ التَّذييل بقوله تعالى ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

مَن يُغلق باب الأمل أمامه فلا طيب لحياته، ولا راحة لمقامه

قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جاء تذييلًا لما سبقه من قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، ليُرسّخ في الأذهان حقيقة الجزاء، ويُقرّره على وجهٍ يزيد في شِدَّة الوعيد، ويُغلق باب الأمل أمام من استحقّوا هذا المصير، فلا طيب لحياتهم، ولا راحة لمقامهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66]. وقد ورد هذا التَّعبير القاطع عَقِبَ ذِكْرِ الجِهاد والغلظة، ليُفهم منه أنَّ عذابهم ليس مقصورًا على ما ينالهم في الدُّنيا من السَّيف والشِّدَّة، بل هو عذاب مُضاعف، حاضر في الدُّنيا، مُؤجَّل في الآخرة، حيث لا مأوى إلّا جهنَّم، ولا قرار إلّا في النّار، فجاءت الآية بخاتمة مُحكمة، تقطع كُلَّ رجاء في رحمة لهم، وتُعلن أنَّ الخزي لازمهم في الدّارين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

(المأوى) أوسع دلالة من (المثوى)؛ لأنّ المثوى يُشعر بالإقامة، في حين أنّ المأوى لا يقتضي ذلك بالضَّرورة؛ فقد يُستعمل في معنى اللُّجوء المؤقَّت، أو السَّكن العارض، دون اشتراط الإقامة فيه ولهذا يُقال: "آوى إلى مكانٍ" ولو لفترة وجيزة[1]؛ ولذا جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: "انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أوَوْا المَبيتَ إلَى غارٍ"[2] - في القصَّة المشهورة -، فعبَّر عن مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواء.

ثمَّ إنَّ الإقامة وإن دلّ عليها لفظ (المأوى) أحيانًا، إلّا أنَّها تختلف في طبيعتها عن الإقامة الَّتي يُفهمها لفظ (المثوى)؛ فالإقامة في المأوى قد تكون طويلة، لكنَّها لا تدلُّ بالضَّرورة على الدَّوام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 301، ومحمّد الأمين الهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/ 222.

(2) رواه البخاري برقم: (2272) واللَّفظ له، ومسلم برقم: (2743).

والاستقرار التّامِّ، بخلاف المثوى، فإنَّها تفيد مقامًا دائمًا، واستقرارًا نهائيًّا لا انصراف عنه[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامة الدّائمةَ[2].

وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ الله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المَثْوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهِمْ، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثْوي[3].

---

(1) زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/ 1450.

(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/ 352.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أن وردت النِّداءات الموجَّهة للمؤمنين، وللكافرين، وللنَّبيِّ ﷺ، ضَرَب اللّه تعالى مثلَيْن بليغَيْن: أحدهما لامرأتين كافرتين كانتا في بيتَي نَبيَّيْن، والآخر لامرأتين مُؤمنتين كانتا في بيئة كافرة وأخرى مُخالفة، ليزيد بذلك أثر الموعظة وضوحًا، ويُعمّق إيمان المؤمنين، ويُنبّه الجميع، وعلى وجه الخصوص زوجات النَّبي ﷺ، إلى أنَّ المسؤوليَّة أمام اللّه فرديَّة، لا يشفع فيها نَسَبٌ، ولا يدفعها قُرْبٌ[1].

وأيضًا لما خُتم الحديث ببيان هلاك المُخالفين في الدُّنيا والآخرة، وكان لبعض الكُفّار قرابة بالمؤمنين يظنّون أنَّها قد تنفعهم، وكان لبعض المؤمنين قرابة بالكفّار يخشون أن تضرَّهم، جاء هذا البيان الإلهيُّ ردًّا على تلك الأوهام، وتربيةً للمجتمع النَّبويِّ فقال ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبَ﴾: أصلُ الضَّرب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ وإصابَتُهُ وتَأثُّره بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعصا، يَضرِبُهُ، ضَربًا؛ أي: أوقَعَها عليه[3]، والضَّربُ: الصِّنفُ منَ الأشياء؛ يُقالُ: هذا مِن ضَربِ ذاك؛ أي: مِن نَحوِه، وجمعُه ضروبٌ[4]، وضَربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وتَمثيلُه بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَ اللّه مثلًا؛ أي: وصَفَ وبَيَّنَ، قيلَ مأخوذٌ: من ضَربِ الدِّرهَم؛ أي: صَوغُه لإيقاعِ المَطارِقِ، سُمّي بِهِ لتَأثيرِه في النُّفوسِ. وقيلَ: إنَّه مأخوذٌ منَ الضَّريبِ؛ أي:

(1) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 480.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 207، 208.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).

المَثيلِ، تَقولُ: هو ضَريبُه، وهُما مِن ضَريبٍ واحِدٍ؛ لأنَّه يَجعَلُ الأوَّلَ مِثلَ الثّاني[1]. والمقصودُ بضربِ المثلِ في الآية: عبارة عن إيراد حالة غريبة، ليُعرف بها حالة أخرى، مُشاكلة لها في الغرابة[2].

2) ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: أصل الخاء والواو والنّون: تدور تصاريفُها على التَّنقُّص[3]، يُقال: خانَهُ يخونُهُ خَونًا وخيانَةً؛ إذا نقصَ وفاؤُهُ[4]، وقيَّدَهُ بعض أهل العلم بأنَّه نقصٌ خطيرٌ في خِفْيَة أو لُطْفٍ[5]، والخيانة مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[6]، وحقيقةُ الخيانَةِ: أن يُؤتَمنَ الإنسانُ، فلا يَنصَح[7]، وسُمّيت الخيانة بذلك؛ لأنَّه ينقص ما اؤتُمِنَ عَلَيْه فلا يُؤدّيه كما كان عَلَيْه[8]، فالخيانَةُ: نَقْصُ الوفاء[9].

ومعنى الخيانة هُنا: أنَّهما خانَتاهُما في الدّين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المُراد بالخيانة، لا خيانة النَّسَبِ والفِراش[10].

3) ﴿يُغْنِيَا﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ، ومنه الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنيَ يَغْنَى غِنًى، يُقالُ: لا يُغْني فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أيْ: لا يَكْفي كِفايَتَهُ[11]، والإغناءُ: مُرادِفُ الغِنَى، وهُما مَعًا ضِدُّ الفَقْرِ.وَكَثُرَ اسْتِعْمالُ الغَناءِ في الإجْزاءِ والكِفايَةِ؛ لِأنَّ مَنْ أجْزَأ وكَفَى فَقَدْ أذْهَبَ عَنْ نَفْسِهِ الحاجَةَ إلى المُغْنينَ وأذْهَبَ عَمَّنْ أجْزَأ عَنْهُ الِاحْتياجَ أيضًا[12]، ويقال: أغْنَى عنه كذا؛ إذا كفاه. والمُرادُ بالإغناءِ في الآية: الدَّفع، أي: لم يدفعا من عذاب اللّٰه من شيء[13].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(2) المنصوري، المقتطف: 5/ 278، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 269.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (خون)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خون).
(6) الرّاغب، المفردات: (خون).
(7) ابن سيدَه، المُخصَّص: 1/ 286.
(8) عياض، مشارق الأنوار: (خون).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(10) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(12) ابن عباد، المحيط في اللغة: (غني).
(13) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 68، والشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 428.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يضرب اللّه تعالى مثلًا بيِّنًا يُقرِّر فيه أنَّ القرابة من الصّالحين، أو الارتباط بهم بالنَّسب أو الزَّواج، لا تنفع الكافر في شيء ما لم يُحقِّق الإيمان، فيقول سُبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾، فقد كانتا زوجتين لنبيَّين كريمين من عباد اللّه الصالحين، ومع ذلك خانتاهما بالكفر، لا بالخيانة الزَّوجيَّة، فلم يُغنِ عنهما قربُهما من هذين النَّبيَّيْن، ولا دفعا عنهما شيئًا من عذاب اللّه، بل قيل لهما يوم القيامة: ادخلا النّار مع الدّاخلين، في ذُلّ وهوان، لتكونا عبرة لِكُلِّ من ظَنَّ أنَّ الحَسب أو النسب يُغني عن العمل والإيمان(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتة فصل الآية عن سابقتها:

الـعـبرة ليست بالمقام أو القُرب، وإنَّـما بالإيمان والعمل

جاءت الآية الكريمة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، لتكون تتمَّة بلاغيَّة بديعة تقرِّر الوعيد وتوضّح المصير، فبعد أن أُمر النَّبيُّ ﷺ، بجهاد الكافرين والمُنافقين وغِلَظِ عليهم، وبَيَّن مصيرهم في الآخرة - أَعْقَبَ ذلك بضرب مَثَلَيْن واضحَيْن: أحدهما: يُجسّد حال الكافرين الَّذين لا تنفعهم قرابة الصّالحين، والثّاني: سيأتي في سياق المؤمنات، ليكتمل بذلك تَقابُلُ الأحوال واتّضاح العاقبة، وهذا الفصل بين الآيتين فيه نكتة بلاغيَّة، وهي الانتقال من الأمر المباشر للنَّبيِّ ﷺ، إلى تصوير بليغ يُقرِّب المعنى للقارئ والسّامع، فيكون المثل توكيدًا

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 111، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 202، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 171، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 373، 374.

لما قبله، وإضاءة لما بعده، وإشارة إلى أنَّ العبرة ليست بالمقام أو القُرب، وإنَّما بالإيمان والعمل[1].

دلالة التَّعبير بـ﴿ضَرَبَ﴾ مادَّة وصيغة:

أهمّيّة المَثَل المذكور يتطلّب الشِّدَّة، والوقوع المؤثّر

الضَّرب إيراد حالة بليغة ذات وقع خاصٍّ، ليُقاس بها غيرها من الأحوال المشابهة لها في الغرابة أو الشِّدَّة[2] فجاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ بالفعل ﴿ضَرَبَ﴾، لِما في هذا الفعل من قوَّة في اللَّفظ، وجَرْسٍ يوحي بالشِّدَّة والوقوع المُؤثّر، وهذا من دقائق الأسلوب القرآنيِّ، إذ لم يُعبَّر عن إيراد المثل بلفظ "ذكر" أو "مَثَّل"، بل اختير "ضرب" للدَّلالة على أنَّ هذا المَثَل ليس مُجَرَّد تشبيه عابر، بل تصوير قويٌّ يُلقى على المَسامع إلقاءً يَهُزُّ القلب والعقل[3].

نكتة إسناد ضرب المثل إلى لفظ الجلالة:

عِظَمُ المثل يوجب إكباره، والاتّعاظ منه

في إسناد فعل ﴿ضَرَبَ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ تكمُن فيما يحمله هذا الاسم من جلال وهيبة وتعظيم، فهو اسم يُستعمل في مقام التَّأليه والخضوع؛ فاللّه "الملك الَّذي أحاط بكلِّ شيء قدرة وعِلْمًا"[4]، فإذا أُسند إليه إيراد المثل، تولَّد عن ذلك تأثير بالغ في نفس المُخاطب، يُشعره بعِظَم المثل ووجوب تلقّيه بإجلال واهتمام وتدبّر.

نُكتة تنكير ﴿مَثَلًا﴾ وموقعه في المعنى:

أهمّيّة المثل وفخامته يستدعي مهابته، والتدبّر فيه، وإعمال الفكر

نُكِّر لفظ ﴿مَثَلًا﴾ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم، تنبيهًا إلى أنَّ هذا المثل ليس من جنس الأمثلة المألوفة، بل هو مثل جليل الشَّأن، عظيم المعنى، بالغُ الأثر، يُقصد به استنهاض الفكر، واستدعاء التَّدبُّر، فكأنَّ التَّنكير هُنا لبعث الهيبة في نفس السّامع، وتعظيم ما سيُلقى من المعنى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 373.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 8/ 88، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 68.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2186.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 208.

معنى اللّام وسِرُّ تعدية الفعل ﴿ضَرَبَ﴾ به:

الإشعار بأنَّ هذا المثل إنَّما سيق من أجل أن يعتبر به الَّذين كفروا

إنَّ تعدية الفعل ﴿ضَرَبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بحرف اللّام، الدّال على العِلَّة والاختصاص، تُفيد أنَّ المَثَل أُلقي لأجل من دخلت عليه اللّام، أي: أنَّ الغرض من ضرب المثل هو تنبيههم، وتوجيه العبرة إليهم، ليقيسوا حالهم بحال من ضُرب به المثل، فقول اللّه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، معناه: أنَّه ساق هذا التَّشبيه لأجلهم خاصَّة، قصدًا وتنبيهًا، كما في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَاۢ﴾ [الزُّخرف: 58]، أي ما أرادوا به إلّا المراء، وكقوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الرّوم: 58]، أي: بيَّنّا لهم أوجُهَ العِظة وألقيناها إليهم ليعتبروا[1].

دلالة تقديم الجار والمجرور:

الاهتمامِ بإيقاظِ الَّذينَ كفَروا

في تَقديمُ المجرورِ باللّامِ على المفعولِ ﴿ٱمۡرَأَتَ﴾ في قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ تنبيهٌ للكافرين على وجه الخصوص، فجاء التَّقديم لإيقاظهم إلى أنَّ هذا المثل موجَّه إليهم تحديدًا، لا ليُساق عرضًا، بل ليكون لهم فيه موضع عبرة ونظر[2].

غرض الاحتراس بالتَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التَّوكيد بأنَّ الغرض من المثل إنَّما هو ضربه للكافرين خاصَّة

من لطائف التَّعبير في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّ هذا التَّقييد جاء ليؤكِّد أنَّ الغرض من المثل إنَّما هو ضربه للكافرين خاصَّة، وذلك احتراسٌ دقيق يُبعد توهُّم أنَّ التَّمثيل يُرادُ به المُشابهة التّامَّة من كُلِّ وجه، فجاء القيد ليُحدِّد جهة التَّشبيه ويضبط وجه الشَّبه، على نحوٍ يُجنِّب الخلط بين مواضع الاتِّفاق والاختلاف، وهو من بلاغة الاحتراس الَّتي تتكرَّر في القرآن عند كثرة التَّشبيهات، لمنع الإيهام، وتقييد الفهم، وترسيخ العبرة في إطارها الصَّحيح[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 373.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 374.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 374.

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكُفّار طَمسوا الحَقَّ وغطُّوه عن أنفسهم وعن غيرهم

في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشارة إلى أنَّ هؤلاء قد طمسوا الحَقَّ وغطُّوه عن أنفسهم وعن غيرهم، سواء أكان كُفرهم عنادًا ومشاقَّة، أو نفاقًا وتستّرًا، فهم في كلا الحالين لا ينتفعون بصلةٍ أو قرابةٍ تجمعهم بالمؤمنين؛ لأنَّ الكُفر إذا دخل القلوب قَطَعَ ما بينها وبين أهل الإيمان من علائق(1). وجيءَ به ماضيًا للدَّلالة على تحقّقه فيهم، ورسوخه.

سِرُّ تأخير المفعول الأوَّل ﴿ٱمۡرَأَتَ﴾ على المفعول الثّاني ﴿مَثَلٗا﴾:

في المثل العظيم دعوة إلى الاتِّعاظ بعاقبة من يغترُّ بالقرابة

الفعل ﴿ضَرَبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ بمعنى (جعل)، وهو فعل يتعدَّى إلى مفعولين، فـ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾، وما عُطف عليها مفعوله الأوَّل، و﴿مَثَلٗا﴾ مفعوله الثّاني، وقد أُخِّر المفعول الأوَّل ليتَّصل ببيان القصَّة العجيبة والمثل العظيم، فكأنَّ المعنى: جعل اللّه قصَّة هاتين المرأتين مثلًا وعبرة لحال الكافرين المغرورين، ليحذَروا الغرور بالقرابة أو المنزلة، وليتوجَّهوا إلى اللّه ورسوله؛ إذ في هذا التَّمثيل دعوة إلى الاتِّعاظ والانتباه لما توصل إليه العاقبة برغم القرب الظّاهريِّ من أهل الصَّلاح(2).

سِرُّ التَّعبير بالمرأت بدل الزَّوجة:

الكفر يقطع أواصر الصِّلة والموالاة، والانسجام بَيْنَ الزَّوجين

من دقائق التَّعبير القرآنيِّ أنَّه عَبَّر عن زوجات المؤمنين بلفظ (الزَّوج) لما فيه من دلالة على المُشاكلة والاقتران والتَّناسب الإيمانيِّ، كقوله: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، في حين عبّر عن الكافرات، أو عن المسلمات المتَّصلات بكفّار، بـ (المرأت)، دون (الزَّوجة)، كقوله هُنا: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾، إشارة التَّجرُّد

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 208.

(2) عبد الكريم مدرس، مواهب الرحمان: 7/ 260.

من المجانسة والمشاكَلةِ، وانقطاع الانسجام بين الطَّرفين؛ إذ الكفر يقطع أواصر الصِّلة والموالاة، فإنَّ التَّعبير بـ(المرأت) في المواضع الَّتي لا تقتضي التَّوافق الإيمانيَّ أدقّ في الدَّلالة وأبلغ في التَّفريق، أمّا في سياقات الحمل والولادة، كما في: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 5]، فذِكر (المرأة) أنسب؛ لأنَّ المقصود هو الأنوثة باعتبار وظيفتها، لا الزَّوجيَّة باعتبار العلاقة[1].

علّة الاقتصار على الزَّوجتين دون غيرهما من قرابة الأنبياء:

التَّنبيه اللَّطيف لزوجات النَّبيِّ ﷺ، الَّذي يتناسب مع سياق السّورة

ضُرب المثل بامرأتي نوح ولوط - دون غيرهما من قرابة الأنبياء كأبي إبراهيم أو ابن نوح - لأنَّ في ذكرهما هنا تجديدًا للفائدة، وتنبيهًا لطيفًا يَتناسب مع سياق السّورة، خاصَّة بعد ما صدر من حفصة وعائشة رضي الله عنهما مع النَّبيِّ ﷺ، ففي هذا التَّمثيل تحذيرٌ شديد، وبيانٌ بأنَّ صلة النَّسب لا تنفع إن لم تُقرن بالتَّوحيد والطّاعة، وأنَّه لا يجوز الاتِّكال على شرف الزَّوجيَّة برسول اللّه ﷺ، دون القيام بحقوقه، فكما لم تنفع المرأتين صلتُهما بالنَّبيَّين الكريمين إن خانتا الرِّسالة، كذلك لا ينفع القرب إن لم يصحبه صدق وإيمان[2].

نُكتة فصل قوله ﴿كَانَتَا﴾:

البيان والتَّفسير لمضمون ضرب المثل

جاءت جملة: ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ مُستأنفة؛ لأنَّها جاءت على وجه البيان والتَّفسير لمضمون ضرب المثل، لتفصيل حال المرأتين وبيان موضع العبرة، فالفصل هُنا يفيد تفصيل الكلام وتوكيده، ويُهيِّئ السّامع لتأمُّل المُفارقة بَيْنَ مقام الزَّوجين الصّالحَيْن وبين خيانة من كانتا في عصمتهما[3].

(1) ابن القيم، جلاء الأفهام، ص: 230، 231.
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 571، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 217، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 270.
(3) ابن عادل، اللباب: 19/ 214، والقنوجي، فتح البيان: 7/ 144.

بلاغة المجاز في التَّعبير بالتَّحتيَّة:

الخيانة في موضع يُنتظر فيه الهداية والاقتداء أشدُّ نُكرًا

في قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ مجازٌ بليغ، حيث استُعملت (التَّحتيَّة) - وهي في الأصل دالَّة على المكان الحسّيِّ - مجازًا عن الرّابطة الزَّوجيَّة القائمة على الصّيانة والسَّتْرِ والعصمة، إذ المرأة في عصمة الرَّجل كأنَّها تحت كنفه وحِماه[1]، فهو مجاز مُرسل جاء على معنى السَّتر والصّيانة والعصمة، إيحاءً بأنَّهما كانتا في موضع يُنتظر فيه الهداية والاقتداء، فجاءت الخيانة في هذا الموضع أشدَّ نُكرًا، والمفارقة بَيْنَ الظّاهر والباطن أبلغ وقعًا، مِمّا يُعظِّم وجه العبرة في ضرب المثل.

بلاغة الكناية في التَّعبير بالتَّحتيَّة:

شرف المنزلة لا يعصم من فداحة الخيانة

في قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ كناية بديعة، أُشير بها إلى الزَّواج والنِّكاح دون التَّصريح بهما، فاستُعملت (التَّحتيَّة) كناية عن كونهما في عصمة نَبيَّيْن كريمَيْن، وتحت كنفهما وصيانتهما، في أعلى درجات القُرب والاتِّصال، دون أن يُذكر لفظ (الزَّوجيَّة) صراحة. وهذه الكناية أبلغ في توبيخ المرأتين، إذ تُبرز فداحة الخيانة على الرَّغم من شرف المنزلة، وتُظهر التَّباعد بَيْنَ الظّاهر من الارتباط، والباطن من الكفر والخيانة، فكأنَّ التَّعبير بالتَّحتيَّة يُجسّد عمق المُفارقة بَيْنَ قرب الصّورة وبُعْدِ الحقيقة[2].

نكتة الإظهار بدل الإضمار في جملة ﴿تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ﴾:

في الإضافة العَليَّة قصدٌ إلى تشريف نوح ولوط عليهما السلام

لم يُضمِرِ النَّظم الكريم في ﴿تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، فلم يُقل: (تحتهما)، قصدًا إلى تشريف نوح ولوط عليهما السلام بهذه الإضافة العَليَّة: ﴿عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾؛ إذ لو أُضمر لما ظهر هذا التَّفضيل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 28/ 375.

(2) الطّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 481.

فكان في إظهار الموصوف رفعٌ لشأن النَّبيَّين، وتوكيدٌ لِعظم الموازنة المفارقة بين صلاحهما وخيانة زوجيهما[1].

في الإظهار دفعٌ لتوهّم ما لا يليق بمقامهما عليهما السلام

وأظهر بالوصفِ العبوديَّةَ والوصف بالصَّلاح فلم يُقل: (تحتهما)؛ لأن ذلك أفخم، فيكون أشدّ تأثيرًا للموعوظ وأعظم، ودفعًا لأن يتوهّم أحدٌ شيئًا لا يليق بمقامهما عليهما الصَّلاة والسَّلام فقال: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾، أي: كلُّ واحدة منهما تحت عبدٍ[2].

نُكتة وصف النَّبيَّينِ الكريمين بالعبوديّة:

التَّشريف الحقُّ في كمال العبوديَّة لله رَبِّ العالمين لا في النَّسب

في التَّعبير عن النَّبيَّينِ الكريمَين بلفظ ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ دون التَّصريح باسميهما، تشريفٌ وتعظيمٌ بالغ، إذ وُصفا بأشرف أوصاف الخَلْق: العبوديَّة للّه، وهي أعظم مقام يُمدح به الإنسان، "فاللّه تَعالَى جَعَلَ العُبوديَّةَ وصْفَ أكْمَلِ خَلْقِه، وأقْرَبِهِمْ إلَيْه"[3] كما افتتح اللّه بها الثَّناء على صفوته من خلقه نبيّه محمَّد ﷺ، في مواضع جليلة، "فقد حَقَّق اللّه له نعت العبوديَّة في أرفع مقاماته حيث قال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾ [النَّجم: 10]، وقال تعالى:﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾ [الجِنُّ: 19]"[4]؛ كما كُني عن اسمي النَّبيَّينِ الكريمَين - نوح ولوط عليهما السلام - بلفظ ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾، دون التَّصريح باسْمَيْهما، لما في ذلك من التَّشريف بالإضافة إليه تعالى[5].

فجاء هذا التَّعبير ليُشير إلى أنَّ الشَّرف كُلَّ الشَّرف في كمال

(1) السَّمين، الدّر المصون: 6/ 338.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 208.
(3) ابن القيم، مدارج السّالكين: 1/ 121.
(4) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 1/ 66.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير: 10/ 215.

العبوديَّة، لا في النَّسب[1]، ولتكون العبرة في ضياع المرأتين برغم قربهما من رجلين بلغا هذا المقام العظيم، تنبيهًا على أنَّ القُرب لا يُغني بلا إيمان، وأنَّ أعظم صلة تُنجي هي صلة العبوديَّة للّه.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾:

تعظيم مقام النَّبيَّينِ الكريمَين لرفعة مقامهما وسموِّ منزلتهما

نُكّر لفظ ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾ تعظيمًا لشأن النَّبيَّين الكريمين؛ إذ القصد أنَّ المرأتين كانتا في عصمة رجلين عظيمين في المنزلة، جليلين في العبوديَّة للّه، فالتَّنكير هُنا لإبراز رفعة المقام وسموِّ المنزلة[2].

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ وسِرُّ التَّعبير بها:

بيان لرفعة المنزلة، وتنويه بعلوِّ القدر

في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾، جاءت ﴿مِنۡ﴾ حرفَ جَرٍّ وبيانٍ[3]، لتُبيّن حقيقة العبدين المَذكورين، وأنَّهما ليسا عبدين عاديين، بل هما من صنفٍ مخصوصٍ هم عباد اللّه المقرَّبون الصّالحون، ففيها بيانٌ للنَّوع والمقام، أي: من الَّذين نالوا شرف العبوديَّة الكاملة للّه، وسِرُّ التَّعبير بها أنّها تُعظّم شأن النَّبيَّينِ نوح ولوط ﷺ، بإدخالهما ضمن عباد اللّه الَّذين أُضيفوا إليه تشريفًا، فكان في هذا التَّعبير بيان لرفعة المنزلة، وتنويه بعلوِّ القدر. ويجوز أن تكون تبعيضيّة فهما عبدان من عباد اللّه المخلصين الأخيار، وغيرهم كثيرٌ[4].

فائدةُ القيد: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ بعْدَ قوله: ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾:

فائدةُ قولِه: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ بعْدَ قولِه ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾؛ مَدْحُهما والثَّناءُ عليهما، بإضافتِهما إليه إضافةَ التَّشريفِ والتَّخصيص والتَّعظيم، وفي ذلك مُبالَغةٌ في المعْنى المقصود، وهو أنَّ الإنسانَ لا يَنْفَعُه عادةً إلّا صلاحُ نفسِه، لا صَلاحُ غَيرِه، وإنْ كانَ ذلكَ الغَيرُ في أعلى المراتِبِ[5].

(1) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 28/ 5952، والصابوني، صفوة التَّفاسير: 3/ 387.
(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 481.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 13/ 80.
(4) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1983.
(5) الطّيبي، حاشية الطّيبي على الكشاف: 15/ 519، والأنصاري، فتح الرَّحمان، ص: 574.

سِرُّ تقديم شبه الجُملة ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

في تقديم قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ على وصف ﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾ إظهارٌ لقاعدة التَّمثيل، وهي أنَّ الرُّجحان عند اللّه إنَّما يكون بالعبوديَّة الخالصة لا بشيء سواها، فذكر النَّبيَّين بوصفهما عبدين من جُملة عباده، دون تخصيص، أو تمييز في النَّسب، أو الشُّهرة، إشارة إلى أنَّ الفضل عند اللّه لا يُنال إلّا بالعبوديَّة والصَّلاح، وأنَّ كلّ عبدٍ، مهما علت رتبته، لا يعلو إلّا بقدر ما حقّق من عبوديَّته، فالتَّقديم هنا بيانٌ لمعيار الكرامة الحقِّ، وتقرير أنَّ الميزان عند اللّه لا يقوم إلّا على الإيمان والصَّلاح[1].

إنَّ الفضل بيد اللّه لا يُنال إلّا بالعبوديَّة الخالصة له تعالى

نُكتة إضافة العباد إلى ضمير العظمة:

تخصيص إضافة العبد إلى اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾، تنبيهٌ على مدحه في كونه مطيعًا له منقادًا لأمره، وأنَّه غير معرّج على غيره[2]. وجاءت الإضافة إلى ضمير العظمة (نا) على وجه التَّشريف والتَّكريم والتَّفخيم؛ إذ العبوديَّة للّه تعالى أشرف مقام وأرفع وصف، فهي لخُلّص عباده وأصفيائه، فكان في هذه الإضافة تعظيمٌ لمقام النَّبيَّيۡنِ، وتكريمٌ لعبوديَّتهما الخالصة[3]. وفي كلّ إضافة إلى اللّه بهذا الوجه مبالغة في الاختصاص[4].

العبوديَّة للّه أشرف مقام وأرفع وصف

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ في ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾، و﴿عِبَادِنَا﴾:

في الجمع بين كلمتَي ﴿عَبۡدَيۡنِ﴾ جناسٌ اشۡتِقاقيٌّ بديع، يُثري المعنى ويقوّي اللَّفظ، إذ هما مشتقّان من أصل واحد هو العُبوديَّة، فدلّ اقترانهما على توكيد المعنى وتثبيته في النَّفس، كما أضفى على

مقام العبوديَّة الخالصة هو ما اشترك فيه النَّبيّان مع أولياء اللّه جميعًا

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 572، والسّيرافي، التَّقريب في التَّفسير: 4/ 411.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 519.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 215، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 208، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 25.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 519.

الآية تناغمًا لفظيًّا يزيدها تأثيرًا، وهذا الأسلوب يُبرز أنَّ النَّبيَّيْن الكريمين لم يُمدحا باسميهما ولا بنسبهما، بل بما اشتركا فيه مع أولياء اللّه جميعًا: مقام العبوديَّة الخالصة.

دلالة الجمع في لفظ ﴿عِبَادِنَا﴾:

من فضل الله تعالى تشريف كثير من عباده بوصف العبوديَّة الصّادقة له

في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ جاء الجمع في لفظ (عباد) للدَّلالة على كثرة من تحقَّقَ فيهم وصف العبوديَّة الصّادقة للّه تعالى، وهو تعبير يُشير إلى سعة فضل اللّه، وغناه عن خلقه، وكثرة من شرّفهم بالانتماء إليه بهذه الصِّفة الجليلة، فليس العبدان المذكوران وحدهما من نال هذا المقام، بل هما من زمرة واسعة من عباد اللّه الصّالحين[1].

سِرُّ التَّنكير والاسميَّة في لفظ ﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾:

عِظَمُ الشَّأن والتَّمكُّن من أسباب السَّعادة

قوله تعالى: ﴿صَٰلِحَيۡنِ﴾ نعتٌ لعبدين، جاء مُنَكَّرًا تعظيمًا لهما وتنويهًا بشأنهما، فهما نبيّان مُرسَلان، قد بلغا من علوّ المنزلة وشَرَفِ النُّبوَّة، متمكِّنان من تحصيل خيري الدُّنيا والآخرة وحيازة سعادتهما[2].

سرّ تخصيص وصف الصَّلاح بالذِّكر دون غيره:

الصَّلاح أبهى أوصاف الصَّفوة، وأبلغها أثرًا في القلوب

خصّ النَّظم الكريم نوحًا ولوطًا بوصف الصَّلاح - مع أنَّ وصف النُّبوّة أخصُّ وأرفع - تعظيمًا لشأن الصَّلاح وتنويهًا به، وإشارةً إلى أنَّ النُّبوّة في حقيقتها منتهى مراتب الصَّلاح، وكفى بدلالة القرآن شاهدًا؛ إذ جعل الصَّلاح شعار من اصطفاهم من أنبيائه، فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: 130]، ودعاه يوسف عليه السلام في ختام مقامه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]، وجعله سليمان عليه السلام غاية رجائه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]. فَذُكِرَ الصَّلاحُ ليَعْظُمَ بذلك قدرُ الصّالحين في قلوب المؤمنين، وتَعُمَّ العبرة نساءَ المسلمين في حسن

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 208.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 68، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 482.

المعاشرة وطاعة الأزواج؛ إذ قد انقطع مُسمَّى النُّبوَّة في هذه الأمَّة بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ، وبقيت مرتبة الصَّلاح بابًا مشرعًا لِكُلِّ مريد. وفي هذا الأسلوب ترهيبٌ لمن يؤذي الصّالحين، وتذكيرٌ بأن اللّه تعالى يدافع عنهم، ويُعلى ذِكْرَهم، ويقرنهم بالمقرَّبين من أنبيائه وأوليائه. فالصَّلاح إذن أبهى أوصاف الصَّفوة، وأجلى مراتب القرب، وأبلغ في التَّأثير على قلوب الموعوظين[1].

معنى الفاء في قوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾:

بيان نتيجة ما تقرَّر قبلها من علوِّ مقام الزَّوجين

الفاء قوله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ عاطفة للتَّرتيب، والتَّعقيب، والسّببيّة[2]. تفصح عن محذوف دلّ عليه السّياق، والتَّقدير: "فلم ينفعهما شرف الصُّحبة، ولا عصمة النُّبوّة، ولا مقام الولاية"، فخانتاهما، فجاءت الفاء لبيان نتيجة ما تقرّر قبلها من علوّ مقام الزَّوجين، أي أنّ الخيانة جاءت مع قيام ما يوجب ضدّها من شرف المصاحبة وكمال القدوة[3]، وهذا أبلغ في التَّوبيخ وأشَدُّ في الموعظة.

دلالة عود الضَّمائر في قوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾:

الزَّوجة الَّتي لا تراعي حقَّ العِشْرة حقيقٌ بها التَّقريعُ والتَّوبيخُ

ضمير الرَّفع (ألف الاثنين) في (خانتاهما) يعود على المرأتين، وضمير النَّصب (الهاء) فيه يعود على الزَّوجين النَّبيَّيْنِ، أي: نوح ولوط عليهما السلام، وفي ذلك تقريعٌ للزَّوجتين، إذ لم يُراعيا حقّ من عاشرتا، وخالفتا من أُرسل إليهما رحمة وهداية، فجاء التَّعبير جامعًا بين الإيجاز والتَّقريع، والإيماء إلى أنَّ شرف القرب لا يُغني عند اللّه إن لم يُصاحبه الإيمان والطّاعة.

نكتة التّعبير بلفظ الخيانة دون غيرها:

لفظُ الخيانة أبرزَ شناعةَ الفعل، وبالغَ في التَّقريعِ

التَّعبيرُ بلفظِ الخيانةِ في قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ دون غيرِه من

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 572، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 375.
(2) قباوة، المفصل في تفسير الجلالين، ص: 1983.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 68.

الألفاظ أدلُّ على شناعةِ الفعل، وأبلغُ في التَّقريع؛ إذِ الخيانةُ ضدُّ الأمانة، ولا تكونُ إلّا في موضعِ الثِّقة والعهد، فاستُعمِلت لبيانِ ما كان عليه حالُ هاتين المرأتين من نكثِ العهد، ونقضِ الميثاق، والكُفرِ والنِّفاق، مع وجود أسباب الهدايةِ في بيت النُّبوَّة، فكان ذلك أفظعَ في الوصف، وأشدَّ في الذَّمّ[1]، ولم يُرَد بها خيانةُ الفِراش - كما قد يُتوهَّم - فإنَّ اللّهَ تعالى قد عصم أنبياءَه من ذلك، وما بغت امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وإنَّما هي الخيانةُ في العقيدة والدّين، فأُلبستِ المرأتان ثوبَ الخيانة تنفيرًا، وجُعلتا في زمرة الخونةِ من أعداء الرِّسالة تصويرًا لحالهم، وتنديدًا بمآلهم[2].

معنى الفاء في ﴿فَلَمۡ﴾:

شرف الصُّحبة لا ينفع عند نقض الإيمان

الفاء في قوله تعالى ﴿فَلَمۡ﴾ تُفيد التَّسَبُّب والبيان، أي: فتسبَّب عن خيانتهما أن لم يغنِ الزَّوجان - مع كمال صلاحهما وعلوّ مقامهما - عن المرأتين شيئًا، فكان المآل إلى الخِذْلان، ولم تُجدِ صحبةُ النُّبوّة، ولا رابطةُ الزَّوجيَّة، في دفع عذاب اللّه، الَّذي لا يَردّ بأسَه دافع، ولا يَشفع عنده نسبٌ ولا حسب. فالفاء إذن فاءُ تفريعٍ دالّةٌ على أنَّ الخيانة هي العِلّة في انتفاء الإغناء، فهي تُبيِّن الجزاء، وتفصل بين الجناية ونتيجتها، لتبيِّن أنَّ شرف الصُّحبة لا ينفع عند نقض الإيمان، وأنَّ الأمر كلّه للّه تعالى، لا يردّه أحدٌ ولا يُبدّل حكمه قريبٌ ولا حبيب[3].

دلالة التَّعبير بـ﴿يُغۡنِيَا﴾ مادَّة:

الغَناء أخصُّ في دفع الحاجة والبلاء خصوصًا عند الشِّدَّة والنَّجدة

مادَّة (الغَناء) تدلّ على الدَّفع والكفاية، وقولُه تعالى ﴿يُغۡنِيَا﴾ أي: لم يدفعا، ولم يكفيا، ولم يُجّديا عنهما شيئًا[4]، وهو أبلغ من أن يُقال (لم ينفعاهما)؛ لأنَّ (الغَناء) أخصُّ في دفع الحاجة والبلاء، وهو يُستعمل في مقام الشِّدَّة والنَّجدة[5].

(1) أبو السُّعود، ارشاد العقل السَّليم: 8/ 270.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 68.
(3) الشِّربيني، تفسير الخطيب: 4/ 363، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 68.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 4/ 317، ومأمون حموش، التفسير المأمون: 8/ 120.
(5) الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 428.

نُكتة تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وتأخير موقعها النَّحويِّ:

الدَّلالة على انتفاء أدنى درجات النَّفع

تنكير لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ جاء للتَّقليل والتَّحقير، ليدلَّ على انتفاء أدنى درجات النَّفع، أي: فلم يغنيا عنهما شيئًا من الإغناء حتَّى ولو كان قليلًا، ولم تتخلّصا من عذاب الآخرة بعلاقتهما مع ذَيْنَك الصّالِحَيْن[1]؛ ففيه قطعٌ لطَمعِ مَنْ رَكَنَ إلى صَلاحِ غيره، وتحذيرٌ من ظنّ أنّ قرابة الأولياء تُجدي مع الإصرار على المعصية[2].

معنى الواو ودلالة العطف في ﴿وَقِيلَ﴾:

بيان توالي الخِذْلان وتكامل العذاب

رتّب النَّظم الكريم على خيانة المرأتين الكافرتين عقوبتين: إحداهما نفسيَّة، وهي تخلّي الزَّوجين الصّالحَيْن عنهما حين اشتدّت حاجتهما إليهما، والأخرى حسيَّة نفسيَّة، هي دخول النّار في صحبة زُمَرِ الكافرين، فكان في العطف بيان لتوالي الخذلان وتكامل العذاب.

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي (قيل) مبنيًّا للمفعول:

تحقّق الوقوع، وتصوير الأمر كأنَّه قد تمّ وانتهى

عُبِّر بالفعل الماضي (قيل) لتحقّق الوقوع، وتصوير الأمر كأنَّه قد تمَّ وانتهى، وهذا يدلُّ على الجزم بوقوع العذاب، وقطع الرَّجاء من النَّجاة، تحقيقًا للوعيد، وتوكيدًا لفظاعة المصير[3].

قولُ العظيم نافذٌ لا رادَّ له

وبُني الفعل (قيلَ) للمفعول للإشارة إلى جلال القائل وعِظم سُلطانه، وأنَّ الأمر لا يُحتاج فيه إلى التَّصريح بالفاعل، إذ هو معلوم للقلوب، حاضر في المقام، وهو الله ﷻ، أو مَن أذن له من ملائكته بأمره[4]، فجاء التَّعبير على هذا الوجه ليدلَّ على أنَّ الكلمة قاضية نافذة، لا مردّ لها، وأنَّ العذاب قضي فيه من العليِّ الأعلى، فكان في حذف الفاعل تعظيمٌ للقول، وتفخيمٌ للمقام، وتهويلٌ للمصير.

---

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 168، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 482، وعبد الكريم مدرس، مواهب الرَّحمان: 7/ 260.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 311.

(3) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 227، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 29/ 503.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 209، والجاوي، مراح لبيد: 2/ 543.

دلالة الأمر في ﴿ٱدۡخُلَا﴾:

في دخول النّار إذلالٌ وإهانة

الأمر في ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ﴾ جاء للتَّبكيت والإهانة، وسيق لإذلال المرأتين وإظهار خزيهما(1).

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّارَ﴾:

الزّيادة في التَّهويل وقطع الرَّجاء في النَّجاة من الخلود في النّار

(أل) في ﴿ٱلنَّارَ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، تُشير إلى النّار المعهودة المعدّة للكافرين والعصاة، فهي ليست نارًا مجهولة، بل هي نار العذاب الأبديِّ، الَّتي وُعد بها أهل الكفر، وهذا ما يزيد في التَّهويل ويقطع الرَّجاء من النَّجاة(2).

فائدة ذِكْرِ المعيَّة في قوله ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾:

مساواة المرأتين بسائر الكافرين توكيدٌ بأنَّ القرابة لا تنفع مع الكفر

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، فيه تقريرٌ لُمساواتهما بسائر الكافرين، إذ أُلحقتا بجمهرة من لا صلة لهم بالأولياء، ولا نسب لهم إلى الأنبياء، فجاءت ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، لإفادةِ مُساواتِهما في العذابِ لغيرِهما مِنَ الكَفرةِ، ولتؤكّدَ أنَّ القرابة لا تنفع مع الكفر، وفي ذلك قطعٌ لتوهُّم نَيْلِهما الشَّفاعةَ، وتيئيسٌ لهما من أدنى نفعٍ بسبب قرابة الزَّوجين الصّالحَيْن(3).

دلالة الجمع في لفظ ﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾:

في الجمع إذلالٌ وإشعارٌ بالمصير المشترك

جاء لفظ ﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ بصيغة جمع المذكّر لاختلاط المرأتين بسائر الدّاخلين من الكفّار، فلا تدخلان النّار مُنفردتين، وغُلِّب جانب التَّذكير على سَنَن اللُّغة، وفي هذا الجمع إمعان في الإذلال، بإلحاقهما بجمهور من الكافرين لا قرابة بينهما وبينهم(4)، فكان الجمع دالًّا على الذُّلّ العامِّ والمصير المشترك.

(1) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 482.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني: 6/ 126، والشيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 428.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 376، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 68.

(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 68، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 483.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّمثيل لحال المؤمنين بعد ذِكْرِ المِثال على حال الكافرين

لمّا مثّل النَّظم الكريم حال الكافرين بامرأتي نوح ولوط، في أنَّهما لم تنتفعا بصلاح زوجيهما، لبيان أنَّ صلةَ الصّالحين لا تُغني عن الكافر شيئًا - أتبعه بالتَّمثيل لحال المؤمنين بامرأة فرعون في أنَّها لم تَضُرَّها صلةُ الكافر، وجوزيتْ على حسب إخلاصها وإيمانها[1].

إتباع الإنذار بالتَّبشير ترغيبٌ، وتثبيتٌ

فالآية مثلٌ للبشارة بأنَّ عصيان العاصي لا يضرُّ المطيع، كما كانت الآية السّابقة مثلًا للنَّذارة بأنَّ طاعة المطيع لا تنفع العاصي وإنْ كان أقربَ النّاس إلى المطيع؛ إلّا إنْ كان له أساسٌ يصحُّ البناء عليه، ويجوز الاعتداد به[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَجِّنِي﴾: أصلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأنْجَيْتُ غيري، ونجَّيْتُه، واستَنْجى مِنْهُ حاجَتَهُ: تخَلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلَبَه، ومعنى نجَوْتُ الشَّيءَ: خَلَّصتُه وألْقَيْتُه، والنَّجاةُ: الخلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع مِنَ الأرض، فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ، فَظَنَنْتَهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نجاءٌ[3]. والمقصود بالإنجاء في الآية: خَلِّصني وأنقذني منه[4].

(1) زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 264.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 210.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).

(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 116، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 172.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اتّصال المؤمن بالكافر لا يَضُرّه إذا أدّى ما عليه من الإيمان والطّاعة

ضَرَبَ اللّه تعالى مثلًا آخر يُبيِّن فيه أنَّ اتّصال المؤمن بالكافر لا يَضُرّه إذا أدّى ما عليه من الإيمان والطّاعة، فيمثّل بالمرأة الصّالحة في بيت الطّاغية فرعون، فجَعَل اللّهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ؛ إذ نادت ربَّها مخلصةً: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ، ثُمَّ سألت نجاتها من قبضة الطُّغيان، فقالت: وخَلِّصْني مِن صُحْبةِ فِرعَونَ وتَسَلُّطِه، ومِن كُفْرِه وضَلالِه، وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ، فَدلَّ بذلك على أنَّ الإيمان الخالص يُنجي صاحبه، ولو كان في أحلك المواطن، وتحت سلطان أعتى الطُّغاة[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة عطف الآية على سابقتها:

لا تنفع القرابة مع الخيانة، ولا المُعاشرة مع الإيمان

لمّا ضرب اللّه مثلًا للَّذين كفروا بامرأتَيْ نوح ولوط، أتْبَع ذلك بمثلٍ للَّذين آمنوا، استكمالًا للصّورة وتوضيحًا للمفارقة بَيْنَ الحالين، وتوكيدًا للميزان الحَقِّ في الجزاء، فمثّل بامرأة فرعون ليبيّن أنَّ الإيمان الخالص يُنقذ صاحبه، وإن عاش في مواطن الكفر، كما أنَّ الكُفر يُهلك صاحبه، ولو عاش في بيت النُّبوَّة، فكما لم تنفع القرابة مع الخيانة، لم تنفع المُعاشرة مع المؤمن، وجاء ذلك على عادة القرآن في الجمع بَيْنَ التَّرهيب والتَّرغيب، لتمام البيان وكمال الهداية[2].

نكتة تقديم ضرب المثل للَّذين كفروا على الَّذين آمنوا:

قدَّم اللّه تعالى ضرب المثل للَّذين كفروا على مثل الَّذين آمنوا؛ لأنَّ المقام مقام تحذير وتخويف؛ إذِ السّورة جاءت في وعظ نساء

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 116، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 203، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 172، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 875.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 376.

النَّبيِّ ﷺ، تضمّن تمثيلًا ضربه الله تحذيرًا لعائشة وحفصة رضي الله عنهما؛ ليُبصّرهما بعاقبة مخالفة من سبقهما من نساء الأنبياء، ممَّن لم ينفعهنّ قربهنّ من الصّالحين. ثُمَّ أعقَب ذلك بمثل آخر بامرأة فرعون ومريم بنت عمران، ترغيبًا لهما في التَّمسُّك بالطّاعة والثَّبات على الإيمان[1]، فناسب البداءة بالتَّرهيب؛ ليكون أوقع في النَّفس، ولأنَّ النُّفوس ترقّ بعد التَّهديد، فيحسن أن يُتبع بالبشارة، فجاء ضرب المثل بالمؤمنين بعدها ترغيبًا وتثبيتًا، وعلى ذلك جرى أسلوب القرآن في كثير من المواضع: تقديم الوعيد ليليّنه الوعد، فيكتمل أثر التَّوجيه.

البداءة بالتَّرهيب ليكون أوقع في النَّفس، ولأنَّ النُّفوس ترقُّ بعد التَّهديد

بلاغة المُقابلة بين المَثَلَيْن المضروبَيْن:

لمّا ضُرب المثل للَّذين كفروا، أعقبه النَّظم الحكيم بمثلٍ للَّذين آمنوا، تحقيقًا للمُقابلة، وتكميلًا للبيان؛ ليُفهم من الثّاني ما يُقابل مضمون الأوَّل؛ فكما أنَّ الكافر لا تنفعه صُحبة المؤمن، ولو كان نبيًّا، كذلك المؤمن لا يضرّه أن يعاشر الكافر، ما دام ثابتًا على إيمانه. فاجتمعت في المَثَلَيْن حكمة التَّحذير والتَّبشير، في توازن بليغ يهدي القلوب ويوقظ البصائر، وقد أبان النَّظم الكريم عرض المثلين بأسلوب المقابلة؛ لما فيه من إبراز التَّباين بين الكفر والإيمان، والتَّحذير والتَّرغيب، فجاء مَثَلُ الكافرتين أوَّلًا مناسبةً لسياق التَّوبيخ، وتشويقًا لبيان حال المؤمنتين، ثُمَّ خُتم بالمثلين الإيمانيَّين ترغيبًا في الطّاعة والثَّبات، فتجلّت المقابلة في أبهى صورها: تقبيحًا للخيانة، وتعظيمًا للإيمان والإخلاص، مع تخصيص كُلِّ حال بما يليق به من بيانٍ يوقظ القلب، ويهدي العقل[2].

اجتماع حكمة التَّحذير والتَّبشير في المثلين

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 202، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 376، والشنقيطي، أضواء البيان: 8/ 225.

سِرُّ تكرار ذكر الأمثال عن علاقة النِّكاح في الآيتين الكريمتين:

توجيه الخطاب إلى أمَّهات المؤمنين، بتحذيرهن من التَّظاهر على رسول الله ﷺ

تكرار ضرب الأمثال في ختام السّورة جاء لتوكيد المقصود من سياقها، وهو توجيه الخطاب إلى أمَّهات المؤمنين، بتحذيرهن من التَّظاهر على رسول اللّه ﷺ، وأنَّهنَّ إن لم يمتثلن أمر اللّه ورسوله، ويُخلصن القصد إلى الدّار الآخرة، لم يَنفَعْهنَّ اتِّصالُهنَّ برَسولِ اللّهِ ﷺ، كما لم تنفع امرأةَ نوح ولا امرأةَ لوط صِلَتُهما بِنَبيَّيْنِ كريمين؛ لذلك خُصَّ في هذه السّورة ضرب المثل بعلاقة النِّكاح دون القرابة[1].

نكتة إسناد ضرب المثل إلى لفظ الجلالة:

إسناد الفعل (ضرب) إلى اسم الجلالة يُضفي على المثل جلالًا وهيبةً، فيُستقبل بعين التَّعظيم وكمال التَّلقّي[2]. للإشارة إلى ما يحمله هذا الاسم من جلال وهيبة وتعظيم.

سرُّ تنكير ﴿مَثَلَا﴾ وتقديمه في موقعه الإعرابيّ:

التَّنكير للتَّفخيم والتَّهويل، ولإثارة التَّرقُّب والاهتمام

تنكير لفظ ﴿مَثَلَا﴾ مع تقديمه على مفعوله الثّاني جاء للتَّفخيم والتَّهويل، ولإثارة التَّرقُّب والاهتمام، فجاء النَّظم على أسلوب عربيٍّ رفيع يُقصد به تعظيم المثل ولفت الانتباه إلى ما فيه من عِظة وعبرة[3].

معنى اللّام وسِرُّ تعدية الفعل (ضَرَبَ) بها في ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإشعار بأنَّ هذا المثل إنَّما سيق من أجل أن يعتبر أهل الإيمان

إنَّ تعدية الفعل (ضرب) بحرف اللّام في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلَا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَدلُّ على أنَّ هذا المثل قد سيق لخصوص المؤمنين؛ قصدًا لإرشادهم، وتنبيههم على ما ينبغي أن يكونوا عليه من صدق الإيمان وثبات الطّاعة والصَّبر في الشِّدَّة؛ ليقيسوا حالهم على حال من ضُرب بها المثل، كامرأة فرعون ومريم، فيتأسّوا بهما، ويوقنوا أنَّ الإخلاص ينفع، ولو مع الإقامة في وسط قوم كافرين[4].

---

(1) ابن القيم، إعلام الموقعين: 1/ 145.

(2) سبق تفصيل النكتة البلاغية في الآية السابقة.

(3) سبق تفصيل النكتة البلاغية في الآية السابقة.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 202، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 172، والشّوكاني، فتح القدير: 5/ 305.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور:

في تقديم الجار والمجرور ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على المفعول به ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾، لَفْتٌ لأنظار المؤمنين، وتنبيهٌ لهم على وجه الخصوص، بأنّ هذا المثل قد خُصّوا به؛ لا ليُذكر عَرَضًا، بل ليكون موضع تدبّر واعتبار، يحثّهم على الاقتداء، ويُثبّت قلوبهم على الطّاعة في وجه الفتنة والمحنة.

الاهتمامِ بإيقاظِ همم أهل الإيمان وتثبيتهم عند الفتنة والامتحان

نكتة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدَّلالة على تحقُّق الإيمان فيهم، ولو كان في أدنى درجاته[1]، إشارة إلى أنَّ المثل مضروبٌ لكلّ من دخل دائرة الإيمان، كائنًا من كان، وأنَّ أدنى مراتب الإيمان إذا اقترنت بالإخلاص والثَّبات، كانت سببًا للنَّجاة والرِّفعة.

الإشارة إلى تحقّق الإيمان فيهم وأنَّ المثل مضروب لكلِّ من دخل دائرة الإيمان

دلالة ذكر المرأة مضافة إلى فرعون:

في إضافة المرأة إلى فرعون تنبيهٌ على أنَّ صِلَةَ المؤمن بالكافر لا تضرّه إذا خالفه في دينه وسلوكه، فمع كون فرعون من أعتى الكافرين، لم يَضُرَّ امرأته انتسابُها إليه، لما تمَيَّزت به من إيمان خالص وعمل صالح، فالعبرة ليست بالنَّسب ولا بالعِشرة، بل بالإيمان والعمل[2].

التَّنبيه على أنَّ صِلَةَ المؤمن بالكافر لا تضرّه إذا خالفه في دينه وسلوكه

الموقع النّحويّ لـ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها في الجملة الكريمة:

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾ ظرف للمثل المحذوف، أي: ضرب اللّٰه مثلا للمؤمنين حالَها حين قالت ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، وذلك أنَّ فرعون لما تبيّن له إسلامها أمر أن توتَدَ يداها ورجلاها بأربعة أوتاد، وأُلقيَ بها في حرِّ الشّمس تعذيبًا وتنكيلًا، فكانت تُعذَّب في الهجير، فجُعِلَ حالُ امرأة فرعون ودعاؤُها مثلًا للمؤمنين؛

حال امرأة فرعون ووقتُ قولها مشهدٌ يُضرَب به المثل في الإخلاص واليقين

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 210.

(2) ابن القيم، إعلام الموقعين: 1/ 145، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 576، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 874.

إذ تجلَّى فيها كمال الإيمان حين نطقتْ بدعائها في ذروة المحنة، فثبتتْ على الحقِّ بعدما تَبَيَّن لها، ولم تردّها عنه أهوال البطش ولا عذاب الأوتاد، فصار وقتُ قولها مشهدًا يُضرَب به المثل في الصِّدق والإخلاص واليقين[1].

فائدة النِّداء بلفظ الرُّبوبيَّة والإضافة فيه:

عنوان الرُّبوبيَّة فيه معاني الإحسان والرِّعاية والتَّدبير، وكفاية الحاجة

في قولها: ﴿رَبِّ﴾ نداءٌ للمُحسن المُنعم عليها بالهداية، واختيارها اسم (الرَّبِّ) دون غيره يكشف عن ثقتها العميقة في رحمته وعنايته، لما يحمله هذا الاسم من معاني الرِّعاية والتَّدبير، وكفاية الحاجة، ودفع الضُّرِّ، والحماية من الظّالمين والمُستكبرين[2].

الدَّلالة على افتقارٍ الصّادق، واستعطاف الواثق

وفي إضافتها ﴿رَبِّ﴾ إلى ضميرها إعلانُ افتقارٍ صادق، واستعطافٌ ظاهر تُصرّح فيه بأنها لا ملجأ لها سواه، ولا راعيَ لها غيره، فالإضافة تفيد الخصوصيَّة، وتكشف شدّة تعلُّقها به دون سواه[3].

فائدة القيد بالظّرف ﴿عِندَكَ﴾:

المقام في الجَنَّة لا يُؤنس إلّا بجوار الرَّحمان

في قولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ قدَّمت طلب القُرب من اللّه على طلب الجنَّة؛ إذ لم يكن غرضها نعيم الجنَّة حسبُ، بل القصد الأعظم أن يكون مَسكنها (عند ربِّها)؛ إذ الجار قبل الدّار، والمقام في الجَنَّة لا يُؤنس إلّا بجوار الرَّحمان[4].

بلاغة الإطناب، والإدماج في القيد ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾:

منازل المصطفَين عند الرَّحمان أسمى مراتب القُرب

طلبت المرأة الصّالحة القرب من رحمة اللّه والبعد من عذاب أعدائه ما يُسمّى بالبلاغة العربيَّة بالإطناب؛ إذ حدَّدت موضع هذا

---

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 9/ 347، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 69، والطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 14/ 483.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 211، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشربيني: 4/ 364، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2191.

(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2191.

(4) ابن القيِّم، الفوائد، ص: 197، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 172.

القرب بقولها: ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، وفي قولها تلميحٌ إلى أنَّها لا تطلب مُجرَّد النَّجاة، بل ترجو أرفع درجات الجنَّة، وأن تكون جنَّتُها من الجنان الَّتي هي أقرب إلى العرش، وهي جنّات المأوى، فعبّرت عن ذلك بعبارة ﴿عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ لتُفصح عن رغبتها في أسمى مراتب القرب في منازل المُصطَفَيْنَ عند الرَّحمان[1]؛ إذ إنّ القرب له مراتب لا تنحصر، فأدمجت بقولها: ﴿عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، تعني: أعلى المراتب وأقربها عند الله[2].

بلاغة الاحتباك بَيْنَ هذه الآية وسابقتها:

شتّان ما بَيْنَ مَن آثرت القُرب من الله على نعيم الدُّنيا، وبين من آثرت الدُّنيا برغم صحبتها للصّالحين

يمكن أن يكون في هذه الآية وسابقتها احتباكٌ بديع: حُذِف من الأولى طلب الجنَّة لدلالة الثّانية عليه؛ إذ لم تذكر امرأتا نوح ولوط دعاء ولا رغبة في الآخرة، وحُذف من الثّانية كونها تحت كافر لدلالة الأولى عليه، فاستُغني في كلِّ موضع بما ذُكر عمّا حُذف، فجاء الكلام مُحكمًا موزونًا، يُبيِّن المُفارقة بَيْنَ من آثرت القُرب من الله على القصور، وبين من آثرت الدُّنيا برغم صحبتها للصّالحين، فبلغ التَّعبير بذلك غاية الإيجاز والإعجاز[3].

بلاغة تقديم طلب القرب على الإنجاء:

الإشارة إلى أنَّ شرف المقام عند الله أسمى في نظرها من ألم العذاب

في تقديمها طلب القُرب ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ على دعائها بالنَّجاة من فرعون وقومه، دلالةٌ على أنَّ شرف المقام عند الله أسمى في نظرها من ألم العذاب، وأنَّ أُنس الجوار الإلهيِّ أحبُّ إليها من راحة البدن وسلامة الجسد، فكأنَّها استهانت بما تلقى من البلاء في الدُّنيا، طَمَعًا في نيل المقام الرَّفيع في الآخرة، وهذا هو الإخلاص في أرقى صوره[4].

(1) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 572، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 30/ 575.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 519.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 212.
(4) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2191.

نُكتة عَطْفِ عَمَلِ فرعون على فرعون نفسِه:

نفحات القرب من الحبيب توجبُ البعد عن أعدائه

أردفتِ امرأة فرعونَ طلبها القرب من رحمة اللّه بقولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، الطَّلب بالبعد من أعدائه بقولها: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾[1]؛ إذ إنّ نفحات القرب من الحبيب توجبُ البعد عن أعدائه.

الإشارة البليغة توقِظ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ، وسائر المؤمنات إلى عِظم نعمة الله عليهنَّ

ثمَّ إنّ في ضراعة المرأة الصّالحة بطلب النَّجاة من فرعون وأعماله الكافرة الطّاغية، بعد طلبها القرب من اللّه، ومجيء ذلك في سياق سورة (التَّحريم)، إشارةٌ بليغة توقِظ أزواجَ النَّبيِّ ﷺ، وسائر المؤمنات إلى عِظم نعمة اللّه عليهن، بأنَّ جعلهنَّ في عصمة رجال مؤمنين صالحين مُقسطين، يُحسنون إليهن ويُعاونونهنَّ على الطّاعة، فتلك النِّعمة وحدها كافية أن تُقابل بشُكر حسن التَّبعُّل، والمُساندة، والتَّأييد في تبليغ دعوة اللّه[2].

سِرُّ الجمع بين طلب الإنجاء من فرعون ومن عمله:

ما يصدر عن فرعون من أفعال الظُّلم والتَّعذيب هو الشَّرُّ الأعظم والبلاء الأشدّ

إنّ المرأة الصّالحة حين قالت: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾، طلبت أوَّلًا النَّجاة من ذاته الخبيثة، وكأنَّ مُجرَّد صحبته بلاءٌ مقيم، ثُمَّ أتبعته بالاستعاذة من عمله، تنبيهًا على أنَّ ما يصدر عنه من أفعال الظُّلم والتَّعذيب هو الشَّرُّ الأعظم والبلاء الأشدّ، فجاء العطف من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، لتُفصِح عن فظاعة فعله بعد خبث جوهره؛ لأنَّ ذاته الخبيثة مَعْدِنُ كلِّ شرٍّ، وما ظهر منه من الكفر وعبادة الأصنام والظُّلم نعتان منه، وكأنَّها تُعلن: نجِّني من الطُّغيان في صورتَيْه: شخصًا وسلوكًا[3].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 520.

(2) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2192.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 520، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 358، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 377.

نُكتة عطف جملة الدُّعاء بالنَّجاة على ما تَقدَّم:

العطف يوحي بعمق البلاء وشِدَّة الابتلاء

عطفُ جملة: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على ما تقدّم توحي بعمق البلاء وشِدَّة الابتلاء؛ إذ لم يكن أذى فرعون وحده هو ما تُكابده امرأة فرعون، بل كان معها طوقٌ من الظُّلم يحيطُ بها من قومِهِ الأقباط لا يُعينون على خير، بل يسخرون ويبطشون، فدلَّ العطف على شمول المُعاناة، ووحشة الطَّريق، وتفرّدها في الإيمان، حَتَّى لم يبقَ لها ملاذٌ إلّا ربَّها، تفرُّ إليه وحده، تشتكي بثَّها وحزنها، وتطلب الخلاص من الظّالمين جميعًا، لا من فرعون حسب، وفي ذلك تعليمٌ للمؤمن أنْ يلتجئَ إلى الله وحده في الشّدائد، وأنَّ ذلك مِن سُنَنِ الصّالِحينَ والأنبياءِ[1].

سِرُّ تكرار لفظ التَّنجية:

تتابع الهموم على النَّفس المؤمنة، يفتح أبواب الرَّجاء في كُلِّ جِهة

في تكرارِ لفظ (التَّنجية) في دعاء امرأة فرعون دلالةٌ على أنّها تُناجي ربَّها بنداءٍ يتجدّد مع كُلِّ بلاء ينزل بها، ويدخل عليها، فطلبتِ النَّجاة من ذات فرعون لبطشه وجبروته، ثُمَّ من عمله لكفره وطغيانه، ثُمَّ من قومه وحاشيته لظلمهم وإعانتهم لفرعون على ظلمه فهم تابعون له، وهي الأقرب إليهم والمُحاطة بهم. فجاء التَّكرار للتَّفصيل بعد الإجمال، ولإبراز تَعدُّدِ مصادر الخطر وشموليَّته، وللدَّلالة على أنَّ كُلَّ وجه من وجوه الظُّلم يستحقُّ استعاذة مستقلّة، وهو من فنون البلاغة في الدُّعاء، إذ يُحاكي تتابع الهموم على النَّفس المؤمنة، ويفتح أبواب الرَّجاء في كُلِّ جِهة. وفي تكرار الدُّعاء أيضًا تعظيم للرَّجاء، وتوكيد على أنَّ الفَرَجَ لا يُرتجى إلّا من الله، فكُلَّما تنوَّعت جهات النَّجاة، تنوَّعت معها أبواب الفضل الإلهيِّ[2]؛ قال الحسن البصريُّ: لما دعت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 216، وصبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2192.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 98، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 28/ 5954.

بالنجاة، نجاها اللّه تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة تأكل و تشرب و تتنعَّم[1].

سرّ التَّعبير بالفعل (نَجِّى) دون (أَنْجَى):

يشترك فعلا التَّنْجيةِ والإنْجاءِ في التَّخليصِ من المَهْلَكَةِ، ثُمّ يختصُّ الإنجاء بأنَّه الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلَكَة، وتختصُّ التَّنجيةُ بأنَّها الخلاص بعد الوقوع فيها[2]. ومن هنا استعمل الفعل (نجّني)؛ لأنّ دعاء امرأة فرعون كان بعد وقوع العذاب عليها.

ويذكر العلماء فرقًا آخَرَ بين الفعلين في السّياق القرآنيّ؛ وذلك أنَّ الغالبَ استعمالُ (نجَّى) لِما فيه تلبُّثٌ وتمهُّلٌ في التَّنجيةِ، بخلاف (أنجى) فهو لِلْإِسْراع فيها، فالإنجاء - على هذا - أسرع مِنَ التَّنجية في التَّخلص من المَهْلَكَةِ[3]. وكأنّ هذه المرأة الصّالحة ما كانت تستعجل الخلاص من اللّه تأدّبًا ومصابرة على الرَّغم من شدّة العذاب الَّذي تعرّضت له وتَنَوُّعِ مصادره، ومخاطره. وفي هذا أمارةٌ على قوّة إيمانها، وتمام تسليمها، ورضاها بما ابتلاها اللّه تعالى به.

نكتة وصف القوم بالظّلم:

الإشـــــارة إلى عـموم ظلمهم وتنوُّعه

القوم الظالمون، أي: النّاس الأقوياء العريقون في أن يضعوا أعمالهم في غير مواضعها الَّتي أُمروا بوضعها فيها[4]. ودعاء امرأة فرعون: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾، يتضمَّن إشارة إلى أنَّ ظلم القِبْط كان عامًّا لا يختصُّ بفرعون وحده، ولذلك توسّلت إلى اللّه أن يُخلّصها منهم جميعًا، لفرط ما كانت تلاقيه من أذاهم، ومنعهم لها من عبادة ربِّها. وفي ذلك تعليمٌ وإرشادٌ إلى أنَّ الالتجاء إلى اللّه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 216، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 223.
(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.
(3) فاضل السّامرائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 66 - 71.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 211.

وطلب النَّجاة منه، هو خُلق الصّالحينَ، وسُنَّة المرسلين، كما فعل موسى ﵇ حين قال: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ [الشُّعراء: 118]، وكما قال قومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس: 85 - 86][1].

(1) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 28.

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾

[التحريم: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قبلَها:

مَن يحسن الأدب مع الله تعالى ينال الرِّفعة والفضل والقرب منه

لَمّا أتَمَّ النَّظم الكريم ضَرْبَ المثل بمَنْ أحسنت الأدب فلم يضرَّها اتِّصالها بأعدى أعداء اللّه، بل زادها ذلك رِفعة وقُربًا - أتْبَعَه بمَثلٍ لقريبتها في الفضل، مريم عليها السلام، الَّتي شابهتها في الكمال، مع اختلاف الحالين: فامرأة فرعون كانت ثيِّبًا تحت طاغية، ومريم عذراء لم يُخالطها زوج، ومع ذلك أحسنت الأدب مع اللّه ومع خلقه، فجازاها اللّه بإحسانه وعنايته، جزاء من صدقت وآمنت وأحسنت[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: الإحصانُ على وزن إفعال، وهو مصدرٌ مُشتقٌّ من أحصنَ، يُحصِنُ، إحصانًا، وأصلُه: المَنْعُ، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار مَنيعًا، وامرأةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، والمرأةُ تكونُ مُحصَنةً بمعاني الإحصان، وهي: الإسلامُ، والعَفافُ، والحُرِّيَّةُ، والتَّزويجُ، يُقالُ: أحصَنَت المرأةُ، فهي مُحصَنةٌ ومُحصِنَةٌ، وكذلك الرَّجلُ. ويُطلَقُ الإحصانُ على الحِفظِ والحِرزِ، ومنه الحِصنُ: وهو الحِرزُ، وكلُّ مَوضِعٍ لا يوصَلُ إلى ما فيه[2]. ومعنى إحصان الفرج: هنا إعفافه وحفظه وصيانته عن الحرام[3]، بَلْهَ مقدّماته.

2) ﴿فَنَفَخۡنَا﴾: أَصْلُ الكلِمَةِ يَدُلُّ على انْتِفاخٍ وعُلوٍّ؛ والنَّفْخُ: إخْراجُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (حصن).
(3) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 173.

الرِّيح مِنَ الفَم، ويكونُ ذلك في الاستِراحَةِ والمُعالَجَةِ ونَحوهما، ونَفَخَ النّارَ بِالمِنْفاخ: هَيَّجَها وأذْكاها بريحِه، والمِنْفَخُ والمِنْفاخُ: آلَتُه، وهو ما يُنْفَخُ به. ومِن معاني النَّفْخ: الفَخْرُ والكِبْرُ[1]؛ والمعنى هنا: أن اللّه تعالَى أمر جبريل عليه السلام أن ينفخ بفيه في جيب قميص مريم، فنزلت النَّفخة من فتحة الدِّرع حتَّى ولَجَتْ في فَرْجها، فكان منها الحمل بعيسى عليه السلام بإذن اللّه[2].

3) ﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَنَتَ): وقَنَتوا للّه، أي: أطاعوه، ومنه القُنوتُ، وهو لُزومُ الطّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطّاعةُ الدّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[3]. والقُنوتُ أيضًا: الدُّعاء في آخر الوِترِ قائمًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238]، وقَنَتَتِ المرأةُ لزوجها، أي: أطاعتْهُ[4]. والقُنوتُ مَصْدَرٌ مِنْ بابِ قَعَدَ بمعنى: الدُّعاءُ، ويُطْلَقُ عَلَى القيامِ في الصَّلاة، ومِنْهُ قَوْلُه صلى الله عليه وسلم: "أفْضَلُ الصَّلاةِ طولُ القُنوتِ"[5]، ودُعاءُ القُنوتِ أيْ: دُعاءُ القيامِ، ويُسَمَّى السُّكوتُ في الصَّلاة أيضا قُنوتًا[6]. والمعنى هنا: أي: المُلازمين للطّاعة المداومين على العبادة مع الخُضوعِ[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

العفّة، وكمالُ الطّاعة مرقاةٌ إلى عظيم المنزلة، والفضل

ضرب اللّه تعالى مَثَلًا بمريمَ بنتِ عِمْرانَ الّتي حَفِظَت فَرْجَها، وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها فنفَخَ جِبريلُ بأمْرِنا في جَيْبِ دِرْعِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السلام، وآمَنَت بكَلِماتِ اللّهِ وكُتُبِه، وكانت مِنَ المُطيعينَ للّهِ، المواظِبينَ على طاعتِه[8].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيدي، تاج العروس: (نفخ).
(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنت).
(4) الخليل، العَيْن: (قنت).
(5) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (756).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (قنت).
(7) الملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 185، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 875.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 117، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 204، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، والسِّعدي، تيسر الكريم الرَّحمان، ص: 875.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف الآية بالواو:

الكرامة وسموّ المنزلة عند الله منوطان بالإيمان والإخلاص لا بالزَّواج أو عدمه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ عاطفة، عطفت ذكر (مريم) على ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ في التَّمثيل، فجمع الله سبحانه في ضرب المثل بين امرأة متزوجة ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وامرأة عذراء (مريم)، وفي هذا تسليةٌ للأرامل ومن لا زوج لها وتطييب لخواطرهن، بأنَّ نيل الكرامة عند الله لا يتوقَّف على الزَّواج أو عدمه، بل على الإيمان والإخلاص والطُّهر والعِفَّة[1].

نُكتة تتميم الأمثال السّابقة بضرب المثل بمريم:

كلام الفُجّار لا يَنقص من قدر الأبرار

في ضَرْبِ المَثَلِ بالمؤمنة مريم - من جهة أخرى - دلالة عظيمة على أنَّ قدح الأعداء وافتراءاتهم لا تضرُّ أهل الإيمان شيئًا عند الله، فقد رماها اليهود بالكذب والبُهتان، واتَّهموها وابنها بما نزّههما الله عنه، وهي مع ذلك صِدّيقة مُصطفاة على نساء العالمين، فدلَّ ذلك على أنَّ كلام الفُجّار لا يَنقص من قدر الأبرار، وفي هذا تسلية لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إن كانت السّورة نزلت بعد حادثة الإفك، وتوطينٌ لنفسها على ما قيل فيها إن كانت السّورة قبلها. كما أنَّ في المَثَلَيْن السّابقَيْن - بامرأتي نوح ولوط - تحذيرًا لعائشة وحفصة ممّا بدر منهما، ودعوةً لطاعتهما لله ورسوله، فجمعت هذه الأمثال بَيْنَ التَّحذير، والتَّحريض، والتَّسلية، والتَّقوية[2].

سِرُّ ذِكْرِ مريم باسمها ووصفها بابنتِ عمران:

في ذكر الاسم تخصيصٌ بالتَّشريف والتَّعظيم والتَّخليد وتمييزِ المكانة

سِرُّ ذِكْرِ مريم باسمها الصَّريح ووصفها بـ ﴿ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ دون نسبة إلى زوج، يعود إلى كونها عذراء لم تتزوَّج، فناسب المقام أن تُعرف بأبيها، لا بزوجٍ لم يكن لها، وفي ذلك تشريفٌ وتعظيمٌ خاصٌّ

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 216، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 270.
(2) ابن القيّم، إعلام الموقعين: 1/ 145.

بها، وتمييزٌ لمكانتها، وتخليدٌ لاسمها الَّذي لم يُذكر لامرأةٍ غيرها في مواضع مُتعدِّدة من القرآن، توكيدًا لصفائها، وطهارتها، وعُلوِّ مقامها بَيْنَ نساء العالمين(1).

بديع مُراعاة النَّظير في الجملة الكريمة:

من بديع مُراعاة النَّظير في النَّظم القُرآنيِّ، جَعْلُ المثل للمؤمنين على نسق المثلين السّابقين للكافرين، فتحقَّقت بذلك المُقابلة البيانيَّة بَيْنَ حال المؤمن وحال الكافر. وقد روعي في تمثيل حال المؤمنين وحدة السّياق والاتِّساق، فجاء المَثَلُ أوَّلًا بامرأة فرعون، أنموذجًا لقوَّة الإيمان برغم شدَّة الابتلاء، ثمَّ بمريم أنموذجًا لعظمة الطُّهر وملازمة التَّقوى، فكان في المثلين تجسيد لمعاني الإيمان والإخلاص، والمفارقة التّامَّة مع مثلَي الكافرتين، حيث جَمَعَ التَّصوير القرآنيُّ بَيْنَ الطَّرفين بالنَّظيرِ والمُقابلة والاتِّساق، في تنسيقٍ بديع، يُبرز الفروق ويُرسِّخ العبر(2).

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

وصف مريم عليها السلام بالطُّهرِ والعفاف تعظيم لمقامها، وتكريم لها

الغرض مِن التَّعبير عن مريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ هو الإشارة إليها بوصف اشتهرت به، فقد عُرِفَتْ بتلكَ الصِّلةِ مِن قصَّتِها المعروفة، وهي العِفَّة والطَّهارة، فجاء الموصول مع صلته ليستدعي في ذهن السّامع ما عُرِف عنها من طهرٍ وعفافٍ؛ وهذا ما يُضفي على المثل قوَّة في التَّأثير، ويوحي بأنَّ هذا الموضع مقام تعظيم وتكريم لمقامها، لا مُجرَّد إشارة لشخصها(3).

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بفعل الإحصان:

معنى: أحصنت، أي: عفّت نفسَها عن السّوء ومقدِّماته، فكانت

---

(1) محيي الدّين زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 264، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 170.

(2) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 376.

(3) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 379.

تفضيل مريم عليها السلام وتكريمها وتعظيمها كان سببه عفّتها وطهارتها

في عفّتها كالحصن العظيم المانع الَّذي لا يُقتحم من العدوِّ، ثابتةً على الطَّهارة حتَّى لقيت ربَّها؛ فالاستعارة في التَّعبير بالفعل ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾ تظهر في كون اللَّفظ يوحي بالحماية الشَّديدة والمنع القاطع[1]، إذ استُعير فعل الإحصان وهو في الأصل بناء الحصن لحماية الشَّيء ومنع العدوِّ من اقتحامه، للدَّلالة على شِدَّة عِفَّة مريم عليها السلام وطهارتها، حتَّى كأنَّ فرجها كان في حصن منيع لا يصل إليه شيء، فالاستعارة هنا تصريحيَّة، شُبّهت فيها عِفَّتُها بحال الحصن المنيع الَّذي لا يُخترق، وذُكر المشبَّه به (الإحصان) دون أن يُذكر المشبَّه (العِفَّة)، في إشارة بلاغيَّة إلى أنَّ عفَّتها لم تكن عاديَّةً، بل كانت حصنًا مكينًا، وهو تعبير يزيد في التَّعظيم والتَّنزيه والتَّكريم، ويُرسّخ في ذهن القارئ نقاء سريرتها ورفعة مقامها.

بلاغة الكناية في التَّعبير بالإحصان:

الإحصان يصور لنا ما كانت عليه مريم من كمال الدّيانة والصّيانة، والحياء والزُّهد

يُفهم من قوله تعالى: ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أنَّ الإحصان يدلُّ على العفّة والطَّهارة، وأنَّ المرأة إذا منعت نفسها عن الفاحشة وحرصت على صيانة عرضها، عُدَّت مُحصَنة. والإحصان في اللُّغة والشَّرع لفظٌ شامل، يُطلق على العفّة، والإسلام، والزَّواج، وكُلُّها تشترك في معنى الحبس والمنع عن الوقوع في الحرام، فكأنَّ مريم عليها السلام قد أحاطت نفسها بسياج من الدّين والحياء والزُّهد، فصارت مُحصنة من كُلِّ داعٍ إلى الفاحشة[2].

بلاغة المجاز والكناية في قوله: ﴿فَرۡجَهَا﴾:

الطَّهارة العظيمة والعِفَّة الكريمة لمريمَ عليها السلام أحاطت بِكُلِّ كيانها

ذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ الفرج مجاز عن الجَيْب، أي: فتحة الثَّوب عند الصدر، بدليل قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي في جيبها[3]؛ وهو من المجاز المرسل، وعلى هذا يكون الفرج قد أُطلق مجازًا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 213، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 365.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالة: 2/ 470.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 305، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 224.

عن موضع النَّفخ القريب من موضع العِفَّة، للدَّلالة على الطَّهارة التي أحاطتْ بِكُلِّ كيانها، فالَّتي حفظت جيب درعها تكون لا مَحالة أحفَظَ لموضع عِفَّتها؛ ويكون في التَّعبير كناية عن شِدَّة العِفَّة وعِظَم الطَّهارة(1).

معنى الفاء في قوله ﴿فَنَفَخۡنَا﴾:

ما جرى لمريم عليها السلام من التَّكريم الإلهيِّ كان ثمرةً لإخلاصها وعفافها

تُفيد الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أنَّ ما جرى لمريم من التَّكريم الإلهيِّ كان ثمرةً لإخلاصها وعفافها، على سبيل تفريع الجزاء على العمل، فالمعنى: جازيناها على عفّتها وطهارتها بأن أكرمناها بولادة نَبيٍّ كريم من غير واسطة بشر، في صورةٍ خارقة للسُّنن الجارية؛ فكان خَلْقُ عيسى عليه السلام في رحمها مجازاةً لها على صيانتِها نفسَها، وقد جاء ذلك على وجهٍ خارقٍ للعادة، ليكون آيةً خالدة تُخلِّد ذكرها في سجل الصّالحات وأهل الفضل، فرفع اللّه به شأنها، وأبقى ذِكرها بين الطّاهرات المُكرَّمات(2).

بلاغة المجاز العقليّ في إسناد النَّفخ إلى ضمير العظمة:

الدَّلالة على تعظيم الآمر سبحانه وتعالى وتفخيم فعله

نُسب النَّفخ في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾ إلى اللّه تعالى، مع أنَّ الَّذي تولّاه فعليًّا هو جبريل عليه السلام؛ لأنَّه رسول اللّه المأمور بالفعل، فهو من المجاز العقليّ؛ إذ أُسند النَّفخ إلى ضمير العظمة مع أنَّ النّافخ في الحقيقة هو جبريل عليه السلام بأمر من اللّه فنُسب الفعل إلى الآمرِ تعظيمًا، كما نُسبتِ القراءة في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ [القيامة: 18] إلى اللّه، والفاعل جبريل، فالنَّبيُّ يتَّبع قراءته، وجاء الإسناد إلى ضمير الجلالة أيضًا للتَّفخيم تنويهًا بعِظَم أثره، لما في خلق الجنين عمومًا، وخلقه من غير أب خصوصًا؛ إذ نتج عنها خلق نبيٍّ كريم من غير أب في إعجاز لا يقدر عليه أحد سوى اللّه جل جلاله(3).

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 487.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة النِّساء: 2/ 508، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 503.

نفيُ المعايب، ونفيُ السّوء مُقدَّمٌ على إثبات الفضائل والمحاسن

سِرُّ تقديم ذكر الإحصان والنَّفخ على التَّصديق بالكلمات والقنوت:

قدّم النَّظم الكريم ذكر الإحصان والنَّفخ قبل التّصديق والقنوت؛ لأنَّ في حفظ العِرْض سلامةً من أقبح التُّهَم، فكان ذِكْر العفاف أوْلى بالتَّقديم، لما فيه من نفيِ المعايب، ونفيُ السّوء مُقدَّم على إثبات الفضائل والمحاسن[1].

تذكير الضمير لبيان شدة عفاف مريم عليها السلام والإشارة إلى الموضع الَّذي جرى فيه النَّفخ

توجيه المتشابه في دلالة الظَّرفيَّة ﴿فِيهِ﴾ هُنا و﴿فِيهَا﴾ في سورة الأنبياء:

لم يقل تعالى في هذا الموضع: (فيها) بل قال: ﴿فِيهِ﴾، مراعاةً للكناية عن الفرج، لأنَّ المقصود به هنا هو جيب الدِّرع، وهو مذكّر لفظًا، فجاء الضَّمير مناسبًا له، وهذا من باب الاستخدام البلاغيِّ؛ حيث أُريد باللَّفظ شيء، وبضميره شيء آخر، وهو من لطائف الصِّناعة البديعيَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6][2].

أمّا في قوله تعالى من سورة الأنبياء ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91] فقد كان الهدف بيان حال مريم وابنها، وأنَّ اللّٰه جعلهما آية للعالمين. ولمّا كان النَّفخ هو السَّبب في حَمْلها، والحَمْل صفة تشمل الجسد كلّه، أعيد الضَّمير إلى ﴿فِيهَا﴾ [الأنبياء: 91] لا إلى (فيه)؛ لأنَّ أثر النَّفخ لم يتوقَّف عند موضعه فقط، بل شمل ذاتها كلها فصارت حاملًا بغير زوج، وهو أمر خارق للعادة يستوجب التَّعجُّب، فناسب التَّعبير بقوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91] لإبراز العجيبة في كيانها كلِّه.

أمّا في سورة التَّحريم، فجاء الضَّمير ﴿فِيهِ﴾ مُراعيًا خصوصيَّة الموقف، إذ إنَّ الغرض بيان شدَّة عفافها مع الإشارة إلى الموضع الَّذي جرى فيه النَّفخ، مِمّا يليق بسياق ضرب المثل للنِّساء المؤمنات، فليس الغرض التَّعجُّب من حالها بعد النَّفخ، بل المقصود الإشارة

---

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2193.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 70، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 487.

إلى واقعة النَّفخ باعتبارها سبب الحَمْل، فجاء الضَّمير على الأصل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: في فرجها مباشرة، دون الالتفات إلى ما ترتّب عليه في جسدها كلّه، فكان لكلِّ موضع تعبيره المناسب بحسب السّياق والغرض[1].

يُزاد على ذلك أنَّه لمّا كان التَّذكير في لسان العرب أخفّ وقعًا من التَّأنيث، وكان في آية التَّحريم قد تكرَّر ذكر ألفاظ التَّأنيث: كـ(مريم)، و﴿ٱبْنَتَ﴾، و﴿أَحْصَنَتْ﴾، و﴿فَرْجَهَا﴾، اختير التَّذكير في الضَّمير ﴿فِيهِ﴾ لتخفيف وطأة كثرة المُؤَنَّثات في السّياق، فجاء اللَّفظ مذكّرًا تخفيفًا، بخلاف الموضع الآخر الَّذي لم تتكرَّر فيه ألفاظ التَّأنيث بنفس القدر[2].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِنَا﴾:

تعظيم النَّفخ، وتفخيم ما ترتّب عليه من ولادة نبيّ كريم بغير سنّة البشر

في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، جاءت ﴿مِن﴾ في موضعها البيانيِّ، فهي تحتمل التَّبعيض إن أريد بالرّوح عيسى عليه السلام؛ لأنَّ تكوينَ المخلوقِ الحيِّ في رَحِمِها كان دونَ الأسبابِ المعتادةِ تشريفًا لنفخته المضافة إلى اللّه تعظيمًا، وتَحْتَمِل الابتداء إن أريد بها جبريل عليه السلام، أي: أنّ النفخ بدأ من ملك من ملائكة اللّه المُكْرَمين؛ ففي كلا الوجهين إظهارٌ لعظمة النَّفخ وعلوّ مصدره، وتفخيمٌ لما ترتّب عليه من ولادة نبيٍّ كريمٍ على غير سنّة البشر[3].

نكتة الإضافة في ﴿رُّوحِنَا﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فيه إضافة الرّوح إلى نفسه تعالى، وهي إضافة تشريف وتكريم، لا إضافة صفة ذات؛ فالرّوح هُنا مخلوقة من مخلوقات اللّه، أضافها إليه كما أضاف البيت في قوله: ﴿بَيْتِيَ﴾

(1) ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/ 351، والإسكافي، درة التنزيل: 1/ 913، والكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 180.

(2) الحموي، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 257.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.

[البقرة: 125]، والنّاقة في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، والعبد في قوله: ﴿عِبَادِي﴾ [البقرة: 186]، وهذه كُلُّها إضافات تخصيص لا تشريك، تدلُّ على تكريم وتشريف واصطفاء لهذا المخلوق من بَيْنِ سائر المخلوقات(1).

معنى الواو في قوله: ﴿وَصَدَّقَتۡ﴾:

الدَّلالة على شرف التَّصديق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ﴾ هي واو العطف، وقد عُطفت على فعل محذوف تقديره: (فحملت بعيسى) وصدَّقت بكلمات ربِّها...، والعطف يدلُّ على شرف المذكور بعد المحذوف (وهو التَّصديق)(2).

دلالة التَّعبير بلفظ التَّصديق مادَّة وصيغة:

إبراز المقام الإيمانيِّ الفريد الَّذي بلغ بها مرتبة الصِّدّيقيَّة

جاء التَّعبير بـ ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصيغةٍ تُفيد التَّكرار والمُبالغة، ليُبرز مقام مريمَ الإيمانيِّ الفريد، فتصديقها لم يخالجه شكٌّ في أيِّ وقت من الأوقات، بل كان إيمانًا راسخًا، ويقينًا متجدِّدًا، واتّباعًا دائمًا، بلغ بها مرتبة الصِّدّيقيَّة، ولعلّ هذا هو السَّبب في تسميتها بالصّدّيقة في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: 75]؛ فغدت مثالًا خالدًا لليقين الكامل، والإذعان المطلق لوحي اللّه، في كلّ ما أُنزل على الأنبياء، وفي مقدّمتهم ولدُها عيسى عليه السلام، وجاء هذا الخبر في هذا السّياق؛ ليكون تعليمًا بليغًا لنساء الأمَّة، يُرشدهنَّ إلى وجوب الإيمان برسالات الأنبياء جميعًا، والتَّصديقِ التّامِّ بما جاء به خاتمهم ﷺ، على وجه الخصوص، وأنَّ من تمام هذا التَّصديق: نُصرة دعوته، ومؤازرُته في تبليغ رسالته، والقيام بحقوقه، فإنَّ ذلك كلَّه من لوازم الإيمان الصّادق الَّذي لا يكتمل بدونه(3).

(1) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 393، وابن القيِّم، الرّوح، ص: 154 - 156.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 143.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2196.

نكتة جمع الكلمات:

جمع لفظ (كلمات) في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾؛ ليشمل نوعي كلمات اللّه تعالى: الكلمات الكونيَّة الَّتي بها يَخلق ويكوّن، والكلمات الدّينيَّة الَّتي بها يأمر وينهى ويشرّع، فجاءت مريم عليها السلام مؤمنةً مطمئنَّةً بهاتين الكلمتين معًا، لا تنكر شيئًا من أوامره الكونيَّة ولا من شرائعه الدّينيَّة، فإيمانها يشمل التّصديق الكامل بربوبيَّته قولًا وفعلًا، خلقًا وأمرًا، تشريعًا وتدبيرًا، ممّا يرفعها إلى مرتبة التَّمام في التَّوحيد والتَّسليم[1].

كلماتُ الله تعالى كونيَّة بها يَخلُق ويُكوِّن، ودينيّة بها يَأمر ويَنهى ويُشرّع

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضميرها:

جاء التَّعبير بلفظ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميرها: ﴿رَبِّهَا﴾؛ ليجسّد صلتها الخاصَّة باللّه تعالى، ويكشف عن مقام الإحسان الَّذي غمرها به ربُّها، فهو المحسن إليها بعنايته، فالإضافة هنا إضافة رعاية وتكريم، تُشعر بالقرب والاصطفاء، وتدلُّ على أنَّ رَبَّها تولّاها بعنايته قبل ولادتها ثمَّ بعد ذلك في نشأتها[2].

منزلة مريمَ عليها السلام عظيمة عند الله تعالى

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾:

قرأ البَصْريّانِ، وحفص عن عاصم: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ برفع الكاف والتّاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾، بألف[3]، وقراءة الجمع تدلُّ على الكثرة وقراءة ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾ على الواحد المراد به الكثرة والشّياع أيضًا[4].

وَذُكر أنَّ الجمع ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ دالّة على التَّوراةِ والإنجيل والزَّبور والصُّحف، وعلى الإفراد ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾ تكون الكلماتُ التَّوراة، والكتابُ

في قراءة الجمع تصديقٌ بجميع الكتب السَّماوية، وفي قراءة الإفراد يبرز التَّعظيم للإنجيل خاصَّة

(1) ابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 282.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 214.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 389.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 33.

الإنجيل[1]؛ وعلى هذا التَّأويل يبرز التَّنويع في التَّعبير عن كمال إيمان مريم عليها السلام؛ فقراءة الجمع تشير إلى تصديقها بجميع الكتب السَّماويَّة، وقراءة الإفراد تُبرز تعظيمها للإنجيل خاصَّة.

نكتة التَّعبير بفعل الكون الماضي:

عبادة مريم عليها السلام جبلّةٌ وطبعٌ وسجيّةٌ لا تفارقها

التّعبير بالفعل الماضي (كانت) يوحي بأنَّها بلغت في عبادتها، وطهارتها، وقيامها، وقنوتها، وذكرها لله مبلغًا عظيمًا، حتَّى تشرَّبت روحها هذه العبادات، واختلطت بها، وصارت لها جبلّة وطبعًا وسجيّة لا تفارقها[2].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾:

نشأت الصّدّيقة مِن سلالة قوم صالحين عُرفوا بالطّاعة والخير

يجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ للابتداء، أي أنها نشأت من سلالة قوم صالحين عُرفوا بالطّاعة والخير، فسارت على نهج أصولها في العفَّة والعبادة. ويجوز أن تكون للتَّبعيض، أي: أنَّها واحدة من جماعة القانتين، لكنَّها لم تكن مجرَّد جزءٍ منهم، بل برزت فيهم، وصارت علَمًا على القنوت، يُضرب بها المثل في الخضوع والطّاعة، حتَّى غدت من أعلام هذا الرَّكب الإيمانيِّ المبارك على مرّ الزمن[3].

نكتة ذكر القانتين بجمع التّذكير دون التّأنيث:

لم تكن مريم عليها السلام دون الرِّجال في الطّاعة

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ومثله قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: 10]، لم يُقل: (من القانتات)، أو (من المؤمنات)، بل استُعمل جمع المذكَّر تغليبًا، وهو أسلوب عربيٌّ معروف، منها تقديمُ الذَّكَرَ على الأنثى عند الجمع بينهما. لكن وراء هذا التَّغليب معنى دقيق، وهو الإشارة إلى أنَّ مريم عليها السلام لم تكن دون الرِّجال في

(1) النسفي، التَّيسير في التفسير: 14/ 498.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 214.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 226، وأبو حيّان: 10/ 217، والأنصاري، فتح الرَّحمان، ص: 574، 575.

الطّاعة، بل بلغت من العبادة درجة عظيمة حتَّى عُدَّت في مصافّ القانتين الكاملين، لا القانتات حسب[1].

وفي هذا إيماء إلى أنَّ الكمال في العبادة أغلب في الرِّجال، كما جاء في الحديث الشَّريف: "كمل من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران..."[2]، فدلّ التَّعبير على تميُّزها وندرة من يشاركونها هذا المقام من النِّساء، وأنَّها نافست الرِّجال في طاعتهم وعبادتهم، بل وارتقت إلى مستواهم، على الرَّغم من أنَّ نساء بني إسرائيل كُنّ معفيات من كثير من التَّكاليف الشَّرعيَّة. كما أنَّ التَّعبير جاء مراعيًا لفواصل الآيات ومتناسقًا مع نسق السّورة[3].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ مادّة وصيغة:

ضمُّ الصِّدّيقة إلى زمرة القانتين للتَّنويه بشرفها، وعلوِّ منزلتها في العبادة

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ إيماء إلى تبرئة مريم عليها السلام من بهتان قومها، إذ جاء النَّظم الإلهيُّ ليشهد لها بمقام الطّاعة الكاملة والخضوع الدائم، فضمّها إلى زمرة القانتين تنويهًا بشرفها، وعلوِّ منزلتها في العبادة، حتَّى غدت في مصافّ الأكابر من أولياء اللّه. وفي هذا التَّعبير أيضًا إشارةٌ خفيةٌ إلى ما أوصى اللّه به أُمَّهات المؤمنين في قوله:﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: 31][4]؛فمريمُ عليها السلام أُسوةٌ حسنةٌ في القنوت والطّاعة، وأُمَّهات المؤمنين خَلَفٌ لها في هذا السَّبيل، ليكون القنوت ميزان الطُّهر، ومقياس الشَّرف، وسبيل النَّجاة.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، والشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 241، وابن عثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 49.

(2) الحديث رواه البخاريُّ: (3433) واللَّفظُ له، ومسلمٌ: (2431).

(3) أبو حيّان: 10/ 217، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 226، وأبو السُّعود، ارشاد العقل السَّليم: 8/ 270.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 379.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُنوت والخُشوع:

الخُشوعُ: لينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ، ورِقَّتُهُ، وسُكونُهُ، وحُضورُهُ وقْتَ تَلَبُّسِهِ بالطّاعَةِ، فَتَتْبَعُهُ جَميعُ الجَوارِحِ والأَعْضاءِ(1)، أمّا القُنوتُ فَيَرِدُ في القُرْآنِ على قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: قُنوتٌ عامٌّ لِجَميعِ المَخْلوقاتِ بِمَعْنى الخُضوعِ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الرّوم: 26]، والمَعْنى: الكُلُّ عَبيدٌ خاضِعونَ لِرُبوبيَّتِهِ، وتَدْبيرِهِ ﷻ، لا مَعْبودَ بِحَقٍّ سِواهُ. **والقِسْمُ الثّاني**: القُنوتُ الخاصُّ: وهوَ دَوامُ الطّاعَةِ للّهِ على وجْهِ الخُشوعِ، وهوَ الأَكْثَرُ في القُرْآنِ الكَريمِ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزُّمَر: 9]، ونَحْوُ ذَلِكَ(2). وهو الحال الَّذي كانت عليه الصّدّيقة مريم عليها السلام مع ربّها حتَّى انمازت به، ولازمها وصفَ تشريف، وثناء.

(1) ابن رجب الحنبلي، الذُّلُّ والِانْكِسارُ لِلْعَزيزِ الجَبّارِ، ص: 35.
(2) السّعْدي، تَيْسيرُ اللَّطيفِ المَنّانِ: 01/ 311.

الجُزْءُ
التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المُلْكِ

سُورَةُ المُلْكِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ وعد الآي:

سورة الملك مكّيَّة اتِّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيَّة[1] و السُّيوطيُّ[2] الإجماعَ على ذلك، وتبعهم في ذلك كثيرٌ من المُفسِّرين، وإن كان السُّيوطيُّ قد نقل قولين آخرَيْن ضعيفَيْن، أحدهما: أنَّها سورة مدنيَّة، ووصف هذا الرَّأيَ بالغرابة[3]، والقول الآخر: مرويٌّ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّها مكّيَّة إلّا ثلاثَ آيات[4]، وعقَّبَ ابن عاشور على هذا الرَّأي الأخير قائلًا: "فيَحْتَمِلُ أنَّ ابن عبّاس عنى استثناءَ ثلاث آياتٍ نزلَت في المدينة، ويحتمل أنَّه يريد أنَّ ثلاثَ آياتٍ منها غير مُخاطَبٍ بها أهلُ مكَّة، وعلى كلا الاحتمالَيْن، فهو لم يُعَيِّن هذه الآيات الثَّلاثِ، وليس في آيات السّورة ثلاثُ آيات لا تَتعلَّق بالمُشركين خاصَّة"[5]، ولا شَكَّ أنَّ موضوعاتِ السّورةِ وأساليبَها مِمّا يَتَّصل بالعهد المكّيِّ دون المدنيِّ.

وأمّا عدد آياتها؛ فهي إحْدى وثَلاثونَ آيَةً في العدِّ المدنيِّ الأخير والعدِّ المكّيِّ، وثَلاثونَ في عَدِّ الباقينَ، وسبب اختلافهم هو في آيَة ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾، فقد عدَّها المدنيُّ الأخير والمكّيُّ، ولم يَعُدَّها الباقونَ[6].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبـها المـصحفيُّ بين سورتي التَّحريم والقلم

هذه السّورة هي السّابعة والسُّتّون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 337.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 51.
(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 66.
(5) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 29/ 7.
(6) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 251.

ترتيبها بين سورتَي التَّحريم والقلم، وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها السّورَةُ السّابعةُ والسَّبعون، وأنَّها نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الطّور وقَبْلَ سورَةِ الحاقَّة[1]، وذهب آخرون إلى أنّها السّادسة والسَّبعون، نزلت بعد سورة (المؤمنونَ) وقبلَ سورةِ الحاقَّة[2]، وقيلَ غيرُ ذلك.

فضائل السّورة:

من فضائل هذه السّورة شفاعتُها لصاحِبِها، واستغفارُها له، ومَنْعُها عذاب القبرِ عَنهُ

هذه السّورة الكريمة من طِوال المفصَّل، وقد ورد في فضائلها أحاديثُ كثيرة، ونذكر هنا بعضها؛ لبيان ما رود في فضائل السورة:

فروى واثلة بن الأسقَعِ ﵁ أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[3]،

وأخرج التِّرمذيُّ وغيره عن أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "إنَّ سورَةً مِنَ القُرآنِ ثَلاثونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وهيَ سورَةُ تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ"[4]. وفي صحيح ابن حبّان: "سورَةٌ في القُرْآنِ، ثَلاثونَ آيَةً، تَسْتَغْفِرُ لِصاحِبِها حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾"[5].

وروى التِّرمذيُّ عَنْ جابِرٍ ﵁: "أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ لا يَنامُ حَتَّى يَقْرَأَ الم تَنْزيلُ، وتَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ"[6].

وروى التِّرمذيُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ أنَّهُ قالَ: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحابِ

---

(1) دروزة، التفسير الحديث: 5/ 373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 7.

(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192).

(4) رواه أبو داود في سننه، برقم: (1400)، والترمذي في جامعه، برقم: (2891)، وابن ماجه في سننه، برقم: (3786).

(5) رواه ابن حبان في صحيحه، برقم: (787),

(6) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (2892)، والنسائي في السنن الكبرى، برقم: (10477).

النَّبيِّ ﷺ خِباءَهُ عَلَى قبرٍ، وهوَ لا يَحْسِبُ أنَّهُ قَبْرٌ، فَإذا فيهِ إنْسانٌ يَقْرَأُ سورَةَ تَبارَكَ الَّذي بيَدِهِ المُلْكُ حَتَّى خَتَمَها، فَأتَى النَّبيَّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ اللّه إنّي ضَرَبْتُ خِبائي عَلَى قَبْرٍ، وأنا لا أحْسِبُ أنَّهُ قَبْرٌ، فَإذا فيهِ إنْسانٌ يَقْرَأُ سورَةَ تَبارَكَ المُلْكِ حَتَّى خَتَمَها، فَقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: "هيَ المانِعَةُ، هيَ المُنْجيَةُ، تُنْجيهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ"(1).

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

من مظاهر شرَفِ سورةِ المُلْكِ كثرَةُ أسمائِها

وردَ تسميتُها بسورة (المُلْك) في كتب السُّنَّة، كصحيحِ البُخاريِّ(2)، وجامعِ التِّرمذيِّ(3)، وكذلك وردَ تسميتها بهذا الاسم في المصاحف، وكتب التَّفسيرِ، وقد ذكر أهلُ العلم أنَّ تسميتَها بهذا الاسم لورود هذه اللَّفظة في أوَّلها، وهذا الرَّأي ليس بِكافٍ، فقد وردت ألفاظٌ في أوائلِ كثيرٍ من السّور، ومع ذلك لم تُسمَّ باسمِها، إلّا أن يُقال: إنَّ مِنَ القواعِدِ المقرَّرةِ أنَّ سببَ التَّسميةِ لا يوجِبُها.

والذي يبدو أنَّ تسميتها بالملك مرتبطٌ بِمِحْوَرِها القائم على بيان مظاهِرِ قُدْرَتِه تعالى في أرجاء ملكوته.

وقد جاءَ تسمية النَّبيِّ ﷺ لها بـ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فقد أخرج التِّرمذيُّ وغيره أنَّ النَّبي ﷺ قال: "سورَةٌ في القُرآنِ، ثَلاثونَ آيَةً، تَستَغفِرُ لِصاحِبِها حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾"(4).

وذكر السُّيوطيُّ لها تسمياتٍ أخرى، هي: تبارك، والمانعة، والمجادلة، والمنجية، والمنّاعة، والواقية(5).

(1) رواه الترمذي في جامعه برقم: (2890)، وقال: "هذا حديث غريب"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، برقم: (6101).
(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الملك: 6/ 158.
(3) التّرمذيّ، جامع التّرمذيّ، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك: 5/ 164.
(4) سبق تخريجه.
(5) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 196.

كما سُمّيت أيضًا (المانعة)؛ لما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه: "سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر"[1].

وروى التِّرمذيُّ عَن ابنِ عَبّاسٍ أنَّهُ قالَ: ضَرَبَ بَعضُ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ خِباءَهُ عَلَى قَبرٍ، وهوَ لا يَحسبُ أنَّهُ قَبْرٌ، فَإذا فيهِ إنسانٌ يَقْرَأُ سورَةَ تَبارَكَ الَّذي بيَدِهِ المُلْكُ، حَتَّى خَتَمَها، فَأتَى النَّبيَّ ﷺ، فَقالَ: يا رَسولَ الله إنّي ضَرَبْتُ خِبائي عَلَى قَبْرٍ، وأنا لا أحْسِبُ أنَّهُ قَبرٌ، فَإذا فيهِ إنسانٌ يَقرأ سورَةَ تَبارَكَ المُلك حَتَّى ختمها، فَقال رَسول الله ﷺ: "هيَ المانِعَةُ، هيَ المُنْجيَةُ، تُنْجيهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ"[2].

وقد ورد لها كذلك اسم "المَنّاعة" بصيغة المُبالغةِ؛ دلالةً على قوَّتها في الحِمايَةِ والوقاية، كما أُثِر عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه كان يسمّيها (المُجادِلة)؛ لأنَّها تُجادل عن صاحِبها في قبره عند سُؤال المَلَكَين، كما أشار إلى ذلكَ الرّازيُّ[3].

فاجتمعَ لهذه السّورة الجليلة أسماءٌ عدَّة، كلُّها تَدُلُّ على عظيم نَفْعِها وفضلها، وما جعل اللّهُ تَعالى فيها من أسبابِ النَّجاة والشَّفاعة والحِفْظ.

بيانُ الصِّلة بين اسـمِ السّورة ومَضْمونِها

وقد ربطَ البِقاعيُّ بين أسمائها ومقصودُها خيرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودها: الخضوعُ للّهِ؛ لاتِّصافه بكمال الملك الدّال عليه تمام القدرة، الدّال عليه قطعًا إحكامُ المكوِّنات، الدّال عليه تمام العلم، الدّال عليه معَ إحكامِ المَصْنوعاتِ علمُ ما في الصُّدور؛ لينتج ذلك العلمَ بتحتُّم البعثِ؛ لدينونة العباد على ما هم عليه من الصَّلاح والفساد، كما هي عادة المُلوك؛ لتكمُلَ الحكمة، وتتم النِّعمة، واسمها (الملك) واضحٌ في ذلك؛ لأنَّ المُلك مَحَلُّ الخضوع مِن كلِّ ما يرى

(1) رواه البيهقي في السنن الصغرى، برقم: (969) موقوفًا، ورواه أبو الشيخ مرفوعًا في كتابه طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها: 4/ 10، برقم: (782).

(2) سبقَ تخريجُهُ.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 577.

الملك. وكذا (تبارك)؛ لأنَّ مَن كان كذلك؛ كان له تمامُ الثَّبات والبقاء، فكان له مِن كلِّ شيءٍ كمالُ الخُضوع والاتِّقاء. وكذا اسمها: المانعة، والواقية، والمُنجية؛ لأنَّ الخضوع حامِلٌ على لزوم طريق السَّعادة، ومَن لَزِمَها؛ نجا مِمّا يُخاف، ومُنِعَ من كلِّ هَوْلٍ، ووُقيَ كُلَّ محذور "[1].

والحقُّ أنَّ ما قاله البقاعيُّ مُرتبطٌ بمحورها العامِّ الذي يقوم على تعريف المؤمنين باللّه تعالى وصفاته، ولا سيَّما بيانُ كمالِ قُدرته تعالى الظّاهرة في كُلِّ مخلوقات اللّه تعالى في الأرض وفي السَّماء، وبيان أثر هذه القُدرة في خضوع العباد لها، مِمّا اقتضاها عَرْضُ حالَي المؤمنين والمكذِّبين بها.

المحور العام للسورة:

ومحور السّورة الرَّئيس هوَ موضوعُ المُلْكِ، ومَن يَمْلِك المُلْكَ، ومُقوِّمات المُلك، كُلُّ هذه تَدْخُلُ في محور السّورة الرَّئيس، فقام المحور على التَّعريف بصفات اللّه تعالى، التي تستلزم خضوعَ العباد له وتسليمَهُم لقدرته، واستعراضَ الأدلَّة الكونيَّةِ على وجودهِ ومَلكوتِه، ويوجه الإنسان للتأمل في عظمة اللّه وقدرته، وتذكيره بقدرة الخالق على خلق الكون وتنظيمه، وبأن الحياة والموت بيده، وأن الإنسان مسؤول عن عمله، فالسورة تدعو إلى:

أولًا: الإقرار بوحدانية اللّه والتوحيد، وبقدرته على خلق كل شيء وتدبيره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1].

ثانيًا: بيان أنَّ أهم قضيَّتَين تشغلانِ البشَر - وهما: الرِّزق والآجال - بيده تعالى لا بيدِ غيره، وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: 21].

ثالثًا: اقتضى هذا المحورُ أن يُبَيِّن لهم علَّةَ الخلق، وسرَّ الوجود وهو الابتلاء، وذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]،

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 103.

وأن يُبَيِّنَ أقسامُ النّاس أمام سنَّة الابتلاء في فريقَيْن، مع بيانِ مآل كلِّ فريق: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك: 6]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12].

محور السّورة يقومُ على التَّعريف بالله تعالى وبصفاتِهِ وبمَظاهِر قُدْرَتِه

رابعًا: التحفيز على التوبة والخشية من اللّه والاعتراف بعظيم نعم اللّه، مع الثقة برحمة اللّه لمن يتقيه، وبيان بعضُ أسباب تكذيب الكافرين وإعراضهم عن طريق الحقِّ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 8 - 10].

خامسًا: خُتمت السّورة بتوجيهاتٍ للنَّبيِّ ﷺ في كيفيَّة التَّعامل مع المكذِّبين وتهديدهم ووعيدهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: 28 - 30].

موضوع السّورة وخصائصها:

تدورُ السّورة حول بيان مظاهرِ قُدرة الله تعالى في الأنفُس والآفاق

إنَّ السّورةَ واردةٌ لإثبات وجودِ اللّه تعالى وانفرادِهِ بالوحدانيَّةِ؛ وذلك ببيان مظاهر عِلْمِه وقدرته، والإنذار بأهوالِ القيامة، والتَّذكير بنِعَمِ اللّه على عباده، وربط الرِّزق بالسَّعي في الأرض، ثُمَّ التَّوكُّل على اللّه تعالى، فسورة الملك كسائر السّور المكّيَّة اعتنت بأصول العقيدة، من إثبات وجودِ اللّه، وبيانِ عظمَتِه، وقُدْرَتِه على كلِّ شيءٍ، والاستدلال على وحدانيَّته، والإخبار عن البعث والحشر والنَّشر، فبُدِئَت بالحديثِ عن تمجيد اللّه سبحانه، وإظهارِ عظمَتِه، وتفرُّده بالملك والسُّلطان، وهَيْمنته على الأكوان، وتصرُّفه في الوجود بالإحياءِ والإماتةِ، ويأتي تحت هذا موضوعاتٌ، منها:

أولًا: أكَّدت الاستدلالَ على وجود الله ﷻ بخَلْقِه السَّماواتِ السَّبعَ، وما زيَّنها به مِن الكواكب والنُّجوم المضيئةِ، وتسخيرها لرَجْم الشَّياطين، ونحو ذلك من مظاهر قدرته وعلمه؛ ممّا يدلُّ على أنَّ نظام العالم نظامٌ مُحْكَم لا خللَ فيه ولا تغايُر.

ثانيًا: تبشيرُ المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبيرِ، وذلك جَمْعٌ بين التَّرهيب والتَّرغيب على طريقة القرآن الكريم، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، إلى قوله سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

ثالثًا: الإشارة إلى مَظاهِر عِلم الله تعالى بالسِّرِّ والعَلَن، وخَلْقه الإنسان، ورزقه، وتذليل الأرض للعيش الهنيءِ عليها، وحفظها من الخسف، وحفْظُ السَّماء من إنزال الحجارة المحرقة المدمِّرة للبشر، كما دمَّرت الأممَ السّابقة المكذِّبةَ رُسُلَها، وإمساكُ الطَّير ونحوها من السُّقوط، وتحدّي النّاس أن يَنْصُرَهم غيرُ الله؛ إن أراد عذابَهم، مع ذِكْرِ مظاهِرَ أُخرى من مظاهِرِ قُدرتِهِ ﷻ.

رابعًا: ختمت السورة بإثباتِ البعث، وحَصْرِ علمه بالله تعالى، وإنذار المكذِّبين بدعوة الرَّسول ﷺ، وتحذيرهم من إيقاع العذاب بهم، وإعلان وجوب التَّوكُّل على الله، والتَّهديد بتغوير الماء الجاري في الأنهار والينابيع دون أن يتمكَّن أحد بإجرائِه والإتيان ببديلٍ عنهُ[1].

الخصائص الموضوعيَّة للسورة:

أوَّلًا: امتازت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ﴾؛ إذ لم يَشْرُكْها في ذلك سوى سورةِ الفُرْقانِ، علمًا أنَّ كلتا السّورتَيْن جاءتا في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سوَرٍ مدنيَّة، فالمُلْكُ بعد التَّحريم، والفرقانُ بعد النّور، وكلتا السّورتَيْن المدنيَّتَيْن قد تعرَّضتا لأحكام بيت النُّبوَّة، إلّا أنَّ سورة الفرقان تكرَّر فيها قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾ ثلاثَ مرّاتٍ[2].

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها تناولت الحديثَ عَن مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والإبداع بشكلٍ لافتٍ بالنِّسبة لعدَدِ آياتها؛ إذ شغلَت آياتُ القدرةِ نحوَ نصفِ عددِ آيات السّورة الكريمةِ.

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 6 - 7.
(2) الآيات: 1، 10، 61.

تميَّزت سورة الملك بخصائصَ موضوعية أفْرَدَتْها عن غيرِها مِنَ السّور

ثالثًا: اشتملَتِ السّورة الكريمةُ على عرضِ مشاهِدِ العذابِ وأوصافٍ لجهنَّم لم تَرِدْ في غيرها، مِن مثل سَماعِ شهيقِها، وتميُّزها غيظًا، وفورانها، كما انفردت بأمْرِها النّاسَ بإسرارِ القول أو الجهر بهِ؛ لأنَّ كليهما عند اللّه تعالى سواءٌ، وانفردت أيضًا بحديثها عن جَعْلِ اللّه تعالى الأرض ذلولًا؛ ليَمْشوا في مناكِبها، وما إلى ذلكَ.

الخصائص الأسلوبيَّة للسورة:

تفرَّدت سورة الملك بذكر أساليب تعبيرية ميزتها عن غيرهامِنَ السّور

أولًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها أكثرت من ذكر بعضِ الألفاظ فيها، مثل لفظةِ الخلق ومشتقّاتها؛ إذ وردت أربَعَ مرّات[1]، فضلًا عن ورود ألفاظٍ مقاربةٍ لذلك، كالجعْل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، والذّرء: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والإنشاء: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾، كما ذُكِرَ لفظُ البَصَرِ ومشتقّاتهُ خمسَ مرّات[2]، فضلًا عن أفعالِ الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾، ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا﴾، ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾، كما تكرَّر فيها لفظُ ﴿نَذِيرٞ﴾ أربعَ مرّاتٍ[3]، ولفظُ الكفر ومشتقّاته ثلاثَ مرّات[4]، فضلًا عن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ إذ تكرَّر أربعَ مرّاتٍ[5]، وكذا الفعلُ ﴿قُلۡ﴾، فإنَّه ورد ستَّ مرّاتٍ[6]، ولفظةُ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ وردت ثلاثَ مرّاتٍ[7]. وقد كثر في السّورة ذِكْرُ الأسماء الموصولة الخاصَّة والعامَّة؛ إذ وردت

(1) الآيات: 2، 3(2)، 14.
(2) الآيات: 3، 4 (مرَّتين)، 19، 23.
(3) الآيات: 8، 9، 17، 26.
(4) الآيات: 6، 20، 27.
(5) الآيات: 3، 19، 20، 29.
(6) الآيات: 23، 24، 26، 28، 29، 30.
(7) الآيات: 5، 10، 11.

نحو تسعَ عشرةَ مرَّة[1]، وكذلك الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ ورد نحو عشْرِ مرّاتٍ[2]؛ مفيدًا القَصْرَ أو الإظهارَ في موضعِ الإضمارِ.

ثانيًا: امتازَت السّورة الكريمة باشتمالِها على عددٍ من أسماءِ اللّٰه تعالى وصفاتِه الفعليَّةِ، فمن الأسماء: القدير، والعزيز، والغفور، والعليم، والبصير، والرَّحمن، والرَّبُّ، ومن صفاته الفعليَّة: الخلقُ، والتَّزيين، والرِّزق، والنُّشور، والإمساك، والإنشاء، والذَّرء، والجَعْلُ، وغيرها.

ثالثًا: ظَهَرَ في السّورة الكريمة كثرةُ أسلوبِ الاستفهام التَّقريريِّ والإنكاريِّ فيها؛ إذ ورد نحو ستَّ عشْرَةَ مرَّةً[3]، وهذا متَّسقٌ مع محور السّورة في بيان مظاهِرِ قُدْرَةِ اللّٰه تعالى في الأكوانِ.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة الطِّباق فيها، كالذي بين الموت والحياة، والسَّماء والأرض، والإسرار والجهر، وصافّات ويقبضن، والمُكِبِّ على وجهه والسَّويِّ، والإهلاك والرَّحمة، والغَور والمَعين، وغيرها.

خامسًا: امتازَت السّورة الكريمة ببروز ظاهرة التَّقديم لما حقُّه التَّأخير فيها، ولا سيَّما في أشباه الجمل، مثل: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، ﴿يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وغيرها الكثير.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بوفرة أساليبِ القَصْرِ فيها، مع تنوُّع طُرُق القصْرِ، وذلك بـ (إنَّما)، والاستثناء بعد النَّفي، وتقديم ما حقُّه التَّأخير، وبعض حروف العطف، وتعريف طرفَي الإسناد.

سابعًا: أكثرت السّورة الكريمة من تناوُلِ الحقل الدَّلاليِّ المتعلِّق بالعذاب، مثل: ﴿رُجُومًا﴾، و﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، ﴿شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾، ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، ﴿خَزَنَتُهَآ﴾، ﴿فَسُحْقًا﴾، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(1) الآيات: 1، 2، 3، 6، 12، 14، 15، 16، 17، 18، 20، 21، 22، 23، 24، 27، 28، 29، 30.

(2) الآيات: 1، 2، 4، 14، 15، 20، 23، 24، 29 (مرَّتين).

(3) الآيات: 2، 3، 8، 14، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22(2)، 25، 28، 29، 30.

ثامنًا: تميَّزت السّورة الكريمة باشتمالِها على موادَّ في أبنيةٍ صرفيَّة لَم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿تَفَٰوُتٖ﴾، ﴿فُطُورٖ﴾، ﴿خَاسِئٗا﴾، ﴿حَسِيرٞ﴾، ﴿شَهِيقٗا﴾، ﴿تَفُورُ﴾، ﴿تَمَيَّزُ﴾، ﴿نَعۡقِلُ﴾، ﴿وَأَسِرُّواْ﴾، ﴿ٱجۡهَرُواْ﴾، ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾، ﴿ذَلُولٗا﴾، ﴿مُكِبًّا﴾، ﴿زُلۡفَةٗ﴾، ﴿سِيٓـَٔتۡ﴾، ﴿أَهۡلَكَنِيَ﴾، وغيرها.

تاسعًا: وفرةُ الأنساق التَّعبيريَّة الَّتي لم تتكرَّر في غيرها، مثل: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾، ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾، ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾، ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾، وغيرها.

عاشرًا: انفرَدَت السّورة الكريمةُ بذِكْرِ ألفاظٍ لم تتكرَّر في غيرها من السّور، من ذلك لفظ: (سُحْقًا) في قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 11]، ومنها: (المَناكِب)، الَّذي ورَدَ مضافًا إلى الأرض في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]، ومنها: (مُكِبًّا)، وهو من الكبِّ لا من الكبكبة، والكبُّ لم يرد إلّا في هذه السّورة، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: 22]، بخلاف لفظ الكَبْكَبةِ، فإنَّه ورد في قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ [الشعراء: 94].

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الملك متَّصلة أتمَّ الاتِّصالِ بسورة التَّحريم مضمونًا وأسلوبًا

ورَدَت سورةُ الملكِ في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورةِ التَّحريم، وفي ذلك تناسُبٌ من وجهين، عامٍّ وخاصٍّ.

فأمّا الوجهُ العامُّ؛ فهو أنَّ سورة الملك تؤكِّد مضمون سورة التَّحريم في جُمْلَتِها، وذلك أنَّ سورة التَّحريم تبيِّن قُدْرَةَ اللّهِ تعالى

وهيمنَتَه وتأييدَه لرسوله محمَّدٍ ﷺ في حالٍ لَهُ عَرَضَتْ مع بعضِ نسائِه، وسورة الملك توضِّح بوجهٍ عامٍّ أنَّ الله تعالى بيده ملك السَّماوات والأرض ومن فيهنَّ، وأنَّه القديرُ على كلِّ شيءٍ.

وأمّا الوجهُ الخاصُّ؛ فهو أنَّه تعالى ذَكَرَ في أواخر سورة التَّحريم مثالَيْنِ فَريدَيْنِ متمثِّلين بامرأتي نوح ولوط للكافرين، وبامرأة فرعون المؤمنة، ومريمَ العذراء البتول للمؤمنين، وأمّا سورةُ المُلْكِ؛ فتدلُّ على إحاطة عِلْمِ الله تعالى وتدبيره وإظهاره في خَلْقِه ما يشاء من العجائِبِ والغرائب؛ فإنَّ كُفْرَ امرأتي نوحٍ ولوطٍ لم يمنع اتِّصالهما بنبيَّين كريمين، وإيمانَ امرأة فرعون؛ لم يضرَّ به اتِّصالها بفرعون الطّاغية الجبّار العنيد، كما لم يزعزع إيمانَ مريم حمْلُها غيرُ المعهود بعيسى عليه السلام[1].

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 5 - 6.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تقريرُ سلطان الله تعالى في هداية الخلقِ وإهْلاكِهم

لمّا ضرب الحقُّ ﷻ مَثَلَ الكافرين بامرأتين، كانتا تحت نبيَّين، فلم يغنِ عنهما صلاحُ الأزواج، ومَثَلَ المؤمنين بآسيةَ ومريمَ، وقد أحاط بهما الكفرُ من كلِّ جانب، ومع ذلك بلَغنَ أعالي الجِنان، وكان في ذلك إشارةٌ بالغة إلى أنَّ الهداية والضَّلالة، والنَّعيم والشَّقاء، ليست بأسبابِ النّاس، ولا بالأحسابِ والأنساب، ولكنَّها بعلم اللّه وقضائه، وتصرُّفه في ملكه بما شاء على ما سبق به قضاؤه - ناسَبَ أن تُفْتَتَح سورةُ الملك بالتَّنزيه التّامِّ، فقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، أي: تعاظم شأنه، وجلَّ سلطانُه، لا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون، يحكمُ بين عباده بما سبق به علمُه، وجرت به مشيئتُه، فمَن أعرض عن اللّه؛ قصَمَهُ سبحانه، وأهلكه، فلم يُغْنِ عنه أحد، ومن أقبَلَ على مولاه بقلبٍ سليم؛ رفعه، واستخلصه، ولَم يَضُرَّه أحد[1].

تنزيه الله ﷻ عن صفات المخلوقين

ولمّا خُتِمت سورة التَّحريم بالحديث عن مريمَ ابنةِ عمرانَ؛ جاءت سورةُ الملكِ مُناسبةً لها؛ مِنْ حيثُ إنَّ كلمة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعني تنزيهَ اللّه ﷻ عن صفات المخلوقين، كالولَد، وذلك مُشعِرٌ بأنَّ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تنفي ما ادَّعاه النَّصارى بأنَّ عيسى ابنُ اللّه، فـ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعني: تعالى، وتقدَّس، وتعاظم، وارتفع، وتبرَّأ عن الولدِ والشَّريك[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَٰرَكَ﴾: (برك) تدلُّ تصريفاتُها على ثبات الشَّيء، ثمَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 219، والبقاعي، نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 217.
(2) الدينوري، تفسير ابن وهب: 2/ 423.

يتفرَّع ذلكَ فروعًا يُقارِبُ بعضُها بعضًا[1]، والمعنى المحوريُّ هو: ثباتٌ واستمرارٌ مع لطفٍ[2]، و(تبارك): فِعلٌ ماضٍ لا يتصرَّف، وأصله: مِنَ البَرْك، وهو صَدْر البعير؛ إذا أناخَ في مَوضِعٍ، فلَزِمَهُ، وثَبَتَ فيه، واعتُبِر منه معنى اللُّزوم، فاشتُقَّ منه: البرَكَة، وهي بمعنى: الثُّبوت والكَثْرة، أو النَّماء والزِّيادة والاتِّساع في الشَّيء والحال، بحيث يبقى، وتَدوم منفعتُه أطولَ مُدَّة، فلا ينفَدُ سريعًا، وغلَب إطلاقُها على ثُبوتِ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، وقيل لكلِّ ما يُشاهَد منه زيادَةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركةٌ[3]، والمعنى هنا: تعاظَمَ، وتعالى، وتَنَزَّه، وتقدَّسَ، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تمجيد الـرَّبِّ العظيم بتفرُّده في الملك والتَّدبير

مَجَّد اللَّه تعالى نفسه بملكه وقدرته، فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: تعاظم، وتقدَّس من انفرد بمُلك الأكوان، لا يُشاركه في سلطانه أحد، ولا ينازعه في أمره مخلوق، يجري قضاؤه على وفْق علمه، ويقضي في ملكه بما شاء، متى شاء، كيف شاء؛ فله الأمر كلُّه، وله الحكم أجمعه، لا يُعقِّبُ حكمه، ولا يُردُّ قضاؤه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستهلال في السورة الكريمة:

التَّمهيد لمقاصد السُّورة، من التَّنزيه والإثبات، والرَّدِّ على ضلال المُشركين

افتتح اللَّه تعالى سورةَ الملكِ بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فكان في هذا المَطْلَعِ الشَّريف تعريفٌ للمؤمنين بجلال ربِّهم، وإشعارٌ بعظمته وكمال سلطانِه، وتفرُّده بالملك الحقِّ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برك).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (برك).

(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (برك).

(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 505، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 229.

(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 505، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 205، 206، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 176، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.

الذي لا يعتريهِ زَوالٌ، ولا يُشارِكُه فيه أَحَدٌ. وفيه دعوةٌ إلى التَّأمُّل في إحكامِ خَلْقِه، وإتقانِ صُنْعِه، الدّالِّ على انفراده بالألوهيَّة، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فجاء هذا الاستهلالُ البليغ مُمهِّدًا لمقاصد السّورة، من التَّنزيه والإثبات، والتَّنبيه على ضلالِ المُشركين الذين نسَبوا إلى اللّه الشُّركاء في تدبير الكون، وعَطَّلوا بعضَ صفاتِه وأفعالِه - فجاءت السّورة من أوّلها إلى آخرها تدور حول رَدِّ هذه المزاعم، وتقرير كمالِ اللّهِ في ملكِه وقدرتِه، وعلمِه وحكمته، وكان مطلعُها براعةَ استهلالٍ تُمهِّد لهذا المقصدِ الجليل[1].

بلاغة التَّعبير بالبركة دون غيرها مِن ألفاظ الوَفْرة والنَّماء:

الإشـــارة إلى الوصف المختصّ بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى

البركة: كثرة الخيرِ ودوامُه، ولا أحد أحقُّ بها وصفًا وفعلًا من اللّه جل جلاله، فهو وحده الذي تبارك وتعالى، وقد فُسِّر قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ بمعانٍ متعدِّدة، فقيل: تعاظَم، وقيل: تقدَّس، والقداسَةُ هي الطَّهارة، وقيل: معناه كثُر خيرُه، ودام، فهو سبحانه مصدرُ كلِّ بركةٍ، وباسمه يُبارَك في كلِّ شيءٍ، والبركَةُ على نوعين:

أحدهما: بركةٌ من فِعْلِ اللّه عز وجل، والفعل منها: (بارك)، وقد يتعدّى بنفسِه، أو بـ(على) أو بـ(في)، ويكون المفعول منهُ: (مباركًا)، أي: مَن جعله اللّه مباركًا بفضله، كما قال في عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 31]، فكلُّ مَن بارك اللّهُ فيهِ أو عليه، فهو المبارك حقًّا.

وأمّا النَّوع الثّاني: فهي البركة التي تُضاف إلى اللّه إضافةَ الصِّفة المختصَّة به، كما تضاف إليه الرَّحمة والعزَّة، ولفظها: (تبارك)، وهذا لا يُطلق إلّا عليه سبحانه، ولا يصحُّ لغيره، ولهذا لا يُقال لمخلوق: (تبارك فلان)؛ لأنَّ هذا وصف مُختصٌّ بجلاله، وقد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 7.

أطلَقَ اللّهُ تعالى هذا الوصفَ على نفسه في غير ما موضِعٍ، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54][1].

فكان التَّعبير بالبركَةِ دون غيرها من الألفاظِ؛ لكثرة المعاني المندرجةِ تحت هذا اللفظِ، ولاختصاصه باللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بلاغة التَّعبير بالفعل ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الـدَّلالـة على ثـبـوت الـوصف لله تعالى ثبوتًا راسخًا في ذاتهِ وصفاته وأفعاله

فعل ﴿تَبَٰرَكَ﴾ لا يُشتقُّ منه مضارعٌ ولا أمرٌ ولا مصدر، ولا يُستَعمل منه اسمُ فاعِلٍ أو مفعول، بل جاء بصيغة الماضي فقط، دالًّا على ثبوت الوصْفِ للّه تعالى ثبوتًا راسخًا في ذاته وصفاته وأفعاله، بركةً لا يُدانيها شيء، ولا تليق إلّا بالملك العظيم، فإذا كان العبد، يوصف بالمُبارك لكثرةِ خيرِه ونفعه؛ فاللّه تَعَالَىٰ أحقُّ أن يكون متباركًا؛ إذ كلُّ خير في الوجود من فيضِهِ وإحسانه. وفعل ﴿تَبَٰرَكَ﴾ يدلُّ على عظمة اللّهِ، ورفعة شأنِه، وسعَةِ خيره، ودوام كماله؛ لذا يُستعمل غالبًا لافتتاحِ الحديث عن جلاله وكبريائه[2]، وقد فرَّق اللُّغويّون بين (بارك) التي تُستَعمل للبشَرِ، و(تبارك) التي اختصَّ اللّه بها، فلا تُقال لغيرهِ.

نكتة التَّعبير عن البركة بصيغةِ التَّفاعل:

الـدَّلالـة على الكمال المُطلق، والإنباء عن أتمِّ وجوه التَّعظيم

صيغة ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ دلالةٌ على المُبالغة في تَحقُّق الفعل، وعلى كثرة الخيرات وتضاعُفِها، وقد جاء هذا اللَّفظ مقتَضيًا عمومَ الكمال، فكلُّ صنف من أصناف الكمال والخير ثابت للّه تعالى، لا يشذُّ منها وصف، ولا يتخلَّف منها نوع؛ إذِ الكمالُ المُطلق صِفته وكلُّ وفرة من الكمال ثابتَةٌ للّه تعالى[3]، فاللَّفظة دالَّة على الكمال المُطلق، ومُنبئة عن أتمِّ وجوه التَّعظيم، ولعظيم شأنِها وتمام معناها؛ لَم يَصِحَّ إطلاقُها على غيره سبحانه؛ إذ لا يليقُ وصفُها إلّا بمَنْ له الكمالُ وحدَهُ، وهو اللّه تَعَالَىٰ.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/ 186.
(2) ابن القيم، جلاء الأفهام، ص: 304.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 9.

إفادة نماء الخيرات التي يُفيض بها سُبحانه على خلقه

وباعتبار ما يُفيضه اللّه تعالى على خلقه من صنوف الخيرات، وكثرة ما ينزله من ألوان الإنعام؛ جاز أن تُفهم صيغة ﴿تَبَارَكَ﴾ على جهة إفادة نماءِ تلك الخيرات وازديادها شيئًا فشيئًا، بحسب تجدُّدها أو تجدُّد أسبابها في الكون[1]، فجميعُ البركاتِ صادرةٌ عنه ﷻ، غيرَ أنَّ هذا المعنى مضمَّن في لفظ الصِّفة لا مصرَّح به، أمّا المصرَّح به صراحةً؛ فهو علوُّه واستحقاقُه التَّعظيمَ والتَّنزيهَ[2]، وفي هذا مُناسبةٌ لِما ورَدَ في السّورة من تَعداد نعم اللّه على عباده وتنزيهه تعالى عن النَّقص في ربوبيَّته.

الـدَّلالـة على تَمكُّنِ الصِّفة في الموصوف وثباتِها فيه

ومِن فوائدِ استِعمالِ البركَةِ بصيغَةِ (تفاعُل)، الدَّلالةُ على تَمكُّنِ الصِّفة في الموصوف، وثباتها فيه ثباتًا لا يُمكِنُ أن يزعزعها عن ذلك الموصوفِ.

دلالَةُ صيغَةِ التَّفاعل بين الخبريَّة والإنشائيَّة:

الإخبارُ عن عظمة اللّه تعالى وكمالِهِ، وتعليمُ العبادِ كيفَ يُثنون عليهِ ويمجِّدونه

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون إخبارًا خالصًا عن عظمة اللّهِ تعالى وكماله، كما يجوز - مع ذلك - أن يكونَ مُتَضمِّنًا لإنشاءِ الثَّناء من اللّه على نفسِهِ العليَّة، كما في قول: (سبحان اللّه) أو (تعالى اللّه) بنيَّة تمجيده، لا مُجرَّد الإخبار عن صفاته، وفي هذا الوجه تعليمٌ للعباد كيف يُثنون عليه، ويمجِّدونه؛ فهو إمّا كنايَةٌ بالجُملة عن إنشاءِ المدح، وإمّا استعمالٌ لصيغةٍ تَحتَمِلُ الإخبارَ والإنشاء في آنٍ واحد بأسلوب بليغ لا يتأتّى بغير هذا اللَّفظ؛ إذْ لو جاء التَّعبير بصيغةٍ خاصَّة بأحدهما فقط؛ لفُقِدَ الجَمْعُ البيانيُّ البديعُ الذي تضمَّنه هذا التَّركيب القرآنيُّ المُعجِز[3].

بلاغَةُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ المُفْرَدِ المُذكَّر:

الإيحـاءُ بالعظمة، والتَّأكيد على اختصاص اللهِ وحدَهُ بالمُلْكِ المُطْلَقِ

لمّا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهوَ لفظ يدلُّ على عظمةٍ متناهيةٍ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.
(2) المجاشعي، النُّكت في القرآن الكريم: 1/ 505.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 9.

وخيرٍ دائم لا يُدانيه خيرٌ؛ جاءَ بيانُ الفاعلِ بصيغةٍ تُعظِّم، وتُفَخِّم، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، ولم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ هنا: (تبارك اللّه) أو (تبارك الملك) مباشرةً؛ لأنَّ صيغة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ تحمِلُ في طيّاتها التَّعظيمَ، وتوحي بأنَّ مَن بيده المُلْكُ هو الموصوفُ وحده بالقُدرة المطلقة.

واستخدامُ الاسمِ الموصول بدلَ الاسم الظّاهر يُفيد التَّفخيمَ والتَّعظيم، كما تقول عن ملكٍ عظيم: "قال الذي يجلس على العرش"، فالصّيغة توقِظُ في السّامع الهيبَةَ، والتَّوحيدَ؛ لأنَّه لم يقل: (الملِك)، فقد يُشارِكه في الاسمِ غيرُه، بل قال: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: لا يُشاركه فيه أحدٌ، فجاء التَّعبير بالموصولِ؛ ليَكونَ جامعًا للمعنى، مانعًا من المُنازعة، ففي هذا الأسلوب إيحاءٌ بالعظمة، وتأكيدٌ على اختصاصِ اللّه وحده بالملك المُطْلَق[1].

صرفُ الانتباهِ إلى مَضمونِ الصِّلة

وأيضًا فقد جاء التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ بدلًا من الاسم الأحسَنِ (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾؛ لمُناسبة سياق الآية؛ إذ أُريد صرفُ الانتباه إلى مضمون الصِّلة، وهو تفرُّد اللّه بالملكِ المطلق، فهذا هو موطِنُ العِبرَةِ ومحلُّ التَّمجيد، فالموصول هنا يُفيد أنَّ ما بعده صفةٌ مشهورةٌ لصاحبها، مِمّا يُغني عن التَّصريح باسمه؛ إذ لا يُشار إلى مَن بيده الملك المطلق إلّا إلى اللّه تعالى، فصار ذِكْرُ الصِّلة دالًّا عليه بذاته، ومؤكِّدًا لتفرُّده بما لا يشاركه فيه أَحَدٌ[2].

فائدةُ مجيء صِلة الموصول جُملةً اسميَّة:

عُبِّر بجملة الصِّلةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ جُملةً اسميَّة؛ للدَّلالةِ على الثَّبات والدَّوام والاستمرار؛ إذ الجملُ الاسميَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.

تُفيد الاستقرارَ والثُّبوت، فكأنَّهُ قيل: كما أنَّ بركته دائمةٌ لا تنقطع؛ فكذلك مُلكه دائمٌ لا يزولُ.

سِرُّ تقديم خبر صِلَةِ الموصول على المبتدأ:

تقريرُ اختصاص الله وحده بالملك الحقيقيِّ ونفيُ الاعتداد بكلِّ مُلكٍ سوى مُلك الله تعالى

تقديمُ شِبه الجُملة ﴿بِيَدِهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ يُفيد القصرَ والاختصاص، فكأنَّه قال: (بيده وحده الملكُ دونَ غيره)، أو (اختصَّ بالملك دون سواه)[1]، وهذا القصرُ قصرٌ ادِّعائيٌّ، يُراد به نفيُ الاعتدادِ بكلِّ مُلكٍ سوى مُلك الله تعالى؛ إذ لا يُعتدُّ بما يبدو من تمليك الملوكِ والخلفاء للأقاليم والبلدان، فهو مُلْكٌ منقوصٌ، لا يُحيط بجميع الأشياء، وهو مُعرَّض للزَّوال والفناء، بخلاف مُلك الله تعالى، فهوَ المُلك الكاملُ الثّابت الذي لا يزول، وهو وحدَهُ المَلِكُ الحَقُّ، كما قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [طه: 114]، وما يراه النّاس من مُلك غيرِه إنَّما هو وهمٌ لا حقيقةَ له[2].

بلاغة التَّعبير بـ (أل) في ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾:

الـدَّلالـة على أنَّ مـلك الله سُبحانه هو المُلكُ الحقيقيُّ المُطلقُ الشّاملُ كُلَّ شيء

جاء لفظ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ معرَّفًا بـ(أل)، وهي إمّا للعهد، أي: المُلكُ الإلهيُّ المُطلق المعروفُ، كما في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: 26]، وإمّا للجنس أو للاستغراق، فتُفيد شمولَ كُلِّ أنواع المُلك، فكلُّ ما يُعدُّ ملكًا فهو داخلٌ في هذا اللَّفظ، ما دام التَّعريفُ للاستغراقِ أو للجِنْس. ومع أنَّ القرآن أثبَتَ نوعًا من المُلكِ للمخلوقين، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: 6]، إلّا أنَّ هذا ملك نسبيٌّ ناقص، مُقيَّد بحدودِ الزَّمان والمكان، ومربوطٌ بإذْنِ الشّارع، فلا يملِكُ الإنسان أن يتصَرَّف فيه كما يشاء، بل وفْقَ ما شَرَعَهُ الله، ومنع التَّبذير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 11، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 10.

والإتلاف، كما في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: 5]، أمّا ملك الله سُبحانه؛ فهو الملكُ الحقيقيُّ المُطلق، الشّامل كُلَّ شيء، يتصرَّف فيه بما شاء، لا يُسأل عمّا يفعل، والخَلْقُ يُسألون[1].

سِرُّ إضافة اليدِ إلى الله تعالى، وبلاغة الكناية في التَّعبير بها:

إثبات الصِّفة الذّاتيَّة لله تعالى على الوجه اللّائق مع الدّلالة على لوازمها

إضافة (اليد) إلى الله تعالى في قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فيها إثبات صفة اليدِ لله تعالى على وجهٍ يليق بجلاله، فهي من صفاتهِ الذّاتيَّة الثّابتة، وهو المذهب الذي عليه السَّلفُ[2]، وفيها مع المعنى الأصليِّ كناياتٌ، ففيها كنايةٌ عن القوَّة والقدرة المُطلقة، فهو سبحانه بيده وحدهُ مقاليد كُلِّ شيء، يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، يحيي ويميت، يُغْني ويفقر، ويقضي في الخَلْقِ بما يشاء[3].

وفيها أيضًا كنايةٌ عن الملكِ التّامِّ والتَّصرُّف الكامل في الكون[4]، وعن الإحاطةِ والقهر لكلِّ شيء[5]، كما أنَّها تدلُّ على استغناء الله المُطلق عن الخلق، وافتقار الخلق المطلق إليه[6].

سِرُّ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

بيانُ أنَّ المُلْكَ الّذي بيدِهِ سُبْحانَهُ ليس مُلكًا مع عجز، بل هو ملكٌ صادِرٌ عن قُدرة مُطلقة

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إمّا أن تكونَ حاليَّةً، فيكون قوله: (هو على كل شيء قدير)، معناه: حالَ كونِهِ مُشتملًا على طلاقةِ القُدرة، أو حالَ كونه على كلِّ شيء قدير، وإمّا أن تكونَ الواوُ عاطفَةً على جملة: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، والتَّقدير: (الذي هو على كلِّ شيء قدير)، فتكونَ جملةُ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفةً على جُملة: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وهذه جملة اسميَّة معطوفة عطفَ جملةٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 10، والعثيمين، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين: 1/ 19.
(2) القنوجي، فتح البيان: 14/ 229، وقاسم، عقد الجمان: 1/ 1210.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 11.
(4) المنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 281.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 220..
(6) الكوراني، غاية الأماني: 1/ 195.

على جملة، فيكونَ سِرُّ التَّعبير بالواوِ هو التَّشريك بَيْنَ الجملتين في حدوثِ البركة أو في وجود البركةِ بين المالك والقديرِ، أو بين المالكِ وصاحب القُدرة، وهما واحدٌ بين المالك المقتدر الموصوف بالملك وبالقدرة في وقت واحد، فلمّا كان المُتصرِّف في الملك قد يَعْتَريه عَجْزٌ، أكَّد الله تعالى كمالَ ملكِه بعموم قُدرته، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ ليُظْهِرَ أنَّ المُلك الذي بيده ليس مُلكًا مع عجز، بل هو ملكٌ صادرٌ عن قدرة مطلقة، فلا يتخلَّف عن إرادته شيءٌ(1).

تقريرُ مضمونِ الصِّلة وإفادة جَريانِ أحكام ملكِهِ تَعالى في جلائلِ الأمور ودقائقِها

كما أنَّ جُملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ليست تأكيدًا مجرَّدًا لمَعْنى ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، بل هي تعميمٌ بعد تخصيصٍ، فهي مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الَّتي هي صِلةُ الموصولِ، وهي تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ لتَكميلِ المقصودِ مِن الصِّلةِ. وهي مُقرِّرة أيضًا لمضمونها، مُفيدةٌ جريانَ أحكامِ مُلْكِه تعالى في جلائلِ الأمور ودقائقها(2)؛ إذ أفادتِ الصِّلةُ عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ، وأفادتْ هذه عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ والمعدوماتِ؛ بالإعدام للموجوداتِ، والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مُفيدًا مَعنًى آخَرَ غيرَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وتكونُ هذه الجُملةُ تَتميمًا للصِّلةِ، وفي معْنى صِلةٍ ثانيةٍ، ثمَّ عُطِفَت، ولم يُكرَّرْ فيها اسمُ مَوصولٍ(3).

فائدة التَّعبير بالضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

تأكيد انفراد اللهِ تعالى بالألوهيَّة ونفي كُلِّ صفات النَّقص عنه

الضَّمير الأوَّل في ﴿بِيَدِهِ﴾ راجعٌ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، والضَّمير (هو) في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جيء به على هذا الوضع على

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 219.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 92.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 526 - 527، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 11.

الأصل من جِهَةٍ، وللدَّلالة على انفراده ﷻ بالملك من جهةٍ أخرى[1]، فجيء بالضَّمير مُفردًا مُذكَّرًا مواطِئًا لاسم الموصولِ المُفرد المُذَكَّر، وتأكيدًا لانفراد اللّهِ تعالى بالألوهيَّة ونفيِ كُلِّ صفات النَّقص عنه، كما يدَّعي المشركون وأهلُ الكتابِ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

الـدَّلالـة على العموم المُطلق الـذي لا يدخل التَّخصيص

لَفْظُ ﴿كُلِّ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ يدلُّ على العموم المُطلق، ويُفيد شمول القُدرة لِكُلِّ شيء من غير استثناءٍ، فيشمل الموجوداتِ والمعدوماتِ مِمّا وُجِدَ، ومِمّا لم يوجد[2]، الكُلّيّاتِ منْها والجزئيّات، ما كانَ وما سَيكونُ.

سِرُّ إضافَةِ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾:

تمكُّنُ العموم في كُلِّ جُزئيّاته بحيث لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يدخله نوعٌ من التَّخصيص

لفظُ ﴿كُلِّ﴾ يدلُّ على العموم، ولفظُ ﴿شَيۡءٖ﴾ دالٌّ عَلى العموم في النَّفي نَصًّا، وفي الإثبات ظاهرًا، فدلالتُه على العموم دلالَةٌ قطعيَّة في سياق النَّفي، فتقول: لا شيءَ إلّا واللّهُ يعلَمُه، ولا شيءَ إلّا تحتَ قُدْرَةِ اللّهِ، فما من شيءٍ إلّا واللّهُ يُدْرِكُ خَفاياهُ، فلفظُ (شيء) في الإثباتِ تَدُلُّ على العموم ظاهرًا في الغالب، وتَدُلُّ في النَّفي على العموم قَطْعًا لا احتمالًا؛ لعدَمِ العُموم فيه، فَلَمّا أُضيف لفظ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٖ﴾؛ كان المرادُ العمومَ القطعيَّ الذي لا يمكنُ أن يدخلَهُ التَّخصيصُ، ومنشأُ ذلك: أنَّ لفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ أعمُّ ألفاظ اللُّغة العربيَّة، وقد أُضيف إليهِ أقْوى الألفاظ في العمومِ، وهو لفظُ ﴿كُلِّ﴾، فدَلَّ ذلك على تَمَكُّنِ العموم في كُلِّ جُزئيّاته.

فائدةُ تنكير كلِمَة ﴿شَيۡءٖ﴾:

إفـادة العموم الدّالِّ على سَعة القُدرة الإلهيَّة وشُمولها

نُكِّر لفظُ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للدَّلالة على العمومِ، كأنَّه قال: (وهوَ على كلِّ شيءٍ - كبيرٍ أو صغيرٍ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 219.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 219.

عظيم أو حقيرٍ، مُتصوَّر أو غير متصوَّر، موجودٍ أو معدوم - قديرٌ)، وهذا يدلُّ على سعة القدرة الإلهيَّة وشُمولها لِكُلِّ ما يُطلَق عليه اسمُ شيءٍ بلا استثناءٍ.

دلالةُ تنكير كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾:

قدرةُ اللهِ تَعالى لا مُنْتَهى لِكمالِها

نُكِّرت كلمةُ ﴿قَدِيرٌ﴾، وهي خبرُ المبتدأ (هوَ)؛ إذ التَّقدير: (وهوَ قدير على كُلِّ شيء)؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم، وعلى كُلِّ المعاني التي تدور حول هذَيْنِ المَعنَيَين، فهو قديرٌ تامُّ القدرة[1]، قدرةً لا يُمكِنُ أن يُكتَنَه كُنْهُها، ولا أن يُعرَف حَجْمُها.

بلاغةُ تقديم متعلّق الخبَر:

إثباتُ عموم القُدرة لله تعالى واختصاصه بهذه الصِّفة دون غيره

قُدِّمَ متعلِّق الخبرِ - وهو شبه الجملة - ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لإفادَةِ شمول القدرة الإلهيَّة وعمومها على كُلِّ شيء واختصاصه تعالى بذلك، فلو كان تركيبُ الجُمْلَةِ عَلى الأصلِ بلا تقديم: (وهو قديرٌ على كُلِّ شيء)؛ لكان فيها إثباتُ معنى القدرة أوَّلًا، ومن ثَمَّ إثبات شموليَّة هذه القُدرة على كُلِّ الأشياء ثانيًا، أمَّا تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ ففيه إثباتُ الشُّموليَّة لمعنى القُدرةِ، ومن ثَمَّ إسنادها للّه تعالى واختصاصه بهذه الصِّفة دون غيره، فالأذهانُ قد تتوهَّم أنَّ هناك من يُشارك المولى في صِفاته، فيأتي التَّقديم والتَّأخير؛ ليزيل هذا الوهم، ويُثْبِت معنى الصِّفة للّه تعالى بِشُمولِها وكمالها، فهو الذي يستحِقُّ أن يُفرد بالعبوديَّة والإلهيَّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى إبطالِ دَعاوى المشركين في ألوهيَّة أصنامهم، مع اعتِرافِهم بأنَّها لا تَقدِرُ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا على الإحياءِ والإماتة[2].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 219.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 11، وابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

القدرةُ صفةٌ ذاتيَّةٌ لازمةٌ لله، وهيَ قدرةٌ تامَّةٌ وشاملةٌ

بلاغة التَّعبير بصيغة فعيل في لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾:

في انتخابِ كَلِمَةِ ﴿قَدِيرٌ﴾ على وزن (فعيل) دلالة على المبالغة والثَّباتِ؛ ليُفيد أنَّ القدرة صفةٌ ذاتيَّةٌ لازمةٌ للّٰه تعالى، وهي قدرة تامَّةٌ وشاملةٌ لكلِّ شيء على الدَّوام، فلا يخرج عن سُلطانه شيءٌ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الشُّروع في تَفصيلِ بَعضِ أحكامِ المُلكِ وآثارِ القُدرة

لمّا افتُتحت السّورة الكريمة بتعظيم اللّه تعالى وإثباتِ مُلكه المُطلق وقدرته الشّاملة؛ جاءت الآية التّالية لها تُبيِّن مظهرًا من أعظم مظاهر هذا المُلك وتلك القدرة، وهو خلْقُ الموت والحياة، وهُما قطبا الوجودِ الإنسانيِّ، لا يملك أمرَهما إلّا مَن له تمامُ السُّلطان، فدلَّ خَلقُهما على سَعة القدرة، وأبان اقترانُهما على الحكمة، فالآية شُروعٌ في تَفصيلِ تجلّيات المُلك الإلهي وآثار القدرة الرَّبانيَّة، وبَيانِ ابتنائِهما على قوانين الحِكْمةِ والمَصالحِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: من الفعلِ (بلى يَبْلي)، ومنه: الابتلاء، وجذره اللُّغوي: (بلي)، وأصل معناه: يدلُّ على الامتحان، وهو الاختبار[2]، يُقالُ: "أبلاهُ السَّفرُ، وبَلَوْتُهُ: اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له، وسُمّي الغمُّ بلاءً؛ من حيثُ إنَّهُ يُبْلي الجسْم"[3]، و"البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله: المحنة، واللّه تعالى يبتلي عبدَهُ بالصُّنع الجميل؛ ليمتحن شُكْرَه، ويبلوهُ بالبلوى التي يكرَهُها؛ ليمتحن صبرَه"[4]، و"ابتلاه اللّه: اختبره، كأنَّما اختبر صبرَهُ وتحمُّلَه، ويقال أيضًا: بَلَوْته: امتحنته، ومن هذا: البلاءُ؛ الاختبارُ والمحنة والغمُّ"[5]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلو).
(4) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو/ بلى).

"والابتلاء: افتعالٌ مِن البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمُبالغة، ومعنى ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ هنا: ليختبركُم، ويمتَحِنَكُم في حال الحياةِ، ويُجازيكُم بعدَ المماتِ"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان سعةِ حِكْمَة الله تعالى وعِزَّته ومغفرته بعد بيانِ مُلْكِه وعظيمِ قُدْرَتِه

بَيَّن سُبحانه سعةَ حِكمَتِه بعد أن بَيَّن عظيمَ قدرتِه، فذَكَر أنَّه خلق الموتَ والحياة، لا على سبيلِ العبث، بل لحِكمة بالغةٍ وغاية جليلة، وهي ابتلاءُ العبادِ واختبارُهم في سلوكهم وأعمالهم؛ ليَنْكَشِفَ المُخْلِص من المُدَّعي، والمطيعُ من العاصي، والمُحسن الذي يوافق عملُه شرعَ الله تعالى، من المُسيء الذي اتَّبع هواه، فالموت مَعْبَرٌ إلى دار الجزاء، والحياة ميدانٌ للعمل والابتلاء، يجازيكم على أعمالِكم، وهو الغالبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهِرُ لجَميع المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوب عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصل هذه الآية عَمّا قبلها:

بيان بعض مظاهر المُلك الإلهيِّ وتجلّيات القدرة الرَّبّانيَّة

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّه لَمّا ذَكَرَ أنَّ بيده المُلْكَ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير؛ قيل: ما الدَّليل على ذلك؟ أو ما هي آثارُ ذلك؟ فجاء الجوابُ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾؛ ليكون ذلك داعيًا إلى العمل في الحياة والحساب بعد الموت، فالآية تمهيدٌ لبيان بعض مظاهر المُلك الإلهيِّ وتجلّيات القدرة الرَّبّانيَّة، مع الإشارة إلى أنَّ هذا المُلْكَ مُؤسَّس على نظام مُحكم من الحكمة والمصلحة، مُتَّجه نحوَ غاية سامية، وهي ابتلاءُ العبادِ وتمييز المُحْسِن من المُسيء،

(1) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 456، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 8.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 207، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 176، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.

ومن ثَمَّ الجزاء في الدّار الآخرة، فجاء التَّعبير القرآنيُّ أبلغَ ما يكون في الإرشادِ إلى تلك المعاني العظيمَةِ[1].

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والشَّهادة لله بالتَّعالي

فائدة التَّعبير بالاسم الموصول تكمُنُ في تعدُّد المعنى، و﴿ٱلَّذِى﴾ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ يجوزُ أن يكون مرفوعًا على أنَّه بدلٌ من الموصول السّابق: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ داخلٌ معه في حكم الشَّهادة بتعاليه تعالى، ويجوزُ أن يكون منصوبًا على المَدْحِ، أو أن يكون خبرًا لمُبتدأ محذوف[2]، وهذا على الاستئنافِ أحسنُ، كأنَّه قيل: من هو الذي بيده الملك، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير؟ قيل: هو الذي خلق الموت والحياة، أو أجيب بأنَّه هو الَّذي خلق الموت والحياة. ومن فوائد التَّعبير بالاسم الموصول أيضًا: التَّعظيم والتَّفخيم، كأنَّه قال: ألا تعرفون من هذا؟ هو الذي خلق الموتَ والحياةَ.

بلاغة التَّعبير بالخلق:

كونُ الخلقِ مظهرًا جليلًا من مظاهر المُلك التّامِّ والتَّصرُّف المُطلق

الخلق من دلائل الوحدانيَّة والألوهيَّة، ولذلك يكثُر استخدامه في الدَّلالة على وحدانيَّته أو ألوهيَّته، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: 35 - 36]، وقال سُبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فالخَلْقُ دليلٌ على الأُلوهيَّة والوحدانيَّة، وهو دليلٌ جامع لِصِفَتَي القدرةِ والعلم معًا، ومظهرٌ جليل من مظاهر المُلك التّامِّ والتَّصرُّف المُطلق[3].

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

بيانُ تَحقُّق هذا الفعل فيما سَبَقَ وتيقُّنه فيما يُستَقبل

جاء التَّعبير عن فعل الخَلْقِ ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لِبيان تَحَقُّق هذا الفعلِ فيما سَبَقَ، وتيقُّنه

(1) الحصني، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 282، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.

(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 17، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.

فيما يُستقبل قياسًا على ما سبَقَ، أي: خلق الموت والحياة للأحياء وللأموات، فالمتحقّقُ في الأحياء والأموات الذين مَضَوا، والمتيقَّنُ في الذين سيأتونَ بعدُ.

سِرُّ التَّعبير بالخلق في مقام ذِكرِ الموتِ والحياة:

التَّعبير بالخلق يَدُلُّ على الفناءِ وعلى النِّهاية

في التَّعبير عن الموتِ والحياة بالخَلْقِ دلالَةٌ على أنَّ كلَّ مخلوق له فناء، وعلى أنَّ الحياة والموت الذي نعيشُهُما سيفنيانِ؛ لأنَّ كُلَّ مخلوقٍ يَفْنى، فالحياةُ التي نعيشها في الدُّنيا سَتَنْتَهي بالموتِ، والموتُ سَيَنْتَهي يومَ القيامة بأن يُذبح على صورةِ كَبْشٍ[1]، فكان التَّعبيرُ بالخلق دالًّا على الفناء[2] وعلى النِّهايةِ.

دلالَةُ ذِكْرِ الخَلْقِ بعدَ الملكِ والقُدرة:

الإشارة إلى تعلُّق الخلْق بتمامِ المُلك وطلاقةِ القُدْرَةِ

من بلاغةِ مجيءِ الخَلْقِ بعدَ المُلْكِ والقُدْرَةِ الوارِدَيْن، في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، أنَّ الخلقَ تقديرٌ وإيجادٌ، يُقدِّر الشَّيء، فيوجِدُه على حسَبِ ما قدَّره، ولا يُمكِنُ أن يَحْدُثَ منهُ تقديرٌ وإيجادٌ إلّا إذا كان مالكًا للمُلْكِ، قديرًا على أعلى درجات القُدرةِ، فيكون جامعًا بين تمام المُلك وطلاقة القدرة[3].

دلالَةُ الاقْتِصارِ على ذِكْرِ خَلْقِ الموتِ والحياةِ:

كونُهما مظهرَيْنِ بارِزَيْنِ لتعلُّق القُدرة الإلهيَّة فيما يتَّصل بالذَّوات والأعراض

خَصَّ النَّظم الكريم ذِكرَ الموتِ والحياة من بَيْنِ سائر المخلوقات؛ لأنَّهما أعظمُ ما يطرأ على جِنْسِ الحيوان، وهو أبدَعُ المخلوقات الأرضيَّة، والإنسانُ واحدٌ من هذا الجنس، وهو المُخاطَب بالأوامرِ

---

(1) روى البخاري في صحيحه، برقم: (4730) ومسلم في صحيحه، برقم: (2849) - واللفظ له - أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يُجاءُ بِالْمَوْتِ يَومَ القيامَةِ، كَأنَّهُ كَبشٌ أمْلَحُ، فَيوقَفُ بَينَ الجَنَّةِ والنّارِ، فَيُقالُ: يا أهلَ الجَنَّةِ: هَل تَعْرِفونَ هَذا؟ فَيَشْرَئِبّونَ، ويَنْظُرونَ، ويَقولونَ: نَعَم، هَذا المَوْتُ، ويُقالُ: يا أهْلَ النّارِ: هَلْ تَعْرِفونَ هَذا؟ فَيَشْرَئِبّونَ، ويَنْظُرونَ، ويَقولونَ: نَعَمْ، هَذا المَوْتُ، قالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يُقالُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ خُلودٌ، فَلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النّارِ خُلودٌ، فَلا مَوْتَ».

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 257.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.

الإلهيَّة والمطالبُ بالأعمال، فالموت تَصرُّف إلهيٌّ في موجود يُعدُّ للزَّوال، والحياة تصرُّف في معدوم يُهيَّأ للوجود، ثُمَّ يُمنح الحياةَ؛ ليَكْتَمِلَ وجودُه الخاصُّ به باعتبارِهِ نوعًا مميَّزًا، ولذا فإنَّ ذِكْرَ خلق الموت والحياة ليس مُجرَّد تفصيلٍ لمَعْنى الملك، بل هو وصفٌ مستقلٌّ يَدُلُّ بنفسه على التَّصرُّف المطلق للّه تعالى في الموجودات والمعدومات، ووقَعَ الاقتصارُ على ذِكْرِ هاتين الحالَيْنِ - الموتِ والحياة - لأنَّهما مَظْهَران بارزان لتعلُّق القُدرة الإلهيَّة في ما يتصل بالذَّوات والأعراضِ، فالموتُ والحياة عَرَضانِ، والإنسان مَحَلٌّ لهما، فإذا ذُكِرَ خَلْقُ العَرَضِ - الموت والحياة - تضمَّن ذلك - بدلالة العقلِ والاقتضاء - أنَّ هُناك مخلوقًا تقومُ بِهِ هذهِ الأحوالُ[1].

بلاغة الإدْماجِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾:

الجمعُ بين بيانِ كمالِ القُدرة في إيجاد الموت والحياة، والتَّنبيه إلى الغايةِ من خلقِهِما

عبَّر النَّظم الكريم عن الموت والحياة؛ للدَّلالة على القُدرة وعلى البعثِ والنُّشور والحساب؛ لأنَّه لا يكون حياةٌ إلّا وفيها عملٌ، ولا يكون موتٌ محضٌ بلا حسابٍ، فلا بُدَّ وأن توجد حياةٌ يكون فيها الحسابُ والجزاء[2]، فجَمَعَ التَّعبيرُ بينَ بيانِ كمال القُدرة في إيجاد الموت والحياة، والتَّنبيهِ إلى الغايةِ من خَلْقِهِما، وهي الابتلاءُ المُؤَدّي إلى الحساب والجزاء، فكان اللَّفظُ الواحد حاويًا للسَّبب والمآلِ في آنٍ واحدٍ.

سِرُّ تقديم الموت على الحياةِ في الذِّكْرِ:

تقديمُ ذِكْرِ الموتِ أدْعى لإثارة الوجَلِ، وأقوى في تحريكِ الهمَّة

قدَّم النَّظمُ الكريم الموتَ على الحياةِ لحِكَم بليغة، منها: أنَّه هو المخلوق أوَّلًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فإنَّ الموتَ في عالم الملك ذاتيٌّ، والحياةَ عَرَضيَّة، فالأشياء كانت مِن عناصرَ لا حياة فيها، كالنُّطفة والتُّراب، ثُمَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 12.
(2) السّيرافي، التَّقريب في التفسير: 4/ 414.

طرأت عليها الحياة بعدُ، فكان الموتُ أسبقَ مِن حيثُ الخَلْقُ[1]. كما أنَّ ذِكْرَ الموت أوَّلًا أدعى لإثارة الوجَلِ، وأقوى في تَحْريكِ الهمَّة؛ إذْ هو أقرَبُ إلى قَهْرِ النَّفس ورَدْعِها، ومَن جَعَلَ الموتَ نُصب عينَيْهِ؛ كان أدْعى إلى إخلاصِ العمل وتَحَرّي الصَّواب، وهو الغرض الذي سيق من أجلِه الخِطاب، فجاء التَّقديم في غاية البلاغةِ والعِظَة[2].

التَّعبير بـ (أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

وفــرةُ المَعـاني وكثرَتُها بتَعَدُّدِ معاني الحُروفِ

التَّعْريفُ في لفظَي ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ[3]، أو الاستغراق، فإن كان للجِنْسِ؛ فهو إخبارٌ عن استواءِ الجميع في جنسِ الموتِ والحياة، وإن كان للاستغراق؛ دلَّت على أنَّه خَلَقَ الموت والحياة في كُلِّ حيٍّ ومَيِّت، فكأنَّها تستغرِقُ كُلَّ الأحياء والأموات، بدلالة اللُّزوم؛ فإذا خَلَقَ كُلَّ ميِّت وكلَّ حي، وخلق الحياةَ في كُلِّ حيٍّ، وخلق الموتَ في كُلِّ ميِّت؛ فيكون (أل) للاستغراقِ. وجائزٌ أيضًا أن تكونَ للعهديَّة، كأنَّ المعنى: خلَقَ الحياةَ التي تعرفونها، والموتَ الذي تعرفونه، والحياةَ التي يعيشها الإنسان، والموتَ الذي بعده، وهذا دليلٌ على أنَّه ستكونُ هناك حياةٌ أخرى بعدَ ذلك، فلمّا خلق المعهودَ عِندَكُم، وأخبركم بالموجودِ المُشاهَد المرئيِّ؛ وجَبَ عليكُم أن تُسَلِّموا بالغيب الذي لا تعرفونَه، ولا تَطَّلعون عليهِ.

بَديع الطِّباق بذِكْرِ ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

إبــرازُ تـمـامِ التَّصرُّف الإلهيِّ في الخَلْقِ إيجادًا وإعْدامًا

ذُكِرَ ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ على وجه الخصوص؛ لِما فيهما من دلالةٍ عظيمةٍ على قدرة الخالق، وعبرةٍ بالغة في تعاقُبِ حالَيْن متضادَّين على مخلوق واحد، فالموتُ والحياةُ حالانِ تَعْرِضان لجِنْسِ الحَيوان، يَعْكِسُ تقابلُهُما تمامَ التَّصرُّف الإلهيِّ، فالموتُ يُهيِّئُ الكائن للزَّوال

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 575.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 206، والطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 534، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2، 3.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.

والانقطاع، بينَما تُهيِّئه الحياةُ للبقاءِ المُؤقَّت والعملِ والتَّكليف، وفي هذا التَّعاقب المُتناوب على المخلوق تَجَلٍّ بديعٌ لكمالِ الصُّنع والإتقانِ[1].

بلاغة التَّعبير باللّام في ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ هي لامُ التَّعليلِ؛ تُبيِّن أنَّ مِن الحِكم العظيمةِ لِخَلْقِ الموت والحياة ابتلاءَ الإنسانِ، أي: اختبارَهُ في مدى إحسانِه العمَلَ، وهذا التَّعليل لا يَدُلُّ على انحصارِ الغاية فيه وحدَهُ، بَل ذُكِرَ ما يُناسِب مقام التَّذكير والتَّكليف. وقد عبَّر النَّظم الكريم عن الغايةِ بـ ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مدار الابتلاء على جودة العمل وإخلاصه وصوابه، ومَن فَقِهَ هذا المعنى؛ أدْرَكَ أنَّ الغاية من وُجودِه هي بلوغ مرتبة الإحسان، فيسعى لبلوغها بما يقرِّبه من رضا ربِّه، ويجتهد في تحرّي العمل الصّالح على وجهه الكامل؛ لأنَّ الفلاح في ذلك هو النَّجاح الحقيقيُّ في هذا الامتحان الرَّبّانيِّ[2].

بيانُ الحِكمة العظيمَةِ في خَلْقِ الموتِ والحياةِ

بلاغَةُ الإدماجِ بِذِكرِ الابتلاءِ في هذا التَّعليل الكريم:

في تعليل الخَلْقِ بقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ بلاغةُ الإدماج؛ إذ تَضمَّن النَّظم الكريم - إلى جانب بيانِ الغايةِ من خَلْقِ الموت والحياة - تقريرًا ضمنيًّا لوحدانيَّة اللّه تعالى ودلالةً باهرةً على حِكْمَتِه، وذلك مِن خلالِ استِدعاءِ النَّظر في النَّفس الإنسانيَّة ذاتِها، التي تولَد، فتعيش، ثُمَّ تموت، وتنتقل إلى يوم الجزاء، فكان المعنى المُدمج: أنَّ اللّه سُبحانَهُ خلقَ الحياة؛ ليُعمِّر النّاسُ فيها بالصّالحات، وخلقَ الموت؛ ليُهيِّئَهم لِلقاءِ الآخرة؛ إذ توزَنُ الأعمال، وتُجْزى النُّفوس، فيكون المعنى: أنَّه خلَقَ الموتَ والحياةَ؛ ليكونَ منكم أحياءٌ يَعمَلونَ الصّالحاتِ والسَّيِّئات، ثمَّ أمواتًا يَخلُصونَ إلى يوم الجزاءِ، فيُجْزَونَ على أعمالِهم بما يُناسِبُها، وهو استدلالٌ بليغ على

خُلِقَت الحياةُ ليعمر النّاسُ فيها بالصّالحات، وخُلِقَ الموتُ تهيئةً لهم لِلدّارِ الآخرة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.

(2) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 171، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.

الوحدانيَّة من داخلِ النَّفس البشريَّة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21]؛ إذْ نِظامُ الابتلاءِ والجزاء لا يكون إلّا عن تدبير إلهٍ واحدٍ حكيم[1].

سِرُّ التَّعبير بالبلاء دون غيرِهِ مِنَ الألفاظ:

إظهار ما عند النّاس من العملِ بالاختبار

معنى قولِه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أن يُعامِلَكُم - وهو أعلَمُ بكُم مِن أنفُسِكُم - مُعاملةَ مَن يَخْتَبِرُ غيرَهُ؛ ليُظْهِرَ ما عندَهُ مِنَ العمَلِ بالاختبار[2]، ولذلك قال: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾، فالبَلاءُ مِن جهة العملِ، وليس من جهة أُخرى، والبلاء اختبارٌ فيهِ بليَّة، ولذلك قُدِّم الموتُ على الحياةِ؛ لأنَّ الابتلاء أو البَلِيَّةَ في الموتِ أظهرُ وأوضَحُ منها في الحياةِ، فكأنَّه قال: إنَّ الموت هو الذي يَدْعوكُم إلى التَّسابق في العمَلِ؛ ليكون كُلُّ واحدٍ منكم أحسَنَ عملًا من غيرِه.

بلاغة التَّعبير بالفعل مُضارِعًا:

الدَّلالة على أنَّ هذا الوصف موجودٌ في كُلِّ حَيٍّ يموتُ يتجدَّد له في حياتِه

في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ جاء التَّعبير بالفعل المُضارع الذي يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرارِ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصف موجودٌ في كُلِّ حَيٍّ يموت، وفي كُلِّ مَيِّت يحيا، فإنَّ ذلك دائمٌ مُتجدِّد، فإذا مات إنسانٌ؛ تجدَّد الابتلاءُ في غيرِهِ وهكذا، ويدومُ في حياته حتَّى يموتَ هوَ، ولذلك عبَّر النَّظم الجليل بالفعل المضارع دون الماضي.

بلاغة الخطاب في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

شمولُ الخطابِ للمُؤْمِنِ والكافِرِ

افتُتِحَت السّورة بالحديثِ عن اللّه ﷻ وصفاته في المُلْك والقدرة وتمام الخلق، ولمّا كان كُلُّ ذلك يُراد به مُخاطبة الكفّار، والاستدلالُ بكلِّ ما تقدَّم، وما سيأتي على استحقاقه تعالى للألوهيَّة؛ كان الخطاب للكُفّار أو الخطاب لِكُلِّ من يصلح له الخطاب، فيشمَلُ الكافِرَ والمُؤْمِنَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 37، والحصني، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 282، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228.

ويدلُّ على أنَّ الخطاب يشمَلُ الكُفّار أيضًا ختْمُ الآية بذِكْرِ اسمه تعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لِما فيه من الإشارة إلى الجزاءِ والعقوبة؛ إذ يُفهم أنَّ الابتلاءَ المقصودَ في ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ يتَضمَّن الامتحانَ الذي يترَتَّب عليه الحسابُ والمجازاة، وهو ما يناسب حالَ المشركين الذين جحدوا حقَّ اللّه تعالى في الألوهيَّة، فشَمِلَهُم ضميرُ الخِطاب في الآيَة[1].

موقِعُ قولِه: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾، وعلَّةُ فصله عمّا قبلَهُ:

أثر الإعرابِ في تعدُّد المعاني وإبرازها

هذه الجُملة تحتَمِلُ أوجهًا عدَّةً في الإعرابِ والمَعْنى: فتحتَمِلُ أن تكونَ سادَّة مَسَدَّ المفعولِ الثّاني فيه ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾؛ لتَضمُّنه معنى العِلْم، فإنَّ الذي يبلو يعلم نتيجَةَ الابتلاء، أو يُظْهِر للمُبتلى نتيجة الابتلاءِ، فلمّا تضمَّن الفعلُ معنى العلم؛ نصبَ مفعولين[2]، ويحتَمِلُ أن تكون هي المفعولَ بنَفْسِه، وتقدير الكلام: ليبلوَكُم، فيعلَم الذين يُقال في حَقِّهم: أيُّهم أحسَنُ عَمَلًا، مثل قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾ [مريم: 69]، أي: لنَنْزِعَنَّ من كُلِّ شيعة الذين، يُقال فيهم: أيُّهم أشدُّ على الرَّحمن عتيًّا.

الفصل بالاستفهام يوحي بأهمّيَّة ما بعده، على سبيل التَّحفيز والتَّحريض

وجائزٌ أن تكونَ الجملةُ جوابًا عَن سؤالِ سائلٍ: أيُّكم أحسن عَمَلًا؟ أي: ليبلوَكُم؛ ليَعْلَم الجواب عن كُلِّ سائلٍ سأَلَ: أيُّكم أحسن عملًا؟ أو أن تكون جُملة: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ مُستأنفةً، على أنَّ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ على أصلِها، فتكون ناصبة لِمفعول واحد، ويكون الكلام مُنتهيًا عند قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، ثُمَّ استأنف كلامًا جديدًا للتَّحضيض والحَثِّ على حُسْنِ العمل، فقال: إذا كان فَعَلَ ذلكَ ليبلوَكُم؛ فأيُّكم سيكون مِن القوم أحسَن عملًا؟ وهذا يجعل الوقفَ على قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، والبدءَ بقوله: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ﴾ مُناسِبًا للمعنى[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، والمظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 20، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 146.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15.

بلاغة التَّعبير بـ (أي) في ﴿أَيُّكُمْ﴾:

تنويع الدَّلالات وتكثير المعاني من مميِّزات النَّظم القرآنيّ

(أي) مِن أعمِّ الكَلِماتِ في اللُّغة العربيَّة وأبْهَمِها، وهي تأتي موصولَةً واستفهاميَّة وشرطيَّة، وهي في الاستفهاميَّة والشَّرطيَّة أكثرُ وأوضح، وهذا مِن بلاغة القرآن الكريم، أن يَأتيَ بالكلمات التي تحتَمِلُ معانيَ عدَّة، كأنَّه قال: ليبلوَكُم؛ فتَظْهَرَ نتيجةُ: أيُّكم أحسن عملًا، فيكون استفهامًا، أو ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا؛ فيدخل الجنَّة، فتكون شرطًا، وأيُّكم أسوأ عَمَلًا؛ فيدخل النّار، فتكون شرطًا كذلك، كقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾ [النَّمل: 38]، وأمّا في الشَّرط؛ فمثل قولكَ: أيُّكم يسبقْ؛ يفُزْ، والتَّعبير بـ (أيّ) هاهنا؛ للدَّلالة على العموم، فإذا أُضيفَت إلى المعرفة - وهي الكاف (أيُّكم) - صار المعنى: أيُّ واحد منكم، فأفادت العمومَ بلا نزاعٍ، أي: كُلُّ مَن يصحُّ منه خطابهُ، وإن جاز أن تكون لخصوص الكُفّار، باعتبار التَّخويف بتقديم الموتِ على الحياة، إلّا أنَّهُ تخويفٌ لأهل الإيمانِ أيضًا، حتَّى يظَلّوا على ما هُم عليهِ مِنَ الإيمان، وحتَّى يرتفعوا في سياق الإيمان إلى الدَّرجات العُلا مِنهُ.

فائدة التَّعبير بأفعل التَّفضيل:

دعوة النّاس إلى الدَّرجات العلا في الأفعالِ، وعدَم ركونِ المؤمن إلى أدنى الحالاتِ

قولُه تعالى: ﴿أَحْسَنُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، أي: أحسَنُ عمَلًا من غيره، فالأعمالُ الحَسَنَةُ مُتفاوِتةٌ في الحُسنِ إلى أدْناها، فأمّا الأعمالُ السَّيِّئةُ؛ فإنَّها مَفهومةٌ بدَلالةِ الفحْوى؛ لأنَّ البَلوى في أحسَنِ الأعمالِ، تَقْتَضي البَلْوى في السَّيِّئاتِ بالأولى؛ لأنَّ إحصاءَها والإحاطةَ بها أولى في الجزاءِ؛ لِما يَترتَّبُ عليها مِن الاجتراءِ على الشّارعِ، ومِن الفسادِ في النَّفْسِ، وفي نِظامِ العالَم، وذلك أولى بالعِقابِ عليه، ففي قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجازٌ[1]، وفي هذه الصِّيغة دعوة النّاس إلى الدَّرجات العلا في الأفعال، وعدم رُكونِ المؤمن إلى أدنى الحالاتِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 29/ 15، والعثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 268.

سِرُّ تخصيص الابتلاءِ والمُفاضلَةِ فيما ابْتُلوا فيهِ على الأعمال الحَسَنة:

التَّنبيه البليغُ إلى ما يَنْبَغي أن يكونَ عليهِ حالُ النّاس من التَّرقّي في درجاتِ الإحسان

ورَدَتْ صيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾ مع أنَّ الابتلاء يشمَلُ جميع العبادِ بحسَبِ أعمالِهم حَسَنِها وقَبيحِها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المقصود الأساسَ مِن هذا الابتلاء هو إبراز درجة الإحسان في أعمال المحسنين، وفي هذا تحفيزٌ للمؤمنين على بلوغِ مراتِب الإحسان، لا الاكتفاء بالحدِّ الأدنى من الطّاعة، ودعوةٌ للتَّرقّي في مراتب مدارج العلوم ومدارج الطّاعات، والتَّنفير من الوقوع في نقائص الأعمال[1].

فتخصيص الابتلاء بالمفاضلة بين الأعمال الحسنةِ دونَ غيرها، تنبيهٌ بليغ إلى ما ينبغي أن يكون عليه حالُ النّاس، وهو أن يوجِّهوا هَمَّهُم إلى مجالِ الإحسان وحدَهُ، والتَّنافس بينهم في هذا المجال[2].

بلاغة التَّعبير بالتَّمييز المُحوَّل:

الدَّلالة على أنَّ أهمَّ شيء بالنِّسبة للإنسان عَمَلُه

أصْلُ الكلامِ: أيُّكُم عمَلُهُ أحسَنُ مِن غيره، وبلاغةُ التَّعبير بهِ هاهنا: الدَّلالة على أنَّ أهمَّ شيء بالنِّسبة للإنسان عَمَلُه، فلا يُنْظَرُ إلى شَكْلِهِ من طولٍ أو قِصَرٍ، وبياضٍ أو سوادٍ، ولا إلى سائر ألوانِ جَسَدِهِ وأشكالهِ وأطوارِه، وإنَّما يُنْظَرُ إلى عمله الذي يشمل كُلَّ شُعَبِ الإيمان، بدءًا من التَّصديقِ القلبيِّ بما يجبُ التَّصديقُ به شرعًا، وانتهاءً بالطّاعات والأخلاق.

بيانُ أثَرِ العمَلِ عَلى العامِلِ

ومن فوائد التَّعبير بالتَّمييز في قوله: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾، بدَلَ: أيُّكم عَمَلُه أحسنُ: أنَّ في إسناد الحُسْنِ إلى المُخاطَب المخلوقِ - دونَ إسناد الحُسْنِ إلى العمل - الدَّلالَةَ على أنَّ مَن كان عملُه أحسَنَ؛ كان هو أحسَنَ، ولو كان أسوأ النّاس مَنظرًا وأبشعهم شَكْلًا وصورةً، ومَن كان عملُه أسوأ؛ كان بخلاف ذلك، وإن كان وجهُهُ أجملَ وجسدُهُ أحسنَ، فالحُسْنُ مُتعلِّق بالعمَلِ ومُؤَثِّر في الذّات[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 3، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 198.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/ 1107.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 77.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

تكثير المعنى في سياق الابتلاء إشارة إلى الجزاء

في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ؛ إذ لم يُصرِّح بجزاء العمل، لكنْ دلَّ عليه السّياق، والمعنى: "ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا، أي: فيُثيبه، وأيُّكم أسوأُ عملًا، فيُعاقبه، فيجازيكُم على مراتبَ متفاوِتَةٍ حسَب تفاوُتِ طبقاتِ عُلومِكُم وأعمالِكم"(1)، وقد دلَّ على هذا المعنى المحذوفِ ما خُتِمَت به الآية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾؛ إذْ تُشير إلى الجمع بين الجزاءِ بالعِزَّة لِمَن استحَقَّ العقاب، والمغفرة لِمَنْ تابَ، وأحسَنَ.

دلالةُ تقديم أفعلِ التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾ على التَّمييز ﴿عَمَلٗاۚ﴾:

ما حسَّنه الشَّرع؛ فهو الحسن، وما قبَّحه؛ فهو القبيح

في تقديم ﴿أَحۡسَنُ﴾ على ﴿عَمَلٗاۚ﴾ دلالَةٌ على أنَّ مقياس الحُسن في ﴿أَحۡسَنُ﴾، أو التَّفاضل فيه، إنَّما هو باعتبارِ الخالِق، ولذلك قالوا: إنَّ الحُسن إنَّما يُدرَك بالشَّرع لا بالعقل، وما لم يرد فيه نَصٌّ؛ يُدرِكُ بالقياس على الشَّرع، ويُفهَم من العقل أيضًا، فما حسَّنه الشَّرع؛ فهو الحسنُ، وما قبَّحه؛ فهو القبيح(2)، وهذا فيما يترتَّب عليه الثَّوابُ والعقابُ، وإلّا فإنَّ اللّهَ تعالى أودعَ في العقولِ معرفةً بالحَسَنِ والقبيح، إلّا أنَّ هذه المعرفةَ المجرَّدة لا تستلزِمُ الثَّوابَ والعقابَ، وإنَّما مرجِعُ ذلك إلى الشَّرع وحدَهُ.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾:

التَّشريك في الحُكْمِ السّابق والتَّعليل له

وُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لإرادَةِ التَّشريك في الحُكْم والتَّعليل له، كأنَّه لمّا قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾، وكان قبلَ ذلك مَلِكًا قديرًا أخبَرَ أنَّه مالِكٌ ومَلِكٌ، وقادِرٌ وقديرٌ، قيلَ: هَل يَقدِرُ بعد البلاء على الحسابِ؟ قال: نَعَم؛ لأنَّه عزيزٌ لا يُغالَب، فيأخذ مَن هو أسوأ عملًا، وغفورٌ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 76، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 230.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 77، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 15.

لا يؤاخِذُ، فيأخذ مَن هو أحسَنُ عملًا بالمغفرة، فيما قَصَّر فيه من العمل، هذا على الوصلِ.

إتْباعُ الثَّناء على الله تعالى بثناءٍ آخَرَ

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ ثناءٌ آخر على اللّه ﷻ، يُبيِّن فيه ربُّنا أنَّه العزيز الذي لا يُغالَب، فهو الذي يَنْفذُ أمرُه، ولا يُردُّ قضاؤه، وهو أيضًا الغفور، واسعُ المغفرة، يغفرُ للتّائبين مهما عظُمت ذنوبُهم(1).

بلاغةُ تعريفِ الطَّرفين في المبتدأِ والخبَرِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾:

إثبات التَّفرُّد الكامل لله تعالى في عِزَّته ومغفرته

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ جاء التَّعريف في طرفي الجملةِ - المبتدأ والخبر - لإفادة القَصْرِ، أي: هو وحدَهُ العزيزُ الغفورُ، وهو المُختصُّ بالعِزَّة الكاملةِ والمغفرة الواسعةِ.

سِرُّ التَّعبير بصفة (فعيل) في ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

الدَّلالة على العِزَّةِ البالغة التي لا تُضاهى، الدّائمة التي لا تَزولُ

في التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على صيغة (فعيل) سرٌّ بلاغيٌّ بديع؛ إذ يَحْتَمِلُ أن تكون الصّيغة دالَّةً على المُبالَغةِ، أي: هوَ شديدُ العزَّة، الذي لا يُغالَب، ولا يُقهَر(2)، ويحتمل أن تكون (فعيل) صفةً مشبَّهة باسم الفاعل، فتدلُّ على الثَّبات والدَّوام، أي: الذي هو عزيزٌ في ذاته، لا تنفكُّ عنه العزَّة أبدًا، والجمع بين هذين المَعنَيَين يدلُّ على العزَّةِ البالغة الَّتي لا تُضاهى، الدّائمة التي لا تزول، وهي من خَصائِص ربوبيَّة اللّه ﷻ.

مناسبة اختيار الاسمَين الجَليلَين في هذا المقام:

تناسُبُ فواصل الآي مَعَ مَضامينِها

جاء خِتامُ الآيةِ بذِكْرِ اسمَيه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾، على نحوٍ يُناسِبُ سياقَ الابتلاء والجزاء، فـ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يدلُّ على القَهّار الغالب الذي لا يُعجزه شيءٌ، وهو أنسَبُ ما يُذكر عند الحديث عن جزاءِ مَن أعرض، أو عصى، كالمشركين الذين شَمِلَهُم الخطابُ في

---

(1) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 394.

(2) النَّسفي، التيسير: 14/ 504، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 15.

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾، فجاء ذِكْرُ العِزَّة ليُفْهَمَ أنَّ العقوبةَ واقعَةٌ لا محالةَ لِمَنْ خالَفَ، أمّا ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾؛ فهو الاسْمُ المناسب لِجانِب الرَّحمة والثَّواب؛ كنايةً عَن جزاءِ الطّائعين والمُحسنين؛ إذ يَغْفِرُ زَلّاتِهم، ويُكرمهم على طاعتهم[1]، وجَمْعُ هذَيْنِ الاسمين في السّياق يتضمَّن كمالَ عِلْمِ اللّهِ تعالى وقدرته، وأنَّه سُبْحانَهُ مطَّلع على أعمالِ العِباد، قادِرٌ على مُجازاتِهم بالعَدْلِ والإحْسان، بحَسَبِ ما يَستَحِقّون.

دلالةُ (أل) في الاسمَينِ الجَليلَين:

اللّه تعالى صاحبُ العزَّة والمغفرة، يُعزُّ مَن يشاء، ويغفِرُ لِمَنْ يشاءُ

(أل) في اسمي ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ الواردينِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾، إمّا لبيان الجنس، أي: هو صاحِبُ جنس العزَّة والمغفرة، فيُعِزُّ من يشاء، ويغفِرُ لمن يشاءُ، ويجوز أن تكونَ لاستغراق الأفراد الَّذين تتعلَّق بهما الصِّفتان، كأنَّه قال: هو الذي يغفر لكلِّ مغفورٍ له، وهو الذي يُعِزُّ كُلَّ عزيز، ويُذِلُّ كلَّ ذليل، إلّا أنَّ الأوضح أن تكون اللّام فيهما للجنس، وأمّا على كونِها للاستغراقِ؛ فَلِشُمول الأفراد الَّذين تتعلَّق بهم العزَّة إيجابًا أو سَلْبًا، إيجابًا بِتحقُّق العزَّة فيهم، وسَلْبًا بغَلابَتِهِم، وكذلك الشَّأنُ في الَّذين تتعلَّق بهم المغفرةُ.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾:

صفةُ العزيز تتعلَّق بِكُلِّ الخَلْقِ، والغفور تتعلَّق بالعبادِ

قُدِّمَ العزيز على الغفور؛ لأنَّ وصْفَ العِزَّةِ يَتعلَّق بكلِّ الخلق، بخلاف وصف المغفرةِ؛ فإنَّها لا تتعلَّق إلّا بِمَنْ يُذْنِب، وهُمُ العبادُ المكلَّفونَ الَّذين يُذْنِبون، فقُدِّم الوصفُ الأعمُّ من جهةِ متعلَّقاتها على الوصفِ، الذي هو دون ذلك في العموم، فاللّهُ تعالى هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالِبُ الَّذي لا يُعْجِزُه مَن أساء العمل، ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ السِّتِّيرُ الذي لا يَيْأَسُ مِنْهُ أهلُ الإساءة والزَّلل[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 16.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 92.

ومِنْ فوائدِ تقديم العَزيز على الغفورِ أمرانِ آخرانِ:

في الموت والعزَّة شِدَّة، وفي الحياة والمغفرة لينٌ ولُطْفٌ

أحدهما: مُناسبة تقديم الموتِ على الحياة، ففي كلٍّ مِن الموتِ والعِزَّةِ شِدَّة، وفي كلٍّ مِن الحياة والمغفرة لينٌ، فقُدِّم الموت الذي هو أثرُ صِفَةِ القَهْرِ على الحياة التي هي أثر صفة اللُّطف، فقُدِّم وصفُ القَهْرِ على وصفِ اللُّطْف[1].

ثانيهما: في هذا التَّقديم زيادةُ تهويلٍ وترغيب، فَإنَّه لَمّا كان الخطابُ في ذلك الوقت لعامَّة المُشركين؛ قُدِّم ما يُناسب الكُفّار، وهو العِزَّة على ما يُناسب أهلَ الإيمان، وهو المغفرة، وإنْ لوحِظَ معنى العِزَّة في كِلا الفريقين ومعنى المغفرة في كِلا الفريقين، لكِنْ لَمّا كان الغالب على مُناسبة الكُفْرِ العِزَّة، وكان الغالبُ على مُناسبة الإيمان وحسن العمل المغفرة؛ قُدِّم عِزُّ العزيز على الغفور؛ ليُناسب الغالب الموجودَ؛ إذْ إنَّ أهل الكُفْر هم الأكثرون وأهلَ الإيمان هُمُ الأقلّون، فما الحالُ إذا ذُكِرَ أهلُ أحْسَنِ العمل من أهل عموم الإيمان؟ فَهُم أقلُّ القليلِ.

بلاغة التَّذييل بِذِكْرِ الاسمين الجليلين:

القَصدُ من التَّذْييلِ الإتيانُ بالدَّليل على الحكم

قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ جُملةٌ تَذْييليَّة، والقصد من التَّذْييلِ الإتيانُ بالدَّليل على الحكم، فلَمّا كان اللّهُ تعالى يختبر النّاس، ويمتَحِنُهم بخَلْقِ الموت والحياة أيُّهم أحسن عَمَلًا؛ كان لا بُدَّ، وأن يُجازيَهُم، فبيَّن دليلَ ذلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾، فذَكَرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الجزاء الَّذي يترتَّب على الابتلاءِ هوَ جزاء المُهَيْمِن القويِّ الَّذي لا يُعجزه شيءٌ، وهو أنسَبُ ما يُقال في مقام الوعيدِ لمن خالَفَ، وعصى، وهذا حالُ المشركين الذين شَمِلَهُم ضَميرُ الخِطاب. وذكر ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، وهو المناسِبُ لجانِبِ الرَّحمة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 92.

والمغفرة؛ كنايةً عَن جزاءِ الطّائعين والمُحْسِنين، الذين يَقعُ مِنْهُمُ التَّقصير أحيانًا، فيَغْفِرُه اللّهُ تعالى، ويُكْرِمُهُم بإحْسانِه، كما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82] - فكان هذا ختامًا جامعًا لحظِّ الفَريقَيْنِ: العُصاة والمحسنين؛ تنبيهًا إلى كمال عدلِ اللّه تعالى ورحمته[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

الابتلاء تكليفٌ بأمر شاقٍّ خيرًا كانَ أو شرًّا، والاختبارُ وقوعُ المُخْبَرِ بحالِهِ

ذهَبَ بَعْضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ الابتلاء بمعنى: الاختبار، مع أنَّ النّاظر في اللَّفظين يجدُ بينَهُما فرقًا دقيقًا، وإن اشتَرَكا في المعنى العامِّ؛ فلكلِّ لفظٍ مِنْهُما ما يميِّزه، فالابتلاءُ: التَّكليف في الأمر الشّاقِّ، ويكون في الخَيْرِ والشَّرِّ معًا، أمّا الاختبارُ؛ فمعناه: أيُّ مَحَكٍّ يُمْكِنُ استخدامُه بهدفِ تحقيق حقائقَ مُعيَّنة، أو تحديد معايير الصَّواب، سواءٌ أكانَ ذلك في قضيَّة معروضة للبحثِ والنَّظَرِ أو لغرضٍ مُعلَّق لَم يَتمَّ التَّثبُّت منه، وعلى هذا؛ فالابتلاء يقتضي استخراجَ ما عند المُبْتَلى مِن الطّاعة والمعصيةِ، والاختبارُ: وُقوع المُخبَر بحالِه في ذلك، وهو أصلٌ مِن أصول الابتلاء[2].

الابتلاء والفِتْنَة:

الابتلاء تكليفٌ بالمكارِه، والفِتْنَةُ شِدَّةُ الابتلاء

الابتلاء التكليف في الأمر الشّاقِّ من البلاء[3]؛ لاستِخراج ما عِنْد المُبْتَلى وتَعَرُّفِ حاله في الطّاعَة والمَعْصيَة بتحميله المَشَقَّة، فالابتِلاء لا يكون إلّا بتحميلِ المكاره والمشاقِّ[4].

وأمّا الفِتْنَةُ؛ فهي البليَّة وبها يَتبيَّن حالُ الإنسان من خيرٍ أو شَرٍّ[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15، 16.
(2) الزَّهراني، التَّفسير الموضوعي: 1/ 139.
(3) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، ص: 34، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 216.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 216.
(5) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 256.

كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، وهي في الشِّدَّة أظهَرُ مَعْنًى، وأكثرُ استعمالًا، والفتنةُ مِنَ الأفعال التي تكون من الله تعالى ومِنَ العبدِ، كالبَلِيَّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك[1]، فيدور معناها بينَ الابتلاءِ إيقاعًا أو تعريضًا للبلاءِ[2].

فالفِتْنَة أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وتكون في الخَيْر والشَّرِّ، وقد قالَ تَعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنُّ: 16 - 17]، فَجَعَلَ النِّعْمَة فتْنَةً؛ لأَنَّهُ قُصِدَ بها المُبالغَة في اختبار المُنعم عَلَيهِ بها[3].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتن).

(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 217.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: 3 - 4]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِنَ الأدلَّةِ في الأنفُسِ إلى الأدلَّةِ في الآفاقِ

لَمّا أثبَتَ اللّهُ سُبحانَه لنَفْسِه صِفتَيِ العِزِّ والغَفْرِ على أبلَغِ ما يكونُ؛ ذَكَر تعالى الدَّليلَ على ثُبوتِ هاتَينِ الصِّفَتينِ في هذا المقامِ، ودَلَّ على ذلك بقَولِه[1]: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، فانتقل الكلامُ مِن الأدلَّةِ في الأنْفُسِ إلى الأدلَّةِ في الآفاقِ؛ ليكون تَرَقِّيًا في البلاغةِ مِنَ الأدْنى إلى الأعْلى.

وفي مجيءِ هذه الآيةِ بعدَ قولِه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ توجيهٌ لحُسْنِ صُنْعِ اللهِ تعالى وإبداعه في خَلْقِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿طِبَاقٗاۖ﴾: مُتَطابِقةً، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ شيئًا فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، يُقال: طابَقَ النَّعْلَ؛ إذا خَصَفَها طَبَقًا على طبَقٍ، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثلِه حتَّى يُغَطِّيَه[3]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[4].

2) ﴿تَفَٰوُتٖۖ﴾: أي: اضطِراب وتباعد، يقال: تفاوَتَ الشَّيئانِ؛ إذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 581، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 223.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 8/ 229.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طبق).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 208، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 39.

تباعَدَ ما بينَهما، وأصلُه مِنَ الفَوتِ، وهو: أن يَفوتَ شَيءٌ شيئًا، فيقعَ الخَلَلُ[1]، ومعنى التَّفاوُتِ في الآيةِ: الاختلافُ والاضطِرابُ وعدَمُ التَّناسُبِ في الخِلْقَةِ[2].

3) ﴿فُطُورٖ﴾: جمع: فَطْر، وهو الشَّقُّ، يُقال: فطَرَهُ، فانْفَطَر، وأصلُ (فطر): يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِه، يُقال: فَطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فَطْرًا، أي: شَقَّها، وحَفَرَها[3]، ومعنى الفطورِ في الآيَةِ: الصُّدوعُ والشُّقوقُ[4].

4) ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾: أي: رَجْعتَينِ، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على جمعٍ وتَرديدٍ، ومِن ذَلِكَ: كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجوعُكَ إلَيهِ بَعدَ المَرَّةِ الأولَى[5]، والكَرُّ: العطفُ على الشَّيءِ بالذّاتِ أو بالفِعلِ[6]، ومعنى ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ في الآية، أي: رَجْعتَينِ، مرَّةً بعدَ أُخرى[7].

5) ﴿يَنقَلِبۡ﴾: أي: يرجِعْ، وأصْلُ مادَّة (قلب) تدورُ حولِ رَدِّ شَيءٍ مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ، ثُمَّ عبَّروا به عن مجرَّد التَّغيير الكثير، والانقِلابُ: الانصِرافُ والارتِجاعُ، وهو لِلمُطاوَعَةِ، يُقال: قَلَبْتُهُ، فانقَلَبَ[8].

6) ﴿خَاسِئٗا﴾: أي: صاغِرًا مُبْعَدًا، وأصلُ (خسأ): يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ، تقولُ: خَسَأْتُ الكَلْبَ؛ إذا باعَدْتَهُ[9]، ومعنى ﴿خَاسِئٗا﴾ في الآيةِ، أي: صاغِرًا، ذَليلًا، مُبْعَدًا عن إدراكِ خلَلٍ ما[10].

7) ﴿حَسِيرٞ﴾: أي: كَليلٌ، مِنَ الجذْرِ (حسر)، وأصْلُ هذه المادَّةِ يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ، والحَسرَةُ: التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيءِ الفائِتِ، وذَلِكَ انكِشافُ أَمْرِهِ في جَزَعِهِ وقِلَّةِ صَبْرِهِ[11]، وحسير: فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِنَ الحُسورِ الَّذي هو الإعياءُ، يُقالُ: حَسَرَ بَصَرُه؛ إذا كَلَّ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوت).
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 576، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والحلبي، عمدة الحفّاظ: (فطر).
(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 10/ 222، والصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 231.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كرّ).
(6) الرّاغب، المُفردات: (كرّ).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 209.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خسأ).
(10) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 582، والعليمي، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 7/ 108.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).

وانقَطَع، وذلك انكِشافُ حالِه في قِلَّةِ بَصَرِه وضَعْفِه[1]، ومعنى ﴿حَسِيرٌ﴾ في الآيَةِ: كليلٌ مُعْيٍ، مُنقَطِعٌ، لم يُدرِكْ ما طَلَب[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيان الإعجاز في خلق السَّماوات والتَّدليل على كمال القدرة الإلهيَّة في بنائها

بَيَّن اللّه تعالى مظهرًا آخر من مظاهر قدرته العظيمة، التي لا يُعجزها شيء، فأخبر أنَّه هو وحده الذي خلق السَّماوات السبع بعضها فوق بعض، خلقًا محكمًا متقنًا، بلا مثال سابق ولا نقص ولا اضطراب، ثُمَّ دعا الانسان أن يتأمَّل في خلقه، فينظر في السَّماء نَظَرَ تدبُّر، هل يرى فيها من خلل أو شقوق؟ ثُمَّ يُحاول التَّكرار والتفتيش مَرَّة بعد مرَّة، فلن يرى إلّا تمام الإحكام وكمال الصُّنع، ويعود البصر خاسئًا مُتعبًا، عاجزًا عن أن يُدرك أيَّ خلل في هذا البناء الرَّبّاني المنيف[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ هذه الجُملة عمّا قبلها:

بيان عظمة صفاتِ أفعال اللهِ تعالى وقُدرته في العالَمِ العلويِّ والسفليِّ

بعد أن تحدَّث السّياقُ القرآنيُّ عن خلق الموت والحياة، وهو مِمّا يَخصُّ الإنسانَ؛ انتقل إلى ما هو أعجَبُ وأعظم، وهو خلْقُ السَّماوات السَّبع، فجاء قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ على وجه الاستئناف البيانيِّ، كأنَّ سائلًا يسأل: من هذا الذي يملك الأمرَ كُلَّه، ويخلق الموتَ والحياة؟ فجاء الجوابُ: هو الذي خلق السَّموات أيضًا. ويجوزُ أن تكون هذه الجُملةُ صفةً ثانيةً لقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، وذلك أنَّهُ بَعْدَ أن بيَّن تصرُّفه في الإنسانِ وأخصِّ أحوالِه، وهما: الموتُ والحياة؛ أتبعَهُ بذِكْرِ تصرُّفه في أعظم المخلوقاتِ الكونيَّة، وهي السَّماوات؛ وذلك لبيانِ عظمةِ صفات أفعاله تعالى، فالجملة

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، والرّازي، مختار الصِّحاح: (حسر).

(2) الواحدي، البسيط: 22/ 45.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 209، 210، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 395، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.

تَحْتَمِل أن تكون نعتًا للاسمين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، أو بيانًا لَهُما، أو بدلًا عَنْهُما، ويجوزُ أن تكون في محلِّ رفع، أو نصبٍ على المدح، وإن انفَصَلت لفظًا؛ فهي مُتَّصلة بالمعنى، ومُنسجمة في السّياق العامِّ الذي يشهد بعظمة اللّهِ وتنزيهه، ويبيِّن علوَّ قدرته[1].

بلاغة التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الاسم الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ثانيَةٌ لـ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، أو للفاعلِ المحذوفِ، فتكون صفةً ثالثَةً، أي: تبارك اللّه الذي خلق سبعَ سماواتٍ طباقًا، والاكتفاءُ بالصِّفة عن الموصوفِ؛ لِظُهورِهِ وبيانه بحيثُ لا يختَلِفُ فيهِ اثنانِ، وفي التَّعبير بالاسم الموصولِ أيضًا دلالَةٌ على رفعَتِه وعُلوِّ شأنه، فهو الذي خلق السَّماوات طباقًا ليسَ فيها تفاوُتٌ.

الـدَّلالـة على رفـعة الـخالـقِ وعُلوِّ شأنِهِ

بلاغة إعادةِ الاسْمِ الموصولِ:

أُعيدَ الاسمُ الموصولُ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ لتكونَ الجُمَلُ الثَّلاثُ جاريةً على طريقة واحدةٍ، وكان من الجائزِ أن تُعْطَفَ الصِّفة على الصِّفة: (الذي خلق الموت والحياة وخلق سبع سماوات طباقًا)؛ ليدُلَّ على أنَّ كُلَّ واحدة من أو الصِّفات الثَّلاث، على حذفِ الموصوفِ في ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾، فيكونَ ذلك أنَّ كُلَّ واحدة منهما مُنفردةً تَكْفي في الاستدلالِ على استحقاق اللّه للألوهيَّة والتَّوحيد، فما الظَّنُّ إذا اجتمعت؟ ثُمَّ إنَّ هذه الصِّفاتِ تتحدَّث عن عظيم صفات اللّه تعالى، وأغلبها هُنا صفاتُ أفعالٍ، مثل: خَلَقَ، وبعضها يتضمَّنُ صفاتِ ذاتٍ وأفعالٍ، كالعزيز والغفور[2].

كـلُّ صفـةٍ على سبيلِ الانـفـرادِ تَصْلُح دليلًا على استحقاقِ الله تعالى للألوهيَّة

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ (الله) في الجُمل الثَّلاث:

في كُلِّ مَرَّة يُذكَر الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾، دون أن يُذْكَرَ الاسم الأحسَنُ (اللّه)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ هذا أمر مُسلَّم معلوم للكافر

الدَّلالة على أنَّ هذا أمـر مُسلَّم به لا يُنـازِع فيه أحَدٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 16، والدّرويش، إعراب القرآن: 10/ 146.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 16.

قبل المؤمن لا ينازع فيه أحَدٌ، فكلُّها من الأمور الجليَّة، وهي مِنَ المسلَّمات الفطريَّة التي أقرّوا بها بِقُلوبِهِم؛ وإن جَحَدوها بألسِنَتِهِم.

بلاغة التَّعبير بالخَلْقِ:

الجمع بَين التَّقدير والإيجاد والإبداع

قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: أوْجَدَ وأبدَعَ، أو قَدَّر فأتْقَن؛ لأنَّ الخلقَ تقديرٌ وإيجاد على غيرِ مثالٍ سابِقٍ، فكان التَّعبيرُ بالخَلْقِ جامعًا بَينَ التَّقدير والإيجاد والإبداع.

سِرُّ ذِكْرِ خلقِ السَّماوات بعد ذِكْرِ خلق الإنسان:

الثَّناء على اللهِ تَعالى بعَظيمِ القُدْرَةِ وسعَةِ العِلْمِ والحِكْمَةِ

بعد أن ذَكَرَ اللّهُ تعالى تصرُّفه في خَلْقِ الإنسان، وأهَمَّ أعراضه، وهما الموتُ والحياة؛ أتبع ذلك بذِكْرِ خَلْقٍ مِن أعظَمِ المَخلوقاتِ الكونيَّة، وهي السَّماوات، فكان هذا ثناءً آخر على كمالِ قدرته، وسعةِ عِلْمِه وحكمته في خَلْقِ سبعِ سماواتٍ مُتطابقة، بعضُها فوق بعض، ثُم رَتَّب على هذا الخلقِ المُحْكَم دعوةً للتَّأمل، بلَفْتِ النَّظر إلى أنَّه لا خلل فيها ولا تفاوُتَ، وأنَّ الإنسان مَهْما كرَّر النَّظر بعَيْنِه وقَلْبِه، فلَن يَجِدَ فيها نقصًا ولا شقوقًا، ممّا يقودُهُ إلى عِلْمٍ يقينيٍّ بعظمَةِ الخالِق وكمالِ قُدْرَته[1].

نُكتة ذِكْرِ العدد في السَّماوات:

الدَّلالة على عِظَمِ خلق السَّماوات منفردةً، فما الظَّنُّ بخلق سبعٍ مِنها

قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، ولم يرد النَّظم القرآنيُّ: (الذي خلق السَّماوات وما بينهما)، كما في آيات أخرى، كقوله سُبحانَهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [الفرقان: 59]، فنَصَّ هُنا على أنَّه خلقَ السَّماواتِ السَّبعَ؛ لاعتبارِ ذِكْرِ العدَدِ، فإرادةُ العدَدِ مقصودة في الدَّلالة على شِدَّة الإبداع وعِظَمِه، فعِظَم خَلْقِ السَّماوات يَظْهَرُ؛ إذا كانت مُنْفَردَةً؛ فما الظَّنُّ بسبعٍ مِنها؟.

دلالة وصف السَّبعة بأنَّها ﴿طِبَاقٗاۖ﴾:

العرب تُطلقُ السَّماء على كلِّ ما يَعْلوك، وتُدركُ أنَّ ما يعلوكَ شيءٌ

---

(1) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 394.

الإبداعُ الكامِلُ مِن كلِّ وجهٍ في خَلْقِ السَّماوات

واحدٌ، فإذا سَمِعتَ أنَّ هُناك سبعَ سماواتٍ؛ كان ذلك أعجبَ في الدَّلالة على استحقاق اللّه تعالى بهذا الخلق للأُلوهيَّة؛ لأنَّه سُبحانَهُ قال: ﴿طِبَاقًا﴾، أي: مُتطابقة، والطِّباق ما يكونُ بَعْضُها مُطابقًا لِبَعْضٍ في الحَجْمِ والإتْقانِ والكيفيَّة إلى غير ذلك مِن الصِّفات التي تتطابق فيها الموصوفاتُ، فتقول مثلًا: هذا الرَّجل يُطابق هذا، أي: في كُلِّ صفاته[1]، فوصْفُ السَّماوات السَّبع بأنَّها ﴿طِبَاقًا﴾، دلالةٌ عظيمة على إحكام الخلق وإعجازه؛ لأنَّ لفظَ ﴿طِبَاقًا﴾ يُبيِّن أنَّ هذه السَّماوات ليسَت فَقَط متراكِبَةً، بَل مُتطابقة في التَّناسق والإتقان، كأنَّ كُلَّ واحدة منها تُقابل الأخرى في البناءِ والإحكام والإتقان، وهذا يدلُّ على إبداعٍ كاملٍ مِن كُلِّ وجْهٍ[2].

بلاغة التَّعبير بالمُضاف إليه ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾:

الـدَّلالـة على الإبــداع في الـسَّـمـاوات مع هذا العدَدِ

جيء بقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، دون أن يرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (سماوات سبعًا)؛ لأنَّ المرادَ الدَّلالةُ على الإبداع في السَّماوات مع هذا العددِ، وليس المرادُ بيانَ إبداعِ السَّماوات فحسبُ، والمقصودُ: أنَّ السَّماوات مع بلوغها هذا العدد في غايةٍ مِنَ الإبداعِ والإتقانِ، وفيه دلالةٌ على أنَّ هذا الخلق العجيبَ مُتكرِّر في سَبْعِ طباقٍ، وكلُّها مُتقنة في ترتيبها وتطابقها، وهذا أدعى لتعظيمِ شأنِ الخالقِ واستِشْعار بديعِ صُنْعِه.

السِّرُّ في تنكير لفظ ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾:

الـدَّلالـة على الـتَّـعـظـيـم والتَّفخيم

نُكِّر لفظُ ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ لإفادَةِ التَّعظيم والتَّفخيم، كأنَّه قال: سبع سماوات مُتناهية في العِظَم والخَلْق والإبداع والإحكام والتَّطابق، وهذا يوحي بجلالِ الخالق وكمال قُدْرَته، ويملأ النَّفْسَ هيبَةً وإجلالًا لصُنْعِهِ البَديعِ.

---

(1) عبد الرحمن، تفسير المعارج: 14/ 616.

(2) الجيلاني، تفسير الجيلاني: 6/ 131، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 29/ 5991.

سِرُّ الاستدلال بالغائب بعدَ المُشاهَد:

تربية النَّفس على التَّسليم بالغيبيّاتِ

انتُقِلَ من حَدِّ المرئيِّ المُشاهَدِ، الذي يُمكِنُ أن يُتقِنَهُ البَشَرُ، إلى الغيبيِّ الذي يَجِبُ أن يُسَلَّم به بعدَ تسليمهِ بالمُشاهَد، فإذا قال لك رجلٌ: أناأستطيع أن أَسْبِقَ الخيلَ، ثُمَّ يسبِقُهُ أمامَكَ، ويقولُ بعدَ ذلكَ: أنا أستطيع أن أَسْبِقَ الخيلَ بخمسَةِ أضعاف، ثُمَّ يجري حتَّى يتوارى عن عَينَيكَ؛ فإنَّك تُسلِّم له؛ بناءً على ما صدَّقته بعَيْنِك، فلمّا جاءت الأولى، وصَدَقَ؛ وجبَ عليكَ أن تُسَلِّم؛ لأنَّك لا تستطيع أن تكون مثيلًا لَهُ لِتَراهُ، فتُسلِّم له بذلك، فهذا الأسلوبُ يُربّي النَّفْسَ على التَّسليم بالغيبيّات عَبْرَ تصديق المَحْسوساتِ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿طِبَاقًاۖ﴾ صيغَةً:

الـدَّلالـة على كمال الإحكام في الخلق والتَّرتيب

يُفهَم من لفظ ﴿طِبَاقًاۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، معنى المُطابقة، وهي تدلُّ على دقَّة التَّناسُب والتَّشابه التّامِّ في الخلق، كما يُقال: هذا مطابِقٌ لذاكَ، أي: يُشْبِهُه في الصِّفاتِ والهَيْئَة، فيكونُ ﴿طِبَاقًاۖ﴾ مصدرًا على وزن (فِعال) من التَّطابق، أي: مُتشابهة ومنسجِمَةً في التَّكوين، وهذا يُبرز كمال الإحكام في خلقِها. ويَحْتَمِلُ أن يكون اللَّفظ جمعًا لـ (طبَق)، كجَمَلٍ وجِمالٍ، فيكون المعنى: بعضُها فوقَ بعضٍ، مُرَتَّبة في نظامٍ عجيب من غير تداخُلٍ بينها[1].

سِرُّ نصب لفظ ﴿طِبَاقًاۖ﴾:

الإشـارة إلى عظمة الخالقِ وإتقانِ صُنْعِه

نُصِبت لفظَةُ ﴿طِبَاقًاۖ﴾ على وجهِ الوَصْفِ؛ للمُبالغة أو للدَّلالة على الذّات الموصوفة بالتَّطابق، فجمَعَت الكلمَةُ بينَ جلالَةِ المَعْنى وسَبْكِ المَبْنى، في الإشارَةِ إلى عظمَةِ الخالقِ وإتقانِ صُنْعِهِ[2].

---

(1) ابن عبد السلام، تفسير العِزِّ بن عبد السلام: 2/ 292، والنّيسابوري، وضح البرهان: 2/ 417.

(2) الزَّمخشري، الكشاف: 4/ 576، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 221، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 3.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿طِبَاقٗاۖ﴾:

الدَّلالة على المُبالغة في الدِّقَّة والإتْقانِ

نُكِّرَ لفظ ﴿طِبَاقٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على المُبالغة في الدِّقَّة والإتقان، كأنَّه قال: طِباقًا مُتناهية الدِّقَّة في حجمها ووصفها ومُناسبةٍ بعضِها لبعض، وفي عملها وفي نظامِها وغير ذلك، والمُراد من ذِكْرِ ذلكَ: أنَّها مرتَفِعٌ بعضُها فوق بعض، فتكون كُلُّ واحدةٍ - مع هذا الارتفاع العجيب - مُتطابقةً في الصِّفات والحركات فيها؛ بحيث لا تصطَدِمُ السَّماوات ببَعْضِها، ولا يتذبذب نظامٌ في واحدَةٍ عَن الأُخرى.

دلالة فصلِ قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ عمّا قبلَهُ:

تأكيدُ ما تقرَّر في الآيـة السّابقة من تمام خلق السَّماوات السَّبع وإحكامها

في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ، جاء لتأكيدِ ما تقرَّر في الآية السّابقة من تمام خلق السَّماوات السَّبع وإحكامها، فالجُملة تؤكِّد أنَّ هذا الخلق لا يشوبه خللٌ ولا نقص، ليس من منظور العينِ المُجرَّدة فحسبُ، بل حتّى عندَ مَن دقَّت معرفتُه، وبلغ خُبره في الصَّنعة، فالتَّفاوت - وهو الاختلالُ أو الاضطراب - قد يغيبُ عنِ العَيْنِ، لكنَّه لا يخفى على الخَبير، فجاء النَّفي هُنا مطلقًا؛ ليَشْمَلَ كلَّ صورةٍ مِن صوَرِ الخلل الظّاهر أو الخفيِّ، وكأنَّ المعنى: ليس في خلق الرَّحمن أدْنى تفاوُتٍ يُدْرِكه أحَدٌ، ولو تدبَّر بأقصى قُدُراتِه(1).

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ النّافية دون غيرها من أدوات النَّفي:

إفادة النَّفي القاطع لأيِّ تفاوتٍ يسيرًا كان أو كبيرًا

جاءت أداة النَّفي ﴿مَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾؛ لِما تَحْمِلُه من قوَّة وشمولٍ في الدَّلالة، فهي من أبلغ أدوات النَّفي في اللُّغة؛ لأنَّها تشمل النَّفي في الحاضر، وتمتدُّ إلى المُستَقبَل، مع تضمُّنها معنى الماضي، فكأنَّ المعنى: ما رأيتَ تفاوتًا، ولن ترى أبدًا، وهذا السِّرُّ في التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ في الأمور الكونيَّة الثّابتة، التي لا يطرأ عليها تغيُّر عبرَ الزَّمن، مِن لحظة خلق السَّماوات إلى قيام السّاعة.

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 147.

كما تَحْتَمِلُ ﴿مَّا﴾ أن تكون استفهاميَّة يُراد بها الإنكارُ، فيكون المعنى: أيَّ تفاوتٍ تراه؟ والجواب: لا شيء، فيُفهم منه نفيٌ قاطِعٌ للتَّفاوت، ولو كان يسيرًا[1].

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية في ﴿تَرَىٰ﴾ مع أنَّ المرئيَّ من السَّماوات هو سماء الدُّنيا:

السَّماوات مدلول عليها ببقائِها طيلةَ الخَلْقِ، ولو كان فيها خلل أو تفاوتٌ؛ لتَهاوَت

جاء التَّعبيرُ بفعل الرُّؤية (رأى)، في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، مع أنَّ النّاس يرون سماءَ الدُّنيا، ولكنَّهم لا يرون غيرها من السَّماوات، وكونِها طباقًا، وأنَّها ليس فيها تفاوتٌ، ووجه ذلك: أنَّه لما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾؛ كان ذلك دالًّا على عدم وُقوع خلَلٍ فيها، مدلولٍ عليه ببقائها طيلةَ الخلق، ولو كان فيها خللٌ أو تفاوت؛ لتهاوت، ولاصطَدَم بعضُها ببعض، ولَحَدَثَ فيها خَلَلٌ يُفسِدُ نظامَها.

دلالة الخطابِ في الفعل ﴿تَرَىٰ﴾:

الدَّلالة على عموم الخطابِ دعوةٌ إلى التَّأمُّل والاعتبار

الخطاب في ﴿تَرَىٰ﴾ إمّا أن يكون لِكُلِّ مُخاطَب، وهذا هو المُتبادر في خطاب الرَّحمن، فيكون المرادُ وجوب التَّأمُّل في خلق اللّٰه تعالى مِنْ عموم المخاطَبين، وإمّا أن يكون للكُفّار خاصَّةً؛ إذ السّورة مَعنيَّة بهم في أغلَبِ آياتِها، وجائزٌ أن يكون الخطابُ موجَّهًا للنَّبي ﷺ على وجه التَّعظيم، كأنَّه لمّا خاطبهم بهذه الأدِلَّة؛ قال: وأنت يا سيِّد الخلق وأفضلَ الرّائين، يا من تمَّت رؤيَتُه، وصَحَّت، وعَظُمَت في أفعالِ اللّٰه وخلقِه؛ تَرى صِدْقَ هذا الكلام، ما ترى في خلق الرَّحمن مِن تَفاوُتٍ، وهذا سِرُّ التَّعبير في كثير من القرآن بقوله: (ألم تر)، مع أنَّ المُخاطَب به أو المُخبَر عنه يراه الجميعُ[2].

بلاغة التَّعريض في الخطاب بـ ﴿تَرَىٰ﴾:

التَّعريض بالمشركين الذين قصَّروا في النَّظر والتَّأمُّل في الآيات الكَوْنيَّة

الخطابُ في ﴿تَرَىٰ﴾، من قولِ اللّٰه تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ قصدًا إلى إرادة العموم، والمعنى:

(1) المظهري، التفسير المظهري: 10/ 21، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 14.

(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 576، وابن جزي، التَّسهيل: 2/ 394، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 221.

لا ترى أيُّها الرّائي تَفاوُتًا، والمقصودُ من هذا الأسلوبِ هو التَّعريض بالمشركين، الذين قصَّروا في النَّظر والتَّأمُّل في الآيات الكونيَّة، فلم يهتدوا إلى دلالَتِها على توحيدِ اللّهِ تعالى، على الرَّغم مِنْ وُضوحِها ومشاهدتهم لها، فالحجَّة قائمةٌ عليهم؛ لأنَّ هذا النَّوع من الاستدلال متاحٌ لِكُلِّ من يُبصر، كما قال تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6]، فكأنَّه قال: ما تَرَون في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ[1].

بلاغة التَّعبير بالمصدر في صيغة ﴿خَلْقِ﴾:

الـدّلالـة على المبالغةِ والكثرة

قوله: ﴿خَلْقِ﴾ يحتَمِلُ أن يكون مَصدرًا، ويكون ذلك بمعنى: اسم المفعول، وإنَّما ذُكِر بلفظ المَصدر؛ قصدًا إلى المُبالغة، والمعنى: ما ترى في مخلوقاتِ الرَّحمَن من تفاوتٍ[2].

سِرُّ إيثار التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

بيان أنَّ هذا الخَلْق المُتقن المُنتظم، إنَّما هو مِن آثار رحمةِ اللهِ تَعالى بعبادِهِ

في التَّعبير باسم اللّه تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، إشارَةٌ بلاغيَّة دقيقةٌ إلى أنَّ هذا الخَلْقَ المتقن المنتظم، إنَّما هو مِن آثار رحمة اللّه بعباده؛ إذ لولا إحكامُ هذا النِّظام وسلامته من التَّفاوت؛ لاختَلَّ سَيرُ الكون، واضطربت حياة النّاس، وتعرَّضوا للضَّرر والمَشقَّة، وقد دلَّت آياتٌ أُخرى على هذه الرَّحمة الكونيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، فَكُلُّ ذلك خَلْقُ رحمنٍ رحيم مُتْقَنٌ مُسَخَّرٌ لمصلحةِ الخَلْقِ. ثُمَّ إنَّ في اختيار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أيضًا تعريضًا بالمُشركين، الذين أنكروا هذا الاسمَ الشَّريف، كما في قوله: ﴿وَإِذَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 17، 18.

(2) الطَّبراني، التفسير الكبير: 6/ 312.

﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، فجاء ذِكرُه هُنا؛ ردًّا عليهم، وإثباتًا لعظيم صفاته، في مُناسبةٍ جمَعَت بَينَ الرَّحمة من جهةٍ، وبيان ضلالِ مَن جَحَدَها مِن جِهَةٍ أُخرى(1).

بلاغَةُ إضافَةِ الخَلْقِ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

إتـقـانُ عُـمـومِ مخلوقاتِ الله تَعالى

أُضيفَ الخَلْقُ إلى اسم اللّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لإفادَةِ العُموم، يعني: ما ترى في كُلِّ مخلوقات الرَّحمن من تفاوتٍ، فإنَّ إضافةَ المُفرد النَّكرة إلى المعرفة المُحلَّى بـ (أل) يُفيد العموم، كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ [البقرة: 187]، فليست ليلةً وحدَها، وإنَّما المرادُ كُلُّ ليالي الصيام يَحِلُّ فيها ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أن يكون المُراد بـ ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ السَّماوات، فيكون المعنى: ما ترى في السَّماوات من تفاوتٍ؛ لتُفهم الإشارة إلى أنَّ ما خَلَقَهُ اللّه تعالى - وخاصَّةً السَّماواتِ - مشتمِلٌ على مظاهر رحمتِه بالنّاس؛ مِن انتظامِ سَيْرِها، ومُلاءَمَتِها لِمَصالِحِهِم(2).

سِرُّ وضْعِ الظّاهر موضع المُضمر:

الإشعار بعظيم الـنِّـعـمـة على العباد

في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، لم يعد الضَّمير إلى (السَّماوات) مع تقدُّم ذِكْرِها، بل استُعيض عنه بالاسم الظّاهرِ ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وهذا مِن بليغِ الأساليبِ في القرآن؛ إذ وُضِع الظّاهرُ مَوْضِعَ الضَّمير للتَّعظيم والتَّوكيد، والمغزى من هذا التَّعبير الإشارةُ إلى أنَّ إتقان خلق السَّماوات وكمالها راجعٌ إلى كونِها منسوبةً إلى الرَّحمن، الَّذي لا يخرج من تحت قُدرته إلّا ما هو بالِغٌ في الحكمة والجمال والإتقان، فسلامَتُها من النَّقص والتَّفاوت إنَّما هي آيةٌ مِن آثار رَحْمَتِه وقَهْرِه، وعلامةٌ على تَفَرُّده في الخَلْق والتَّدبير. وفي ذلك أيضًا إشعارٌ بعَظيم النِّعمة على العباد؛ لأنَّ خلقًا بهذا الإحكام هو سببٌ في انتظامِ مَعيشَتِهم واستقرار حَياتِهم(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 17، 18.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 17، 18.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 576، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 221، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 3، 4.

دلالة التَّعبير بصيغة التَّفاعل:

المُبالغة في نفي أدنى تفاوُتٍ

التَّفاوُتُ - بوزْنِ التَّفاعُلِ -: شدَّةُ الفَوتِ، والفَوتُ: البُعدُ، وقد جاءت هذه الصّيغة على هذا الوزن، وهي لا تدلُّ هُنا على المُشاركة بَيْنَ طرفين - كما هو الغالب في هذا الوزن - وإنَّما جاءت للمُبالغة في وصف شِدَّة التَّباين والاختلاف، أي: إنَّ الآية تنفي وجودَ أدْنى تفاوتٍ وأقلِّ درجاتِ البُعد والاختلال في خلق الرَّحمن، فيكون المعنى: ما ترى في خلق الرَّحمن شيئًا من التَّبايُنِ ولو كان يسيرًا أو خفيًّا[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿تَفَٰوُتٖۖ﴾:

كون التَّشبيه أبلغ في التَّصوير، وأدقَّ في الإفهام، وأشدَّ تأثيرًا في النَّفس

صَوَّرَ النَّظمُ الكريم التَّخالفَ وانعدامَ التَّناسقِ والاضطرابَ في الخَلْقِ، بصورَةِ التَّباعُدِ الحسّيّ بين الأشياء، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فشبَّه المعنى المعقول - وهو الاختلاف - بأمر محسوسٍ - وهو التَّباعد - تقريبًا للمعنى العقليِّ إلى حاسَّة البصر، وذلك أبلغُ في التَّصوير، وأدقُّ في الإفهام، وأشدُّ تأثيرًا في النَّفس[2].

نكتة التَّأكيد بـ﴿مِن﴾ في ﴿مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾:

تأكيد نفي وجودِ أيِّ قَدْرٍ مِنَ التَّفاوت

جاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾؛ لتأكيد نفيِ وُجودِ أيِّ قدرٍ مِنَ التَّفاوت، فكأنَّ المعنى: لا ترى فيها أدنى لونٍ مِن اختلافٍ أو خَلَلٍ أو فقدانٍ للتَّناسُقِ، بَل هيَ مُتناهيَةٌ في الإحكامِ والتَّوازن[3].

بلاغَةُ حرف الجَرِّ ﴿مِن﴾ وتنكيرِ لفظِ ﴿تَفَٰوُتٖۖ﴾:

نقلُ العُمومِ من كَوْنِه ظاهِرًا إلى كَوْنِه نَصًّا

جاء حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾؛ للتَّنصيص على عموم النَّفي، فلا تفاوتَ في شيءٍ من خَلْقِ الرَّحمن، لا قليلًا ولا كثيرًا، فلفظُ ﴿تَفَٰوُتٖۖ﴾ نكرة في سياق النَّفي، وذلك دالٌّ على العموم، وهو عمومٌ ظاهِرٌ، وجاءَت ﴿مِن﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 17.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 17.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.

لتَقْطَعَ احتمالَ التَّخصيص، وتَدُلَّ على انتفاء التَّفاوت بجميع صوَرِه وأدَقِّ مظاهره، فكان المعنى: ما ترى فيه شيئًا من التَّفاوت أبدًا.

بلاغة التَّذييل بالجُملة الكريمة:

تتميمُ المعنى السّابق وتعزيزُه

في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ تذييلٌ بديع[1]، جاء ليُتمِّم المعنى، ويُعزِّزه، فقد خُتِم به الحديثُ عن خَلْقِ السَّماوات السَّبع الطِّباقِ، وسبقَه حديثٌ عن خلق الموت والحياة، وكلاهما مِن أعظم الأعراضِ التي تطرأ على الحيِّ والميِّت، فكأنَّ الآيةَ جمعَتْ بين عالَم الإنسانِ وعالَم الآفاق، وبين الحياة والموت، ثُمَّ ذيَّلت ذلك بنَفْيِ أيِّ خلل أو نقصٍ في صُنع اللّه تعالى؛ تأكيدًا لكمال القدرة، وانتظام الخلق، وانسِجام سُنَنِه في كلِّ شيء حيٍّ أو جامدٍ، قريبٍ أو بَعيدٍ.

بلاغة التَّعبير بالفاء في ﴿فَٱرۡجِعِ﴾:

تفريع النَّتيجة على المُقدِّمة، وتفريعُ العِلَّة على الحُكم

جاء قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾؛ تفريعًا على ما سبقَهُ مِن نفي التَّفاوت في خلق الرَّحمن، أي: إنَّ نفيَ التَّفاوت في الخَلْقِ صار سببًا ودافعًا للأمر بإعادة النَّظر؛ ليُصبح هذا اليقينُ مبنيًّا على مشاهدةٍ وتأمُّلٍ متكرِّر، فالفاء هنا للتَّفريع؛ إمّا تفريعُ نتيجةٍ على مقدِّمة، أو تفريعُ عِلَّةٍ على حكم، والمعنى: بما أنَّك لا ترى خللًا في الخلق، فرُدَّ النَّظر مرَّة بعد مرَّة، هل تُدرك فيه فُطورًا أو شقوقًا؟ وهذا من أبلغ أساليب التَّوكيد في تقرير كمالِ الخَلْقِ الإلهيِّ وإحكامه[2].

دلالةُ التَّعبير بِفِعلِ الأمرِ:

الـدَّلالــةُ على وجــوب النَّـظر والتَّفكُّر في صنع الله سبحانه

التَّعبيرُ بفعل الأمرِ في مجال النَّظر والاعتبار، الذي يُفيد تأكيدَ الإيمان عن يقينٍ، دالٌّ على وجوب النَّظر والتَّفكُّر في صُنْعِ اللّه ﷻ.

دلالة التَّعبير برَجْعِ البَصَر:

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، يحملُ دلالةً على التَّكرار؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 18.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 576، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 222، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.

لأنَّ الرُّجوع لا يُقال إلّا لِمَنْ كان له سابقَة صلةٍ بالشَّيء، فيقال: رجَعَ فلانٌ إلى بَيْتِه، أو رجع إلى مَدينَتِه، أي: إنَّه كان فيها وخرج، ثُمَّ رجع، فكأنَّ البصَر قد سَبَقَ له أن نَظَرَ، وتأمَّل، ثُمَّ أُمر بالعودة إلى هذا النَّظر مَرَّة أخرى؛ توكيدًا للمُعاينة وقطعًا لِكُلِّ شُبهة، ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾؛ لأنَّ النَّظرة الأولى حمقاء[1]، وفعل "رجع" في اللُّغة يُستَعمل لازمًا ومتعدّيًا، وهوَ يَدُلُّ على العَود إلى أصلٍ أو حالٍ أو مكان، سواءٌ أكان ذلك بذاتِه أو بِجُزْءٍ مِنهُ، فقول اللّه تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، يعني: أعِدِ النَّظر مع البصيرةِ والتَّفكُّر لا بعين الغَفْلَةِ؛ لتَتَيَقَّن أنَّه لا خلَلَ في خلق الرَّحمَنِ ولا نَقْصَ[2].

الـدَّلالـة على التَّكرار؛ توكيدًا لـلـمُـعـايـنـة، وقـطـعًـا لِـكُـلِّ شُبهة

بلاغَةُ الإفرادِ في الخِطابِ بالأمْرِ:

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ جاء بصيغَةِ الإفرادِ، وفي هذا الإفرادِ بلاغَةٌ مقصودَةٌ؛ إذْ يُراد به أن يكونَ النّاظر وحده؛ بعيدًا عن تأثير غيره في الحكم أو التَّشويش في الرُّؤية؛ لأنَّ التَّفكُّر الفرديَّ أقرب إلى الوصول إلى الحقيقة، ومثل هذا الأسلوب نجِدُهُ في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سبأ: 46]، فالتَّفكُّر المُنْفَرِد هو الذي قادَهُم إلى إدراك صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ ونفي الجنونِ عنه، فكذلك هنا، يوجَّه الخطابُ إلى كلِّ سامع على حِدَة: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، أي: وحْدَكَ، فانظُر، وتأمَّل بنفسِك، دون تبعيَّةٍ أو تقليدٍ.

القصد أن يكون النّـاظر وحـده؛ بعيدًا عن تأثير غيره في الحكم دون تبعيَّة أو تقليدٍ

سِرُّ انتخاب لفظِ البصر دون الرُّؤية والنَّظر:

لم يُعبَّر بالنظر أو الرُّؤية، في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، بل اخْتيرَ لفظُ ﴿ٱلۡبَصَرَ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ أدقَّ وأبلغَ، فالنَّظر قد يكون من المُبْصِر أو الأعمى، وقد يُطلَق على الرَّأي والاجتهاد، وكذلك

الـجـمـع بَـيْنَ إدراك الـعَـيْنِ وتفكُّر القلب

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 326، والكوراني، غاية الأماني: 1/ 196.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 227، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 18.

(الرُّؤية) قد تكون بالحُلم أو بالقَلْبِ أو بالبصر، أمّا (البصر)؛ فلا يُطلق إلّا على الرُّؤية الحقيقيَّة، والمقصودُ بها هُنا النَّظر بعينِ الاعْتبار[1]، ولهذا كان التَّعبير بـ ﴿ٱلْبَصَرَ﴾ إشارةً إلى الجمع بَيْنَ إدراك العين وتفكُّر القلب، وكأنَّ المُراد: أرجع نَظَرَكَ بعَيْنِك، وتأمُّلك بعَقْلِك؛ لتَصِلَ إلى اليقينِ الكامل في أنَّ خَلْقَ الرَّحمن لا خلَلَ فيه.

بلاغةُ الفَصْلِ في قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾:

الرَّدُّ المُقنع الذي يدفع الشَّكَّ، ويُرسِّخ اليقين بجلال الخَلق وإحكامه

أُمِرَ بإعادةِ النَّظرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، وهذا يبعَثُ في نفس المتلقّي سؤالًا، حاصِلُهُ: ولِمَ أَرْجِعُه؟ فجاء الجوابُ مستأنفًا في قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾؛ ليكون ذلك إيضاحًا للعلَّة، فالكلامُ استئنافٌ بيانيٌّ، والمعنى: ارْجِع بصرَكَ؛ لتتيقَّن بنفسك من كمال خلق الرَّحمن، ولترى النَّتيجة بعينِك: هل تلاحظ أيَّ شقوق أو خلل؟ فكان هذا الفصلُ البلاغيُّ بمنزلة الرَّدِّ المُقنع الذي يدفع الشَّكَّ، ويُرسِّخ اليقين بجلال الخَلق وإحكامه.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾:

تأكيدٌ وحثٌّ على التَّبصُّرِ والتَّأمُّلِ، والتَّعجُّب من خلق السَّماوات والأرض

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، هو استفهام تقريريٌّ يُقصَد به تأكيدٌ وحثٌّ على التَّبصُّرِ والتَّأمُّلِ، وقد جاء بـ ﴿هَلْ﴾؛ لأنَّها أبلغُ في تأكيدِ المعنى من غيرها؛ إذْ تُفيد التَّحقيق والتَّثبيت، وهي بمنزلة (قد) في الخبَرِ، كلاهما لِلتَّحقيق، وفي ذلك دعوةٌ واضحَةٌ للتَّفكُّر العميق والتَّبصُّر في الخلق[2].

ويُفهَم مِن هذا الاستفهام كذلك الاستبعادُ والتَّعجيب؛ لأنَّ ﴿هَلْ﴾ أفادت النَّفي، والسّياق يدلُّ على التَّعجُّب من خلق السَّماوات والأرض، فالمعنى: هل يُمْكِنُ أن ترى خللًا أو صدعًا؟ والجوابُ

---

(1) الصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 360.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 100 و3/ 189، والزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 352 و4/ 665، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 282.

المتروكُ للسّامع: لا، أبدًا، وهو ما يُعَمِّق الإيمانَ بكمال خلق اللّهِ تعالى، ويزيد إدراكَ النَّفس لجمالِ السَّماء وبهاء الكون، وهو جمالٌ يدعو إلى التَّأمُّل في عظمة الخالق وإبداعه المُستمرِّ، الذي لا خللَ فيه ولا اضطرابَ[1].

دلالة التَّعبير بالمُضارع في ﴿تَرَىٰ﴾:

الـدَّلالـة على تـجـدُّد أدلَّـةِ الإحكام والإتقان

عُبِّر بالفعل المضارع في قوله: ﴿تَرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، أي: إنَّ نفي وجود الفُطور ليس أمرَ لحظةٍ واحدة، بل هو مُستمرٌّ يتجدَّد كُلَّما نظر الإنسانُ - عامَّةً - أو الكافرُ - خاصَّةً - في خَلْقِ اللّهِ تعالى، فكلَّما أرجع بصره، وتفكَّر؛ تجدَّدت أمامَهُ أدِلَّةُ الإحكام والإتقانِ، دون أن يجِدَ خللًا أو نقصًا، ممّا يُؤكِّد أنَّ هذا الخلق البديع خالٍ على الدَّوام من أيِّ تفاوت أو اضطراب.

سِرُّ التَّعبير بحرف الجَرِّ ﴿مِن﴾:

إفـادة التَّوكيد عـلى الـعـمـوم، ونـفـي أيِّ احتمال لوجود تخصيصٍ

جيء بحرف الجَرِّ ﴿مِن﴾، في قوله تعالى: ﴿مِن فُطُورٖ﴾، ومن دلالاته: إفادة التَّوكيد على العموم، ونفي أيِّ احتمال لوجود تخصيصٍ، فلو قيل: هل ترى فُطورًا؟ لاحتمل السّامِعُ وجودَ بعض الفطور أو التَّفاوت في موضعٍ دون آخرَ، أما وقد قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، فإنَّ هذا الأسلوب ينفي وجودَ أدنى شيءٍ مِنَ الفطور على وجهِ القَطْع، فلا يُتصوَّر أن يوجَد تفاوتٌ مَهْما دَقَّ أو خَفيَ، فـ ﴿مِن﴾ هُنا تُزيل كُلَّ لُبْسٍ، وتُغلق باب الاحتمال؛ لتُقرِّر أنَّ الخلقَ في غاية الإحكام والكمال بلا نَقْصٍ ولا خَلَلٍ[2].

سِرُّ التَّعبير بالفطور بَدَلَ التَّفاوت:

نـفـي أدقِّ التَّفاوت وأخصِّه تـنـويـعٌ لـوجـوه الكمالِ والإحكام في الخَلْقِ

لم يقل سبحانه: (هل ترى من تفاوت)، بل قال: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، وفي هذا تنويع في التَّعبير، وتوسيعٌ في المعنى؛ إذ بَعْدَ نفيه

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 27.

(2) الباليساني، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2595.

للتَّفاوت في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾، وهو يشمل أنواعًا مُتعدِّدة من الخللِ والاختلال؛ نفى اللّهُ تعالى نوعًا آخر من النَّقص هو أدقُّ وأخصُّ، وهو الفُطور، أي: التَّصدُّع أو الشُّقوق والفُتوق والخروق[1]، فجاء التَّعبيرُ بـ ﴿فُطُورٖ﴾، بدلًا من تكرار لفظ (تفاوت)؛ ليُظهر تَنَوُّع وجوه الكمال والإحكام في الخلق، وينفي كلَّ ما يُتوهَّم مِن خلَلٍ، وإن دقَّ بأبلغِ الأساليب البلاغيَّة.

دلالة التَّعبير بالفطور صيغةً:

المبالغة في نفي أيِّ نوعٍ مِنَ الفُطور

لفظة ﴿فُطُورٖ﴾ تحتَمِلُ وجهين؛ إن أُخذت مصدرًا من فَطَرَ يفطُر فُطورًا؛ دلَّ ذلك على المُبالغة في النَّفي، أي: لا ترى أدنى تصدُّع، أو تفسُّخ في الخلق، وإن أُخِذت جمعًا لـ"فَطْر" أو "فُطر" بمعنى شقّ، أو صدع[2]، وذلك نكرَةٌ في سياق النَّفي؛ دلَّ ذلك على العموم والشُّمول، أي: لا ترى أيَّ نوع من الفطور، كَبُرَ، أو صَغُر، ظاهرًا كان ذلك أو خفيًّا.

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

الدَّلالة على أنَّ المعطوف بعدها أشدُّ أثرًا في تحقيق الغرض مِن سابقِه

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ ليُفيدَ التَّراخيَ الرُّتبي، وهو من خصائص هذا الحرفِ في عَطْفِ الجُمل؛ إذ تَدُلُّ ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ المعطوف بعدها أعظَمُ وأشدُّ أثرًا في تحقيق الغَرَضِ مِن سابقِه، ففي هذا السّياق إعادةُ البصر مَرَّتين، ليست مُجرَّد تكرار، بل هي تأكيدٌ أبلَغُ وأعمَقُ لِمَعْنى انتفاء التَّفاوت؛ إذ ترسِّخ في النَّفس العِلْمَ الجازِم بكَمال الخَلْقِ وتمام الإتقان، وتنتقل بالمُتأمِّل من مرتبةِ المُلاحظة إلى مرتبة اليقين الرّاسخ بعظمة الصَّنعة الإلهيَّة[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 582.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 582، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 9/ 356.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 19.

دلالة الأمرِ في لفظِ ﴿ٱرۡجِعِ﴾:

إظهار عَجْزِ النّاظر عن أن يَجِدَ أدنى خللٍ مهما أجهَدَ بصرهُ، وأعادَ نظرَهُ

الأمر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ لا يُراد به حقيقَتُه فَقَط، بل يَحْمِلُ في طيّاته معنى التّعجيز والتّحدّي؛ إذْ يُطلَب مِن الإنسان أن يُعيد النَّظرَ؛ ليتبيَّن له إن كانَ في خلق السَّماوات شيءٌ من الخلَلِ أو النَّقص، ثُمَّ يُؤمر بعد ذلك بتَكْرارِ النَّظر مرَّتين، فجاء التَّحدّي مضاعَفًا، فهو تعجيزٌ إثْرَ تعجيزٍ، وتحدٍّ في أعقاب تَحَدٍّ، فالأمرُ لإظهار عَجْزِ النّاظر عن أن يَجِدَ أدنى خلل مَهْما أجهد بصرَهُ، وأعاد النَّظر، وهذا من أبلغ أساليبِ البيان في إظهار الإتقانِ الكامل في خَلْقِ اللّه تعالى[1].

دلالة تكرار الأمر في ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ﴾:

التّأكيد على ضرورة ترديدِ النَّظر ومزيد التَّأمُّل للوصول إلى اليقين

جاء فعل الأمر ﴿فَٱرۡجِعِ﴾؛ ليكون نفيُ التَّفاوت عن يقينٍ دونَ تقليدٍ، بَل عَن مُشاهدَةٍ وتدبُّر، فكان الأمرُ بإرجاع البصَرِ بعدَ نفي التَّفاوت؛دعوةً لتثبيتِ اليَقين عن طريق المُعايَنَةِ والتَّجربة، لا بمجرَّد التَّصديق الموروث، ثُمَّ جاء التَّكرار بالأمرِ الثّاني: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ﴾؛ ليؤكِّد على ضرورةِ تَرْديدِ النَّظر وزيادةِ التَّأمُّل؛ لأنَّ النَّظرة الأولى قد تُخْطِئ، أو تُقصِّر، فكانت الإعادةُ سبيلًا إلى إغلاق بابِ الشَّكِّ وإقامة الحُجَّة القاطعة[2]. فالتَّدرُّج في الأوامر يُشير إلى أنَّ كمال الخلق لا يتجلّى في لمحةٍ، بل في نظرٍ مُتَرَوٍّ ومتكرِّر، يُفضي إلى طمأنينة القلب ويقين العقل، ويقطع المعذرةَ عمَّن يزعم وجودَ نَقصٍ أو خلَلٍ[3].

سِرُّ التَّعبير بلفظ التَّثنية ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾:

التّنبيه على التّكرار والمُراجعة في التّأمُّل

التَّعبير بالتَّثنية في قوله: ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾؛ للتّنبيه على أنَّ النَّظرة الواحدة لا تكفي، بل لا بُدَّ من التَّكرار والمُراجعة في التَّأمُّل، فإنَّ من

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 11.

(2) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 216.

(3) القنوجي، فتح البيان: 14/ 232.

استِعمالاتِ صيغةِ التَّثنيةِ في الكلامِ أن يُرادَ بها التَّكريرُ، وذلك كما في قولِهم: لبَّيك وسَعدَيك، يُريدون تَلبياتٍ كثيرةً، وإسعادًا كثيرًا، وقولِهم: دَواليك[1]، وكأنَّه يقول: أعِد النَّظر مرَّة واثنَتَين، بل مِرارًا، فلن ترى خللًا، ولن تعثُرَ على شَقٍّ أو صدع، وستُضطر في النِّهاية أن تُذْعِنَ؛ لاستحكام هذا البناءِ الكونيِّ المُتقن، الذي لا فُطور فيه ولا خَللَ. واختيار التَّثنية تحديدًا فيه إشارةٌ بلاغيَّة إلى أنَّ الاقتصار على أقلِّ تكرارٍ مُمكن يكفي في العادةِ لكَشْفِ العيوب، فإذا لم يُفضِ هذا القدرُ إلى اكتشافِ الخلَلِ؛ دلَّ على أنَّ النِّظام مُحكَمٌ غايةَ الإحكام، وأنَّ الاختلال مستحيلٌ فيه بطبيعته، ومن هنا كانَ انفطارُ السَّماوات وانشقاقُها إيذانًا بانهدام العالَم كلِّه وانقضاء نظامه، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النَّبأ: 19]، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: 1]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1][2].

سِرُّ التَّعبير بـ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ بَدَلَ مَرَّتين:

الإيحاء بالتَّكرار والحركة والرُّجوع المقصود

كلمة ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ هي تثنيَةُ (كرَّة)، والكرَّة مأخوذة من الكرِّ، بمعنى: الرُّجوع والعودة بعد انقطاع، كحالِ المُقاتل الذي يكرُّ على عدوِّهِ بعد أنْ يَفِرَّ فرارًا مَصنوعًا، والتَّعبير بلفظ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ بدلًا من (مرَّتين) له دلالَةٌ بلاغية دقيقةٌ؛ إذْ لَم يَشِع استعمال "كرَّة" في لغةِ العرب؛ للدَّلالة على العددِ (اثنين)، كما شاع في "مرَّة"، فالمقام في قوله تعالى مثلًا: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: 229]، يقتضي استخدامَ لفظ "مرتين" دون غيره؛ لأنَّ لفظ "مرَّة" هو الأكثر شيوعًا وتداولًا في التَّعبير عن العدد، فهو أدلُّ على المقصود في هذا السّياق الذي يُراد فيه بيانُ العددِ المحدَّد للطَّلاق المشروع. أمّا هنا؛ فكان اختيارُ لفظ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ أنسبَ في هذا السّياق، فـ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ تثنيَةٌ لا شَفْع الواحد،

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 576، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 19.

بل يُراد بها التَّكرار، وهذا يوحي بالتَّكرار المطلق دون حصرهِ في مرَّتين، ممّا يُفْهَمُ منه أنَّ النَّظر لا يُطلب مرَّة أو مرَّتين فقط، فلفظ (كرَّة) فيه من الإيحاء بالتَّكرار والحركة والرُّجوع المقصود، وليس بمجرَّد العدِّ، حتَّى يظهر للمُتأمِّل يقينًا أنَّه لا خللَ ولا فطور(1).

سِرُّ الإطناب بتَكْرارِ الجُملة:

الـزِّيـادة في التَّذكير والتَّنبيه في الدَّعوة إلى النَّظر المُتكرِّر

ورد الإطنابُ بتَكْرارِ الأمر بـ ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، ثُمَّ قوله: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾؛ زيادةً في التَّذكير والتَّنبيه في الدَّعوة إلى النَّظر المُتكرِّر؛ ليقع اليقينُ الجازم بكمال الخَلْقِ، فيكون الإطْنابُ وسيلَةَ تعظيمٍ للتَّأمُّل، وتعجيزًا للمُعترض، وتثبيتًا للحقيقة.

سِرُّ التَّعبير بالانقلاب بَدَلَ الرُّجوع:

كونه أدقَّ وأبلغَ في تصوير حال النّاظر العاجز

جيء بلفظ ينقلب بدلًا من يرجع في قولِه تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾؛ دفعًا لالتِباسِه بالفِعْلِ المذكور قبله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾، وللدَّلالة على الرُّجوع مع الذُّلِّ والخُسران، فجاء التَّعبير أدقَّ وأبلغ في تصوير حال النّاظر العاجز، وهذا مِن دقائق البيان القرآنيِّ وأسرار إعجازه(2).

دلالَةُ وضع الظّاهر ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ موضِعَ المُضمر في الجُملة الكريمة:

التَّنبيهُ على تَمام الإتقانِ في خَلْقِ اللهِ تعالى

جاء التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ بدلًا من الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾؛ لبيانِ أنَّ العَيْنَ - وهي أداةُ الإدْراكِ - هي التي تعود خائبَةً ذليلَةً، ممّا يُبرز أنَّ وسيلةَ الكَشْفِ نَفْسَها عجزَت عن إدراك أيِّ خلل، فدلَّ ذلك على كمال الصَّنعة وانتفاء النَّقص، وهذا مِن بديع الأسلوبِ في التَّنبيه على تمام الإتقانِ في خَلْقِ اللهِ تعالى(3).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 222، وزكريا الأنصاري، إعراب القرآن: 1/ 444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 19، 20.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 20.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 288.

دلالة التَّقييدِ بالحالِ ﴿خَاسِئًا﴾:

التَّصوير البليغ لفَشَلِ البصر في إدراك أيِّ نقصٍ في خلق الرَّحمن

الخاسِئُ هو المطرود المُبعَد عن مطلوبه، الحريصُ على شيءٍ لم يُدركه، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: 108]، أي: أُبعِدوا عنها صاغرين، وكذلك الحالُ مع البَصَرِ في هذه الآية، فهو يَسْعى حثيثًا، ويجهد في التَّفتيش عن خللٍ أو فُطورٍ في خَلْقِ السَّماء، فلا يَعْثُر على شيء، فيعود إلى صاحبه مُهانًا، مَخذولًا، مَحرومًا ممّا أراد، وهذا من أبلغ التَّصوير لفشل البصر في إدراك أيِّ نقص في خلق الرَّحمن(1).

سِرُّ التَّعبير بصيغَةِ (فعيل) في ﴿حَسِيرٌ﴾:

الـدَّلالـة على بلوغ الغاية في الإعياءِ

الحَسيرُ: (فعيل) بمعنى فاعلٍ، يُقال: حسَرَ البصرُ؛ إذا انقطع نظرُه من طول مدًى، ويجوز أن يكون بمعنى مفعولٍ، من قولهم: حسرْتُ البعير، أي: سِرْتُ عليه حَتَّى انقطع، فهو محسورٌ وحَسير، فهو بصرٌ عاد إلى صاحبه مَكدودًا مُتعبًا، قد بلغَ غايةَ الإعياء بعد عناءٍ لم يُفضِ إلى نتيجةٍ، في إشارةٍ بليغةٍ إلى كمال خلق الرَّحمنِ وإتْقانِ صُنْعه(2).

---

(1) ابن جُزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 395، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 458.

(2) ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 12/ 7592، والنَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 14/ 506، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 583.

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ [الملك: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان كمال السَّماء وزينتها بعد نفي النَّقص عنها

لمّا أبان اللّهُ ﷻ عن عظيمِ صُنعِه، وبديعِ خَلقِه، ونبَّه العقولَ إلى ما انطوى عليه الكونُ من دقائقِ التَّقدير، ودعا الأبصارَ إلى التَّأملِ والتَّكرارِ في النَّظر، وكان السّامعُ أوَّلَ ما يُصوِّبُ نَظرَه إلى السَّماءِ؛ لِما لها من شرفِ المنزلة، وبديعِ الهيئة، وروعةِ التَّكوين، وعلوِّ البنيان، فكان بحيثُ يُتوقَّعُ الإخبارُ بما زيَّنها اللّهُ به من مصابيحَ تتلألأ، وزينةٍ تُبهر العقول[1] - انتقَلَ النَّظم الكريم مِن أدلَّةِ انتفاءِ الخَلَلِ عن خِلقةِ السَّماواتِ، إلى بَيانِ ما في إحدى السَّماواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ، فلَمّا نفى عنها في خَلْقِها النَّقصَ؛ بيَّن كمالَها وزينتَها، فكما نُزِّهَت عن العيبِ في خلقها وتكوينها، أُبرزَ ما حُلّيَت به من محاسنِ الصَّنعة، ودقائقِ الإتقان، وزينةِ الخلق[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) تدُلُّ تصريفاتُها على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[3]، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّينِ الَّذي هو القبحُ، وازَّيَّنَتِ الأرضُ، وتَزَيَّنَتْ، أي: حَسُنَت، وبَهُجَتْ بِنَباتِها، ثُمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ لكلِّ ما يُتزيَّنُ به، فالزّينةُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيءٍ يُتَزيَّنُ به، وزَيَّنَ الشَّيءَ: جعلَ الشَّيءَ ذا زينةٍ، أو إظهارُهُ زينًا، أو نسبتُهُ إلى الزَّينِ[4]، والمعنى هُنا في الآيةِ: جمَّلنا[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 229، 230.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 875، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 80.

2) ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: المرادُ بها النُّجوم، وأصلُه من (صبح)، والصُّبحُ والصَّباحُ: أوَّلُ النَّهار، والإصباحُ في الأصل، مصدرُ: أصبحَ، والأصلُ فيه: نورُ النَّهار، وإنَّما قيل له: صُبْحٌ للضَّوء الذي يضيء للنّاس من النَّهار، وأصبحَ، أي: صارَ في وقت الصَّباحِ، أي: قبلَ طُلوعِ الشَّمس وبعدَ طُلوعِ الفجر، والمصابيحُ: السُّرج، سُمّيت بها الكواكِبُ والنُّجوم لإضاءتها[1].

3) ﴿رُجُومًا﴾: الرُّجومُ: جمعُ رَجْم، وهو مصدرٌ سُمّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالرِّجام، أي: الحجارة[2]، والرُّجْمة بالضَّمِّ: واحد الرُّجَم، والرِّجام: وهي حجارةٌ ضِخامٌ، والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرودُ عَنِ الخَيراتِ، وعن منازلِ المَلأ الأعلى، وفُسِّرت صِفَتُه هذه بالمرجوم بالكواكب، أي: شأنه وشأن قَبيلِه أن يُرْجَموا بالكواكب، أو: رجيم ملعونٌ مرجومٌ باللَّعنة مبعدٌ مطرود، وكلُّ (رجيم) في القرآن، فهو بهذا المعنى، فالرُّجوم الحجارة الَّتي تُرمى بها الشَّياطينُ[3].

4) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أعْتَدَ الشَّيءَ: أعَدَّه، وأصلُه: أعدَدَ، أبدِلَتِ الدّالُ تاءً[4]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إليهِ، كالإعدادِ[5]، والعينُ والدّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعنيَين كُلّيّين، أحدُهما: الإحصاءُ، وهو العَدُّ، والآخرُ: تهيئةُ الشَّيءِ، وهو الإعدادُ[6]، وعليه: فمعنى الإعداد في الآية الكريمة يَحْتَمِلُ أنَّه إعدادُ تقديرٍ وإيجادٍ، ويَحْتَمِلُ أنَّه إعدادُ تهيئَةٍ وتحضيرٍ[7].

5) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، من سَعر، و(سعر) تدُلُّ تصريفاتُه على اشتعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، ومِن ذلك السَّعيرُ، وهو سعيرُ النّار، واستعارها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الَّذي يُسعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النّار[8]، وسَعَرتُ النّار

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 508، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 583.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/ 528، وابن سيده، المُحكَم: (رجم)، والزَّمخشروي، أساس البلاغة: 1/ 341.
(3) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم)، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310.
(4) ابنُ سيدَه، المُحْكَمُ: (عتد).
(5) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (عَتَدَ)، والمَناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 236.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد).
(7) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 232، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 22، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سعر).

وأسعَرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[1]، والسَّعيرُ: أشدُّ أنواع النّار التهابًا و اشتِعالًا وإحراقًا، والمُسَعَّرَةُ: المُلتهبةُ، و(سعير) على وزن (فعيل) بمعنى: (مفعول)[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إتقانُ الخلقِ وزينةُ السَّماء من أدلَّةِ الوحدانيَّة والقدرة

أعقبَ اللهُ سبحانه ما سلَفَ من أدلَّةِ الإتقانِ والكمال، بذِكْرِ شواهدَ أخرى على تفرُّده بالوحدانيَّة، وكمال قدرته، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، فذكَر أنَّه زيَّن أقربَ السَّماوات إلى الخلق بتلك النُّجوم السّاطعةِ المضيئة، الَّتي لم تقتصر حِكمتُها على الزّينة، بل جعلها سُبحانه رجومًا تُرمى بها الشَّياطين؛ إذا ما حاولت استراقَ السَّمع من ملأ السَّماء، ثُمَّ أعقب ذلك بوعيدٍ شديد؛ إذ أعدَّ لهؤلاء المُعْتَدين في الدّار الآخرة عذابًا هو أشدُّ الحريق؛ جزاءً وفاقًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بالواو في ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾:

بيان ما انطوى عليه خلْقُ السَّماوات من حُسْنٍ بعد تقرير خُلوِّها من أدنى خَلَلٍ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا نحويًّا، مُفتتحٌ به غرضٌ جديد، سيق لابتداء ذِكْرِ أدلَّةٍ أخرى تُظهِر تمامَ قدرة اللهِ ﷻ، وتُبرِز كمالَ حكمتِه في الخلق، وهو في الوقت ذاتِه بيانٌ لما انطوى عليه خلقُ السَّماوات من أبهى صوَرِ الجمال وروائع الحُسْن، بعد أن سَبَقَ تقريرُ خُلوِّها من أدنى خَلَلٍ أو نَقْصٍ[4].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسع).

(2) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 259، والباليساني، حسن البيان: 6/ 2600، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 14.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 4/ 263.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 148.

سِرُّ الالتفات من الغَيْبَة إلى التَّكلُّم:

الإشـارةُ إلى موضعِ العِبْرَة، والتَّوجيهُ إلى الدَّلالة القريبةِ مِن مَدارك القُلوب

افتُتِح الكلامُ في الآيات السّابقة بصيغة الغَيْبَةِ، كما في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، ثُمَّ جاء الانتقالُ بعد ذلك إلى صيغة التَّكلُّم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهذا الالتفاتُ من الغَيبة إلى التَّكلُّم يَحمِلُ في طيّاته تعظيمًا جليلًا؛ إذ جاءت صيغةُ (نا) الدّالّة على عظمة المتكلِّم، وهو أسلوبٌ من أساليب التَّفخيم في خطاب الجلالِ، ولم يكُن هذا التَّحوُّل في الخطاب إلّا لحكمةٍ بليغة؛ فإنَّ السَّماء الدُّنيا بما حوَتْهُ مِن نجوم وكواكبَ، تمثِّل إحدى أظهر الآيات الدّالَّة على القدرة الإلهيَّة الباهرة، وهي مِمّا يكثُر في القرآن الحثّ على النَّظر فيه والتَّأمُّل في خَلْقها، فجاء الالتفاتُ هُنا إشارةً إلى موضع العِبْرَة، وتوجيهًا مباشرًا إلى الدَّلالة القريبة من مدارك القلوب المُتفكِّرة؛ إذْ بِذَلِكَ تترسَّخ الحقيقةُ، وتَدْنو من النُّفوس المُستَبصِرَة[1].

سِرُّ التَّعبير باللّام و(قد) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

توكيد مضمونٍ ظاهرٍ للعيان، يُـدرِكُـه الكافرُ قبل المؤمن

صُدِّرت الآية الكريمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، مُتضمِّنًا أسلوبَ القَسَم، وهو مِن أقوى أساليب التَّوكيد، قد سيقَ لإظهارِ بالغ العناية بمضمون الجُملَة، وإبراز عظمَةِ ما اشتملت عليه مِن مَعْنًى، فاللّام لامُ القسم، و(قد) حرفُ تحقيقٍ؛ اجْتَمَعا لتوكيدِ مضمونٍ ظاهرٍ للعيان، يُدْرِكُه الكافرُ قبل المؤمن، لكنَّ الكافر - لجحوده - يُعْرِضُ عنه، فجاء هذا التَّأكيد؛ ردًّا على إنكاره، وما ذُكِر في هذا الموضع هو مِن أعْظَم أدلَّةِ الإبداع؛ إذ يتعلَّق بزينة السَّماء الأقرب إلى الإنسان، تلك التي

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 200.

تُرى عيانًا وتبهر الأبصار ليلًا بكواكبها اللّامعة، وقد جعلها الحَقُّ سبحانه في آنٍ واحد زينةً بديعةً ورجومًا تُرمى بها الشّياطينُ(1).

دلالة فعلِ التَّزيين على انفكاك المزيَّن عن زينته:

الـدَّلالـة على أنَّ المصابيح ليست جُزءًا من السَّماء

جاء التَّعبير بالفعل (زَيَّن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ لأنَّ التَّزيين إنَّما يكون لشيءٍ مُنفصل عن الذّات، فيُقال: تزيَّنت المرأة بالحُلِيِّ، والحليُّ ليست من ذاتِ المرأة، وإنَّما هو شيءٌ يعرضُ لَها، ويقال: تزيَّنت بالكُحل، فالكحل ليس منها، إنَّما هو شيء زائدٌ عليها، فالتَّعبير بالزّينة يَدُلُّ على أنَّ المصابيح ليست جُزءًا من السَّماء، فالسَّماء مزيَّنة بكواكبَ مضيئةٍ باللَّيل كما يزيّن النّاسُ منازلهم بالسُّرج(2).

بلاغة الإدماج في ذِكرِ التَّزيين:

إدراج لفتةِ الامتنانِ لتُنَبِّه القلوبَ، وتُشعِرَ الإنسان بجمال العطاء الإلهيِّ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يَلوحُ وجهٌ من وجوه البلاغة، وهو الإدماج؛ إذ جاءَ ذِكرُ التَّزيين في سياق الاستدلال على القُدرة، مُدمَجًا بالامتنان، على معنى: زيَّنّاها لكم، على نَحْو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النّحل: 6]، ففي ثَنايا الحِجاج العقليِّ أُدْرِجَت لفتةُ الامتنانِ؛ لتُنبِّه القلوب، وتُشعِرَ الإنسان بجمال العطاء الإلهيِّ، ثُمَّ ما لبث أن انتقلَ النَّظم الكريم من هذا التَّزيين الظّاهر، إلى الكَشْفِ عن غرضٍ آخَرَ، وهو رجْمُ الشَّياطين؛ تمهيدًا للانتقال إلى وعيدهم الشَّديد في الآخرة، بل ووعيد مَن اتَّبعهم، فكان الإدماجُ هنا واصلًا بين أدلَّةِ القدرة، وجمالِ الخَلْق، وشدَّة العقاب(3).

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

الإيمـاءُ إلى الجمال والبهاء

يجوز أن يكون قوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ واقعًا على سبيل الاستعارة؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 7، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.

إذ شُبِّهت السَّماء بامرأة تتجمَّل، وأُجري عليها فِعْلٌ مِن خصائصها، وهو التَّزيُّن، فكان من بابِ الاستعارة المكنيَّة؛ لِما فيه من الإيماء إلى الجمال، وحُذِفَ المُشبَّه به، ثُمَّ رُمِزَ إلى المرأة بشيء من خصائصها، وهو التَّزَيُّن. ويجوز حملهُ على الحقيقةِ، فيكون من باب الزّينة الحقيقيَّة الَّتي هي مُطلقة، بدليلِ ذِكْرِ المصابيح بَعْدُ، وهو الأظهر.

إسناد الفعلِ إلى ضمير التَّعظيم:

الـدَّلالـة على أنَّ هـذا الفعلَ الجليلَ لا يَصدُر إلّا عـن عظيمٍ مُقتدرٍ

جاء التَّعبير بضمير الجمع (نا) الدّال على التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ ليؤكِّد أنَّ هذا الفعل الجليلَ - وهو تزيينُ السَّماء بالمصابيح - لا يَصْدُر إلّا عن عظيم مُقتدر، فكما أنَّ خَلْقَ السَّماوات في ذاتهِ آيَةٌ مِن آيات القُدرة؛ فإنَّ تَزْيينَها على هذا النَّحو البديع لا يكون إلّا مِن عظيم فعّال لِما يريدُ ﷻ.

فإسنادُ الفِعْلِ إلى ضمير العظمة يُضْفي على الفعلِ نفسِه مسحةً مِنَ الجلال والهيبة، ويُلفت أنظارَ السّامعين إلى عظمة هذا الخَلْقِ العجيب؛ إذ إنَّ عظمة الفاعلِ توحي بعظمة الفِعْلِ، ومِن فإنَّ هذا الأسلوب البلاغيَّ يَحْمِلُ في طيّاته دعوةً ضمنيَّة إلى التَّأمُّل العميق، والتَّوقُّف المتأنّي أمام هذا الحدثِ الكونيِّ العظيم؛ لاستخلاص ما فيه من أدلَّةِ القُدْرَة، وآثار الحكمة، وإشراقاتِ الجمال الرَّبّانيِّ.

دلالةُ حَذْفِ مُتعلّق ﴿زَيَّنَّا﴾:

التَّزيين وقع لِكُلِّ من يرى السَّماء الدُّنيا من الإنس والجنِّ

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿زَيَّنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وهو واقعٌ محلَّ المفعول الثّاني، وهذا لأنَّ مِن أهمِّ فوائد حذف المُتَعَلِّق إفادةَ العموم، فكأنَّه قال: (ولقد زينا السَّماء الدُّنيا لكلِّ مَنْ يحصل له التَّزيين)، (أو لِكُلِّ من يرى تلك الزّينة، أو ينتفع بها، سواءٌ أكان انتفاعًا ذاتيًّا أو انتفاعًا عَرَضيًّا)، فالتَّزيين وقع لِكُلِّ من يرى السَّماء الدُّنيا من الإنس والجنِّ وغير ذلك من مخلوقات اللّه تعالى.

سَبَبُ تقييد السَّماء بالدُّنيا، ونُكْتَةُ مجيئها بصيغة أفعل التَّفضيل:

كون السَّماء الدُّنيا منصوبةً لأنظار المخاطَبين، وأدلَّةُ الإتقانِ فيها أظهرُ وأقرب

وصفُ السَّماءِ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، لا يُراد به نفيُ وجود الزّينة في سائر السَّماوات، وإنَّما هو توصيف يُعبِّر عن القرب الحِسّي، فـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة للسَّماء، على وزن (فُعلى) من (أدنى)، كما يُقال: العُليا، والمُثلى، والفُضلى، أي: أقربُ السَّماوات إلينا، والسِّرُّ في هذا التَّعبير: أنَّ زينة السَّماء الدُّنيا تُرى عيانًا؛ لقُربها من الأبصار، فهي المشهودةُ المحسوسة، والتي لا يُنكرها أحدٌ، وإن كان في السَّماوات العُلا من الزّينة ما لا نعلَمُهُ. وقد خُصَّت السَّماء الدُّنيا بالذِّكرِ في هذا السّياق؛ لتكون مثالًا بارزًا لإتقان الصُّنْع، فكان ذِكْرُها من باب التَّنصيص على فردٍ من أفراد العامِّ؛ لأجل الإيضاح والتَّفصيل، فالسَّماء الدُّنيا منصوبة أمامَ أنظارِ المُخاطَبين، وأدلَّةُ الإتقان فيها أظهَرُ وأقرب، وهي أقربُ السَّماوات إلى الأرض، والتي تشرف على عالمنا، وتبدو للنّاظرين وكأنَّها ساحة مُعلَّقة مُزدانة بمصابيحَ تتلألأ زينةً وجمالًا، ومن هذه السَّماء القريبة تَنْطَلِقُ الشُّهُب النّاريَّة والرُّجوم السَّماويَّة، تُطارد بها الشَّياطينَ؛ إذا ما حاولت التَّسلُّل إلى الملأ الأعلى؛ طلبًا لاستراقِ السَّمع، فمن خلالها يكون الانتقالُ سهلًا إلى التَّحذير مِنَ الشَّياطين، وكشف مكايِدِهِم، وبيان سوء مصير أتباعِهِم[1].

فائدة التَّعدية بالباء في ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾:

بيان أنَّ التَّزيين ليس مختصًّا بالسَّماء الدُّنيا

الباء في ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بيانيَّة، وتُفيد الإلصاقَ أيضًا، أي: إنَّما وقع التَّزيين بالمصابيح، والتَّزيين ليس منحصِرًا على السَّماء الدُّنيا، فلا يمنع كون بعض الكواكب مركوزةً في السَّماوات فوقها[2]، فتحصَّل إمكانُ وجودِ هذه المصابيح في غيرها، رأيناها، أو لَم نرَها[3].

(1) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21، والخطيب، التَّفسير القرآني: 15/ 1053.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 229.

(3) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 231.

فائدة وصف السَّماء بالدُّنيا بَدلَ الأولى:

مُراعاة القرب مِن منظور الإنسانِ، لا لَمْوْقِعِ الكواكبِ في مدارج السَّماوات

من لطائف التَّعبير القرآنيِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ إذ اختير وصفُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دون (الأولى)؛ لأنَّ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ تدلُّ على القرب الحسّيِّ بالنِّسبة للنّاظر من أهل الأرض، لا على التَّرتيب العدديّ، فالسَّماء الدُّنيا هي الأقربُ إلى أبْصارِنا، وهي التي تَبْدو فيها الزّينة؛ لأنَّ السَّماواتِ إذا كانت شفّافَةً؛ فالكواكب سواءٌ أكانت في السَّماء الدُّنيا أم كانت في سماواتٍ أخرى فوقها، فلا بُدَّ أن تظهر في السَّماء الدُّنيا، وتلوح منها، فيتراءى للنّاظر من الأرض أنَّ النُّجوم قد رُكِّبت فيها[1]، فلا يُنافي إخباره تعالى أنَّه زيَّن السَّماء الدُّنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ مِن النُّجوم فوق السَّماوات السَّبع، فإنَّ السَّماوات شفّافة، وبذلك تحصل الزّينة للسَّماء الدُّنيا، وإن لم تكن الكواكبُ فيها[2].

فالوصف بالدُّنيا - وهو من الدُّنوِّ والقربِ - جاء لمُراعاة منظور الإنسان، لا لموقع الكواكب الحقيقيِّ في مدارج السَّماوات.

دلالة اختيارِ لَفْظِ المصابيح المُشتقِّ من الإصباحِ:

إنارَةُ الكَواكِبِ الأرضَ لَيْلًا

جاء لفظ (مصابيح)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، مُشتقًّا من الإصباح؛ لأنَّه لمّا كان الصُّبح في أوَّل النَّهار ينبَثِقُ من الظَّلام، فيكون الضَّوءُ شديدًا؛ فكذلك هذه المصابيح في الدُّنيا في اللَّيل، تُنير الأرضَ، فيكون ضوؤُها شديدًا. وقد يَرِدُ على ذلك اشتباهُ أنَّ ضوءَها في عين النّاظر ليسَ مثلَ ضوءِ الصُّبح، ويُجاب عنه: بأنَّها مثلُه، لكنْ لبُعد مكانِها اختلفت في عَيْنِ النّاظر، ولم تختَلِفْ على الحقيقة، فضوءُ الصُّبح من الشَّمس، والشَّمس أحدُ هذه المصابيح، فلمّا بَعُدت؛ خفتَ ضَوْؤُها، فقد تكون في السَّماء الدُّنيا

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 583، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 81.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

على بُعْدٍ، وقد تكون في السَّماوات التي فوقها؛ لأنَّ السَّماواتِ على ما قيل: إنَّها شفّافة[1]، ولمّا كانت هذه المصابيح من القوَّة بمكانٍ؛ جازَ لنا أن نراها على أنَّها في الدُّنيا مع أنَّها في السَّماوات التي فوق الدُّنيا.

الاستعارَةُ في التَّعبير بالمصابيحِ عَنِ النُّجومِ:

إظْهارُ المَشْهَدِ الكونيِّ في صورةٍ جماليَّة مُبْهِرَةٍ

في قوله تعالى: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ استعارة تصريحيَّة بديعة؛ إذ شُبِّهت النُّجوم والكواكب بالمصابيح، وحُذف المشبَّه - وهو النُّجوم - وأُبقي المُشبَّه به - وهو المصابيح - على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وذلك لأنَّ العادة أنَّ النّاس يزيِّنون بيوتهم ومساجدَهم بالمصابيح؛ لِما فيها من إضاءَةٍ وحُسن منظَرٍ، فجاء التَّعبير القرآنيُّ مُستحضرًا هذا المعنى، لكنْ مع فارقٍ بيِّن، فمصابيحُ السَّماء لا تُضاهى في نورها وجمالها، فهي أبهى منظرًا، وأشدُّ إشراقًا[2]، وهذا التَّشبيه يُضفي على المشهد الكونيِّ صورةً جماليَّة مُبهرة؛ إذ تبدو النُّجوم في أعين النّاظرين كأنَّها جواهرُ منثورة، تتلألأ في صفحة السَّماء، فتزيدُها بهاءً ورونقًا، وكأن السَّماء قد ازدانَتْ بقلائدَ مِن نورٍ، في مشهد يُبهر الأبصارَ، ويَهْدي القلوبَ.

سِرُّ التَّعبير بالتَّشبيه البليغ على وجْهٍ في المعنى:

بيان أنَّ تلك النجوم والكواكب لا يُدانيها شيءٌ في إشراقِها وجمالِ مَنْظَرِها

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ واردًا على التَّشبيهِ البليغ، بأن شُبِّهت فيه النُّجوم بالمصابيح في حُسن المنظَرِ وضياء النّور، فصُرِّح بالمشبَّه به - وهو المصابيح - وحُذِف المشبَّه - وهو النُّجوم - لدلالة السّياق عليه، فجاء التَّشبيهُ مؤكَّدًا، خاليًا من الأداةِ ووجه الشَّبه، فالمعنى: النُّجوم مصابيحُ تضيء صفحةَ السَّماء، وتزيّنها كما تُزيَّن المجالسُ والمساكن بالمصابيح، لكنَّها مصابيحُ لا يُدانيها شيءٌ في إشراقها وجمالِ منظرها[3].

(1) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 458، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 234.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 188، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 150.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.

سِرُّ ذِكْرِ المصابيحِ بصيغةِ مُنتهى الجموع:

الدَّلالة على كثرة هـذه المصابيح وتنوُّعها

وردَ لفظُ (مصابيح) على زِنَةِ (مفاعيل)، وهو من صيَغِ منتهى الجموع، أي: مُنْتَهاها في الكثرة والتَّنوُّع والعدد؛ لأنَّ الجمع قد يُجْمَعَ أكثر من مرَّة، فجمعٌ، وجَمْعُ الجمع، وجَمْعُ جَمْعِ الجمع، لكنْ لِكُلِّ جَمْعٍ لها يُعطي كثرةً أكثَرَ، هي هُنا الدَّلالةُ على كثرتها في العدد وفي النَّوع، وفي الشَّكل، وفي اللَّون، ونحو ذلك، وهو ما تشهد له العَيْنُ النّاظرة في علوم الأفلاك[1].

دلالةُ تنكير كلمةِ (مصابيح):

الـدَّلالـة على الـتَّـعـظـيـم والتَّكثير

جاء لفظُ (مصابيح) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ مُنَكَّرًا؛ لِما في التَّنكير من دلالةٍ بليغة على التَّعظيم والتَّكثير؛ إذْ لا يُراد بها مجرَّدُ مصابيحَ معلومةٍ مألوفة، بل هي مصابيحُ خارجة عن نطاقِ الإدراك البشريِّ، في حجمها وضوئها وجمالها، لا تُشبه ما اعتاده النّاس في دورهم ومساجدهم، فالتَّنكير هنا يفيد أنَّها مصابيحُ عظيمة في قدرها، كثيرةٌ في عددها، مُختلفة في هيئتها، تُنير صفحة السَّماء، وتُبهِر النّاظرين[2].

فائدة الإضمار في: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا﴾:

تـنـوُّع المعـاني وتَـعَـدُّد الاحـتـمـالات دلالة على سعة التَّعبير القرآنيّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ يعود ضمير الغَيبةِ في (جعلناها) بِحسب الظّاهر إلى المصابيح، أي: إنَّ هذه المصابيح قد جُعِلت رجومًا يُرمى بها الشَّياطين، وهو من قبيل إسناد الفعلِ إلى الكُلِّ، مع أنَّ الفاعل الحقيقيَّ بعضُه، فبعضُ النُّجوم تبدو مضيئةً، ثُمَّ تلوح منقضَّة، وتُسمَّى الشُّهبَ، ويكون هذا الإسناد إلى الكلِّ، كما يُسند الفعلُ إلى القبيلةِ، فيقال: قاتَلَتِ القبيلة، والمُراد: بعض أفرادها[3].

---

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني: 6/ 132.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 9.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 21.

وقد يُحمَلُ المعنى على أنَّ الشُّهب الَّتي تُتبَع بها الشَّياطين هي جزءٌ مُنْفَصِلٌ مِن جرم النَّجم أو من ناره، فليست النُّجومُ نفسُها هي التي تُرمى، بل تَخْرُج منها نارٌ أو لهب كقبسٍ يُنتزَعُ مِن مَوْضِعِه، مع بقاءِ النَّجم في موضعهِ لا يَزولُ عنه(1).

وهناك وجْهٌ آخَرُ في المعنى، وهو أن يَعودَ على السَّماء الدُّنيا نفسِها، بتقدير: (وجعلنا منها رُجومًا للشَّياطين)، فحُذِف حرفُ الجرِّ، أو نُزِّل الموضع الذي تخرُج منه الشُّهب منزلةَ نفسِ الشُّهب، على سبيل المجازِ في الإسنادِ المكانيِّ(2).

وفائدةُ عودِ الضَّمير عليها كُلِّها دون تعيينِ اللَّفظ الصَّريح في ﴿وَجَعَلۡنَـٰهَا﴾، هو تنوُّع المعاني وتَعَدُّد الاحتمالات، فتكون: (جعلناها)، أي: المصابيح، أو الشُّهُب المُتَّخذة من المصابيح، أو السَّماواتِ نفسَها، والمعنى: جعلنا هذه السَّماوات رجومًا للشَّياطين بحيث من يقترب منها يَحْتَرِق، وهكذا تتعدَّد الأوجه البيانيَّة في هذا الضَّمير؛ دلالةً على سعة التَّعبير القرآنيِّ، ودقَّة تنزيل الألفاظ في مراتبها البلاغيَّة.

بلاغة التَّعبير بالمجاز العقليِّ:

وقْعُ الرَّجم أهْيَبُ، والمشهد أبلغُ، والتَّأثير أعمقُ عند نسبة الرَّجم إلى السَّماء

ذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ الضَّمير المنصوب، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾، يعود إلى السَّماء الدُّنيا، بتقدير: (وجعلنا منها رُجومًا)، وهذا التَّأويل يستقيم على وجهين؛ إمّا أن يكون من باب حذفِ حرف الجرِّ، أي: جعلنا من السَّماء الدُّنيا رُجومًا، وإمّا أن يكون من قبيلِ المجاز العقليِّ؛ إذ نُزِّل المكان - وهو السَّماء - منزلة ما يَصْدُر منه، فجُعِلت السَّماءُ نفسُها كأنَّها هي التي تُلقي الرُّجوم(3)، وفي هذا إيحاءٌ بالعظمة والرَّهبة؛ إذْ حين تُنسب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، والسّيواسي، عيون التَّفاسير: 4/ 232.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.

الرُّجوم إلى السَّماء نفسِها، يتعاظَمُ أثرُها في نفس السّامع، ويُشْعِرُ أنَّ السَّماء بأسْرِها قد سُخِّرت لصدِّ عدوان الشَّياطين، فيكون وقع الرَّجم أهيبَ، والمشهدُ أبلغ، والتَّأثيرُ أعمقَ.

الدَّلالة على كثرة الشَّياطين وكثرة الرُّجوم التي يُرجَم بها وقوَّتها

فائدة التَّعبير بـ ﴿رُجُومًا﴾ مادَّة وصيغةً:

المُستعمَل في الرَّجم هو الحجارة، وهو الإلقاء والرَّمي، والرُّجوم: جمعُ رَجْم، وهو في الأصل مصدر: رجمه رَجْمًا - من باب نصر - إذا رماه بالرِّجام، أي: بالحجارة، فهو اسم لِما يُرْجَم به، أي: ما يَرْمي به الرّامي غيرَه من حجَرٍ ونحوه؛ تسميةً للمفعول بالمصدر، مثل: الخلق، بمعنى: المخلوق[1]، فعبَّر بالرَّجم، والمُراد منه اسم المفعولِ؛ للدَّلالة على قوَّة الرَّجم، وجُمِعَ رَجْمٌ، وهو مصدرٌ، مع أنَّ المصادر لا تُجمع - في الأصلِ - لأنَّ المصدرَ ها هُنا يُراد باسم المفعول، ولا يُراد به معناهُ المصدريُّ، وهذا الجمع يدلُّ على كثرة الشَّياطين وكثرة الرُّجوم التي يُرجَم بها، ولهذا جُمِعَ الرَّجم على رجوم، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾.

ويجوز أن يكون لفظ ﴿رُجُومًا﴾ باقيًا على مصدريَّته، وجُمِعَ المصدَرُ ههنا؛ لأنَّ له حكمَ الاسم الجامد[2].

الدَّلالة على التَّعظيم والقوَّة والشِّدَّة

فائدة تنكير ﴿رُجُومًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿رُجُومًا﴾، مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾؛ لإفادةِ التَّعظيم والقوَّة والشِّدَّة، فهو تنكيرٌ يُبرِز ما في هذه الرُّجوم من قوَّة عظيمةٍ وشدَّة نافذة، تجعَلُها صالحةً لرَدْعِ الشَّياطين وطَرْدِهم، بل وإرهابهم، فلا يَتَجَرَّؤون على تخطّي حدودِ السَّماء.

فائدة التَّعريف في ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾:

عُبِّر بالشَّياطين معرفةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 13.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 189، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 10.

تعزيز هيبة هذه الرُّجوم وإبراز حراسَةِ السَّماء حراسةً مُطلقة

﴿لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾، فكأنَّه قال: للشَّياطين التي تستبق السَّمع، وتسترقه[1]، فالتَّعريف هُنا يصلح أن يكونَ للعهدِ العلميِّ، بتقدير: (للشَّياطين التي تُريد أن تَستَرِق السَّمع)، أو أن تكون (أل) جنسيَّة أو استغراقيَّة، كأنَّه قال: (رجومًا لِكُلِّ شيطان يُريد أن يقترب من السَّماء، أو يسترق السَّمع)[2]، وكُلُّها معانٍ تُعزِّز هيبةَ هذه الرُّجوم، وتُبرز حراسةَ السَّماء حراسةً مُطلقة لا يُختَرَق فيها الحدُّ إلّا وقد وُجِّه بعذاب آنيٍّ.

فائدة التَّعبير بمادَّة (أعدَّ):

التَّهكُّم بهم بسبَبِ فسادهم وإفسادهم

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، معناه: أعدَدْنا للشَّياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدُّنيا بالشُّهب عذابَ النّار المُستَعِرَة الموقَدَة[3]، والتَّعبير بصيغة الإعدادِ فيه معنى التَّهكُّم بهم؛ بسببِ فسادهم وإفسادهم، وذلك أنَّ أصل ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ من الفعل (أعدَّ)، ومعنى الإعداد: التَّهيئة لاستقبال الضُّيوف، وهو كذلك أيضًا في المعنى العُرْفيِّ، فاستعمالُهُ في العذابِ استعارةٌ تهكُّميَّة.

سِرُّ انتخاب الفعل الماضي (أَعْتَدَ):

الدَّلالة على أنَّ العذاب قد أُعِدَّ، وهُيِّئَ مسبقًا، وأنَّ النّارَ مخلوقةٌ الآن

استُدِلَّ بقول اللّه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، على أنَّ النّار مخلوقةٌ بالفعل في الزَّمن الحاضر؛ إذ إنَّ استعمال الفعل الماضي (أعتدنا) يدلُّ على أنَّ الإعدادَ قد وقع، وانتهى، فهو خبرٌ عن أمرٍ مُتحقِّق، فجاء التَّعبير بصيغة الماضي؛ ليؤكِّد أنَّ العذاب قد أُعِدَّ، وهُيِّئَ مُسْبَقًا، وهذا من أقوى الأدلَّةِ على سَبْقِ خلق النّار ووجودِها الآن[4]، ففي هذا الأسلوب توكيدٌ لحقيقة قائمة، وتحقيقٌ للوعيد، واستحضارٌ لَهُ كأنَّه واقعٌ مشهود.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876.

(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 229، والرَّسعني، رموز الكنوز: 8/ 202.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.

فائدة التَّعبير بالسَّعير، وأثَر تعذيبِ الجنِّ بالنّار:

التَّعبير بما يَدلُّ على أقصى درجات العذاب الذي لا يُقاس بحرِّه ولهيبه شيءٌ

إنَّ اختيار لفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: وأعتدنا لهم عذاب النار أو عذابَ جهنَّم؛ لم يأتِ عبثًا، بل لحكمة بلاغيَّة ودلاليَّة بالغَةٍ، فالسَّعيرُ: اسمٌ على وزن (فعيل) بمعنى (مفعول)، مِنَ الفِعْلِ (سَعَّر)، أي: أوقد النّار، وأشعَلَها، والسَّعير: هو لهب النّار المتأجِّج، أي: أشدُّ طبقات النّار توقُّدًا واشتعالًا.

وهذا التَّعبير يُناسب المقام؛ لأنَّ المقصود هنا عذابُ الشَّياطين، فجاء التَّعبير بما يدلُّ على أقصى درجاتِ الاحتراق، وكأنَّ المعنى: أعدَدْنا لهُم عذابًا شديدًا لا يُقاس بحرِّه ولهيبه شيءٌ[1]، وهو أشدُّ ممّا خُلِقوا منهُ، فلا يقولنَّ قائل: كيف يُعذَّب الشَّيطان بالنّار، وهو مخلوق منها؟ فالجوابُ: أنَّ نار جهنَّم - وخاصَّةً السَّعيرَ - أشدُّ من مادَّة النّار التي خُلِق منها الشَّيطان، كما أنَّ الشَّياطين تحوَّلوا عن أصل المادَّة التي خُلقوا منها، كما تحوَّل الإنسانُ مِن طينٍ إلى لَحْمٍ وعَظْمٍ وعصَبٍ ودَمٍ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.

(2) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 14، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾ [الملك: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ ما يترتَّب على التَّكذيب من الوعيدِ الشَّديد

تتجلّى مناسبة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لِما قبلها في أنَّ اللّه ﷻ بعد أن خصَّ الشَّياطين بوعيد شديدٍ، وبيَّن أنَّهم يُرجَمون بالشُّهُب، وقد أُعِدَّ لَهُم في الآخرة عذابُ السَّعير؛ انتَقَل إلى وعيدٍ أشملَ، يشمَلُ عمومَ الكافرين، سواءٌ أكانوا منَ الإنس أم مِنَ الجنِّ، فكان هذا مِن باب ذِكْر العموم بعدَ الخصوص؛ ليُفهم أنَّ العذاب ليس مقتصرًا على الشَّياطين فحسب، بل يعمُّ كُلَّ مَن سَلَكَ سبيلَهُم في الكُفْر والعصيان[1].

ومن أوجهِ التَّناسُبِ أيضًا أنَّه لَمّا بُيِّنت تلك الحقائقُ، وأُقيمت الأدلَّة على قُدرة اللّه تعالى وإحكام صُنْعِه؛ جاء في ختام هذا السّياق تأكيدٌ لِما يترتَّب على التَّكذيب والجحود، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فكان هذا تقريرًا لمآل أهل الغفلة بعد عرْضِ مشاهِد القدرة والعِبرة، وإثباتًا لتمام العَدْلِ في جزاء العُصاة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهَنَّمَۖ﴾: هذا اللَّفْظُ اسمُ علمٍ على النّار، وأصلُهُ مِن قولهم: بئْرٌ جَهَنَّم، وجَهَنّام - بتثليث الجيم - أي: بعيدةُ القَعْر، ومنه اشتقاقُها، والمشهورُ عند النُّحاة أنَّها عربيَّةٌ، وأنَّ منْعَها من الصَّرفِ للعَلَميَّة والتَّأنيث، ووزنُها فَعَنَّل، واختُلِف في نونها بين الزّيادة والأصالة، وقيل: هي اسمٌ لجميع نارِ الطَّبقاتِ السَّبْعِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ﴾ [الحجر: 43 - 44][3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 233.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.
(3) الرّاغب، المفردات: (جهنم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 317، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جهن)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ وعيدِ الكافرين ومصيرهم في جحيمِ السَّعير

يُخبر تعالى في هذه الآية عمّا أعدَّه للكافرين به - من الجنِّ والإنس على السَّواء - من عذابٍ أليم في الآخرة، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، أي: إنَّ مآلهم إلى النّار؛ عقوبةً على جحودهم وكُفرهم بربِّهم، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: جهنَّمُ بئسَ منقلبٌ يرجعون إليه، وأسوأُ مآل يَصيرون إليه بعد عنادهِم واستكبارهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة العطف والتَّتميم في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الدَّلالة على التَّشريك في الوعيد للشَّياطين وأتباعهم

جاء التَّعبير بالواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لقصدِ التَّشريك في الوعيد، فبَعدَ أن خُصَّت الشَّياطين بالعقاب في الآية السّابقة؛ عُطِف عليهِم عموم الكافرين[2]؛ للدَّلالة على أنَّ الوعيد لا يقتصر على فئةٍ دون أخرى، بل يشمَلُ كُلَّ من كفرَ باللّه تعالى، سواءٌ كان مِن الجنِّ أم الإنس، فالكلام تَتْميمٌ لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِلشَّياطينِ خاصَّةً، والواو هُنا واوُ العطف؛ لأنَّها تربط بَيْنِ مضمونَيْن مُتناسِبَيْن موضوعًا وسياقًا؛ إذ لَمّا بَيَّن اللّه تعالى أنَّه أعدَّ عذاب السَّعير للشَّياطين مُسْتَرِقي السَّمع؛ أتبعه ببيان أنَّ هذا العذابَ لا يختَصُّ بِهِم وحدَهُم، بل يَشْمَلُ غيرَهُم من أتباعِهِم مِنَ الكافرين، فالعذابُ عامٌّ لِكُلِّ مَن تولّى وأعرض، فكان الرَّبطُ بالواوِ دليلًا على امتدادِ الوعيدِ وشُمولِه.

فائدة التَّعبير بالاسم الموصول:

الدَّلالة على تحقيرهم والإشارة إلى عِلَّة عذابهم

أفاد التَّعبير بالاسم الموصول العمومَ من جهَةٍ، والدَّلالة على التَّحقير والتَّدنّي من جهة أخرى، كمثل قول اللّه ﷻ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: 23]، مع أنَّه حَدَّث عنها في جميعِ السّورة

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 578، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

(2) الباليساني، حسن البيان: 6/ 2603.

بامرأة العزيزِ، وفائدةُ الاسمِ الموصول دون تعيين، بقول: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يُفيد عِلّيَّة الحُكم من جهة ثالثَةٍ، فكأنَّ سائِلًا يقول: لماذا كان لهم عذاب السَّعير؟ فيُجاب: لأنَّهم كفروا، فكأنَّ العِلّيَّة ظهرت من صِلَةِ الموصول.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور المتُعلّق بالخبر على المبتدأ:

الاهتمام بتعلُّقه بالمُسند إليه والمُبادرة به، والتَّأكيد على شمولِ الوعيد

جاء تقديم الجارِّ والمجرور (للذين كفروا) على المبتدأ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾؛ للاهتمام بتعلُّقه بالُمسند إليه والمُبادرة به، وللتَّأكيد على شمول الوعيد، والمُبادرة بذِكْرِهِم دَفْعًا لتوهُّم أنَّ العذابَ مُقتصر على الشَّياطين المذكورين في الآية السّابقة، فالمعنى: عذابُ جهنم مُعدٌّ لجميع الذين كفروا باللّٰه تعالى[1].

فائدةُ مجيء صلَةِ الموصول جُملةً فعليَّة فِعْلُها ماضٍ:

الدَّلالة على ثبوت الكفر وتمكُّنه في نفوسهم

في مجيءِ جُملة الصِّلة فِعْلًا مُشتقًّا دلالةٌ على عِلّيَّة الحكم، وهو تحقُّق الكفر فيهم، وبقاؤُهُ معهم إلى مَوْتِهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء القوم قد أصرّوا على الكفر حتَّى صار صفةً لازمَةً لَهُم، ودامَ مَعَهُم إلى لحظَةِ مَوْتِهم[2]، ولذلك استحقّوا عذاب جهنَّم؛ إذ العِبرة في المصيرِ بخاتمة العمل، فكان التَّعبير بالفعل الماضي دالًّا على ثبوت الكُفْرِ وتمكُّنه في نفوسهم، وتأكُّد استمرارِهِ فيهم حتّى الوفاة، فكان العذابُ جزاءً لازمًا.

فائدة التَّعبير بالكُفْرِ معلّقًا بالجارِّ والمجرور ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾:

الدَّلالة على أنَّهم كفروا بأعظم مُنْعِمٍ

قوله: ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، أي: بأعظم مُنْعِمٍ، وهو الرَّبُّ الذي تفرَّد بإيجادِهم، ورعايَتِهم، وإفاضةِ النِّعم عليهم[3]، فتَقْييدُ الكُفْرِ بقَوْلِ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 29/ 5994.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 233.

﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ يُظهر قُبْحَهُ وسوءَ عاقِبَتِه؛ لأنَّهم جحدوا مَن لَهُ عليهم أعظمُ حقٍّ، فجمعوا بين الكفر والنُّكران، وبَيْنَ الجحود والعصيانِ.

نكتةُ إضافة ﴿عَذَابُ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَۖ﴾:

الإضافة تُحدِّد مصدرَ العذابِ ومبلغَهُ

وُرود التَّركيبِ في قوله تعالى: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ تركيبًا إضافيًّا يُفيد التَّخصيصَ من جهة، والتَّعظيمَ من جهَةٍ أُخرى، فليس هو أيَّ عذابٍ، بل هوَ عذابُ جَهنَّم، فالإضافة هُنا تُحدِّد مصدرَ العذابِ ومبلغَه، وتشير إلى أنَّه عذابٌ مخصوصٌ بنارٍ مخصوصة، هي دارُ العقوبة العُظمى، وهذا ما يزيد في تصويرِ شدَّته، وتأكيدِ هَوْلِه على النُّفوس.

معنى التَّعبير بجملة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

إبراز فظاعةِ المَرْجِع، وتأكيدُ قُبْحِ العاقبة لَمَن كفر بربِّه

جاءت جُملة: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في موقعٍ يَحْتَمِلُ أن تكون حالًا، تَصِفُ حالَ العذاب الموعود به، أو أن تكون جملةً مُعترضةً سيقت لإنشاء الذَّمِّ؛ تعظيمًا لشناعَةِ المصير الذي آل إليهِ الكافرون، وهو جهنَّم[1]، وهي في الحالَيْن تُضفي على السّياق بُعدًا بلاغيًّا يُبرز فظاعةَ المرجع، ويؤكِّد قُبْحَ العاقبةِ لِمَن كفر بربِّه.

فائدة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ دون مُرادفاته:

الـدَّلالـة على الـتَّـحـوُّل من حالٍ إلى حالٍ، والـتَّـصـرُّف في الإنسان وتقلُّبه إلى ما يصير إليه

المصير: هو المرجعُ والمآل والمستقَرُّ والمُنْقَلَبُ والمَقَرُّ[2]، والمصيرُ معناهُ: الرُّجوع إلى شيءٍ، تقول: صار فلانٌ كذا، أي: تَحَوَّل من حالٍ إلى حال، فالكافر هُنا تَحَوَّل من حال رَغَدٍ في الدُّنيا والنِّعمة المُطلقة التي جَحَدَ بها، وكَفَرَ مُنْعِمَها إلى العذاب الذي يأتي بعد النِّعمة، وهو خَطْبٌ جَلَلٌ وحال أعظمُ، فأشدُّ شيءٍ على الإنسان أن يكون في نعمة، ثُمَّ تُسلَب منه النِّعمة، أو يُعاقب بضدِّها، ولذلك قال سُبحانَهُ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: وساءَ هذا المصيرُ الذي وصَلوا إليه وفيه أيضًا دلالةٌ على التَّصرُّف في الإنسان، وتقلُّبه إلى ما يصير إليه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

(2) المنصوري، المقتطف: 5/ 284، ومأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 130.

لا ما يختارُهُ هو، فجهنَّم ليست مجرَّد مقرٍّ يَسْكُنُه، بل هي مصير يبلغُه رُغْمًا عنهُ.

سِرُّ حذف المخصوص بالذَّمِّ:

الإيجاز مع الإبقاء على شدَّة التَّأثير

في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ حُذِف المخصوصُ بالذَّمِّ؛ اعتمادًا على ما تقدَّم في السّياق؛ إذ قد دلَّ عليه ذِكْرُ ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، فصار المعنى مفهومًا دون تَصْريح، والتَّقدير: وبئس المصيرُ عذابُ جهنَّم[1]، فاستُغني عن التَّصريح به؛ اعتمادًا على دلالة السّياق عليه، وهذا الحذفُ مِن أساليبِ البلاغة، يُقصَد به الإيجازُ معَ الإبقاء على شدَّة التَّأثير؛ إذ يُترك للمخاطَب أن يَستحضِرَ المَخْصوصَ بنفسِه، فيكون وقعُه في النَّفس أشدَّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّزيين والتَّحسين والتَّجميل:

الزِّينَةُ تُستَعمَل فيما يظهَرُ مِنَ الشَّيء، والحُسْنُ في المحسوساتِ ذاتيٌّ لا يُكْتَسَبُ، والجمالُ يكونُ ذاتيًّا في الغالبِ

الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْن، يقال: زَيَّنْتُه تَزيينًا وزينة، والزّينة تكون غالبًا في الحِسّيّات، وأكثر استعمالِها فيما يتظاهَرُ ويتراءى من ذاتِ الشَّيء، فهي ما يتزيَّن بِهِ الإنسانُ من لبس وحُليٍّ وأشْباه ذَلِك، فهي أمر مُكتَسب يُمْكِن أن يُتَكَلَّف. بخلافِ الحُسن: فهو في الحِسّيّات أمرٌ ذاتيٌّ، لا يُكْتَسَبُ، ولا يُتَكَلَّف، وأمّا الجمال: فغالبًا ما يكون ذاتيًّا، لكنَّه قد يُتكلَّف، ولذلك يأتي مع الزّينة تَبَعًا، فيقال: تزَيَّنَتْ، وتَجَمَّلَتْ للخُطّاب، ولا يُقال: تَحَسَّنت؛ لأنَّ الزّينة تُكتَسب في الحِسّيّات وهي زائدة عن الأصل، والجمال يُكتَسب في الحِسّيّات لكنَّه غالِبًا ما يكون ذاتيًّا غير زائد[2].

وأمّا في الأمور المعنويّات: فالحُسْنُ والجمال والزّينة يجوز عليها

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310، والقِنَّوْجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 235.

(2) الفيومي، المصباح المنير: (زين)، والكفوي، الكلّيّات، ص: 493، والمصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 2/ 275.

كُلِّها أن تُكتسب بالتَّعوُّد وبمُجاهدة النَّفس، ولم يوجد الجمالُ في القرآن إلّا في الأمور المعنويَّة في الأخلاقيّات، وورد في الحِسّيّات في آية واحدة، في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: 6]، وأمّا الحُسْن: فهو الذّاتيُّ في الحسّيّات والمعنويّات، ولا يُكْتَسَب في الحِسّيات، وقد يُكْتَسَب في المعنويّات بالمُجاهدة و المُتابعة، ولذلك سُمّيَ الفعل المَرْضيُّ عند اللّهِ تعالى حسنَةً، والفعل غيرُ المَرْضيِّ عنده سيئةً.

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إتْباعُ ذِكْرِ العذابِ بالبيان والتَّفصيل

لمّا ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، ما أعدَّه للكافرين من جزاءٍ؛ أتْبَعَ ذلك بوصف هذا العذاب بيانًا وتفصيلًا، فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾(1).

فتأتي هذه الآيات التّالية بعدَ قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، تفصيلًا وشرحًا لذلك الإجمال؛ لأنَّ لفظ (بئس) يدلُّ على ذمٍّ شديد لمصير شقيٍّ بائس استحقَّه الكافر بما ارتكب من كفر ومعصية، ولكنْ ما حقيقةُ هذا المصير المذموم؟ تُجيب عنه هذه الآيةُ والآياتُ اللّاحقة، التي تَصِفُ أهوالَ العذاب وصفًا حيًّا، فتُظهر شدَّته وفظاعته، وتُجسِّد مشاهدَ العذاب المُرعبة من صوتِ الشَّهيق، وحرارة الجحيم، وشِدَّة الحال، وحسرة المآل(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُلۡقُواْ﴾ أصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيءٍ(3)، وألْقَيْتُه: نَبَذْتُه إلقاءً، والشَّيءُ الطَّريحُ لَقًى، واللَّقَى: الشَّيءُ المُلقى المَنْبوذ(4)، والمُلْقَى: هو ما طُرِحَ، وتُرِكَ لهَوانِه(5)، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).

تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[1]، والإلقاءُ أيضًا الرَّميُ[2]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِن غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][3]، والمُراد بالإلقاء في الآية: طُرِحوا كما يُطْرَح الحطَبُ في النّار[4].

2) ﴿شَهِيقًا﴾ (شهق) تَدُلُّ اشتقاقاتُها على عُلوٍّ[5]، والشَّهيقُ: طولُ الزَّفير، وهو ردُّ النَّفَس[6]، والزَّفيرُ: إخْراجُهُ[7]، فكأنَّ الشَّهيق يرفَعُ به الإنسانُ صدرَه، فيعلو، وهو حبسُ النَّفَس قبل إخراجه بالزَّفير، والشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه[8]، ومعنى قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، أي: صوتًا كصوتِ الحمير، وهو حسيسُها المنكرُ الفظيعُ[9].

3) ﴿تَفُورُ﴾: أي: تَغْلي: وأصل (فور) يدُلُّ عَلَى غَلَيانٍ، يُقالُ: فارَتِ القِدْرُ تَفورُ فَوْرًا؛ إذا غلت، والفوّارة: ما ترمي به القِدْرُ عند فورانها، وفَوّارة الماء على التَّشبيه بذلك[10]، ومعنى فار: اندَفَع، وجاشَ، والفورانُ: جَيَشانٌ إلى أعلى بقوَّة واندفاعٍ، يُقال: فارَ الماءُ مِنَ العَيْنِ يَفور؛ إذا جاشَ[11]، والمعنى هُنا: تَغْلي بهم غليانَ المِرْجَل بما فيه[12].

4) ﴿تَمَيَّزُ﴾: تتفرَّق، و(ميز) تدورُ تصريفاتُها على تَزَيُّلِ شَيءٍ مِن شَيءٍ وانفصاله عنه، يُقال: مَيَّزْتُه تَمْييزًا، ومِزْتُه مَيْزًا، وامتازوا: تَمَيَّزَ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ، وانمازَ الشَّيءُ: انفَصَلَ عَنِ الشَّيءِ، ومِزْتُ الشَّيءَ: عَزَلْتُهُ، وفَرَزْتُه[13]، والمعنى في الآيةِ: تكادُ تتفرَّق، وتتقطَّع، ويَنفَصِلُ بَعضُها مِن بَعضٍ مِن تَغَيُّظِها عَلَيهِم[14].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 156.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 123.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهق).
(6) الرّاغب، المفردات: (شهق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (شهق).
(8) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح: (شهق).
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 4، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 83.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فور).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فور).
(12) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(14) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 509، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310.

5) ﴿فَوۡجٞ﴾: الفوجُ: الجماعة المارَّة المُسرعة، وجمعه: أفواج[1]، وأصلُ الفاءِ والواو والجيمِ يدُلُّ على تجمُّع[2]، والمعنى في الآية الكريمة: فِرقةٌ وجماعة من الكفرة[3].

5) ﴿خَزَنَتُهَآ﴾: (خزن) تدور اشتقاقاتُها على صيانَةِ الشَّيءِ، يُقال: خزنتُ الدِّرهمَ والسِّرَّ[4]، والخِزانةُ، واحدةُ الخَزائِنِ، وهو اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيءُ[5]، والخازِنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ. والمعنى في الآيةِ: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّم[6].

7) ﴿ضَلَٰلٖ﴾: الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقال: ضَلَّ في الأمر؛ إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[7]، والضّاد واللّام تَدلُّ تصريفاتُها على ضَياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غير حقِّه[8]، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[9]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيقال: هوَضالٌّ، أمّا الضّالَّةُ؛ فلِلبَهيمةِ، وهي الحيوان الضائعُ[10]، والمعنى في الآيةِ الكريمة: بُعدٌ عن الطَّريقِ، وخطَأٌ وعمًى محيط بِكُم[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يصفُ اللّه سُبحانه حالَ الكافرين عند طَرْحِهم جميعًا في نار جهنَّم، فيقول: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾، أي: يسمعون صوتًا مُرعبًا فظيعًا يصدرُ منها، يُشبه في قُبْحِه نهيقَ الحمير، وهو صوتٌ ناتج عن شدَّة غليانها واضْطِرامِها من لَهَبِها المتأجِّج، وتكاد هذه النّارُ أن تتفرَّق، وتتقطَّع من شدَّة غضبها وغيظها على هؤلاء العصاة، كلَّما أُلقي فيها فوجٌ من الكافرين؛ استقبلهم خزنَتُها بالتَّوبيخ قائلين: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾؟ أي: أَلَمْ يأتِكم في الدُّنيا من يحذِّركم عذابَ اللهِ تعالى، ويدعوكم إلى الإيمان به؟[12] قال الكافِرونَ لخَزَنةِ

(1) الراغب، المفردات: (فوج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوج).
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 30/ 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.
(7) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (ضل).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(11) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 23.
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.

التَّصوير المهيب لعذاب الكافرين وتوبيخُ الخزنَةِ لهم

جَهنَّمَ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ يُنذِرُنا عذابَ اللّهِ تعالى، ولكِنَّنا كذَّبْنا، وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللّهُ سُبحانَهُ على أحدٍ مِن الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحي، وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتُم إلّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الفصل في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾:

بيان وصف المصير البائس وتفصيلُ ما فيهِ مِن أهوالٍ

جاء قول اللّه تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾، في السّياق استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل: ما وجهُ هذا المصيرِ الذي وُصِف بأنَّه بِئسَ المصيرُ؟ فجاء الجوابُ بهذه الآية؛ لتَفْصيل ما فيه من أهوالٍ، فهي بيانٌ لِما يلقاه الكافرون في جهنَّم من صوَر العذاب. ومِمّا يُبيِّن شدَّة مذمَّة مصيرهم: تلك الأصوات المُفزعة التي يسمعونها من جهنَّم عند طَرْحِهِم فيها، وما يُصاحِبُهُ مِن فوران للنّار واضطِرامِها، وكلُّ هذا يُضاعف مِن هَوْلِ المَشهَدِ ورهبَةِ المآل(2).

معنى ﴿إِذَآ﴾ في الجُملة الكريمة:

تحقُّق إلقائهم في النّار واقترانُ سَماعِهِم لشَهيقها بمُجرَّد ذلك الإلقاء

﴿إِذَآ﴾ في الآية ظرفٌ، وبلاغةُ التَّعبير بها: الدَّلالة على أمرين، أحدهما: تحقُّق إلقائهم في النّار؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ تُستعمَلُ فيما عظُمَ، وكَثُر، وتحقَّق، بخلاف (إن)؛ فإنَّها تُستَعمل فيما شُكَّ فيه، أو نَدُر، أو قَلَّ، أو عُدِم. والأمر الآخَرُ: أنَّها تدلُّ على الاقتران بين زَمَن فِعْلِها وجوابها، فدلَّت من هذه الحيثيَّة على سرعة تحقُّق سماعهم لشهيقها بمجرَّد الإلقاء(3).

---

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236، 237، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 311.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

معنى ﴿أُلْقُواْ﴾ ودلالتهُ في السّياق:

بيانُ مهانةِ مَن وقَعَ عليهم هذا الفعلُ، وكونُ جهنَّم سُفْليَّة

الإلقاءُ فيه نوعُ مهانة، وعُبِّر به هُنا؛ لبيان مهانة مَن وقع عليهم هذا الفعل، فأهلُ النّارِ - والعياذُ باللّهِ - يُلْقَون فيها إلقاءً؛ لا يَدخلون مُكَرَّمينَ، بل يُدَعّون إلى نارِ جهنَّمَ دَعًّا، فما لا قيمة لهم، فاستحقّوا الإلقاء، أمّا الشَّيء الذي له شأنٌ وقيمة، فإنَّه يوضَع في مكان لائقٍ، ولا يُلقى، فكان في التَّعبير بالإلقاء دونَ الإدخالِ إشعارٌ بتحقيرهم، وكونُ جهنَّم سُفليَّة[1].

بلاغة التَّعبير بالماضي في ﴿أُلْقُواْ﴾:

الدَّلالة على أنَّ فِعْلَها مُتحقِّق مُتيَقَّن

الأصل في فعل الشَّرط الواقع بعد ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطية أن يكون ماضيًا مُرادًا به الاستقبالُ، كما هو هُنا في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾، وقلَّ أن يكون مُضارِعًا كقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [الشورى: 29]، وإنَّما بُنيت هنا بصيغة الماضي مع أنَّها مُستقبلةٌ بقرينة ﴿إِذَآ﴾؛ لتدلَّ على أنَّ فعلها مُتحقِّق مُتيَقَّن، فعُبِّر به عن الماضي مسبوقًا بأداة التَّحقيق؛ دلالةً على أنَّه أمر لا بُدَّ منه واقعٌ لا محالَةَ[2].

بلاغة التَّعبير بالبناء للمفعول في ﴿أُلْقُواْ﴾:

الدَّلالة على أنَّ إلقاءهم في غاية السُّهولة على كُلِّ من يُؤْمَر به

الاستغناء عن تسميةِ الفاعل ببناء الفعلِ على ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾، دلالةٌ على أنَّ إلقاءَهُم يسيرٌ على أيِّ فاعل يُؤْمَر بإلقائهم، مهما بلغ هذا الفاعل في القُدرة ضَعْفًا، وذلك أنَّ المُلْقَيْن لا حولَ لَهُم ولا قوَّة؛ إذ هُم مُقَيَّدون، مَسْلوبو الإرادَةِ والحركة، من شِدَّة الهولِ وفظاعة ما يَلقونه[3].

بلاغة الظَّرفيّة في الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

إفادة إحاطة النّار بهم، وكونهم توسّطوها

حرف الجَرِّ (في) في قوله: ﴿فِيهَا﴾ يدلُّ على الظَّرفيَّة، وبلاغة

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 82، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 2/ 30.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.

التَّعبير به إفادَةُ إحاطةِ النّار بهم، فإذا أُلْقوا؛ صاروا منها بمنزلةٍ في وسَطِها، بحيث تُطْبِق عليهم، وتُحيط بهم كما يُحيط الظَّرف بالمظروف.

بلاغة التَّعبير بالضَّمير ﴿فِيهَا﴾:

الدَّلالة على المُراد من سوء المصيرِ وعظمة النّار التي أُلقوا فيها

الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ يعود على جَهنَّم، وكأنَّه لا يوجد لهؤلاء الكُفّار شيء يُلقَون فيه إلّا هي، فكان الضَّمير كافيًا في الدَّلالة على المُراد من سوء المصير الذي يَصلونَ إليه، فلا مجال لأن يلقوا في مكانٍ في ذلك الوقت إلّا في جهنَّم، وفيه مع هذا من التَّعظيم لتلك النّار ما فيه[1].

فَرادَةُ التَّعبير بالسَّمع في السّياق:

الإشارة إلى العذابِ المعنويِّ الذي يُصيبهم معَ ما هُم فيه مِنَ العذاب الحسّيِّ

اقتضت هذه الآيةُ أنَّ الكافرين يَسْمَعون ذلك الصَّوت المرعِب بعد أن يُطرحوا في جهنَّم، بينَما تُفيد آيةُ الفرقانِ: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]، أنَّ السَّمع يقَعُ مِنهُم قبلَ دُخولِهم النّار، حين تُبْصِرُهُم من بعيد، ويُجْمَعُ بين الآيتين بأنَّ سماعهم لأصواتِ العذاب يقع في الموضعين: قبلَ الإلقاء وبعده، وهذا ممّا يُضاعف فزَعَهُم، ويُعظِّم هولَ الموقف عليهم؛ إذ السَّمع يدلُّ على تحقُّق وصول الصَّوت إلى الأذُن، والتَّعبير بسماعهم لصَوْتِها فيه دلالةٌ على أنَّه واقِعٌ لا يُمْكِن أن يتَخَيَّلوه، أو أن يظنّوه تخيُّلاتٍ، وإنَّما هو واقعٌ مسموع، وهذا السَّماع نوع من العذاب المعنويِّ، فكيف إذا اجتمع لهُم العذاب الحسّيُّ والعذاب المعنويُّ، وهذا كلُّه من التَّفصيل لقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2].

وقوع الفعل الماضي ﴿سَمِعُواْ﴾ في جواب ﴿إِذَآ﴾:

الدَّلالة على تحقُّق السَّمع، ووقوعه زمَنَ الإلقاء

وقع قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾؛ جوابًا للشَّرطِ في جُملة: ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطيَّة، فدلَّ على تَحقُّق السَّمع، ثُمَّ التَّعبير بالفعلِ الماضي في

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 261.

الجواب يَدُلُّ على الاستقبال، فكأنَّه بمُجرَّد الإلقاء يكون السَّماع، وذلك لعلاقة الاقتران بَيْنَ الفعل وجوابه في جُملة ﴿إِذَآ﴾، فكأنَّه لا يوجد فارق زمنيٌّ بَيْنَ إلقائهم فيها وبَيْنَ سماعهم صوتَها[1].

دلالة اللّام في ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾:

التَّعبير بـ (لها) يُفيد أنَّ الشَّهيق من خصائصِها، ملازِمٌ لها

اللّام في ﴿لَهَا﴾ للاختصاص، فتشمل: المِلك وشِبْهَ الملك، أي: (سمعوا شهيقًا خاصًّا بها)، فقوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ يقتَضي أنَّ الشَّهيق شهيقُها؛ لأنَّ أصل اللّام أن تكون لشِبْهِ الملك[2]، فكان هذا الصَّوتُ هو صوتَها حقيقةً، لا يُمْكِن أن يَنْفَصِلَ عنها بحالٍ، وهو يُعبِّر عن غلَيانِها واحتِدامِها، أو صوت مَن يعذَّبون فيها.

الدَّلالة في الإضمار في ﴿لَهَا﴾:

التَّصوير المَهيب الذي يزيد في فظاعَةِ الموقف وهولِ المصير

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾ يعود في الأصل على النّار، أي: سمعوا للنّار شهيقًا، وهو حسيسُها المُنكر الفظيع[3]، فهي تتنفَّس كتنفُّس المُتغَيِّظ، وهذا القول هو الأرجح[4]؛ لدلالة السّياق عليه، ولمناسبة قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾. ويجوز أيضًا أن يعود الضَّمير على من يُعذَّبون فيها، أي: سَمِعوا شهيقًا صادرًا من المعذَّبين أنفسهم، فإنَّهم يَصْطَرِخون فيها بأصواتِ الحيواناتِ المُنْكَرَةِ الصَّوت، كقوله: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ [هود: 106][5]. فالإضمارُ هُنا يحتَمِلُ الوجهين[6]، ويُفيد في كلا الحالين تصويرًا مهيبًا؛ إذ سواءٌ أكان الصَّوتُ صوتَ النّار أم صوتَ أهلِها، فهو مُلتصق بها لا يَنْفَصِلُ عنها، مِمّا يزيد في فظاعةِ الموقف وهولِ المصير.

دلالة سلوك سبيل المجاز في قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾:

تقريب المعنى إلى ذهن السّامع، والإشعار بأنَّ الشَّهيق سِمةٌ ملازمة لذلك العذاب

لا يصحُّ عود الضَّمير في ﴿لَهَا﴾ إلى المعذَّبين إلّا بسلوك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.
(5) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 289.
(6) علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 189.

سبيل المجاز، ويُمْكِن توسيع المعنى على أنحاءٍ، ففيها مجاز مُرسل علاقتُه المحلّيَّة، والمعنى: (سَمِعوا لمن حلَّ فيها شهيقًا).
أو أن يكون مَجازًا بالحذف، فيكون التَّقدير: (سمعوا لأهْلِها)، فالشَّهيق من الكُفّار عند إلقائهم في النّار، فيكون الكلامُ على حذف مُضاف[1]، وفي هذا المجاز توسيعٌ لدائرة المعنى؛ لإدخال كُلِّ ما يرتبط بالنّار من أهوالٍ في تصوير مشهد العذاب؛ إذ يُصبح صوتُ العذابِ كأنَّه جزءٌ لا يتجزَّأ من كيان النّار ذاتها، سواءٌ أكان صادرًا منها أم مِن أهلِها.

سِرُّ التَّعبير بالشَّهيق مادَّة:

الــدَّلالــة على شِــدَّة الغليان والغيظ

الشَّهيق: صوتٌ تردُّديٌّ فيه نكارةٌ، وهو يَدلُّ على حَسرة وألَم وشِدَّة؛ لأنَّه يكون بتردُّد الأنفاسِ في الصَّدر بحَبْسِها، بحيث لا تَنْتَهي، وقد أُطلِق عليه (الشَّهيق) - وهو في الأصل صوتٌ يخرج من الجوف بقوَّةٍ عند جذب النَّفَس بشدَّة - لِما فيه من دلالة على الألَم والاختناق[2]، ولمّا كان الشَّهيق مِن صفاتِ من يُعاني ضيقَ النَّفَس، ويجذب الهواءَ إلى صدره اضطرارًا؛ استُخدِم هذا اللَّفظ؛ لتصوير صوت جهنَّم المُشتعلة المُتموِّجة بالنّار، وكأنَّها كائن يزفر مِن شِدَّة الغليان والغيظ[3].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالشَّهيق:

سَـمِـعـوا لها ولأهلها صوتًا هـائـلًا مُـنـكـرًا شديدَ النَّكارة

يُطلَق الشَّهيق في شِدَّته على أوَّل صوت الحمار حينَ يَنْهَق، وكُلُّ هذا يدلُّ على موقف هؤلاء، بِسَماعِهم صوتًا مُؤلِمًا فَظيعًا فيه خذلان أسيفٌ، ففي قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ شُبِّه فيها صوتُ جهنَّم أو أصواتُ أهلها بذلك الصَّوت المُنْكَر الفظيع،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 289، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 211، والطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 14.

المشابهِ لصوت الحمارِ في قُبْحِه وشدَّته، فجاء إطلاقُ الشَّهيق على نار جهنَّم تفظيعًا لَمَشْهَدِها، وتخويفًا من هَوْلِها، وإبرازًا لبشاعَةِ ذلك الصَّوت الموحِش وفظاعتهِ الذي يُرعِبُ السّامعين(1).

بلاغة التَّعبير بالجُملة الحاليَّة ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾:

الجمع بين فَورانِها وسماعِ صَوْتِ الشَّهيق منها

الواو في ﴿وَهِىَ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: (سمعوا لها شهيقًا، والحالُ أنَّها تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجَلِ بما فيه، وترتفعُ ألْسِنةُ لَهيبِها)، وقد أفادَت مِن جهة جزئيَّة المُشاركة بَينَ الحال وصاحبه تعليلَ سبَبِ الشَّهيق، أي: (تشهَقُ النّارُ؛ لأنَّها تفور)(2).

بلاغة التَّشبيه التَّمثيلي في الجملة الكريمة:

الدَّلالة على فظاعة الصَّوت الذي يَدُلُّ على شِدَّة الغليان والغيظ

يجوزُ أن يكون قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ من باب التَّشبيه التَّمثيليِّ؛ إذ صَوَّرَت الآيةُ الكريمَةُ مَشْهَدَ الكُفّار مِنَ الجنِّ والإنسِ عندَ طَرْحِهم في نارِ جهنَّم، فتُبيِّن أنَّهم يسمعون لها صوتًا منكرًا يَصْدُر منها، وهي تَغْلي بهم غليانًا شديدًا، وقد شبَّه اللّٰهُ تعالى صوتَ لَهَبِها المشتعلِ بالشَّهيق، وهو مِن أقبح الأصوات وأشدِّها نُكرًا، ويُشبه صوتَ الحمار، مِمّا يبرز فظاعةَ ذلك الصَّوت، ودلالَتَهُ على شِدَّة الغضب والاضطرام، وكأنَّ النّار تُزَمجِر من شدَّة ما فيها من الغَيْظِ على أهلها(3).

وقد يُفْهَمُ التَّشبيه في قوله: ﴿شَهِيقًا﴾ مِن وجهٍ آخَرَ؛ إذ إنَّ الشَّهيق في الأصل هو جذبُ النَّفَسِ إلى داخلِ الصَّدر بقوَّة حتَّى تَمْتَلِئَ الرِّئتان به، وعلى هذا الأساسِ يُشْبِهُ شهيق جهنَّم بجَذْبِها العنيفِ للهواء مِن داخل تجاويفها، أو من خارجها إلى أعماقها، حتّى يمتلئَ باطنُها بتلك الرّيح الهائجة. ومِن نظام الكون: أنَّ دخولَ

(1) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 217.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 12، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.

الرّيح إلى باطن شيءٍ ما بقوَّة يُعْطي صوتًا خاصًّا مشابِهًا لشهيقِ الإنسانِ، إلّا أنَّه أشدُّ وأفزع[1]، فجاء التَّشبيه هُنا ليصوِّر هولَ ما يَصْدُر من جهنَّم عند غَليانِها واضطِرامِها.

صيغة التَّعبير بالحال جملةً اسميَّة خبرُها فعليٌّ:

الدَّلالة على لزوم صفة الفورانِ لهذه النّار

جاء التَّعبير بجُملة الحالِ اسميَّةً في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾؛ وذلك للدَّلالة على لزوم صفةِ الفَورانِ لهذه النّار، واختيرَ الخبرُ فِعْلًا مُضارعًا؛ للدَّلالة على دوامه واستمراره، بحيث إنَّه لا يَنْتَهي، وأهلُها لا يزالون فيها صاعِدين هابِطين كالحَبِّ؛ إذا كان الماءُ يَغْلي به، وكذلك تصويرُ المَشْهَدِ الذي يُجَسِّده قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]، من معنى الفوران، فَكُلَّما خبَت، وقلَّ فورانُها؛ ازدادَ، وكُلَّما ضَعُفَ؛ تجدَّد[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾:

تقريب صورة فظاعَةِ العذاب ورَهْبَتِه إلى أذهانِ السّامعينَ

من بلاغة التَّعبير بهذه الجُمْلَة أن تُحمَلَ على المجاز، فَقَدْ شُبِّهت النّارُ في شِدَّة لهيبِها وتسعيرِها بالماءِ الذي يَغْلي، ويفورُ؛ لأنَّ الفَورانَ أصلٌ في وصفِ الماء، فالماءُ هو الذي يفورُ؛ فَشُبِّهت بذلك؛ للدَّلالة على أنَّها لا تَشْتَعِلُ فقط، وإنَّما تتَقَلَّب بِمَن فيها، كما يتقلَّب الماءُ الذي يَغْلي بما فيهِ من الحَبِّ ونَحْوِه[3]، فهي استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ فشدَّة فَورانِها وغليانِها مُشبَّهٌ بِغَلْيِ الماء، والماء إذا اشتدَّ غليانُه؛ صارَ لا قرارَ له ولا ثبات، فإنَّ ما بداخله يتقلَّب معه، فكذلك النّار يتقلَّبون فيها من شِدَّة العذاب، فهُم في عذاب لا قرارَ لَهُم مَعَهُ، صاعدون هابطون في النّار مع فورانها وغليانها، وهذا المشهد فيه نقلُ صورةٍ مألوفةٍ محسوسَةٍ - وهي غليان الماء - إلى مشهدٍ رهيب غير مألوف - وهو اضطرام النّار - لتقريب فظاعة العذاب إلى أذهانِ السّامعين.

(1) الميداني، معارج التَّفكُّر: 14/ 521.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 83، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 326، وملاحويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 394.

بلاغة الفصل في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾:

بيانُ سبَبِ فورانِ النّارِ وعِلَّتِه

العلاقة بين هذهِ الآية والتي قَبْلَها: أنَّها بيانٌ لسبَبِ فَورانِها، فقال: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾؛ فكأنَّ سائِلًا سألَ: لماذا تَفورُ؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّ ذلك لشدَّةِ الغَيْظِ، حتّى يَكاد ينفَصِلُ بعضُها من بعض بسبب ذلك، فكأنَّ هذا الفَوَرانَ بلَغَ أوْجَهُ وأشُدَّه، فالجُملة استئنافٌ بيانيٌّ جاء تعليلًا لقوله قبلُ: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾[1].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿تَكَادُ﴾:

الـدّلالـة على بـلـوغ الأمـر إلى قُرْبِ وقوعه وإن لم يقع

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ يدلُّ على أنَّها لم تَتَمَيَّز، لكنَّها وصلت مِنَ الغَيْظِ مبلغًا تكاد مَعَهُ أن يَنْفَصِلَ بعضُها عن بعضٍ، فالفعلُ ﴿تَكَادُ﴾ يَدُلُّ على تَحَقُّق الوصف وعدم وقوعِ تمامِه؛ لأنَّه لو وقعَ تمامُ الانفصالِ؛ لضَعُفَتِ النّار.

التَّعبير بالفعل المُضارع في ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾:

استمرارُ هيجان الـنّـار وقـوّة عذابِها ولهيبِها

جاء الفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾ بصيغة المُضارع في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾؛ للدَّلالة على تَجدُّد هذا التَّميُّز واستمراره في كُلِّ لحظة، وكأنَّ جهنَّم في حالٍ مُتواصِلٍ مِنَ الانفجارِ والتَّمزُّق من شدَّة الغضَبِ على الكافرينَ. وفِعْلُ ﴿تَمَيَّزُ﴾ مأخوذٌ مِن الأصل: (تَتَمَيَّز)؛ أي: تنفصِلُ أجزاؤها، وتتقطَّع، والانفصال هُنا يُفيد شدَّة الانفعالِ والانفجار، وله صلَةٌ بمعنى الانفصالِ والانفراد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس: 59]، أي: انفَرِدوا عن بقيَّة الخلق؛ لتَمْييزكُم بالعذاب، فاستُعمِلَ الفِعْلُ المُضارِعُ في ﴿تَمَيَّزُ﴾؛ ليصوِّرَ مشهدًا دائمَ الغليانِ، كأنَّ النّارَ في حالٍ مِنَ الهَيجانِ المُتواصل، تكاد تَنْشَقُّ غيظًا على من يُلْقى فيها، فلا سكونَ لَها ولا قرار.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 149.

سبب حذف التّاء من ﴿تَمَيَّزُ﴾:

الإشارة إلى السُّرعة الشَّديدة في وقوعِ الحدَثِ

بعد أن وصَفَ اللّهُ تعالى النّارَ بالفوران؛ بَيَّن سببهُ ونتيجتَهُ، فصوَّرها في حالٍ من شِدَّة الغليان والانفعالِ، كأنَّها تكاد تتقطَّع أجزاؤها، ويَنْفَصِلُ بعضُها عن بعض، فقال سُبحانَهُ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾، وهذا كناية بليغَةٌ عَن شِدَّة الغضب، وقد ورد الفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾ بحذف إحدى التّاءين مِن (تتمَيَّز)، وذلك للإشارة إلى السُّرعة الشَّديدة في وقوع الحدث؛ لِما فيه من سُرْعَة الافتراق والانفصال، وكأنَّ هذا التَّمزُّق العنيفَ لجهنَّم يَتِمُّ على وجهٍ لا يُدرَك إدراكًا تامًّا من فَرْط هيَجانِها، وهذا المشهَدُ المُفزِع إنّما هو نتيجةٌ لغضب سيِّدها ﷻ على أهل الكُفْرِ والعصيان[1].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾:

التَّصوير البديع لشِدَّة اشتعالِها ولهيبِها

قول اللّهِ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾ يُصوِّر مشهدًا رهيبًا لجهنَّم؛ إذ كأنَّها تتقطَّع، وتتفرَّق من شدَّة غيظها على الكافرينَ أعداءِ اللّهِ تعالى، وفي هذه الصّورة البيانيَّةِ تصويرٌ بديع لشدَّة اشتعالِها ولهيبِها، وقد جاءَت في قالَبِ استعارَةٍ مكنيَّة رفيعةٍ، فقد شُبِّهت جهنَّم بإنسانٍ بالِغِ الغضَبِ، اشتَدَّ به الحنَقُ على عدوِّه حتّى كادت أعضاؤه تتفتَّت من شدَّة الغيظ، وقد حُذِف المشبَّه به - الإنسانُ - ورُمِز إليه بلازِم من لوازمه، وهو الغيظُ، فكان هذا مِن أرقى صوَرِ الاستعارة المكنيَّة، وهو مأخوذٌ مِنَ التَّعبير العربيِّ: (تميَّز فلانٌ مِنَ الغيظ)، أي: كاد ينفَصِلُ بعضُه عن بعض من شِدَّته، فاستُخدِمت هذه الصّورة في وصف جهنَّم؛ لإبراز ما فيها من اضطرام داخليٍّ وغضب عظيم يُقَطِّعُ أجزاءَها من شِدَّة الغيظ على الفجّار[2].

ويجوز أن يكون هذا تخييلًا تابعًا للمكنيَّةِ، بأن شُبِّهت جهنَّمُ

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 10/ 383، والصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 360.

في شدَّة اضطِرامِها وغليانِها وقوَّة ما تُحْدِثُه مِنَ الأذى في أهلِها، بإنسانٍ بلَغَ بِهِ الغَيْظُ مبلغَهُ، فاشتَدَّ حَنَقُه، وبالغ في إيصال الضَّرر إليه، فتوُهِّم لها صورةٌ كصورةِ الحالِ المُحقَّقة الوجدانيَّة، وهي الغضب الباعث على ذلك، واستُعير لتلك الحالِ المُتَوهَّمة للغيظ[1].

الإشـارة إلى أنَّ الانتقام إذا انبعث من المَغيظ؛ يقعُ على قدر غَيْظِه

وهذا الأسلوب يُعَدُّ من أوجز ما يُعبَّر به عن المعنى، وأقواه تأثيرًا؛ لأنَّ شِدَّته على النَّفس أمرٌ مُدرَك محسوس، لا يُحتاج في إدراكِه إلى تأمُّل طويلٍ، ولأنَّ الانتقامَ إذا انبعَثَ مِن المَغيظ؛ يقع على قدر غيظِه، ففي هذا التَّصوير بيانٌ عجيب وزجْرٌ بالغ، لا تقوم مقامَه الحقيقةُ البَتَّة[2].

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الجملة الكريمة:

تصوير شِدَّة اضطراب النّار واشتعالها

تُبَيِّن هذه الآيةُ حالَ نار جهنَّم حين يُلقى فيها الكفّار، فهي تكادُ تتقَطَّع من شدَّة الغَيْظِ والغضَبِ، ففي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ شُبِّهت فيه الهَيْئَةُ المُنتزعة من أمورٍ عديدَةٍ، وهي النّار وشدَّةُ الاشتعالِ بها وحصول الألم الشَّديد بها بهيئةٍ أخرى مأخوذةٍ مِن أشياءَ كثيرةٍ، وهي: المُغتاظُ واغتياظُه وكمالُ حِرْصِه في إيصال الألم الفادحِ إلى مَن غَضِبَ عليه، بحيثُ يكادُ المُغتاظُ يتفرَّق مِن كمالِ غضبِه، ووجهُ الشَّبه: قوَّة التَّأثير، لكن هوَ في المُشَبَّه أقوى، وفي المشبَّه به أعرفُ، فالمُشبَّه حالُ فوران النّار وتصاعد ألسِنَةِ لهيبها، والتهام مَن يُلقَونَ إليها، والمُشبَّه به حالُ المُغتاظ شديدِ الغَيْظِ، لا يترك شيئًا مِمّا غاظه إلّا وصبَّ عليه جامَ غضَبِه، والغرضُ مِن هذا التَّشبيه: أن يَتخيَّل السّامعُ مَدى شِدَّة الاضطراب حتَّى قاربت أجزاءُ نارِ جهنَّم أن تتقطَّع، وهذا كقولهم: غضب فلانٌ، فطارت منه شقَّة في الأرض، وشقَّة في السَّماء[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 12، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 18.
(2) العسكري، الصِّناعتين، ص: 272.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 191، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 24.

سِرُّ الكنايةِ في التَّعبير بالغيظِ هاهُنا:

الإيحاءُ بعظمَةِ الغضَبِ المتَّقد في النَّار تجاه الكافرينَ

في قول الله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾، كناية عن شِدَّة هذا الغيظ، فيكون في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ استعارةٌ وكنايَةٌ عن شِدَّة الغضب[1]، بحيث صار الغيظُ من شِدَّته كأنَّه يُمزِّق ذاتَها، فكأنَّ هذا الأسلوبَ البليغَ الذي يوحي للسَّامع بعظمَةِ الغَضَب المُتَّقد في النَّار تُجاه الكافرينَ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ هُنا:

تعظيمُ ابتداءِ غَيْظِها، فما الظَّنُّ بنهايته؟

﴿مِنَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ يجوزُ أن تكون سببيَّة، أي: بسبَبِ الغَيْظ[2]، أو أن تكونَ بمعنى اللّام، أي: لأجل الغيظ الذي هي فيه، لكنَّ حَمْلَها على معنى الابتداءِ أبلغُ؛ لأنَّ المعنى يكون: تكاد تميَّز من ابتداءِ الغيظ الذي فيها، وإذا كانت بهذه الحالِ في ابتداء غَيْظِها؛ فما الظَّنُّ بتمامِ غَيْظِها ونهايته؟ فيكون المعنى هُنا أشَدَّ وأعظمَ.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾:

النّار بما فيها من فورانٍ داخليٍّ وغضبٍ تفتِكُ بمَن يُلقى فيها

في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ استعارة بليغة؛ إذ شُبِّهت نارُ جَهنَّم برجُلٍ بلغَ بِه الغَيْظُ مُنْتَهاه، حتّى أوشَكَ أن تتَمَزَّق أعضاؤُه مِن شِدَّة الانفعال، فقد شُبِّه اشتعالُ النّار وتأثيرُها العنيف في الكافرين بحالِ مغتاظ شديد، يُبالغ في إيصال الأذى إلى مَن أغضَبَهُ، حتَّى صار الغيظُ هو المُحرِّك الظّاهرَ له، ومن هُنا جاءت استعارةً تصريحيَّة؛ إذ أُطلق على هذا التَّأثير المُشتعل اسمَ ﴿ٱلۡغَيۡظِ﴾، وهو اسمٌ للمُشبَّه به، بعدَ حذف المُشبَّه (الإنسان)؛ للدَّلالة على ما في النّار من فَوَرانٍ داخليٍّ وغضبٍ يَفْتِكُ بِمَن يُلقى فيها لا يُمكِنُ الإحاطة بكُنهه[3].

---

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 326، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 83.

سِرُّ الفصل بين هذهِ الجُملَةِ وما قبلَها مِنَ الكلام:

بيانُ سببِ خِزيِ الكُفّارِ في الآخرةِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ جاء بَعدَ وصفِ مَشهَدِ النّار المُروِّع عند استقبالِها لأهلِها؛ ليتبعه مُباشرةً بيانٌ لِما يلاقيه الدّاخلون من مواجهَةِ الخزنَةِ لَهُم، فجاءت الجُملةُ استِئنافًا بيانيًّا، كأنَّما سألَ سائلٌ: ما سبَبُ هذا المصير؟ ولِمَ استحقَّ هذا الهول؟ فكان الجواب: لأنَّهم كذَّبوا رسلَ اللّهِ تعالى الذين جاؤوهم بالحقِّ، ولم يعيروا دعوتهم التِفاتًا، ولم يتدبَّروا ما جاؤوا به من هدى، فالجملة تكشِفُ عن حقيقة جُرْمهم، وتُبرز ندمَهُم بعد فوات الأوان؛ إذ لَم يَلتَفِتوا إلى النُّذر، ولا إلى آياتِ اللّه تعالى التي دَعَتْهُم للتَّبصُّر، فأُلقوا في جهنَّم فوجًا بعد فوجٍ، كُلَّما انتهى فيهم جماعَةٌ؛ تَبِعَتْهُم أخرى[1].

سِرُّ التَّعبير بالتَّركيب ﴿كُلَّمَآ﴾:

التَّركيب يصوِّر مَشهدًا مُتكرِّرًا يُضاعِفُ مِن الفزَعِ، ويؤكِّد شِدَّة العذاب

﴿كُلَّمَآ﴾ الشَّرطيَّةُ تدلُّ على التَّكرار، أي: إنَّ هذا يحدُثُ كثيرًا على وجهِ التَّكرارِ، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: 64]، أي: إنَّهم يوقدون نيرانَ الحربِ كثيرًا، ويُطفِئُها اللّه تعالى كثيرًا؛ تَبَعًا لكثرة إيقادِهِم لَها، وكذلك في آية المُلْكِ تدلُّ على أنَّهم يُلقَون في النّار فوجًا بعد فوجٍ مُتتابعين، وكُلَّما أُلقيَ فيها فوجٌ؛ سُئِلوا؛ إذلالًا لهم، وإقامةً للحُجَّة عليهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾.

ومجيء ﴿كُلَّمَآ﴾ في الآية الكريمة، وهي مُركَّبة من (كُلَّ) الدّالة على الشُّمول، و(ما) المصدريَّة الظَّرفيَّة التي تُؤوَّل مع ما بعدها بمصدر؛ يُفيد التَّكرار المطَّرد، أي: في كُلِّ مَرَّة يُلقى فيها فوجٌ من الكافرين في النّار؛ يُقابلهم خَزنة جهنَّم بالتَّقريع والتَّوبيخ.

وقد اكتسبَ هذا التَّركيب دلالةَ الشَّرطيَّة من اتِّصال (كلّ) بـ(ما) المصدريَّة الظَّرفيَّة، فأشبَهَ أدواتِ الشَّرط من حيثُ التَّرتيب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 24.

والارتباطُ بين جملتَيْنِ مُرتَّبةٍ إحْداهُما على الأُخرى، وهذه الصّيغةُ تُصوِّر مشهدًا متكرِّرًا يضاعف من الفزع، ويُؤكِّد شِدَّة العذاب؛ إذ لا يدخُلُ فوجٌ إلّا وتلقّاه خَزَنَة النّار بالتَّبكيت، مِمّا يزيد الحسرةَ على ما فَرَّطوا فيه[1].

سِرُّ انتخابِ الفعل الماضي ﴿أُلۡقِيَ﴾ و﴿سَأَلَهُمۡ﴾:

تـصـويـر حـالٍ مـسـتـقـبـلـيَّـة بـصـورة الماضي؛ لتأكيدِ تحقُّقها وقطعيَّتها

من التَّناسب هُنا مجيءُ فِعْلَي ﴿أُلۡقِيَ﴾ و﴿سَأَلَهُمۡ﴾ ماضيَين؛ لأنَّ أكثر ما يقَعُ الفعلُ بعد ﴿كُلَّمَآ﴾ أن يكون بصيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّها لمّا شابهت الشَّرط؛ استوى الماضي والمُضارع معَها؛ لظهور أنَّه للزَّمن المُستقبل، فأوثِر فعلُ المُضيِّ؛ لأنَّه أخفُّ[2]، وأقوى في استحضارِ المَشْهَدِ، فهي تصويرُ حالٍ مستقبليَّة بصورة الماضي؛ لتأكيد تحقُّقها وقَطْعيَّتها، وكأنَّ الفعلَ قد وقَعَ، وانتهى، مِمّا يزيد من وقْعِهِ النَّفسيِّ في تَصَوُّر أهوالِ الموقفِ.

دلالةُ التَّعبير بالإلقاءِ في مقامِ التَّعذيب:

الإشارة البليغَةُ إلى المَهانة والذِّلَّة

في اختيار الفعل ﴿أُلۡقِيَ﴾ دون غيره من الأفعال إشارَةٌ بليغة إلى المَهانَةِ والذِّلَّة، التي يُعامَل بها الكافرونَ عندَ سَوْقِهم إلى جهنَّم؛ إذ يُصَوَّر دخولُهُم النّار بِإلقاء شيءٍ لا قيمة له، يُرْمى رميًا دونَ اهتمام أو عناية، فتقَعُ حيثُ تقَعُ، غيرَ مُلتفَتٍ إليها، تمامًا كما تُطرَح النِّفايات، أو يُلقى المَتاعُ المُستَغنى عنه، فلا يُراعى لهم قَدْرٌ، ولا تُحْفَظُ لهم كرامَةٌ بِسببِ سوءِ صَنيعِهِم[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿فِيهَا﴾:

الـدَّلالـة على إحاطة النّار بهم

في التَّعبير بـ ﴿فِيهَا﴾ دلالةٌ على إحاطة النّار بهم، وشمولِها لَهُم؛ لما يدلُّ عليه حرفُ الظَّرفِ مِن توسُّطِهم فيها إذا أُلقوا فيها، كما يتوسَّط الظَّرف بالمظروف فيه؛ إذا أُلقيَ المظروفُ في الظَّرف.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 29/ 25.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 15/ 1056.

بلاغَةُ التَّعبير بالفَوْجِ:

الدَّلالة على كَثْرَة جَماعاتِهم

الفوج هو الجماعة من النّاس مطلقًا، فيُستعْمَلُ في أهل الفضل وأهل الفجورِ، فكُلٌّ منهما يُقال له: فوجٌ، ففي النّار أُلْقيَ فيها فوجٌ، وقال اللّه في الإيمان: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: 2]، وعُبِّر بلفظِ ﴿فَوۡجٌ﴾ في آية الملكِ؛ للدَّلالةِ على كثرَتِهم، فهُم جماعاتٌ كثيرة جدًّا، وذلك يُفيدُ أنَّ أهل النّار يدخلونها جماعةً بعدَ جماعةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: 38][1]، ومع كثرة جماعاتهم فإنَّهُم يُلقَونَ فيها كإلقاءِ الرَّجل الواحد على وجهِ الإذلال والمهانَةِ والحقارة[2].

سِرُّ تنكير لفظ ﴿فَوۡجٌ﴾:

الـدَّلالــة على الاحتقارِ للكُفّار وترسيخ مشهدِ المَهانَة

نُكِّر لفظ ﴿فَوۡجٌ﴾، مِنْ قول اللّهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾؛ لإرادَةِ التَّحقير، فكأنَّ هؤلاء الكُفّار - على كَثْرَتِهم - لا يُعَدّون شيئًا يُلْتَفَتُ إليه، فهُم مُجَرَّد جماعاتٍ، لا وزْنَ لها تُرمى في جهنَّم رَمْيًا، فلا يُذكَرون بعنوانِ التَّعظيم، بل يُعامَلون معاملةَ المُهان المُحتَقَر، مِمّا يُعمِّق مشهدَ المهانةِ، ويُرسِّخ الإهانَةَ.

خطابُ المُفْرَدِ بلَفظِ الجَمعِ:

تعميمُ التَّوبيخ لَهُم

جاءت الضَّمائرُ في قول اللّه تعالى: ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ ضمائرَ جمعٍ، وقد تقدَّمها أنَّ الذي يُلقى هو فَوْجٌ، ولفظُ الفوجِ مفردٌ، وأعيدَ الضَّميرُ على ﴿فَوۡجٌ﴾ جمعًا، في قوله: ﴿سَأَلَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾؛ لتأويل الفَوْجِ بجماعَةِ أفْرادِه[3]؛ تعميمًا للتَّوبيخ لَهُم.

سِرُّ التَّعبير بالسُّؤال في قول الخزنة لأهلِ النّار:

تقديمُ التَّنبيهِ الـــذي يُـثـير التَّرقُّب، ثُمَّ يليه تفصيلٌ يوضِّح المُراد

عُبِّر بقوله تعالى: ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾، بدلًا من (وقال لهم خزنتها)؛ لمُناسبة السّياق؛ إذ إنَّ لفظ السُّؤال أعمَقُ أثرًا في

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 232.

(2) ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 395.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 25.

النَّفس؛ لأنَّه يبدأ بإجمالٍ يُثير التَّرقُّب، ثُمَّ يليه تفصيلٌ يوضِّح المُراد، فجاء البيان في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ﴾ مُفسِّرًا لذلك السُّؤال، فالمعنى: توجَّه إليهم خزنَةُ جهنَّم بسؤالٍ قائلينَ: ألم يأتِكُم مَن يُنذركم هذا العَذابَ[1]؟.

دلالة ذِكْرِ الخَزَنَةِ في مقام التَّعذيب:

زيادةُ رهبَةِ الموقف وتأكيدُ الإحاطةِ بالمُجرمين

الخَزَنَةُ في الأصل: هم الذين يَخْزنون الأشياء التي لها قيمةٌ، والخزَنَةُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ هم خَزَنَةُ النّار، وذلك ليُحيطوا بالمُعَذَّبين فيها، فلا يستطيعُ أحَدٌ منهم أن يكون لهُ منها حراكٌ أو خروجٌ منها بفكاكٍ، فكان التَّعبيرُ بالخزنة لزيادةِ رهبَةِ الموقفِ وتأكيد الإحاطة بالمجرمين.

بلاغة الكناية في التَّعبير بالسُّؤال:

السُّؤال هاهُنا كنايةٌ عَنِ الإذلال، وليس بقصدِ الإجابة ولا معرفةِ الجواب، فالإجابة معروفَةٌ، والسُّؤالُ هاهنا سؤالُ إذلال وتوبيخٍ وتَقريعٍ ومهانةٍ[2].

بلاغة الفصل في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ﴾:

تفصيلُ تَبْكيتِهِم وتَوْبيخِهِم والاحتجاجِ عليهِم في استحقاقِهِم العذابَ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ اللّه تعالى لمّا قال: ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾؛ بعثَ هذا في نفس المتلقّي سؤالًا، وهو: ما كان سؤالهم؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّهم قالوا: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ﴾ موبِّخين لهم، مُهينين مُذلّين مُبَكِّتين مُحتجّين عليهم في استحقاقهم العذابَ؛ زيادةً في تعذيبهم تعذيبًا روحانيًّا بعد تعذيبهم جسمانيًّا، أو في عذابهم بتعذيب أرواحِهم بعد تعذيبِ أشْباحِهم[3].

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 192.
(2) الملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 189، والشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 431.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 236، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 12.

دلالةُ الاستفهام في هذا المقامِ:

إفـادَةُ التَّقرير مـع التَّوبيخ والتَّنديم زيادة في إيلامهم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ خرجَ عن أصلِ دلالتِهِ، من إرادةِ طلب العلم بشيءٍ لم يكُن معلومًا من قبلُ، إلى معنى التَّقرير، والمقصودُ منهُ: إقرارهم ببلوغ الحُجَّة إليهم، وهذا التَّقرير ليس إقرارًا مجرَّدًا، بل هو أيضًا إنكارٌ عليهم وتوبيخٌ شديد، يقترن بالتَّنديم، حتَّى يزدادوا حسراتٍ فوقَ حسراتِهم، فهو يجمع عليهم بَيْنَ عذاب الحسِّ من لهيب النّار، وعذاب الرّوح من تقريع الملائكة وتوبيخهم، فيشتدُّ عليهم الألمُ النَّفسيُّ، كما يشتدُّ العذابُ الجسَديُّ[1].

سِرُّ التَّعبير بالإتيان دون المجيء:

التَّعبير بـ (الإتيان) فيه سُهولةُ وصول النَّذير، وإشارةٌ إلى لُطف الله تعالى بعباده

الإتيان فيه سهولةٌ ويُسر، بخلاف المجيء، فإنَّ فيه نوعًا من الصُّعوبة، ويدلُّ على ذلك قول اللّه تعالى حين جمع بينَهُما عن مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، ففي ذهابِها إلى قومها عُبِّر بالإتيان، وفي مجيئها بالولد عُبِّر بالمجيء؛ لأنَّه شيء مُستنكَرٌ عندهم، فقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ دالٌّ على سُهولة الإتيان، ثُمَّ جُعِلَ النَّذير هو الآتي، وهذا مِن لُطفِ اللّه سُبحانَهُ بهم في أنَّه لم يَطْلُب مَنهُم أن يَبحَثوا هُم عن النَّذير، بل أرسلَ النَّذيرَ إليهم، فجعل النَّذير هو الفاعلَ لفِعلِ الإتيان، وليس المفعولَ، وجعل الكُفّار هم الذين أتى إليهم هذا النَّذيرُ.

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾:

عُبِّر بالفعل المُضارع بعد (لم) في قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾، وهو يُفيد المُضيَّ، وذلك لاستحضار الحالِ الماضيةِ، كأنَّ النُّذر أتتْهُم الآنَ، أو أنَّها ماثلة بَينَ أيديهم.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

سِرُّ التَّعبير بالنَّذير بدل الرَّسول أو الدَّليل:

الإنــذار فيه معنى الإعلام والتَّخويف مَعًا

جاء التَّعبير القرآنيُّ ههنا بـ (النَّذير) بَدَلَ (الرَّسول)، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: ألم يَأْتِكُم رسول؟ أو ألم يأتكم دليل؟ لأنَّ الرُّسُل إذا أتت أوَّل ما تأتي؛ تأتي للكُفّار، تُخَوِّفُهم، وتُنْذِرُهم؟ فإذا آمَن مِنهُم بعضٌ؛ بَشَّرت أهلَ الإيمان، وأنذرت أهلَ الكفر والعصيان، وفي آية سورة المُلكِ ذُكِرَ المُراد من الرُّسل حين يُرْسَلون إلى الكُفّار، وهو الإنْذارُ والتَّخويف، ولأنَّ الإنذارَ فيه معنى الإعلامِ والتَّخويفِ مَعًا[1].

إيثار التَّعبير بصيغة (فعيل):

المُبالغة في كون المُنذِر لَم يُرْسَل إلّا لإنذارهم

في التَّعبير بصيغةِ (فعيل) في لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ معانٍ مُتعدِّدةٌ، وهذا من بلاغة القرآنِ في أنْ يذكر الصّيغة الواحدة، فتُفيد جُملةً من المعاني، فالنَّذير يُمكِنُ أن يكونَ مصدَرًا للفعلِ أنذرَ إنْذارًا، أو يكون اسمَ مصدرٍ لأنذرَهُ، أو مصدرًا لنَذَره، أو يكون اسمًا، أو يكون صيغة مُبالغة على فعيلٍ، أو يكون صفة مُشَبَّهة باسم الفاعلِ؛ لأنَّه لا يوجد ناذِرٌ مِن الفعل الثُّلاثي، إنَّما يوجد نذير، وتعدُّد هذه الاحتمالات مع اللَّفظ الواحد دلالةٌ على بلاغة القرآن، في احتواءِ اللَّفظ الواحد لجُملة من المعاني، فإن قُلنا: إنَّه اسمٌ، فهو واقع على الأصلِ، وإن قُلنا: إنَّه مصدرٌ، فهو تأكيد لِلفِعْل، والمعنى: (ألم يأتِكُم رجُلٌ نذير يُنْذِرُكم)، أو: (ألم يكن إنْذارٌ مِن نذير؟)، وإن كانت صيغة مُبالغةٍ؛ فهي دالَّةٌ على كثرة إنذاره، وعلى كونِها صِفَةً مُشبَّهة باسم الفاعل، فيكون النَّذير مُلازمًا لهم حاضرًا معهم، ويكون غير ذلك مِن هذه الاحتمالاتِ، وكُلُّها تُفيد معانيَ مُتعدِّدةً.

ومن الأدلَّة على أنَّ لفظ (النَّذير) تأتي مصدرًا أو اسمَ مصدرٍ، أو اسمًا بمعنى المصدر، قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أي: إنذاري، ومن التَّعبير عنها باسم الفاعل أو الصِّفة المُشبَّهة باسم

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 233، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 26.

الفاعل قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]، أي: مُنذر[1] مُبشِّر، وسرُّ التَّعبير بهذه الصّيغة مع احتمالاتها كُلَّ المعاني؛ المُبالغةُ في كون المُنذر لم يُرْسَل إلّا لهذا، وأنَّ حياتَه كلَّها لم يكن فيها إلّا الإنذار، فيُفهم منه معنى القصر، وإن لم يكن بأسلوبِ قَصْرٍ اصطلاحيٍّ.

بلاغة الاستئنافِ، ودلالةُ الاعتراض في جملة الفَصْلِ:

الاعـــتراف بما وبَّخوهم عليه بـعـد سُـــؤال الخزنة

جملة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ﴾ مقدَّر، والمعنى: فماذا كان ردُّهم بعد سؤالِ الخزنة؟ فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾. ويَحْتَمِلُ أن تكون الجملةُ اعتراضيَّةً بين كلام خزنَةِ جهنَّم؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الفوج قاطعهم مُسارعين إلى الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه، وذلك من شِدَّة الخوف والهلع. وقد فُصِلت الجملةُ؛ لكونها اعتراضًا، ولوقوعها في سياق المُحاورة، وذلك على القول بأنَّ جملة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هي من بقيَّة كلام خزنة جهنَّم[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾ مع أنَّهم لمّا يُسألوا بَعْدُ؛ لكونِ ذلك سيكون يوم القيامةِ؛ للدَّلالة على تَحقُّق هذا الفعل وتأكُّد وقوعه.

دلالةُ الجمع في ﴿قَالُواْ﴾:

الـدَّلالـة على الإقرارِ التّامِّ من الكُفّار

في إسناد فعل القول إلى ضمير الجمع ﴿قَالُواْ﴾؛ دلالة على أنَّ هذا الجوابَ سيَكون مِنَ الكُفّار كُلِّهم، فَهُم جميعًا مُجيبون إجابةَ ذُلٍّ وخزيٍ رُغْمًا عن أنفُسِهم، وعُبِّر فعل القول ﴿قَالُواْ﴾ دون: (أجابوا)؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يُعبَّر بالإجابةِ؛ لأنَّ الخزَنَةَ سألوهم، وذلك لأنَّ الفعلَ ﴿قَالُواْ﴾ مشعِرٌ بأنَّهم قالوا ذلك على وجهِ الاعتراف العامِّ، فقالوا ذلك فيما بينَهُم وبَيْنَ أنفُسِهم، وقال كُلُّ واحدٍ مِنْهُم

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 232.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، والدرويش، إعراب القرآن: 10/ 149.

لنَفْسِه، وقالوه للملائكة خَزَنَةِ جَهنَّم، وقالوا لِكُلِّ الدُّنيا، حتَّى للنّار نَفْسِها: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾.

سرُّ الإجابة بـ﴿بَلَىٰ﴾:

الإقرارُ الصَّريحُ بوُصول النَّذير إليهم

في التَّعبير بـ ﴿بَلَىٰ﴾ دلالةٌ على تَحَقُّق الجواب؛ لأنَّ السُّؤال كان بالنَّفي، فجاء الجوابُ بنَفْيِ النَّفي، وهو إثباتٌ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، فكان جوابُهم دَفْعةً بحرْفِ ﴿بَلَىٰ﴾ المُفيدِ نَقيضَ النَّفيِ في الاستفهامِ[1].

دلالة دخول ﴿قَدۡ﴾ على الجواب:

تحقيقُ الكلامِ وتأكيدُه

في التَّعبير بـ ﴿قَدۡ﴾ تحقيقُ الكلام وتأكيدُه، و(قد) إذا سُبِقت باللّام تَدُلُّ على قَسَم محذوفٍ، وإذا لَم تُسْبَق باللّام؛ جاز احتمالُها القَسَمَ، وهي هُنا دالَّةٌ على قسم محذوف احتمالًا، والتَّقدير: قالوا: بلى واللّهِ قَد جاءنا نذيرٌ، وهذا مِن تأكيدِ الكلام بحيثُ لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ، فإذا كانوا في الدُّنيا شاكّين أو مُتردِّدين أو جاحدين، فإنَّهم هُنا مُقرّونَ إقرارًا اشتمَلَ على كلِّ ألوان المُؤكِّدات، فقولهم: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ جاء تأكيدًا لمعنى الإثبات الذي أفادته ﴿بَلَىٰ﴾، ولو اقتصروا على ﴿بَلَىٰ﴾؛ لكان المعنى واضحًا، لكنَّهم أضافوا هذا التَّصريح إمعانًا في إظهارِ الحَسْرَة، وزيادةً في تعميقِ شُعورِهم بالأسى على تَفْريطِهم في الاستجابَةِ للنَّذير، فجاء هذا التَّكريرُ في سياقِ التَّحسُّر، مقرونًا بحرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾؛ ليَزيدَ المعنى ثبوتًا، ويُبْرِزَ شدَّةَ نَدَمِهِم واعترافَهُم الصَّريح بخَطَئِهِم[2].

سِرُّ التَّعبير بالمجيءِ في هذا الجوابِ:

الدَّلالة على صعوبته في أنفُسِهم

عُبِّر بالمجيءِ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾؛ للدَّلالةِ على صُعوبَتِه في أنفُسِهم؛ لأنَّ السُّؤال ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾،

(1) السَّمين، الدُّرّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، 26.

(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، 26.

والإتيان فيه نوعُ سهولَةٍ، بخلاف المجيء؛ فإنَّ فيهِ عُسرًا وصعوبةً، فلم يقولوا: (بلى قد أتانا نذير)، إنَّما قالوا: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾، أي: إنَّه قد كان شديدًا على أنفُسِنا مجيئُهُم؛ لأنَّه يُصادِمُ شهواتِنا ورغباتنا.

دلالةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

الدَّلالة على شِدَّة تَحَسُّرهم

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى)، أو (بلى قد جاءنا)، فيُفهَم مِن كلمة (بلى) أنَّه قد جاءهم نذيرٌ، لكنَّهم صَرَّحوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ للدَّلالة على شِدَّة تَحَسُّرهم، فكأنَّهم أجابوا بما يُفهِم زيادةً في البيانِ.

دلالة فصل قوله: ﴿قَدۡ جَآءَنَا﴾ عمّا قبلها:

تفصيلُ الإجابة الموجزةِ وشَرْحُها في قولهم (بلى)

فُصِلَ قوله: ﴿قَدۡ جَآءَنَا﴾ عمّا قبلها، وهي قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك لأنَّهم لمّا قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، فكأنَّ سامعًا سأل ما الذي حَدَثَ بعد ذلك؟ فبَيَّنوا كلامَهُم، أو أنَّها استئناف بيانيٌّ لشَرْحِ الإجابة الموجزةِ وتفصيلِها في قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾[1].

بلاغة الإطنابِ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾:

قولُه تعالى عن الكفّار: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ هو قولٌ صادرٌ منهم على وجه الاعتراضِ بأنَّه تعالَى قد أزاحَ عِلَلَهم بالكُلِّيَّة، جامعينَ بينَ حرفِ الجوابِ ونفسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ مُبالَغةً في الاعترافِ بمَجيءِ النَّذير، وتحسُّرًا على ما فاتَهم مِن السَّعادةِ في تَصديقِهم، وتَمهيدًا لبَيانِ ما وقَعَ منهم مِن التَّفريطِ؛ تَندُّمًا واغتمامًا على ذلك، فجاء جوابُهم جَوابَ المُتحسِّرِ المُتندِّم[2].

دلالةُ تقديم المسنَدِ في ﴿جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، وإعادة ذِكْرِ النَّذير في الجوابِ:

قُدِّم المُسنَد - وهو الفعلُ - على الفاعلِ ﴿نَذِيرٌ﴾، في قول الله

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

الدَّلالة على وصول النِّذارة إليهم والتَّشويق إلى الفاعل

تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، وهو من ضروراتِ العربيَّةِ؛ إذ لا يصحُّ في صناعةِ اللُّغَةِ أن يُقال: (جاء نذيرٌ إيّانا)، ولا يمنَعُ أن يكون مع ذلك نُكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهي هنا الدَّلالةُ على وصول النِّذارة إليهم من أيِّ جهة كانَت، وتأخيرُ لفظِ النَّذير يدلُّ على تشويقِ الكلامِ إليه، وما سيقولونَهُ في تَتِمَّة كلامِهم.

سِرُّ إفراد النَّذير في الجُملة الكريمة:

الدَّلالة على المُبالغة والتَّغليب

النَّذير في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهًا من المعنى، فقد يُراد به الجَمْعُ؛ إذ هو على وزن فعيلِ الدّالِّ على الكثرة، ويَحْتَمِل أن يكون مصدرًا مُضافًا، أي: أهل إنذار، ويجوز أن يُستعمَل نعتًا على سبيلِ المُبالغة، حتَّى كأنَّ الرُّسل عينُ الإنذار ومصدرُه، وقد يُراد به المُفرد، غيرَ أنَّ الخِطابَ يتوجَّه إليهِ وإلى أمثاله تغليبًا، أو يُقام تكذيبُ الواحدِ منهم مقامَ تكذيبِ جَماعَتِهم؛ إذ المآلُ فيهما سواءٌ[1].

دلالةُ التَّنكير في ﴿نَذِيرٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ تنويهًا بعَظَمَة هذا النَّذير، وعلى كَثْرَتِهم، وتنويع هذه النُّذر.

بلاغَةُ العَطْفِ بالفاء هاهُنا:

الدَّلالة على سُرعة تكذيبِهم وجُحودِهم

الفاءُ في قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبۡنَا﴾ تَدُلُّ على سُرعة التَّكذيب؛ لأنَّ الفاء تَدُلُّ على تتابع المعطوف على المعطوفِ عليهِ، كأنَّه لم يكُنْ ثمَّة فَرْقٌ في الوقت بين الإنْذار وبَيْنَ التَّكذيب.

دلالة التَّضعيف في الفعل (كَذَّب):

التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضاعف (كَذَّب)، يدلُّ على كثرة التَّكذيب وشِدَّته؛ لاحتوائه كُلَّ ألوان التَّكذيب، ولِكُلِّ قولٍ قاله النَّذير[2].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والطِّيبي، فتوح الغيب: 15/ 545.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236.

دلالة العطفِ في جملة ﴿وَقُلۡنَا﴾، وسِرُّ تقديم التَّكذيب على القولِ:

التَّكذيب صدر في نفوسهم قبل أن يتفوَّهوا بالكلام المذكور بعد ذلك

قول الله تعالى حكايةً عن الكفّار قولهم: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا﴾، أي: اجتمع التَّكذيب والقولُ في وقتٍ واحدٍ، أو أنَّهم كَذَّبوا، وقالوا مقالةَ المُكذِّب، والعطفُ بالواوِ يَقتَضي التَّشريك، قُدِّم التَّكذيب على القول، ولم يُعكَس، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (قالوا: بلى، قد جاءنا رسولٌ، فقلنا، وكذَّبنا)، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ التَّكذيب صدَرَ في نفوسهم قبل أن يتفوَّهوا بالكلام المذكور بعد ذلك، ووجه ذلك: أنَّ الإنسان قد يحيكُ في صَدْرِه تكذيبًا، فيعزم عليه، ثُمَّ يتفوَّه، ويتكلَّم به بعدُ، فكان تقديم التَّكذيب على القولِ دالًّا على أنَّ التَّكذيب حَلَّ في صدورهم قَبْلُ بمُجرَّد الإنذار قبل أن يُعْلِنوا، وهذا يَدُلُّ على سفاهة الكُفّار في أنَّهم لَم ينظروا في الكلام، ولم يتمعَّنوا فيه، ولم يُحاولوا أن يَعْرِفوا حُسنَه، إنَّما أَسْرَعوا إسْراعًا شَديدًا إلى التَّكذيب قبل القولِ.

الدَّلالة على المُجاوزة في العناد قصدًا وقولًا

ومن فوائد تأخيرِ القولِ على التَّكذيبِ في قولهم: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا﴾: أنَّهم لم يكتَفوا بالتَّكذيب والإعراضِ عَن إنْذارِ المُنْذِرين ودعوةِ الرُّسل أجمعين، بل تجاوزوا ذلكَ إلى القول، وذلك مِنهم على سبيلِ العِناد والجُحودِ والغُرور، فَقالوا: ما نَزَّل اللّهُ على أحد منكم أيُّها المُنذِرون من شيءٍ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

الإمعانُ في العِنادِ والتَّكذيبِ

عُبِّر بـ ﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾؛ لِما تدلُّ على ﴿مَا﴾ من تأكيدِ النَّفْي، وهي بمنزلةِ ﴿قَدۡ﴾ في الإثباتِ، وهذا مِنْهُم إمعانٌ في العنادِ والجحودِ.

سرُّ التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضَعَّف ﴿نَزَّلَ﴾:

الدَّلالة على تكرار النّازل وتتابع النُّزول وتوالي التَّنزُّلات

في التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضَعَّف ﴿نَزَّلَ﴾، بدل: نَزَلَ أو أنزل: دلالةٌ على تَكرار النّازل وتتابع النُّزول وتوالي التَّنزُّلات مِنَ اللّه ﷻ؛

تأييدًا لأنبيائِهِ بالمعجزات، أو بَيانًا له بالشَّرائعِ، ومع هذه الأنواع من التَّنزُّلات إلّا أنَّهم أنكروا ذلك كُلَّهُ.

بلاغة التَّعبير بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ في هذا المقام:

في التَّعبير بالاسمِ الأحسَن (الله) من المهابةِ والجلالِ ما فيهِ

لم يقولوا: ما نَزَّلَ الرَّحمن، أو ما نَزَّل الرَّبُّ، وإنَّما عبَّروا بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للإشعارِ بعقوبة التَّكذيب وخطورته؛ لأنَّ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ فيه مِنَ المهابةِ والجلالِ ما فيه؛ إذ يَدلُّ على الكمال المُطلق، فكأنَّهم قالوا: ما نزَّل اللّه الذي له كُلُّ صفات الكمال[1] والجلال والجمال، الذي له هذه الهيبَةُ والمَنزلة.

كون السّورة تناولت ألوانًا مِنَ العذاب

وأُسنِدَ فعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ دون اسم (الرَّحمن)؛ لأنَّ في سورة الملكِ ذِكْرَ العذاب ومعاقبة الكُفّار؛ فلا يُناسِبُ إزاءَ كلِّ هذا التَّهديد والتَّحذير للكافرين أن يَقْرِنَهُ باسْمِ الرَّحمن، كما أنَّ القائلين لهذا القولِ إنَّما هُم في أطباقِ النّيران، وقد اشتدَّ غضَبُ اللّه تعالى عليهم، ولَم تُدرِكهُم رحمَتُه؛ فلا يُناسِبُ ذِكْر الرَّحمن هنا[2].

سِرُّ حذف مُتعلِّق الفعل ﴿نَزَّلَ﴾:

الدَّلالة على العمومِ في الإنكار والتَّكذيب

في قول اللّه تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ أصلُ الكلام: (ما نَزَّل اللّه عليكم من شيء)، لكنَّه حُذِفَ (عليكم)؛ للدَّلالة على العموم، كأنَّهم لم يكذِّبوهم وحدَهُم، بل كَذَّبوهم، وكَذَّبوا كُلَّ الرُّسُلِ السّابقين واللّاحقين، والتَّقدير: ما نَزَّل اللّه على الأرضِ لا عليكُم، ولا على غَيْرِكم، ولا على مَن سَبَقَكُم، ولا على مَن بعدكم شيئًا، فكان في حَذْفِ المُتَعَلِّقِ دلالَةٌ على عموم الإنكار والتَّكذيب، ويُؤكِّد هذا كَلِمةُ ﴿نَزَّلَ﴾؛ كأنَّه لم يَرِد التَّراوح بين المعجزة والشَّريعة لرسولٍ واحدٍ فقط، بل على كُلِّ ما نَزَّله اللّه ﷻ على كُلِّ الرُّسل السّابقين واللّاحقين، فتَدَرَّجوا إلى حالٍ أنْكَروا فيها، وكذَّبوا فيها كُلَّ الرُّسلِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.

(2) السّامرائي، لمسات بيانيَّة لسور القرآن، ص: 11.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارَّة:

التَّنصيص على العمومِ في الأشياءِ

التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارَّة؛ يُرادُ بها التَّنصيصُ والعمومُ في نَفْي كُلِّ مُنَزَّل من السَّماء، كأنَّه قال: ما نَزَّل اللّهُ تَعالى من أيِّ شيءٍ، لا مِن وحْيٍ ولا من شريعةٍ ولا من مُعجزة، وحرفُ الجَرِّ ﴿مِن﴾ صِلَةٌ، وقد دَخَلَ على النَّكرة المنفيَّة؛ فأفاد التَّنصيصَ على العموم، فليس في العبارةِ احتمالٌ للتَّخصيص بحالٍ مِنَ الأحوالِ(1).

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿شَيۡءٍ﴾:

إفادةُ عموم نفي الأشياء كُلِّها

لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ أعمُّ كلمةٍ في اللُّغة العربيَّة، ونفيها هنا لا يَنفي إنزالَ معجزة لِرُسُلٍ ولا إنزال شريعةٍ ولا إنزال وحي، بل تَعُمُّ كُلَّ شيءٍ نازلٍ مِنَ اللّهِ ﷻ، فكأنَّهم قالوا مُبالغين ما أنزل اللّهُ تعالى مِنْ مَطَرٍ، وما أنزل اللّهُ مِن سحابٍ، وما أنزل اللّه تعالى مِن رِزْقٍ، وما أنزل اللّهُ تعالى مِن خير؛ لأنَّ كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ أعَمُّ لفظٍ في لُغة العرب، فهي تُفيد عمومَ نَفْيِ الأشياء كُلِّها، وهذا مِنهُم مُبالغة في الإنكار والجُحودِ حينَ يُحيط الكِبْرُ والجبروت بالكافر، وفي التَّعبير بـ ﴿شَيۡءٍ﴾ دون (وحي)، دلالة على أنَّهم كانوا يُحيلونَ أن يُنَزِّل اللّه تعالى وحيًا على بشَرٍ(2).

بلاغة التَّنكير في لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

إفـادة التَّنويع مِـن جِـهَـةٍ، والـعـمـومِ مِن جِهَةٍ أُخرى

التَّنكيرُ هاهُنا يُفيد عموم النَّفي؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تُفيد العموم، ومِمّا يُفيدُه التَّنكيرُ: تعظيم هذه الأشياءِ وتَنَوُّعها، كأنَّهم قالوا: ما أنزل اللّه من أيِّ شيءٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، فما مِن نوعِ شيءٍ مِنَ أشياء إلّا وهو مَنفيٌّ عنه الإنزالُ، فالتَّنكير هاهُنا يُفيد التَّنويع من جهةٍ، والعمومَ مِن جهة أُخرى، وهذه عادةُ أهلِ الكفرِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91](3).

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 26.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، 579، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224.

بلاغةُ الفصلِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾:

تأكيدُ التَّكذيب السّابق

قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، إمّا أن تكون مِن تمامِ كلامِ الكُفّار للرُّسل، فيكون الفصلُ فيها لتأكيدِ التَّكذيب السّابقِ، فَإذا كان المُرسَلُ كاذبًا - بزعمهم - فهو في ضلالٍ، فكأنَّهم لّمّا نَفَوا رسالَتَهُم، ونفوا عنهم أن يكون اللّهُ قد نَزَّل عليهم شيئًا؛ قالوا: إن كنتُم كذلك كاذبين ونحن نكذِّبكم؛ فأنتُم في ضلالٍ كبيرٍ، وجُمِعَ كلامُ جَميعِ الأفواجِ في عبارةٍ واحدةٍ، فجيءَ بضَميرِ الجمْعِ، والمرادُ التَّوزيعُ على الأفواجِ، أي: قال جَميعُ الأفواجِ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ على طَريقةِ المثالِ المشهورِ: (رَكِبَ القومُ دَوابَّهم)، وإمّا على إرادةِ شُمولِ الضَّميرِ للنَّذيرِ وأَتْباعِه الَّذين يُؤمِنون بما جاء به[1].

حكايةُ ما كانوا عليه من ضَلالِهم في الدُّنيا إخبارٌ لهم وتَقريعٌ

ويحتَمِلُ أن تكون الجملةُ من بقيَّةِ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ؛ فَصَلَ بينهما وبين ما سَبَقَها مِن كَلامِهم اعتراضُ جَوابِ الفَوجِ الموجَّهِ إليهم الاستفهامُ التَّوبيخيُّ، فأرادوا حِكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا؛ إخبارًا لهم وتَقريعًا، أو أرادوا بالضَّلالِ: الهلاكَ الَّذي هم فيه، أو سَمَّوا عِقابَ الضَّلالِ باسمِه ضَلالًا؛ لّمّا كان ناشئًا عن الضَّلالِ؛ تَسميةً لهُ باسمِ سَببِه، ويُؤيِّدُ هذا إعادةُ فِعلِ القولِ في حِكايةِ بَقيَّةِ كَلامِ الفوجِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾؛ لانقطاعِه بالاعتراضِ الواقعِ خِلالَ حِكايتِه[2]، وعلى هذا تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لورودِها جَوابًا عَن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: بِماذا أجابَتْهُم الخَزَنَةُ؛ فجاء الجوابُ: قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ لأنَّكم كَذَّبتم الرُّسُلَ، فاستحقَقْتُم النّارَ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، 579، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وأبو السُّعود، وإرشاد العقل السَّليم: 9/ 5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

ويجوزُ أن يكون الكلامُ أيضًا من كلامِ الملائكة، أو مِن كلام اللّه ﷻ، كأنَّ هذه الجُملة جاءت تذييلًا للحُكم على كُلِّ مُكذِّب من الكُفّار بأنَّهم كانوا في ضلالٍ كبير في الدُّنيا، وحَقَّ عليهم آثارُ الضَّلال يومَ القيامةِ، وإن كانَ الوجْهُ الثّالث قَلَّ مَن يذكره من المُفسِّرين، وهو أنَّ هذا من كلام اللّه ﷻ زيادةً في المهانَةِ.

بلاغة التَّعبير بالقَصْر:

إفــادةُ قـصـرِ الـضَّـلال على الذَّوات

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ يُفيد قصرَ الضَّلال على الذَّوات، ومَعْنى القصرِ المُستفادِ مِن النَّفي والاستثناءِ: قصْرُ قلْبٍ، أي: ما حالُكم الَّتي أنتم مُتلبِّسون بها إلّا الضَّلالُ، وليس الوحْيَ الإلهيَّ والهُدى - كما تَزعُمون[1] - فإن أنتُم إلّا في ضلال كبير كأنَّهم لم يكونوا في دُنيا، ولم يكونوا في حياةٍ، ولم يكونوا في سعادة، إنَّما كانوا في ضَلالٍ مبينٍ.

بلاغَةُ التَّعبير بـ ﴿إِنۡ﴾ بدل (ما) و(لا):

عـدمُ انـفِـكـاكِ الـكُـفّـار مـن الـضَّـلال بحالٍ من الأحوال

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ ﴿إِنۡ﴾ النّافية مع ﴿فِي﴾، في جُملة القَصْر: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾؛ لأنَّ الكلام هاهُنا في الآخرة، وأمّا (ما) و(لا)؛ فإنَّما يُذكَر غالبًا في أمور الدُّنيا، بما في (ما) و(لا) من مدٍّ دالٍّ على الامتدادِ في الزَّمان؛ لتَتَجاوَزَ حُدود الدُّنيا، وتَشْمَل الآخرة، لكن أغلب ما يُستعمَل في الحديث عن الآخرة إنَّما يكون بـ (إن). أو أنَّهم إن كان الكلامُ مِن الكُفّار للرُّسل يُريدون الحالَ التي أنْذَروهُم فيها، فكأنَّهم قالوا: إن أنتم الآن حالَ إنذارِكُم إلّا في ضلالٍ كبيرٍ، فالمعنى مع ﴿إِنۡ﴾، أي: حين اعترفْتُم الآن، فأنتُم في ضلال كبيرٍ لا يُمكن أن تَنْحَلّوا عنه، ولا أن تَتحرَّكوا منه، ولا أن تَنفَكّوا عنه بحالٍ من الأحوالِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

سِرُّ جمع ضمير المُخاطَب:

الإشارة البديعةُ إلى أنَّ ردَّهم جميعًا كان على نسَقٍ واحد

جُمِع ضمير المخاطَب في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ للمُبالغة في بيان تكذيبهم وتماديهم في الضَّلال، مع أنَّ الخطابَ في الأصل موجَّه إلى كُلِّ فوج جاءَهُ نذيرُه، وفي هذا الجمع إشارة بديعة إلى أنَّ ردَّهم جميعًا كان على نسقٍ واحد، لا يختَلِفُ بعضُه عن بعض، حتَّى كأنَّهم - على تباعد أزمانِهِم وتفرُّق بلدانهم - قد تَواطَؤوا على مَوْعِدٍ واحِدٍ للإنكار والجحودِ[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ في الاستثناء:

كونهُ أقوى في الدَّلالة على معناه من غيرها

الدَّلالة في الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾ أقوى من الدَّلالة في الاستثناء بـ: غير، وسوى؛ لأنَّها أمُّ الباب، وأمُّ الباب تكون أقوى في الدَّلالة على معناهُ مِن غيرها، وأقوى في العمَلِ من بقيَّة أخواتها، والاستثناءُ بـ (إلا) أقوى من بقيَّة أدوات الاستثناء، والدَّليلُ على ذلك: أنَّ (إلّا) لا تكون إلّا للاستثناء منقطعًا كان أو مُنفصلًا، أمّا بقيَّة أدواتِ الاستثناء؛ فيجوزُ أن تكون للاستثناء، وأن يكون فِعْلًا ماضيًا، وتكون لدلالاتٍ أخرى، كَورود (سِوى) لمعنى التَّسوية، ونحو ذلك، فأمُّ الباب لا تَحتمل إلّا المعنى الذي فيه، فسِرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ هاهنا الدَّلالةُ على قوَّة الاستثناء مع النَّفي الدّالِّ على الحَصْرِ الَّذي لا يَخرُج منه شيءٌ.

بلاغة التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

بيانُ انغماسِهم في الضَّلال وإحاطَتِه بِهم

في التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾؛ دلالةٌ على الاحتواء والظَّرفيَّة، فكأنَّهم لا يكونون في حالٍ مِنَ الأحوالِ، ولا في زمانٍ من الأزمان، ولا في شيءٍ من الأشياء إلّا وهم مُنْغَمِسون في الضَّلال، وهو مُحيط بهم من كُلِّ جانب، فهُم لا يَستَطيعون منه حِراكًا ولا عنهُ فِكاكًا، وعلى هذا فَهُم في الضَّلال، والضَّلال مُحيطٌ بهم من كُلِّ جانب، لا يمكن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

أن يَدْخُل إليهم غَير الضَّلال، ولا أن يَخرجوا هُم مِن هذا الضَّلال، فالظَّرفيَّةُ في قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ لتَشبيهِهم تَمحُّضَهم للضَّلالِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ(1).

بلاغَةُ التَّعبير بالمَصْدَرِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

الـدَّلالـة على شمولِ الحدَثِ لهم منفصلًا عن الزَّمان

لم يقولوا: إن أنتم إلّا ضالّون، أو مُضِلّون، أو تَضلّون، بل جاء التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ؛ ليدلَّ على الحدَثِ مُنفصلًا عن الزَّمان، وعن الفعل والفاعل، فهُم في ضلالٍ سابِقٍ وقابِلٍ ولاحقٍ، وفي ضلالٍ يَعُمُّ الزَّمانَ والمكان، وفي ضلالٍ هُم سَبَبُه وهُم نتيجَتُه، فقوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ يحوزُ كُلَّ هذه المعاني.

بلاغة المجاز في التَّعبير عنهم بكونهم في ضلالٍ:

الدَّلالة على أنَّ التَّوَهان لازِمٌ لَهُم لا ينفكُّ عنهم في الدُّنيا والآخرة

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّه ما هم فيه من التَّكذيب والكفر ومعاداةِ الرُّسل بالتَّوَهان؛ وذلك أنَّ أصلَ الفِعْلِ (ضَلَّ): تاه، تقول العربُ: فلان ضلَّ الطَّريق، أي: تاهَ فيه، فالكفّارُ في تَوهانٍ، يَسيرونَ يمينًا وشِمالًا، وشَمالًا وجنوبًا، غربًا وشرقًا، فلا يستطيعونَ أن يَصِلوا إلى نهايةٍ، ولا أن يوَفَّقوا إلى غايةٍ، فكان التَّوهانُ لازِمًا لهم لا ينفضُّ عنهم في الدُّنيا، وكذلك هذا التَّوهان في العذاب تُقْذَفُ به من نارٍ في كُلِّ جانب منها، ثُمَّ يعودون إلى مكانهم مرَّة أخرى.

تـصـوير شِـدَّة انغماسهم في الضَّلال

وقد يكون وجهُ الاستعارة على غير هذا المعنى؛ إذ شُبِّه الضَّلالُ المعنويُّ بشيء حِسّي، ثُمَّ رُمز له بشيءٍ مِن لوازمه، وهو الظَّرفيَّة، أو تكون الاستعارةُ في حرف الجَرِّ ﴿فِى﴾، وتكون استعارةً تبعيَّة، أي: إنَّ التَّعبيرَ لَهُ ألوانٌ مُتعدِّدة مِنَ المجاز يَحْتَمِلُها، كما يحتَمِلُ أن يكون مجازًا بالحَذْفِ، والتَّقدير: (إن أنتم إلّا في أهلِ ضلالٍ).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 27.

دلالة تنكير لفظَي ﴿ضَلَٰلٍ﴾ و﴿كَبِيرٍ﴾:

الدَّلالة على التَّعظيم

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وكذا لفظُ ﴿كَبِيرٍ﴾ تبعًا له؛ لإرادَةِ التَّعظيم، فيشْمَلُ العِظَمَ الحِسّيَّ والمَعنويَّ، فالعِظَمُ الحِسّيُّ في لفظ (الضَّلال)، والعِظَمُ المعنويُّ في ﴿كَبِيرٍ﴾[1].

دلالة وصفِ الضَّلال بكونهِ كبيرًا:

كون هذا الضَّلال شَديدًا بالغًا غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه

وصْفُ الضَّلالِ بالكبيرِ في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ معْناه: أنَّه شَديدٌ بالغٌ غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه[2]، فزاد في النِّكايةِ وصْفُ هذا الضَّلال بأنَّه كبير، والضَّلال الكبير إن أُريد به الجانِبُ الحِسّيُّ في الكِبَرِ؛ دلَّ على الامتداد الذي لا يستطيعونَ أن يتحَرَّكوا من داخِله، وإن كان الكِبَرُ معنويًّا يَكْبُر في المكانة والمنزلةِ، فهو بذلك يَشْمَلُ كُلَّ ألوان المعنى الذي يَصدر عن لفظِ ﴿كَبِيرٍ﴾ في الحِسِّ وفي المعنى، فهوَ ضلالٌ عَظيم شديدٌ، وضلال يُحيط بهم، مُمتَدٌّ حولَهُم محيطٌ بِهِم، لا يستَطيعونَ الخُروجَ مِنهُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 10 - 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تعقيب قول الكُفّار بعضهم لبعضٍ بَعدَ ذِكرِ قولهم لخزنةِ جهنَّم

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى ما خاطب به أهلُ النّار خزنتَها نادمين على ما فرَّطوا؛ أعقب ذلك بذِكْرِ ما قاله بعضُهم لبعضٍ وما دار بينَهُم مِن حديثٍ بعدَ ذلك؛ زيادةً في إيلام نفوسهم، وتعميقِ شُعورهِم بالنَّدم، وإظهار مَقْتِهِم لأنفُسِهِم بألسِنَتِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسُحۡقٗا﴾، أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[2]، يقال: سحق يسحق سُحقًا للبُعد، والسَّحيق لما طال بُعدُه، ومنه السَّحوقُ، وهي: النَّخْلَةُ الطَّويلَةُ، وسُمّيَتْ بذَلِكَ لِبُعدِ أعلاها عَنِ الأرضِ[3]، والمعنى في الآيةِ: فَبُعدًا لَهُم مِن رَحْمَةِ اللّه تَعالى[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ شِدَّة حَسْرَةِ الكُفّار في ذلك اليومِ العَصيبِ

ثُمَّ يُبيِّن اللّهُ تعالى شِدَّة حَسْرَتِهم في ذلك اليوم، عندما يقولُ الكافرونَ - معترفين بالحقِّ -: لو كُنّا في الدُّنيا نسمَعُ سَماعَ تَدبُّر، أو نعقِلُ عقلَ انتفاعٍ واهتداء؛ لما كُنّا اليوم في عِداد المُخلَّدين في النّار، فاعتَرَفوا بذُنوبِهم الَّتي استوجَبَتْ لهم الخُلودَ في السَّعير، فجاء الحُكْمُ عليهم بالإبعادِ عَن رحمةِ اللّه تعالى[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سحق)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 419.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 213، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 242.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 340، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾:

التَّشريك في الحُكْمِ بينَ القول السّابق وهذا القول

العطف هُنا للتَّشريك في الحكمِ، أي: إنَّ كُلًّا مِن القول السّابق وهذا القولِ مِن جُملة قولهم، مع الاختلاف في المُرادِ من القولِ، وفيمن يُقال له، فالأوَّل - باتِّفاقٍ -: قولٌ لخزنة جهنَّم، والآخر: قولٌ لخزنة جَهنَّم أو لبَعْضِهم بَعْضًا، أو قال كُلٌّ واحد لنفسِه، ولمّا كان الجميعُ يقول ذلك لنَفْسِه، أو يقول بعضُهم لبعضٍ؛ أخَذوا الحُكمَ الجَماعيَّ.

بلاغة التَّعبير بالفعل الماضي (قالوا):

الدَّلالة على تَحقُّق ذلك وحدوثه في المُستقبل

في التَّعبير بالفعل الماضي (قالوا) دلالةٌ على تحقُّق ذلك؛ لأنَّ كُلَّ ذلك حكاية عَمّا سَيحدُث في النّار يوم القيامة، وهو لَم يحدُثْ، فيكونُ إنَّما عُبِّر بالفعل الماضي؛ لإفادَةِ تَحَقُّق ذلك وحدوثه في المُستقبل.

سِرُّ تكرار (القول) في الآيات الكريمةِ:

الدَّلالة على أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ مُغاير لجوابهم عَن سُؤالِ خزنَةِ جهنَّم

أُعيد فعل القول في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ مُغاير لجوابهم عَن سُؤال خزنة جهنَّم، وإنَّما هو حديثٌ جرى بينَهُم في النّار؛ تعبيرًا عن الحسْرَة والنَّدم، أي: قال بعضُهُم لبَعْضٍ، وهو نظير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38]، وذلك لتوكيد الخبَرِ وفْقَ الوجهين السّابقين في بيان موقعِ جُمْلَةِ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[1].

سِرُّ استعمال ﴿لَوۡ﴾ في مقام التَّمنّي:

الدَّلالة على التَّمنّي المُصاحِب للتَّندُّم والتَّحسُّر

جيءَ بـ ﴿لَوۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾؛ لأنَّها أكثَرُ ما تُستَعمل في التَّمنّي؛ مرادًا به التَّحَسُّرُ والتَّندُّم، ولذلك حذَّر الإسلامُ مِن استِخدامِ (لَوْ)؛ إذا جيءَ بها على وجهِ النَّدَمِ والحسرةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 27.

وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "فَلا تَقُل: لَو أنّي فَعَلْتُ؛ كانَ كَذا وكَذا، ولَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وما شاءَ فَعَلَ، فَإنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ"[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُنَّا﴾ مادّة وصيغة:

السَّمعُ والعقلُ من طَبْعِ الإنسانِ وجِبِلَّته

﴿كُنَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا﴾ دالَّةٌ على لزوم الأصلِ الطَّبيعيِّ في الماضي، أي: بما هو لَنا بمنزلةِ الغَريزَة[2]، وناسب التَّعبير بـ(كان) ماضيًا في ﴿كُنَّا﴾؛ لأنَّ (لو) للتَّحَسُّر والتَّندُّم والتَّحَسُّب، والتَّندُّمُ إنَّما يكون على ما فاتَ ومَضى، والتَّعبير بالكونِ هاهُنا يَدُلُّ على أنَّ السَّمع والعقلَ أمرٌ جِبِلّيٌّ موجودٌ في الإنسانِ خِلْقَةً، والمعنى: لو كُنّا على ما نَحْنُ فيه من جِبِلَّة وطبيعَةٍ.

دلالة مجيء اسْمِ ﴿كُنَّا﴾ مجموعًا:

الـدّلالـة على الفاعلين لمُقابلة الجَمْعِ قبلَهُ

التَّعبير باسْم (كان) جَمْعًا - وهو الضَّمير (نا) - دالٌّ على الفاعلين، وذلك لمُقابلة الجَمْعِ قبلَهُ، فكأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم قالَ ذلك، ومعلوم أنَّ مُقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمةَ آحادًا، فقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا﴾، أي: قال كُلُّ واحد مِنْهُم: لو كنتُ أسْمَعُ، أو أعْقِلُ؛ ما كُنْتُ في أصحاب الجحيم، فكُلُّ واحد منهم يتحَسَّر على نفسِه، ويتندَّم، ويُخبر غيرَهُ معَهُ، فيَجِده مثلَه.

دلالة التَّعبير بالسَّماع دون الاستماع:

الـدّلالـة على يُسر السَّمع وسهولته

السَّمع: عَمَلُ الأُذُن، وهو وصول الصَّوت إليها، ووصولُهُ يكون مِن دون إجهادٍ أو مَشَقَّة من السّامع، بخلاف الاستماع، فإنَّه يُهيِّئ نفسَهُ للسَّمع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 204]، أي: هيِّئوا آذانَكم وأنْفُسَكُم للسَّمع، فالتَّعبير بالسَّمع بَدَلَ الاستماعِ دالٌّ على أنَّهم لو أعملوا أدْنى درجات الإدراكِ بالأُذُنِ؛ لأقلعوا عن هذا الباطِلِ، ولعلموا ضلالَ ما هُم عليه.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2664).

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.

دلالة الجمع بين السَّمع والتَّعقُّل في مقام الهدايةِ:

أساس الصَّلاح يقوم على حُسن التَّلقِّي وحسن التَّفكُّر

نَفى الكافرون عن أنفُسِهِم أسبابَ الهدايةِ وطُرُقَها، وهي: السَّمعُ لِما أنزَلَ اللّهُ تَعالى على أنبيائه، والعقلُ النّافع الذي يهدي صاحبَهُ إلى حقائق الأمور، ويحثُّه على اختيارِ الخَيْر، ويَصْرِفُه عن كُلِّ ما عاقِبَتُهُ مذمومَةٌ، فكانوا - في حَقيقَتِهِم - بلا سَمْعٍ نافِعٍ ولا عَقْلٍ راشِدٍ، وهذا على الضِّدِّ من حالِ أهل اليقينِ والعِرْفانِ، وأصحابِ الصِّدق والإيمان؛ إذ قوَّوا إيمانَهم بالأدلَّة السَّمعيَّة، فسمعوا ما جاءَ مِن عند اللّه تعالى، وجاء به رسولُه ﷺ سماعَ علم ومعرفةٍ وعمَلٍ، كما استدلّوا بالأدلَّة العقليَّة التي تُميِّز بين الهدى والضَّلال، والحَسَنِ والقَبيح، والخير والشَّرِّ، وهم في درجات إيمانِهم على قَدْرِ ما وفَّقهم اللّهُ تعالى لَهُ من الجَمْعِ بين نور المَنقولِ وسلامَةِ العُقول[1].

ويُستفاد من هذه الآية أنَّ أساسَ الصَّلاح يقوم على حُسن التَّلقّي وحسن النَّظر، وأنَّ الأثر والنَّظرَ - أي: الدَّليل النَّقليَّ والقياس العقليَّ - هُما ركنا الهدايةِ وأصلُها، فالسَّمع والعقل هما أساسُ العلم، وبهما تُنال معارِفُهُ، وتتحَقَّق ثمراتُه[2].

سِرُّ اختيار السَّمع والعَقْلِ دون الإبْصار:

بيانُ أنَّ موضع الأسفِ هو عدَمُ سماعِ أقوالهم وعــدمِ تعــقُّلِ معانيها

اختيرَ السَّمع والعقل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ دون البَصر؛ لأنَّ التَّكليف الشَّرعيَّ يدور عليهما؛ إذ سماعُ دعوة النَّذير هو أوَّل ما يَرِدُ على أسماع المنذَرين، ثُمَّ يعرضونَها على عقولهم ليتدبَّروها، ولم يُذكر البصَرُ هُنا؛ لأنَّ المقام يتعلَّق بتكذيبهم لرُسُلِهم، ولا مدخَلَ للبصَرِ في ذلك، فكان موضع الأسَفِ هو عدمَ سماعِ أقوالهم وعدمَ تعقُّل معانيها[3]، وكأنَّ خزنة جهنَّم قالوا لهم

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/ 59، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 238، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 195.

عِندَ توبيخِهم: ألم تَسمَعوا آياتِ رَبِّكُم، ولم تَعقِلوا معانيَها، حتَّى لا تُكَذِّبوا بها؟ فجاء جوابُهم على هذا النَّحوِ[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ دونَ الواو:

التَّنبيه عَلى أنَّ أحدهما سَبَبُ النَّجاة؛ لاستلزامه الآخر

جاء التَّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ هنا - وهي دالَّةٌ على التَّقسيم - دون الواو، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (وقالوا لو كُنّا نسمع، ونعقل)؛ للدَّلالة على أنَّ كُلًّا منهما مُستقِلٌّ قائمٌ مقامَ إفادة الحُجَّة وإقامة الدَّليل؛ تنبيهًا عَلى أنَّ أحدَهُما سببُ النَّجاة؛ لاستلزامه الآخر، وكأنَّه ترديدٌ في العبارة[2]، فإنَّ الذي يسمَعُ كلامَ الرُّسل يجِبُ عليه أن يَعيَه وأن ينصاعَ لَهُ، والذي لَم تَصِلْهُ دعوةُ رسولٍ ولا إنذار مُنذرٍ؛ عليه أن يُفكِّر فيما حوله من دواعي النَّظر التي يعيش حولها في كُلِّ وقت، فَكُلٌّ منهما تقومُ بِهِ الحُجَّة على صاحبه، فكأنَّهم جمعوا بَيْنَ إقامة الحُجَّة من جهتين؛ بِعَدَمِ إعمال الأُذُنِ بالسَّمع المُعتبر، وعدمِ إعمال القَلبِ بالفَهْمِ المُعتَبَر[3].

توجيه تقديم السَّمع على العقل في هذا الموضع وغيره من القرآن الكريم:

في مقام الإنذار تقدَّم السَّمع الذي يُتلقّى به كلام النُّذر، ثُمَّ العقل الذي يعقل به ما يقولونه

قُدِّم السَّمع في القرآنِ في سياقِ الإنذارِ أو البلاغ أو التَّكليف على العَقلِ أو البَصَرِ؛ لأنَّه بوّابة العلم، ولأنَّه تقوم الحُجَّة به مُنفردًا، فالأصمُّ لا تقوم الحُجَّة عليه إلّا على مقدار ما يفهم بالإشارة، ولذلك يجِبُ تكليفُ الأعمى، ولا يجِبُ تكليفُ الأصَمِّ إلّا على قَدْرِ ما يفهم بالإشارةِ؛ إن كان يراه، واحتَجَّ بهذه الآية مَن فَضَّل السَّمعَ على البصَرِ، فقد دَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، على أنَّ للسَّمعِ مَدْخلًا في الخَلاصِ مِن النّارِ والفوزِ بالجنَّةِ، والبصَرُ ليس كذلك، فوَجَب أن يكونَ السَّمعُ أفضَلَ[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 195.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 588، والسُّيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ص: 270.

ولمّا كان السَّمع عملَ الأُذن؛ دَلَّ ذلك على أنَّ التَّعقُّل عملُ القلب، ولذلك جمعَهُما اللّه ﷻ في سورة الحَجِّ مَدلولًا عليهما بِباءِ الآلَة، في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ [الحج: 46]؛ لأنَّ السَّير في الأرض يَحتاجُ إلى نوع تَفَكُّر، وتَدَبُّر، فقدَّم هناك القلوبَ التي تَعقِلُ على الآذان التي تسمع، بينما في آية سورة الملك، فالكلام في إنذار النُّذر وإرسال الرُّسل ودَعْوَتِهم، وهذا يُناسب تَقَدُّم السَّمع الذي يُتَلَقّى به كلامُ النُّذر، ثُمَّ العقل الذي يُعقَل به ما يقولونه له، وفي آية الحجِّ؛ لَمّا كان السَّير في الأرض والنَّظر فيها؛ قدَّم تعقُّل القلبِ على سماع الأذن، وهُنا لَمّا كان الكلامُ على إنذار الرُّسل؛ قَدَّمَ سماع الأُذن على تعقُّل القلبِ، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

السَّماعُ رَسولُ الإيمانِ إلى القَلْبِ وداعيهِ ومُعْلِمُهُ

ومِن وجوه تقديم السَّمعِ على العقلِ أنَّ العقلَ بمَنزلةِ الكُلّيِّ، والسَّمعَ بمَنزلةِ الجُزئيِّ، فرَعْيًا للتَّرتيبِ الطَّبيعيِّ قُدِّم السَّمع على العقل؛ لأنَّ سمْعَ دَعوةِ النَّذيرِ هو أوَّلُ ما يَتلقّاهُ المُنذَرون، ثمَّ يُعمِلون عُقولَهم في تدبُّرِها، فالمدعوُّ إذا لَقيَ الرَّسولَ؛ فأوَّلُ المراتبِ أنَّه يَسمَعُ كلامَه، ثمَّ إنَّه يَتفكَّرُ فيه، فالسَّماعُ رَسولُ الإيمانِ إلى القَلْبِ وداعيهِ ومُعْلِمُهُ، فلمّا كان السَّمعُ مُقدَّمًا بهذا السَّببِ على التَّعقُّلِ والتَّفهُّمِ؛ لا جَرَمَ قُدِّمَ عليه في الذِّكْرِ(1).

دلالة التَّعبير بالكونِ مَرَّة أخرى في ﴿كُنَّا﴾:

الإيماءُ إلى خُلودِهم في النّار

في قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: ما كنّا مُلازمينَ لأصحابِ السَّعير، وما كان شأنُنا أن نكونَ مِن أهلِ النّار أبدًا لو سَمِعْنا، أو عَقَلْنا، فكان التَّعبيرُ بفِعْلِ الكَوْنِ مفيدًا خلودَهُم في عذابِ جهنَّم.

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/ 478، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

دلالة التَّعبير بحرفِ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾:

الإشارة إلى إحاطة النّار بهم من كُلِّ جانب

في التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ دلالةٌ على تَوسُّطِهم النّارَ، وأنَّهم يتقلَّبون فيها، ولا يخرجونَ عَن وسَطِها؛ لأنَّ ﴿فِيٓ﴾ تدلُّ على الظَّرفيَّة، وذلك مفيدٌ إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، فهو يُشير إلى إحاطة النّار بهم من كُلِّ جانبٍ.

سِرُّ التَّعبير بالصُّحبة في هذا المقامِ:

الدَّلالة على قوَّة الملُازمة وشدَّتها وطولِها

أصحاب: جمع صاحبٍ، والصّاحب هو الملازم للشَّيءِ، ولا يتركُ الشَّيءَ إلّا لعارضٍ، فيُقال: صاحب البيتِ، أي: لا يترك البيتَ إلّا ببيعِهِ أو بموتِهِ ونحو ذلك، فالصُّحبة تدلُّ على قوَّة المُلازمة وشدَّتها وطولها، وفي قول اللّه تعالى عن الكفّار: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إيماءٌ إلى طولِ ملازَمتِهم النّارَ على وجهِ الخلودِ الأبديِّ.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾:

تهويلُ صورَة عذابِ النّار

السَّعير في قول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو العذاب المُستَعِرُ، وأصلُهُ: اشتعال الشَّيءِ واتِّقادُهُ وارتفاعهُ، والسُّعار: حَرُّ النّار[1]، ومنه السُّعار، وهو الجنون والهَيَجان، وكلمة ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أن تكون على وجهِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، بحيث شُبِّهت النّارُ برَجُلٍ يصيبُهُ سُعارٌ وجنونٌ، أو بِحيوانٍ يصيبه سُعار وهيجان، ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو السُّعار، وفي هذا مِن تهويل صورةِ العذابِ ما فيه.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فصيحة، تُفصح عن جملةٍ مُقدَّرة، تقديرها: لمّا قالوا ذلك؛ ظهر، وتبيَّن أنَّهم قد أقرّوا هناك بذُنوبِهم، أي: فَهُم أهلٌ لِما نَزَلَ بِهِم مِنَ العذاب، واستَحَقّوه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سعر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

الإشارة إلى أنَّ جميعَهُم بَلَغوا الغايَةَ نَفْسَها في التَّكذيبِ

سِرُّ إفراد الذَّنب في هذا المقامِ:

لم يُجمَع لفظُ الذَّنب؛ لأنَّه في الأصلِ مَصْدَرٌ، ومن التَّناسب في سياق الآية: إفراد كلمة الذَّنبِ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ لِما فيه من الإشارة إلى أنَّ جميعهم بلغوا الغايةَ نفسَها في التَّكذيب، أو لأنَّ إفراده أدعى للتَّحذير؛ إذ يَشْمَلُ القليلَ والكثير، والجليلَ والحقيرَ من الذُّنوب على حدٍّ سواء[1].

السَّبَبيَّةِ التي أورثَتْهُم هلاكًا وبُعدًا — الدَّلالة على

دلالة الفاء في ﴿فَسُحۡقٗا﴾:

جاء السّياق مُناسبًا لورود فاء السَّببية، في قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جَديرونَ بأن يُدْعى عليهم بالإبعادِ والهلاك، فالفاءُ هُنا للتَّسبُّب، أيْ: بسبَبِ اعتِرافِهِم بذُنوبِهم واستِحقاقِهِم العذابَ؛ دُعي عليهم بالسَّحق[2].

زيادة وقع الإيلام النَّفسيِّ فوق ما هُم فيه مِنَ العذاب الحِسّيِّ

التَّعبير باسم المصدر (سُحقًا):

السَّحق: اسم مصدرٍ بمعنى البُعد، أي: أبْعَدَهُم اللّه تعالى إبعادًا مِن رَحمَتِه. ويَحتَمِلُ أن يكون المقصودُ بِهَذا الدُّعاء التَّعجيب من حالِهِم، كما يُقال: قاتلهُ اللّهُ تَعالى، وويلٌ له في مَقام التَّعجُّب. وقيل: هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ، أي: ألزمهم اللّهُ بُعدًا وهلاكًا، وقد جيء باسم المصدر (سُحقًا)؛ لزيادة وقع الإيلام النفسيِّ فوق ما هُم فيه من العذاب الحِسّيِّ[3].

الدَّلالة على التَّقوية والتَّبيين

دلالة اللّام الدّاخلة على (أصحاب):

اللّام الدّاخلة على كلمة (أصحاب)، في قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، هي لام التَّقوية؛ إذا اعتُبِر لفظُ (سُحقًا) دعاءً عليهم بالإبعاد؛ وذلك لأنَّ المصدرَ فرعٌ في العمل عن الفعل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 239، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 150.

فتُقَوّيه اللّامُ. ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللّام لامَ التَّبيين؛ لتأكيد ارتباطِ العامِل بمَعْمولِه، كما في قولِهم: شُكرًا لك، وبهذا يكون كُلٌّ من لفظ (سُحقًا)، واللّام المُتَّصلة به قد استُعمِل في مَعنَيَيه[1].

سِرُّ التَّعبير بأصحاب السَّعير دون التَّنصيص على فريقٍ بعَيْنِه:

تحقيقُ الإيجازِ والمُبالغةِ والتَّعليل

المرادُ بأصحاب السَّعير في قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: الشَّياطينُ، ومَن دخَلَ في عِدادِهِم بطريق التَّغليب، وهذا التَّغليبُ جاء لتحقيق الإيجازِ والمُبالغةِ والتَّعليل؛ إذ غُلِّبَ الشَّياطين على الكُفّار، مع أنَّ الظّاهر أن يُقال: فَسُحقًا لهُم، أي: للقائلين: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾، وفي هذا التَّغليبِ اختصارٌ، ودلالة على المُبالغةِ في إبعاد الفريق الأوَّل أيضًا؛ لأنَّ ذِكْرَ كُلِّ فريق على حِدة قد يوهم تفاوتًا في الإبعاد، فيكون إبعادُ الكُفّار دون إبعادِ الشَّياطين؛ لاعتبار الشَّياطين أصلًا والكُفّارِ مُلْحَقين بهم، في قوله: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فلَمّا جُمِعوا في الحكم؛ دَلَّ ذلك على أنَّ إبعاد الكُفّار لا يقلُّ عن إبعاد الشَّياطين، بل إنَّ تغليبَ أصحاب السَّعير - وهم الشَّياطين - على الكُفّار يجعل الكُفّار بمنزلتهم، بل كأنَّهم هُم أنفسُهُم، وفي ذلك غايةُ المُبالغة. وأمّا وجه التَّعليل؛ فمجيء الحُكم مُعلَّقًا على الوصف ومُترتِّبًا عليه، وذلك يوحي بأنَّ الإبعادَ سبَبُهُ كونُهُم من أصحاب السَّعير، أي: من أهل النّار المُستَعِرَة[2].

سِرُّ التَّذييل بجُملة ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يشمل المخاطَبين بالقرآن، فجاء هذا الدُّعاء في حكم التَّذييل؛ لِما فيه من شمول المعنى وعمومه؛ تبعًا لما سَبَقَ من الجُمل قبله[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28، 29.
(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 220، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 14.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29.

❁ الفُروقُ المعجميَّة:

السَّماع والاستماع:

الاستماع لما كانَ بِقصْدٍ، ولا يَكونُ إلّا بالإصْغاءِ، والسَّماع يَكونُ بِقَصْدٍ وبِدونِه

السَّماع - وكذا السَّمع -: مُطْلَقُ إدراك الحروفِ والأصوات، والاستماعُ: طَلَبُ السَّمع بالإصغاء بالأذُنِ، أي: تَقَصُّدُ السَّماع[1]، والسَّمع ثلاث درجاتٍ: إحساس بالصَّوت دون فَهْمٍ، كسماعِ الدَّوابِّ السّارحة؛ إذا دعاها راعيها إلى ما يُرشدها، فلا تسمع إلّا دُعاءَه ونداءه، ولا تَفهم ما يقول[2]، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]. وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]. وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم والاقتناعِ والإيمان والطّاعة، وهي أعلى درجات السَّمع التي تُمنَحُ للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، وقولِه تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الرّوم: 53].

والاستماع يكون على درجتينِ: إحداهما: استماعُ انتفاعٍ وانقيادٍ وطاعة، وهو استماعُ المؤمنين، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: 18]، والمقصود منه هُنا: فَهْمُ المَعْنى مع القبول والانتفاع. والآخَرُ: استماعٌ لا يَنْتُجُ عنهُ انتفاعٌ ولا قبول ولا انقيادٌ، وهو استماعُ الكافر والمُنافق، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]،

(1) أبو هلالٍ العَسْكريُّ، الفُروقُ اللُّغَويةُ، ص: 89، والفَيّوميُّ، المصباح المنير: (سمع)، والهَرَري، حدائقُ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 20/ 187.
(2) ابْنُ عَطيَّةَ، المحرر الوَجيزُ: 1/ 238، والثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسانُ: 1/ 355.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمد: 16]، فَهُم في هذه المنزلة كالبهائم في عدم الانتفاع، وإن كان الفَرْقُ بَينَهُما بأنَّ مُسمَّى الاستماعِ موجودٌ في الكفرةِ دونَ البَهائِمِ[1].

(1) البَيْضاويُّ، أنْوارُ التَّنْزيلِ: 3/ 114، وابْنُ التَّمْجيدِ، حاشيَة على تفسير البَيْضاويِّ: 9/ 472.

المحتويات

